خاتم النّبيّين، نبي الرحمة والحكمة.

دلائل نبوته، مِنَحه للإنسانية، دراسة الشبهات المثارة حول جهاده.

محـمد أحـمـد صـبرة

الطبعة الإلكترونية الأولى.

للتراسل مع المؤلف:

https://www.facebook.com/m.s.tartus

m.s.tartus@gmail.com

WattsApp ٠٠٩٦٣/٩٨٨٢٨٩٨٩٢

سبحانك اللهم وبحمدك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، سبحانك مبدئ النعم ودافع النقم ولعل من أعظم نعمك علينا أن أكرمتنا ببعثة خاتم النبيين، فكانت بعثته أصدق تعبير لما كتبته تحت عرشك (رحمتي سبقت غضبي) فحمداً لك على جزيل نعمائك. ثم أزكى الصلاة أتم التسليم على نبيك الأكرم، مصطفاك لإبلاغ الرسالة رسول الرحمة العالمية إمام الأولين والآخرين، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وخلاصة جهد النبوة ورحيقها ومجمعها، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا.

محمد بن عبد الله، هذا الرجل العظيم الذي اختارته العناية الإلهية واصطنعته ليكون عنوان مجمع الكمال البشري والمثل الأعلى لها، ومحط عناية السماء، رجل استطاع خلال ثلاثة وعشرين عاماً أن يغير مجرى التاريخ البشري إلى يوم القيامة، فلو تصفحنا سير العظماء على مر التاريخ لوجدنا أن محمداً هذا النبي الأمي هو أرفعهم ذكراً وأبقاهم أثراً وأكثرهم خدمة للإنسانية بل لم يعهد مثله عبر التاريخ البشري بأجمعه رجل استطاع أن ينهض بأمة بائسة هالكة مطموسة عبر التاريخ قاسية بل همجية في بعض تصرفاتها ، أمة وصلت القسوة في بعض أفرادها لدرجة يقتل فيها الإنسان ولده وفلذة كبده مخافة أن يطعم معه ، ويجعل منها أمة رحيمة حضارية لم تعرف البشرية شبيهة لها من حيث سمو الأخلاق ودقة القوانين، ونشر العدل والسماحة والخير، وارتقاء بالعلم، وتعزيز للحقوق، وذلك باعتراف العدو والصديق ، والحق أبلج لا يسهل إخفاؤه أو طمسه .

لم يعرف في تاريخ البشرية كله عمل أدق وأعقد، ومسؤولية أعظم وأضخم، من مسؤولية محمد صلى الله عليه وسلم كنبي مرسل، كما أنه لم يعرف غرس أثمر مثل غرسه، وسعي تكلل بالنجاح مثل سعيه، إنها أعجوبة العجائب، ومعجزة المعجزات.

يقول الأديب والشاعر الفرنسي **Lamartine** في قوة ووضوح وصراحة : «إن إنسانا لم ينهض أبدا متطوعا أو غير متطوع لمثل هذا الهدف الأسمى، لأن هذا الهدف كان فوق طاقة البشر، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والأحلام، التي حالت بين الإنسان وخالقه، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربه، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية العقلية المعقولة الساطعة، في ضباب هذه الوثنية السائدة والآلهة المادية، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى، إنه لم يحمل إنسان مثل هذه المسؤولية الضخمة، والمهمة العظيمة الجليلة، التي تخرج عن طوق البشر، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة» .... إلى أن قال: «وأروع من ذلك أنه هز تلك الأصنام والآلهة، والأديان، والتصورات، والعقائد والنفوس الإنسانية هزة عنيفة، إنه بنى على أساس ذلك الكتاب الذي يعتبر كل كلمة منه مصدر التشريع، قومية ربانية، ألفت بين أفراد كل جيل، وسلالة، ولغة.... إن الميزة الخالدة لهذه الأمة، التي كونها لنا محمد صلى الله عليه وسلم أنها شديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة، شديدة الحب لله الواحد الذي يتنزه عن المادة وشوائبها، وهذا هو الحب الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كل إهانة توجه إلى الذات الإلهية، وهذا الحب يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمة...لقد كان إخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من مأثرته بلا ريب، لكن الأصح أنه كان معجزة العقل لا معجزة فرد واحد، إن الإعلان بعقيدة التوحيد في زمن كانت تئن فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها، كان معجزة مستقلة بذاتها، وما لبث محمد أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبادها فلا داعي فيها ولا مجيب، وتكهرب ثلث العالم بحرارة الإيمان»[1].

وبالرغم من عظمة الخدمة الإنسانية الجليلة التي قدمها النبي محمدﷺ للبشرية على وجه العموم، وبالرغم من تلك الأيادي البيضاء التي نثرها محمدﷺ في ربوع الإنسانية قديماً وحديثاً إلا أنه لم يسلم من سهام النقد والطعن على مرأى

(١) -لا مارتين Lamartine (في كتابه) Historire de la Turquie (ج ٢/ ص: ٢٧٦-٢٧٧).

مليار إنسان من أمته، ولم يعلم هؤلاء الطاعنين في شخص محمدﷺ وفكره وجهوده المباركة أنهم بذلك لا يؤذون امة المليار فقط، بل بمطاعنهم هذه قد أساءوا للإنسانية كلها، وذلك بتشويه أجمل صورة فيها.

إنّ المنصّرين إذا ما ولّوا أمرهم إلى الطعن في الإسلام، فإنهم يصنعون من الخاطر العابر أسطورة شائكة، ومن الأثر الساقط رواية متواترة، ومن الظنّ المرجوح حقيقة قاطعة، والذي يعجب له الناظر في مصنّفات الدفاعيين النصارى يرى أنّ هؤلاء الكتّاب إذا كانوا بصدد الردّ على الطعون في أسفارهم وعقائدهم؛ يعمدون إلى أبعد الفروض وأغرب الاحتمالات لدفع التناقض وردّ الزلل عن مقدساتهم، لكنهم إذا ما أنشبوا أقلامهم في صحائف القرآن الكريم وسيرة النبي الكريم، تبدّل الحال وتهيّجت النفوس؛ فينكر القوم على المسلمين أوضح البراهين، وأصحّ الأسانيد، وأنقى المتون، متشبثين بأوهى اعتراض، وأوهن شبهة، وأرق احتمال[١].

ولعل أعظم نتيجة خرجت بها من هذا البحث هو أنني كنت أجهل عظمة هذا الرسول حيث كنت أتناول تفاصيل سيرته وهديه بطريقة جزئية دون إدراك تلك الروح الرحيمة والحكيمة التي كانت تسري في كل خطوة ولحظة من لحظات الحبيب ، حقاً محمد ﷺ هو الرحمة العالمية ، وأسمى مظهر من مظاهر الرحمة الربانية التي عرفتها البشرية ، صحيح أن محمداً ﷺ بشر لكنه ليس كالبشر ، كما أن اللؤلؤ حجر ولكنه ليس كأي حجر ، وشتان بين اللؤلؤ والحجر ، فالذي فاق البشر جميعاً وهو منهم هو محمدﷺ، حتى أضحى في كماله كأنه خلقاً جديداً كما أن المسك الطاهر ذي الرائحة الشديّة قد تولد من الدم ذي الرائحة الكريهة ، فالنبي محمد فاق البشرية جميعاً بأخلاقه وصفاته في رحمته وسماحته في عطائه وجوده في مقدار الخدمة الإنسانية التي قدمها للبشرية وفي زهده وحكمته وعبقريته في بلاغته وفصاحته .. إنه كما قال لامارتين: أي بشر مثل محمد، إن محمداﷺ فاق البشرية ونال نقاء اللؤلؤ وصفائه ومظهره وكمال خصائصه وغلو معدنه بين سائر الأحجار[٢].

أما عملي في هذا الكتاب فقد تم تنظيمه في بحث تمهيدي وأبواب ثلاثة وتم تقسيم الأبواب على فصول والفصول في أبحاث، فأما البحث التمهيدي فتمحور حول أهم الميزات التي اتصفت بها سيرة حياة خاتم النبيّين، فهي أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل، وتمتاز بالوضوح في جميع المراحل، وبالمثاليّة في كل ما يتصل بها، وبالشمول والتكامل، وهي الدليل العملي على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أهم ما تمتاز به هذه السيرة أنها رحمة عامّة، وحكمة كاملة.

وأما الباب الأول: فقد تناول الخطوط العريضة في حياة خاتم النبيين وأثر النبي على الإنسانية وما قدّمه لها، في ثلاثة فصول وهي: خاتم النبيين في مكة في ثمانية أبحاث، والثاني: خاتم النبيين في المدينة المنورة في خمسة أبحاث، والثالث حول منح البعثة المحمديّة للإنسانية، وأثرها في تاريخ الإنسان منها: عقيدة التوحيد النقية الواضحة، ونجاح حركة التنوير، ومبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، فقد كان خاتم النبيين خادم الإنسانية الأمين، وإعلان كرامة الإنسان وسموّه، وإعلان التسامح الديني! وإعلان التسامح الديني وسط عالم لا يقبل بالآخر! ومحاربة اليأس وسوء الظن بالفطرة، وبعث الأمل والرجاء في نفس الإنسان، والجمع بين الدين والدنيا وإعلاء مفهوم النّية! والمساهمة في تحضّر العالم بدأ بنقل العرب من القبيلة إلى الدولة والأمة! ورعاية العلم والمعرفة والإعلاء من الخطاب التربوي العقلاني.... الخلاصة: ولادة عالم جديد وإنسان جديد

---

(١) –راجع د. سامي عامري، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ وتحته عنوان جانبي نقض شبهة المنصرين والمستشرقين، وإثبات إعجاز القرآن الكريم في ضوء حقائق التاريخ والعلم. ص ٤٠-٨٧.

(٢) —عن مقدمة كتاب نبي الرحمة، د. محمد أحمد المبيض.

أما الباب الثاني: فهو خاص بدراسة الصراعات العسكرية، ومناقشة الشبهات. وفيه فصلان، تم تخصيص الفصل الأول للحديث حول خلاصة المواجهات الحربية النبوية، والحديث عن الوصايا النبوية المتعلقة بأخلاقيات الشروع في الحرب، والإجابة على سؤال: هل اتسمت حروب النبي محمد ﷺبالدموية؟ وعن أخلاقيات الانتصار وأهمها حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام، ومبدأ الإجارة وتأمين المحاربين، وتغليب جانب الإحسان مع الأمم المغلوبة وانتهينا بمقارنة هامة بين مثالية حروب جيش خاتم النبيين، والقانون الدولي المعاصر.

أما الفصل الثاني من الباب الثاني فتم تخصيصه للإجابة حول أهم الشبهات المثارة على حروب خاتم النبيين وهي عشر شبهات ظالمة منها: شبهة التجاوز في التعامل مع بني قريظة، وشبهة الاغتيالات السياسية، وهل غيّر النبيّ من معاملته لأهل الكتاب وتنكّر لهم لما رأى من نفسه القوة، وهل اختلق النبي أسبابا واهية لطرد اليهود والاستيلاء على أراضيهم، وهل كان النبي ينتهز الفرص لنقض العهود كما حدث في فتح مكة، وحول الزعم أن سياسة النبي اتسمت بطابع الانتقام والحقد بعد انتصار بدر، وقالوا إن سياسة النبيﷺ مبنيّة على العدوانية فقد قاتل مملكة غسان وسلبها وضمها لدولته، وقالوا وظّف الغنائم بمهارة لتطويع أصحابه لعلمه بأهميّتها لهم، وهل صحيح أنه كان ينتقم لنفسه بقسوة مستشهدين بحادثة العرنيين، وزعم أن النبي كان مؤذيا لمن حوله مولعا بسفك الدماء!!.

أما الباب الثالث: فتم توزيعه على سبعة فصول تتحدث عن دلائل نبوة خاتم النبيين فتم تخصيص الفصل الأول للفرق بين الأنبياء ومدعيّ النّبوة، وحول أنواع الأدلة التي تشهد لخاتم النبيين، وحول الأعمال والوصايا التي حثّ عليها محمدا أصحابه، وبعض الأسس منطقية للتفريق بين الرسل الصادقين والكاذبين وتتلخص؟ ثم حديث طويل حول بعض الأدلة المنطقية والعقلية في محاكمة نبوّة خاتم النّبيّين، وننهي الفصل ببحث فيه فرصة ذهبية للعبقري الذي لا تؤمن بنبوّة محمدﷺ؟!

أما القسم الثاني من الدلائل في الفصل الثاني: فهي دلالة القرآن على نبوّة محمّد الأميّ خاتم النبيّين، وفيه تحدي القرآن على مدى القرون، وتأثيره، والعلامات الإلهية فيه، اعتراف العرب الفصحاء ببلاغة القرآن وفصاحته وتأثيره النفسي والروحي، تحديه الفصحاء الذين لم يؤمنوا بأنه من الله أن يأتوا بمثله، وأن علاقته بالكتب السابقة علاقة الهيمنة والتصحيح والحكم بينهم لا النقل، وتصحيح القرآن الكريم للأخطاء التاريخيّة للكتاب المقدس، والسبق التاريخي للقرآن الكريم على الكتب السابقة، وأخير دلالة القرآن الذاتية أنه من عند الله.

أما القسم الثالث من الدلائل في الفصل الثالث: فهي إخبارهﷺ بالغيوب وبالآتي لأمته وذلك بشكل دائم تقريبا! كأخبار النبيّ بالنهايات وهو في البدايات، وإخباره بغيوب تحققت في حياته قالها لأصحابه وقومه فلو فشلت لفشل هو! وإخباره بالغيوب المستقبلة التي تحققت بعد وفاته زمن أصحابه وبعدهم، وإخباره بكيفية ومكان وفاة بعض معاصريه، وإخباره بأخبار الفتن التي ستقع بأمته من بعده وإخباره بفتوح أمته للبلدان، وإخباره بأخبار آخر الزمان وعلامات الساعة.

أما القسم الرابع من الدلائل في الفصل الرابع: يدور حول وأخلاقه الفاضلة وآدابه وسجاياه وفطرته الحميدة، فأخلاق النبي وأحواله الشخصية الدالة على كماله ونبوته إذ لم تجتمع فيه هذه الصفات وتلك الكمالات إلا من تأديب الله له، سنرى أثر أخلاقه وتفردها في الدلالة على صدق نبوته، ثم لنأخذ خلق الصدق من أخلاقه الذي عرف به، ولنأخذ خلق ترفّعه على فرص التعالي وترك استغلالها، وكذلك انتفاء الغرض الشخصي، ثم أهم أخلاقه الأخرى مثل حلم النبي وزهده وبساطته وتواضعه وتعبده لربه.

أما القسم الخامس من الدلائل في الفصل الخامس: وهو حول الدلائل المعنوية، كاستجابة الله دعاءه، وعصمتِه له من القتل، وانتشارِ رسالته عليه الصلاة والسلام، فهذا النوع من الدلائل يدل على تأييد الله له ومعيتِه لشخصه ثم لدعوته ودينه، ولا يؤيد الله دعياً يفتري عليه الكذب بمثل هذا.

أما القسم السادس من الأدلة في الفصل السادس: من الأدلة فهي التي تتعلق بنبوءات الكتب السابقة حول النبي المنتصر تبدأ بالسؤال: هل ادعى المسيح عيسى عليه السلام أنه المسيح المنتظر؟ ثم تساؤل: هل قال محمد صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه النبي المنتظر؟ ثم أهم البشارات، بشارة يعقوب بقدوم شيلون، وبشارة موسى عليه السلام يبشر بظهور نبي ورسول مثله، ونبوءة موسى وحبقوق عن البركة الموعودة في أرض فاران، والبشارة بالملكوت، والبشارة بإيلياء، والبشارة بـ (محماد) مشتهى الأمم، والنبي "إشعياء" يتحدث عن هجرة محمد ومكانها، وأنّه النبي الأميّ الذي لا يعرف القراءة، وراكب الجمل في سفر أشعيا، ثم المسيح الذي بشّر بالفارقليط وهو اسم ترجم بصفة "المعزّي"، ثم مكة (بكّة) القبلة الجديدة وبيت الله الجديد. !! ثم حول خاتم النّبيين في كتب الهندوس والمجوس.

أما القسم السابع من أدلة نبوته: فهي المعجزات الحسية المنقولة بالتواتر وهي أدلة أهل الكتاب فقط على نبوة أنبيائهم، فندرس توثيق المعجزات في القرآن الكريم وفي دواوين السنّة النبوية، ومن دلائل النبوة الخارقة للعادة انشقاق القمر، وحادثة الإسراء والمعراج، الخوارق الكثيرة والتي تكررت عشرات المرات في ازدياد الطعام الذي لا يكفي عدة أشخاص فيطعم الجيش كله، وكذلك معجزات الرسولﷺ في تكثير الماء القليل وهي من المعجزات التي تكررت عشرات المرات، ومعجزات شفاء المرضى وخوارقها، ومعجزات شهادة الشجر برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزات خارقة في شهادة الحيوان وانقياده، ثم معجزات خارقة متفرقة.

في الختام أتوجه بالشكر لله تعالى أن منّ عليّ بإخراج هذا الكتاب الذي تناول سيرة خاتم النبيين نبي الرحمة والحكمة من ناحية دراسة المعارك التي فرضت عليه، وتبيين الوجه الواقعي الموضوعي لسير الحياة العسكرية الجهادية له مقارنة بالقوانين الدولية المعاصرة وتألقها على هذه القوانين، وإبهارها في نزع نوازع الانتقام والتشفي من العدو، وأن غايتها الأساسية هي الهداية من ضلال الوثنية إلى نور التوحيد، ومن جهل الوثنية والشرك لنور القراءة والعلم والمعرفة، وكيف أنه نجح أعلى نجاح وأتمه في أقل الخسائر في مهمته،

ولا أنسى أن أشكر السادة محمد مسعود ياقوت صاحب كتاب نبي الرحمة، و د. حكمت ياسين صاحب كتاب محمد نبي الرحمة والحكمة بين عيون المعتدلين وفتون المعتدين، ود. محمد أحمد المبيض صاحب كتابَي نبي الرحمة، وأخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، وأصحاب موسوعة بيان الإسلام للرد على الافتراءات والشبهات، وكتب الدكتور منقذ السقار، فقد نقلت عنهم أدق وأهم ما كتبوه في هذا الشأن، وكذلك السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة د. محمد أبو شهبة، وخاتم النبيين محمد أبو زهرة، والجامع الصحيح للسيرة النبوية د. سعد المرصفي، الموسوعة في صحيح السيرة النبوية د. محمد عبد الرحمن الفالوذة، وكتاب دراسة في السيرة د. عماد الدين خليل، والسيرة النبوية الصحيحة ل د. أكرم العمري، ولا ننسى أن الاعتماد الرئيسي في السيرة على كتب التراث كسيرة ابن هشام وابن كثير طبقات ابن سعد وزاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم.

وأسأل الله تعالى القبول والرضا والتوفيق، وأن أكون وفقت في عرضي لحياة خاتم النبيين، وفي عرضي لدلائل نبوّته المتنوّعة وكيف أنها أظهر من الشمس في رابعة النهار لا ينكرها إلا مكابر، وأن إنكار نبوته هو إنكار للنبوات جميعها، فما أتوا به من دلائل نبوتهم لهو أجزاء من دلائل نبوّته أن له مثلها أمثالها. وأصلّي وأسلّم على النبيّ المجتبى والحبيب المصطفى وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيراً إلى يوم الدين.

الفهرس التفصيلي للكتاب

البحث التمهيدي: أهم الميزات التي اتصفت بها سيرة حياة خاتم النبيّين:

أولا: أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل.....ص:١٢
ثانيا: الوضوح في جميع المراحل.....ص:١٥
ثالثا: المثاليّة في كل ما يتصل بها.....ص:١٦
رابعا: الشمول والتكامل.....ص:١٦
خامسا: الدليل العملي على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.....ص:١٨
سادسا: الرحمة العامّة ص:١٩
سابعا: الحكمة الكاملة. ص:٢٢

الباب الأول: خطوط عريضة في حياة خاتم النبيين. وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: خاتم النّبيين في مكة المكرمة.

تمهيد.....ص:٢٧
١-الميلاد والطفولة والنشأة.....ص:٢٨
٢-زواجه، ومناقشة شبهة الشهوانية التي حاول البعض إلصاقها به. ص:٣٢
٣-حول أخلاق وصفات خاتم النبيين عند المؤرخين، وكما رواها من عاصره.....ص:٣٦
٤-صورة عن حالة العالم عشيّة البعثة الخاتمة.....ص:٤١
٥-البعثة والوحي.....ص:٤٥
٦-المساومات، والمفاوضات، والحرب الإعلامية على الدعوة.....ص:٤٩
٧-الفرار بالدين، والحصار الاقتصادي، ورحلة الطائف.....ص:٥٤
٨-جهود النبيﷺ لإيجاد موطن جديد لرسالته.....ص:٦٠

الفصل الثاني: خاتم النبيين في المدينة المنوّرة.

البحث الأول: نبي الرحمة والحكمة يؤسس دولته الجديدة.....ص:٦٨
الخطوة الأولى: بناء المسجد.
الخطوة الثانية: حل مشاكل المهاجرين الاقتصادية والنفسية والاجتماعية.
الخطوة الثالثة: الإصلاح بين الأوس والخزرج.
الخطوة الرابعة: تنظيم العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة.
وقفات هامة مع دستور الدولة المحمدية.
الخطوة الخامسة: معالجة الخطر الداخلي في الصف المسلم.
الخطوة السادسة: بسط هيبة الدولة الناشئة في آتون المجتمع الوثني.
البحث الثاني: الدعوة والحوار أولاً، مسوغات المواجهة العسكرية ومبرراتها.....ص:٧٦
١-الحوار والدعوة لا الصدام الأصل في علاقات النبي بمن جاوره.

٢-الإسلام يرفض المركزية الحضارية.
٣-نماذج عملية دعوية من سيرة النبيﷺ.
٤-تجلّت حكمة النبي ورحمته في حالة السلم بالأمور التالية.
٥-جهاد النبي محمدﷺ مقارنة مع جهاد الأنبياء السابقين.
٦-إذا لماذا القتال؟، وما هي مسوّغاته ومبرراته ودوافعه.
٧-كيف يتقاطع جهاد النبيﷺ مع مبدأ الرحمة.
البحث الثالث: صورة إجمالية عن المواجهات النبوّية للمشركين ولأهل الكتاب.....**ص:٩٢**
١-أعلنت مكة حرباً شعواء على النبي ﷺمع بداية دعوته.
٢-دواعي القتال مع أهل الكتاب.
٣-حروب النبيﷺ ضد الغساسنة وأسيادهم الروم.
البحث الرابع: محمد صاحب ثقافة السلام، وفرية السيف بأقلام المؤرخين الغربيين.....**ص:١٠٠**
١-نماذج للمعاهدات مع القبائل المجاورة للمدينة.
٢-فرية العنف ونشر الإسلام بالسيف بأقلام المؤرخين الغربيين.
٣-حول فرية القتل الجماعي ليهود بني قريظة.
البحث الخامس: انتشار الدعوة وكمال الدين ... ونذر النهاية والرحيل! **ص:١٠٨**
١-فتح مكة وتمة انتشار الإسلام بالسيف.
٢-وقفات بين يدي حُنين.
٣-وقفة هامة بين يدي غزوة تبوك.
٤-من مقارعة الحروب إلى استقبال الوفود.
٥-انتهاء مهمة نبي الرحمة وأفول شمس النبوة .... وأظلمت المدينة.
البحث السادس: إحصائية شاملة عمّا جرى في حروب النبيﷺ من أحداث ص:١٢٢

الفصل الثالث: منح البعثة المحمديّة للإنسانية، وأثرها في تاريخ الإنسان

البحث الأول: مِنَح خاتم النّبيين للإنسانية في مجال التنوير والحضارة والعلم والإنسانية
١. عقيدة التوحيد النقية الواضحة، ونجاح حركة التنوير.....ص:١٣١
٢. مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، كان خاتم النبيين خادم الإنسانية الأمين.....ص:١٣٥
٣. إعلان كرامة الإنسان وسموّه، وإعلان التسامح الديني!.....ص:١٣٨
٤. إعلان التسامح الديني وسط عالم لا يقبل بالآخر!.....ص:١٣٩
٥. محاربة اليأس وسوء الظن بالفطرة، وبعث الأمل والرجاء في نفس الإنسان.....ص:١٤٣
٦. الجمع بين الدين والدنيا وإعلاء مفهوم النّية!.....ص:١٤٥
٧. المساهمة في تحضّر العالم بدأ بنقل العرب من القبيلة إلى الدولة والأمة!.....ص:١٤٧
٨. رعاية العلم والمعرفة والإعلاء من الخطاب التربوي العقلاني.....ص:١٥٠
٩. الخلاصة: ولادة عالم جديد وإنسان جديد.....ص:١٥٧

ثانيا: نماذج عن أسلوب معالجته لأهم المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

أولا: المشكلات السياسية

١-مشكلة التفرقة العنصرية والدينية والإقليمية.....ص:١٥٩

٢-الشورى نظام الفصل بين السلطات.....ص:١٦١

٣-مشكلة الحرية.....ص:١٦٩

٤-مشكلة الاعتداء فيما بين الدول.....ص:١٧٤

٥-مشكلة التخوف والتحسس من الآخر.....ص:١٧٥

ثانيا: المشكلات الاجتماعية

١-مشكلة الجهل.....ص:١٧٧

٢-مشكلة حقوق المرأة.....ص:١٧٨

٣-مشكلة العقوبات.....ص:١٨٤

٤-مشكلة الرقّ.....ص:١٨٧

ثالثا: المشكلات الاقتصادية

١-مشكلة الربا.....ص:١٩٣

٢-مشكلة الفقر.....ص:١٩٣

٣-مشكلة البطالة.....ص:١٩٤

الباب الثاني: دراسة في الصراعات العسكرية، مناقشة الشبهات. وفيه فصلان

الفصل الأول: رحمته وحكمته في ميدان الصراعات السياسية والعسكرية

البحث الأول: هل اتسمت حروب النبي محمد ﷺبالدموية؟ خلاصة المواجهات الحربية النبوية.

لغة الأرقام لا تكذب، النتائج الحقيقة لهذه الحروب.....ص:١٩٧

البحث الثاني: نبي المرحمة ونبي الملحمة.....ص:١٩٩

أولا: تغير منهج العقوبة مع إرسال خاتم النبيين.

ثانيا: جهاد النبي محمدﷺ مقارنة مع الأنبياء السابقين.

ثالثا: جهاد النبي ﷺومبدأ الرحمة.

رابعا: أهداف الحرب غاياتها في سيرة النبي وحياته، ومعنى الجهاد.

البحث الثالث: الوصايا النبوية المتعلقة بأخلاقيات الشروع في الحرب.

- حماية حقوق المدنيين.....ص:٢٠٨
- تجنيب النساء والأطفال والشيوخ والعمال ويلات الحرب.....ص:٢٠٩
- حماية رجال الدين من أصحاب الملل الأخرى.....ص:٢١١
- حماية الممتلكات العامة والخاصة.....ص:٢١٢
- حماية الأبنية وأماكن عبادة الملل الأخرى.....ص:٢١٢
- تحريم التمثيل بالإعداء أحياء وأمواتا.....ص:٢١٥

- تحريم الخيانة والغدر في المعارك والوفاء واحترام العهود.....ص:٢١٦
- حظر العقوبات الجماعية.....ص:٢١٩
- تغليب حالة السلم على حالة الحرب. أمثلة تطبيقية! ص:٢٢٠

البحث الرابع: أخلاقيات الانتصار.

١. حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام.....ص:٢٢٨
٢. معاملة الأسرى.....ص:٢٣٥
٣. دفن قتلى العدو.....ص:٢٣٩
٤. مبدأ الإجارة وتأمين المحاربين.....ص:٢٤٠
٥. تغليب جانب الإحسان مع الأمم المغلوبة.....ص:٢٤٢

البحث الخامس: بين مثالية حروب جيش خاتم النبيين، والقانون الدولي المعاصر.

أولا: حول مبادئ سير العمليات الحربية بين الإسلام والقانون الدولي الإسلامي.....ص:٢٤٥

ثانيا: حروب النبي محمدﷺ عادلة أم مثالية مقارنة بالقانون الدولي المعاصر. ص:٢٥٠

الفصل الثاني: مناقشة الشبهات المثارة على خاتم النبيين في تثبيت رسالته

البحث الأول: رد شبهة التجاوز في التعامل مع بني قريظة.....ص:٢٥٦

البحث الثاني: شبهة الاغتيالات السياسية.....ص:٢٦١

البحث الثالث: غيّر النبيّ من معاملته لأهل الكتاب وتنكّر لهم لما رأى من نفسه القوة.....ص:٢٦٩

البحث الرابع: اختلق النبي أسبابا واهية لطرد اليهود والاستيلاء على أراضيهم.....ص:٢٧٨

البحث الخامس: كان النبي ينتهز الفرص لنقض العهود كما حدث في فتح مكة.....ص:٢٨٨

البحث السادس: الزعم أن سياسة النبي اتسمت بطابع الانتقام والحقد بعد انتصار بدر.....ص:٢٩٣

البحث السابع: قالوا إن سياسة النبي مبنية على العدوانية فقد قاتل مملكة غسان وسلبها وضمها لدولته.....ص:٢٩٨

البحث الثامن: وظّف الغنائم بمهارة لتطويع أصحابه لعلمه بأهميّتها لهم.....ص:٣٠٢

البحث التاسع: كان ينتقم لنفسه بقسوة مستشهدين بحادثة العرنيين.....ص:٣٠٥

البحث العاشر: زعم أن النبي كان مؤذيا لمن حوله مولعا بسفك الدماء!!.....ص:٣٠٨

الباب الثالث: دلائل النبوة، وفيه سبعة فصول.

الفصل الأول: الأدلّة المنطقية والعقلية على نبوّة خاتم النبيين.

البحث الأول: الفرق بين الأنبياء ومدعي النّبوة، أنواع الأدلة التي تشهد لخاتم النبيين.....ص: ٣١٤

تمهيد: حول الأعمال والوصايا التي حث عليها محمد.

١-الأنبياء الكذبة، "من ثمارهم تعرفونهم".

٢-أسس منطقية للتفريق بين الرسل الصادقين والكاذبين وتتلخص؟

٣-أنواع الأدلة التي تشهد لصدق لخاتم النبيين.

البحث الثاني: الأدلة المنطقية والعقلية في محاكمة نبوّة خاتم النّبيّين.....ص:٣٢٦

البحث الثالث: الفرصة الذهبية لك يا من لا تؤمن بنبوّة محمدﷺ؟!.....ص:٣٦٥

وإليك صفقة ثانية لكنها ثقيلة!!.

الفصل الثاني: دلالة القرآن على نبوّة محمّد الأميّ خاتم النبيّين

تمهيد.....**ص:٣٧٣**

البحث الأول: تحدي القرآن على مدى القرون، وتأثيره، والعلامات الإلهية فيه.....**ص:٣٧٥**

وجوه فصاحة القرآن وبلاغته.

اعتراف العرب الفصحاء ببلاغة القرآن وفصاحته وتأثيره النفسي والروحي.

تحديه الفصحاء الذين لم يؤمنوا بأنه من الله أن يأتوا بمثله.

علامات إلهية في القرآن، ٨ نقاط أساسية.

البحث الثاني: علاقته بالكتب السابقة علاقة الهيمنة والتصحيح والحكم بينهم لا النقل.....**ص:٣٩٢**

١-القرآن والكتاب المقدس.

٢-تصحيح القرآن الكريم للأخطاء التاريخيّة للكتاب المقدس. ١٠ نقاط.

٣-السبق التاريخي للقرآن الكريم على الكتب السابقة. ٤ نقاط.

٤-القرآن الكريم يصحح الأخطاء العلميّة للكتاب المقدس. ٩ نقاط.

البحث الثالث: دلالة القرآن الذاتية أنه من عند الله.....**ص:٤١٩**

الفصل الثالث: إخباره ﷺ بالغيوب وبالآتي لأمته وذلك بشكل دائم تقريبا!

البحث الأول: أخبار النبيّ بالنهايات وهو في البدايات.....ص:٤٣٤

البحث الثاني: غيوب تحققت في حياته قالها لأصحابه وقومه فلو فشلت لفشل هو!.....ص:٤٣٧

البحث الثالث: إخباره ﷺ بالغيوب المستقبلة التي تحققت بعد وفاته زمن أصحابه وبعدهم.....ص:٤٣٩

البحث الرابع: إخباره ﷺ بكيفية ومكان وفاة بعض معاصريه.....ص:٤٤١

البحث الخامس: إخباره ﷺ بأخبار الفتن التي ستقع بأمته من بعده !؟.....ص:٤٤٤

البحث السادس: إخباره ﷺ بفتوح أمته للبلدان.....ص:٤٤٦

البحث السابع: إخباره ﷺ بأخبار آخر الزمان وعلامات الساعة.....ص:٤٤٩

الدليل الرابع: وهو حول الدلائل المعنوية

تمهيد.....ص:٤٥٢

البحث الأول: حمايته من كل ما يكاد به، ونجاته من كل محاولات الاغتيال.....ص:٤٥٢

البحث الثاني: استجابة الله عز وجل لدعائه صلى الله عليه وسلم بشكل دائم.....ص:٤٥٨

البحث الثالث: جوابه الحاضر على أسئلة المشككين.....ص:٤٦١

البحث الرابع: تأييد الله له في كل معاركه مع عدم التكافؤ بينه وبين عدوه لا في العَدد ولا في العُدد.....ص:٤٦٢

الفصل الخامس: محمد خاتم النبيين المظفّر في كتب السابقين

تمهيد.....ص:٤٦٧

المسيح المخلّص المنتظر.....ص:٤٧٠

هل ادعى المسيح عيسى عليه السلام أنه المسيح المنتظر؟.....ص:٤٧١
هل قال محمد صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه النبي المنتظر؟.....ص:٤٧٤
أهم اكتشاف حديث!.....ص:٤٧٦
أولا: بشارة يعقوب بقدوم شيلون.....ص:٤٧٧
ثانيا: موسى عليه السلام يبشر بظهور نبي ورسول مثله.....ص:٤٧٨
ثالثا: نبوءة موسى وحبقوق عن البركة الموعودة في أرض فاران.....ص:٤٨١
رابعا: البشارة بالملكوت.....ص:٤٨٢
خامسا: البشارة بإيلياء.....ص:٤٨٥
سادسا: البشارة بـ (محماد) مشتهى الأمم.....ص:٤٨٨
سابعا: النبي "إشعياء" يتحدث عن هجرة محمد ومكانها. ص:٤٩٠
ثامنا: إنّه النبي الأميّ الذي لا يعرف القراءة، وراكب الجمل في سفر أشعيا.....ص:٤٩١
تاسعا: المسيح يبشّر بالفارقليط وهو اسم ترجم بصفة "المعزّي".....ص:٤٩٤
عاشراً: مكة (بكّة) القبلة الجديدة وبيت الله الجديد. !!.....ص:٥٠٢
خلاصة ما سبق.....ص:٥١١
خاتم النّبيين في كتب الهندوس والمجوس.....ص:٥١٢

الفصل السادس: يدور حول وأخلاقه الفاضلة وآدابه وسجاياه وفطرته الحميدة

البحث الأول: أثر أخلاقه وتفردها في الدلالة على صدق نبوته.....ص:٥١٥
البحث الثاني: لنأخذ خلق الصدق من أخلاقه الذي عرف به.....ص:٥١٧
البحث الثالث: ترفّعه على فرص التعالي وترك استغلالها.....ص:٥١٩
البحث الرابع: انتفاء الغرض الشخصي.....ص:٥٢٠
البحث الخامس حلم النبي وزهده وبساطته وتواضعه وتعبده.....ص:٥٢٢

الفصل السابع: المعجزات الحسية المنقولة

البحث الأول: توثيق المعجزات في القرآن الكريم وفي دواوين السنّة النبوية.....ص:٥٢٨
البحث الثاني: من دلائل النبوة الخارقة للعادة انشقاق القمر.....ص:٥٣٢
البحث الثالث: حادثة الإسراء والمعراج.....ص:٥٣٦
البحث الرابع: خوارق ازدياد الطعام الذي لا يكفي عدة أشخاص فيطعم الجيش كله.....ص:٥٣٧
البحث الخامس: معجزات الرسولﷺ في تكثير الماء القليل.....ص:٥٤١
البحث السادس: معجزات شفاء المرضى وخوارقها.....ص:٥٤٣
البحث السابع: شهادة الشجر برسالة النبي صلى الله عليه وسلم.....ص:٥٤٤
البحث الثامن: معجزات خارقة في شهادة الحيوان وانقياده.....ص:٤٤٥
البحث التاسع: معجزات خارقة متفرقة.....ص:٥٤٧
خاتمة الكتاب.....ص: ٥٥٠

البحث التمهيدي: أهم الميزات التي اتصفت بها سيرة حياة خاتم النبيّين [١]

أولا: أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل:

وصلت إلينا سيرة خاتم النّبيين عن أصح الطرق العلمية وأكثرها ثبوتا، مما لا يترك مجالا للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى، ومما ييسّر لنا معرفة ما أضيف إليها في العصور المتأخرة من أحداث أو معجزات أو وقائع أوحى بها العقل الجاهل الراغب في إضفاء الصفة المدهشة على رسول الله أكثر مما أراد الله لرسوله أن يكون عليه من جلالة المقام وقدسية الرسالة، وعظمة السيرة.

إن الميزة من صحة السيرة صحة لا يتطرق إليها شك لا توجد في سيرة رسول من رسل الله السابقين، فموسى عليه السلام قد اختلطت عندنا وقائع سيرته الصحيحة بما أدخل عليها اليهود من زيف وتحريف، ولا نستطيع أن نركن إلى التوراة الحاضرة لنستخرج منها سيرة صادقة لموسى عليه السلام، فقد أخذ كثير من النقاد الغربيين يشكون في بعض أسفارها وبعضهم يجزم بأن بعض أسفارها لم يكتب في حياة موسى عليه السلام ولا بعده بزمن قريب، وإنما كتب بعد زمن بعيد من غير أن يعرف كاتبها، وهذا وحده كاف للتشكيك في صحة سيرة موسى عليه السلام كما وردت في التوراة، ولذلك ليس أمام المسلم أن يؤمن بشيء من صحة سيرته إلا ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

ومثل ذلك يقال في سيرة عيسى عليه السلام، فهذه الأناجيل المعترف بها رسميا لدى الكنائس المسيحية إنما أقرت في عهد متأخر عن السيد المسيح بمئات السنين، وقد اختيرت بدون مسوغ علمي من بين مئات الأناجيل التي كانت منتشرة في أيدي المسيحيين يومئذ. ثم إن نسبة هذه الأناجيل لكاتبيها لم يثبت عن طريق علمي تطمئن النفس إليه، فهي لم ترو بسند متصل إلى كاتبيها، على أن الخلاف قد وقع أيضا بين النقاد الغربيين في أسماء بعض هؤلاء الكاتبين من يكونون؟ وفي أي عصر كانوا؟

وإذا كان هذا شأن سير الرسل أصحاب الديانات المنتشرة في العالم، كان الشك أقوى في سيرة أصحاب الديانات والفلاسفة الآخرين الذين يعد أتباعهم بمئات الملايين في العالم، كبوذا وكونفوشيوس، فإن الروايات التي يتناقلها أتباعهم عن سيرتهم ليس لها أصل معتبر في نظر البحث العلمي، وإنما يتلقفها الكهان فيما بينهم، ويزيد فيها كل جيل عن سابقه بما هو من قبيل الأساطير والخرافات التي لا يصدقها العقل النير المتحرر الخالي من التعصب لتلك الديانات. وهكذا نجد أن أصح سيرة وأقواها ثبوتا متواترا هي سيرة محمد رسول الله.

على مدى التاريخ البشري كله، لم تُعرف أمة من أمم الرسل، سِعدت بمثل ما جاء في القرآن الكريم عن الرسالة والرسول، ولا بمثل المجموعة الناطقة من الأحاديث النبويّة عن نبيّها، وذلك السجل الخالد، بل على العكس من ذلك، نرى الأمم كلها فقيرة لا تملك مصدراً وحيداً من مصادر البحث عن الأنبياء، ونراها قد انقطع ما بينها وبين أنبيائها، وفقدت الصلة التي تصلها بعصر هؤلاء الرسل، وتوقفها على شؤون حياتهم، وما يكتنفها من ظروف وملابسات، حتى صار كثيرون يتساءلون، بل يشكّون في نبوّة أنبيائهم!

ونحن مع معارضتنا لهذا التطرّف نؤمن بأن حلقات كثيرة مفقودة من حياة أنبيائهم، لا يمكن البحث عنها، والاهتداء إليها! أما خاتم النبيّين فهو الرسول الذي نعرف عنه كل دقيق وجليل، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والصفات، والميول

---

(١) –د. مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر ص ١٥–٢٣ وما بعدها طبعة المكتب الاسلامي ط٣/١٩٨٥ وهي ملخص لما ذكره السيد سليمان الحسيني في كتابه الرسالة المحمدية طبعة دار ابن كثير ١٤٢٣.و د. سعد المرصفي، الجامع الصحيح للسيرة النبوية، ابن كثير الكويت ٢٠٠٩، ص:٨١–١٠٥.

والرغبات، والقول والعمل، ما لا نعرفه عن غيره، بل إن ما عرفناه عن الأنبياء جاء من طريق الوحي الذي أنزله الحق على خاتم الرسل صلوات الله[١]

والحياة التي يجدر بالناس أن يتخذوا منها قدوة لهم في حياتهم، تتوافر فيها أربع خصال [٢]:

الأولى: أن تكون (تاريخيّة)، أي أن التاريخ الممحّص الصحيح يصدّقها ويشهد لها!

الثانية: أن تكون (جامعة)، أي محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شمائلها!

الثالثة: أن تكون (كاملة)، أي متسلسلة لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة!

الرابعة: أن تكون (عمليّة)، أي أن تكون الدعوة إلى المبادئ والفضائل والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه، وأن يكون كل ما دعا إليه بلسانه قد حقّقه بسيرته، وعمل به في حياته الشخصية والعائليّة والاجتماعيّة، فأصبحت أعماله مُثلاً عليا للناس، ومن ثم تكون الأسوة!

وكل هذه الأمور موجودة في سيرة محمد الرسول، وليس معنى هذا أن سير الأنبياء قد صفرت من تلك الخصال مدة وجودهم في الحياة الدنيا، بل إن سيرتهم التي توجد الآن بين أيدي الناس قد أصابها التحريف، ودخلها التخريف، ومن ثم فهي لا تنصّ على هذه الأمور!

ولعل الحكمة في ذلك ترجع إلى أن أولئك الأنبياء إنما بعثوا لأزمانهم وشعوبهم، فكان الموفّقون للخير من شعوبهم في أزمانهم يرون سيرتهم، ومن ثم تكون الأسوة .. ولم تكن هناك حاجة إلى أن تبقى سيرتهم معلومة للأجيال التالية بعدهم؛ لأن النبوات ستختم برسالة خاتم النبيين الكاملة إلى الناس كافة، في كل زمان ومكان، وجيل وقبيل، وعصر ومصر .. فكانت الحاجة ماسة إلى أن تكون سيرته معلومة على حقيقتها إلى يوم القيامة؛ ليتيسّر التأسّي بها لجميع أمم الأرض، وهذا من أصدق البراهين العملية والسلوكيّة على كون خاتم النبيّين محمد لا نبيّ بعده!

ولقد شهدت الدنيا أصدق شهادة، ثم ازداد ذلك ثبوتاً على الأيّام بأن الدّين القيّم لم يقتصر على مجرد حفظ سيرة خاتم النبيّين، بل توسّع في ذلك إلى ما يتعلق بها من كل النواحي، وصان هذه الأمانة القدسيّة، فلم تقترب منها يد الضياع، ولم تعبث بها عوامل الدهر، إلى درجة أن العالم كله يقف من ذلك موقف العجب!

والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النبوي على حفظ أقوال النبي، ورواية أحاديثه، وكل ما يتعلق بحياته أدّوها إلى من ضبطوها بعدهم، وكتبوها، وهم طبقات معروفة من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم بإحسان، فلما تمّت هذه الذخيرة التاريخية جمعاً وكتابة وتدويناً، وفق أصول التحديث رواية ودراية، جعل العلماء يكتبون سير هؤلاء الرواة من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة الذين رووا شيئاً مما يتعلق بحياة الرسول، فكتبوا أسماءهم وكناهم، وأنسابهم، ومنشأهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وبالجملة شؤون حياتهم، حتى أصبح ما كتبوا في هذا الباب علماً مستقلاً!

وقد ادّعى الألماني المعروف الدكتور (سبرنكو) أنه أول أوروبّي كتب في سيرة محمد، معتمداً على المصادر العربيّة الأولى، ولم يعتمد في تأليفه إلا عليها، مع أنه في الحقيقة لم يكتب دفاعاً عن صاحب الرسالة، بل كان متحاملاً، إلا أنه قال في مقدمته على كتاب (الإصابة) المطبوع في (كلكتا) ١٨٥٣ -١٨٦٤ م: (لم تكن فيما مضى أمّة من الأمم السالفة، كما أنه لا توجد الآن أمّة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر)!

---

(١) -السيرة النبويّة: دروس وعبر: الدكتور مصطفى السباعي: ١٣ وما بعدها، المكتب الإسلامي، ود. سعد المرصفي، الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع الإسلامي: دراسة تحليليّة في ضوء الكتاب والسنة: ٢٣ وما بعدها، مكتبة الفلاح، ط ثانية ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م. والجامع الصحيح للسيرة النبوية الأستاذ الدكتور سعد المرصفي، مكتبة ابن كثير، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ -٢٠٠٩ م

(٢) -الرسالة المحمديّة: ٦٨ وما بعدها بتصرف.

وقد توفّي النبي ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان [١]، من رجل وامرأة! ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي، مذكورة أسماؤهم وأحوالهم في الكتب التي أفردت للتدوين؛ لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبي وأفعاله وهديه وسيرته! وبعد وفاة الرسول بقي فريق من كبار الصحابة إلى سنة (٤٠ هـ)، وبقي بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحداثاً في حياة النبي عدد غير قليل .. فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد، وانطفأ سراج أُوقد بنور النبوّة!

وجاء دور التابعين الذين هم تلاميذ الصحابة، والذين ينزلون المنزلة الثانية بعدهم في تبليغ الدعوة، وحمل الرسالة المحمديّة إلى الأنحاء النائية، والبلاد المترامية الأطراف، ولم يكن لهم همّ في الدنيا إلا حفظ الدين، ونشر أحكامه، وتعميم سننه وآدابه، والتعريف بسيرة الرسول وهديه!

فقد ذكر ابن سعد في الطبقات (١٣٩) من التابعين أهل الطبقة الأولى الذين كانوا في المدينة! وذكر (١٢٩) من الطبقة الثانية الذين أدركوا عامة الصحابة ورووا عنهم! أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظي الواحد منهم برؤية صحابي واحد، أو عدة من الصحابة، وعدد هؤلاء (٨٧)، فمجموع التابعين (٣٥٥) في مدينة واحدة، وهي مدينة الرسول! فقيسوا على ذلك عدد الذين أخذوا عن الصحابة في المدن الإسلاميّة، التي انتشر الصحابة فيها من مكة إلى الطائف، والبصرة، والكوفة، ودمشق، واليمن، ومصر، وغيرها .. وهؤلاء لم يكن لهم همّ إلا نشر رسالة الإسلام، وتبليغ أقوال النبي وهديه وسيرته!

وهنا نبصر اهتمام المؤرّخين باستيعابهم، واستقصاء أحوالهم في إحصاء الأحاديث المرويّة عن الصحابة، وتلك الروايات الكثيرة التي حفظت لنا سيرة الرسول، مع مراعاة التبليغ إلى الجيل الذي بعدهم كل ما رأوه بأعينهم، وسمعوه بآذانهم، من أحوال النبي وأقواله .. ومن ثم كانوا يعلّمون أولادهم وإخوانهم وأصحابهم وأقرباء هم من الدّين والعلم كل ما كانوا يعلمونه، بحيث كان ذلك هو الشغل الشاغل آناء الليل وأطراف النهار، وفي الغدوّ والآصال!

ونبصر–أيضاً–تعلم النشء الإسلامي الأول حقائق رسالة الإسلام، وتفاصيل حياة الرسول، منذ ترعرعوا في بيئاتهم التي كانت ساحة للعلم والعمل، ومدارس يتقلّبون في فصولها، وما لبثوا أن قاموا مقام الصحابة وسدّوا مستدّهم في حفظ هذه الأحاديث، ووعي هذه المرويات التي كانوا يحفظونها كلمة كلمة، ويعيدون رواياتها بألفاظها، دون أن يبدّلوا منها كلمة! وكما كان رسول الله يحرّض أصحابه على أن يبلّغوا عنه، ويفقهوا رسالته، وينصروا دعوته، ويعرّفوا سنته، كان ينهى عن أن يتقوّلوا عليه ما لم يقل، أو ينسبوا إليه ما لم يفعل، وكان ينذر من يتعمّد الكذب عليه بأنه سيتبوأ مقعده من النار!

ومن المعلوم أن ذاكرة العرب كانت قويّة وأنهم يحفظون آلافاً من الشعر وينشدونها عن ظهر قلب بلا زيادة ولا نقص، ومن طبيعة البشر أنهم إذا أكثروا استعمال قوة من قواهم تزداد هذه القوّة قوّة وحيويّة، وقد مُرِّن الصحابة والتابعون على حفظ الأحاديث، حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً، والمحدّثون كانوا يحفظون ألوفاً من أحاديث الرسول، ويكتبون بعد ذلك ما كانوا يسمعون ويحفظون!

وصدق شبلي نعماني، حيث قال: (إلى يوم الدين لن يستطيع أحد أن ينافس المسلمين في فخرهم بحفظ أدق تفاصيل كل حادث في حياة الرسول بطريقة دقيقة وواعية، لا يصل إلى مستواها تسجيل حياة أي إنسان آخر من قبل، ولا يمكن أن ينتظر من بعد، فمن أجل تسجيل هذه الحياة بأدق تفاصيلها قام علماؤنا بتسجيل أسماء وخصائص نحو

(١) –انظر: الإصابة: ١: ٢ – ٣.

ثلاثة عشر ألفاً من الصحابة، وتمّ هذا في وقت كان فجر نظام التأليف! ... ولنرجع إلى كتب الطبقات وعلم الرجال، لنرى فيها هذه الصورة الفريدة في التراث الإنساني .. إنه جهد لا نظير له في تاريخ الإنسانيّة من أجل حياة فرد واحد)[١]!

ثانيا: الوضوح في جميع المراحل:

إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها، منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، فنحن نعرف الشيء الكثير عن ولادته، وطفولته وشبابه، ومكسبه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة، إلى أن بعثه الله رسولا كريما، ثم نعرف بشكل أدق واوضح وأكمل كل أحواله سنة فسنة، مما يجعل سيرته عليه الصلاة والسلام واضحة وضوح الشمس، كما قال بعض النقاد الغربيين: إن محمدا (عليه الصلاة والسلام) هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس.

وهذا ما لم يتيسر مثله ولا قريب منه لرسول من رسل الله السابقين، فموسى عليه السلام لا نعرف شيئا قط عن طفولته وشبابه وطرق معيشته قبل النبوة، ونعرف الشيء القليل عن حياته بعد النبوة، مما لا يعطينا صورة مكتملة لشخصيته، ومثل ذلك يقال في عيسى عليه السلام، فنحن لا نعرف شيئا عن طفولته إلا ما تذكره الأناجيل الحاضرة، من أنه دخل هيكل اليهود، وناقش أحبارهم، فهذه هي الحادثة الوحيدة التي يذكرونها عن طفولته، ثم نحن لا نعلم من أحواله بعد النبوة إلا ما يتصل بدعوته، وقليلا من أسلوب معيشته، وما عدا ذلك فأمر يغطيه الضباب الكثير.

وما من حياة أحد يصح أن يكون منها للناس أسوة تتّبع[٢]،ومثال يُقتدى به إلا إذا كانت متّصفة بالكمال، ولا تكون حياة أحد كاملة ومنزّهة عن العيوب والمثالب إلا إذا كانت معلومة للناس بجميع أطوارها، ومتجلّية لهم دخائلها من كل مناحيها، وواضحة كل الوضوح في جميع مراحلها، وحياة الرسول من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا عهده، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم!

وقد سجل التاريخ أن جميع شؤونه وأطوار حياته، من ولادته ورضاعته وطفولته، إلى أن صار يافعاً وشابًّا كل ذلك ظاهر أمره، معلومة تفاصيله، وقد علم الناس سجاياه في صدقه وفي وفائه للناس قبل النبوة واتصلوا به حين اتخذوه أميناً، وأقاموه حكماً فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الأسود في موضعه في الكعبة، ثم وقفوا على أمره حين حُبّب إليه الخلاء في (غار حراء)، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحي، وحين بدأ أمر الإسلام يظهر للوجود، فأخذ يدعو الناس، ويبلّغ ما أنزل عليه وقد رأى التاريخ كيف خالفوه وعاندوه!

وهل غاب عن التاريخ ما لقي الرسول في نشر الإسلام من جهد وعناء، وما قابله به أهل الطائف، حين سار إليهم يدعوهم إلى عبادة الرحمن؟! وهل نسي التاريخ كيف أخبر أهل مكة، وهم أقليّة من المسلمين، وأكثريّة ساحقة من المشركين بخبر العروج إلى السماء؟! ثم هل خفي عن التاريخ أمر هجرته، ومن هاجر، والغزوات التي غزاها، والأسباب الباعثة عليها، وموقفه من الهدنة إذا هادن، وعهوده إذا عاهد؟! وما صلح الحديبية بسر!

والذين طالعوا كتب السيرة النبوية يعلمون ذلك وغيره، وقد وقفوا على كتبه إلى الملوك وغيرهم يدعوهم فيها إلى دين الله، دين السلام والوئام، وعرفوا جهاده في سبيل الحق، وما بذله في تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس، إلى أن أكمل الله للإنسانيّة دينها، وحج حجة الوداع، وتوفاه الله إليه! فهل في شيء من ذلك ما يجهله التاريخ؟! وهل فيما يتعلق بحياة الرسول ورسالته ما أسدل عليه ستار من خفاء؟! وقد سجلت مصادر السيرة أدق التفاصيل في حياة خاتم النبيّين، كأكله، وقيامه، وقعوده، ولباسه، وشكله، وهيئته، ومنطقه، ومعاملته لأسرته، وتعبّده، وصلاته، ومعاشرته لأصحابه، بل بلغت

---

(١) –الإسلام والعروبة في عالم متغير: دكتور عبد العزيز كامل: ٥١ –٥٢ كتاب العربي: الكتاب الثاني والعشرون ١٩٨٩ نقلاً عن: سيرة النبي: شبلي نعماني: ١: ٨

(٢) –السيد سليمان الندوي الحسيني الرسالة المحمدية: ١٠٢ وما بعدها بتصرف، دار ابن كثير دمشق / ط١، ١٤٢٣.

الدقة في رواة سيرته أن يذكروا لنا عدد الشعرات البيض في رأسه ولحيته، فهل يمكن مقارنة ما يعرف عنه وما يعرف عن غيره من إخوانه من النبيين قبله؟!.

ثالثا: المثاليّة في كل ما يتصل بها:

إن سيرة رسول الله تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضف عليه الألوهية قليلا ولا كثيرا، وإذا قارنا هذا بما يرويه المسيحيون عن سيرة عيسى عليه السلام، وما يرويه البوذيون عن بوذا، والوثنيون عن آلهتهم المعبودة، اتضح لنا الفرق جليا بين سيرته عليه السلام وسيرة هؤلاء، ولذلك أثر بعيد المدى في السلوك الإنساني والاجتماعي لاتباعهم، فادعاء الألوهية لعيسى عليه السلام ولبوذا جعلهما أبعد منالا من أن يكونا قدوة نموذجية للإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية، بينما ظل وسيظل محمد صلى الله عليه وسلم المثل النموذجي الإنساني الكامل لكل من أراد أن يعيش سعيدا كريما في نفسه وأسرته وبيئته، ومن هنا يقول الله تعالى في كتابه الكريم: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} (الأحزاب: ٢١).

وهنا نبصر أن هذا (الدّين القيّم) قدّم للناس أعمال خاتم النبيّين، وطلب منهم التأسّي به في سيرته، وجعل الاتّباع لتلك السيرة والتأسّي بصاحبها وسيلة لهم في الحصول على رضا الله ومحبّته، وسيرة الرسول جامعة، تجد فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدي به، والأسوة التي تأتسي بها! ومن الظاهر الواضح أن الناس لا يزالون مختلفين في معايشهم، ومن ثم كانت حياة خاتم النبيّين، واضحة مثاليّة كاملة، يجد فيها الناس كلهم على اختلاف طوائفهم، المثاليّة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها!

وأعظم من الأسوة [١]، في أعمال الإنسان الظاهرة، الأسوة فيما يتعلق بخطرات القلوب، ومجالات الفكر، ونزعات العواطف، فنحن نشعر بين كل حين وآخر بنزعات وعواطف تخالج قلوبنا وأفكارنا، فنرضى ونسخط، ونفرح ونحزن، وتعترينا السكينة والطمأنينة أو القلق والضجر، وتترتّب على هذه الأحوال عواطف مختلفة، ونوازع متعدّدة، وليس الخلق الحسن إلا التعديل بين هذه الأحوال، وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القويّة والنوازع الثائرة، ولا يحظى بنصيبه من مكارم الأخلاق إلا الذي يعرف كيف يكبح النفس عند جموحها، ويحسن التصرف فيها وقت ثورتها .. ومن ثم لا بد للإنسان من إمام تكون له فيه الأسوة التامة في هذه الأمور، حتى يأتمّ به في قهر هذه القوة الثائرة، والعواطف المتوثبة، إلى أن تسكن ثورة النفس، ويسلك في ذلك مسلك صاحب السيرة الذي يحمل بين جنبيه قلباً زَكيًّا، ونفساً طاهرة، وروحاً عالية نزيهة!

رابعا: الشمول والتكامل:

إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان، فهي تحكي لنا سيرة محمد الشاب الأمين المستقيم قبل أن يكرمه الله بالرسالة، كما تحكي لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله المتلمس أجدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته، كما تحكي لنا سيرته كرئيس دولة يضع لدولته أقوم النظم وأصحها، ويحميها بيقظته وإخلاصه وصدقه بما يكفل لها النجاح، كما تحكي لنا سيرة الرسول الزوج والأب في حنو العاطفة، وحسن المعاملة، والتمييز الواضح بين الحقوق والواجبات لكل من الزوج والزوجة والأولاد، كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي المرشد الذي يشرف على تربية أصحابه تربية مثالية ينقل فيها من روحه إلى أرواحهم، ومن نفسه إلى نفوسهم، مما يجعلهم يحاولون الاقتداء به في دقيق الأمور وكبيرها، كما تحكي لنا سيرة الرسول الصديق الذي يقوم بواجبات

---

(١) -المرجع السابق: ١٣٣.

الصحبة، ويفي بالتزاماتها وآدابها، مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم وأكثر من حبهم لأهليهم وأقربائهم، وسيرته تحكي لنا سيرة المحارب الشجاع، والقائد المنتصر، والسياسي الناجح، والجار الأمين، والمعاهد الصادق.

وقصارى القول: إن سيرة رسول الله شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مربي، وكل سياسي، وكل رئيس دولة، وهكذا .. ونحن لا نجد مثل هذا الشمول ولا قريبا منه فيما بقي لنا من سير الرسل السابقين، ومؤسسي الديانات والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين،

فموسى يمثل زعيم الأمة الذي أنقذ أمته من العبودية، ووضع لها من القواعد والمبادئ ما يصلح لها وحدها، ولكننا لا نجد في سيرته ما يجعله قدوة للمحاربين، أو المربين أو السياسيين، أو رؤساء الدول أو الآباء، أو الأزواج مثلا، وعيسى عليه السلام يمثل الداعية الزاهد الذي غادر الدنيا وهو لا يملك مالا، ولا دارا، ولا متاعا، ولكنه في سيرته الموجودة بين أيدي المسيحيين، لا يمثل القائد المحارب، ولا رئيس الدولة، ولا الأب، ولا الزوج لأنه لم يتزوج ولا المشترع، ولا غير ذلك مما تمثله سيرة محمد صلى الله عليه وسلم. وقل مثل ذلك في بوذا، وكونفوشيوس، وأرسطو، وأفلاطون، ونابليون، وغيرهم من عظماء التاريخ، فإنهم لا يصلحون للقدوة إن صلحوا إلا لناحية واحدة من نواحي الحياة وبرزوا فيها واشتهروا بها، والإنسان الوحيد في التاريخ الذي يصلح أن يكون قدوة لجميع الفئات وجميع ذوي المواهب وجميع الناس هو محمد صلى الله عليه وسلم.

لنستطرد حول موسى فلا نجد في أسفار التوراة الخمسة ([1])، إلا أنه بعد ولادته تربّى في قصر فرعون، ولما بلغ مبلغ الرجال نصر قومه، ثم خرج إلى مدين وتزوج فيها، وأقام هناك برهة من الزمن، ثم رجع إلى مصر، وبينما هو في الطريق أُوحي إليه من ربه، ثم لقي فرعون وأراه آيات بينات، وخرج بقومه، ووجد في البحر طريقاً بإذن الله، وتبعه فرعون فأدركه الغرق، ودخل بقومه أرض الشام، وقد اختتم سفر التثنية بهذه الفقرات: (٥٤: ٥ — ١٠)، (إن عبد الله موسى مات بإذن الله في أرض موآب، ودفنه الله في الجواء في أرض موآب، مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، وكان موسى ابن عشرين ومائة حين جاءه الموت .. ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى)!

هذه الكلمات من سفر التثنية، وهو السفر الخامس من التوراة، ولا يخفى أن تلك الكلمات لم ينطق بها موسى عليه السلام، وهذا يدل على أن هذا الكلام ليس لموسى، وأن الدنيا تجهل كاتب هذه السيرة لموسى! ومما يلفت النظر قول القائل: (ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم)! وقوله: (ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى)! وفي هذا دلالة على أن هذا الجزء قد أضيف إلى سيرة موسى بعد زمان طويل كان يرجى فيه أن يقوم في بني إسرائيل نبي يسد فراغ موسى، فنوّه كاتب السفر بأنه لم يقم بعد مثله!

ومع هذا العمر الطويل نتساءل: ما الذي نعرفه عن حياة موسى الطويلة؟ وبأي الأعمال شغل فراغ حياته المباركة؟ وما النواحي التي نعلمها واضحة مفصلة من سيرته، مما كان ينبغي أن يعلم، لتحسن به الأسوة؟ إن الأمور التي يحتاج البشر إلى معرفتها من حياة موسى الاجتماعيّة هي الأخلاق والعادات والهدي، وكل ذلك لا نجده في سيرته، ومع ذلك فموسى يمثل القائد الذي أنقذ أمته من العبوديّة، ووضع لها من القواعد والمبادئ ما يصلح لها وحدها في عصر رسالته وكفى، ولكننا لا نجد في سيرته ما يجعله قدوة للمحاربين أو السياسيّين، أو رؤساء الدول، مثلاً!

ويستغرب المرء حين يعلم أن شؤون حياة عيسى وأحوال معيشته، أخفى من غيره وأغمض، وقد أسدل الزمان عليها حجاباً أكثف مما نراه في حياة غيره من الرسل! وإن أوروبّا المسيحية قد حملها حافز البحث والكشف عن أن تستثير بطون الصحارى وقلل الجبال، وأطراف الصخور، والأطلال الدارسة، ومظان

(١) –الرسالة المحمدية: ٥٤ وما بعدها.

الآثار، ومجالات الحوادث التي مرت عليها الأحقاب الطويلة، فكتب المستشرقون التاريخ القديم لبابل وآشور وغيرهما، وأخذوا يلائمون بين الحوادث القديمة المجهولة الزمن ويعرضونها على الناس واضحة نقيّة، منسقة مرتبطاً بعضها ببعض، وطفقوا يعثرون على الصفحات المفقودة من كتاب التاريخ القديم للبشر! إلا أنهم قد أعياهم البحث والفحص فلم يجدوا الصفحات المفقودة عن حياة نبيّهم!

وقد استفرغ (رينان) جهده، ولقي من العناء والنصب مبلغاً عظيماً، ليقف على حياة عيسى كاملة تامة، ومع ذلك فإن شؤون عيسى وأحواله لا تزال سراً مكنوناً في ضمير الزمن، لم يبح به لسانه بعد! إن عيسى عاش في هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة، كما يروي الإنجيل، والأناجيل الموجودة الآن على ما في رواياتها من ضعف ولبس مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث سنوات من أواخر حياته وحسب! ونتساءل: أين قضى عليه السلام الثلاث أو الخمس والعشرين سنة على الأقل من حياته؟ وفيم قضاها؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئاً، ولن تعلم! وإن السنوات الثلاث الأخيرة التي ذكرت أحواله ماذا نجد فيها؟ آيات ومعجزات معدودات وبعض العظات!

ومن الشروط الضروريّة التي لا بد منها لكل من يرجى أن تكون سيرته وهدايته أسوة للبشر، الشمول والتكامل والمراد أن الطوائف البشريّة المتفرقة، والطبقات البشريّة المختلفة تحتاج إلى أمثلة كثيرة متنوعة، تتخذها منهاجاً لحياتها الاجتماعيّة! وكذلك الأفراد في المجتمع البشري هم في حاجة إلى مُثل عليا، يقتدون بها في مناحي حياتهم البيئيّة، لتتوثق الروابط بين الأفراد وتحسن العلاقات بين شتى الطوائف، في داخل الأسرة وخارجها، ولذلك يجب أن تكون تلك المثل واضحة في جميع مراحل الحياة، ومثاليّة كاملة!

ومن ثم نجد عيسى يمثل الداعية الزاهد الذي غادر الدنيا وهو لا يملك مالاً، ولا داراً، ولا متاعاً، ونجده في سيرته الموجودة بين أيدي المسيحيّن لا يمثل القائد المحارب، ولا رئيس الدولة، ولا الأب، ولا الزوج، ولا غير ذلك مما تمثله سيرة خاتم النبيّين من الشمول والتكامل!

خامسا: الدليل العملي على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن سيرة خاتم النّبيين وحدها تعطينا الدليل الذي لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته، إنها سيرة إنسان كامل سار بدعوته من نصر إلى نصر لا عن طريق الخوارق والمعجزات، بل عن طريق طبيعي بحت، فلقد دعا فأوذي، وبلغ فأصبح له الأنصار، واضطر إلى الحرب فحارب، وكان حكيما، موفقا في قيادته، فما أزفت ساعة وفاته إلا كانت دعوته تلف الجزيرة العربية كلها عن طريق الإيمان، لا عن طريق القهر والغلبة، ومن عرف ما كان عليه العرب من عادات وعقائد وما قاوموا به دعوته من شتى أنواع المقاومة حتى تدبير اغتياله، ومن عرف عدم التكافؤ بينه وبين محاربيه في كل معركة انتصر فيها، ومن عرف قصر المدة التي استغرقتها رسالته حتى وفاته، وهي ثلاث وعشرون سنة، أيقن أن محمدا رسول الله حقا، وأن ما كان يمنحه الله من قوة وثبات وتأثير ونصر ليس إلا لأنه نبي حقا، وما كان لله أن يؤيد من يكذب عليه هذا التأييد الفريد في التاريخ، فسيرة رسول الله تثبت لنا صدق رسالته عن طريق عقلي بحت، وما وقع له من المعجزات لم يكن الأساس الأول في إيمان العرب بدعوته، بل إنا لا نجد له معجزه آمن معها الكفار المعاندون، على أن المعجزات المادية تكون حجة على من شاهدها، ومن المؤكد أن المسلمين الذين لم يروا النبي ولم يشاهدوا معجزاته، إنما آمنوا بصدق رسالته للأدلة العقلية القاطعة على دعواه النبوة، ومن هذه الأدلة العقلية: القرآن الكريم، فإنه معجزة عقلية، تلزم كل عاقل منصف أن بصدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة.

وهذا يختلف تماما عن سير الأنبياء السابقين المحفوظة لدى أتباعهم، فهي تدلنا على أن الناس إنما آمنوا بهم لما رأوا على أيديهم من معجزات وخوارق، دون أن يحكموا عقولهم في مبادئ دعواتهم فتذعن لها، وأوضح مثل لذلك السيد

المسيح عليه السلام، فإن الله حكى لنا في القرآن الكريم أنه جعل الدعامة الأولى في إقناع اليهود بصدق رسالته أنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفي المرضى، ويحيي الموتى، وينبئهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، كل ذلك بإذن الله جل شأنه،

والأناجيل الحاضرة تروي لنا أن هذه المعجزات هي وحدها التي كانت سببا في إيمان الجماهير دفعة واحدة به، لا على أنه رسول كما يحكي القرآن الكريم، بل على أنه إله وابن إله–حاشا لله من ذلك–والمسيحية بعد المسيح انتشرت بالمعجزات وخوارق العادات –وفي سفر أعمال الرسل أكبر دليل على ذلك –حتى ليصح لنا أن نطلق على المسيحية التي يؤمن بها أتباعها أنها دين قام على المعجزات والخوارق، لا على الإقناع العقلي.

ومن هنا نرى هذه الميزة الواضحة في سيرة الرسول أنه ما آمن به واحد عن طريق مشاهدته لمعجزة خارقة، بل عن اقتناع عقلي وجداني، وإذا كان الله قد أكرم رسوله بالمعجزات الخارقة، فما ذلك إلا إكرام له صلى الله عليه وسلم وإفحام لمعانديه المكابرين ومن تتبع القرآن الكريم وجد أنه اعتمد في الإقناع على المحاكمة العقلية، والمشاهدة المحسوسة لعظيم صنع الله، والمعرفة التامة بما كان عليه الرسول من أمية تجعل إتيانه بالقرآن الكريم دليلا على صدق رسالته.

ولما اشتط كفار قريش في طلب المعجزات من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانت تفعل الأمم الماضية، أمره الله أن يجيبهم بقوله: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً}(الإسراء: ٩٣)، ويقول الله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت: ٥٠،٥١)، يعنون بذلك الخوارق المادية التي صاحبت الرسالات [١] من قبل في طفولة البشرية، والتي لا تقوم حجة إلا على الجيل الذي شاهدها، بينما الرسالة الأخيرة تقوم حجتها على كل من بلغته دعوتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! ومن ثم جاءت الآيات متلوة من القرآن الكريم المعجز الذي لا تنفد عجائبه، والذي تتفتّح كنوزه لجميع الأجيال، والذي هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم، يحسّونها خوارق معجزة كلما تدبروه، كما أحسّوا مصدرها الذي تستمد منه سلطانها العجيب!

وإنه للبطر بنعمة الله ورعايته التي قبل عن الشكر والتقدير! أو لم يكفهم أن يعيشوا مع الحق بهذا القرآن الكريم! وهو يتنزّل عليهم، ويحدثهم بما في نفوسهم، ويكشف لهم عما حولهم، ويشعرهم أن عين الله عليهم، وأنه مَعْني بهم، يحدّثهم بأمرهم، ويقصّ عليهم القصص ويعلّمهم، وهم هذا الخلَق الصغير الضئيل التائه في ملكوت الله الكبير، هم وأرضهم وشمسهم التي تدور عليها أرضهم، ذرات تائهة في هذا الفضاء الهائل لا يمسكهن إلا الله، والله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك يكرمهم حتى لينزل كلماته تتلى عليهم، ثم هم لا يكتفون؟!

والذين يؤمنون هم الذي يجدون مسّ هذه الرحمة في نفوسهم، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظيم مننه على البشريّة بهذا التنزيل، ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إليه، وهو العلي الكبير، وهم الذين ينفعهم هذا القرآن الكريم؛ لأنه يحيي في قلوبهم، ويفتح لهم عن كنوزه، ويمنحهم ذخائره، ويشرق في أرواحهم بالمعرفة والنور! هكذا يقرر القرآن بصراحة ووضوح أن محمدا إنسان رسول، وأنه لا يعتمد في دعوى الرسالة على الخوارق والمعجزات، وإنما يخاطب العقول والقلوب، {فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ} (الأنعام: ١٢٥).

سادسا: الرحمة العامة الشاملة:

أهم ما تحققت به النبوة الخاتمة الرحمة والحكمة، قال تعالى واصفا نبيّه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) قالها الله بأسلوب القصر، يعني النفي ثم الاستثناء، أي أنت لست إلا رحمة لست شيئا آخر غير الرحمة، كما يقول النبيﷺ "أيها الناس: إنما أنا رحمة مهداه"[١].

(١) –صحيح رواه الحاكم في مستدركه، والبيهقي، برقم ٦١، ورواه ابن أبي شيبة عن ابي صالح ٧\ ٤٤١، وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٤٩٠

فكما أن دعوة محمدﷺ للعالمين؛ فهذه الرسالة رحمة للعالمين جميعاً، وهذا القرآن الذي جاء فيه لفظ رحم ومشتقاته ثلاثمائة مرة[١]، رحمة للعالمين جميعاً، رحمة في ذاته، ورحمة في تعاليمه، ورحمة في أحكامه، وفي ذلك يقول واشنجتون ايرفنج: "يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية"[٢]، كما أن القرآن في رأي جاك ريسلر[٣]: " يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة".

وأوامره كما تقول "إلس ليختنستادتر"[٤]: "هي أوامر العدل للجميع، والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسؤول عن أعماله ومسؤول كذلك عن مصيره."[٥]، يقول نصري سلهب[٦]: ".. إن محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب فإذا بهذا الأمي يهدي إلى الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين"[٧] ولا شك أن أخلاق الرحمة هي عامل الجذب الإساس لدخول الناس في الإسلام، أو كما يقول يول[٨]: " الإحسان والرحمة والنزعة الإنسانية الخيرة العريقة هذه وغيرها من العوامل كانت بالنسبة لي أعظم دليل على صدق هذا الدين" [٩]

أن رحمة النبي رحمة شاملة وعامة وعالمية، وليست عنصرية تقوم على الأعراق أو الألوان أو المذاهب، بل رحمة لكل البشر، رحمة عامة ومجردة للعالمين جميعاً، ليست رحمة للعرب دون العجم أو للمسلمين دون غيرهم، أو للشرق دون الغرب، بل هي رحمة للعالمين، وفي ذلك تقول لورا فيشيا فاغليري: "إن الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيه (رحمة للعالمين)، هي نداء مباشر للعالم كله. وهذا دليل ساطع على أن محمدًا شعر في يقين كلّي أن رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربية وأن عليه أن يبلغ (الكلمة) الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى أجناس مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة" [١٠].

وعن أبي موسى: أنه سمع النبيﷺ يقول: "لن تؤمنوا حتى تراحموا!"، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم! قال: "إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكن رحمة العامة، رحمة العامة!"[١١]، فهي الرحمة بالعامة، أي بعامة البشر، ويجعل النبيﷺ ذلك من شروط الإيمان، فلا يعد الرجل مؤمنًا حتى يرحم الناس بصفة عامة، كما في حديث أنس بن مالك، أن رسول الله قال: "والذي نفسي بيده، لا يضع الله رحمته إلا على رحيم"، قالوا: يا رسول الله، كلنا يرحم، قال:" ليس برحمة أحدكم

---

(١) –انظر: أحمد عبد الرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام، ١٤٧

(٢) –واشنجتون ايرفنج: حياة محمد، ص ٣٠٤

(٣) –ريسلر: باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس. والحاصل على جائزة الأكاديمية الفرنسية، تقديرا لكتابه "الحضارة العربية" بوصفه دراسة أساسية لمعرفة الإسلام، والنص من كتابه: الحضارة العربية، ص ٥١.

(٤) –الدكتورة إلس ليختنستادتر: باحثة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، ثم في جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرقين الأدنى والأوسط، وعنيت عناية خاصة بدعوات الاجتهاد والتجديد والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها (الإسلام والعصر الحديث).

(٥) –إلس ليختنستادتر: الإسلام والعصر الحديث، نقلاً عن: عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١٩

(٦) –باحث مسيحي لبناني، يتميز بنظرته الموضوعية نحو الإسلام، وعُرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان، ألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية على السواء، متوخيًا الهدف نفسه. من آثاره: (لقاء المسيحية والإسلام) (١٩٧٠)، و(في خطى محمد) (١٩٧٠).

(٧) –نصري سلهب: لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٢

(٨) –علي يول: دانمركي، تعرف على الإسلام عام ١٩٧٣ خلال إحدى رحلاته إلى المغرب، وبعد عدد من اللقاءات مع بعض المسلمين هناك أعلن انتماءه للإسلام، وهو الآن يعيش في كوبنهاجن العاصمة.

(٩) –انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٤ / ١٢٧.

(١٠) –لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص ٢٤ – ٢٥

(١١) –حسن لغيره –رواه الحاكم في المستدرك، برقم ٧٤١٨، ورواه الطبراني ورواته رواة الصحيح، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب

صاحبه، يرحم الناس كافة "[١] وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ:" الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ "[٢]

ومن ثم كانت رحمته إنسانية عامة، شملت المسلم وغير المسلم، والمؤمن والمنافق، والعربي وغير العربي، والشرقي وغير الشرقي، والأفريقي والأوربي، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، والإنسان وغير الإنسان، والحيوان والطير والجماد. فهو يعتبر البشرية جميعها أسرة واحدة، تنتمي إلى رب واحد وإلى أب واحد وإلى أرض واحدة كما قال النبي: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"[٣].

ومن ثم كان رسول الله رحمة لكل الأمم، ولأمته خاصة، مهتمًا بأمرها، يخشى عليها من عذاب الله يوم القيامة، وقد كانت مشاعره جياشة في هذه المسألة، فذات مرة قرأ قول الله تعالى في القرآن على لسان عيسى: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]، ففاض ينبوع الرحمة، واهتز قلب النبيﷺ يناجي ربه في خشوع: " اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى!!" وسرعان ما نزل الأمين جبريل مهدئًا من فزع محمدﷺ على أمته، ومبلغًا قائلًا: إن الله يقول لك:" إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نسوؤك"[٤]

وكان رحمةً لغير المسلمين بل وأشر الخلق، فكان رَسُولُ اللَّهِﷺ يمارس هذه الرحمة مع شرار الناس، حتى يظن الفاجر أنه بخير! وتأمل قول عمرو بن العاص: "كان رسول اللهﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك، فكان يقبل بوجهه وحديثه عليَّ حتى ظننت أني خير "[٥]، واستفاد غير المسلمين من رحمة النبيﷺ؛ ولأن الله تعالى كان يهلك من قبل الأمم الكافرة بسبب كفرها وعصيانها للأنبياء هلاكاً جماعياً، بينما رفع الله تعالى بعد بعثة محمد هذا الهلاك الجماعي، فاستفاد الناس من خلاصهم من مثل هذا العذاب، فكان ذلك نعمة دنيوية بالنسبة للكفار. يخاطب الله تعالى نبيه في هذا الخصوص فيقول: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ} [الأنفال:٣٣] وتأمل قدر النبي عند الله: أي طالما أنت تعيش بينهم فلن يعذبهم الله ولن يهلكهم[٦].

وكان رحمة للمنافقين أيضًا. فبسبب هذه الرحمة الواسعة لم يرَ المنافقون العذاب في الحياة الدنيا فقد حضروا إلى المسجد واختلطوا بالمسلمين واستفادوا من كل الحقوق التي تمتع بها المسلمون ولم يقم رسول اللهﷺ بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم أبداً مع أنه كان يعرف دخائل نفوسهم ونفاقهم، حتى إنه أخبر حُذيفة بذلك[٧] لذا، كان عمر بن الخطاب يراقب حُذيفة، فإن رآه لا يصلي على جنازة لم يصلها هو كذلك[٨] دون إحداث ضجة أو تشهير بالمنافق الميت، ومع ذلك فلم يهتك الإسلام سرهم، فبقوا بين المؤمنين، وانقلب كفرهم المطلق إلى ريبة وشك على الأقل، فلم يحرموا من لذائذ الدنيا؛ لأن الإنسان الذي يعتقد أنه سيفنى ويذهب إلى العدم لا يمكن أن يهنأ في عيشه، ولكن إن انقلب كفره إلى شك وشبهة فإنه يقول في نفسه: "ربما توجد هناك حياة أخروية"، وتحدث التغيرات في حياته، ومن هذا المنطلق كان رسول اللهﷺ رحمة لهم بهذا المعنى [٩].

---

(١) –صحيح –رواه أبو يعلى الموصلي ٤١٤٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ١٦٧

(٢) –صحيح –رواه الحميدي، برقم ٦١٩، وأحمد برقم ٦٢٠٦، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ٩٢٥

(٣) –صحيح –رواه أحمد، برقم ٢٢٣٩١، والطبراني في المعجم الأوسط برقم ٤٩٠٥، البيهقي برقم ٤٩٢١، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٧٠٠

(٤) –صحيح –رواه مسلم، بَاب دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ وَبُكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ، رقم٣٠١

(٥) –حسن –رواه الترمذي في الشمائل المحمدية (٢٩٥)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية

(٦) –انظر: محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية، ٦٩/٢

(٧) –البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٤٢٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة ٤٦٨/١

(٨) –ابن الأثير: أسد الغابة ٤٦٨/١

(٩) –انظر: محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية، ٦٩/٢

لقد كانت رحمة النبيﷺ من عوامل نجاحه التي استعملها واستفاد منها في دعوته، قال الله تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك} (آل عمران:١٥٩) يعني : لولا رحمتك يا محمد لانفضوا من حولك رافضين دعوتك، إن رحمته ﷺ من دلائل عبقريته وفطنته، بمعنى آخر كانت رحمته تشكل بُعدًا آخر من أبعاد فطنته، وكانت هذه الرحمة من عوامل نجاحه التي استعملها واستغلها، وجعل منها شِبَاك رحمة لصيد القلوب ، واتخذ رحمته وسيلة لفتح القلوب السوداء، وتحريك المشاعر الصماء، ولا يعني هذا أنه كان يتصنع الرحمة، ويتخذها ذريعة للوصول إلى مآرب غير شرعية، بل كانت سمته الطبيعي وفطرته التي جبله الله عليها .

وشتان ما بين رحمة خالصة لوجه الله، ورحمة خالصة من أجل منفعة شخصية وضيعة، وشتان بين رحمة من أجل رسالة سامية، ورحمة من أجل زعامة فانية، "هكذا كانت "الرحمة" في يد رسول الله مفتاحًا سحريًّا. وبهذا المفتاح فتح مغاليق أقفال صدئة لم يكن أحد يتوقع فتحها بأي مفتاح، وأشعل شعلة الإيمان في القلوب، أجل، لقد سلّم هذا المفتاح الذهبي إلى محمد المصطفىﷺ؛ لأنه كان أليق الناس به، والله تعالى دائمًا يسلم الأمانة لمن هو أهل لها."[١]

ومن خصائص رحمة النبيﷺ أيضاً أنها رحمة متزنة وعادلة، فهو رحيم دون ضعف، متواضع بغير ذلة، محاربٌ لا يغدر، سياسيٌّ لا يكذب، يستخدم الحيلة في الحرب ولكن لا ينقض العهود والمواثيق، آمن خصومه بصدقه وأمانته، يجمع بين التوكل والتدبير، وبين العبادة والعمل، وبين الرحمة والحرب [٢]، وهذا وهو الحال في أخلاق محمدﷺ جميعها، فهي تعمل ضمن منظومة متناسقة متناغمة، تتشابك جميعها لتأدية أغراضها، فلا تتوسع صفة أو تقوى على حساب أخرى، ولا تعمل إحداها ضد الصفة التي تقابلها كالقرآن والسيف في دعوة النبي فالقرآن كتاب هداية لمن أراد الهدى، والسيف معه وسيلة لردع من يعتدي عليه، ويشير "جورج حنا"[٣] إلى هذا التوازن في شخصية النبيﷺ، فيقول: "إنه [ﷺ] لم يرض بأن يحوّل خدّه الأيسر لمن يضربه على خدّه الأيمن.. بل مشى في طريقه غير هيّاب، في يده الواحدة رسالة هداية، يهدي بها من سالموه، وفي يده الثانية سيف يحارب به من يحاربوه. لقد آمن به نفر قليل في بداية الدعوة، وكان نصيب هذا النفر مثل نصيبه من الاضطهاد والتكفير، كان هؤلاء باكورة الديانة الإسلامية، والشعلة التي انطلقت منها رسالة محمد"، ومظهرٌ آخر للتوازن، هو ثبات صفة الرحمة فيهﷺ، فهو رحيم في كل أحواله وأطواره ومواقفه، فالنبي رحيم قبل البعثة وبعد البعثة، قبل الفتح وبعد الفتح، رحيم في النصر والهزيمة، رحيم في عسره ويسره، رحيم في سفره وحضره ... الخ

ومن خصائص رحمة النبيﷺ أيضاً أنها ليست مجرد تعاليم نظرية، أو تطلعات فلسفية، أو كما يقال حبراً على ورق، بل شأنها كشأن سائر خصاله وأخلاقه التي ترجمها إلى منهج حياة عملية، وواقع حي عاشه المسلمون في العهود الإسلامية العريقة، فرحمة النبي محمدﷺ رحمة تطبيقية يمارسها في حياته اليومية، كما تقول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه، فقالت"كان خلقه القرآن "[٤]، فقد خرج من تعاليم القرآن المكتوبة إلى واقع الحياة بتطبيق هذه التعاليم وممارستها سلوكاً عمليًا.

سابعا: الحكمة البالغة والكاملة:

لغة أحكم الأمر: أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد [٥]، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم [٦]، والحكيم: المتقن للأمور، يقال للرجل إذا كان حكيمًا: قد أحكمته

---

(١) –محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية ٦/١

(٢) –انظر محمد علي الخطيب: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة، ٣٣.

(٣) –الدكتور جورج حنا: كاتب نصراني من لبنان، وصاحب كتاب (قصة الإنسان)، والنص من كتابه: قصة الإنسان، ص ٧٦.

(٤) –صحيح – رواه أحمد برقم ٢٣٤٦٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم٤٨١١.

(٥) –القاموس المحيط، باب الميم، فصل الحاء، ص١٤١٥، لسان العرب لابن منظور، باب الميم، فصل الحاء١٤٣/١٢، ومختار الصحاح، مادة: حكم، ص٦٢

(٦) –النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مادة حكم ١/ ١١٩، لسان العرب لابن منظور، ١٢/ ١٤٠، والمعجم الوسيط، مادة: حكم: ١/ ١٩٠.

التجارب [١]، وفي الاصطلاح الشرعي: عرفت الحكمة بتعاريف كثيرة وذكر بعضهم تسعة وعشرين قولًا في تعريف الحكمة [٢]، وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما نقل هو نوع من الحكمة وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة، لأنه يمتنع به من السفه، وبه يعلم الامتناع من السفه الذي هو كل فعل قبيح [٣]، وعند التأمل والنظر نجد أن التعريف الشامل الذي يجمع ويضم جميع الأقوال في تعريف الحكمة هو: " **الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه** "[٤].

قال النووي وأما الحكمة ففيها أقوال كثيرة مضطربة قد اقتصر كل من قائليها على بعض صفات الحكمة، وقد صفا لنا منها: أن الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به والصد عن اتباع الهوى والباطل، والحكيم من له ذلك. قال أبو بكر بن دريد: "كل كلمة وعظتك وزجرتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وحكم "[٥]، وقال ابن القيم: والحكمة، حكمتان: **علمية، وعملية**. فالعلمية: **الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها**، خلقا وأمرا، قدرا وشرعا. والعملية: **وضع الشيء في موضعه**، ثم قال: وهي على ثلاث درجات: الأولى: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه، والثانية: أن تشهد نظر الله في وعده، وتعرف عدله في حكمه، وتلحظ بره في منعه. والثالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة، وفي إرشادك الحقيقة، وفي إشاراتك الغاية. يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم، وهي البصيرة التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة على سائر الأمة، وهي أعلى درجات العلماء [٦]. وهذه الدرجة تلقّوها عن نبي الحكمة رسول الهدى الذي تربوا بين يديه عليه الصلاة والسلام.

أما عن حكمته الباهرة في تحقيق حاجات البشرية وعلاج أهم مشاكلها فلنا فصل حولها، فهنالك مشكلات سياسية مخيفة، وأزمات اجتماعية عنيفة، وهزات اقتصادية كثيفة، تكاد أن تأخذ برقاب البشرية قاطبة، وذلك بسبب الانحراف عن الشريعة التي أنزلها الله تعالى رحمة للعباد والبلاد على خير الأنبياء والعباد، فهي تتخبط في كل يوم بالتغيير والتعديل لهذه القوانين البشرية، ويقول المفكر اللبناني المسيحي نصري سلهب: " تراثك يا ابن عبد الله ينبغي أن يُحيا، لا في النفوس والقلوب فحسب، بل في واقع الحياة، فيما يعاني البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب كل مشكلة، مهما استعصت وتعقدت، نجد لها في آثارك حلاً". [٧]

يقول الكاتب الإنكليزي هربرت جورج ولز: " كل شريعة لا تسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فأضرب بها عرض الحائط ولا تبال بها، لأن الشريعة التي لا تسير مع المدنية جنبا إلى جنب هي شر مستطير على أصحابها تجرهم إلى الهلاك، وإن الشريعة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الشريعة الإسلامية، وإذا أراد إنسان أن يعرف شيئا من هذا فليقرأ القرآن وما به من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع: فهو كتاب ديني علمي اجتماعي تهذيبي خلقي

---

(١) –انظر: لسان العرب لابن منظور، باب الميم، فصل الحاء، ١٢/ ١٤٣، ومختار الصحاح، مادة: حكم، ص ٦٢.
(٢) –انظر: تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي ٢/ ٣٢٠.
(٣) –الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٣٣٠، وانظر: البحر المحيط ٢/ ٣٢٠.
(٤) –الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ، ص: ٢٧
(٥) –شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/ ٣٣.
(٦) –انظر: مدارج السالكين، منزلة الحكمة ٢ / ٤٧٨.
(٢) –في خطى محمد ص٣٩٦.

تاريخي، وكثير من أنظمته وقوانينه تستعمل حتى في وقتنا الحالي، وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة، وهل في استطاعة إنسان أن يأتيني بدور من الأدوار كانت فيه الشريعة الإسلامية مغايرة للمدنية والتقدم؟[١]

أُنزل القرآن الكريم هداية للبشرية كما قال منزله: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[الإسراء/٩]، وقد أخذه نبي الحكمة ﷺ بقوة، فتمكن بهذا القرآن المحكم أن يعالج ظلمات الجهل بأنوار العلم، وأن ينقل الناس من رعاة غنم إلى قيادة أُمم، فكانت قيادة رائدة، ومنهجية رائعة، بهرت الحضارات الأخرى، وشهد له أرباب الهمم الذين يتصدرون لحل مشاكل الأمم... وتم تخصيص فصل الخامس في الكتاب حول هذه القضية.

أما بالنسبة لأسلوب معالجة الرسول للمواقف والأحداث فلا يشك إنسان أن الدعوة بالمواقف المشرفة لها الأثر الكبير في قلوب المدعوين، والمواقف المشرفة تدفع المدعو إلى التفكر، والتأمل كثيرًا، وربما تكون نقطة التحول في حياته، وقد كانت حياة النبي كلها مواقف حكيمة رحيمة في دعوته إلى الله، وكم كان له من المواقف المشرفة التي دخل كثير من الناس الإسلام بفضل الله ثم بسببها!

تجري الحكمة على لسان رسول الله كالماء الزلال، وأفعاله كلها عين الحكمة، وسأختار بعض الأمثلة، لبيان الحكمة في السنة، مكتفيا من القلادة بما أحاط بالعنق:

١-فنجد حكمته صلى الله عليه وسلم في حسن تعامله مع أصحابه ومراعاته لأحوالهم، وهذا أكثر من أن يحصى، وأشهر من أن يؤتى له بمثال.

٢-إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم للسائلين، حيث قد يبدو الخلاف والتعارض-أحيانا-بينها، بينما هي من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، وذلك لحكمة عظيمة، وهي مراعاة حال السائلين، ولنأخذ هذا المثال:

(أ) " سأل عبد الله بن مسعود رسول الله قائلا: «يا رسول الله! أي العمل أفضل؟ قال: "الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين"، قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"، فسكت عن رسول الله، ولو استزدته لزادني» [٢] .

(ب) وعن عائشة أنها قالت: «يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: لكن أفضل الجهاد حج مبرور» [٣] .

(ج) وعن عبد الله بن بسر " أن رجلا قال: «يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: "لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله» رواه أحمد والترمذي [٤] .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي سأل أصحابها عن أفضل العمل، فاختلفت إجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مراعاة لحال السائلين، وإدراكا منه صلى الله عليه وسلم أن ما يستطيعه هذا قد لا يستطيعه ذاك، إلى غير ذلك من الأسباب التي يراعى فيها حال الفرد وحاجة الأمة وقواعد الشرع، ولو أن الدعاة استطاعوا أن يكلفوا كل إنسان بما يحسنه ويبتعد عما لا يستطيع، لحققت الأمة اكتفاء ذاتيا في أغلب مجالاتها، ولكن واقع أغلب الناس، كما قال الشاعر: ومكلف الأشياء ضدّ طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

٣-وانظر إلى هذا الأسلوب الحكيم من لدنه صلى الله عليه وسلم لمعالجة قضية مهمة تحتاج إلى الحكمة، وبعد النظر، عن أبي أمامة الباهلي قال: «إن فتى شابا أتى إلى النبي فقال: " يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه

---

(٣) -انظر قطوف دانية من مآثر المسلمين ٩٢.

(٢) -رواه البخاري (٢٧٨٢)

(٣) -رواه البخاري (٢٧٨٤)

(٤) -مسند أحمد (٤ / ١٩٤) صحيح الترمذي للألباني (٣ / ١٣٩) وانظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٤٧.

فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله!!-جعلني الله فداك- قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله!! يا رسول الله-جعلني الله فداك-قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله!! -جعلني الله فداك-قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله!!-جعلني الله فداك-قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله!!-جعلني الله فداك-، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء» [(١)]. أرأيتم مثل هذا الأسلوب، كيف جاء هذا الشاب وقد هاجت شهوته، ورغب في الحرام، وعاد عفيفا محصنا بعيدا عن الشهوة والشبهة.

٤- ولعل من أهم الأمثلة في هذا المجال، قصة الحديبية، وما وقع فيها من أحداث كانت تقتضي الحكمة في أسمى معانيها، وإلا لحدثت أمور لا تحمد عقباها، ويطول التفصيل في ذلك، وسأقتصر على قضية واحدة لتكون لنا عبرة ونبراسا، وتلك القضية هي كتابة الصلح، ولنقرأ كما في صحيح البخاري، وفيه: «فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب فقال اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب: باسمك اللهم. ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي: والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله ... » الحديث [(٢)]

إن التأمل في هذه الحادثة العظيمة، يبين لنا مقدار حكمة رسول الله وعدم استجابته للاستفزاز، أو الوقوف عند أمر فيه سعة مع أنه يحقق، للمسلمين مكاسب باهرة، وهذا من باب النظر في المصلحتين والسعي لتحصيل أعلاهما، ولذلك جاءت النتيجة بتسمية الله لهذا الصلح فتحا، {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} (الفتح: ١).

ونبين هنا أن هناك قضايا لا تقبل التنازل أبدا، وهذه هي الحكمة، وهذا كثير جدا في كتاب الله، وسنة رسوله وفعل الخلفاء الراشدين، ومن ذلك سبب نزول سورة (الكافرون) {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} وكذلك قصة قريش مع رسول الله، عندما طلبوا أن يخصص لهم مجلسا دون الضعفة من المسلمين، فنزل قوله تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} (الأنعام: ٥٢) وقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} (الكهف: ٢٨)

وكذلك عندما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ودعاهم إلى الإسلام، اشترطوا أن يدع لهم اللات ثلاث سنين - لا يهدمها-فأبى رسول الله ذلك، حتى إنهم تنازلوا شيئا فشيئا إلى أن طلبوا إمهال هدمها شهرا واحدا، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم عندما طلبوا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم، وافقهم على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للفرق بين الطلبين، وهنا يتميز الحكيم عن غيره، وهو الذي يتنازل عن الكل أو يرفض الكل مع الفرق بينهما [(٣)].

أما أبو بكر وقصته في حرب الردة، وعدم تنازله عن شعيرة من شعائر الإسلام، وقوله كلمته الخالدة: " والله لو منعوني عناقا -أو عقالا-كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم عليها، وحيث يبين أنه سيسوي بين من ترك الصلاة، ومنع الزكاة،

---

(١) -مسند الإمام أحمد ٥ / ٢٥٦، وقد صححه الألباني.

(٢) -صحيح البخاري ٣ / ١٠٠.

(٣) -انظر: سيرة ابن هشام ٤ / ١٩٧ وتخريج العلماء للأثر في كتاب الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٧٤ وقد ضعفه الألباني في فقه السيرة وحسنه غيره.

ولن يقبل التفريق بينهما، والقصة مفصلة في كتب الحديث والسيرة [١] وهذه هي الحكمة كما عرفناها، هذا ما شهد به عمر-الفاروق-حيث كان مخالفا لأبي بكر في أول الأمر، ثم عرف أنه الحق لما شرح الله صدر أبي بكر وثبت عليه.

٥-أما أعظم أمر رأيت الحكمة متمثلة فيه من خلال منهج الرسول الكريم فهو معالجة قضية المنافقين، وهو العلاج الذي استمر منذ هجرته إلى المدينة وحتى غزوة تبوك، بل إلى وفاته وكما شغل حيزا كبيرا من وقته في المدينة، فقد نزلت فيها آيات كثيرة جدا في كتاب الله، حتى نزلت سورة كاملة في هذا الموضوع، وقد اتسم علاج هذه المشكلة بعدة سمات، من أبرزها:

١-طول المدة، وهي ما بين هجرته إلى قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على الصبر العظيم، الذي تحلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعالج هذه المشكلة العويصة بتؤدة وروية.

٢-الآيات الكثيرة التي نزلت في القضية، حيث لا يقاربها قضية أخرى إلا قضية الشرك والمشركين، وقضية أهل الكتاب. والله-سبحانه-قادر على حسمها في آية واحدة، ولكن القرآن جاء ليرسم منهجا للبشر فيه صفة الشمول والديمومة، لأنه دين عالمي.

٣-الحرص على وحدة الصف، مع عدم السكوت عن الباطل، وإقراره، أو هذه مسألة يغفل عنها كثير من الدعاة، وقد تحقق الأمران، فبقي الصف المسلم موحدا، وتم القضاء على فتنة المنافقين بأساليب عدة.

٤-أخذ الناس بظواهرهم، وترك سرائرهم إلى الله، وهو منهج فريد تميز به الإسلام عن سائر النظم والأديان، ومع أن المنافقين أشد كفرا من المشركين فلم يؤاخذوا إلا بما ظهر منهم، مع علم الرسول صلى الله عليه وسلم بما هم عليه من النفاق والكفر، ولكن القضية قضية منهج، وليست قضية أفراد يتم القضاء عليهم، ثم ينتهي الأمر، لأن المسألة أعمق من ذلك وأبعد، فجاء العلاج متوازيا مع حجم المشكلة وأبعادها وآثارها.

٥-المحافظة على هيبة المجتمع المسلم في نظر الأعداء والخصوم، «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[٢] وبخاصة مع كثرة الأعداء، واستغلالهم لكل فرصة تسنح لهم داخل الصف.

٦-تركيز القرآن على الصفات وعدم ذكر الأفراد، حيث لم يرد في القرآن اسم منافق واحد.

وهذا المنهج حقق آثارا إيجابية ضخمة، وكان كفيلا بالقضاء على هذه الحركة مع تجاوز السلبيات المتوقعة، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم في نهاية المطاف ردا على عمر-الفاروق-الذي طالما طالب بقتل المنافقين حمية لدين الله: «لو قتلنا هؤلاء يوم طلب عمر لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم» [٣] وهذا المنهج هو الذي أدى إلى قتلهم معنويا، دون الحاجة إلى قتل أي فرد منهم حسيا. وهذه -والله-هي الحكمة في أسمى معانيها.

إننا اليوم بأمس الحاجة إلى دراسة منهج مواجهة حركة النفاق في الصدر الأول، ومن ذلك دراسة الآيات التي نزلت في هذه القضية، وبخاصة في سور (البقرة -التوبة -الأحزاب -المنافقون). وبهذا نستطيع أن نحقق ما يلي:

١-معرفة الوسائل الموصلة إلى الكشف عن هوية المنافقين في مجتمعنا، ومدى تأثيرهم في المجتمع.

٢-رسم منهج شرعي لمواجهة هذه الحركة، وأسلوب التعامل معها.

٣-شل فاعليتها، ثم القضاء عليها دون إحداث فتن داخل الصف المسلم.... ولن يتحقق هذا الأمر إلا بالالتزام بالحكمة التي رأينا بعض مظاهرها، وسماتها في منهج النبي، عند معالجة هذه القضية الكبرى.

---

(١) -انظر: فتح الباري ٣ / ٣٦٢ كتاب الزكاة.

(٢) -رواه البخاري ٤ / ١٦٠.

(٣) -انظر: تفسير الطبري ٢٨ / ٧٦، وسيرة ابن هشام ٣ / ٣٢٧. الحكمة، ناصر بن سليمان العمر، منشور لوزارة الأوقاف السعودية ص: ٢٥-٣٥.

الباب الأول: خطوط عريضة في حياة خاتم النبيين. وفيه ثلاثة فصول

الأول: خاتم النّبيّين في مكة المكرمة.

الثاني: خاتم النّبيّين في المدينة المنورة.

الثالث: مِنَح البعثة المحمديّة للإنسانية، وأثرها في تاريخ الإنسان.

الفصل الأول: حياة خاتم النّبيين في مكة المكرمة [١]

تمهيد

١-الميلاد والطفولة والنشأة.

٢-زواجه ودراسة شبهة الشهوانية التي حاول البعض إلصاقها به.

٣-حول أخلاق وصفات خاتم النبيين عند المؤرخين وكما رواها من عاصره.

٤-صورة عن حالة العالم عشية البعثة الخاتمة.

٥-البعثة والوحي.

٦-المساومات والمفاوضات والحرب الإعلامية على الدعوة.

٧-الفرار بالدين والحصار الاقتصادي ورحلة الطائف.

٨-جهود النبيﷺ لإيجاد موطن جديد لرسالته.

تمهيد: لقد استغرق هذا العهد فترة طويلة من حياة خاتم النبيين إذ بلغ (٥٣) سنة، أما في المدينة النبوية فقد عاش (١٠) سنوات، من أجل ذلك فإن الحديث عن العهد المكي حافل بالحوادث والأخبار، وجدير بالاستنباط والاعتبار، وقد حظي هذا العهد بتنزيل قرآني غزير يشكل أكثر من ثلاثة أضعاف التنزيل المدني، فقد بلغ عدد السور المكية (٨٦) سورة بينما بلغ عدد السور المدنية (٢٨) سورة، إضافة إلى ذلك أن بعض السور المدنية فيها آيات مكية، وهذا التنزيل العظيم يضفي إلى وقائع السيرة كثيراً من المشاهد الموثوقة والأخبار المؤكدة، وذلك من خلال فحوى التنزيل المكي وما فيه من المقاصد، فإن هذه المقاصد قائمة بكل جزئياتها في حياة نبي الرحمة ﷺ ومن معه من الصحابة، فقد كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويترجم آياته بأقواله وأفعاله، والصحابة يقتدون به، ويتشوقون إلى تنزيل القرآن ومعرفة معانيه، فتكون هذه المقاصد ضمن منظومة السيرة النبوية فحينما نتتبع خصائص التنزيل المكي فكأننا نرى معالم جديدة من السيرة العطرة، ومن خصائص التنزيل المكي:

١-تقرير أسس العقيدة والدعوة إلى توحيد العبودية والربوبية.

---

(١) -المراجع الرئيسية لهذا الباب: سيرة ابن هشام وابن كثير وطبقات ابن سعد وزاد المعاد في هدى خير العباد، ومن المصادر الحديثة: محمد مسعود ياقوت، نبي الرحمة و أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، محمد نبي الرحمة والحكمة بين عيون المعتدلين وفتون المعتدين، ص: ١٠-٥٨. وكتابَي نبي الرحمة، وأخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ل د. محمد أحمد المبيّض، والسيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة د. محمد أبو شهبة، وخاتم النبيين، محمد أبو زهرة، الجامع الصحيح للسيرة النبوية، د. سعد المرصفي، الموسوعة في صحيح السيرة النبوية، دراسة موثقة لما جاء عنها في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والروايات التاريخية المعتمدة علمياً مرتبة على أعوام عمر النبي صلى الله عليه وسلم (العهد المكي)، د. محمد عبد الرحمن الفالوذة. وكتاب دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل. والسيرة النبوية الصحيحة ل د. أكرم العمري.

٢-الدعوة إلى أصول الأخلاق كالصدقة والبر وصلة الأرحام وبرِّ الوالدين وإكرام الجار والعدل والإحسان بالضعيف واليتيم.

٣-العناية بقصص الأنبياء والاعتبار بها.

وكل هذه الخصائص تضفي إلى السيرة مزيداً من المشاهد من القصص والآداب والأحكام والأخبار بل وتحدد لنا أوقاتها من خلال معرفة أول ما نزل، والمتقدم والمتأخر، وأسباب النزول، وكذلك معرفة التنزيل الحضري والسفري، ومعرفة النهاري والليلي، والصيفي والشتائي، فإنه يعطي مزيداً من المعلومات الدقيقة والموثوقة، فيتجلى المزيد من مظاهر ومشاهد السيرة النبوية بوضوح.

فعلى سبيل المثال لو استعرضنا مقاصد سورة العلق وسورة المزمل وهما أول ما نزل، لوجدنا الحث على العلم بالقراءة، وبيان توحيد الربوبية بأن الله هو الذي خلق الإنسان وعلمه البيان وما لم يعلم، وبيان المعركة بين الإيمان والكفر، واعتداء المشركين على المؤمنين، وتهديد المشركين الذين يعتدون على المؤمنين، وبشرى المؤمنين، وكذلك نجد سورة المزمل تتناول جانباً مهماً من عبادة النبي في طاعته وقيامه الليل وتلاوته لكتاب الله تعالى، وفيها الأمر بالصبر على أذى المشركين، ثم توعد الله المشركين، وذكر الصحابة أنهم كانوا يقيمون الليل معه، ثم رغَّب المؤمنين بأعمال البر والاستغفار، وأن لهم الثواب من عند الله تعالى على ذلك، ويستنبط من ذلك تسابقهم بأعمال البر، وكثرة استغفارهم لأن هذا التنزيل من أوائل ما نزل، وفي تلك الفترة قد دخل الإسلام الأوائل من الصحابة الذين يستجيبون لهذا القرآن بقوة، فيعطي تصوراً واضحاً عن أحوالهم وأعمالهم من خلال تلك الأوامر والنواهي القرآنية.

وهكذا كلما نظرنا في مزيد من السور المكية سنجد مزيداً من المشاهد والمظاهر للعهد المكي الذي عاش فيه نبي الرحمة والحكمة مع أصحابه.

١-الميلاد والطفولة والنشأة:

هو خاتم النّبيّين محمد بن عبد الله، وله أسماء عدة، أشار إلى بعضها فقال " **لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي (أي يُحشر الناس إثر بعثه)، وأنا العاقب**"[١] والعاقب الذي ليس بعده نبي.

كانت نشأته مؤيدة بالهداية والحكمة، ومنذ أن كان جنيناً في بطن أمه فقد أشرقت الأرض بنور ربها وسطع نوره من مكة المكرمة إلى بلاد الشام المباركة، كما صرحت بذلك أمه آمنة بنت وهب فقد رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام،[٢] وفي ذلك بشرى كريمة ورحمة عظيم، قالﷺ: «**إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ: دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ** »[٣] في هذه الرؤيا التي رأتها آمنة دلالات منها، عالمية الرسالة وخروجها عن حدود موطنها الأصلي، أما النور فتلك إشارة مجازية إلى الخير والبركة والرحمة التي ستنالها البلاد بهذا الجنين الذي كان في بطنها، وفي الأثر إشارة إلى تلك البذرة المباركة وتقلبها في أصلاب الأطهار إلى أن جاء قدرها بالخروج للدنيا.

---

(١) -صحيح البخاري، ج ٢، كتاب المناقب وأخرجه مسلم في الفضائل -باب: في أسمائه صلى الله عليه وسلم -رقم: ٢٣٥٤

(٢) -أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٦٠٠) وأخرجه الذهبي بسند حسنه عن العرباض بن سارية (السيرة النبوية ص١٦) وأخرجه ابن إسحاق بسند جيد قوي كما قال الحافظ ابن كثير (البداية والنهاية ٢/٢٧٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح١٥٤٥.

(٣) -أخرجه احمد المسند (٤/١٢٧)، وابن حبان في صحيحه برقم ٦٤٠٤ والحاكم برقم ٤١٧٥ المستدرك (٢/٦٥٦) انظر البغوي برقم ٣٥٢٠ شرح السنة(٧/١٣)

ولما وُلد نبي الرحمة عام الفيل [١] فإنه في ذلك اليوم المبارك ظهرت رحمة الله تعالى تتنزل على أهل مكة بدحر جحافل أبرهة الحبشي، والذود عن الكعبة التي هي القلب النابض لأهل مكة، والتي أراد أبرهة هدمها فأهلكه الله تعالى وجنده وفيَله بالحجارة التي أمطرتها الطير الأبابيل، فكان ذلك اليوم نصراً مؤزراً لقريش، مما يبشر بالخير الذي سيجلبه هذا المولود الودود، إنها ولادة رحمة للعالمين، وحكمة للمؤمنين.

لقد عاش في بيئة عربية أصيلة في أطهر بقعة في الأرض ألا وهي مكة المكرمة، ونشأ في بيت كريم ذي مجد عظيم، هو بيت بني هاشم المعروف بسخائه وطيبه، هذا البيت من قبيلة عريقة كريمة هي (قريش) المشهورة في الجزيرة العربية بمكانتها ومناقبها [٢] وضيافتها للحجيج وقصَّاد بيت الله الحرام.

ويصل نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام فهو نسب زكي [٣] كما قال ابن هشام: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، واسم عبد المطلب: شيبة بن هاشم، واسم هاشم: عَمرو بن عبدُ مناف، واسم عبدُ مناف: المغيرة بن قُصي، (واسم قصي: زيد) بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة، واسم مُدركة: عامر بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعد بن عدنان. [٤]، وكذا ذكره البخاري في صحيحه. [٥]، أما النسب من عدنان إلى إسماعيل فمختلف فيه [٦]، ولكنهم اتفقوا على أن النسب يرجع إلى إسماعيل بن إبراهيم خليل الله تعالى [٧]، بل قد ثبت ذلك عن النبيﷺ أنه قال: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم". [٨]

وقد وُلِد يتيماً، واستُرضِع له في بني سعد، فأرضعته حليمة السعدية، وأقام عندها في بني سعد نحواً من أربع سنين [٩]، بين المروج الخضراء، ونقاء الهواء، إن اختيار ديار بني سعد اختيار حكيم لما في تلك الديار من الخيرات والبركات والقبائل الأصيلة منهم رجال الجبال وجبال الرجال، وإن هذا الرضاع الممزوج بالرحمة والأدب له أثره في النشأة على الرحمة والتراحم.

وفي هذه الرحلة المباركة بدأت إرهاصات النبوة تتجلى بالإعداد لهذه المهمة الكبرى، فقد صحَّ عن أنس بن مالك أن رسول الله أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان. فأخذه فصرعه فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده في مكانه. **وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.** [١٠]

وكان لهذه التربية في بني سعد أثر واضح في أخلاق النبيﷺ وفصاحته، يقول الزمخشري عن تلك الفصاحة التي اكتسب النبيﷺ بذرتها الأولى في ديار سعد: «**هذا اللسان العربي كأن الله عزت قدرته مخّضه وألقى زبدته على لسان**

---

(١) –أخرجه الذهبي بسنده عن ابن عباس وصححه الذهبي (السيرة النبوية ص٥) وذكر إبراهيم بن المنذر الحزامي ت٢٣٦هـ الإجماع على ذلك، وكذا المؤرخ خليفة بن خياط ت٢٤٠هـ (ينظر المصدر السابق ص٦، والفصول في اختصار سيرة الرسول ص٨٠).

(٢) –عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان (باب مناقب قريش) وسرد عدة أحاديث من ٣٥٠٠ إلى ٣٥٠٥ في كتاب المناقب.

(٣) –هكذا وصف ابن هشام نسب النبي وقد توّج كتابه السيرة النبوية بذلك ١/١.

(٤) –السيرة النبوية ١/١-٢.

(٥) –الصحيح – كتاب مناقب الأنصار–باب مبعث النبي قبل حديث رقم ٣٨٥١.

(٦) –ينظر الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل ص٣٣٣.

(٧) –ينظر خلاصة سير سيد البشر ص٢٠٠.

(٨) –مسلم كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ح٢٢٧٦. وفي هذا ردّ صريح وأثر صحيح على بعض المستشرقين الذين أنكروا أن نبي الرحمة من نسل إسماعيل.

(٩) –قال الحافظ ابن كثير: كما روينا ذلك بإسناد صحيح (الفصول ص٨٠).

(١٠) –صحيح مسلم – الإيمان – باب الإسراء برسول الله ح٢٦١.

النبيﷺ فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل» [١]، ومما يذكر عن هذه الرحلة وهو كنف حليمة علمت حليمة أن هذا اليتيم الذي حملته معها من مكة كان نسمة مباركة عاينتها في كل لحظة وقالت قولتها: «**فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه**» هناء وخير وبركة والله أعلم بما حملت!! لكنها لم تكن تعلم أنها أيضاً قد نالت شرفاً عظيماً تحسده عليها كل نساء الأرض لو علمن، فهي قد احتضنت وأرضعت طفلاً يُصطنع ليكون رحمة للعالم أجمع، إن من ترضعيه يا حليمة هو من سيحمل مفاتيح السعادة للبشرية كاملة، فهنيئاً لك يا حليمة على هذا الشرف العظيم.

تلك التغيرات المباركة التي حلت بدار حليمة السعدية، بل بمراعي ديار سعد، وتحولها من حال الجدب إلى النماء[٢] تتضمن إشارة هامة وهي أن نبي الرحمة رديف لكل خير وبركة ونماء في الأرض حيثما حل، وكما أن هناك أسباباً للخير على الأرض، فالأجدر بالحبيب محمدﷺ أن يكون في مقدمة أسباب البركة والخير الإلهي خاصة وأنه في قدر اللهﷻ يصطنع ليكون عنوان أعظم رحمة عالمية بالبشرية، كذلك هذه التغيرات تضيف رصيداً قوياً دالاً على صدق نبوته، فهذه الأحداث وقعت معه وهو طفل رضيع لا حول له ولا قوة وقبل إعلانه النبوة بأربعين سنة تقريباً مما يشير إلى أن الأمر كان خارجاً عن إرادته.

أما عن حادثة شق الصدر وهي حادثة حسية، وأما العلقة التي أخرجها الملك، فهي علقة خلقها الله في قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه، فلم يبق في قلبه مكان لأن يلقي الشيطان فيه شيئاً، وهذه الحادثة التي تشير إلى عملية تطهير معنوي لقلب الرسول قد وقعت بشكل حسي مادي ؛ حيث تم غسل القلب المعنوي موطن الاعتقادات والمشاعر، وكذلك استخراج موضع قابلية الإنسان لتلقي وساوس الشيطان، وقد عبر عنه الأثر بكلمة علقة، فهذا التصوير الحسي المادي إنما يشير بوضوح إلى أننا أمام بشر تصطنعه العناية الإلهية لأمر عظيم، وتهيؤه لمقام محمود، وحصولها بصورة حسية يعاينها بعض البشر ويبقى أثرها على صدره الشريف ليكون ذلك أقرب إلى تصديق الناس له وليتحققوا كمال باطنه كما عاينوا كمال ظاهره .

فهذه الحادثة إمعان في تطهير النبي وتهيئته للرسالة وتأكيد على العصمة الإلهية له خلال صباه لينشأ على أكمل الأحوال بعيداً عن صولات الشيطان ووساوسه وبعيداً عن حالات الصبا العابثة المستهترة، وهي أشبه بتلك العصمة التي نالتها مريم وابنها حيث لم يمسهما الشيطان عند ميلادهما، وهذا التطهير لا يشير إلى نقص كان في طهارة النبي قبل الحادثة، بل تأكيد على طهره الذي تعهدته العناية الإلهية في أصلاب الأطهار وهو نطفة، حتى أصبح في صفاء النور من طهره، ولعل أبلغ ما قيل في حادثة شق الصدر ما ذكره السيد الحبشي:

وما أخرج الأملاك من قلبه أذى ولكنهم زادوه طهراً على طهر.

وهناك إشارة لطيفة لحادثة شق الصدر ذكرها محمد علوي في كتابه الأخبار والآثار: «**إن قلب محمدﷺ مملوء بالرحمة، بل هو منبعها وأصلها كما قال الله سبحانه وتعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهذه الرحمة شاملة كاملة .. ولكن الله أخرج الشيطان وأعوانه وإخوانه ومن قدر عليه الشقاء من هذه الرحمة، فلا نصيب لهم فيها ولا شيء لهم منها، ويكون المعنى حينئذ أنهم أخرجوا من قلبه الشريف حظ الشيطان من رحمته، فلا حظ للشيطان من هذه الرحمة، والله أعلم**» [٣]، يكفي في هذا المقام الإشارة إلى أننا لسنا أمام بشر عادي، بل أمام شخص

---

(١) –المناوي: فيض القدير (٤٤/٣)

(٢) –انظر ابن هشام: السيرة النبوية (١١٧/١ وما بعدها)، والطبري: تاريخ الطبري (٤٥٤/١ وما بعدها)

(٣) –انظر الحسني: محمد الإنسان الكامل (٢٩ وما بعدها)

منظور له من السماء تتعهده العناية الإلهية وتتكفله التربية الربانية ليكون المثل البشري الكامل وخلاصة جهد النبوة ومجمعها، ومثل هذه الأحداث بالنسبة لمن حوله تبرز أن إعلان النبي عن بدء رسالته لم تكن مفاجأة عارية عن المقدمات، بل كانت تفسيراً لسبب الخصوصية التي نالها منذ اللحظة الأولى لحياته .

تروي كتب السير أن مكة أصابها قحط شديد، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه محمدﷺ وهو غلام، فحمله وألصق ظهره بالكعبة يستسقي به، وما كان في السماء قزعة، فأقبل السحاب وأغدق، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي، وقال أبو طالب قصيدة طويلة بهذه المناسبة، منها هذا البيت: **وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل** [١]

وهذه القصة لها دلالات عدة منها: أن أبا طالب قد لاحظ في محمدﷺ إرهاصات متعددة عززت عنده أن له مكانة خاصة عند من بيده ملكوت السموات والأرض لذا رأى أن أعظم وسيلة للاستسقاء هو التوسل بهذا الغلام المبارك بين يدي الله، وكذلك هذه القصة التي عاينها أهل مكة وتغيرت حالهم بسببها من الجدب إلى النماء تعتبر من أعظم الفأل لهم بهذا الغلام، وهي مقدمة لقبول ما يدعو له مستقبلاً، وهذا من رحمة الله بهم، وتمهيداً للرسالة، أيضاً هذه القصة تبرز مدى العناية الإلهية بالحبيب محمد ﷺ حيث استجابت السماء له مباشرة، وتعزز ما ذكرت سابقاً أن محمداً كان عنوان خير وبركة لقومه حتى قبل البعثة....

ردَّته حليمة السعدية إلى أمه في المدينة تزور أخواله بني النجار بالمدينة، فتوفيت أُمه بالأبواء [٢]، وهي راجعة إلى مكة وله من العمر ست سنين. [٣]، إن هذه النشأة من اليُتم أعطته القدرة في الاعتماد على النفس وعدم الاتكال على الغير وتحمل الصعاب والمسؤولية، كما عرفته على حال اليتيم وما يحتاج من الرحمة.

ولا شك أن هذا الأمر قد أحزنه إلا أن رحمة الله تعالى واسعة، فقد هيأ الله تعالى له امرأة حنون تدعى أُم أيمن وهي مولاته، ورثها من أبيه، وكفله جده عبد المطلب، فلما بلغ رسول الله من العمر ثماني سنين توفي جده، وأوصى به إلى عمِّه أبي طالب، لأنه كان شقيق عبد الله فكفله، وحاطه أتم حياطة، ونصره حين بعثه الله أعزّ نصر. [٤]

فلم تطل رعاية الجد وعطفه الذي عوّض حفيده حدب الأب وحنان الأم، فتولى أمره عمه أبو طالب، لأنه وعبد الله والد الرسول كانا لأُم واحدة، ولم يكن أبو طالب بالرجل الموفور المال، وكان يُعيل عدداً من الأبناء الأمر الذي اضطر محمداًﷺ أن يعينه في كسب قوته حسب طاقته، فكان يرعى له الأغنام. [٥]، إن عمله في الرعي المبكر يدل على تحمل المسؤولية، وقدرته على الرعاية، وخصوصاً أن الرعي يحتاج إلى صبر واجتهاد ومتابعة ومراقبة وعناية وإحصاء، وهنا تبرز رحمته لأنه يرعى بهائم ضعيفة، والراعي إذا لم يكن رحيماً فإنه لا يقدر على هذه المهمة.

وخرج به عمه إلى الشام في تجارة وهو ابن ثنتي عشرة سنة، وذلك من تمام لطفه به، لعدم من يقوم به إذا تركه بمكة، فرأى هو وأصحابه ممن خرج معه إلى الشام من الآيات فيه ما زاد عمّه في الوصاة به والحرص عليه ثم خرج ثانياً إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها. [٦]

ومما حدث في الشام أن راهبا في صومعته اسمه بحيرى عندما عرف النبي بصفته قال لأشياخ مكة: «**هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِين، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ**

(١) –يقصد بالأبيض الذي يستسقى بوجهه الغمام محمدﷺ، ومعنى الشطر الثاني أن محمداً ﷺ غياث اليتامى والمساكين وملجؤهم وعاصمهم من الضياع .
(٢) –الأبواء قرية بين مكة والمدينة تقع بالقرب من مستورة.
(٣) –ينظر: الفصول ص٨٠–٨١، وخلاصة سير سيد البشر ص٢٣١.
(٤) –ينظر الفصول ص٨١–٨٢، وخلاصة سير سيد البشر ص٢٣١.
(٥) –ينظر: دراسة في السيرة ص٣٩، وطبقات ابن سعد ٧٥/١، وتاريخ الطبري ٢٧٧/٢.
(٦) –ينظر: الفصول ص٨١–٨٢، وخلاصة سير سيد البشر ص٢٣١.

حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنْ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا، وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيٍّ وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ» [١]، إن البشارة بنبوة محمدﷺ لم تقتصر على بحيرى فقط، بل حصلت أيضاً من ورقة عندما أخبرته خديجة بخبر الوحي، فقال هذا الناموس الذي نزل على موسى، وحصلت من الراهب الذي أخبر سلمان الفارسي بقرب ظهور نبي وبين له أوصافه ومكان هجرته، وأرشده إلى خاتم النبوة وقال عنه أنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، وكانت هذه الصفات التي سمعها سلمان سبباً في رحلته نحو المدينة، ولقائه برسول الله، وكذلك كان اليهود على علم بخروج النبي وأوصافه وكانوا يهددون بخروجه أهل يثرب، وهذا كان سبباً في إسلام أهل المدينة ليسبقوا اليهود إليه، ومن ذلك إسلام عبد الله بن سلام وزيد بن سعنة وكانا من أحبار اليهود، وقد انتبها للصفات المذكورة في الكتب عندهما فوجداها تنطبق على رسول الله، وجاء في رسالة المقوقس ملك القبط رداً على رسالة محمدﷺ أنه كان يعلم بخروج نبي ولكنه كان يظن أن خروجه في الشام، بل أكدت الآيات أن اليهود كانوا يعلمون محمداً بصفاته أكثر مما يعرفون أبناءهم، وهذا تصريح بأن صفات محمدﷺ في كتبهم كانت صريحة الدلالة عليه .

ويمكن تلخيص الصفات المذكورة عند أهل الكتاب كما وردت في قصة بحيرى وغيره بما يلي:

١- يولد النبيﷺ يتيم الأب.

٢- في عينيه حمرة، وهذه الصفة ذكرها الراهب نسطور لميسرة غلام خديجة عندما كان مع النبي في رحلته التجارية للشام.

٣- النبي الأمي العربي يركب الجمل ويجتزئ بالكسرة، وليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعد ولا بالسبط في عينه حمرة، مشرب اللون، وهذه الأوصاف أخبر بها يهود فدك لبني عبس عندما سألوهم عن رجل في مكة يدعي النبوة. [٢]

٤- يضيق عليه قومه ويخرجوه من بلدهم. وهذه ذكرها ورقة للنبيﷺ بعد نزول الوحي.

٥- يسبق حلمه غضبه، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً وهذه ذكرها زيد بن سعنة الحبر اليهودي[٣]

٦- بين كتفيه خاتم النبوة.

٧- يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ويهاجر إلى أرض ذات نخل وهذه الصفات ذكرها راهب عمورية لسلمان الفارسي وكانت سبباً في قدومه للمدينة وإسلامه.

٨- اسمه أحمد.

٩- سيد المرسلين ورحمة للعالمين.

إن خروج خاتم النبيين لم يكن بشارة نبي واحد بل بشارة كل أنبياء بني إسرائيل وآخرهم عيسى كما صرح ابن كثير في سيرته، وكل بشارة لابد أنها تضمنت جانباً معرفاً من جوانب شخصية الرسول الخاتم، ولا غرابة في ذلك، بل من مقتضيات الرحمة العالمية المتمثلة بشخص رسول الله أن يرشد الله البشرية بكل ما يدل عليها ، ولئن نال المهدي في آخر الزمان كثيراً من الإشارات الدالة على نعته واسمه ومحل خروجه وحروبه مع أنه ليس نبياً، فمن باب أولى أن ينال سيد الكونين وأعظم بشارة للأرض عناية وتعريفاً أكثر من الأنبياء الذين سبقوه.

٢-زواجه ودراسة شبهة الشهوانية التي حاول البعض إلصاقها به:

إن رحلة نبي الرحمة إلى بلاد الشام مرتين أعطته خبرة اقتصادية، وتربية على التراحم بين الأقربين، ودراية اجتماعية بأهل الشام، وإتقان الطريق إلى بلاد الشام والتعرف على المدن التي مرَّ بها ومنها تبوك، ولا شك أن مسيرته إلى غزوة

---

(١) -أخرجه الترمذي برقم ٣٦٢٠ ، وقال حديث حسن غريب [سنن الترمذي (٥/٥٩٠)]

(٢) -انظر الكاندهلوي: حياة الصحابة (١/٧٦)

(٣) -انظر صحيح ابن حبان (١/٥٢١) والحاكم: المستدرك (٣/٧٠٠)

تبوك فيما بعد كانت عن خبرة ودراية لمشقة الطريق، فإن حال الذي يتوجه إلى غزو وهو حديث عهد في مكان الغزوة وطريقها، غير حال الذي يعرف الطريق ومسالكه ومشاكله. ولما كانت الرحلة الثانية إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها على سبيل القِراض، فرأى ميسرة ما أبهره من شأنه، فرجع فأخبر سيدته بما رأى، فرغبت إليه أن يتزوجها، لما رجت في ذلك من الخير الذي جمعه الله لها، فتزوجها رسول الله وله (٢٥) سنة. (١)

بدأ الاستقرار في بيت الزوجية، مع الزوجة الكريمة الحكيمة، والانتقال من بيت عمّه أبي طالب إلى بيت سيدة قريش حسباً ونسباً، وفي هذا الاستقرار مؤازرة من زوجته ومن أهلها المقربين لها، فتكون مرحلة جديدة من حياة نبي الرحمةﷺ وتطور في العلائق الاجتماعية المبنية على التراحم، واستمرت العشرة الزوجية برحماتها مع خديجة رضي الله عنها (٢٤) سنة إذ بقيت عنده قبل الوحي خمس عشرة سنة، وبعده إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنين. فماتت ولرسول اللهﷺ تسع وأربعون سنة، وثمانية أشهر، وكانت له وزير صدق. (٢) بل هي أول من آمن به، وقد خصَّها الله تعالى ثم جبريل عليه السلام بالسلام عليها، وبشرها ببيت في الجنة. (٣)

فصار أباً لستة أولاد، حظوا بأبوة رحيم كريم ونبي عظيم، فنالوا شرفاً مجيداً، ولا شك أنهم حظوا بتسمية جميلة، ودعوة جليلة، وسنن حميدة، وتوفوا كلهم قبل وفاة النبي إلا فاطمة رضي الله عنها توفيت بعده بستة أشهر (٤) وأما ابنه إبراهيمﷺ فسيأتي ذكره في السنة الثامنة للهجرة، ومنذ أن كان نبي الرحمة عمره (٢٥) سنة فقد كان يسكن في بيت خديجة رضي الله عنها، وبقي فيه إلى أن هاجر إلى المدينة النبوية. (٥)

وكان الله سبحانه قد صانه من قسوة القلب وحماه من صغره، وطهره من دنس الجاهلية(٦) ومن كل عيب، ومنحه كل خلق جميل حتى لم يعرف بين قومه إلا بالأمين، لما شاهدوا من رحمته وطهارته وصدق حديثه وأمانته، حتى انه لما بنت قريش الكعبة في سنة خمس وثلاثين من عمره فوصلوا إلى موضع الحجر الأسود اشتجروا فيمن يضع الحجر موضعه، فقالت كل قبيلة: نحن نضعه، ثم اتفقوا على أن يضعه أول داخل عليهم، وكان رسول الله، فقالوا: جاء الأمين، فرضوا به، فأمر بثوب، فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل قبيلة أن ترفع بجانب من جوانب الثوب، ثم أخذ الحجر فوضعه موضعه.(٧)، وهذا يدل على قوة حكمته وشدة رحمته بقومه وحسن تدبيره، كما يدل على سمو مكانته عند القوم وقبولهم رأيه.

شهد محمدﷺ في هذه الفترة حلفا أقامه بني قومه نصرة للمظلوم، وقال عنه بعد البعثة: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**» (٨)، والملاحظ من حديث النبي أنه يرى اشتراكه في حلف الفضول في الجاهلية مفخرة له ، ولو دعي لمثله لأجاب مما يبرز لنا جانباً من جوانب الرسالة المحمدية التي من أهم أهدافها نصرة المظلوم في الأرض ورد الحقوق لأصحابها ؛ لذا لا يجد الرسول أي غضاضة في المشاركة في أي حلف يحقق مثل هذه المعاني الإنسانية، وفي النص السابق إشارة إلى أن رسالة الإسلام تدور مع الحق كيفما دار، تعززه وتؤيده وتنصره بغض النظر عن القائم بهذا الحق، وهذا يعطيها روحاً عالمية ونهجا مرناً في التعاطي مع الأمم الأخرى والتعاضد معها في سبيل نصرة الفضيلة والحق.

---

(١) –انظر: الفصول ص٨١–٨٢، وخلاصة سير سيد البشر ص٢٣١.
(٢) –ينظر خلاصة سير سيد البشر ص٢٤٢.
(٣) –صحيح البخاري –كتاب مناقب الأنصار – باب تزوج النبي خديجة وفضلها رضي الله عنها، ح ٣٨١٧ و٣٨٢٠. وصحيح مسلم ح ٢٤٣٢.
(٤) –الطبقات الكبرى لابن سعد ١٣٣/١، والاستيعاب ٨١٨/٤، والفصول ص٢١٥.
(٥) –ينظر: أخبار مكة للفاكهي ٧/٤.
(٦) –فقد حلف زيد بن حارثة بأن رسول الله ما مس منها صنماً حتى أكرمه الله بالوحي. (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك ٢١٦/٣).
(٧) –ينظر: الفصول ص٨٣، وخلاصة سير سيد البشر ص٢٤٦، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص١٤.
(٨) –البيهقي: السنن الكبرى (٦/ ٣٦٧)

وفي هذه الفترة كان ينعزل للعبادة في غار حراء، وعزلته لا تعني أن يعيش حياة منعزلة دائماً بل كان له أصحاب، وقد كان لنبي الرحمة صحبة قبل بعثته من عقلاء وأثرياء قريش كأبي بكر وحكيم بن خزام وهو من نبلاء مكة[١]، والسائب بن يزيد، والسائب بن عثمان [٢]، هذا الذي وصلنا ولا شك أنه يوجد غير هؤلاء، لأن اشتهاره بالصادق الأمين، ومشاركته في رفع الحجر الأسود، وحلف الفضول جعله يتعرف على رجالات مكة وفحول قريش.

إن الفترة التي عاشها نبي الرحمة قبل البعثة تشكل ثلثي عمره فهي فترة مهمة تتجلى فيها العناية الإلهية بنبي الرحمة وإعداده للقيام بالرسالة الخالدة للبشرية جميعاً، وإن هذه العناية الإلهية والأخلاق الربانية تترك آثاراً في مجتمع مكة، فإن شخصاً قد نال هذه العناية لا يمكن أن يكون مغموراً أو عادياً، بل يشار إليه بالبنان لما فيه من السمو والرحمة والطهر والأمانة والصدق، وكل هذه الصفات مهدت للرسالة، فلم يستنكر العقلاء حينما سمعوا بنبوته وبعثته بل دخلوا في الإسلام، أو أخذوا يمهدون لذلك مع أقوامهم ويفكرون بالدخول عاجلاً أم آجلاً، يقول المؤرخ الأمريكي رالف لنتون: "ولد محمد في مكة [٢٠ أبريل ٥٧١م] من عائلة ذات مركز حسن، ...وفي السنوات الواقعة بين عامي ٥٩٥-٦١٠ م **كان محمد تاجراً محترماً في مكة، وكان يلقب بالأمين نظراً لما اتصف به من صدق وحكمة في أحكامه**". [٣]

أثار بعض أعداء الإسلام شبهة أن الرسول كان شهوانياً، ودللوا على ذلك بكثرة نسائه، وهذه الشبهة يرد عليها من خلال البنود التالية.

– تبين في سيرة المصطفى في ريعان شبابه أنه كان بعيداً عن مراكز اللهو في مكة ، وكل كتب السير والتاريخ تبرز مدى عفته وطهارته منذ صباه ، ولم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس ونزوات الشهوة في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه كان يلهو كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح كل شيء ، ولم يعرف عنه أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء في مرحلة الجاهلية الأولى التي كانت فيها النساء تبدين زينتهن ، ولو حصل منه شيء لتواتر النقل في حقه خاصة من أعدائه الكثر في بداية الدعوة ، بل لم يعهد من أعدائه الكثر إلا الاعتراف بعفته وأمانته وترفعه عن الدنايا والسفاسف، وكانت تصدر منهم تلك الشهادات، وآتون العداوة ومرجلها المتقد في أوجه .

– يلاحظ من أول زواج للنبي عدم اهتمامه بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها حيث أنه تزوج امرأة ثيب تكبره خمسة عشر عاماً، ولو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه لاختار من هي أصغر سناً من خديجة رضي الله عنها ، والمعلوم أن النبي قد قضى مع خديجة لوحدها زهرة شبابه كلها، وما تزوج إلا بعد وفاتها، بل لبث مدة بعد وفاتها لم يتزوج حتى بلغ عمره اثنان وخمسون سنة، وهي سن تنفطم فيها شهوة الشهوانيين، فهل يعقل أن ينقلب فجأة في سن الشيخوخة ويصبح لا هم له إلا النساء ويتزوج ثلاث نسوة في عام واحد بل في العام الذي جاوز فيه الستين من عمره .

– من نظر إلى زواجه بعد ذلك يجد أن أكثر من تزوجهن كن ثيبات إلا عائشة وقد كانت عائشة نحيفة خفيفة وزفت إليه ولعبتها في يدها، ومنطق العقل يأبى أن يكون باعث الدخول بها لذة أو شهوة، بل كان زواجه منها من باب الوفاء لأحب الخلق إليه الذي قدم ماله ونفسه لخدمة الرسالة، إضافة إلى أن هذه المرأة ستكون ترجماناً حياً لجانب من جوانب الرسالة لا يطلع عليه إلا أزواجه، فكان في صغر سنها ما مهد لها القيام بهذا العبء حتى كانت من أكثر المبلغين عن رسول اللهﷺ، وتعتبر من المكثرين من الرواية عنه.

---

(١) –ينظر سير أعلام النبلاء ٣/٤٤و٤٣٧.
(٢) –المصدر السابق ١/١٦٣
(٣) –رالف لنتون : شجرة الحضارة، ١/٣٤٠

– أما باقي الزوجات الأخريات فكانت الرسالة والأهداف النبيلة وراء زواجه منهن، و كان أول زواج له من سودة بنت زمعة، وقد تزوجها وفاءً للرسالة حيث إنها أسلمت من بداية البعثة وهاجرت إلى الحبشة وعندما عادت مات زوجها ولم يبق أمامها إلا العودة إلى أهلها فتصبأ وتؤذى، فكان زواجه منها من باب النجدة لها ووفاءً لثباتها على الإسلام، وحرصاً على عدم فتنتها وعودتها للكفر وكذلك زواجه من حفصة بنت عمر رضي الله عنه بعد وفاة زوجها ، كان وفاء لفاروق الأمة وأعظم أركانها، وزواجه من أم سلمة بعد وفاة زوجها عبدالله بن الأسد الصحابي الجليل وابن عمة الرسول ﷺ كان رعاية لحقه ولأسبقيته وزوجته في خدمة الرسالة ، وزواجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان رعاية لها خاصة بعد هجرتها مع زوجها وتنصر زوجها ، وبقيت زوجته في عزلة وغربة ووحدة وهي بنت سيد قريش ، وكل ذلك وفاءً منها للرسالة، فقابل النبي وفاءها بالوفاء إكراماً لها ، وهكذا من تتبع كل زيجات النبي ﷺ يجد وراء كل زواج هدف نبيل ورسالة يؤديها صاحب رسالة الرحمة العالمية، ويشار هنا إلى أن كل زيجاته هذه كانت في السنوات الأخيرة من حياته، وفي فترة الكهولة ، إضافة إلى أن أكثر نسائه لم يكن على قدر من الجمال كما تبين كتب السير ، وأي شهوة هذه في زواجه من ميمونة بنت الحارث وقد بلغت من العمر إحدى وخمسين سنة مما يشير صراحة إلى أن الباعث من هذا الزواج كله لم يكن إلا أداءً لحق الرسالة ، بل كان زواجه هذا معلماً من معالم النبوة ومظهراً من مظاهر الرحمة النبوية وجانباً من جوانب العظمة المحمدية والكمال البشري .

– يلحظ أن زواج النبي من أكثر نسائه كان في أصعب مراحل الدعوة الإسلامية حيث الغزوات والبعوث والتربية واستقبال الوفود وما كان النبي يفرغ من غزوة حتى ينشغل بغيرها، أي أن الرسول الأعظم لم يكن فارغ القلب أو خالي البال، إضافة إلى ليليه الذي كان يقضيه بين يدي ربه، ورجل هذا حاله لا يقال أن داعي الزواج عنده هو الشهوة أو اللذة الحسية.

– الرجل المزواج عرفاً لا بد أن يحرص على إرضاء أزواجه وتمتيعهن بالملبس والمأكل، وهذا لم يحصل من رسول اللهﷺ، بل كانت حياته وبيوته وأزواجه شعاراً للزهد في الدنيا وشهواتها، يقول توماس كارليل أحد الفلاسفة الإنجليز: «**ما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً، وشد ما نجور ونخطئ إذا ما حسبناه رجلاً شهوانياً لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أياً كانت، لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وسائر أموره وأحواله**» [١]

– أحياناً نجد هذه الطعون على كثرة نساء النبي ﷺمن أهل الكتابين، والمعلوم أنهم بذلك إنما يطعنون بأنبيائهم حيث لو نظرنا لعدد نساء الأنبياء كما صرحت الكتب السماوية نجدها أكثر مما كان عند محمدﷺ فسليمان تزوج ١٠٠٠ امرأة، وداود ٦٩ امرأة، وجدعون ٢٣ امرأة وإبراهيم ١٣ امرأة وسرية، فقياساً مع هذه الأرقام نجد أن عدد زوجات النبي محمدﷺ متواضعاً. [٢]

–الناظر لزواج النبيﷺ وطبيعة النسوة اللاتي تزوجهن يضيف رصيداً واضحاً لعظمته وكماله البشري، فبعض هؤلاء النسوة كان أصلهن من أهل الكتابين كمارية القبطية، وصفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود، ودواعي العداوة بين أهلها وبين النبي معلومة فحيي بن أخطب والد صفية كان العدو اللدود للإسلام بين اليهود وكان النبي ﷺسببا في قتله في غزوة بني قريظة، إضافة إلى أم حبيبة التي كانت بنت سيد قريش وعدو الرسالة الأول فهؤلاء النسوة بالرغم من طبيعة أصلهن ودواعي العداوة مع صاحب الرسالة عشن في بيت النبوة مخلصات لزوجهن، ولم يجدن منه بادرة تشكك في نبوته،

(١) –نقلاً عن موسى لا شين وغيره: دراسات في السيرة (٢٤)
(٢) –انظر احمد عبد الوهاب: تعدد نساء الأنبياء (٩٣)

وكن مدافعات عن رسالته بعد وفاته وقطعن كل أواصر العاطفة مع أقرب الناس إليهن لأجله ، وأصدق مثال على ذلك موقف أم حبيبة مع أبيها أبي سفيان عندما جاء ليجدد العهد مع رسول الله بعدما نقضته قريش فدخل على ابنته، فلما أراد أن يجلس على فراش النبي طوته عنه، فقال: أرغبت به عني، فقالت هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس عليه. فهذه القصة وغيرها تشير صراحة إلى أن نساء النبي كن يرين في علاقة الرسول معهن أنها امتداد لرسالته ومعالمها، ومثالاً أعلى في أداء الواجبات البيتية مع ما يحمله من أعباء عظيمة للرسالة الخارجية، فنجاحه في هذا الشأن وتأليفه لقلوب أزواجه بما يعزز إخلاصهن للرسالة مع اختلاف بيئاتهن وملابسات ثقافاتهن ودواعي العداوة للرسالة عند بعضهن في بداية عهدهن معه لهو أكبر دليل على كمال شأن الرسول ووفور رحمته التي لا تليق إلا برسول.

٣–حول أخلاق وصفات خاتم النبيين عند المؤرخين وكما رواها من عاصره:

عاش النبي بعد وفاة جده عبد المطلب في بيت عمه أبي طالب زعيم مكة، ومن ثم نال حظاً وافراً من الفطنة والفكر السديد، ومعايشة قضايا العالم ومشكلاته ونزاعاته، فطالع النبي محمدﷺ صحائف البشرية وأحوال القبائل والجماعات والأحلاف، وقد كان في ذروة الإيجابية مع قضايا أمته، فهو عضو في " حلف الفضول " للدفاع عن المظلومين، ورفض كل صور الظلم، وأكل الحقوق بالباطل، كما إنه حكم عدل في فض النزاعات والمشكلات التي تحدث بين القبائل والعائلات، كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلقًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عَرِيكة، وأعفهم نفسًا، وأوفاهم عهدًا، إنه ببساطة شديدة كما وصفته[١] زوجته خديجة، يصل الرحم، ويحمل الكل، ويُكسب المعدوم، ويُقري الضيف، ويُعين على نوائب الدهر .

يقول المستشرق آرثر جيلمان: "لقد اتفق المؤرخون على أن محمداً كان ممتازاً بين قومه بأخلاق جميلة؛ من صدق الحديث، والأمانة، والكرم، وحسن الشمائل، والتواضع، وكان لا يشرب الأشربة المسكرة، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً"[٢]، أما كارل بروكلمان فيقول: "لم تشبْ محمداً شائبة من قريب أو بعيد؛ فعندما كان صبياً وشاباً عاش فوق مستوى الشبهات التي كان يعيشها أقرانه من بني جنسه وقومه"[٣]

ويتحدث توماس كارلايل[٤] عن نبينا محمدﷺ قائلاً: "لوحظ على محمد منذ صباه أنه كان شابًا مفكرًا وقد سمّاه رفقاؤه الأمين رجل الصدق والوفاء الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة، وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لبّ! وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهم، كريمًا برًّا رؤوفًا تقيًا فاضلاً حرًا، رجلاً شديد الجدّ مخلصًا، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جمّ البِشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق وكان ذكي اللب، شهم الفؤاد عظيمًا بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء"[٥].

ويتحدث الباحث البلجيكي ألفرد الفانز عن أخلاق محمدﷺ فيقول: "شب محمد حتى بلغ، فكان أعظم الناس مروءة وحلماً وأمانة، وأحسنهم جواباً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش حتى عرف في قومه بالأمين، وبلغت أمانته وأخلاقه المرضية خديجة بنت خويلد القرشية، وكانت ذات مال، فعرضت عليه خروجه إلى الشام في تجارة لها مع غلامها

---

(١) –انظر: صحيح البخاري، برقم ٤٥٧٢، وصحيح مسلم، برقم ٢٣١

(٢) –آرثر جيلمان: الشرق، ص١١٧.

(٣) –نقلاً عن محمد عثمان عثمان: في كتابه (محمد في الآداب العالمية المنصفة) ص١١٠.

(٤) –توماس كارلايل (١٧٩٥ – ١٨٨١ م) الكاتب الإنجليزي الشهير، من أعماله (الثورة الفرنسية) و(الأبطال) (١٩٤٠)، وقد عقد فيه فصلاً كاملاً رائعًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، الخ.

(٥) –توماس كارلايل: الأبطال، ص٥٠، ٥١.

ميسرة، فخرج وربح كثيراً، وعاد إلى مكة وأخبرها ميسرة بكراماته، فعرضت نفسها عليه وهي أيم، ولها أربعون سنة، فأصدقها عشرين بكرة، وتزوجها وله خمسة وعشرون سنة، ثم بقيت معه حتى ماتت. "[١]

ويتحدث الباحث الروسي آرلونوف يقول: "اشتهر بدماثة الأخلاق، ولين العريكة، والتواضع وحسن المعاملة مع الناس، قضى محمد أربعين سنة مع الناس بسلام وطمأنينة، وكان جميع أقاربه يحبونه حباً جماً، وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً، لما عليه من المبادئ القويمة، والأخلاق الكريمة، وشرف النفس، والنزاهة."[٢]

أما أصحابه الذين عايشوه فقالوا:

يقول علي بن أبي طالب: "كان رسول الله يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم، ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس عنهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا، أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة: أحسنهم مواساة ومؤازرة[٣]

"كان رسول الله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخاب[٤] في الأسواق ، ولا فاحش ولا عياب، ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي، ويؤيس منه، ولا يجيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء[٥]، والإكثار، ومالا يعنيه وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا، ولا يعيره، ولا يطلب عوراته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، إذا تكلم أطرق[٦] جلساؤه ،كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث من تكلم أنصتوا له ، حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون ، ويتعجب مما يتعجبون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه". [٧]

"كان سكوت رسول الله على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير، فأما تقديره ففي تسوية النظر، والاستماع من الناس، وأما تفكيره ففيما يبقى، ولا يفنى وجمع له الحلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء، ولا يستفزه وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته، والقيام فيما هو خير لهم، جمع لهم خير الدنيا والآخرة". [٨]،

كان " دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب فيه". [٩]

قال أنس بن مالك خادم النبي: "كان النبي ضَخْمَ الْيَدَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، حَسَنَ الْوَجْهِ، لَمْ أَرَ بَعْدَهُ وَلَا قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَكَانَ بَسِطَ الْكَفَّيْنِ"[١٠]، ويقول جابر بن سمرة في وصف النبي:" رأيت رسول الله في ليلة إضحيان "أي مضيئة مقمرة" وعليه حلة حمراء فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو عندي أحسن من القمر "[١١]

---

(١) –انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ص ١٧.
(٢) –آرلونوف: مقالة "النبي محمد "، مجلة الثقافة الروسية، ج ٧، عدد ٩
(٣) –رواه أبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي (١٦)
(٤) –الصخَّب: الضَّجَّة، واضطرابُ الأصواتِ للخِصَام
(٥) –المراء: المجادلة العقيمة
(٦) –أطرق: أمال رأسه إلى صدره منصتًا
(٧) –رواه أبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي حديث رقم (١٧)
(٨) –رواه أبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي حديث رقم (١٧)
(٩) –الترمذي : مختصر الشمائل المحمدية، ٢٤
(١٠) –صحيح البخاري –(٥٤٥٦)
(١١) –صحيح –رواه الترمذي في الشمائل (٨)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ٢٦

ويقول علي بن أبي طالب في وصفه: " لم يكن النبي بالطويل ولا بالقصير، شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس[١]، طويل المسربة[٢]، إذا مشى تكفأ تكفؤًا كأنما ينحط من صبب[٣]، لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم"[٤].

كان رسول الله فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلؤلؤ القمر ليلة البدر. كأنه البدر بل هو أجمل، من رآه هابه ومن خالطه معرفة أحبه وكان شعره لا رجل سبط ولا جعد قطط وكان في لحيته بعض شعيرات بيض[٥].

ويقول أنس بن مالك: «ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله، ولا مسست شيئا قط ديباجا، ولا حريرا ألين مسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٦]

وقال عن نفسه "إنما أنا عبد آكل كما يآكل العبد وأجلس كما يجلس العبد"[٧]، دخل عليه رجل فأصابته هيبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له "هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[٨].

كان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل كان ضحكه تبسما وكلامه فصلا إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير[٩].

قالت السيدة عائشة: كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه[١٠].

كان رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض الوجه مشرباً بالحمرة أزهر اللون ظاهر الوضاءة واسع الجبين كث اللحية أبيض الأسنان إذا تكلم إذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه [١١]

لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً ولا يجزي السيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى[١٢].

كان كثير القيام لله والبكاء بين يديه فقالت له السيدة عائشة: لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: "أفلا أكون عبدا شكورا"[١٣]

ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما[١٤]، آذاه أهل مكه فقال "اللهم اهدي قومي فانهم لا يعلمون".[١٥]، قال ابن عمر رضي الله عنهما ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم.[١٦]

قال علي رضي الله عنه إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو.[١٧]

---

(١) –رؤوس العظام.
(٢) –المسربة: الشعر الدقيق الذي يبدأ من الصدر وينتهي بالسرة.
(٣) –الصبب: انخفاض من الأرض.
(٤) –صحيح – رواه الترمذي في الشمائل (٤) ، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ١٥
٥ –صحيح- معجم الطبراني الكبير(١٥٥/٢٢) والشريعة للآجري (١٥١٦/٣).
(٦) –صحيح مسلم رقم(٢٣٣٠) ومسند أحمد رقم (١٣٠٧٤)
(٧) –مسند البزار(٥٧٥٢)، شرح السنة للبغوي(٢٨٣٨)
(٨) –صحيح–ابن ماجة برقم(٣٣١٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.
(٩) –صفة النبي محمد بن هارون ص:١٤
(١٠) –متفق عليه، البخاري رقم(٣٥٦٧)، ومسلم رقم (٢٤٩٣).
(١١) –سنن الدرمي(٢٠٣/١) والطبراني في الأوسط رقم (٧٦٧)
(١٢) –صحيح البخاري رقم (٦٧٨٦) و(٣٥٥٩)، والترمذي (٢٠١٦).
(١٣) –صحيح البخاري في عدة مواضع مثل (١١٣٠) ومسلم(٢٨١٩).
(١٤) –متفق عليه البخاري(٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(١٥) –متفق عليه، البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).
(١٦) – سنن الدارمي رقم (٦٠) رجاله ثقات
(١٧) – مسند أحمد رقم (٦٥٣) اسناده صحيح.

من سأله حاجه لم يرده الا بها أو بقول حسن وكان دائم البشر لين الجانب وكان أوسع الناس صدرا وأصدقهم لهجه وأكرمهم عشرة.[١]

وصفه أصحابه فقالوا كان إذا تكلم كأن النور ينهمر من فمه عليه الصلاة والسلام.[٢]

من بركاته أن سعيد بن النعمان أصيبت عينه فوقعت على وجنته فردها رسول الله فكانت أحسن عينيه.[٣]

بعض أصحابة ابيضت عيناه فكان لايبصر بهما شيئاً فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فأبصر وصار يدخل الخيط في الإبرة وهو ابن ثمانين.[٤]

انكفأت قدر على ذارع محمد بن حاطب وهو طفل فمسح عليها ودعا له فبرأ لحينه.[٥]

ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقصى اليمن إلى صحراء عمان إلى أقصى الحجاز ثم توفي عليه الصلاة والسلام وعليه دين ودرعه مرهونة في طعام لأهله ولم يترك دينارا ولا درهما ولا شيد قصرا ولا غرس لنفسه نخلا.

وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويلبس العباءة ويجالس المساكين ويمشي في الأسواق ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويصلح خصه ويمهن لأهله ولا يأكل متكئا ويقول: أنا عبد آكل كما يأكل العبد.[٦]

كان يقتص من نفسه !! ولا يرى ضاحكا ملء فيه، لا يأكل وحده ولا يضرب عبده ولا يمنع رفده ولا ضرب قط بيده إلا في سبيل الله وقام لله حتى ورمت قدماه فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: أفلا أكون عبدا شكورا؟ [٧].

وكان يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء إذا قام يصلي صلاة الليل.[٨]

عن عبد الله بن عمر أنه قال: اضطجع النبي صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر الحصير بجلده فجعلت أمسحه وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ألا أذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيك منه تنام عليه فقال عليه الصلاة والسلام: "مالي وللدنيا وما أنا والدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها".[٩]

من اطلع على فراشه وملبسه ومطعمه أدرك حقيقة زهده في الدنيا.

ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه. [١٠].

الكاتب الأمريكي واشنجتون إيرفنج (١٧٨٣-١٨٥٩م): "كان محمد خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعوا الناس إلى عبادة الله". [١١]

مارسيل بوازار: ويثبت "مارسيل بوازار" نبوة محمدﷺ بأسلوب عقلاني وعلمي بكلمات بليغة فيقول: "منذ استقر النبي محمد في المدينة، غدت حياته جزءًا لا ينفصل من التاريخ الإسلامي فقد نُقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها ولما كان مُنظمًا شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجنيني، وفي بث الدعوة وبالرغم من

---

(١) – سنن الترمذي(٣٦٣٨). وشعب الايمان للبيهقي (١٣٥٠).
(٢) – مر تخريجه.
(٣) –معجم الطبراني الكبير (٨/١٩) ومصنف ابن ابي شيبة(٤٠٠/٦)
(٤) –معجم الطبراني الكبير(٣٥٤٦) مصنف ابن ابى شيبة (٢٣٥٦٣)
(٥) –دلائل النبوة للبيهقي (ج٧، ص١٧٨) والخصائص الكبرى (ج ١، ص ٤٦٨(
(٦) –مر تخريج أجزاء منه
(٧) – مر تخرج جزء منه وأخرج الخرائطي في مكارم الاخلاق (٣٤٢) القسم الباقي.
(٨) –صحيح–سنن أبو داوود (٩٠٤)، والنسائي في الكبرى (١٢١٤) وصححه الالباني.
(٩) –صحيح–الترمذي(٢٣٧٧)، ومسند أحمد (٢٧٤٤)، صححه الالباني.
(١٠) –سنن الترمذي (٣٦٤٨)، ومسند احمد (٧٥٠٧)، اسناده صحيح
(١١) –واشنجتون إيرفنج: حياة محمد، ص ٧٢.

قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه وجسّدت المناخ الروحي للإسلام" [١].

ثم يضيف قائلاً: " وكما يظهر التاريخ محمدًا قائدًا عظيمًا ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحًا قوي الشكيمة له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات في الوقت الذي كان النصر العسكري قد بدأ يحالفه. وإذا تذكرنا أخيرًا على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لابدّ أن يكون محمد الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنسانًا فوق مستوى البشر حقًا، وأنه لابد أن يكون نبيًا حقيقيًا من أنبياء الله!!"[٢]

إميل درمنغم[٣]: فيدلل على نبوة محمدﷺ، من خلال حادث وفاة ابراهيم ابن رسول الله، فيقول: "ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيرًا ولحّده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمدًا كان من سموّ النفس ما رأى به ردّ ذلك فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد..". فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال. "[٤].

يقول لايتنر[٥]: " بقدر ما أعرف من دينيْ اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا بل قد أوحي إليه به ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، وإيمان القلب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد وأنه قد أوحي إليه". [٦]

أما الكاتبة الإيطالية لورافيشيا فاغليري [٧] **فتقول**: "حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفتراة لقد نسوا أن محمدًا كان قبل أن يستهل رسالته، موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل؛ كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك رجلاً كاذبًا؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه–وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة – حثًا موصولاً؟ كيف استطاع أن يستهل صراعًا كان يبدو يائسًا؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جدًا، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنًا إيمانًا عميقًا بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقًا وأكيدًا"[٨]..

---

(١) –مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٦

(٢) –مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٦

(٣) –إميل درمنغم مستشرق فرنسي، من آثاره: (حياة محمد) (باريس ١٩٢٩) وهو من أدق ما صنفه مستشرق عن النبي و(محمد والسنة الإسلامية) (باريس ١٩٥٥)

(٤) –إميل درمنغم: حياة محمد، ص٣١٨

(٥) –لايتنر: باحث إنكليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام ١٨٥٤، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالاتها وعلمائها

(٦) –لايتنر: دين الإسلام، ص ٤، ٥.

(٧) –لورا فيشيا فاغليري: باحثة إيطالية في التاريخ الإسلامي واللغة العربية. من آثارها: (قواعد العربية) (١٩٣٧)، و(الإسلام) (١٩٤٦)، و(دفاع عن الإسلام)

(٨) –لورا فيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص٣٧، ٣٨.

ويكشف المفكر البريطاني روم لاندو زيف المكذبين لنبوة محمد بقوله: "كانت مهمة محمد هائلة! كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية، وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين محمد العربي، إن الإخلاص الذي تكَّشف عنه محمد في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل فيما أُنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيّ ضرب من الخداع المتعمد. ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق (ديني) متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، في كل عام أتباعًا جددًا. وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحدًا على محتال كان لرسالته الفضل في خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً!"[١].

يقول المفكر البلجيكي جورج سارتون: و" صدع محمد بالدعوة نحو عام ٦١٠م وعمره يوم ذاك أربعون سنة... مثل إخوانه الأنبياء السابقين."[٢] .

٤–صورة عن حالة العالم عشية البعثة الخاتمة.

يقول القس إبراهيم فيليبس: "بينما كان العالم الشرقي والعالم الغربي بفلسفاتهما العقيمة يعيش في دياجير ظلام الفكر وفساد العبادة، بزغ من مكة المكرمة في شخص محمد رسول الله نور وضاء؛ أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام"[٣] ، فقد وُلد النبي والبشرية تُعاني صنوف الجهل والتخلف والانحطاط الخلقي والحضاري، حتى وصل بهم الحد أن فرضوا ضريبة على الشعوب تسمى " ضريبة الرأس، وهي ضريبة يدفعها المواطن نظير ترك رأسه دون ذبح!.

لم تفسد المدنية فحسب في ذلك الزمن، بل تفسخت جثتها، وتعفنت، ونشأت فيها ديدان قذرة، وأصبح الإنسان يقتنص الإنسان ويصطاده، ويتلذذ بسكراته وشدائده عند الموت، ويتمتع بحالة الاحتضار، كما يتمتع أحدنا بمنظر البساتين والأشجار والورود والأزهار، ويطرب ويهتز لاضطرابه وتقلبه على الحجر، ويفرح بأنين المصاب والمريض والمنكوب، وصراخه وعويله، كما يفرح بالشراب الهنيء والطعام الشهي أو بالمنظر السار الجميل، سرح طرفك في تاريخ رومة التي تغنت أوربة وما تزال بفتوحها وبطولاتها، وأمجادها وتشريعها وحضارتها، تجد نموذجا حيا للقسوة البشرية التي بلغت قمتها في هذا العصر، يقول «ليكي» في كتابه «تاريخ أخلاق أوربة» يصور جانبا من همجية الإنسان وضراوته، ووحشيته النادرة، يقول: «إن أكثر المناظر سحرا على نفوس أهل رومة، وأعظم تسلية ومتعة لهم، حين كان يسقط الجريح في مبارزة أحد الأبطال من بني جنسه، أو مصارعة سبع ضار يتشحط في دمه، هنالك كان يفلت الزمام، ويغلب الناس على أمرهم، ويفقدون رشدهم، فيتهالك الحشد الحاشد وفيه النساء والأطفال والشيوخ العجز على الدنو من هذا المنظر الرهيب، والإنسان البائس الشقي، وهو من بني جلدتهم وأبناء بلادهم، ليمتعوا نفوسهم بمشاهدة احتضاره، وليرن في آذانهم رنين أنينه، فقد كان أجمل من كل غناء وموسيقا، وسجع الطيور، وكان رجال الشرطة الذين كان من واجبهم المحافظة على النظام، يقفون مشدوهين مكتوفي الأيدي أمام هذه الموجة العارمة من المتعة الظالمة الآثمة، لا يملكون من أمرهم شيئا(٤)

لقد كانت قصة الجاهلية الأولى أن حجرها الأساسي حاد عن موضعه، بل تحطم وتهشم ولم يبق أمل في إصلاحه، ووضعه في محله الصحيح، ووقف الإنسان أمام المحكمة الإلهية ينتظر الحكم النهائي الأخير في مصيره، هنالك بعث خاتم النبيين ونادى صوت السماء:{ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}، قصارى القول: إن القرن السادس المسيحي–الذي كانت

---

(١) –انظر: أرنولد توينبي: الإسلام والعرب والمستقبل، ص٣٣، ٣٤.
(٢) –جورج سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٢٩، ٣٠،٣١
(٣) –إبراهيم خليل أحمد(القس إبراهيم فيلوبوس سابقًا): محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، ص ٤٧
(٤) –راجع «تاريخ أخلاق أوربة» للمؤرخ الإنجليزي ليكي، ج ١، ص ٢٣٠. عن كتاب السيرة النبوية للندوي

فيه البعثة المحمدية–وما يليه من فترة زمنية، كان من أحط أدوار التاريخ، ومن أشدها ظلاما ويأسا من مستقبل الإنسانية وصلاحيتها للبقاء والازدهار، قد أحسن المؤلف الإنجليزي المعروف هـ- ج- ولز (H.G.Wells) تصوير هذا العصر، فقال- وهو يبحث الظروف السائدة في عهد الحكومتين؛ الساسانية والبيزنطية في القرن السادس للميلاد-:

«كانت العلوم والفلسفة والسياسة في حالة احتضار في عهد هذين النظامين المتحاربين والمتجهين إلى الانحطاط، فقد كان الجيل الأخير من فلاسفة (أثينا) عاضا على المؤلفات الأدبية العتيقة بالنواجذ، بكل احترام وحب، ولو بدون فهم لها، فلما انقرض هذا الجيل، لم تبق طبقة ولا أفراد أحرار شجعان، يتزعمون حرية الفكر وحرية التعبير، ولا الذين يحتفظون-على الأقل-بتراث فكر حر، وبحث نزيه جدي، على دأب القدماء والسابقين لهم، وبجانب ما كان للفوضى السياسية والاجتماعية ،كان من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الإنساني، وتجمد القرائح البشرية ،إن هذا العصر كان عصر العصبية وعدم التسامح في ظلال الحكومتين الإيرانية والبيزنطية، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعا ما، وقد كانتا فرضتا قيودا على العقل البشري،... وبعد ما قص الكاتب قصة زحف الإمبراطورية الإيرانية على الإمبراطورية البيزنطية، ثم انتصار البيزنطيين على الإيرانيين في شيء من التوسع، عاد إلى وصف التدهور الاجتماعي والخلقي السائد في أواخر القرن السادس المسيحي، فقال: «كان يسوغ لمتتبع- غير محنك ناضج الفكر- للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي، أن يتنبأ بسهولة وبثقة بأن أوربة، وآسيا، ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرون قادمة، فلم تكن في أوربة الغربية أمارات للأمن والنظام وحكم القانون، وقد كانت المملكتان: البيزنطية والإيرانية مشغولتين في حرب إبادة وتدمير، بينما كانت الهند في حالة توزع وبؤس» [١] .

أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وهي- بصرف النظر عن ذلك- ديانة سلالية، لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، ولا للإنسانية رحمة جاء في «دائرة المعارف اليهودية» ما معناه: «إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، إن التلمود أيضا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود» [٢] ،أما المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، ووثنية الرومان المتنصرين ، منذ عصرها الأول، وأصبح كل ذلك ركاما، دفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب الكثيفة.

يتحدث كاتب مسيحي فاضل عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحي، منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، فيقول: «تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مسلمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي» [٣] .

ويتحدث مؤرخ مسيحي معاصر عن **ظهور الوثنية في المجتمع المسيحي** في مظاهر مختلفة وألوان شتى، وتفنن المسيحيون في اقتباس الشعائر والعادات والأعياد والأبطال الوثنية من أمم وديانات عريقة في الشرك بحكم التقليد أو الإعجاب أو الجهل، جاء في «تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر» : «لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستكن كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا

---

(١) -١٩٢٤ . ١٤٠- ١٤٤.

(٢) -Jewish Encyclopedia ,VOL -XII ,p. 568 -69 ، عن كتاب السيرة النبوية للندوي

(٣) -راجع كتاب «الصـــراع بين الدين والعلم» للمؤلف الأوربي الشـــهير «درابر Draper» ص: ٤٠-٤١. ملخص ما جاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة، مقال التثليث المقدس، ج ١٤؛ ص ٢٩٥.

عنهم أخذوا شهيدا من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالا، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين... ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيهم عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقا وسطا بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزا لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها، وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»[١] ، وجاء القرن السادس المسيحي، والحرب قائمة على قدم وساق، بين نصارى الشام والعراق وبين نصارى مصر، حول حقيقة المسيح وطبيعته، تحولت بها المدارس والكنائس والبيوت إلى معسكرات متنافسة يكفر بعضها بعضا، ويقتل بعضها بعضا، كأنها حرب بين دينين متنافسين، أو أمتين متحاربتين [٢] ، فأصبح العالم المسيحي في شغل بنفسه عن محاربة الفساد، وإصلاح الحال، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح للإنسانية.

أما المجوس فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية وأعظمها النار، وقد عكفوا على عبادتها أخيرا، يبنون لها هياكل ومعابد، وانتشرت بيوت النار هذه في طول البلاد وعرضها، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وتقديس الشمس، وأصبحت الديانة عندهم عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة، أما خارج المعابد فكانوا أحرارا، يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق، في الأعمال والأخلاق[٣]، يصف مؤلف «إيران في عهد الساسانيين» الدانماركي الأستاذ «آرثر كرستين سين» طبقة رؤساء الدين ووظائفهم فيقول: «كان واجبا على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه والاغتسال ولبس الزنار والأكل والعطس وحلق الشعر وقلم الأظفار، وقضاء الحاجة وإيقاد السراج، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النار تنطفئ، وألا تمس النار والماء بعضهما بعضا، وألا يدعوا المعدن يصدأ، لأن المعادن عندهم مقدسة» [٤].

أما البوذية–الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى–فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل «بوذا» حيث حلت ونزلت، ولم يزل العلماء يشكون في إيمان هذه الديانة ومؤسسها بالإله الخالق للسماوات والأرض والإنسان ولا يجدون ما يثبت ذلك، ويحارون في قيام هذه الديانة العظيمة بغير الإيمان بالله فيها [٥].

أما **البرهمية**– دين الهند الأصيل– فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة، وقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس فبلغ عدد الآلهة في هذا القرن إلى ٣٣٠ مليون وقد أصبح كل شيء رائع، وكل شيء هائل، وكل شيء نافع، إلها يعبد[٦]، وارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، وتأنق فيها المتأنقون ،يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل «سي، وي، ويد» في كتابه (تاريخ الهند الوسطى) وهو يتحدث عن عهد الملك هرش (٦٠٦– ٦٤٨ م) وهو العهد الذي يلي ظهور الإسلام في الجزيرة العربية: «كانت الديانة الهندوكية والديانة البوذية وثنيتين سواء بسواء، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندوكية في الإغراق في الوثنية، كان ابتداء هذه الديانة– البوذية– بنفي الإله، ولكنها بالتدريج جعلت

---

(١) – Rev.James Houston Bzxter The History of Christianity In The Light of Modern Knowledge Glasgow, 9591 (p.704.

(٢) –راجع «فتح العرب لمصر» ل «ألفريدبتلر» تعريب محمد فريد أبو حديد، ص ٣٧، ٣٨، ٤٧. والسيرة للندوي ص ٦٠ وما بعدها.

(٣) –اقرأ كتاب «إيران في عهد الساسانيين» للبروفيسور «آرثر كرتسن سين» أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة «كوبنهاجن» بالدانمارك، المتخصص في تاريخ إيران، و «تاريخ إيران» تأليف «شاهين مكاريوس» المجوسي.

(٤) –إيران في عهد الساسانيين: ص ١٥٥.

(٥) –راجع كتاب «الهند القديمة» للأستاذ «إيشورا توبا» أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في جامعة «حيدرآباد» الهند، وكتاب «اكتشاف الهند (The Discovery of India) «لمؤلفه «جواهر لال نهرو» رئيس وزراء الهند الأسبق، ص ٢٠١–٢٠٢، اقرأ مقالة «بوذا» في دائرة المعارف البريطانية.

(٦) –راجع «الهند القديمة» لمؤلفه «آر، سي، دت» ج ٣؛ ص ٢٧٦، و «الهندوكية السائدة» لمؤلفه L.S.S.OMalley ،ص ٦– ٧.

«بوذا» الإله الأكبر، ثم أضافت إليه آلهة أخرى مثل Bodhistavas على مر الزمن، لا سيما أرسخت الوثنية قدميها في المدرسة البوذية الفكرية التي تسمى «مهايانا» بالتأكيد، وقد بلغت أوجها في الهند، حتى أصبحت كلمة «بوذا) Buddha («مرادفة لكلمة «الوثن» أو «الصنم» في بعض اللغات الشرقية ، مما لا شك فيه أن الوثنية كانت منتشرة في العالم المعاصر كله، لقد كانت الدنيا كلها من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادىء غارقة في الوثنية، وكأنما كانت المسيحية والديانات السامية والديانة البوذية تتسابق في الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة»[١]

والإمبراطورية الرومانية الشرقية وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه، ثم إنفاقه في الترف، وقد أمعنوا في طرق التسلية، حتى وصلوا فيها إلى الوحشية [٢] ،جاء في كتاب «الحضارة ماضيها وحاضرها» تصوير لما كان عليه المجتمع البيزنطي من التناقض والاضطراب والهيام بالتمتع والتسلية، وإن وصلت إلى حد القسوة والهمجية، فيقول المؤلفان : «كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها. كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء–في جانب آخر–حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانا، وبين الرجال والسباع أحيانا أخرى. وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوباتهم فظيعة تقشعر منها الجلود. وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائدة، والقبائح والعادات السيئة» [٣].

أما الأمم الأوربية– المتوغلة في الشمال والغرب– فكانت تعيش في ظلام الجهل والأمية، والحروب الدامية، وكانت بعيدة عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية، والعلوم والآداب، لا شأن للعالم بها ولا شأن لها بالعالم، كانت أجسامهم قذرة، ورؤوسهم مملوءة بالأوهام [٤] ، وكانوا يزهدون في النظافة واستعمال الماء، ويغالي الرهبان منهم في تعذيب الأجسام، والفرار من الإنسان[٥] ، وكانوا يبحثون في أن المرأة حيوان أم إنسان، ولها روح خالدة أم ليست لها روح خالدة، وأن لها حق الملكية، والبيع، والشراء، أم ليس لها شيء في ذلك؟ يقول روبرت بريفولت: لقد أطبق على أوربة ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاما وسوادا، وقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا، وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة، وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا، وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب»[٦].

لم يعرف في تاريخ البشرية كله عمل أدق وأعقد، ومسؤولية أعظم وأضخم، من مسؤولية محمد صلى الله عليه وسلم كنبي مرسل، كما أنه لم يعرف غرس أثمر مثل غرسه، وسعي تكلل بالنجاح مثل سعيه، إنها أعجوبة العجائب، ومعجزة المعجزات، ومن ثم: " فإننا نجد استعدادات عامة للانتحار الاجتماعي العام، لم يكن النوع البشري

---

(١) –C.V.Vaidya:History of Mediaeval Hindu India, Vol, I) Poona, 1291 (p.101 وكذلك : L.S.S.O= Malley, .C.I.E.I.I.C.S.:Popular Hinduism, the Religion of the Masses) Cambridge, 5391 (pp.6- 7.

(٢) –كتاب «سقوط دولة روما وانحطاطها» لإدوارد جيبون: ٣–٥.

(٣) –T.Walter Wallbank and Alastair M.Taylor: Civilization Past and Present,) 4591 (pp.162- 26.

(٤) –تاريخ الفلسفة: للبروفيسور ثيلي. (Thilly)

(٥) –اقرأ للتفصيل كتاب «تاريخ الأخلاق الأوربية» لمؤلفه الشهير(Lecky)ج ٢، باب «من قسطنطين إلى شارلمان».

(٦) –(The Making of Humanity ,p. 461

في ذلك الزمان راضيًا بالانتحار فحسب، بل كان يتساقط عليه، ويتهالك فيه !! "[١] وهكذا كان العالم يموج بالظلم والتخلف إلى أن أرسل الله . تبارك . هذا الصادق الأمين، ويبين هنري ماسيه [٢]: أن "بفضل إصلاحات محمد الدينية والسياسية، وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى، ليعدّوا دخلوهم النهائي إلى تاريخ المدنية".[٣]

٥-البعثة والوحي:

أخذت خلوات الرسول وانعزاله عن مجرى الحياة المكية تزداد وتتسع وهو يقترب من الأربعين، حيث أعدَّه الله سبحانه لأول لقاء مع وحيه الأمين من أجل تكليفه مسؤولية النبوة، فكان يغادر مكة بين الحين والحين، مجتازاً أسوارها الجبلية، ناقلاً خطواته الثابتة الواسعة عبر رمال الصحراء المترامية، حتى تحتجب عنه البيوت والأسواق، ويغيبه الأفق، وتستقبله شعاب مكة وبطون أوديتها، ثم يلج بعيداً إلى جبل النور، حيث ينتهي به المطاف إلى غار حراء. [٤]

ثم بعث نبي الرحمة عندما بلغ الأربعين من عمره، وفي هذا العمر تظهر أوصاف الإنسان بوضوح، من أجل ذلك أَذْكُر ما وصفه علي بن أبي طالب [٥] وأنس بن مالك [٦] خادم رسول الله، فقد حظيا بصحبته الكريمة ومعرفة أوصافه الجميلة: فقد كان رسول الله من أحسن الناس وجهاً، أبيض اللون بياضاً مزهراً، مستدير الوجه، مليحَهُ، واسعَ الفم، طويلَ شِقّ العينين، رَجِلَ الشعر— بين الجعودة والسَّبط —يصل إلى شحمة أذنيه، وأحياناً بين أذنيه وعاتقه، وقد يمتد حتى منكبيه أحياناً أخرى، ولم يشب شعره الأسود إلا اليسير منه، حيث قدر شيبه في أواخر عمره بعشرين شعرة موزعة في الرأس وتحت الفم والصدغين، ويميل اللون إلى الحمرة في بعض شعره من أثر الطِّيب، وكانت رائحته أطيب من رائحة المسك، وكان إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكانت تحت شفته السفلى شعرات بيض.

وكان متوسط القامة، متوسط الوزن، ليس بالنحيف ولا الجسيم، عريض الصدر ضخم اليدين والقدمين، مبسوطين الكفين، كفّاه لينتان، قليل لحم العقبين، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتم النبوة وهو شعرٌ مجتمعٌ كالزُّرِّ.

وصحَّ عن البراء: أنه قال: كان رسول الله أحسن الناس وجهاً، وأحسنه خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير[٧]، وهذه الصفات الجسمية تدل على جمال المظهر، واكتمال الجسم وقدرته على النهوض بالواجبات العظيمة التي أُنيطت به، فلم ير أعداؤه في مظهره ما يعيبونه عليه أو يلقبونه به على سبيل الانتقاص. وإضافة لحسن خلقته الجبلية وسلامة حواسه وأعضائه، فقد اعتنى بمظهره من النظافة وحسن الهيئة والتطيب بالطيب. [٨]

فجأه الحق وهو بغار حراء في رمضان، وله من العمر أربعون سنة، فجاءه الملك فقال له: اقرأ، قال: لست بقارئ، فغتّه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال له: اقرأ، قال: لست بقارئ، ثلاثاً، ثم قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق/١-٥] فرجع بها رسول الله ترجف بوادره، فأخبر بذلك خديجة رضي الله عنها، وقال: قد خشيت على عقلي، فثبتته، وقالت: أبشر، كلا والله لا

---

(١) -أبو الحسن علي الحسني الندوي: السيرة النبوية، ص ٤٦٧

(٢) -هنري ماسيه: ولد عام ١٨٨٦، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذًا في جامعة الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، وعضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتدبته الحكومة لعديد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين. من آثاره: كتاب (الإسلام) (١٩٥٧)، ونشر العديد من الأبحاث في المجلات الاستشراقية الشهيرة.

(٣) -هنري ماسيه: الإسلام، ص ٥٥.

(٤) -ينظر دراسة في السيرة ص٥٧.

(٥) -ينظر مسند الإمام أحمد ٤٢٩/٢ حديث رقم ١٣٠٠.

(٦) -ينظر صحيح البخاري —كتاب المناقب — باب صفة النبيﷺ ح ٣٥٤٨، وصحيح مسلم —كتاب الفضائل-باب صفة شعر النبيﷺ ح٢٣٣٨.

(٤) -صحيح البخاري — المناقب-باب صفة النبيﷺ ح ٣٥٤٩.

(٥) -أغلب هذا الوصف الميسر ساقه مؤرخ السيرة أ.د أكرم بن ضياء العمري (السيرة النبوية الصحيحة ٨٨/١-٨٩)، وأصول هذه الروايات في صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب صفة النبي من حديث رقم ٣٥٤٥-٣٥٥٦، وفي دلائل النبوة للبيهقي ١٩٤/١-٣٠٧.

يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتَصدُق الحديث، وتحمل الكلَّ وتعين على نوائب الدهر.. في أوصاف أُخر جميلة عدّدتها من أخلاقه، وتصديقاً منها وتثبيتاً وإعانة على الحق، فهي أول صدِّيق له رضي الله تعالى عنها وأكرمها. (١)

ثم مكث رسول الله ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً، وفتر عنه الوحي، فاغتمَّ لذلك وحزن على فراق الوحي الذي يفيض عليه بالسكينة والطمأنينة، فاشتاق إلى ما رأى أول مرة، من حلاوة ما شاهده من وحي، فقيل: إن فترة الوحي كانت قريباً من سنتين أو أكثر، ثم تبدَّى له الملَك بين السماء والأرض على كرسي، وثبته، وبشره بأنه رسول الله حقاً، فلما رآه رسول الله فَرَق منه وذهب إلى خديجة وقال: زملوني. دثروني. فأنزل الله عليه ﴿ يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر﴾[المدثر/١-٤]. (٢)

سبق مرحلة الوحي بعض الإرهاصات العجيبة منها أن النبي كان لا يمر على حجر أو شجر إلا يسلم عليه كما أخبر بهذا بعد نبوته وقال إني لأعرف حجرا في مكة كان يسلّم علي، ثم قبل الوحي بستة أشهر كانت الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أما لقائه مع أمين السماء جبريل وتلك اللحظة تعتبر أعظم لحظة مرت بالأرض في تاريخها الطويل، وهذا الحدث هو من أعظم الأحداث المفصلية التي مرت بالبشرية، وحقيقته أن الله سبحانه وتعالى قد تكرم في عليائه فأراد أن يرحم البشرية فكرمها باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي ومستودع حكمته ومهبط كلماته، ومظهر من أسمى مظاهر رحمته.

بهذا الحدث الجلل اختارت السماء مصطفاها ومختارها بين البشر، وبكلمة اقرأ بدأت رسالة الرحمة العالمية، ولم تبدأ بكلمة صل، أو صم، أو تعبد، لتؤكد على مبدأ أساس قامت عليه رسالة محمد ﷺ، وهو أنها رسالة علم وحضارة وليست ديناً كهنوتياً تكريسياً يعتني بالجانب التعبدي فقط، بل رسالة ارتكزت على العلم جوهر الحضارة، وحضارة لم تسوغها القدرة البشرية القاصرة بل رسمتها السماء وقدرها العليم الخبير بحال من خلقهم، إنها حضارة بكل المعايير التي تقاس بها الحضارات، تعنى بالروح ولا تغفل الجسد، تصلح الدنيا وتهيئ الناس للآخرة، تصلح بين الناس وتردهم إلى خالقهم، وتصبغهم بفطرتهم التي خلقوا عليها تزكي أخلاقهم وتسمو بها وترقي مداركهم، تيسر حياتهم وتقوم سلوكهم، تحرر عقولهم وتطلقها في الأفاق وتؤهلها للاستفادة من خزائن الله وموجوداته وتزودها بالعلم وأدواته بعيداً عن الأوهام والخرافات.

بعبارة أخرى إن هذه البداية لتشير إلى أن محمداً قد بعث لينشئ عالماً جديداً حضارياً يعيد للإنسان إنسانيته بعد أن كاد يفقدها ويؤهله للخلافة الحقة في الأرض إنها بداية أشادت بالقلم وخطره والعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم، يعقب وزير خارجية رومانيا السابق كونستانس جيورجيو على تلك البداية القرآنية بقوله : « **لا يجد المرء في أي من الكتب السماوية اهتماماً بالمعرفة كما يجده في القرآن، ولا يمكن أن يعادل مفهوم المعرفة والعلم في الدين الإسلامي ما في أي دين آخر ... وإنني أهنئ المسلمين بنزول الآيات الأولى التي تحض على كسب المعرفة، ولهذا اعتمد العلماء المسلمون القدماء على هذه السورة ليعتبروا العلم من واجبات الدين، ويرون أن على كل مسلم يصلي ويصوم أن يشتغل بالعلم** . » (٣)

بدأت الرسالة بكلمة اقرأ ، واختارت لهذه المهمة رجلاً لا يعرف القراءة والكتابة ليستيقن الناس أن هذه الحضارة المقبلة هي من السماء فقط، وذلك الأمي المصطفى لن يكون بل محال أن يكون مخترعاً لهذا الدين الحضاري ، إنما هو

---

(١) -وهذا التصديق من خديجة رضي الله عنها يسجل السبق التاريخي الأول للمرأة في دخول الإسلام والسبق لنصرة نبي الرحمة

(٢) -ينظر: الفصول ص٨٣-٨٥، وخلاصة سير سيد البشر ص٢٤٦-٢٥٢.

(٣) -جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله (٦٠ وما بعدها)

مبلغ عن الله وناقل لعطاياه من السماء إلى الأرض، يقول الكونت الفرنسي هنري دي كاستري أحد حكام الجزائر السابقين في كتابه (الإسلام تأثرات ومباحث): « **إن أول مسألة دار البحث فيها – أي بينه وبين علماء فرنسا– إنما هي صدق النبي محمد في رسالته وقد قلنا أن ذلك الصدق متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله، ولسنا بحاجة في إثبات صدق محمد إلى أكثر من إثبات أنه كان مقتنعاً بصحة رسالته ، وحقيقة نبوته .. وأما مسألة الوحي والقرآن فكيف يتأتى أن تصدر تلك السور والآيات عن رجل أمي يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى**» [١]

نلحظ من قصة بدء الوحي أن النبي قد تفاجأ بهذه الحادثة وخاف منها، وامتلأ قلبه رعباً مما رأى وسمع وأسرع إلي بيته يرجف فؤاده، وظنها من الشيطان مما يدل صراحة على أنها لم تكن بإعداد منه بل هي أمر خارجي تفاجأ به، وهذا واضح من سعي خديجة لطمأنته بعدة سبل، وكذلك من تتبع مرحلة الدعوة الجهرية والتي بدأت بصعود النبي جبل الصفا بمكة ومناداته لأهل قريش بأعلى صوته يعلم أنه كان بأمر خارج عن إرادته خاصة إذا قورن بطبيعة شخصيته التي كانت قبل البعثة، والتي كانت تميل إلى البعد عن الأضواء والانطواء، إن ما حصل مع محمد من تغيرات تشير بما لا يحتمل الشك أن هناك مؤثرات خارجية مفاجئة أثرت عليه وقلبت شخصيته من الانطواء إلى الانطلاق، وهي أشبه بحال موسى الذي فر هارباً من مصر وقطع الصحاري والمسافات الطوال لكي يفر من بطش فرعون، وإذا به يرجع إلى فرعون نفسه لمراغمته، فلا يعقل حصول هذا التغير العجيب مع عدم وجود أسبابه ودواعيه وتوفر موانعه إلا لحدث جلل وقع مع كليهما وهو بدء الوحي

نلحظ في قصة بدء الوحي أن خديجة لم تكن متضجرة من غياب زوجها عنها في الجبال بل على العكس تحكي كتب السير أنها كانت تعد له الزاد وتهيئ له الخروج لخلواته، ولعلها الفراسة التي حظيت بها هذه المرأة الحكيمة الذكية والتي أسعفتها منذ التجربة الأولى مع محمد ﷺ، وعلمت من خلالها أنها حظيت بزوج يختلف عن سائر البشر وله خصوصية عند ربه لذا كانت نعم العون له قبل البعثة وبعدها ولا نستغرب من سرعة إيمانها أو إيمان أقرب الناس للرسول كأبي بكر صديقه، وكزيد مولاه وعلي ابن عمه، فهؤلاء كانوا الأقرب من رسول الله قبل البعثة، ورأوا بأعينهم سمو أخلاقه وعظيم خصاله التي تفوق كل ما عهدوه عند البشر إضافة إلى دلائل متعددة عاينوها من قرب تشير إلى خصوصية محمدﷺ عند ربه، وعناية السماء وكفالتها المباشرة له لذا لم يفاجئوا ببدء البعثة ونزول الوحي، بل على العكس وجدوا في بدء الوحي حلاً للغز هذه الشخصية المباركة التي هي محل عناية السماء وحفظها .

ثم أمره أن يُنذر قومه ويدعوهم إلى الله، فشمّرﷺ عن ساق التكليف، وقام في طاعة الله أتم قيام بالرحمة والحكمة، يدعو إلى الله سبحانه الكبير والصغير، والحرَّ والعبد، والرجال والنساء، والأسود والأحمر، فاستجاب له عباد الله من عدة قبائل، وأسلم على يد أبي بكر عثمان بن عفان، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص [٢]، وكذلك أسلمت خديجة، وزيد بن حارث، **وأسلم القسُّ ورقة بن نوفل فصدّق بما وجد من وحي الله، وتمنى أن لو كان جَذَعاً**، وذلك أول ما نزل الوحي، وفي الصحيحين أنه قال: هذا الناموس الذي جاء موسى بن عمران. [٣] لما ذهبت خديجة به إليه، فقصّ عليه رسول الله ما رأى من أمر جبريل عليه السلام.

---

(١) –انظر عبد الوهاب: محمد رسول الله في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه (٢٦ وما بعدها)

(٢) –ينظر الفصول ص٨٥.

(٣) –صحيح البخاري –كتاب بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي إلى رسول اللهﷺ ح٣، وصحيح مسلم–كتاب الإيمان–باب بدء الوحي ١٣٩/١، ح ٢٥٢.

ودخل من شرح الله صدره للإسلام على نور وبصيرة ومعاينة، فأخذهم سفهاء مكة بالأذى والعقوبة، وصان الله رسوله وحماه بعمه أبو طالب، لأنه كان شريفاً مطاعاً فيهم، نبيلاً بينهم، لا يتجاسرون على مفاجأته بشيء في أمر محمدﷺ لما يعلمون من محبته له، وكان من حكمة الله بقاؤه على دينهم لما في ذلك من المصلحة، فهذا رسول اللهﷺ يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً لا يصده عن ذلك صاد، ولا يرده عنه راد، ولا يأخذه في الله لومة لائم[١]

ففي المرحلة الأولى كانت الدعوة سراً حذراً من الاصطدام المباشر مع المشركين، ولكن المواجهة كانت عن طريق نزول القرآن منذ بداية نزوله.

ففي سورة العلق حملة عنيفة على أحد زعماء قريش، في وقت لم يكن النبي قد آمن بدعوته بعد سوى نفر يعدون على الأصابع، ومن ثم يتبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه الرسول والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاغي: المغيرة بن هشام المخزومي، مما يوحي إليه من آيات فيها الصفعات الداميات: ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليد ناديه. سندعو الزبانية. كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾، (العلق/١٥-١٩)، ثم بما كان من تثبيت القرآن له على دعوته وعبادته وثباته فيهما فعلاً، تبين لنا العظمة الخلقية والإيمان العميق والجرأة الشديدة في الحق على كل باغٍ مهما كان قوياً عاتياً. ولقد كان هذا دأبه في كل المواقف التالية لهذا الموقف العصيب سواء كانت في الخطوات الأولى أو ما بعدها، وفي هذا سر من أسرار اصطفائه للرسالة العظمى من دون ريب.[٢]

ولا شك أن الصحابة السابقين في الإسلام كأبي بكر وخديجة وعليﷺ كانوا يقومون بواجبهم في الدعوة إلى الله تعالى في نطاق المقربين إليهم في النسب أو التعامل التجاري، فمثلاً خديجة المخزومية رضي الله عنها وهي من سيدات قبيلتها، وأبو بكر وهو من أسياد وأغنياء قريش، وعلي بن أبي طالب الهاشمي، بل إن بعضهم كان يصدع بالدعوة ويتلو القرآن الكريم عند الكعبة المشرفة كصنيع ابن مسعود، فكل من آمن هو على ثغرة من الدعوة مع الأقرب فالأقرب.

وما لبث الرسول أن جُوبه بمعارضة شديدة من قومه، وبإجماع منهم على مقاومته وصدّه، سيما بعد الحملات الشديدة التي راح يشنُّها على آلهتهم وأصنامهم، ووقف عمه أبو طالب ينافح عنده ضد قريش، فرأى زعماؤهم أن يبعثوا إليه وفداً من أشرافهم علَّهم يقنعونه بوقف ابن أخيه على المضي في دعوته، أو على الأقل بالتخلي عن إسناده وحمايته. والتقى رجالات الوفد بأبي طالب وقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنَّا وإما أن تخلي بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً وردَّهم ردَّاً جميلاً فانصرفوا عنه.[٣]

وفي هذه المرحلة كان التنزيل المكي يركز على تثبيت الإيمان وبيان ثمرته والاعتبار بالأمم السابقة من خلال قصص الأنبياء وصبرهم على أُممهم ورحمتهم بهم، ونصرهم على أعدائهم، كل ذلك كان يرتله نبي الرحمة ﷺ على أسماع أصحابه رضوان الله عليهم بتلك القراءة المفسرة، وقراءته كانت بتدبر ولهذا كانت السورة عندما يرتلها تطول، فقد أخرج مسلم بسنده عن حفصة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ صلى في سبحته قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام، وكان يصلي في سجدته قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.[٤] فتنزل السكينة والرحمة.

---

(١) -الفصول ص٨٥-٨٦.

(٢) -ينظر: دراسة في السيرة ص٦٥.

(٣) -دراسة في السيرة ص٦٧، وينظر سيرة الرسول لعزت دروزة ١/١٦٢.

(٤) -الصحيح -كتاب صلاة المسافرين باب جواز النافلة قائماً وقاعداً ح ٧٣٣.

وفي ذلك تعليم وتطبيق عملي للتلاوة والتدبر، ورصيد من الثواب الجزيل، وهذه القراءة المتأنية التي تطول بها السورة ساعدت على مزيد من الفهم ثم العمل، وقد وصفت أُم سلمة رضي الله عنها قراءته كانت مفسِّرة حرفاً حرفاً[١]، وأنه كان يقطع قراءته آية آية.[٢]

قال الإمام النحاس: ومعنى هذا الوقف على رؤوس الآيات[٣]، وفي رواية عن أُم سلمة رضي الله عنها كان رسول الله يقطع قراءته، يقرأ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ثم يقف ﴿الرحمن الرحيم﴾[الفاتحة/١-٢] ثم يقف...[٤]" فهذه القراءة المرتلة التي تمسُّ شغاف القلب كان لها الأثر الفاعل في تعليم الصحابة علم التفسير وعلم التدبر، ولا شك أن هذه السورة قد قرأها عليهم في مكة مرات كثيرة.

ويستفاد من إسلام ورقة بن نوفل أن بعض أهل الكتاب الذين عرفوا الحقَّ من كتبهم، هم أقرب النّاس للدخول في هذا الدين، ومعرفة منزلة النبي الأمينﷺ، فبعدما استمع للنصف الأول من سورة اقرأ من فم رسول الله ﷺ : قال ورقة فوراً : "هذا الناموس الذي نزل الله به على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك" ، فقال النبي ﷺ: "أومخرجي هم؟". قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[٥]، وأسلم ورقة، ليسجِّل التاريخ أن أول رجل يصدِّقُ محمداً ويعتنق دينه هو عالمٌ نصراني.

لما دخل النّاسُ في دين الله واحداً بعد واحدٍ، وكثر أتباع محمدﷺ فحينئذ ناصبه الوثنيون العداوة، فحمى الله رسولهﷺ بعمه أبي طالب، لأنه كان شريفًا معظماً في قومه وأما أصحابه فمن كان له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وسائرهم صَبَّ عليهم المشركون العذاب صبًّا، وفتنوهم عن دينهم فتوناً، منهم بلال بن رباح العبد الأثيوبي وعمار بن ياسر، وأمه سمية وأهل بيته الذين عُذِّبوا في الله عذاباً شديداً، حتى قضى ياسر نحبه، ومرَّ أبو جهل بسمية -أم عمار -وهي تُعذب، فطعنها بحربة في فرجها فقتلها.

كما قام صناديد قريش بتعذيب العديد من النساء اللائي أسلمن[٦]، وضربن أروع الأمثلة في الثبات والصبر والاعتزاز بدعوة الإسلام، وكانت من بينهن زِنِّيرَةُ أمَة رومية قد أسلمت فعُذبت في الله، وأُصيبت في بصرها حتى عميت، وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بني عدى، فكان عمر بن الخطاب يعذبها . وهو يومئذ على الشرك . فكان يضربها حتى يفتر، وممن أسلمن وعُذبن أيضاً: أم عُبَيْس والنهدية وابنتها.

٦-المساومات والمفاوضات والحرب الإعلامية على الدعوة:

تخلل مرحلة الدعوة الجهرية من بدايتها حتى مرحلة متأخرة منها مساومات ومفاوضات عدة لرسول الله ﷺ أو لعمه أبي طالب بهدف صرف النبي عن رسالته أو قبوله بحل وسط يتناسب مع جاهليتهم، ولعل أبرز ما تضمنته المساومات:

- في بادئ الأمر جاءوا لأبي طالب يشكون له محمداً وما يصدر منه من تسفيه للآباء والأحلام وتعييب الدين وشتم للأصنام، فتكلم معهم أبو طالب كلاماً رقيقاً وردهم رداً جميلاً.

---

(١) -أخرجه الترمذي -السنن -باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ١٨٢/٥ ح ٢٩٢٣، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٢) -سنن أبي داود، كتاب الحروف والقراءات ح ٤٠٠١ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح ٣٣٧٩.
(٣) -القطع والائتناف ص ٨٧.
(٤) -أخرجه الترمذي (السنن -كتاب أبواب القراءات عن رسول اللهﷺ ح ٣١٠٧) وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ح ٢٣٣٦). وقال القرطبي: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: قول أُم سلمة: كان يقطع قراءته: يدخل في جميع ما كان يقرؤه عليه السلام من القرآن، وإنما ذكرت (فاتحة الكتاب) لتبيّن صفة التقطيع، أو لأنها أُم القرآن، فيغني ذكرها عن ذكر ما بعدها، كما يغني قراءتها في الصلاة عن قراءة غيرها لجواز الصلاة بها، وإلا فالتقطيع عام لجميع القراءة، لظاهر الحديث. وتقطيع القراءة آية آية أولى عندنا من تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها، لحديث أُم سلمة رضي الله عنها. (التذكار في أفضل الأذكار ص ١٤٠).
(٥) -صحيح -رواه البخاري، بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم، برقم ٣
(٦) -انظر: صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٧١

– إرسال أشرافهم ليخاطبوا محمداً لكي يترك هذا الدين، وأول من أرسلوه لهذا الغرض الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ، فرجعا مبهورين من جلالة القرآن وعظمته ، وخرج ربيعة من عند رسول الله ﷺ ليقول لمن ورائه : لقد سمعت كلاماً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، وطالب قومه باعتزاله ودعوته فلم يجيبوه لذلك، وتكررت المحاولات وكان الذي يدخل على النبي ليحاوره يرجع لهم بوجه غير الذي دخل به، وبعضهم كان يسلم عند لقائه لرسول الله كالحصين الذي أرسلته مكة ليفاوض النبي فرجع إليهم وقد أعلن إسلامه(١)

– الاجتماع وعرض زهرة متاع الدنيا التي يملكونها بين يدي النبي ﷺ مقابل تركه لهذا الدين الذي جاء به، وكان في العرض: «**إن أردت ملكاً ملكناك، وإن أردت مالاً جمعنا لك من كرائم أموالنا حتى نجعلك أكثرنا مالاً وإن أردت زوجة زوجناك أحسن نسائنا، وإن كان الذي يأتيك رئياً (أي تابع من الجن) جمعنا لك الأطباء وعالجناك حتى نعذر فيك**» وهذا العرض قابله النبي ﷺ بقوله: «**ما بي ما تقولون، إنما أريد منكم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: كلمة واحدة، وأبيك عشر كلمات، فقال النبي ﷺ: أن تقولوا لا إله إلا الله، ففزع القوم وقالوا أما هذه فلا** » (٢) وفي رواية قال لهم : «**ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**»(٣)

– مساومته على ترك بعض ما جاء به، ومن ذلك أنهم عرضوا على النبي أن يعبدوا إلهه عاماً ويعبد آلهتهم عاماً، وقيل أنهم عرضوا عليه أن يعبد ما يعبدون على أن يعبدوا ما يعبد، واعتبروها نقطة التقاء بينهم، وكانوا يرغبون من محمد ﷺ قبول عرضهم هذا فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ (٤) ونزلت سورة الكافرون لتؤكد على المفاصلة الكاملة بين الكفر والإسلام (٥)

– تضييق الخناق عليه من خلال عمه ونصيره أبي طالب: وذلك في مواقف متعددة جاءوا بها على أبي طالب وعرضوا عروضهم، وضيقوا عليه ليمنع ابن أخيه، وبعضها تضمن تهديداً ووعيداً له، فأرسل إلى النبي قائلاً له: «**يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا كذا وكذا، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن النبيﷺ أن عمه خاذله فقال: يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ثم استعبر وبكى وقام فلما ولى ناداه عمه وقال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً**» وفي رواية أن النبي خاطب كفار قريش قائلاً: «**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار**» (٦)

– مساومة أبي طالب على تسليم ابن أخيه لقريش: ومن ذلك أنها جاءت لأبي طالب بعمارة بن الوليد، فقالت له: «**هذا عمارة أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه، فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً وأسلم إلينا ابن أخيك هذا**

(١) –انظر الكاندهلوي: حياة الصحابة (٦٥/١) المباركفوي: الرحيق المختوم (٩٣ وما بعدها)
(٢) –انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٦٣/٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٣٨/١٠)
(٣) –انظر ابن هشام: السيرة (٢٠٧/١) ابن أبي شيبة: المصنف (٣٣٢/٧) الكاندهلوي: حياة الصحابة (٦٨/١ وما بعدها)
(٤) –القلم: الآية ٩
(٥) –انظر ابن هشام: السيرة (٢٤٤/١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٣٠/١٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٦٢/٤)
(٦) –انظر الطبري: تاريخ الطبري (٥٤٥/١) الكاندهلوي: حياة الصحابة (٣٤/١)

الذي قد خالف دين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني به أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني لتقتلوه، هذا والله ما يكون أبداً[١].

هذه أبرز المساومات والمفاوضات التي كانت بين قريش والنبي ولعل أهم ما يتضح من خلالها هو ثبات النبي على رسالته واستعداده لتحمل كل النتائج في سبيل ذلك مما يضيف دليلاً من دلائل نبوته ويؤكد على أن ما جاء به ليس من عنده بل بوحي من السماء، فما هو إلا رسول يحمل أمانة يعتني بتبليغها كما هي، ويلحظ أيضاً أن التأكيد على التوحيد كان من أبرز ما عززه النبي في مفاوضاته، فالتوحيد لا يتحمل أي مساومة، فإما أن تكون لله أو تكون لغيره لذا نجد صلابة النبيﷺ في هذا الأمر وعدم مداهنته فيه لأنه روح رسالته.

الحرب الإعلامية: شنت قريش حرباً إعلامية واسعة على صاحب الرسالة ومعجزته التي أخذت عقول عظمائها فوقفوا أمامها صاغرين لا يجدون فيها مطعناً ولا في تحديها مدخلاً لذا رأوا ضرورة تشويه صورة النبي وكتابه بين العرب والعوام لكي يصدون الناس عن سماع الحق، وقد حاروا فيما يتهمون به النبي هل هو كذاب؟ وهم يعلمون أنه أصدقهم قيلاً، وهل هو شاعر؟ وهم أعلم الناس به وبعدم قوله الشعر أو تقوله من قبل إضافة لعلمهم الأكيد أن ما يقوله لا يشبه الشعر بأي وجه كان، هل هو ساحر؟ ولم يعهدوا عنه ولم يروا منه تعازيم السحرة وأراجيز الكهان، هل هو مجنون؟ وأي جنون هذا الذي يأتي بمكارم الأخلاق وبموزون الكلام وجوامع الكلم بما لا يستطيعه أعظم عقلائهم، هل هو معلم مجنون؟ أي يعلمه غيره، وهم يعلمون أنه لا يوجد في كل من خالطهم النبي من قال مقالته أو شبيهاً بها، هل الذي يأتيه تابع من الجن؟ ولو كان كذلك فما يُرى على الممسوسين هو الهذيان والتخبط والكلام غير الموزون، وليس الحكمة والتعقل، وهذا الكتاب الذي جاء به هل هو من خرافات وأساطير القدماء، ولئن كان كذلك فمن أين جاء بها؟ ولم تسمع بها قريش بين جنباتها أو من آبائها أو أبنائها، ثم لماذا تعجز قريش عن الإتيان بمثله، خاصة أنه تضمن روح الحكمة وخلاصتها. (❁)

هذه أبرز اتهامات قريش للنبي ودعوته، وهي تظهر مدى تخبط قريش وهذيانها مع قناعتها الكاملة بأنها ضرب من الاتهامات التي لا تملك على أي واحد منها أي دليل، بل هي متيقنة من أن دعوة محمد بخلاف ما يقولون، لكنه العناد والكفر والظلم وحماية المصالح الخاصة : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً** ﴾ [٢] وبالرغم من علمها أن دعايتها الإعلامية ليس لها أي رصيد من الواقع إلا أنها حرصت على تسويقها بين العرب ، واعتمدت في ذلك على مصداقيتها في نظر القبائل والعرب، وبالفعل كان لهذه الدعاية أثرها في حسر الدعوة عن الكثيرين في بادئ الأمر ، ولكنها لم تمنع أمراً كان مقضياً، تروي كتب السير أن العرب كانت تنظر للنبي بأنه الصابئ الذي يسفه الأحلام ويعيب الآلهة، وأنه يسحر الناس ويؤثر عليهم ويفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه، بل كان أبو لهب يتبع النبي في كل مجلس يقوم به، ويبلغ القوم أنه ابن أخيه وأنه صابئ كذاب، وبلغت الدعاية مبلغها لدرجة أن الطفيل بن عمرو الدوسي عندما قدم مكة وضع في أذنيه قطناً خشية أن يسمع بعض كلمات صابئ مكة فيسحره، ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يسلم الطفيل في رحلته تلك لمكة، ويكون سبباً لهداية قبيلة دوس بأكملها، وكذلك ضمام بن ثعلبة وكان يعالج من المس

---

(١) –ابن هشام: السيرة (١٨٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢٠٢/١)

(❁) تذكر السير أن أشراف مكة تحيروا في النبي والكتاب الذي أنزل عليه ، وأنهم كانوا يرون في القرآن شيئاً عظيماً لم يعهدوه وكانوا على قناعة كاملة أنه ليس بكلام ساحر ولا شاعر ولا كذاب ولا كاهن ، وقد صرح بذلك أكابرهم كالوليد بن المغير وعتبة بن ربيعة ، والنضر بن الحارث وغيرهم ، بل تذكر الروايات أن القرآن قد أخذ بعقولهم ، وكانوا يتلصصون ليلاً ليستمعوا للنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في بيته وهو يصلي ، من هؤلاء : أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق ، وقد نزل في ذلك الموقف قرآن [انظر هذه المواقف عند ابن هشام (١/ ١٩١– ٢٠٦ – ٢١٨)]

(٢) –النمل: الآية ١٤

والأرياح يأتي بسبب تلك الدعاية للنبي ليعالجه ظناً منه أن النبي معه تابع من الجن كما تزعم قريش، وما أن جلس مع النبي وسمع كلامه حتى علم كذب قريش في دعايتها، وأعلن إسلامه.

ومن أشكال الإيذاء: **وضع الأذى عند بيته من جيرانه:** كان منزل النبي بين منزلي أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، وكان النبي ينقلب إلى بيته فيجد الفرث والدماء وخرق الحيض والنجاسات قد نصبت ببابه .

-**وضع فرث الجزور عليه وهو ساجد:** وهذه قام بها أشقى القوم عقبة بن أبي معيط بالتآمر مع رؤساء قريش حيث اغتنم فرصة صلاة النبي عند الحجر وإطالته في السجود فعمد إلى فرث جزور فوضعه على كتفه وهو ساجد، فأقبلت فاطمة بنت محمدﷺ حتى ألقت ذلك عن عاتق أبيها ثم استقبلت قريش تسبهم، فلما قضى النبي صلاته دعا عليهم قائلاً: اللهم عليك بأبي جهل وعقبة وشيبة.

- **محاولة قتله:** وهذه قام بها أشراف قريش مراراً، منها محاولة عقبة بن أبي معيط خنق النبي برداء وهو يصلي، واستمر بخنقه حتى سقط الرسول وتصايح الناس وظنوا أنه قتل، وفي مرة أخرى هجموا عليه كذلك وكادوا يقتلونه، فجاء أبو بكر مسرعاً وهجم على رسول الله يحتضنه ويقول لهم: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ومنها مواقف أبي جهل المتكررة، لعل أبرزها عندما قال أبو جهل لقومه: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وإني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر، فإذا سجد فضخت به رأسه ولما أصبح أبو جهل أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله ينتظره، وعندما قدم النبي وسجد في صلاته، أقبل نحوه أبو جهل حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره، وعندما سئل عما أصابه قال : لما دنوت عرض لي فحل عظيم لم أر مثله كاد أن يأكلني [1] ، وهكذا حفظ الله سبحانه وتعالى نبيه.

-**تعفيره بالتراب أو التفل على جسده الشريف وهو يدعو الناس:** ومن ذلك ما رواه الحارث بن الحارث قال: «**قلت لأبي ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابيء لهم قال فنزلنا فاذا رسول الله يدعو الناس الى توحيد الله عز وجل الإيمان، وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار**» وفي رواية «**رأيت رسول الله في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله الا الله تفلحوا، فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبه حتى انتصف النهار فأقبلت جارية بعس من ماء، فغسل وجهه ويديه وقال: يا بنية لا تخشى على أبيك غيلة ولا ذلة فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي جارية وضيئة**» [2]

هذه أبرز أشكال الإيذاء التي نالت من شخص رسول الله ولم يمنع منها ما لشخصية النبي من وقار وعظمة وإجلال تتعاظمه نفوس الأعداء قبل الأصدقاء وتأبى الاجتراء عليه، لكن هول الصدمة وعناد الكفر والكبر طمسا عند زعماء قريش عين البصيرة، وأفقداها الروية والتفكر، وألبساها ثوب الطيش فوقعوا بفعل لا يليق بالأراذل والسفهاء فكيف بالأكابر والأشراف.

أما أصحابه الكرام فقد نالوا من أشكال العذاب والتنكيل ما لا يوصف، خاصة الضعفاء والعبيد ومن ليس له منعة منهم، حتى أتاه خبابﷺ وهو في حجر الكعبة مع غيره من المعذبين يشكون له ما أصابهم قائلين له: «**أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا! أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا! قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ ، فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ**

---

(١) -انظر ابن هشام: السيرة (٢٠٩/١) ابن كثير: صفوة السيرة (١٨٨/١) الكاندهلوي: حياة الصحابة (١/ ٢٨٠ وما بعدها) رضا: محمد (١٠٩) المباركفوري: الرحيق المختوم (١٠٠ وما بعدها) الجزائري: هذا الحبيب (١١٢ وما بعدها)

(٢) -انظر الطبراني: المعجم الكبير (٣٤٢/٢٠) مجمع الزوائد (٢١/٦) الكاندهلوي: حياة الصحابة (١/ ٢٨٠)

عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» (١)

فللإيمان ضريبة لا بد من دفعها، والصبر على الأذى في سبيل الله مكرمة لصاحبها في الدنيا والآخرة، و إصلاح بشرية غارقة في غيها يقتضي تضحيات جسام، وهذه سنن المدافعة بين الحق والباطل، والصبر عنوان المرحلة والعاقبة للمتقين بالنصر والعزة والتمكين، بهذه الكلمات كان النبي يطمئن أتباعه ويربط على قلوبهم مذكرهم بالثمرة المرجوة من صبرهم وتفانيهم لنصرة رسالة النور والرحمة، وأحياناً كان يترخص لصحابته الكرام رحمة بهم، يأتيه عمار عنه باكياً معتذراً يقول للنبيﷺ: «**يا رسول الله! ما تركوني حتى نلت منك وذكرت اللات والعزى بخير. فيقول له الحبيبﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، فقال له النبيﷺ فإن عادوا فعد**» (٢) .

استقبل النبي ﷺ هذه الحرب الضروس عليه وعلى أصحابه بحزن شديد وبخلق سامي وباستعداد وهمة ورجاء لا ينقطع، و حال النبي مع تلك المواقف بيّنه القرآن في عدة مواطن بعضها يصف حال النبيﷺ وبعضها يرسم له المنهاج الأمثل في التعاطي معها، ويمكن بيان ذلك في التالي :

١-**النبيﷺ يتألم لحال الكفار ويتحسر عليهم**: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً** ﴾ (٣) فالآية تشير إلى أن النبي ﷺ يكاد يهلك نفسه من شدة الحزن والألم على قومه بسبب إعراضهم عن دين الله سبحانه وتعالى، ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ (٤) أي لا تهلكها حسرة وكمداً بسبب إعراضهم .

٢-**الإعراض ومقابلة السيئة بالحسنة**: يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ **[الأعراف:١٩٩]** ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [النجم:"٢٩] ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾[فصلت:٣٤]

٣-**الحرص على هدايتهم بالرغم من عنتهم**: ومن ذلك أن النبي كان لا يدخر جهداً إلا يذكر بالله والدعوة إليه، من ذلك ما ذكره المغيرة بن شعبة قال: «**إن أول يوم عرفت فيه رسول الله أني كنت أمشي مع أبي جهل بمكة فلقينا رسول الله فقال له: يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى رسوله وإلى كتابه أدعوك إلى الله! فقال: يا محمد ما أنت بمنته عن سب آلهتنا! هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت قال: فانصرف عنه رسول الله فأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن بني قصي قالوا فينا الحجابة فقلنا نعم، ثم قالوا فينا القرى فقلنا نعم، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم، ثم قالوا فينا السقاية فقلنا نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي والله لا أفعل.**» (٥)

فالأثر السابق صريح بأن النبيﷺ كان يكرر دعوته لنفس الأشخاص عدة مرات، بل كان يغض الطرف عن إيذائهم ثم يغزوهم في بيوتهم أو طريقهم داعياً لله سبحانه وتعالى، ولم يجد هؤلاء الأشخاص مناصاً من التفلت من النبيﷺ إلا بمثل ما قاله أبو جهل، وهو الشهادة أمام الله أنه قد بلغ رسالة ربه، وذلك جرياً على ما يسمعونه منه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٤١٦ [البخاري (١٣٢٢/٣)

(٢) أخرجه الحاكم برقم ٣٣٦٢، وقال صحيح على شرط الشيخين [المستدرك (٣٨٩/٢)]

(٣) -الكهف: الآية ٦

(٤) -فاطر: الآية ٨

(٥) -أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٥٨٢٩ [المصنف (٧/ ٢٥٦)]

٧-الفرار بالدين والحصار الاقتصادي ورحلة الطائف.

١ -الهجرة إلى الحبشة وإسلام ملك نصارى الحبشة:

في السنة الخامسة للهجرة اشتد أذى المشركين للمؤمنين[١] يتحدث العلامة آتيين دينيه[٢]، عن مأساة المسلمين في هذه الفترة، قائلاً:" وامتلأت نفس محمد حزناً، أمام هذه المآسي التي كان يتحملها ضعاف المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم حقاً إن شجاعة المعذبين والشهداء في سبيل الله برهنت على إسلامهم العميق، ولكنه رأى أن من الخير ألا يستمر هذا البلاء، فنصح الضعفاء ومن لم تدعهم الضرورة إلى البقاء في مكة بالهجرة إلى الحبشة حيث المسيحيون، وحيث التسامح والعدل اللذان اشتهر بهما ملكها النجاشي"[٣] .

وهو ملك نصراني صالح، لا يُظلم عنده أحد. فأقام المهاجرون عند النجاشي على أحسن حال، فبلغ ذلك قريشاً فأرسلوا وفداً، ليكيدوهم عند النجاشي، وليخرجهم النجاشي خارج أرضه إلى المشركين فرجعوا خائبين. وأسلم النجاشي على يد رئيس الوفد الإسلامي الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب، بعدما قرأ على النجاشي آيات بينات من سورة مريم. وظلَّ المهاجرون عند النجاشي ينشر عليهم ظله وحمايته حتى رجعوا إلى المدينة المنورة سنة سبع للهجرة.

قال مؤرخ السيرة أ.د.أكرم بن ضياء العمري: لا شك أن الاستجابة للأمر الإلهي بإعلان الدعوة اقتضى مواجهة المشركين بحقائق التوحيد وبفساد الشرك، مما جعل المشركين يلحقون الأذى بالرسول وأصحابه، ففضلاً عن المعتقدات الباطلة التي عشعشت بعقولهم وتوارثوها خلفاً عن السلف، فإنهم كانوا مدركين لجدواها في تحقيق مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية عندما تؤم القبائل العربية مكة حيث الأصنام الثلاثمائة والستون المحيطة بالكعبة، وينجم عن ذلك حركة بيع وشراء تحقق الأرباح الوفيرة للملأ.[٤]

ولما اشتد أذى المشركين على من آمن وفتنوا جماعة حتى إنهم كانوا يَصبِرونهم، ويُلقونهم في الحر، ويضعون الصخرة العظيمة على صدر أحدهم في شدة الحر، حتى إن أحدهم إذا أُطلِقَ لا يستطيع أن يجلس من شدة الألم، فيقولون لأحدهم: اللات إلهك من دون الله. فيقول مُكرهاً: نعم.. فلما اشتد البلاء أذن الله سبحانه وتعالى في الهجرة إلى أرض الحبشة.. فانحاز المهاجرون إلى مملكة أصحَمة النجاشي فآواهم وأكرمهم، فكانوا عنده آمنين. فلما علمت قريش بذلك بعثت في إثرهم عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بهدايا وتحفٍ من بلادهم إلى النجاشي، ليردَّهم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وتشفعوا إليه بالقواد من جنده، فلم يُجبهم إلى ما طلبوا، فَوشَوا إليه: إن هؤلاء يقولون في عيسى قولا عظيماً، يقولون: إنه عبد، فأحضر المسلمون إلى مجلسه، وزعيمهم جعفر بن أبي طالبﷺ، فقال: ما يقول هؤلاء إنكم تقولون في عيسى؟! فتلا عليه جعفر سورة ﴿كهيعص﴾ [مريم/١]، فلما فرغ أخذ النجاشي عوداً من الأرض فقال: ما زاد هذا على ما في التوراة ولا هذا العود، ثم قال: اذهبوا فأنتم شُيُّوم[٥] بأرضي، من سبَّكم غَرِم، وقال لعمرو وعبد الله: لو أعطيتموني دَبْرَاً من ذهب يقول: جبلاً من ذهب ما سلَّمتهم إليكما، ثم أمر فرُدَّت عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحين بشر خيبة وأسوئها. [٦] ، وبلغ المهاجرين إلى الحبشة أن قريشاً أسلموا، فقدم مكة منهم جماعة، فوجدوا البلاء والشدة كما كانا، فاستمروا بمكة إلى أن هاجروا إلى المدينة[٧].

---

(١) -ينظر طبقات ابن سعد ٢٠٤/١، والسيرة النبوية للذهبي ص١١٧.
(٢) -فرنسي أسلم عام ١٩٢٧م وكان شديد الهجوم على المستشرقين المعادين للإسلام، ومن آثاره: "الشرق كما يراه الغرب"، و" أشعة خاصة بنور الاسلام".
(٣) -آتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ١٤٥
(٤) -السيرة النبوية الصحيحة ١٤٧/١.
(٥) -أي: الآمنون بلغة الحبشة كما في حاشية الفصول.
(٦) -ينظر الفصول لابن كثير ص٨٧-٨٩، وصحيح البخاري حديث ٣٨٧٢-٣٨٧٦، وقد وردت قصة الهجرة إلى الحبشة بالتفصيل في مسند أحمد ح١٧٤٠.
(٧) -ينظر الفصول ص٩١.

إن إقامة شعائر الله تعالى في الأرض واجب على المسلمين، فإذا مُنعوا من هذه العبادة فلهم أن يختاروا أيَّ بلد يمكنهم من توحيد العبودية لله تعالى، واختيار بلاد الحبشة كان موفقاً بكل أبعاده على الرُغم من ركوب البحر، فقد وقع الاختيار على بلد تحكمه شريعة النصارى الذين عرفوا محمداﷺ رسولاً بعد عيسى، فوجدوا العدل والإنصاف وإعطاء حرية العبادة لأنهم عرفوا الغاية من هجرتهم وهو رضاء الله تعالى.

ومن خلال هذه الهجرة تتجلى رحمة النبي بأصحابه بالسماح لهم بالهجرة، مع حاجته إليهم في الحماية له من الأعداء، ولكنه آثر مصلحة الدعوة على ما سواها، فإن هجرتهم فيها الحفظ على سلامتهم، وفيها تبليغ الدعوة إلى بلاد الحبشة، كما يستنبط من هذه الرحلة وجود العلائق بين النصارى والمسلمين، وخاصة النصارى من المؤمنين بالقرآن الكريم فإنهم كانوا يتأثرون بل يبكون، قال الله تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾(المائدة/٨٢-٨٣).

ويستفاد من تلاوة سورة مريم أنها قد نزلت قبل هذه الهجرة، أي أن الصحابة آنذاك قد عرفوا معالم هذه السورة وما فيها من الرحمات وإجابة الدعوات، والمعجزات التي ترفع المعنويات، وبشرى المؤمنين بالمحبة والجنة، وترسيخ الإيمان بالله وبالبعث، وبيان مصير الكفار والمشركين في النار، وكل ذلك يثبّت المؤمنين ويزيدهم قوة تتحدى الطواغيت.

(ولا ننسى هنا المرأة المسلمة التي تحملت أعباء الاضطهاد والهجرة، جنباً إلى جنب مع الرجل في سبيل الهدف الذي آمنت به.. وستتكرر هذه المواقف مرة تلو مرة في السلم والحرب، لكي يتبين لنا المدى الواسع الذي أفسحه الإسلام للمرأة، والمكانة العالية التي رفعها إليها، والمسؤوليات الجسيمة التي حمّلها إياها، بعدما كانت تعانيه من ضيق واحتقار وإهمال في عهود الجاهلية).[1] ، ومع أن نبي الرحمة بحاجة إلى من يبقى معه لحمايته وحماية من بقي معه في مكة والذود عن الدين، لكنه رجح مصلحة الدعوة وحماية المؤمنين من الفتنة فأذن لهم بالهجرتين إلى الحبشة.

٢-الحصار وعام الحزن:

اشتد أذى المشركين لرسول الله، فحصروه وأهل بيته في شِعب (وهو مكان بين جبلين في مكة يشبه السجن المفتوح) عُرف بشعب أبي طالب، وسُجن النبيﷺ مدة ثلاث سنين، حتى بلغهم الجوع والجهد وسُمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشِعب، وبدأ حبس محمدﷺ وأصحابه في هلال المحرم سنة سبع من البعثة وخرج من الحصار وله تسع وأربعون سنة، وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب، ثم ماتت خديجة بعد ذلك بيسير، فاشتد أذى الكفار له، وتطاولوا عليه.

فلما أسلم حمزة عمُّ رسول الله، وجماعة كثيرون وفشا الإسلام، علمت قريش فساءها ذلك الحدث، وأجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف: ألا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلِّموهم، ولا يجالسوهم، حتى يُسلِموا إليهم رسول الله وكتبوا بذلك صحيفة وعلَّقوها في سقف الكعبة.

وانحازوا إلى الشِّعب بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب فإنه ظاهر قريشاً وبقوا على تلك الحال لا يدخل عليهم أحد نحواً من ثلاث سنين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حُصرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنّا الميرة حتى أن الرجل ليخرج بالنفقة فما يباع شيئاً حتى مات منّا قوم.

ثم سعى في نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش، فكان القائم في أمر ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حُبيب بن جَذيمة بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي، مشى في ذلك إلى مُطعم بن عَدي وجماعة من قريش، فأجابوه

---

(١) -عماد الدين خليل، دراسة في السيرة ص٨١.

إلى ذلك، وأخبرَ رسول الله قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة الأَرَضَة، فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله عز وجل، فكان كذلك. ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح برغمً من أبي جهل عمرو بن هشام. (١)

ورُبَّ ضارة نافعة، فقد استفاد المؤمنون من نبي الرحمة ﷺ ومن هذا الحصار كثرة الصحبة والسماع والتوجيه، لأن صِلاتهم الاجتماعية حُجِّمت وتقلصت، فكان فيها الخير الكثير من الإعداد الإيماني والتفقه بأمور الدين وكثرة سماع القرآن الكريم من النبي الحكيم، ولهذا نبغ من هؤلاء الصحابة العلماء والفقهاء، وكان تفسير ذلك التنزيل من أجل الفهم والعمل به، فكان أحيانا يبين التفسير من القرآن وهو قمة في البيان، فقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: قال الله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام/٥٩) مفاتح الغيب خمس ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ [لقمان/٣٤].(٢)، وهذا من قبيل بيان المكي بالمكي، وهو مناسب ذكره هنا في هذه الفترة المكية.

وصحَّ عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن﴾ (الأنعام/٨٢) شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله: "إنه ليس بذاك، ألا تسمع قول لقمان لابنه إن الشرك لظلم عظيم"(٣) وهكذا فقد بين للصحابة آيات الإيمان وكذلك يوضح ما أشكل عليهم في تلك الآية، كما كان يعتني بالتكرار لإعطاء التعلم حقه في ترسيخ العلوم فقد صحَّ عن أنس عن النبي كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه. (٤)

وهذا من رحمته وصبره على تعليم أصحابه، وخرج من الحصار وله تسع وأربعون سنة، وبعد ذلك بثمانية أشهر مات عمه أبو طالب، وكان موت أُم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بعده بثلاثة أيام (٥)، ففقد رسول الله خير الأعوان، وهذا الحدث لم يثنِ دعوته بل استمر متوكلاً على الله تعالى يبلغ الأمانة بهمة وصيانة.

وفي ذلك الحدث حكمة ربانية في كمال التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه، والقيام بمزيد من العلائق الاجتماعية بالتزوج من القبائل والأسر التي تزوج منها نبي الرحمة، وبعد موت أُم المؤمنين خديجة رضي الله عنها رجع المهاجرون من الحبشة، ومن بينهم سَودة بنت زمعة رضي الله عنها وكانت ممن أسلم قديماً ومات زوجها السكران بن عمرو فلما حلّت خطبها رسول الله وتزوجها(٦)، وهذا من رحمته فقد جبر خاطر هذه الأرملة، وإن كان بإمكانه أن يتزوج من الأبكار، وكانت قد خطبتها خولة بنت حكيم السلمية للنبي، وقد وافق والد سودة بقوله: كفء كريم(٧).

٣-خروجهﷺ إلى الطائف

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول الله بعد موت عمه خرج إلى الطائف، رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه، ويمنعوهم منه، حتى يبلّغ رسالة ربه. ودعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصراً، وآذوه أشد الأذى. ونالوا منه ما لم ينل منه قومه، وكان معه زيد بن حارثة مولا، فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا كلمه، فقالوا: أخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سِماطين، وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه. هي أشد وقعاً من الحجارة، حتى دُميت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، فانصرف إلى مكة محزوناً.

---

(١) -الفصول ص٩٠-٩١.
(٢) -صحيح البخاري، تفسير سورة الأنعام باب: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ ح٤٦٢٧.
(٣) -صحيح البخاري -تفسير سورة لقمان باب "لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم" ح ٤٧٧٦.
(٤) -صحيح البخاري -كتاب العلم -باب من أعاد الحديث ثلاثا.
(٥) -ينظر: أنساب الأشراف للبلاذري ٢٢٥/١-٢٢٦، وخلاصة سير سيد البشر ص٢٥٩-٢٦١، ودلائل النبوة ٣٥٢/٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٣٧/١.
(٦) -ينظر: تلقيح فهوم الأثر ص١٩-٢٠، والسيرة النبوية للذهبي ص١٨٣-١٨٤.
(٧) -تاريخ الطبري ١٧٦/٣.

فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة – وهما جبلاها اللذان هي بينهما – فقال: "**بل استأني بهم، لعلَّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده، لا يشرك به شيئاً**"[١].

وبهذا الرد النبوي على ملك الجبال تكشفت حقيقة شخصية نبي الرحمة فالحبيب يقطع الفيافي والمسافات الطوال ، ويصل الطائف بغرض دعوتهم لله وهدايتهم، فيقابلونه بصلف وإيذاء شديد، ويسلطون سفهائهم عليه فتغضب السماء لما حل برسول الله ﷺ وكانت لحظة الانتقام من كل ثقيف رهن إشارة من نبي الله المهموم الحزين، لكن الحبيب الذي جبل على الرحمة لم يشأ في لحظة من لحظات حياته أن يكون سبب نقمة على أي بشر، هكذا كانت رحمته حتى بأعدائه وذرياتهم، وكانوا إذا طلبوا منه الاستسقاء فإنه يدعو الله تعالى لهم بذلك ويستجيب له[٢]، وهكذا كانت رحمته في الإحسان مع المشركين، ولقد آتت ثمارها بأن رأوا صدق هذا النبي ولطفه بهم وحنانه عليهم، مما جعل الكثير منهم يعلنوا كلمة التوحيد الخالدة وغدوا قادة الأُمم بنعمة هذا الدين، وقد كان دعاء النبي ﷺ تطبيقاً عملياً لهذا الحق الذي ترك أثره في النفوس وأبرز معجزة نبوية في جلب الخير ودفع الشر. وفي هذا العمل يبرز حكم شرعي في جواز الاستسقاء للمشركين من أجل الدعوة إلى الله تعالى.

من خلال هذه الرحمة نتخيل لو كان حياً بين ظهورنا فماذا يصنع بهؤلاء الذين تكلموا فيه؟ فهو لم يرضَ أن يعاقب أولئك الذين آذوه باللسان والسنان وبالأقوال والأفعال! لا شك أنه سيبلِّغهم الدعوة، وإذا استجابوا فإنه سيشفع لهم عند الله تعالى ليدخلوا جنة عرضها السّموات والأرض!

فلما نزل بنخلة [٣] في مرجعه، قام يصلي من الليل ما شاء الله، فصرف الله إليه نفراً من الجن فاستمعوا قراءته، ولم يشعر بهم رسول اللهﷺ حتى نزل عليه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ إلى قوله ﴿وأولئك في ضلال مبين﴾[الأحقاف/٢٨-٣٢]. ثم انتهى إلى مكة، فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي (أدخل في جوارك؟) فقال: نعم. فدعا المطعم بنيه وقومه، فقال: ألبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً فلا يهجه منكم أحد. فانتهى رسول الله إلى الركن فاستلمه. وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، والمطعم ابن عدي وولده محدقون به في السلاح، حتى دخل بيته.[٤]

إنها ابتلاءات تهد الجبال هداً، ولكن نفوس الأنبياء تصمد أمام الابتلاء، فلماذا الافتراء؟! لماذا تنصب ضدهم العداوة؟! إن العداوة ضد نبي الرحمة لهي عداوة لجميع الأنبياء، لأنهم إخوة ونبي الرحمة سيدهم، ألم يأن للذين يجرحون عرض نبي الرحمة أن يتوبوا وتصفو قلوبهم؟ فترقى أقلامهم إلى السماء، وتهذب ألسنتهم من الافتراء، فينجوا من ظلمات الاعتداء.

٤-الإسراء والمعراج

إن قصة الإسراء والمعراج هي واقعة عظمى وآية كبرى إذ فيها حصل انتقال إلى مرحلة جديدة من الريادة العلمية والسيادة النبوية، فهي انتقال من السماع بواسطة جبريل إلى المشاهدة البصرية الحقيقية لرؤية الأنبياء كلهم والجنة والنار وسدرة المنتهى والسماوات السبع وخزنتها وغير ذلك من المرئيات، ثم ارتقاء جديد بمكالمة الله تعالى عدة مرات في فرضية الصلاة والتخفيف في عدد ركعاتها، وانتقال إلى التعبئة الإيمانية والتزود بالحكمة والرحمة، وبهذا نستطيع أن نقول أنه انتقل

---

(١) -ينظر صحيح البخاري –كتاب بدء الخلق – باب ذكر الملائكة حديث رقم ٣٢٣١، وصحيح مسلم –كتاب الجهاد والسير حديث رقم ١٧٩٤.
(٢) -ينظر صحيح البخاري –كتاب التفسير – سورة الدخان – حديث رقم ٤٨٢١.
(٣) -موضع بين مكة والطائف على طريق السيل (ينظر الروض المعطار ٥٧٦).
(٤) -مختصر سيرة الرسولﷺ ص٨٢-٨٣.

إلى مرحلة هي: ريادة الحكماء والرحماء والعلماء، وسيادة الرسل والأنبياء بذلك التكريم العظيم، من الإمامة والتعليم، والتكليف الشريف والتكليم الكريم لله الحكيم العليم.

في السنة العاشرة (❁) يأتي جبريل عليه السلام للنبي ليلاً، فيأخذه إلى المسجد الحرام، وتجرى له عملية شق الصدر مرة أخرى يطهر فيها القلب ويحشى حكمة، ثم تُهيأ له دابة البراق فيركبها الحبيب محمدﷺ فتنطلق به نحو بيت المقدس، وهناك بعد أن يصلي بالمسجد الأقصى يعرج منه إلى السماء مع جبريل عليه السلام، وتفتح له أبواب السموات وترحب أهل كل سماء بسيد الكونين والرحمة العالمية، ويلتقي النبي في رحلته هذه بالأنبياء حيث رأى آدم في السماء الأولى، وفي الثانية عيسى ويحيى، وفي الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم عليهم السلام جميعاً، ثم يرتقي نحو سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها كقلال هجر، وتركبها الملائكة من كل موضع وتغشاها أنوار الهيبة والجلال، ورأى النبي عندها جبريل على هيئته الحقيقية له ستمائة جناح ما بين كل جناحين ما بين السماء والأرض، وفي تلك الرحلة فرضت عليه الصلوات التي كانت في بدايتها خمسون وانتهت إلى خمس صلوات بأجر خمسين، ورفع له البيت المعمور ثم رفع، وأُدني حتى انتهى إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام وهناك قرّبه ربه وناجاه وإن لم يره لأنه نور أنى يراه .

ونزل النبي صبيحة تلك الليلة، وركب البراق من عند الأقصى حيث رجع به إلى مكة، وفي الصباح أخبر النبي مكة بخبر الإسراء فوجدت فيه مدخلاً للطعن برسالته؛ فالكلام لا تصدقه العقول، ورحلة تطوى في شهرين ذهاباً وإياباً يقضيها محمدﷺ في ساعات لذا وجدت في هذه القصة فرصتها لتكذيب الرسالة والاستهزاء بصاحبها فسألوه عما رأى في طريقه فأخبرهم ببعض العلامات كرؤيته لبعير ندّ من قافلة فرده على أهله وإخباره عن قافلة أخرى قريبة وبين أوصافها، فكان الأمر كما أخبر النبيﷺ واستوصفوه مسجد بيت المقدس فمثله الله له فجعل ينظر إليه ويصفه لكن لهول الخبر واستغراب الكثيرين حصوله وإثارته لسخرية قريش ارتد بعض من آمن، وتشكك البعض في الرحلة إلا القليل وكان الأوفر حظاً منهم بالتصديق به أبو بكر الصديق الذي قال عندما قيل له إن محمداً يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس، فقال: إن كان قال فقد صدق إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه في خبر السماء يأتيه غدوة أو روحة .

– جاءت الرحلة في أصعب مرحلة مرت بالحبيب محمد ﷺ حيث يؤذى ويكذب وأصحابه يعذبون ويطاردون، والأرض قلته وحاربته وأهلها مكروا به ففي ظل هذه الأحداث كانت رحلة الإسراء تسرية لقلب الحبيب وتسلية لنفسه وتخفيفاً لآلامه وأحزانه وقد جاءت آخر آيات من سورة النحل لتحكي طبيعة المرحلة التي مر بها النبي ﷺ قبل الإسراء به يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (١) فالآيات السابقة تشير إلى الهموم المتراكمة في قلب النبي كمداً لما يراه من مكر وحزنا عليهم لما يراه من تقحمهم النار أمام عينيه بمخالفتهم له، ويأتي الفرج من السماء من خلال استقبال ملكوتي لسيد الكونين في مرحلة ضاقت عليه فيها الأرض وقلاه أهلها وجاءت الآيات التي بعد سورة النحل مباشرة حسب الترتيب القرآني لتحكي هذا الاحتفال السماوي العظيم والترحيب الملكوتي بسيد الكونين: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ** . ﴾ (٢)

(❁) –اختلف العلماء في تعيين زمن الإسراء، قيل أنه كان في السنة الأولى للبعثة، وقيل بعد خمس سنين من البعثة، وقيل قبل الهجرة بستة عشر شهراً، وقيل قبل البعثة بسنة، وأرجح الأقوال أنه كان في شهر رجب في السنة العاشرة للهجرة، وطبيعة المرحلة وملابسات الرحلة تعزز هذا القول.

(١) –النحل: الآيات ١٢٧ –١٢٨

(٢) –الإسراء: الآية ١

–لقد رأى من آيات ربه الكبرى: هذه الرحلة كان النبي أحوج ما يكون إليها حيث أسعفته في أحلك الصفحات التي مرت به لتضفي عليه نورانية جديدة يرى من خلالها العالم العلوي وعظمته إضافة لرؤيته نتائج الأعمال حيث رأى حال الزناة والمرابين والمنافقين وغيرهم ورأى الجنة والنار على حقيقتها فهذه الآيات الكبرى التي رآها النبي ﷺ قد جددت في فؤاده فكر الرحمة والحنو والعطف والمغفرة بل تحول قلبه بعدها إلى منارة الرحمة العالمية ونبعها الأصيل خاصة أنه بعد هذه الرحلة كان العهد المدني حيث النصر والتمكين والنبي ﷺ في تلك المرحلة أحوج لفكر الرحمة من العهد المكي لذا جاءت تلك الرحلة لتريه مدى ضعف الإنسان وغفلته وجهله وظلمه وعدم إدراكه لما ينتظره من عظائم وأهوال فعاد الحبيب محمد من تلك الرحلة وهمه الوحيد وشغله الشاغل هو كيف ينقذ البشرية مما ينتظرها و كانت منه عدة مواقف تبرز هذا الهم الذي سيطر عليه منها صرخته في منتصف الليل محذراً العرب من شر قد اقترب ومنها أنه مر على صحابته الكرام وهم يضحكون فقال لهم تضحكون ووراءكم جهنم والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله سبحانه وتعالى .

– كانت رحلة الإسراء إحدى الممحصات والفتن التي اختُبر فيها ضعفاء الإيمان والمترددون ممن التحق بالصف المؤمن ؛ حيث تشككوا في الحدث واستعظموا الظاهرة، وأخضعوها لعقولهم القاصرة ففتنوا فيمن فتن، ولم يبق في الصف المؤمن بعد حادثة الإسراء إلا كل من خالط قلبه بشاشة التصديق وحلاوة الإيمان بالغيب ، والناظر إلى كل الأحداث التي مرت في الدعوة في المرحلة المكية والمدنية يجد أنها كانت مليئة بالممحصات والفتن والابتلاءات التي كانت تترادف لاستخلاص المؤمنين من الدخلاء الذين لا يزيدون الصف المؤمن إلا خبالاً ووهنا، فبعد التعذيب والحصار الاقتصادي جاء امتحان الإيمان والتصديق من خلال الإسراء، وجاءت الهجرة كممحّص آخر غربلت عدداً آخر آثر الحياة الدنيا والمحبوبات من وطن وأهل وعشيرة وأموال على أمر الله، ثم غزوة أحد التي ميزت بين الخبيث والطيب والمنافق والمؤمن و أهل الدنيا وأهل الآخرة، ثم جاءت غزوة تبوك أيضاً التي كانت درساً في التفاني والتضحية والصبر لأجل الرسالة، وهكذا كانت تمر الممحّصات على القلوب وعلى أهل الرسالة من بداية رحلتهم مع رسول الله إلى أن اكتملت الرسالة، وهذا من رحمة الله بنبيه، بتنقية الأتباع وتزكيتهم ليكونوا منارة هدى ورحمة للبشرية بأكملها بعد رسول الله وبهذا تتحقق الرحمة العالمية خاصة أن الرعيل الذي كان يربيه النبي ﷺ كان يتهيأ لحمل أعباء الأمانة للعالم بأسره .

–وقد روىﷺ من هذه المشاهدات أحاديث كثيرة وخصوصاً في صفة الجنة والنار وما فيهما من العجائب والغرائب، ومنها هذه الرحلة الفضائية، فقد فصّل الروايات فيها تفصيلاً دقيقاً وثبتها في أذهان الصحابة تثبيتاً حتى سمعه منه عشرات الصحابةﷺ فغدت الرواية متواترة مشهورة ويستنبط أيضاً أن النبي اجتمعت له ثلاثة مصادر لتلقي علوم الوحي وأخبار هذه الرحلة، وهي مكالمة من الله تعالى عدة مرات، وسؤالاته لجبريل، ومشاهدته للتهاويل، ويستنتج من حوار النبي ﷺ والأنبياء وجبريل مع الخزنة أن الملائكة والأنبياء كلّهم لهجوا باللغة العربية ومنها قول آدم عليه السلام: "**مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح**"، وكذلك تحية الأنبياء ودعاؤهم للنبي ﷺ، ولا شك أن نبي الرحمة بشَّر أصحابه بما رأى تثبيتاً لهم وتطييباً لخواطرهم ورحمة بهم وحباً لهم، فإن ما رآه يرفع المعنويات فتسهل العقبات.

– ونستنتج أن السموات السبع متصلة بعضها فوق بعض، وأن الدخول إلى السماء السابعة من السماء السادسة، وهكذا الدخول إلى السماء السادسة من الخامسة وهكذا في البقية الدخول من السماء التي تحت الأخرى. إنها رحلة تعليم وتكريم من العليم الكريم.

٨–جهود النبيﷺ لإيجاد موطن جديد لرسالته

١–عرض النبي دعوته على القبائل ولقاء الأنصار وبيعتهم:

أقام النبي ﷺ بمكة يدعو القبائل إلى الله تعالى، ويعرض نفسه عليهم في مواسم الحج، وأن يؤووه حتى يبلّغ رسالة ربه ولهم الجنة ليس غير، فلم تستجب له قبيلة واحدة، ويقول: "من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي!؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي" فأتاه رجل من همدان فقال: "ممن أنت؟" فقال الرجل: من همدان. قال: "فهل عند قومك منعة؟" قال: نعم. ثم إن الرجل خشي أن يُخفره قومه، فأتى رسول الله فقال: آتيهم فأُخبرهم، ثم آتيك من عام قابل. قال: "نعم". فانطلق [١]، وهذا أحسن الردود التي تلقاها، وأما بني حنيفة، فما كان من القبائل أقبح من ردهم، وعرض نفسه على بني عامر بن صعصعة، فلم يلق من الأذى مثل ما لقي منهم حتى خرج من عندهم، وإنهم ليرمونه من ورائه، وعرض نفسه على بني عبس وانتهى به الأمر ببني محارب، فقال له شيخ طاعن بالسن من بينهم: «**يا أيها الرجل! قومك أعلم بنبئك، والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم، فأغن عنا نفسك**»[٢]

وكان الذي يعقّد مهمة النبيﷺ في طلبه للنصرة في القبائل أن عمه أبا لهب كان يسير خلفه ويتتبع القبائل ويحذرها منه قائلاً: **إنه ابن أخي، وإنه صابئ كذاب**، ولكن الحبيب لم ييأس واستمر بمهمته بين القبائل وعرض نفسه على بني شيبان وذهل وبكر وكندة وغيرها من القبائل دون أن يجد منها استعداد حقيقي لنصرته في تبليغ رسالته ، إلى أن وفق في النهاية بالالتقاء مع ستة نفر من شباب الخزرج من يثرب[❁]، وذلك في ليلة مباركة في منى في السنة الحادية عشرة من البعثة، حيث مر النبي بمنازلهم فسمع أصوات رجال يتكلمون فتبع الصوت ودخل عليهم ، وسألهم من أنتم، فقالوا نفر من الخزرج، قال: من موالي اليهود؟ قالوا: نعم قال: أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا: بلى فجلسوا معه وشرح لهم تعاليم الإسلام ومعالم الرسالة، وتلا عليهم القرآن وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم يهود المدينة عن قرب مبعث نبي في هذا الزمان وكان اليهود يهددون به حلفائهم من الأوس والخزرج عند فترات المشاحنة بينهم، وكانوا يقولون لهم: أنهم سيتبعونه ويقتلونهم قتل عاد وإرم

كان لهذه الأرضية الثقافية التي كان يتصور من خلالها أهل يثرب خروج نبي، وتلك التهديدات التي كان يطلقها اليهود به من حين لآخر لأهل يثرب أثرها المبارك على هؤلاء الستة نفر ، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه[٣]، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا ثم قالوا للنبي ﷺ: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك»[٤]

وبهذا اللقاء المبارك وجد نبي الرحمة بذوراً صالحة لنصرة رسالته، سرعان ما تحولت إلى روضة وارفة استظل بها أهل الرسالة وصاحبها، وانطلقوا من خلالها الانطلاقة الثانية للرسالة والتي تجسدت فيها تعاليم الرسالة ومعالمها بشكل حضاري متكامل، ومن خلال وطن يدين بتلك التعاليم.

١– ينظر: الفصول ص٩٣–٩٥، وينظر الخلاصة ٢٦٩/١، والاستيعاب ٤١/١. والحديث أخرجه الإمام أحمد رقم ١٥١٩٢، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي

(٢) –أبو نعيم: دلائل النبوة (١١٠)

(❁) –وهم أسعد بن زرارة وعون بن الحارث من بني النجار، ورافع بن مالك بن عجلان من بني زريق، وقطبة بن عامر من بني سلمة، وعقبة بن عامر بن نابي من بني حرام وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن غنم.

(٣) –ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٠٥، وابن كثير: السيرة النبوية ١٧٦/٢، وابن القيم: زاد المعاد ٣٨/٣

(٤) –ابن هشام: السيرة النبوية (٢١/٢)

فلما كان العام المقبل، جاء منهم اثنا عشر رجلاً فبايعوا رسول الله كبيعة النساء **وهي بيعة العقبة الأولى**، ولم يكن أمر القتال بعد، فلما انصرفوا إلى المدينة، بعث معهم رسول الله عمرو بن أُم مكتوم، ومصعب بن عمير، يعلمان من أسلم منهم القرآن، ويدعوان إلى الله عزَّ وجلَّ، فنزلا على أبي أُمامة أسعد بن زرارة، وكان مصعب بن عمير يؤمهم، وقد جمَّع بهم يوماً بأربعين نفساً، فأسلم على يديهما أُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبد الأشهل... وكثر الإسلام بالمدينة وظهر، ثم رجع مصعب إلى مكة، ووافى الموسم ذلك العام خلق كثير من الأنصار من المسلمين والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معرور.

فلما كانت السنة التالية ليلة العقبة الثانية تسلَّل إلى رسول الله ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فبايعوا رسول الله خفية من قومهم ومن كفار مكة، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم. وكان أول من بايعه ليلتئذ البراء بن معرور، وكانت له اليد البيضاء، إذ أكد العقد وبادر إليه، وحضر العباس عمُّ رسول الله موثِّقاً مؤكِّداً للبيعة مع أنه كان على دين قومه، واختار رسول الله منهم تلك الليلة اثني عشر نقيباً... فلما تمت هذه البيعة استأذنوا رسول الله أن يميلوا على أهل العقبة فلم يأذن لهم في ذلك، بل أذن للمسلمين بعدها من أهل مكة في الهجرة إلى المدينة، فبادر الناس إلى ذلك. [1]، ويستفاد من هذه القصة رحمته بأهل هذه البيعة وبأعدائه، فإنه لم يوافق أصحاب البيعة على قتال الأعداء لعلهم يهتدون أو تهتدي ذرياتهم، وكذلك أنه لم يأذن الله تعالى بذلك.

وكانت هذه البيعة تسمى بيعة النصرة، أو بيعة الرجال، ولنا معها عدة وقفات:

– ولكم الجنة: نلحظ من خلال دعوة النبي ﷺ أنه لم يربط أتباعه بأي مغنم دنيوي، وإن كان يعدهم إذا صدقوا بأن تأتيهم الدنيا تحت أقدامهم راغمة، لكن لم يؤملهم بشيء من الدنيا، بل كانت البيعة التي تعتبر عقداً من العقود على واجبات من جهة الأنصار أهمها الاستعداد لحمل الرسالة وتحمل أعبائها في جميع الأحوال، والمقابل لذلك هو الفوز برضوان الله والجنة، وهذا يبرز لنا واضحاً أن النبي في دعوته لم تكن له أي مآرب دنيوية، ولم يربط أتباعه بها أبداً ، كذلك يشير إلى حرص النبي ﷺ على وضوح معلم الآخرة عند كل من أراد الإيمان برسالته .

فجهد النبي وأتباعه يقصد به من الدرجة الأولى هداية البشر للحق وما يترتب على ذلك من نجاة من العذاب وفوز بالجنة، أما باقي الأعراض فهي ثانوية لا تأخذ من فكر صاحب الرسالة وأتباعه، ولا تثنيهم عن مقصدهم الأساسي، وهذه البيعة وفى بها الأنصار خير وفاء ولم يطمعوا بأي مطمع دنيوي حتى بعدما آتت الرسالة أكلها وأصبحت زهرة الدنيا بين أيدي المؤمنين، وكان الصدق الذي ترتب على وضوح الهدف من البداية.

– إن ما تدعو إليه أمر تكرهه الملوك: يلحظ من كلمات أسعد بن زرارة والعباس بن عبادة أنهم جميعاً كانوا يدركون أن اختيارهم لطريق الرسالة سيترتب عليه تكالب الجاهلية عليهم من كل حدب وصوب ، وسترميهم العرب عن قوس واحدة، وسيترتب على ذلك نقص في الأنفس والأموال والثمرات، وهذا أمر طبيعي تقتضيه طبيعة الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل على مدار التاريخ، فالمعلوم أن أهل الشهوات والدنيا وأئمة الجاهلية يدركون أن نجاح أي رسالة سماوية يؤثر على مصالحهم ويعطل مآربهم من استعباد للبشر وظلم لهم ؛ لذا لا محالة سيواجهون الرسالة بكل قوتهم ، وهذا سيترتب عليه المدافعة من أهل الحق إلى أن يحكم الله بين الفريقين، والعاقبة للمتقين.

–﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [2] بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة المتواصلة من صاحب الرسالة، وبعد التعذيب والتكذيب والحصار الاقتصادي لأتباعه، وبعد الهيمان في

(١) –ينظر: الفصول لابن كثير ص٩٦–١٠٠، وسيرة ابن هشام ٤١/٢، وصحيح مسلم ١٣٣/٣، والمستدرك للحاكم ٦٢٤/٢.
(٢) –القصص: الآية ٥

الأرض والفرار فيها لحماية المعتقد تحقق وعد الله لأهله بالتمكين في الأرض يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [١] والتمكين هنا لا يقصد به التمكن في الأرض شأن البشر جميعاً، بل يراد به تمكين رسالة وأصحابها لينطلقوا بتعاليم الخير في الأرض يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ [٢] فالرسالة من بدايتها واضحة الأهداف والمعالم ويقصد بها تحرير الإنسان من أوهام الشرك ومن براثن الظلم، ومن خرافات الفكر ومن أغلال التقليد ومن أسر الهوى ، ليحيا حياة إنسانية تتفق وفطرته التي فطره الله عليها ؛ لذا كان هذا التمكين لصاحب الرسالة بمثابة الترجمة الحية لتعاليمه التي تجللها الرحمة من خلال إيجاد بيئة ومجتمع متكامل يؤمن بها ، ومن جهة أخرى يعتبر انطلاقة ثانية لتعاليمه في العالم أجمع .

–لم نؤمر بعد: نلحظ أن الأنصار بعدما اتقدت في قلوبهم شعلة الإيمان قد لوعهم حال النبي ومطاردة قريش له في كل مكان وما يتعرض له من أذى وكيد لذا كان أول عرض منهم للنبي عبر عنه العباس بن نضلة بقوله: «**والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله: لم نؤمر بعد**» [٣]

هذا العرض لو صادف أي مصلح دنيوي بعد اضطهاد شديد تعرض له لوجد آذاناً صاغية ، ولحسم الأمر بقبول المنازلة والمواجهة، لكن مع نبي الرحمة الأمر يختلف إذ ليس الأمر عنده يتعلق بنازلة ينتصر فيها السيف هنا أو هناك ، بل الأمر عنده يتعلق بانتصار تعاليم سامية يريد لها الخلود في الفكر والسلوك ؛ لذا كان هذا التوجيه الرائع منه بمنع الاقتتال أو الاحتكام للسيف بالرغم من شدة المعاناة و إحكام قبضة أهل الباطل للرسالة وأهلها ، وما دام هناك مجال للدعوة السلمية فلا محل للسيف معها ، أما إذا ضاقت الخيارات وفرض أعداء الرسالة على أصحابها المواجهة فلتكن المدافعة عند ذلك نصرة للحق ورحمة بكثير من المستضعفين والمحرومين الذين يقف أئمة الباطل بينهم وبين أن ينعموا بنعمة الحق ، ويسعدوا برحمة الله ، عندها يكون الإذن بالمواجهة من باب الرحمة بالبشرية بكسر الأغلال التي قيدتها دون الانطلاق نحو إنسانيتها.

٢–الهجرة إلى الوطن الجديد:

يقول الباحث الإنكليزي جان باغوت غلوب : "ولم تنقض سبعة أسابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبي نفسه وابن عمه علي بن أبي طالب وولده بالتبني زيد بن حارثة ورفيقه الأمين أبو بكر الصديق ... وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمداً أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه في مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه أبو طالب كبير بني هاشم، وأدركت قريش خطورة ما وقع من تطور وهالهم أن المسلمين أخذوا يقيمون الآن في يثرب مجتمعاً متلاحم الوشائج خارجاً على نفوذهم وبعيداً عن متناول أيديهم، وأنهم شرعوا يكسبون أنصاراً إلى جانبهم من أبناء القبائل الأخرى الذين قد يتحولون إلى معاداة قريش، واجتمع كبار القوم في دار الندوة يتشاورون في أمر محمد ورأى بعضهم أن محمداً هو سبب كل ما يواجهونه من متاعب، وأن من الخير لهم لو تخلصوا منه في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمكن من اللحاق بأصحابه في يثرب[المدينة المنورة] "[٤] .

---

(١) –النور: الآية ٥٥

(٢) –الحج: الآية ٤١

(٣) –ابن هشام: السيرة النبوية (٣١/٢)

(٤) –جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص٨٠–٨١.

يتحدث رالف لنتون عن قريش: "كانوا يكرهون عائلة محمد، ورأوا في تعاليمه ما يهدد مصالحهم، حاولت أن تغتاله؛ ولكنها لم تنجح في محاولتها. وهاجر محمد، والجماعة المخلصة القليلة من أتباعه إلى المدينة يوم ١٦ يوليه ٦٢٢م وهو تاريخ هام يجب ألا ننساه لأنه عام الهجرة الذي يؤرخ به جميع المسلمين حتى الآن"[١]

إن مفارقة الوطن والأهل أمر عسير على النفس البشرية التي تعودت على نمط الحياة المستقرة، ولكن الأمر الرباني فوق ذلك كله؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بالمصالح والنتائج، فقد أمر نبيه بالهجرة إلى المدينة التي كان اسمها (يثرب)، وقد استجاب نبي الحكمة لهذا الأمر الحكيم، واستخدم التمويه إذ اتجه إلى غار جبل ثور الذي يقع جنوب مكة المكرمة بعشرين كيلاً، ثم نزل منه متجهاً إلى المدينة الواقعة شمال مكة المكرمة.

وقد أعدَّ أبو بكر جهازه وجهاز رسول الله، منتظراً حتى يأذن الله عز وجل لرسوله في الخروج. فلما كانت ليلة هم المشركون بالفتك برسول الله، وأرصدوا على الباب أقواماً، إذا خرج عليهم قتلوه، فلما خرج عليهم لم يره منهم أحد... فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً، وقد استأجرا عبد الله بن أُريقط، وكان هادياً خريتاً، ماهراً بالدلالة إلى أرض المدينة، وأمناه على ذلك مع أنه كان على دين قومه، وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث، فلما حصلا في الغار أعمى الله على قريش خبرهما، فلم يدروا أين ذهبا.

وكان عامر بن فهيرة، يريح عليهما غنماً لأبي بكر، وكانت أسماء بنت أبي بكر تحمل لهما الزاد إلى الغار، وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع ما يقال بمكة ثم يذهب إليهما بذلك فيحترزان منه. وجاء المشركون في طلبهما إلى ثور، وما هناك من الأماكن، حتى إنهم مروا على باب الغار، وحاذت أقدامهم رسول الله وصاحبه، وعمَّى الله عليهم باب الغار... ولما كان بعد الثلاث أتى ابن أُريقط بالراحلتين فركباهما، وأردف أبو بكر عامر ابن فهيرة وسار ابن أُريقط أمامهما على راحلته.

وجعلت قريش لمن جاء بواحد من محمدﷺ وأبي بكر مائة من الإبل، فلما مرُّوا بحي مدلج، بَصُر بهم سراقة بن مالك بن جعشم سيد مدلج، فركب جواده وسار في طلبهم، فلما قرب منهم سمع قراءة النبي، وأبو بكر يكثر الالتفات حذراً على رسول الله، وهو لا يلتفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد رهقنا. فدعا عليه رسول الله فساخت يدا فرسه في الأرض فقال: رميت، إن الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي، ولكما عليَّ أن أردَّ الناس عنكما، فدعا له رسول الله فأطلق، وسأل رسول الله أن يكتب له كتاباً، فكتب له أبو بكر في أدم، ورجع يقول للناس: قد كفيتم ما ههنا. وقد جاء مسلماً عام حجة الوداع ودفع إلى رسول الله الكتاب الذي كتبه له، فوفَّى له رسول الله بما وعده وهو لذلك أهل. ومرَّ رسول الله في مسيره ذلك بخيمة أُم معبد فقَالَ عندها، ورأت من آيات نبوته في الشاة وحلبها لبناً كثيراً في سنة مُجدبة ما بهر العقول. [٢]

إن استئجار عبد الله بن أُريقط وهو من المشركين يدل على ثقة النبي بالآخر إذا عُلم منه ذلك، وهذه هي الحكمة في التعامل مع الآخر وتبادل المنافع إذا أُمِن جانبه، وفي قصة الهجرة رحمة النبي بأبي بكر في تخفيف همومه، وخوفه على النبي، وتذكيره بأن الله تعالى معهم وحافظهم.

وقد كان بلغ الأنصار مخرجه من مكة وقصده إياهم، فكانوا كل يوم يخرجون إلى الحرَّة ينتظرونه، فلما كان يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من نبوته وافاهم رسول اللهﷺ حين اشتد الضحى، وكان قد خرج الأنصار يومئذ، فلما طال عليهم رجعوا إلى بيوتهم، وكان أول من بَصُر به رجل من اليهود –وكان على سطح

(١) –رالف لنتون: شجرة الحضارة، ٣٤١/١.
(٢) –الفصول ص١٠٠–١٠٣.

حصنه–فنادى بأعلى صوته: يا بني قيلة هذا جدكم الذي تنتظرون! فخرج الأنصار في سلاحهم وحيوه بتحية النبوة، ونزل رسول الله بقباء على كلثوم بن الهدم، وقيل: بل على سعد بن خيثمة، وجاء المسلمون يسلمون على رسول اللهﷺ، وأكثرهم لم يره بعد، وكان بعضهم أو أكثرهم يظنه أبا بكر لكثرة شيبه، فلما اشتد الحر قام أبو بكر بثوب يظلل على رسول الله فتحقق الناس حينئذ رسول الله الصلاة والسلام. (١)

ولنا على حادثة الهجرة أربع وقفات

– عواقب إخراج نبي من أرضه: لاحظنا من خلال السياق أن النبي ﷺ ما خرج من مكة إلا بعد تآمر كل أهلها عليه، وهذا التآمر أشار إليه قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (٢) والتآمر على إخراج نبي من قومه يعتبر من أعظم الجرائم عند الله سبحانه وتعالى، وهو سبب محق وعذاب لمرتكبيه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ (٣) فمقتضى الآية يشير إلى أن استفزاز النبي وإخراجه يترتب عليه نزول العذاب الماحق لمرتكبي هذا الجرم، ولعل الذي خفف وطأة العذاب على قريش وتحوله من عقوبة ماحقة كشأن الأنبياء السابقين إلى عقوبة انتقائية هو ما تميز به سيد المرسلين من وفور رحمته بقومه وحرصه على هدايتهم ودعوته المستمرة بين يدي الله بعدم محقهم أو إنزال عقوبة شاملة بهم ، وهذا الموقف كان جلياً في أحلك الظروف وأصعبها عند ذهابه للطائف وما تعرض فيه من أذى وبالرغم من ذلك حافظ النبي على فكر الرحمة وحرص على عدم وقوع العقوبة الشاملة بهم لعله يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله ، فإذا كان هذا همه وفكره مع أشد الناس إيذاءً إليه وهم ليسوا قومه ، فكيف سيكون حاله مع قومه لذا وجدنا أن آخر دعوة للنبي بعد كل هذه الملاحقة والمطاردة هي ما أشار إليها القرآن: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً** ﴾ (٤)

– النبي محمد سيد المتوكلين والمعصوم من رب العالمين: الشيء الذي لم تدركه قريش في صراعها مع رسول الله أنها مهما بلغت من كيدها ومكرها فإنها لن تنال منه شيئاً وفي مؤامراتها الأخيرة التي اشترك فيها شياطين الإنس والجن للكيد بمحمد لم تنل منها إلا الخسارة والبوار وهذه المؤامرة شبيهة بالمؤامرة التي وقعت للكيد بأبيه إبراهيم والتي شارك فيها إبليس نفسه لإحراق إبراهيم فما كان من أبي الأنبياء إلا أن أحسن توكله بالله سبحانه وتعالى ، بل لم يطلب عوناً من الملائكة وخاطبهم في اللحظة الأخيرة قبل قذفه في النار قائلاً : أما منكما فلا وأما من الله فحسبي الله ونعم الوكيل ، فكان الأمر الرباني للنار بأن تكون برداً وسلاماً عليه .

وهذا حفيده سيد المتوكلين تقع معه نفس المؤامرة ويعلم بها قبل حدوثها لكن لكي يلقن مكة درساً في الاعتصام بالله اختار البقاء في البيت إلى أن طوقوه من كل مكان ثم خرج من بينهم متسربلاً بثوب العصمة الإلهية، وليت قريش قد فهمت الدرس وعلمت أنه ليس لها مع نبي الله سبيل أو أدركت أنها بكيدها لنبي الله كانت من الخاسرين: ﴿ **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ** ﴾ (٥) .

والحدث نفسه يتكرر في الغار فتصل أقدام الكفار إليه وبقي بينهم وبين محمد نظرة واحدة تحت أقدامهم فيقول سيد المتوكلين لصاحبه إن الله معنا فتطمس أعينهم ويحرموا تلك النظرة ممن بيديه نواصيهم ومع سراقة الذي جد في طلب

---

(١) –ينظر: الفصول ص١٠٣–١٠٤، ومختصر سيرة الرسولﷺ ص٩٦–٩٧.
(٢) –الأنفال: الآية ٣٠
(٣) –الإسراء: الآية ٧٦
(٤) –الإسراء: الآية
(٥) –الأنبياء: الآية ٧٠

النبي وصاحبه طمعاً في جائزة قريش ، فلم يتلفت إليه النبي ﷺ واستمر في مناجاته لمن بيده ملكوت السموات والأرض فعصمه الله سبحانه وتعالى ، وتحركت الأرض لنصرة حبيب الله .

– **حب النبي فضيلة لا تدانيها فضيلة:** وهذه الفضيلة نال الحظ الأوفر منها الرجل الثاني في الرسالة وصاحب النبي في الغار الذي اختار البقاء في مكة لعله ينال حظ الصحبة مع سيد البشر ، وأعد لذلك راحلتين وأخذ كل ماله وضن به على أهله خدمة للرسالة وصاحبها ، وفي الغار ضحى بنفسه حرصاً على الحبيب محمد ﷺ وبعد أن لدغ وسرى السم في جسده ناراً تلظى لم يتحرك ساكناً لئلا يزعج الحبيب في نومه ، فنار السم الذي يسري في جسده أهون على قلبه من إيقاظ حبيب الله من نومته ، فاعتصر ألماً وعاجلته الدموع الحارة التي سقطت على خد الحبيب وفضحت أمره بين يدي رسول الله ، وفي الرحلة كان يسير تارة خلف النبي وتارة أمامه وكان النبي ﷺ يتعجب من حاله ويسأله عن ذلك ، فقال : يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك ، فقال الحبيب : يا أبا بكر لو كان شيء أحببتَ أن يكون بك دوني ؟ قال نعم . (١)

فهذا التفاني والحب استحق لأجله الصديق أن يكون صاحب رسول الله وبه نال درجة الصديقية التي هي دون النبوة مباشرة وحظي بخلافة النبي ﷺفي سياسية الأمة وقيادتها.

– **نبي البشارة:** تذكر بعض كتب السير أن النبي ﷺ قال لسراقة الذي جد في طلبه طمعاً في جائزة قريش : **كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ومنطقته وتاجه،** والشاهد في هذه الكلمات ما تضمنته من بشرى عظيمة قد لا تتصور ، فالنبي عليه السلام وهو مطارَد من قريش لا يبشر بالنصر على قريش فحسب ، بل ما هو أبعد من ذلك وهو الانتصار والتمكين على أعظم دولة في زمانه بل يبشر بأن هذا النصر سيكون قريباً من المسلمين وسينال منه سراقة سواري ملك الفرس وتاجه ،وبالفعل تم النصر على كسرى ، ودعا عمر ﷺ سراقة وألبسه سواري كسرى ومنطقته وتاجه ، وقال له : ارفع يديك ، وقل الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، الذي كان يقول أنا رب الناس وألبسهما رجلاً أعرابياً من بني مدلج .(٢)

فالنبي عليه السلام في لحظات الهجرة الصعبة وهو مطارد يتخفى من قريش يبشر بنصر قريب وعظيم على أعظم دولة في زمانه وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وضوح الرؤية أمام النبي عليه السلام ومدى ثقته بالله سبحانه وتعالى وعلى مدى عنايته برفع معنويات صحابته الكرام خاصة في الظروف الصعبة ومن تتبع هدي النبيﷺ يرى أنه لم يخل موقف صعب مر به من بشارة بالنصر والتمكين والخير والفلاح.

---

(١) –انظر ابن القيم: زاد المعاد (٥٤/٣)

(٢) انظر ابن الأثير: أسد الغابة (١٩٨/٢)

الفصل الثاني: في المدينة المنوّرة.

البحث الأول: نبي الرحمة والحكمة يؤسس دولته الجديدة.

الخطوة الأولى: بناء المسجد.

الخطوة الثانية: حل مشاكل المهاجرين الاقتصادية والنفسية والاجتماعية.

الخطوة الثالثة: الإصلاح بين الأوس والخزرج.

الخطوة الرابعة: تنظيم العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة.

وقفات هامة مع دستور الدولة المحمدية.

الخطوة الخامسة: معالجة الخطر الداخلي في الصف المسلم.

الخطوة السادسة: بسط هيبة الدولة الناشئة في آتون المجتمع الوثني.

البحث الثاني: الدعوة والحوار أولاً، مسوغات المواجهة العسكرية ومبرراتها.

١-الحوار والدعوة لا الصدام الأصل في علاقات النبي بمن جاوره.

٢-الإسلام يرفض المركزية الحضارية.

٣-نماذج عملية دعوية من سيرة النبيﷺ.

٤-تجلّت حكمة النبي ورحمته في حالة السلم بالأمور التالية.

٥-جهاد النبي محمدﷺ مقارنة مع جهاد الأنبياء السابقين.

٦-إذا لماذا القتال؟، وما هي مسوّغاته ومبرراته ودوافعه.

٧-كيف يتقاطع جهاد النبيﷺ مع مبدأ الرحمة.

البحث الثالث: صورة إجمالية عن المواجهات النبوّية للمشركين ولأهل الكتاب.

١-أعلنت مكة حرباً شعواء على النبي ﷺمع بداية دعوته.

٢-دواعي القتال مع أهل الكتاب.

٣-حروب النبيﷺ ضد الغساسنة وأسيادهم الروم.

البحث الرابع: محمد صاحب ثقافة السلام، وفرية السيف بأقلام المؤرخين الغربيين.

١-نماذج للمعاهدات مع القبائل المجاورة للمدينة.

٢-فرية العنف ونشر الإسلام بالسيف.

٣-حول فرية القتل الجماعي ليهود بني قريظة.

البحث الخامس: انتشار الدعوة وكمال الدين ... ونذر النهاية والرحيل!

١-فتح مكة وتمة انتشار الإسلام بالسيف.

٢-وقفات بين يدي حُنين:

٣-وقفة هامة بين يدي غزوة تبوك:

٤-من مقارعة الحروب إلى استقبال الوفود

٥-انتهاء مهمة نبي الرحمة وأفول شمس النبوة .... وأظلمت المدينة

٦-إحصائية شاملة عمّا جرى في حروب النبيﷺ من أحداث

تمهيد: استغرق هذا العهد عشر سنوات حافلة بالوقائع والحوادث والمعاهدات، وتميز هذا العهد بإتمام التنزيل، وإكمال الشريعة مما أعطى قوة لدولة الإسلام في نظام الحكم والاقتصاد والاجتماع والتربية، ولذلك كان المنهاج النبوي في غاية الضبط والإتقان في تعامله مع المسلمين وغير المسلمين، ورحمته الشاملة للجميع على الرغم من اختلاف العقيدة والأديان، فقد كان في المدينة يهود بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع، والأعراب من غير المسلمين إضافة إلى طائفة من المنافقين أظهروا الإسلام خوفاً على أنفسهم، ومكائدهم تترى، ومع ذلك فكانوا يحظون برحمة وحكمة النبي هم وغيرهم في السراء والضراء، وفي السلم والحرب.

جمع الله على حبّ نبيّه أهل يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج أخوةً متحابين بعد قتال مرير وعداوة وقعت بينهم بسبب قتيل، فلبثت بينهم الحروب والصراعات مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأها الله بمحمدﷺ، وألف بينهم؛ حتى صاروا أمة واحدة، ودولة واحدة، ولكن المشركين ازداد حنقهم على الإسلام وأهله، لاسيما بعد هذا التقدم الهائل لدعوة الإسلام، وقيام دولة للمسلمين، فشن المشركون المكيون على رسول اللهﷺ سلسلة من الحروب المتتابعة، ومن ثم أذن الله للمسلمين بالقتال للدفاع عن دينهم وأنفسهم ودولتهم الناشئة التي يحاول الوثنيون القضاء عليها في مهدها. فشنوا على المسلمين حروباً.

يقول المؤرخ لويس سيديو[١]معلقًا على هذه المعارك: " فدفع الله شرهم ، وهو أولى أن يحفظ نبيه القائم بالدعوة له ، وأحق أن يجعل كيدهم في نحورهم وما زال آخذاً بيمينه، حتى غنّى له الزمن، وصفق له الدهر"[٢].

قال الأستاذ الهندي بيجي رودريك: قوانين الحرب في الإسلام تعتبر أكثر القوانين إنسانية ورأفة، فهي تضمن السلامة التامة للنساء والولدان والشيوخ وجميع غير المحاربين فليس هناك في نظر الإسلام أبشع من جريمة قصف المستشفيات والمدارس وأماكن العبادة ومساكن المدنيين في المنطقة المعادية. وإنما يجعل الإسلام لهذه المرافق الإنسانية قدسيتها ويحذر من المساس بها. [٣]

هذا وإن كثيراً من الغزوات لم يقع فيها قتال، وإنما كان صلحاً، فقد صحَّ عن بُريدة الأسلمي قال: غزا رسول الله تسع عشرة غزوة قاتل في ثمان منهن.[٤] وهنَّ كما قال موسى بن عقبة: بدر ثم أحد ثم الأحزاب ثم المصطلق ثم خيبر ثم مكة ثم حُنين ثم الطائف. ذكره الحافظ ابن حجر ثم قال: وأهمل غزوة بني قريظة لأنه ضمَّها إلى الأحزاب، لكونها كانت في إثرها. [٥] وهذا العدد ذكره أيضاً ابن إسحاق[٦]، وابن سعد[٧]، وابن حزم[٨].

يقول المستشرق الأيرلندي المستر هربرت وايل: "بعد ستمائة سنة من ظهور المسيح ظهر محمد فأزال كل الأوهام، وحرم عبادة الأوهام وكان يلقبه الناس بالأمين لما كان عليه من الصدق والأمانة وهو الذي أرشد أهل الضلال إلى الصراط المستقيم "[٩]، فبعدما كانت عبادة الحجارة والأشخاص والنار والبهائم هي العبادة السائدة المسيطرة على الشعوب، أصبحت عبادة الله هي العبادة السائدة وأكثر انتشاراً، وبذلك يكون النبي ﷺ قد أعاد دين إبراهيم وموسى وعيسى ابن

---

(١) –لويس سيديو (١٨٠٨ – ١٨٧٦): مستشرق فرنسي. ولد وتوفي بباريس. كان أبوه فلكياً ومن المستشرقين. وتخرّج بكلية هنري الرابع، وعين مدرساً للتاريخ في كلية «بوربون» سنة ١٨٢٣ . وهو صاحب كتاب «Histire des Arabes » ألّفه بالفرنسية، وأشرف علي مبارك باشا علىَ ترجمته إلىَ العربية، وسماه «خلاصة تاريخ العرب العام » ومن آثار «سيديو» أيضًا: « جامع المبادىء والغايات في الآلات الفلكية» .

(٢) –لويس سيديو : خلاصة تاريخ العرب ص ٥٤

(٢) –انظر قالوا عن الإسلام ص٢٨٨.

(٤) –أخرجه مسلم (الصحيح – كتاب الجهاد والسير ٤٤٨/٣، حديث رقم ١٤٦).

(٥) –فتح الباري ٢٨١/٧.

(٦) –سيرة ابن هشام ٦٠٩/٢.

(٧) –الطبقات الكبرى ٦/٢.

(٨) –جوامع السيرة ص١٥.

(٩) –هربرت وايل: المعلم الأكبر، ص ١٧

مريم عليهم السلام، إلى الحياة مرة أخرى، بعدما حُرف الدين الحق (دين الأنبياء) من قبل الأنظمة الغابرة المستبدة، التي استعبدت الشعوب، وأغرقته في الظلام والجهل.

البحث الأول: خاتم النّبيين يؤسس دولته الجديدة

لم تكن الهجرة النبوية، وما بعدها مرحلة سهلة أو أقل عناء مما سبقها، بل كان جهد النبيﷺ التأسيسي أشد صعوبة وأكثر تعقيداً من المرحلة السابقة، فالدولة الجديدة التي اختارها موطناً لرسالته ومركز انطلاق لها كانت تتهددها مخاطر كثيرة، وتحول دون قيامها بدورها صعوبات وعقبات كئود ومشاكل معقدة، وهذا الوضع يقتضي من النبيﷺ حكمة ممزوجة بتحركات سريعة تكفل الخروج من تلك العقبات وتدعيم مقومات الدولة الجديدة لتقوم بعبء الرسالة.

ولعل أهم العقبات التي واجهت النبي ﷺ طبيعة التركيبة الاجتماعية التي اشتملت عليها المدينة المنورة ؛ حيث كانت خليطاً من اليهود والأوس والخزرج ، والأوس والخزرج اللذان يعتبران لبنة النصرة الأولى للدين كان بينهما عداوة متجذرة وضاربة بأصولها عبر التاريخ ، وبينهما دماء كثيرة وحروب طاحنة ، وكان بينهم عدد لا بأس به من الوثنيين الذين لم يدخلوا في دين الله سبحانه وتعالى وكل من اليهود ووثنيي المدينة لم يستسيغوا هذا الغزو السلمي لبلادهم ، واليهود خاصة وجدوا في هذه الرسالة تحدياً لهم ولدينهم، خاصة أنهم كانوا يظنون أن النبي المنتظر سيخرج من بني جلدتهم، إضافة إلى ظهور ظاهرة النفاق من فئة تبطن الكفر وتظهر الإسلام وكان على رأسها عبد الله بن سلول، وزاد الأمر خطورة وتعقيداً تلك المشكلة الاقتصادية والاجتماعية التي ترتبت على هجرة المهاجرين إلى المدينة حيث يتطلب الأمر رعاية ظروفهم وتوفير مأوى لهم ومصدر رزق يسد رمقهم، وعلى المستوى الخارجي كان المحيط الوثني يتربص الدوائر بهذا المجتمع الناشئ الغريب في معتقداته وسلوكه عما ألفوه، وقد زاد من تسلط القبائل المحيطة بهذا المجتمع الناشئ، أن **سيدة العرب مكة** قد لفظتهم وطردتهم من داخلها، وطاردتهم في كل موطن، واعتبرتهم خليط من الصابئين والخارجين عن قانون أجدادهم وآبائهم وتقاليدهم، وهذا التصرف كان بمثابة استباحة لدماء كل من ينتمي لهذا الدين مما شجع كل وثنيي العرب على استحقار هذا المجتمع والاستهانة به والحرص على وأده والقضاء عليه قبل أن يستمكن في الأرض .

إذا أنصار الدين تمكنت العداوة بينهم، ووثنيون وأهل كتاب لهم قوة لا يستهان بها في صلب الدولة يتحينون الفرص ويفتعلون الفتن للتخلص من الوافدين الجدد، وعدو خفي لا يستهان بعدده وإمكانياته يكيد بالرسالة وأهلها من الداخل (المنافقون) ومهاجرون فقراء لا مأوى لهم ولا قوت يسد رمقهم ، ومحيط وثني حريص على وأد هذه الفئة الناشئة

هذه أبرز الصعوبات التي واجهت الدولة الناشئة، وكل واحدة منها كفيلة بوأدها في مهدها وإنهاء هذه التجربة في أول خطواتها، وأصبح لزاماً على صاحب الرسالة أن يتخذ إجراءات سريعة وخطوات حكيمة يكفل فيها استمرارية دولته الناشئة والارتقاء بها للقيام بدورها ولكي يحقق النبيﷺ ذلك قام بعدة خطوات متلاحقة بحسب الأولوية استطاع من خلالها أن يحقق الاستقرار لمركز رسالته ويخلق نموذجاً تطبيقياً واقعياً لتعاليمه التي يدعو لها.

الخطوة الأولى: بناء المسجد: وبما أن رسالة محمدﷺ هي رسالة تعاليم وتزكية وتربية وتعبيد لله سبحانه وتعالى إذا لا بد أن يكون في أعلى سلم الأوليات هو إنشاء مركز تجمعي يكفل التقاء النبيﷺ بصحابته ويكون:

-ملتقى تعبدي لصلاة المؤمنين وتسبيحهم وذكرهم لله سبحانه وتعالى.

-مجمع يحقق التآلف والتواصل بين شرائح المجتمع الإسلامي بكافة أطيافه وقبائله.

-مركز للتعليم والتربية والتزكية، وجامعة نبوية لتلقي تعاليم الرسالة.

-مأوى لكثير من المهاجرين ممن لا يجد مكان يسكنه خاصة هؤلاء الفقراء الذين يؤمّون المدينة مهاجرين.

-مقر للإدارة السياسية والشورى في قضايا المجتمع الجديد ومشاكله المتعددة ونزل لاستقبال الوفود الراغبة في الدخول في الإسلام.

-بؤرة تجميع وانطلاق للجيوش ومرقب للمجتمع الإسلامي يتعرف منه ومن خلال السرايا الخارجة منه على أخبار العدو وتحركاته وقلعة لاجتماع المجاهدين وعقد الألوية وغرفة عمليات لإعداد الخطط العسكرية.

هذه أبرز الأهداف التي كان يتوخاها النبي من إنشاء المسجد وهي أهداف رسالية نبيلة رأى النبي تحقيقها في كنف بيت الله الذي اختار له اسم المسجد أي موضع السجود بما يشعر بقدسية الموقع وأهمية التعاليم الصادرة من داخله فهو المكان الذي تخضع فيه الجباه لرب العالمين ويقتضي ذلك أن تخشع القلوب وتنصاع العقول لرسول رب العالمين.

وكما حرص النبي على أن يكون المسجد عظيماً في رسالته وأدائه كذلك حرص على أن يكون بسيطاً في بنائه، فرسالته في أصلها بسيطة بعيدة عن التكلف عارية عن المظاهر الخارجية الخداعة لذا الأصل في مركز الرسالة أن يكون عنواناً لتلك البساطة وشعاراً لها وهذا ما حدا بالنبيﷺ على عدم التكلف في بنائه حيث كان من اللبن والحجارة وكان جداره لا يزيد عن قامة الرجل إلا بقليل، أما سقفه فكان مغطى في الجهة الشمالية بالجريد أما باقي الأجزاء فكانت مكشوفة.

ولم يكن إنشاء المسجد بمرسوم رئاسي أو نبوي لأتباعه وتنأى القيادة بعد ذلك عن الخوض في غمار أعباء العمل، بل كان النبيﷺ أول المساهمين في بنائه وشارك أصحابه في كل خطوات تخطيط الموقع وترسيم الحدود وتنفيذ البناء حيث كان يحمل الحجارة وينقل اللبن على صدره ويحفر الأرض بيده وقد تعجب الصحابة من تفاني النبيﷺ في العمل والبناء، وبعضهم رق لحاله، يأتيه أسيد بن عمير وقد رأى الغبرة تعلو وجهه وصدره وهو يحمل حجراً للبناء فيقول: «**يا رسول الله أعطنيه؟ فقال النبيﷺ: اذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله مني.**» فكان صدور هذه الكلمات من رسول الله المنهك في البناء بمثابة صرخة استنفار للصحابة فازدادوا نشاطاً واندفاعاً نحو العمل حتى اكتمل بأسرع وقت.

الخطوة الثانية: حل مشاكل المهاجرين الاقتصادية والنفسية والاجتماعية.

حرص النبيﷺ بعد بناء المسجد على تعزيز التلاحم والتناصر والاستيعاب بين أفراد المجتمع الجديد، فأقر مبدأ التآخي بين المهاجرين والأنصار حيث جعل لكل مهاجر أخاً له من الأنصار يواليه ويناصره ويدفع عنه، فآخى بين أبي بكر وخارجة بن زهير، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ وبين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع .. إلخ، ومبدأ المؤاخاة الذي أقره النبيﷺ في المدينة يختلف عن الأخوة العامة بين المسلمين فهذا المبدأ يقتضي أخوة شبيهة بأخوة الدم بكل حقوقها وواجباتها كالتوارث والمناصرة وغيرها، فقد جعل النبي هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية مفرغة من مضمونها الإيجابي.

وكانت آصرة العقيدة وحب الله سبحانه وتعالى وعواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة سبباً في نجاح هذا العقد وإيتائه ثمرته المرجوة ، وقد سجل كل من الأنصار والمهاجرين مثلاً تطبيقياً رائعاً لم تشهد البشرية مثله ، أما الأنصار فلاستعدادهم القوي واستجابتهم السريعة وإيثارهم المثالي حيث لم يعرف التاريخ استقبالاً لوافدين غرباء واستيعابهم وبذل الحب والعطاء الجزيل والإيواء الكريم شبيهة باستقبال الأنصار للمهاجرين ، فقد قسموا أموالهم وبيوتهم بينهم وبين المهاجرين ، بل بدلوا أنفس أموالهم وأعزها لأخوتهم الجدد ، وبعضهم وصل به الإيثار أن يأتي لأخيه ويقول له : لي زوجتان اختر أيهما أرغب إليك فأطلقها لتتزوجها ، والعجيب في الأنصار أنهم ما كانوا يكتمون أموالهم أو أملاكهم بل كانوا يتسابقون في كشفها للمهاجرين والاستعداد للتضحية بها .

وبالمقابل لم يستغل المهاجرون تلك الاستعدادات الإيجابية التي تميز بها الأنصار ولم يروا في ذلك فرصة للتواكل، بل سطروا مثلاً طيباً في القناعة والاكتفاء الذاتي واقتصروا فيما أخذوا على حالات الضرورة القصوى عن أنس أنه قال: «**قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتْ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ فَمَا رَجَعَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ قَدْ اسْتَفْضَلَهُ ...** » [١]

هذه القصة تشير إلى تلك النفسية التي تميز بها الأنصار والمهاجرون الأنصاري يبذل أعز ما يملك، والمهاجري يبارك للأنصاري ويبحث مباشرة عن وسيلة للكسب والاكتفاء الذاتي، وقد حرص النبي على المحافظة على هذا التوجه عند المتآخين ليكفل الخروج بالأزمة بطريقة تكافلية مشتركة يأتي الأنصار للنبي ويقولون له: «**اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ قَالَ: لَا فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمَئُونَةَ وَنَشْرَكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**» [٢] فالنبي لم يقبل أن يكون المهاجرون عالة على الأنصار بما يعزز تواكلهم، بل شركاء في الجهد والعمل مقابل الأرض والشجر وهو ما يعرف بالمزارعة أو المحاقلة.

وبهذه الخطوة الحضارية الرائدة والفريدة من نوعها استطاع النبيﷺ أن يعالج أخطر مشكلة واجهته في الهجرة، وتمكن من خلالها أن يسد حاجة المهاجرين ويدفع عنهم لوعة الغربة ووحشتها ومفارقة الأهل والعشيرة ويحقق التآلف بينهم وبين أهل المدينة ويعزز الوحدة المجتمعية من خلال تعزيز المحبة والتآخي بين أفرادها ويحقق الموالاة بينهم على أساس العقيدة والإيمان ويصهر المهاجرين في المجتمع الجديد بطريقة حيوية بعيدة عن الفوضى أو الاضطراب أو الآثار السلبية.

الخطوة الثالثة: الإصلاح بين الأوس والخزرج: كانت مشكلة النزاع المتجذر بين الأوس والخزرج من أهم المشاكل التي اهتم النبي ﷺ بحلها ، وحسم مخلفاتها من ضغينة وتشاحن وبغضاء ، بل وأد كل ذكرياتها الدموية كان من أهم أهداف النبي ﷺ ليضمن عدم طفوها على السطح في كل لحظة ، فكلا القبيلتين تعتبران دار النصرة للرسالة ، ولا يمكن تحقيق الثمرة المرجوة من تلك النصرة إلا بحسم كل خلافات أهلها القديمة ؛ لذا عمد منذ اللحظة الأولى على تعزيز العقيدة والولاء لله ولرسوله ، والتأكيد على الأخلاق الفاضلة التي لا مكان للضغينة والحقد بين حملتها ، مؤكداً على حرمات جديدة غير تلك التي ألفها العربي في جزيرة العرب والتي من أهمها: حرمة المسلم أياً كان موقعه وحرمة الدين مقدمة على حرمة العشيرة أو الأهل واعتبر النبي ﷺ أن الانصياع لأمر القبيلة على حساب الدين والرسالة هو بمثابة العودة للجاهلية ومخلفاتها وتنكب عن صراط الدين الجديد .

ولكي يؤكد النبيﷺ على إلزامية المصالحة بين الأوس والخزرج كتب النبي بينهم وثيقة تبرز القوانين الجديدة التي يجب الاحتكام إليها بحكم قبولهم للدين الجديد واعتناقهم له ، وكانت هذه الوثيقة بمثابة دستور للدولة الجديدة بكل أطيافها ، أقتصر هنا على ما يخص المسلمين من مهاجرين وأنصار وما تبعهم من وثنيين في قبيلتي الأوس والخزرج، ومن نصوص هذه الوثيقة :

-بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس.

-المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وتمضي الوثيقة بتعداد كل

(١) -أخرجه البخاري برقم ٣٥٧٠ [البخاري (١٣٨٧/٣)]
(٢) -أخرجه البخاري برقم ٣٥٧١ [البخاري (١٣٨٧/٣)]

بطون المدينة مبينة الالتزام السابق وختمت هذا التفصيل بالتزام عام يتعلق بالمؤمنين: وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا– أي مثقل بالدين –بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

–وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.

–وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله.

–لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

–وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس

–وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية يعقب بعضها بعضا وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

–وإن المؤمنين على أحسن هدي وأقومه وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن

–وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

هذه أبرز بنود الوثيقة ذات العلاقة بالأوس والخزرج والمهاجرين وهي كما نلاحظ تعتبر دستوراً تنظيمياً للمجتمع الجديد وقد حرص النبي من خلالها التأكيد على الولاء لله والرسول والرسالة وإحلال قوانين الرسالة وأحكامها بدلاً من القانون القبلي السائد حيث جعل مرد كل أمر لله ، ولرسوله باعتباره رئيساً للبلاد مؤكداً على حرمة الدماء وضرورة تناصر كل المؤمنين على الباغي أو الساعي في الظلم أياً كان موقعه وقبيلته ، وقد اعتبرت الوثيقة أن العلاقات الخارجية منوطة بالقرار الجماعي أو الرئاسي ولا يحل الاستفراد بها أو بجزء منها لأي بطن أو فرد في المجتمع الجديد خاصة مع أعداء الرسالة كقريش ، وقد أكدت الوثيقة على الولاء الرسالي مبينة أن ذمة المؤمنين واحدة ، والملاحظ على هذه الوثيقة أنها تشمل المؤمنين ،ويندرج فيها وثنيي بطون الأوس والخزرج .

وبهذه الوثيقة استطاع النبي أن يحسم كل حزازات الجاهلية ونزعاتها بين الأوس والخزرج ويضع دستوراً بديلاً للتقاليد القبلية مبنياً على أساس الولاء للرسالة.

الخطوة الرابعة: تنظيم العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة: أراد النبي أن ينظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من رعايا دولته من يهود المدينة فكانت الوثيقة التي تضمنت بنوداً كثيرة تثبت حق المواطنة لليهود بكل حقوقها والتزاماتها وهذه أبرز النصوص ذات العلاقة بيهود المدينة.

–إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ومضت الوثيقة تعدد بطون اليهود في المدينة مثبتة لها ما أثبتته ليهود بني عوف.

–وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم

–وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة

–وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم.

–وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم.

–وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

–وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

-وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله.

-وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف.

-وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم في جانبهم الذي قبلهم.

-وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

-وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم

-وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول اللهﷺ.

وقفات هامة مع دستور الدولة المحمدية.

١-عبقرية الرسول في صياغة القوانين: بالنظر إلى نصوص الوثيقة نجد أنها تضمنت بنوداً وقوانين أشبه بتلك القوانين المعاصرة والدساتير الحديثة من حيث تنظيم أركان الدولة وبيان شروط العلاقات الخارجية والدولية ، ومن حيث تفصيل السلطات الثلاثة ، التشريعية والقضائية والتنفيذية ، ومن حيث تنظيم العلاقة بين رعايا الدولة ذوي الأطياف أو الديانات المختلفة ، ومن حيث رعاية حقوق الأقليات ، ومن حيث توصيف الأمة وآمالها وحدودها وقوانينها ، ومن حيث بيان حق المواطنة والتزاماته ، ومن حيث المرجعية العليا للدولة في الشئون السياسية والإدارية والقضائية ، ومن حيث الحدود الإقليمية .

هذه النصوص تبرز مدى تقدمية رسالة الإسلام بالنسبة لكل من حولها ؛ حيث لم يعرف مثل هذا التقنين بين ربوع الجزيرة العربية ،و كذلك تدل بوضوح على مدى عبقرية الرسول ﷺ في صياغة النصوص القانونية وتفصيل موادها ، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض بشكل تفصيلي تكاملي ، فقد كانت مواد الوثيقة مترابطة وشاملة وصالحة لعلاج أوضاع المدينة آنذاك ، وفيها من القواعد ما يحقق العدالة المطلقة والمساواة بين كل رعايا الدولة على اختلاف أديانهم وألوانهم ، يقول الدكتور محمد العوا : « **ولا تزال المبادئ التي تضمنها الدستور-في جملتها-معمولاً بها والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى اليوم وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دونها الرسول ﷺ.** » [١]

وقد انتبه كثير من علماء الغرب ومستشرقيه إلى تلك الدقة العجيبة التي تميز بها الإسلام بقوانينه التي فاقت عصرها يقول الأستاذ الجامعي السويسري مارسيل بوازار: «**لقد أظهرت الرسالة القرآنية وتعاليم محمد ﷺ أنها تقدمية بشكل جوهري وهذه الخصائص المميزة تفسر الإسلام السريع والمذهل خلال القرون الأولى من تاريخه**» [٢]

وبعضهم كان يقف مدهوشاً أمام تلك الدقة العجيبة التي تميزت بها القوانين الإسلامية مبدياً إعجابه بصاحب الرسالة كأعظم مشرع قانوني يقول الفيلسوف فنلي في كتابه (اليونان تحت حكم الرومان): «**إن نجاح محمد رسول**

(١) -انظر الصلابي: السيرة النبوية (٤٠٤/١)

(٢) -عبد الله: هذا هو الحبيب (١٥)

الإسلام كمشرع بين أقدم الأمم وأثبت البلدان قدماً في القانون (اليونان) مدى أجيال طويلة في شتى نواحي الهيكل الاجتماعي دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة» [١]

٢-إنسانية القوانين التي جاء بها محمد ﷺ: بالنظر إلى نصوص الوثيقة نجد أنها قوانين إنسانية من الدرجة الأولى وتبرز بوضوح أن رسالة الإسلام ليست رسالة إحلالية تهدف إلى إلغاء أصحاب الملل الأخرى أو إقصائها، ونلحظ من القوانين التي تضمنتها أنها كفلت للإنسان أيا كان معتقده أو ملته كل حقوقه ، وتضمنت من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة الشاملة لكل أطياف المجتمع وأثبتت الحريات العامة لكل طائفة فقد أعلنت الوثيقة أن حرية العبادة والعقيدة مصونة ، فلليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وعززت هذا المبدأ بمبدأ عام بينه القرآن وهو لا إكراه في الدين ، وأنذرت الوثيقة كل من يخالف المبادئ التي أثبتتها ومن ضمنها هذا المبدأ بإلحاق العقوبة به.

كذلك أثبتت تعاليم أخرى حرية اليهود في إدارة شئونهم الخاصة كما يريدون حتى الخمر المحظور في الشريعة الإسلامية يباح تعامل اليهود فيه فيما بينهم ما داموا يعتقدون حله.

أما حرية القضاء فقد أثبت الإسلام لليهود حرية مطلقة في الاحتكام لدينهم وتوراتهم مع قناعة المسلمين بتحريفها لكن تحقيقاً لسماحة الإسلام ترك إدارة الشئون الداخلية لهم حتى في مجال القضاء ، ولا يقضي بينهم النبي ﷺ بحكم كونه رئيس الدولة إلا إذا طلبوا منه ، ويقيد حكمه بالعدل ، يقول الله سبحانه وتعالى في حق اليهود : ﴿ **فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [٢]

أما تقرير العدل فهذا واضح من تلك المساواة في الحقوق بين أهل الملل والمسلمين دون تمييز وأثبتت في نصوص أخرى أن العدل الذي يدعو له الإسلام يعتبر مطلقاً لا يفرق بين دين وملة وقد توعدت الوثيقة كل ظالم أياً كانت ملته وطالبت بالانتصار للمظلوم من جميع أطياف المجتمع دون تفريق بل بضرورة أن يكون الجميع يداً واحدة على الظالم، أما تقرير حق المساواة فواضح في قول النبيﷺ : «وان بعضهم موالي بعض من دون الناس » وبما تضمنته من قوانين عامة شاملة لكل أطياف المجتمع المدني منها: « إن يثرب حرام جوفها على أهل الصحيفة » « وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة » « إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته » « وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم»

فهذه النصوص العامة وغيرها كثير في الوثيقة تثبت الحقوق والالتزامات على قدم المساواة والعدل بين مواطني الدولة دون تفريق بين لون أو جنس أو دين أو حتى رتبة قيادية في المجتمع يقول الفيلسوف الشهير إدموند بيرك: «**إن القانون المحمدي قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه، وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقي، وأعظم قضاء علمي، وأعظم تشريع عادل لم يسبق للعالم إيجاد مثله، ولا يمكن فيما بعد**» [٣]

كذلك نستشف في ثنايا نصوص الوثيقة مدى سماحة الإسلام ويسر تعاطيه مع أهل الملل الأخرى، حيث يتبنى منهجاً استيعابياً لا إحلالياً، ومنهجاً تكاملياً لا إقصائياً يشهد لنبي الرحمة وسماحته مع الملل الأخرى، ولعل مثل هذه المواقف السمحة التي تميز بها النبي محمد ﷺ في كل مراحل حياته هي التي انتزعت من كثير من المستشرقين اعترافهم

---

(١) -عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام (١٨)

(٢) -المائدة: الآية ٤٢

(٣) -عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام في نظرة فلاسفة الغرب (٥٨)

بعظمة محمد ﷺ وإعجابهم بسماحته ورحمته ، يقول العالم الفرنسي في مجال علم النفس والاجتماع جوستاف لوبون: «**إن محمداً رغم ما يشاع عنه من قبل خصومه ومخالفيه ، قد ظهر بمظهر الحلم الوافر ، والرحابة الفسيحة إزاء أهل الذمة جميعاً**» (١)

الخطوة الخامسة: معالجة الخطر الداخلي في الصف المسلم.

أفرزت الهجرة النبوية وما آلت إليه من انتقال السلطة السياسية في المدينة للمسلمين فئة جديدة كانت تظهر الإسلام وتبطن الكفر وتتلون بلون المسلمين بظاهرها وتكيد لهم في الخفاء هذه الظاهرة هي ظاهرة النفاق وكانت في بدايتها تمثل شريحة كبيرة في المجتمع المدني وبعض أفرادها كان لهم مكانة في المجتمع المدني كعبد الله بن أبي سلول الذي يعتبر من أبرز شخصيات المدينة المنورة وأكابر رجالها وكان أهل المدينة قبل إسلامهم يهيئونه ليكون ملكاً عليهم.

هذه الفئة كانت التحدي الأكبر للمسلمين وكانوا أشبه بمنظمة سرية تسعى لهدم الكيان الجديد من الداخل، ولا تُرى جهودهم من ظاهر أعمالهم بل هو مكر الليل والنهار والتآمر الخفي واستغلال الأحداث وإشعال الفتن وتثبيط الهمم من داخل الفئة المسلمة، وهذا الخطر الداخلي تعاطى معه النبيﷺ بحكمة بالغة وبسماحة منقطعة النظير وبخطوات حساسة تمنع من تفكك المجتمع الجديد أو تشويه صورته ولعل أهم الخطوات التي قام بها يشاركه بذلك القرآن:

-كشف ظاهرة النفاق وبيان خطورتها وعواقبها على أهلها وإبراز أهم صفات المنافقين ليحذر المجتمع منهم وينتبه أفراده إلى أولئك الأعداء الذين يتلونون بلون المسلمين وينتسبون لهم وكان لهذه الخطوة أثرها في فضح المنافقين وتقليل خطرهم وفي نفس الوقت كانت رادعة للكثيرين منهم مما حذا بهم للعودة الصادقة للصف المسلم ويلحظ على هذه الخطوة أنها اقتصرت على بيان صفات المنافق وخصاله دون التصريح باسمه وذلك لرأب الصدع الداخلي وإبقاء الباب مفتوحاً للتوبة ويلتقي مع المنهجية العامة للرسالة المحمدية التي تهتم بالستر وعدم التشهير.

-الإحسان لهذه الفئة وملاطفتها لعلها تعود إلى حظيرة الإسلام وتجنب أي صدام مع أطرافها والصبر على فلتاتها

-تجنب تصفية أي فرد منها مهما عظم خطره وذلك حفاظاً على صورة الإسلام وسماحة تعاليمه وكان شعار النبيﷺ عندما كان يعرض عليه تصفية لأي واحد من المنافقين: « لا لئلا يقول الناس أن محمداً يقتل أصحابه»

-نلحظ أن النبيﷺ قد أبدى سماحة عالية في تعامله مع المنافقين فهذا عبد الله بن أبي سلول لم يترك مدخلاً للكيد بالرسول أو الاستهانة به إلا ولجه ومن ذلك تصريحه بإخراج النبي ﷺ ذليلاً من المدينة وذلك عندما قال: « لئن رجعت إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فهذه المواقف المخزية والجريئة من أبي سلول قد خلقت تذمراً شديداً من المسلمين حتى من عشيرته وأقرب الناس إليه ويأتي ابنه عبد الله لرسول الله وكان صادق الإسلام ويعرض عليه أن يقتل أباه فيرفض النبي ﷺ طلبه قائلاً: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا بل نجده يستمر في ملاطفته حتى اللحظة الأخيرة في حياته و يخرج ويصلي عليه مما ترتب عليه معاتبة السماء له على تصرفه ذلك.

-اغتنام أي فرصة تفتح المجال لتوبة المنافقين وعودتهم للصف المسلم من ذلك: رأس النفاق ابن سلول عند دنو وفاته أرسل للنبي لكي يزوره، فلبى النبي الدعوة وجلس إليه وعاتبه فقال له ابن سلول: لم أرسل إليك لتؤنبني، وإنما لتستغفر لي فاستغفر له النبي، وقيل أنه طلب من النبي قميصه ليكفن به وورد أن هذا الطلب بلغ النبي عن طريق ابنه فأعطاه النبي ﷺ قميصه ليكفن به وشارك في دفنه وصلى عليه فعاتب بعض الصحابة النبيﷺ على موقفه من ابن سلول، فقال النبيﷺ: وما يغني عنه قميصي ، والله إني لأرجو أن يسلم بذلك ألف رجل من قومه(٢) أما الاستغفار فقد خيرني

---

(١) -المرجع السابق (٥٥ وما بعدها)

(٢) انظر الطبري : جامع البيان (٢٠٦/١٠) ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٢٢١/٨) ؛ المباركفوري : تحفة الأحوذي (٣٩٨/٨)

الله فيه: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ [١] وسأزيده على سبعين (۞) وورد أن أكثر رجال الخزرج ممن كان ولاؤهم لابن سلول عندما رأوا زعيمهم يطلب استغفار النبي ﷺ وقميصه ليكفن به استشعروا مصداقية النبي ﷺ وغثائية مزاعم ابن سلول في حقه ، وعندما قابلهم النبي ﷺ بهذه الإيجابية مع زعيمهم الذي طالما آذى النبي ﷺ، شعروا بجلالة هذه الرسالة وسموها فدخلوا في دين الله وعادوا لحظيرة الإسلام.

هذه أهم الخطوات التي قام بها النبيﷺ لحسم ظاهرة النفاق في المجتمع ونلحظ عليها أنها تتسم بمرونة امتزجت بالحكمة وتوجت بالسماحة والرحمة وما أن انتهت السنة التاسعة للهجرة حتى دخلت ظاهرة النفاق في طور التلاشي.

الخطوة السادسة: بسط هيبة الدولة الناشئة في آتون المجتمع الوثني.

كان النبي ﷺ يعلم منذ اللحظة الأولى لنشأة دولته أن المحيط الوثني بحكم ثقافته الدموية المبينة على الكسب من خلال الغزو والنهب والسلب ، لن يسمح للمسلمين بالاستقرار في وطنهم الجديد ، خاصة مع تحريض سيدة العرب (مكة) على ذلك ، لذا اتخذ النبي خطوة سريعة احترازية ووقائية تكفل موادعة المحيط الوثني للدولة الناشئة و تردع كل من تسول له نفسه الاعتداء عليها وقد شرع النبي مباشرة بعد تحقيق نوع من الاستقرار الداخلي إلى تأمين الخطر الخارجي بالدولة من خلال بعث السرايا والخروج بغزوات وقائية أو تأديبية وواقع جزيرة العرب هو الذي ألجأ النبي لهذا الأسلوب ، وكان النبي يتعاطى معه بحسب الضرورة الملجئة له ويتوخى منه من الدرجة الأولى تحقيق نوع من الموادعة والمسالمة بينه وبين المحيط الوثني وعقد معاهدات ثنائية بينه وبين القبائل العربية

---

(١) التوبة : من الآية ٨٠

(۞) هذا الموقف يبرز لنا مدى سماحة النبي ﷺ ووفور رحمته حتى مع ألد أعدائه ، وأكثرهم طعناً برسالته ، بل تعدى إيذاؤه للرسول كل الحدود حتى طعن في شرف زوجته عائشة رضي الله عنها . وبالرغم من ذلك يطمح النبي ﷺ في مبالغة الاستغفار له لعله ينجو.

البحث الثاني: الدعوة والحوار أولاً، ومسوغات المواجهة العسكرية ومبرراتها.

١-الحوار والدعوة لا الصدام الأصل في علاقات النبي بمن جاوره.

كانت القبائل العربية البدوية تعيش على السلب والنهب والغزو والإغارة، وتقديم لغة الحوار على أسلوب الصدام، حقنًا للدماء وتغليب العقل على العنف، يعد من مظاهر الحركة في شخصية النّبي الذي ضرب المثل الأعلى في ميدان الحوار والتفاوض، كما ضرب المثل الأعلى في القتال والزود عن حياض الدين والوطن، إنّ دينه هو دين الحوار والاعتراف بالآخر، وهو شريعة تطوير القواسم المشتركة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وإيجاد السّبل الكفيلة بتحقيق ذلك بما يساعد على العيش بسلام وأمن وطمأنينة، ويحفظ الإنسان من أن يحيا حياة الإبعاد والإقصاء ونكران الآخر. لهذا أمر الإسلام بالحوار والدّعوة بالتي هي أحسن، وسلوك الأساليب الحسنة، والطّرق السليمة في مخاطبة الآخر. قال تعالى: {ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[١] .

على هذه الأسس أرسى القرآن الكريم قواعد الحوار في الإسلام على أساس الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، إنه منهج حضاري متكامل في ترسيخ مبادئ الحوار بين الشعوب والأمم " ومن الملاحظ على التعبير القرآني المعجز في الآية: أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون(حسنة)، ولكنه لم يكتف في الجدال إلا أن يكون بالتي هي (أحسن) لأن الموعظة غالباً تكون مع الموافقين، أما الجدال فيكون عادة مع المخالفين لهذا وجب أن يكون بالتي هي أحسن على معنى أنه لو كانت هناك للجدال والحوار طريقتان: طريقة حسنة وجيدة، وطريقة أحسن منها وأجود، كان المسلم الداعية مأموراً أن يحاور مخالفيه بالطريقة التي هي أحسن وأجود "[٢].

ولذلك قال الله تعالى أيضا: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوَاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوَاْ آمَنّا بِالّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] [العنكبوت: ٤٦]فالحوار ممكن لأنّ هناك قواسم مشتركة وهناك مجال للتّفاهم والتّقارب وهي الإيمان بما أُنزل على المسلمين وغيرهم فالمصدر واحد وهو الله فليتعارفوا وليعرفوا بعضهم ومن ثم فليتقاربوا وليتعاونوا على ما هو صالح لهم جميعا. فالقرآن يعطينا أسلوب بدء اللّقاء والحوار وكيف نستغلّ نقط التّلاقي بين المتحاورين فيبيّن الأصول التي يمكن الاتّفاق عليها ويركّز على ذلك فيقول: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىَ كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ] [عمران:٦٤] ويبيّن الإسلام نوع العلاقة التي يجب أن تسود المسلمين وغيرهم، إنّها علاقة التّعاون والإحسان والبرّ والعدل فهذا هو الحوار الحضاري والعلاقة السامية ، قال تعالى: ﴿ لاّ يَنْهَاكُمُ اللّهُ عَنِ الّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرّوهُمْ وَتُقْسِطُوَاْ إِلَيْهِمْ إِنّ اللّهَ يُحِبّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، "وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود"[٣].

ومن ثم يتبين للباحث مدى الرحمة الواسعة التي منحها الإسلام ورسول الإسلام، للبشر المخالفين للإسلام، فقرر أن الشرع أن التعامل يكون بالحوار، والدعوة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ويخص الإسلام أهل الكتاب بهذا الفضل،

---

(١) -سورة النحل: الآية ١٢٥، وانظر: يوسف القرضاوي: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، ص ٤٠

(٢) -انظر: يوسف القرضاوي: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، القاهرة، ص ٤١

(٣) -سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٤٤

فهم أهل كتاب، وأخوة في الإنسانية، فالإسلام لا ينهانا أن نبر ونحسن إلى اليهود والنصارى ما داموا لم يقاتلون المسلمين في الدين ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم، ونداء المسلم دائمًا لأهل الكتاب أن {تَعَالَوْاْ إِلَىَ كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}.

٢-الإسلام يرفض المركزية الحضارية:

إن الإسلام كدين وحضارة عندما يدعو إلى الحوار مع الآخر، ينكر (المركزية الحضارية) التي تريد العالم حضارة واحدة مهيمنة ومتحكمة في الأنماط والتكتلات الحضارية الأخرى، فالإسلام يريد العالم (منتدى حضارات) متعدد الأطراف، يريد الإسلامُ لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند؛ في كل ما هو مشترك إنساني عام. وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً وخاتم الأديان، فإنه في روح دعوته وجوهر رسالته لا يرمي إلى (المركزية الدينية) التي تجبر العالم على التمسك بدين واحد، إنه ينكر هذا القسر عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله تعالى في الكون، قال تعالى: ﴿ لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]. وقال أيضاً: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ] [هود: الآية ١١٨[١]

إن دعوة النبيﷺ إلى الحوار مع باقي الدول والحضارات تنبع من رؤيته في التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالتهم السماوية، فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل جميعاً: قال تعالى: {آمَنَ الرّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رّبّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة : ٢٨٥]

لقد حمل نبي الرحمةﷺ وأتباعه قيم الإسلام العليا ومثله السامية وأخذوا في نشرها في كل أرجاء الدنيا، دون إجبار الناس عليها، وبدأت عملية التفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأوربية والمصرية والفارسية والهندية. فلم يلغ الإسلام الحضارة المصرية إنما جودها، ولم يلغ الإسلام حضارة الهند إنما هذبها، ونقى الحضارات من خبيث العقائد والأفكار، وجلى الطيب النافع من الموروثات والثقافات القديمة.

ومع مرور الزمن وانصرام القرون نتجت حضارة إسلامية جديدة أسهمت في إنضاجها مكونات حضارات الشعوب والأمم التي دخلت في الإسلام، فاغتنت الحضارة الإسلامية بكل ذلك عن طريق الحوار والتفاعل، وكانت هي بدورها فيما بعد عندما استيقظت أوروبا من سباتها وأخذت تستعد للنهوض مكوناً حضارياً ذا بال أمدّ الحضارة الأوروبية الغربية بما تزخر به من علوم وقيم وعطاء حضاري متنوع[٢].

الشيء نفسه يمكن قوله عن الحضارة الغربية التي لم تظهر فجأة، بل تكونت خلال قرون كثيرة حتى بلغت أوجها في عصرنا الحاضر وذلك نتيجة التفاعل الحضاري مع حضارات أخرى هيلينية ورومانية وغيرها، وبفعل التراكم التاريخي وعمليات متفاعلة من التأثر والتأثير خلال التاريخ الإنساني الحديث. إن أكبر دليل على أن الحضارة الإسلامية لم تسع في أي وقت من الأوقات إلى التصادم مع الحضارة الغربية، هو أن العرب والمسلمين لم يضعوا في أي زمن من الأزمان صوب أهدافهم القضاء على خصوصيات الحضارة الغربية وهويتها الحضارية [٣] .

٣-نماذج عملية دعوية من سيرة النبيﷺ:

(١) -انظر: حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير ٢٠٠٧

(٢) -انظر: حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير ٢٠٠٧

(٣) -انظر: حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير ٢٠٠٧

إليك هذه النماذج من سيرة النبي، والتي تبين كيف كان النبي يحاور الحضارات والأمم الأخرى، يدعوها إلى كلمة سواء، فبعدما عقد النبي ﷺهدنة بينه وبين مشركي مكة الذين حاربوه على مدار ثمانية عشر عاماً . أو أكثر .، استغل النبي ﷺهذه الهدنة في مراسلة زعماء وأمراء وملوك العالم، للحوار والتواصل والتعريف بدعوة الإسلام، مركزاً في خطاباته على قيم السلام وحرية الاعتقاد، نرى ذلك جلياً في محتوى هذه الرسائل، هذا، ولنتأمل أحد هذه النماذج المشرقة، ولتكن رسالة النبي إلى الملك المقوقس، فكتب النبي ﷺ إلى جُرَيْج بن مَتَّى الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية، رسالة نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط.. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾"[١].

واختار لحمل هذا الخطاب الصحابي المتحدث حاطب بن أبي بَلْتَعَة، وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس حتى تعرف أن هذه البعوث كانت تعرف هدفها جيداً كما أنها بلغت حداً من الفقه والحصافة يستحق الإعجاب البالغ، قال حاطب: إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ..وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به!

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوي، وسأنظر، وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ﷺ : "بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك"[٢]، ولم يزد على هذا ولم يسلم، فتزوج رسول الله ﷺمارية، فأنجبت له طفل . سماه إبراهيم.

أما سيرين، فقد تزوجها الشاعر حسان بن ثابت، "تلك مُثلٌ لرسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها. وقد ساق النبي كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله، ويحدثونهم عن الدين الذي لو تبعوه نقلهم من الغي إلى الرشاد، وقد تفاوتت ردودهم، بين العنف واللطف والإيمان والكفر"[٣]، والنبيﷺ بذلك أول من نادى بالحوار بين الحضارات والدول، في سبيل نشر قيم سامية، ومارس هذا الحوار كما رأيت بمستوى عال من الأدب وحسن الخلق واحترام الرأي الآخر، ولقد أرسل الرسولﷺ الكثير من الرسل والسفراء — يدعوهم إلى الإسلام –ولتحقيق مثل هذا الحوار بينه وبين الأمم والحضارات الأخرى وملوك وزعماء العالم:

١ –فبعث الصحابي دحية بن خليفة الكلبي — وكان أنيقًا وسيمًا –إلى قيصر ملك الرومان، واسمه هرقل.

(١) –انظر: البيهقي: دلائل النبوة، ج ٥، ص ٤، وما بعدها، باب ما جاء في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس.
(٢) –انظر: المصدر السابق.
(٣) –محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ٢٧٤.

٢-وبعث الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي – وكان راسخ الفكر والإيمان متحدثًا بليغًا -إلى كسرى ابرويز بن هرمز، ملك الفرس.

٣ -وبعث الصحابي الجليل عمرو بن أمية الضمري – وكان لبقًا ذكيًا-، إلى النجاشي ملك الحبشة، ثم بعثه النبيﷺ مرة أخرى إلى مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ مدعي النبوة المشهور، برسالة، وَكَتَبَ إِلَيْهِ بِكِتَابٍ آخَرَ مَعَ السّائِبِ بْنِ الْعَوّامِ أَخِي الزّبَيْرِ فَلَمْ يُسْلِمْ.

٤ -وبعث -فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ -الصحابي القائد عمرو بن العاص – داهية العرب -إلى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ اللّهِ ابْنَيْ الْجُلَنْدَى الْأَزْدِيّيْنِ، ملكي عمان.

٥ -وبعث الصحابي الجليل سليط بن عمرو إلى هوذة ابن علي، الملك على اليمامة، وإلى ثمامة بن أثال، الحنفيين.

٦ -وبعث الصحابي الجليل الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيّ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيّ مَلِكِ الْبَحْرَيْنِ.

٧ -وبعث الصحابي الجليل شجاع بن وهب الأسدي، من أسد خزيمة، إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني، وابن عمه جبلة بن الأيهم، ملكي البلقاء من عمال دمشق للرومان.

٨ -وبعث الصحابي الجليل الْمُهَاجِرَ بْنَ أَبِي أُمَيّةَ الْمَخْزُومِيّ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ الْحِمْيَرِيّ أحد زعماء اليمن، وقال: سأنظر.

٩ -وبعث العلامة الفقيه معاذ بن جبل إلى جملة اليمن، داعياً إلى الإسلام، فأسلم جميع ملوكهم، ذي الكلاع وذي ظليم وذي زرود وذي مران وغيرهم.

١٠ -وَبَعَثَ الصحابي الجليل جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللّهِ الْبَجَلِيّ، إِلَى ذِي الْكَلَاعِ الْحِمْيَرِيّ وَذِي عَمْرٍو يَدْعُوهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَا وَتُوُفّيَ رَسُولُ اللّهِﷺ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ.

١١ -وَبَعَثَ الصحابي الجليل عَيّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيّ برسالة إِلَى الْحَارِثِ وَمَسْرُوحٍ وَنُعَيْمٍ بَنِي عَبْدِ كُلَالٍ زعماء من حِمْيَرَ.

١٢-وَبَعَثَ إِلَى فَرْوَةَ بْنِ عَمْرٍو الْجُذَامِيّ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَكَانَ فَرْوَةُ عَامِلًا لِقَيْصَرَ بِمَعَانَ فَأَسْلَمَ وَكَتَبَ إِلَى النّبِيّﷺ بِإِسْلَامِهِ وَبَعَثَ إِلَيْهِ هَدِيّةً مَعَ مَسْعُودِ بْنِ سَعْدٍ وَهِيَ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ وَفَرَسٌ وَحِمَارٌ وَبَعَثَ أَثْوَابًا وَقَبَاءً مِنْ سُنْدُسٍ مُخَوّصٍ بِالذّهَبِ فَقَبِلَﷺ هَدِيّتَهُ وَوَهَبَ لِمَسْعُودِ بْنِ سَعْدٍ اثْنَيْ عَشْرَةَ أُوقِيّةً وَنِشًا[1].

وأسلم سائر الملوك والأمراء الذين ذكرنا، وأسلم قومهم، حاشا قيصر والمقوقس وهوذة وكسرى والحارث بن أبي شمر وتأخر إسلام ثمامة بن أثال، ثم أسلم مختاراً بعد ذلك، وهكذا، أحدث الرسول هذا الحوار البناء بين أمة الإسلام والأمم الأخرى في شتى بقاع العالم، وتواصل مع قيادات ورموز العالم آن ذاك فمنهم من تجاوب وتناقش، ومنهم من تعامل مع رسل النبي بوقاحة، كما فعل كسرى.

وهذا مظهر فريد من مظاهر الرحمة في شخصية النبيﷺ، فقد قدم الحوار على الصدام في تعامله مع الأمم الأخرى لاسيما المخالفة للإسلام، وراسل النبيﷺ زعماء وأمراء وملوك العالم؛ برسائل على مستوى عال من التحضر والذوق الرفيع، لتعريفهم بدعوة الإسلام وغايته. فحقن الدماء وأعلى من شأن الحوار والتبادل العلمي والثقافي، حتى استفادت أوربا من الحضارة الإسلامية في بناء النهضة العلمية الأوربية الحديثة.

---

(١) -انظر: هذه البعوث في كتب السيرة: ابن حزم: جوامع السيرة ٢٩، ٣٠، وابن هشام ٤/ ٢٥، وابن سعد ١ / ٢-١٥، و محمد بن حبيب البغدادي: المحبر ٧٥ ، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٦٠ - ٢٧٠، وابن كثير : السيرة النبوية ٤/ ٢٦٢، والإمتاع ٣٠٧ وتهذيب النووي ١/٣٠، وابن القيم : زاد المعاد ١/ ١١٦. وانظر صور ونصوص رسائل النبي إلى الملوك في كتاب محمد حميد الله: الوثائق السياسية ص ١٣٥ وما بعدها.

٤-تجلّت حكمة النبي ورحمته في حالة السلم بالأمور التالية:

أولاً: رحمته في وضع معاهدة لكل سكان المدينة بمختلف مللهم تضمن حقوق الجميع، وتمنع الاعتداء بين هذه الملل، بل وتمنع الظلم فيما بين الملة الواحدة كما سيأتي تفصيله في رحمته في حل المشكلات.

ثانياً: حكمته في موافقته لأهل الكتاب: بما أن أهل الكتاب هم من أرباب الأديان السماوية فقد صحَّ أن النبي كان يحب موافقتهم في كثير من الأمور إلا فيما لم يؤمر فيه بشيء.[١] كذلك كان متواضعاً للأنبياء ومتوافقاً معهم، فقد صحَّ عنه أنه قال: "مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة"[٢] في هذا الحديث ذكر جهود الأنبياء في الدعوة، وصلته بهم وسيره على عقيدتهم.

ثالثاً: رحمته في التخفيف عن فقراء أهل الذمة: وقد عقد الإمام ابن قيم الجوزية فصلاً بعنوان (ذكر أحكام أهل الذمة في أموالهم) ثم قال: أما أموالهم التي يتّجرون بها في المقام أو يتخذونها للقنية فليس عليهم فيها صدقة فإن الصدقة طهرة... وأما زروعهم وثمارهم التي يستغلونها من أرض الخراج فليس عليهم فيها غير الخراج[٣]

وأما بالنسبة للجزية فقد سقطت عن ضعفائهم وغيرهم من الذين ذكرهم الإمام أبو يوسف في كتابه إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد إذ قال: ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدق عليه، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذميّ يتصدق عليه ولا من مقعد. والمقعد والزمن إذا كان لهما يسار أخذ منهما وكذلك الأعمى، وكذلك المترهبون الذين في الديارات إذا كان لهم يسار أُخذ منهم، وإن كانوا إنما هم مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم لم يؤخذ منهم، وكذلك أهل الصوامع إن كان لهم غني ويسار، وإن كانوا قد صيروا ما كان لهم لمن ينفقه على الديارات ومن فيها من المترهبين والقوام أُخذت الجزية منهم يؤخذ بها صاحب الدير، فإن أنكر صاحب الدير الذي ذلك الشيء في يده، وحلف على ذلك بالله وبما يحلف به مثله من أهل دينه ما في يده شيء من ذلك ترك ولم يُؤخذ منه شيء.[٤] وفي اعتماد المسلمين هذا الحلف من أهل الذمة تتجلى الثقة فيهم وحسن الظن بهم.

رابعاً: العفو والسماحة: لقد ضربت سماحة النبي ورحمته القدح المعلى والقدوة المثلى حتى فيمن قام بسحره فقد قام لبيد بن الأعصم اليهودي بسحر النبيﷺ وإذا برعاية الله تعالى لنبيه تكشف هذا المخطط الخبيث وتبطله وتخلصه من هذا الشر، أخرج البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحر رسولَ الله رجلٌ من بني زُريق يقال له لَبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم -أو ذات ليلة-وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبَّه؟ قال: لَبيد بن الأعصم.[٥]

خامساً: زيارة أهل الكتاب: ومن لطفه فإنه كان يزور كنيسة اليهود يوم عيدهم ومعه بعض أصحابه، فقد صحَّ عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: انطلق النبيﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم.[٦] وفي هذا الحديث تطبيق عملي لبيان جواز مثل هذه الزيارة لأجل الدعوة إلى الله تعالى.

---

(٢) -أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما (الصحيح -المناقب-باب صفة النبيﷺ ح٣٥٥٨).
(٣) -المصدر السابق -باب خاتم النبيين ح ٣٥٣٤.
(٤) -أحكام أهل الذمة ١/١٠٨.
(١) -كتاب الخراج ص (١٢٢).
(٢) -الصحيح، ب السحر وقول الله تعالى: ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر...﴾ الآية. الطب ١٠/٢٢١ رقم ٥٧٦٣.
(٣) -أخرجه ابن حبان (الإحسان ١٦/١١٨-١٢٠ ح ٧١٦٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم في (المستدرك ٣/٤١٥-٤١٦). وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أحمد في (المسند ٦/٢٥) والطبراني في (المعجم الكبير ١٨/٤٦-٤٧ ح٨٣) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٧/١٠٦)

سادساً: رحمته في موتى أهل الكتاب: مما تقدم تبين منهاجه ورحمته ورفقه مع اليهود، ولم يقتصر على ذلك بل حتى بعد موت اليهود، ولقد تركت هذه السنة آثارها في الصحابة في احترام اليهود في موتهم أيضاً، فقد ثبت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين فمرُّوا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنهما من أهل الأرض –أي من أهل الذمة–فقالا: إن النبيﷺ مرت به جنازة فقام. فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال: "أليست نفساً؟". وصحَّ عن جابر عبد الله قال: مر بنا جنازة فقام لها النبيﷺ وقمنا فقلنا: يا رسول إنها جنازة يهودي فقال: "إذا رأيتم الجنازة فقوموا"(١)، قال الحافظ ابن حجر: واستدل بحديث الباب على جواز إخراج جنائز أهل الذمة نهاراً غير متميزة عن عن جنائز المسلمين. (٢) ولا غرابة إنه دين الإسلام الذي يحترم النفس في حياتها وموتها ولا يفرق في حق المسلمين ولا في حق أهل الكتاب، هكذا أرسى النبيﷺ مثل هذه الدعائم في رحمته بأهل الكتاب حتى عند الممات حتى لا يظن بعضهم أن المصالح والعلاقات الشخصية تقتضي حسن التعامل مع الأحياء منهم بل كان الأمر فوق ذلك إذ أحسن التعامل مع الأموات منهم أيضاً.

سابعاً: ماذا قال المؤرخون الغربيون عن تعامل النبي مع الأقليات: قال المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار: حاول الإسلام منذ القرن السابع للميلاد أن يقدم حلاً لمشكلة الأقليات فريداً من نوعه. وتستحق جماعة غير المسلمين على أرض الإسلام أن تُتناول بالتحليل لأنه ثبت أنها نهج لا مثيل له (٣)، قال المستشرق الأمريكي أدوين كالغرلي: احتفظ المسلمون للأقليات غير المسلمة في البلاد التي فتحوها بحقوقهم وامتيازاتهم الدينية. (٤)

أهل الذمة هم الأقليات من أهل الكتاب دخل الدولة الإسلامية، يقول أدوار بروي: "فاليهود والنصارى الذين هم أيضًا من أهل الكتاب، حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يضاموا. وكان لابدّ من وقوف هذا الموقف نفسه من الزرادشتية والبوذية والصابئة، وغيرها من الملل والنحل الأخرى. والمطلوب من هؤلاء السكان أن يظهروا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه، وأن يؤدوا له الرسوم المترتبة على أهل الذمة تأديتها، وفي نطاق هذه التحفظات التي لم يكن لتؤثر كثيرًا على الحياة العادية، تمتع الذميون [في الإسلام] بكافة حرياتهم"(٥).

ويقول مونتكومري وات: "إن تعامل المسلمين كان مختلفًا تجاه اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وغيرهم ممن اعتبرت دياناتهم شقيقة للإسلام، رغم الدعوى القائلة بأن الأتباع المعاصرين لتلك الديانات قد ابتعدوا عن جوهرها. ومهما كان الأمر فقد كان بالإمكان قبولهم نوعًا من الحلفاء للمسلمين في معظم الأقطار التي فتحتها العرب. لذلك فإن غرض الجهاد لم يكن يهدف إلى تحويل أولئك السكان نحو الإسلام بقدر ما كان يهدف إلى اعترافهم بالحكم الإسلامي وبمنزلة أناس يحميهم الإسلام. وبعامة فإنهم (أهل الذمة)" (٦) .

" وكانت الطائفة الذمية مجموعة من الناس تعتنق ديانة واحدة لها استقلالها الداخلي برعاية رئيس ديني كالبطريك أو الرابي، وكان على كل فرد من أفراد المجموعة الذمية دفع ضريبة شخصية إلى الحاكم المسلم ... وكانت تلك الضرائب أحيانًا أقل وطأة من الضرائب التي كانت تدفع للحكام السابقين. وكانت حمايتهم بصورة فعالة بالنسبة للدولة الإسلامية تمثل كلمة شرف تلتزم بها الدولة وتنفذها"(٧) .

---

(٤) –صحيح البخاري –كتاب الجنائز –باب من قام لجنازة يهودي، ح١٣١١و١٣١٢.
(٥) –فتح الباري ١٨١/٣.
(٢) –إنسانية الإسلام ص ١٨٧.
(٣) –الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته ص ١٦٤.
(٥) –أدوار بروي: تاريخ الحضارات العام، ٣ / ١١٦
(٦) –مونتكومري وات: تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣
(٧) –مونتكومري وات: تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣ – ١٤.

فعن حرية أهل الذمة في الاعتقاد، يقول "روم لاندو": "على نقيض الإمبراطورية النصرانية التي حاولت أن تفرض المسيحية على جميع رعاياها فرضًا، اعترف العرب بالأقليات الدينية وقبلوا بوجودها. كان النصارى واليهود والزرادشتيون يعرفون عندهم بـ (أهل الذمة)، أو الشعوب المتمتعة بالحماية. لقد ضمنت حرية العبادة لهم من طريق الجز التي أمست تدفع بدلاً من الخدمة العسكرية. وكانت هذه الضريبة مضافًا إليها الخراج، أقل في مجموعها من الضرائب التي كانت مفروضة في ظل الحكم البيزنطي. كانت كل فرقة من الفرق التي تعامل كملّة، أي كطائفة نصف مستقلة استقلالاً ذاتيًا ضمن الدولة. وكانت كل ملّة تخضع لرئيسها الديني"[١].

وعن حرية أهل الذمة في ممارسة الشعائر: يقول ول ديورانت: "كان أهل الذمة المسيحيون، والزردشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد نظيرًا لها في المسيحية في هذه الأيام. فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم"[٢]، ويقول" آدم متز": "كانت حياة الذمي عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم، ودية المسلم، وهي مسألة مهمة جدًا من حيث المبدأ، ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحض مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم، وكذلك ازدهرت الأديرة بهدوء"[٣]

وعن رعاية المسلمين لأهل الذمة: يقول آرثر ستانلي تريتون[٤] : "ولما تدانى أجل (عمر بن الخطاب) أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله: (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم) وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول، وهي شهادة (عيثويابه) الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ إلى ٦٥٧م إذ كتب يقول: (إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، أنهم ليسوا بأعداء للنصرانية بل يمتدحون ملّتنا ويوقرون قسيسينا وقدّيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا). والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين (عيثويابه) وبين العرب كان من صالح النصارى، فقد نصّ على وجوب حمايتهم من أعدائهم، وألا يحملوا قسرًا على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعاداتهم وممارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزية المجباة من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهما، وإذا كانت أمة نصرانية في خدمة مسلم فإنه لا يحق لسيدها أن يجبرها على ترك دينها أو إهمال صلاتها والتخلي عن صيامها."[٥]

وعن الاستعانة بهم في أجهزة الدولة: يقول آدم متز: "ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرّفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية"[٦]، وقد كان عمر بن الخطاب يستخدمهم في كتابة الدواوين والترجمة.

ثامناً: وصايا النبيﷺ بأهل الذمة والتحذير من إيذائهم:

١- **حرمة قتل الذمي بغير حق:** عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍوﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: " مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"[٧]،

---

(١) -روم لاندو: الإسلام والعرب، ص١١٩

(٢) -ول ديورانت: قصة الحضارة، ٣ / ١٣٠ – ١٣١.

(٣) -آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ١ / ٦٩ – ٧٠.

(٤) -آرثر ستانلي تريتون: ولد عام ١٨٨١ عين مساعد أستاذ للعربية في أدنبرا (١٩١١) وكلاسكو (١٩١٩) وأستاذ في عليكرة في الهند (١٩٢١) ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن (١٩٣١-٣٨-٤٧) من آثاره: (الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين) (١٩٣٠)، (علم الكلام في الإسلام) (١٩٤٧)، (الإسلام إيمان وشعائر) (١٩٥٠)، (مواد في التربية الإسلامية) (١٩٥٧).

(٥) -آرثر ستانلي تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٥٨ – ١٥٩

(٦) -آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١ / ٨٧.

(٧) -صحيح –رواه البخاري، برقم ٦٤٠٣، باب بَاب إِثْمِ مَنْ قَتَلَ ذِمِّيًّا بِغَيْرِ جُرْمٍ

٢- **حرمة قذف الذمي**: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: مَنْ قَذَفَ ذِمِّيًّا حُدَّ[١] لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسِياطٍ مِنْ نَارٍ" قيل لِمَكْحُولٍ: مَا أَشَدُّ مَا يُقَالُ، قَالَ: يُقَالُ لَهُ:يَا ابْنَ الْكَافِرِ[٢].

٣- **تحريم ظلمه**: عن عبد الله بن جراد، أن رسول اللهﷺ قال:" من ظلم معاهدا أو انتقصه ..."[٣]، وفي ذلك يقول جولدتسيهر[٤]: "فظلم أهل الذمة، وهم أولئك المحتمون بحمى الإسلام من غير المسلمين، كان يحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة ففي بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة عندما ثار ضد ظلم أحد عمال الضرائب، فحكم عليه بما قاله الرسول: (من ظلم معاهدًا، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة). وفي عصر أحدث من هذا ما رواه بورتر Porter في كتابه (خمس سنين في دمشق) أنه رأى بالقرب من بصرى (بيت اليهود) وحكى أنه كان في هذا الموضع مسجد هدمه عمر لأن الحاكم قد اغتصبه من يهودي ليبني عليه هذا المسجد!"[٥].

٥-جهاد النبي محمدﷺ مقارنة مع جهاد الأنبياء السابقين:

عرف الجهاد والقتال في أمتين: أمة الإسلام وبني إسرائيل ومقارنة بين الجهاد في الأمتين نجد أن هناك اختلافاً في الأهداف والنتائج بين كل ، ويبرز لنا واضحاً جلياً أن الجهاد في أمة الإسلام كان عنوان رحمة لكل الأمم ، بخلاف الأمم السابقة، نعول هنا على النصوص الواردة في التوراة ذلك لأن أهل الكتابين في عصرنا الحاضر هم أكثر أهل الأرض هجوماً وتشويهاً واتهاماً لنظام الجهاد والقتال في الإسلام فلنقارن بين هدي النبي في الجهاد والقتال وبين ما يعتقدون صحته في كتبهم المقدسة لنر هل لهذه الهجمة أي وجه من الصواب ، وإذا كنا في نظرهم موطن تهمة فإن النصوص تثبت من يستحق الاتهام .

نصوص عن الجهاد والقتال عند بني إسرائيل في التوراة:

ورد في سفر التثنية «**حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب نصيباً فلا تستبق منهم نسمة**»[٦]

وأما سفر صموئيل الأول فيحكي عن داود أنه في حروبه لم يستبق على طفل ولا امرأة [٧] وفي صموئيل الثاني جاءت الإشارة إلى بعض حروبه ويصرح النص بالتمثيل والتعذيب والحرق لبعض الشعوب المغلوبة: «**وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت المناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم في أتون الأجُر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون**» [٨]، يتضح من النصوص " طبعا دون محاكمتها للصحة والتزييف" عدة أمور منها:

---

(١) -حُد: أقيم عليه الحد والعقوبة

(٢) -المعجم الكبير للطبراني (ج ١٥ / ص ٤٣٤)، مسند الشاميين للطبراني (ج ٩ / ص ٣١٦)

(٣) -أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة (ج ١١ / ص ٣٣٩)

(٤) -كولد تسيهر (١٨٥٠-١٩٢١م): عين أستاذًا محاضرًا في كلية العلوم بجامعة بودابست (١٨٧٣) ثم أستاذ كرسي (١٩٠٦). من آثاره: كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) (باريس ١٩٢٠)، و(درس في الإسلام) في جزأين كبيرين.

(٥) -كولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص ٤٦-٤٧

(٦) -سفر التثنية ، الإصحاح ٢٠ ، النص ١١- ١٧

(٧) -سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢٧، النص ٥-١٢

(٨) -صموئيل الثاني، الإصحاح ١٢، النص ٣١-٣٢

١- القتال هو بغرض السيطرة والاستعباد، إذا كان المستهدف من القرى القريبة يتم إهلاك جميع أهلها سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً صغاراً أم كباراً، أما إذا كانت القرى بعيدة فإن فتحت القرية صلحاً فيكون كل من فيها عبيد، وإن فتحت من خلال الحرب فيقتل كل من فيها من الذكور، والنساء والأطفال يستعبدون.

٢- شريعة بني إسرائيل لا تحرم قتل الأطفال والنساء، والنصوص تشير إلى أن موسى وداود عليهما السلام قاما بقتل الأطفال والنساء.

٣- تجيز شريعة بني إسرائيل القتل بأبشع الصور كالحرق والنشر والصلب والتمثيل بالجثث حتى الموت كما أشارت النصوص في حق النبي داود عليه السلام.

أما في هدي النبيﷺ وجهاده: فمن تتبع هديه في الجهاد والقتال يخلص إلى النقاط التالية:

١ -أكثر غزوات النبي ﷺ كانت دفاعية كما سيتضح لنا في الجانب التفصيلي لها.

٢-مبدأ الدعوة وهداية الناس كان يغلب على الأهداف الأخرى، وكان النبي ﷺ إذا بعث بعثاً قال: «**تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم** » [١] بل كان النبي يرشد قادة الجيش بالتحلي بالصبر على الأعداء والتجاوز عن عدوانهم ما دام في الأمر مطمع في كسب الناس للإسلام، وقد ورد أن النبي بعث علياً مبعثاً فأوصاه قائلاً: « **إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ؛ فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلوهم حتى تريهم إياه، ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله .. والله لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت**» [٢]، وفي غزوة خيبر أوصى علياً قائلاً: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» [٣] وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «**ثم أتى رسول الله بأسارى من اللات والعزى قال: فقال رسول الله: هل دعوهم إلى الإسلام؟ فقالوا: لا فقال لهم: هل دعوكم إلى الإسلام؟ فقالوا: لا! قال: خلوا سبيلهم حتى يبلغوا مأمنهم ثم قرأ رسول الله هاتين الآيتين: إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى إلى آخر الآية**» [٤]، فهذه النصوص واضحة الدلالة على أن مبدأ الدعوة والهداية والإعذار للأعداء كان يسبق القتال وهذا عين الرحمة بهم

٣-الغرض الأساسي من الجهاد والقتال هو حسر الصد عن سبيل الله وتأمين تحرك الدعوة بنهجها السلمي بدون عوائق.

٤-القتال عند المسلمين مضبوط بضوابط عدة منها تجنيب المدنيين ويلات الحروب ، وعدم التعرض للنساء والأطفال بأي حال ، وضرورة التحلي بآداب الرسالة بعيداً عن الغدر والخيانة أو التمثيل بالأعداء مع ضرورة عدم البدء بالقتال إلا بعد دعوة الأعداء إما للإسلام أو القبول بحكم الإسلام (إعطاء الجزية) بل لم يكن يتحرك جيش إسلامي أو سرية إلا بعد الوصية الجامعة للمعاني السابقة ورد عن سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أنه قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ**

(١) -الإمام الشيباني: السير الكبير [انظر السير وشرحه للسرخسي (٧٩/١)]
(٢) -الإمام الشيباني: السير الكبير [انظر السير وشرحه للسرخسي (٧٨/١)]
(٣) -أخرجه البخاري برقم ٣٠٠٩ [البخاري مع الفتح (١٦٨/٦)]
(٤) -انظر البيهقي: السنن الكبرى (١٠٧/٩) ؛ الكاندهلوي (١٠٢/١)

اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ» [١]، بل لم تعهد البشرية أن يؤثر الآسر الغالب الأسير المغلوب على نفسه يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً** ﴾ [٢] فمقتضى الآية يشير إلي تلك التربية النبوية الرحيمة التي ربى بها محمد ﷺ أصحابه لدرجة أن أحدهم يقدم أسيره على نفسه في الطعام مع حاجته له ، ولا يقدمه له إلا ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، وحنوه على أسيره أصبح مقارناً لحنوه على اليتيم والمسكين.

وهذا الاعتدال وتلك التعاليم كان يراعيها النبي ويراقبها من الناحية التطبيقية في كل غزواته مع جنوده ، وأي منصف متتبع لسيرة النبي ﷺ يلمس مصداقية هذه التعاليم وتمثلها على أرض الواقع يقول المستشرق المعروف أميل ديرمنجم في كتابه حياة محمد: « **إن محمداً رسول الإسلام قد أبدى في أغلب حياته ، بل طول حياته اعتدالاً لافتاً للنظر فقد برهن في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثيل في التاريخ ، إذ أمر جنوده أن يعفو عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء ، وحذرهم من أن يهدموا البيوت أو يسلبوا التجار ، أو يقطعوا الأشجار المثمرة ، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة ، بل قد بلغنا أنه كان يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً .** » [٣]

٥- قد يتذرع البعض ويقول أن واقع النبي وصحابته كان بخلاف تلك الوصايا ويأتي ببعض التفاصيل الجزئية هنا أو هناك يفسرها كيفما شاء ، والصواب في ذلك أن سيرة النبي كان ترجمة عملية لتلك الوصايا والواقع يشهد بذلك فهو عندما انتصر على أهل خيبر بالرغم من عداوتهم وكيدهم للمسلمين لم يستعبدهم ، ولم يفن بيضتهم بل صالحهم على أن يبقوا في أرضهم يعملوا بها على أن يكون الريع والناتج مناصفة ، وعندما انتصر نصراً مؤزراً على عدوه الأول (قريش) لم يشف غيضه منهم ، بل عفا عنهم وتركهم وأموالهم وأملاكهم ، بل أكرمهم من غنائم حنين ، وعندما انتصر على يهود بني المصطلق حرص النبي على الزواج من جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق ، وكان زواجه هذا ترغيباً للصحابة ليعتقوا من بأيديهم من أساري بني المصطلق حيث أعتق المسلمون بسبب هذا الزواج ما بأيديهم كرامة لأصهار النبي فهذا هو واقع النبي وصحابته الكرام وكل منصف للتاريخ يشهد لنبي الرحمة وتعاليمه.

يقول جوستاف لوبون: « **إن القوة لم تكن عاملاً في نشر القرآن ، وإن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا ، واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى .. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بينهم ، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب .** » [٤]

---

(١) -أخرجه مسلم برقم ١٧٣١ [مسلم بشرح النووي (٦/٢٥٨)]
(٢) -الإنسان: الآيات ٨ – ٩
(٣) -عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام (٣٣وما بعدها)
(٤) -لوبون: حضارة العرب (١٢٧ وما بعدها)

ويقول المستشرق الفرنسي أ . ل سيديو: «**من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد من القسوة والجبن فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يألُ جهداً في إلغاء عادة الآثار الموروثة الكريهة .. وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على أشد أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة**» (١)

الخلاصة: بالنظر لغزوات النبي وحروبه مقارنة بنظام عقوبة مخالفي الأنبياء نجد أنها انتقال رحيم من العقوبة الشاملة إلى العقوبة الانتقائية وبالنظر إلى جهاد النبي وما ثبت في شرائع الأمم السابقة نجد مدى الرحمة التي تميزت بها غزوات النبي وحروبه وإدعاء بعض الأعداء على أن النبي محمد كان دموياً أو يدعو للدموية هو إدعاء فارغ من الصحة ، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك بل نظرة واحدة موضوعية للتاريخ تكفي للخروج بمسلمة وهي أن البشرية لم تعهد بشراً أرحم بالبشرية من محمد ﷺ حتى في حروبه وغزواته التي كان التسامح عنواناً لها ، وهذا ما سنلاحظه جلياً خلال العرض التفصيلي لسيرة النبي ﷺ.

٦-إذا لماذا القتال؟، وما هي مسوّغاته ومبرراته ودوافعه.

هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة [في يوليه ٦٢٢م](٢) فرارًا بدينهم ولبناء مجتمع إسلامي جديد آمن، ولتكون المدينة مقرًا للدعوة الإسلامية تنطلق منها البعوث والرسل إلى شتى بقاع الأرض تبلغ رسالات الله إلى العالم، وبالفعل نجح المسلمون في تأسيس أول دولة إسلامية، وأخذ رسول الله يعقد الأحلاف والعقود مع القبائل والجماعات على الصعيدين الداخلي والخارجي للمدينة، وأصبح للمسلمين لأول مرة كيان معترف به من هذه القبائل، وفي كل يوم يزداد فيه التقدم الإسلامي عقب الهجرة، يزداد معه حنق الوثنيين وغيظهم على المسلمين، وأصبح المسلمون في حاجة ماسة للتسلح والدفاع عن أنفسهم ولحماية عقيدتهم ودولتهم، وبالفعل نزل النص القرآني يجيز للمسلمين الدفاع عن أنفسهم بالسلاح، قال الله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }[الحج : ٣٩].

بدأت المؤامرات تحاك للكيد بالمسلمين، بمصادرة أموال كل من يهاجر منهم والاستيلاء على بيته وأملاكه، ومن أفلت بشيء لاحقته كما حصل مع صهيب، وأرسلت للمسلمين تقول لهم: «**لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم**» (٣)، وهذا التهديد السافر والذي تأكد من خلال خطوات لاحقة لقريش جعل النبي لا يبيت إلا ساهراً وكان الصحابة يحرسونه مخافة الغيلة وتبين للنبي أن قريش ماضية في غيها وملاحقتها للمسلمين وفي ظل هذه الأوضاع نزل الإذن من السماء للمسلمين بالقتال دون أن يفرض عليهم والغرض منه هو الدفاع وإزاحة الباطل، ودفع الكيد.

فأراد النبي ﷺ بتعرضه لقافلة قريش أن يقرع أسماعها ويفتح عيونها لتوادعه موادعة تقيه وتقيها شرور العداوة المستمرة، وتكفل له ولأصحابه الدعوة للإسلام وتكفل قريش أمن طريقها إلى الشام وكما أن النبي لا يستطيع أن يحتبس الدعوة ولا يطيق أن يعوقها معوق كذلك قريش لا تستطيع أن تكف عن رحلتها للشام. (٤)

وبالرغم من أن الرسالة النبوية كانت واضحة إلا أن قريش وجدت فيها مبرراً لتحقيق أهدافها بالقضاء على المسلمين واتخذتها ذريعة للمواجهة العسكرية التي كان النبي والمسلمون لا يقصدون حصولها : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**

(١) سيديو : تاريخ العرب العام (٨٣)
(٢) -رالف لنتون: شجرة الحضارة، ٣٤١/١.
(٣) -المنصور فوري: رحمة للعالمين (١١٦/١) نقلاً عن الرحيق المختوم (٢١٦)
(٤) -انظر الحوفي: سماحة الإسلام (١٤١)

﴾ [١] فكانت غزوة بدر التي جرت لغزوة أحد ثم الخندق وكلها وقعت على ثخوم المدينة المنورة مما يشير إلى أنها دفاعية، وليست هجومية.

فكان الإذن بالقتال واسترداد الحقوق بالقوة، لعدة اعتبارات شرعية ومنطقية وجيهة:

أولاً: **حماية وتأمين الدولة الإسلامية الناشئة** وإفشاء السلام في المجتمعات القبلية حيث رأى النبي وصحابته الكرام أن عدم وجود جيش للمسلمين يحمي بيضتهم يعرض الدولة الإسلامية الناشئة للخطر والضياع ، ووجود جيش قوي للمسلمين يفرض احترام الغير له بحيث يحجم عن التفكير في الاعتداء على المسلمين، وبذا يسود السلام الذي ينشده المسلمون في صراعهم وقد بين القرآن هذا الهدف في قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** . ﴾ [٢] فالآيات صريحة بأن الغرض من الإعداد هو بث الرهبة في صدور من تحدثه نفسه بالاعتداء على المسلمين أو استباحة بيضتهم، ثم ختمت ببيان الهدف الأسمى وهو تحقيق السلم في الأرض، لذا بمجرد أن تجنح القبائل للسلام فالمسلمون مطالبون باغتنام الفرصة بتحقيقه في المجتمع، فتحقيق السلم وإشاعته في المجتمع يعتبر هدفاً أصيلاً في الرسالة، ولا عجب من ورود لفظة (سلم) ومشتقاتها في القرآن فيما يزيد على ١٣٣ آية بينما لفظة الحرب لم تذكر في القرآن إلا في ست آيات فقط بل الإسلام نفسه مشتق من لفظة السلام، وتحية المسلمين وشعارهم الاجتماعي السلام، مما يشير إلى أن فكره السلام في الإسلام قد شغلت مساحة واسعة من تعاليمه، و تحتل المقام الرئيس بين أهداف الرسالة.

ثانياً: **حماية حرية نشر الدعوة** : وهذا هدف فرضه طبيعة المجتمع الذي رفض هذا الدين الجديد وحارب أهله وصادر حرياتهم بل سلبهم حرية الاعتقاد نفسه واقتضى الأمر حماية الرسالة وأهلها وحماية حرية نشرها، وينبغي هنا أن نفرق بين أمرين وهما: حماية نشر الدعوة وحماية حرية نشر الدعوة، فليس من أهداف الحرب في الإسلام حماية نشر الدعوة لأن حماية نشر الدعوة بالحروب معناه الإكراه على اعتناق الإسلام وهذا مبدأ يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً ولو كان الفضل في انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان أهله لكن هدف المسلمين هو حماية حرية الدعوة أي الباعث على الحرب هو حسر أهداف المشركين في الصد عن سبيل الله ومنع الناس من بلوغ الدعوة إليهم وإذا لم يوجد صد للرسالة فلا تحل الحرب بأي وجه وتنطلق الدعوة في بيئتها الطبيعية. [٣]

ثالثًا: إعلان الحرب على الدولة الإسلامية الناشئة: بادر زعماء مكة في إعلان الحرب على المسلمين، والسعي بشتى الطرق لإحداث حرب أهلية داخل المدينة، فأرسلوا إلى عميلهم عبد الله بن أبي بن سلول وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس المدينة قبل الهجرة، فقد كاد الأوس والخزرج أن يجعلوه ملكًا عليهم لولا هجرة النبي، كتبوا إلى ابن سلول ومن خلفه من المنافقين في كلمات تنم عن شدة الحنق والغيظ على المسلمين: "إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا! وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ، لَقِيَهُمْ فَقَالَ: "لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ! مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ؟! فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ النَّبِيِّ تَفَرَّقُوا[٤].

---

(١) –الأنفال: الآية ٧

(٢) –الأنفال: الآيات ٦٠–٦١

(٣) –انظر خطاب: الرسول القائد (٤٠ وما بعدها)

(٤) –سنن أبي داود، باب في خبر النضير، حديث ٢٦١٠، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

وهنا تظهر عظمة القائد الحكيم المربي، حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها، وضرب على وتر العزة القبلية، فقد كان يدرك أغوار النفس البشرية التي يتعامل معها، ولذلك كان خطابه مؤثرًا في نفوس مشركي أهل يثرب(١)، وكان من أخلاقه أن تعصب لوحدة الصف ولم يتعصب لأصحابه المهاجرين دون الأنصار، أو المسلمين دون المشركين المدنيين، إنما ضرب ركز في خطابه على مصلحة المدينة – بما فيها من طوائف وعقائد – ضد أعدائها من الخارج ..

رابعاً: تهديد أمن المسلمين: وهو اعتبار آخر شرعي للإذن بالقتال لاسيما للدفاع عن حياة المواطن سواء داخل الدولة الإسلامية أو خارجها ، ونستدل على ذلك بحادث محاولة منع الصحابي الجليل سعد بن معاذ من أداء العمرة: فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ حَدَّثَ عَنْ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ أَنَّهُ قَالَ كَانَ صَدِيقًا لِأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِرًا فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ لِأُمَيَّةَ : انْظُرْ لِي سَاعَةَ خَلْوَةٍ لَعَلِّي أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ .. فَخَرَجَ بِهِ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، فَلَقِيَهُمَا أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ : يَا أَبَا صَفْوَانَ مَنْ هَذَا مَعَكَ؟؟ فَقَالَ : هَذَا سَعْدٌ . فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : أَلَا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا وَقَدْ أَوَيْتُمْ الصُّبَاةَ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا!! فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ– وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ –أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لَأَمْنَعَنَّكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ، طَرِيقَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ (٢).

تدل هذه الحادثة على أن أبا جهل يعتبر سعد بن معاذ من أهل الحرب بالنسبة إلى المشركين في مكة (٣)، ولولا أنه دخل في جوار زعيم من زعمائها لأهدر دمه، تأمل قول أبي جهل لسعد: " لَوْلَا أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا"! فلم يكن أحد من المسلمين وإن كانوا معتمرين أو حجاج يستطيع أن يدخل مكة حاجًا أو معتمرًا أو نحو ذلك، إلا في جوار زعيم من الزعماء الوثنيين كما رأيت، وهكذا يتبدى للمتبصر أن المسجد الحرام تحت احتلال فعلي، وإهانة واقعة، وعتو بيّن من قبل هؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم أوصياء على المسجد الحرام، وما هم، قال الله تعالى {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَآءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }[الأنفال:٣٤]، "إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه! إن بيت الله الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله "(٤).

ويدل هذا الحادث أيضًا — من كلام سعد — على أن المسلمين في هذا الوقت لم يتعرضوا ولو لمرة واحدة لقوافل مكة التجارية، وأن الدولة الإسلامية في هذا الوقت لم تعامل أهل مكة المشركين معاملة أهل الحرب. ومعنى هذا أن الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكة هي التي بادرت بالعدوان، وأعلنت الحرب على دولة الإسلام، وهددت الحجاج والمعتمرين من المسلمين، واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يدخلون مكة إلا بصك أمان أو بصفة مستأمنين(٥)، فكان بعد كل هذا أن يدافع الشعب المسلم عن عقيدته وأرضه ودولته ونبيه ..

خامساً: مصادرة أموال المسلمين وعقاراتهم: عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، أصبحوا في ضيق من العيش، حيث صادرت قريش أموال وعقارات وتجارات المسلمين، وقام المشركون بتوزيع هذه الأموال بين صناديد مكة ظلمًا وسحتًا! وكانت تجارة قريش تمر بالمدينة في الذهاب وفي العودة حال رحلتها الصيفية إلى الشام. وكانت بالنسبة للمسلمين فرصة ذهبية لاسترداد بعض حقوقهم.

---

(١) –انظر: على محمد الصلابي: السيرة النبوية، ١\ ٣٦٤

(٢) –صحيح البخاري، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ يُقْتَلُ ببدر، ح ٣٦٥٦.

(٣) –انظر: محمد خير هيكل: الجهاد والقتال ٤٧٦/٣، وعلى محمد الصلابي: السيرة النبوية، ٣٦٤/١،

(٤) –سيد قطب: في ظلال القرآن، سورة الأنفال، الآية ٣٤.

(٥) –انظر: محمد خير هيكل: الجهاد والقتال ٤٧٦/٣، وعلى محمد الصلابي: السيرة النبوية، ٣٦٤/١

٧-كيف يتقاطع جهاد النبيﷺ مع مبدأ الرحمة:

المعلوم أن النبي ﷺ قضى أكثر المرحلة المدنية في جهاد إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى، وقد يرى البعض أن المعارك والغزوات التي خاضها النبي تتنافى وكونه نبي رحمة ولا وجه التقاء بين الدماء والرحمة وهذا فهم خاطئ يتنافى وطبيعة البشرية بل هذه الغزوات كانت شكلاً من أشكال الرحمة النبوية بالبشرية ومن فهم ظروف غزواته و دواعيها وضروراتها بالوجه الصحيح، يخلص إلى نتيجة هامة هي أن عدم وجود هذه الغزوات يعتبر خللاً في مظهر من مظاهر الرحمة لا العكس ولكي يتضح الأمر لا بد من بيان الموازنة الفكرية التي تبرز منهج النبي ﷺ في تعاطيه مع المواجهة العسكرية وضروراتها وذلك في النقاط التالية :

النقطة الأولى: التدخل الجراحي عند الضرورة هو مظهر من مظاهر الرحمة.

لا يختلف عاقل في أن التدخل الجراحي بالرغم من آلامه وآثاره والدماء التي تسيل عند إجرائه يعتبر مظهراً من مظاهر الرحمة عندما لا توجد وسيلة غيره لإنهاء الألم وملاحقة الورم، ولو امتنع الطبيب من استخدامه رعاية للآلام التي يمكن أن يعانيها المريض عند إجراء العملية، وترك المريض يستفحل فيه الورم أو يستشري فيه المرض، عندها لا يستحق الطبيب وصف الرحمة، بالرغم من أنه لم يؤلم المريض بالتدخل الجراحي.

هذه الموازنة العامة التي تبرز ضرورات التدخل الجراحي، وتتفق البشرية كاملة على أن عدم اعتبارها منافي للرحمة، بل تلك الممرضات اللواتي يستخدمن المباضع والمشارط ويجرحن المرضى لاستئصال ورم ونحوه استحققن وصف ملائكة الرحمة في نظر البشرية بالرغم من تلك الدماء التي تسيل تحت مشارطهن، وبالرغم من صرخات المرضى بين أيديهن، بل لا ينظر لتلك الصرخات والدماء مقابل حسن العاقبة وحصول العافية، وكل عاقل ينظر للطبيب أو الممرضة بعين الامتنان على الواجب الذي يقومان به.

هذا بخصوص علاج الأبدان، و ما ذكرت مسلمة تتفق على صحتها البشرية بعمومها، إضافة إلى اتفاقها على أن التدخل الجراحي يتعين عندما لا توجد أي وسيلة أخرى للشفاء، وتركه يعتبر منافياً للرحمة .

أما بخصوص أمراض البشر الروحية (العناد والكفر والكبر ومراغمة الحق والصد عن سبيل الله وما يترتب على ذلك من مظالم وفوضى ..إلخ) فيتصور الإشكالية نفسها بل أشد منها ، ويتعين التدخل الجراحي إذا استنفدت كل الوسائل الأخرى ، والأصل أن ينظر للتدخل الجراحي أو المواجهة العسكرية حال استفحال أمراض الأمم وتعذر الوسائل الأخرى على أنه مظهر من مظاهر الرحمة لا منافياً لها ، والأصل أن ينظر للطبيب بعين الامتنان لذلك التدخل الجراحي خاصة بعد حسن العاقبة وحصول العافية في الأمم ، ولولا الجهاد والمواجهة العسكرية التي قام بها النبي ﷺ لما نعم خالد بن الوليد وأبو سفيان وعكرمة بن جهل بنعمة الإسلام ، بل لما خرج الإسلام من المدينة المنورة إلى ربوع العالم أجمع ، ولما استنارت البشرية بنور الهداية ولبقيت بعللها وأمراضها التي كان سينتج عنها أضرار على مستوى الدنيا أعظم بكثير مما نتج حصيلة حروب المسلمين مع غيرهم .

وبالمقابل لو لم تكن تلك الغزوات لا نحسر الإسلام في المدينة وبقيت الجزيرة على غيها وكفرها وحرمت البشرية نور الرسالة ومظاهر رحمتها ولأفضت عوامل الكيد الداخلي والخارجي بنواة الدولة الإسلامية على حسمها وإنهائها في سنواتها الأولى ويبقى التساؤل الهام هنا وهو أي رحمة عالمية في ترك وسيلة ساعدت في حرية نشر رسالة الإسلام عند تعذر الوسائل الأخرى؟

النقطة الثانية: آخر العلاج الكي.

ذكرت سابقاً أن التدخل الجراحي يعتبر مظهراً من مظاهر الرحمة عند تعذر أي وسيلة للعلاج ، ولا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، فهو علاج بغيض إلا أن الضرورة تقتضيه رحمة بالمريض وخوفاً من عواقب المرض المتضاعفة ، وقد أشار النبي ﷺ إلى أن أحد أسباب الشفاء الثلاثة الكي ؛ وبالرغم من ذلك كره النبي استخدامه لما يترتب عليه من آلام وتشوهات لكن الضرورة تلجئ إلى استخدام هذا العلاج البغيض النافع ، وذلك لحسم مرض عجزت أمامه الوسائل الأخرى ، فأصبحت ضرورة حسم المرض أعظم من مفسدة استخدام الكي ، لكنه آخر وسيلة يلجأ إليها ، وذلك عند استنفاد كل الوسائل الأخرى .

والملاحظ من منهج نبي الرحمة أنه كان يستخدم الدعوة السلمية ويحض عليها ويمنع غيرها ؛ لكن عندما ضُيق عليه وأصحابه ، ولوحقوا في كل مكان حتى أنهم عندما فروا للحبشة بدينهم لاحقتهم قريش عبر البحار ، وعندما هاجروا للمدينة لا حقتهم وقامت بمحاولات اختطاف من قلب المدينة لبعض المهاجرين كما حصل من أبي جهل والحارث بن هشام مع عياش بن ربيعة ، فهذه الملاحقة والصد عن الرسالة اقتضى التدخل العسكري من باب الدفاع ؛ لذا جاء الإذن باستخدام العلاج الأخير بعد تعذر كل وسائل العلاج الأخرى يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ (١) فالآية فيها إشارة إلى أن القتال كان محظوراً لكن استفحال الظلم في الجزيرة العربية وشدة الملاحقة لأهل الرسالة بحيث لم تبق لهم وسيلة سوى الدفاع عن رسالتهم ودفع الظلم عنهم ، فتعين استخدام القتال كوسيلة من وسائل الدعوة التي تؤمن حرية انتشارها ، وأصبح استخدام القتال من باب البغيض النافع ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ (٢)

النقطة الثالثة: استخدام القتال لا يعني الإكراه على تعاليم الإسلام.

كون القتال وسيلة من وسائل الدعوة لا يعني فرض التعاليم على الأمم المهزومة ، فهذا أمر مرفوض كلياً ويتنافى مع منهج الرحمة ، وقد أكد القرآن المكي والمدني على رفض هذا المبدأ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (٣) ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ (٤) وإنما يقصد بكونه وسيلة من وسائل الدعوة من ناحية تأمينه لانتشار الرسالة بالطرق السلمية والدعوية ، بحيث يواجه أئمة الكفر الذين يصدون الناس عن الإيمان بالرسالة ، أو يمنعون وصولها إليهم ، و في أي مرحلة يمكن من خلالها تبليغ الرسالة دون صد ففي هذه الحالة لا يجوز استخدام القتال بأي حال من الأحوال ، ومن تتبع غزوات النبي ﷺ وجهاد الخلفاء بعده يجد هذا المبدأ بقيوده واضحاً ، والمعلوم أن قتال المسلمين للفرس والروم وغيرهم من الأمم كان باعثه هو تأمين نشر دعوة تحاول هذه الأمم وأدها والكيد لها ، وبالمقابل نجد الصحابة وصلوا في فتالهم إلى خراسان وإلى أرمينية ، ولم يفكروا قط بغزو الحبشة التي كانت قريبة جداً منهم ، والسبب في ذلك أن الأمم الأخرى فرضت القتال على المسلمين بينما الحبشة لم يكن منها صد وكيد للدعوة الإسلامية ؛ لذا تركت وشأنها ، وهناك إشارة لطيفة ذكرها المستشرق جوستاف لوبون مدللاً على أن الإسلام انتشر بالدعوة وليس بالسيف فيقول : « **لم ينتشر القرآن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل** . » (٥)

---

(١) –الحج: الآية ٣٩
(٢) –البقرة: الآية ٢١٦
(٣) –يونس: الآية ٩٩
(٤) –البقرة: الآية ٢٥٦
(٥) –لوبون: حضارة العرب (١٢٨)

وهذه لفتة عجيبة تستحق التأمل فالمغول هم الذين قهروا العرب ولكن لم يمنع ذلك من اعتناقهم الإسلام، فالإسلام انتشر وأصحابه مهزومون عسكرياً، فهل كان السيف وراء إسلام المغول أم هناك قوة أخرى؟ الإجابة التي لا تحتمل غيرها هي أن هناك قوة أعظم من السيف تغلغلت في قلوب المغول المنتصرين، وهي قوة الحق الذي جاء به محمدﷺ، وهي نفس القوة التي تغلغلت في ربوع الهند وأطراف العالم الشرقي كإندونيسيا وماليزيا، فتلك البلاد لم يفتحها المسلمون بسيوفهم إنما فتحوها بأخلاقهم التي استمدوها من رسالة محمدﷺ.

النقطة الرابعة: الهدف الأوحد من غزوات النبيﷺ هو هداية البشرية لا استغلالها.

من تتبع غزوات النبي ﷺ يجد أن الهدف الأساس التي كانت تخضع له هو هداية الناس ، ولم تكن السيطرة وتوسيع الملك والاستيلاء على خيرات الأمم أحد أهدافه في أي غزوة من غزواته ، وهذا مبدأ واضح كان يؤكد عليه النبي ﷺ دائماً منه قوله لعلي عندما أعطاه الراية لفتح خيبر: ﴿ **عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** ﴾[1] فهذا الأثر واضح الدلالة في تربية النبي ﷺ لأصحابه على تقديم الهداية على غيرها من مغانم الدنيا ومكاسبها ؛ بحيث يرى المسلم أن حصولها هو الهدف الأسمى لتضحياته وقتاله ، بل من نظر إلى غزوة حنين يجد تطبيقاً عملياً نموذجياً لم تعهد مثله البشرية جميعاً ؛ حيث وزع النبي ﷺ أكثر الغنائم تأليفاً للقلوب ، ونالت قريش وكبارها كصفوان بن أمية ممن كانوا أشد الناس عداوة للنبي ﷺ الحظ الأوفى منها ، ورجع هو وأكثر الناس تضحية وعطاء للدين (الأنصار) ولم يحملوا معهم من حطام الدنيا شيئاً ، مما يشير صراحة إلى أن هذه الغزوات كانت باباً من أبواب الرحمة بالبشرية [2].

(١) -أخرجه البخاري برقم ٢٩٤٢ [البخاري مع الفتح (٦/١٣٠)]
(٢) -نقلا عن كتاب نبي الرحمة، د. محمد أحمد المبيض، ص ٩٧-١٢٥.

البحث الثالث: صورة إجمالية عن المواجهات النبوّية للمشركين ولأهل الكتاب:

بعد قيام دولة الإسلام في المدينة اضطر النبي أن يحارب الفئات التالية مكرها فلم يُترك ودعوته:

١–قريش " سكان مكة "

٢–اليهود في المدينة وخيبر

٣–الروم والغساسنة العرب الخاضعين لهم.

١–لقد أعلنت مكة حرباً شعواء على النبي ﷺمع بداية دعوته: الجهرية السلمية في جنبات مكة للدين الذي بعث به، استشعر كبراء قريش وسادتهم الخطر يتهدد مصالحهم، فقرروا حسم هذه الدعوة ووأدها في مهدها قبل أن تأتي على مورثاتهم وتقاليدهم، وأعلنت المواجهة مع صاحب الرسالة منذ اللحظة الأولى والتي اتخذت أشكالاً متعددة منها:

١– الحرب الإعلامية: وذلك من خلال تسفيه النبي ﷺواتهامه بسائر التهم المعيبة، وبث دعاية إعلامية تحريضية تشويهية في حقه، واتهام أتباعه، واتهام الكتاب الذي جاء به.

٢– إيذاء النبي ﷺبجميع أشكال الإيذاء اللفظي والعملي، منه وضع فرث الجزور عليه وإلقاء القاذورات في بيته وطريقه، والاستهزاء والاعتداء عليه بالضرب ونحوه، ومحاولة اغتياله عدة مرات، وإيقاع أشد أشكال التعذيب على كل من اتبعه، لدرجة أن النبي ﷺلم يجد وسيلة للدفاع عن أصحابه سوى مواساتهم ومطالبته لهم بالصبر، وشعار تلك المرحلة: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

٣– محاصرة النبي ومن يتبعه ويواليه اقتصادياً وهو ما يعرف بحصار شعب أبي طالب، وكان بلاءً شديداً أصاب النبي ﷺوأتباعه لدرجة تقرحت أفواههم لقلة الطعام.

هذه المرحلة المؤلمة التي رافقت الدعوة الإسلامية في مهدها لم يتعاط معها النبي ﷺإلا بالصبر والثبات، بل العفو والإحسان لمن أساء إليه وتكثيف جهده الدعوي السلمي، مع دعوة أصحابه لتحمل الشدائد ونهيهم عن أي مواجهة مع أهل قريش.[١] **فكانت مرحلة الفرار بالدين:** لم يبق أمام النبي ﷺإلا المواجهة للدفاع عن نفسه وأصحابه، أو الفرار بالدين ، فاختار النبي الفرار بالدين وأشار على صحابته بالتوجه نحو الحبشة ، فكانت الهجرتين إليها ، إلا أن قريش لم تكتف بذلك، بل ضيقت الخناق حتى على أقرب الناس من النبي ﷺكأبي بكر الذي قرر الفرار بدينه لولا إجارة ابن الدغنة له، إضافة إلى ذلك قررت ملاحقة الفارين عبر البحار إلى الحبشة، وبالفعل اتخذت كافة الوسائل مع ملك الحبشة لاسترداد الفارين لكن جهودها لم تفلح في ذلك.[٢] **فكانت مرحلة الهجرة للوطن الجديد:** لم يجد النبي أي مناص أمامه سوى البحث عن وطن جديد يؤويه ويؤوي أصحابه الفارين المعذبين في كل مكان، وانتهت جهوده بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية بتهيئة الوطن الجديد في المدينة المنورة، وبدأت رحلة الهجرة التي رادفها من قريش مصادرة أموال المهاجرين والسيطرة على بيوتهم بل سجن الكثير منهم ومنعهم من الهجرة ، إضافة إلى سوم من تبقى منهم سوء العذاب ، وانتهى بها الأمر إلى ملاحقة النبي ﷺ ورفيقة في الهجرة ، بل تهييج كل من حولها على مطاردتهم من خلال إعلانها جائزة عظيمة لمن عثر على النبي ﷺ أو رفيقة .[٣]

ظُلم النبي وظُلم أصحابه فأعلن على قريش حربا اقتصادية استباقية يرغمها على الاعتراف بحقوقه في مكة وحقه في نشر الدعوة لعلمه بنيّة قريش تأليب العرب ومقاطعتهم ليثرب، فقريش كلمتها مطاعة فلا تريد انتشار الدعوة الجديدة

---

(١) –انظر الحلبي: السيرة الحلبية (٤٧٢/١ وما بعدها) ابن كثير: البداية والنهاية (٥٤/٣) المباركفوري: الرحيق المختوم (٩١–١٠٣) الجزائري: هذا الحبيب (٩٨–١١٩) البوطي: فقه السيرة (٧٩–٩٨) ؛ الصلابي: السيرة النبوية (١/ ١٥٧–٢٢٤)

(٢) –انظر: الحلبي: السيرة الحلبية (٣/٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨٥/٣وما بعدها) الذهبي: تاريخ الإسلام (١٨٦/١)

(٣) –ابن سيد الناس: عيون الأثر (٢٣١/١وما بعدها)

كي لا تذهب سمعتها وهيبتها وبعدما أسلمت أسلم العرب فقد استمرت ملاحقة قريش للمهاجرين داخل المدينة ، وتهديد النبي ﷺ فقد اشتد خوفها وحرصها على القضاء على النبي وصحبه ؛ لذا بدأت المؤامرات تحاك للكيد بالمسلمين ، منها محاولة خطف بعض المهاجرين من داخل المدينة كما حصل من أبي جهل والحارث بن هشام مع عياش بن أبي ربيعة لذلك كان النبي يحرسه صحابته عند مقدمهم للمدينة خوفا من محاولات الاغتيال، إضافة إلى التضييق على كل مهاجر ، ومن أفلت بشيء من ماله لاحقته كما حصل مع صهيب ، وأرسلت للمسلمين تقول لهم : « **لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم**»[١] ، فخرج النبي ﷺ في بدر يريد قافلة ابي سفيان التي فيها أموال أصحابه التي نهبت في مكة لكنها تمكنت من النجاة ، فخرجت قريش رياء ومفاخرة بكامل قوتها حتى عبيدها خرجوا ،تريد إفناء العصبة الموحدة كي لا يعبد الله في الأرض فأذن الله لنبيه بالقتال : {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠)واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل } (البقرة) {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها }[النساء:٧٥] .

فنرى القتال لم يشرع إلا دفاعا عن النفس وما إلى ذلك من العرض والمال وما يذكر لرسول الله بالفخر والكرامة أنه في بدر ما أراد قتالا أو سفك دماء وأنه أرادها حربا اقتصادية لتهادنه قريش وتسمح له بنشر دعوته التي تمنعه من نشرها وليعوض عما ذهب وصودر من أموال أصحابه، وفي أحد أراد البقاء في المدينة والمحاصرة لدفع قريش بأقل خسائر، وفي الخندق اتخذ النبي موقف المدافع وفرّق قريشا بإنشاب خلاف بينهم كي لا تُزهق أرواح من الطرفين ، وعندما أراد فتح مكة أغلق وقطع الطرق الذاهبة إلى مكة وليفهم قريشا التي تطاولت على صلح الحديبية ولم تفِ بعهدها استخفافا وحقدا عندما رأت القبائل تدخل في دين الله بالإقناع والموعظة الحسنة.

أراد النبي دخول مكة دون أن تزهق أرواح أو تراق دماء فلما وصل قرب مكة جاءه أبو سفيان فقال النبي للعباس: **اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله** [٢] أراد النبي أن يقنع ابا سفيان بعدم جدوى المقاومة وهذا ما فعله أبو سفيان فقال لأهل مكة: **يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به** [٣]، وعهد النبي لأمرائه عند دخول مكة " **أن لا يقتلوا أحدا إلا من قاتلهم**[٤]" . كان النبي حريصا على عدم سفك الدم وهو حريص على سلامة الدماء ولو كان صاحبها على شركه ووثنيّته.

ألم يكن النبي محقا في محاربته لقريش، ألم يكن في موقف الدفاع أمام من ناصبوه العداء وحاولوا القضاء على رسالته ولم يراعوا فيه إلا ولا ذمة فأخرجوه وصحبه من ديارهم وصادروا أموالهم، استطاع بهذه الحروب أن يحرر الجزيرة العربية من الشرك والوثنية بأقل الخسائر وخلال مدة وجيزة فخلال مدة، إن حروب النبي لم يتجاوز قتلى الحروب من العرب أربعمائة وأربعين رجلا! فأي دعوة في العالم حققت مثل هذه الانتصارات في مثل هذه المدة الزمنية وبهذه القلة القليلة من الخسائر البشرية؟ [٥] هذا وقد **اعترف مرجليوث بأن محاربة النبي لقريش كان أمرا مشروعا وإنسانيا** [٦]. من خلال السرد الإجمالي لظروف حروب النبي مع المشركين يمكن استنتاج التالي: إنها حروب ألجأت لها الضرورة حيث لم يبق وسيلة غيرها

---

(١) –المنصور فوري: رحمة للعالمين (١/١١٦) نقلاً عن الرحيق المختوم (٢١٦)

(٢) –الطبري (٣ / ٥٤) والكامل (٢/١١٩)، وعيون الاثر (٢/١٧٠).

(٣) –الطبري (٣/٥٤) والكامل لابن الأثير (٢/ ١٢٠).

(٤) –الطبري والكامل (٢ /١٢١).

(٥) –راجع الاسلام في قفص الاتهام ص ٩٥–٩٨ ومقدمة كتاب غزوة بدر الكبرى لنفس المؤلف

(٦) –Muhammad and the Rise of Islam, David Samuel Margoliouth , pp. 462-3

إنها حروب من أجل السلام، إنها حروب تهدف من الدرجة الأولى حماية المسلمين من سطوة الظالمين الذين حاولوا بأي وسيلة سلب حريتهم الدينية ومصادرة أموالهم وبيوتهم بل مصادرة أرواحهم [١].

هذه أهم غزوات النبي ﷺمع المشركين، ويمكن النظر إلى سراياه بنفس المبدأ السابق خاصة أن الجزيرة العربية بحكم طبيعة أهلها وثقافتها قد ألفت القتال والاقتتال ، وتمرست في الهجوم على القبائل الضعيفة تستبيحها وتنهشها كلما سنحت فرصة لذلك ، وقد وصفت بعض الكتب العربي في جزيرة العرب بأنه لا ينام الليل ؛ لأنه إما يعد لمعركة يستبيح فيها قبيلة أخرى ، وإما يتهيأ لهجوم الغير عليه فهذه البيئة التي وجدت فيها نواة الدولة الإسلامية قد جعلتها عرضة للخطر من القبائل التي حولها ممن ألف السلب والنهب واعتبره مصدراً للرزق وشريانا للحياة خاصة بين الأعراب وقد ساعد عرب الجزيرة في تجرئهم على المسلمين كونهم مجتمعاً ناشئاً وغير مقبول في المحيط حوله خاصة عند أصحاب السيادة الدينية كقريش لذا بدأت غاراتهم على المدينة لاستباحة المسلمين أو على المسلمين خلال تنقلهم بين القبائل وهذا الوضع اقتضى من المسلمين توطيد كيانهم الجديد وحمايته ممن حوله لذا فرض الواقع عليهم خروج كثير من السرايا التأديبية بغرض حماية الرسالة وأهلها وبسط الهيبة في محيط الدولة الناشئة بل من تتبع أكثر سراياه يجد أن الهدف الأول فيها هو تحقيق الموادعة مع القبائل العربية المجاورة للمدينة أو بعبارة أخرى كانت سرايا تحقيق السلام في مجتمع ألف الحروب.

من خلال السرد الإجمالي السابق لظروف حروب النبي مع المشركين يمكن استنتاج التالي: **إنها حروب ألجأت لها الضرورة حيث لم يبق وسيلة غيرها. إنها حروب من أجل السلام. إنها حروب تهدف من الدرجة الأولى حماية المسلمين من سطوة الظالمين الذين حاولوا بأي وسيلة سلب حريتهم الدينية ومصادرة أموالهم وبيوتهم بل مصادرة أرواحهم.**

٢-أما بالنسبة لدواعي القتال مع أهل الكتاب:

من تتبع هدي النبي ﷺ يجد مدى حرصه على إقامة علاقة الود بينه وبين أهل الكتاب من يهود ونصارى من بداية دعوته، خاصة أن النبي ﷺكان امتداداً لأسرة الأنبياء عبر التاريخ والتي يعترف بها أهل الكتاب، بل كانت الآيات القرآنية تعزز معاني التراحم والموافقة والتآلف بين الرسالة المحمدية والرسالات السابقة من خلال سرد سير الأنبياء وقصصهم، وتعزيز ضرورة إما الإيمان برسالة الإسلام ، وإما مسالمتها كامتداد لرسالة السماء ، أو على الأقل الاعتراف بأحقيتها كرسالة سماوية ، فقد **تودد القرآن لأهل الكتاب ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . ﴾** [الأعراف:١٥٦].

فتحت الآية لأهل الكتاب باب الرحمة على مصراعيه مشيرة أن بإتباع النبي ﷺ الفلاح ووضع للإصر والأغلال التي كانت عليهم ، إضافة لتحليل كثير مما حرم عليهم ، ومذكرة لأهل الكتاب بأن وصف النبي ونعته موجود في التوراة والإنجيل، **وكذلك ضاعف القرآن الأجر لأهل الكتاب حال إيمانهم** : يقول الله سبحانه وتعالى : **﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ، أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ،وحرص الرسالة على الوحدة**

(١) -د. محمد احمد المبيض أخلاقيات الحروب في السيرة النبيوية ص: ٢٥.

وتعزيز معايير الالتقاء مع أهل الرسالات ،يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران:٦٣]، هذه الآية تضمنت دعوة لجمع الشمل بين أهل الكتب على موقف عدل الأصل أن يكون موطن اتفاق بينهم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع الأرباب والأنداد البشرية من دون الله سبحانه وتعالى .

وكان النبي ﷺوصحابته الكرام كانوا يميلون لأهل الكتاب في بداية الدعوة بحكم كون الرسالات جميعاً إنما تصدر من مشكاة واحدة ؛ لذا وجدنا حزن الصحابة في مكة على انتصار الفرس الوثنيين على الروم ، وجاءت الآيات لتطمئن الصحابة بانتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين ، وبينت فرح المؤمنين بهذا النصر ، أو بنصر بدر على اختلاف في التفسير ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾[الروم:٢-٥]، وقد راهن الصحابة منهم أبو بكر على عودة الكرة للروم ، وذلك قبل تحريم الرهان، حرص النبي ﷺ منذ قدومه للمدينة على تعزيز أواصر العلاقة بينه وبين أهل الكتاب ؛ لذا كان دائماً في بداية أمره يحب موافقة أهل الكتاب ومخالفة أهل الشرك ، ومن ذلك موافقته لهم في القبلة وصيام يوم عاشوراء وفي أمور أخرى غير ذلك ، ولتأكيد العلاقة قام بكتابة وثيقة مبنية على الاحترام المتبادل بين المسلمين ويهود المدينة بل تتضمن الالتزام بالدفاع المشترك عن المدينة، ومن حرص النبي على تعزيز العلاقة بينه وبين يهود المدينة كان النبي يعاملهم ويستدين منهم وقد مات ودرعه مرهونة عند يهودي، والمعلوم أن كثيراً من الصحابة كانوا أغنياء وكلهم يحرص على إقراض النبي ﷺ، بل الهبة له دون مقابل وكان النبي ﷺ يجد في مال أصحابه ما يكفيه عن الاستدانة من اليهود، لكن النبي رغب في الاستدانة منهم ليعزز العلاقة والمعاملة بين الملل وليبرز مظهراً من مظاهر سماحة الإسلام .

أكد النبي بين صحابته على ضرورة احترام أهل العهد وعدم الاعتداء عليهم أو انتقاص أي شيء من حقوقهم مهما كانت الأسباب يقول النبي الكريم: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا** » (١) «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » (٢) ففي الحديث الأخير نرى النبي قد ألبس نفسه ثوب المناصر والمدافع عن حقوق أهل الذمة أو أهل الكتاب، بل يحاجج عنهم ضد أتباعه يوم القيامة، إذا حصل من أتباعه أي ظلم نحوهم، كما حرص النبي على تأليف قلوب اليهود و تجنب مواطن الاختلاف بين صحابته ويهود المدينة إذا كان الأمر يحتمل ذلك ، واهتم النبي برعاية حقوق اليهود في المدينة وعدم إنقاص شيء منها والروايات كثيرة، وصبر النبي ﷺعلى إيذاء اليهود وعدم مقابلة إساءتهم بالإساءة من ذلك أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ قَالَتْ: «**دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكُمْ– أي أصابكم الموت –قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ : وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ**» (٣)، نلحظ من الفقرات السابقة أن النبيﷺ قد تعاطى مع اليهود بسماحة منقطعة النظير منها

(١) –أخرجه البخاري برقم ٣١٦٦ [البخاري مع الفتح (٦/٣١١)]
(٢) –أخرجه أبو داود في الخراج برقم ٣٠٣٦ [عون المعبود (٨/ ٣٠٤)]
(٣) –أخرجه البخاري برقم ٦٠٢٤ [البخاري مع الفتح (١٠/٤٦٣)]

موافقتهم في بعض الأمور ليجسر هوة الخلاف ومنها رعاية حقوقهم، والصبر على إيذائهم وتأليف قلوبهم والحرص على هدايتهم دون تعسف أو إكراه.

أما حروب النبيﷺ مع اليهود وكيف تعاطى اليهود مع رسالته فلنا معها وقفة طويلة في رد الشبهات: كان اليهود يعتقدون خروج النبي من نسلهم وكانوا يستفتحون على أهل يثرب به ، فلما جاء النبي من نسل إسماعيل كفروا به ، وتآمروا على رسالته منذ اللحظة الأولى التي نزل فيها محمد النبي المدينة ، عن أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: «**كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه فلما قدم رسول الله المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع فو الله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله!**» [(١)]

هذه القصة التي قدر الله أن تنكشف من خلال بنت زعيم اليهود بعد إسلامها تبرز أن العداوة لرسول الله ، والتآمر على رسالته كانت منذ اللحظة الأولى لقدوم النبي ﷺ على المدينة ، ويؤكد على مدلول هذه القصة القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ**﴾ [البقرة:٨٩] ، وبعد غزوة بدر وانتصار المسلمين تكشفت العداوة ، فخرج كعب بن الأشرف إلى مكة يؤلبها على المسلمين ويرثي قتلاها ورجع للمدينة يهجو النبي ﷺ ويتشبب في نساء المسلمين ، ولم يقتصر الأمر على موقف كعب بن الأشرف بل الموقف نفسه ظهر من أقوى قبائل اليهود وهم بنو قينقاع.

وبدأ النبي يشعر بمدى الزعزعة الفكرية والعقدية والسياسية التي يسعى اليهود لتحقيقها في المدينة المنورة ، وبإثارة القلاقل والشحناء ونعرات الجاهلية عند من أسلم من أهل المدينة ، وعلم النبي ﷺ بضرورة حسم الموقف مع يهود المدينة الذين بارزوا المسلمين العداء وتآمروا عليهم بالخفاء ، وبدأت الآيات القرآنية تكشف حقيقة اليهود مع أنبيائهم ، وإساءتهم لهم على مر التاريخ ؛ لذا لا يستبعد منهم نفس الموقف أو أشد منه مع النبي محمد ﷺ والذين آمنوا به [(٢)]، وتدرجت المواجهة مع اليهود بحسب المواقف الحاصلة: إجلاء بني قينقاع بسبب نقضهم العهد، إجلاء بني النضير بسبب محاولتهم قتل النبي ﷺ، غزوة بني قريظة التي ترتبت على الخيانة العظمى للمسلمين في ظرف من أصعب الظروف ، وهو تكالب الأحزاب وهجومها على المدينة، تحول مركز المؤامرات إلى خيبر التي أوت كل المحرضين ضد رسالة الإسلام ، وخروج عدة مؤامرات كادت تؤثر على المسلمين وكيانهم منها غزوة الأحزاب التي خرجت بذرتها من خيبر ، وكذلك تأليب القبائل للهجوم على المدينة عندما كان ذهب النبي وصحابته للعمرة .. إلى غير ذلك مما اقتضى حسم الموقف معهم كما حصل في غزوة خيبر.

---

(١) –ابن هشام: السيرة النبوية (٥٢/٣)

(٢) –قد يسأل سائل هنا قائلاً: أليست هذه الآيات التي بدأت تكشف حقائق اليهود بمثابة مادة تحريض عليهم ومقتضى السماحة يتطلب عدم وجود أي شكل من أشكال التحريض؟ نقول : لا يعتبر ذلك من باب التحريض ، بل من باب الدفاع عن الحق والحقيقة ، فالمعلوم أن اليهود استغلوا كونهم أهل كتاب ، وبدءوا يشككون في صاحب الرسالة ، واقتضى الأمر كشف حقيقة هذا التشكيك ودواعيه ، وإلا أثر سلبياً على أهل المدينة من الأنصار الذين آمنوا ابتداءً متأثرين بما سمعوه من اليهود عن قرب خروج نبي ، فإذا كان مصدر الفكرة يشكك في مصداقية النبي الذي آمنوا به ، فهذا يعزز البلبلة الفكرية والتشكك العقائدي عند الأنصار ؛ لكن إذا تبين لهم أن موقف اليهود هذا ليس مستحدثاً إنما هو امتداد لمسيرة تميزوا بها مع أنبيائهم قبل ذلك ، فذلك يذهب غمامة الحيرة والتشكك المتوقعة من شبهات اليهود حول مصداقية رسالة محمد ﷺ ، هذا من وجه ، ومن وجه آخر نجد أن القرآن الكريم في كل مادته التي كشفت حقيقة ماضي اليهود كان أهون خطباً من التوراة أو العهد القديم عند اليهود أنفسهم ، ومن تتبع أسفار الأنبياء المتأخرين في الرسالة الموسوية كسفر أشعياء وأرمياء يجد مادة مطولة في بيان حقيقة اليهود وسقطاتهم وانحرافهم ، وهذه المادة تفوق كل ما ذكر في القرآن في التوصيف والطعن بهم ، وهذه الطعون ما زالت مثبته في أسفار العهد القديم ؛ لذا كشف القرآن لهذه الحقائق إنما هو امتداد لأمر سبق وأن كشفته كتب اليهود أنفسهم ، وأقرت بحصوله منهم .

خلاصة القول: جاء النبي إلى المدينة، ومد يده لليهود مصافحاً وتحمل الأذى منهم مسامحاً، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه والتشكيك برسالته، استدار لهم وواجههم بما يليق وطبيعة جرمهم.

قال المستشرقون: "حاول محمدﷺ أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد !! وباستعمال وسائل غير مقدسة [١]" إن مرجليوث عذر النبي في حروبه لقريش ولحروبه ليهود المدينة لكن لم يعذره في غزوه لخيبر! أجلى النبي بني قينقاع عن المدينة بعد بدر لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم فمما قالوا: " يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة فلو حاربتنا لعلمت أنا الناس ويقول ابن الاثير [٢] فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه ثم يذكر قصة المرأة المسلمة التي تعرض لها اليهود في سوق قينقاع والنبي محق كل الحق في إجلاء بني النضير بعد أحد لتطاولهم وتآمرهم مع قريش ضد المسلمين ومحاولتهم اغتيال النبي وكذلك ببني قريظة بعد الخندق لنكثهم عهودهم مع النبي في أشد الساعات حرجا لاستئصال المسلمين بشكل تام بعد أن ساعدوا قريشا وحرضوها ضد النبي.

مع كل صلف اليهود واستكبارهم كان الرسول يرفق بهم إذا نقضوا عهدهم أو حاربهم فانتصر عليهم فكان لا يعاقبهم إلا بمقداء ما يكف أيديهم عنه وكان يحكّم فيهم من يختارونه بأنفسهم حكما عليهم بينه وبينهم ، وصفوة القول أن معاملة النبي إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها[٣]إن اليهود عزّ عليهم أن يروا أرستقراطيتهم مهددة باستقرار أمر العرب والتفافهم حول رسول الله فلا ضمان لمركزهم والأمر هكذا فكانوا ينقضون عهودهم في أحرج الاوقات ويمالئون أعداء المسلمين عليهم ليستأصلوا شأفتهم و يبيدوهم عن آخرهم حتى أنهم حاولوا قتل رسول الله مرتين مرة بفخذ شاة مسمومة ومرة بإلقاء حجر عليه من سطح دار كان جالسا في صحنها .[٤]

أما بالنسبة لخيبر فأمر مرجليوث عجب، إن التاريخ ينص بصراحة أن اليهود عندما أخفق العرب في القضاء على محمد ﷺ جمعوا شملهم وتحزّبوا أحزابا واستعدوا للإغارة على المدينة ليدهموا المسلمين فيها وعلم النبي بتأهبهم للإغارة والقضاء على الإسلام في معقله فعاجلهم وسار إليهم سار إلى خيبر صاحبة الزعامة والرأس المدبر ليهود المنطقة (يهود تيماء وفدك ووادي القرى ومهاجري يهود المدينة الذين استقروا فيها)، إن موقف يهود خيبر معروف حيال الدعوة وعداؤهم العلني العملي للإسلام ومكائدهم المتواصلة والتاريخ يدحض هوى مرجليوث فإن الرسول أتي بعين (جاسوس) فأقر أنه مرسل إلى خيبر يعرض معونة يهود فدك ونصرتها على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر والذي قبض على العين علي بن أبي طالب وقال العين: " إن جميع اليهود سيمدون خيبر بالمعونة [٥] " لكن شك مرجليوث في صدق ما قاله التاريخ لأن صدق التاريخ في هذه الحالة يدحض دعواه ويصد هجماته على النبي .

٣–أما حروب النبيﷺ ضد الغساسنة وأسيادهم الروم:

كانت الجبهة الشمالية ناحية الشام تراقب هذا الكيان الناشئ ، وبدأت تشعر بخطره عليها ، وبدأ عرب الشام بإشعال فتيل الصراع بين المسلمين والروم البيزنطيين من خلال عدة تحرشات ومضايقات بالمسلمين ، كان أهمها إيذاء التجار المسلمين الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة ، وكان وراء هذه المضايقات قبيلة كلب بدومة الجندل ، فقام النبي ﷺ بغزوها ، لكنهم تفرقوا ولم ينل منهم النبي ﷺ ، ثم حصل الموقف نفسه من قبيلتي جذام ولخم اللتين قطعتا الطريق على المسلمين واستلبت كل ما معهم ،فأرسل عليهم النبي ﷺ زيد بن حارثة في سرية سنة ٦هـ [٦]،

---

(١)–يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية ص١٥، ٢٢.
(٢) –الكامل لابن الأثير (٣٠/٢). دار الكتاب العربي بيروت طبعة ١٩٩٧.
(٣) –د حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام: ١ / ١٣٢.
(٤) –المنتظم لابن الجوزي (٢٩٧/٣) و (٢٣٧/٤) دار التراث العربي وتاريخ الاسلام للذهبي (٢٥١/٢) طبعة التوفيقية.
(٥) –د. حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام ١٣٤/١.
(٦) –انظر الحلبي: السيرة الحلبية (١٧٩/٣)

وبعد صلح الحديبية بدأ يأخذ هذا المسلك العدواني منحى أكثر خطورة عندما بدأ النبي ﷺ يرسل برسائله للملوك ؛ حيث أرسل الحارث بن عمير الأزدي إلى حاكم بصرى التابع للروم ، فقام شرحبيل بن عمرو الغساني بربطه وقتله بسابقة لم تعهد من قبل بقتل السفراء ، وقد تضمن هذا الاعتداء السافر استهانة بمرسله وبمن وراءه واحتقاراً لجمعهم ، من ينزع مني ملكي أنا ذاهب إليه[١] مع أنّ النبي ما أراد منه ملكه بل أراد هدايته واسلامه لينتشر الإسلام في الشام والبلقاء، وزاد الطين بله أن حاكم دمشق أساء استقبال موفود النبي ﷺ وهدد بإعلان الحرب على المدينة ، وقام نصارى الشام بزعامة الإمبراطورية الرومانية بالاعتداء على كل من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك ، فقد قتلوا والي معان حين أسلم ، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام[٢]، وهكذا بدأ يتفاقم الخطر الشمالي على كيان المسلمين ، ورأى النبي ﷺ أن هناك ضرورة لوضع حد لهذه التصرفات من خلال سرية تأديبية تثأر لمقتل الحارث بن عمير وغيره من المسلمين ، ويضمن خلالها النبي فرض نوع من الهيبة للمسلمين تحول دون تكرر هذه الأحداث المؤلمة مع أتباعه، أعد النبي ﷺ جيشاً لهذه المهمة قرابة الثلاثة آلاف جندي ، وجعل مولاه زيداً أميراً عليه فإن استشهد خلفه جعفر بن أبي طالب فإن استشهد خلفه عبد الله بن رواحة ، و أمرهم أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير ﷺ وأن يدعو من كان هناك للإسلام فإن أبو قاتلوهم ، وهذه السرية تعرف بسرية مؤتة حيث تفاجأ المسلمون بجيش عرمرم من الروم ومتنصرة الشام وحصلت مواجهة انتهت باستشهاد القادة الثلاثة وتسعة آخرين، وانتهت القيادة لخالد بين الوليد الذي أعد لانسحاب آمن في معركة غير متكافئة . [٣]

سرية مؤتة فتحت باب المواجهة مع الروم: كان لسرية مؤتة الأثر الكبير على المسلمين خاصة بعد استشهاد قادة الجيش الثلاثة ، وكانت مشاركة الروم في هذه الحرب بمثابة إعلان الحرب من جانبها على المسلمين ، بل ضخامة الإعداد العسكري من قبل الروم يقتضي استئصال الجيش الإسلامي عن بكرة أبيه ، لكن الله سبحانه وتعالى سلم، ومن ناحية أخرى لم تحقق هذه السرية نتائجها المرجوة من بسط الهيبة بما يضمن نوع من الحماية للمسلمين خلال تنقلهم في مناطق الروم في الشام ، ورافق ذلك دلائل أخرى تشير إلى أن الروم يعدون جيشاً لغزو المسلمين ، حيث علم النبي ﷺ من خلال التجار الأنباط أن الروم جمعت جموعاً لغزو المدينة ومعهم كثير من مستنصرة العرب كلخم وجذام ، وأن مقدماتهم قد عسكروا في البلقاء[٤]، لذا قرر النبي أن يتحرك بنفسه لفرض هيبة المسلمين في تلك الناحية فحرك أكبر جيش انتظم تحت لوائه ، وهو قرابة الثلاثين ألفاً ، وهو ما يعرف في السيرة بغزوة تبوك ، حيث توجه النبي نحو تبوك على ثخوم الشام، ومكث النبي فيها قرابة العشرين يوماً ، ولم يجد أثراً للحشود الرومانية ولا القبائل العربية ، وبالرغم من طول مكثه فإن القيادة الرومانية لم تفكر مطلقاً في الدخول في صراع مع المسلمين ، وآثرت القبائل العربية السكون والكمون ، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية للمسلمين من هؤلاء ملك إيلة الذي أرسل بهدية لرسول الله وصالحه على الجزية ، وكتب رسول الله معاهدات مع كلٍ من أهل جرباء وأذرح ومقنا ، يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام وتخضع لسلطان المسلمين ، وأرسل النبي سرية بقيادة خالد إلى دومة الجندل واستطاع خالد أن يأسر ملكها الأكيدر ويأتي به للنبي، فصالح الأكيدر النبي على دفع الجزية وهكذا استطاع النبي أن يؤمن حدود الجبهة الشمالية ، ويبسط هيبة المسلمين فيها ويضمن الحماية للتجار المسلمين ولمن أسلم في تلك الناحية من عدم تعرضه للإيذاء أو التعذيب ، ونلحظ على هذه الغزوة أنها لم يحصل فيها قتال أما السرايا التي خرجت منها فكان الهدف الأول

---

(١) –ابن كثير البداية والنهاية (٢٠٤/٤) احياء التراث العربي والطبري وابن الاثير.
(٢) –انظر الحلبي: السيرة الحلبية (٧٨٦/٢) الذهبي: تاريخ الإسلام (٤٧٩/٢) المباركفوري: الرحيق المختوم (٤٣٥)
(٣) –انظر ابن هشام: السيرة النبوية (٢٢/٥ وما بعدها) ابن سيد الناس: عيون الأثر (١٦٥/٢) الحلبي: السيرة الحلبية (٧٨٦/٢) .
(٤) –انظر الملاح: الوسيط في السيرة النبوية (٤٨٤)

منها تحقيق الموادعة والسلام مع أمراء تلك المناطق ، فهي حرب باردة من أجل السلام [١] ومع بقاء التهديد الروماني للمسلمين في تلك الناحية أعد النبي ﷺ جيشاً آخراً للمواجهة مع الروم واختار له أسامة بن زيد ﷺ قائداً ، وعاجلته الوفاة قبل خروج الجيش فأوصى في لحظاته الأخيرة بإنفاذه ، فأكمل خلفاؤه بعده المسيرة التي انتهت بفتح الشام ومصر

الخلاصة: كانت الجبهة الشمالية ناحية الشام تراقب هذا الكيان الناشئ ، وتشعر بخطره عليها ، وبدأ عرب الشام بإشعال فتيل الصراع بين المسلمين والروم البيزنطيين من خلال عدة تحرشات ومضايقات بالمسلمين ، كان أهمها إيذاء التجار المسلمين الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة ، وكان وراء هذه المضايقات قبيلة كلب بدومة الجندل ، فقام النبي ﷺ بغزوها ، لكنهم تفرقوا ولم ينل منهم النبي ﷺ ، ثم حصل الموقف نفسه من قبيلتي جذام ولخم اللتين قطعتا الطريق على المسلمين واستلبت كل ما معهم ،فأرسل عليهم النبي ﷺ زيد بن حارثة في سرية سنة ٦هـ[٢] وقام نصارى الشام بزعامة الامبراطورية الرومانية بالاعتداء على كل من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك ، فقد قتلوا والي معان حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام[٣] علم النبي ﷺ من خلال التجار الأنباط أن الروم جمعت جموعاً لغزو المدينة ومعهم كثير من متنصرة العرب كلخم وجذام ، وأن مقدماتهم قد عسكروا في البلقاء[٤] استطاع النبي ﷺ أن يؤمن حدود الجبهة الشمالية ، ويبسط هيبة المسلمين فيها ويضمن الحماية للتجار المسلمين ولمن أسلم في تلك الناحية من عدم تعرضه للإيذاء أو التعذيب ، ونلحظ على هذه الغزوة أنها لم يحصل فيها قتال ، أما السرايا التي خرجت منها فكان الهدف الأول منها تحقيق الموادعة والسلام مع أمراء تلك المناطق ، فهي حرب باردة من أجل السلام[٥] ومع بقاء التهديد الروماني للمسلمين في تلك الناحية أعد النبي ﷺ جيشاً آخراً للمواجهة مع الروم واختار له أسامة بن زيد ﷺ قائداً ، وعاجلته الوفاة قبل خروج الجيش فأوصى في لحظاته الأخيرة بإنفاذه، فأكمل خلفاؤه بعده المسيرة التي انتهت بفتح الشام ومصر[٦]

(١) –انظر أبو شهبة: السيرة النبوية القرآن والسنة (٥٠٣/٢)
(٢) –انظر الحلبي: السيرة الحلبية (١٧٩/٣)
(٣) –انظر الحلبي: السيرة الحلبية (٧٨٦/٢) الذهبي: تاريخ الإسلام (٤٧٩/٢) ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم (٤٣٥)
(٤) –انظر الملاح: الوسيط في السيرة النبوية (٤٨٤)
(٥) –انظر أبو شهبة: السيرة النبوية القرآن والسنة (٥٠٣/٢)
(٦) –د. محمد أحمد المبيض أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ص ١٨–٢١

البحث الرابع: محمد صاحب ثقافة السلام، وفرية السيف بأقلام المؤرخين الغربيين.

لخاتم النبيين الفضل الأعظم في نشر ثقافة السلام في ربوع الجزيرة العربية، التي عاشت عدة قرون في حروب طاحنة ومعارك على أتفه الأسباب، وكثرت حروب "الفجار" التي انتهك أصحابها حرمة البلد الحرام [١]، إن إقرار السلام في منطقة الجزيرة العربية الذي حققه محمدﷺ يعد بحق مظهراً مهماً من مظاهر الرحمة، فقد شهدت الجزيرة العربية في عهد محمدﷺ عدة معاهدات سلمية، مما يبين فضل رسول الله في نشر ثقافة السلام بين العرب بعد قرون طويلة من الجاهلية والحروب الأهلية، وفضله في حقن الدماء وحفظ الأعراض والمقدسات، التي كانت منتهكة في عصور الجاهلية، ولم تحدث أي حروب أهلية —في الجزيرة العربية–بعد ظهور محمدﷺ وتسلمه زمام قيادة العرب.

لما بلغ محمد من عمره الخامسة والثلاثين—أي قبل بعثته بخمس سنين–تعرضت الكعبة للهدم بسبب سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، فعمدت قريش إلى بنائها، فلما تنازع القرشيون فيما بينهم من الذي يضع الحجر الأسود في مكانه واختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكِّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد[٢]، فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك محمد ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين[٣]، قد رضينا به هذا محمد[٤]، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه[٥] وهذا حل حكيم من رجل حكيم تراضت قريش بحكمه.

ولقد راح المفكرون والعلماء، يعلقون على هذا الحادث بتعليقات مليئة بالتقدير والإعجاب لهذه الشعلة العبقرية التي تحاول في حرص شديد دائم على تحقيق الأمن والسلم بين الناس، وعن نجاح محمدﷺ من تفهم الموقف بسرعة عظيمة، والتوسل بهذه الحيلة البريئة وإرضاء زعماء قريش جميعاً، فقد استرعت هذه الحادثة انتباه الباحث الألماني أغسطينوس موللر (١١٤٨-١٨٩٤)، فتوقف عندها ملياً في كتابه "الإسلام "، وتعرض لسياسة النبيﷺ في هذا المقام وأنه "أدهش قريشاً بسياسته الرشيدة "[٦]، كما توقف عندها الأب المتعصب هنري لامنس فقال: " لما اختلفت قريش في قضية بناء الكعبة، وأي فخذ منها يجب أن يعهد إليه بوضع الحجر الأسود في مكانه، وكادوا يقتتلون، فاتفقوا على أن يعهدوا بذلك إلى محمد بن عبد الله الهاشمي، قائلين: هذا هو الأمين!" [٧] .

١–نماذج المعاهدات مع القبائل المجاورة للمدينة: عقد النبي في العام الثاني من الهجرة المعاهدات مع القبائل المجاورة للمدينة لا سيما تلك القبائل التي كانت على الطريق التجاري المؤدي إلى الشام وذلك من أجل أربعة أهداف:

الأول: تحييد هذه القبائل في قضية الصراع بين المسلمين والمشركين، وألا يكونوا يدًا مع المشركين على المسلمين،

والثاني: تأمين الحدود الخارجية للدولة،

والثالث: اعتراف هذه القبائل بدولة المسلمين،

---

(١) –أرجو ألا نفهم من ذلك أن رسول الله رجل سلام وفقط، بل كان رجل حرب أيضًا، فكان رائدا في ميدان القتال والبأس ورائدا في ميدان الصلح والسلام.
(٢) –ابن سيد الناس: عيون الأثر ١\ ٧٥
(٣) –الحاكم: المستدرك، ١ \ ٦٢٨ من حديث عبد الله بن السائب، برقم ١٦٨٣
(٤) –الطبري: تاريخ الأمم والملوك (١\٥٢٦)، وابن كثير: البداية والنهاية، ٢\٣٠٣
(٥) –انظر في هذه الحادثة أيضاً: محمد بن يوسف الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٢\ ١٧١، وابن الجوزي: صفة الصفوة،١\ ٧٧
(٦) –انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ص ٢٢، ٢٣.
(٧) –هنري لامنس: عهد الإسلام، ص٦٥

أما الرابع: تهيئة هذه القبائل لقبول الإسلام، والدخول فيه.

نماذج لهذه المعاهدات: أولاً: مُوَادَعَةُ بَنِي ضَمْرَةَ

وَهُمْ بَطْنٌ مِنْ كِنَانَةَ وَكَانَ نص وثيقة الْمُوَادَعَةِ على النحو التالي: "بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ. هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ لِبَنِي ضَمْرَةَ، فَإِنّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَنّ لَهُمْ النّصْرَ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ -إلا أَنْ يُحَارِبُوا فِي دِينِ اللّهِ - مَا بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً[١] وَإِنّ النّبِيّ إذَا دَعَاهُمْ لِنَصْرِهِ أَجَابُوهُ، عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ذِمّةُ اللّهِ وَذِمّةُ رَسُولِهِ، وَلَهُمْ النّصْرُ عَلَى مَنْ بَرّ مِنْهُمْ وَاتّقَى"[٢]، وكانت هذه المعاهدة عقب أول غزوة للنبي وهي الأبواء أو ودان (في صفر ٢هـ) ، كما عقد النبي معاهدة مع بَنِي مُدْلِجٍ[٣] في (جمادي الأولى ٢هـ) ، وكانت على نفس النحو من وثيقة بني ضمرة .

ثانيًا: مُوَادَعَةُ جهينة: وهذه القبيلة تسكن منطقة العيص على ساحل البحر الأحمر، وكان نص هذه المعاهدة: "إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل، ولأهل باديتهم من بر منهم واتقى ما لحاضرتهم"[٤]، وقد دلت هذه الوثائق على مقتضيات أخلاقية سامية، فنرى فيها الرسول القائد السمح يوادع هذه القبائل على النصرة المتبادلة في المعروف، ويضمن لهم النبي الأمن والأمان على الأموال والأنفس، ويظهر لهم النبي أخلاق الإحسان والصلة.

نموذج في معركة الأحزاب: ومن المواقف التي تدل على حرص محمد ﷺ على السلام، ما حدث في معركة الأحزاب (في شوال ٥ هـ\ مارس٦٢٧م) ، حيث حاصر المشركون المدينة المنورة، فلما اشتد على المسلمين الحصار و البلاء بعث رسول الله إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان في جيش الأحزاب وعرض عليهما النبي ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فأحضر النبي ﷺ الصحيفة والدواة، وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة، وهو يريد أن يكتب الصلح بينهما، وعباد بن بشر قائم على رأس النبي مقنع في الحديد.. ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة. فلما أراد رسول اللهﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فذكر لهما ذلك، واستشارهما فيه[٥]، فرفضا هذه الفكرة، ونزل النبي على رأي الجماعة، فلم يتم هذا الصلح! ولكن الشهاد في هذا الموقف، هو حرص النبي الدائم في تجنب الحل العسكري، قدر الإمكان، وميله الدائم نحو الحل السلمي.

نموذج معاهدة الحديبية: لأول مرة تشهد الجزيرة العربية مثل تلك المعاهدة المحمدية التي نادى بها النبيﷺ وأبرمها في ذي القعدة سنة ست من الهجرة (مارس٦٢٨ م)، وهي معاهدة صلح الحديبية، رغم ما كان من بنود مجحفة بالمسلمين في هذا الصلح، وإن المتأمل لأحداث صلح الحديبية يتبين له إصرار النبي على تحقيق السلام، وأنه كان دائماً يجنح للسلم إن هيئت له أسباب إقامة السلام في أي وقت، فعندما قصد رسول ﷺ العمرة مع أصحابه، في العام السادس من الهجرة، أبت قريش أن تسمح للنبي وأصحابه بإداء عبادة العمرة، وهذا الفعل من القريشيين يعد جريمة كبرى في عرف العرب، إذ كيف يُصد عن البيت الحرام من جاء معظماً له !!

وعرفت قريش ضيق الموقف، فأسرعت إلى بعث سُهَيْل بن عمرو– متحدثًا رسميًا لها -للتفاوض مع النبي حول عقد الصلح، وأكدت له أن يكون في شروط الصلح : أن يرجع عن مكة عامه هذا دون عمرة، ففي ذلك –كما يرى القرشيون-جرح لمشاعر المشركين بعدما انتصر عليهم المسلمون في معركة بدر انتصارًا ساحقًا ، وحتى لا تتحدث العرب

---

(١) -دلالة على تأبيد هذا العقد، وفيه جواز تأبيد المعاهدات بين المسلمين وغير المسلمين ما لم يكن في هذه المعاهدات ما يخالف الشرع.

(٢) -السهيلي: الروض الأنف ٣/ ٣٨

(٣) -ابن سيد الناس: عيون الأثر ١ / ٣٠٠

٤ انظر: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، ص٦٢. وانظر إلى المزيد والمزيد من هذه المعاهدات في هذا الكتاب الفريد.

(٥) -انظر: ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٢٠١، ومحمد بن يوسف الصالحي: سبل الهدى والرشاد ٤ / ٣٧٦

أن محمدًا ﷺ دخل مكة وأدى العمرة رغمًا عن المشركين، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه ﷺ قال: "قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل"[١]، فجاء سهيل فتكلم طويلاً، ثم اتفقا على قواعد الصلح، وهي هذه[٢]:

البند الأول: الرسول ﷺ يرجع من عامه هذا، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرُب، ولا يتعرض لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

البند الثاني: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

البند الثالث: من أحب أن يدخل في عقد محمدﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

البند الرابع: من أتي محمداﷺ من قريش من غير إذن وليه . أي هارباً منهم رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمدﷺأي هارباً منه لم يرد عليه ثمُ دعي علي بن أبي طالب ليكتب مسودة المعاهدة، وكره سهيل بن عمرو . مبعوث القريشيين أن يكتب في صدر الوثيقة " محمد رسول الله " وأبى عليّ بن أبي طالب، وهو كاتب الوثيقة، أن يمحو بيده " رسول الله "، فمحا النبي هذه الصفة بيده الكريمة، وأمر الكاتب أن يكتب " محمد بن عبد الله "[٣] وهذا الموقف يدل على سماحته في التفاوض ثم تمت كتابة الوثيقة، ولما تم الصلح دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب، فكان دخولهم في هذا العهد تأكيداً لذلك الحلف القديم . ودخلت قبيلة بنو بكر في عهد قريش[٤].

نموذج الصلح مع أهل خيبر: لما استسلم يهود خيبر (في المحرم ٧ هـ / مايو ٦٢٨)، في نهاية معركة رسول الله معهم صالحهم صلى الله عليه وسلم وأعطاهم الأرض يَعْمَلُوا فيها وَيَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا [٥]، وفي هذه المصالحة–بهذا الشكل–رحمة وعفو كبيرين بأهل خيبر، فهم في الحقيقة يستحقون الإعدام! فهم قد خانوا النبيﷺ وغدروا وتحالفوا مع مشركي قريش سرًا، وأصبحت قيادات خيبر والفصائل اليهودية الأخرى عملاء وجواسيس لمشركي مكة وغطفان كل هذا إلى جانب أنهم السبب الرئيسي في تحزيب جيوش الأحزاب من كل حدب وصوب ولما أقدمت امرأة منهم على محاولة اغتيال النبي حيث أهدت لِرَسُولِ اللَّهِ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ[٦]، وتُوفي اثر هذه المحاولة الفاشلة أحد الصحابة لم ينقلب رسول الله على أهل خيبر ولم يعمل فيهم القتل كما يفعل بعض الزعماء في مثل هذه المواقف إنما أثبت الصلح وأقر العهد.

٢–فرية العنف ونشر الإسلام بالسيف بأقلام المنصفين من المؤرخين الغربيين:

تم تخصيص فصل كامل للرد على الشبهات المثارة على جهاد وحروب النبي، والحق أن رجالات العلم والفكر الحر في أوربا قد ردوا على هذا الزعم، وفندوه منهم:

العلامة لويس سيديو: وكان من أبرز المدافعين والمظهرين بطلان ما نفثته أقلام الحاقدين، المؤرخ الفرنسي العلامة لويس سيديو حيث قال: "من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكُتّاب إلى محمد القسوة فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يأل جهداً في إلغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة التي كانت ذات حظوة لدى العرب، كحظوة المبارزات

---

(١) –صحيح رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩\ ٢٢٠)، وهو في الإرواء (١\ ٥٧).
(٢) –انظر: السهيلي: الروض الأنف ٤\ ٤٨، وابن هشام\ ٣١٦، وابن كثير: السيرة النبوية ٣\ ٣٢٠.
(٣) –انظر: ابن حزم: جوامع السيرة ١ / ٢٠٩.
(٤) –انظر: محمد بن يوسف الصالحي سبل الهدى والرشاد ٥\ ٥٢.
(٥) –صحيح البخاري –(٣٩١٧)
(٦) –صحيح البخاري –(٣٩١٨)

بأوربة فيما مضى. وكأن أولئك الكُتّاب لم يقرأوا آيات القرآن التي قضى محمد[بها] على عادة الوأد الفظيعة وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على ألد أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها ، كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، وكأنهم لم يعلموا أن محمداً لم يسئ استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم قضاء لشهوة القسوة الدنيئة وأنه لم يأل جهداً –في الغالب –في تقويم من يجور من أصحابه، والكل يعلم أنه رفض–بعد غزوة بدر– رأي عمر بن الخطاب في قتل الأسرى ، وأنه عندما حل وقت مجازاة بني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة وأنه لم يرفض–قط–ما طلب إليه من اللطف والسماح"[١] .

الدكتورة كارين أرمسترونج: تقول الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج في مقدمة كتابها (سيرة النبي محمد): "من الخطأ أن نظن أن الإسلام دين يتسم بالعنف أو بالتعصب في جوهره، على نحو ما يقول به البعض أحياناً، بل إن الإسلام دين عالمي، ولا يتصف بأي سمات عدوانية شرقية أو معادية للغرب"[٢]، وتبين أن السبب في إلقاء هذه التهمة على النبي من قبل بعض الغربيين، إنما هو بسبب أحقاد قديمة، فتقول: "إننا في الغرب بحاجة إلى أن نخلِّص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة، ولعل شخصاً مثل محمد يكون مناسباً للبدء! فقد كان رجلاً متدفق المشاعر وقد أسس ديناً وموروثاً حضارياً لم يكن السيف دعامته، برغم الأسطورة الغربية، وديناً اسمه الإسلام؛ ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق !! "[٣].

رد الكاتب الألماني ديسون: يقول المفكر "ديسون "من الخطأ أن يصدق المرء ما يروِّج له البعض من أن السيف كان المبشر الأول في تقدم الإسلام وتبسطه، ذلك أن السبب الأول في انتشار الإسلام يعود إلى هذه الأخوة الدينية الفريدة، وإلى هذه الحياة الجديدة الاجتماعية التي دعا إليها ومكَّن لها، ثم إلى هذه الحياة الشريفة الطاهرة التي راح يحياها محمد وخلفاؤه من بعده، والتي بلغت من العفة والتضحية حداً جعل الإسلام قوة عظيمة لا تُغلب"[٤].

رد المفكر الهولندي دوزي: يقول مبينًا ومؤكدًا أن النبي لم يجبر أحدًا على اعتناق الإسلام فيقول في كلمات محددة جازمة: " لم يُفرض فرضاً على أحد !!"[٥]، فلم يثبت ولو في مرة واحدة في تاريخ عهد النبيﷺ أن أجبر أي إنسان على اعتناق الإسلام ولو بالضغط النفسي، فضلاً عن استخدام العنف أو السيف.

رد المؤرخ الكبير جوستاف لوبون: "لم ينتشر الإسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ولم يكن الإسلام أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط"[٦]، ويقول: "إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار الإسلام، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم"[٧].

رد الكاتبة الايطالية لورافيشيا فاغليري: وتبين لورافيشيا فاغليري أن" الإسلام لايبيح امتشاق الحسام إلاّ دفاعاً عن النفس وهو يحرم العدوان تحريماً صريحاً وأباحت الشريعة القتال للمسلمين دفاعاً عن حرية الضمير لإقرار السلم، واستتاب الأمن والنظام"[٨]. كما حدث في معارك عديدة، كمعركة بدر، ومعركة أُحد ومعركة الأحزاب فكلها معارك دفاعية، أقل ما يقال فيها أنها معارك دفاع عن النفس، أو كما حدث في معارك أخرى، كمعركة قينقاع، ومعركة النضير

(١) –لويس سيديو، بتصرف: (نقلا عن كتاب الإسلام بين الإنصاف والجحود ص ١٣٤).
(٢) –كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص١٩
(٣) –كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص٣٩٣.
(٤) –ديسون: محمد بن عبد الله، ٥٩
(٥) –دوزي: ملحق وتكملة القواميس العربية، مقدمة الكتاب
(٦) –جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ص١٢٨–١٢٩
(٧) –جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١٢٧
(٨) –لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام ١١، ١٢

ومعركة قريظة، ومعركة خيبر، فهي معارك جاءت نتيجة للخيانة، والتحالف ضد المسلمين، ونقض العهود، ومحاولات عديدة لاغتيال النبيﷺ.

رد العلامة توماس كارلايل: "إن اتهام محمد بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته؛ سخف غير مفهوم!!"(١) ويقول مفصلاً: "لقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه، فذلك أشد ما أخطأوا وجاروا، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق. والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد–فرد ضد العالم أجمع–فإذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع! وأرى–على العموم–أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال، أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون! وأنا لا أحفل إذا كان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أو بأية آلة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تُهزم إلا ما كان يستحق أن يُهزم وليس في طاقتها قط أن تقضي على ما هو خير منها بل ما هو أحط وأدنى "(٢) فإنها حرب لا حكم فيها إلا لله الذي أرسل الرسل ذاتها ونعم الحكم ما أعدله وما أقسطه، إذا كان من عند الخالق!

يتحدث الباحث "وليم موير" عن معاملة النبي أعداءه تلك المعاملة التي اتسمت بالرحمة والعفو، حين فتحه مكة (في رمضان ٨هـ/ يناير ٦٣٠ م)، فيقول: "عامل حتى ألد أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالاً وامتنعوا من الدخول في طاعته، كما ظهر حلمه وصفحه في حالتي الظفر والانتصار، وقد دانت لطاعته القبائل التي كانت من قبل أكثر مناجزة وعداء له "(٣).

كذلك يقول واشنجتون إيرفنج(٤): "كانت تصرفات الرسول في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو"(٥)، فهو الفاتح الرحيم، بالحق والعدل، لا الغازي الطاغية أو الظالم.

"وفي إمكان المرء أن يتخيل المعاملة التي كان يجدر بفاتح دنيوي النزعة أن يعاملهم بها. ولكن صفح الرسولﷺ كان لا يعرف حدوداً. فقد غفر لهم ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والتآمر "(٦)، وهم الذين عذبوه وعذبوا أصحابه وهجَّروه وهجّروا أصحابه، وقتلوا منهم نفراً ليس بالعديد القليل، يقول "جان باغوت غلوب" معقباً " وهكذا تم فتح مكة دون إراقة دماء إلى حد كبير ... إلا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو في يوم انتصاره"(٧)

هذا، ويقول المستشرق إميل درمنغم متحدثاً عن الفاتح والقائد الرحيم نبينا محمدﷺ في حال انتصاراته: "فقد برهن في انتصاره النهائي، على عظمة نفسية؛ قلَّ أن يوجد لها مثال في التاريخ؛ إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حال الضرورة القاهرة، بل رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً ويقول لهم: إن نفساً

---

(١) –انظر: عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ٢٢٧

(٢) –توماس كارلايل: الابطال، ص ٧٦

(٣) –وليم موير: حياة محمد، ٨٨

(٤) –واشنجتون إيرفنج: مستشرق أمريكي، أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (١٨٤٩)، و(فتح غرناطة) (١٨٥٩)، وغيرها.

(٥) –واشنجتون إيرفنج: حياة محمد، ص ٧٢

(٦) –مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته، ص ٢٦٩–٢٧٠.

(٧) –جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٥٦–١٥٧.

واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء! "[١] .

"وهكذا ظهر الرسولﷺ الذي كان رحمة للعالمين، وحرر الإنسانية من أصفاد الجهل والخرافة والفساد"[٢]، بل ظهر كما وصفه المفكر البلجيكي هنري ماسيه: "يتصف بالرحمة الخالصة"[٣]. تلك الرحمة الخالصة التي غلبت دوماً – كما يبين مارسيل بوازار – على أحاديث النبيﷺ وسيرته، فلا "تنفك الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية تصور في الأذهان كرم الرسول وتواضعه، كما تصور استقامته ونقاءه ولطفه وحلمه، وكما يظهره التاريخ قائداً عظيماً ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحاً قوي الشكيمة (ديمقراطياً)." [٤] .

وفوق أخلاق الرحمة التي تخلق بها النبيﷺ لما انتصر على أعدائه وتمكن منهم، في المعارك والفتوحات، نراه أيضاً رحيماً بمجرمين وأعداء – داخل الدولة –أمضوا حياتهم في دس الفتن بين المسلمين، والعمل الدائب من أجل هدم الدين والدولة، فضلاً عن عمالة هؤلاء المجرمين لأعداء المسلمين خارج حدود الدولة.

يقول " محمد علي": "وسماحة الرسول نحو أعدائه يعز نظيرها في تاريخ العالم. فقد كان عبد الله بن أبي عدواً للإسلام، وكان ينفق أيامه ولياليه في وضع الخطط لإيقاع الأذى بالدين الجديد، محرضاً المكيين واليهود تحريضاً موصولاً على سحق المسلمين. ومع ذلك فيوم توفي عبد الله دعا الرسول ربه أن يغفر له، بل لقد قدم رداءه إلى أهله كي يكفنوه به"[٥].

إن نبي الرحمةﷺ لم ينتقم في أيما يوم من الأيام من امرئ أساء إليه! صحيح أنه أنزل العقوبة ببعض أعدائه في أحوال نادرة جداً، وفي فترات جد متباعدة. ولكن تلك الحالات كانت تنطوى كلها على خيانات بشعة قام بها أناس لم يعد الصفح يجدي في تقويمهم وإصلاحهم. والحق أن ترك أمثال هؤلاء المجرمين سالمين غانمين كان خليقاً به ألا يظن البعض أنه استحسن الأذى والإفساد، والرسول ﷺ لم يلجأ إلى العقوبة قط حيثما كان ثمة مجال لنجاح سياسة الصفح كرادع إن لم نقل كإجراء إصلاحي[٦].

٣–فرية حول القتل الجماعي ليهود بني قريظة:

معروف لدى كتب التاريخ أن يهود قريظة كانوا فصيل من فصائل المدينة المنورة، ومعروف أنه بمجرد قدوم النبيﷺ المدينة عقد بينه وبين اليهود الموجودين بها معاهدة تنظم الشأن العام الداخلي والخارجي للمدينة. وكان من بنود هذه المعاهدة: التزام كل أبناء المدينة بما فيهم المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر، والتزام الدفاع المشترك عن المدينة ضد أي اعتداء خارجي على المدينة.

وحدث في شوال ٥ هـ أن مر المسلمون بظروف قاسية عندما تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش التحالف المشركة بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل، من مشركي قريش وأشجع وغطفان وبني سليم وأسد وفزارة على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل، وكان المتوقع أن ينضم يهود بني قريظة إلى صفوف المسلمين ضد القوات المحتلة لحدود المدينة، بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين لكن الذي حدث هو عكس هذا، فقد فوجئ المسلمون ببني قريظة يخونهم في أخطر أوقات محنتهم، ولم يرعوا للجوار حقاً، ولا للعهود حرمة، بل كانوا يسعون من وراء انضمامهم هذا إلى صفوف القوات الغازية التعجيل بالقضاء على المسلمين ودولتهم الناشئة !

---

(١) –انظر: بشرى زخاري ميخائيل: محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل، ص٥٠.
(٢) –مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته، ٢٨٢.
(٣) –هنري ماسيه: الإسلام، ص ١١.
(٤) –مارسيل بوزار: إنسانية الاسلام، ص ٤٦.
(٥) –مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته، ص ٢٦٩–٢٧٠.
(٦) –انظر: مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته، ص ٢٦٩–٢٧٠.

أحدثت هذه الخيانة زلزالاً عنيفًا في نفوس المسلمين، وجرحًا عميقًا في وجدانهم، لا سيما بعد إعلان قريظة – جهارًا نهارًا –الانضمام إلى صفوف الغزاة، لدرجة أن الرسولﷺ حرص أول الأمر على كتمان الخبر على الشعب لما كان يخشى من وقعه على نفوس الجنود. وبمجرد أن انتهى إلى سمعهﷺ النبأ أرسل وفداً دبلوماسيًا مكوناً من القادة الأفاضل سعد بن معاذ (قائد الأوس)، وسعد بن عبادة (قائد الخزرج)، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير–رضوان الله تعالى عليهم–ليذّكروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عقود وعهود، ويحذروهم مغبة ما هم مقدمون عليه، ولكن دون جدوى!

وبعد أن ولى المشركون المحتلون وحلفاؤهم الأدبار، يحملون معهم الهزيمة والإخفاق، وفشلت محاولاتهم لاقتحام المدينة المنيعة، رجع المقاتلون المسلمون إلى بيوتهم بالمدينة يستريحون من هذه الغمة، ويلتقطون أنفاسهم بعد فزع وقلق نفسي مريع دام شهرًا كاملاً.

ويبدو أن بعض الصحابة ظن أن الموضوع انتهى إلى ذلك الحد! لكن أيترك الخائنون العملاء الناكثون للعهود دون محاسبة؟ فنادى النبيﷺ في المسلمين "ألا، لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة!"[١]، فسار الجيش الإسلامي إلى فصيل الفتنة والخيانة، وتبعهم النبيﷺ–القائد العام–بعد أن استخلف على المدينة– نائبًا عنه –عبد الله بن أم مكتوم، وحاصر المسلمون بني قريظة شهراً تقريبًا، ولما طال عليهم الحصار ورفض النبيﷺ إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، واستسلم بنو قريظة، ونزلوا على حكم رسول اللهﷺ، فوكلﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ– قائد الأوس، وفي اختيار سعد دلالة على حكمة النبيﷺ وبُعد نظره، وإدراكه لنفسيات يهود قريظة، لأن سعدًا كان حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحابيهم في حكمه، لكن سعداً نظر إلى الموقف من جميع جوانبه. وقدره تقدير من عاش أحداثه وظروفه.

وبعد أن أخذ سعد المواثيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه. أعلن حكمه بالإعدام على الخونة، قائلاً: "فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ يُقْتَلَ الرِّجَالُ وَتُسْبَى الذّرِّيّةُ وَتُقْسَمَ الأَمْوَالُ "، فقال رسول اللهﷺ مؤيدًا هذا الحكم: " لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ "[٢]، فسيقوا إلى خنادق في المدينة، فُقتل رجالهم وُسبي نساؤهم وذراريهم. ولاقى بنو قريظة هذا المصير على هذه الخيانة، وهنا يحلو للبعض أن يتطاولوا على تصرف النبي ﷺ ومعاملته لبني قريظة، ويعتبروا أن الإعدام الجماعي الذي تم لهؤلاء الناس يتسم بالقسوة والوحشية والإجرام. الخ ونرد على مثل هذه الآراء ونقول:

أولاً: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبمًا كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم؟ ألم تكن هي الإبادة التامة للمسلمين أجمعين على أن اليهود لم يقدِموا على هذا العمل الخسيس إلا بعد أن تكوّن لديهم ما يشبه اليقين بأنهم بمساعدة المشركين سوف يقومون بتدمير الكيان الإسلامي تدميراً كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كلياً كما ورد في كتبهم إذا ظهروا على شعب من الشعوب ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين وعلى تلك الصورة البشعة[٣]

لقد جاء في سفر التثنية: "حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك وفتحت لك؛ فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك. بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك "[٤].

ويعلق "مولانا محمد علي"، على هذا النص بقوله: "وهكذا حكم سعد وفقًا للشريعة الموسوية بقتل ذكور بني قريظة

---

(١) –انظر: ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢\٥٠

(٢) –ابن القيم: زاد المعاد ١١٧/٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٥٤، وابن هشام ٢٤٠/٢

(٣) –انظر: جمعة علي الخولي: معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧،

(٤) –سفر التثنية – الإصحاح العشرون ١٠: ١٨.

وبسبي نسائهم وأطفالهم وبمصادرة ممتلكاتهم. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية، فقد كانت على درجة الضبط للعقوبة التي كان اليهود ينزلونها–تبعاً لتشريع كتابهم–بالمغلوبين من أعدائهم، فأي اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو في الواقع انتقاد لا شعوري للشريعة الموسوية، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحل محلها، وأيما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف–في وضوح بالغ–أي قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس"[١].

ثانياً: أن اليهود — لا سيما يهود قريظة – لم يلقوا من المسلمين طيلة السنوات التي تلت المعاهدة إلا كل بر ووفاء، ومعاملة حسنة طيبة، كما شهدوا أنفسهم بذلك، فعندما ذهب حيي بن أخطب— أكبر زعماء اليهود–إلى كعب بن أسد القرظي زعيم قريظة يغريه بنقض العهد مع النبيﷺ قال: " وَيْحَك يَا كَعْبُ !! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمّدٍ إلّا صِدْقًا وَوَفَاءً " [٢] لكنه لم يزل به حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد.

ثالثًا : أن قانون أي دولة الآن يحكم بالإعدام على من يخون وطنه ويقيم اتصالات مع العدو أو يتجسس لحسابه، و لو درس الذين يطعنون في حكم سعد على بني قريظة القوانين المعاصرة دراسة نافذة وطبقوها على قضية بني قريظة لرأوا أن قوانين العصر الحديث والدول المتقدمة لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ[٣]، فيهود قريظة خانوا العقد، وتآمروا وانضموا إلى أعداء الدولة الإسلامية وأوقعوا المسلمين بين شقي الرحى في المدينة مكتوين بنار المشركين من جهة واعتداء اليهود في ساعة المحنة من جهة ثانية فاقترفوا بذلك الغدر أربع جرائم:

أ –رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي المحتل.

ب –تسهيل دخول العدو للبلاد.

ج –التجسس لصالح تحالف المشركين.

د–دس الفتن والمشاركة في الحرب الإعلامية النفسية على الشعب المسلم.

إذا هو (القصاص العادل) [٤] الذي أصاب بني قريظة على خيانتهم، ومعظم قوانين العقوبات العصرية تجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الأربع، وتسمى أي جريمة من هذه الجرائم باسم الخيانة العظمى!

رابعًا: قد يقال: كان من الممكن أن يعامل النبيﷺ يهود بني قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش عدوه الذي انهزم أمامه واستسلم، أو يعاملهم كما عامل يهود بني النضير وبني قينقاع والجواب على ذلك أن بني قريظة لم يكونوا أسرى حرب حتى يميل بهم إلى الشفقة، ولم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، وإنما كانوا جيرانا متحالفين يشكلون مع المسلمين وحدة وطنية ملزمة بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي عدوان، لكنهم ظهروا أخطر من الأعداء، إذ يبيتون لأناس يأمنونهم ويخصونهم بحقوق الجار، وواجبات الذمام، فكانوا بمثابة الخائن المتآمر المتواطئ مع العدو على أمته ووطنه في حالة الحرب القائمة وهذه خيانة عظمى ليس لها في جميع الشرائع إلا الإعدام السريع.. وموقفهم هنا يختلف اختلافًا واضحًا عن موقف بني قينقاع وبني النضير، فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم وأشاعوا الرعب والشكوك ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحًا لا يفل وبنوا النضير ائتمروا على قتل الرسولﷺ، وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقًا يصلون منه إلى التنفيذ، وهؤلاء وأولئك أهون خطبًا من الذين سلوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف[٥].

---

(١) –مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته ص ١٧٥

(٢) –الروض الأنف ٣/ ٤٢٢، ابن سيد الناس ٢\ ٣٨، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠٣/٤

(٣) –انظر: محمد رجب البيومي مجلة الحج العدد ١٢ السنة ٨٨.

(٤) –محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ٢٥٩

(٥) –انظر: جمعة علي الخولي: معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧، وانظر: محمد رجب البيومي، مجلة الحج العدد ١٢ السنة ٨٨.

البحث الخامس: انتشار الدعوة وكمال الدين ... ونذر النهاية والرحيل!

استطاع النبي بعد حوالي ١٩ سنة—كلها معاناة وإيذاء من المشركين–أن ينتزع من قريش صلحاً سمِّي صلح الحديبية في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة ليتفرغ للدعوة ونشر الرسالة، فبعث رسلاً سفراء من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الزعماء والملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام، في رسائل وخطابات رفيعة المستوى، سامقة الذوق، ونجح النبيﷺ في دعوته على نطاق واسع وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية كالنار في الهشيم، وزالت الجاهلية بتقاليدها المتخلفة، وعقائدها الفاسدة.

وفتح رسول الله خيبر معقل الدس والمؤمرات في المحرم سنة ٧ هـ (مايو ٦٢٨)، ثم فتح مكة في رمضان ٨هـ(يناير ٦٣٠ م) اثر نقض قريش للعهد، وأصدر عفواً عاماً عنهم .. وأعلن الرسول الأمان العام لكل الناس، فلا طوارئ ولا تعسف، فقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن! ومن أغلق بابه عليه فهو آمن! ومن دخل المسجد فهو آمن!"[١]. وعهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم بدخول مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم[٢]

" فما إن أُقر السلام؛ حتى انتشر الإسلام في كل ناحية، بخطى واسعة، لقد بدا وكأن قوة غير منظورة كانت تعمل على إدخال الناس في دين الله أفواجاً بعد أفواج "[٣] وحُطمت الأصنام، وسقطت رموز الوثنية، وتوحدت الشعوب والقبائل المتناحرة، وخرج العربي من عبادة العباد إلى عبادة الخالق رب العباد، وألغيت الطبقيات والعصبيات والنعرات الجاهلية، وانتشر العدل والسلم والأمن، وأصبحت دولة الإسلام مهيبة قوية أمام قوى الفرس والرومان.

ولما اعتدى عامل الرومان شرحبيل بن عمرو الغساني وقَتل سفير النبي الصحابي السفير/ الحارث بن عمير الأزدي، عندما أرسله النبيﷺ برسالة دعوية إلى عظيم بصرى في الشام، إذا بالنبيﷺ يعلن التعبئة العامة، ويغزو حدود الرومان الجنوبية، في سرية مؤتة (جمادى الأولى ٨هـ/ سبتمبر ٦٢٩ م)، وغزوة تبوك (رجب ٩ هـ / أكتوبر ٦٣٠) التي ملئت قلب النظام الروماني بالفزع والهلع، من هذا القطب الدولي الثالث الناشئ المتمثل في دولة الإسلام..

١–فتح مكة وتهمة انتشار الإسلام بالسيف.

يتضح لنا جلياً من خلال الفتح العظيم وما رافقه من أحداث أن سر انتشار الإسلام لم يكن من خلال السيف كما يزعم البعض بل بفضل تلك التعاليم السامية التي تضمنتها رسالة الإسلام وبفضل تلك الأخلاق العالية التى تميز بها صاحب الرسالة وفتح مكة خير شاهد على ذلك حيث لاحظنا كيف أن النبي كان يتودد لأعدائه ويتألف قلوبهم وهو في أوج انتصاره عليهم متناسياً كل آلام الماضي ، ولئن وقعت تلك الفرية من بعض الجهلة أو المغرضين فصفحات التاريخ ملأى برجالات عظام ومفكرين أفذاذ أنصفوا محمداً ﷺ وأبرزوا الحقيقة ناصعة كما هي وشهدوا للرسول الأعظم مع اختلافهم معه في الدين وما كانت هذه الشهادات التي صدرت منهم إلا جانباً من موضوعيتهم في إنصاف الحق وأهله.

يقول أبو الهند الحديثة (مهاتما غاندي) في حديث لصحيفة يوتج أنديا: « **أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب الملايين ، وأيقنت أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، ولكن من خلال بساطة الرسول مع رقته وصدقه في الوعود** » [٤] وفي موضع آخر قال: «**كلما أدرس أكثر أكتشف أن قوة الإسلام لا تكمن في السيف**» [٥] نعم لا تكمن في السيف ، والعرب بطبيعة شخصياتهم التي

---

(١) –ابن سيد الناس: عيون الأثر ، ٢ / ١٨٨
(٢) –ابن سيد الناس: عيون الأثر: ٢ / ١٩٤
(٣) –مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته: ص٢٢١
(٤) –عبد الله: هذا هو الحبيب (١٥)
(٥) –ديدات: الرسول الأعظم (٩٩)

تأنف الانقياد للغير لا يمكن أن تنقاد لسطوة السيوف ، بل الموت عندهم أهون من الذل والهوان تحت شعاع السيوف ، إنما الذي استوعبهم هو سعة رحمة النبي ﷺ بهم .

يقول الكاتب المسيحي لين بول: « **إن كثيراً من كتاب التراجم والسير الأوروبيين الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد نبي الإسلام لم يتعففوا عن أن يشوهوا هذه السيرة ، وذلك بما أدخلوه فيها من افتراءات وادعاءات كاتهامهم له بالقسوة ، فإن هذه التهمة غير جديرة بالاعتبار كسائر الاتهامات ؛ لأننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه في هذه المسألة ، لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمدﷺ وذلك بدليل معاملته للأسرى بعد غزوة بدر ، وتسامحه مع أعدائه ، وصبره على أذاهم ، وعطفه على الأطفال والمرضى ، وحقنه للدماء ، وعفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربته ثمانية عشر عاماً ، وأظهروا له فيها كل صنوف العداء وأذاقوه في خلالها كل أنواع الجور والاضطهاد** . » [١]ولم يكن العفو وحده هو الذي هيأ لمكة الدخول في دين الله ، بل تلك السماحة العالية التي تميز بها محمد ﷺ، وتلك النفسية السامية التي كانت تحرص على فتح الأبواب الموصدة دون هداية البشر حوله ، وتلك الخبرة العميقة في طبائع الناس وما يصلحهم ؛ لذا نجده يبذل المال وينثر طيب الكلام ويتألف القلوب بما يتناسب معها حتى أضحى محمد ﷺ في قلوب أعدائه أحب الناس إليها ودخلوا في دين الله بعدما اقتنعت عقولهم بمصداقيته وتشربت قلوبهم تعاليمه قبل أن تنطق ألسنتهم بشعاره . يقول البروفيسور عبد المسيح الأنطاكي وهو يوناني الأصل عاش في حلب : « **ليس بصحيح ما يدعى أن الإسلام استولى قهراً بالسيف على أكثر من نصف الكرة الأرضية ، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس إليه بعد أن أقنع عقولهم ، وأكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة ، هو اتصافهم بالشيم العالية ، ولا يخفى ولوع المغلوب بتقليد الغالب ، وقد انخرط في الإسلام أقوام لم تبلغهم سلطة المسلمين ولم تصلهم**» [٢]

ونقول لهؤلاء الذين ما يزالون يتمسكون بتلك الفرية ارجعوا للتاريخ مرة أخرى واسألوا أنفسكم هل السيف كان وراء إخلاص عكرمة وتضحيته بماله ونفسه في سبيل الله وتقديمها رخيصة في معركة اليرموك للذوذ عن حوض الإسلام وهل السيف كان وراء إخلاص سهيل بن عمرو ، يقول الزبير بن بكار: «**كان سهيل بن عمرو بعد إسلامه كثير الصلاة والصوم والصدقة خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً ، ويقال أنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن** . » (٣)

هذا ما يحكيه التاريخ عن سيرة ألد أعداء الإسلام بعد إسلامهم ولم يكن السيف على رقابهم ليقوموا بهذه الأعمال الجليلة ، بقي القول أن زعم انتشار الإسلام بالسيف ما هو إلا خرافة تكذبها وقائع التاريخ الحقيقية ، يقول دي لاسي أوليري في كتابه الإسلام في مفترق الطرق ص ٨: « **قد كشف التاريخ أن الأسطورة التي تزعم أن المسلمين المتعصبين زحفوا على العالم يفرضون الإسلام بالقوة على أجناس الدول المفتوحة هي واحدة من أكثر الخرافات والأساطير التي رددها المؤرخون سخافة** . » [٤]

وقد يأتي تساؤل هام هنا وهو هل يليق بنبي أن يستخدم سطوة السلاح كأسلوب دعوي أو وسيلة دعوية لنشر رسالته؟ وهذا التساؤل كثيراً ما يطرح بين النصارى مقارنة بين عيسى وبين محمد ﷺ ، فعيسىﷺ استخدم فقط الوسائل

---

(١) –عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام (٣٨)
(٢) –عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام (٥٠)
(٣) –الذهبي: سير أعلام النبلاء (١/١٩٥)
(٤) –ديدات: الرسول الأعظم (٨٣)

السلمية في صراعه نقول: استخدام السلاح والمواجهة لا تقدح بنبوة محمد ﷺ، وطبيعة عالمية رسالة محمد اقتضت هذا الأسلوب من باب صد المعتدين وحماية الدعوة فقط ، أما نشر الإسلام فلم يكن يوماً بحد السيف ، بل لم يستخدم السيف إلا ليحقق نشر الدعوة بالطرق السلمية ، وفي معتقدنا أن رسالة عيسى ﷺ لم تنته في الأرض ، بل له جولة في نهاية الزمان يقتفي فيها أثر محمد ﷺ ويستخدم السلاح في مواجهة الدجال ، لذا لا ينظر للسيف أنه مطعن في نبوة محمد ﷺ ، بل مؤيد لها وصراع الحق والباطل لا بد فيه من حسم إما بعقوبة سماوية أو بعقوبة أرضية من خلال السيف ، وعالمية رسالة محمد ﷺ اقتضت أن تكون العقوبة أرضية وانتقائية محدودة بخلاف الأنبياء السابقين الذين كانت لحظة الحسم بعقوبة سماوية ماحقة ، وهذا مظهر من مظاهر الرحمة التي أكرم بها الأقوام الذين واجههم محمد ﷺ ، يقول توماس كارليل الفيلسوف الإنجليزي الكبير في كتابه الرسالة المحمدية : « .. **لقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا ما جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه فشذ ما أخطئوا أو جاروا، إنهم يقولون ما يكون الدين ينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة هذا الدين وأنه حق، أولم يروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً ؟؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون**» [١]

٢-وقفات بين يدي حُنين:

١-مظاهر الكمال المحمدي في غزوة حُنين:

يتضح لنا من خلال غزوة حنين بعض ملامح شخصية النبي لعل أهمها كمال شجاعته، حيث بقي في الميدان مع نفر قليل ، ولم يقتصر الأمر على ثباته بل أقحم نفسه تجاه العدو ، وكان العامل الأول من عوامل استرداد النصر لصالح المسلمين بعدما أفلت من أيديهم ، وهذه الشجاعة التي تميز بها النبي ﷺ لم تقتصر على هذا الموقف ، بل بكل مواطن الصراع كان النبي أشجع الناس و أجرأهم على تقحم المخاطر ، حتى أن أكثر الناس شجاعة كانوا يحتمون به عند الشدائد فهذا الإمام علي سيد الشجعان وفاتح خيبر وقاتل أعظم مبارزي الجزيرة العربية عمرو بن ود يقول عن شجاعة النبي ﷺ : « **لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا** » [٢] ، ويقول البراءرضي الله عنه: «**كنا إذا أحمر البأس نتقي به وإن الشجاع للذي يحاذي به**» [٣]

ومن الصفات التي ظهرت جلية يوم حنين كمال سخائه وجوده وعطائه حتى أن صفوان رأى في كثرة عطائه أنه لا يمكن أن يصدر من بشر عادي ولا تطيب بمثله إلا نفس نبي وما رآه صفوان عاينه أيضاً غيره حتى قيل إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، بل شدة كرم النبي وجزيل عطائه جعلت الأعراب تتقحم عليه طمعاً في كرمه، وما كان النبيﷺ يرد سائلاً في ذلك اليوم.

كذلك نتحسس من خلال أحداث حنين صفة هامة تميز بها النبيﷺ وهي من أعلام نبوته، وهي كمال زهده فإن هذه الغنائم على كثرتها لم تنل من قلبه شيئاً، بل أنفقها لتأليف قلوب الناس، ورجع وهو قائد الأمة وزعيمها خالي اليدين من غنائم حنين ولم يختص نفسه بشيء من زهرة الحياة الدنيا، وكل تلك الأموال العظيمة التي كانت تحت يديه تركها خلفه يتقاسمها الناس، وهذا من أعظم دلائل نبوته حيث لم نعهد من بشر عادي بلغ القمة في المجد والسؤدد ولم يؤثر نفسه بشيء من متاع مثل محمدﷺ.

---

(١) -عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام (٢٢)
(٢) -أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٢٦١٤ [المصنف (٤٢٦/٦)]
(٣) -أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٢٦١٥ [المصنف (٤٢٦/٦)]

أيضاً نلحظ مدى حب النبي لرسالته وشغفه بتبليغها وحرصه على هداية الناس، وهذا واضح من تقديمه كل ما في يديه ليتألف قلوب الناس ويسوقهم نحو رسالته السامية.

كذلك نلحظ تلك الحكمة التي تميز بها النبي ﷺ ومعرفته بطباع الناس وما يؤثر بهم ، وهذا واضح من موقفه من صفوان وغيره من مؤلفة الفتح ؛ حيث رأى أن قلوبهم متعلقة بالدنيا وزهرتها ، فرأى أن يدخل لقلوبهم من حيث يحبون فبذل لهم الدنيا التي في يديه والتي هي مطمعهم لتكون مدخلاً لحب الإسلام والترغيب فيه يقول أنس: « **إن رجلا سأل النبي غنما بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا فوالله إن محمدا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر، ثم قال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها**» [(١)] فالأثر السابق يوضح حكمة النبي ﷺ من عطائه المجزل ، وكيف استثمره لصالح الدعوة والرسالة .

كذلك نستشعر كمال سماحته وعفوه ووفور رحمته خاصة عندما أسلمت هوازن بعد تقسيم الغنائم وجاءت تستشفع النبي في النساء والذراري التي وزعت على الجيش كسبي وغنائم ، فقال لهم النبي ﷺ : أما ما كان لي ولبني المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس ، فقوموا فقولوا إنا نستشفع رسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم ثم ذلك وأسأل لكم فلما صلى رسول الله بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بل ما كان لنا فهو لرسول الله وقال عيينة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا ، فقال رسول الله: من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه ، فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم . [(٢)] وهكذا استطاع النبيﷺ بأسلوب حكيم عادل أن يرد النساء والذراري لأهلهم دون أن ينزعها نزعاً ممن تملكها بوجه حق بل استخدم الترغيب لتطيب النفوس فيما تخرجه من ملكها بعدما استقر.

ولعل أهم صفة نستشفها من خلال غزوة حنين هي أننا لسنا أمام بشر عادي ، بل نحن أمام نبي مرسل مؤيد من السماء ، وهذا واضح عند نزوله في ساحة المعركة وأخذه حفنة تراب ثم إلقائها على العدو ، فعمل مثل هذا لا يمكن أن يصدر من إنسان عادي أبداً ، وأي بشر عادي في مثل هذا الموقف الحرج ينزل ليحمل حفنة تراب ثم يلقيها على عدوه الذي سيطر على أرض المعركة ، لا يمكن تصور هذا التصرف إلا من إنسان أدرك قوة عجيبة في هذه الحفنة ستغير مجريات المعركة ، وهذه القوة لا تخضع للأسباب المباشرة ، بل خارقة لنواميس الأشياء إنها قوة التأييد الرباني التي حولت كل شيء حول محمد ﷺ سبباً لحفظه ونصرته ، وقد تبين ماذا فعلت هذه الحفنة بالجيش بأكمله ، وباعتراف الكثير ممن كانوا فيه ، مما يجعلنا نجزم أمام هذا التصرف الذي عاينه الآلاف أننا أمام نبي مؤيد

٢–معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي.

عن جابر بن عبد الله قال: «**أتى رجل رسول الله بالجعرانة منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول اللهﷺ يقبض منها يعطي الناس فقال: يا محمد اعدل! قال: ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**» [(٣)] .

---

(١) –أخرجه مسلم برقم ٢٣١٢ [صحيح مسلم (١٨٠٦/٤)]
(٢) –أخرجه البيهقي برقم ١٢٧١٢ [السنن الكبرى (٣٣٦/٦)]
(٣) –أخرجه مسلم برقم ١٠٦٣ [صحيح مسلم (٧٤٠/٢)]

هذا الموقف تكرر كثيراً خلال سيرة النبي ﷺ ، ويبرز مدى حرص النبي ﷺ على نقاء صورة رسالته بين الناس لتكون أدعى للقبول ولا يشوبها أي شائبة ، ولا يجد أعداءه أي ذريعة للطعن في تعاليمه وسيرته ، وفي كثير من المواقف كانت هناك دواعي قوية لقتل أو تصفية بعض المجرمين الطاعنين في الرسالة من داخل الصف المسلم كرأس النفاق عبد الله بن أبي سلول وغيره ، لكن النبي ﷺ رأى أن يصبر على أذاهم ويحتمل إهاناتهم ، وهذا الموقف الذي حصل من الأعرابي في الجعرانة فيه طعن في نبوة النبي ﷺ واتهام له بالظلم ، وهذه التهمة تعتبر مخرجة لصاحبها من دائرة المسلمين ، وبالرغم من ضخامة التهمة وفداحة الجرم إلا أن النبي ﷺ تعاطى معها بسماحة صوناً لصورة رسالته بين الناس ، وهذا الفقه يحتاجه كل أتباع محمد ﷺ والدعاة لدينه من خلال تمثلهم مبدأ الحرص على جمال صورة الرسالة بين الناس ولو اقتضى الأمر الصبر أو التنازل عن بعض الحقوق .

كذلك نلحظ أن النبي ﷺ تمثل هذا المبدأ في كل مراحل سيرته ، ولم يعهد عنه أنه قتل أحداً من أتباعه ، وهو بهذا المبدأ قد غاير كل مناهج العظماء والقادة على مدار التاريخ إذ يندر أن تجد ثورة وقيادة بدون تصفيات داخلية، حتى نلحظ أنه على مستوى الخيانة العظمى التي قام فيها حاطب عندما أرسل لمكة قبيل فتحها خبر تحركات المسلمين ، نجد أن النبي ﷺ قبل عذره في ذلك وقال لصحابته : إما إنه قد صدقكم ، ولم يكتف بذلك بل ذكر له فضيلة تشفع له ولصورته بين المسلمين عندما قال في حقه لعمر ﷺ: إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فهذا منهج النبيﷺ في تعاطيه مع أتباعه: إنه اللين والرحمة التي جعلت كل من حوله يلتفون حوله كما يجتمع النحل على يعسوبه .

٣-مراقبة النبيﷺ وحرصه على رعاية حقوق المدنيين في الحروب.

عن رباح بن ربيع رضي الله عنه قال: «**كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فرأى الناس مجتمعين على شيء فبعث رجلا فقال انظر على ما اجتمع هؤلاء فجاء فقال على امرأة قتيل فقال ما كانت هذه لتقاتل وعلى المقدمة خالد بن الوليد فبعث رجلا فقال قل لخالد: لا تقتلن امرأة ولا عسيفا**» وعن عكرمة: «**أن النبي ﷺ رأى امرأة مقتولة بالطائف فقال: ألم أنه عن قتل النساء؟ من صاحب هذه المرأة المقتولة. قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله أردفتها فأرادت أن تصرعني فتقتلني فأمر بها رسول اللهﷺ أن توارى**» [(١)]

نلحظ من الروايات السابقة أن النبيﷺ قد استوقفه وجود امرأة بين القتلى، وفي مثل هذه الحروب الطاحنة يتصور سقوط نساء فيها، خاصة في هذه المعركة بالذات التي استخدم فيها قائد المشركين مالك بن عوف العنصر النسائي، وأركبهن الإبل خلف الرجال، وبالرغم من ذلك استهجن النبيﷺ وجود امرأة قتيل بين القتلى فسارع يؤكد على تعاليمه بقوله: ما كانت هذه لتقاتل؟ وفي الرواية الأخرى قال: ألم أنه عن قتل النساء؟ ولم يكتف النبيﷺ بذلك بل سارع بإرسال تعاليمه لقائد الجيش ينهاه عن تكرار هذا الحدث من جهته، ثم فتح تحقيقاً في ملابسات قتلها، فتبين له أن المرأة حاولت اغتيال أحد الجنود فسارع بقتلها أي أن قتلها كان دفاعاً عن النفس ولم يكن قصداً، عندها أمر النبيﷺ بدفن المرأة فهذه التصرفات المتلاحقة من رسول الله ﷺ تبرز مدى تمثله بتعاليمه ، وحرصه على رعايتها من جيشه.

٤-نبي الرحمة والأنصار.

الأنصار كانوا أكثر الناس تضحية لدين الله سبحانه وتعالى ، وهم اللبنة الأولى في العطاء مع المهاجرين ، وفي حنين عندما قسم النبي ﷺ الغنائم على غيرهم غضب بعض حدثائهم بحكم طبيعتهم البشرية فتكلم بعضهم بكلام يبرز

(١) -انظر: أبو داود: السنن (٥٣/٣) البيهقي : السنن الكبرى (٨٢/٩) ؛ ابن حبان : موارد الظمآن (٣٩٨/١)

الامتعاض من قسمة الغنائم فراعى النبي هذا الاعتراض وعمل على إزالته وبيان مبررات تقسيمه للغنائم، فعن أبي سعيد الخدري قال: «**لما أعطي رسول الله ما أعطي من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى الغرماء فيهم القالة حتى قال قائلهم: لقي رسول الله قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفئ الذي أصبت قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا الا امرؤ من قومي ، وما أنا من ذلك قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال : يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم ووجدة ووجدتموها في أنفسكم ؟ ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله وأعداءً فألف بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فواسيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت قوما ليسلموا ووكلتم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده أنه لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول اللهﷺ قسما وحظا ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا .** » (١)

نلحظ من هذه القصة حرص النبي ﷺ على رعاية نفسية أصحابه وعدم تركهم نهبة لوساوس الشيطان ؛ لذا اقتضى هذا الامتعاض الذي وقع فيه بعض الأنصار تصرفاً سريعاً من النبي الكريم يبرز من خلاله حقيقة تصرفه ومبرراته مبيناً أنه وكلهم لإيمانهم ، وضرب لهم صورة مؤثرة جداً مبنية على أهم معلم من معالم رسالته بدأ به بيعته معهم وهو معلم الآخرة التي وعدهم بها ؛ لذا جاءت الصورة التي ذكرها النبي ﷺ عبارة عن مقارنات بين قوم يبشرون بالغنم والجمال وقوم يبشرون بالإيمان ، و بين قوم يصحبهم الشاة والبعير وقوم يصحبهم رسول الله إلى ديارهم ، لقد أيقظتهم تلك المقارنات ، وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه ، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع وألسنتهم بالرضا وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم خاصة أنهم يرون حبيبهم رسول الله قد اختار العودة معهم لديارهم ، ولم يؤثر نفسه بشيء من لعاع الدنيا . (٢)

٣–وقفة هامة بين يدي غزوة تبوك:

نلحظ من أحداث غزوة تبوك أنها كانت رحلة تعاليم وتربية أكثر مما هي غزوة مواجهة ، فقد خرج النبي ﷺ قرابة الخمسين يوماً مع أكبر حشد من أتباعه عبر رحلة كانت درساً في التضحية والزهد والعطاء وقد كانت تعاليم النبي ﷺ في هذه الغزوة بالذات ممزوجة بمعجزات كثيرة تدل على صدق رسالته ، وهذه الرحلة تذكرنا برحلات عيسى ﷺ وتلاميذه من الحواريين عبر البلاد مع فارق هام جداً وهو أن تلاميذ عيسى ﷺ كانوا يعدون على الأصابع ، أما تلاميذ النبي ﷺ في رحلته هذه فقد كانوا ألوفاً مؤلفة ، وبعض أحداث هذه الرحلة تذكرنا بالمعجزات التي كانت ترافق عيسى ﷺ

---

(١) –انظر أطراف الأثر عند أحمد برقم ١١٧٤٨ [المسند (٣/٧٦)] ابن أبي شيبة برقم ٣٦٩٩ [المصنف (٧/٤١٨)] ؛ الطبراني برقم ٦٦٦٥ [المعجم الكبير (٧/١٥١)].

(٢) –انظر الصلابي: السيرة النبوية (٢/٥٠٣)

لعل أهمها قصة المائدة التي نزلت من السماء لتلاميذه ، فهي شبيهة بتلك المائدة التي أعدها النبي ﷺ من خلال جمعه للطعام القليل الذي تحول ببركة دعائه إلى طعام كافٍ لجيش تعداده بالآلاف ، ولعل هذه المعجزة أبلغ من معجزة إنزال مائدة من السماء ، وعندما سأل الصحابة الماء كان دعاء النبي ﷺ كفيلاً بإنزاله من السماء ، فهي مائدة ربانية تتضمن الطعام والشراب ، وقد عاين هذه البركات والخوارق الألوف من أتباعه .

ومن وجه آخر تعتبر غزوة تبوك شبيهة برحلة موسى ﷺ مع بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون مع فارق هام ، وهي أن أتباع موسى ﷺ لم يتربوا التربية الإيمانية التي تؤهلهم لتلك الرحلة ، أما أصحاب محمد ﷺ فقد جاءتهم هذه الرحلة بعد تربية إيمانية عالية جعلت ما عند الله أقرب إليهم مما كان في أيديهم ؛ لذا كانت التأييدات الربانية التي عاينوها مع النبي في رحلته تقع موقعها في نفوسهم ، أما بنو إسرائيل فرؤيتهم للمعجزات كان تأثيرها نسبي ووقتي سرعان ما يذهب أثره بعد ذلك ؛ لذا سرعان ما عاقبهم الله برحلة التيه كتربية لهم .

ولعل إحساس النبيﷺ بقرب أجله وانتهاء رسالته الدنيوية كان وراء تلك الرحلة العظيمة التي لبست ثوب الغزوة ، وإن كانت في حقيقتها أعظم رحلة تعاليم خاض غمارها نبي مع أتباعه ، وخرج الصحابة من هذه الرحلة وقد ازداد إيمانهم وارتقى يقينهم واشتد زهدهم و تعزز استعدادهم للتضحية للرسالة والدعوة إليها ... إنها رحلة أراد منها النبي ﷺ تهيئة أصحابه في اللحظات الأخيرة له في الدنيا لحمل أعباء الرسالة بعده .. وقد نجح في تهيئتهم وصدقوا بعده في حمل أمانة الرسالة وأعبائها.

٤-من مقارعة الحروب إلى استقبال الوفود

كان للانتصارات العظيمة التي حققها النبيﷺ على مكة وما يجاورها من قبائل ثم توجهه إلى أرض الروم في الشمال بتبوك أثراً عميقاً مؤثراً في كل قبائل الجزيرة العربية عززته سورة التوبة التي تضمنت إعلان بالبراءة من المشركين وإنذارهم أربعة أشهر لتقرير مصيرهم قبل اتخاذ الدولة الإسلامية موقفاً معهم، فهذه العوامل المتلاحقة جعلت القبائل العربية أمام خيارين: إما المواجهة الخاسرة وإما المفاوضة والموادعة.

ولعل عظمة تعاليم الدين الإسلامي التي بدأت تخترق كل مناحي الجزيرة العربية وتنامي قوة أهله جعل القبائل تنزع إلى الانخراط في هذا الدين وإعلان الولاء له والإيمان به فبدأت حركة الوفود تتحه نحو المدينة المنورة لتعلن ولاءها للرسول والرسالة، وقد بلغت وفود العرب التي طرقت المدينة قرابة الستين وفداً، ولعل أهم الوفود التي قدمت على النبيﷺ وفد ثقيف ووفد نصارى نجران ووفد عبد قيس، ووفد ضمامة بن ثعلبه عن قومه بني سعد بن بكر، ووفد عذرة ووفد بلى ووفد بني همدان ووفد بني فزارة ووفد بني حنيفة .

وكان النبيﷺ يتعاطى مع هذه الوفود بجدية تتضمن حرارة الاستقبال وحفاوة التكريم، وحكمة الدعوة، وعمومية التعاليم مع انتقاء بعض الوصايا الخاصة بكل وفد بما يناسبه، وكانت مرحلة الوفود لوحدها مدرسة دعوية متكاملة تجلت فيها الحكمة النبوية والخبرة الدقيقة بكل وفد وما يقتضيه والمجال هنا لا يسمح باستقصاء أخبار هذه الوفود إنما اقتصر هنا على أخبار وفدين فقط يتضح من خلالهما النهج الذي سلكه النبيﷺ مع غيرهما:

وفد عبد قيس.

جاء وفد قيس للنبيﷺ وكان عددهم أربعين رجلاً بينهم الجارود بن العلاء العبدي وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه وعندما أنوا النبيﷺ قال لهم رسول اللهﷺ من القوم؟ قالوا: ربيعة فقال النبيﷺ: مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى.

فقالوا: يا رسول الله! إنا نأتيك من شقة بعيدة، وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام فمرنا بامر فصل نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة فأمرهم النبيﷺ بأربع ونهاهم عن أربع ، أمرهم

بالإيمان بالله وحده قال : أتدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمساً من المغنم ، ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير (❁) ، وقال : احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم ، وفي رواية أن الأشج بن قيس وكان أحد أفراد الوفد اقترب من النبي ﷺ وقبل يده ، فقال له النبي: إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة فقال: جبل جبلت عيهما أم تخلقاً مني؟ فقال النبي: بل جبل قال الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله.

وفد نصارى نجران:

جاء وفد نصارى نجران إلى رسول اللهﷺ بعد كتاب أرسله إليهم وكانوا عبارة عن أربعين رجلاً ، ودخلوا مسجد رسول الله ﷺ عليهم ثياب حبرة وأردية مكفوفة بالحرير ، وفي أيديهم خواتيم الذهب ، فقاموا يصلون في المسجد جهة الشرق ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم . ثم أتوا النبي ﷺ فأعرض عنهم ولم يكلمهم ، فقال لهم عثمان ﷺ : من أجل زيكم هذا ، فانصرفوا يومهم ، ثم غدوا عليه بزي الرهبان ، فسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وقالوا : كنا مسلمين قبلكم ، فقال ﷺ يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً ، وكثر الجدال بينهم والنبي ﷺ يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة ، وكان مما قالوه لرسول الله ﷺ : مالك تشتم صاحبنا ، وتقول أنه عبد الله ، فقال النبي محمد ﷺ : نعم هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أب ، فإن كنت صادقاً فأرنا مثله ، فأنزل الله في الرد عليهم قوله : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ (١) فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه ، ولما لم تنفع الدعوة الحكيمة والمجادلة بالتي هي أحسن مع هذا الوفد دعاهم النبي ﷺ للمباهلة امتثالاً لقوله تعالى :﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾(٢)

و خرج لهم النبيﷺ معه علي والحسن والحسين وفاطمة ، وقال : إذا دعوت فأمنوا ، عندها شعر الوفد بجدية الأمر وخافوا عواقبه ، فخلوا فيما بينهم وتشاوروا في الأمر ، فقال كبيرهم : لا تفعلوا ، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا ، ولا يبقى منا على وجه الأرض شعرة أو ظلف إلا هلك ، وما باهل نبي قوماً إلا هلكوا . فأبوا أن يلاعنوه واستقر أمرهم على تحكيم رسول الله فيهم ، فقالوا : احكم علينا بما أحببت ، فصالحهم على ألفي حلة ، الف في رجب وألف في صفر ، وأعطاهم ذمة الله ورسوله وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم وكتب لهم كتاباً بذلك ، ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا : ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منا مال الصلح ، فقال لهم النبي ﷺ : لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين ، فاستشرف له أصحابه ، فقال النبي ﷺ : قم يا أبا عبيدة ، فلما قام قال النبي ﷺ : هذا أمين الأمة .

يقول لورد هدلي عن سماحة موقف النبيﷺ مع نصارى نجران: «**ولما استتب له الأمر وخضعت له شبه جزيرة العرب إلى أقصاها وجاءه وفد نصارى نجران اليمنيون بقيادة البطريرك لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم وأمر بأن لا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية وأن تبقى كنائسهم ومعابدهم كما هي يؤدون فيها شعائرهم الدينية كما كانوا يفعلون من قبل .** » (٣)

(❁) هذه أسماء أوعية كانت تستخدم لوضع الخمر فيها ، فالدباء : القرع اليابس المفرغ داخله ، والحنتم : الجرار الخضر التي يحمل فيها الخمر ، والمزفت : الأوعية التي تطلى بالزفت ، والنقير : جذع ينقر وسطه ثم ينبذ فيها الرطب واليابس . ولعل تركيز النبي ﷺ على الخمر وتفصيله بالأمر له علاقة بعادات كانت منتشرة في ذلك الحي ، فأراد النبي ﷺ أن يعالج هذا الجانب الذي ابتلوا فيه .

(١) –آل عمران: الآيات ٥٩ –٦٠

(٢) –آل عمران: الآية ٦٠

(٣) –عبد الوهاب: محمد رسول الله في نظرة علماء الغرب (٣٩)

هذه تفاصيل وفدين من الوفود التي جاءت للنبي ﷺ في السنة التاسعة للهجرة ، وهي تبرز منهج النبي وهديه في التعامل مع الوفود بما يتناسب معها ، وقد تخلل هذه الوفود كثير من البعثات الدعوية والتعليمية للقبائل التي تدخل في الإسلام ، أو تندرج تحت لواء الدولة الإسلامية ، وكان النبي ﷺ يختار لهذه البعثات أنجب صحابته وأكثرهم إدراكاً ووعياً لتعاليمه ، فقد أرسل علياً لهمدان يدعوهم للإسلام فأسلموا جميعاً ، وأرسل معاذ بن جبل أعلم الناس بالحلال والحرام وأبي موسى الأشعري ذي الأصول اليمنية إلى اليمن ، وكان النبي ﷺ لا يغفل هذه البعوث بوصاياه الداعية إلى الرفق والتأني والتدرج في الدعوة ، والعدل في المعاملة ، وعندما خرج معاذ ﷺ إلى اليمن خرج النبي ﷺ يودعه ، ومعاذ راكب راحلته والنبي ﷺ يمشي تحت راحلته ، فقال له : « **إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم طاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم ، فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب .** » [(١)]

٥-انتهاء مهمة نبي الرحمة وأفول شمس النبوة

بعد أن نجح النبيﷺ في دعوته، وقويت دولة الإسلام، واستتب الأمن في الجزيرة العربية، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً، وشاء اللّه أن يري رسوله ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ثلاثة وعشرين عاماً، حافلة بالجهد والعمل والبلاء، وأحس رسول الله بدنو أجله، ولذلك قصد نبي الله الحج، ليجتمع بالأمة، فيأخذوا منه أصول الإسلام وكلياته، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة.

وفي اليوم التاسع من ذي الحجة (يوم عرفة) في العام العاشر من الهجرة (6مارس٦٣٢ م) وقد اجتمع حوله مئة ألف وأربعة وأربعون ألفاً من الناس، فقام فيهم خطيباً، وألقى خطبة بلغية جامعة تضمنت أول إعلانٍ عامٍ لحقوق الإنسان عرفته البشرية، أعلن فيها الإخاء والمساواة والعدالة وحرمة الدماء والأموال وحقوق المرأة، ووضع تقاليد الجاهلية الفاسدة، فألغى دماء الجاهلية، والمعاملات الربوية والنعرات الجاهلية.

جاء في هذه الخطبة الجامعة إعلان الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان: "أيها الناس! إني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا، بمكاني هذا، فرحم الله من سمع مقالتي اليوم فوعاها، فرب حامل فقه ولا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[(٢)].

" إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هُذَيْل . وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله" [(٣)].

" لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا يُؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه!"[(٤)] " واعلموا أن القلوب لا تغل على ثلاث إخلاص العمل لله ومناصحة أولي الأمر وعلى لزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من

---

(١) -أخرجه البخاري برقم ١٣٨٩ [البخاري (٥٢٩/٢) ومسلم برقم ١٩ [صحيح مسلم ٥١/١)؛ والزيادة الأخيرة في الحديث المتعلقة بدعوة المظلوم ذكرها عبد الرازق برقم ٩٤٢٠ [المصنف (٢١٥/٥)]

(٢) -صحيح -سنن الدارمي ١\ ٨٦ برقم ٢٢٧، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن والحديث صحيح.

(٣) -صحيح -واه ابن حبان، عن جابر، ١٤٥٧ ، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح

(٤) -صحيح -السلسلة الصحيحة، رقم ١٩٧٤

ورائهم "[١] "فاتقوا اللّه في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة اللّه، واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله [٢].

"أيها الناس! إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم واعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا ولاة أمركم تدخلوا جنة ربكم "[٣]، "وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ " قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: "اللهم اشهد!!"ثلاث مرات[٤].

ويعلق "هربرت جورج ولز "على هذه الخطبة فيقول: "إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها"[٥]، يعلق العلامة إميل درمنغم، على هذه الرحلة العظيمة، وهذه الخطبة البليغة، قائلاً: "تجلت بهذه الرحلة الباهرة [حجة الوداع] ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي الذي أنهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة.."[٦]

لقد أهدى للبشرية أعظم وأحكم وأجمل شريعة في التاريخ، تلك الشريعة التي تحدث عنها العلامة "شبرل"[٧] مبديًا فخره واعتزازه بالنبي محمدﷺ قائلاً: " إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً؛ أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون؛ لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة "[٨].

وأظلمت المدينة:

وبعد أن فرغ النبيﷺ من خطبته نزل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ [٩] ، كان نزول هذه الآية مؤذناً بانتهاء مهمة النبي ﷺ على الأرض، لذا عندما سمعها أبو بكر بك فقيل له ما يبكيك فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان، فبعد حجة الوداع بدأت كثير من الإرهاصات تشير إلى قرب أجل النبيﷺ منها الآية السابقة ومنها سورة النصر التي نزلت عليه في أيام التشريق و تضمنت نعياً له، ومنها مدارسة جبريل للنبي في القرآن مرتين في رمضان، وكانت مدارسته قبل ذلك مرة واحدة .

بدأ النبيﷺ يهيئ صحابته للحظة الفراق، لذا كان يكرر لهم العبارات التي تدل على أنه مفارق لهم وتاركهم خلفه، وبدأ يكثر من وصاياه المتعلقة بحالهم بعده، وفي اليوم التاسع والعشرين من صفر بعد قفوله من جنازة اشتد الصداع في رأسه واتقدت الحرارة في جسمه وكانت هذه الأعراض بداية النهاية لرحلة النبيﷺ.

عندما قرب الأجل خُيّر بين الموت والحياة، فقد صحَّ أنه قال لمولاه أبي مويهبة: "يا أبا مويهبة إني قد أوتيتُ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، وخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي عز وجل والجنة" قال: قلت: بأبي وأُمي، فخذ

---

(١) –صحيح –سنن الدارمي ١\ ٨٦، برقم ٢٢٧، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن والحديث صحيح

(٢) –صحيح –رواه مسلم ٢ \٨٨٦، برقم ١٢١٨

(٣) –صحيح –رواه الطبراني في المعجم الكبير ٨ \ ١٣٦، برقم ٧٦١٧، وقال الألباني: صحيح (ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم رقم ١٠٦١)

(٤) –صحيح –رواه ابن حبان، عن جابر، ١٤٥٧، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح

(٥) –هربرت جورج ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٠ – ٦٤١

(٦) –اميل درمنغم: حياة محمد، ص ٣٥٩

(٧) –عميد كلية الحقوق بجامعة "فيينا"، وقال هذه الجملة في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧.

(٨) –انظر: عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، ص ١٥٥.

(٩) –المائدة: من الآية ٣.

مفاتيح الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة. قال: "لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة" ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبُدئ رسول الله في وجعه الذي قبضه الله عز وجل فيه حين أصبح. (١)

اشتد عليه المرض وكان يتنقل بين بيوت زوجاته مريضاً رعاية لحقهن في القسمة فأشفقن عليه وتنازلن لعائشة لكي يبقى النبيﷺ عندها فتمرضه، في تلك اللحظات الحرجة كان النبي ﷺ يهتم بإبلاغ وصايا هامة تتعلق بما بعده لذا عندما وجد في نفسه خفة من المرض خرج لصحابته وخطب بهم وهو جالس على المنبر ومن جملة ما قيل أو ورد: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا تتخذوا قبري وثناً يعبد من دون الله ثم استسمح أمته وعرض نفسه للقصاص إذا كان قد جلد أحداً أو آذاه ، وأبدى استعداده برد كل المظالم إذا كان وقع منها شيء عن عفلة منه ثم أوصى بالأنصار مبيناً فضيلتهم ثم بين فضيلة أبي بكر، وأنه لو كان متخذاً خليلاً في الدنيا لاتخذ أبا بكر ثم أوصى بالصلاة وبإنفاذ جيش أسامة ثم قال: «**إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده فاختار ما عنده فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له وقال الناس انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا .**

يقول أبو سعيد الخدري: فكان رسول الله هو المخير وكان أبو بكر هو أعلمنا ثم قال النبيﷺ: إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر » (٢)

يوم الاثنين المؤلم:

اشتد المرض على رسول اللهﷺ وبينما كان الصحابة في صلاة الفجر كشف النبي ستر حجرة عائشة ونظر للمصلين ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن رسول الله يريد أن يخرج للصلاة، وكاد أن يفتتن المصلون في صلاتهم فرحاً برسول الله فأشار إليهم النبيﷺ بيده أن أتموا الصلاة ثم أرخى الستر.

وكانت هذه الصلاة آخر صلاة أدركها في حياته وأكمل لحظاته الأخيرة في الدنيا بوصاياه للناس بالمحافظة على الصلاة ورعاية حق العبيد وكان يكرر لهم عبارة: الصلاة الصلاة وما ملكت يمينكم ثم بلغ فاطمة بانتهاء أجله فبكت ثم بشرها بأنها سيدة نساء العالمين وأنها أول أهله لحوقاً به فضحكت ثم دعا الحسن والحسين وأوصى بهما، ودعا أزواجه فوعظهن.

واشتد به الوجع واتقدت الحمى في جسده فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله إن للموت لسكرات، ثم شخص بصره نحو سقف البيت وقال : مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى ، اللهم الرفيق الأعلى .. اللهم الرفيق الأعلى .. اللهم الرفيق الأعلى ... فكانت هذه الكلمات مؤذنة بنهاية حياة النبيﷺ.

وسكن الصوت الذي كان يلهج برسالة الله في ربوع الجزيرة ، وخمدت الحياة في القلب الذي أحيا الله به قلوب البشرية ، بهذه الكلمات انتهت مهمة صاحب أعظم رسالة سماوية على الأرض بعد أن أسس لها ولبقائها لقيام الساعة، وفي ضحى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ وقع أعظم حدث على الأرض وغابت عنها أعظم شمس أشرقت عليها، مات الرسول الأعظم ونبي الرحمة العالمية وسيد الكونين ووقع المصاب الأعظم على البشرية بأسرها ، وصدق

---

(١) -المسند ٢٥/٣٧٦-٣٧٧ ح ١٥٩٩٧، وصحح سنده محققوه.
(٢) -أخرجه البخاري برقم ٣٦٩١ [البخاري (٣/١٤١٧)].

الحبيب حين قال: « **إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب**» [١] فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يكن هذا الحدث هينا على القلوب التي أشربت حب النبيﷺ وألفت رؤيته وسكنت لحديثه، وتمتعت برؤية وجهه الكريم وعشقت كلماته، لم يكن من السهل على هذه القلوب أن ترزأ فجأة بفقدان سراحها المنير وبلسمها الشافي.

بوفاة النبي ﷺ أظلمت المدينة على أهلها ، وعم البكاء بيوتها ، وصدم عظمائها الذين كانوا كالأطفال يتعهدهم النبي ﷺ برحمته ويسوسهم بحكمته ، واضطرب حال المسلمين فمنهم من دهش فخولط ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية ، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ وقد بلغت الصدمة مبلغها من قلبه فأخرجته عن وعيه ، يقف في الناس قائلاً: «**إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن يدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات**» [٢]

فخبر الوفاة أذهل عمر ﷺ ، وبدأ يتوعد وينذر كل من يزعم أن النبي ﷺ مات ، ولما سمع أبو بكر بوفاة النبي ﷺ دخل عليه فقبله ، وخرج على الناس وعمر يتوعد ، فقال : اجلس يا عمر ، وهو ماضٍ في كلامه وفي ثورة غضبه ، فقام أبو بكر خطيباً في الناس ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال : أما بعد فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [٣]

يقول عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وأهويت إلى الأرض وعلمت أن النبيﷺ قد مات، وهكذا استطاع أبو بكر أن يخفف حدة الصدمة ويخرج الأمة من فتنة عظيمة كادوا يقعون بها لهول المصيبة التي وقعت بهم، وبهذا الحدث انتهت رحلة النبيﷺ على الأرض ولم تنته تعاليمه ولن تنته إلى قيام الساعة فالسراج الذي أوقده النبيﷺ شبيه بالشمس في عطائه ودوامه ما دامت السماء والأرض.

وأما عن تركته المتواضعة فقد صحَّ عن عمر بن الحارث – أخي جويرية بنت الحارث–قال: ما ترك رسول اللهﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمةً ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقةً.[٤]، إن هذه التركة والله لهي موعظة عظيمة للأغنياء وسلوى كريمة للفقراء، وهي صورة ناطقة تُبصر الذين ظنوا أنه كان ينشد الأموال والغنائم.

هذه هي التركة المتواضعة، ولكن ثمة تركة عظيمة تتفيأ البشرية بظلالها، وتستمد العزة والسعادة من معطياتها، إنه الإرث الذي لا مثيل له في التركات، هذه التركة هي الحكمة التي تركها للمسلمين خاصة والبشرية عامة، إذ اشتملت على نظام حياة أمثل، وشرع دين أكمل، فقد عرَّف الإنس والجنَّ كيفية العيش بسلام وعزَّة، وذلك من خلال سيرته العطرة وأقواله المثمرة وأفعاله الخيِّرة بكرمه للجميع، وصبره على المشاكل، وحلمه على الناس ورحمته بهم، وتواضعه لهم، وحبه للخير لهم، تلك السيرة التي حملت الرحمة للبشرية بالرفق في الأمور كلها، والتأكيد على ذلك بقوله: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"[٥]، ومع هذا الرفق سعى إلى ترسيخ وتقوية الروابط والعلائق بين أفراد المجتمع بجميع مله بغرس الآداب الحميدة، كالعفو والتسامح وإفشاء السلام ونصرة المظلوم وعون الضعيف كاليتامى والفقراء، وإكرام الضيف وعيادة المريض

---

(١) –أخرجه الدارمي برقم ٨٤–٨٥ [مسند الدارمي (٥٣/١)]
(٢) –انظر الطبري: تاريخ الطبري (٢/ ٢٣٢)
(٣) –آل عمران: الآية ١٤٤
(٤) –صحيح البخاري –كتاب الوصايا – باب الوصايا ح٢٧٣٩.
(٥) –صحيح البخاري –كتاب الأدب–باب لم يكن النبيﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، ح ٦٠٣٠.

وتشميت العاطس وتقديم النصيحة والتيسير على الناس، فقد أمر ﷺ بالتعليم والتيسير فثبت عنه أنه قال: "علموا ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا وإذا غضب أحدكم فليسكت".[١]

وأخرج مسلم بسنده عن تميم الداري أن النبي قال: "الدين النصيحة" قلنا: لمن:؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامَّتهم".[٢] وصح عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعا قال: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا".[٣] وقد صحَّ عن البراء بن عازب أن النبي قال: "أُمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصرة المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس".[٤] وأخرج أبو داود بسنده الثابت عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء".[٥] ويقول الرسول ﷺ: "ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم".[٦]

وفي الوقت نفسه حذَّر ونهى عن الخصال السيئة كالحسد وسوء الظن والظلم والكِبْر والغيبة والسب واللعن، فقد أخرج مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول اللهﷺ قال: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث". [٧]، ما اعتنى عناية فائقة بإعطاء كل ذي حق حقه، فقد أكد على حق الوالدين والأرحام والجيران والخدم والترفق بهم فقد صحَّ عنهﷺ أنه قال: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راعٍ، والرجل على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته".[٨]

وأخرج البخاري بسنده عن أنس قال: خدمت النبي عشر سنين فما قال لي: أف، ولا لم صنعت، ولا ألا صنعت.[٩] ، وأخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ قال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك".[١٠] كما اعتنى بحق الطفولة، وحق المرأة كما سيأتي.

كما وضع الأُطر الدقيقة في التعامل مع غير المسلمين، وقد تقدم طرف منه، وهذه التركة تعطي للبشرية القدرة على علاج أكبر المشكلات المعاصرة كما سيأتي.

شهدت أدبيات الغرب وأشادت برحمة محمدﷺ للبشر، ويأتي على رأس هذه الأدبيات إنجيل برنابا الذي بشر برحمة محمد التي ينالها العالم عند قدومه من أرض الجنوب (الحجاز). فيقول إنجيل برنابا[١١]: "سيأتي مسيا [أي محمد] المرسل

---

(١) -البخاري في الأدب المفرد ح ١٢٣٠، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (انظر فيض القدير ٣٢٨/٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح ١٣٧٥

(١) -صحيح مسلم -كتاب الإيمان -باب بيان أن الدين النصيحة، ٧٤/١ ح ٩٥.

(٣) -صحيح البخاري -كتاب الطلاق – باب اللعان، ح ٥٣٠٤، وصحيح مسلم –كتاب الزهد والرقائق-باب الإحسان إلى الأرملة، ٢٢٨٧/٤ ح٢٩٨٣.

(٣) -صحيح البخاري -كتاب الجنائز -باب الأمر باتباع الجنائز ح ١٢٣٩.

(٤) -(السنن ٢٨٥/٤ ح ٤٩٤١ - ك الأدب ، ب في الرحمة)، وأخرجه الترمذي (٣٢٣/٤ ح١٩٢٤) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم (المستدرك ١٥٩/٤، ك البر والصلة) وقال الحاكم بعد أن ذكره ضمن أحاديث: وهذه الأحاديث كلها صحيحة. وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود ح٣٢)

(٦) -صحيح البخاري -كتاب الإيمان -باب المعاصي من أمر الجاهلية، ح٣٠.

(٦) -صحيح مسلم -كتاب البر والصلة -باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، ١٩٨٣/٤ ح ٢٥٥٩.

(٨) -صحيح البخاري -كتاب النكاح -باب المرأة راعية في بيت زوجها، ح ٥٢٠٠.

(٨) -صحيح البخاري -كتاب الأدب -باب حسن الخلق، ح ٦٠٣٨.

(٩) -الصحيح -كتاب البر والصلة والآداب -باب بر الوالدين، حديث رقم ٢٥٤٨.

(١١) -يقول المستشرق سايل : إن مكتشف النسخة الإيطالية لإنجيل برنابا هو راهب لاتيني يسمى " مرينو"...واتفق أنه أصبح حينا من الدهر مقربا من البابا "سكتس الخامس "، فحدث يوما أنهما دخلا معا مكتبة البابا العتقية، فأخذ النوم هذا البابا ، فأحب الراهب مرينو أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا ، فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو إنجيل القديس برنابا ، فخبأ هذا الإنجيل في ثوبه ، ولبث إلى أن إستفاق البابا فاستأذنه بالإنصراف حاملاً ذاك الكنز معه ، فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على إثر ذلك الإسلام . اهـ. وبعد اكتشاف هذا الإنجيل، شاع خبره في بداية القرن الثامن عشر فأحدث دوياً كبيراً، عند النصارى بشتى طوائفهم، وأجمعوا على محاربته وتكذيبه ، بل إن هذا العداء توارثته أجيال النصارى جيلاً بعد جيل ، بل قام أساقفة النصارى بتصنيف الردود على هذا الإنجيل الذي يبشر بشكل صريح جداً بمحمد صلى الله عليه وسلم ..

من الله لكل العالم،.. وحينئذ يسجد لله في كل العالم، وتنال الرحمة.."[١]، يقول القس إبراهيم فيلوبوس[٢] : "كلمة إنجيل كلمة يونانية تعني بشارة أو بشرى، ولعل هذا هو الذي نستفيده من سيرة سيدنا عيسى عليه السلام، أنه كان بشرى من الله للرحمة، وبشرى بتبشيره عن المسيا الذي سيأتي للعالمين هدى ورحمة، ألا وهو محمد ﷺ"[٣]، وجاء في الفصل السادس والتسعين في برنابا من محاورة بين المسيح ورئيس كهنة اليهود، أن الكاهن سأله عن نفسه فأجاب بذكر اسمه واسم أمه، وبأنه بشر ميت ثم قال الإنجيل ما نصه:

" أجاب الكاهن: إنه مكتوب في كتاب موسى أن إلهناَ سيرسل لنا مسيّا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برحمة الله. لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذي ننتظره؟ وأجاب يسوع: حقاً أن الله وعد هكذا ولكني لست هو، لأنه خلق قبلي وسيأتي بعدي. أجاب الكاهن: إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله. لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل كلها أن تفيدنا حباً في الله بأية كيفية سيأتي مسيا؟ فأجاب يسوع: لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي. أني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى لهذه الفتنة المعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله. فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً حينئذٍ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً"[٤]

هكذا يتحدث إنجيل برنابا عن محمدﷺ وأنه "سيأتي للعالم برحمة الله"، بل لن يأتي محمد حسب إنجيل برنابا إلا حين" يرحم الله العالم" فيبعثه الله من الجنوب حيث أرض الحجاز ويهدم الأصنام في فتح مكة في العام الثامن الهجري وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به، فيمكنَّ لهم الله في الأرض ويستخلفهم كما استخلف الذين من قبلهم.

إن أول جملة قالها الراهب النصراني الشهير "بحيرا "حين رأى محمداً في رحلته الأولى إلى الشام مع أبي طالب: " هذا سيد العالمين! هذا رسول رب العالمين! هذا يبعثه الله رحمة للعالمين!"[٥]، وإن في ذلك لدلالة بينة على ما كان يتدارسه الرهبان والقساوسة في الأناجيل، حيث صفة الرحمة التي سجلتها الكتب السماوية السابقة في محمدﷺ.

في كلمات تنم عن عميق الحب وعلو التقدير، يتحدث توماس كارلايل (١٧٩٥ –١٨٨١م) الكاتب الإنجليزي المعروف، في إعجاب بصفات الرحمة في شخصية محمدﷺ فيقول: ".. لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير... العظيم النفس، المملوء رحمة، وخيرًا، وحنانًا، وبرًا، وحكمة، وحجى، ونهى.. أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟ فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة. إذ ترى محمدًا لم يرض أن يلتفع بالأكاذيب والأباطيل. لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة"[٦].

---

(١) –إنجيل برنابا، ٨٢ : ١٦ – ١٨

(٢) –أسلم وأطلق على نفسه اسم " إبراهيم خليل أحمد "، وهو حاصل على ماجستير في اللاهوت من جامعة برنستون الأمريكية. ومن كتبه (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) و(المسيح إنسان لا إله) و(الإسلام في الكتب السماوية) و(اعرف عدوك اسرائيل) و(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) و(المبشرون والمستشرقون في العالم العربي الإسلامي). وقد كان راعياً للكنيسة الإنجيلية، وأستاذاً للاهوت، وأسلم على يديه عدد كبير من الناس.

(٣) –إبراهيم خليل أحمد (القس إبراهيم فيلوبوس سابقاً): محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص ١١٥

(٤) –إنجيل برنابا، ٩٦: ٣–١٦

(٥) –الحاكم: المستدرك على الصحيحين٢\ ٦٧٢، عن أبي موسى برقم ٤٢٢٩، ومصنف ابن أبي شيبة ٦\ ٣١٧ برقم ٣١٧٣٣، وابن عساكر:تاريخ دمشق ٣\٤، والطبري :تاريخ الأمم والملوك(تاريخ الطبري) ١\ ٥٢٠، وسيرة ابن حبان ٥٨ . محمد بن يوسف الصالحي: سبل الهدى والرشاد ٢\ ١٤٠.

(٦) –توماس كارلايل : الأبطال، ٥١، ٥٢

لا يُخفي "لين بول" تأثره بمحمد، فيتحدث في مؤلفه: "رسالة في تاريخ العرب " عن سجايا خلق الرحمة في شخصية محمدﷺ في إعجاب جم قائلاً: "إن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات كاللطف والشجاعة، وكرم الأخلاق حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تطبعه هذه الصفات في نفسه ، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن غير ميل أو هوى، كيف لا، وقد احتمل محمد عداء أهله وعشرته سنوات بصبر وجلد عظيمين، ومع ذلك فقد بلغ من نبله أنه لم يكن يسحب يده من يد مصافحه حتى لو كان يصافح طفلاً ! وأنه لم يمر بجماعة يوماً من الأيام رجالاً كانوا أم أطفالاً دون أن يسلم عليهم، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وبنغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، وتجذب القلوب إلى صاحبها جذباً !!"[١].

وأما الباحث وليم موير فيتحدث في مؤلفه: " حياه محمد " عن أخلاقيات النبي في تقدير بالغ لرقة النبي ورفقه ورأفته، ولين عريكته ، فيقول: "ومن صفات محمد الجليلة الجديرة بالذكر والحَرية بالتنويه: الرقة والاحترام، اللذان كان يعامل بهما أصحابه، حتى أقلهم شأناً، فالسماحة والتواضع والرأفة والرقة تغلغلت في نفسه ، ورسخت محبته عند كل من حوله، وكان يكره أن يقول لا، فإن لم يمكنه أن يجيب الطالب على سؤاله ، فضل السكوت على الجواب ، ولقد كان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وقالت عائشة: وكان إذا ساءه شيء تبينا ذلك في أسارير وجهه ولم يمس أحداً بسوء الا في سبيل الله، ويُؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة الدعوة من أحد مهما كان حقيراً ، ولا يرفض هدية مهداة إليه مهما كانت صغيره، وإذا جلس مع أحد أياً كان لم يرفع نحوه ركبته تشامخاً وكبراً"[٢].

يقول العلامة الإنجليزي دُرّاني[٣]، مشيراً إلى خلق الرحمة في النبي ﷺ : "أستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام.. فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحبًا بنا حتى نقتفي أثره[ﷺ]!"[٤].

يقول الدكتور جان ليك في كتابه (العرب): "وحياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله بألفاظ قليلة، بين بها سبب بعث النبي محمد﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقد برهن بنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى المساعدة، كان محمد رحمة حقيقة لليتامى، والفقراء، وابن السبيل، والمنكوبين، والضعفاء، والعمال، وأصحاب الكد والعناء، وإني بلهفة وشو أصلى عليه وعلى أتباعه! "[٥]. يقول واشنجتون ايرفنج، في كتابه (حياة محمد)، مدللاً على خلق الرحمة في شخصية النبي بموقفه في فتح مكة وهو القائد المنتصر: "كانت تصرفات الرسول في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو"[٦].

يتحدث جوستاف لوبون [٧] في كتابه (الدين والحياة)، عن علو أخلاق النبي محمد لاسيما رحمته ورقة قلبه، فيقول: "لقد كان محمد ذا أخلاق عالية، وحكمة، ورقة قلب، ورأفة، ورحمة، وصدق وأمانة"[٨]، وهذه الأخلاق هي التي جذبت آراء المنصفين لنبي الإسلام، وعدَّتُه من أعاظم رجالات التاريخ، فيقول جوستاف لوبون في موضع آخر: "إذا ما قيست

---

(١) –لين بول: رسالة في تاريخ العرب نقلا عن: عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الاسلامي، ص ٤٣٨.

(٢) –وليم موير: حياة محمد ١٤

(٣) –الدكتور م. ج. دُرّاني: سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانيًا في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحًا من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسيسًا منذ عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٦٣ حيث عاد إلى الإسلام.

(٤) –انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٤ / ٢٧ – ٢٨.

(٥) –جان ليك" العرب، ص ٤٣

(٦) –واشنجتون ايرفنج: حياة محمد، ص ٧٢.

(٧) –جوستاف لوبون: وهو مؤرخ فرنسي مشهور، عني بالحضارات الشرقية. من آثاره: (حضارة العرب) ، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس).

(٨) –جوستاف لوبون: الدين والحياة، ص٦٧.

قيمة الرجال بجليل أعمالهم؛ كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله!"[١].

ويتحدث جيمس متشنر عن بعض صور الرحمة في شخص النبي، مشيراً إلى بساطة النبي ، وإنسانيته، ونبله، وحزمه، فيقول متشنر: "إن محمداً هذا الرجل الملهم ، الذي أقام الإسلام، ولد في قبيلة عربية تعبد الأصنام، ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين، وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله، فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده ، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، و نادى بالعدالة الاجتماعية وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكماً بأمره ، أو قديساً، ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبداً من عباد الله أرسله إلى العالم منذراً وبشيراً"[٢] !

البحث السادس: إحصائية شاملة عمّا جرى في حروب النبيﷺ من أحداث [٣]

١ –عدد غزوات النبي هي ٢٦أو٢٧ غزوة وقد باشر النبي القتال في تسع غزوات منها وباقي الغزوات أعدها وحضرها إلا أنه لم يباشر القتال فيها بنفسه، وإنما بواسطة أصحابه، وهذه الغزوات التي لم يباشر فيها النبي القتال لم يقع في أغلبها أي قتلى من الفريقين، وعدد سراياه بلغت تقريباً خمساً وثلاثين سرية، أكبر سرية في هذه السرايا كانت سرية مؤتة التي بلغ عدد جيش المسلمين فيها ثلاثة آلاف، أما باقي السرايا فعددها محدود قد لا يتجاوز المئة جندي، وأغلبها لم يقع فيه قتال! فقط لإعلام وجود ولدفع مضرة الصائل ولبثّ الرهبة فهي وقائية.

٢ –عدد الذين أمر النبي باغتيالهم في الثابت اثنان وهما اليهوديان: كعب بن الأشرف، وسلام بن أبي الحقيق، وقد أمر النبي باغتيالهم بعدما عظمت جرائمهم وإعلامهم الفاسد الكاذب في حق محمد ودينه وليس بالإمكان إيجاد أي حل معهم أو قتال مواجهة، وعدد الذين أهدر النبي دماءهم يتراوح بين ثمانية واثنا عشر فرداً وذلك في فتح مكة بينهم ثلاثة نساء قتلت منهنّ واحدة في الراجح أما التسعة الباقين فقد عفا النبي عن أكثرهم وقتل عدد قليل جداً منهم. [٤]

٣ –المرأة الوحيدة التي أباح النبي قتلها هي من بني قريظة، وقد قتلت قصاصاً لأنها أسقطت رحاً على أحد المسلمين فقتلته، وهذا في الراجح من أمرها، والثابت أنه لم توجد امرأة مقتولة في معارك النبي إلا واحدة وهي التي كانت في حنين وهو الراجح.

٤ – لم يحدث قتل ذرية وأطفال قصداً مع أهلهم المقاتلين في كل معارك النبي إلا في إحدى سراياه بعد حنين، والعدد غير معروف، لكن أجواء السرية يشير إلى عدد محدود جداً، وقد بينت ملابسات هذا الحدث؛ حيث كان خطأً ميدانياً استحق القائمون به اللوم من النبي.

٥ –عدد القتلى التقريبي في كل غزوات النبي وسراياه من المسلمين والمشركين، يتراوح بين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ قتيل كأقصى حد متصور. [٥]

---

(١) –جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١١٥.

(٢) –انظر: حسين الشيخ خضر الظالمين: قالوا في الاسلام ص ٥٠.

(٣) –راجع أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، د. محمد أحمد المبيض، ص ١٥٦–١٦٠قال عن كتابه :حاولت فيه أن أبرز معالم أجمل صفحة من صفحات الحروب عبر التاريخ ، مبيناً مدى المثالية والواقعية التي تميزت بها ، هذه الحروب الرحيمة التي تشهد بأخلاقياتها أن محمداً ليس بشراً عادياً بل هو نبي تحكمه تعاليم السماء ، في أربعة فصول بينت فيها دواعي القتال في السيرة وأخلاقيات الشروع في الحرب ، وأخلاقيات الانتصار ، ثم أبرزت المثالية التي تميزت بها حروب النبيﷺ

(٤) –انظر ابن حجر: فتح الباري (٦٠٤/٧وما بعدها)

(٥) –المعلوم أن أكثر سرايا النبي وكثيراً من غزواته لم يقع فيها أي قتيل ، أما التي وقع فيها قتال فأمكن تفصيل إحصائية مبدئية على النحو التالي : سرية عبد الله بن جحش (١ من المشركين) ، بدر الكبرى (١٤مسلماً ٧٠ مشركاً) ، غزوة السويق (٢ مسلمين) ، غزوة أحد (٧١مسلماً ٢٢ مشركاً) سرية عبد الله بن أنيس (١ مشرك) ، الخندق (٦ مسلمين ٣ مشركين) غزوة بني قريظة (٤٠٠ إلى ٧٠٠ من اليهود) سرية عبد الله بن عتيك (١ يهودي) سرية عبد الله بن رواحة (٣٠ يهودياً) سرية عمرو بن أمية الضمري (١ مسلم ٢ مشرك) سرية محمد بن سلمة (٩ مسلمين في كمين) بني المصطلق (١ مسلم ، عدد غير معروف من بني المصطلق ، وفي رواية أن قتلى بني المصطلق كانوا عشرة) غزوة خيبر (١٦ مسلماً ٩٣ يهودياً) سرية مؤتة (١٢ مسلماً ، عدد غير معروف من الروم) فتح مكة (

٦ – لم تقع أي حالة اغتصاب في كل معارك النبي! بخلاف كل معارك البشرية في القديم والحديث.

٧ – لم يقتل النبي من الأسرى في الحروب إلا ثلاثة: اثنين في بدر، وواحد في أحد.

٨ – لم يعهد عن النبي أنه أوقع أي تصفية داخلية لأي عنصر تابع له أو تحت ولايته مهما كان جرم هذا العنصر حتى الخيانة العظمى.

٩ –المشهور وهو بعد التحقيق خطأ قتل ما بين ٤٠٠ إلى ٧٠٠ من بني قريظة بعد خيانتهم العظمى للمسلمين في عملية ضخمة أريد منها استئصال المسلمين وذراريهم، ورجح البعض أن قتلى بني قريظة كانوا أربعمائة فقط، لكن هناك من رأى أن الرقم أقل بكثير من ذلك ([1])، وقتل أيضاً ابنا ابن أبي الحقيق اليهودي في خيبر بعد نقضهما للعهد وخيانتهما للنبي

١٠ – لم يعهد عن النبي أنه نقض عهداً أبرمه مع العدو في كل معاركه، بل كل حالات نقض العهد وقعت من غير المسلمين؛ كذلك لم يعهد عن النبي أي حالة خيانة أو غدر.

١١ – لم يعهد قتل أي شيخ كبير في معارك النبي إلا دريد بين الصمة الذي شارك في غزوة حنين وكان الخبير العسكري لجيش المشركين، وقد قتلته إحدى سرايا النبي عند ملاحقتها لفلول الفارين، فعلم النبي بمقتله، ولم ينكر ذلك، وهذا الرجل كان قد تجاوز المائة وعشرين سنة، وإقرار النبي لقتله، لأنه كان العقل المدبر لغزوة حنين وكان أحد المشاركين فيها، وكان أثره في المعركة أكثر من أثر مئات المقاتلين؛ لذا قتل من هذا الوجه على اعتبار أنه أحد القادة المخططين للمعركة.

١٢–عدد حالات الغلول أو النهب من المال العام لم تتجاوز عدد قبضة اليد في كل معارك النبي، تم معاقبتها

١٣ –الحالات التي تم فيها تحريق بعض الشجر أو قطعه أو تخريب بعض المباني اقتصرت على غزوتي الطائف و بني النضير، ويقال أيضاً خيبر، وذلك لضرورات حربية، ففي الطائف تم قطع بعض الكروم وضرب حصون الطائف بالمنجنيق وهذا الإجراء من ضرورات الحرب، أما غزوة بني النضير فقد تم قطع شجر النخل لإلجائهم للاستسلام، وتخريب بيوتهم وقع ابتداءً منهم لئلا ينتفع بها المسلمون .

١٤–تعرض النبي عليه السلام في العهد النبوي لعدة محاولات اغتيال منها محاولة بني النضير الفاشلة والتي أدت إلى إجلائهم عن المدينة ، ومنها محاولة عمير بن وهب الذي تواطأ مع صفوان بن أمية ليقوم بهذه المهمة بعد هزيمة بدر ، وبالفعل شحذ سيفه سماً وقدم المدينة بحجة فك ابنه الأسير ، وهناك كاشفه النبي بالمؤامرة التي أعد لها هو وصفوان في حجر الكعبة ، فأسلم حينها لتأكده من صدق نبوة النبي خاصة أنه لم يكن معه وصفوان أحد ، فعلم أن السماء هي التي أخبرت النبي بالأمر ، ومنها أيضاً محاولة فضالة عند فتح مكة [2]، وأخطر محاولة اغتيال تعرض لها النبي تلك التي كانت في خيبر ؛ حيث أهدت له يهودية شاة مسمومة ، وأكل النبي منها قطعة صغيرة ، وأكل معه أيضاً بشر بن معرور ، وانتبه للسم فيها بعدما أخبرته كتف الشاة ، وجيء بالمرأة إلى رسول الله فاعترفت قائلة : أردت قتلك ، فقال لها النبي ما كان الله ليسلطك علي ، قالوا : ألا نقتلها ، قال لا . ولم يتعرض لها ولم يعاقبها.[3]

---

٢ مسلم ١٢ مشركاً) غزوة حنين والطائف وسراياها (عدد غير معلوم من المسلمين وبعض المصادر ذكرت ١٦ مسلماً ، أما عدد المشركين فغير معلوم) ، ووفق الإحصائية السابقة المبدئية يكون قتلى المشركين ٦٢٥ إذا كان عدد قتلى اليهود في بني قريظة ٤٠٠ و٩٢٥ إذا كان عدد القتلى ٧٠٠ ، أما المسلمون فعددهم الإجمالي تقريباً ١٥٠ مسلماً ، ومجموع قتلى الفريقين على اعتبار أن عدد قتلى بني قريظة ٧٠٠ هو ١٠٧٥ أو ٧٧٥ على اعتبار أن قتلى بني قريظة هو ٤٠٠ فإذا أضفنا للعدد الأكبر أربعمائة احتياطاً لجبر الأعداد غير المعلومة في بعض المعارك ، أو للأعداد التي تختلف فيها الروايات المبرزة عدد القتلى ، يكون أقصى حد متصور لقتلى حروب النبي ﷺ من الفريقين هو ألف وخمسمائة شخص تقريباً .

(٤) –كتاب د. محمد احمد المبيض، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية صفحة ١٥٦.

(٢) –انظر ص ١٥٣ من المرجع السابق.

(٣) –الراجح أن النبي في البداية عفا عنها، فلما مات بشر قتلها قصاصاً انظر ابن القيم زاد المعاد (٣٣٦/٣)

النتائج المستقاة من هذه الإحصائية:

ما سبق إحصائية تقريبية مجملة لعشر سنوات من حروب النبي ، تلك الحروب التي غيرت مجرى التاريخ إلى يومنا هذا ، وقلبت حال الجزيرة العربية لتمسك بزمام الحضارة على مستوى العالم القديم بعد أن كانت عبارة عن قبائل متناحرة لا يؤبه لها ، ولا ينظر لأهلها بعين الاحترام من الحضارات المجاورة ؛ بل كان العرب في نظر من حولهم عبارة عن كلاب صحراء وآكلي جُعل ، ونظرة واحدة لهذه الإحصائيات نجد أنها أعظم دليل على مدى مثالية أخلاقيات حروب النبي ، قياساً مع عظمة الإنجازات التي حققتها ، وهي بحق من أرقى أشكال الحروب الرحيمة التي عرفتها البشرية ؛ حيث كانت الأعظم تأثيراً من الناحية الإيجابية ، والأقل كلفة على مستوى الخسائر ، فمجمل الخسائر في الأرواح على مدى العشر سنوات كان في أقصى حدودها ألف وخمسمائة مقاتل من فريقي النزاع ، وقياساً مع عصرنا الذي تزخر فيه المنظمات الدولية الداعية لأخلاقيات الحرب وحقوق المدنيين ومنظمات الحياد المسلح وحقوق الإنسان ، نجد أن كل قتلى العهد النبوي لا يساوي قتلى أسبوع من أسابيع العراق من المدنيين وليس من المقاتلين ، بل أحياناً لا تساوي قتلى قنبلة واحدة من تلك القنابل التي تزن بالأطنان (كقنبلة مؤاب ، أو أم القنابل) ، والتي كانت تلقيها القاذفات الأمريكية على أفغانستان والعراق ،كذلك لو جمعنا كل شبهات المرجفين وأكاذيبهم حول العهد النبوي لوجدناها لا تمثل أيضاً أسبوعاً من انتهاكات الحرب في العراق أو في فلسطين أو في أفغانستان أو في فيتنام سابقاً وهذه حقيقة يجب ألا يزايد عليها أحد ، فدلالة الواقع أصرح دليل على درجة المثالية التي تحلى بها النبي ﷺ وجنده في حروبهم .

الإحصائيات السابقة تشير صراحة إلى أن جيش النبوة كان يخضع لتعاليم السماء التي تشرب قدسيتها، ولا يخضع لنصوص قانونية سرعان ما تتحول لسراب عندما تصطدم مع الواقع، وهناك فرق بين التنظير وبين حقيقة الواقع، ومن هذا الوجه يمكن القول أنه لم توجد حروب في كل التاريخ البشري كانت بهذا الحجم القليل من الخسائر على مستوى الأرواح أو على مستوى الممتلكات، ومن يدعي غير ذلك فيأت بأثارة من علم إن كان من الصادقين، قلة الخسائر تشير إلى أن هناك مبادئ مقدسة كان يخضع لها الجيش وقانوناً عاماً يحكمها يلخصه الغزالي بقوله: « **إن مقصود الشرع تقليل القتل ،كما يقصد حسم سبيله عند الإمكان ، فإن لم نقدر على الحسم قدرنا على التقليل.**»([1])

نلحظ أن كثيراً من المستشرقين بالرغم من سوء نوايا أغلبهم إلا أنهم لاحظوا تلك المثالية التي تحلى بها النبي في حروبه ، والتي لم يعهدوا لها شبيه في غيره من القادة ، وهذه الملاحظة تشير إشارة واضحة إلى مصداقية محمد في نبوته ، بل أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية من أعظم دلائل نبوة محمد ، ولئن كان العهد النبوي يمثل سقف تلك الأخلاقيات على مستوى التاريخ إلا أن المسلمين في حروبهم عبر القرون كانوا يهتدون بهديه بنسب متفاوتة حسب قربهم أو بعدهم عن هدي النبي ، ولعل أقل هذه النسب تمثلاً بأخلاقيات حروب النبي يعتبر من أرقى المثل الحربية الأخلاقية بالنسبة لمن حوله من الأمم ، يعبر المؤرخ المشهور ول ديورانت عن ذلك بقوله : « **إن المسلمين – كما يلوح – كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين ، فقد كانوا أحفظ للعهد منهم ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، قلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م**»([2]) إن مجموع حروب (٢٧ غزوة و٣٥سرية) نستطيع أن نعد بعض الأخطاء فيها كلها عداً على اليد الواحدة لهي حروب مثالية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.

---

(١) –الغزالي: المستصفى (١٧٦)

(٢) –ديورانت: قصة الحضارة (١٣/ ٣٨٣).

هذه الإحصائيات تفضح بشكل واضح كل الأساليب المغرضة من الغرب، والتي تهدف إلى تشويه صورة النبي محمد ووصفه بالدموية والقسوة وهذا واضح في الرسوم المشينة التي صدرت في الدنمارك ، أو تشير إلى أن تعاليمه هي التي عززت العنف ، وهذا واضح من تصريحات بابا الفاتيكان ، ولعل هذه الإحصائيات أو تلك الأخلاقيات التي سبق الحديث عنها لتشير صراحة إلى أن البشرية لم تعرف قائداً رحيماً شبيهاً بمحمد ، و إن الإنسانية جمعاء لتدين لمحمد بتلك الأدبيات التي تميزت بها حروبه والتي أعادت للإنسان إنسانيته بعد أن كاد يفقدها نتيجةً لارتكاسته تحت وطأة الهمجية والعنف والقسوة التي عهدت بها العصور القديمة ؛ يقول مسيو جول لابوم الفرنسي : « **حوالي ميلاد محمد (ﷺ) نبي الإسلام في القرن السادس الميلادي كان جو العالم ملبداً بغيوم الاضطراب والفتن الوحشية في كل مكان حتى كان اعتماد الناس في سبل حياتهم على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وفي عهد هذه الأحوال الحالكة المظلمة ولد محمد بن عبد الله (ﷺ) رسول الإسلام ليتابع طريقه في تخليص الأمم من تحجرها ودفعها إلى سبيل الرقي والعمران ، حتى بلغت الغايات البعيدة التي خلقت لبلوغها**[١]» لذا نقول لهؤلاء الطاعنين إنكم بطعنكم هذا لا تسيئون لأمة المليار فقط ، بل تسيئون أيضاً لإنسانية الإنسان بتشويه أجمل صورة فيه ، وأنى لكم ذلك ؟ لأن محمد في قدر الله السراج المنير، وصنو الشمس في عطائه وبركاته، وهل يملك أحدٌ أن يحجب نور الشمس بغربال [٢]، [٣]

القتال في الإسلام ينبض بنبضات حرية الضمير وانطلاق العدل وضمان المعتقدات على نقيض ما شهدت البشرية في الحروب، وحتى في هذا العصر الموصوف بالتنوير! ديننا لا ينهانا عن أن نَبَرَّ من لم يقاتلنا – فيكون قد قاتل العقل والحرية والقيم الإنسانية– وإن كان مشركًا. فغاية ما يريده المسلم أن يُوَقَّر هذا الدين، ويُوَقَّر إيمانه، وحريته في الدعوة إليه. هذا هو شرطه ليعايش الملل والنحل. ولا يقلقَنَّ غير المسلم على معتقداته، إذ يضمن المسلم شرط توقير دينه؛ ذلك بأن حقوق غير المسلم مكفولة في دينه بقواعد يتعبد بها المسلم ولا يملك دونه فكاكًا، على خلاف ما عند غيره! وإذ يسعى المؤمن لإعلاء كلمة الله وتوقير دينه، يملأ فراغًا لا يمتلكه غيره. فغيره مضمون بضمان دين المسلم، وليس العكس صحيحًا!

وضمان المسلم لحرية معتقدات الملل الأخرى محكوم بقواعد شرعية مرعية في الحرب والسلم. ومهما كان حكمه عقديًّا في تلك المعتقدات، فهو مأمور بالتعايش معها، والتسامح والوفاء والحسنى في الأخذ والعطاء وإقرار حرية العبادة حتى من موقع التحكم والقوة، وإن كان يرى بطلانها وشططها وزيغها. فالقوة والمكنة لا تبيح له التسلط على الضمائر والإكراه في الدين. والإسلام ضمان لذلك، وليس للمسلم في غير الإسلام ضمان لدينه. فمن هنا يتولد شرط توقير الإسلام، والسعي في ذلك بمختلف الوسائل.

حروب النبي ﷺفي نظر المنصفين:

صفحات التاريخ تزخر بشهادات كثير من عقلاء البشرية ممن اطلعوا عن قرب على حياة محمد ﷺ ورسالته وحروبه وأعجبوا بها، فسطروا شهاداتهم مع اختلافهم مع محمدﷺ في الدين والنحلة، بل بعضهم قدم محمداً ﷺ على النبي الذي يتبع دينه من هؤلاء: مايكل هارت في كتابه (العظماء مائة وأعظمهم محمد) ، ويقول عن سبب اختياره لمحمد وكونه الأعظم: « **إن اختياري لمحمد ليقود قائمة أكثر أشخاص العالم تأثيراً في البشرية قد يدهش بعض القراء ، وقد يعترض عليه البعض .. ولكنه – أي محمد – الرجل الوحيد في التاريخ الذي حقق نجاحاً بارزاً في**

---

(١) –نقلاً عن عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام (١٧)

(٢) –راجع كتاب د. محمد احمد المبيض، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية نقولات متفرقة منه.

(٣) –http://rasaelnoor.blogspot.com/2012/06/blog-post_8102.html

كل من المستوى الديني والدنيوي» [١]، وبالمقابل وضع مايكل هارت عيسى الذي يتبع دينه في المرتبة الثالثة ، واعتبر جيمس ماسيرمان اليهودي بطله الأول محمد ﷺ أما موسى فقد وضعه في المرتبة الثانية ، وكذلك رأى وليم ماكنيل أن محمداً يستحق شرف وضعه في أول ثلاثة أسماء في قائمته ، وجيمس جافين النصراني قدم محمداً ﷺ على عيسى ﷺ في قائمته، ويقول عنه توماس كارليل :« **رجل واحد مقابل جميع الرجال.**»[٢] أما لامارتين الفيلسوف الفرنسي الكبير ، فقد قال عن محمد بعد ذكره لكثير من خصاله: « ..**فأي رجل قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم من محمد وأي إنسان صعد هذه المراقي كلها كان عظيماً في جميعها غير هذا الرجل.**» [٣]

شهادات تظهر مدى أخلاقية حروب النبي لأن الإقرار بأخلاقية النبي وسموه باعتباره أعظم شخصية إنسانية عرفها التاريخ هو إقرار بأخلاقية كل تصرفاته على مستوى الحرب والسلم على مدار التاريخ ، بل حروب النبي ﷺ هي التي انتزعت مثل تلك الشهادات ؛ لأن الحروب هي الصفحات الأكثر حساسية في حياة القادة ، وهي الأفصح بياناً في الدلالة على أخلاقياتهم وأخلاقيات جندهم ، يقول: أميل ديرمنجم في كتابه حياة محمد **عن سمو الفضيلة عند النبي ومثالية جيشه «إن محمداً رسول الإسلام قد أبدى في أغلب حياته بل طول حياته اعتدالاً لافتاً للنظر فقد برهن في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثيل في التاريخ ، إذ أمر جنوده أن يعفو عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء وحذرهم من أن يهدموا البيوت أو يسلبوا التجار أو يقطعوا الأشجار المثمرة ، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة ، بل قد بلغنا أنه كان يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً»** [٤]

هذا النص يشير صراحة إلى تلك الأخلاقيات التي تميزت بها حروب النبي ويؤكد على ما ذكرت سابقاً أن الحرب كانت حالة استثنائية ألجأت لها الظروف ، وليست نهجاً توسعياً إحلالياً ،كذلك يتضمن الإشارة إلى ملاحقة النبي للتجاوزات الحاصلة من بعض أفراد جيشه أو قادته الميدانين ومعالجتها ، ويبرز النص السابق مدى المثالية التي تميز بها النبي ﷺ وجيشه في حروبهم ، تلك المثالية التي لم يعهد مثلها في التاريخ في نظر أميل دريما نجم ، مثالية اعتمدت أسلوب الوسطية والاعتدال ، وتأسست على السماحة والعفو والإحسان للأمم المغلوبة .

يقول ول ديورانت: «**إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا أن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله**» [٥] هذا النص يشير إلى أن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية لم تكن وليدة البيئة بل كانت نتاج تربية خلقية عالية قام بها النبي ﷺ ونجح خلالها من التأثير على أقسى القلوب وأكثرها همجية بحكم طبيعة البيئة القاسية التي ألقت بظلالها الكئيبة على أبناءها، وتمكن من رفع المستوى الروحي والخلقي لأتباعه والذي ترجم بدوره في أرض المعارك بشكل مثالي غير معهود مثله عبر التاريخ .

يقول الكاتب الروسي الكبير تولستوي : « **لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام وتكف**

---

(١) –هارت: العظماء مائة أعظمهم محمد (١٣)
(٢) –نقلاً عن ديدات: الرسول الأعظم (٥٠، ١٥)
(٣) –نقلاً عن محمد فهمي عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام (٣١) ديدات: الرسول الأعظم (١٤٣)
(٤) –محمد فهمي عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الاسلام ومشاهير علمائه (٣٣وما بعدها) المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة
(٥) –ديورانت: قصة الحضارة (٤٧/١٣)

عن سفك الدماء ، وتقديم الضحايا ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص ذو قوة وحكمة وعلم ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإجلال .»[١] هذا النص فيه إشارة واضحة إلى تلك المنهجية التي تميزت بها حروب النبي والتي كفلت تحقيق الأمن والسلام في مجتمع ألف الحروب وسفك الدماء . ويقول السير وليم سوبر في كتابه سيرة محمد : « **لقد امتاز محمد (ﷺ) بوضوح كلامه ويسر دينه ، ولقد أتى من الأعمال ما أدهش الألباب ، ولم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، و أحيا الأخلاق الحسنة ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد** (ﷺ).»[٢] هذا النص يشير صراحة إلى عظمة التربية الخلقية التي تميز بها أتباع النبي ﷺ ، بل يرى الكاتب أن النبي ﷺ قد نجح نجاحاً مثالياً غير معهود مثله عبر التاريخ في هذا الشأن ، ويترتب على سمو الفضيلة عند أتباع النبي انعكاس دورها الإيجابي على حروبهم بشكل مثالي غير معهود مثله في التاريخ .

يقول جوستاف لوبون: «**الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والبدهية**»، ثم يقول:« **إن القوة لم تكن عاملاً في نشر القرآن ، وإن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا ، واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى .. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الأمن بينهم ، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب.**»[٣] هذا النص يشير إلى أهم أخلاقيات جيش النبوة ، وهي السماحة والعدل والرحمة واللطف والسهولة و التيسير والإحسان للأمم المغلوبة ، وهذه الأخلاق هي التي كانت وراء انتشار الإسلام ؛ أي أن الغزو الأخلاقي لقلوب الأمم المغلوبة كان أكثر وضوحاً وأعظم أثراً من الحسم العسكري ؛ كذلك في النص الأول إشارة إلى تلك القدرة العجيبة التي تميزت بها رسالة الإسلام في تهذيب النفوس وتعزيز الفضيلة فيها

ويقول المستشرق الفرنسي أ . ل سيديو: «**من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمدﷺ من القسوة** والجبن فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يألُ جهداً في إلغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة **وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على أشد أعدائه بعد فتح مكة ولا في الرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة** .»[٤] هذا النص يشير إلى أن اتهام أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية هو من باب الادعاء، أو من باب الجناية على التاريخ بتزوير حقائقه، ويدحض الكاتب تلك الاتهامات بالتذكير ببعض الأخلاقيات المثالية التي تميز بها جيش النبوة.

---

(١) –جريشة وغيره: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي (٢٩)
(٢) –حسام عبد الله: هذا هو الحبيب (١٨) ط١ /٢٠٠٦ الشركة الفنية للطباعة
(٣) –لوبون: حضارة العرب (١٢٧ وما بعدها)
(٤) –سيديو: تاريخ العرب العام (٨٣) ترجمة عبد الله الشيخ الاهلية للنشر والتوزيع الاردن.

الفصل الثالث: منح البعثة المحمديّة، وأثرها في تاريخ الإنسان.

أولا: مِنَح خاتم النّبيين للبشرية في مجال التنوير والحضارة والعلم والإنسانية

- عقيدة التوحيد النقية الواضحة، ونجاح حركة التنوير.
- مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، كان خاتم النبيين خادم الإنسانية الأمين.
- إعلان كرامة الإنسان وسموّه، وإعلان التسامح الديني!
- إعلان التسامح الديني وسط عالم لا يقبل بالآخر!
- محاربة اليأس وسوء الظن بالفطرة، وبعث الأمل والرجاء في نفس الإنسان:
- الجمع بين الدين والدنيا وإعلاء مفهوم النّية!
- المساهمة في تحضّر العالم بدأ بنقل العرب من القبيلة إلى الدولة والأمة!
- رعاية العلم والمعرفة والإعلاء من الخطاب التربوي العقلاني.
- الخلاصة: ولادة عالم جديد وإنسان جديد

ثانيا: نماذج عن أسلوب معالجته لأهم المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية

أولا: المشكلات السياسية.

١-مشكلة التفرقة العنصرية والدينية والإقليمية

٢-الشورى نظام الفصل بين السلطات.

٣-مشكلة الحرية

٤-مشكلة الاعتداء فيما بين الدول

٥-مشكلة التخوف والتحسس من الآخر

ثانيا: المشكلات الاجتماعية.

١-مشكلة الجهل

٢-مشكلة حقوق المرأة

٣-مشكلة العقوبات

٤-مشكلة الرقّ

ثالثا: المشكلات الاقتصادية.

١-مشكلة الربا.

٢-مشكلة الفقر.

٣-مشكلة البطالة.

أولا: مِنَح خاتم النّبيين للبشرية في مجال التنوير والحضارة والعلم والإنسانية

أكبر مظهر من مظاهر الرحمة، وأروع صورة من صورها الجميلة أن ينقذ أحدنا أخاه من مخالب الموت، تصوّر ماذا يقال لهذا الطبيب مثلاً؟ وإعادة الحياة إليه؟ هنالك تتلاشى كلّ هذه الأنواع من الرحمة التي قدمناها له سابقا أيا كان صورها، وتذوب أمام هذا المظهر الرائع الأخّاذ من الرحمة، إنها ليست منّة على الطفل فقط، بل على أسرته كلّها، نرى أعمى يمشي متكئا على عصاه، قد شارف هوّة عميقة أو بئرا، قد تكون خطوته التالية خطوة الموت، فيهرول إليه إنسان ويأخذ بحجزه، ويمنعه عن الوقوع في هذه الهوّة، أفلا نسمّيه ملك الرحمة؟ شابّ يافع، قرّة عين أبويه، وكفيل عائلته الفقيرة، قد أشرف على الغرق في نهر فائض يحاول أن يطفو على الماء، ولكن بدون جدوى، فيقفز إليه رجل مجازفا بحياته، ويأخذ به إلى ساحل النجاة، فيحمله ربّ الأسرة أو إخوة هذا الشاب على أعناقهم، ويضمّونه إلى صدورهم بحرارة وحبّ، ولا ينسون فضله على أسرتهم الصغيرة مدى الدهر، ترى هل تساوي مظاهر الرحمة الحانية البسيطة هذه الرحمة العظيمة الغالية؟!!.

إن البعثة المحمدية بشهادة كثير من المؤرخين أنقذت الجيل البشري من الشقاء والهلاك إنها أعلى مظهر من مظاهر الرحمة وقيمتها وذروة سنامها، أن ينقذ رجل الإنسانيّة كلّها من الهلاك، وهناك فرق عظيم بين هلاك وهلاك، وبين خطر وخطر، ذلك هلاك محدود سطحيّ، وخطر عابر قد يزول، وهذا هلاك أبديّ، وخطر مستمرّ لا يزول، لذلك فإنّ رحمة الأنبياء بالنوع البشريّ لا تقاس أبدا على هذه الرحمات، رغم أهميّتها وعظمتها.

إنّ أمامنا بحرا هائجا مائجا من الحياة لم يلتقم الأفراد والآحاد فحسب، بل إنّه ابتلع الأمم والبلاد، وهضم الحضارات والمدنيّات، ترتفع أمواجه العاتية الهائلة، كأفواه التماسيح الفاغرة، وتنقضّ على الجماعات البشريّة كالأسد الضاري، والمشكلة أنّه كيف نعبر هذا البحر الهادر الزاخر الذي لا يعرف الرحمة؟، وكيف ننزل بسفينة الإنسانية على برّ الأمان؟ لقد تغيّرت الدّنيا بعد بعثة النّبيّ بفضل تلك التعاليم السامية، كما يتغيّر الطقس، وانتقلت الإنسانية من فصل الجدب إلى فصل الربيع تغيّرت طباع الناس، وأشرقت القلوب بنور ربّها، وعمّ الإقبال على الله، واطّلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه، وذوق لم يجرّبه، وهيام لم يعرفه من قبل.

إنّ هذا الانقلاب العظيم، والدور الزاهر الجديد معجزة من معجزات محمّد ومأثرة من ماثر بعثته، ونفحة من نفحات الرحمة الإلهية التي عمّت الأمكنة كلّها، والأزمنة كلّها، وصدق الله العظيم: {وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، مهمّة النبوّة ودورها في إنقاذ البشريّة المشرفة على الغرق، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرسل، وامتيازها عن سائر أصناف التعليم والتربية، والترويح والتسلية

إنّ التاريخ يدلّنا على أنّ الفكر الإنسانيّ أصيب في كثير من الأحيان بنوبات عصبيّة دفعته إلى التدمير والإبادة، بدلا من التعمير والبناء، ذلك هو الوضع الذي ساد على العالم في القرن السادس المسيحي، فإننا نجد هناك استعدادات عامة للانتحار الاجتماعي العام، لم يكن النوع البشري في ذلك الزمان راضيا بالانتحار فحسب، بل كان يتساقط عليه، ويتهالك فيه، كأنه نذر به وحلف، فيريد أن يفي بنذره ولا يحنث في قسمه، ولقد صور القرآن العظيم هذا المنظر وهذا الوضع تصويرا دقيقا، لا يصوره أي رسام أو أديب، أو روائي أو مؤرخ: {وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها} [آل عمران:١٠٣] .

وصوّره النبيّ فقال: «مثلي كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون

فيها»، وقال في آخرها: «فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها» [١].

ونذكر الآن على سبيل المثال لا الحصر بعضاً من معطياته الهامّة، ومنحه الأساسيّة الغالية التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشريّ، وإصلاحه وإرشاده، ونهضته وازدهاره والتي خلقت عالما مشرقا جديدا لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء. وصدق جون ويليام في كتابه" تاريخ التطور الفكري": "كان لمحمد أعظم تأثير على الجنس البشرى"

١ –عقيدة التوحيد النقية الواضحة ونجاح حركة التنوير [٢]:

مأثرته الأولى أنّه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية: فهي عقيدة ثائرة معجزة، متدفّقة بالقوة والحياة، مدمرة للآلهة الباطلة، لم تنل ولن تنال الإنسانيّة مثلها، هذا الإنسان الذي يحمل دعاوى فارغة، ومزاعم جوفاء من الشعر والفلسفة والسياسة والاجتماع، والذي استعبد الأمم والبلاد مرارا كثيرة، والذي حوّل الأحجار الصمّاء أزهارا عابقة، وفجّر الأنهار من بطون الجبال، والذي ادّعى الرّبوبيّة أحيانا، هذا الإنسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضرّ ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، وكان يركع أمام أشياء صنعها بنفسه، ويخافها، ويرجو منها الخير، إنّه لم يخرّ ساجدا للجبال والأنهار، والأشجار والحيوانات، والأرواح والشياطين، وسائر مظاهر الطبيعة فحسب، بل سجد للحشرات والديدان أيضا، وقضى حياته كلّها بين هواجس ووساوس وبين أخيلة وأوهام، وأمان وأحلام، كانت نتيجته الطبيعيّة الجبن والوهن، والفوضى الفكريّة، والقلق النفسيّ وفقدان الثقة، وعدم الاستقرار. فأغناه خاتم الأنبياء بعقيدة صافية نقيّة سهلة سائغة، حافزة للهمم، باعثة للحياة، فتخلّص من كلّ خوف ووجل، وصار لا يخاف أحدا إلا الله، وعلم علم اليقين، أنّه وحده هو الضارّ والنافع، والمعطي والمانع، وأنّه وحده الكفيل لحاجات البشر.

فتغيّر العالم كلّه في نظره بهذه المعرفة الجديدة، وصار مصونا عن كلّ نوع من العبوديّة والرقّ، وعن كلّ رجاء وخوف من المخلوق، وعن كلّ ما يشتّت ويشوّش الأفكار، فقد شعر بوحدة في هذه الكثرة، واعتبر نفسه أشرف خلق الله، وسيد هذه الأرض، إنّها البعثة المحمدية التي أتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة–عقيدة التوحيد–التي كانت مجهولة مغمورة، مظلومة مغبونة، أكثر من أيّ عقيدة في العالم، ثمّ ردّد صداها العالم كلّه، وتأثرت بها الفلسفات العالمية والدعوات العالميّة كلّها في قليل أو كثير.

إنّ بعض الديانات الكبيرة التي نشأت على الشّرك وتعدّد الآلهة وامتزجت به لحما ودما، اضطرّت في الأخير إلى أن تعترف– ولو بصوت خافت، وهمسة في الآذان– أنّ الله واحد لا شريك له، وأرغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلا فلسفيا يبرّئها من تهمة الشرك، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الإسلام بقدر ما، وبدأ رجالها وسدنتها يستحون من الاعتراف بالشّرك، ويخجلون من ذكره، وأصيبت هذه الأنظمة المشركة كلّها بمركّب النقص، والشعور بالهوان فكانت هذه التحفة أغلى التّحف التي سعدت بها الإنسانيّة بفضل بعثته صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن هو منتهى الرقي في تنقية العقيدة التوحيدية من أية شوائب كفري،؛ يقول د.الطيب بو عزة: يؤكد القرآن دائما دور الكتب المقدسة في المسألة التوحيدية، ومع ذلك يؤكد القرآن دائما على إخراج الذات الإلهية من نطاق الأنانية اليهودية–حيث الرب القومي لليهود–، والتعدد المسيحي—حيث عقيدة الثالوث الموغلة في التشويش والارتياب–، فالله ربُّ العالمين واحدٌ أحدٌ ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، ولذا فقد خرجت التعديلات اللاهوتية اللاحقة على

---

(١) –متفق عليه، البخاري برقم (٦٤٨٣) ، ومسلم برقم (٢٢٨٤) ، والترمذي برقم (٢٨٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) –راجع المحاضرة القيمة لأبي الحسن الندوي المشار إليها في بداية البحث وهي منقولة في كتابه السيرة النبوية ص (٦٢٢–٦٤١).

اليهودية والمسيحية على يد توما الأكويني وموسى بن ميمون كإفراز لقراءتهم المنشور الإسلامي في عقيدته الصافية بالله، والتي شوهتها معاصي اليهود والمسيحيين، فحاول الرجلان تنسيق ديانتيهما بما يتناسب مع المنشور الجديد الذي سيجذب كل أتباع الديانات إليه إذا لم يحدث تدخل سريع لموارية الصدع ومحاولة التقرب من عقيدة الإسلام النقية، وإثبات أن كلتا العقيدتين الأخريين بناؤهما الأصلي وعمادهما أيضا على توحيد الله في الصيغة النهائية، فالتحسينات التي أُ دخلت على العقيدتين لم يكن منها مناص لإيقاف أفواج الداخلين في الدين الجديد"

لقد كان النبي تنويرياً عملاقاً، وتوحيديًا كبيرًا، يحمل كتاباً نورانياً لم يعرف التاريخ كتاباً مثله في الإحكام وروعة البيان ومعالجته لمشكلات الإنسانية، وإذا كان بعض علماء الغرب أطلقوا صفة التنوير على النبي، فالحق أن القرآن الكريم سبقهم وأطلقها عليه، وهذه الصفة في القرآن تعبر في الغالب عن التوحيد، إضافة إلى العلم والحضارة والمدنية: قال الله تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ...، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦] ، وقال: ﴿قد جاءكم منَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] ، " نوراً هادئاً هادياً كالسراج المنير في الظلمات هكذا كان رسول اللهﷺ وما جاء به من النور، جاء بالتصور الواضح البيّن النيّر لهذا الوجود، ولعلاقة الوجود بالخالق، ولمكان الكائن الإنساني من هذا الوجود وخالقه، وللقيم التي يقوم عليها الوجود كله، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه؛ وللمنشأ والمصير، والهدف والغاية، والطريق والوسيلة"(١).

يقول نظمي لوقا: "أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من أبي القاسم؛ الذي حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام"(٢) ، ويقول المستشرق الأيرلندي المستر هربرت وايل: "بعد ستمائة سنة من ظهور المسيح ظهر محمد فأزال كل الأوهام، وحرم عبادة الأوهام، وكان يلقبه الناس بالأمين، لما كان عليه من الصدق والأمانة وهو الذي أرشد أهل الضلال إلى الصراط المستقيم" (٣).

إن عظمة النبي البارزة لكل متبصر، تكمن في أنه كان حامل رسالة سماوية تنويرية، عنوانها لا إله إلا الله، تهدف أساساً إلى إصلاح حياة البشرية عامة، تحريرها من عبادة الأوثان والشيطان، ومن ثم نقلها من البربرية والوثنية إلى الحضارة المستنيرة، جاء النبي بشريعة خلقت جيلاً فريداً ضرب المثل الأعلى في النبوغ العقدي والفكري، الأمر الذي دفع علماء الغرب إلى النظر للإسلام على أنه دين تنويري، أو بعبارة الدكتور مكسيم رودنسن: "دين عقلاني بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل، ثم إنه وفّق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة في المجتمع. وخلاصة القول فهو كدين كان قريبًا جدًا من الدين الطبيعي الذي كان يعتقد به معظم رجال عصر التنوير."(٤)

ولذلك يقول الأستاذ القانوني الإنكليزي المستر ولز: "كل شريعة لا تسير مع المدنية في طور من أطوارها فاضرب بها عرض الحائط ولا تبال بها! لأن الشريعة التي لا تسير مع المدنية جنبًا إلى جنب هي شر مستطير على أصحابها، تجرهم إلى الهلاك، وإن الشريعة التي وجدتُها تسير مع المدنية، أنى سارت هي الشريعة الإسلامية"(٥)، ويدلل على ذلك قائلاً: " وإذا أراد إنسان أن يعرف شيئًا من هذا؛ فليقرأ القرآن وما به من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، فهو كتاب ديني، علمي، اجتماعي، تهذيبي، خُلقي، تاريخي، وكثير من أنظمته وقوانينيه تستعمل حتى في وقتنا الحالي، وستبقى

(١) –سيد قطب: في ظلال القرآن– (ج ٦ / ص ٩١)
(٢) –نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص ١٢.
(٣) –هربرت وايل: المعلم الأكبر، ص ١٧
(٤) –انظر: شاخت وبوزورت: تراث الإسلام 1 / ٦٤ – ٦٦.
(٥) –انظر: حكمت بشير ياسين، عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان، ٣٣٧

مستعمله حتى قيام الساعة، وهل في استطاعة إنسان أن يأتي بدور من الأدوار كانت فيه الشريعة الإسلامية مغايرة للمدنية والتقدم ؟ ! "[١].

إن الشريعة الإسلامية كانت خير هدية من الله للعالم المتحضر، على حد قول جوزيف شاخت[٢] فهي" تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون، إلى حدّ أن دراستها أمر لا غنى عنه لكي نقدر المدى الكامل للأمور القانونية تقديرًا كافيًا.. إن الشريعة الإسلامية شيء فريد في بابه، وهي جملة الأوامر الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهي تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية.."[٣]

ويبين "ديبورا بوتر": أن الإسلام جاء بعصر التنوير الحقيقي في المجالات الحياتية المختلفة، فيقول: "لقد جاء الإسلام بعصر التنوير الحقيقي في المجالات العلمية والثقافية والفنية بصورة لم يسبق لها مثيل في عظمتها إلى يوم الناس هذا، فبين عام ٧٠٠ و١٤٠٠ بعد الميلاد، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغط في سبات عميق في عصور الظلام المسماة بالعصور الوسطى، كان العلماء المسلمون قد توصلوا إلى المنهج التجريبي في البحث الذي حلّ محل المنهج المنطقي العقيم الذي كان سائدًا عند الإغريق قبل ذلك، لقد أنتجت هذه الحقبة من الزمان للدنيا رجالاً عظماء، ساهموا مساهمة عظيمة في تشييد صرح الحضارة الإنسانية وكانوا يستلهمون هديهم من القرآن الكريم في جميع نشاطاتهم"[٤].

دخل الرسولﷺ في صراع ونضال ضد أصحاب عصر الظلام، والنزعات الرجعية، والموروثات المتخلفة التي عفى عليها الزمن، كما تبين لورافيشيا فاغليري بقولها: "دعا الرسول العربي بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرّفتين على أصفى عقيدة توحيدية. وارتضى أن يخوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى."[٥].

ولقد بذل النبيﷺ مجهوداً ضخماً في سبيل تنوير العرب ودحر الوثنية، يبّين ذلك المؤرخ الأمريكي واشنجتون إيرفنج بقوله: "لقي الرسول كثيرًا من العناء، وبذل عدة تضحيات. فقد شك الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحًا كبيرًا، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك، وتخلى عن كل متع الحياة وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة. "[٦].

ويؤكد ذلك هنري دي كاستري بقوله: "ولقد نعلم أن محمدًا مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلامًا نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمخّضت للدين، ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان، ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون، وكان بغضهما متمكنًا من قلبه، وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه، ولعمري! فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيّل وقوة الإدراك، إلا أن يقول مرارًا ويعيد تكرارًا هذه الكلمات "الله أحد الله أحد". كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد."[٧].

---

(١) –انظر: حكمت بشير ياسين، عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان، ٣٣٧

(٢) –جوزيف شاخت: ولد عام ١٩٠٢، وعين أستاذًا في عدد من الجامعات الألمانية (١٩٢٧–١٩٣٤)، ومحاضرًا للدراسات الإسلامية في جامعة أكسفورد (١٩٤٨)، وليدن (١٩٥٤)، وكولومبيا (١٩٥٧–١٩٥٨)، وقد اشتهر بدراسة التشريع الإسلامي وبيان نشأته وتطوره. من آثاره: (دين الإسلام) (١٩٣١)، و(نشأة الفقه في الإسلام) (١٩٥٠)، و(خلاصة تاريخ الفقه الإسلامي) (١٩٥٢).

(٣) –انظر: شاخت وبوزورت: تراث الإسلام ٣ / ٩.

(٤) –انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٨ / ١١٠٨ –١٠٩.

(٥) –لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص ٤٣.

(٦) –إميل درمنغم: حياة محمد، ص ٣٠٠.

(٧) –هنري دي كاستري: الإسلام: خواطر وسوانح، ص١٦، ١٧

وتقول الكاتبة الإنكليزية اللادي ايفلين كوبولد[١]: "كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد بعث هذه الأمة بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً... لقد استطاع النبي القيام بالمعجزات والعجائب، لَمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية.. لقد وفّق إلى خلق العرب خلقًا جديدًا ونقلهم من الظلمات إلى النور"[٢].

نجاح حركة التنوير: وإن المبهر في سيرة النبيﷺ أنه هدّم الأصنام بأيد من صنعوها وعبدوها، وهذا لاشك من دلائل نجاح حركة التنوير التي قادها النبيﷺ، فهدمها سدنتها أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص و سعد بن زيد بن الأشهلي، وما أروعهم! بعدما قاتلوا في سبيل هذه الأوثان والحجارة، هُم هُم الذين يهدمونها بأيديهم، ويحطمونها بسواعدهم!! ولا شك أن هذا أوقع في قلوب الناس، لجذبهم إلى طريق التوحيد، فلما دخل النبيﷺ مكة (في رمضان ٨هـ/يناير ٦٣٠ م) في يوم فتحها، متجهاً إلى البيت، وحوله ثلاثمائة وستون صنماً، جعل يطعنها الواحدة تلو الأخرى بعود في يده، وهو يقول: {جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد}[٣]، وكان في جوف الكعبة أيضا أصناماً فأبى أن يدخل وفيها هذه الأوثان ، وأمر بها فأخرجت وأخرجت صور لإبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام[٤]، فقال النبي ﷺ: " قاتلهم الله ! لقد علموا ما استقسما بها قط "، ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت [٥]، أما عن الأصنام والأوثان المنتشرة في الجزيرة العربية، فقد أرسل إليها رجاله، ليهدموها واحداً تلو الآخر، ليسدل الستار بذلك على عصر الظلام.

فإليك هذه المشاهد:

١. لما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح؛ بعث خالد بن الوليد إلى صنم العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ٨ هـ (يناير ٦٣٠ م) ليهدمها وكانت بنخلة –بين مكة والطائف–، وكانت لقريش وجميع بني كنانة وهي أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بني شيبان، فخرج إليها خالد في ثلاثين فارسًا حتى انتهى إليها، فهدمها[٦].

٢ –وبعث النبي عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى الصنم سواع ليهدمه وهو صنم لهذيل برهاط، على قرابة ١٥٠ كيلوا مترا شمال شرقي مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟ قال: أمرني رسول الله أن أهدمه قال: لا تقدر على ذلك قال: لم ؟ قال تُمنع قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله![٧].

٣ –وفي الشهر نفسه بعث القائد سعد بن زيد بن الأشهلي في عشرين فارسًا إلى الصنم مناة وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، أرأيت كيف تحول حال هؤلاء الصحابة من أناس يقدسون الأصنام والأوثان إلى رجال موحدين، وقادة فاتحين، وعلماء ومفكرين؟!.

وهكذا كان النبي كما وصفه جورج حنا بأنه "كان ثائرًا، عندما أبى أن يماشي أهل الصحراء في عبادة الأصنام وفي عاداتهم الهمجية وفي مجتمعهم البربري. فأضرمها حربًا لا هوادة فيها على جاهلية المشركين وأسيادهم وآلهتهم. فكفره

---

(١) –كاتبة إنجليزية، اعتنقت الإســـلام وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة) (لندن ١٩٣٤) والذي ترجم إلى العربية بعنوان: (البحث عن الله).

(٢) –اللادي ايفلين كوبولد: البحث عن الله، ص٥١، ٦٦

(٣) –انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، ٣\ ٥٧٣، والبداية والنهاية ٤\ ٣٤٦

(٤) –السهام التي كانوا يستقسمون بها الخير والشر، وهو عمل سخيف، يعيق الإنسان عن العمل والحركة، إلا بقرار من هذه الأزلام!

(٥) –المصدر السابق

(٦) –انظر: صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ٤٧١.

(٧) –انظر: المصدر السابق

قومه واضطهدوه وأضمروا له الموت. فهاجر تحت جنح الليل مع نفر من أتباعه، وما تخلى عن النضال في نشر دعوته، وما أحجم عن تجريد السيف من أجلها. فأخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية تجمع بين مئات الملايين من البشر في أقطار المعمورة" [١].

وهكذا تتجلى أهم مظاهر رحمة خاتم النبيين للعالمين: والتي تتمثل في كونه المحرر الأعظم للبشر في إخراجهم من دركات عبادة الحجارة إلى مستوى عبادة الخالق سبحانه وتعالى، وكون الإنسان لا يعبد مخلوقا، دلالة على حريته وكرامته، أما عابد النار، وعابد الحجارة، وعابد البقرة، فلا شك أنه لا يهنئ بحياة إنسانية كريمة، قد قيدتها الموروثات العقدية الواهية، فكون خاتم النبيين يجعل من جوهر رسالته أن يخرج هؤلاء البشر من هذا الحضيض إلى الحياة الإسلامية الشريفة؛ فذلك مظهر من مظاهر رحمته، وكان هذا هو ديدنه حتى كان له الفضل الأكبر في تحويل سدنة الأوثان إلى علماء، ودعاة حضارة وتنوير!

وأخيرا نقول مع نظمي لوقا: "أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من أبي القاسم؛ الذي حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام"[٢] .

٢–مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، كان خاتم النبيين خادم الإنسانية الأمين.

ومأثرته الثانية العظيمة، ومنّته الباقية السائرة في العالم، هو تصوّر الوحدة الإنسانيّة والمساواة البشرية، كان الإنسان موزّعا بين طبقات بعضها دون بعض، وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتا هائلا كتفاوت ما بين الإنسان والحيوان، وبين الحرّ والعبد، وبين العابد والمعبود، لم تكن هناك فكرة عن الوحدة والمساواة إطلاقا، فأعلن النّبيّ بعد قرون طويلة من الصّمت المطبق والظلام السائد ذلك الإعلان الثائر المدهش للعقول القالب للأوضاع: «أيّها الناس إن ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم، وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيّ على أعجميّ فضل إلّا بالتقوى»[٣]

وهذا الإعلان يتضمّن إعلانين، هما الدّعامتان اللّتان يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام السلام في كلّ زمان ومكان، وهما: **وحدة الربوبية والوحدة البشريّة**، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين، والإنسان أخو الإنسان مرتين، مرة «وهي الأساس» لأنّ الربّ واحد، ومرة ثانية لأنّ الأب واحد{يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً} [النساء: ١] ، {يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] .

إنّها كلمات خالدة جرت على لسان خاتم النبيين في حجّة الوداع، وحينما قام بهذا الإعلان التاريخيّ العظيم، لم يكن العالم في وضع طبيعيّ هادئ يسيغ فيه هذه الكلمات الجريئة الصريحة، ويطيقها، إنّ هذا الإعلان لم يكن أقلّ من زلزال هائل عنيف، إنّ هناك أشياء قد تتحمّلها بصورة تدريجيّة، أو من وراء ستار، مثل التيار الكهربائيّ، فقد نلمسه إذا كان مغطى، أو داخلا في باطن الأسلاك، ولكنّنا إذا لمسناه عاريا أصابتنا صدمة عنيفة، أو قضي علينا بتاتا.

إنّ هذه الأشواط البعيدة، والمسافات الشاسعة من العلم والفهم، والفكر الإنسانيّ التي قطعتها الإنسانيّة اليوم بفضل الدعوة الإسلاميّة، وظهور المجتمع الإسلاميّ، وبجهود الدعاة، والمصلحين والمربّين، جعلت هذا الإعلان الهائل، الثائر الفائر، المزلزل لأوكار الجاهلية، ومعاقل الشرك والوثنيّة والعنصريّة في العالم، منها ميثاق حقوق الإنسان الذي حملت

---

(١) –جورج حنا: قصة الإنسان، ص ٢٥

(٢) –نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص ١٢.

(٣) –كنز العمال (٣/ ٩٣) برقم (٥٦٥٢).

لواءه الأمم المتّحدة، وتصريحات تقوم بها كلّ جمهورية وكلّ مؤسّسة عن الحقوق الإنسانية، والمساواة الإنسانيّة، فلا يستغربها أحد.

ولكن أتى على الإنسان حين من الدهر، سادت فيه عقيدة أشرفيّة بعض الأمم والأسر وكونها فوق مستوى البشر، وكانت بعض الأسر والسّلالات تعزو نسبها إلى الشمس والقمر، وإلى الله سبحانه: {سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرا} [الإسراء: ٤٣] ، إنّ القرآن حكى لنا قول اليهود والنصارى، فقال: {وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة: ١٨] ، وكان فراعنة مصر يزعمون أنّهم تجسيد لإله الشمس «ر ع) «ومظهر له، أمّا في الهند فقد عرفت فيها أسرتان سمّيتا «سورج بنسي» يعني: أبناء الشمس، و «جندربنسي» أبناء القمر ، أمّا في إيران فقد كانت أكاسرتها يزعمون أنّه يجري في عروقهم الدم الإلهيّ، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظرة تقديس وتأليه، وكان من ألقاب كسرى أبرويز (٥٩٠- ٦٢٨ م) ووصفه: «في الآلهة إنسان غير فان، وفي البشر إله ليس له ثان، علت كلمته، وارتفع مجده، يطلع مع الشمس بضوئه وينير الليالي المظلمة بنوره» [١] ،وكذلك كانت القياصرة آلهة، فكان كلّ من تملّك زمام البلاد كان إلها، وكان لقبهم(August)يعني «المهيب الجليل» [٢] ،أمّا الصّينيون فكانوا يعتبرون الإمبراطور ابن السّماء، ويعتقدون أنّ السماء ذكر والأرض أنثى، وباتصالهما خلق هذا الكون، وأنّ الإمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين[٣] .أمّا العرب فكانوا يعتبرون كلّ من سواهم «العجم» وكانت قبيلة قريش ترى نفسها أشرف قبائل العرب، وتحافظ على امتيازها في الموسم، فلا تشارك الناس في مواقفهم ومساكنهم ، ولم تكن تدخل عرفات مع الحجيج، بل تبقى في الحرم وتقف بالمزدلفة، وتقول: نحن أهل الله في بلدته، وقطّان بيته، وتقول: نحن حمس [٤].

يؤكد القرآن دائما على إخراج الذات الإلهية من نطاق الأنانية اليهودية — حيث الرب القومي لليهود- ، والتعدد المسيحي — حيث عقيدة الثالوث الموغلة في التشويش والارتياب- ، فالله ربُّ العالمين واحدٌ أحدٌ ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، ولذا فقد خرجت التعديلات اللاهوتية اللاحقة على اليهودية والمسيحية على يد توما الاكويني وموسى بن ميمون كإفراز لقراءتهم المنشور الإسلامي في عقيدته الصافية بالله، والتي شوهتها معاصي اليهود والمسيحيين، فحاول الرجلان تنسيق ديانتيهما بما يتناسب مع المنشور الجديد الذي سيجذب كل أتباع الديانات إليه إذا لم يحدث تدخل سريع لمواربة الصدع ومحاولة التقرب من عقيدة الإسلام النقية، وإثبات أن كلتا العقيدتين الأخريين بناؤهما الأصلي وعمادهما أيضا على توحيد الله في الصيغة النهائية، فالتحسينات التي أُ دخلت على العقيدتين لم يكن منها مناص لإيقاف أفواج الداخلين في الدين الجديد[٥].

محمد ﷺخادم الإنسانية: لقد عاش خاتم النبيين حياته يخدم الإنسان، ويهذب الإنسان، ويعلم الإنسان، ويدافع عن الإنسان! لقد كان إنسانًا بكل ما في الكلمة من معان. وكانت سعادة نفسه ورضاها، في كونه إنسانًا، يأكل كما يأكل العبد، ويلبس كما يلبس العبد، يسأل ربه دومًا أن يحيه مسكينًا وأن يمته مسكينًا، وأن يحشره في زمرة المساكين، ولا يأنف أن يطمئن رجلاً دخل على حضرته، وقد ارتعدت أوصال الرجل، من شدة هيبة النبي، ظنًا منه أنه إنما دخل على جبار أو ملك، والنبي يهدئ من روعه قائلاً: " هون عليك! فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت

(١) -إيران في عهد الساسانيين: ص ٦٠٤.
(٢) -راجع العالم الروماني) The Roman World (تأليف،) Victor Chopart ص ٤١٨.
(٣) -انظر «تاريخ الصين» بقلم جيمس كاركون.
(٤) -انظر كتب الحديث والسيرة، للعلم عرفات خارج الحرم، (والحمس: قريش وما ولدت، أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب التعجيل إلى الموقف، برقم (١٦٦٥)، ومسلم في كتاب الحج، باب في الوقوف، وقوله تعالى ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ. برقم (١٢١٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) —عن بعض مقالات د .الطيب بو عزة على منتدى التوحيد

تأكل القديد!"[١].

"لقد كان محمد أنموذجًا للحياة الإنسانية بسيرته وصدق إيمانه بل مثالاً كاملاً للأمانة والاستقامة وإن تضحياته في سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على سموّ ذاته ونبل مقصده وعظمة شخصيته وقدسية نبوته... وما حياة الرسول سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن نبيلة المرمى يتجلى فيها مقامه السامي من الحلقة الإنسانية "[٢]

تقول "اللادي ايفلين كوبولد": "لعمري، ليجدنّ المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر محمد روعة ما يستطيع لها تفسيرًا، وهي روعة تملأ النفس اضطرابًا وذهولاً ورجاء وخوفًا وأملاً، ذلك أنه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم، إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية"[٣].

ويؤكد القس "دافيد بنجامين كلدانى" في مؤلفه: " محمد في الكتاب المقدس " هذه الحقيقة بأن النبيﷺ "خادم الإنسانية" بقوله: "إن الخدمة الجليلة العظيمة المدهشة التي قدمها محمد لله .. ولصالح البشر، لم يقدمها أي مخلوق من عباد الله ملكاً كان أو نبياً... فإنه أقلع جذور الوثنية من جزء كبير من الأرض، وأما خدمته للإنسان فقد قدم له أكمل دين وأفضل شريعة لإرشاده وأمنه "[٤].

ويتابع القس كلدانى القول: " أقام دين الإسلام الذي وحّد في أخوة حقيقية، جميع الأمم والشعوب التي لا تشرك بالله شيئاً إن جميع الشعوب الإسلامية تطيع رسول الله وتحبه تحترمه! لأنه مؤسس دعائم دينها، ولكنها لا تعبده أبداً ولا ترفعه إلى مقام التقديس والتأليه"[٥].

ويقول الباحث السويسري ماكس فان برشم (١٨٦٣_١٩٢١): " إن محمداً نبي العرب من أكبر مريدي الخير للإنسانية، وإن ظهور محمد للعالم أجمع إنما هو أثر عقل عال، وإن افتخرت آسية بأبنائها فيحق لها أن تفتخر بهذا الرجل العظيم."[٦]، وتلخص الموسوعة البريطانية السيرة الكفاحية لحياة الرسول واجتهاده في خدمة الإنسانية عربياً وعالمياً فتقول: "إن محمداً اجتهد في الله، وفي نجاة أمته، وبالأصح: اجتهد في سبيل الإنسانية جمعاء"[٧]، و "ما أجمل ما قال المعلم العظيم:(الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ.)"[٨].

خطبة الوداع: الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان: وقد جاء في هذه الخطبة الجامعة: "أيها الناس! إني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا، بمكاني هذا، فرحم الله من سمع مقالتي اليوم فوعاها، فرب حامل فقه ولا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[٩].

" إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . وكان

---

(١) –صحيح –رواه الحاكم عن أبي مسعود، رقم ٣٦٩٢، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٧٦): صحيح.

(٢) –أحمد سوسة: في طريقي إلى الإسلام ص ١ / ١٧٤ – ١٧٥.

(٣) –اللادي ايفلين كوبولد: البحث عن الله، ص٥٢.

(٤) –دايفد بنجامين كلداني (عبد الأحد داوود): محمد في الكتاب المقدس، ٨٢.

(٥) –المصدر السابق.

(٦) –ماكس فان برشم: العرب في آسية، ٥٧

(٧) –الموسوعة البريطانية

(٨) –جان ليك: العرب، ص ٤٣. والاستشهاد بالحديث من جان ليك. وحديث :(الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ.) هو حديث رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم ٩٨٩١، وفي رواية البيقهي في شعب الإيمان، «الخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق أنفعهم لعياله» برقم ٧١٩٣، ولقد ضعف الألباني هذه الصيغة في " السلسلة الضعيفة والموضوعة " ٤ / ٣٧٢، لكنه صحح الصيغة الآخرى في حديث: " الخلق كلهم عيال الله، وتحت كنفه، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله " في الصحيحة " (٤٢٧).

(٩) –صحيح –سنن الدارمي١\ ٨٦، برقم ٢٢٧، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن والحديث صحيح.

مسترضعاً في بني سعد فقتلته هُذَيْل . وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله"[١].

" لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا يُؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه!"[٢].

" واعلموا أن القلوب لا تغل على ثلاث إخلاص العمل لله ومناصحة أولي الأمر وعلى لزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم "[٣]

"فاتقوا اللّه في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة اللّه، واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله[٤].

"أيها الناس! إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم واعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا ولاة أمركم تدخلوا جنة ربكم."[٥].

"وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ " قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: "اللهم اشهد!!"ثلاث مرات[٦].

ويعلق "هربرت جورج ولز "على هذه الخطبة فيقول: "إنّ أول فقرة فيها تحرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة، إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها"[٧]

ويعلق العلامة إميل درمنغم، على هذه الرحلة العظيمة، وهذه الخطبة البليغة، قائلاً: ".. تجلت بهذه الرحلة الباهرة [حجة الوداع] ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي الذي أنهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة."[٨]

و"مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الإنسانية الرحيم، أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق، وابن أمنا الأولى وأبينا الأول"[٩].

٣ –إعلان كرامة الإنسان وسموّه، وإعلان التسامح الديني!

والمنّة الثالثة العظيمة على النوع البشريّ، هو إعلان كرامة الإنسان وسموّه، وشرف الإنسانيّة وعلوّ قدرها: لقد بلغ الإنسان قبل البعثة المحمديّة إلى حضيض الذلّ والهوان، فلم يكن على وجه الأرض شيء أصغر منه وأحقر، وكانت بعض الحيوانات «المقدّسة» وبعض الأشجار «المقدّسة» التي علقت بها أساطير ومعتقدات خاصة أكرم وأعزّ عند عبّادها، وأجدر بالصيانة، والمحافظة عليها من الإنسان، ولو كان ذلك على حساب قتل الأبرياء، وسفك الدماء. وكانت تقدّم

---

(١) –صحيح –رواه ابن حبان، عن جابر، ١٤٥٧، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح
(٢) –صحيح –السلسلة الصحيحة، رقم ١٩٧٤
(٣) –صحيح –سنن الدارمي ١\ ٨٦، برقم ٢٢٧، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن والحديث صحيح
(٤) –صحيح – رواه مسلم ٢ \٨٨٦، برقم ١٢١٨
(٥) –صحيح – رواه الطبراني في المعجم الكبير ٨ \ ١٣٦، برقم ٧٦١٧، وقال الألباني: صحيح (ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم رقم ١٠٦١)
(٦) –صحيح – رواه ابن حبان، عن جابر،١٤٥٧، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح
(٧) –هربرت جورج ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٠ – ٦٤١
(٨) –اميل درمنغم: حياة محمد، ص ٣٥٩
(٩) –هذه الجملة لتوماس كارلايل: الابطال، ص ٨٤–٨٥

لها القرابين من دم الإنسان ولحمه من غير وخز ضمير وتأنيب قلب، وقد رأينا بعض نماذجها وصورها البشعة في بلاد متقدّمة راقية، كالهند في القرن العشرين.

فأعاد خاتم النبيين إلى الإنسانيّة كرامتها وشرفها، وردّ إليها اعتبارها وقيمتها، وأعلن أنّ الإنسان أعزّ وجود في هذا الكون، وأغلى جوهر في هذا العالم، وليس هنا شيء أشرف وأكرم، وأجدر بالحبّ، وأحقّ بالحفاظ عليه من هذا الإنسان، إنّه رفع مكانته حتى صار الإنسان خليفة الله ونائبه، خلق له العالم، وهو خُلق لله وحده،{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} [البقرة: ٢٩] ، وأنّه أشرف خلق الله، وفي مكان الرئاسة والصدارة: {وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠] .

وليس أدلّ على كرامته والاعتراف بعظمته من قوله: «الخلق عيال الله، فأحبّ النّاس إلى الله من أحسن إلى عياله» [(١)]. وليس هنا أبلغ في الدلالة على سموّ الإنسانيّة، والتقرّب إلى الله بخدمتها، والعطف عليها، من الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول يوم القيامة: يابن آدم، مرضت فلم تعدني! قال: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أنّ عبدي فلانا مرض فلم تعده! أما علمت أنّك لو عدته لوجدتني عنده. يابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني! قال: يا ربّ كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أنّه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنّك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنّك لو سقيته لوجدت ذلك عندي» [(٢)].

هل يتصوّر إعلان أوضح وأفصح بسموّ إنسانيته، وعلوّ مكانة الإنسان من هذا الإعلان؟ وهل فاز الإنسان بهذه المكانة السامقة والشرف العالي في أيّ ديانة وفلسفة في العالم القديم والحديث؟.

إنّه صلى الله عليه وسلم جعل الرحمة على بني آدم الشرط اللازم لجلب رحمة الله، فقال عليه السلام: «الرّاحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» [(٣)]، ترى ما كان عليه وضع العالم، وحالته الاجتماعيّة والسياسية، قبل أن ينهض النّبيّ صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة، دعوة الوحدة الإنسانيّة، والكرامة الإنسانيّة، ويجاهد في سبيلها أبلغ جهاد؟ لقد كان ثمن شهوة فرد واحد، وهوى شخص واحد قبل بعثته صلى الله عليه وسلم أكبر، وأغلى من أرواح الآلاف ومئات الآلاف من البشر، ينهض ملك واحد، وإمبراطور واحد، يكتسح البلاد، ويستعبد العباد، ويضرب الرقاب، ويهلك الحرث والنسل، ويأتي على الأخضر واليابس، لتحقيق مأرب حقير في نفسه، ويزحف الإسكندر حتّى يبلغ الهند، ويدمّر في طريقه حضارات ومدنيّات، وينهض شرّه ويقتنص الفئات البشريّة، كما يقتنص أحدنا حيوانات الغابة.

واندلعت في زماننا حربان عالميتان ذهب ضحيتهما ملايين، ولم يكن ذلك إلا نتيجة صلف قوميّ، وأنانية فردية، وشهوة الحكم، والسّيطرة على الأسواق التجاريّة العالمية.

٤-إعلان التسامح الديني وسط عالم لا يقبل بالآخر!

المأثرة الرابعة هي التسامح الديني بين الطوائف والجماعات والدول والذي تبناه خاتم النبيين ودعا إليه وهو يعد من أهم مظاهر رحمته وحكمته، وقد كانﷺ نموذجًا فذا في التسامح الديني، فالنبي لم يُكره اليهود ولا النصارى على قبول

(١) -أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٦) برقم (٥٥٤١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

(٢) -أخرجه مسلم في صحيحه [في كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، برقم (٢٥٦٩)].

(٣) -أخرجه أبو داود برقم (٤٩٣١)، والترمذي برقم (١٩٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال: هذا حديث حسن صحيح].

دينه، لأنهم أهل الكتاب، بل أمر النبي بإكرام علماء أهل الكتاب كالبطاركة والرهبان وخدمهم وحرم قتل الرهبان–على الخصوص–حتى في حال الحرب، إن "**محمد الحاكم المتسامح الحكيم المشرع**"(١): التسامح عند خاتم النبيين كما يقول الباحث الفرنسي مارسيل بوازار: "هو واجب ديني وأمر شرعي"(٢).

ويقول الفيلسوف الألماني "غوته" في كتابه (أخلاق المسلمين وعاداتهم): "ولا شك أن التسامح الأكبر أمام اعتداء أصحاب الديانات الأخرى، وأمام إرهاصات وتخريفات اللادينيين، التسامح بمعناه الإلهي، غرسه رسول الإسلام في نفوس المسلمين، فقد كان محمد المتسامح الأكبر، ولم يتخذ رسول الإسلام موقفاً صعباً ضد كل الذين كانوا يعتدون عليه بالسب أو بمد الأيدي أو بعرقلة الطريق وما شابه ذلك، فقد كان متسامحاً؛ فتبعه أصحابه وتبعه المسلمون، وكانت وما زالت صفة التسامح هي إحدى المميزات والسمات الراقية للدين الإسلامي، وللحق أقول: إن تسامح المسلم ليس من ضعف؛ ولكن المسلم يتسامح مع اعتزازه بدينه، وتمسكه بعقيدته"(٣).

وتتحدث لورافيشيا فاغليري عن مظهر التسامح الديني عند النبي، فتقول: "كان محمد المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا اعتقادًا منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور، لقد عرف جيدًا أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري"(٤)

إن سياسة التسامح الديني التي انتهجها تجاه أصحاب الديانات الأخرى حظيت باحترام وتقدير المفكرين الغرب فعقدوا المقارنة بين تسامح الإسلام وتعصب الصليبيين، يقول القس الألماني ميشون: "إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو الذي أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب وحرم قتل الرهبان–على الخصوص–لعكوفهم على العبادات ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ..وقد ذبح الصليبيون المسلمين و حرقوا اليهود عندما دخلوها "(٥).

ويضيف الكاتب نفسه في موضع آخر، متحدثاً عن تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية، وكيف أن المسيحيين تعلموا الكثير من المسلمين في التسامح وحسن المعاملة، يقول: "وإنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التعامل وفضائل حسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم، كل ذلك بفضل تعاليم نبيهم محمد"(٦).

دستور المدينة نموذجًا: لقد كان التعايش بين مختلف الطوائف والفصائل في الدولة الإسلامية الأولى هو أحد أهداف الدستور الإسلامي الذي وضعه النبيﷺ عقب هجرته إلى المدينة، والذي ضمن تنظيم العلاقات ما بين المسلمين من جهة، وأصحاب الديانات الأخرى من جهة أخرى، في إطار من التسامح الديني والحرية الدينية في ممارسة الشعائر، ويقول في ذلك "كونستانس جيورجيو"(٧):

"وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً، كلها من رأي رسول الله خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دون هذا

(١) –هذه الجملة للباحث الفرنسي: مكسيم رودنسن، انظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام ص ١١٢
(٢) –مارسيل بوزار: إنسانية الإسلام، ص ١٨٣
(٣) –انظر: محمد عثمان عثمان: محمد في الآداب العالمية المنصفة، ص٢٠.
(٤) –لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص٧٣.
(٥) –ميشون: تاريخ الحروب الصليبية، نقلا عن عفيف عبد الفتاح طبارة، ص ٣٨٣
(٦) –ميشون: سياحة دينية في الشرق، ص ٣١.
(٧) –المستشرق والوزير الروماني كونستانس جيورجيو (المولود عام ١٩١٦) صاحب كتاب: " نظر ة جديدة في سيرة رسول الله"

الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أي عام ٦٢٣م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده "[١].

وقد نص دستور المدينة على حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر فجاء فيه: "وإن يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ[أي يُهلك] إلا نفسه وأهل بيته"[٢] .

ونص على الاستقلال المالي لكل طائفة، فكان من ضمن مواد دستور المدينة: "وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم"[٣]، فمع وجوب التعاون المالي بين جميع طوائف الدولة لرد أي عدوان خارجي، فإن لكل طائفة استقلالها المالي عن غيرها من الطوائف.

كما نص الدستور على النصح والبر بين المسلمين وأهل الكتاب: فيقول الدستور: "وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم"[٤]، فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة —مهما اختلفت معتقداتهم— هو النصح المتبادل، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف.

استقبال الوفود النصرانية: وتجلت مظاهر التسامح الديني في عهد النبيﷺ عام الوفود حين استقبل وفوداً نصرانية وبعث برسالة إلى أسقف نجران، ومن ثم يتحدث "كونستانس جيورجيو" عن أوضاع أصحاب الديانات السماوية في ظل الحكم الإسلامي فيقول[٥]: " مع أن الإسلام عم الجزيرة كلها في السنة التاسعة فإن محمداً لم يُكره اليهود و لا النصارى على قبول دينه، لأنهم أهل الكتاب و قد جاء في رسالة محمد إلى أبي الحارث أسقف نجران أن وضع المسيحيين في الجزيرة بعد الإسلام تحسن كثيراً، يقول في الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي، إلى الأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران، وكهنتهم، ومن تبعهم، ورهبانهم: إن لهم ما تحت أيديهم، من قليل أو كثير من بيَعهم وصلواتهم، ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله، لا يُغيّر أُسقف من أُسقفيتّه، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته. ولا يُغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه [على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا]، ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم، غير مثقّلين بظلم ولا ظالمين"[٦].

يقول جيورجيو معلقًا: "تشير هذه الرسالة إلى أن المسيحيين (وكذلك اليهود) في الجزيرة أحرار في أداء شعائرهم، ولن يزاحمهم من المسلمين مزاحم. وقد قدْم في السنة التاسعة وفد من مسيحي نجران يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر، وعبد المسيح الأسقف، والأيهم رئيس القافلة، وحين أرادوا الدخول على النبي ارتادوا ألبستهم الدينية الرسمية الكاملة... وبعد أن زاروا النبي سألوه أن يسمح لهم بأداء شعائرهم فطلب منهم أن يؤدوا صلواتهم في مسجد المدينة، فدخلوا واتجهوا نحو بيت المقدس، و تعبدوا هناك. ولا شك أن النبي كان يحترم النصارى احتراماً خاصاً، لأن القرآن ذكرهم وأكرمهم. وقد أشار الله تعالى إلى هذه النقطة في محكم كتابه في سورة المائدة (الخامسة) في الآية (٨٢) : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ

(١) –كونستانس جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ١٩٢ وما بعدها
(٢) –ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٣
(٣) –ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/٢٦١ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٣
(٤) –ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/٢٦١ وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٣
(٥) –كونستانس جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ٣٧١، ٣٧٢.
(٦) –انظر: محمد حميد الله: الوثائق السياسية، ص ١٧٩، وقد نقلنا النص الأصلي، وليس النص المترجم عن جيورجيو.

وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، ويقول في الآية التي بعدها : ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة :٨٣] .."[١]

ويعلق آتيين دينيه على ما فعله النبي مع وفد نجران النصراني قائلاً: "من الحقائق التاريخية أن النبي أعطى أهل (نجران) المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية. وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيين في الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي لا يحبها الذوق السليم. وقد أنصف القس ميشون الحقيقة في كتابه (سياحة دينية في الشرق) حيث يقول: **إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم**"[٢].

الحرية في الاعتقاد وممارسة الشعائر: يقول جيمس متشنر: " القرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة، والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان، ما دام أهلها يحسنون المعاملة، وقد حرص محمد على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى، ولاشك أن حروباً نشبت بين المسلمين وغيرهم في بعض الأحيان، وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال، وقد قطع الرهبان بأن أهل الكتاب كانوا يُعاملون معاملة طيبة وكانوا أحراراً في عبادتهم ، ولعل مما يقطع بصحة ذلك ، الكتاب الذي أرسله البطريرك النسطوري إيشوياب الثالث إلى البطريرك سمعان، زميله في المجمع، بعد الفتح الإسلامي وجاء فيه: (ها! إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا عندنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون للنصرانية بسوء، فهم يساعدوننا، ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا، وإنهم ليجلون الرهبان والقديسين!) "[٣].

وفي ذلك يقول روبرتسون: "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو اتباع الاديان الاخرى الذين غلبوهم وتركوهم احراراً في اقامة شعائرهم الدينية "[٤]، وكان لهذا التسامح أثره في أن يصبح الدين الإسلامي ديناً عالمياً، بدءاً من مراحله الأولى أيام الرسول في جزيرة العرب إلى أن عم أماكن شاسعة، يقول العلامة جولد تسهير: "سار الإسلام لكي يصبح قوة عالمية على سياسة بارعة، ففي العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية كان في وسعهم متى دفعوا [الإشتراك السنوي للدولة – الجزية] أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية ، ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ إلى أعماق أرواحهم إنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية، بل لقد ذهب الإسلام في هذه السياسة إلى حدود بعيدة، ففي الهند مثلاً كانت الشعائر القديمة تقام في الهياكل و المعابد في ظل الحكم الإسلامي![٥].

لقد أثارت مبادئ التسامح الديني وحرية الاعتقاد في الإسلام فيما أثارته احترام المفكرين والعلماء والمستشرقين المنصفين من الغرب وكذلك الكتاب والباحثين العرب النصارى، فقد تطرق "يوسف نعيم عرافة" في خطبة له في مناسبة المولد النبوي عام ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م ، إلى معاهدة الرسول مع أصحاب الديانات الأخرى ، لاسيما المسيحيين منهم، فيقول: " إن محمداً هو باني أساس المحبة والإخاء بيننا ، فقد كان يحب المسيحيين ويحميهم، من ذلك: ما قام به في السنة السادسة بعد الهجرة، حيث عاهد الرهبان خاصة والمسيحيين عامة، على أن يدفع عنهم الأذى ، ويحمي كنائسهم وعلى

(١) –كونستانس جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ٣٧٢.
(٢) –آتيين دينيه: أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٨ – ١٩.
(٣) –انظر: محمد أمين حسن: خصائص الدعوة الإسلامية، ص ١٦٦
(٤) –انظر: شوقي أبو خليل: الإسلام في قفص الاتهام، ١٢٥
(٥) –انظر: محمد أبو فارس: النظام السياسي في الاسلام، ص ٢١

أن لا يتعدى على أحد من أساقفتهم ولا يجبر أحداً على ترك دينه ، وأن يُمدوا بالمساعدة لإصلاح دينهم وأديرتهم ، كما أن القرآن نطق بمحبة المسيحيين للمسلمين وبمودتهم لهم ، وإن الآية الشريفة : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1] ، لتبعث على شد أواصر الصداقة بين الطرفين ، بل حتى مع الشعب الإسرائيلي في أكثر الأوقات، إننا لنعلم أن ما أتى به الرسل موسى وعيسى ومحمد[عليهم والصلاة والسلام]ما هو إلا لإصلاح العالم لا لإفساده وخرابه، وما الكتب الثلاثة المنزلة إلا نور صادر من بؤرة واحدة ينعكس نورها في ثلاثة أشعة، كل منها للبشر"[2].

هذا، ومن أهم النصوص الإسلامية في التسامح الديني وحرية الاعتقاد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآية: "إن قضية العقيدة–كما جاء بها هذا الدين– قضية اقتناع بعد البيان والإدراك؛ وليست قضية إكراه وغصب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه؛ في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها الجاء إلى الإذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك ... فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي تفرض فرضاً بسلطان الدولة؛ ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟!"[3].

٥–محاربة اليأس وسوء الظن بالفطرة، وبعث الأمل والرجاء في نفس الإنسان:

المأثرة الخامسة أنّ أكثر أفراد النوع الإنسانيّ كانوا مصابين باليأس من رحمة الله، وبسوء الظنّ بالفطرة الإنسانية السليمة، وكان في إيجاد هذا الجوّ الخاصّ، والحالة العقلية الخاصة دور كبير لبعض الديانات الشرقيّة القديمة، والمسيحية المحرّفة في أوربة، وفي الشرق العربي.

فقد دانت الديانات القديمة في الهند بعقيدة التناسخ، وفلسفته التي لا مجال عندها في إرادة الإنسان وتصرّفه مطلقا، وأنّ كلّ إنسان مضطرّ لا محالة لنيل عقوبة ما، لما قدّمت يداه في حياته الأولى، وذلك بالظهور في شكل سبع مفترس، أو دابّة سائمة، أو حيوان خسيس، أو إنسان شقيّ معذّب، بينما نادت المسيحيّة بأنّ الإنسان عاص ومذنب بالولادة والفطرة، والمسيح صار كفّارة وفداء له عن هذه الذنوب، فأنشأت هذه العقيدة–بطبيعة الحال–في نفوس الملايين في العالم المتمدّن المعمور الذين اعتنقوا المسيحيّة سوء ظنّ بنفوسهم، ويأسا عن مستقبلهم، وعن الرحمة الإلهية.

هنالك أعلن النّبيّ صلى الله عليه وسلم بكلّ قوّة وصراحة، **أنّ فطرة الإنسان هي كاللوح الصافي، الذي لم يكتب عليه بعد، ويمكن أن ينقش فيه أروع نقش، ويحرر فيه أجمل تحرير، وأنّ الإنسان يستهلّ حياته بنفسه، ويستحقّ الثواب والعقاب، والجنة والنار بعمله، وهو غير مسؤول عن عمل غيره**، فقد ذكر القرآن في مواضع كثيرة، أنّ الإنسان مسؤول عن عمله فحسب، وأنّه مثاب ومشكور على سعيه:{أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (٤٠) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى }[النجم: ٣٨– ٤١] ، هذا الإعلان أعاد إلى الإنسان ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه الطبيعيّة، وانطلق إلى الأمام بعزم قويّ، وحماس زائد، وعاطفة جياشة ليصنع مصيره ومصير الإنسانيّة، ويجرّب حظّه وقدرته في تلك الإمكانيات الهائلة، والفرص الغالية.

---

(١) –سورة المائدة: الآية ٨٢، والاستشهاد للباحث النصراني يوسف نعيم عرافة.
(٢) –انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة ١١٠.
(٣) –سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الأول، تفسير الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

إنّ محمّدا صلى الله عليه وسلم قرر أنّ المعاصي والذنوب، والأخطاء والزلّات فترة عابرة زائلة في حياة الإنسان، يقع فيها الإنسان بجهله وغروره، وقصر نظره حينا، وبإغواء الشيطان، وإغراء النفس بعض الأحيان، وأنّ الصلاح والصلاحية، والاعتراف بالذنب، والندامة أصل من أصول فطرته، وجوهر إنسانيته، وأنّ الابتهال إلى الله، والتضرّع إليه، والعزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب دليل على شرف الإنسان، وأصالة معدنه، وهو ميراث آدم عليه السلام.

إنّ محمّدا صلى الله عليه وسلم فتح أمام المذنبين الخطّائين- الغارقين في حمأة المعصية والرذيلة إلى آذانهم- بابا واسعا للتوبة، ودعا إليها الناس دعوة عامّة، وشرح فضل التوبة شرحا وافيا، وأفاض فيه إفاضة نستطيع بها القول بأنّه أحيا هذا الركن الخاصّ العظيم من الدين، ولذلك سمّي «بنبيّ التوبة» من بين أسمائه الجميلة الأخرى، لأنّه ما دعا إلى التوبة كوسيلة اضطرارية يتدارك بها الإنسان ما فاته فحسب، بل إنّه رفع من شأنها حتّى صارت من أفضل العبادات، والقربات عند الله، وصارت طريقا سهلا للوصول- في أقرب وقت- إلى أقصى درجات القرب والولاية، يغبط عليها النّسّاك والزهاد، والأبرياء والأطهار من عباد الله.

إنّ القرآن شرح فضل التوبة وسعتها، ونقاء الإنسان من أكبر ذنب وأعظم معصية يتصورها الإنسان، وذلك بأسلوب جميل يستهوي القلوب، ودعا العصاة والمذنبين، وصرعى النفس والشيطان إلى اللجوء إلى الله سبحانه، والفرار إليه، والتفيّؤ بظلال رحمته، والترامي في أحضان رأفته وعطفه، وصوّر بحار رحمته الزاخرة، الواسعة الأرجاء، المحيطة بالأنفس والآفاق، تصويرا رائعا جميلا، شائقا مثيرا، يبدو منه أنّ الله سبحانه وتعالى ليس حليما رحيما، وجوادا كريما فحسب، بل إنّه- إذا صحّ هذا التعبير- يحبّ التوابين، ويشتاق إليهم، ويشكر سعيهم البليغ، ويقدّره كلّ التقدير، اقرأ الآيات التالية، وتذوّق أسلوب هذا اللطف والعطف، وجوّ الودّ الذي يغشى هذه الآيات:{ قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر: ٥٣] .

وأكثر من ذلك وأروع ما نجد في الآية التالية، حيث ذكر الله سبحانه جماعات مختلفة من عباده الصالحين، فاستهلّ هذه القائمة المشرقة النورانيّة بالتائبين، إنّها آية من سورة [التوبة:١١٢] :{التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.}

هذا التكريم وتبرئة العبد التائب من ذنبه، وإظهار الثقة به تجلّى واضحا حين أعلن القرآن قبول توبة ثلاثة من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر صحيح مقبول، وبقوا في المدينة، فبدأ القرآن بذكر النّبيّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار، الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة، ثمّ ثنّى بهؤلاء الثلاثة الذي تخلّفوا، حتّى لا يشعر هؤلاء المخلّفون بإفرادهم بالتوبة ويكونوا بمعزل عن الشعور بالهوان، وما يسمّى في علم النفس «بمركب النقص» ، ويتّضح للمؤمنين إلى يوم القيامة أن مكانتهم الطبيعيّة في الصف الأول من الصادقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فلا داعي للاستحياء، ولا مكان للعار. هل هناك مثال أروع وأجمل، وأدقّ وأعمق، وأحلى وأزهى لقبول التوبة، وتكريم التائب، ومسح غاشية الكابة عنه بلطف وودّ، وحبّ وحنوّ في تاريخ الأديان، والأخلاق، والتربية والإصلاح، من هذا المثال؟!اقرأ معي الآيات التالية: { لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٧- ١١٨] .

ثمّ أعلن أيضا كمبدأ عامّ أنّ رحمة الله تسع كلّ شيء، وتسبق غضبه وجلاله، يقول القرآن: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦] ، وجاء في حديث قدسيّ(١): «إنّ رحمتي سبقت غضبي» إنّه جعل اليأس مرادفا للكفر والجهل والضلال، وبين ذلك على لسان يعقوب عليه السلام:{إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ} [يوسف: ٨٧] ، وذكر في موضع آخر قول إبراهيم- عليه السلام- فقال: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٦]، وهكذا أسعف النّبيّ صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة المفتوحة العامّة إلى التوبة وبيان فضائلها، وسعتها وشمولها الإنسانيّة المذعورة الخائفة التي كانت تئنّ تحت وطأة اليأس، والقنوط، وترتعد فرائصها بإنذارات العقاب والعذاب، ومظاهر الغضب والجلال، ومنحها فرصة جديدة جميلة من الحياة، ونفخ في قلبها الضعيف المتواني، وجسدها الهامد البارد روحا جديدة، وحرارة جديدة، وهيّأ لجروحها بلسما، ورفعها من حضيض التراب إلى أوج العزّة والسيادة، والثقة والاعتزاز، والاعتداد بالنفس، والاعتماد على الله.

٦-الجمع بين الدين والدنيا وإعلاء مفهوم النّية!

لقد وزّعت الديانات القديمة- خاصّة المسيحية- الحياة الإنسانية في قسمين: قسم للدين، وقسم للدنيا، ووزّعت هذا الكوكب الأرضيّ في معسكرين: معسكر رجال الدين، ومعسكر رجال الدنيا، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب، بل حال بينهما خليج كبير، ووقف بينهما حاجز سميك، وظلّا متشاكسين متحاربين، وكان كلّ واحد يعتقد أنّ هناك خصومة وعداء بين الدين والدنيا، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما، لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر، بل أن يعلن الحرب عليه، فلا يمكنه- على حدّ قولهم- أن يركب سفينتين في وقت واحد، وأنّه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصاديّ ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة، وإعراض عن فاطر السموات والأرض، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينيّة والخلقيّة، والتجرّد عن خشية الله، ولا إمكان للتديّن من غير رهبانيّة، وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها.

المعلوم المقرّر أنّ الإنسان محبّ لليسر، مجبول عليه، وكلّ فكرة دينيّة لا تسمح بالاستمتاع المباح، والنهضة، والعزّة، والحصول على القوة والحكم، لا تصلح للنوع البشريّ في الغالب، إنّه صراع مع الفطرة السليمة، وكبت للغرائز الطبيعيّة البريئة في الإنسان، وكانت نتيجة هذا الصراع أنّ العدد الأكبر من أصحاب الفطنة والذكاء، والكفاءات العلميّة، آثر الدّنيا على الدين، ورضي بها- كحاجة اجتماعيّة، وواقع حيّ- واطمأنّ إليها، وعكف على تحسين هذه الحياة، والحصول على ملذّاتها، ولم يبق له أمل في الرقيّ الدينيّ، والتقدّم الروحيّ.

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامّة، هجروه على أساس التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلّمة، وثار البلاط الذي كان يتزعّم الحكم الدنيويّ على الكنيسة التي كانت تمثّل الدين، وتجرّد عن سائر قيوده، فصارت الحكومات- بطبيعة المنطق-كفيل هائج مائج، تخلّص من سلاسله ويوده، هذا الانفصال النكد بين الدين والدنيا، وذلك العداء المشؤوم بين «رجال الدين ورجال الدنيا» فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية، وكانت فريسته الغرب أولا، والأمم التي دانت له في الفكر والعلم والثقافة، أو عاشت تحت رايته ثانيا.

وزاد الطّين بلّة دعاة المسيحيّة المتطرّفون والمفرطون، الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشريّة أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء، والذين لم يدّخروا وسعا في إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة (٢) وقدّموا صورة وحشيّة كالحة مفزعة للدين، تقشعرّ منها جلود الذين آمنوا، وآل الأمر في نهاية الشوط إلى تقلّص ظلّ الدين،

---

(١) -أخرجه البخاري برقم (٧٤٢٢)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٧٥١- ٧٧٥٧) وأبو يعلى في المسند برقم (٦٤٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) -انظر «تاريخ أخلاق أوربة» ، ج ٢، لمؤلّفه ليكي.

وبلغت عبادة النفس والهوى– في أوسع معناها– إلى ذروتها، وأصبحت الدّنيا تتأرجح بين طرفي نقيض، ثمّ سقطت أخيرا بضعف الوازع الدينيّ، أو فقدان الحاسّة الدينية في هوّة عميقة من اللادينية، والفوضى الخلقيّة العامة [١] .

ومن ثم يقول "ناجيمو راموني"[٢]:"إن الإسلام هو أعظم الأديان ملاءمة لجيلنا المتحضر ولكل جيل فالإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا بحيث تتحول الحياة إلى طريقين مختلفين تمامًا، وهذا يشكل خلاصة الأزمة المعاصرة للإنسان. لقد اعتنقت الإسلام لأنه دين طبقات الناس جميعًا، كبيرها وصغيرها، غنيها وفقيرها، دين الأحرار والعبيد، والسادة والمسودين"[٣].

وأعظم هديّة للبعثة المحمديّة، ومنّتها العظيمة نداؤها الذي دوّت به الآفاق **أنّ أساس الأعمال والأخلاق، هو الهدف الذي ينشده المرء، والذي عبّر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط، ولكنّه واسع عميق «النية»**، فقال: «إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى»[٤]. وإنّ كلّ عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله، وبدافع الإخلاص، هو وسيلة إلى التقرّب إلى الله، والوصول إلى أعلى مراتب اليقين، ودرجات الإيمان، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة، ولو كان هذا العمل جهادا وقتالا وحكما وإدارة، وتمتعا بطيّبات الأرض، وتحقيقا لمطالب النفس، وسعيا لطلب الرزق والوظيفة، واستمتاعا بالتسلية البريئة المباحة، والحياة العائلية والزوجية.

وكلّ عبادة وخدمة دينية–بالعكس من ذلك–تعتبر دنيا إذا تجرّدت من طلب رضا الله سبحانه، والخضوع لأوامره ونواهيه، وغشيتها غاشية من الغافلة، ونسيان الآخرة، ولو كانت صلوات مكتوبة، ولو كانت هجرة وجهادا وذكرا وتسبيحا وقتالا في سبيل الله، ولا يثاب عليه العامل، والعالم، والمجاهد، والداعي، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالا، وتكون بينه وبين الله حجابا.

إنّ هذه المأثرة من مآثر سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم ملأت الفجوة الواسعة بين الدين والدّنيا، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين، اللذين عاشا في خصام دائم، وعداء سافر، يتعانقان في إلف وودّ، ويتعايشان في سلام ووئام، إنّه صلى الله عليه وسلم رسول الوحدة، وبشير ونذير في الوقت ذاته، إنّه أخذ النوع البشريّ من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحّدة من الإيمان والاحتساب، والعطف على البشريّة، وابتغاء رضوان الله، وعلّمنا هذا الدعاء الجامع، المعجز الواسع: {رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ} [البقرة: ٢٠١]

إنّه أعلن بالآية القرآنية: {إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢] أنّ حياة المؤمن ليست مجموع وحدات متفرّقة مضادّة، بل هي وحدة تسيطر عليها روح العبادة، ويقودها الإيمان بالله وهي تشمل شعب الحياة كلّها، وميادين الكفاح كلّها، وأصناف العمل كلّها، إذا تحقّق الإخلاص، وصحّت النيّة، وأريد بها وجه الله، وكانت على المنهج الصحيح الذي جاء به الأنبياء، فدلّ ذلك على أنّه رسول الوحدة والوئام والانسجام بالكمال والتمام، وأنّه البشير والنذير في نفس الوقت، إنّه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا، فجعل الحياة كلّها عبادة، وجعل الأرض كلّها مسجدا، وأخذ بيد الإنسان إلى جبهة واحدة واسعة من العمل الصالح، وخدمة الإنسانية النافعة، وابتغاء مرضاة الله، فترى هناك ملوكا في أطمار الفقراء، وزهّادا في زيّ الملوك والأمراء، جبال حلم وينابيع علم، من غير تناقض أو صعوبة، واختلال أو تعسّف.

---

(١) –اقرأ للتفصيل كتاب «الصراع بين الدين والعلم) Conflict Between Religion) Science («لدرابر) Draper (أو «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الباب الرابع «العصر الأوربي» .

(٢) –منصّر سابق، من غانا، بإفريقية الغربية، ولد لأبوين مسيحيين، وتلقى تعليمه في المدارس التنصيرية، ولما بلغ العشرين بدأ مهمته كمبشر متحمّس، لكنه عثر يومًا على كتاب عن الإسلام قدمه إليه أحد أصدقائه فاهتزّت قناعاته بالنصرانية، واستمر في طريق البحث عن الحق حتى خريف عام ١٩٦٣ حيث أعلن إسلامه.

(٣) –انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٩ / ٥٧ – ٥٨.

(٤) –أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، برقم (١)

٧-المساهمة في تحضّر العالم بدأ بنقل العرب من القبيلة إلى الدولة والأمة!

العرب لم يعرفوا الوحدة الحضارية قبل النبي، يقول المفكر الألماني رودي بارت[١]: "كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيشون فيها فسادًا، حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس"[٢]، ويقول في موضع آخر، مفصلاً: "جاء محمد بن عبد الله، النبي العربي وخاتمة النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة [في دعوته] لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضًا الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين.. ونشر الدين الحنيف.. وعندما قبُض النبي العربي، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيرًا فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل."[٣].

ومن هنا كان الانقلاب الذي أحدثه الرسول عميقاً في حياة الجزيرة العربية إذ استطاع بسياسته الكفاحية التي تمليها روح الإسلام أن يحول هذه الوحدات القبلية المستقلة ويرتقى بها لتظهر في إطار الأمة الإسلامية[٤]، يبيّن "فيليب حتي" هذا الانقلاب الذي أحدثه الرسول فيقول:" إذا نحن نظرنا إلى محمد من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد؛ يبدو لنا بكل وضوح واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر"[٥].

وعن ضخامة هذا الجهد العظيم الذي بذله النبي لإحداث هذا التحول في المجتمع العربي الجاهلي، يقول إميل درمنغم: "إن النبي لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي. وليس لدينا ما نعرف به أن محمدًا أبصر، حين أفاض من جبل عرفات[٦]، مستقبل أمته وانتشار دينه، وأنه أحس ببصيرته أن العرب الذين ألّف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وأفريقية وإسبانية"[٧].

ويبين أرنولد توينبي [٨] أن النبي قد كرّس حياته لتحقيق رسالته في كفالة مظهرين أساسيين في البيئة الاجتماعية العربية؛ هما الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم. "وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معًا، فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة. بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطالسي إلى شواطئ السهب الأوراسي "[٩].

---

(١) -مفكر وباحث ألماني، عكف على الدراسات الشرقية في جامعة هايدلبرج، وكرس حياته لدراسة الإسلام، وصنف عددًا كبيرًا من الكتب والأبحاث، منها ترجمته للقرآن الكريم، التي أصدرها في عامي ١٩٦٤و١٩٦٥، وله كتاب عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(٢) -رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٢٠.

(٣) -رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٢٠.

(٤) -انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص ٦٨ وما بعدها.

(٥) -فيليب حتى: الإسلام منهج حياة، ص٥٦.

(٦) -يقصد حجة الوداع، في اليوم التاسع من ذي الحجة، في العام العاشر من الهجرة (6مارس٦٣٢ م)

(٧) -إميل درمنغم: حياة محمد

(٨) -آرنولد توينبي: المؤرخ البريطاني، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام ١٩٢١ وانتهى منه عام ١٩٦١، وهو يتكون من اثني عشر جزءًا عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ.

(٩) -سومر فيل، وإشراف: أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ ١٠ / ٣٨١

ويناقش المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار فكرة " الأمة الإسلامية " ومغايرتها المفهوم الغربي، فيقول: "ليس لفكرة الأمة الإسلامية مقابل في فكر الغرب ولا في تجربته التاريخية. فالجماعة الإسلامية، وهي تجّمع من المؤمنين يؤلف بينهم رباط سياسي وديني في آن واحد، ويتمحورون حول كلام الله القدسي... والفرد يندمج في الإسلام بالجماعة المؤمنة بالتساوي عن طريق شهادته، الفردية واستبطان إرادته وصفاته الخاصة كمؤمن، فالنية المعلنة والجهر بالكلام شرطان من شروط الانتماء إلى المجتمع. وبصورة تلازمية يحدد الامتثال لمشيئة الله البنية الاجتماعية. وهكذا تكون النظم التأسيسية للجماعة مشروطة بالعبادة الواجبة عليها نحو الله "[١].

إذًا ليس لفكرة الأمة الإسلامية ما ينافسها في تجارب الغرب على مدار تاريخه، فتاريخ الغرب عبارة عن مجموعة إمبراطوريات متتابعة قائمة على الطبقية والعرق واللون، ولم تقم لهم حضارة في تاريخهم تقوم على أساس الرباط الإيماني، اللهم إلا حضارة الإسلام!، ولم يحدث أن دولة من دول الغرب في عصور الظلام، أن سوت بين أفراد الشعب في المعاملة وتوزيع الثروة والسلطة، اللهم إلا دولة الإسلام!

لقد أثار موضوع فضل الرسول محمد ﷺعلى تحضر العرب، اهتمام علماء الغرب وغيرهم، فهو الذي وحد الجزيرة العربية أول مرة في التاريخ في ظل حكم إسلامي، متنور نقل العرب من الجاهلية إلى الحضارة والمدنية. يقول الباحث الروسي آرلونوف: "في شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين ظهرت ديانة أساسها الاعتراف بوحدانية الله ، وهذه الديانة تعرف بالمحمدية[٢] أو كما يسميها أتباعها الإسلام، وقد انتشرت هذه الديانة انتشاراً سريعاً، و مؤسس هذه الديانة هو العربي محمد، وقد قضى على عادات قومه الوثنية، ووحد قبائل العرب، وأثار أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإله الواحد، وهذب أخلاقهم ولين طباعهم وقلوبهم وجعلها مستعدة، للرقي والتقدم، ومنعهم من سفك الدماء ووأد البنات، وهذه الأعمال العظيمة التي قام بها محمد تدل على أنه من المصلحين العظام، وعلى أن في نفسه قوة فوق قوة البشر، فكان ذا فكر نير ، وبصيرة وقيادة "[٣].

وهكذا فإن فضل الرسول على العرب لا حد له، إذ أخرجهم من الجاهلية إلى نور الإسلام، ويضيف "هنري سيرويا"[٤] أن "محمداً لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضًا المدنية والأدب"[٥] ويتحدث الباحث الأمريكي "جورج دي تولدز"(١٨١٥-١٨٩٧)، عن فضل الرسول على العرب حين نقلهم من الهمجية إلى المدنية، وعن دور الرسالة في تبديل أخلاق عرب الجاهلية ، حين عمر ضياء الحق والإيمان قلوبهم ، فيقول:

" إن من الظلم الفادح أن نغمط حق محمد، والعرب على ما علمناهم من التوحش قبل بعثته، ثم كيف تبدلت الحالة بعد إعلان نبوته، وما أورته الديانة الإسلامية من النور في قلوب الملايين من الذين اعتنقوها بكل شوق وإعجاب من الفضائل، لذا فإن الشك في بعثة محمد إنما هو شك في القدرة الإلهية التي تشمل الكائنات جمعاء"[٦].

ويؤكد ذلك القس السابق دُرّاني[٧] بقوله: "وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغير طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد

---

(١) -مارسيل بوزار: إنسانية الإسلامية، ص ١٨٢-١٨٣.

(٢) -خطأ! بل الإسلام، أما مصطلح المحمدية، فيستخدمه المعادون للإسلام على أساس أنه دين من اختلاق محمد صلى الله عليه وسلم.

(٣) -آرلونوف: مقالة "النبي محمد "، مجلة الثقافة الروسية، ج ٧، عدد ٩

(٤) -مستشرق فرنسي، من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته) (١٩٢١)، (الصوفية والمسيحية واليهودية)، (فلسفة الفكر الإسلامي).

(٥) -هنري سيرويا: فلسفة الفكر الإسلامي، ص ٨

(٦) -انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ١٨٢

(٧) -سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانيًا في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحًا من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسيسًا منذ عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٦٣ ، ثم عاد إلى دين الإسلام.

وثقافة واحدة وحضارة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة، التي لم تنجب رجلاً عظيمًا واحدًا يستحق الذكر منذ عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفًا من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد"(١).

كان فضل النبي في تحضر العرب من العمق وبُعد الأثر لا يحصره زمان أو يحده مكان، يقول الباحث قسطاكي حمصي (١٨٥٨-١٩٤١): "إذا كان سيد قريش نبي المسلمين ومؤسس دينهم، فهو أيضا نبي العرب ومؤسس جامعتهم القومية، وكما أنه من الحمق والمكابرة أن ننكر أن ما لسيد قريش من بعيد الأثر في توحيد اللهجات العربية، وقتل العصبيات الفرعية في نفوس القبائل، بعد أن أنهكها القتال في الصحراء، وتناحر ملوكها في الشام والعراق تناحراً أطال أمد الحماية الرومانية والفارسية في البلدين الشقيقين حتى الفتح الإسلامي. فمن الخطأ أن ننكر ما للرسول العربي الكريم وخلفائه من يد على الشرق! والمنافحة لتحرير الشرق من رق الرومان وأسر الفرس، إن سيد قريش هو المنقذ الأكبر للعرب من فوضى الجاهلية، وواضع حجر الزاوية في صرح نهضتهم الجبارة المتأصلة في تربة الخلود !! "(٢).

فضل النبي في تحضر العالم: ويبين المستر سنكس أن لمحمدﷺ الفضل الأكبر ليس فقط في رقي العرب بل في رقي العالم كله حتى اليوم، فيقول سنكس: " ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر، بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة .... " إلى أن قال: إن الفكرة الدينية الإسلامية، أحدثت رقياً كبيراً جداً في العالم، وخلّصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان. ولقد توصل محمد بمحوه كل صورة في المعابد وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق، إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة"(٣).

أما المفكر " برتلي سانت هيلر " فيبين أن فضل النبي محمدﷺ، يمتد إلى كل شعوب العالم، بقوله: "وقد كان دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده، جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته"(٤).

أما الكاتب الفرنسي موريس بوكاي فيخص أوربا والغرب، على أساس أن الشعوب الغربية هم أكثر الشعوب إستفادة من حضارة الإسلام، فيقول بوكاي: "إن الإسلام ينظر إلى العلم والدين كتوءمين، وأن تهذيب العلم كان جزءاً من التوجيهات الدينية منذ البداية، وأن تطبيق هذه القاعدة أدى إلى التقدم العلمي العجيب في عصر الحضارة الإسلامية العظمى، التي استفاد منها الغرب قبل نهضته"(٥).

ويؤيده العلامة سان سيمون: في كتابه "علم الإنسان" بقوله: " إن الدارس لبنيات الحضارات الإنسانية المختلفة، لا يمكنه أن يتنكر للدور الحضاري الخلاق الذي لعبه العرب والمسلمون في بناء النهضة العلمية لأوربة الحديثة "(٦).

ويقارن "كويليام " حال العالم بعد عهد محمدﷺ وبين عصر الجاهلية فيقول: "لما شرف محمدﷺ ساحة عالم الشهود بوجوده الذي هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى اعتلاء النوع الإنساني وترقيّه في درجات المدنية، أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية على نهج مشروع وأوصل الخلق إلى أقصى مراتب السعادة بسرعة خارقة. ومن نظر

---

(١) -عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٤ / ٢٨ – ٢٩

(٢) -قسطاكي حمصي: مجلة الفتح القاهرية، عام ١٩٣٠، نقلاً عن : محمد شريف الشيباني، ١٨٣

(٣) -انظر: آن بيزينت: حياة وتعاليم محمد ، ص٥.

(٤) -انظر: محمد شريف الشيباني، الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ص ٢٠٤.

(٥) -موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص ١٤

(٦) -انظر: رشدي فكار: نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع خلال القرن الرابع عشر الهجري ، ص ٣١.

بعين البصيرة في حال الأنام قبله وما كانوا عليه من الضلالة، ونظر في حالهم بعد ذلك وما حصل لهم في عصره من الترقّي العظيم رأى بين الحالين فرقًا عظيمًا كما بين الثريا والثرى"[١].

و"امتدت أنوار المدنية بعد محمد في قليل من الزمان ساطعة في أقطار الأرض من المشرق إلى المغرب حتى إن وصول أتباعه في ذلك الزمن اليسير إلى تلك المرتبة العلية من المدنية قد حيّر عقول أولي الألباب. وما السبب في ذلك إلا كون أوامره ونواهيه موافقة لموجب العقل ومطابقة لمقتضى الحكمة"[٢].

ويبين المستشرق الأمريكي "إدوارد رمسي" أن الإسلام منح" المدنية والحضارة قوة جديدة وشجع العالم على درس العلوم باتساعٍ متناهٍ، وهكذا خرج إلى الدنيا فلاسفة وخطباء وأطباء ومؤرخون يفخر بهم الإسلام أمثال: أبي عثمان – الجاحظ – والبيروني والطبري وابن سينا وابن رشد والفارابي وابن باجه والغزالي وغيرهم، والمسلمون بلا نزاع هم مخترعو علم الكيمياء ومؤسسوه، أما علم الطب والصيدلة فقد حسنوهما تحسيناً عظيماً، وبواسطة المسلمين تقدم علم الفلك سريعاً حتى الطيران، وهم مخترعو علم الجبر ومكتشفو علم الطيران"[٣].

و" قليلون من هم على علم بما أسهم به العالم الإسلامي من جهود متميزة في تقدم الإنسانية "[٤].

كل هذا وغيره دفع المفكر الفرنسي–أحد عمالقة فلاسفة الاجتماع–جوستاف لوبون (١٨٤١–١٩٣١) إلى أن يدعو أبناء عصره إلى الإقتداء بمحمدﷺ، واعتناق دعوته لأن فيها صلاح المجتمعات الإنسانية ، فيقول في كتابه "الحضارة الإسلامية": "أنني لا أدعو إلى بدعة محدثة، ولا إلى ضلالة مستهجنة، بل إلى دين عربي قد أوحاه الله إلى نبيه محمد، فكان أميناً على بث دعوته بين قبائل تلهت بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذذت بترهات الجاهلي، فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبعثرة، ووحد كلمتم بعد أن كانت متفرقة، ووجه أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية على الإطلاق حباً ونسباً وزعامة ونبوة، هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمئة مليون مسلم، منتشرين في أنحاء المعمورة ، يرتلون قرآناً عربياً مبيناً ".

"فرسول كهذا جدير باتباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته، إذ أنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق، والحض على الخير والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها ما يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى"[٥]

٨–رعاية العلم والمعرفة والإعلاء من الخطاب التربوي العقلاني.

هذه المأثرة من أهم المآثر النبوية، فالحركة العلمية والثقافية التي قام بها محمدﷺ متعددة الجوانب، اجتماعياً وسياسياً ودينياً وثقافياً. لقد كان العهد الإسلامي الذي بدأ مع إقامة أول دولة إسلامية بقيادتهﷺ في المدينة المنورة، فاتحة عهد جديد وخير للبشرية جمعاء: عهد علم وثقافة ومعرفة.

فلقد افتتح النبي محمدﷺ حسب رأي العديد من علماء الشرق والغرب عهداً جديداً، وعصراً للنور والعلم والمعرفة، فكان كفاحه حين صدع بالدعوة الإسلامية، لنشر رسالة الله، لإزالة ما تراكم في ذلك المجتمع الجاهلي الوثني من معتقدات خرقاء، وأنماط اجتماعية سوداء، وهذا ما دفع الدكتور ماركس إلى إعلان قولته الشهيرة التي نصها: " هذا النبي الذي افتتح برسالته عصر العلم والنور والمعرفة لا بد أن تدون أقواله وأفعاله على طريقة علمية خاصة، وبما أن هذه التعاليم التي

(١) –عبد الله كويليام: أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا ، ص ٢١ ، ٢٢.
(٢) –عبد الله كويليام: أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا ، ص ٢٢ ، ٢٣.
(٣) –انظر: محمد عثمان عثمان: محمد في الآداب العالمية المنصفة، ص١٠٧
(٤) –هذه الجملة للمؤرخ: ستانورد كب : المسلمون في تاريخ الحضارة، ٢١
(٥) –جوستاف لوبون : الحضارة الاسلامية ، ص ٦٧.

قال بها، هي وحي الله المنزل ورسالته، فقد كان عليه أن يمحو ما تراكم على الرسالات السابقة من التبديل والتحوير ، وما أدخله عليها الجهل من سخافات لا يعول عليها عاقل "[١]. وهذا ما فعله النبي!

"ومنذ عام ٧٠٠م بدأت إشراقة الحضارة العربية الإسلامية تمتد من شرقي المتوسط إلى بلاد فارس شرقاً وإسبانيا غرباً، فأعيد اكتشاف قسم كبير من العلم القديم، وسجلت اكتشافات جديدة في الرياضيات والكيمياء والفيزياء وغيرها من العلوم، وفي هذا المجال كما في غيره؛ كان العرب معلمين لأوربة، فساهموا في نهضة العلوم على هذه القارة"[٢].

يقول نصري سلهب: "أولى الآيات البيّنات، كانت تلك الدعوة الرائعة إلى المعرفة، إلى العلم عبر القراءة ﴿اقْرَأْ﴾ وقول الله هذا لم يكن لمحمد فحسب، بل لجميع الناس، ليوضح لهم، منذ الخطوة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى أن الإسلام جاء يمحو الجهل وينشر العلم والمعرفة"[٣]، وهذا ما يشيد به أيضاً "واجنر"، حيث يقول: "الإسلام دين العلم، ويكفي أن أول آية في القرآن أنزلت على محمد هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، وهذا اتجاه فريد يصعب وجوده في تاريخ الكنائس والأديان الأخرى. ولهذا تجدني وصلت من خلال الدراسات الإسلامية وما قرأته في كتاب الله تعالى الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وصلت إلى ما أبغيه لنفسي من الاستقرار والأمان.!!"[٤].

احترام العقل: يبين "ليون"[٥] أن من روائع دعوة محمد أنها تحترم العقل، وأن الإسلام " لا يطالب أتباعه أبدًا بإلغاء هذه الملكة الربانية الحيوية، فهو على النقيض من الأديان الأخرى التي تصرّ "تفرض" على أتباعها أن يتقبلوا مبادئ معينة دون تفكير ولا تساؤل حرّ، وإنما تفرض هذه المبادئ فرضًا بسلطان الكنيسة. أما الإسلام فإنه يعشق البحث والاستفسار ويدعو أتباعه إلى الدراسة والتنقيب والنظر قبل الإيمان... إن الإسلام يؤيد الحكمة القائلة: برهن على صحة كل شيء ثم تمسّك بالخير. وليس هذا غريبًا، إذ أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. فالإسلام دين العقل والمنطق... فالإسلام هو الحق! وسلاحه العلم! وعدوه اللدود هو الجهل! "[٦].

ويقول المؤرخ العلامة سيديو—في مقارنة رائعة—: "لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوربة من تحجر العقل وشل التفكير، وجدب الروح، ومحاربة العلم والعلماء حيث يذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أحرقوا أحياء! ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك العصور المظلمة، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام"[٧]

ومنذ حوالي ألف عام، عندما كان العلماء في أوربة يُحرقون أحياء كما قال سيديو؛ كان العالم الأندلسي المسلم (ابن حزم) يعلن في كتابه (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل) عن كروية الأرض[٨] منطلقاً من القرآن الكريم ومن التنظيم المطرد لمواقيت الصلاة في محيط الأرض[٩].

---

(١) –انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الإستشراقية المنصفة، ١٧٨

(٢) –دانييل بريفولت: نشأة الإنسانية، ص٨٤

(٣) –نصري سلهب: لقاء المسيحية والإسلام، ٩٢

(٤) –انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا ٥ / ٣٧.

(٥) –البروفيسور هارون ليون: باحث إنكليزي، اعتنق الإسلام عام ١٨٨٢، وكان زميلاً وعضوًا فخريًا في العديد من الجمعيات الدينية في أوروبا وأميركا، وكان أستاذًا قديرًا في علم اللغويات، وقد تلقى العديد من الأوسمة الفخرية، أحدها من السلطان عبد الحميد الثاني.

(٦) –انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٧ / ٦ – ٧.

(٧) –انظر: محمد حسام الدين الخطيب: نبي المسلمين ودين الإسلام والحضارة الإسلامية ٤١، ٤٢

(٨) –انظر ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مطلب (بيان كروية الأرض)، ٧٨\٢

(٩) –انظر: محمد حسام الدين الخطيب: نبي المسلمين ودين الإسلام والحضارة الإسلامية، ص ٤٢

رغم أن أوربا في عهد الكنيسة وفي ذلك الوقت، اعتبرت" أن من الكفر والضلال القول بأن الأرض كروية؛ فمعلم الكنيسة لاكتانتيوس يتساءل مستنكراً: أيعقل أن يُجنَّ الناس إلى هذا الحد فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض، وأن أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟!"[١].

حثه على طلب العلم: يقول ول ديورانت: "تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين"[٢]، وتقول هونكه[٣]:" لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًا. وكان يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة للتعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان، ويلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر. وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول Paulus مقرًا: (ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة)؟ ..."[٤]

تماماً كما قارنت الدكتورة هونكة في موضع آخر، حيث قالت: "نادى النبي بالطموح إلى المعرفة والسعي إلى العثور عليها، وقد أدى ذلك إلى اندفاع العرب بأسرهم إلى المدارس يعلِّمون ويتعلمون، بينما كان الغربيون يتباهون بجهلهم للقراءة والكتابة!"[٥]، وهو الأمر الذي نال إعجاب وتقدير لامير[٦] التي تقول: "في الوقت الذي تهاوت فيه تعاليم الأديان الأخرى ومبادئها أمام جبروت العلم؛ أخذ علماء الدنيا في الوقت الحاضر يتطلعون إلى الإسلام طالبين السلوى، لأن تعاليمه أقرب إلى العلم من أي دين آخر. بل إن الإسلام يحض على العلم. وهو دين تقدمي يناسب كافة المناخات والبلاد، كما يصلح لجميع العصور"[٧].

العلم من وظائف رسالته: يقول آتيين دينيه: "إن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الخرافات والبدع، وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا"[٨]، وبالتالي فإن "المنجزات العلمية تتفق تمامًا مع مبادئ الإسلام، لأن الإسلام هو دين العلم"[٩]، على حد قول فيلويز[١٠].

ومن هنا يذكر جوستاف لوبون أن: "الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم"[١١]، وعلى هذا الأساس يعرّف "جارودي " الإسلامَ، فيقول: "إنما الإسلام هو تلك الرؤية لله، وللعالم وللإنسان، التي تنيط بالعلوم وبالفنون وبكل إنسان وبكل مجتمع مشروع بناء عالم إلهي وإنساني لا انفصام فيه باقتضاء البعدين الأعظمين، المفارقة والجماعة، التسامي والأمة"[١٢].

---

(١) –انظر: زيغريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ص ٣٧٠

(٢) –ول ديورانت: قصة الحضارة ،١٣ / ١٦٧

(٣) –دكتورة زيغريد هونكه: مستشرقة ألمانية معاصرة، وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمق في دراسة آداب العرب والمسلمين والاطلاع على آثارهم ومآثرهم. من آثارها: (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية)، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانبًا من الحضارة الإسلامية (١٩٩٥)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب).

(٤) –زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٩

(٥) –زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٩

(٦) –فاطمة سي لامير: ألمانية، لم تقنعها الديانة النصرانية، فأخذت تتصل منذ مطلع عام ١٩٥١، عن طريق المراسلة، بعدد من المسلمين الذين شرحوا لها مبادئ الإسلام، فانشرح صدرها له وانتمت إليه.

(٧) –انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٣ / ٩٦.

(٨) –آتيين دينيه: أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٨

(٩) –هذه الكلمة لفيلويز، انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا ، ٦ / ٦١ .

(١٠) –ح. ف. فيلويز : ضابط بحرية بريطاني، شارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية، نشأ في بيئة نصرانية، تأصلت فيها التقاليد المسيحية بشكل عميق، ومع ذلك فقد هداه الله إلى الإسلام بعد أن اطلع على القرآن الكريم وقرأ عددًا من المؤلفات الإسلامية، وذلك عام ١٩٢٤.

(١١) –فيلويز: حضارة العرب ، ص ١٢٦

(١٢) –روجيه جارودي: دعوة الإسلام، ص ٢٢

ويبين روم لاندو العلاقة بين الدين والعلم في الإسلام، فيقول: "في الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسة لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسية للثاني"[١]، ثم يُفصِّل روم لاندو القول في هذه العلاقة، قائلاً: "العلم الإسلامي لم ينفصل عن الدين قط! والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية) ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها، إن المسلمين وفّقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين ...وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط"[٢].

ومن ثم بلغوا مبلغاً عظيماً في ميادين العلوم الإنسانية والطبيعية، وظهر منهم مسلمو إسبانيا " الذين أهدوا إلى الغرب اللاتيني هباتهم النفيسة في ميادين العلم والفلسفة، وكان الطب كالرياضيات من مفاخر العلوم العربية وأركانها الوطيدة"[٣] على حد قول سرارنست باركر (١٨٧٤-١٩٦٠)، **وهنا يحذر "الدوميلي" من شبهة، فيقول: "ينبغي ألا نظن أن العرب لم يضيفوا شيئًا جديدًا إلى العلم الذي كانوا أوصياء عليه! بل على النقيض من ذلك."**[٤]

وعن رسالة المسلمين في هذه العلوم يقول "أرنست بانرث"[٥]: إنهم– أي المسلمين–" لم يخربوا ما وجدوه من عناصر ثقافية، بل اهتموا بها وبذلوا جهدهم لهضمها ومن ثم تطويرها. ونرى هنا أن العرب فتحوا باب التعرف على الحضارة اليونانية ... بواسطة المترجمين، وعلى هذه الطريقة تطورت الثقافة تحت حماية الإسلام بالعربية التي هي واسطة ممتازة للتعبير عن الأفكار العليا والتي لا تفوقها في هذا لغة من لغات الدنيا. ولا أراني بحاجة إلى ذكر أسماء الفلاسفة [المسلمين] الذين فتحوا آفاقًا جديدة لفهم أسرار الطبيعة والوجود، ...ولا شك أن الحضارة الإسلامية ارتفعت في القرون الوسطى إلى علوّ لم ينتبه إليه قوم آخرون. ولا يخفى أن هذا الاعتلاء كان ثمرة الاجتهاد في كل نواحي الثقافة وتطبيق الطرق العلمية. أما الغرب الأوروبي فلم يستطع حينئذ فهم الثقافة وتطويرها. وكذلك دولة بيزنطية فقد تجمدت، والآن نرى كيف تعجبت الأقوام الأوروبية من جمال الثقافة العربية التي امتدت من حدود الصين والهند إلى جبال البرانس"[٦].

من توجيهات النبي: وهذه باقة من توجيهات نبينا العظيم، وحثه على طلب العلم، ونشر المعارف والثقافات، وأمره بمحو الأمية والخرافات: فيقول: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٧]، "وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر"[٨]، "إن الله أوحى إلي : أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريق الجنة، و من سلبت كريمتيه أثبته عليهما الجنة، و فضل في علم خير من فضل في عبادة، و ملاك الدين الورع"[٩]، "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع حتى يرجع"[١٠]، "من علم علماً، فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل شيء"[١١]، "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه..."[١٢]

---

(١) –روم لا ندو : الإسلام والعرب، ٢٤٦

(٢) –روم لاندو: الإسلام والعرب ، ص ٢٨٠ – ٢٨١

(٣) –انظر: سير توماس أرنولد (إشراف): تراث الإسلام ، ص١٠٥

(٤) –الدوميلي: العلم عند العرب،١٤٤

(٥) –أرنست بانرث : ولد في مدينة ليبزج، سنة ١٨٩٥، نال الدكتوراه في اللغات الإسلامية من جامعة فينا. وعين أستاذًا للفلسفة والتاريخ والآداب الألمانية. من آثاره: (الإسلام اليوم وغدًا) (١٩٥٨)، (التفاهم بين الشرق والغرب) (بتكليف من اليونسكو)، وله دراسات عن الفلاسفة المسلمين.

(٦) –أرنست بانرث: تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ٨ – ٩.

(٧) –صحيح –رواه ابن ماجة عن أنس برقم ٢٢٤، وصححه الألباني في الجامع الصغير، برقم ٧٣٦٠

(٨) –صحيح –رواه ابن عبد البر في العلم عن أنس، برقم ٢٤، وصححه الألباني في الجامع الصغير، برقم ٧٣٦١

(٩) –صحيح –رواه البيهقي عن عائشة، وصححه الألباني في الجامع الصغير، برقم ٢٦٠٧.

(١٠) –صحيح –رواه أحمد والبيهقي وابن حبان والحاكم، عن صفوان بن عسال وصححه الألباني الجامع الصغير، برقم ١٠٦٣٩

(١١) –حسن لغيره –رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب ١\١٩، برقم ٨٠

(١٢) –حسن –رواه ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي ورواه ابن خزيمة في صحيحه، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ \ ١٨)، برقم ٧٧

وعن صفوان بن عسال المرادي قال: أتيت النبي وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم، فقال: " مرحبًا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب"[١]، وعن أبي أمامة قال: ذُكر لرسول الله رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم فقال: " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم "، ثم قال :"إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير"[٢]

قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة[٣]، وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه. وقبول النبي صلى الله عليه وسلم تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية[٤].

صور رائعة وتعاليم رفيعة في رعاية العلم والمعرفة، يقف أمامها العاقل المتبصر وقفة إجلال، مما دفع "لبيب رياشي" أن يرفع قبعته تقديراً لهذه التعاليم قائلاً: "حقاً يا محمد ... إنك (السوبرمان) الأول العالمي، رسول الثقافة والعلم، رسول الهداية والتضحية، رسول الفلسفة الجديدة، رسول الإنسانية الجديدة"[٥]، "بدّل الضلال بالهدى، والجهل بالعلم، والهمجية بالمدنية"[٦]، "علمه الله العلم والحكمة، فوجب علينا أن نصغي إليه قبل كل شيء!"[٧].

الخطاب التربوي: ومما يلحق بموضوع الحض على العلم والمعرفة خطاب خاتم النبيين التربوي التعليمي لم يكن خطابه إلى الناس خطابًا دكتاتوريًا مستبدًا، أو براجماتيًا نفعيًا، إنما كان خطابه إلى الناس خطابًا تربويًا لم يكن يغلب عليه طابع الحاكم بقدر ما غلب عليه طابع المعلم الوقور الذي يتحدث إلى تلاميذه وهذا من تجليات رحمته

كان النبي المعلم والمصلح لأبناء الإنسانية، علمهم الحياة والحضارة، فأصلح شؤونهم بعد فساد، يقول الباحث الهولندي وث (١٨١٤—١٨٩٩م): "لقد جاء قرآن العرب[٨] على لسان نبيهم محمد العظيم، وعلمهم كيف يعيشون في هذه الحياة، وقد وحد صفوفهم وجمع كلمتهم وأدبهم حتى لا ترى أمة من الأمم أحسن منهم، وبالنهاية اعتمدوه في كل أمورهم، وكان يتلقى الوحي من ربه الذي يوحي إليه، ثم ينقله إلى الناس، بعد أن يكتبه له الكتّاب الذين انتدبهم لذلك"[٩].

كما كان النبي في سائر مراحل حياته القدوة الإنسانية والمثل الأعلى والنموذج الأمثل للمعلم الكبير، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١]، "فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحبًا بنا ،حتى نقتفي أثره"[١٠]، وهذه القدوة التي تمسك بها المسلمون، عادت عليهم بانتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة في الأرض كما يقول توماس أرنولد، و"وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدي الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة"[١١].

---

(١) –حسن —رواه رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له وابن حبان في صحيحه والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ \ ١٧) برقم ٧١.
(٢) –حسن لغيره –رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، ، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب ١٩\١، برقم ٨١
(٣) –ابن كثير: السيرة النبوية،٢\ ٥١٢
(٤) –على محمد الصلابي: السيرة النبوية ٢\٤٦
(٥) –لبيب رياشي: نفسية الرسول العربي، نقلاً عن: محمد شريف الشيباني ١٠٠
(٦) –ميخائيل طعمة: جريدة الكرمل، نقلاً عن: محمد شريف الشيباني ١٥٠
(٧) –توماس كارلايل: الابطال، ص ٦٠، ٧٠
(٨) –بل هو قرآن البشر كلهم!
(٩) –وث: محمد والقران، ص ٧٨.
(١٠) –هذه الكلمة للقس السابق الدكتور دُرّاني، انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٤ / ٢٧ – ٢٨.
(١١) –توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧

ومن نماذج رحمته في التربية ما رواه مُعَاوِيَةَ بنِ الْحَكَمِ السّلَمِيّ قال: صَلّيْتُ مَع رسولِ الله فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ. فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمَيّاهُ! مَا شَأْنُكُم تَنْظُرونَ إلَيّ؟! قال: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأيْدِيهِمْ عَلَى أفْخَاذِهِمْ فَعَرَفْتُ أنّهُمْ يُصَمّتُونِي، فَلَمّا رَأيْتُهُمْ يُسكّتُونِي سكَتّ، فَلَمّا صَلّى رسولُ الله-بِأبِي وَأُمّي-مَا ضَرَبَنِي وَلا قهَرَنِي وَلا سَبّنِي. ثُمّ قال: "إنّ هَذِهِ الصّلاَةَ لا يَحِلّ فيها شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النّاسِ هَذَا. إنّمَا هُوَ التّسْبِيحُ وَالتّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ"[١].

ومن أعاجيب المواقف التي تدل على سعة صدره ورحمته للمتعلمين، قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، فعن أنس قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله إذ جاء أعرابي[٢] فقام يبول في المسجد وأصحاب الرسول يصيحون به: مه مه! (أي اترك)، فقال رسول الله: "لا تزرموه دعوه!" (لا تقطعوا عليه بولته)، فترك الصحابة الأعرابي يقضي بوله، ثم دعا الرسول الأعرابي، فقال رسول الله للأعرابي: " إن المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر؛ إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن". وهنا قال رسول الله لإصحابه: "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين صبوا عليه دلوا من الماء". فقال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا!!! فقال الرسول: "لقد تحجرت واسعًا، (أي ضيقت واسعًا)"[٣]، كان نبي الرحمة يغلب الجانب التربوي السمح لا الصارم وإن كان رسول الله هو "الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد"[٤] في آن واحد.

أساليبه في الخطاب التربوي: كان له أسلوب مميز في الخطاب التربوي والتعليم، فتراه وهو يحدث الناس، يمهد لحديثه ليفهموه، ويكرر المعلومة ويوكدها ليعقلوها، ويضرب الأمثلة ليصل المعنى إلى السامعين، ويتخولهم بالموعظة مخافة الملل، ويرسم بيده على الأرض، ويستخدم أصابعه ممثلاً، كل هذا رفقًا ورحمة بالمستمعين والمتعلمين[٥].

أولاً: التمهيد والتهيئة: كان النبي يمهد للمعلومة قبل إيصالها للمتعلم، بحيث يستوعبها السامع، بسهولة ويسر، ومثال ذلك: ما رواه أبو هريرة عن النبي قال: " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ " قالوا: بلى يا رسول الله قال: " إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط "[٦]، وعن أبي هريرة أن رسول الله قال: " أتدرون من المفلس؟" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: " إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته... فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار "[٧].

ففي المثال الأول مهد للمستمعين قائلاً: " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟"، لتهيئ السامع، ويتجاوب مع السؤال، ويُعمل عقله، في محاولة الإجابة، ومن ثم يقوم النبي بالإجابة على السؤال بنفسه وقد استثار عقل السامع نحو فكرة الموضوع. فتدخل المعلومة إلى العقل، وقد اشتاق إلى المعلومة، كما تشتاق الأرض العطشى للمطر! وبالمثل في المثال الثاني، فالسامع في اشتياق لمعرفة هذا المفلس وصفاته، بعدما تحرك العقل يمينًا وشمالاً لمعرفة الجواب الصحيح، فلا يزال العقل في حيرة حتى تصل إليه المعلومة الشافية، فتحصل الفائدة وترسخ المعلومة.

---

(١) -صحيح -أخرجه مسلم في الصلاة باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة.
(٢) -هو ذو الخويصرة اليماني رضي الله عنه.
(٣) -متفقٌ عليه، صحيح البخاري، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم ٢١٧
(٤) -هذه العبارة لفيليب حتي: الإسلام منهج حياة، ص ٥٦
(٥) -انظر: سعيد رفعت راجح: الوسائط التعليمية في الأحاديث النبوية، بحث منشور على موقع alukah.net
(٦) -صحيح -رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم ٢٥١
(٧) -صحيح -رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨١.

ثانيًا: التكرار والإعادة: فعن أنس بن مالك عن النبي أنه "كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه[١]، ومثال ذلك: قولهﷺ: " ألا وقول الزور " فما زال يكررها، قول ابن عمر: قال النبي: " هل بلغت؟ " ثلاثًا، وعن عبد الله بن عمرو عن النبي قال: " ويل للأعقاب من النار " مرتين أو ثلاثاً، والتكرار في هذه النماذج للتفهيم والحفظ. وهذه من قبيل رفقه وتنبيهه للمستمع.

ثالثًا: التأني أثناء العرض: فتصف عائشة طريقة عرض النبي فتقول: " ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن، فصل، يحفظه من يجلس إليه "[٢]، والنبي بطريقة عرضه هذه، إن دلت على شيء فإنما تدل على رفقه ورحمته بالمستمعين.

رابعًا: مراعاة طاقة المتعلمين: فلقد كان النبي، يقتصد في دروسه وخطبه ومواعظه، حتى لا يمل المتعلمين من تعاليمه، وحتى ينشطوا لحفظها ويسهل عليهم فهمها، فقد كان النبي يحسن اختيار أوقات النشاط الذهني، والاستعداد النفسي لدى المتعلمين، ومباعدته بين الخطبة وأختها، والموعظة وأختها، حتى تشتاق النفوس، وتنشرح الصدور لتلقي العلم، فعن عبد الله بن مسعود قال: "كان النبي يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا "[٣].

خامسًا: ضرب الأمثال: وقد كان هذا الأسلوب هو المعتاد والمفضل في منهج النبي في العرض والتفهيم، ومثال ذلك قوله: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد... إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[٤]، وفي ذلك أثر كبير في إيصال المعنى إلى المتعلم، ذلك أنه يقدم القيمة المعنوية في صورة حسية ملموسة، فيربطه بالواقع ويقربه إلى الذهن.

سادسًا: استخدام الوسائط المتعددة: كان النبي يستخدم ما يسمى اليوم بالوسائل التعليمية أو الوسائط التوضيحية، لتبيين المعنى، وتوضيح المغزى في عقول السامعين، وشغل كل حواسهم بالموضوع:

ومن هذه الوسائط: **التعبير بحركة اليد والأصابع:** كتشبيكه بين أصابعه وهو يبين طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه. فعن أبي موسى الأشعري عن النبي قال: " المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا " وشبك بين أصابعه[٥].

والتعبير بالرسم والمجسمات: أما الرسم: فعن عبد الله بن مسعود قال: " خط النبي خطًا مربعًا وخط خطًا في الوسط خارجا منه . وقد أحاط به . وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا؛ نهشه هذا. وإن أخطأه هذا؛ نهشه هذا"[٦]، ففي هذا الحديث بين لهم النبي بالرسم على الأرض كيف يحال بين الإنسان وبين آماله الكثيرة الواسعة بالموت، وفيه حض على الاستعداد للموت قبل هجومه المفاجئ، وأما **المجسمات:** فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: " إن نبي الله أخذ حريرًا فجعله في يمينه وأخذ ذهبًا فجعله في شماله: ثم قال: " إن هذين حرام على ذكور أمتي... حل لإناثهم "[٧]، **وأما التعليم التطبيقي العملي:** ولقد انتهج الرسول هذا الأسلوب في التعليم عندما كان يعلم الصحابة الصلاة حيث قال بعد ما فرغ من الصلاة ذات يوم: " أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي "[٨]، كل هذه الوسائط والأساليب من قبيل الرحمة بالمتعلمين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظم قدر العلم

---

(١) -صحيح –رواه البخاري في كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه، رقم ٩٥

(٢) -صحيح -رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب كيف كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١٩١، وقال الألباني: صحيح.

(٣) -صحيح -رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة، رقم ٦٨.

(٤) -صحيح -رواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٥٦٦٥.

(٥) -صحيح -رواه البخاري، بَاب تَشْبِيكِ الْأَصَابِعِ فِي الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ، رقم ٤٥٩

(٦) -صحيح -رواه البخاري في كتاب الرقاق. باب في الأمل وطوله، رقم ٥٩٣٨

(٧) -صحيح -رواه أبو داود في كتاب اللباس، كتاب في الحرير للنساء، رقم ٣٥٣٥، وقال الألباني: صحيح.

(٨) -صحيح -رواه البخاري في كتاب الصلاة، بَاب الْخُطْبَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ، رقم ٨٦٦.

والمعرفة والثقافة في نفس محمدﷺ، وتقديره البالغ لرسالة التربية والتعليم، وممارسته الماهرة لشتى الوسائل التي تفيد المنظومة التربوية ..

ولادة عالم جديد وإنسان جديد

لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بفضل تلك التعاليم السامية، كما يتغير الطقس، وانتقلت الإنسانية من فصل كله جدب وخريف، وسموم وحميم، إلى فصل كله ربيع وأزهار، وجنات تجري من تحتها الأنهار، تغيرت طباع الناس، وأشرقت القلوب بنور ربها، وعم الإقبال على الله، واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه، وذوق لم يجربه، وهيام لم يعرفه من قبل.

انتعشت القلوب الخاوية الضامرة الباردة الهامدة؛ بحرارة الإيمان وقوة الحنان، استضاءت العقول بنور جديد، وسكرت النفوس بنشوة جديدة، وخرجت الإنسانية أفواجا تطلب الطريق الصحيح ومحلها الرفيع، وتحن إلى مكانتها السامقة العالية، فلا ترى أمة من الأمم، وبلدا من البلاد، إلا وهو يريد السباق في هذا المضمار، ويتنافس فيه، فما ترى العرب والعجم، ومصر والشام، وتركستان وإيران، والعراق وخراسان، وشمالي إفريقية، والأندلس وبلاد الهند، وجزائر شرق الهند، إلا سكارى هذا الحب العلوي، والفيض السماوي، وعشاق هذا الهدف السامي، وفقراء على هذا الباب العالي.

كان يبدو أن الإنسانية أفاقت واستيقظت، وفتحت عيونها بعد سبات عميق طويل، دام قرونا طويلة، فأرادت أن تتدارك ما فاتها حتى عمر كل جزء من أجزائها، وكل ركن من أركانها بدعاة ربانيين مخلصين، مجاهدين مصلحين، مربين، عارفين بالله، متحرقين لخلق الله، باذلين أنفسهم ونفيسهم لخير الإنسانية، وإنقاذها من الخطر المحدق بها من كل جانب، رجال تحسدهم الملائكة، فأشعلوا مجامر القلوب الباردة، وأزكوا شعلة الحب الإلهي، وفجروا أنهار العلوم والآداب، والحكم والمعارف، وفتحوا ينبوعا فياضا، متدفقا من العلم والعرفان، والإيمان والحنان، وأنشأوا في نفوس البشر مقتا شديدا للظلم والجور، والعدوان والبغضاء، ولقنوا الشعوب المضطهدة، المهانة الذليلة، دروس المساواة، وضموا المنبوذين والمهجورين، والمساكين الذين لفظهم المجتمع، وطردهم أهلهم وعشيرتهم؛ إلى صدورهم العامرة بالحب والحنان، إنك تجد آثارهم، وتلمس آياتهم على كل جزء من أجزاء البسيطة كمواقع القطر، لا يخلو منها بيت وبر، ولا مدر. إن هذا الانقلاب العظيم، والدور الزاهر الجديد معجزة من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ومأثرة من مآثر بعثته، ونفحة من نفحات الرحمة الإلهية التي عمت الأمكنة كلها، والأزمنة كلها، وصدق الله العظيم: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [الأنبياء: ١٠٧].

فجاء محمّد صلى الله عليه وسلم وجعل غايته الأخيرة الحقيقية، وهدفه الأعلى المنشود نصب عينيه، وأرسخ في قلب الإنسان: أنّ المجال الحقيقيّ لجهده واجتهاده، ومواهبه وأشواقه، وطموحه وسموّه، وطيرانه وتحليقه، هو معرفة فاطر السموات والأرض، واطلاع على صفاته، وقدرته وحكمته، وسعة ملكوت السموات والأرض وعظمتها وخلودها، والحصول على الإيمان واليقين، والفوز برضوان الله وحده، والرضا به وبقدره، والبحث عن وحدة تؤلف بين الأجزاء المتناثرة أحيانا، والمتناقضة أحيانا أخرى، وتنمية قواه الباطنة، ومداركه الروحية للوصول إلى درجات القرب واليقين، والحثّ على خدمة الإنسانية، والإيثار والتضحية، والوصول بذلك إلى مكان لا تصل إليه الملائكة المقربون، وتلك هي السعادة الحقيقية للإنسان، ونهاية كماله، ومعراج قلبه وروحه([1]).

---

(١) –من المحاضرة القيمة لأبي الحسن الندوي المشار إليها في بداية البحث وهي منقولة في كتابه السيرة النبوية ص (٦٢٢–٦٤١).

البحث الثاني: نماذج عن أسلوب معالجته لأهم المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

أولا: المشكلات السياسية.

١-مشكلة التفرقة العنصرية والدينية والإقليمية

٢-الشورى نظام الفصل بين السلطات.

٣-مشكلة الحرية

٤-مشكلة الاعتداء فيما بين الدول

٥-مشكلة التخوف والتحسس من الآخر

ثانيا: المشكلات الاجتماعية.

١-مشكلة الجهل

٢-مشكلة حقوق المرأة

٣-مشكلة العقوبات

٤-مشكلة الرقّ

ثالثا: المشكلات الاقتصادية.

١-مشكلة الربا:

٢-مشكلة الفقر

٣-مشكلة البطالة(١).

تحوم حول البشرية حاجات أساسية ومشكلات سياسية مخيفة، وأزمات اجتماعية عنيفة، وهزات اقتصادية كثيفة، تكاد أن تأخذ برقاب البشرية قاطبة، بسبب التوجه شطر القوانين الوضعية، وهي تتخبط في كل يوم بالتغيير والتعديل لهذه القوانين البشرية.

ولو تأملنا في الأحكام التي جاء بها نبي الرحمة والحكمة وتأثيرها على المجتمع لرأينا سمواً لا مثيل له، وذلك على مستوى الازدهار الاقتصادي والنمو الاجتماعي والتماسك السياسي، فما جاء عن الله تعالى الخالق الخبير بما يصلح لخلقه لهو البلسم الشافي والدواء الكافي، فقد أنزل القرآن الكريم على نبي الرحمة ﷺ هداية للبشرية ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[الإسراء:٩]، وقد أخذه نبي الحكمة ﷺ بقوة، فتمكن بهذا القرآن المحكم أن يعالج ظلمات الجهل بأنوار العلم، وأن ينقل الناس من رعاة غنم إلى قيادة أُمم، فكانت قيادة رائدة، ومنهجية رائعة، بهرت الحضارات الأخرى، وشهد له أرباب الهمم الذين يتصدرون لحل مشاكل الأمم.

---

(١) -يراجع كتاب أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، محمد نبي الرحمة والحكمة بين عيون المعتدلين وفتون المعتدين، ص:٦٠-١٢٠. وكتابي الشورى والحريات، د. علي الصلابي، وكتاب الإسلام في قفص الاتهام د. شوقي أبو خليل، وموسوعة بيان الإسلام للرد على الشبهات، مجموعة من الباحثين.

يقول الكاتب الإنكليزي هربرت جورج ولز: **كل شريعة لا تسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فأضرب بها عرض الحائط ولا تبال بها، لأن الشريعة التي لا تسير مع المدنية جنبا إلى جنب هي شر مستطير على أصحابها تجرهم إلى الهلاك، وإن الشريعة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الشريعة الإسلامية، وإذا أراد إنسان أن يعرف شيئا من هذا فليقرأ القرآن وما به من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع: فهو كتاب ديني علمي اجتماعي تهذيبي خلقي تاريخي، وكثير من أنظمته وقوانينه تستعمل حتى في وقتنا الحالي، وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة، وهل في استطاعة إنسان أن يأتيني بدور من الأدوار كانت فيه الشريعة الإسلامية مغايرة للمدنية والتقدم؟**(١)

ويقول المفكر اللبناني المسيحي نصري سلهب: تراثك يا ابن عبد الله ينبغي أن يُحيا، لا في النفوس والقلوب فحسب، بل في واقع الحياة، فيما يعاني البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب كل مشكلة، مهما استعصت وتعقدت، نجد لها في آثارك حلاً.(٢)

أولا: المشكلات السياسية

يقول ابن عقيل في كتابه (الفنون): السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد إلى الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي(٣) ، وقال ابن عابدين الحنفي: السياسة استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة(٤)، وقد استهل ابن تيمية مقدمة كتابه (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) بقوله: وهذه رسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله وهي قوله تعالى ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ [النساء/٥٨]، ثم ذكر شيئا من تفسيرها ثم ختم بقوله: وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة.(٥)

ونستنتج من هذه الأقوال أن السياسة في الإسلام تنشد أداء الأمانة والعدل والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وليس كما يظن البعض في هذا العصر أنها المراوغة والدجل واستخدام الحيل كما يراه (ميكافللي) في كتابه (الأمير) الذي اشتهر في أوروبا وأخذ به عتاولة السياسة، ويقول (كريستان غاوس) عميد جامعة برنستون الأسبق: اختار (موسيليني) كتاب الأمير أطروحة للدكتوراه، وكان هتلر يضعه في سريره ليقرأ به قبل النوم، وتتلمذ (لينين)و(ستالين) على هذا الكتاب أيضاً، ومنذ خمسين عاماً بدأنا نطلق على (مكيافللي) اسم مؤسس علم السياسة الحديث. (٦)

وعند إنشاء دولة الإسلام في المدينة النبوية تبلور المنهاج السياسي النبوي من خلال التعامل مع المسلمين وغير المسلمين في داخل ديار الإسلام وخارجها، وأصبح صرحاً عادلاً، وعهداً ملزماً للمسلمين فيما بينهم ومع غيرهم.

قال المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار: وكما يظهر التاريخ الرسول قائداً عظيما ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحا قوي الشكيمة له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كل صاحب حق حقه.(٧)

وإذا تتبعنا المنهاج النبوي في سياسته الخارجية والداخلية نرى علاج المشكلات حسب المطالب التالية:

١-مشكلة التفرقة العنصرية والدينية والإقليمية

---

(١) -انظر قطوف دانية من مآثر المسلمين ٩٢ .
(٢) -في خطى محمد ص٣٩٦.
(٣) -نقلاً من كتاب الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ١٥.
(٤) -حاشية رد المختار على الدر المختار ١٥/٤.
(٥) -السياسة الشرعية ص٦-٧.
(٦) -كتاب الأمير نقولا ميكافيلي ص ١٨.
(٢) -قالوا عن الإسلام ص ٩٩.

يقول المؤرخ أ.د أكرم ضياء العُمري: إن قضية العنصرية والأجناس المتفوقة مما شغل المفكرين في القرن التاسع عشر، وانتهى ذلك إلى الحالة خطيرة من الاستعلاء القومي بسبب الاعتقاد الذي ساد الناس في أوربا –خاصة– بوجود تمايز بيولوجي وعقلي بين البشر، وإن بعض الأجناس متفوقة على سواها، وقد جر ذلك إلى الحب العالمية الأولى والثانية... وأزهقت ملايين الأرواح ودمرت آلة الاقتصاد العالمي وعاش الناس في رعب قاتل عدة سنوات... وقد حلَّ الإسلام هذه المشكلة قبل أربعة عشر قرنا عندما قرر وحدة الأصل للبشر جميعا، فكلهم من آدم وحواء فهم يستوون إذا في الأصل، وبالتالي في الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية، وإنما اقتضت حكمة الله تعالى أن تختلف ألوانهم وتعدد لغاتهم، وقد أوضحت الآية أن علاقة هذه الشعوب المختلفة الألوان واللغات هي علاقة التعارف المفضي إلى التعاون، وهكذا قامت الحضارة الإسلامية على مبدأ وحدة الإنسانية ولم تعترف بالتفوق العرقي والاستعلاء القومي. وإنما وضعت مقياسا خلقيا للتفاضل بين الأفراد ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات/١٣] وقد اعترف بذلك كبار المفكرين، قال المؤرخ البريطاني المعاصر أرنولد توينبي: إن انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين يعد ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام.(١)

وقد عالج نبي الرحمة هذه المشكلة بالمساواة والعدالة، لأن حق المساواة هو واجب على الجميع كل على قدر مسؤوليته، وهذا الحق يجعل أفراد المجتمع في انسجام ووئام وتآلف إذ تتلاشى الفروق العنصرية بل تنعدم لأنها تتطلع وتفخر بقول الله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات:١٣]، وفي هذه الآية العظيمة إلغاء الطبقية والعنصرية والجنسية، فكل الناس سواسية كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالتقوى.

وتجلَّى هذا واضحا في عدة وقائع عاشها المجتمع النبوي الأول منها حينما قال أبو ذرٍّ لأحد أصحابه: يا ابن السوداء فزجره النبي بقوله: "أعيّرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية"(٢)، فأنكر على أبي ذرٍّ هذه العنصرية البغيضة الجاهلية، لأن العرب في عهد الجاهلية كانوا يزدرون ذوي اللون الأسود ويستعلون عليهم، فجاء الإسلام فساوى بين الجميع.

ولما ظهر الإسلام كان بلال الحبشي أول مؤذن لرسول الله، وكذلك المساواة بين الشريف وغيره في أمر القضاء فقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة مخزومية سرقت فشفع لها أُسامة بن زيد فأجابه النبي: "أتشفع في حد من حدود الله؟"(٣)، وخطب رسول الله في حجة الوداع فكان مما قال للمسلمين بل للناس أجمعين: "يا أيها الناس: أي يوم هذا؟" قالوا: يوم حرام. قال: "فأي بلد هذا؟" قالوا: بلد حرام. قال: "فأي شهر هذا؟" قالوا: شهر حرام. قال: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا" فأعادها مراراً. (٤)

وقد جاءت السنة صريحة بالمساواة بين الأجناس وبين أصحاب الأموال والفقراء "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم"، لأن هذه القلوب هي محل التقوى كما صحَّ عنه "التقوى ها هنا–ويشير إلى صدره ثلاث مرات–بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"(٥).

ومع هذه المساواة أعطى كل ذي حق حقه، قال النبي: "من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله"(٦)، ويستفاد من الحديث أن النبيﷺ قد اهتم بأمر الولاية وهي سنام

---

(١) –الإسلام والوعي الحضاري ص ١٧٢.
(٢) –صحيح البخاري –كتاب الإيمان –باب المعاصي من أمر الجاهلية ح ٣٠.
(٣) –صحيح مسلم –كتاب الحدود –باب قطع السارق الشريف ٣/١٣١٥ح١٦٨٨.
(٤) –صحيح البخاري –كتاب الحج – باب الخطبة أيام منى، حديث رقم ١٧٣٩.
(٥) –صحيح مسلم –كتاب البر والصلة –باب تحريم ظلم المسلم، ٤/١٩٨٦ ح ٣٢/٢٥٦٤-٣٣.
(٦) –أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/١٠٤ ح ٧٠٢٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه ووافقه الذهبي.

السياسة، ولا غرابة فقد علم الساسة السياسة، وأطّر الحقوق السياسية تأطيراً، وأرسى أركانها إذ أحاط بمفرداتها، ومارس تجاربها عملياً بكل ما أوتي من حكمة وحنكة، واستخدم فصاحته وبلاغته لبيانها بجلاء.

وكذلك العدل واجب في التجارة فيجب أن تنضبط البيوع بالعدالة لا ظلم ولا غبن ولا غش، فقد ثبت عن النبيﷺ أنه قال "من غشنا فليس منا"(١) وذلك بسبب الغشّ في الطعام، إنه نظام العدل وعدل النظام، فقد بدد ظلمات الجاهلية، وامتد نوره أنحاء البرية.

يقول العالم الألماني رودي بارت: كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيشون فيها فساداً. حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس (٢).

ويقول العالم الأمريكي مايكل هارث: إن محمداً كان الرجل الوحيد الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي، إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يعتبر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية. (٣)

يقول المؤرخ الأمريكي فيليب حتي: إن إقامة الأخوة في الإسلام مكان العصبية الجاهلية (القائمة على الدم والقرابة) للبناء الاجتماعي كان في الحقيقة عملاً جريئاً جديداً قام به النبي العربي. (٤)

إن حضارة الإسلام جاءت لتبقى حتى تقوم الساعة، وما يعتري المسلمين من اضطراب سياسي وضعف فهو بسبب الغيبوبة عن التعلم والعمل والزهد بالقرآن والسنة فهما الرافدان الأصليان للحقوق السياسية، فكلما رجعت الأُمَّة إليهما ارتقت وانتعشت، وكلما ابتعدت عنهما ارتمت وانتكست.

٢-الشورى نظام الفصل بين السلطات.

إن الشورى قيمة إنسانية مارستها الجماعات والقبائل والشعوب والأمم على مر تاريخها الطويل، كل بطريقته وثقافته وعقيدته وأعرافه وتقاليده، إلا إن الإسلام أضاف لها بعداً تعبدياً وجعلها من القيم الإنسانية الرفيعة، ومن المقاصد الكبرى لهذا الدين، ورتب على العمل بها ثواباً، وعلى تركها عقاباً. استمد نبي الرحمة نظام الحكم من كتاب ربه، وذلك من خلال مبدأ البيعة والشورى والاعتماد في ذلك على أهل الحل والعقد من العلماء والحكماء، ونظام الفصل بين السلطات القضائية والتنفيذية والتشريعية، فقد أمره الله تعالى بمشاورة أصحابه في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران:١٥٩]، قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ معناه: استخرج آراءهم واعلم ما عندهم. ويقال: إنه من شرت العسل: إذا استخرجته من الخلية.

ووردت الآية: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: ٣٦]، في سورة تحمل اسم الشورى وهي سورة الشورى وتسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى هو في حد ذاته تشريف لأمر الشورى وتنويه بأهميتها ومنزلتها وجاءت الشورى في هذه الآية وصفاً تقريرياً، ضمن صفات أساسية لجماعة المؤمنين المسلمين فهم بعد إيمانهم متوكلون على ربهم، مجتنبون لكبائر الآثام والفواحش، مستجيبون لأمر ربهم، مقيمون لصلاتهم، وأمرهم شورى بينهم ويزكون أموالهم وينفقون منها في سبيل الله، وهي آية مكية مما يدل على أن الشورى في الإسلام ممارسة اجتماعية قبل أن تكون من الاحكام السلطانية،

---

(١) -صحيح مسلم -كتاب الإيمان -باب قول النبيﷺ "من غشنا فليس منا"، ٩٩/١ ح١٠١.
(٧) -الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص٢٠.
(٨) -قالوا عن الإسلام ص٩١.
(١) -الإسلام منهج حياة ص٥١.

وهي تصف حال المسلمين في كل زمان ومكان فهي ليست طارئة ولا مرحلية، ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من أثمن خصال المؤمنين وصفاتهم[١].

وقوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ جاءت خطاباً لرسول الله بصفته داعياً وهادياً، ومرشداً مربياً وأميراً قائداً، وهذا ما يقتضيه أن يكون رفيقاً بالناس متلطفاً معهم رحيما لهم عفواً، عنهم متسامحاً معهم، بل مستغفراً لهم في أخطائهم وذنوبهم ومستشيراً لهم مراعياً لآرائهم. وهذا الأمر لرسول الله بمشاورة أصحابه هو أمر لكل من يقوم مقامة من الدعاة والقادة والأمراء، بل إن العلماء والمفسرين يعتبرون أن هؤلاء مأمورون من باب أولى وأحرى، فهم الأحوج إلى هذا الأمر وبفارق كبير جداً عن رسول الله، ومن هنا عُدّت هذه الآية قاعدة كبرى في الحكم والإمارة وعلاقة الحاكم بالمحكومين، فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستثير أهل العلم والدين—وأهل التخصص في فنون العلوم—فعزله واجب وهذا ما لا خلاف فيه [٢]

إن السنة والسيرة النبوية مستفيضة بأمر الشورى، فقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمور كثيرة منها ما يتعلق بشأن الدولة ومنها ما يتعلق ببعض الأمور الاجتماعية؛ كحادثة الأفك التي شاور فيها علياً وأسامة مشاورة خاصة ثم استشار الأمة بشكل عام [٣].

وقد أسس النبي صلى الله عليه وسلم للشورى نظاماً يحتذى، وسنة عملية تُتبع وعرف ذلك عنه أصحابه ومن ذلك: قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤]، وعن النبي قال له أبو بكر وعمر: إن الناس ليزيدهم حرصاً على الإسلام أن يروا عليك زيّا حسناً من الدنيا فقال: وأيم الله لو أنكما تتفقان على أمر واحد، ما عصيتكما في مشورة أبداً [٥]، وكان رسول الله يستشير حتى المرأة فتشير عليه بالشيء فيأخذ به [٦].

بعض حوادث الشورى الأساسية:

١–الشورى يوم بدر، أ: مشاورته في الخروج للقتال بقوله: أشيروا عليّ أيها الناس، والحادثة معروفة.

ب: وكذلك مشورة الحُباب بن المنذر في بدر حين استقر النبي في مكان، فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدَّمه، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرَّأي، والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرّأي، والحرب، والمكيدة قال: يا رسول الله؛ فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم – أي: جيش المشركين – فنزله، ونغوِّر – نخرِّب – ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثمّ نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه، ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدوَّ، فنزل عليه، ثمّ ضعوا الحِيَاض، وغوَّروا ما عداها من الآبار [٧].

وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرسول مع أصحابه حيث كان أيُّ فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدْلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتبَّ على ذلك من غضب من تدَّني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد، وتأخره في الرتبة، وتضرره في نفسه أو ماله إن هذه الحرية، التي ربَّى عليها رسول الله أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد، والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً

(١) –الشورى، أحمد الإمام صـ١٥ والشورى، علي الصلابي ص:٤
(٢) –المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٣٩٧/٣).
(٣) –فقه الشورى للغامدي ص ١٢١.
(٤) –الشورى د. أحمد الإمام ص ٢١ سنن الترمذي رقم ١٦٣٦.
(٥) –فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣٤١/١٣).
(٦) –الشورى د. أحمد الإمام ص ٢٠١.
(٧) –سيرة ابن هشام (٢٧٢/٢).

باهراً، وإن كان حديث السَّنَّ، لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرَّد، أو آراء عصبةٍ مهيمنة عليه، قد تنظر لمصالحها الخاصَّة، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامةً، وإنما يفكرَّ بآراء جميع أفراد جنده وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهَّم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فردٍ منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه[١]، وتبدو عظمة القيادة النبوية من استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة المطروحة من جندي من جنودها، أو قائد من قوّادها [٢].

ج-ومشاورته صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر: فقال لأصحابه ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ ثم أخذ في هذه النازلة برأي الأغلبية من أصحابه، ولذلك جاء اللوم عاماً من الله تعالى: {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأنفال: ٦٧- ٦٩]، في قوله " تريدون" للفريق الذين أشاروا بأخذ الفداء وفيه إشارة إلى أن رسول الله غير معاتب، لأنه أخذ برأي الجمهور [٣]، وروي أن ذلك كان رغبة أكثرهم [٤]واللوم الذي وجهه الله تعالى للصحابة لم يكن بسبب الرأي الذي أشاروا به في حد ذاته ولكن بسبب الدافع الذي وراءه وهو الكسب الدنيوي الذاتي "تريدون عرض الدنيا" ولذلك لا يدخل فيه منهم إلا من تحكمت هذه الرغبة في الرأي الذي أشار به [٥].

٢- الشورى في غزوة أحد: كان رأي النبي البقاء في المدينة، وقال: إنَّا في جُنَّة حصينة، فإن رأيتهم أن تقيموا، وتَدَعوُهم حيث نزلوا فإن أقاموا، أقاموا بشَّر مُقام، وإن دخلوا علينا، قاتلناهم فيها [٦].إلا أنّ رجالاً من المسلمين ممَّن فاتتهم بدر قالوا : يا رسول الله؛ أخرج بنا إلى أعدائنا وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدوَّ، ولم يتناهو إلى قول رسول الله، ورأيه، ولو رضُو بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامّة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدراً، قد علموا الذي سبق لأهل بدر من الفضيلة [٧].

ولم يزل الناس برسول الله الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم، حتى دخل رسول الله بيته، فلبس [٨] لامَتَهُ، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم بأمر وعرضتم بغيره، فأذهب يا حمزة فقل لنبي الله: أمرنا لأمرك تَبَعُ، فأتى حمزة، فقال له: يا نبي الله: إن القوم تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّه ليس لنبيَّ إذا لبس لأمته أن يصنعها، حتى يقاتل [٩].

ومن الواضح: أن الرسول، عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم؛ حتىَّ ولو خالفت رأيه، فهو إنّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه، تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامّة، ومعالجة مشكلات الأمّة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرّأي، ولم يحدث أن لام الرّسول أحداً، لأنه أخطأ في اجتهاده، ولم يوفَّق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلابَّد أن يُطبَّق الرسول التوجيه القرآني لتعتاد الأمة على ممارسة الشورى، وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة فزعم أن لهم إبداء الرّأي، إلا أن ليس لهم فرضه على القائد فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجَّح لديه من الآراء، فلمّا رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا

---

(١) -التاريخ الإسلامي للحميدي (١١٠/٤).
(٢) -التربية القيادية لمنير الغضبان (٣١/٣).
(٣) -التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٧٥/١٠).
(٤) -الشورى في معركة البناء ص ٨٨.
(٥) -المصدر نفسه ص ٩٠٠.
(٦) -تاريخ الطبري (٦٠/٢).
(٧) -البداية والنهاية (١٤/٤).
(٨) -لأمة الحرب: عدّتها.
(٩) -مصنف عبد الرزاق (٣٦٤/٥-٣٦٥).

فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمّهم درساً آخر هو من صفات القيادة الناجحة، وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع [١].

٣- الشورى في غزوة الأحزاب:

أ: في حفر الخندق، تشاور الرسول مع أصحابه في كيفية المواجهة للأحزاب وكان رأي سلمان الفارسي بأن يحفر خندقاً حول المدينة لمواجهة الأحزاب، فأخذ النبي برأيه وأمر بحفره واختار مكاناً مناسباً لذلك وهي السهول الواقعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء، واقترن حفر الخندق بصعوبات جمّة، فقد كان الجو بارداً والريح شديدة، والحالة المعيشية صعبة بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، لكنهم يعملون ماتفقوا على رضا ومشاورة.

ب- الشورى في محاولة الصلح مع غطفان: حاول النبي تخفيف حدّة حصار الأحزاب للمدينة بعقد صلح مع غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته، وترجع إلى بلادها فهو يعلم: أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك من هذا الغزو أيَّ هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأوّل والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها، ولهذا لم يحاول الرّسول الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود، كحيي بن أخطب وكنانه بن الربيع أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرّئيسي لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفاً سياسيّاً، وعقائديا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس، لذا فقد كان اتصاله "فقط" بقادة عطفان الذين "فعلاً" لم يتردَّدوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي[٢]. فقد استجاب القائدان الغطفانيان "عيينه بن حصن، والحارث بن عوف" لطلب النبي، وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقرَّ قيادة النبي، واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله في مفاوضتهم وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه، وبين غطفان، وأهمُّ البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة.

- عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.
- توادع غطفان المسلمين، وتتوقف عن القيام بأيَّ عمل حربيَّ ضدهم.
- يدفع المسلمون لغطفان "مقابل ذلك" ثلث ثمار المدينة كلَّها من مختلف الأنواع.

وقبل عقد الصلح مع غطفان شاور رسول الله الصحابة في هذا الأمر، فكان رأيهم عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة، وقال السَّعدان: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة؛ يا رسول الله؛ أمراً تحبه، فتضعه أم شيئاً أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: بل شيءٌ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنَّي رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم—أي: اشتدوا عليكم—من كلَّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنَّا وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرىً — أي: الطَّعام الذي يُضع للضيف—أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك، وبه، نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السَّيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال

(١) -السيرة النبوية الصحيحة د. أكرم العمري (٢/٣٨٠).
(٢) -السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/١٨٥).

النبي: أنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليَجْهدوا [١] علينا كان رد زعيمي الأنصار: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى، والأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام.

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى، فلا مجال لإبداء الرّأي بل، لابدَّ من التسليم، والرِّضا.

الثاني: أن يكون شيئاً يحبُّه رسول الله، باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدَّمُ وله الطاعة في ذلك.

الثالث: أن يكون شيئاً عمله الرّسول صلى الله عليه وسلم لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرّأي، ولما تبين للسعدين من جواب الرسول صلى الله عليه وسلم: أنه أراد القسم الثالث: أجاب سعد بن معاذ بجواب قويَّ، كبت به زعيمي غطفان، حيث بيَّن أن الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهلية، فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام؟ وقد أعُجب النبيُّ بجواب سعد، وتبَّين له منه، ارتفاع معنويّة الأنصار، واحتفاظهم بالرّوح المعنويّة العالية فألغى بذلك ما بدأ من الصُّلح مع غطفان [٢].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: إني قد علمت: أنّ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة [٣]، دليل على أن رسول الله كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفاً واحداً، وهذا يرشد المسلمين إلى عدّة أمور منها:

– أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

– أن يكون الهدف الاستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى، والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام [٤].

وفي استشارة رسول الله للصَّحابة يتبين لنا أسلوبه في القيادة، وحرصه على فرض الشورى في كلَّ أمر عسكري يتصل بالجماعة، فالأمر شورى، ولا ينفرد به فرد حتىّ ولو كان هذا الفرد رسول الله ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد، ولم ينزل به وحي [٥] إن قبول الرسول رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة [٦] للشعوب.

ففي هذه النازلة نجد النبي صلى الله عليه وسلم قد فكر ودبر، وهيأ حلاً يخفف به محنة المسلمين، وفاوض وانتهى إلى اتفاق أولي مع زعماء غطفان لكنه، قبل إمضائه وتنفيذه، عرضه للشورى، وانتهى به الأمر إلى التخلي عن رأيه وتدبيره، والأخذ برأي مستشاريه الذين يمثلون جمهور المسلمين من أهل المدينة [٧].

٤– الشورى في صلح الحديبية: استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الخروج إلى البيت معتمرين، فإن صدتهم قريش قاتلوهم فأشاروا بالخروج وفرحوا بمقدمهم على البيت، ولكن الله تعالى أراد ما هو خير لهم فجرت مفاوضات طويلة حتى كتب الصلح بين رسول الله وبين قريش يمثلهم سهيل بن عمرو وكان ذلك في صالح المسلمين وجعل الله لهم من دونه فتحاً قريباً، ولعل الصحابة رضوان الله عليهم تأثروا بصد قريش لهم ثم الصلح معهم على أن يرجعوا هذا العام ويأتوا العام القادم في عمرة القضاء ولما فرغ رسول الله من قضية كتابة الصَّلح قال لأصحابه : قوموا، فانحروا ثمّ احلقوا..

---

(١) –سيرة ابن هشام (٣/٢٣٤).
(٢) –التاريخ الإسلامي للحميدي (٦/١٢٥).
(٣) –سيرة ابن هشام (٣/٢٣٤).
(٤) –الأساس في السنة، سعيد حوى (٢/٦٨٧).
(٥) –السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٢/٢٧١).
(٦) –المصدر نفسه (٢/٢٧١).
(٧) –الشورى في معركة البناء ص ٩٣.

حتى قال ذلك ثلاث مرّات، فلمَّا لم يقم منهم أحد؛ دخل على أمَّ سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحبُّ ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلَّم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدُنك، وتدعو حالقك فيحلقك فخرج، فلم يكلَّم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه، ودعا حالقه، فلمَّا رأوا ذلك؛ قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما وقد حلق رجال يوم الحديبية، وقصَّر آخرون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يرحم الله المحلقين. قالوا: والمقصَّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين قالوا: والمقصَّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال والمقصرين [١].

فقد كان رأي أمّ سلمة سديداً، ومباركاً؛ حيث فهمت عن الصحابة: أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي أمرهم بالتَّحلل أخذاً بالرُّخصة في حقهم، وأنه يستمُّر على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حق نفسه، فأشارت على النبي أن يتحللَّ لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبيُّ صواب ما أشارت به، ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غاية تُنتظر، فكان ذلك رأيا سديداً، ومشورة مباركة وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة، ورأي سديد [٢]، كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل، أو امرأة ما دامت مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام : أنه غمطها حقَّها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل، ويعمل النبي صلى الله عليه وسلم بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها، وأغضبته [٣]؟

٥-الشورى في غزوة تبوك: مارس رسول الله في هذه الغزوة الشورى، وقبل مشورة الصديق، والفاروق في بعض النَّوازل التي حدثت في هذه الغزوة ومن هذه النوازل.

أ-قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدّعاء: قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطشٌ، حتى ظننَّا: أن رقابنا ستنقطع؛ حتى إنّ الرَّجل لينحر بعيره، فيعتصر فرْثه فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عوّدك في الدعاء خيراً، فادع الله، قال: أتحبُّ ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه، فلم يردّهما حتى حالت السماء، فأظلتَّ ثم سكبت فملؤا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر [٤].

ب-قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل: أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي في نحر إبلهم حتى يسدُّوا جَوْعتهم، فلمَّا أذن لهم النبي في ذلك، جاءه عمر، فأبدى مشورته في هذه المسألة وهي: أن الجند إن فعلوا ذلك نفذت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطّويل ثم ذكر حلاً لهذه المعضلة، وهو: جمع أزواد القوم، ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل صلى الله عليه وسلم بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقيّة من هذا الطعام، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه، وأكلوا حتى شبعوا [٥].

ج-قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشَّام والعودة إلى المدينة : عندما وصل النبي إلى منطقة تبوك، وجد أنَّ الروم فرُّوا خوفاً من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب بأن يرجع بالجيش إلى المدينة، وعللَّ رأيه بقوله: إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام ولقد كانت مشورة مباركة، فإنَّ القتال داخل بلاد الرومان يُعد أمراً صعباً؛ إذ إنَّه يتطلبَّ تكتيكاً خاصّاً، لأن الحرب في الصحراء

---

(١) -البخاري رقم ١٧٢٧.
(٢) -ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية عدنان النحوي ص ٢٨١.
(٣) -السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٣٨٢/٢).
(٤) -مجمع الزوائد للهيثمي (١٩٤/٦ – ١٩٥) السيرة النبوية (٦٣٣/٢).
(٥) -السيرة النبوية للصَّلاَّبي (٦٣٣/٢).

تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرُّومان في الشام يقرب من مئتين وخمسين ألفاً، ولاشك في أنَّ تجمع هذا العدد الكبير في تحصُّنه داخل المدن يعرِّض جيش المسلمين للخطر [١] إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في جميع شؤونها السياسية والعسكرية والاجتماعية، منهج تربوي كريم، سار عليه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في حياته [٢].

وتتضح قواعد الشورى النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام في أمور جليلة أظهرها:

– إتباع الصواب من الرأي الفني، كما حدث في بدر بغض النظر عن الأكثرية حيث نزل على رأي الحباب ابن المنذر؛ بل هو الرأي والحرب والمكيدة" والحباب يمثل أهل الخبرة والاختصاص وأهل الذكر[٣].

– الأخذ برأي الأكثرية عند ترجيح المواقف: كما في يوم أحد، وان خالف رأيهم القيادة وعليه إذا كانت الشورى في الأمور التشريعية فالحجة لقوة الدليل، وإذا كانت الشورى في الأمور الفنية فالحجة لأهل الخبرة والاختصاص، أما في طلب الرأي الذي يرشد إلى القيام بعمل من الأعمال الكبيرة، كانتخاب رئيس، أو والٍ، أو إقرار مشروع فيرجح رأي الأكثرية لأن الكثرة يحصل بها الترجيح وهكذا تقدم لنا السيرة النبوية معالم أساسيه لفقه الشورى كأمر رباني ،وسنة نبوية، وقيمة أخلاقية، وحكمه بالغة في سياسة الأمة وإدارة أمور الدولة وهى ملزمة للحاكم ومفتوحة للمشاركة ولأهل الخبرة الفنية وأهل الاختصاص مكانة خاصة في الشورى وتمتد قيمه الشورى إلى سائر ضروب النشاط الإنساني وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزم الشورى ابتداءً وانتهاءً [٤]. وما ذكرناه من السيرة النبوية غيض من فيض، وقليل من كثير.

ويقول د. الصلابي: هل الشورى معلمة أم ملزمة؟، القول بإلزامية الشورى هو ما ندين الله به، ونرى ضرورته وجدواه، وبدونه لا يمكن تفعيل الشورى على المستوى الدستوري للشعب، فالدولة الإسلامية دولة مدنية، تؤمن بالمؤسسات، وترى فصل السلطات، وأن تكون مرجعيتها الإسلام، فهي ليست دولة أسرار ثيوقراطية مغلقة يديرها رجال الدين، وإنما دولة لشعب يسعى بذمته أدناه من مواطنيه، ولذا لا بد أن يتاح للكل أن يسهم في أمر النصح والشورى، وأن يلتزم ولاة الأمور بحكم الأغلبية، كشورى ملزمة، فهذا، الأمر من الأهمية بمكان، ولا بد من أن يستبين تماماً قبل الشروع في أي محاولة جدية لتطبيق الشورى في النظام السياسي الإسلامي، وأما مجالات الشورى فهي متعددة، فالمجال السياسي الدنيوي، وفي القضاء وفي تنزيل الأحكام القطعية، وفي الأحكام الاجتهادية والخلافية وفي تنظيم الشورى، .. أن قيمة الشورى تتسع لسائر المواطنين في كل شأن يمس المصلحة العامة، فلا يتدخل المواطنون المسلمون فيما يجريه المواطنون غير المسلمين من شورى في شئون عقيدتهم ولا المواطنون غير المسلمين فيما يمارسه المسلمون من شورى في شؤون عقيدتهم إلا ما كان أدخل في القواعد المشتركة بينهما من قيم إنسانية، وقواعد أخلاقية وشؤون فنية وإدارية.

كما أن الشورى لا تنجح ولا تستمر إلا في ظل الحرية، وأجواء الحرية، وحرية الضمير، وحرية التفكير، وحرية التعبير، فالشورى بدون حرية حقيقية لا يمكن أن تتم، وإذا تمت فلن تستمر، وإذا استمرت فليست هي هي، وإنما هي أسماء وأشكال ورسوم[٥].

---

(١) –المصدر نفسه (٦٣٤/٢).
(٢) –الشورى د. أحمد الإمام ص ٣١.
(٣) –المصدر نفسه.
(٤) –الشورى د.أحمد الإمام ص ٣٣.
(٥) –الشورى للريسوني ص١٧٥.

ولابد من تفعيل حقيقة الشورى في الشعوب الإسلامية وأهم الوسائل والرؤى التي تساعد عليها كتفعيل المجتمع المدني والمؤسسات الشعبية، ورفض الهالات والقداسة عن الرؤساء والحكام، والإصرار على أن الحكم الإسلامي مدني لا عسكري، ومواجهات التحديات الحضارية، والحرص على حرية البحث العلمي واستقلاليته والاستجابة لمتطلبات الشعوب والتغيرات التي تحدث في المجتمعات وفق مقاصد الشريعة، وإشاعة ثقافة الشورى في الأُسر والمدارس، والنوادي والجامعات، والروابط والنقابات، ومحاربة الاستبداد والتصدي له، فالاستبداد لا ينتمي إلى الإسلام البتة، بل أنه نقيض الشورى حتماً وفيه من الصفات والأوصاف ما يعكس خلاف الشورى في كل صغيرة وكبيرة وعلى حد توصيف الكواكبي له، حيث يقول: إذا أراد الاستبداد أن يحتسب وينتسب، لقال: أنا الشر، وأبي الظلم وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرر، وخالي الذل، وابني الفقر، وبنتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيرتي الجهالة[١].

قلت ولو احتسبت الشورى وانتسبت لقالت: أنا الخير، وأبي العدل، وأمي الإحسان، وأخي الوفاء، وأختي العزة، وعمي النفع، وخالي الرفعة، وابني الغنى، وبنتي العمل، ووطني العمار، وعشيرتي العلم.

إن تقدم الشعوب وقدرتها على مواجهة التحديات الحضارية يعتمد على نشر العدل وإعطاء الحقوق السياسية لأفرادها وجماعاتها، بكافة أنواعها، ولقد عاشت أمتنا الإسلامية في أوج حضارتها وتقدمها، عندما كانت تحافظ على هذه الحقوق وتعطي كل ذي حق حقه وهوت وسقطت لما تجاوزت تلك الحقوق.

إن فلسفة الحكم في الدولة المدنية الحديثة التي مرجعيتها الإسلام ترتكز على الشورى، التي ذكرت في القرآن الكريم ومارسها الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، فقد عرفت طريقها إلى الحياة السياسية وأصبحت من ركائز الدولة في عصر صدر الإسلام.

وهناك أصول شرعية تلازم الشورى كمبدأ إسلامي أصيل من أهمها:

. إن الإسلام اعتبر الشورى منهج حياة إنساني، فضلاً عن كونها ضرورية في نظام الحكم.

. إن طبيعة الحكم الإسلامي على مدار العهد النبوي ومروراً بخير القرون كان حكماً شورياً على الرغم من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، ومكانة الخلفاء الراشدين بين عموم الصحابة رضي الله عنهم.

. إن تشريع الشورى بذاته قائم على المصلحة ودرء المفسدة، وهذا لا ينحصر في الشورى، فالتشريعات الإسلامية كلها قائمة على ذلك من جلب مصلحة ودرء مفسدة، كما يقول العز بن عبد السلام: الشريعة كلها نصائح، إما بدرء مفاسد أو بجلب مصالح[٢].

. إن الشورى تتلاحم وتنصبغ بفكرة مقاصد الشريعة الكلية، ولها علاقة وثيقة الصلة بالضروريات الخمس التي تناولها الأصوليون بالتحليل والدراسة والبيان، إذ من الطبيعي في أي نظام شوري، أن تتحقق الضروريات الخمس، وأن تحفظ بعمومها، وهذا ليس خاصاً بالمسلمين على التحديد، بل يشمل غيرهم وعلى توصيف ابن عبد السلام.

وكذلك اتفقت الشرائع على تحريم الدماء والابضاع والأموال والأعراض، وعلى تحصيل الافضل، فالأفضل من الأقوال والأعمال[٣]، ولا شك أن أي نظام ديكتاتوري أو تسلطي أو إستبدادي يقضي على هذه الضروريات، وتضيع في ظل إجراءاته المستبدة، والتاريخ يصدق هذا.

---

(١) –طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ص٧١.

(٢) –قواعد الأحكام في إصلاح الأنام ص١.

(٣) –قواعد الأحكام في إصلاح الأنام (١ / ٨).

ومن المؤكد أن تحفظ الضروريات في ظل وجود حالة من النزاهة والعدالة، وفصل السلطات، ومحاكمة الحاكم وخضوعه عند رأي الشعب، فتنوع الحريات لتطال أفعال الحاكم وتصرفاته، وتحصيل المساواة بين الجميع، فلا سلطة إلا للشريعة وقانونها النافذ على الجميع، ونشر العدل في انحاء الدولة.

في ظل الحكم الديكتاتوري تغيب الشورى، ولا يسمح بالتعبير عن حرية الرأي، ويكون الحاكم مستبداً في تصرفاته ويعاقب بالقتل والسجن لمن أبدى رأيه في أعماله أو أخطاء ابنائه أو حاشيته، وتضيع الحرية والمساواة والعدالة بين عامة الشعب، ولقد سفكت دماء وهتكت اعراض، وصُودرت أموال، وقتل علماء وسجن مفكرون ومثقفون في ظل هذه الدول الظالمة، فلا دين، ولا نفس ولا مال، ولا عقل، ولا نسل، يمكن أن يستقيم أو يحفظ في ظل الأنظمة الاستبدادية والقمعية[١].

قال ابن الجوزي: من فوائد المشاورة أن المشاورة إذا لم ينجح أمره؛ علم أن امتناع النجاح محض قدر؛ فلم يلم نفسه. ومنها: أنه قد يعزم على أمر يتبين له الصواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه. والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم، وقال بعض الحكماء: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حصنت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر، واعلم أن النبي إنما أمر بمشاورة أصحابه فيما لم يأته فيه وحي. وعمَّهم بالذكر، والمقصود أرباب الفضل والتجارب منهم.[٢]، إن القيام بالمشاورة هو حق الإمام وحق الأُمَّة أيضاً، وقد قام بهما النبي عملياً لتتضح صورتها وتتجلى فوائدها. وبذلك فقد قام بوضع دعامة أساسية سياسية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا لما فيها من الفوائد والاعتراف بأهل الفضل والفراسة.

٣-مشكلة الحرية

إن حل مشكلة التفرقة العنصرية والإقليمية بالعدل والمساواة، يمهد لحلٍّ مشكلة الحرية، والحرية في هذا العصر تعتريها ضربات قاضية، ونكسات سارية، وهجمات ضارية في كثير من البلدان، وذلك بسبب الاحتلال والانحلال، والجحود والجمود، والتنكيل والتقتيل، والعنصرية والإباحية، تلك الإباحية التي غُلفت بلباس الحرية، وكل هذه الأسباب أضداد الحرية تخرق حق الحرية خروقاً، وتبددها تبديداً، وتجعلها كالريشة في مهب الريح إذ أصابت الإنسان في جسمه ودينه، وفي سيادته وعرضه، وعزته وكرامته، وصدقت تلك المرأة الفرنسية (مدام رولاند) إذ قالت: (أيتها الحرية كم من الجرائم قد اقترفت باسمك؟!) وذلك لما رأت ما أقدمت عليه الثورة الفرنسية من انتهاكات باسم الحرية".[٣]

قال المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار: فتح الإسلام الباب للتعايش على الصعيد الاجتماعي والعرقي حين اعترف بصدق الرسالات الإلهية المنزلة على بعض الشعوب، لكنه بدا له برفض الحوار في الوقت ذاته على الصعيد اللاهوتي، حين أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفاً مخالفاً للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة، وأتاح منطق تعاليمه القوي، وبساطة عقيدته، وما يرافقها من تسامح، أتاح كل هذا للشعوب التي فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية.[٤] فلم يقتصرﷺ على المسلمين بل أطلقها إلى غير المسلمين حتى شملت المشركين الأعداء فقال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٥]، فأي حرية هذه؟ إنها انطلاقة الحرية من طوق الجاهلية، وحرية الانطلاق من الجاهلية.

---

(١) -عن مقدمة كتاب الشورى للدكتور الصلابي.
(٢) -شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ٦٨١/١-٦٨٢.
(٣) -هذه الكلمة نقلتها من كتاب (حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام ص٥٢).
(٤) -إنسانية الإسلام ص١٨٤.
(٥) -السنن الكبرى للبيهقي ١١١/٩.

إن لمفهوم الحرية علاقة مباشرة مع جوهر وجود الإنسان، ومن أجل ذلك المفهوم اعتبر الإنسان نفسه مخلوقاً مميزاً عن بقية مخلوقات الأرض، وأعلى مفاهيم الحرية في توحيد الله عز وجل، حيث تتحرر النفس البشرية والعقل الإنساني من القيود الوثنية وعبادة الفرد لغير الله، والحرية في الإسلام هي ضد العبودية، وضد الرق والوثنية والظلم، وهي حرية الفرد والمجتمع على حد سواء، فلا حرية للفرد على حساب المجتمع ولا حرية للمجتمع على حساب الفرد، فهي حرية الفكر المنطلق إلى طريق الحق وإلى الابداع والتجدد والاجتهاد، ويأتي مفهوم الحرية في الفكر الإسلامي منطلقاً من أن الإسلام أشار لتحرر الفرد من كل خوف وإعلاء عن كل شرك(١).

ولذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس والأمة من خلفه أن يرفعوا الأغلال عن عقولهم لأن الآجال والأرزاق والنفع والضر بيد الخالق، فقال النبي: " يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"(٢).

كما نهى عن التبعية المقيتة والسلبية القاتلة، فقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضي الله عنه: "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطئوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"(٣).

ولذا قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، وجعل ربعي بن عامر رضي الله عنه تحرير الناس هو جوهر الإسلام لما سأله رستم عن سبب مجيء المسلمين إلى الفرس؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله(٤).

إن الحرية في المفهوم الإسلامي قيمة كبرى تحتل من سلم المقاصد الدينية الدرجات العليا وهي قيمة ثابتة تتصف بالديمومة في الزمان والمكان(٥)، والحرية من صميم أصول الدين وليست من فروعه، لعل أول ما يبدو ذلك في عقيدة التوحيد، فجوهر هذه العقيدة هو أن يكون الإنسان مسلماً نفسه فيما يأتي وما يذر لله تعالى وحده، وهو ما يقتضي أن يكون متحرراً من كل ما سواه، فعقيدة الوحدانية تنفي أن يكون المؤمن بها خاضعاً لأي سلطان سوى الأمر الإلهي، سواء تمثل في سلطان داخلي في شهواتها النفوس وأهوائها، أو في سلطان خارجي من عادات وتقاليد الآباء أو سطوة الحكام ورجال الدين، أو أوهام العناصر الطبيعية، فالحرية التي جاء الإسلام يشرعها للناس هي هذه الحرية التي تتضمنها عقيدة التوحيد(٦)، ومما جاء في سياق ذلك قوله: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}. (النساء: ٦٥).

فهذه الآية تشرع للتحرر من كل ما سوى الله وحده في حكمه وتجعل الإيمان رهيناً في تحققه لهذا التحرر الذي أصبح وجهاً من وجوه توحيد الله تعالى.

---

(١) -المجتمع الإسلامي د. محمد أبو عجوة ص١٧٦.
(٢) -سنن الترمذي، ك صفة القيامة.
(٣) -سنن الترمذي، ك البر والصلة.
(٤) -البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٣٩).
(٥) -مراجعات في الفكر الإسلامي د. عبد المجيد النجار ص١٦٩.
(٦) -المصدر نفسه ص١٧٠.

. ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}[الفرقان: ٤٣]، فاتخاذ الهوى إلهاً من دون الله وهو ضرب من العبودية التي جاء الدين يحرّر الإنسان منها، فإذا لم يتحرر كان ذلك ناقصاً للإيمان بالله فيستحق التشنيع كالتشنيع على هؤلاء الذين وردت فيهم الآية، ومما جاء في ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : "تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة، والخميصة[١].

فهذا الدعاء على من لم يتحرر من عبودية المال، إنما هو لما يفضي إليه ذلك من قدح في توحيد الله تعالى إن الإيمان قد نيط في الدين بإرادة حرة يتحمّل بها الإنسان مسئولية الاختيار، فأصبح الإيمان بتلك الحرية جزءاً من المعتقد، إذ لا يتم الإيمان الأوفق إلا بها على قاعدة أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب[٢].

وعلى أساس هذه المنزلة العقدية للحرية في المنظومة الإسلامية جاءت الأحكام تشرع للإجراءات العملية التي تحقق بها في الواقع وهي أحكام في معظمها تتصف بصفة الوجوب الملزم، على معنى أن المسلم ملزم دينياً بأن ينفذ تلك الأحكام المتعلقة بالحرية في ذات نفسه، إن كانت من باب الحريات الشخصية، وفي السياق الاجتماعي إن كانت من باب الحريات العامة، وممارسة الحرية وفق المنظور القرآني مقصد شرعي وتطبيق لأحكام الإسلام.

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى ثلاث وسائل للإنسان يستطيع من خلالها وبها تحقيق حريته، وهي العقل والإرادة والاستطاعة، وأما عناصر الحرية فالمسئولية الفردية، ومعرفة الذات، ومعرفة الكون وتكريم الإنسان.

– الحرية من الرّق: لقد عالج النبي ظاهرة الرّق كما سيأتي في المشكلات الاجتماعية.

– حرية الدين: لقد أعطى النبي لغير المسلمين حريتهم الدينية، إذ عاش مع اليهود فترة من الزمن، كما كان يستقبل الوفود من النصارى كالسيد والعاقب من نصارى نجران في المعاهدات التي أبرمها بينه وبين اليهود، وأخذ الجزية من الذين بقوا على غير الإسلام، كل هذا يدل على إقرار مبدأ الحرية الدينية لغير المسلمين، لأنه قد اعتمد على الثوابت القرآنية: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة/٢٥٦]، فليس لأحد أن يجبر غيره على أن يدخله في الإسلام، ولا يكرهنا أحد على الخروج من ديننا.

وقد حظي النصارى بعناية فائقة في القرن الأول الهجري، وقد شهد بذلك البطريرك (عيشويابة) الذي تولى كرسي البطريكية من سنة ٦٤٧ إلى سنة ٦٥٧م إذ كتب ما يلي: إن العرب الذين مكنهم الربُّ من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، أنهم ليسوا بأعداء للنصرانية بل يمتدحون مِلَّتنا، ويقرون قسيسنا وقديسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا.[٣]

وهذه الشهادة لم تقتصر على الحرية، بل تنصُّ على تقديم العون للنصارى، ويقرُّون قسيسيهم على دينهم، وقد شهد بذلك أيضاً المستشرق النمساوي بارتولد (١٨٧٩-١٩٣٠م) إذ يقول: وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية، وكان في المؤتمر الديني الذي انعقد في القسطنطينية سنة (٦٨٠-٦٨١م) مندوب من القدس أيضاً. ثم أن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً[٤]. وقال المستشرق البريطاني سير توماس أرنولد: لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قُصد منه استئصال الدين المسيحي.[٥]

---

(١) -البخاري، ك الجهاد، باب الحراسة في الغزو.
(٢) -مراجعات في الفكر الإسلامي ص١٧١.
(٣) -أهل الذمة في الإسلام ص١٥٨.
(١) -تاريخ الحضارة الإسلامية ص٥٤.
(٢) -انظر قالوا عن الإسلام ص ٢٦٦.

يقف الإسلام بين الاديان والمذاهب شامخاً متميزاً في هذا المبدأ الذي قرر فيه حرية التدين، فهو يعلنها صريحة لا مواربة فيها ولا التواء: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}، فالإسلام من منطلق الثقة بصدق الدعوة، ورجحان الكفة، وتكامل الرسالة ووضوح الحجة، وانتصاف العقل [١]، واكمال الأدلة. لا يكره أحداً على الدخول في عقيدته، أو الإيمان بدعوته [٢].

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما عمله وحساب نفسه وهذه من أخص خصائص التحرر الإنساني، إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق "الإنسان" التي يثبت بها وصف إنسان فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً [٣].

ومبدأ الإكراه مرفوض من الأصل، ولا يتوقع لأحد يفهم رسالة الإسلام أن يمارسه، لأنه يخالف طبيعة الدعوة ويناقض أهداف الرسالة ولو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً أو يجعل له استعداداً واحداً ليقود جميع أفراده إلى الإيمان ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه [٤].

ولم يتبع الإسلام في يوم من الأيام وهو دعوة الحق ما تفعله المذاهب والأحزاب من أساليب الإغراء والتضليل والزخرفة، والوعود الكاذبة بل واجه متبعيه بالواقعية والصراحة، حتى قال لهم: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥].

– **حرية التملك**: أطلقت السنة النبوية عنان التملك مهما بلغ المالك من الأموال والقناطير المقنطرة بشرط أن يؤدي المالك حق الزكاة، وشجع على التملك حيث صرح بأن ذلك خير من الذي لا يملك شيئاً، وثبت عنهﷺ: "اليد العليا خير من اليد السفلى"[٥].

كان من الصحابة بعض الأغنياء كأبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة وخصوصا بعد الفتوح، فقد تملك بعضهم عقارات وقرى ومزارع، والمالك له الحرية بماله يتصرف فيه كيف يشاء كما يرضي الله تعالى بشرط أن لا يبذر ذلك المال ولا يصرفه في المجالات المحرمة كما سيأتي في حق التملك ضمن الحقوق المالية، فقد نهى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾ [الإسراء/٢٦-٢٧]، وفي ذلك تحريم وتنفير من التبذير. وفي ذلك تميز دين الإسلام بالوسطية في الأمور المالية عن الاشتراكية والرأسمالية، فإن الاشتراكية تقيد التملك وتفقد هذه الحرية، والرأسمالية تفقد هذه الشروط فالصرف فيها لم يقيد بحلال ولا حرام.

كما أعطى الإسلام حرية التملك لغير المسلمين حيث قال الأستاذ الفرنسي جاك ريسلر: كانت جميع الأديان لها حقُّ الممارسة المطلقة في عبادتها، وكان اليهود لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات ووصلوا أحياناً إلى مراكز سامية [٦]، يقول المستشرق النمساوي بارتولد (١٨٧٩-١٩٣٠م): كانت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنوبي البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها. [٧]

---

(١) -اعتداله وصحة حكمه.
(٢) -حقوق الإنسان بين التطبيق والضياع د. محمود اسماعيل صـ ٢٩٨.
(٣) -في ظلال القرآن (١/ ٢٩).
(٤) -المصدر نفسه (٣/ ١٨٢١).
(٧) -أخرجه البخاري-كتاب الزكاة -باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ح ١٤٢٧، وصحيح مسلم -الزكاة -باب أفضل صدقة الشحيح ٧١٧/٢ ح ١٠٣٣.
(١) -انظر قالوا عن الإسلام ص٢٩٠.
(٢) -تاريخ الحضارة الإسلامية ص٥٤.

– **حرية الرأي**: أما بالنسبة لحرية التفكير والتعبير، فلم يترك القرآن الكريم أسلوباً نفسياً أو واقعياً إلا واتبعه من أجل حث الإنسان على التفكير واستعمال عقله بصورة واضحة جلية ليصل إلى الحقائق والنتائج المؤدية إلى الاقتناع الكامل بهذا الدين، فالمتدبر لآيات القرآن الكريم يتضح له أن القرآن جاء دعوة للناس ليتدبروا ويعقلوا ويفقهوا ويتبصروا ويفكروا، فهو دعوة لأعمال العقل والفكر بكامل الحرية دون حجر أو جمود، {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، و{لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}.

ولم تكن حرية الفكر مضمونة ومكفولة في الإسلام إلا لأن العقيدة الإسلامية مبنية براهينها على النظر في الكون ودراسته دراسة واعية حتى يتبع الإنسان الهداية الربانية التي يهتدي بها عن عقل وإقناع، فلا يمكن دراسة هذا الكون دراسة علمية إلا إذا كانت حرية الفكر سليمة، ومن حق الفرد أن يتمتع بهذه الحرية التي حررته من الأوهام والخرافات والوقوع في أثر التقليد الأعمى.

والإسلام يقرر للإنسان أن يفكر فيما شاء وكما يشاء وهو آمن من التعرض للعقاب على هذا التفكير، إما إذا فكر الإنسان في أعمال محرمة ولم يأت بها فلا شيء عليه، لأن العلة في ذلك أن الشريعة لا تعاقب الإنسان على أحاديث نفسه، ولا تؤاخذه على ما يفكر فيه من قول وفعل محرم، وإنما تؤاخذه على ما آتاه من قول أو فعل محرم، وذلك معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم"[١].

وأما حرية التعبير عن الرأي، فإن أول تعليم علمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو الكلام والتعبير، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}(البقرة: ٣١)، وعلمه الأسماء كلها ليقول كل ما يريد، ويعبر عن كل ما يريد، ويسمي الأشياء كلها بأسمائها، بينما نرى اليوم أن تسمية الأشياء بأسمائها، قد تكون لها تبعات وتجر إلى مشكلات، والعلاقة متينة بين خلق الله للإنسان وتعليمه البيان، قال تعالى: {الرَّحْمَنُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}.

فلم يكن أول شيء علمه الله لآدم، هو أداء صلاته، أو كسب قوته، أو ستر عورته، بل أول شيء علمه إياه بعد خلقه أو مع خلقه هو البيان، والأسماء المحتاج إليها لأجل البيان، وقد قال تعالى عن بداية خلق الإنسان: {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} (البلد: ٨ . ٩)، ومعلوم أن أكبر وظيفة للسان والشفتين هي وظيفة التعبير والبيان[٢].

إن حرية إبداء الرأي تطلق عقل الإنسان ليفكر في ملكوت الله تعالى، وفي مصالحه في الدنيا والآخرة، وأما إذا قيدت هذه الحرية فإنها تؤثر على التفكير وتشله شلاً، وقد احترم النبيﷺ الرأي وسمع من الصحابة، وما وجد من رأي سديد أخذ به، مما شجع على إبداء الرأي بكل وضوح دون تردد، كما حصل في غزوة بدر عندما أدلى برأيه الصحابي الحباب بن المنذر، وكذلك عندما أشار سلمان الفارسي بحفر الخندق، فقد أخذ النبيﷺ بتلك الآراء، وفي ذلك تربية على حرية إبداء الرأي للمصلحة العامة.

وأحياناً يكون إبداء الرأي واجباً في حق من الحقوق التي علم بها المرء، فقد أمر النبي بذلك على المنبر، إذ صحَّ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قام خطيباً فكان فيما قال: "ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه".[٣]

وينبغي أن يعلم أن حرية الرأي ليس على إطلاقها فهي مقيدة بضوابط، وقد ألمح معالي العلامة الشيخ عبد الله بن بيّه عن ذلك فقال: ولا شك أن لحرية الرأي في الإسلام قيوداً وضوابط منهجية، مثل: التحرّي في المعطيات، وفي المسالك المبلّغة إلى الحق، والإخلاص في إرادة النفع العام، وإلا انقلبت إلى ضروب من المغالطة والتغرير والأنانية، كما أن لها قيوداً أخلاقية مثل الصدق في تبليغ الرأي ونقله والحسنى بالإقناع به، وإلا انقلبت كذباً وغشاً وتجريحاً ولجاجة، فتخرج إذن عن

---

(١) –فتح الباري رقم ٢٥٢٨.

(٤) –الفكر الإسلامي وقضايا السياسة المعاصرة د. أحمد الريسوني صـ ٧١ . ٧٨.

(١) –أخرجه ابن ماجة (السنن –كتاب الفتن –باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ح ٤٠٠٧) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ح٣٢٣٧.

الدائرة التي رسمت لها في الاستعمال الشائع، وما نعتمد في هذا السياق هو الحرية بتلك الضوابط والقيود.[١]، من أجل ذلك نجد أن كثيراً من غير المسلمين الذين ينشدون الحرية يحبون الإسلام، قال الأستاذ علي يول الدانمركي: إن التسامح الواسع الأفق الذي يتسم به الإسلام في معاملة الأديان الأخرى يجعله محببا لدى جميع من يحبون الحرية. [٢]

– **حرية العمل والتعليم**: وهي واسعة بالقدر الذي جعل: المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: الإسلام من أكثر الأديان ملائمة لاكتشافات العلم.[٣]، والضابط البريطاني ج.ف.فيلويز: التقدم العلمي المعاصر في العصر الحاضر والمنجزات العلمية تتفق تماماً مع مبادئ الإسلام.[٤]

٤–مشكلة الاعتداء فيما بين الدول

تعاني كثير من الدول في هذا العصر من الاعتداءات العسكرية والاقتصادية والإعلامية بسبب الأطماع المادية أو الرغبة في الهيمنة والسيطرة، أو الإفساد لتمهيد السيطرة، وقد عالج المنهاج السياسي النبوي هذه المشكلة بالصلح وعقد المعاهدات التي تضمن الأمن وتحقق مصالح الطرفين.

ومن المعاهدات المشهورة مع النصارى ما عقدهﷺ مع ملك آيلة، وبذلك أصبح العهد شاملا لكل المدن التي كانت تحت سلطة ذلك الملك، فقد صحَّ عن أبي حميد الساعدي قال غزونا مع النبي تبوك، وأهدى ملك آيلة للنبي بغلة بيضاء وكساه برداً وكتب له ببحرهم.[٥] ، قال ابن حجر: قال ابن بطال العلماء مجمعون على أن الإمام إذا صالح ملك القرية أنه يدخل في ذلك الصلح بقيتهم.[٦]، ومن أهم المعاهدات مع المشركين هو: صلح الحديبية الذي تعجب منه بعض الصحابة لأنهم لم يدركوا الحكمة النبوية من هذا الصلح الذي تبين فيما بعد آثاره وفوائده.

أخرج مسلم بسنده عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب يقول: كتب علي بن أبي طالب الصلح بين النبي وبين المشركين يوم الحديبية فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا تكتب رسول الله فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، فقال النبي لعلي: امحه، فقال: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه النبي بيده، قال: وكان فيما اشترطوا أن يدخلوا مكة فيقيموا بها ثلاثا، ولا يدخلها بسلاح إلا جلبان السلاح، قلت لأبي إسحاق: وما جلبان السلاح؟ قال: القراب وما فيه.[٧]

قال النووي: وفيه أن للإمام أن يعقد الصلح على ما رآه مصلحة للمسلمين وإن كان لا يظهر ذلك لبعض الناس في بادئ الرأي[٨]، وفي هذا الحديث بيان وجوب الصبر على المشركين وتحقيق رغباتهم التي لا تضر بالمصلحة العامة للمسلمين، وفيه البيان الفعلي لطريقة الكتابة للمعاهدات، وجواز مثل هذه الكتابة من أجل الصلح وتجنب الحروب.

وكان نبي الرحمة والملحمة إذا وجد قوة تهدد أمن المسلمين فإنه يكتب إلى ملكها برسالة محررة فحواها الدعوة إلى الله تعالى والموعظة بالتخويف من الله تعالى، ومن ذلك رسالته إلى بلاد الشام التي كان يقطنها الروم آنذاك، فقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبو سفيان من فيه إلى فيَّ قال: انطلقت في المدّة التي كانت بيني وبين رسول الله، قال: قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبيﷺ إلى هرقل... فإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم. تسلَم، وأسلمْ

(٢) –حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام ص٥٩.
(٣) –انظر قالوا عن الإسلام ص ٢٦٠.
(٤) –حضارة العرب ص ١٢٦.
(٥) –انظر قالوا عن الإسلام ص ٤٦٤.
(٥) –صحيح البخاري –الجزية والموادعة –باب إذا وادع الإمام ملك القرية ح ٣١٦١.
(٦) –الفتح ٢٦٧/٦.
(٧) –صحيح مسلم –كتاب الجهاد والسير –باب صلح الحديبية في الحديبية، ١٤٠٩/٣ ح ١٧٨٣.
(٨) –شرح النووي على صحيح مسلم ١٣٥/١٢.

يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[١]. ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله﴾ إلى قوله: ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [البقرة/٦٤] .[٢]

وهذه شهادات علماء الغرب في قدرة نبي الرحمة على حلّ مثل هذه المشكلات:

يقول (تولستوي): لا ريب أن محمداً كان من عظماء الرجال المصلحين، الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، وإنه يكفيه فخراً أنه هدى أُمَّة برمَّتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وأنه هو الذي منعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقيّ والمدنية... [٣]

ويقول برناردشو: إنه يجب أن يُدعى منقذ الإنسانية، ويُعتقد أنه لو أن رجلاً مثله تولى زعامة العالم الحديث لنجح في حلّ مشكلاته وأحلَّ السلام والسعادة في العالم.[٤]

ويقول المؤرخ المسيحي اللبناني جورج حنا: محمد بن عبد الله كان ثائراً، عندما أبى أن يماشي أهل الصحراء في عبادة الأصنام وفي عاداتهم الهمجية... فأخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية تجمع بين مئات الملايين من البشر في أقطار المعمورة [٥]، ويقول المستشرق الفرنسي هنري سيرويا: ومحمد لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب.[٦]

وهكذا يستتب الأمن وتعطى الحقوق أما إذا نُقض العهد فله ردعه وعقوبته، ومثاله نقض بني قريظة، كما صحَّ عن عائشة قالت: أُصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله خيمة في المسجد يعوده من قريب. فلما رجع رسول الله من الخندق وضع السلاح، فاغتسل. فأتاه جبريل وهو ينفُض رأسه من الغبار. فقال: وضعتَ السلاح؟ والله ما وضعناه اخرُج إليهم. فقال رسول الله: "فأين"؟ فأشار إلى بني قُريظة. فقاتلهم رسول الله فنزلوا على حكم رسول الله فردّ رسول الله الحكم فيهم إلى سعد قال: فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى الذرية والنساء، وتُقسم أموالهم.[٧]

قال العيني: قوله "أن تقتل المقاتلة" أي الطائفة المقاتلة منهم، أي: البالغون [٨]، وصحَّ عن ابن عمر: أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله، فأجلى رسول الله بني النضير، وأقرّ قريظة ومَنَّ عليهم. حتى حاربت قريظة بعد ذلك. فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين. إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله فآمنهم وأسلموا [٩]، إن هذا الإجلاء لهؤلاء المحاربين لهو الجزاء، وهو آخر الدواء فقد صبرﷺ على مكائدهم ودسائسهم، ولما بلغ الأمر ذروته بالمحاربة العلنية والمؤامرة الجلية، جاءت السنة النبوية الفعلية بالجزاء العام لإخراجهم من المدينة إلا من لحق برسول اللهﷺ وأسلم فإنه نجا من ذلك. وهذا التعامل الحكيم في غاية السماحة النبوية بأن لا يؤاخذ الجميع بجريرة البعض بل كان يعامل كلا على قدر بأن يعطي كل واحد حقه من العقوبة والمثوبة، إنها كياسة السياسة.

٥-مشكلة التخوف والتحسس من الآخر

---

(٣) -نسبة إلى آريوس أحد كبار النصارى الموحدين لله تعالى (لمعرفة آريوس ينظر محاضرات في النصرانية ص١٥١) للشيخ محمد أبو زهرة.
(٤) -صحيح البخاري -كتاب التفسير، سورة آل عمران -باب قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ ح٤٥٥٣.
(٥) -الرسولﷺ في كتابات المستشرقين ص٥٩.
(٦) -الرسولﷺ في كتابات المستشرقين ص٥٩.
(٧) -قصة الإنسان ص٢٥٢.
(٨) -فلسفة الفكر الإسلامي ص٨.
(١) -صحيح مسلم -كتاب الجهاد والسير -باب جواز قتال من نقض العهد، ١٣٨٩/٣ ح١٧٦٩.
(٢) -عمدة القاري ٢٨٨/١٤-٢٨٩.
(٣) -صحيح مسلم -كتاب الجهاد والسير -باب إجلاء اليهود من الحجاز، ١٣٨٧/٣-١٣٨٨ ح١٧٦٦.

حينما نستحضر المنهاج الاجتماعي النبوي نرى أنه تميز في معاملته السمحة مع الجميع وخصوصاً مع غير المسلمين الذين يعيشون في ديار الإسلام، وكذلك مع الأقليات غير المسلمة، فقد وضع الأسس المثالية للتعامل مع الآخر، واستطاع أن يقضي على تلك المشكلة بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه كما في تعامله مع اليهود في المدينة، فقد وضع معاهدة سياسية اجتماعية عامة للمدينة وفيها اتفاقيات مع اليهود ضمنت مصالح الطرفين كما في البنود التالية: – هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أُمَّة واحدة من دون الناس.

– وإنه من اتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

– وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

– وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. – وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

– وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

– وإن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.

– وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

– وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وأن البر دون الإثم. – وإن بطانة يهود كأنفسهم.

– وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. – وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

– وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو شجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول اللهﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

– وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها. – وإن بينهم النصر من دهم يثرب.

– وإذا دعوا إلى الصلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

– وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البرَّ دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

– وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول اللهﷺ[1]. إن هذه المعاهدة الحكيمة تتجلى فيها عناية السنة النبوية الرحيمة التي تقوم بالحقوق السياسية والاقتصادية لليهود وغيرهم من المسلمين في المدينة النبوية، ويستنتج منها أحكام شرعية مالية وعسكرية.

---

(١) –هذا النص منقول من كتاب مجموعة الوثائق السياسية لأنه مقارنة بين سائر الروايات واثبت الاختلافات في الحاشية انظر منه ص ٤١ – ٤٧ وقد شرح غريبها ابن زنجويه في الأموال ٤٦٢/٢–٤٧٢. وقد ذكر هذه المعاهدة الإمام ابن قيم الجوزية، فقد ساق جملة من نصوص الوثيقة ثم قال: وهذه الصحيفة معروفة عند أهل العلم، ثم ذكر عدة مصادر وعدة طرق لهذه الصحيفة ثم قال: وهذا مما لا يعلم فيه نزاع بين أهل العلم بسيرة النبي ﷺ، ومن تأمل الأحاديث المأثورة والسيرة كيف كان معهم ؟ علم ذلك ضرورة (انظر أحكام أهل الذمة ٢ / ٥٦٦ – ٥٦٧). وقد سبق شيخ الإسلام ابن تيمية قول ابن قيم الجوزية، إذ ساق هذه الصحيفة من طريق محمد بن إسحاق قال: حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب هذا الكتاب، كان مقروناً بكتاب الصدقة الذي كتب عمر للعمال، ثم ذكر الصحيفة، ثم قال: وهذه الصحيفة معروفة عند أهل العلم (انظر الصارم المسلول ص٦٢–٦٤).

ثانيا: المشكلات الاجتماعية

تعتري البشرية موجات عاتية من الأزمات الاجتماعية في جميع أنحاء العالم، وتتفاوت هذه الأزمات من بلد إلى بلد حسب تشريعات تلك البلدان، وحسب قوة وصلاحية تلك التشريعات، والأخذ بها بجدية، وقد استطاع نبي الرحمة والحكمة أن يعالج كثيراً من تلك المشكلات بترسيخ الأخلاق الفاضلة، وتأصيل الحقوق الكاملة، وهذا المنهاج الحكيم له قدرة عظيمة على حلِّ أي مشكلة في الماضي والحاضر والمستقبل.

يقول المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار: لقد كان محمد نبياً لا مصلحاً اجتماعياً. وأحدثت رسالته في المجتمع العربي القائم آنذاك تغييرات أساسية ما تزال أثارها ماثلة في المجتمع الإسلامي المعاصر. (١)

ويقول المؤرخ الفرنسي أدوار بروي: جاء محمد بن عبد الله، النبي العربي وخاتمة النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة [في دعوته] لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية. وعندما قبض النبي العربي عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسموا كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل. (٢)

١-مشكلة الجهل

عاصر نبي الرحمة مجتمعا جاهلياً يعج بالمشكلات والأزمات الإيمانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وقد شارك في علاج بعض هذه المشكلات منذ شبابه، ثم عند البعثة حاول أن يصحح المسار العلمي للمجتمع حسب الإرشادات الإلهية حتى نقله نقلة نوعية لمجتمع ليس محب للعلم فحسب بل ناشر ومبلغ له، فإن أول آية أمرت بالقراءة والتعليم، وما تضمن ذلك الأمر من تناول توحيد الربوبية لمعرفة خالق الإنسان، ومن أي شيء خُلق لبيان قصة بداية الإنسان، ثم التأكيد تارة أخرى بأنه الخالق هو الذي علم الإنسان. فانطلق نبي الرحمة في معالجة المشكلة الكبرى ألا وهي الشرك بالله تعالى لأن علاج هذه المشكلة هو مفتاح علاج المشكلات الأخرى مهما تعددت وتشعبت ومهما بلغت من التعقيد والتشديد؛ لأن نعمة توحيد العبودية لله تعالى وحده قادرة على حلِّ تلك المشكلات بنظام الخالق الخبير بما يصلح البشرية ويضمن سعادتها في الدنيا والآخرة؛ من أجل ذلك أعطى نبي الرحمة الأولوية لهذه القضية الكبرى بالحوار الهادف ذي البراهين الواضحة للبشرية والحجج الدامغة للوثنية.

ونشر هذا العلم لم يقتصر على مكة المكرمة بل استمر حتى في المدينة النبوية وخصوصاً عندما يأتيه السائلون عن هذا الدين(٣) ، ولأهمية العلم حثَّ نبي الرحمة على طلب العلم وأمر بالتعليم والتيسير، فثبت عنه أنه قال: "علموا ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا وإذا غضب أحدكم فليسكت".(٤)

كما صحَّ عنه أنه أمر بأن من عنده علم أن يعلم أهله فقد صحَّ عن مالك بن الحويرث أنه قال: أتيت النبي في نفر من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال: "ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم، وصلوا فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم"(٥). كما صحَّ عنه أنه رغَّب في طلب العلم فقال: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة". (٦)

---

(١) -إنسانية الإسلام، ص٦١.
(٢) -تاريخ الحضارات العام ١١٢/٣.
(٣) -ينظر صحيح مسلم -كتاب الإيمان -باب السؤال عن أركان الإسلام ٤١/١-٤٢ ح ١٢.
(٤) - البخاري في الأدب المفرد ح ١٢٣٠ وصححه السيوطي في الجامع الصغير (انظر فيض القدير ٣٢٨/٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح ١٣٧٥
(٥) -صحيح البخاري -كتاب الأذان -باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعه ح ٦٣١.
(٦) -صحيح مسلم -كتاب الذكر -باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ٢٠٧٤/١ ح ٢٦٩٩.

قال المناوي: علماً: نكرة ليشمل كل علم وآلته ويندرج فيه ما قل وكثر. [١]

وقد شرح هذا الحديث الحافظ ابن رجب الحنبلي حيث أفرده بكتاب عنوانه (ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء). ويستنبط من الحديث الترغيب في كل العلوم النافعة التي تصلح أحوال العباد في الدنيا والآخرة، وصحَّ عنهﷺ أنه قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[٢]. وصحَّ عنه أنه قال: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[٣].

إن هذا الحث والترغيب من أجل علاج الجهل والقضاء عليه بعدة أساليب، ومن ذلك بيانه لمكانة العلماء وفضلهم في قولهﷺ: "وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وأورثوا العلم، فمن أخذه، أخذ بحظ وافر" [٤].... وقد تم تفصيل ذلك في البحث السابق.

٢-مشكلة حقوق المرأة

أسرفت أجهزة الإعلام والمنظمات الدولية بكثرة الدندنة حول هذه المشكلة، وفي الوقت نفسه تغافلت عن رحمة النبي بالمرأة وإعطائها حقوقها، وبعض الأجهزة الإعلامية والجهات الدولية أنكرت هذه الرعاية والعناية؛ لأنها تعاني من مشكلات عويصة في مجال حقوق المرأة فتريد تعميم ذلك وتخلط الأوراق، ولكن بعض أصحاب القرار أدرك الخطر الذي ينحدرون فيه فقد حذَّروا من الوضع الراهن للمرأة:

وهذه نصيحة الزعيم السوفيتي السابق (ميخائيل جورباتشوف) في كتابه (البيريسترويكا) إذ يقول: غالباً ما ينظر إلى درجة تحرير المرأة كمقياس للحكم على المستوى الاجتماعي والسياسي للمجتمع. لقد وضعت الدولة السوفيتية حداً للتمييز ضد المرأة الذي كان سائداً في روسيا القيصرية بتصميم دون مساومة، وكسبت المرأة مكانة اجتماعية يضمنها القانون وتتساوى مع مكانة الرجل ونحن نفخر بما قدمته الحكومة السوفيتية للمرأة: نفس الحق في العمل كالرجل، والأجر المتساوي للعمل المتساوي والضمان الاجتماعي. وأتيحت للمرأة كل فرصة للحصول على التعليم لبناء مستقبلها، وللمشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسي. وبدون إسهام المرأة وعملها المتفاني ما كان بمقدورنا أن نبني مجتمعاً جديداً أو نكسب الحرب ضد الفاشية. ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولي والشاق عجزنا عن أن نولي اهتماماً لحقوق المرأة الخاصة، واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأُم وربة منزل ووظيفتها التعليمية التي لا غنى عنها بالنسبة للأطفال. إن المرأة إذ تعمل في مجال البحث العلمي، وفي مواقع البناء، وفي الإنتاج والخدمات، وتشارك في النشاط الإبداعي، لم يعد لها وقت للقيام بواجباتها اليومية في المنزل (العمل المنزلي ، وتربية الأطفال وإقامة جو أسري طيب). لقد اكتشفنا أن كثيراً من مشاكلنا – في سلوك الأطفال والشباب وفي معنوياتنا وثقافتنا وفي الإنتاج – تعود جزئياً إلى تدهور العلاقات الأسرية، والموقف المتراخي من المسئوليات الأسرية. وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمبررة سياسياً لمساواة المرأة بالرجل في كل شيء. والآن في مجرى البيريسترويكا بدأنا نتغلب على هذا الوضع. ولهذا السبب فإننا نجري الآن مناقشات حادة في الصحافة، وفي المنظمات العامة، وفي العمل والمنزل، بخصوص مسألة ما يجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة.[٥]

---

(١) -فيض القدير ١٥٤/٦.

(٢) -صحيح مسلم -كتاب الوصية -باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ١٢٥٥/٣ ح١٦٣١.

(٣) -صحيح البخاري -كتاب العلم -باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ح ٧١.

(٤) -أخرجه ابن حبان وأخرجه الإمام أحمد (١٩٦/١٥) وأبو داود في السنن في أول كتاب العلم ح (٣٦٤١) وابن ماجة في السنن في المقدمة باب فضل العلماء ح٢٢٣ وحسنه السيوطي انظر فيض القدير (١٥٤/٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٢/٥) ح ٦١٧٣ وفي صحيح الترغيب (٣٣/١)

(١) -كتاب البيريسترويكا لميخائيل جورباتشوف ص ١٣٨.

تحدث النبي عن أثرها ومكانتها من الرجال فقال: "إنما النساء شقائق الرجال"[١]، وعرف أثر الزوجة الصالحة عملياً منذ زواجه بأُم المؤمنين خديجة بنت خويلد الأسدي كيف قامت بحق الزوج؟ وكيف نافحت عن الدعوة وآزرت زوجهاﷺ منذ بداية البعثة؟ وكيف بذلت من أجل الدعوة ومن أجل بيت زوجها، إنها نموذج للمرأة المؤمنة التي جمعت بين الدنيا والآخرة، فقد عرف ﷺحق الزوجة بل هو الذي أرسى دعائم حقوق المرأة من خلال أقواله السديدة وأفعاله الرشيدة فحفلت السنة النبوية بتطبيقات عملية في مجال حقوق المرأة حتى أحاطت بها الرحمة النبوية منذ ولادتها حتى مماتها فإذا بقاموس حقوق المرأة قد انتظم عقده، واجتمعت مفرداته ودقائق جزئياته.

فقد بين نبي الرحمة أثرها في مسؤولية البيت الذي هو أساس المجتمع إذ البيت لبنة من لبنات إذا صَلُحَ صَلُحَ المجتمع وإذا فسد فسد المجتمع، فقد حدد مسؤليتها في الحديث العظيم "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والمرأة راعية في بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته".[٢]

وهذا لا يعني اقتصار مهمتها في البيت إنما هو واجبها الأساس، ولها حق المشاركة فيما يخدم المجتمع بما يليق لمقامها ويحافظ على شخصيتها، ويرضي ربها سبحانه وتعالى، ولقد بُذلت جهود كبيرة في مجال حقوق الإنسان من كتابات ومؤتمرات وندوات وخصوصا في مجال حقوق المرأة، فحُبرت فيها الكتب والمقالات والمحاضرات، واضطربت فيها الأقلام ما بين إنصاف وإجحاف، وما بين مبالغة ومغالطة، وحينما نحصي نتائجها نجد كثيرا من الحقوق قد أُهدرت بل قلب البعض الموازين فجعل بعض الحقوق عيباً وظلماً وتخلفاً عن ركب الحضارة.

إن الذي يقرر حقوق المرأة ليس الذين يميلون ويتعصبون إلى أحد الجنسين من الرجال والنساء، ولا الذين جرفتهم دوافع الغرائز والشهوات إلى مكان سحيق، ولا أرباب المتاجرة بأعراض النساء والناس. وإنما الذي يقرر هو خالق الإنسان سبحانه وتعالى الخبير بمخلوقاته، وهذا التشريع قد أحاط بجميع حقوق المرأة، ومنح المرأة المكانة المرموقة الكريمة التي جذبت أنظار الشرق والغرب، وإليك شهادة من امرأة غربية محايدة إذ تقول المستشرقة الإنكليزية إيفلين كوبولد: كتبت اللادي ماري مونتكاد، زوجة السفير الإنجليزي في تركيا إلى شقيقتها تقول: (يزعمون أن المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أودّ تكذيبه فإن مؤلفي الروايات في أوربا لا يحاولون الحقيقة ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا، وأنني اجتمعت إلى النساء المسلمات ما كان لذلك سبيل، وإني استمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتّى لذهبت أصدِّق ما يكتبه الكُتّاب، ولكن ما رأيته يكذِّب كل التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وما رأيتها في الأستانة أكثر حرية من زميلاتها في أوربا، ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيتية...).[٣]

إنها كلمة إنصاف من امرأة محايدة عايشت المسألة عن قرب فأدلت بدلوها، ولو تتبعنا السيرة النبوية لرأينا مفردات حقوق المرأة قد انتظمت في عقد متكامل يكاد أن يشتمل على قاموس حقوق المرأة من ولادتها إلى موتها ودفنها، وإليكم بعضها كما يلي:

– **حق حسن المعاشرة**: لقد حثنا النبي على حسن المعاشرة للزوجة، وثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللهﷺ: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"[٤]، كانت عناية النبي بحسن عشرة المرأة بالقول والعمل، وهو يفصح عن مكانة المؤمن الذي يحسن عشرة زوجته وفيه ترغيب في ذلك بأسلوب مشوق مشرق.

---

(٢) –أخرجه الإمام أحمد في المسند ح ٢٦١٩٥ وصححه محققوه وأخرجه أبو داوود في (السنن ح ٢٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ح ٢٣٢٩.
(٢) –صحيح البخاري –كتاب النكاح –باب المرأة راعية في بيت زوجها، ح ٥٢٠٠.
(٣) –ينظر: قالوا عن الإسلام ص ٤٢٥ –٤٢٦.
(٢) –سنن الترمذي ٧٠٩/٥ ح٣٨٩٥ وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٤٨٤/٩ ح٤١٧٧). إسناده صحيح. وصححه الألباني (صحيح الترمذي ٢٤٥/٣).

– **الوصية بالنساء إذا صدر منهن ما يكره:** وحسن المعاشرة مطلوبة حتى لو صدر منها ما يكره لأنه يمكن أن يكون ذلك الأمر خيراً في المستقبل، وقد أكد النبي على ذلك ونبه أنه إذا كره منها خلقاً فإنه سيرضى على خلق آخر منها فيسد ذلك الخلل، فقد أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ: "لا يفرك مؤمن مؤمنة. إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر" أو قال: "غيره"[١]، وهذا الحديث الشريف يغفل عنه كثير من الأزواج المسارعين بالطلاق فيُطلق بسبب أمر يكرهه في زوجته، وينسى الأمور الحسنة الكثيرة إذا تأمل ذلك، وهذا أمر خطير يهدد حصون الحقوق الاجتماعية ويقوضها.

– **النهي عن العنف:** كثر في هذا الزمان الشكوى من النساء بسبب الضرب والعنف من أزواجهن، وهذا أمر خطير جداً، فإنه يهدد الأسرة بالسقوط ناهيك عما يفتك في نفس المرأة لما فيه من الآثار السيئة، لذلك نهى النبي عن ذلك وبأسلوب فيه التذكير بحاجة الرجال إلى النساء، وصحَّ عن عبد الله بن زمعة عن النبي قال: "لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يُجامعها في آخر اليوم".[٢]

– **الرفق بالحامل والمرضع:** كما راعى حالتها في الحمل بالتخفيف عنها في الصيام، فقد ثبت عنهﷺ أنه قال: "إن الله تعالى وضع عن المسافر شطر الصلاة، وعن المسافر والحامل والمرضع الصوم أو الصيام".[٣]

– **حق الزوجة في أن يشارك الزوج في أعمال البيت:** لقد كان النبي يقوم ببعض الأعمال البيتية لتخفيف أعباء العمل على أهله، وقد صحَّ عن الأسود قال: سألت عائشة ما كان النبي يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله–تعني: خدمة أهله–فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.[٤]

– **حقها في الترفيه وحضور العيد:** لقد كان النبي حريصاً على الترفيه في بعض المناسبات للترويح، وقد صحَّ عن عائشة قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي وكان لي صواحب يلعبنَّ معي فكان رسول اللهﷺ إذا دخل يتقمعن منه فيُسَرِّبُهُنَّ إليَّ فيلعبن معي[٥]، وثبت عن عائشة أنها قال: "وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة. حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم. قال: فاذهبي".[٦]

– **حقها في الجماع والمبيت:** للزوجة حقوق على الزوج كالجماع والنفقة والكسوة، ومن حقها في الجماع ما صحَّ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله: "يا عبد الله ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل" قلت: بلى يا رسول الله. قال: "فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا". [٧]

– **حق المتعة للمرأة المطلق بعد الطلاق:** هذه المتعة من الحقوق للمرأة المطلقة متروكة، فلم نجد أحداً في زماننا من يقوم بهذا الحق إلا من رحم الله تعالى، وهو حق مشروع من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قال الله تعالى ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حق على المتقين﴾ [البقرة/٢٤١]، وفي غيرها من الآيات التي نصَّت على مشروعية تكريم

---

(٣) –الصحيح –كتاب الرضاع –باب الوصية بالنساء ١٠٩١/٢ ح ١٤٦٩.
(٤) –صحيح البخاري –كتاب النكاح –باب ما يكره من ضرب النساء، ح٥٢٠٤.
(٥) –أخرجه أبو داود ٣١٧/٣ ح ٢٤٠٨، وابن ماجة في سننه ٥٣٣/١ ح ١٦٦٧، وقال الألباني: حسن صحيح في صحيح سنن ابن ماجة ح ١٣٥٣.
(٦) –صحيح البخاري –كتاب الأذان –باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، ح ٦٧٦.
(٧) –صحيح البخاري–كتاب الأدب –باب الانبساط إلى الناس ح ٦١٣٠. وصحيح مسلم –كتاب فضائل الصحابة ١٨٩٠/٤ ح ٢٤٤٠.
(١) –صحيح البخاري –كتاب العيدين –باب الحراب والدرق يوم العيد ح٩٥٠.
(٢) –صحيح البخاري باب لزوجك عليك حق ح ٥١٩٩، وأخرجه مسلم في صحيحه –كتاب الصيام –باب النهي عن صوم الدهر ٨١٣/٢ ح ١٨٢.

المطلقة، أما من السُّنة الفعلية، فقد صحَّ عن سهل بن سعد وأبي أسيد قالا: "تزوج النبي أُميمة بنت شراحيل، فلما أُدخلت عليه بسطَ يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها وكسوها ثوبين رازقيين ".[١]

– **الحق السياسي للمرأة**: تحرص بعض الآراء على زجِّ المرأة في كل مرافق السياسة وثمة فئة أخرى على نقيض ذلك ترى حرمانها من كل شيء سياسي، وكلاهما فيه نظر؛ لأنه ما بين إفراط وتفريط، أما الوسطية في الإسلام فقد جعلت الحق السياسي للمرأة ثابتاً متوازناً فلها أن تبايع الإمام، وأن تستشار فيما يفيد في الشؤون السياسية، ولها أن تجير كما سيأتي عن أُم هانئ رضي الله عنها، وغير ذلك.

– **حق البيعة**: للمرأة حقوق سياسية وضحتها السنة المطهرة منها البيعة، فقد صحَّ عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي أخبرته أن رسول الله كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾[الممتحنة/١٢]، قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: "قد بايعتكِ" كلاماً، ولا والله ما مسّت يده يدَ امرأة قطّ في المبايعة، ما يبايعهنّ إلا بقوله: "قد بايعتكِ على ذلك".[٢]، قال ابن حجر: قوله: قد بايعتكِ كلاماً، أي يقول ذلك كلاماً فقط لا مصافحة باليد كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة.[٣]

– **استشارة المرأة**: وأما استشارة المرأة فقد استشار النبي أُم سلمة في أحرج الأوقات، وذلك في صلح الحديبية، فقد صحَّ أنه عندما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله لأصحابه: "قوموا فانحروا ثم احلقوا، فلم يقم أحد منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلم يقم أحد منهم" فدخل رسول الله على أُم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك.[٤] وفي هذا الحديث التطبيق الفعلي للنبي ﷺ مشروعية المشاورة مع المرأة. وفيه منهاج تربوي حكيم في هذه المشاركة السياسية فهو يجعل المرأة واثقة بنفسها متفكرة بهموم الأُمَّة، وفي الوقت نفسه يبين للأُمَّة مكانة المرأة في الاستشارات والقرارات السياسية.

– **إجارة المحارب**: أجمع العلماء على جواز إجارة المرأة والأمان على أحد من الأعداء المحاربين[٥] واستدلوا بما رواه البخاري بسنده عن أُم هانئ بنت أبي طالب قالت: ذهبت إلى رسول الله عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره فسلمت عليه، فقال: "من هذه؟" فقلت: أنا أُم هانئ بنت أبي طالب، فقال: "مرحباً بأُم هانئ" فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفا في ثوب واحد، فقلت: يا رسول الله زعم ابن أُمي علي أنه قاتل رجلا قد أجرته فلان بن هبيرة، فقال رسول الله "قد أجرنا من أجرتِ يا أُم هانئ" قالت أُم هانئ: وذلك ضحى.[٦]

قال العيني: وفيه من الفقه جواز أمان المرأة وأن من أمنته حرم قتله، وقد أجارت زينب بنت رسول الله ﷺ أبا العاص ابن الربيع. وعلى هذا جماعة الفقهاء بالحجاز والعراق منهم مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وأبو ثور وإسحاق وهو قول الثوري والأوزاعي، وشذَّ عبد الملك بن الماجشون وسحنون عن الجماعة فقالا: أمان المرأة موقوف على إجازة الإمام فإن أجازه جاز، وإن ردَّه رُدَّ.[٧]

---

(٣) –صحيح البخاري –كتاب الطلاق –باب من طلق، وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق؟ ح ٥٢٥٦.
(٤) –صحيح البخاري –كتاب التفسير، سورة الممتحنة ح ٤٨٩١، ومسلم (الصحيح –كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، ٣ /١٤٨٩ ح١٨٦٦).
(٥) –فتح الباري ٦٣٦/٨.
(٦) –صحيح البخاري –كتاب الشروط –باب الشروط في الجهاد ح ٢٧٣١–٢٧٣٢.
(١) –انظر الإجماع لابن المنذر، ص٦١.
(٢) –الصحيح كتاب الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن ح٣١٧١، وأخرجه مسلم في صحيحه –كتاب الصلاة، ٤٩٨/١ ح ٨٢/٧١٩).
(٣) –عمدة القاري ٩٣/١٥.

إن هذا الجواز للأمان لهو إقرار صريح لهذا الحق السياسي عند فتوح البلدان واستقامة النسوان.

– **المشاركة في الغزو بمداواة الجرحى وسقي الماء:** للمرأة حق في المشاركة في الغزو إذا كانت قادرة على التداوي وحمل الماء للسقي، مع مراعاة الضوابط الشرعية في ذلك، ولهن حقوق مالية على ذلك. أخرج مسلم بسنده أن نَجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خِلال. فقال ابن عباس: لولا أن أكتم عِلماً ما كتبتُ إليه. كتب إليه نَجدة: أما بعد. فأخبِرْني هل كان رسول الله يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهنَّ بسهم؟ وهل كان يقتل الصبيان؟ ومتى ينقضي يُتم اليتيم؟ وعن الخمس لِمن هو؟ فكتب إليه ابن عباس: كتبتَ تسألني هل كان رسول الله يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهنَّ فيداوين الجرحى، ويُحذين من الغنيمة. وأما بسهم فلم يضرب لهنَّ.[١] وفي هذه السنة النبوية الفعلية إعطاء المرأة حقها من المشاركة في الغزو بالقيام بمداواة الجرحى وحمل الماء للسقي، ووجوب دفع أجورها المالية على ذلك.

– **حق العدل في تعدد الزوجات:** إن التعدد تثار حوله جدالات بأنه هضم لحق المرأة وظلم لها بل هو حق للمرأة المهددة بالعنوسة، وخصوصاً أن عدد الإناث يزداد على عدد الذكور، فأين يذهب ذلك العدد الزائد والمضاعف أحياناً؟ وأين حقه من الزواج؟ من أجل ذلك وغيره من الأسباب جاءت الشرائع السماوية بإباحة التعدد وكان خاتمها الإسلام، فإن ما بعد الزوجة الأولى تأخذ حقها المشروع عند زوجها وبما أُمر به من العدل بين زوجاته، فالتعدد مشروط بالعدل ويحتاج إلى صبر ومداراة ومقدرة على النفقة والتربية، وقد حذرَّ نبي الرحمة من الميل إلى أحد الزوجات بتقديم وتفضيل إحداهن على الأخرى فقد أخرج أبو داود: بسنده عن أبي هريرة، عن النبي قال: "من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل".[٢]

من تطبيقهﷺ لحق الزوجات في السفر أن يعدل بينهن فيجعل بينهن القرعة فأيهما يخرج سهمها كان نصيبها أن تسافر معه وذلك تطييباً للقلوب وعدم الميل إلى إحداهن. فقد أخرج البخاري عن عائشة زوج النبي قالت: كان رسول الله إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله معه[٣]، قال ابن حجر: قوله "أقرع بين أزواجه" فيه مشروعية القرعة والرد على من منع منها.[٤]

– **حقها في عدم الجمع بينها وبين أختها أو عمتها أو خالتها:** وكذلك تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، كما نهى النبي في قوله: "لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها" وفي رواية: نهى رسول الله أن تُنكح المرأة على عمتها أو خالتها[٥]. لأن هذا التعدد يؤدي إلى قطيعة الأرحام بسبب ما يقع من الغيرة بين النساء.

– **استئذان البكر في النكاح وللثيب الخيار:** من حق البكر أن تُستأذن عند النكاح فلا تُجبر على ذلك، فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي سلمة، أن أبا هريرة حدثهم أن النبي ﷺ قال: "لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن"، قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: "أن تسكت"[٦]، هكذا جعلت السنة النبوية هذه الخيارات حقاً للمرأة البكر والثيب حتى لا تجبر على المكروه ولا تقهر عليه بل يكون الأمر بطيب نفس وتآلف، لأن الإكراه له مشاكله في المستقبل وقد يؤدي إلى الطلاق كما تشاهد في هذا الزمان، فهذه السنة تجنب الوقوع في المشاكل والخصومات.

– **حقها في الخلع:** إذا تنافرت النفوس وجب على المسلمين حق الصلح بين المتنافرين، وهذا التنافر قد يمس بيت الزوجية، فإذا نفر الرجل من امرأته وجب الصلح، فإن لم ينفع فللرجل حق الطلاق، وكما أن الإسلام جعل له هذا الحق

---

(٤) –الصحيح –كتاب الجهاد والسير –باب النساء الغازيات يرضخ لهن، ٣/١٤٤٤-١٤٤٥ ح١٨١٢.

(٥) –السنن ٢/٢٤٢ ح٢١٣٣ والحاكم (المستدرك ٢/١٨٦) قال: ابن حجر عن ابن دقيق العيد: إسناده على شرط الشيخين خبر ثابت (التلخيص الحبير ٣/٢٠١)

(١) –الصحيح –كتاب التفسير، سورة النور ح٤٧٥٠. وصحيح مسلم –كتاب التوبة –باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ٤/٢١٢٩ ح ٢٧٧٠.

(٢) –فتح الباري ٨/٤٥٨

(٣) –صحيح البخاري –كتاب النكاح –باب لا تنكح المرأة على عمتها، ح٥١٠٨و٥١٠٩.

(٤) –الصحيح –كتاب النكاح – باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها ح ٥١٣٦.

فكذلك للمرأة حق الخلع عندما تنفر من زوجها بسبب الدمامة أو أي مبرر مشروع فلها الحرية بأن تختار البقاء أو الصبر على ذلك وأجرها على الله تعالى، ولها الخلع بأن تردَّ على زوجها ما أخذته من صداق، عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "أتردينَ عليه حديقته؟ " قالت: نعم. قال رسول الله: "أقبل الحديقة وطلِّقها تطليقة".(١)

– **حقها في طلب مرافقة المحرم في السفر الضروري المهم:** للمرأة الحق بأن تطلب من وليها أن يرافقها أحد المحارم في السفر المهم والضروري، وقد جعل بعض الناس هذا الحق تقييد وتشديد على المرأة وهذا خطأ وخطر، لأن السفر بمفردها يعرضها إلى مهانة ومشقة ومخاطر من حيث حمل الأشياء، والقيام بالمعاملات الرسمية، وتعرضها إلى الخلوة أحياناً وإلى الاحتكاك بالذين في قلوبهم مرض فيطمعون بهذه الفرصة مادياً أو معنوياً، وقد حذَّر النبيﷺ من ذلك وصحَّ عنه أنه قال: "لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم" فقال رجل: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجَّة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا. فقال: فانطلق فحج مع امرأتك.(٢)

– **تأخير الحد على الحامل حتى ترضع:** فإذا قتلت المرأة الحامل نفساً عمداً بغير حق ولم يُعفَ عنها ، أو حملت من زنا بعد إحصان وهي حرة فإنه لا يقام عليها الحد أو القصاص حتى تضع حملها بل إذا لم يوجد للطفل من يكفله غيرها فإنها تترك لحضانته حتى يفطم ويوجد من يكفله، ثم يقام عليها الحدّ، وذلك رعاية للطفل حتى لا يتضرر، قال ابن حجر: وقد استحب العلماء تلقين من أقر بموجب الحدِّ بالرجوع عنه إما بالتعريض وإما بأوضح منه ليُدرأ عنه الحدّ. (٣)

– **درء حدِّ الزنا عنها إذا لم تعترف:** إذا وقعت الملاعنة(٤) بين المرأة وزوجها ولم تعترف المرأة في آخر الملاعنة فإنها لا تحد ولكن يبقى إثمها وأمرها إلى الله تعالى، والدليل على ذلك أن هلال بن أُمية قذف امرأته عند النبي بشريك بن سمحاء، فقال النبي: "البينة أو حدٌّ في ظهرك" فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي: يقول: "البينة أو حدٌّ في ظهرك". فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إن كان من الصادقين﴾ [النور/٦]، فانصرف النبي فأرسل إليها فجاء هلال فشهد، والنبي يقول: "إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ "ثم قامت فشهدت؟ فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكّأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي: "أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلّج الساقين فهو لشريك بن سمحاء" فجاءت به كذلك، فقال النبي: "لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن".(٥) ، ويستفاد من هذا الحديث الشريف احترام مكانة المرأة وعدم إهدار كلمتها ودمها، وعدم عقوبتها حتى وإن عُلم أنها كاذبة.

– **حق النفقة والسكن:** كما أن على المرأة أن ترعى بيت زوجها وتحرص على مصالحه وتدبيره، فإنه يجب على الزوج النفقة والسكن سواء كان غنياً أو فقيراً، فقد أمر الله تعالى بقوله ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها﴾ [الطلاق/٧]، وقال تعالى في حق المطلقات أثناء العدة ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾ [الطلاق/٦]، فإذا كان هذا الحكم للمطلقات في العدة فحقُّ الزوجات كذلك بل هو

---

(٥) –صحيح البخاري –كتاب الطلاق –باب الخلع ح ٥٢٧٣.
(٦) –صحيح البخاري –كتاب النكاح –باب لا يخلون رجل بامرأة ح ٥٢٣٣.
(٣) –فتح الباري ١٣٤/١٢.
(٤) –قال ابن الأثير: حديث اللعان "فالتعن" هو افتعل من اللعن أي لعن نفسه، واللعان والملاعنة: اللعن بين اثنين فصاعدا (النهاية ٢٥٥/٤)
(٥) –صحيح البخاري –ك التفسير، سورة النور، باب قوله تعالى ﴿ويدرأ عنها العذاب...﴾ الآية، ح٤٧٤٧، ومعنى سابغ: عظيم، ومعنى خدلج: ممتلئ .

أوجب، وقد أوضح النبي ﷺ هذا الحق ورغب فيه فروى مسلم بسنده عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أفضل دينار ينفقه الرجل على عياله..."[١] والعيال: من يعوله ويلزمه مؤنته كالزوجة والأولاد، في الحديث الطويل عن جابر ﷺ مرفوعاً: "ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف".[٢]

– **الحقوق المالية في الإرث:** تختلف أحوال المرأة في الميراث فتارة تأخذ الثلثين، وتارة تأخذ النصف، وتارة تأخذ الربع، وتارة تأخذ السدس، وتارة تأخذ نصف ما يأخذه الذكر، ونصيب الزوجة الربع إذا لم يكن للزوج فرع وارث، أو الثمن إذا كان للزوج فرع وارث، بدليل قوله تعالى ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾ [النساء/١٢]، وهذا التغيير حسب أحوالها وحاجتها فجاء هذا التبيان الحكيم في غاية الدقة، وقد أثيرت بعض الشبهات حول نصيبها في الإرث نصف ما يأخذه الذكر، ولكن هذه حالة واحدة، ولها حالات أخرى، ولكل حالة حق كما تقدم في بداية الكلام عن هذا الحق.

٣–مشكلة العقوبات

هذه المشكلة ذات شقين، وهما: ضعف القوانين الوضعية، وانتقاد العقوبات الشرعية فإن بعض الهيئات العالمية وبعض الفئات التي تتبع الشهوات والشبهات تعصف رياحها لنقد هذه الأحكام الحكيمة، أو تصفها بالرجعية، أو تزعم أنها تعطل تنمية الموارد البشرية، وتشوه بعض أجزاء بدن الإنسان، وتحطّ من قدر الإنسان وغيرها من المغالطات التي كثر فيها اللغط باللمز والهمز المؤلم، علماً أن إقامة الحدود الشرعية لا تُنفذ إلا بنطاق ضيق محدود، فقد يظن بعض الناس أن إقامة الحدود في الإسلام كإقامة الصلاة في كثرتها، والحق أن أحكام الشريعة الإسلامية تعد بالمئات لكن عدد الحدود التي تقام هي سبعة: الحرابة (قطع الطريق)، والردَّة، والبغي، والزنا، والقذف، والسرقة، وشرب الخمر. وعند تنفيذها فإنه لا يمكن ذلك إلا بعد مراحل وشروط وذلك بعد التأكد من وقوع الجريمة وإقامة الحجة على الجاني كالاعتراف أو الشهادة عليه، وقد يصل عددهم إلى أربعة شهود في جريمة الزنا، ويشترط فيهم العدالة وعدم التهمة مما يدل على التحري والتثبت والاحتياط بهذا العدد الذي انفرد عن بقية الجرائم الأخرى.

(والحكمة في ذلك أن الله تعالى يحب الستر، كما أن جريمة الزنا لا تقع إلا من اثنين فكأن كل شاهدين يشهدان على أحدهما).[٣]

قال ابن القيم: وكان من تمام حكمته ورحمته أنه لم يأخذ الجناة بغير حجة، كما لم يعذبهم في الآخرة إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وجعل الحجة التي يأخذهم بها، إما منهم وهي الإقرار، أو ما يقوم مقامه من إقرار الحال وإما أن تكون الحجة من خارج عنهم، وهي البينة، واشترط فيها العدالة، وعدم التهمة، فلا أحسن في العقول والفطر من ذلك، ولو طلب منها الاقتراح لم تقترح أحسن من ذلك، ولا أوفق منه للمصلحة.[٤]

وعلى سبيل المثال على قلة تنفيذ الحدِّ لهذه الجريمة فإنه منذ أن نزل حدُّ الزنا لم نسمع في تاريخ أُمَّة الإسلام أن أُقيم حدُّ الزنا بتوافر أربعة شهود، وكذلك لم تُحدّ امرأة حتى لو تمت عليها الشهادة كما في الملاعنة إذا لم تقر بما نُسب إليها، فقد ثبت أن النبي لم يقم الحدَّ على المرأة في قصة الملاعنة كما تقدم ويستفاد من هذا الحديث الشريف احترام مكانة المرأة وعدم إهدار كلمتها ودمها حتّى وإن عُلم أنها كاذبة.

---

(٤) –صحيح مسلم –كتاب الزكاة –باب فضل النفقة على العيال والمملوك ٢/٦٩١–٦٩٢ ح ٩٤٤.
(٥) –صحيح مسلم، كتاب الحج –باب حجة النبيﷺ، ٢/٨٩٠ ح ١٢١٨.
(٣) –وسائل الإثبات ص ١٦٠.
(٤) –أعلام الموقعين عن رب العالمين ٢ / ١١٩.

ولو ثبتت جريمة الزنا بالاعتراف وأقيم حد الرجم فإن هذا الزاني الذي يرجم لو طلب منهم التوقف عن ذلك لإدلاء ما عنده ما يدفع عنه فينبغي أن يوقف الرجم ويُسمع منه هل ما يقوله يعتد به أم لا؟ وقد صحَّ أن ماعز بن مالك فرّ حين وجد مسّ الحجارة ومسّ الموت، فقال رسول الله: "هلاَّ تركتموه؟".[١]

وكذلك لا تقام الحدود عند الضرورات وعند الشبهات فيأتي دور درء الحدود، قال العلاّمة معالي الشيخ ابن بيه: والشريعة المطهرة مع اهتمامها الشديد بسلامة المجتمع، فإنها تقدم للفرد ضمانات أكيدة، لا من حيث درء الحدود بالشبهات وهي قاعدة تنسحب على الحدود وبخاصة في جرائم الأخلاق وحقوق الله المحضة، ولكنها قدمت ضمانات على مستوى الإجراءات القضائية ووسائل الإثبات، فمنعت القاضي من أن يحكم بعلمه الشخصي، واشترطت العدالة وزيادة العدد على اثنين في قضايا أخلاقية معينة، وأعذرت للمتهم في البينات ليجرح الشاهد عند الاقتضاء، وأوجبت الأيمان وغلظتها، حيث يجب التغليظ، وألغت إقرار المكره، ولم تعتبر إلا إقرارا في حالة طوع واختيار وحرية، واشترطت شروطا خاصة فيمن يتولى القضاء من علم وورع ونزاهة واستقامة إلى آخر ما هو معروف في كتب الأحكام والقضاء.[٢]

وحينما ننظر في عقوبات القوانين الوضعية نجدها هزيلة ومتغيرة، لقد ثبت من خلال الدراسات المقارنة والإحصاءات الدقيقة أن القوانين في العقوبات الوضعية مهما عدّلت ورقعت فإنها تافهة وسقيمة؛ لأن الذين وضعوها ما عندهم من العلم إلا القليل منه، قال الله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء/٨٥].

أمّا علم الله تعالى فقد أحاط بكل مخلوقاته علما، فشريعة الخالق هي المناسبة بخلقه لأنه أدرى بخلقه وما يصلح لهم من الآداب والأحكام والترغيب والترهيب. ومن هذه الأحكام الربانية: الحدود الشرعية كحدِّ أهل البغي والزنا والسرقة والردَّة والحرابة والقذف وشرب الخمر، فقد قام بها النبي على أحسن وجه، وارتقى بالمجتمع الجاهلي إلى مجتمع الحضارات وجعلها منارات تضيء الدرب للبشرية إلى حياة طيبة وجنة كريمة.

وهذه الأحكام مهجورة في العالم بل في العالم الإسلامي إلا ما رحم الله تعالى، وعندما نقارن المجتمعات التي تقيم شعائر الله تعالى وسنة رسوله مع المجتمعات التي أهملت هذه الروادع الحكيمة عن الجريمة نجد الحكمة العظيمة.

وعلى سبيل المثال نرى تجربة المملكة العربية السعودية في تطبيق الشريعة الإسلامية ونجاحها الرائد في إقامة الحدود إذ نجحت نجاحا باهرا، وذلك بالقضاء على مظاهر السلب والنهب، والقتل والجهل، وانتشار الأمن والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أجل ذلك نرى نسبة الجرائم ضئيلة جداً—والحمد لله –فمعدلها حسب الإحصاءات لعام ١٤١٦هـ يصل إلى (٠,٣٢) في ألف من السكان بينما نجد نسبة الجريمة في بعض دول العالم أضعافاً مضاعفة لكل ألف من السكان هي:

(٧٧,٢٦) في أسبانيا، وفي ألمانيا الغربية (٤١,٧١) وفي إيطاليا (٢٠,٠٨)، وفي الدانمارك (٦٠,٥٢) وفي فرنسا (٣٢,٢٧) وفي أستراليا (٧٥,٠٠) وفي كندا (٧٥,٠٠) وفي كوريا (١٢,٤٢)، وفي غانا (١٠,٧٢) وفي كينيا (٤,٧٤) وفي إندونيسيا (١,٤٧).[٣]

وقد حاولت جمهورية السودان أن تطبق هذه التجربة المباركة، ومنذ أن بدأت بتطبيق أحكام الشريعة فإن نسبة جريمة القتل انخفضت بشكل ملموس يصل إلى النصف تقريباً، ففي عام ١٤٠٢ هـ بلغت عدد الجرائم (١١٥٥) جريمة بينما

---

(١) –رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وحسنه وصححه الألباني (إرواء الغليل ٨ / ٢٨ ح ٢٣٦٠).

(١) –حوار عن بعد ص ٨٣.

(٣) –أفدت هذه الإحصاءات من كتاب حقوق الإنسان في الإسلام وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية لسعادة أ.د. سليمان عبد الرحمن الحقيل ص ١٣١–١٣٢

انخفضت في عام ١٤٠٣ هـ إلى (٦٧٠) جريمة ثم في عام ١٤٠٤هـ نزلت إلى (٦٦٣) جريمة وذلك حسب دراسة ميدانية مدعمة بالإحصاءات الدقيقة.[١]

بينما نجد الدول التي تتخبط بفوضى القوانين الوضعية تزداد فيها نسبة الجريمة بل تدخل في أطوار جديدة، وإن قضية الاهتمام بالدين يقلل منها، فقد جاء في (موسوعة القانون الجنائي وعلم الإجرام، ص١٩٩-٢٠٣ (لبيا بوزا) و (جان بيناتا Pierre Bouzat et Jean Pinatei): أنه نتيجة لانتشار التعليم وتحسين الظروف الاقتصادية لشرائح عريضة من المجتمع فإن جرائم القتل أصبحت يطغى عليها طابع الحيلة أكثر من طابع العنف ، وزيادة على بعض العوامل فإن المؤلفين يذكران تأثير الريف في ارتفاع عدد جرائم القتل ، وتأثير الدين في الخفض منه ، وهما يذكران دراسة أجراها المستشرق القانوني سلينM . Th. Sllin في موضوع العلاقة بين العمل بحكم الإعدام أو إلغائه من ناحية، ومستوى الجرائم من ناحية أخرى ، ويذكر المؤلفان أيضاً دراسة (عزت بن عبد الفتاح) التي بينت أن تفاقم عدد جرائم القتل بكندا منذ سنة ١٩٦٢م يتدرج ضمن تصاعد عام لجرائم العنف.[٢]

وما ورد عن هؤلاء الخبراء الفرنسيين يؤكد ارتفاع الجريمة بمرور الزمن بل يعترف بدور الدين في انخفاضها! فهل تعي آذان الأمم ما يقوله الخبراء والعلماء للوفاء بالذمم؟

ومن الأدلة المهمة في ارتفاع معدل جرائم الأموال ما جاء في تقرير (المنظمة الدولية العربية للدفاع الاجتماعي التابعة للجامعة العربية) والذي أعده د. محمود عبد القادر -رئيس وحدة بحوث الأسرة بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة - ص ٤٣ وما بعدها وجاء فيه: إن معدل الجرائم ضد الأموال في ارتفاع مع عملية التنمية الاقتصادية ، إذ تزداد فرص الاعتداء على الأموال عندما يصبح المجتمع أكثر إنتاجاً وتعقيداً وتحضراً وتصنيعاً ، ومن ثمَّ نجد أن نسبة عالية من جرائم الأحداث والشباب في غالبية البلاد ذات طابع اقتصادي مثل السرقة والاختلاس... وتزييف الأوراق الرسمية ، وتزييف العملة أو المسكوكات وتهريب المخدرات والخطف لطلب الفدية والرشوة وجرائم السوق السوداء...[٣] ولا ريب أن عقوبات القوانين الوضعية لا تزجر ولا تردع بل هي أقرب إلى الإغراء بالجرائم.

وكذلك جريمة الشذوذ الجنسي ففي بعض الولايات المتحدة الأمريكية كانت نتيجة هذه الجريمة الإصابة بمرض الإيدز فبلغت عدد الإصابات ٢٣١ حالة في سنة ١٩٨١م، ثم ارتفعت في كل سنة حتى وصلت (١٧,٠٥٠) حالة في سنة ١٩٨٥م[٤]، وهذه الزيادة في مدة أربع سنوات فما بالك بالعشرين سنة التي تلت سنة١٩٨٥م!! إنها ستكون أرقام مذهلة!

وإذا كان هذا التصعيد في الجريمة على هذه الوتيرة، وأن العلاج بهذه الصفة الهزيلة ماذا نتوقع أن تفرز القوانين (الوضعية الوضيعة) في المستقبل؟ لا شك أنها ستحدث كارثة بشرية عامة طامة وذلك لطغيان الخبث ولانتشاره السريع وإن لطغيانه علامة أكيدة لدمار البشرية صالحهم وطالحهم، لأنه ثبت عن المعصومﷺ أن كثرة الخبث هي سبب هلاك الأمم.

وبذلك فإن رحمة السنة النبوية في تطبيق هذه العقوبات حافظت على الضرورات الخمس: حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، وكذلك الأديان السماوية متفقة مع نبي الرحمةﷺ في تنفيذ هذه العقوبات.

---

(١) -انظر الدوافع إلى ارتكاب جريمة القتل في الوطن العربي ص ٩٣ و٩٤.
(٢) -انظر الدوافع لارتكاب جريمة القتل ص ٦٠.
(٣) -انظر كتاب دستور الأخلاق في القرآن أ.د. عبد الصبور شاهين ص ل باختصار .
(٤) -انظر المصدر السابق ص ل ول ط.

ولو نظرنا في الحدود بالشرائع والقوانين السابقة للبعثة النبوية الشريفة لوجدناها متفقة مع حدود الإسلام، ومتفقة في كثير من الأحكام، كما في التوراة والإنجيل وشريعة نوح وصحف إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام، وكذا القانون الروماني كما في مدوّنة جونستنيان، وأغلبه مأخوذ من التوراة والإنجيل.

فمن نصوص التوراة ورد في الإصحاحات التاسع عشر إلى الحادي والثلاثين وصايا وتشريعات منها النهي عن القتل والسرقة والزنا وشهادة الزور... وقتل القاتل، وقتل ضارب والديه ولاعنهما، وقتل من يخطف أحداً، وقصاص العين بالعين، والسن بالسن، واليد باليد، والرجل بالرجل، والكي بالكي، والجرح بالجرح، والرضّ بالرضّ، وقتل من يذبح لآلهة أخرى أو يأتي بهيمة، وعدم استبقاء الساحرات، واسترداد المسروق من السارق بزيادة، وهدر دم السارق إذا قتله صاحب المال.[١]

وفي الإصحاح ٢٤و٢٥و٢٦و٢٧ من سفر التثنية تشريعات متنوعة ومنها: الأمر بقتل من يخطف إسرائيلياً ويسترقه.

وأما ما ورد في الأناجيل فإنه حوى ذلك الهدي والنور، وهو موافق للتوراة قال الله تعالى: ﴿وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ [المائدة/٤٧]، وقد ذكر د.أحمد شلبي بعض الموافقات منها تحريم القتل والزنا والسرقة وشهادة الزور.[٢]

وفي سورة الأعلى ذكرت موافقات لما جاء في صحف إبراهيم وموسى فقال الله تعالى في نهايتها: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى﴾[الأعلى/١٨-١٩] والإشارة إلى ما تقدم من آيات في هذه السورة، وكذا في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبراهيم الذي وفى. ألا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى﴾ [النجم/٣٦-٥٤] الآيات التي تليها.

وذكر العلامة الأصولي الغزالي أنه لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنا والسرقة وشرب المسكر.[٣]

وقد نقل هذا القول فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة ثم علق بأن المصالح الخمسة التي يعد طلبها ضرورة إنسانية متفق عليها بين الناس والمحافظة عليها بفرض عقوبات للاعتداء عليها يعد من الأمور البدهية التي لا تختلف فيها العقول ولا تختلف فيها الأديان.[٤]

وأختم الحديث عن هذه المشكلة بقول الأستاذ (شيرل) عميد كلية الحقوق بجامعة (فينا) في مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧م: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون-نحن الأوربيين-أسعد ما نكون، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة.[٥]

وهكذا فإن المجتمع المدني الذي جاء به رسول الرحمة لهو المجتمع الأصيل والنيل، أما المجتمع المدني الذي ينشده المرتزقة ودعاة التغريب فإنه دخيل، ويحتاج إلى مزيد من الترقيع والتعديل.

٤-مشكلة الرقّ

لا تزال هذه القضية تُثار في عصرنا الحاضر في أروقة حقوق الإنسان، وجعلوها مشكلة كبيرة، بل صنف بعض الذين انبروا إلى صراع الحضارات كتباً في ذلك وهذه الكتب أيضاً تدرس في بلاد الغرب، ومنها (قراءات في كتاب الرق والعبودية في الشرق الأوسط) لبيرنارد لويس، وكتاب (القراصنة والاسترقاق والعتق) لدانيا فيتكوس، وهذه الكتب تدرس في جامعة مينيسوتا ويدرس فيها موضوع الرقّ في السودان.[٦]

---

(١) -انظر تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص٧٢و٧٨ وانظر مقارنة الأديان (١) اليهودية ص ٢٩٦.
(٢) -انظر مقارنة الأديان ج ٢ المسيحية ص ٢٢٩ -٢٣٠.
(٣) -انظر المستصفى ١/ ٢٨٨.
(٤) -انظر الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي ٢ / ٤١.
(٥) -قطوف دانية من مآثر المسلمين ٩٠.
(٦) -ينظر الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٣٩٠-٣٩٣.

لقد أكد نبي الرحمة على حقوق العبيد، وفي الوقت نفسه قام بعلاج هذه الظاهرة وحث ورغب في تحرير الرقّ بعدة أساليب، منها: بذكر فضل ثوابه فقد ثبت عن النبيﷺ: "من اعتق رقبة اعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه".[١]، وهذا الحديث يبين عظم فضل تحرير الرقاب.

كما رغب النبيﷺ بتأديب الإماء ثم عتقهن والتزوج منهن فبشر بأن من الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران.[٢]

كما رغَّب في فضل عتق الوالد بقولهﷺ: "لا يجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه".[٣]

وهذا العلاج أساسه من القرآن الكريم فقد رغب وحضَّ على عتق الرقاب، فقال تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة﴾ [البلد/١١-١٣].

كما نجد العلاج لهذه الظاهرة بالكفارات مثل كفارة قتل الخطأ في قوله تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ [النساء/٩٢].

فالحرية كالحياة، وإذا جُرِّد الإنسان منها فكأنه في عداد الموتى، ولهذا كانت عناية القرآن الكريم والسنة النبوية بتحرير الرقيق في غاية الأهمية وكذلك ورد في كفارة الأيمان فقال تعالى: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن ﴾ [المائدة/٨٩]، كما ورد في كفارة الظِهار في قوله تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ [المجادلة/٣]، وكل هذه الآيات كان بني الرحمة ﷺ يرتلها للعمل بها.

ومما تقدم نستدل أن القضاء على ظاهرة الرقِّ جاء علاجها من خلال الأحكام الواجبة التي تتكرر كثيراً جداً، فكم من المسلمين من احتاج إلى كفارة الأيمان؟ وكم منهم من يحتاج إلى كفارة القتل الخطأ؟ وكم من المسلمين من يحتاج إلى كفارة الظهار؟ وإذ أراد أحد المسلمين أن يكفِّر بعتق رقبة هل يجد هذه الرقبة؟ الجواب لم يجد، مما يدل على أن إثارة هذه المشكلة هي بلبلة ومغالطة. وأما إذا أراد العبد المكاتبة وعرف أنه أهل لذلك فقد أمر الله تعالى الاستجابة لهم ومساعدتهم في ذلك مالياً ومعنوياً، قال الله تعالى: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ [النور/٣٣].

فهذه الحرية من حق الرقيق مقابل مبلغ من المال يتفق عليه العبد والسيد، ولا يجوز للسيد رفضه، فإن رفض فيرفع الأمر إلى الحاكم كما رفع أمر سيرين إلى عمر بن الخطاب، فقد سأل سيدهُ أنس بن مالك فأبى، فأمر عمر بالمكاتبة والعتق[٤]. وفي ذلك إنهاء لهذه الحالة ليلحق الرقيق بركب الأحرار، وقد نُفذ هذا الأمر إضافة إلى العتق في سبيل الله تعالى حسب التوجيهات النبوية حتى تلاشت ظاهرة الرقِّ ولله الحمد والمنة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف".[٥]

---

(١) -صحيح المسلم – كتاب العتق -باب فضل العتق ح ٢٢/١٥٠٩.

(٢) -صحيح مسلم – كتاب الإيمان -باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدﷺ، ١٣٤/١-١٣٥ ح ١٥٤.

(٣) -المصدر قبل السابق ح ١٥١٠.

(١) –صحيح البخاري – كتاب المكاتب – باب المكاتب قبل حديث ٢٥٦٠.

(٢) -السنن ١٨٤/٤ ح١٦٥٥ وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٣٣٩/٩ ح٤٠٣٠) والحاكم (المستدرك ١٦٠/٢ وحسنه الألباني (صحيح الترمذي ح ١٣٥٢).

إننا إذا اطلعنا على معاملة الإسلام للرق والرقيق سنعرف أن الإسلام بتشريعاته ومبادئه قد كفل " **زوال أثر الرق عمليا، وذلك بمحو الفوارق والتوصية بالأرقاء. وأبرز ألوان المعاملة التي أتاحها الإسلام للأرقاء هي أن الرق يتصل بالعمل الجسماني، ولا يتصل بالعقل والفكر**، فالرقيق يعمل لسيده ويطيعه في حدود هذا العمل، ولكنه حر في تفكيره يعتنق الدين الذي يرضيه، فلا يجوز منه أن يرتكب إثما أو يقتل نفسا بغير حق، وقد عد العرب في مطلع الإسلام هذا التفكير الذي يقضي بتحرير عقل الأرقاء ثورة عارمة، وقتلوا عبيدهم وعذبوهم حينما صاح هؤلاء العبيد في وجوه سادتهم قائلين: لقد أعتقنا الإسلام وليس لكم سلطان على عقولنا، سلطانكم محدود بالأعمال الجسمانية التي لا تنافي الدين أو الخلق. وفي ذلك يقول ابن القيم: والسيد لا حق له في ذمة العبد، ولا في إنسانيته، وإنما حقه في بدنه"([1]) . إن الحضارة الإسلامية قدمت نموذجا فريدا في معاملة العبيد، فكان منهم العلماء، كسالم مولى أبي حذيفة، والأمراء كسلمان الفارسي أمير المدائن، وزيد بن حارثة قائد جيش المسلمين في مؤتة، وبلال خازن بيت المال الذي يقول عنه الخليفة عمر بن الخطاب: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا).

فالإسلام لم يُقِر الرقَّ إلا في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ([2]).

ظهر الإسلام في عصر كان نظام الرق فيه دِعامةً ترتكِز عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية، وتعتمد عليها جميع فروع الإنتاج في مختلف أمم العالم، فلم يكن من الإصلاح الاجتماعي في شيء أن يحاول مشرِّع تحريمه تحريمًا باتًّا لأول وهلة؛ لأن محاولة كهذه كان من شأنها أن تُعرِّض أوامر الشرع للمخالَفة والامتهان. وإذا أتيح لهذا المشرِّع من وسائل القهر والقوة ما يَكفُل به إرغام العالم على تنفيذ ما أمر به، إنه بذلك يُعرِّض الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهزةٍ عنيفة، ويؤدي تشريعه إلى أضرار بالغة، لا تقل في سوء مغبَّتِها عما تتعرَّض له حياتنا في العصر الحاضر إذا أُلغي بشكل فجائي نظام البنوك أو الشركات المساهِمة، أو حرِّم استخدام العمال وقضي على كل مالك أن يعمل بيده، أو يبطل استخدام السكك الحديدية أو استخدام البخار، فالرقيق كان بخار الآلة الاقتصادية في تلك العصور. فإقرار الإسلام للرق كان إذًا تحت تأثير ضرورات اجتماعية واقتصادية قاهرة ([3]).

---

(١) –الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٩٣.

(٢) –حقوق الإنسان في الإسلام، الدكتور: علي عبدالواحد وافي، ص: ٢٠٠، ٢٠١ ط. دار نهضة مصر الخامسة سنة ١٣٩٨هـ –١٩٧٩ م.

(٣) –حقوق الإنسان في الإسلام ص: ٢٠١، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص: ٩٦، ٩٧ بتصرف، والإسلام والاستبداد السياسي. يقولون هل يعقل أن الإسلام الذي يتكلم عن الحرية البشرية والكرامة الإنسانية وتحرير البشر يسمح بأن يكون هناك بشر ملكًا لبشر؟! ويكون هذا عبد فلان وهذه أمة فلان، ويصبحون ميراثًا يورث ..كيف؟! لماذا لم يحرم الإسلام الرق؟ وهل من حق الناس أن يقولوا إن المدنية الحديثة والحضارة الحالية أرشد من الإسلام لأنها حرمت الرق وجعلته محرمًا أما الإسلام فأباحه؟ إن الرق في التاريخ البشري كانت له مصادر كثيرة جدًا .. لنذهب إلى كليات الحقوق ونسأل عما يدرسونه في القانون الروماني أو القانون عند الآشوريين والبابليين والفراعنة وغيرهم. إن الرق في التاريخ البشري كانت له منابع كثيرة ..كانت هناك حروب وكان المنتصر يأخذ المهزوم ويسترقه .. أيضًا لو أن هناك إنسانًا له دين عند إنسان وعجز المدين عن أن يسدد الدين للدائن فيأخذ المدين نفسه بدلًا من المال ..وكان المجتمع يمكّن الإنسان من هذا ولا يمكن المدين من الفرار .. فمثلًا إذا خطف شخص من أهله وكان في حيازة شخص آخر فهو ملك له، وله أن يذهب به إلى سوق العبيد ليبيعه ويتم البيع والشراء حتى لو كان هذا الشخص أباه أو أمه، وكان إذا ضاع طفل يجيء أهله ليشتروه ويحرروه من الشخص الذي وجده لأنه قد أصبح عبدًا ومملوكًا ومسترقًا بمقتضى جريمة الاختطاف، والمجتمع يمكنه من ذلك .. وهذا ما حدث مع "زيد بن حارثة" عندما عرف أبوه وأهله مكانه فسافروا بلادًا وصحراوات كثيرة حتى أتوا النبي وقالوا له: ندفع لك ونشتري ابننا ..كان أكرم وقال لهم: "خذوه لو اختاركم" .. لكن زيدًا اختار النبي، عندما جاء الإسلام حرم كل مصادر الرق ومنابعه .. جفف كل منابع الرق، لأن كل النماذج التي ذكرتها هي حرام في الإسلام .. حرم الإسلام كل مدخل وكل سبب وأبقي سببًا واحدًا فقط هو من مفاخر الإسلام .. وهو طريق واحد فقط ليكون الإنسان عبدًا، هذا الطريق هو أن يأتي إنسان يحاربني ليعتدي على عرضي كدولة إسلامية أو علي مالي أو على عقيدتي، ويحاربني بظلم فأنتصر عليه ويمكنني الله عَزَّ وَجَلَّ منه. هل تدرون الواقعة الخاصة بـــ "مدرسة بحر البقر" في الدقهلية في مصر وهي أنه عندما جاءت طائرة من طائرات اليهود وضربت مدرسة ابتدائية وقتلت الأطفال وملأت الدماء كل مكان اتضح أن الطائرة تقودها "امرأة حامل" جندية في الجيش اليهودي حامل خرجت وضربت المدرسة وعادت .. جريمة نكراء .. مذبحة .. ونحن نعرف صابرا وشاتيلا ودير ياسين في فلسطين وغير ذلك فإذا ما أمكنني الله عَزَّ وَجَلَّ من الذي فعل هذه الجريمة فإن القانون الدولي ينص في هذه الحالة المعاصرة أن من فعل هذا هو مجرم حرب وتتم محاكمته وذلك ما فعلوه مع صدام حسين على جرائم حرب وحاكموا زعيم صرب البوسنة على جرائم حرب وهكذا .. ولكن القرآن الكريم يقول: {فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [محمد: ٤] .. مادام ضرب الرقاب انتهى والحرب انتهت فلا داعي للقتل إذ يكون القتل في المعركة فإذا استقرت المعركة وأصبحت أنت متمكنًا فلا داعي لأن تقتله فيموت كافرًا وإنما {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمَّد:٤] الوثاق كناية عن الأسر فإذا ما أخذته يومئذٍ أمامي إما أن أقتله وإما أن أمنحه الحياة .. والإسلام يريدني أن أتركه حيًا بدل أن أزهق روحه .. سأعطيه الحياة وهذه أول نعمة بأن أعطي الأسير حياته بدلًا من قتله، ثم النعمة الثانية أنني بدلًا من أن أجعله يسجن وأقيد حريته جعلته بين الناس .. بين أهلي وقومي وعشيرتي .. جعلته موجودًا في المجتمع حرًا، ثم النعمة الثالثة أنني بدلًا من أن أبقيه كافرًا مشركًا ويموت كافرًا ويدخل النار أدخلته في المسلمين لعل الله أن يهديه حينما ينظر في أحوال المسلمين .. إذن

الوسائل التي اتخذها الإسلام لتصفية الرق: لذلك أقرَّ الإسلام الرق، ولكنه أقرَّه في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج بدون أن يُحدِث ذلك أي أثرٍ سيئ في نظام المجتمع الإنساني، بل بدون أن يشعر أحد بتغيُّر في الحياة، والوسيلةُ التي ارتضاها للوصول إلى هذه الغاية من أحكم الوسائل، وأبلغها أثرًا، وأصدقها نتيجة، وهي تتلخَّص في مسلكين: أحدهما: تضييق الروافد التي تمد الرق وتُغذِّيه وتكفُل بقاءه، بل العمل على تجفيفها تجفيفًا كاملاً.

والآخر: توسيع المنافذ التي تؤدي إلى العتق والتحرير، وبذلك أصبح الرقُّ أشبه شيء بجدول كثرت مصبَّاته، وانقطعت عنه منابعه التي يستمِد منها الماء، وخليق بجدول هذا شأنُه أن يكون مصيره إلى الجَفاف، وبذلك كفَل الإسلام القضاء على الرق في صورة سليمة هادئة، وأتاح للعالم فترة للانتقال يتخلّص فيها شيئًا فشيئًا من هذا النظام، ونذكُر هذين المسلكين على حدة فيما يلي مختصرًا ([1]).

تضييق الإسلام لروافد الرق: كانت روافد الرق في العصر الذي ظهر فيه الإسلام كثيرة متنوِّعة، يرجع أهمها إلى:

أحدها: انتماء الفرد إلى شَعب مُعين أو طبقة معيَّنة، فمجرد هذا الانتماء كان يجعله رقيقًا في نظر شعوب كثيرة، من بينها العبريون واليونان والرومان والهنود.

وثانيها: الحرب بجميع أنواعها، فكان الأسير في حرب أهلية أو خارجيَّة لا يخرج مصيره عن القتل أو الاسترقاق.

وثالثها: القرصنة والخَطف والسَّبي، فكان ضحايا هذه الاعتداءات أسرى الحرب فيُعرَض عليهم الرق، وهذه وسيلة مشروعة، وكانت بعض الحكومات تزاوِلها وتقف على هذا النشاط قِسمًا من أسطولها كما كان في أثينا في عهد صولون.

ورابعها: ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا، فكان يُحكم على مرتكِبها بالرقِّ لمصلحة الدولة المجني عليه.

وخامسها: عجز المدين عن دفْع دَينه في الموعد المحدَّد، فكان يُحكَم عليه بالرق لمصلحة دائنه، ودهاقنة هذا هم اليهود.

وسادسها: سلطة الوالد على أولاده، فكان يُباح له أن يبيع أولاده ذكورهم وإناثهم في بعض الشعوب، وإناثهم فقط في شعوب أخرى، ببعض قيودٍ حدَّدتها القوانين، وخاصة في العِوَز والعُسرة.

وسابعها: سلطة الشخص على نفسه، فكان يُباح للعِوَز أن يتنازَل عن حريَّته ويبيع نفسه لقاء ثمن معين.

وثامنها: تناسُل الرقيق، فكان ولد الأَمَة يولَد رقيقًا، ولو كان أبوه حرًّا، ولو كان أبوه السيد نفسه.

وكانت هذه الروافد تَقذِف كل يوم في تيار الرق بآلاف مؤلَّفة من الأنفس، حتى إن عدد الرقيق كان يزيد على عدد الأحرار زيادة كبيرة في شعوب كبيرة، من بينها العبريون والرومان وعرب الجاهلية، جاء الإسلام وروافد الرق بهذه الكثرة والغزارة والقوة، **فحرَّمها جميعًا ما عدا رافدين اثنين، وهما: رق الوراثة: وهو الذي يُفرَض على من تلِده**

الإسلام أعطى الأسير الحياة بدل القتل، وأعطاه الحرية بدل الأسر والسجن، وأعطاه الإسلام بدل الكفر، ثم أعطاه النعمة الرابعة وهي أن الإسلام أغرى المسلمين بإعتاق العبيد .. وبهذا يكون قد سد الإسلام كل المنافذ التي تؤدي إلى الرق وفتح كل المنافذ التي تؤدي إلى الخروج من الرق .. بعد أن أعطاهم الإسلام أربع نعم وهي نعمة الحياة بدل القتل .. ونعمة الحرية بدل الأسر .. ونعمة الإسلام بدل الكفر دون إكراه .. ونعمة التحرير بعد ذلك .. أمر الإسلام أن نكرم الرقيق المسترق في فترة الرق والعبودية وهي الفترة الطارئة .. وليست هذه فترة استمرار لأن الإسلام لن يجعل هذا الإنسان مستمرًا في الرق وإنما هي فترة مؤقتة حتى تكتمل له نعمة الإسلام والحياة .. ثم أمرنا الإسلام في هذه الفترة ألا نظلمه بل نكرمه وننفق عليه ونطعمه. إذن الله تبارك وتعالى يدعو إلى إكرام هؤلاء الأرقاء .. ثم إن الإسلام لا يمانع إن جاء قانون اتفق عليه العالم حرم الرق أو جاء المسلمون فحرموا الاسترقاق فلا بأس، يقول الله تعالى: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمَّد:٤] .. وظلت أمريكا حتى الستينيات من هذا القرن والسبعينيات بل إلى عهد قريب جدًا مكتوب على المطاعم وبعض الولايات وهذا ما قرأته ووجدته بعيني ممنوع دخول الكلاب والسود ..لقد ساووا بين العبد الأسود والكلب، وحتى يومنا هذا ونحن في القرن الحادي والعشرين .. إذا اشترى شخص أسود قطعة أرض أو بيتًا –وإن كان حرًا– تنخفض أثمان الأرض؛ لأنه يعتبر شيئًا غير مرغوب فيه، لذا أحيانًا يتكاتف السكان ليشتروا البيت من هذا الأسود ليخرجوه لتظل المنطقة للبيض وحدهم .. وعندما ذهبت إلى سفارات بعض البلاد الأوربية والأمريكية لآخذ استمارة (للتأشيرة والفيزا) وجدت من ضمن البيانات لون البشرة .. وهذا الكلام في القرن الحادي والعشرين. إذن العبيد الذين عاشوا في فترة عبودية قليلة .. ثم اعتقوا بقدر الله عَزَّ وَجَلَّ هؤلاء أحبوا الإسلام لدرجة أن الموالي هؤلاء أصبح منهم كبار الفقهاء في الشريعة الإسلامية وكبار قواد الجيش والفاتحين ..

(١) –المصدر السابق (ص: ٢٠١، ٢٠٢) بتصرف، وسماحة الإسلام (ص: ٢٠٩، ٢١٠) بتصرف.

الجارية. ورق الحرب: وهو الذي يُفرَض على الأسرى، وعمَد إلى هذين الرافدين نفسيهما فقيَّدهما بقيود تكفُل نضوبَ مَعِينهما بعد أمدٍ غير طويل (١).

تقييد الإسلام لرق الوراثة: فمن أهم القيود التي قيَّد بها رقَّ الوراثة أنه استثنى منه أولاد الجواري من مواليهم، فقرَّر أن مَن تأتي به الجارية من سيدها يولَد حرًّا، وإذا لاحظنا أن الغالبَ في أولاد الجواري أن يكونوا من مواليهن أنفسهم؛ لأن الأغنياء ما كانوا يقتنون الجواري إلا لمتعتهم الخاصة، تبيَّن لنا أن هذا القيد الذي قيَّد به الإسلام رقَّ الوراثة، وانفرد به من بين جميع الشرائع التي كانت تبيح الرق – كفيلٌ بوقف العمل على هذا الرافد نفسه ونضوب مَعِينه بعد أمدٍ غير طويل(٢)، وقد استثنى الإسلامُ كذلك من هذا المورد من تأتي به المدبَّرة والمكاتبة وأم الولد بعد التدبير والمكاتبة والاستيلاد، على ما سيأتي.

تقييد الإسلام لرق الحرب: ومن أهم القيود التي قيد بها المورد الثاني، وهو رقُّ الحرب، أنه استثنى منه الذين يؤسَرون في حرب بين طائفتين من المسلمين، فهؤلاء لا يُضرَب عليهم الرق، سواء أكانوا من الطائفة الباغية أم من الطائفة الأخرى٣. أما الحروب الأخرى، وهي التي تكون بين المسلمين وغيرهم، فلا تؤدِّي إلى رق من يؤسرون فيها إلا بشروط كثيرة، من أهمها أن تكون الحرب مشروعة؛ أي: يُجيزها الإسلام، وتُنفَّذ وَفْق قوانينه، ويُعلنها خليفةُ المسلمين، فإذا لم تكن كذلك، فإنها لا تؤدي إلى رقِّ مَن يؤسرون فيها، وحتى مع توافُر هذه الشروط، فإن الإسلام لا يجعل الرقَّ نتيجة لازمة للأسر، بل يُبيح للإمام أن يَمُن على الأسرى بدون مقابل، أو يُطلِق سراحَهم في نظير فدية أو عمل يؤدونه، أو في نظير أسرى من المسلمين عند العدو، أو في نظير جزية تُفرَض على رؤوسهم (٤)، بل إن القرآن قد تحاشى أن يذكر هذا من بين الأمور التي يباح للإمام أن يُعامِل بها الأسرى، واقتصَر على ذكر المنِّ أو الفِداء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤]، وفعْلُ الرسول في غزواته يدلُّ على إيثاره المنِّ أو الفِداء على الاسترقاق، ومن هنا يظهر أن الإسلام قد سلَك حيالَ رقِّ الحرب المسلَك نفسه الذي سلكه حيال رقِّ الوراثة، فقد قيَّده بقيود تكفُل القضاء عليه، فهو لم يجعله نتيجة لازمة للأسر، ولا يكون إلا عند المعاملة بالمِثل؛ أي: عندما يَسترِقُّ الأعداء أسرى المسلمين، فلإمام المسلمين أن يسترقَّ أسرى الأعداء، وهو مسلَك لم يرغب فيه الإسلام، بل رغَّب في غيره وفضَّله عليه(٥).

---

(١) –حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ٢٠٢–٢٠٤)، ونظام الرق في الإسلام، عبد الله ناصح علوان (ص: ١١، ١٢) بتصرف، ط. دار السلام سنة ١٩٨٤م.
(٢) –حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ١٨٣–١٨٧)، ونظام الرق في الإسلام ص: ٦٢، ٦٣، أنت تسأل والإسلام يجيب؛ عبد اللطيف المشتهري (ص: ٥٢، ٥٣)
(٣) –بدائع الصنائع (٧: ١٤١) بتصرف.
(٤) –البدائع (٧: ١٠، ١٠٢، ١١٠، ١١٩).
(٥) –حقوق الإنسان في الإسلام (ص: ٢٠٤–٢٠٧) بتصرف، وحقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (ص: ٩٩ ،١٠٠) بتصرف.

ثالثا: المشكلات الاقتصادية

تجتاح العالم اضطرابات اقتصادية عنيفة، وأزمات مالية مخيفة، فإن عشرات الملايين من البشر يعضهم ناب الفقر، ويهددهم الجوع بالموت، مع أن الملايين من أطنان الثمار تقذف في البحار للمحافظة على الأسعار! وأن الملايين من البشر يعانون من شبح البطالة، مع أن الملايين من البشر يدرسون علم الاقتصاد والتجارة والإدارة المالية، وكثير منهم يتخصصون فيه.

يقول الخبير الاقتصادي السياسي هيلموت شميت (رئيس وزراء سابق لجمهورية ألمانيا الاتحادية): لقد دخل الاقتصاد العالمي مرحلة من عدم الاستقرار غير العادي... ولم يعد مساره المستقبلي مؤكدا على الإطلاق. ذكره الأستاذ الدكتور محمد عمر شابرا[١]، ثم عقب عليه بقوله: هذا ما كتبه هيلموت شميت منذ حوالي عقد مضى. أجل لقد ترسخ عدم الاستقرار، واستمر عدم اليقين، وبعد أن مرَّ الاقتصاد العالمي بآلام معدلات التضخم المرتفعة والمزعجة، شهد ركوداً عميقاً، كما شهد معدلات بطالة لم يسبق لها مثيل، زاد من حدتها ارتفاع مستويات معدلات (الربا)[٢] الفعلية، وتقلب أسعار الصرف تقلبات غير صحيحة، أضف إلى ذلك الارتفاع الحاد لسعر النفط الخام.

وتستمر معدلات (الربا) الحقيقية مرتفعة، ويتوقع لها مزيد من الارتفاع، وهو ما يثير المخاوف من إجهاض التحسن. ويزيد من حدة هذه الأزمة وجود الفقر المدقع وسط الوفرة في كافة البلدان، ووجود أشكال مختلفة من الظلم الاقتصادي الاجتماعي، وعجز كبير في موازين المدفوعات، وعدم قدرة بعض الأقطار النامية على خدمة ديونها المذهلة.[٣]

ثم ذكر جذور الأزمة وتورط الأقطار الإسلامية فيها بتقليد الغرب فقال:

إن الأقطار الإسلامية لا تختلف عن غيرها في هذا الباب، فهي تواجه نفس المشكلات التي تواجهها الأقطار الأخرى، ذلك بأنها تقلد الغرب تقليداً أعمى في كل شيء، وترتكب نفس الخطأ في اعتبار الأعراض فقط، وليس فيها أي جهد جاد لمعرفة المصدر الأساسي لمشكلاتها، واختيار إستراتيجية ملائمة لحل هذه المشكلات في ضوء قيمها الخاصة ومعتقداتها.

إن جذور الأزمة في المنظار الإسلامي تبدو أعمق من ذلك، ولا يمكن حلّ المشكلات من خلال تغييرات تجميلية فقط. بل هناك حاجة إلى إصلاح شامل، لأن الهدف هو الصحة الاجتماعية النابعة من صميم الوعي الإنساني المصحوب بالعدالة والاستقامة في كافة مستويات التفاعل البشري، ولا يمكن أن تتحقق هذه الصحة دون تحول أخلاقي للفرد والمجتمع الذي يعيش فيه هذا الفرد.[٤]

إن من أعظم أسباب ذلك الاختلال الاقتصادي والاعتلال المالي هو ما يلي:

أولاً: الربا، الذي يدمر الحياة الاقتصادية، يقول الله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ [البقرة/٢٧٦]، هذا هو السبب الأساس.

ثانياً: البيوع التي فيها الغرر والخداع.

ثالثاً: التبذير والإسراف والبخل.

رابعاً: السرقة وعدم وضع العقاب الزاجر لها.

خامساً: البطالة.

---

(١) -الحاصل على جائزة الملك فيصل رحمه الله في الاقتصاد.
(٢) -في الأصل بلفظ (الفائدة) وهو اصطلاح دخيل.
(٣) -نحو نظام نقدي عادل ص ٢٨.
(٤) -المصدر السابق، ص ٣٨.

سادساً: الفقر. وقد عالج نبي الرحمة هذه المشاكل، وهذه نماذج منها:

١-مشكلة الربا:

يقول الخبير الاقتصادي محمد شابرا: للإسلام مزايا فكرية تمكنه من تقديم برنامج لحل عادل وعملي للمشكلات التي تواجهها الأقطار الإسلامية، ويواجهها الجنس البشري كله، وذلك بشرط توافر الإرادة السياسية الضرورية لغرس تعاليمه وإقامة إصلاحاته. ولما كانت اقتصادات أغلب الأقطار الإسلامية لا تزال في مرحلة التشكل، فإنه لن يصعب على المسلمين كثيرا أن يعدوا تصميماً جديداً لاقتصاداتهم ولأنظمتهم المصرفية. ولكن مع مرور الزمن قد تزداد عليهم صعوبة تنفيذ الإصلاحات التي يتطلبها النظام الإسلامي.

إن لب النظام الإسلامي يكمن في معتقداته وأهدافه وقيمه الأساسية (بما في ذلك إبطال الربا) والسمو الأخلاقي للفرد. فهذه الأمور لا غنى عنها، وليست محدودة بزمن معين، وسواء في ذلك كنا نرجع النظر إلى أيام الرسول عليه الصلاة والسلام منذ أربعة عشر قرناً، أو كنا نمد النظر إلى القرن الهجري الخامس عشر. إن المؤسسات التي أقيمت لكي تحقق وتمثل هذه الأهداف والقيم، يمكن أن تتغير من زمن لآخر باختلاف الظروف. وعلى هذا لا يمكن لأي دراسة أن تقترح أساليب أو حلول خالدة. لكن من خلال تفاعل الأفكار، يمكن بمرور الوقت للنظام النقدي والمصرفي المنسجم مع عبقرية الإسلام، أن ينشأ ويتطور تدريجياً، لتمكين الأُمَّة الإسلامية من تحقيق تطلعاتها.[١]

وقد عالج نبي الرحمةﷺ هذه المشكلة بعدة أساليب:

١-التنفير من الربا وتحريمه، فقد تلا قوله تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾[البقرة/٢٧٥]، وأخرج مسلم من حديث جابر: "لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء"[٢].

٢-جعل البديل للربا القرض الحسن، والترغيب في إنظار المعسر، فقد أخرج البخاري بسنده أن حذيفة قال: قال النبي: "تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: كنت آمر فتياني أن ينظروا ويتجاوزوا عن الموسر. قال: فتجاوزوا عنه".[٣]

٣-وقد رغب ترغيباً عظيماً في الوضع عن المدين، وصحَّ عن أنه قال: "من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه".[٤]

٢-مشكلة الفقر

تعاني مئات الملايين من البشر من مشكلة الفقر بسبب الاضطراب الاقتصادي والتبذير المتمادي، لقد عالج نبي الرحمة الفقر علاجاً ناجحاً بعدة أساليب ومنها:

١-الترغيب في العمل الحر والمهن، وخصوصاً أن الناس في هذا الزمان يرغبون الوظيفة، فقد رغَّب النبي في البديل عن ذلك، وصحَّ عنه أنه قال: "ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"[٥].

٢-بيان حق إحياء الأرض الموات وتمليكها، فقد أباح للمسلم أن يستفيد من أرض لم تملك فيقوم بزراعتها أو بنائها، فقد ثبت عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي قال: "من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق". قال عروة:

---

(١) -نحو نظام نقدي عادل ص ٤٢.
(٢) -صحيح مسلم -كتاب المساقاة -باب لعن آكل الربا وموكله ١٢١٨/٣ح ١٥٩٨.
(١) -الصحيح --كتاب البيوع -باب من أنظر موسراً ح٢٠٧٧).
(٢) -صحيح مسلم -كتاب المساقاة-باب فضل إنظار المعسر ١١٩٦/٣ ح ١٥٦٣.
(٥) -صحيح البخاري -كتاب البيوع -باب كسب الرجل وعمله بيده ح ٢٠٧٢.

قضى به عمر في خلافته.[١]، قال القزاز: الموات الأرض التي لم تعمر شبهت العمارة بالحياة وتعطيلها بفقد الحياة، وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك ملكه، سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد، سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن، وهذا قول الجمهور. وعن أبي حنيفة لا بد من إذن الإمام مطلقاً.[٢]

وكذلك الفقراء من أهل الذمة، فقد راعى الإسلام أهل الذمة في إحياء الأرض الموات وذلك لرعايتهم وقضاء حاجتهم وعوزهم فقد رأى بعض الفقهاء تمليك الذمي بالإحياء إذا كان بإذن الإمام.

قال العيني: ثم عندنا يملكه الذمي بالإحياء كالمسلم، وبه قال مالك وأحمد في رواية.[٣]

٣-الزكاة والصدقات للفقراء من المسلمين وغير المسلمين، إن الزكاة هي صمام الأمن للنظام الاقتصادي في الإسلام، إذ يحصل بها سدّ حاجات أنواع المحتاجين ويتحقق بها حقوق المستحقين لها، ولقد بين الله تعالى وجوب الزكاة وبين الفئات الثمان المستحقة لها في قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[التوبة/٦٠]، وقد صحَّ عنه ﷺ أنه بعث معاذاً ﷺ إلى اليمن فقال: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم".[٤]

٤-أن علاج مشكلة الربا السابقة هي من أسباب علاج الفقر.

٥-كما عالج مشكلة شريحة كبيرة من الفقراء العاطلين عن العمل كما في المبحث التالي.

إنه دين البشرية والرحمة النبوية، إذ يراعي الفقر عامة في المسلم وغير المسلم، واختم هذا المبحث بقول الأستاذ الفرنسي ليون في كتابه (ثلاثون عاماً في الإسلام): وجدت هذا الدين أفضل دين عرفته، فهو دين إنساني اقتصادي أدبي.[٥]

٣-مشكلة البطالة

يتطلع الملايين من البشر إلى بصيص من الأمل للانخراط في ميدان العمل، فهذه الطاقات الجاثمة الهامدة لا تعرف الحياة الجادة، يعتريها نوم طويل ولهو ممل، لأنها لم تجد العمل فهي تنتظر اليد الحانية لتشغيلها، وقد عالجت السنة النبوية الشريفة هذه المشكلة بشتى الأساليب من الترغيب والتسهيل والإرشاد والعون، فقد صحَّ عن نبي الرحمة ﷺ أنه قال: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خيراً من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"[٦].

فيرشد هنا إلى عمل الاحتطاب وهذا العمل يستنتج منه العمل في المهن الحرة، والاستفادة من الفرص المتاحة، وعدم الاعتماد على الآخرين في التشغيل، وعدم الحاجة إلى رأس المال.

وفيه الإشارة إلى الأعمال المباشرة التي لا تحتاج إلى تمويل وشراكة وتوظيف، كأعمال الصيد بأنواعه، والأعمال اليدوية، وإحياء الأرض الموات والاحتطاب والبحث عن الثمرات التي تحت الأرض كالكمأة، فقد أشار إليها نبي الرحمة

---

(٢) -صحيح البخاري -كتاب الحرث والمزارعة -باب من أحيا أرضاً مواتاً ح ٢٣٣٥.
(٣) -انظر فتح الباري ٥/١٨.
(٤) -عمدة القاري ١٢/١٧٧.
(٥) -صحيح البخاري -كتاب الزكاة -باب وجوب الزكاة، ح ١٣٩٥.
(٦) -انظر قطوف دانية من مآثر المسلمين ص ٨٩.
(١) -صحيح البخاري -كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة حديث رقم ١٤٧١.

بقوله: "الكمأة من المن وماؤها شفاء العين"[١]، ويستفاد منه للبحث عمّا امتن الله تعالى على عباده من دون زرع ولا سقي، وصحَّ عنه: ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم[٢]، وفيه ترغيب في هذه الحرفة وبيان شرفها.

وهذه شهادات العلماء الغربيين عن تطور النمو الاقتصادي: يخبرنا د. محمد وقيع الله أحمد عن البروفسور جير هاردت إندريس في كتابه (مقدمة عن الإسلام) إذ يقول: وقد تناول المؤلف مبادئ الاقتصاد الإسلامي بالتحليل والتعليل، وأبان عن آثار نمو الاقتصاد الإسلامي على المسلمين، من حيث توجيهه للنهضة والأخذ بأسباب القوة لأكثر من ثمانية قرون، وكان واضحاً أن المؤلف يرد بذلك على نظرية مناقضة تبناها من قديم الدكتور (ديفيد صمويل مارجليوث) في كتابه عن (المحمدية)، حيث فسر نجاح الدعوة الإسلامية من خلال تحليله لتصرفات الرسول الاقتصادية ذاكراً أنها تصرفات انتهازية، قصد بها الوصول إلى الحكم. [٣]

ويقول العالم الأمريكي ول ديورانت: لسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء...[٤]، ويقول العالم الأمريكي مايكل هارث: إن محمداً كان الرجل الوحيد الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يعتبر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية.[٥]

ويقول الأستاذ السويسري أدوار مونته مدير جامعة جنيف: وفضلا عن الأيمان فالإسلام، تمشى مع الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وله ميزة عجيبة على التكيّف بحسب المحيط، وعلى تكييف المحيط حسب ما يقتضيه هذا الدين القوي، ولا شك أنه يعد من أكبر وسائل تمدين الناس وترقية أحوالهم الاجتماعية والخلقية والاقتصادية[٦].

هذا وإن علاج الربا والفقر يتيح كثيراً من الأعمال والوظائف.

---

(٢) -صحيح البخاري –كتاب التفسير – باب قوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ الآية، حديث رقم ٤٤٧٨.
(٣) -صحيح البخاري –كتاب الإجارة – باب رعي الغنم على قراريط، حديث رقم ٢٢٦٢.
(٤) -كتب هذا الكلام بالغة الألمانية ثم ترجم إلى الإنكليزية، ينظر: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٢٦٣.
(٥) -قصة الحضارة ٥٩/١٣.
(٦) -قالوا عن الإسلام ص٩١.
(٧) -انظر قطوف دانية من مآثر المسلمين ص ٨٩.

الباب الثاني: دراسة في الصراعات العسكرية، مناقشة الشبهات. فيه فصلان.

الفصل الأول: حكمته ورحمته في ميدان الصراعات السياسية والعسكرية.

البحث الأول: هل اتسمت حروب النبي محمد ﷺبالدموية؟ خلاصة المواجهات الحربية النبوية.

لغة الأرقام لا تكذب، النتائج الحقيقة لهذه الحروب.

البحث الثاني: نبي المرحمة ونبي الملحمة.

أولا: تغير منهج العقوبة مع إرسال خاتم النبيين.

ثانيا: جهاد النبي محمدﷺ مقارنة مع الأنبياء السابقين.

ثالثا: جهاد النبي ﷺومبدأ الرحمة.

رابعا: أهداف الحرب غاياتها في سيرة النبي وحياته، ومعنى الجهاد.

البحث الثالث: الوصايا النبوية المتعلقة بأخلاقيات الشروع في الحرب.

- حماية حقوق المدنيين.
- تجنيب النساء والأطفال والشيوخ والعمال ويلات الحرب.
- حماية رجال الدين من أصحاب الملل الأخرى.
- حماية الممتلكات العامة والخاصة.
- حماية الأبنية وأماكن عبادة الملل الأخرى.
- تحريم التمثيل بالإعداء أحياء وأمواتا.
- تحريم الخيانة والغدر في المعارك والوفاء واحترام العهود.
- حظر العقوبات الجماعية.
- تغليب حالة السلم على حالة الحرب. أمثلة تطبيقية! .

البحث الرابع: أخلاقيات الانتصار.

٦. حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام.
٧. معاملة الأسرى.
٨. دفن قتلى العدو.
٩. مبدأ الإجارة وتأمين المحاربين.
١٠. تغليب جانب الإحسان مع الأمم المغلوبة.

البحث الخامس: بين مثالية حروب جيش خاتم النبيين، والقانون الدولي المعاصر.

أولا: حول مبادئ سير العمليات الحربية بين الإسلام والقانون الدولي الإسلامي.

ثانيا: حروب النبي محمدﷺ عادلة أم مثالية مقارنة بالقانون الدولي المعاصر.

البحث الأول: هل اتسمت حروب النبي محمد ﷺبالدموية؟ خلاصة المواجهات الحربية النبوية:

لم تكن حروب النبي حروب تخريبٍ كالحروب المعاصرة لزمنه و لزمننا والتي يحرص فيها المتقاتلون على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، بل كان النبي والمسلمون يحرصون أشدّ الحرص على الحفاظ على العُمران في كل مكان، ولو كان بلاد أعدائهم؛ فقد جاء في وصيّة الرسولﷺ لجيش مؤتة: "ولا تَقْطَعَنَّ شَجَرَةٍ وَلا تَعْقِرَنَّ نَخْلا ولا تَهْدِمُوا بَيْتًا[١]"

تميَّزت حروب الرسول بأنها حروب غير دموية، بمعنى أنها لم يكن فيها ما يُعرف الآن بجرائم إبادة الشعوب، حيث نجد فيما يُسمى بحضارات العالم الحديثة أن بعض الزعماء أخذوا قرارات نتج عنها إفناءٌ لِكَمٍّ هائلٍ من البشر في مدينة أو دولة أو أحيانًا قارة! لم تكن حروب الرسول على هذه الصورة، ذلك أن النبي كان حريصًا على تجنب القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإذا اضطر إليه حاول أن ينهيه بسرعة، وأثناء القتال نفسه كان يحفظ دماء المدنيين، وكذلك يحفظ دماء المستكرهين [٢] على القتال، ثم بعد القتال كان يعفو إذا ملك، ويسامح ويرحم إذا غَلَب. فجاءت حروب الرسولﷺ على مستوى من الرقي لا تعرفه – بل لا تفهمه – "الحضارات" الحديثة!

لغة الأرقام لا تكذب! فلقد تم إحصاء عدد الذين ماتوا في كل غزوات الرسول وحروبهﷺ، سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء، وبتحليل هذه الأعداد، وربطها بما يحدث في عالمنا المعاصر، ترى العجب! لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كل معاركهم أيام رسول الله، وذلك على مدار عشر سنوات كاملة، ٢٦٢ شهيدًا، وبلغ عدد قتلى أعدائه صلى الله عليه وسلم ١٠٢٢ قتيلاً، حرصت هذه الإحصائية على جمع كل من قُتل من الطرفين حتى ما تم في حوادث فردية، وليس في حروب مواجهة، والجمع من الروايات الموثَّقة بصرف النظر عن الأعداد المذكورة، وذلك كي أتجنب المبالغات التي يقع فيها بعض المحققين بإيراد الروايات الضعيفة التي تحمل أرقامًا أقل، وذلك لتجميل نتائج غزوات الرسولﷺ. وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلاً فقط [٣] !!

ولكيلا يتعلل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة ولذلك جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإنني قمت بإحصاء عدد الجيوش المشتركة في المعارك، ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد الجيوش، فوجدت ما أذهلني!! إن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١% فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢%!، وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي ١،٥% فقط! إن هذه النسب الضئيلة في معارك كثيرة بلغت ٢٥ أو ٢٧ غزوة، و٣٨ سرية [٤]، أي أكثر من ٦٣ معركة، لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحروب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

ولكي تتضح الصورة بشكل أكبر وأظهر وبإحصاء عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية كمثال لحروب الحضارات الحديثة وبحساب نسبة القتلى بالقياس إلى أعداد الجيوش المشاركة في القتال، تصُدِمْ بمفاجأة مذهلة!!! إن نسبة القتلى في هذه الحرب الحضارية بلغت ٣٥١% !!! ومن جديد، إن الأرقام لا تكذب!!! لقد شارك في الحرب العالمية الثانية ١٥,٦٠٠,٠٠٠ جندي، ومع ذلك فعدد القتلى بلغ ٥٤,٨٠٠,٠٠٠ قتيل!!! أي أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش

---

(١) –البيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٣٥)

(٢) –الذين خرجوا في جيش الأعداء مكرهين لقتال المسلمين وهم في المعركة لا يقاتلون إلا دفاعا عن النفس.

(٣) –اعتمدت في حصر الأرقام على ما ورد أولاً في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، ثم على روايات كتب السيرة بعد توثيقها، كسيرة ابن هشام، وعيون الأثر، وزاد المعاد، والسيرة النبوية لابن كثير، والطبري، وغيرهم. يذكر بعضهم أن شهداء حادثة بئر معونة هم سبعة وعشرون شهيدًا بينما الصواب سبعون شهيدًا، أو كما يُسقط بعضهم قتلى بني قريظة من الحساب بحجة أنهم لاقوا ما يستحقون نتيجة خيانتهم، بينما الصواب أن نثبتهم لأنها كانت معركة حقيقية بصرف النظر عن أسبابها!

(٤) –ابن القيم الجوزية: زاد المعاد ١٢٥/١، ابن حزم: جوامع السيرة ١٦/١. ابن كثير: السيرة النبوية ٤٣٢/٤.

المشاركة! وتفسير هذه الزيادة هو أن الجيوش المشاركة جميعًا – وبلا استثناء – كانت تقوم بحروب إبادة على المدنيين، وكانت تسقط الآلاف من الأطنان من المتفجرات على المدن والقرى الآمنة، فتبيد البشر، وتُفني النوع الإنساني، فضلاً عن تدمير البنى التحتية، وتخريب الاقتصاد، وتشريد الشعوب!! لقد كانت كارثة إنسانية بكل المقاييس! وليس خافيًا على أحد أن المشاركين في هذه المجازر كانت الدول التي تعرف آنذاك – والآن – بالدول المتحضرة الراقية! كبريطانيا وفرنسا وأمريكا وألمانيا وإيطاليا واليابان!

أي تحضّر هذا؟! وعن أي رقيٍّ يتكلمون؟! ثم أين أولئك الذين يصفون رسولناﷺ بالعنف والإرهاب؟! قارن هذه النسب المفجعة بما كان على عهد رسول الرحمةﷺ إن العودة للأرقام سترد كل مُنصفٍ إلى جادَّة الطريق [١] !! إن شخص رسول الله (الرحمة للعالمين) أبعد ما يكون عن حمل الناس على اعتناق الإسلام بالسيف، وهو الذي قال لأعدائه بعدما قدر عليهم: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " هكذا دون شرط أو قيد، حتى دون اشتراط الإسلام عليهم. فلما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح ووجد رجالات قريش جالسين مطأطئ الرؤوس ينتظرون حكم رسول اللهﷺ الفاتح فيهم، فقال: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم»؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فعفا عنهم بعدما ارتكبوا من الجرائم ضده وضد أصحابه ما لا يقادر قدره، ولا يحصى عده، ومع هذا فقد عفا عنهم ولم يعنف ولم يضرب. ولم يقتل [٢].

والنتائج الحقيقية: تحويل العرب الوحوش إلى عرب متحضرين، والعرب الملحدين الوثنيين إلى عرب مسلمين موحدين والقضاء على أحداث السلب والنهب وتعزيز الأمن العام في بلاد تفوق مساحتها مساحة فرنسا بضعفين.

لقد غيّر النبي ﷺ أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان وأخذ الثأر والفوز بالوتر وكبت الضعيف وتخريب العمران وتدمير البنيان وهتك حرمات النساء والقسوة على الضعيف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل والعبث والفساد في الأرض في الجاهلية، إذ صارت هذه الحرب في الإسلام جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة وأغراض سامية وغايات محمودة يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان وغدت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان.

إن تحول المجتمع إلى نظام العدل والنصف بدلاً عن نظام يأكل فيه القوي الضعيف، حتى يصير المجتمع إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ الحق منه وصارت بذلك الحرب جهاداً لتخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً. وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان وغدت وسيلة لبسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

أومن قام بتبديل الحرب من شرٍّ محضٍ إلى خيرٍ محضٍ يكون إرهابياً أو سفاكٍ للدماء؟ أفترى من يأمر بهذا العدل والإنصاف والرحمة والرأفة حتى مع العدو أثناء القتال يمكن أن يوصف بأنه إرهابي أو قاتل أو سفاك للدماء؟ سبحانك

---

(١) –دراسة قام بها الأستاذ الدكتور راغب السرجاني ونشرها على موقعه وفي كتبه بعنوان هل اتسمت حروب النبي محمد بالدموية؟ راجع كتابه:" أخلاق الحروب في السنة النبوية " ص: ١٥٤–١٦٢. راجع بالنسبة للأعداد كتاب" رحمة للعالمين "للمنصور فوري المجلد الثاني حيث لم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فقمت بجمع الأعداد من القتلى حسب المعارك النبوية.

(٢) –النسائي في السنن الكبرى ح(١١٢٣٤) والأزرقي في أخبار مكة ٢/١٢١ الناشر دار الأندلس بيروت، وأخرج فقرات منه تختلف طولاً وقصراً: ابن أبي شيبة في مصنفة ١٤/ ٤٨٧ برقم (١٨٧٥٠)، وأحمد ٢/ ٢٠٧، وأخرجه أحمد ٢/ ١٧٩، ٢١٢ – ٢١٣، وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" ٥/ ٨٦

هذا بهتان عظيم!! علماً بأن جميع البلاد التي فتحها بالسيف ظهر فيها الإسلام وانتشر ثبت أهلها على الإسلام وصاروا دعاة له ومدافعين عنه، مما يؤكد أن انتشار الإسلام وثباته لصفاته الذاتية فيه وليس انتشاره عائداً إلى نشره بالقوة السيف فقط كما أن أكثر بقاع الإسلام وبلاده مما فتح سلماً دون حرب أو قتال كما ثبت ذلك في دواوين السيرة وكتب التاريخ.

البحث الثاني: نبي المرحمة ونبي الملحمة

أولا: تغير منهج العقوبة مع إرسال خاتم النبيين.

ثانيا: جهاد النبي محمدﷺ مقارنة مع الأنبياء السابقين.

ثالثا: جهاد النبي ﷺومبدأ الرحمة.

رابعا: أهداف الحرب غاياتها في سيرة النبي وحياته، ومعنى الجهاد.

أولا: تغير منهج العقوبة مع إرسال خاتم النبيين.

اشتهر النبي بهذين الوصفين (نبي المرحمة ونبي الملحمة)، واتصاف النبي ﷺ بهما إشارة إلى أنه تميز بهما عن سائر الأنبياء، ونبي الرحمة وصف عام يستغرق كل تصرفات النبي خلال سيرته العطرة، أما نبي الملحمة فهو وصف خاص تعلق بسيرة النبي الجهادية، وقد عبر عنه النبي ﷺ من خلال آثار كثيرة منها: « **لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ**»[١]، «**اعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»[٢] فهل إقدام النبي ﷺ على المواجهة العسكرية يتنافى مع حقيقة كونه رسول الرحمة العالمية ؟ فهم يرون أن مجرد اختيار النبيﷺ لنهج القتال يعتبر مطعناً في نبوته، وشرخاً في ادعاء المسلمين أنه رسول الرحمة العالمية كما يزعم البعض.

أولا: من تتبع سير الأنبياء يجد أن النبي يبعث لقومه فيدعوهم لله سبحانه وتعالى، فيؤمن البعض ويبقى الأكثرون على غيهم وكفرهم، وتختم رسالة النبي ورحلته مع قومه بنزول تأييد من السماء له فينجو من آمن معه ويهلك الباقون، فقوم نوح أهلكهم الله سبحانه وتعالى بالطوفان وقوم هود بالريح، وفرعون بالغرق، وقوم لوط بالرجم من السماء ..إلخ ويلحظ في العقوبة الربانية أنها تكون حاسمة أو ماحقة في حق العصاة ، لا تبقي منهم ولا تذر ، فهم إما خامدون أو غرقى أو صرعى كأعجاز نخل منقعر أو كهشيم محتظر، أما مع خاتم الأنبياء فقد تغير منهج العقوبة، أو شكل النصرة والتأييد الرباني للنبي، ولعل طبيعة رسالة محمد ﷺمن حيث كونها رسالة عالمية اقتضى هذا التغيير، ولو نهج التأييد الرباني مع محمد ﷺنفس نهج الأنبياء السابقين لكانت لحظة خروج النبي ﷺمن مكة بعد مؤامرة قتله أو سجنه أو إخراجه هي لحظة الحسم الرباني في حق مكة شأنها شأن الأمم السابقة المكذبة لأنبيائها [٣]، ولترتب على ذلك أمرين في غاية الخطورة وهما:

١- هلاك كل أهل مكة وبالتالي تفويت أي فرصة هداية مستقبلية لأفرادها.

٢- تحول مكة إلى بؤرة لعنة ربانية كما حصل لديار ثمود وغيرهم، وقد ورد عن النبي ﷺأنه عندما مر بثمود أمر الصحابة بعدم استخدام مياههم، والخروج منها بسرعة باكين.

وكلا الأمرين يعتبر من أشكال النقمة على أهل مكة جزاءً وفاقاً لمخالفتهم وتكذيبهم لنبيهم، فكان في تغيير نظام العقوبة الشاملة إلى الجهاد والقتال كعقوبة جزئية تستهدف أئمة الكفر فقط بمثابة نهج يحمل أسمى معاني الرحمة من الله ورسوله.

---

(١) -أخرجه البخاري برقم ٣٦ (٢٢/١)

(٢) -أخرجه البخاري برقم ٢٦٦٣ (١٠٧٣/٣)

(٣) -نطقت بعض الآيات أن لحظة الحسم تكون مع إخراج النبي من مكة: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}

ومن تتبع هدي النبي يجد أنه كان يحاول دائماً تجنيب قومه وغيرهم العقوبة الشاملة، وهذا واضح من حواره مع جبريل في الطائف، وقوله له: «**بلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» [١]، وفي لحظة الإيذاء الشديد له كان يقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّ قَوْمِي لا يَعْلَمُونَ**» [٢] بل كان النبيﷺ في أكثر المواقف حساسية وإيذاء يتجنب الدعاء بالنقمة على قومه أو الأقوام التي يحاربها. نخلص مما سبق أن فرضية الجهاد كانت من أعظم أشكال الرحمة التي تميز بها النبي محمدﷺ، لأنها كانت عقوبة جزئية مقابل عقوبات شاملة مقارنة مع الأنبياء السابقين، وبدلاً من أن يكون الهلاك شاملاً، أضحى انتقائياً بما يهيئ الفرصة للأكثرين لكي ينعموا بنعمة الهداية، لذا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن وصف محمدﷺ بأنه نبي الملحمة هو عين الرحمة بالبشرية، لأن مقتضى هذا الوصف أن العقوبة الربانية لمعاندي الأنبياء قد تحولت من عقوبة ماحقة من السماء إلى عقوبة انتقائية محدودة على يد النبي نفسه، وإذا نظرنا إلى أن مجمل من قتل في غزوات النبي لا يزيد عن الألف إلا بقليل يتضح لنا مدى الرحمة الربانية للبشرية ببعثة محمدﷺ.

ثانيا: جهاد النبي محمدﷺ مقارنة مع الأنبياء السابقين:

فقد عرف الجهاد والقتال في أمتين: أمة الإسلام وبني إسرائيل، ومقارنة بين الجهاد في الأمتين نجد أن هناك اختلافاً في الأهداف والنتائج بين كلٍ منهما، ويبرز لنا واضحاً جلياً أن الجهاد في أمة الإسلام كان عنوان رحمة لكل الأمم، بخلاف الأمم السابقة، وطبعاً نعول هنا على النصوص الواردة في التوراة مع علمنا بتحريف التوراة على وجه الإجمال [٣]، ذلك لأن أهل الكتابين في عصرنا الحاضر هم أكثر أهل الأرض هجوماً وتشويهاً واتهاماً لنظام الجهاد والقتال في الإسلام، فلنقارن بين هدي النبيﷺ في الجهاد والقتال وبين ما يعتقدون صحته في كتبهم المقدسة لنرى هل لهذه الهجمة أي وجه من الصواب، وإذا كنا في نظرهم موطن تهمة فإن النصوص تثبت من يستحق الاتهام.

ورد في سفر التثنية: «**حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ، وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ، وَإِنْ لمْ تُسَالِمْكَ بَل عَمِلتْ مَعَكَ حَرْباً فَحَاصِرْهَا وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ، وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ، وَكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ التِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدّاً، التِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلاءِ الأُمَمِ هُنَا، وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلاءِ الشُّعُوبِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيباً فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا**» [٤]

وفي سفر العدد نقل سخط موسى عليه السلام على الجيش لأنه استبقى النساء والأطفال دون قتل: «**فَسَخِطَ مُوسَى عَلَى وُكَلاَءِ الجَيْشِ رُؤَسَاءِ وَرُؤَسَاءِ المئات القَادِمِين مِنْ جُنْدِ الحَرْبِ، وَقَالَ لهم مُوسَى هَلْ أَبْقَيتُم كُلّ أُنْثَى حَيّة .. فَالآنَ اقْتُلُوا كُلّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ وَكُلّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بمَضَاجِعِ فاقْتُلوها**» [٥]، وأما سفر صموئيل الأول فيحكي عن داود أنه في حروبه لم يستبق على طفل ولا امرأة [٦] وفي موطن آخر من نفس السفر: «**فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ، وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ، بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَة، طِفْلاً وَرَضِيعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جَمَلاً**

(١) –أخرجه البخاري برقم ٣٢٣١ (١١٥/٤)

(٢) –أخرجه مسلم برقم ١٧٩٢ (١٤١٧/٣)

(٣) –ثبت عندنا أن التوراة والإنجيل دخلها تحريف واسع على وجه العموم، وكل نص خالف معاني التوحيد والعقيدة فهو لا محالة محرف، لكن النصوص التشريعية لا يمكن بسهولة الحكم بتحريفها مع بقاء الاحتمال قوياً خاصة إذا كانت في تعاليمها تمس عصمة أنبيائهم، ومن هذه النصوص ما ذكرت هنا، ولعل السبب في عدم قدرتنا على الجزم بتحريف النصوص التشريعية بالرغم من صعوبة أحكامها أن شريعة بني إسرائيل شريعة خاصة فقد تتميز ببعض الأحكام الشديدة.

(٤) –سفر التثنية، الإصحاح ٢٠، النص ١١–١٧

(٥) –سفر العدد، الإصحاح ٣١، النص ١٤–١٩

(٦) –سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢٧، النص ٥–١٢.

وَحِمَاراً»[١]، تصرح بعض النصوص بمشروعية التمثيل والتعذيب والحرق لبعض الشعوب المغلوبة كما في سفر الأخبار الأول: «**وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِينَ بِهَا ، وَنَشَرَهُمْ بِمَنَاشِيرَ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسٍ، وَهَكَذَا صَنَعَ دَاوُدُ لِكُلِّ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ**»[٢] ، هذه بعض النصوص التوراتية [٣]، ويتضح من خلالها عدة أمور منها:

٤- القتال هو بغرض السيطرة والاستعباد، إذا كان المستهدف من القرى القريبة يتم إهلاك جميع أهلها سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً صغاراً أم كباراً، أما إذا كانت القرى بعيدة فإن فتحت القرية صلحاً فيكون كل من فيها عبيد، وإن فتحت من خلال الحرب فيقتل كل من فيها من الذكور، والنساء والأطفال يستعبدون.

٥- شريعة بني إسرائيل لا تجرم قتل الأطفال والنساء، والنصوص تشير إلى أن موسى وداود عليهما السلام قاما بقتل الأطفال والنساء.

٦- تجيز شريعة بني إسرائيل القتل بأبشع الصور كالحرق والنشر والصلب والتمثيل بالجثث حتى الموت كما أشارت النصوص في حق النبي داود عليه السلام.

٧- مبدأ العفو غير وارد في ثقافة بني إسرائيل، والقتل أحياناً يشمل البقر والغنم والخيل وغيرها من الحيوانات مما يشير إلى حالة عدائية مع كل موجودات العدو.

لكن من تتبع هدي النبي في الجهاد والقتال يخلص إلى النقاط التالية: أكثر غزوات النبي كانت دفاعية كما سيتضح لنا، مبدأ الدعوة وهداية الناس كان يغلب على الأهداف الأخرى، بل هو الهدف الأسمى في كل غزوات النبي، والنبي محمدﷺ قد تميز بهذا الجانب عن أنبياء بني إسرائيل التي كانت رسالتهم خاصة بهم من دون الناس، لذا لم تتسع حروبهم لهذا الهدف، بينما رسالة محمدﷺ فهي رسالة عامة هيمن عليها فكر الرحمة، وهيمنة هذا الفكر كان له الأثر في تمثل أخلاقيات بلغت درجة المثالية في الإحسان في حروبه كلها. الغرض الأساسي من الجهاد والقتال هو حسر الصد عن سبيل الله وتأمين تحرك الدعوة بنهجها السلمي بدون عوائق. القتال عند المسلمين مضبوط بأخلاقيات كثيرة جعلت منه صورة مثالية لم تعهد من بشر، وهذه الأخلاقيات تكفل بقاء الحرب النبوية في دائرة الحروب الرحيمة التي لا تتجاوز حدود المعتدين فقط، وتتميز بالتسامح والإحسان للأمم المهزومة، وتتضمن رعاية لحقوق المدنيين بأرقى صورة عملية عرفتها البشرية كما سيتضح لنا خلال العرض التفصيلي لأخلاقيات الحرب ووصايا النبي لجيوشه

بالنظر لغزوات النبي وحروبه مقارنة بنظام عقوبة مخالفي الأنبياء نجد أنها انتقال رحيم من العقوبة الشاملة إلى العقوبة الانتقائية، وبالنظر إلى جهاد النبي وما ثبت في شرائع الأمم السابقة نجد مدى الرحمة التي تميزت بها غزوات النبي وحروبه، وادعاء بعض الأعداء أن النبي محمدﷺ كان دموياً أو يدعو للدموية هو ادعاء فارغ من الصحة، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك، بل نظرة واحدة موضوعية للتاريخ تكفي للخروج بمسلمة وهي أن البشرية لم تعهد بشراً أرحم بالبشرية من محمد ﷺ حتى في حروبه وغزواته التي كان التسامح عنواناً لها ، وهذا ما سنلاحظه جلياً خلال العرض التفصيلي لأخلاقيات الحرب في سيرة النبي.

ثالثا: جهاد النبي ﷺومبدأ الرحمة:

(١) -صموئيل الأول: الإصحاح ١٥، النص ٣

(٢) -الأخبار الأول: الإصحاح العشرون، النص ٣

(٣) -يتضح من النصوص السابقة أن رائحة الوضع تفوح منها، فالمعلوم أن الأنبياء هم أرحم البشر بالبشر، وهذه الأعمال غير متصورة منهم حتى مع قولنا بخصوصية شريعة بني إسرائيل؛ إذ كيف يتصور من الأنبياء مثل هذه التصرفات التي لا تحمل أي مسحة أخلاق أو رحمة بالبشر والحيوان، وكيف يتصور منهم هذه العدائية للغنم والبقر فضلاً عن المدنيين من البشر، لكن سبب طرح هذه النصوص هنا هو أن أهل الكتابين قد شنوا حملة شعواء على نبي الرحمة، ويهولون من كل حدث صدر منه في غزواته وحروبه، إضافة إلى طعنهم بالقرآن على اعتبار أنه معزز للفكر الدموي في شرائع المجتمع الإسلامي، ولو نظرنا إلى مجموع حروب النبي ﷺ والنصوص القرآنية الدالة عليه وحدث واحد مما ذُكر في كتبهم التي يعتقدون بها ويرون صحتها لوجدنا البون شاسعاً بينهما.

يرى البعض أن المعارك والغزوات التي خاضها النبيﷺ تتنافى وكونه نبي رحمة، ولا وجه التقاء بين الدماء والرحمة، وهذا فهم خاطئ يتنافى وطبيعة البشرية، بل هذه الغزوات كانت شكلاً من أشكال الرحمة النبوية بالبشرية، ومن فهم ظروف غزواته ودواعيها وضروراتها بالوجه الصحيح، يخلص إلى نتيجة هامة هي أن عدم وجود هذه الغزوات يعتبر خللاً في مظهر من مظاهر الرحمة لا العكس، ولكي يتضح الأمر لا بد من بيان الموازنة الفكرية التي تبرز منهج النبي ﷺ في تعاطيه مع المواجهة العسكرية وضروراتها، وذلك في النقاط التالية:

١. التدخل الجراحي عند الضرورة هو مظهر من مظاهر الرحمة: لا يختلف عاقل في أن التدخل الجراحي بالرغم من آلامه وآثاره والدماء التي تسيل عند إجرائه يعتبر مظهراً من مظاهر الرحمة عندما لا توجد وسيلة غيره لإنهاء الألم وملاحقة الورم، ولو امتنع الطبيب من استخدامه رعاية للآلام التي يمكن أن يعانيها المريض عند إجراء العملية، وترك المريض يستفحل فيه الورم أو يستشري فيه المرض، عندها لا يستحق الطبيب وصف الرحمة، بالرغم من أنه لم يؤلم المريض بالتدخل الجراحي.

هذه الموازنة العامة التي تبرز ضرورات التدخل الجراحي، وتتفق البشرية كاملة على أن عدم اعتبارها منافي للرحمة، بل تلك الممرضات اللواتي يستخدمن المباضع والمشارط ويجرحن المرضى لاستئصال ورم ونحوه استحققن وصف ملائكة الرحمة في نظر البشرية بالرغم من تلك الدماء التي تسيل تحت مشارطهن، وبالرغم من صرخات المرضى بين أيديهن، بل لا ينظر لتلك الصرخات والدماء مقابل حسن العاقبة وحصول العافية، وكل عاقل ينظر للطبيب أو الممرضة بعين الامتنان على الواجب الذي يقومان به. هذا بخصوص علاج الأبدان، وما ذكرت مسلمة تتفق على صحتها البشرية بعمومها، إضافة إلى اتفاقها على أن التدخل الجراحي يتعين عندما لا توجد أي وسيلة أخرى للشفاء، وتركه يعتبر منافياً للرحمة.

أما بخصوص أمراض البشر الروحية (العناد والكفر والكبر ومراغمة الحق والصد عن سبيل الله وما يترتب على ذلك من مظالم وفوضى ..إلخ) فيتصور الإشكالية نفسها بل أشد منها، ويتعين التدخل الجراحي إذا استنفدت كل الوسائل الأخرى، والأصل أن ينظر للتدخل الجراحي أو المواجهة العسكرية حال استفحال أمراض الأمم وتعذر الوسائل الأخرى على أنه مظهر من مظاهر الرحمة لا منافياً لها، والأصل أن ينظر للطبيب بعين الامتنان لذلك التدخل الجراحي خاصة بعد حسن العاقبة وحصول العافية في الأمم، ولولا الجهاد والمواجهة العسكرية التي قام بها النبيﷺ لما نعم خالد بن الوليد وأبو سفيان وعكرمة بن جهل بنعمة الإسلام، بل لما خرج الإسلام من المدينة المنورة إلى ربوع العالم أجمع، ولما استنارت البشرية بنور الهداية ولبقيت بعللها وأمراضها التي كان سينتج عنها أضرار على مستوى الدنيا أعظم بكثير مما نتج حصيلة حروب المسلمين مع غيرهم. وبالمقابل لو لم تكن تلك الغزوات لانحسر الإسلام في المدينة وبقيت الجزيرة على غيها وكفرها وحرمت البشرية نور الرسالة ومظاهر رحمتها، ولأفضت عوامل الكيد الداخلي والخارجي بنواة الدولة الإسلامية على حسمها وإنهائها في سنواتها الأولى، ويبقى التساؤل الهام هنا وهو أي رحمة عالمية في ترك وسيلة ساعدت في حرية نشر رسالة الإسلام عند تعذر الوسائل الأخرى؟

٢. آخر العلاج الكي :ذكرت سابقاً أن التدخل الجراحي يعتبر مظهراً من مظاهر الرحمة عند تعذر أي وسيلة للعلاج، ولا يلجأ إليه إلا عند الضرورة، فهو علاج بغيض إلا أن الضرورة تقتضيه رحمة بالمريض وخوفاً من عواقب المرض المتضاعفة، وقد أشار النبيﷺ إلى أن أحد أسباب الشفاء الثلاثة الكي، وبالرغم من ذلك كره النبي استخدامه لما يترتب عليه من آلام وتشوهات لكن الضرورة تلجئ إلى استخدام هذا العلاج البغيض النافع، وذلك لحسم مرض عجزت أمامه الوسائل الأخرى، فأصبحت ضرورة حسم المرض أعظم من مفسدة استخدام الكي ، لكنه آخر وسيلة يلجأ إليها ، وذلك عند استنفاد كل الوسائل الأخرى

والملاحظ من منهج نبي الرحمة أنه كان يستخدم الدعوة السلمية ويحض عليها ويمنع غيرها، لكن عندما ضُيق عليه وأصحابه ، ولوحقوا في كل مكان حتى أنهم عندما فروا للحبشة بدينهم لاحقتهم قريش عبر البحار، وعندما هاجروا للمدينة لا حقتهم وقامت بمحاولات اختطاف من قلب المدينة لبعض المهاجرين كما حصل من أبي جهل والحارث بن هشام مع عياش بن ربيعة، فهذه الملاحقة والصد عن الرسالة اقتضى التدخل العسكري من باب الدفاع، لذا جاء الإذن باستخدام العلاج الأخير بعد تعذر كل وسائل العلاج الأخرى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ [الحج:٣٩] فالآية فيها إشارة إلى أن القتال كان محظوراً لكن استفحال الظلم في الجزيرة العربية وشدة الملاحقة لأهل الرسالة بحيث لم تبق لهم وسيلة سوى الدفاع عن رسالتهم ودفع الظلم عنهم، فتعين استخدام القتال كوسيلة من وسائل الدعوة التي تؤمن حرية انتشارها، وأصبح استخدام القتال من باب البغيض النافع ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة:٢١٦] بل كانت أشعار الصحابة ورجزهم في المدينة تشير صراحة إلى أن المسلمين قد دخلوا الحرب كرهاً بعدما بغى عليهم أهل الشرك [(١)]، عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:« **رَأَيْتُ النَّبِيَّﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَعَرَ صَدْرِهِ وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ الشَّعَرِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِ اللَّهِ :**

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا [(٢)]

٣. استخدام القتال لا يعني الإكراه على تعاليم الإسلام: كون القتال وسيلة من وسائل الدعوة لا يعني فرض التعاليم على الأمم المهزومة، فهذا أمر مرفوض كلياً ويتنافى مع منهج الرحمة، وقد أكد القرآن المكي والمدني على رفض هذا المبدأ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:٩٩] ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة:٢٥٦] وإنما يقصد بكونه وسيلة من وسائل الدعوة من ناحية تأمينه لانتشار الرسالة بالطرق السلمية والدعوية، بحيث يواجه أئمة الكفر الذين يصدون الناس عن الإيمان بالرسالة، أو يمنعون وصولها إليهم، و في أي مرحلة يمكن من خلالها تبليغ الرسالة دون صد ففي هذه الحالة لا يجوز استخدام القتال بأي حال من الأحوال، ومن تتبع غزوات النبيﷺ وجهاد الخلفاء بعده يجد هذا المبدأ بقيوده واضحاً، والمعلوم أن قتال المسلمين للفرس والروم وغيرهم من الأمم كان باعثه هو تأمين نشر دعوة تحاول هذه الأمم وأدها والكيد لها ، وبالمقابل نجد الصحابة وصلوا في قتالهم إلى خراسان وإلى أرمينية ، ولم يفكروا قط بغزو الحبشة التي كانت قريبة جداً منهم ، والسبب في ذلك أن الأمم الأخرى فرضت القتال على المسلمين بينما الحبشة لم يكن منها صد وكيد للدعوة الإسلامية ؛ لذا تركت وشأنها ، وهناك إشارة لطيفة ذكرها المستشرق جوستاف لوبون (طبيب ومؤرخ فرنسي) مدللاً على أن الإسلام انتشر بالدعوة وليس بالسيف فيقول: «**لم ينتشر القرآن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل**» [(٣)]

---

(١) –راجع: العتيبي: الحرب والسلام في الشعر العربي من صدر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي (١٨٠ومابعدها) وفيه أمثلة من الشعر أخرى تدل على أن المسلمين دخلوا الحرب كرهاً بعدما فرضت عليهم.

(٢) –أخرجه البخاري برقم ٦٨٠٩ (٦/٢٦٤٤)

(٣) –لوبون: حضارة العرب (١٢٨)

وهذه لفتة عجيبة تستحق التأمل فالمغول هم الذين قهروا العرب، ولكن لم يمنع ذلك من اعتناقهم الإسلام، فالإسلام انتشر وأصحابه مهزومون عسكرياً، فهل كان السيف وراء إسلام المغول أم هناك قوة أخرى؟ الإجابة التي لا تحتمل غيرها هي أن هناك قوة أعظم من السيف تغلغلت في قلوب المغول المنتصرين، وهي قوة الحق الذي جاء به محمدﷺ، وهي نفس القوة التي تغلغلت في ربوع الهند وأطراف العالم الشرقي كإندونيسيا وماليزيا، فتلك البلاد لم يفتحها المسلمون بسيوفهم، وإنما فتحوها بأخلاقهم التي استمدوها من رسالة محمدﷺ.

٤. الهدف الأوحد من غزوات النبي هو هداية البشرية لا استغلالها: من تتبع غزوات النبيﷺ يجد أن الهدف الأساس التي كانت تخضع له هو هداية الناس ، ولم تكن السيطرة وتوسيع الملك والاستيلاء على خيرات الأمم أحد أهدافه في أي غزوة من غزواته ، وهذا مبدأ واضح كان يؤكد عليه النبي دائماً منه قوله لعلي عندما أعطاه الراية لفتح خيبر:" **عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** " [١] فهذا الأثر واضح الدلالة في تربية النبي لأصحابه على تقديم الهداية على غيرها من مغانم الدنيا ومكاسبها، بحيث يرى المسلم أن حصولها هو الهدف الأسمى لتضحياته وقتاله، بل من نظر إلى غزوة حنين يجد تطبيقاً عملياً نموذجياً لم تعهد مثله البشرية جميعاً، حيث وزع النبي أكثر الغنائم تأليفاً للقلوب، ونالت قريش وكبارها كصفوان بن أمية ممن كانوا أشد الناس عداوة للنبي الحظ الأوفى منها، ورجع هو وأكثر الناس تضحية وعطاء للدين (الأنصار) ولم يحملوا معهم من حطام الدنيا شيئاً، مما يشير صراحة إلى أن هذه الغزوات كانت باباً من أبواب الرحمة بالبشرية.

الخلاصة: المواجهة العسكرية كانت إجراءً ألجأت له الضرورة ومقتضيات الرحمة بالبشرية؛ لذا هو شكل من أشكال الرحمة النبوية بالبشرية. والدعوة السلمية أصل في رسالة محمدﷺ، والمواجهة العسكرية استثناء يكفل حرية نشر الدعوة الإسلامية بعيداً عن الصد والقهر والاضطهاد، وذلك عند تعرض الدعوة السلمية لمثل تلك التصرفات القسرية المانعة للناس اختيار طريقهم نحو الهداية. ولا تعني المواجهة العسكرية استخدامها وسيلة لإلجاء الناس لاعتناق رسالة الإسلام، وهذا وجه من أوجه الرحمة فيها، لقد خضعت المواجهة العسكرية في السيرة النبوية لأخلاق مثالية وأهداف سامية تكفل استقطاب الناس وإعجابهم برسالة الإسلام، وهذا ما ميزها عن القتال عند الملل الأخرى

من خلال السرد الإجمالي السابق لظروف حروب النبيﷺ مع المشركين يمكن استنتاج التالي: **إنها حروب ألجأت لها الضرورة حيث لم يبق وسيلة غيرها. إنها حروب من أجل السلام. إنها حروب تهدف من الدرجة الأولى حماية المسلمين من سطوة الظالمين الذين حاولوا بأي وسيلة سلب حريتهم الدينية ومصادرة أموالهم وبيوتهم بل مصادرة أرواحهم. لم يكن الجهاد أو حروب النبي خاضعة للمصالح والمآرب الدنيوية، بل كانت تحكمها أهدافاً سامية وغايات نبيلة تهيمن على كل سلوك حربي في سيرة النبيﷺ؛ لذا نجد الإسلام قد عدل عن لفظة الحرب واستخدم مصطلحاً جديداً وهو الجهاد ليؤكد على أن هذه الحروب هي مغايرة لكل حروب البشر التي تحكمها المصالح والأغراض الدنيوية.**

رابعا: أهداف الحرب غاياتها في سيرة النبي وحياته.

١. دفع العدوان وحسر الظلم وإنقاذ المستضعفين: وهذا الهدف واضح من خلال الغطرسة والطغيان الذي مارسته قريش على المسلمين، وملاحقتها لهم في كل مكان حتى لم تبق مجالاً أمام المسلمين بعد استنفاذ كل الوسائل إلا

(١) -أخرجه البخاري برقم ٢٩٤٢ [البخاري مع الفتح (١٣٠/٦)]

بالحسم العسكري معها ومن يناصرها أو سلك مسلكها، وقد صرحت كثير من الآيات في الدلالة على هذه الغاية منها: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً**﴾ [النساء:٧٥] فالآية صريحة بأن القتال سببه هو الدفع عن المستضعفين الذين كانوا يسامون سوء العذاب من مكة، وغايته هو إنقاذ المستضعفين من سطوتها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج:٣٩] والآية صريحة في أن الإذن بالقتال إنما هو لدفع حالة الظلم التي مورست على المسلمين من خلال اضطهادهم وإخراجهم من أرضهم وملاحقتهم في كل مكان، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [التوبة: ٣٦] ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة:١٩٠] هذه الآيات صريحة في أن القتال يدخل ضمن سنة المدافعة ورد اعتداء المعتدين، وفيها إشارة إلى حصر القتال مع الفئة المعتدية يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة:١٩٤] الآية صريحة في أن القتال يراد به عقاب المعتدي وكف عدوانه بمثله دون تجاوز [(١)]

٢- حماية وتأمين الدولة الناشئة: كان قيام نواة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة مصدر استهجان من كل المجتمع القبلي الذي يحيط بها، وهي من وجه آخر لقمة سائغة لذلك المجتمع الذي تمرس القتال والسلب والنهب، والاستقواء على الضعيف، خاصة أن غرابة هذا الكيان الناشئ في معتقداته وقيمه وتحريض سيدة العرب (مكة) عليه قد فتح شهية كل هذه القبائل للانقضاض على ذلك الكيان ووأده في مهده، وهذا اقتضى خطوة سريعة عاجلة من النبيﷺ من خلال إعداد جيش وبث سرايا لفرض هيبة المسلمين وحماية بيضتهم، بل جاءت الآيات الدالة على أن إعداد جيش قوي ليس هدفه الاعتداء بقدر ما هو فرض هيبة وبث الرهبة التي تحول دون الاعتداء على المسلمين [(٢)] يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ [الانفال:٦٠]

٣- حماية حرية نشر الدعوة: وهذا هدف فرضه طبيعة المجتمع الذي رفض هذا الدين الجديد وحارب أهله وصادر حرياتهم، بل سلبهم حرية الاعتقاد نفسه واقتضى الأمر حماية الرسالة وأهلها، وحماية حرية نشرها، وينبغي هنا أن نفرق بين أمرين وهما: حماية نشر الدعوة، وحماية حرية نشر الدعوة، فليس من أهداف الحرب في الإسلام حماية نشر الدعوة، لأن حماية نشر الدعوة بالحروب معناه الإكراه على اعتناق الإسلام، وهذا مبدأ يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً، ولو كان الفضل في انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان أهله

لكن هدف المسلمين هو حماية حرية الدعوة، أي الباعث على الحرب هو حسر جهود المشركين في الصد عن سبيل الله ومنع الناس من بلوغ الدعوة إليهم، وإذا لم يوجد صد للرسالة، فلا تحل الحرب بأي وجه، وتنطلق الدعوة في بيئتها الطبيعية. [(٣)] ،وقد جاءت كثير من الآيات الدالة على الفئة المستهدفة في القتال ، منها الآية الأولى في سورة القتال

---

(١) -ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢١٧/١)؛ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٣٦٠/٢)

(٢) -انظر تفصيل نظرية الردع في الإسلام وأهدافها عند / أبو الوفا: الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام (٢٩٩/١٠ وما بعدها)

(٣) -انظر خطاب: الرسول القائد (٤٠وما بعدها)؛ الديك: المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٢٠-٢١)

(محمد) يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [محمد:١] فالآية السابقة التي تصدرت سورة القتال قد بينت أن الفئة المستهدفة في القتال هي التي جمعت وصفين معاً وهما : الكفر والصد عن سبيل الله ، ثم شرعت الآيات التي بعدها ببيان بعض أحكام القتال مع هذه الفئة ، وقد صرحت سورة الأنفال أن هذه الفئة هي التي تقوم بالإنفاق السخي بغرض الصد عن دين الله ومنع انتشار رسالة الإسلام وملاحقة أهله ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً** ﴾ [الانفال:٣٦] وهؤلاء هم كبراء القوم وطواغيتهم من سادة الجاهلية وسدنتها ممن يحشدون الحشود ويجيشون الجيوش للكيد بالمسلمين وقهر دعوتهم وحسرها ومنع الناس أن يتواصلوا معها بالوسائل السلمية ، وقد بينت بعض الآيات بأن هؤلاء لأفعالهم الشنيعة هم المستهدفون في القتال يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ﴾ [التوبة :١٢].

هذه أبرز غايات القتال في رسالة الإسلام، وكل منصف ينظر بعين الموضوعية يرى وضوح هذه الأهداف في السيرة العملية للنبيﷺ يشير بيجي رودريك [١] إلى تلك الأهداف بقوله: «**الإسلام إذن لرسوله بالجهاد لرفع الظلم والاضطهاد، ولإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة للإسلام، تلك الدعوة التي لا تكره أحداً على الدخول في هذا الدين، وإنما تترك لهم الحرية الكاملة للاختيار لذلك، وما إن يدخل الناس في الإسلام حتى يتمسكوا فيه ويستميتوا في الدفع عنه، إن الإسلام هو دين السلام: السلام مع الله ومن الناس جميعاً**» [٢]

البحث الثالث: الوصايا النبوية المتعلقة بأخلاقيات الشروع في الحرب.

خلال تعاطينا مع حروب النبي لابد أن نعلم أننا لسنا أمام قائد كان وليد بيئته، بل أمام رسول يوحى له من السماء، رسول كان في قدر الله سبحانه وتعالى مجمعاً لجهد النبوة على مدار التاريخ، وخلاصة الفكر الرحيم عبر تقلبات الزمان، رسول تحكمه تعاليم السماء وأخلاقيات الرسالة ليكون أسمى مظهر من مظاهر الرحمة بالبشرية حتى في حروبه، وهذه حقيقية نعاينها في كل لحظة من لحظات النبي الخاتم، وهذا يقتضي منا بيان الأرضية الفكرية و الأصول العامة التي تحكم أخلاقيات الحرب عند رسول الله، ولا ننسى دور الروافد الأربعة المؤكّدة على أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية:

١. **هيمنة فكر الرحمة وأثرها على أخلاقيات الحرب.**
٢. **تعزيز دور الأخلاق وأثرها على أخلاقيات الحرب.**
٣. **التأكيد على تغليب فكر هداية البشر على المصالح الأخرى وأثرها على أخلاقيات الحرب.**
٤. **تعزيز مبدأي العدل والإحسان.**

وهذه المبادئ درسها د. محمد أحمد المبيض في كتابه: "أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية" فلتراجع فيه.

وصايا النبي ﷺللجيوش المقاتلة خلال الحرب

١. **حماية حقوق المدنيين.**
٢. **تجنيب النساء والأطفال والشيوخ والعمال ويلات الحرب.**
٣. **حماية رجال الدين من أصحاب الملل الأخرى.**

---

(١) –بيجي: شاب هندي، نشأ في ظل الاستعمار البريطاني للهند، وكان نصرانيًا فأسلم في منتصف الأربعينات رغم التربية التبشيرية التي تلقاها على يد النصارى الذين كانوا منتشرين في شبه القارة الهندية.

(٢) –انظر خليل: قالوا عن الإسلام (٢٨٨)

٤. **حماية الممتلكات العامة والخاصة.**

٥. **حماية الأبنية وأماكن عبادة الملل الأخرى.**

٦. **تحريم التمثيل بالإعداء أحياء وأمواتا.**

٧. **تحريم الخيانة والغدر في المعارك والوفاء واحترام العهود.**

٨. **حظر العقوبات الجماعية.**

٩. **تغليب حالة السلم على حالة الحرب. أمثلة تطبيقية! .**

مقدمة عامة: رسالة الإسلام هي رسالة هداية للبشرية ومن هذا الوجه كان الهدف الدعوي هو الغالب على كل تعاليم الرسالة وسلوكيات النبيﷺ وصحابته الكرام، ولم تكن الحروب بمنأى عن هذا الفكر، بل كان هذا الفكر هو المهيمن على كل نازلة أو مواجهة عسكرية بين النبي وبين الأقوام الأخرى، سواء في المعارك التي كان يشارك بها مباشرة، أو في السرايا التي كان يبعثها، لذا لم يخل بعث للنبي من وصية جامعة تؤكد على هذا المبدأ، ومن الوصايا الجامعة للبعوث عن بُرَيْدَةَ قال كان النبي إذا بعث جيشا قال:« **انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ ،وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ،وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .** »[(١)]

وفي وصيته لجيش مؤتة : « **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللّهِ وَبِمَنْ مَعَكُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا**" وقَالَ: "**اُغْزُوا بِسْمِ اللّهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاَللّهِ لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلَيَدًا ولا امْرَأَةٍ، ولا كَبِيرَاً فَانِيَاً، ولا مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَةٍ، ولا تَقْرَبُوا نَخْلاً ولَا تَقْطَعُوا شَجَراً، ولا تهدموا بناءً، وَإِذَا لَقِيتُم عَدُوّكم مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُوهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثٍ: فإمّا الإسْلَام، وإمّا الجِزْيَة، وإمّا الحَرْب.** [(٢)]

هذه الوصايا الجامعة للنبي جاء التأكيد على عناصرها من خليفته الصديق بقوله لجيش أسامة بن زيد الذي أرسله نحو: «**يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله، أقناكم الله بالطعن والطاعون**» [(٣)]، وأكد الصديق على هذه التعاليم لأمراء جيشه نحو الشام بقوله: «**أوصيكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصر دينه ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تجبنوا، ولا تفسدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون ..ولا تغرقن نخلا، ولا تحرقنها ولا تعقروا بهيمة، ولا شجرة تثمر، ولا تهدموا بيعة، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، وستجدون آخرين اتخذ الشيطان في رؤوسهم أفحاصا فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم إن شاء الله** » [(٤)]

ملاحظات عامة على الوصايا المذكورة، يليها الملاحظات تفصيلية:

---

(١) –أخرجه أبو داود برقم ٢٦١٤ (٣/٣٧)؛ والبيهقي [السنن الكبرى (٩/٩٠)]

(٢) –انظر البيهقي: السنن الكبرى (٩/٩١)

(٣) –الطبري: تاريخ الطبري (٢/٢٤٦)

(٤) –البيهقي: السنن الكبرى (٩/٨٥)؛ وابن أبي شيبة برقم ٣٣١٢١ [المصنف (٦/٤٨٣)]

استهلت أكثر الوصايا السابقة بمطالبة الجيش قادة وجنوداً بتقوى الله أي الخوف منه وخشيته عند كل تصرف يقومون به خلال حربهم، هذه الخشية التي تردعهم عن التجاوز أو الاعتداء أو الإيغال في القتل، أو عدم احترام التعاليم التفصيلية المتعلقة بإعلان الحرب وفق الشروط الدعوية أو المتعلقة باحترام حقوق المدنيين على وجه الخصوص، أو احترام الممتلكات العامة والخاصة من خلال عدم إتلافها إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك والحارس على كل هذه التعاليم التفصيلية هو تلك التقوى التي حرص النبي ﷺ على تعزيزها في قلب كل جندي في الجيش الإسلامي.

يلحظ من الوصايا السابقة أنها تضمنت كل أخلاقيات الحرب من المنظور الإسلامي، واشتملت على الأمور التالية:

ضرورة إعلان الحرب قبل البدء بها، وهذا أصل عام يحكم كل غزوات النبي ﷺ وسراياه، ضرورة عدم التعرض للمدنيين وعدم مقاتلة إلا الحربيين المقاتلين من الأعداء، أما النساء والأطفال والشيوخ والفلاحون والعبّاد والرهبان من أهل الملل الأخرى وغيرهم من المدنيين فلا يجوز بحال التعرض لهم أو قصدهم بقتل أو إيذاء ونحوه، وتقتصر الأعمال الحربية على المقاتلين من الأعداء فقط، ضرورة عدم التعرض للممتلكات الخاصة أو العامة بإتلاف أو تدمير ويشمل الحكم الشجر والدواب وكذلك غيرها من الممتلكات كالأبنية والكنس، ولا يستثنى من ذلك إلا الممتلكات التي يتحصن فيها الأعداء أو الممتلكات التي يؤثر إتلافها على استسلام الأعداء ، وهذا استثناء من الأصل العام لا يُلجأ إليه إلا للضرورة الداعية له .

بينت النصوص حرمة الاعتداء على أماكن العبادة للملل الأخرى بأي حال ، وذكرت النصوص أيضاً حرمة التعرض لأهلها بأي شكل، بل صرحت النصوص السابقة بضرورة تركهم وما يتعبدون به، حذرت النصوص السابقة الجيش الإسلامي من عدة أمور منها عدم الخيانة أو الغدر، وعدم التمثيل بجثث الأعداء، وعدم الإفساد بالأرض ، وعدم النهب من المال العام (الغلول)، وهي أخلاقيات عامة تحكم علاقة الجيش الإسلامي مع أعدائه المقاتلين، يلحظ من وصايا النبي ﷺ لجيوشه أنها تضمنت كل حقوق المدنيين في الحروب، ولم تغفل منها شيئاً، ولعل الفارق الجوهري بين تعاليم النبي ﷺ وبين القوانين المعاصرة المتضمنة لحقوق المدنيين في الحروب أن أتباع النبي ﷺ كانوا يتعاملون مع تعاليمه ووصاياه بقدسية جعلت لها رصيداً حقيقياً في الواقع ويندر مخالفتها منهم إلا حال الخطأ، أي هي تعاليم ترجمت من الناحية التطبيقية على الواقع، بينما كثيراً من القوانين المعاصرة قد حرمت الترجمة الفعلية عند اصطدامها بالواقع ، وعصرنا شاهد على ذلك ، ومن هذا الوجه يمكن القول أن حقوق المدنيين في الحروب لم تجد لها ترجمة حقيقية في الواقع إلا في عهد المسلمين.

١ –حماية حقوق المدنيين

أشارت كثير من النصوص على ضرورة حصر المعارك في المقاتلين من الأعداء واعتبار أي تجاوز لذلك بمثابة اعتداء منهي عنه يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ﴾ [التوبة:١٢] ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة :١٩٠] فالآيتان حصرتا القتال في أضيق صوره، فهو إما رد اعتداء بمواجهة الحربي المقاتل، وإما التركيز على أئمة الكفر، أي قادة الصراع في فريق الأعداء ممن يتحملون الحظ الأكبر في مواجهة المسلمين والصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى، بل نلحظ في الهدي العملي في السيرة النبوية أن النبي في غزوة بدر قد وصى صحابته الكرام بعدم التعرض لأشخاص سماهم بأسمائهم، لأنهم خرجوا مع جيش مكة كرها دون إرادة حقيقية في المواجهة مع المسلمين. فإذا كان هدي النبيﷺ لصحابته تجنيب عدد من الرجال المقاتلين مع العدو القتل أو قصد قتلهم، فمن باب أولى تجنيب غيرهم من المدنيين خاصة أن الحرب في عرف الشريعة هي حالة استثناء وضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، والله سبحانه

وتعالى لا يحب المعتدين كما صرحت الآية الأولى، يقول ابن كثير في تفسيره للاعتداء في الآية: «**أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي كما قاله الحسن البصري من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان، والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة**» (١)

من هذا الوجه جاءت وصايا النبيﷺ بتجنيب النساء والولدان والشيوخ والفلاحين والرهبان وغيرهم من المدنيين القتل أو الإيذاء؛ حيث يعتبر ذلك اعتداءً وتجاوزاً منهياً عنه، بل جاءت بعض تعاليم النبيﷺ إلى أن تجاوز الحد والاعتداء في حق العدو يترتب عليه سخط الله الموجب لعقوبته منها وبينت الوصايا أن من الاعتداء توسيع دائرة الحرب وآثارها لتشمل المدنيين. لقد توسع الدكتور وهبة الزحيلي في بيان مفهوم المدينين الذين لا يجوز قتلهم فيقول: «المحاربون: هم كل من نصب نفسه للقتال بطريق مباشر، أو غير مباشر، وذلك كالجنود الإجباريين والمتطوعين أما المدنيون الذين ألقوا السلاح، وانصرفوا إلى أعمالهم، وكل من له صفة حيادية فعلاً عن معاونة العدو كالملحقين العسكريين الأجانب ومراسلي الصحف، ورجال الدين التابعين للقوات المسلحة، فهؤلاء لا يعتبرون محاربين يهدر دمهم» (٢).

٢-تجنيب النساء والأطفال والشيوخ والعمال ويلات الحرب

جاء التصريح من النبي وخليفته بتجنيب النساء والشيوخ والأطفال والعمال ويلات الحرب منها قولهﷺ: « **وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ولا امْرَأَةٍ ، ولا كَبِيرًا فَانِيًا** »، **ومنها قول الصديق** : «**ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة** »، « **ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء**»، نصوص صريحة سابقة، لا تحتمل التأويل بتجنيب النساء والولدان والشيوخ القتل أو الإيذاء، وهي وصايا بدأت مع بداية الجهاد في السيرة النبوية وتشربها أتباع النبي منذ اللحظة الأولى في اختيار المواجهة العسكرية، واستمرت وصايا النبي مع استمرار المعارك، ولم يقتصر جهد النبي على جانب التوصية، بل تعداها نحو مراقبة امتثال صحابته لأوامره وملاحقة أي تجاوز يحصل منهم، ورد أن النبي قد أعطى أبا دجانة سيفه في غزوة بدر واشترط عليه أن يأخذه بحقه، وبالفعل كان أبو دجانة من أكثر الفرسان شجاعة في المعركة، وكان يقول: «**رَأَيْت إنْسَانًا يَخْمُشُ النّاسَ خَمْشًا شَدِيدًا، فَصَمَدْت لَهُ فَلَمّا حَمَلْت عَلَيْهِ السّيْفَ وَلْوَلَ فَإِذَا امْرَأَةٌ فَأَكْرَمْت سَيْفَ رَسُولِ اللّهِ أَنْ أَضْرِبَ بِهِ امْرَأَةً**».(٣)

لقد نزّه أبا دجانة سيف رسول الله أن يقتل به امرأة بالرغم من أن هذه المرأة كانت في صفوف المقاتلين، ولئن امتنع من قتل امرأة مقاتلة فمن باب أولى الامتناع عن قتل امرأة غير مقاتلة وفي القصة إشارة إلى أن هناك هدياً مسبقاً في تجنيب النساء القتل، ويحتمل أن يكون أبو دجانة قد فهم ذلك من مجموعة تعاليم سابقة للمعركة ترشد إلى ذلك على اعتبار أن المعركة الأولى لم تحض بهدي مباشر ذي علاقة بتجنيب المدنيين القتال خاصة أن جو المعركة وموقعها كان عسكرياً بحتاً بعيداً عن بيوت المدنيين، لكن في هذه المعركة على وجه الخصوص نبه النبي على حصر القتال بأضيق صوره وأوصى بعدم التعرض حتى لبعض الرجال المشاركين لعدم إرادتهم القتال مع المسلمين، فمن باب أولى عدم التعرض للنساء موقف أبي دجانة إنما فعله من باب الفضيلة وليس حكماً شرعياً، والمرأة التي تقاتل يجوز قتلها.

والملاحظ مراقبة النبي وحرصه على رعاية حقوق المدنيين في الحروب: عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**وُجِدَتْ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.**» وفي رواية

---

(١) -ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢١٥/١)

(٢) -د. وهبة الزحيلي، آثار الحرب ص: (٤٨٠)

(٣) -انظر الطبري: تاريخ الطبري (٧٤/٢)؛ وذكر الحاكم نحوه برقم ٥٠١٩ وقال: صحيح الإسناد المستدرك (٢٥٦/٣)

«**فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ**» (١) وعن رباح بن ربيع رضي الله عنه قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شيء فَبَعَثَ رَجُلاً فَقَالَ: «انْظُرْ عَلاَمَ اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ» فَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ. فَقَالَﷺ: مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَبَعَثَ رَجُلاً فَقَالَ: قُلْ لِخَالِدٍ لاَ يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلاَ عَسِيفًا**» (٢) وعن عكرمة: «**أَنَّ النَّبِي صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم رَأَى امْرَأَةً مَقْتُولَةً بِالطَّائِفِ، فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ، مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا يَا رَسُولَ الله أَرْدَفْتُهَا، فَأَرَادَتْ أَنْ تَضْرِبَنِي، فَتَقْتُلَنِي فَأَمَرَهُ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم أَنْ تُوارى**» (٣) هذه مجموع روايات يحتمل أنها تشير إلى حادثة واحدة، وقد ذكرتها بمجموعها؛ لأن لكل رواية منها دلالة مغايرة لغيرها، وأمكن استنتاج التالي من مجموع الروايات السابقة:

نلحظ من الروايات السابقة أن النبي قد استوقفه وجود امرأة بين القتلى، وفي مثل هذه الحروب الطاحنة يتصور سقوط نساء فيها، خاصة في غزوة حنين بالذات التي استخدم قائد المشركين مالك بن عوف العنصر النسائي فيها، وأركبهن الإبل خلف الرجال، وبالرغم من ذلك استهجن النبيﷺ وجود امرأة قتيل بين القتلى، فسارع يؤكد على تعاليمه بقوله: ما كانت هذه لتقاتل؟ وفي الرواية الأخرى قال: ألم أنه عن قتل النساء؟ وفي الرواية الأولى والثانية أكد على نهيه عن قتل النساء والأطفال مبرزاً استنكاره لهذا الحدث، وفي الرواية الأولى والثالثة شيء لطيف وهو أن القتيل كان امرأة لكن النهي استوعب النساء والأطفال والعسفاء أي الأجراء والعمال، وذلك تأكيد على حرمة هذه الأصناف، واغتنام الفرصة للتأكيد على ذلك.

لم يكتف النبي ﷺ بالنهي عن قتل النساء والأطفال والأجراء، بل سارع بإجراء تحقيق ميداني في ملابسات قتل المرأة، فتبين له أن المرأة حاولت اغتيال أحد الجنود فسارع بقتلها؛ أي أن قتلها كان دفاعاً عن النفس ولم يكن قصداً. وللتأكيد على حساسية الأمر وخطورته سارع بإرسال تعاليمه لقائد الجيش ينهاه عن تكرار هذا الحدث من جهته، وفيه إرشاد إلى أن القائد الميداني يتحمل المسئولية الكاملة عن مثل هذه التجاوزات، وقد تضمنت التعليمات صنفين يحظر قتلهم، وهما النساء والعسفاء؛ أي العمال والأجراء، وبهذا يتضح أن الحدث أو التجاوز الواحد كان يتعاطى معه النبيﷺ بحساسية شديدة، وكان يغتنمه في تعزيز تعاليمه والتأكيد على كل الأشكال المحظورة المتصور وقوعها من الجيش.

تضمنت النصوص السابقة ثلاثة أصناف من المدنيين يحظر التعرض لهم وهم النساء والأطفال، والعمال والأجراء سواء تم استئجارهم للقيام بأعمال غير قتالية في الجيش كالخدمة والتمريض ونحو ذلك، أو يراد بهم الأجراء في أي عمل مدني آخر بعيداً عن أرض المعركة من باب أولى، وهذا يشمل كل أصحاب الوظائف المدنية بعيداً عن العمل العسكري، فكانت هذه الوصايا شاملة لكل أصناف المدنيين، وقول النبي ﷺ : « ما كانت هذه لتقاتل » فيه إشارة إلى أن حقن دماء المدنيين إنما هو لعدم مشاركتهم في القتال والمواجهة ، أما إن حصل منهم أي مشاركة في القتال ففي هذه الحالة يجوز قتلهم ، وينسحب حكمهم حينئذ على حكم المقاتل في ساحة المعركة .

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ قَالَ: «**أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ، وَغَزَوْتُ مَعَهُ فَأَصَبْتُ ظَهْرًا، فَقَتَلَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى قَتَلُوا الْوِلْدَانَ، وَقَالَ مَرَّةً الذُّرِّيَّةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمْ الْقَتْلُ الْيَوْمَ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا هُمْ أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ أَلَا إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً**» (٤)، وفي رواية أخرى عنه: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بَعَثَ سَرِيَّةً يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ،**

---

(١) –أخرجه البخاري برقم ٢٨٥١(١٠٨٩/٣)؛ ومسلم برقم ١٧٤٤ (١٣٦٤/٣)

(٢) –أخرجه أبو داود برقم ٢٦٦٩ (٥٣/٣)؛ وابن ماجة برقم ٢٨٤٢ (٩٨٤/٢)؛ قال الألباني صحيح، السلسلة الصحيحة، حديث رقم ٧٠١.

(٣) –أخرجه البيهقي: السنن الكبرى (٨٢/٩)؛ الهيثمي: موارد الظمآن (٣٩٨/١)، والحديث له شواهد في الصحيح

(٤) –أخرجه أحمد في المسند (٤٣٥/٣)؛ قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد(٣١٦/٥).

فَأَفْضَى بِهِمْ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ، فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مَا حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ الذُّرِّيَّةِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانُوا أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ! قَالَ: أَوَهَلْ خِيَارُكُمْ إِلَّا أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ نَسَمَةٍ تُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا» [(١)] وهذه الحادثة يمكن أن نستنتج منها ما يلي:

هذه الحادثة حصلت في غزوة حنين ، وهذه الغزوة بالذات لها ملابسات خاصة، فالمعلوم أن النبي قد فتح مكة بعشرة آلاف جندي، وترتب على فتحها أن جيّشت ثقيف والطائف جيشاً عرمرماً لمواجهة النبي فخرج النبي لملاقاتهم وخرج مع جيشه ألفان من المؤلفة قلوبهم أو من مسلمة الفتح، وكانت هذه المعركة مفاجئة للنبي، واختلط في جيشه من لم يتربَ على تعاليم الرسالة وهم مسلمة الفتح، وكانت الغزوة في بدايتها تحت نظر الرسول (القائد العام للجيش) وانتهت بفرار جيش الأعداء باتجاهات عديدة إلى الطائف وأوطاس وغيرها، فأرسل النبي عدة سرايا لملاحقة الفارين، ويتصور أن الحدث وقع مع أحد هذه السرايا كما تصرح الرواية الثانية ، كذلك يتصور أن الحدث وقع ممن لم يتربوا حقيقةً على التعاليم من مسلمة الفتح وغيرهم من القبائل التي شاركت مع النبي في فتح مكة ، وهذا واضح من اللبس الذي وقعوا فيه عندما سألوا النبي قائلين بعدما أنكر النبي عليهم فعلتهم : أليسوا أولاد المشركين ؟ فهذا الاستفهام من بعض أفراد السرية يشير إلى ذلك الالتباس الذي وقعوا فيه ، ويدل على أنهم ممن لم يتشربوا تعاليم الرسالة بعد، ويرشد إلى ذلك أن النبي لم يقل لهم مستنكراً أنه لم ينه عن قتل النساء والأطفال كما في حادثة المرأة، مما يشير إلى أن النبي يعلم أن أصحاب هذه السرية لم يسمعوا هذه التعاليم قبل ذلك وإلا لذكرهم بها، بل نجد النبي ﷺ يجيب على استفهامهم بتوضيح اللبس الذي وقعوا فيه مبرزاً أن خيارهم أصلاً كان من أولاد المشركين، وكونهم أولاد مشركين لا يبيح قتلهم، نلحظ أن النبي بعد هذه الحادثة قد كرر نهيه للمسلمين « **أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً**» والتكرار يؤكد على خطورة الحدث وضرورة التزام التعاليم وعدم الاستهانة بها، وهذا التكرار يوحي بالألم والإنكار الشديد من رسول الله ﷺ لهذا الحدث الذي وقع، واعتبره تجاوزاً خطيراً لا ينبغي أن يتكرر.

٣–حماية رجال الدين من أصحاب الملل الأخرى:

شرعت الحرب في رسالة الإسلام لدفع الظلم وإقرار العدل في الأرض، وحملت تعاليم الرسالة بذرة احترام الملل الأخرى واستيعابها ضمن بوتقة الرسالة بعيداً عن الفكر الإحلالي الإقصائي، ودون إكراه على تعاليم الرسالة، وهذا ما يفسر ذلك الكم الهائل من الأحكام المتعلقة بأهل الذمة وطرق التعامل معهم داخل المجتمع المسلم ، وبخصوص الحرب جاءت الوصايا صريحة بحرمة التعرض للرهبان بأي شكل من أشكال الإيذاء ، ومن وصاياه بهذا الشأن: « **ولا تَقْتُلُوا وَلِيداً ولا امْرَأَة، وَلَا كَبِيرَاً فانياً، ولا مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَة**» ومن وصايا أبي بكر: « **وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له** »، « **وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له** » [(٢)] فالنصوص السابقة صريحة بحرمة التعرض للرهبان بأي شكل من الإيذاء، بل يجب تركهم وعبادتهم، ولم يعهد في حروب النبي أنه قصد راهباً متعبداً بقتل أو نحوه في سائر حروبه، وينسحب هذا الحكم على غيره من أهل الكتاب [(٣)]، نقل المؤرخ الأوروبي لوبون عن ميشود في كتابه تاريخ الحروب الصليبية قوله: « **إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرم محمد**

---

(١) –أخرجه أحمد في المسند (٤٣٥/٣)؛ قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد (٣١٦/٥).

(٢) –سبق تخريجها

(٣) –هناك اتفاق بين الفقهاء على عدم جواز قتل الرهبان المتفرغين للعبادة في الحرب [انظر الكاساني: بدائع الصنائع (١٠١/٧)؛ عليش: منح الجليل (١٤٤/٣ وما بعدها) الشافعي: الأم (٢٤٠/٤)؛ ابن قدامة: المغني (١٠ / ٥٣٩ وما بعدها)]

قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، بينما ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها» [١]

٤–حماية الممتلكات العامة والخاصة:

جاء في الوصايا الإشارة إلى حظر أي اعتداء من الجيش الإسلامي على أي شكل من أشكال الممتلكات العامة منها قول الرسولﷺ: « ..**ولَا تَحْرِقُوا كَنِيسَةً وَلَا تَعْقِرُوا نَخْلاً**» « **ولَا تَقْرَبُوا نَخْلاً ولَا تَقْطَعُوا شَجَرَا، ولَا تَهْدِمُوا بِنَاءً** » وقول أبي بكر ﷺ : « **ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة** » « **ولا تغرقن نخلا، ولا تحرقنها ولا تعقروا بهيمة، ولا شجرة تثمر، ولا تهدموا بيعة** »، فهذه النصوص تعتبر أصولاً لحماية الممتلكات العامة أو الخاصة وعدم التعرض لها بشيء أما عن التربية الإيمانية والفكرية الحاضنة للأصول السابقة فيمكن تفصيلها على النحو التالي: إن جيشاً تربى على تعاليم رحيمة تمنع من التفريق بين طير وفراخه، وتمنع من إيذاء حشرات كالنمل، وتمنع من إتلاف شجرة غير مثمرة في جوف الصحراء لهو أولى باحترام ما هو أعظم من ذلك من حيوان أو نبات، إن وفرة التعاليم القاضية باحترام المخلوقات تحول دون انتقال حال العدائية بين المسلم وعدوه إلى ما يقتنيه العدو من ممتلكات ، والتربية النبوية والقرآنية قاضية بالفصل بين الأمرين ، وهذا ما لا تجده إلا في تعاليم رسالة الإسلام ، وفي غيره من الجيوش تجد حالة العداء لا تقتصر على العدو بل تنسحب نحو كل ممتلكاته .[٢] تعتبر المحافظة على الممتلكات العامة وعلى وجه الخصوص الغطاء النباتي والحيواني أصل عام يحكم أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ؛ لذا جاء التصريح به بإطلاق في وصايا النبي ﷺ وخليفته، لكن هذا الأصل له حالات استثنائية تقتضيها الضرورة الحربية في أضيق صورها وهو ما عبرت عنه الآيات في سورة الحشر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾[الحشر:٥] فالجواز هنا في قطع أشجار بني النضير وزرعهم إنما اقتضته الضرورة الحربية لإلجائهم للاستسلام، وقد حرق النبي أيضاً نخل أهل خيبر والطائف، والتحريق أو القطع يخضع لفقه الأولويات ومن باب ارتكاب مفسدة لدرء ما هو أعظم منها، وهي لا تمثل فكراً عاماً يقتضي حالة عدائية تدميرية لموجودات العدو و ممتلكاته، وإنما تدل على أصل استثنائي محكوم بطبيعة العدو ومقتضيات المعركة وضروراتها، فإذا كان هناك مصلحة حربية في تحريق شجر العدو فيقال بجواز هذا الفعل، وإن لم يكن هناك أي منفعة حربية من تحريقه أو قطعه فنرجع للأصل العام القاضي بعدم التعرض للشجر بشيء. بخصوص إتلاف ذوات الأرواح فهذا لا يحل قتله لمغايظة العدو أو إلجائه للاستسلام لوجود أصل عام بين فيه النبي ﷺحرمة قتل عصفور إلا بحقه، وحقه هو أن يذبحه لكي يأكله. [٣]

٥–حماية الأبنية وأماكن عبادة الملل الأخرى:

جاءت الوصاياً صريحة في حرمة الاعتداء على مباني العدو، وذلك في قول النبيﷺ: «**ولا تهدموا بناءً**» وهذا الأسلوب يفيد العموم لأنه مفرد في سياق النفي؛ وهذا يقتضي عدم هدم أي بناء من أبنية العدو وهذا يشمل الممتلكات العامة والخاصة، والنهي في وصايا النبي إنما سيق لبيان المحظور؛ لذا يقتضي التحريم حيث لا قرينة تصرفه عن ذلك لكن في غزوة

---

(١) –لوبون: حضارة العرب، حاشية صفحة (١٢٨)

(٢) –من تتبع حروب التتار يجد أن حالة العداء قد انتقلت إلى كل شيء يقتنيه العدو لذا كثر التدمير وحرق الممتلكات، بل تعدى الأمر نحو معاداة عناصر ثقافة الغير، وهذا واضح من تدمير التتار لمكتبات بغداد وإلقاء الكتب في الأنهار، وحالة العدائية هذه كانت ملاحظة بشكل واضح في الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال التدمير المروع لكل ما يقتنيه الأعداء حتى أصبحت المدن خراباً ورسماً بعد عين.

(٣) –انظر الشافعي: الأم (٢٨٧/٤)

الطائف على وجه الخصوص نصب النبيﷺ المنجنيق وضرب حصونها، وتصرف كل ما يلجئ العدو للاستسلام. ومن هذا الوجه يمكن القول إن الممتلكات العامة والخاصة ينظر إليها بتفصيل:

١- ممتلكات تدعو الحاجة الحربية إلى إتلافها كتلك التي تعوق تحركات الجيش أو سيطرته على أرض المعركة، أو تساعد العدو في رصد المسلمين والنكاية بهم، فهذه يحل إتلافها للضرورة الحربية.

٢- ممتلكات تحول دون تقدم الجيش أو تمنع من وصوله للأعداء، فهذه أيضاً يحل إتلافها، وتشمل أيضاً كل ما يؤثر إتلافه على معنويات العدو ويلجئه للاستسلام.

٣- ممتلكات يعود بإتلافها ضرر على المسلمين، فهذه لا يحل إتلافها قطعا.

٤- ممتلكات لا تدعو الحاجة الحربية لإتلافها ولا الإبقاء عليها، فهذه الممتلكات لا يحل أيضاً إتلافها وتحمل وصية النبي السابقة في عدم هدم الأبنية على هذا النوع.

ونخلص مما سبق إلى أن الإتلاف للممتلكات بوجه عام محظور وحرام إلا لضرورة حربية، فإذا لم تتعين الضرورة الحربية، فلا يجوز تدمير الأبنية والممتلكات كشكل من أشكال العدائية مع كل ما يتعلق بالعدو. (١)

هذا بخصوص الأبنية بشكل عام أما أماكن عبادة العدو فقد أرشدت نصوص كثيرة إلى احترامها وعدم التعرض إليها ، بل بعض الآيات أشارت إلى أن عدل الإسلام ضمن سنن المدافعة هو الكفيل بحفظ أماكن العبادة بأشكالها المتعددة للملل ذات الأديان السماوية السابقة يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج:٤٠] بينت الآية أن سنة المدافعة هذه هي الكفيلة بإقرار العدل وبدونها تتعرض أماكن العبادة كصوامع الرهبان أو الصابئة ، وبيع النصارى وكنائس اليهود ومساجد المسلمين للهدم ؛ حيث يتعرض لها الوثنيون فلا يبقوا منها شيئاً ، أما المسلمون فإن تعاليم رسالتهم تتسع لقبول بقائها داخل الدولة الإسلامية وعدم التعرض لها بأي شكل (٢) ، يقول ابن خويزمنداد من المالكية : « **تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نارهم** . » (٣) ومن هذا الوجه جاءت وصايا النبي ﷺ بنهي الجيوش الإسلامية من التعرض للكنس والبيع بأي شكل ،ومن وصاياه بهذا الشأن : « **وَلَا تَحْرِقُوا كَنِيسَةً**» ومن وصايا أبي بكر« **ولا تهدموا بيعة** » (٤) وكان أول تعامل للنبي ﷺ هو مع يهود المدينة المنورة في عقر دار الإسلام ، حيث كتب وثيقة بينه وبينهم بمثابة دستور ينظم العلاقة بينهم مبرزاً لكل طرف واجباته وحقوقه ، ومن بنود هذه الوثيقة النص التالي : « **وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ** » ومضت الوثيقة تعدد بطون اليهود في المدينة مثبتة لها ما أثبتته ليهود بني عوف. (٥)

---

(١) –بعد أربعة عشر قرناً انتبه العالم إلى مثل هذا التشريع القاضي باحترام الممتلكات خلال الحرب، ففي اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧ م جاء التنصيص على أن الإتلاف محظور إلا لضرورة حربية ؛ حيث جاء في المادة ٢٣ من لائحة الحرب البرية : « لا يجوز تدمير ممتلكات العدو أو حجزها إلا إذا كانت ضرورات الحرب تقتضي حتماً هذا التدمير . [انظر القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية (٢٥) ؛ الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٤١) ؛ أبو النصر : اتفاقية جنيف الرابعة لحماية المدنيين (١٧٨ وما بعدها)] أما الضرورة الحربية فقد توسع بها أصحاب القانون الدولي كما يتضح من القوانين ذات العلاقة بلائحة الحرب البرية والجوية ، والتي تسمح بعض مدلولات بنودها بتخريب المدن لأجل إلجاء العدو للهزيمة ،كما في المادة ٥١ من لائحة الحرب البرية ، والمادة ٢٤ من لائحة الحرب الجوية ، بل يرى شراح تلك المواد أن الحفاظ على الممتلكات أو المدنيين في ظل الحروب المعاصرة هو خرافة ، بمعنى أن وجود الحرب في ظل التقنية الحربية المعاصرة كفيل بتدمير كل شيء ؛ لذا يبقى حديثهم عن قوانين حماية الممتلكات عبارة عن دياجة نصوص لا رصيد لها في الواقع [انظر تلك المواد : القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية (٢٥ وما بعدها ، ١٣٠) وانظر أيضاً : هيف : القانون الدولي العام (٧١٠) ؛ الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٦)]

(٢) –انظر الطبري: جامع البيان (١٧/١٧٤ وما بعدها)؛ الشوكاني: فتح القدير (٣م٤٥٧ وما بعدها)

(٣) –القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٢/٧٠)

(٤) –سبق تخريجها

(٥) –انظر ابن هشام: السيرة (٣/٣٤)؛ المباركفوري: الرحيق المختوم (٢١٣) .

فالنص السابق صريح في التأكيد على مبدأ الحرية الدينية دون إكراه أو تعسف، ويترتب على قول النبي ﷺ لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم أن أماكن العبادة للدينين هي موطن احترام من الطرفين وهذه هي التجربة الأولى للنبيﷺ مع يهود المدينة، وكانت مع نشأة الدولة الإسلامية، والتجربة الثانية التي تدل صراحة على احترام أماكن عبادة الملل الأخرى حصلت في آخر العهد النبوي مع نصارى نجران الذين وفدوا عليه في المدينة بعدما أرسل إليهم، فدخلوا المسجد النبوي، وصلوا فيه صلاتهم نحو جهة الشرق، وعندما رآهم النبي ﷺ يصلون بصلاتهم نحو قبلتهم في مسجده أشار إلى صحابته أن يتركوهم وما يصلون ، ثم بعد ذلك عرض عليهم الإسلام ، وجادلهم ، ثم نزلت آية المباهلة ، فعرض عليهم المباهلة امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى ، فامتنع وفد نصارى نجران عن المباهلة ، وصالحوا النبي على الجزية، وأعطاهم النبي ذمة الله ورسوله وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم إضافة إلى عدم التعرض لكنسهم، وكتب لهم كتاباً بذلك . [١]

يقول لورد هدلي عن سماحة موقف النبي مع نصارى نجران: « **ولما استتب له الأمر وخضعت له شبه جزيرة العرب إلى أقصاها ، وجاءه وفد نصارى نجران اليمنيون بقيادة البطريرك لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام ، بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم وأمر بأن لا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية، وأن تبقى كنائسهم ومعابدهم كما هي يؤدون فيها شعائرهم الدينية كما كانوا يفعلون من قبل** » [٢] ولم يقتصر الأمر على عدم التعرض لأماكن عبادة العدو، بل أبدى النبي سماحة منقطعة النظير تجاه مقدساتهم كما حصل في خيبر فقد كان من بين ما غنم جيش النبي ﷺ عدة صحف من التوراة ، فطلب اليهود ردها فأمر النبي بتسليمها لهم[٣] وهذا الموقف يبرز مدى تسامح النبي في رعاية مقدسات العدو حيث رد إليهم الصحف بالرغم من اعتقاده بتحريفها، ولم يفعل ما فعله الرومان عندما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة[٤]

وهذا المنهج سار عليه خلفائه في احترام أماكن عبادة الغير ، فبعد فتح الشام وقدوم عمر إليها صالح أهل إيلياء (القدس) وكتب لهم عهداً جاء فيه : « **بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وصلبهم وسائر ملتهم أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم** ... » [٥] وكتب أيضاً لأهل مدينة اللد ومدن فلسطين الأخرى عهداً شبيهاً به وبمثل نصوص هذه الوثيقة عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة وأهل دمشق، وكذلك عمرو بن العاص مع أهل مصر، بل تضمنت أيضاً لعن أي مسلم يخرجهم منها [٦]وعندما كان عمر بن الخطاب بالشام، وقد حانت الصلاة وهو في كنيسة القيامة، فطلب البطريق من عمر أن يصلي بها، وهم أن يفعل ثم اعتذر متعللاً بأنه يخشى أن يصلي بالكنيسة، فيدعي المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم فيأخذوها من النصارى. [٧]

---

(١) –عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ : حُلَّةٍ النِّصْفُ فِي صَفَرٍ ، وَالْبَقِيَّةُ فِي رَجَبٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَعَارِية ثَلَاثِينَ دِرْعًا ، وَثَلَاثِينَ فَرَسًا ، وَثَلَاثِينَ بَعِيرًا ، وَثَلَاثِينَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ السِّلَاحِ يَغْزُونَ بِهَا ، وَالْمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوهَا عَلَيْهِمْ ، إِنْ كَانَ بِالْيَمَنِ كَيْدٌ أَوْ غَدْرَةٌ عَلَى أَنْ لَا تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ ، وَلَا يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ ، وَلَا يُفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ مَا لَمْ يُحْدِثُوا حَدَثًا ، أَوْ يَأْكُلُوا الرِّبَا . [أخرجه أبو داود برقم ٣٠٣٧ (١٦٦/٣) ؛ و الضياء : الأحاديث المختارة ، برقم ٤٩٢ (٥٠٨/٩) قال ابن حجر : رواته موثقون ، إلا أن في سماع السدي من ابن عباس نظر ، لكن الحديث له شواهد [انظر الدراية (١٣٣/٢) ؛ وتلخيص الحبير (١٢٥/٤)]

(٢) –عبد الوهاب: محمد رسول الله في نظرة علماء الغرب (٣٩)

(٣) –انظر أبو شهبة: السيرة النبوية (٤١٩/٢)؛ التاجي: سيرة النبي العربيﷺ (٢٦/٢)

(٤) –انظر الصلابي: السيرة النبوية (٣٩٢/٢)

(٥) –الطبري: تاريخ الطبري (٤٩٩/٢)

(٦) انظر الحوفي: سماحة الإسلام (٧٠ وما بعدها)

(٧) انظر الحوفي: سماحة الإسلام (٦٧)

فهذه السماحة منقطعة النظير من المسلمين تجاه البلاد المفتوحة عبر عنها نصارى الشام حيث كتبوا إلى أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٣ هـ قائلين: «**يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا**» [١] وهذه المواقف مجتمعة تشير إلى أن احترام أماكن عبادة العدو كان جزءً أصيلاً من أخلاقيات الحرب التي تمثل بها جيش النبوة.

٦-تحريم التمثيل بالأعداء أحياءً أو أموات:

روى عَبْدَ اللَّه بْنَ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ: «**نَهَى النَّبِيُّ عَنْ النُّهْبَى وَالْمُثْلَةِ**» [٢] وعَنْ أَنَسٍ وسمرة بن جندب رضي الله عنهما قَالا: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَحُثُّ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُثْلَةِ**» بل بعض الآثار تشير إلى أن من ارتكب هذا المحظور ولم يتب سيعرض نفسه للقصاص الرباني يوم القيامة ، يقول الرسول ﷺ :«**مَنْ مَثَّلَ بِذِي رُوحٍ ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » [٣]، بل تعاطت الرسالة المحمدية بحساسية مفرطة مع ظاهرة التمثيل حتى مع الحيوانات ، وأبرزت النصوص أنها موجبة للعن والطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى، لما فيها من عبث بخلق الله، عن ابن عمر قال : « **لَعَنَ النَّبِيُّ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ** » [٤]والإسلام ينظر للميت نظرته للحي في حرمة تشويهه، وذلك تكريماً لآدميته يقول النبيﷺ: «**كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا**»[٥] والمراد به أن كسر عظم الميت يترتب عليه من الإثم ما يترتب على كسر عظم الحي[٦]، وفي ذلك إمعان وتأكيد على حرمة الميت عند الله ﷻ، والكافر أو الحربي الميت قد انتقل لدار الحق والجزاء، فلا وجه للتمثيل به أو تشويهه بعد موته ومن تتبع الجانب العملي في السيرة النبوية يجد أن النبي لم يرخص في الحروب بالتمثيل بالآدمي حياً أو ميتاً، حتى لو توفرت دواعي التمثيل كأن مثل العدو بجثث المسلمين.

وهذه أمثلة عملية دالة على تحريم المثلة وعدم خضوعها لمبدأ المعاملة بالمثل: كان بين أسرى بدر سهيل بن عمرو ، وكان خطيباً مفوهاً ، فقال عمر: يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل فلا يقدم عليك خطيباً أبداً ، فأجابه النبي قائلاً: «**لَا أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلُ اللَّهُ بِي وَإِنْ كُنْت نَبِيّا وإنّهُ عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا لَا تَذُمّهُ عَلَيْه** »[٧] فعمر خشي من سهيل أن ينال من رسول الله ويحرض عليه بعد فك أسره فأراد أن ينزع ثنيتيه الأماميتين لكي لا يتمكن من الخطابة في الصد عن دين الله أو النيل من رسول الله ، فهذه مسوغات الموقف العمري، و هو موقف قد تشهد له ضرورات الحروب وطبيعة الأعداء ، وقد تؤيده المدارس المعاصرة خاصة إذا كان العدو لا يؤمن له جانب معين فليحتاط لهذا الجانب ، لكن لاحظنا أن نبي الرحمة تجاوز عن هذه المصلحة التي ذكرها عمر مقابل مفسدة عظمى لا تتفق وتعاليم رسالة الرحمة العالمية ، فالتمثيل حتى لو وجدت دواعيه يتنافى واحترام إنسانية الإنسان التي يدعو لها الحبيب محمد، وفي رد النبي إشارة واضحة إلى أن تعاليم السماء تحكمه في كل موقف يخوضه.

غزوة أحد أخذت شكلاً انتقامياً من كفار قريش وتم الإعداد لها عاماً كاملاً ، وبعدما تمكن الكفار من المسلمين في نهاية المعركة أمعنوا في الانتقام بشكل وحشي جداً وسلطوا تلك النار الانتقامية التي اتقدت في قلوبهم نحو جثث المسلمين فبقروا بطونهم وشوهوا جثثهم بشكل مروع جداً ، وشاركت النساء في تلك الهجمة المسعورة على الجثث ؛ ومن بينهن كانت هند بنت عتبة التي مزقت جسد حمزة تمزيقاً مروعاً وأخرجت كبده ولاكته بأسنانها في حالة هستيرية مروعة

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان (١٣٩)

(٢) أخرجه البخاري برقم ٥١٩٧ (٥/٢١٠٠)

(٣) أخرجه أحمد برقم ٥٦٦١ (٢/٩٢)؛ قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد ثقات [مجمع الزوائد (٦/٢٤٩ وما بعدها)]

(٤) أخرجه البخاري برقم ٥١٩٦ (٥/٢١٠٠)

(٥) أخرجه أبو داود برقم ٣٢٠٧ وابن ماجة برقم ١٦١٦ وأحمد برقم ٢٤٧٨٣ وابن حبان برقم ٣١٦٧ والحديث صححه الألباني برقم ٣٢٠٧.

(٦) انظر عون المعبود (٩/٢٤)

(٧) انظر ابن أبي شيبة: المصنف (٧/٣٦٥)؛ الزيلعي: نصب الراية (٣/١٢٠)

، وكان هدف الكفار في إباحة التمثيل بالجثث الإمعان في إيذاء المسلمين وقهرهم . وبعد المعركة طاف النبي وصحابته الكرام في أرض المعركة وهالهم ما رأوا من تشويه لجثث أحبابهم، وكان أكثرهم ألماً الحبيب محمدﷺ بعدما رأى ذلك التشويه غير المعهود في جثة أحب الناس إليه، وهو عمه وأخوه في الرضاعة حمزة، فبكى بكاءً شديداً عليه، حتى سمع لبكائه شهيقاً. بل لهول الصدمة وبشاعة المنظر، قال النبيﷺ: «**لَوْلَا أَنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ، وَيَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْتُه، حَتّى يَكُونَ فِي بُطُونِ السّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطّيْرِ وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللّهُ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنْ الْمَوَاطِنِ لَأُمَثّلَنّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ.** »[(١)]وقال المسلمون رعاية لحال النبي وكمده على عمه : « **وَاَللّهِ لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللّهُ بِهِمْ يَوْمًا مِنْ الدّهْرِ لَنُمَثّلَنّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يُمَثّلْهَا أَحَدٌ مِنْ الْعَرَبِ** » [(٢)] كلمات خرجت من فم النبي ﷺ في لحظة انفعالية خلال موقف من أبشع المواقف التي عاشها ، وإن كان محمدٌ ﷺ كغيره من البشر إلا أن عواطفه محكومة بمنهجه ؛ لذا جاء التوجيه الرباني مباشرة بعد تلك الكلمات ليصحح مسار تلك العواطف ، وأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل:١٢٦] فعفا النبي ﷺ، وصفح مباشرة ونهى عن المثلة .

هذا الموقف له عدة دلالات منها: رسالة الإسلام مضبوطة بأخلاقيات ربانية لا تسمح لأفرادها أن يتجاوزوا معاييرها ومثلها العليا حتى لو وجدت دواعي لهذا التجاوز من باب المعاملة بالمثل. وما حصل في غزوة أحد كان له الأثر الكبير في تأكيد النبيﷺ على حرمة التمثيل، وذلك لما رأى فيه من امتهان لآدمية الإنسان؛ لذا كان ينهى عن المثلة في خطبه بنفس الدرجة التي كان يحض فيها على الصدقة مما يشير إلى أن النهي عن المثلة أخذ حظاً وافراً من هديه وإرشاده. إن المثلة امتهان لآدمية الإنسان؛ لذا التمثيل بالجثث في نظر رسالة الإسلام ليس فيه إيذاء للعدو بقدر ما فيه اعتداء وطعن في تكريم الله سبحانه وتعالى له، وهو من هذا الوجه اعتداء على حق من حقوق الله سبحانه وتعالى، وأهل الرسالة أبعد الناس من التقحم على حقوق الله سبحانه وتعالى والتمثيل بالجثث لا يخضع لمبدأ المعاملة بالمثل لمنافاته للفضيلة التي تدعو لها رسالة الإسلام، لكنه قد يخضع للقصاص. [(٣)]

٧–تحريم الخيانة والغدر في المعارك والوفاء واحترام العهود:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ**﴾ [الأنفال:٥٨] تنص الآية إلى أن النبي ﷺ إن خاف خيانة قوم لعهدهم ، فله أن ينهي العهد معهم ، ويخبرهم بانتهاء العهد وانتقاضه لئلا يتهموه بالخيانة ، ثم ختمت الآية بأن الله سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين ، والنبي ﷺ أبعد القوم عن تقحم ما لا يحبه الله ؛ كذلك تشير الآية على حرمة مجاراة المشركين والكافرين في نقض المواثيق والعهود بطريق الغدر والخيانة ، بل بطريق الإعلان الصريح من جهته بنبذ المعاهدة وعدم التزامه بها [(٤)] فالخيانة في رسالة الإسلام لا تخضع لمبدأ المعاملة بالمثل، بمعنى لو بدر من العدو شكل من أشكال الغدر والخيانة فلا تقابل بمثلها ، وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ

---

(١) –انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٦/١٢٠)؛ الحاكم: المستدرك (٣/٢١٨)؛ الهيثمي: مجمع الزوائد (٦/١٢٠)

(٢) –انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٢/٧٢)؛ ابن كثير: البداية والنهاية (٤/٤٤)

(٣) –المعاملة بالمثل معناه في الحروب إذا حدث من جيش ما تصرف معين ، فللجيش المقابل أن يوقع نفس التصرف في أفراد الجيش الآخر ، وهي تنظر لوقوع التصرف من جهة ما دون النظر إلى الفرد القائم به ، أما القصاص فإنه مماثلة بين العقوبة والجريمة ، بحيث توقع عقوبة مماثلة على فرد ارتكب جرماً ما ، والقصاص لا يتعدى المجرم نفسه إلى غيره ؛ أي هو عقوبة قاصرة ، وخلال تتبعي للسيرة النبوية وجدت أن النبي ﷺ لم يخضع التمثيل بالجثث للمعاملة بالمثل إطلاقاً ، لكن في عهد الخلفاء وقعت بعض التصرفات وحصلت بعض الأقوال المبيحة للمثلة بالعدو ودلائل السياق أن التمثيل عندهم قد خضع لمبدأ القصاص بحيث تلحق عقوبة مشابهة لتلك التي ارتكبها على سبيل المثال أفراد من المرتدين في حق المسلمين وذلك في عهد أبي بكر ﷺ ، ومن هذا الوجه نقول أن المثلة لا تخضع للمعاملة بالمثل ، لكن أمكن خضوعها لمبدأ القصاص ، وبذلك نجمع بين جميع الآراء ونلم شعث جميع الأحداث .

(٤) –الحداد: أخلاق النبي في القرآن والسنة (٣/١٣٦٦)

بوجه عام بقوله: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**» [١] وكذلك الغدر من الجرائم العظمى التي ينصب لها لواء خاص بها يوم القيامة يقول الرسولﷺ: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ يُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ**» [٢]

أمثلة تشير إلى مدى تجنب النبيﷺ وصحابته لأي شكل من أشكال الخيانة والغدر، تذكر كتب السير أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح أسلم وكان من كتاب الوحي، ثم ارتد ولحق بالكفار، فلما دخل النبيﷺ مكة أهدر دمه، ففر إلى عثمان، فلما جاء به عثمان ليستأمن له، صمت عنه رسول اللهﷺ طويلاً ثم أعطاه الأمان، فلما انصرف مع عثمان، قال رسول اللهﷺ لمن حوله: «**مَا مَنَعَكُمْ أَنْ يَقُومَ رَجُلٌ مِنْكُمْ إِلَى هَذَا الْفَاسِقِ فَيَقْتُلَهُ؟ فَقَالَ عَبّادُ بْنُ بِشْرٍ: أَلَا أَوْمَأْت إِلَيّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فو الذي بَعَثَك بِالْحَقّ إنّي لَأَتّبِعُ طَرَفَك مِنْ كُلّ نَاحِيَةٍ رَجَاءَ أَنْ تُشِيرَ إلَيّ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: إنّ النّبِيّ لَا تَكُونُ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ**» [٣] هذا المثال صريح في أن النبيﷺ لم يستبح لنفسه إيماءة من عينه تحمل معنىً خيانياً، فهذا لا يليق بمقام النبوة، وإذا كانت هذه حساسية النبي مع أي بادرة خيانة، ففي غيرها أولى.

وفي حادثة الرجيع تعرضت سرية من عشرة أشخاص لغدر من قبيلتي عضل والقارة [٤] وانتهت باستشهاد أكثر السرية ، وأسر اثنين منهم ، وهم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة رضي الله عنهما ، وقامت هذه القبائل ببيع الأسيرين للموتورين من أهل مكة ، أما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله في بدر ، فمكث عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله ، تروي ماوية إحدى بنات الحارث اللحظات الأخيرة لخبيب، حيث تقول: «**فلما انسلخت الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أتيته، فأخبرته فوالله ما رأيته اكترث لذلك وقال: ابعثي إلي بحديدة أستصلح بها قالت: فبعثت إليه بموسى مع ابني أبي حسين – وكانت تحضنه ولم يكن ابنها ولادة – قالت : فلما ولى الغلام ، قلت أدرك والله الرجل ثأره ، أي شيء صنعت بعثت هذا الغلام بهذه الحديدة، فيقتله ويقول رجل برجل، فلما أتاه ابني بالحديدة تناولها منه ثم قال ممازحا له: وأبيك إنك لجريء أما خشيت أمك غدري حين بعثت معك بحديدة، وأنتم تريدون قتلي، قالت ماوية : وأنا أسمع ذلك فقلت: يا خبيب إنما ائتمنتك بأمان الله، وأعطيتك بإلهك ولم أعطك لتقتل ابني فقال خبيب: ما كنت لأقتله وما نستحل في ديننا الغدر، قالت ثم أخبرته أنهم مخرجوه فقاتلوه بالغداة**» [٥]

هذه القصة لها عدة دلالات هامة: قول خبيب: ما كنت لأقتله فيه إشارة إلى أن هذا التصرف غير وارد ولا متصور ولا هو في الحسبان، والمانع من ذلك هو أننا لا نستحل في ديننا الغدر، ولئن كان خبيب هو أحد ضحايا غدر الغير، فالغدر لا يقابل بمثله. والقصة تشير إلى أن الغدر لا يحل حتى في الظروف الحساسة؛ لأنه صفة منافية للفضيلة وأخلاقيات الرسالة. قصة الرجيع وقعت بعد غزوة أحد؛ أي كانت في السنوات الأولى للجهاد، وقول خبيب: لا نستحل في ديننا الغدر يدل على أن هناك تربية نبوية سابقة بينت أحكام الغدر والخيانة. وهذه القصة تبرز مدى تأدب الصحابة بأخلاقيات الرسالة، وتشربهم لتعاليمها، والتزامهم بها حتى في اللحظات الحرجة والظروف الحاسمة التي تتعلق بإنقاذ المهج والتي قد تستدعي حالة استثنائية تلجئ إليها الضرورة، لكن المبدأ الأصلي المبني على الوفاء والكف عن البراء لا تنهض

---

(١) –أخرجه أبو داود برقم ٣٥٣٤ (٢٩٠/٣)؛ والترمذي برقم ١٢٦٤ وقال: حسن غريب (٥٦٤/٣) والحاكم برقم ٢٢٩٦ ، وقال : صحيح على شرط مسلم [المستدرك (٥٣/٢)] قال الألباني : صحيح [السلسلة الصحيحة برقم ٤٢٣(٧٨٣/١)]

(٢) –أخرجه البخاري برقم ٣٠١٦ (١١٦٤/٣) ومسلم برقم ١٧٣٥ (١٣٥٩/٣)

(٣) –الواقدي: المغازي (٨٥٦/٢)؛ الحلبي: السيرة الحلبية (٣٧/٣)؛ الصلابي: السيرة النبوية (٤٨١/٢)

(٤) –عضل بطن من بني الهول بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، ينسبون إلى عضل بن الديش بن محكم، وأما القارة فهي بطن من الهول أيضا ينسبون إلى الديش المذكور وقال بن دريد: القارة أكمة سوداء فيها حجارة كأنهم نزلوا عندها فسموا بها [انظر : ابن حجر : فتح الباري (٣٧٩/٧)]

(٥) –انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى (٣٠٢/٨)

له هذه الاعتبارات الموهومة. يمكن القول أن خبيباً كان يملك أن يأخذ الغلام رهينة، ويطالبهم بأن يأتوا له راحلة ويؤمن هروبه من أيديهم ويضمن حياته، ثم يطلق الغلام بعد ذلك، لكن هذا لم يحدث من خبيب رعاية لصورة الإسلام وصوناً للتعاليم التي تربى عليها والتي تمنع الغدر والاستغلال، وقد يفضي الأمر إلى مقتل الغلام فيكون قد تسبب بمقتل برئ.

وقد جاءت كثير من الآيات المطالبة باحترام العهود منها قوله تعالى : ﴿ **وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً** ﴾ [الاسراء:٣٤]﴿ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ** ﴾ [الرعد:٢٠] ، وبالمقابل جاءت كثير من الآيات التي تذم ناقضي العهود منها قوله: ﴿**الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ** ﴾ [الانفال:٥٦] وجاءت الأحاديث صريحة في بيان أن نقض العهد أو خلف الوعد هو من علامات نفاق صاحبه يقول الرسول: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» [(١)] ومن تتبع سيرة الرسول يجد أنه كان القدوة العليا في احترام العهود مع الغير، ويمكن بيان مدى احترام النبي لعهوده من خلال الأمثلة التالية:

عاهد النبي ﷺ يهود المدينة منذ قدومه للمدينة على حسن الجوار والدفاع المشترك عن المدينة، فأوفى بعهده لهم حتى وقع منهم نقض العهد، إما بإثارة الفتن والتعرض للمسلمين كما حصل من بني قينقاع، وإما بالسعي لاغتيال النبي ومحاولة قتله كما وقع من بني النضير، وإما بالخيانة العظمى من خلال التآمر مع العدو للقضاء على المسلمين في أصعب الظروف كما حصل من بني قريظة، وقد جاء التصريح من نفس قادة اليهود على أن محمداً ﷺ كان وفياً في عهوده، ففي غزوة الأحزاب تحرك حيي بن أخطب صاحب فكرة تجييش الأحزاب نحو بني قريظة ، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول اللهﷺ على قومه وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع بقدوم كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي : يا كعب افتح لي قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم، إني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً، قال: ويحك افتح لي أكلمك! قال: ما أنا بفاعل قال: والله إن أغلقت دوني إلا على جشيشتك – أي طعامك من الحب المجروش المطبوخ – [(٢)] أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد قد عاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه فقال له كعب بن أسد: جئتني والله بذل الدهر ويحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمدٍ إلا صدقا ووفاء.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى نقض كعبٌ عهده مع رسول الله وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ فلما انتهى إلى رسول الله الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدا الأوس والخزرج لتقصي الخبر والتأكد من حقيقة نقض قريظة للعهد، وعادا بالحقيقة المرة، وهي أن قريظة قد نقضت عهدها وهي على أخبث حال. [(٣)] وهذه القصة لها عدة دلالات: فيها تصريح واضح من أعداء محمدﷺ بمدى وفاء محمدﷺ بعهوده. وإن إرسال النبي للسعدين للتأكد من خبر بني قريظة يشير إلى مدى احترام النبي لعهوده، فهو لا يتركها أو يتهاون بها لمجرد إشاعة أو خبر لم تتوفر الأدلة عليه؛ لذا كان خطوته هذه من باب التثبت من الأخبار وتوفير الأدلة الصريحة الدالة على نقض الغير للعهد

(١) –أخرجه البخاري برقم ٢٦٨٢ (١٨٠/٣)
(٢) –انظر ابن منظور: لسان العرب (٢٧٣/٦)
(٣) انظر الطبري: تاريخ الطبري (٩٣/٢)؛ ابن هشام: السيرة النبوية (١٧٧/٤)؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤٧٨/٣) الجزائري: هذا الحبيب (٣٠٤)

يعتبر صلح الحديبية من أعظم الدروس الدالة على الوفاء المثالي بالعهود ، فقد انتهى صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ من جهة وبين سهيل بن عمرو نائباً عن قريش على أربعة شروط : أولها عودة المسلمين وعدم تأديتهم العمرة في ذلك العام على أن يؤدوها في العام الذي يليه ، وثانيها هدنة بين فريقي النزاع مدتها عشرة سنوات ، وثالثها : يلتزم محمد ﷺ بإعادة كل فرد يهاجر إليه من قريش ، ولا تلتزم قريش بإعادة أي فرد قدم إليها من المدينة المنورة ، ورابعها : من أراد أن يدخل في حلف محمد ﷺ دخل ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه .

كان الشرط الأول والثالث امتحاناً عسيراً على النبي وصحابته الكرام للوفاء بهذه الشروط ، ولم يكن من السهل على الصحابة الكرام بعد أن وقفوا على أعتاب البيت الحرام أن يحرموا من دخوله والاعتمار في ذلك العام ، وحصلت مراجعات عديدة من الصحابة للنبي، وأصابت الصحابة غمة شديدة واعتبروا الالتزام بشروط الصلح من باب إعطاء الدنية ، لكن نبي الوفاء أمضى عهده وصبر على مراجعات صحابته وتخاذلهم الأولي في ذبح الهدي وحلق رءوسهم إيذاناً بالعودة للمدينة المنورة ، وكانت ساعات عصيبة على النبي وصحابته الكرام انتهت بالالتزام الكامل من جهة النبي وصحابته الكرام . [١]

وقبل أن يجف حبر المعاهدة، بل قبل أن تنتهي كتابتها وقع امتحانٌ آخر للنبي وصحابته الكرام؛ حيث جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو سفير قريش يرسف في الحديد هارباً من المشركين، فقام له أبوه فضربه في وجهه أمام المسلمين، وقال: يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يجيء هذا، فقال النبي: إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال سهيل: فوالله لا أقاضيك فقال النبيﷺ: أجزه لي، فقال سهيل، لا أجيزه لك، ومضى سهيل يجر أمامه أبا جندل وهو يصرخ: يا معشر المسلمين أأرد للمشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله: يا أبا جندل! اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم [٢] كانت هذه أول تجربة عملية قاسية لشروط الصلح تبين فيها مدى وفاء النبي بعهوده، وتبين من حديث النبيﷺ أن التهاون في الوفاء يعتبر غدراً لا يليق بالرسالة وصاحبها.

لم يدم الأمر طويلاً على عودة النبيﷺ إلى المدينة حتى انفلت رجل آخر من المسلمين ممن كان يعذب في مكة وهو أبو بصير الثقفي، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت بيننا، فدفعه النبي للرجلين، وقال له: « **يَا أَبَا بَصِيرٍ إِنّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَا قَدْ عَلِمْت ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ، وَإِنّ اللّهَ جَاعِلٌ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، فَانْطَلِقْ إلَى قَوْمِك، قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَتَرُدّنِي إلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟ قَالَ: يَا أَبَا بَصِيرٍ انْطَلِقْ فَإِنّ اللّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا**» [٣]

٨ -حظر العقوبات الجماعية:

الإسلام يقصر حالة الحرب في أضيق صورها على المقاتلين فقط باعتبار أن حالة الحرب هي حالة استثنائية ألجأت إليها الضرورة، والضرورة في رسالة الإسلام تعتبر قاصرة غير متعدية ؛ لذا تقدر بقدرها ولا تتجاوز حدودها، ووفق هذا المبدأ العام الذي يحكم حالة الحرب نجد أن تعاليم الرسالة لا تسمح بالإجراءات التعسفية التي تنال من البريء بجريرة المتهم، ومن هذا الوجه تحظر تعاليم الرسالة أي شكل من العقوبات الجماعية التي يتسع نطاقها فتطال مجتمعاً بأسره

(١) -انظر الحلبي: السيرة الحلبية (٦٨٩/٢ وما بعدها)
(٢) -انظر الطبري: تاريخ الطبري (١٢٣/٢)
(٣) -المرجع السابق (١٢٥/٢)؛ ابن هشام: السيرة النبوية (٢٩٢/٤)

بسبب وجود حالة حرب مع هذا المجتمع، ولعل الوصايا السابقة التي حددت نطاق الصراع وأهله أكبر مثال على ذلك، ومن الأمثلة التي ترشد صراحة إلى حظر العقاب الجماعي ما حصل من ثمامة بن أثال أحد أشراف نجد الذي كان أسيراً عند المسلمين ، ثم أعلن إسلامه بعد أن أحسن إليه النبي وأطلق سراحه ثم ذهب إلى مكة ليعتمر ، عن أبي هريرة قال: « **فَلَمَّا قَدِمَ – أي ثمامة – مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَوْتَ قَالَ: لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِﷺ وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ** » [(١)] وفي رواية قال ثمامة : « **والله يا معشر قريش أقسم بالله لا يأتيكم من اليمامة بر ولا تمر حتى تسلموا أو يأذن فيه محمد ﷺ** » [(٢)]

إذا كان هذا تهديداً من أحد قادة نجد بمنع الحنطة عن مكة، فقد أقسم مندفعاً بحرارة إيمانه الغض على منع تموين مكة من الحبوب التي تنتجها اليمامة، وبالفعل أمضى هذا الرجل تهديده، ومنع أهلها من أن يرسلوا قمحاً إلى قريش، حتى جهدت قريش وعانى أهل مكة، فأرسلوا إلى النبيﷺ برسالة فيها: «**إنك تأمر بصلة الرحم، ولكنك قطعت أرحامنا، فقتلت الآباء وجوعت الأبناء**» [(٣)] فأرسل النبيﷺ لثمامة مباشرة يأمره برفع هذا الحظر، وأن يدع الحبوب تمر إلى مكة دون قيود. [(٤)] هذه القصة نستنتج منها عدة أمور: كانت فكرة الحظر بمبادرة من أحد قادة نجد الذين أسلموا، ولم تكن بعلم النبيﷺ أو بمبادرة منه. ونلحظ في القصة أن النبيﷺ عندما رأى آثار الحظر أرسل مباشرة لإلغائه بالرغم أن هناك مصلحة من ذلك وهو إلجاء قريش للإذعان للمسلمين، لكنها في نظر تعاليم الرسالة مصلحة موهومة مقابل ما يترتب عليها من مفاسد تقضي بتجويع أهل مكة جميعاً، وهذا يتنافى مع نهج الشريعة في حصر آثار الحرب وتضييقها قدر الإمكان [(٥)]

نستنتج مما سبق أن تعاليم الرسالة تحظر أشكال العقوبة الجماعية، بل لم تخضع هذا الإجراء لمبدأ المعاملة بالمثل، وقد سبق في العهد المكي أن استخدمت قريش هذا الأسلوب بشكل مروع مع النبيﷺ وصحابته الكرام مدة ثلاث سنوات بما يعرف بحصار شعب أبي طالب ومنع العقوبة الجماعية إنما يكون بين المسلمين وغيرهم عندما تكون الحالة حالة حرب بين الفريقين؛ أي تلك الحالة التي يمكن أن تمتد سنوات، لكن في حالة نشوب الحرب، والتي تقتضي أحياناً حصار العدو، فأمكن تصور قطع المؤن مدة الحصار لإلجائه للاستسلام، وهذا تقتضيه حالة الضرورة الحربية التي لا مناص منها، وقد استخدم النبيﷺ أسلوب الحصار مع خيبر ومع ثقيف في الطائف، لكن لم يصل الحد إلى تجويع من في الحصن، فحصون خيبر كانت ملأى بالمؤن التي تكفي لأشهر، بينما الحصار دام ١٨ عشر يوماً فقط، وكذلك الشأن بالنسبة للطائف.

٩–تغليب حالة السلم على حالة الحرب:

إذا كان الوعاء الفكري مغلباً لحالة السلم على الحرب ففي مثل هذه الحالة يمكن توقع حسر حالة الحروب في أضيق صورها، وما دام الفكر ليس عدائياً مولعاً بالحرب عندها يمكن تصور أن أكثر الحروب تأخذ شكلاً دفاعياً، إضافة إلى رعايتها لأخلاقيات الحرب حال اللجوء إليها، كذلك يمكن تصور إنهاء حالات التوتر المفضية للحروب، فهذه النتائج

(١) –متفق عليه: أخرجه البخاري برقم ٤١١٤ (١٥٨٩/٤)؛ ومسلم برقم ١٧٦٤ (١٣٨٦/٣)
(٢) –انظر الزيلعي: نصب الراية (٣٩٢/٣)
(٣) –انظر ابن هشام: السيرة النبوية (٥٢/٦)
(٤) –المرجع السابق نفس الصفحة.
(٥) –انتهت القوانين الدولية إلى عدم شرعية تجويع الغير كإجراء حربي بعد أربعة عشر قرناً من تعاليم النبي الدالة على ذلك، فقد جاء في الوثيقة الخامسة من البروتوكول الإضافي باتفاقيات جنيف لعام ١٩٧٧م في المادة ٥٤ منه: «يحظر تجويع المدنيين كأسلوب من أساليب الحرب» [بندق: موسوعة القانون الدولي الإنساني (٢٩٥)]

كلها متوقعة إذا كانت التربية الفكرية والثقافية مغلبة لجانب المسالمة وحسر الاعتداء، ويتصور نقيضها إذا كانت التربية الثقافية مغلبة لحالة الحرب والعدائية على حالة السلم.

١: الأصل في الإسلام السلم والحرب استثناء : رسالة الإسلام رسالة رحمة وسلام ، وتغليب جانب المسالمة على غيره يعتبر أصلاً من أصولها، بينما حالة الحرب هي حالة اضطرار استثنائية فرضتها طبيعة الخصم وثقافته وموروثاته [(١)]، ومن نظر إلى كتاب الله سبحانه وتعالى يجد أن لفظة السلم ومشتقاتها ذكرت في ١٣٣ آية بينما لفظة الحرب لم تذكر إلا في ست آيات، بل بعض الآيات أشارت إلى أن الهدف الأسمى لرسالة الإسلام هو في تيسير طرق السلام وسبلها والإرشاد لها ، بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ** ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، بل الهدف المنشود من الإعداد الحربي هو بسط الهيبة الممهدة لتحقيق السلام في الأرض، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ، وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ** ﴾ [لأنفال:٦٠-٦٢] .

فالآية صريحة في بيان الهدف من الإعداد الحربي، وهو تحقيق توازن قوى يلجئ العدو للجنوح نحو المسالمة ، والتي يقابلها الإسلام بمثلها مباشرة ، بل الآية تشير إلى اغتنام أي مبادرة من العدو نحو المسالمة حتى لو لم تكن تلك المبادرة مبنية على نوايا حسنة من العدو ، وحتى لو كان العدو يريد منها مغافلة المسلمين أو خداعهم كما تبين الآيات ؛ وهذا صريح في تغليب حالة السلم على غيرها، وبعض الآيات جاءت مطلقة في أن تغليب المصالحة وحسر دائرة التوتر والشقاق هو دائماً خير، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ** ﴾ [النساء:١٢٨]

٢: تحقيق الأمن والسلم هدف أسمى للنبي ﷺ ووعد من وعود رسالته: كان تحقيق السلم والأمن في محيط الجزيرة العربية وما حولها من أهم أهداف النبي ﷺ الجلية، والتي كان يصرح بها حتى مع بداية دعوته، حيث جعل من أسمى الغايات التي يبشر بها ويحرص على تحقيقها هي: توفير السلم والأمن الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع لذا بدأ رسالته بوعود متكررة تدل على أن هذه الغاية ستتحقق في المجتمع بأكمل وجه، وتصدر منه هذه الوعود وهو لا يستطيع أن يحقق لنفسه ولا لأقرب الناس إليه الأمن من غيلة قريش وغدراتهم، يأتيه خباب وهو متوسد بردة في حجر الكعبة مع غيره من المعذبين يشكون له ما أصابهم قائلين له: «**أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا! أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا! فقَالَ لهم النبي ﷺ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ** » [(٢)]

---

(١) هناك اتجاهان في الفقه الإسلام : الأول يعتبر أن حالة الحرب هي الأصل ، والثاني يرى أن حالة السلم هي الأصل بينما الحرب حالة استثناء ، والراجح في ظني هو الثاني المغلب لحالة السلم على الحرب ؛ لأن هذا الاتجاه يؤيده الواقع العملي للسيرة النبوية وكثير من الأدلة النصية التي تقصر المواجهة مع الذين يعلنونها ضد المسلمين ، أما الاتجاه الثاني فقد استند لبعض النصوص العامة المطالبة بالمواجهة مع أهل الشرك على وجه العموم ، وهذه النصوص يمكن النظر لها وفق سياقها على أنها ترشد إلى المواجهة في حالة الحرب ، وليست دليلاً لإنشاء الحرب ابتداءً ، ويلحظ أن كثيراً من العلماء يؤيدون الاتجاه القائل بأن علاقة دولة الإسلام مع غيرها من الدول هي علاقة مسالمة إلا إذا اقتضت الضرورة المواجهة [انظر : أبو زهرة : المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام (٤٠٤) ؛ الدقس : العلاقات الدولية في الإسلام (٣٣و ما بعدها) ؛ عثمان : الحقوق والواجبات في العلاقات الدولية في الإسلام (١٨٩) ؛ شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة (٤٥٣ وما بعدها) ؛ هيكل : الجهاد والقتال في الإسلام (١/ ٥١٠ وما بعدها)]

(٢) أخرجه البخاري برقم ٣٤١٦ [البخاري (١٣٢٢/٣)

هذه الكلمات خرجت من فم النبيﷺ في أحرج الظروف من الناحية الأمنية، وقد تضمنت وعداً وبشارة بتحقيق الأمن للمجتمع بأسره حتى أقصى جنوب الجزيرة، ويقطع الراكب مسافات شاسعة آمناً لا يخاف على نفسه ولا على غنمه إلا من قدر السماء وعوادي الوحوش، أما من جهة أخيه الإنسان فسيبلغ الأمن من جهته مداه.

وكان وعد النبيﷺ وبشارته بتحقيق السلم والأمن المجتمعي أمراً لا تتصوره العقول خاصة في ظل الواقع المعقد الذي وصل إليه العرب، وتلك الثقافة المميتة التي تشربتها عقولهم، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «**بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ فَقَالَ: يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا قَالَ: فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى قُلْتُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ!! قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ ... قَالَ عَدِيٌّ :فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ**» (١)

هذه وعود صدرت من النبي في لحظة كان يتصور سامعه استحالة وقوعها أو بعده، وعندما أشار النبي إلى أن المرأة ستخرج لوحدها آمنة مطمئنة من ناحية العراق تجوب كبد الجزيرة العربية إلى أن تصل الحجاز، تعجب عدي، وقال في نفسه مستبعداً مرحلة حصول هذه البشارة لما يرى من الصعوبات والعقبات التي تحول دون وقوعها لعل أهمها تلك القبائل التي تشتهر بالسلب وقطع الطريق بحيث تخافها القوافل المسلحة فكيف بامرأة مجردة عن كل وسائل الدفاع؛ لذا قال في نفسه: فأين صعاليك طيء أو قطاع الطرق فيها الذين دمروا البلاد نهباً وسلباً، ماذا سيكون حالهم في تلك المرحلة ؟ وعندما وعد بالنصر على كسرى زاد عجبه، وعندما وعد النبي بتحقيق الأمن الاقتصادي؛ بحيث يشمل كل فرد في المجتمع، بل يزيد المال عن حاجتهم زاد الأمر غرابة في نفسه ... وما هي إلا سنوات قلائل حتى عاين عدي بنفسه أن الأمن المجتمعي قد بلغ مداه كما قال النبيﷺ وكان أحد الفاتحين لكنوز كسرى، ونستخلص من الروايتين السابقتين ما يلي:

- تعزيز حالة السلم كان من أهم أهداف النبيﷺ حتى مع بداية دعوته.
- وضوح هذا الهدف عند النبيﷺ كان له الأثر الكبير في منهجيته العامة الداعية إلى تغليب حالة السلم على الحرب.
- هيمنة هذا الهدف عل فكر النبيﷺ كان له الأثر الكبير في رسم أخلاقيات مثالية لحروبه وأصدق مثال على ذلك فتح مكة.
- كان لهذا الهدف أثره في اتساع مساحة الموادعات والمعاهدات بين النبيﷺ وبين أهل الجزيرة العربية .

٣: حرب من أجل السلام : كان النبي ﷺ يعلم منذ اللحظة الأولى لنشأة دولته أن المحيط الوثني بحكم ثقافته الدموية المبنية على الكسب من خلال الغزو والنهب والسلب ، لن يسمح للمسلمين بالاستقرار في وطنهم الجديد، خاصة مع تحريض سيدة العرب (مكة) على ذلك، لذا اتخذ النبي خطوة سريعة احترازية ووقائية تكفل موادعة المحيط الوثني للدولة الناشئة ، و تردع كل من تسول له نفسه الاعتداء عليها ، وقد شرع النبي ﷺ مباشرة بعد تحقيق نوع من الاستقرار الداخلي إلى تأمين الخطر الخارجي بالدولة من خلال بعث السرايا والخروج بغزوات وقائية أو تأديبية ، وواقع

(١) أخرجه البخاري برقم٣٤٠٠ [البخاري (١٣١٦/٣)]

جزيرة العرب هو الذي ألجأ النبي لهذا الأسلوب، وكان النبي يتعاطى معه بحسب الضرورة الملجئة له ، ويتوخى منه من الدرجة الأولى تحقيق نوع من الموادعة والمسالمة بينه وبين المحيط الوثني ، وعقد معاهدات ثنائية بينه وبين القبائل العربية.

إذاً قتال النبي كان يراد به تحقيق السلام وإشاعة الأمن، أي هو حالة إضطرارية استثنائية فرضتها عليه طبيعة الثقافة الدموية التي تميزت بها الجزيرة العربية ، ففرضية القتال وضرورة المواجهة العسكرية لم تؤثر على الأصل العام الذي قامت عليه الرسالة، وهو تغليب حالة السلم واغتنام أي فرصة تعززها مع المجتمعات الأخرى ، بل النبي اعتبر تحقيق الموادعة وتعزيز حالة السلم مصلحة عليا وجب المصير لها حتى لو أدت إلى تنازلات مؤلمة من المسلمين ، وهذا المبدأ العام الذي خضعت له رسالة الإسلام وتمثل في العهد النبوي بأسمى صوره ليشير إشارة واضحة إلى مدى أخلاقية الحروب التي خاضها النبيﷺ، إنها حروب لا تهتم بالسيطرة على الغير أو تحقيق مكاسب مادية، بل هي حروب هيمن على عقلية القائمين فيها تغليب فكر المسالمة في كل فرصة تسنح لذلك، ولهيمنة هذا الفكر حصرت تعاليم الرسالة دائرة المواجهة على الجهات التي تتخذ موقفاً عدائياً من المسلمين، وذلك لكف عدوانه والحد من صده عن سبيل الله سبحانه وتعالى ومعاقبة له على إساءته للمسلمين، أما الجهات التي لا تتخذ موقفاً عدائياً مع المسلمين، أو تلك التي تنزع لمسالمة المسلمين، فما جعل الله سبحانه وتعالى على هؤلاء سبيلاً في مواجهتهم أو إعلان الحرب عليهم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** ﴾ (١) .

٤: تغليب حالة السلم على الحرب لا يعني المهانة والاستسلام للعدو: بينت الآيات السابقة أن تغليب حالة السلم والجنوح له إنما يكون بعد إعداد حربي يخلق نوعاً من التوازن، وهذا وحده كفيل بإقرار حالة سلم حقيقية، وصرحت آية أخرى بأنه لا ينبغي للمسلم أو الفئة المسلمة أن تهين نفسها وتستسلم لعدوها وهي أمة عزيزة علية بإيمانها، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** . ﴾ (٢) فالآية فيها تصريح أن اللجوء للسلم والدعوة إليه إن ترتب عليه مهانة وذلة واستمكان للعدو ففي هذه الحالة لا يكون سلماً حقيقياً، بل هو استسلام ورضوخ لا يليق بعلو الإسلام وعزة أهله، ومن هذا الوجه يمكن القول أن تغليب حالة السلم على الحرب وإن كان أصل في رسالة الإسلام إلا أنه لا يصار إليه إلا حال تحقيق سلم حقيقي ضمن قوى متكافئة ، أو تكون كفة المسلمين الحربية راجحة، نعم قد يتنازل المسلمون عن بعض المصالح تغليباً لحالة السلم وترجيحاً لكفتها كما في صلح الحديبية، لكن هذا التنازل وقع من المسلمين وهم يمثلون قوة مكافئة لقريش، وهي قوة في نظر قريش لا يستهان بها، لذا لم ينقص هذا الصلح من كرامة المسلمين ولم يؤثر على هيبتهم، ولم ينل من دينهم ، وهذا هو معيار التوجه نحو السلم أو عدمه. (٣)

أمثلة تطبيقية على تغليب السلم على الحرب

لكي يتضح لنا مدى هيمنة فكر تغليب المسالمة على المواجهة في حروب النبي أسوق الأمثلة التالية:

غزوة ودان (الأبواء): هذه الغزوة هي أول غزوة غزاها النبي، وكان الهدف الأولي لهذه الغزوة هو تهديد طريق قريش التجارية رداً على تلك الحرب المفتوحة التي أعلنتها قريش على المسلمين، وهناك اصطدم جيش المسلمين مع قبيلة

(١) –النساء: الآية ٩٠

(٢) –محمد: الآية ٣٥

(٣) –انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٨/٤٠).

بني ضمرة ، إلا أنه لم يحصل قتال، بل انتهت المواجهة بموادعة بني ضمرة وعقد اتفاقية سلام معهم كان نصها: « **بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ لِبَنِي ضَمْرَةَ فَإِنّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَنّ لَهُمْ النّصْرَ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ إلّا أَنْ يُحَارِبُوا فِي دِينِ اللّهِ مَا بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً وَإِنّ النّبِيّ إذَا دَعَاهُمْ لِنَصْرِهِ أَجَابُوهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ذِمّةُ اللّهِ وَذِمّةُ رَسُولِهِ وَلَهُمْ النّصْرُ عَلَى مَنْ بَرّ مِنْهُمْ وَاتّقَى**» (١)، فهذه أول غزوة ونلحظ من خلالها تغليب النبي ﷺ لجانب المسالمة على جانب المواجهة ، مع أن قدرة المسلمين وقوتهم كفيلة بسحق تلك القبيلة وإنهاء وجودها ، إلا أن الفكر العام المهيمن على صاحب الرسالة آثر الموادعة دون المواجهة ، وتضمنت هذه الموادعة تأمين بني ضمرة على أنفسهم وأموالهم ، بل ونصرتهم ما بقوا على العهد .

سرية حمزة: وهذه السرية أيضاً من أول سرايا النبي ﷺ، وخرجت لنفس الهدف السابق، وهو تهديد الطريق التجاري لقريش ، وتوجهت السرية بقيادة حمزة ﷺ مع ثلاثين فارساً ناحية العيص نحو ساحل البحر الأحمر ، وهي منطقة نفوذ لقبيلة جهينة ، وهددت بالفعل قافلة قريش وقبل أن يندلع القتال بين الطرفين تدخل مجدي بن عمرو الجهني أحد زعماء جهينة في وساطة سلام بين الطرفين واستطاع أن ينجح في مساعيه السلمية، خاصة أنه كان موادعاً لطرفي النزاع، وانتهت المهمة بموادعة جهينة، وجاء في نص الموادعة التي عقدها النبي مع بني جهينة: « **إِنّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَنّ لَهُمْ النّصْرَ عَلَى مَنْ ظلمهم أو حَارَبَهُمْ إلّا فِي الدِّينِ والْأَهْلِ ، ولِأَهْلِ بَادِيَتِهِمْ مَنْ بَرّ مِنْهُمْ وَاتّقَى مَا لِحَاضِرَتِهِمْ**» (٢) ، هذا النص الذي يشير إلى أول سرية وسابقه الذي يشير إلى أول غزوة ليدلان صراحة على تغليب جانب المسالمة على المواجهة ، ويعززان الأمن المجتمعي في ظل المجتمع الجاهلي الذي ألف القتال والاقتتال ، بل هذا التوجه العام نحو المسالمة كان هو المهيمن على فكر النبي منذ اللحظة الأولى في شروعه في القتال حتى اللحظة الأخيرة من حياته ، وبهذا التوجه انتصر الإسلام على العالم القديم بسرعة مذهلة .

غزوة بدر الكبرى : غزوة بدر تعتبر أول مواجهة حقيقية بين النبي ﷺ وبين عدوه الأول قريش ، وهي معركة فرضت على النبي ﷺ وصحابته بسبب تعنت قريش وتصميمها على المواجهة ، ونلحظ قبل بدء المواجهة حرص النبي على تغليب جانب المسالمة على المواجهة، فبعدما اجتمعت الجموع عند ماء بدر من الفريقين، وكان النبي يحرص حتى اللحظة الأخيرة على عدم التحام الجيشين وحقن الدماء وهذا واضح من وصاياه ، فقد أوصى الجيش بعدم البدء بالقتال حتى يأذن لهم ، ولا يسلون السيوف إلا إذا غشوهم ، وأوصى أيضاً بألا يقتلوا ناساً سماهم لهم لأنهم خرجوا مع قريش كرهاً (٣)، ومن أوضح الأدلة على حرص النبي على حقن الدماء أنه عندما رأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر قال: « **إنْ يَكُنْ فِي أَحَدٍ مِنْ الْقَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ إنْ يُطِيعُوهُ يَرْشُدُوا** . » (٤) فعبارة النبي ﷺ السابقة تبرز صراحة عدم رغبته بالصدام لذا توسم في عتبة أن يتصرف تصرفاً عقلانياً يمنع من المواجهة ، وبالفعل كان لعتبة موقف قبيل المعركة أشار فيه بالانسحاب وحقن الدماء حيث قام خطيباً فيهم فقال : « **يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون** . » (٥) وكان لهذه الكلمات أثرها في تخفيف ثائرة

---

(١) –ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢٧٥/١)
(٢) –ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢٧٠/١)
(٣) –انظر الحوفي: سماحة الإسلام (١٤٣) المباركفوري: الرحيق المختوم (٢٣٩)
(٤) –انظر الحلبي: السيرة الحلبية (٣٩٧/٢) وذكره الهيثمي وقال، أخرجه البزار ورجاله ثقات [مجمع الزوائد (٧٦/٦)]
(٥) –انظر الطبري: تاريخ الطبري (٣١/٢)]

الحرب لولا أن أبا جهل تصدى له وحرض القوم على القتال، وتضمن التحريض إهانة لعتبة تبرز أن موقف عتبة ليس حرصاً على قريش، بل خوفاً على ولده الذي كان من أفراد الجيش الإسلامي، فكان لهذه الإهانة أثرها على تغيير الموقف، وتوتير الأجواء نحو الحرب . (١)

غزوة خيبر: في غزوة خيبر سيطر المسلمون على أرض المعركة، وبدأت تتساقط حصون خيبر بين أيديهم فعرض اليهود الصلح، فصالحهم النبيﷺ وأبقاهم في ديارهم بالرغم من عدم حاجته للصلح بحكم سيطرته العسكرية على خيبر.

غزوة تبوك : في غزوة تبوك حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الشمالية ، وغلب جانب المصالحة مع الأقاليم والقبائل المتاخمة للجزيرة العربية ، بل حرك سراياه لتحقيق هذا الغرض ، وبالفعل عقد صلحاً مع الأكيدر صاحب دومة الجندل ، ومع صاحب إمارة أيلة ، وغيرهم ،هذه أمثلة متنوعة رادفت حروب النبي من بدايتها حتى نهايتها ، ونلحظ فيها جميعاً أن النبي كان يغلب المصالحة على العدائية ، ونلحظ أن توجه المسلمين نحو المسالمة لم يكن من ضعف ، أو عن ذلة ومهانة ، بل في أكثر هذه المواقع كان المسلمون أعظم قوة من عدوهم ويملكون القدرة على الحسم العسكري الذي كان لا يفضله النبي كنهاية لصراعه مع الغير .

صلح الحديبية: يعتبر صلح الحديبية من أكثر الأمثلة وضوحاً في تغليب النبي لحالة السلم على الحرب ، ولأهمية هذا الصلح وحساسيته ، وتداخل الأحداث فيه أرى أن أسوقه كاملاً مبرزاً منهج النبي في تغليب حالة السلم على الحرب، في يوم الاثنين من ذي القعدة سنة ٦هـ خرج النبي متوجهاً بأصحابه لأداء العمرة ، وكان أن رأى في منامه أنه يدخل مكة مع أصحابه محرماً مؤدياً العمرة فبشر النبي أصحابه بها ، وأخبرهم أنه معتمر فخرج معه قرابة الألف وأربعمائة ولم يخرجوا إلا بسلاح المسافر فقط، وتحرك النبي تجاه مكة فلما وصل ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وعلمت قريش بقدوم النبي للعمرة فقررت منعه وصده عن البيت بشتى الوسائل، أرسل النبي ﷺ عيوناً ليعلم كيف استقبلت قريش خبر قدومه فجاءه العين قرب عسفان ، وأخبره قائلاً : إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .

استشار النبي ﷺ صحابته في الأمر ، فقرروا المضي في العمرة مهما كانت النتائج ، واتخذ النبي وصحابته طريقاً وعراً غير معهود إلى مكة حتى وصل الحديبية ، وفي تلك اللحظات كان خالد بن الوليد قد خرج مع مائتي فارس ليصد النبي ﷺ عن البيت الحرام، وكاد أن يغير عليهم في صلاة الظهر ثم رأى أن يغتنم نفس الفرصة في صلاة العصر، فأنزل الله حكم صلاة الخوف، و فاتت فرصة الإغارة على المسلمين وهم في صلاتهم على خالد، ولما رأى أن المسلمين قد غيروا طريقهم نحو مكة ، انطلق نحو مكة لينذرهم قدوم المسلمين، وعندما اقترب النبي من ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت القصواء خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «**إِنّهَا مَا خَلَأَتْ وَلَا هُوَ لَهَا بِعَادَةٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ. أَمَا وَاَللّهِ لَا يَسْأَلُونَنِي الْيَوْمَ خُطّةً فِي تَعْظِيمِ حُرْمَةِ اللّهِ إلّا أَعْطَيْتهمْ إيّاهَا**» (٢) ثم زجر الناقة فوثبت به، ثم عدل حتى نزل بأقصى الحديبية، وهذا الكلمات التي صدرت من النبي تشير صراحة إلى أنه كان يغلب جانب المصالحة منذ اللحظة الأولى لتحركه.

النبي ﷺ يفتح باباً للمفاوضات، وعندما نزل النبي في الحديبية جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وأخبره باستعداد قريش للمواجهة فقال له النبي: «**إنّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، إنّمَا جِئْنَا لِنَطُوفَ بِهَذَا الْبَيْتِ فَمَنْ صَدّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ وَقُرَيْشٌ قَوْمٌ قَدْ أَضَرّتْ بِهِمْ الْحَرْبُ وَنَهَكَتْهُمْ فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتهمْ مُدّةً يَأْمَنُونَ فِيهَا، وَيُخَلّونَ فِيمَا بَيْنَنَا**

(١) –المباركفوري: الرحيق المختوم (٢٣٩)؛ الجزائر: هذا الحبيب (٢١٨)
(٢) –الواقدي: مغازي الواقدي (٥٨٧/٢)

وَبَيْنَ النّاسِ وَالنّاسُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَإِنْ ظَهَرَ أَمْرِي عَلَى النّاسِ كَانُوا بَيْنَ أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النّاسُ أَوْ يُقَاتِلُوا وَقَدْ جَمَعُوا وَاللّهِ لَأَجْهَدَنّ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، أَوْ لَيُنفِذَنّ اللهُ أَمْرُه» (١) كانت هذه بمثابة رسالة من النبي تبرز أمرين هامين هما: تصميم النبي ﷺ على تنفيذ أمر ربه مهما كانت النتائج ؛ لذا لا تتصور منه قريش أي وهن أو خور واستعداد النبي ﷺ للمفاوضات مع قريش، وليوادعوه ويتركوه وشأنه، هذا مجمل مضمون الرسالة وهي تبرز حرص النبي على تقريب النفوس وتبريد جو الحرب وإضعاف الحماسة للقتال ، وقد قام بديل بإبلاغها لقريش، فاهتمته وتشككت في كون النبي لم يأت لقتال، فاقترح عليهم سيد ثقيف عروة بن مسعود أن يذهب لمقابلة النبي ويسمع منه ثم يأتيهم بالخبر اليقين، ويحاول أن يثني النبي عن عزمه لزيارة البيت، فجاء النبي وأعاد عليه النبي ما ذكره لبديل ، ودخل في حوار مع النبي ﷺ ليثنيه عن زيارة البيت ويبرز له مدى استعداد قريش للمعركة وحاول أن يثير حرباً نفسية على المسلمين ويثبط من عزمهم ببيان أن الذي جاء بهم محمد لقتال قريش ما هم إلا أوباش وأخلاط سرعان ما يفرون ويتركونه لوحده يلاقي مصيره ، لكنه رأى تصميماً من النبي ﷺ وتفانياً ممن حوله ،واستعداداً غير معهود لأي معركة وهاله ما رأى من تعظيم الصحابة لنبيهم والتفافهم حوله ، فرجع إلى قريش محذراً لهم من أي مواجهة مع الرسول، وكان من جملة ما قاله لهم: « **أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى، والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد وأصحابه ، والله ما يشدون إليه النظر وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلى أن يشير إلى أمر فيفعل ، وما يتنخم وما يبصق إلى وقعت في يدي رجل منهم يمسح بها جلده وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشيء ، وقد حزرت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، فمادوه يا قوم وأقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تنصروا عليه رجل أتى هذا البيت معظماً له معه الهدي ينحره وينصرف، فقالت قريش: لا تكلم بهذا يا أبا يعفور، لو غيرك تكلم بهذا للمناه ولكن نرده عن البيت في عامنا هذا** . » (٢)، وكان هذا أول شرخ أحدثه النبيﷺ في الجبهة الداخلية لقريش، واستطاع بحنكته أن ينقل الحرب النفسية إلى مكة.

ثم أرسلت قريش الحليس سيد الأحباش بطلب منه، وعندما علم النبي بقدومه قال: هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه، وأمر برفع الصوت في التلبية، فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله، وذلك إعظاماً لما رأى فقد كان الوادي مجدباً لا ماء ولا مرعى، وقد أكل الهدي أوباره من طول الحبس، ورأى المسلمين وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتلبية وهم في زي الإحرام قد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم، فهاله ما رأى واستنكر على قريش فعلتها واعتبر موقفها عدوانياً ضد زوار بيت الله الحرام ، وعاد أدراجه لمكة دون أن يلتقي مع رسول الله (٣)، كان النبي ﷺ عالماً ومستوعباً لشخصية الحليس ونفسيته ويظهر ذلك من قوله : هذا من قوم يتألهون أي يعظمون الحرمات ؛ لذا رأى أن يستفيد من طبيعة هذه النفسية ببيان حال الهدي وتعظيم الحرمات أمامه، ورأى أن يقابله بالفعل الذي يؤثر به خاصة أن الحليس كان يتمتع بسمعة طيبة بين العرب ، وذلك لما يتميز به من رجاحة عقل ومركز ممتاز بوصفه سيد الأحابيش ،وكان يتمتع بتقدير واحترام من جانب النبي ﷺ وقريش على حد سواء ؛ والتأثير عليه له دوره في إحلال السلام بين الطرفين المتنازعين والعمل على كبح جماح قريش واقناعها بالعدول عن موقفها العدائي للمسلمين، وهكذا استطاع النبي ﷺ بحنكته السياسية أن يوظف الطاقات ويدير الصراع

(١) –انظر الواقدي: مغازي الواقدي (٥٩٣/٢) الشامي: سبل الهدى والرشاد (٤٣/٥) ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم (٢٣٩)
(٢) –أخرجه ابن حبان برقم ٤٨٧٢ [صحيح ابن حبان (٢٢١/١١وما بعدها)
(٣) –انظر ابن حبان : صحيح ابن حبان (٢٢٢/١١)

لصالحه من خلال إقناع الخصم والناس بقوة الحق الذي يدعو له وإضعاف عزيمة عدوه عن المواجهة والقتال وإيقاع الشتات بين صفوفه ، وهذا واضح من الأثر الإيجابي لصالح المسلمين الذي رجع به كل من سيد ثقيف وسيد الأحابيش وبذلك استطاع النبي أن يوهن جبهة قريش ويبعد حلفاءها عنها ، ويعزز عندها الاستعداد للمسالمة ، لكن طغيان قريش حال دون انصياعها للحق واستعدادها للسلام مما اقتضى موقفاً حازماً ساقته الأقدار بعد إرسال النبي ﷺ لعثمان لقريش

بيعة الرضوان: رأى النبي أن يوفد مبعوثاً خاصاً من جانبه لقريش يبلغهم بنواياه السلمية بعدم الرغبة في القتال واحترام المقدسات ، ومن ثم أداء العمرة والعودة إلى المدينة ، فأرسل النبي ﷺ لذلك عثمان بن عفان، فقامت قريش باحتباسه ليتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن ثم يردوا عثمان بجوابهم على وفادته ، وطال احتباس عثمان ، وأشيع بين المسلمين أنه قتل ، فقال النبي لما بلغته الإشاعة: لا نبرح حتى نناجز القوم ، ثم دعا أصحابه للبيعة ، واجتمعوا تحت سمرة عظيمة في الحديبية ، وبايعه الصحابة على ألا يفروا وبايعته جماعة على الموت ، هذه البيعة جاء ذكرها في القرآن وسميت بيعة الرضوان لأن الله سبحانه وتعالى قد أنزل رضوانه على المشاركين فيها يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [1]،في تلك الأثناء رجع عثمان للمسلمين، وشعرت قريش بحرج الموقف وتأزمه بعد احتباس عثمان خاصة بعدما بلغها أمر البيعة وتصميم النبي على القتال، فأرسلت مكرز بن حفص ليفاوضه، فقال النبي عندما رآه : هذا رجل غادر، وقال له ما قال لبديل وأصحابه، وبينما هو يكلمه إذا جاء سهيل بن عمرو و عندما رآه النبي قال: لقد سهل الله من أمركم ، وأراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

نبي السلام: جلس سهيل بن عمرو مع النبي ﷺ ، وبعد مفاوضات طويلة استقر الأمر على معاهدة للصلح تضمنت مختلف القضايا مثار الخلاف بين الجانبين ، وكان النبي ﷺ لين الجانب حريص على الصلح حتى لو ترتب عليه بعض الضيم في جانبه ، ما دام بالصلح يحقن الدماء ويفتح المجال لرسالته لتنطلق عبر مجالها الدعوي السلمي ، وما دام من خلاله ينهي الصراع المسلح الذي فرضته عليه قريش ، والمتتبع لسير الصلح وبنوده والملابسات التي رافقته يعلم مدى حرص النبي ﷺ على إحلال السلام، وما تمثل بها من خلق النبي في النزول عند رضا الطرف الآخر، فعندما شرع النبي ﷺ في إملاء صيغة الاتفاقية المتفق عليها أمر علياً أن يكتب ويبدأ المعاهدة بكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) فاعترض سهيل بن عمرو على تلك الصياغة، وقال: لا أعرف الرحمن، اكتب باسمك اللهم ، فضج الصحابة على هذا الاعتراض قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن، ولكن النبي تمشياً مع سياسة الحكمة والحلم والمرونة قال للكاتب: اكتب باسمك اللهم، ثم أمر أن يكتب (هذا ما اصطلح عليه رسول الله) فاعترض سهيل على تلك العبارة قائلاً: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ولاتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك ، محمد بن عبد الله ، واعترض المسلمون على ذلك لكن تسامح النبي ﷺ اتسع لذلك وأمر أن يكتب الكاتب (هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله)، هذا بخصوص الصيغة أما بخصوص المعاهدة فقد تبين من خلال شروطها مدى سماحة النبي واستعداده لإحلال السلام بينه وبين قريش ، حيث تضمنت المعاهدة أربعة شروط هي:

١. يرجع محمد وأصحابه دون أداء العمرة على أن يأتوا العام القابل لأدائها، ويقيموا ثلاثة أيام فقط معهم سلاح الراكب ولا تتعرض لهم قريش في تلك المدة بأي نوع من أنواع التعرض.
٢. من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه —أي هارباً منهم –يرده محمدﷺ إلى قريش، ومن جاء قريش ممن مع محمد لا ترده قريش إليهم.

---

(١) –الفتح : الآية ١٨

٣. وضع الحرب بين الطرفين مدة عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤. من أحب أن يدخل في عقد محمد دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيهم. (١)

هذه أهم شروط الصلح، ويتضح منها أن الشرطين الأولين كانا قاسيين جداً على المسلمين، لكن سماحة النبي وحرصه على إنهاء الحرب وتغليب جانب المصالحة اتسعاً لقبولهما مع ما فيهما من ضيم وبالرغم من معارضة الكثير من أصحابه لبنوده وقد زاد الطين بله أن أبا جندل بن سهيل قد فر من مكة وانطلق نحو المسلمين وهو يرسف بقيوده، وألقى بنفسه عليهم وكتاب المعاهدة ما زال يكتب، وانتهى الأمر برده للمشركين.

وكانت هذه أول تجربة عملية قاسية لشروط الصلح تبين فيها مدى وفاء النبي بعهوده من ناحية ومن ناحية أخرى عززت جو الكآبة عند أصحابه الذي استقبل أكثرهم وعلى رأسهم عمر شروط هذا الصلح بغم وحزن شديدين واجتهدوا على عدم إمضائه وحصلت منهم مراجعات متعددة للنبي لعل أهمها ما حصل بين عمر والنبي، حيث قال عمر للنبيﷺ: يا رسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، قال يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبداً، قال عمر: **«أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قَالَ قُلْتُ: لَا قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ »** (٢)

هذه إحدى المراجعات قام بها أحد كبار الصحابة المعترضين على الصلح ، أما حال غيره من الصحابه فقد أبرزها موقفهم من النحر عندما أمرهم النبي ﷺ بنحر هديهم والتحلل من الإحرام ، فما قام منهم أحد ، فدخل على زوجه أم سلمة غاضباً ، وأخبرها بحال أصحابه ، فأشارت عليه بأن يخرج ولا يكلم أحداً وينحر عن نفسه ويحلق ، فخرج النبي ﷺ ولم يكلم أحداً ونحر عن نفسه وحلق ، فقام الصحابة فنحروا وحلقوا ، وحلق بعضهم لبعض حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من الغم، وفي هذه الظروف الكئيبة التي مرت على الصحابة نزلت سورة الفتح على رسول الله، ففرح بها واقرأها لأصحابه فقال عمر: أو فتح هذا يا رسول الله ، فقال: نعم ، فطابت أنفسهم بعد غم(٣)

البحث الرابع: أخلاقيات الانتصار

١- حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام.

٢- معاملة الأسرى.

٣- دفن قتلى العدو.

٤- مبدأ الإجارة وتأمين المحاربين.

٥- تغليب جانب الإحسان مع الأمم المغلوبة.

١.حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام.

من نظر إلى طبيعة أهل الجزيرة العربية قبل الإسلام وطبيعة حروبهم يرى أن شهوة القتل في الحروب إفراز طبيعي لتلك البيئة القاسية التي كانوا يعايشونها، فحر الصحراء وجذب الحياة وشظف العيش قد ألقى بظلاله على نفوسهم التي

(١) -انظر الحلبي: السيرة الحلبية (٢/٧٠٦ وما بعدها)

(٢) -انظر صحيح البخاري (٤/١٨٣٢)

(٣) -الواقدي: المغازي (٢/٦١٧) ابن هشام: السيرة النبوية (٤/٢٨٨ وما بعدها) الحلبي : السيرة الحلبية (٢/٧١٤) الحكمي : مرويات غزوة الحديبية (١/٢٤٩

ورثت قسوتها من قسوة الطبيعة حولهم، وهذه القسوة كانت تترجم أحياناً بشكل همجي في الحروب. وفي ظل هذه البيئة القاسية أشرق نور الرسالة المحمدية ، وكان لا بد من وأد ترسبات البيئة القاسية من نفوس الأتباع وتوجيه سلوكهم نحو أخلاقيات الرسالة القائمة على الرحمة والسماحة والصبر والعفو وتثبيط كل النوازع الغضبية من النفس ، لذا كانت السنوات الأولى للرسالة في العهد المكي بمثابة مدرسة عملية للأتباع نحو التحلي بتلك الفضائل ، وفي العهد المدني حيث الحروب والمواجهة العسكرية كانت التوجيهات النبوية أثناءها تهتم بحسم مادة التشفي أو الميل للقتل أو التسرع فيه ، وذلك من خلال تثبيط تلك الموروثات التي ورثوها من طبيعة المجتمع الصحراوي وثقافته الدموية ، لذا حرص النبي ﷺ في كل غزواته على التأكيد على مبدأ العفو من جهة ، ومن جهة أخرى كانت تعاليمه تؤكد على تخفيف ثائرة النفوس نحو التشفي أو الميل للقتل، بل نراه حريصاً على تثبيط شهوة التسرع في القتل أو الحرص على إيقاعه، أو الإقدام عليه، وهذا يفسر قلّة القتلى في حروبه مقارنة بالإنجازات التي حققها من خلالها، ويمكن ملاحظة هذا المنهج في النقاط الأربعة التالية :

أولا: تربية الجند على عدم التسرع في القتل:

كان النبي يتعامل بحساسية شديدة مع مسألة سفك الدم، أو حتى التفكير في الإقدام عليه ، وهذه الحساسية تظهر بشكل واضح في إحجامه عن الأمر بالقتل حتى مع توفر دواعيه ، وذلك تربية لأصحابه بعدم اللجوء لهذا الإجراء حال التمكن إلا في حالات الضرورة القصوى، وبعض التجارب العملية من النبي تقفل الباب حتى مع وجود مبررات الإقدام على قتل بعض المجرمين، وهذه التجارب لها الأثر في جيش النبوة على حسم فكرة الإقدام على القتل أو التسرع فيه، وتفتح المجال واسعاً أمام الذرائع المعززة لحقن الدماء، ومن الأمثلة الدالة على هذا الإجراء ما يلي:

النبيﷺ وذو الخويصرة رأس الفكر الخوارجي: عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ: «**بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ –وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ –فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ! فَقَالَ: وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ: دَعْهُ** »[1] وفي رواية أخرى: « **بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا قَالَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الْإِزَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ ! قَالَ: وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟ قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ! قَالَ: لَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي فَقَالَ خَالِدٌ : وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ فَقَالَ: إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ وَأَظُنُّهُ قَالَ: لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ** »[2] وفي رواية أخرى « **فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ** اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ! قَالَ: لَا قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَامَ إِلَيْهِ خَالِدٌ سَيْفُ اللَّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ قَالَ لَا»[3]

---

(١) – أخرجه البخاري برقم ٣٤١٤ (١٣٢١/٣)

(٢) – أخرجه البخاري ٤٠٩٤ (١٥٨١/٤) ؛ ومسلم برقم ١٠٦٤ (٧٤٢/٢)

(٣) – أخرجه مسلم برقم ١٠٦٤ (٧٤٣/٢)

هذه الروايات الثلاثة تشير إلى قصة ذي الخويصرة مع رسول الله، وقد تضمنت اتهاماً لرسول الله بالظلم في توزيع الغنائم ، وهذا الاتهام في حق رسول الله يعتبر من أعظم الجرائم، وهي جريمة تخل بجوهر التوحيد، وهذا ما أثار الصحابة على ذي الخويصرة، ولم يجدوا كفارة لهذه الجريمة إلا بضرب عنقه ، وهكذا تسارع كل من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما بالاستعداد لضرب عنقه وطلب الإذن بذلك من رسول الله، لكن النبي الأعظم منعهما من ذلك بالرغم من فداحة جرم هذا الرجل ، وبالرغم من معرفة النبي لحقيقة هذا الرجل حيث إنه سيكون أصل الخوارج في مستقبل الأمة الإسلامية ، إلا أنه لم يعزز فكرة التسرع في القتل عند الأصحاب ؛ لذا نجده يبحث عن ذرائع وشبه تحول دون الإقدام على قتله أو الإساءة إليه فقال : لعله يكون يصلي أي أن احتمالية كونه يصلي كفيلة بحقن دمه، والتجاوز عن جرمه فراجعه خالد بقوله: كم من مصلي يقول بلسانه ما ليس في قلبه . وكانت هذه المراجعة من خالد بمثابة القرينة التي يمكن أن تبيح دم هذا الرجل فأجابه النبي إني لم أؤمر بالتنقيب على قلوب الناس فهذا الحوار يشير صراحة إلى تلك التربية التي تلقاها الأتباع، والتي تحول بينهم وبين التسرع في القتل أو الإقدام عليه.

عمر ورأس النفاق ابن أبي سلول: عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ قَالَ: يَرَوْنَ أَنَّهَا غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَقِيلَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ النَّبِيُّ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ أَقَلَّ مِنْ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ فَقَالَ: فَعَلُوهَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ فَأَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ النَّبِيُّ يَا عُمَرُ دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ .** » [1]

الموقف السابق يبرز أن النبي كان يربي أصحابه دائماً على عدم التسرع في القتل أو التشفي، بل يعودهم الصبر والتأني، ووضع الأهداف الرسالية وأخلاقيات الرسالة نصب أعينهم في كل موقف، وبالرغم من فداحة الجريمة السابقة التي تضمنت تصريحاً بإخراج النبي من المدينة ذليلاً إلا أن النبي قد أقفل باب تصفيته في وجه المتسرعين على الإقدام عليه، ولو فتح النبي المجال لتعداد جرائم أبي سلول في حق المسلمين لما شفع له شافع في تلك اللحظة ، ولكان ضرب عنقه من باب الجزاء الوفاق لما ارتكبه في حق المسلمين خاصة أنه تولى قيادة النفاق في المدينة، وكان من أكثر الناس كيداً للمسلمين، وتخذيلاً لهم، ومناصرة لعدوهم، وهذا واضح من مواقفه المتعددة في أحد وغزوة بني النضير، وانتهى به الأمر بإشاعة حديث الإفك الطاعن بزوج رسول اللهﷺ، وهي جريمة من أعظم الجرائم في حق النبي، وقد وصفه القرآن بأنه تولى كِبَر هذه الفرية ، وتوعده القرآن أعظم وعيد لفعلته هذه . فهذه بعض جرائم أبي سلول، وكل جريمة منها كفيلة بتصفيته، ودواعي الانتقام قوية في حق هذا الرجل، وأولى الناس بالانتقام منه هو رسول الله وليس عمر لكنها أخلاق محمدﷺ الداعية للفكر الرسالي الرحيم وتغليبه على كل النزوات والشهوات.

نلحظ من الموقف السابق أن النبي قد ذكر ذريعة تحول دون قتل عمر لأبي سلول حتى مع توفر كل دواعي القتل، وفي ذلك تربية للأصحاب على عدم اتخاذ قرار القتل أو التسرع به، أو الحرص على إيقاعه حتى مع توفر دواعيه، وهذه التربية كان لها دور كبير في حقن كثير من الدماء من جهة، ومن جهة أخرى عززت تربية الإحجام عن القتل حتى مع توفر دواعيه عند أتباع الرسالة الذين مثلوا جيش النبوة ، وبالتالي قصرت فكرة الإقدام على القتل على حالات استثنائية

(١) – أخرجه البخاري برقم ٤٦٢٤ (١٨٣٦/٤) ؛ مسلم برقم ٢٥٨٤(١٩٩٨/٤)

تخضع لمقتضيات الضرورة القصوى، وهذه التربية آتت أكلها في كل معارك المسلمين التي تميزت بقلة القتلى فيها، وعززت من تلك الصورة المثالية التي رسمتها الجيوش الإسلامية في فتوحاتها المتكررة ، والتي تميزت بقلة القتلى قياساً مع حجم تلك الفتوح، يقول المفكر والقانوني الفرنسي المعاصر مارسيل بوازار: « **منذ الفتح العربي الإسلامي ، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحاً من التسامح مع غير المسلمين ، ومع الشعوب المغلوبة في زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعاً ولا عاطفة**» (١)

بالرغم من أن هناك مصلحة قوية في تصفية رأس النفاق أبي سلول إلا أن النبي ﷺ ألغاها رعاية لصورة الإسلام من جهة في الموقف السابق ، وفي موقف آخر يتطوع ابن رأس النفاق نفسه لقتل أبيه وجاء بهذا العرض لنبي الله ليأذن له في قتل أبيه على جرائمه إلا أن النبي ﷺ رفض طلبه رعاية لحقن الدماء وسجل مثالية غير معهودة ، وقال لعبدالله ابن أبي سلول : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ، وكلا الموقفين يشيران صراحة إلى أن مسألة حقن الدماء هي غاية عليا في نظر النبي ؛ لذا نجد النبي ﷺ ينتقل من ذريعة لأخرى كل ذلك تحقيقاً للغاية العليا عنده ، بل موقف النبي مع ابن رأس النفاق يشير إلى أنه حتى لو لم توجد ذريعة مانعة من قتله ، فالأصل التأكيد على مبدأ حقن الدماء رعاية لمبدأ الإحسان وتغليباً لخلق الرفق التي تميزت به رسالة محمد ﷺ .

مثال ثالث: عن الخيانة العظمى حاطب بن أبي بلتعة: صحابي قام بإفشاء سر عسكري لصالح الأعداء من خلال رسالة أرسلها لقريش يبلغهم بها عن تحركات المسلمين واستعدادهم لغزو مكة ، وكان هذا السر العسكري من أخطر الأسرار العسكرية التي تمس معركة حساسة جداً للمسلمين وللرسول ﷺ الذي اهتم بجانب السرية المطلقة في هذه الغزوة بالذات لخطورتها وتعلقها بموقع مقدس كبلد الله الحرام ، لذا يعتبر إفشاء هذا السر بمثابة خيانة عظمى من حاطب لله ولرسوله، وليس من السهل أن يشفع له شافع مقابل جرمه هذا، لكن كان للنبي معه موقف آخر، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: « **بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ وَكُلُّنَا فَارِسٌ فَقَالَ : انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ قُلْنَا : أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي مَعَكِ ؟ قَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ فَأَنَخْنَا بِهَا فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا قَالَ صَاحِبَايَ مَا نَرَى كِتَابًا قَالَ قُلْتُ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ قَالَ: فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ مِنِّي أَهْوَتْ بِيَدِهَا إِلَى حُجْزَتِهَا وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ فَأَخْرَجَتْ الْكِتَابَ قَالَ: فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا غَيَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إِلَّا وَلَهُ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ قَالَ: صَدَقَ فَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ قَالَ فَقَالَ: يَا عُمَرُ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ قَالَ فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**» (٢)

فالجريمة هي الخيانة العظمى للأمة، وعند التحقيق في دواعيها تبين أن لحاطب شبهة في الوقوع بها، فما كان من رسول الله إلا أن بين صدق حاطب، وأوصى صحابته بعدم توبيخه ولا تقريعه، ثم رأينا موقف عمر المبادر بطلب الإذن بضرب عنقه لخيانته فبين النبيﷺ أن هناك ما يشفع لحاطب وهو كونه من أهل بدر معتبراً أن المشاركة في غزوة بدر فضيلة

(١) – خليل : قالوا عن الإسلام (٢٧٤)
(٢) – أخرجه البخاري برقم ٥٩٠٤ (٢٣٠٩/٥)

موجبة للجنة لا يفسدها ما يحصل من أهلها بعدها فالنبي بالرغم من عظم جرم حاطب إلا أنه لم يتركه نهبة للقتل أو للطعن والتجريح، بل أبرز له فضيلة دمعت لأجلها عينا عمر الذي كان قبل ذلك يتهمهم بضرب عنقه، وهذه القصة صريحة في أن النبيﷺ لم يقتصر مع أتباعه على منعهم من التسرع في القتل، بل في حسم مادته من قلوبهم وذلك ببيان أهم الجوانب الإيجابية فيمن يقصدون قتله. كذلك نلحظ في جيش النبي محمدﷺ أنه وخلال مرحلة الجهاد المبارك الذي خاضه النبي لم يعرف أي شكل من أشكال التصفيات الداخلية في أفراده حتى مع عظم جرم بعض الأتباع، وهذه أخلاقيات لم تعهد في جيش على الأرض مهما بلغ من رقيه الفكري والأخلاقي، بل لم تعرف ثورة دون تصفيات داخلية، ولم نعهد جيشاً أحجم عن هذه التصفيات إلا جيش محمدﷺ خاصة فيما يتعلق بالخيانة العظمى للجيش وأسراره العسكرية.

ثانيا: تثبيط الفكر الداعي للقسوة أو التشفي أو الانتقام.

مثاله الأقرب اختيار الرأي الأرفق في أسارى بدر تغليباً لجانب الرحمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ .**» [(١)] ، وفي رواية عَنِ الْحَسَنِ قال : « **اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ. قَالَ فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُم. فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِﷺ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ. فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّﷺ، ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ تَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ وَتَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ الْغَمِّ قَالَ فَعَفَا عَنْهُمْ**» [(٢)]

هذه القصة بخصوص أسرى بدر تشير إلى أن النبي كان لا يشجع المواقف التي تشير إلى القسوة، لذا كان يعرض عن رأي عمر الذي كان يميل إلى قتل الأسرى ، وهذا الأسلوب تربية لصحابته الموجودين بعد غزوة بدر إلى أن النبي يحرص في مثل هذه المواقف إلى اللين وإلى تثبيط النوازع التي ترشد إلى القسوة أو التشفي . إن تكرار إعراض النبي عن موقف عمر، ثم إشارته في المرة الثانية أن هؤلاء الأسرى إنما هم إخوان الأمس فيه تعزيز إلى أنه كان يميل إلى موقف فيه شفقة ورحمة بهم، وهذا واضح عندما ذهبت عن نفسه الغمة بعد رأي أبي بكر الذي نحا هذا المنحى، وهذا الموقف فيه تربية للأصحاب لأن يتجهوا هذا الاتجاه في آرائهم. تشير السير إلى أن سعد بن معاذ كان من أصحاب الرأي القائل بقتل الأسرى منذ اللحظة الأولى، وذلك بدلاً من أسرهم؛ لذا عندما شرع المسلمون في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس فقال له رسول اللهﷺ: « **وَاللّهِ لَكَأَنّك يَا سَعْدُ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ الْقَوْمُ ، قَالَ : أَجَلْ وَاَللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ كَانَتْ أَوّلَ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللّهُ بِأَهْلِ الشّرْكِ . فَكَانَ الْإِثْخَانُ فِي الْقَتْلِ بِأَهْلِ الشّرْكِ أَحَبّ إلَيّ مِنْ اسْتِبْقَاءِ الرّجَالِ**» [(٣)] فهذا الموقف عاينه النبي ﷺ من سعد ﷺ قبل الاستشارة في الأسرى

---

(١) –أخرجه مسلم برقم ١٧٦٣ (١٣٨٣/٣)

(٢) –أخرجه أحمد برقم ١٣٥٨٠ (٢٤٣/٣) ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب وهو كثير الغلط والخطأ لا يرجع إذا قيل له الصواب وبقية رجال أحمد رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٨٧/٦)] والحديث له شاهد في الصحيح .

(٣) –انظر ابن هشام: السيرة النبوية (١٧٦/٣)

، ونلحظ أن النبي قد غلب الأرفق على الأشد تغليباً لفكر الرحمة وتعزيزاً له عند الأصحاب ، واختيار الأرفق منهج عام أكد عليه النبي ﷺ في تعاليمه ، من ذلك قوله : « **إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ** »(١) وهذا المنهج لاحظه الصحابة من النبي ﷺ في كل شأنه حتى أصبح فكراً عاماً مهيمناً على كل تصرفاته ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : « **مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا** لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا ، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا » (٢)

المثال الثاني: حسم نازع التشفي والانتقام من الجنود: غزوة أحد كانت من أكثر الغزوات إيلاماً للنبيﷺ خاصة بعدما رأى ذلك التمثيل الفظيع والتشويه البالغ الذي تعرض له عمه حمزة، لذا عندما رآه بكى بكاءً شديداً عليه، حتى سمع لبكائه شهيقاً. بل لهول الصدمة وبشاعة المنظر، قال النبيﷺ: «**لَوْلَا أَنْ تَحْزَنَ صَفِيّة، وَيَكُونَ سُنّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْت، حَتّى يَكُونَ فِي بُطُونِ السّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطّيْرِ وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللّهُ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنْ الْمَوَاطِنِ لَأُمَثّلَنّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ.**» (٣) وقال المسلمون رعاية لحال النبي وكمده على عمه : « **وَاللّهِ لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللّهُ بِهِمْ يَوْمًا مِنْ الدّهْرِ لَنُمَثّلَنّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يُمَثّلْهَا أَحَدٌ مِنْ الْعَرَبِ** »(٤) كلمات خرجت من فم النبي ﷺ في لحظة انفعالية خلال موقف من أبشع المواقف التي عاشها ، وإن كان محمداً ﷺ كغيره من البشر إلا أن عواطفه محكومة بمنهجه ؛ لذا جاء التوجيه الرباني مباشرة بعد تلك الكلمات ليصحح مسار تلك العواطف ، وأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل:١٢٦] فعفا النبي ﷺ وصفح مباشرة ونهى عن المثلة

وهذا الموقف له دلالاته فالنبيﷺ رأى من حال صحابته الكرام أنهم بردهم بدءوا يميلون نحو فكر التشفي والانتقام، وهذه النوازع لا تليق بأخلاقيات الرسالة ، وترك العنان لها دون توجيهها في تلك اللحظة سيترتب عليه عواقب وخيمة على مستوى أخلاقيات الحرب ؛ لذا جاء التوجيه المباشر من السماء وأعقبه توجيهاً آخر من النبي ﷺ مبني على العفو والصفح ، ثم النهي عن المثلة ، وبهذا التوجيه السريع استطاع النبي ﷺ أن يصحح مسار الفكر عند صحابته الكرام دون جنوحه نحو نوازع التشفي والانتقام

ثالثا: تغليب فكر الرحمة على نازع التشفي والانتقام:

عن العباس في حديثه الطويل عن فتح مكة وعرض كتائب الفتح على أبي سفيان وفيه: «**حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَالَ أبو سفيان: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ العباس: هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ ... فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ قَالَ: مَا قَالَ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا فَقَالَ النبيﷺ: كَذَبَ سَعْدٌ وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ تُرْكَزَ رَايَتُهُ بِالْحَجُونِ**» (٥) وفي رواية: « **وَأَمَرَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ أَنْ يَدْخُلَ فِي بَعْضِ النّاسِ مِنْ كَدَاءٍ، فَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنّ سَعْدًا حِينَ وَجّهَ دَاخِلًا، قَالَ: الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمُ تُسْتَحَلّ الْحُرْمَةُ فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ – قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : هُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ – فَقَالَ: يا رَسُولَ**

---

(١) –أخرجه مسلم برقم ٢٥٩٤ (٢٠٠٤/٤)

(٢) –أخرجه البخاري برقم ٦٤٠٤ (٢٤٦١/٦) ؛ ومسلم برقم ٢٣٢٧ (١٨١٣/٤)

(٣) –انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١٢٠/٦) ؛ الحاكم : المستدرك (٢١٨/٣) ؛الهيثمي : مجمع الزوائد (١٢٠/٦)

(٤) –انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٧٢/٢) ؛ ابن كثير : البداية والنهاية (٤٤/٤)

(٥) –أخرجه البخاري برقم ٤٠٣٠ (١٥٥٩/٤)

اللّهِ اسْمَعْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ! مَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي قُرَيْشٍ صَوْلَةٌ ،فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: أَدْرِكْهُ فَخُذْ الرّايَةَ مِنْهُ فَكُنْ أَنْتَ الّذِي تَدْخُلُ بِهَا »[١]

يستنتج من هذه القصة عدة دلالات منها: نلحظ من سياق القصة أن بعض القادة الميدانيين وهو سعد بن عبادة قد أبدى نازع التشفي والانتقام قبيل فتح مكة، و قد صرح بهذا النازع أمام أبي سفيان، وفي الرواية الثانية أنه كرر هذا النازع مرة أخرى عند دخوله مكة ، وقد استنكر عليه بعض الأتباع هذا النازع المستهجن في أخلاقيات الجيش فقام بإخبار النبي ﷺ بذلك مما يشير إلى أن الجنود رأوا في ألفاظ سعد شيئاً غريباً عن ثقافتهم التي تربوا عليها . كما نلحظ من النبي أنه لم يسكت على تلك الألفاظ التي تلفظ بها سعد ؛ لذا سارع بتكذيب سعد في مقولته ، والتكذيب هنا لا يراد به أنه كاذب ، بل يراد به أنه بمقولته يخالف أهداف المعركة الحقيقية ، ويرفع لها شعاراً مزيفاً لا يمت لأهداف المعركة الحقيقية المعلنة والخفية ، ومباشرة صحح النبي ﷺ شعار المعركة مبرزاً أن اليوم هو يوم المرحمة ، ويوم تعظم فيه الكعبة، وفي الرواية الثانية استخدم النبي إجراءً احترازياً حيث نزع الراية من سعد وأعطاها لعلي، وفي رواية لابن سعد وذلك ليضمن عدم وقوع تجاوزات مبنية على التشفي والانتقام، هذه القصة صريحة في أن النبيﷺ لم يكن ليسمح لنوازع التشفي والانتقام في التغلغل في جيشه بل كان دائماً يصحح مسار الفكر ويهذب السلوك، ويتخذ الإجراءات الاحترازية الكفيلة بعدم ترجمة هذه النوازع في أرض المعركة

رابعا: الدم يستتبع الدم:

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: «إِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، عَدَتْ خُزَاعَةُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَتَلُوهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِﷺ فِينَا خَطِيبًا فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ مِنْ حَرَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا، لَمْ تَحْلِلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ غَضَبًا عَلَى أَهْلِهَا، أَلَا ثُمَّ قَدْ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ أَلَا فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ، فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَاتَلَ بِهَا، فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يُحْلِلْهَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ، وَارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ الْقَتْلِ فَقَدْ كَثُرَ أَنْ يَقَعَ إن نفع [٢]لَئِنْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَنَّهُ، فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ، وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ، ثُمَّ وَدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ الَّذِي قَتَلَتْهُ خُزَاعَةُ.» [٣]

مناسبة هذه الخطبة أن خزاعة قامت بقتل رجل من هذيل وهو مشرك في مكة عند فتحها وقد قتلته انتقاماً، لأنه سبق أن قتل رجلاً منهم في الجاهلية ، فعلم النبي ﷺ بالأمر فغضب غضباً شديداً، وجمع الناس وخطب خطبته السابقة، ويستفاد من هذا الحدث عدة أمور : نلحظ من سياق القصة أن النبي قد غضب غضباً شديداً لمقتل الهذلي في مكة بالرغم من كونه مشركاً ، ورأى النبي أن خزاعة بفعلتها هذه قد استغلت موالاتها للنبي وظروف الفتح لتحقق ثأراً لها ، وهي بهذا الفعل تحقق هدفاً شخصياً لها مبني على التشفي، وذلك على حساب الأهداف الرسالية التي كان النبي ﷺ يسعى دائماً على عدم غيابها من فكر جيشه . بين النبي أن فعلة خزاعة منافية لأخلاقيات الحرب الداعية لحسم النوازع الانتقامية، وأن قتلهم هذا لا يترتب عليه إلا مزيد سفك الدماء ، والدم يستتبع الدم ، ومن هذا الوجه بين النبي أن سفك

---

(١) –انظر الطبري: تاريخ الطبري (١٥٩/٢) ؛ ابن هشام : السيرة النبوية (٦٥/٥)

(٢) –انظر ابن هشام: السيرة النبوية (٧٧/٥)

(٣) –أخرجه البخاري برقم ١١٢ (٥٣/١) ؛ ومسلم برقم ١٣٥٥(٩٨٩/٢) ؛ أحمد واللفظ له [المسند (٣٢/٤)]

الدم لا يحل المشكلة بل يعمقها ؛ لذا قال : لقد كثر القتل إن نفع ؛ أي أن القتل من كل وجه لا ينفع ؛ لذا الأصل حسمه ، وعدم الانجرار وراء الدواعي الانتقامية والنوازع الثأرية . نلحظ أن النبي قد قرر ودي قتيل هذيل ؛ ليحسم دواعي الانتقام و تسلسل الدم ، وقول النبي لخزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتل ، فيه تقريع وتوبيخ لخزاعة على فعلتهم المنكرة استجابة لداعي الانتقام ، وسياق الخطبة كله يشير إلى مدى حساسية الأمر عند النبي ؛ لذا تضمنت كثيراً من التوجيهات والتحذيرات التي تكفل عدم تكرار مثل هذه النوازع الانتقامية [١] هذه الإجراءات المتكررة من النبي كغضبه الشديد وخطبته المطولة لتدل دلالة صريحة على أن النبي كان يتعامل بحساسية شديدة تكفل حسم كل نوازع الانتقام والتشفي، وتضمن عدم تدخلها في ثنايا حروبه الرسالية ذات الأهداف السامية

٢ .معاملة الأسرى:

كانت أول تجربة عملية للمسلمين مع ظاهرة الأسرى في غزوة بدر، وقد انتهت التجربة العملية الأولى بالعفو عنهم ثم نزلت الآيات المتكررة المبينة لحكم الأسرى، وأخلاقيات التعامل معهم، ونظرة متكاملة لمنهج التعامل مع الأسرى في السيرة النبوية يتضح لنا أنها تضمنت مثالية لم تعهد لا في الماضي ولا في الحاضر بالرغم من كثرة المنظمات والاتفاقيات الدولية الداعية لحقوق الأسرى.

العفو عن الأسرى ورفض مبدأ التعامل بالمثل: كان النبي حريصا على العفو عن الأسرى :بعد انتهاء غزوة بدر ووقوع أسرى من المشركين بأيدي المسلمين، قال النبيﷺ: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ** [٢]» والمطعم بن عدي كانت له سابقة خير مع رسول الله ﷺ بعد رحلة الطائف ؛ حيث أجار رسول الله عند دخوله مكة ، لكن **استثناء محدود في أرض المعركة ألجأت له الضرورة الحربية** ، النضر بن الحارث حامل لواء المشركين في بدر ، وعقبة بن أبي معيط وكانا من أكابر مجرمي قريش ومن أشد الناس كيداً للإسلام كان قتل هذين الطاغيتين واجباً من حيث الضرورة الحربية ، وهو إجراء استثنائي ألجأ إليه فداحة جرائمهما ، وهذا يقابل في العصر الحديث مجرمي الحرب الذين يجوز محاكمتهم وإعدامهم لجرائم سابقة للحرب وهي لا تسقط بالتقادم أو بالأسر [٣] فهذان لم يكونا من الأسرى فحسب، بل كانا من مجرمي الحرب وفق الاصطلاح الحديث . [٤]، بالرغم من هذا الموقف الإنساني غير المعهود ، إلا أن مكة أو قريش لم تتعاطَ معه بنفس الشفافية ، ولم تكن حريصة على المعاملة بالمثل ، أو مقابلة تلك الأخلاقيات بمثلها ، فما هي إلا شهور قلائل بعد غزوة أحد ؛ حيث وقعت حادثة الرجيع من خلال غدر قبيلتي عضل والقارة بإحدى سرايا النبي ﷺ وترتب عليها مقتل عامة السرية وأسر اثنين منهم هم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ، ثم تم بيعهم لقريش لتنال بهم ثأر بدر ، فاشترى بنو الحارث بن عامر خبيباً ليقتلوه بالحارث الذي كان قد قتله خبيب في بدر ، واشترى صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ليقتله مقابل أبيه أمية الذي قتل في بدر، وبالفعل قاموا بقتلهما شر قتلة ، وصلبوهما ووكلوا من يحرس الجثث المصلوبة (٥)، لكن **لا محل للمعاملة بالمثل في رسالة الإسلام إذا كان ذلك على**

---

(١) –اللحام: هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي (٥٢٧)

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٩٧٠ [البخاري (١١٤٣/٣)]

(٣) أبو النصر : اتفاقية جنيف الرابعة (٤٨)

(٤) يقول هيكل : « يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء ، وعند مقتل النضر وعقبة ويتساءلون أليس في ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدماء ، ظمأ لولاه لما قتل هذان الرجلان .. على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنا بين مقتل النضر وعقبة وبين ما يجري اليوم ، وما سيجري دائماً ما دامت الحضارة الغربية التي تنشح بوشاح المسيحية متحكمة في الأرض .. وهذا الذي صنع المسلمون في بدر آية في الرحمة والحسنى إلى جانب ما يقع في الثورات التي يتغنى أهلها بمعاني العدل والرحمة ، وهو لا شيء إلى جانب المجازر الكثيرة التي قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سان بارتملي التي تعتبر سبة في تاريخ المسيحية ، لا شيء مثلها قط في تاريخ الإسلام ، هذه المجزرة التي دبرت بليل ، وقام فيها الكاثوليك بذبح البروتستنتيين في باريس وفي فرنسا غدراً وغيلة في أحط صور الغدر ، وأبشع صور الغيلة [هيكل : حياة محمد (ﷺ) (٢٨٥ وما بعدها)]

(٥) انظر الواقدي : المغازي (٣٥٧/١ وما بعدها) ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم (٣٢٧ وما بعدها) ؛ الجزائري : هذا الحبيب (٢٨٠ وما بعدها) ؛ الصـــلابي : السيرة النبوية (١٨٢/٢ وما بعدها) .

حساب الأخلاق والفضيلة ، فحادثة قتل الصحابيين الجليلين وصلبهما في مكة آلمت النبي ﷺ وصحابته الكرام إلا أنها لم تؤثر في إنسانيته تجاه عدوّه في جولات أخرى ، بل استمر محمد ﷺ كأعظم قائد رباني تحكمه تعاليم السماء وأخلاقيات الرسالة ، وما هي إلا سنوات قلائل حتى أمكن الله رسوله من أهل مكة وأسر منهم ثمانين رجلاً في صلح الحديبية ، وفي ملابسات تعزز الانتقام منهم ، فقريش قد منعت رسول الله ﷺ من دخول مكة لأداء العمرة ، وكانت حالة إعلان حرب من جهة مكة ، وقامت بأسر عثمان ﷺ وأشاعت أنه قتل ، وفي ظل هذه الأجواء قام ثمانون رجلاً مسلحاً من قريش بالهجوم على حين غرة على رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وكانوا يقصدون بهذه الغارة اغتيال النبي في الدرجة الأولى، فظفر بهم النبي دون قتال . [١] وهؤلاء الأسرى سيكون لهم كيد مستقبلي ضد المسلمين كما يتضح من دلائل حالهم حيث مثلوا نخبة الحاقدين على الرسالة والرسول، وهذا واضح من تطوعهم لهذه الهجمة التي لم يخطط لها قادة قريش مسبقاً، وبالرغم من كل هذه المعطيات إلا أن الرسول الأعظم سجل مكرمة تاريخية أخرى بالعفو عنهم وقال قولته: «**دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ**» [٢] فعفا عنهم النبي، وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً** ﴾ [الفتح:٢٤]

أخلاقيات التعامل مع الأسرى

سجل التاريخ للنبي محمدﷺ معاملة أخلاقية غير معهودة للأسرى، ويمكن بيان أهم مظاهرها في الأمثلة التالية

١.معاملة مثالية للأسرى: بعد غزوة بدر وأسر سبعين من المشركين قام النبي ﷺ بتوزيع الأسرى بين صحابته الكرام وذلك بعد رجوعه للمدينة ، وقال لهم : « **اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا**» [٣] وكان لهذه الوصية أثرها على الصحابة رضي الله عنهم ، يقول أبو عزيز بن عمير وكان أسيراً : « **كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا ، فما تقع في يد رجل منهم كسرة من خبز إلا نفحني بها ، فأستحيي فأردها على أحد فيردها علي ما يمسها** . » [٤] وتكرر نفس الموقف مع أبي بن الربيع والوليد بن الوليد بن المغيرة وكانا أيضاً بين الأسرى [٥] ، وقد سجل القرآن ذلك الإيثار وتلك الأخلاق السامية التي تميز بها الصحابة في معاملتهم للأسرى ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً** ﴾ [الإنسان:٨]؛ فالآية تشير إلى أن المسلم يؤثر أسيره المعادي ويقدمه على نفسه ويعطف عليه كما يعطف على اليتيم والمسكين ، بمعنى أنه لا تظهر أي حالة عدائية مهينة نحو الأسرى بل تكريم واحترام لإنسانيتهم . وهذه المواقف المثالية غير المعهودة والتي يؤثر فيها الآسر أسيره على نفسه في الطعام تبرز مدى أخلاقية جيش النبي ﷺ في الحروب ، وتوضح منهج تعامل المسلمين مع الأسرى فلا إذلال لهم ولا تعذيب ، بل معاملة إنسانية في أرقى صورها جعلت الأسرى يستحيون من شدة كرم آسريهم وإيثارهم ، و هذه المعاملة لم تشهد البشرية أو الإنسانية مثلها قط سواء في الماضي أو الحاضر ، بل لم تعهدها الإنسانية حتى في مرحلة تصورت فيها أنها وصلت سقف الارتقاء الحضاري والإنساني ، وتغنت بالقيم والحقوق ، بل أنشأت لها مؤسسات تنادي بها ، وما هي إلا دعاوى لا رصيد لها سرعان ما

---

(١) انظر صحيح مسلم ، حديث رقم ١٨٠٨ (١٤٤٢/٣) ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم (٣٢٨) ؛ الصلابي : السيرة النبوية (٣٤٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم برقم ١٨٠٧ [صحيح مسلم (١٤٣٣/٣)] وانظر قصة الأسر كاملة في نفس الموضع السابق

(٣) انظر ابن هشام : السيرة النبوية (١٩٥/٣) ؛ الحلبي : السيرة الحلبية (٤٤٤/٢)

(٤) الطبري : تاريخ الطبري (٣٩/٢) ؛ الجزائري : هذا الحبيب (٢٢٩)

(٥) انظر الصلابي : السيرة النبوية (٥١/٢)

تتحول إلى سراب عندما تصطدم بالواقع [١] ، وهذا عصرنا خير شاهد على زيف تلك الدعاوى التي يبثها أصحابها بين حين وآخر وما سجن غوانتناموا وأبو غريب والسجون السرية والسجون الإسرائيلية عنا ببعيد .

٢. لا محل للتعذيب أو التشويه للأسرى في تعاليم الإسلام: كان بين الأسرى سهيل بن عمرو فجاء مكرز بن حفص المدينة في فدائه، فطلب آسروه الفدية منه، فقال مكرز : اجعلوني مكانه وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه ، فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً مكانه ، وكان سهيل خطيباً مفوهاً ، فقال عمر ﷺ : يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل فلا يقدم عليك خطيباً أبداً ، فأجابه النبي ﷺ قائلاً : « **لَا أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلُ اللَّهُ بِي وَإِنْ كُنْت نَبِيّا ، إنّهُ عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا لَا تَذُمّهُ عَلَيه.**» [٢]

وهذا الموقف نستنتج منه عدة أمور:

١-فيه إشارة صريحة إلى أن تعاليم الرسالة لا تتسع لارتكاب ما من شأنه تشويه الأسير أو الإساءة لإنسانيته، وأن مثل هذا الإجراء يترتب عليه القصاص يوم القيامة من رب العالمين، ويقاس على ذلك التعذيب المفضي للضرر، ولم يعهد من رسول الله ﷺ أنه مارس تعذيباً لأسراه .

٢-صيانة الجسد البشري وعدم امتهانه يعتبر حقاً من حقوق الله سبحانه وتعالى؛ لذا لا يفوت هذا الحق مقابل مصالح موهومة أو مرجوحة [٣]

٣. كسوة الأسير: عن جَابِر بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُتِيَ بِأُسَارَى، وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ**» [٤]، وهذه القصة نستنتج منها عدة دلالات :

١-إن الإسلام لا ينظر للأسير بعين المهانة، بل يتعاطى معه بما يحفظ إنسانيته ويراعي حاجاته الأساسية لذا لا يجوز تركه عارياً بل مكارم الشريعة تأبى مثل هذا التصرف والنبيﷺ عندما رأى العباس ليس عليه ثوب يستر أعلى جسده مباشرة قام بتوفير رداء له يستره.

٢-قد يقال هنا أن تصرف النبي ﷺ يمثل حالة خاصة لأن الأسير كان عمه ، وهذا ليس صحيحاً ، بل تعاليم النبي ﷺ الداعية للوصاية بالأسرى على وجه العموم تقتضي مثل هذا الإجراء ، وعلماء السنة فهموا أن تصرف النبي ﷺ على إطلاقه ؛ لذا بوب شيخ المحدثين الإمام البخاري رحمه الله هذا الحديث بقوله : « باب الكسوة للأُسارى » ، وهذا التبويب يشير إلى أن الحكم مطلق ، ويجب رعاية حاجات الأسير الضرورية من كسوة وغيرها ، ومن تتبع منهج المسلمين في هذا الباب يجد أنهم كانوا يعتنون بكسوة السجين أو الأسير ، فقد ورد عن الإمام علي ﷺ أنه كان يكسو السجين مرتين في كل سنة في الشتاء والصيف ، والتزم معاوية رضي الله عنه هذه المأثرة ، وفعلها الخلفاء من بعده ، وأمر عمر بن

---

(١) -لو نظرت إلى اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب من المادة الأولى إلى المادة السادسة والعشرين لن تجد لها تطبيقياً مثالياً كما عهدنا من رسول الله ﷺ ، لأن تطبيق النبي ﷺ لأخلاقيات الحرب لم يأت استجابة لنصوص توافقية ، بل استجابة لنداء السماء الداعي لاحترام إنسانية الإنسان . [انظر المواد المتعلقة بأسرى الحرب في / منشورات الصليب الأحمر : اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب ١٩٤٩ (٩٣ -١٠٧) ؛ بندق : موسوعة القانون الدولي في الحرب (١٤٠ – ١٤١)] ، و الحقيقة المرة التي يفضحها الواقع هي أن كل القوانين الدولية كاتفاقية جنيف وغيرها إنما جاءت لخدمة الأقوياء ، وهي في نفس الوقت سيف مسلط على الضعفاء والأمم المهزومة والضعيفة ، وهذا ملاحظ من الناحية التطبيقية فعندما قامت العراق التي كانت تتعرض لغزو عدواني بعرض صور بعض الأسرى على شاشات التلفاز ، قامت ضجة كبيرة ، وبدأ التصريح بكون هذا الإجراء منافياً لاتفاقية جنيف بحق الأسرى ، وهو انتهاك صارخ لها ، وبالمقابل تعذيب العراقيين بأبشع الوسائل وتعريتهم من ملابسهم وتسليط الكلاب عليهم وأمور أخرى يندى لها جبين الإنسانية في حق أسرى وأسيرات ، وتصوير تلك الفضائح كل ذلك لا يعد انتهاكاً ، وإن عدوه انتهاكاً ، فإنه لا يستحق إجراءً فورياً لحسمه وإنهائه وتجريم حقيقي لمرتكبيه ، وشبيه من هذا الموقف رأيناه على شاشات التلفاز مباشرة عندما هدمت السلطات الإسرائيلية سجن أريحا على أهله ، وأخرجت المعتقلين منه عراة وبشكل مهين أمام مرأى العالم ، و ما زالت هذه الفضائح ترتكب عبر صمت المنظمات الدولية ، فأين هذه القوانين التي لا تستحق الحبر الذي سودت به من الناحية التطبيقية مما عهد عن النبي ﷺ في معاملة الأسرى ؛ لدرجة تجعل الأسير يستحي من شدة كرم آسره .

(٢) -انظر ابن أبي شيبة: المصنف (٣٦٥/٧) ؛ الزيلعي : نصب الراية (١٢٠/٣)

(٣) -انظر المبيض: مصلحة حفظ النفس (١٤٥- ١٤٧)(١٥٢- ١٥٧)

(٤) -أخرجه البخاري برقم ٢٨٤٦ (١٠٩٥/٣)

عبد العزيز ولاته أن يحافظوا عليها ، بل زاد فيها حين كسا السجناء في الصيف والشتاء ثوبين ثوبين ، واقترح أبو يوسف القاضي على الخليفة الرشيد أن يصرف للسجناء ملابس ثقيلة تحميهم من برد الشتاء ، وملابس خفيفة تروح عنهم حر الصيف[١] فهذه المواقف تشير إلى أن رعاية كسوة الأسير كان يتعاطى معها المسلمون بجدية كجزء من رعاية حق الأسير واحتراماً لإنسانيته. وفي حديث أحد الأسرى قال: **يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ! فَأَتَاهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي، وَظَمْآنُ فَأَسْقِنِي قَالَ: هَذِهِ حَاجَتُكَ»** [٢] عندما طلب الأسير الطعام والشراب أجابه النبيﷺ قائلاً : هذه حاجتك ؛ أي هذا حقك نلبيه لك ، وفي هذا إشارة إلى أن المسلمين كانوا يراعون حاجات الأسير الضرورية . [٣]

٤. توفير أماكن أسر مناسبة: من الحاجات الأساسية الأخرى التي راعاها النبي ﷺ وصحابته للأسرى توفير أماكن كريمة لأسراهم ومعاملتهم معاملة رحيمة ، وقد تعددت حوادث حبس الأسرى في السنة النبوية ، فحبس ثمامة بن أثال في المسجد ، وكان النبي ﷺ دائم الاتصال به و يسأل عن حاله و يلاطفه ، وحبس آخرين في الخيام ونحوها عقب الحروب ، ثم نقلهم إلى البيوت العادية التي يسكنها عامة الناس فحبسهم فيها ، سواء في ذلك بيوت النبي ﷺ أو بيوت أصحابه ، فقد حبس سهيل بن عمرو بعد غزوة بدر في بيت زوجه سودة بنت زمعة [٤] ، ووزع غيره من الأسرى على بيوت المسلمين ، وورد أن النبي ﷺ حبس بعض بني قريظة في دار بنت الحارث الأنصارية ، والبعض الآخر في دار حسان بن ثابت ، [٥] وأوصى الناس في حقهم قائلاً : لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح ، واسقوهم وقيلوهم وأحسنوا إسارهم . [٦] خلاصة القول أن حبس الأسرى ورعايتهم كان في مناطق وأحوال أقل ما يقال فيها: إنها الحياة العادية التي يحياها أفراد المجتمع المسلم دون تمييز، بل كانت أجواء الأسر تسمح بتفاعل الأسرى مع المسلمين بشكل واسع، وهذا أمر حرص عليه النبيﷺ تغليباً لمبدأ الهداية.

٥. إكرام الأسير: عن عدي بن حاتم قال: «**جَاءَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِﷺ وَأَنَا بِعَقْرَبٍ فَأَخَذُوا عَمَّتِي وَنَاسًا، فَلَمَّا أَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللَّهِﷺ، صَفُّوا لَهُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَأَى الْوَافِدُ، وَانْقَطَعَ الْوَلَدُ، وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ، فَمُنَّ عَلَيَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ. قَالَ: مَنْ وَافِدُكِ؟ قَالَتْ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ: الَّذِي فَرَّ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَتْ: فَمَنَّ عَلَيَّ قَالَتْ: فَلَمَّا رَجَعَ وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ نَرَى أَنَّهُ عَلِيٌّ قَالَ: سَلِيهِ حِمْلَانًا قَالَ: فَسَأَلَتْهُ فَأَمَرَ لَهَا.** »[٧] ، وقصة أسر عمة عدي فيها دلالات أهمها أن المنهج الأخلاقي كان يهيمن على صاحب الرسالة في تعاطيه مع الأسرى فهو لم يكتف بالمن على تلك المرأة بل أكرمها وحملها من العطايا ما يكفيها ، وغاية ما يطمح به الأسير أن ينجو من الأسر ، وهذا كان مطمع تلك الأسيرة فنبهها علي ﷺ كي تطلب العطاء من رسول الله ففعلت وأكرمها النبي ﷺ ليسجل بذلك فضيلة لم تعهد لأسير في الأرض ، وكان لهذه الأخلاقيات أثرها في إسلام عدي بن حاتم ﷺ بعد ذلك ،كذلك موقف الإمام علي يحتَمِل أنه كان يرى مثل هذا الإكرام من رسول الله ﷺ للأسرى قبل هذا الحدث ؛ وإلا لما أرشدها لمثل هذا الطلب .

---

(١) –انظر: أبو يوسف: الخراج (١٦١ وما بعدها) أبو غدة: أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام (٣٥١)

(٢) –أخرجه مسلم برقم ١٦٤١ (١٢٦٢/٣)

(٣) – لم تعهد العصور القديمة مثل هذه الإجراءات الرحيمة مع الأسرى، فقد كان الفراعنة والأشوريون والرومان يجمعون أسرى الحرب معاً ويرسلونهم للعمل في الأشغال الشاقة، وينزلون بهم أشد أنواع العذاب، وكان الأشوريون والرومان يرسلون آلاف الأسرى لتنهشهم السباع الجائعة، أو يسملون عيونهم ويسلخون جلودهم ويشوون أجسامهم في الأفران وهم أحياء، وقد يطعمون الكلاب والذئاب أشلاء الأسرى المقطعة انظر أبو غدة: أحكام السجن (٣٣٠) نقلاً عن ديورانت في كتابه قصة الحضارة

(٤) –حديث سودة أخرجه أبو داود برقم ٢٦٨٠ (٥٧/٣)؛ والبيهقي: السنن الكبرى (٩/ ٨٩) والطبراني في الكبير برقم ٩٢ (٢٤/ ٣٥)

(٥) –انظر الطبري: تاريخ الطبري (١٠١/٢)

(٦) –انظر أبو غدة: أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام (٣٣١)

(٧) –أخرجه أحمد: المسند (٣٧٨/٤) ابن حبان برقم ٧٢٠٦ [صحيح ابن حان (١٨٣/١٦)] والطبراني برقم ٦٦١٤ [المعجم الأوسط (٣٥٩/٦) وذكره ابن كثير في تفسيره (٣٠/١) ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال عباد بن حبيش وهو ثقة [مجمع الزوائد (٣٣٥/٥)]

خلاصة القول في معاملة الأسرى في السيرة النبوية

١- حكم الأسير يتراوح بين أربعة أمور : الأول هو إطلاقه بدون مقابل ، والثاني : إطلاقه مقابل فدية ، وهذا الأمران صرح بهما قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء** ﴾ [محمد:٤] والثالث : الاسترقاق وهذا ترشد إليه السيرة العملية في بعض الغزوات كبني المصطلق وحنين وبني قريظة ، والرابع : القتل ، والتجربة العملية في السيرة النبوية أرشدت إلى أن النبي ﷺ قد استخدم الحكم الثالث وهو الاسترقاق في حدود ضيقة في حروبه ، أما الحكم الرابع فاستخدمه كحالة استثنائية في أضيق صورها مع أكابر المجرمين، أو حال الخيانة العظمى من المعاهدين ، أو حال تكرار الأسر ممن عاهدوا النبي ﷺ على عدم العودة لقتاله كما حصل مع أبي عزة الجمحي الذي أسر يوم بدر فقال للنبي ﷺ : يا محمد إني ذو بنات وحاجة ، وليس بمكة أحد يفديني وقد عرفت حاجتي فحقن النبي ﷺ دمه وأعتقه ، وخلى سبيله فعاهده أن لا يعين عليه بيد ولا لسان ، وامتدح النبي ﷺ حين عفا عنه ببعض الشعر ، وعند عودته لمكة قال : سخرت بمحمد ﷺ . وقبيل غزوة أحد حرضه صفوان بن أمية الجمحي للخروج معه وتكفل له ببناته فخرج محارباً للرسول في غزوة أحد حتى وقع أسيراً بين يدي المسلمين، فلما أُتى به النبي ﷺقال: أنعم على، خل سبيلي. فقال له النبيﷺ: لا يتحدث أهل مكة إنك لعبت بمحمد مرتين فأمر بقتله. (١)

٢-الغالب في منهج النبيﷺ تغليب مصلحة إطلاق الأسير خلال مدة قصيرة جداً من الأسر، وهذا واضح مع أسرى بدر وغيرهم كثمامة بن أثال الذي استمر في أسره ثلاثة أيام فقط، بل منهج النبي الترغيب في تحرير الأسرى واعتباره من مكارم الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المسلمون يقول النبيﷺ: «**فُكُّوا الْعَانِيَ يَعْنِي الْأَسِيرَ وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَعُودُوا الْمَرِيضَ**» (٢)

٣-لا يعني الأسر عند المسلمين القهر، أو القسر الفكري لإلجاء الأسير لتغيير معتقداته، وهذا واضح من معاملة النبيﷺ مع ثمامة.

٤-تُحترم كرامة الأسير، والأصل التعامل معه بشفافية.

٥-يجب رعاية الأسرى وتوفير كل متطلباتهم من مأوى وطعام وشراب وكسوة مناسبة ومأوى كريم، ويندب الإحسان لهم في هذا الجانب، ويخضع إكرامهم للفكر الدعوي العام المهيمن على كل تصرفات جيش النبوة

٦- لم يرد عن النبيﷺ أنه استخدم أي وسائل مهينة مع الأسرى، أو إيذاء لفظي نحوهم ،كذلك لم يرد استخدام أي وسيلة تعذيب أو تشويه في حق الأسرى .

٧-يتفرع على القول بالإحسان للأسرى رعايتهم إذا كان بينهم جرحى ومرضى ، ويتصور في غزوة بدر أن يكون بين الأسرى بعض الجرحى ، وطلب النبي ﷺ من صحابته الاستيصاء بهم يضمن الرعاية الصحية لهم . (٣)

٣. دفن قتلى العدو

أ-تعتبر غزوة بدر أول مواجهة حقيقية للنبيﷺ، وقد انتهت بهزيمة المشركين، وقتل منهم قرابة السبعين رجلاً، وكانت جثثهم منثورة في ساحة المعركة، فأمر النبيﷺ بجمع الجثث، ودفنها في بئر لا ماء بها، وهي ما يعبر عنها بالقليب، إلا جثة أمية بن خلف، فإنه قد انتفخ في درعه فملأها فذهبوا به ليحركوه فتزايل لحمه، فتركوه مكانه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما وارى جثته.

---

(١) -انظر البيهقي: السنن الكبرى (٦/٣٢٠)

(٢) -أخرجه البخاري برقم ٢٨٨١ (٣/١١٠٩)

(٣) -إذا كان بين الجرحى بعض مجرمي الحرب فإنه يجهز عليهم، وقد ذفف ابن مسعود ﷺ أبا جهل الذي كان بين الجرحى في حضرة رسول الله ، أما إذا كان الجريح من عامة الجيش فإنه يؤسر ويعامل كجريح المسلمين .

ب-في غزوة حنين مر النبيﷺ على امرأة مقتولة، ففزع لذلك وذكر لهم نهيه عن قتل النساء، ثم أمر بالمرأة فدفنت[١]، عن يعلى بن مرة قال: «**سافرت مع رسول الله غير مرة، فما رأيته يمر بجيفة إنسان فيجاوزها حتى يأمر بدفنها لا يسأل أمسلم هو أو كافر**» [٢]، يستنتج من الحوادث السابقة في السيرة ما يلي:

١-رسالة الإسلام تنظر إلى الإنسان بعين التكريم بغض النظر عن معتقده وعداوته؛ وكرامة الميت في رسالة الإسلام دفنه ولئن لم يكن للحربي المشرك حرمة قبل موته فإنه بموته تثبت له حرمة الإنسانية، وحرمة الموت بانتقاله لدار الحق، وحرمة الميت لا تؤدى إلا بدفنه، لذا تعامل المسلمون مع جثث أعدائهم كما تعاملوا مع جثث شهدائهم، وذلك من خلال دفنهم ومواراتهم بالتراب.

٢-هذا التصرف من النبيﷺ وصحابته الكرام ليس معهوداً في حروب الماضي والحاضر إذ لا يكلف الجيش المنتصر نفسه عناء تغييب جثث أعدائه ودفنها، وهذا سبق أخلاقي تميز به المسلمون على غيرهم.

٣-دفن جثث الأعداء ورد في السنن العملية، ولم يرد فيه تفصيل قولي ملزم من رسول الله مما يشعر أنه يدخل في باب الندب والفضيلة ومحكوم بتمكن المسلمين من قيامهم بهذا الإجراء، وهذا واضح في غزوتي بدر وحنين اللتين تمكن فيهما المسلمون من أرض المعركة بأريحية كاملة.

٤-لا يقال أن وضع النبي لجثث المشركين في بدر في موضع واحد وهو القليب يراد به تحقيرهم، أو امتهانهم، وإنما كره النبيﷺ أن يشق على أصحابه لكثرة جثث المشركين أن يأمرهم بدفنهم بشكل انفرادي، فكان في وضعهم في هذه الحفرة أيسر عليهم، والعبرة بحصول المقصود بمواراة الجثث.

٥-قد يتفرع حكم دفن جثث الأعداء على الأصل العام الذي يحظر التمثيل بجثث الأعداء؛ لأن ترك الجثث فوق الأرض يترتب عليه تفسخ الجثث وأكل الوحوش والهوام منها، وهذا يتضمن معنى التمثيل من خلال ترك تلك الجثث عرضة للتشويه.

٦-ترك الجثث فوق الأرض صورة إنسانية قبيحة لا تليق بأخلاقيات الإنسان لذا كان في دفنها رعاية للكرامة الإنسانية التي ذكرت الشريعة مراعاتها منذ قصة قابيل الذي قتل أخاه فأرسل الله سبحانه وتعالى غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه، وإذا كان دفن الجثث لا يليق بأخلاقيات الإنسان وتكريم الله له ، فهي من باب أولى لا تليق بأخلاقيات رسالة محمد ﷺ ؛ لذا لم يرد عن النبي ﷺ أنه ترك جثة لأي آدمي دون أن يأمر بمواراتها.

٤. مبدأ الإجارة وتأمين المحاربين

الإجارة: هي إعطاء الأمان للكافر الحربي على نفسه وماله مدة معينة وهي ما يعرف بعقد الأمان وصاحبها من أهل الحرب يعرف باسم المستأمن [٣]، ومبدأ الإجارة وتوسيع مدى المخولين به أمر حرص النبيﷺ على إثباته منذ اللحظة الأولى لتأسيس دولته، وهذا واضح في بعض بنود الوثيقة التي تعتبر بمثابة دستور للأمة ولدولة الإسلام، ومن هذه البنود: « .. **وَإِنّ ذِمّةَ اللّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النّاسِ**» [٤]، وورد عن النبيﷺ قوله: « **وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ** » [٥]، فنص الوثيقة والأثر الذي يليه يشيران إلى أن كل مسلم يملك أن يجير

---

(١) انظر عبد الرازق : المصنف ، حديث رقم ٩٣٨٣ (٢٠١/٥) ؛ وابن أبي شيبة برقم ٣٣٧٩٧ (٣٨٤/١٢)

(٢) أخرجه الدارقطني برقم ٤١ [سنن الدارقطني (١١٦/٤)] ؛ والشيباني برقم ١٥٦٨ [الآحاد والمثاني (٢١١/٣)] ؛ والحاكم برقم ١٣٧٤ وقال : صحيح على شرط مسلم [المستدرك (٣٧٠/١)] ؛ والأثر فيه ضعف لضعف عمر بن عبد الله بن يعلى حفيد الصحابي الراوي.

(٣) -انظر الزحيلي: الفقه الإسلامي (٤٢٩/٦)

(٤) -البوطي: فقه السيرة (١٦٠)

(٥) -أخرجه البخاري برقم ١٧٧١ (٦٦١/٢)

أو تحترم إجارته لمن يشاء مهما كانت مكانة هذا المسلم في المجتمع ، وسواء كان رجلاً أم امرأة ، غنياً أم فقيراً ، حراً أم عبداً في الراجح ، فمعنى كلمة أدناهم تحتمل استيعاب كل الأصناف السابقة ، بل يرى البعض أن الصبي إذا كان يطيق حمل السلاح فهو أيضاً يملك أن يجير في الدولة المسلمة، ويترتب على هذا الحكم ما يلي : يخول كل فرد في الأمة الإسلامية أن يجير من شاء من أهل الحرب، تحترم إجارة المسلم ولا يجوز خفرها بأي حال، توسيع النصوص لدائرة المخولين بالإجارة يضمن حقن الدماء بأوسع صورة؛ إذ يملك كل حربي أن يستأمن لنفسه من خلال أي فرد في الدولة الإسلامية ، وهذا الفرد يملك تخويلاً باحترام إجارته، وذلك بعد إذن الإمام ونائبه

جاء التأكيد القرآني على مبدأ الإجارة في مرحلة الانتصارات العظمى (فتح مكة وما يليها) ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة:٦] ،يقول ابن كثير في تفسير الآية : « **يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم استجارك ؛ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ثم أبلغه مأمنه أي وهو آمن مستمر حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده .** » [(١)]

تتضمّن الآية: تأمين المستجير من أهل الشرك ويراد بهم أهل الحرب على وجه الخصوص، والآية أرشدت إلى ضرورة إعطاء الأمان لمن طلبه من أهل الحرب، وإسماعه كلام الله ودعوته لدين الإسلام، وتوفير السبل الكفيلة بتأمينه أو إبلاغه مكاناً يأمن به على نفسه وماله. ويضمن هذا المبدأ حقن الدماء، وتعزيز العفو وحسم أي حالات انتقام خاصة أن المنتفع الأول منه هم المحاربون، وهذا يمهد إلى إنهاء أجواء الحرب في أسرع وقت ممكن وهي أهداف حرص النبيﷺ على تحقيقها تغليباً لمصلحة الهداية على غيرها من المصالح، وإن نظرة إلى التطبيق العملي لهذا المبدأ يتضح لنا مدى قيمته في تعزيز الأمن وإنهاء حالة الحرب، ففي فتح مكة كان كثير من كبراء مكة وأكابر مجرميها مطلوبين للجيش المسلم المنتصر، فكان في تفعيل مبدأ الإجارة رحمة بهؤلاء وتعزيز للعفو عنهم ومن الأمثلة على ذلك.

١- عند فتح مكة وإعلان النبي ﷺ الأمان العام ، رفض جمع من أهل مكة طلبه ، وقاتلوا المسلمين من الباب الذي دخلوا منه بقيادة خالد بين الوليد ﷺ ، وكان من بين المقاتلين جعدة بن هبيرة ، فلما تمت سيطرة المسلمين فر جعدة إلى بيت أم هانئ بنت أبي طالب ، وكان من أحمائها ، فدخل عليها أخوها علي ﷺ يريد قتله ، فأغلقت عليه الباب ثم قدمت لرسول الله ﷺ تطلب له الأمان فقالت رضي الله عنها: «**ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِﷺ عَامَ الْفَتْحِ ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَال: مَنْ هَذِهِ؟ فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ فَقَال: مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلَانَ ابْنَ هُبَيْرَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ** » [(٢)] هذه القصة تشير إلى أن المرأة تملك أن تجير ، وقد أجارت رجلاً مطلوباً للقتل ، وأكد النبي ﷺ على إجارتها ، وبذلك حقن دم هذا المستجير

٢- في فتح مكة تم تأمين حياة الكثيرين من أهلها من خلال مبدأ الإجارة حتى في حق أكابر المجرمين في نظر الرسالة ، من هؤلاء عكرمة بن أبي جهل ﷺ الذي فر من مكة فطلبت له زوجه الأمان من رسول الله ﷺ ، فأعطاها

(١) -ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٣٢٢/٢)
(٢) متفق عليه : أخرجه البخاري برقم ٣٥٠ (١٤١/١) ؛ ومسلم برقم ٣٣٦ (٤٩٨/١)

الأمان ، وكان ذلك سبباً في عودته وإسلامه ، وكذلك صفوان بن أمية قام بإجارته عمير بن وهب ، وعاد لمكة بعد أن فر منها ، وأعطاه النبي أماناً لمدة أربعة أشهر ، ويبقى على دينه ، وسهيل بن عمرو قام بإجارته ابنه عبد الله ، وسيأتي تفصيل ذلك في موضع آخر ، بل في ظني أنه لم يعهد عن النبي ﷺ أنه رفض إجارة أحد ، وذلك ترغيباً للصحابة لكي يتوسعوا في هذا الأمر بما يحقن أكبر عدد من الدماء .

لم تقتصر الإجارة على النفس بل تتعداها لأمور أخرى حتى في حق من وجب قتلهم في عرف الشرع ، فالمعلوم أنه صدر حكم بقتل كل مقاتلة بني قريظة بسبب خيانتهم العظمى ، وكان بين المحكوم عليهم الزبير بن باطا، وكان له فضل على على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية حيث من عليه في حرب بعاث ، فأراد ثابت أن يجزيه ، فذهب للنبي ﷺ طالباً منه أن يهب له دمه ، فأجابه النبي ﷺ ، فذهب ثابت للزبير ليبلغه بعفو النبي ﷺ عنه ، فقال الزبير : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أهله وولده . قال : هم لك فأتاه فقال : إن رسول الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك . قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم . فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ماله ! قال : هو لك فأتاه فقال إن رسول الله قد أعطاني مالك فهو لك . ثم بدأ الزبير يسأل عن رفاقه من كبار يهود بني قريظة ماذا فعل بهم ؟ فقال له ثابت : إنهم قتلوا ، فناشد الزبير بعدما علم بمقتل القوم ثابتاً بأن يلحقه في القوم لأنه لا رغبة له بالعيش بعد فراق أعز الناس إليه ، فأجيب إلى طلبه(١) ،ويستفاد من هذه القصة ما يلي :

١- الإجارة قد تتسع من قبل المجير فتشمل جوانب أخرى للمستجير منها التوسعة عليه في المال ورد الأهل له، وقد تحتمل غير ذلك حسب الظروف الخاصة بكل حادثة، لكن يظهر لنا من هذه القصة أن النبي ﷺ لم يرفض أي طلب للمجير ، بل أعطاه كل ما سأله ، وذلك رعاية لحق الإجارة ليؤدي دوره بأوسع الصور في الدولة الإسلامية .

٢- نجد في القصة السابقة أن النبيﷺ احترم مبدأ الإجارة حتى لو تناول محكوماً عليه بالإعدام، وهذا إجراء يكفل التوسعة في حقن الدماء.

خلاصة المبحث

١- لا يعني الانتصار في الإسلام قهر العدو وملاحقته، بل هو إنهاء لحالة التوتر والعدائية من جهة العدو، فإذا انتهت حالة العدائية بانتصار المسلمين، كان في تفعيل مبدأ الإجارة حسم لكل معززات العدائية من جهة العدو.

٢- توسيع دائرة المخولين بالإجارة في المجتمع الإسلامي هو إجراء إنساني يكفل حقن الدماء وإنهاء حالة الحرب وتعزيز العلاقة بين أفراد الجيش المنتصر والعدو المغلوب، ويؤكد على مبدأ الإحسان الداعي لهداية العدو.

٣- تفعيل مبدأ الإجارة واحترامه من القيادة العليا جعل المسلمين يستثمرونه حتى في حق الفارين من موقع الهزيمة، كما حصل مع عكرمة وزوجته وصفوان وعمير بن وهب، وهذا يحسم حالة العداء، أو توسيع مدارها من خلال الفارين.

٤- لم يعهد عن رسول اللهﷺ أنه رد جوار مسلم، بل كان يعزز احترامه، ويبالغ في إجابة طلب المجير حتى لو خرج عن حدود الإجارة الطبيعي.

٥- يعتبر تفعيل مبدأ الإجارة وتوسيع دائرة تطبيقه من أهم أخلاقيات الانتصار؛ لأن المنتفعين من هذا المبدأ هم المقاتلون من جهة العدو من الدرجة الأولى.

٥.تغليب جانب الإحسان مع الأمم المغلوبة

(١) الطبري: تاريخ الطبري (١٠٢/٢) ابن هشام : السيرة (٢٠٣/٤)

الإسلام رسالة رحمة وهداية ، والحرب حالة طارئة يراد بها الدفاع عن الرسالة أو رد اعتداء أو حصر حالة الصد الحاصلة من أئمة الكفر ، وعند الحسم العسكري لصالح المسلمين كان النبي ﷺ يحرص بعده على إنهاء كل آثار الحرب بتغليب الفكر الدعوي المبني على الإحسان للمغلوب ، وهذا واضح في كل المعارك التي كان فيها الغلبة للمسلمين ، ومن الأمثلة عليه : **غزوة بدر** : انتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين على مشركي مكة ، وتم أسر سبعين منهم ، ومباشرة أمر النبي ﷺ بإحسان معاملة الأسرى ، ثم قام بإطلاق سراح الأغنياء منهم مقابل فدية ، أما الفقراء فبعضهم عفا عنه دون مقابل من باب المن ، وبعضهم عفا عنه وأطلق سراحه بعد أن قام بتعليم عدد من المسلمين الكتابة .

غزوة بني المصطلق : بنو المصطلق هم بطن من خزاعة ، وفي السنة الخامسة للهجرة في أرجح الأقوال قامت بنو المصطلق بتهيئة جموعها لمواجهة المسلمين ، فأرسل النبي عيناً ليتأكد من صحة تلك الأنباء، فجاءه الخبر بأنهم يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقام النبي بمباغتتهم قبل أن يتهيأ لهم الاستعداد الكامل وانتهت المعركة بمقتل عشرة من بني المصطلق وواحد من المسلمين وتم أسر القبيلة كسبي حسم النبي بهذه المعركة خطر بني المصطلق ، وقسم السبي بين المسلمين ، ثم كان جانب الإحسان لبني المصطلق من خلال حادثة زواج النبي من جويرية عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما سبى رسول الله سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عمه فكاتبت على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها فوالله ما هو إلا أن وقفت على باب الحجرة فرأيتها كرهتها وعرفت أن رسول الله سيرى منها مثل ما رأيت فقالت جويرية يا رسول الله كان من الأمر ما قد عرفت فكاتبت نفسي فجئت رسول الله أستعينه فقال رسول الله: أو ما هو خير من ذلك؟ فقالت: وما هو؟ قال: أتزوجك وأقضي عنك كتابتك فقالت: نعم قال: قد فعلت قالت عائشة: فبلغ المسلمين ذلك قالوا: أصهار رسول اللهﷺ فأرسلوا ما كان في أيديهم من سبايا بني المصطلق قالت : فلقد عتق بتزويجه مائة أهل بيت من بني المصطلق ،فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها [(١)] ،هذا الموقف له دلالاته ، فالنبي الأعظم بزواجه قد فتح باباً سريعاً للإحسان وإنهاء أجواء الحرب ، وهو يعلم حب الصحابة له ، وحرصهم على حفظ وده ؛ لذا سارعوا إلى إطلاق سراح السبي والمن عليهم ، وكان لهذا الإحسان أثره على إسلام القبيلة بأكملها، والملاحظ من ثنايا القصة أن آثار الحرب وترسباتها لم تدم طويلاً بل تحولت إلى علاقة ود وامتنان بين الفريقين ترتب عليه إسلام المغلوب بعد إحسان الغالب له .

غزوة خيبر : خيبر كانت تمثل مركز الثقل لليهود ، وهي في نفس الوقت كانت بؤرة توتر في الجزيرة العربية للمسلمين ؛ حيث كانت مركز تحريض ضدهم ، ومأوى لكثير من أصحاب الكيد في المنطقة الشمالية ، وكانت من حين لآخر تفتعل الأحداث المهيجة ضد المسلمين بين القبائل العربية ؛ لذا وجد النبي ﷺ ضرورة في حسم وجودهم نهائياً في المنطقة الشمالية ، فكانت غزوة خيبر التي انتهت بانتصار المسلمين وفتح حصون خيبر ، وكان قرار النبي ﷺ إنهاء وجود يهود من خيبر وإجلاؤهم عنها ، لكن اليهود عرضوا عليه بقاءهم في أرضهم ومزارعهم مقابل حصة في الزرع ، فأجابهم النبي ﷺ لطلبهم وأبقاهم في أرضهم واشترط عليهم أن له الحق في إجلائهم متى شاء . [(٢)]

غزوة الفتح: قريش هي العدو الأول لرسول الله وقد لقي النبيﷺ وكثير من أفراد جيشه من المهاجرين كثيراً من إشكال القهر والإيذاء من جهتهم لكن لاحظنا في فتح مكة كيف غلب النبيﷺ جانب الإحسان على نازع الانتقام ،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم ٣٩٣١ (٢٢/٤) ابن حبان واللفظ له برقم ٤٠٥٤ (٣٦١/٩)؛ والحاكم برقم ٦٧٨١ (٢٨/٤) .
(٢) –انظر ابن سيد الناس: عيون الأثر (١٤٧/٢) وحديث مزارعة اليهود لخيبر أخرجه البخاري برقم ٢٣٣١ (١٠٥/٣)

حيث كان العفو منه ، ثم بعد ذلك كان الإكرام لأهل مكة من غنائم حنين حتى دخل عامتهم في دين الله سبحانه وتعالى وتفاصيل إحسان النبي ﷺ لأهل مكة سأتناوله بالتفصيل عند حديثي عن فتح مكة .

غزوة حنين : بعد غزوة حنين مكث النبي ﷺ شهراً كاملاً وقيل ثمانية عشر يوماً لم يقسم الغنائم أملاً في قدوم هوازن ، ولما لم تأت قام النبي ﷺ بتوزيع الغنائم ، ثم بعد ذلك جاءت هوازن تستشفع النبي ﷺ في النساء والذراري التي وزعت على الجيش كسبي وغنائم ، فقال لهم النبي ﷺ : أما ما كان لي ولبني المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس ، فقوموا فقولوا إنا نستشفع رسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم ثم ذلك وأسأل لكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ فقال رسول الله : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقال عيينة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا ، فقال رسول الله: من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم[1]، وهذا الموقف نستنتج منه عدة أمور :

١-نلحظ من هدي النبيﷺ أنه لم يكن همه جمع الغنائم، بل كان حريصاً فقط على إنهاء حالة توتر فرضت عليه من جهة ثقيف، وذلك بعد فتح مكة، لذلك نرى النبيﷺ يؤخر توزيع الغنائم لينهي حالة الحرب بإحسان منه ينسل به أي ضغينة أمكن أن تترسب في النفوس بعد الحرب، وهذا منهج كان يحرص عليه النبيﷺ بعد كل غزوة يقوم بها حيث كان يهتم بختمها بموقف إنساني غير معهود.

٢-نلحظ أيضاً أن جانب الإحسان لم يتأثر حتى بعد تأخر هوازن وتوزيع الغنائم، وخلال سياق القصة نرى أن النبيﷺ قد نصب نفسه شفيعاً لمن كانوا أعداءه ليرد عليهم نساءهم وذراريهم، ولاحظنا في الموقف أن النبيﷺ استخدم كل الوسائل ليضمن إحساناً غير منقوص لهوازن وقد استشعرت هوازن بعظم المنة حيث يرون قائد عدوهم يبذل قصارى جهده ويرغب جنده بعطايا مستقبلية كل ذلك ليقر أعين هوازن بأهلهم فأي إحسان بعد هذا الإحسان.

٣-قد يسأل سائل لماذا لم يرد النبيﷺ السبي خلال أمر قيادي واستخدم أسلوباً غير ملزم مع جيشه والإجابة على ذلك أن هذا التصرف تضمن أدباً من آداب القيادة مع جندها فالجند قد تملكوا السبي تملكاً حقيقياً مباحاً لذا لم يرغب النبيﷺ أن ينزعها نزعاً ممن تملكها بوجه حق بل استخدم الترغيب لتطيب النفوس فيما تخرجه من ملكها بعدما استقر. [2]

٤-نلحظ أن جانب الإحسان لم يقتصر على من جاءه من وفد ثقيف ، بل بعد إحسانه أراد أن يتممه مع ألد أعدائه ، وهو قائد جيوش حنين نفسه ؛ لذا سأل وفد هوازن عنه قائلاً : ما فعل مالك بن عوف ؟ قالوا: هو بالطائف مع ثقيف فقال رسول الله: أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله أو أعطيته مائة من الإبل فأتى مالك بذلك فخرج من الطائف فلحق برسول اللهﷺ فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه وأنشد الشعر في مدح النبي[3] والأبيات تشير صراحة إلى عظمة إحسان النبي ﷺ لهم بما يخالف ما عهدوه من قوانين الحرب في الجزيرة العربية ، وهي تبرز مدى قدرة النبي ﷺ على إنهاء أجواء الحرب حتى مع قادة العدو أنفسهم.

---

(١) -أخرجه البيهقي برقم ١٢٧١٢ [السنن الكبرى (٣٣٦/٦)]

(٢) -انظر أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٤٧٩/٢)

(٣) -انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٣٤٧/٢) أبو بكر القرشي: مكارم الأخلاق (١٢٣/١) ابن هشام: السيرة النبوية (١٦٦/٥ وما بعدها) الواقدي: المغازي (٩٥٦/٣) .

البحث الخامس: بين مثالية حروب جيش خاتم النبيين، والقانون الدولي المعاصر [١]

أولا: حول مبادئ سير العمليات الحربية بين الإسلام والقانون الدولي الإسلامي.

من المعلوم أن القانون الدولي الإنساني في شكله الحالي يقوم على جملة من المبادئ التي تتفرع بدورها إلى أحكام تفصيلية تهدف في مجموعها إلى تحديد الضمانات اللازمة للحد من آثار النزاعات المسلحة، والعمليات الحربية بالخصوص، على الأشخاص الذين لا يشاركون في القتال أو أصبحوا غير قادرين على المشاركة فيه. وتمتد تلك الضمانات أيضاً إلى الممتلكات التي لا تشكل أهدافاً عسكرية. وتفرض أحكام القانون الدولي الإنساني على الأطراف المتحاربة احترام الضمانات الواردة في مواثيقه. وتقيد أو تحظر استخدام وسائل وأساليب معينة في القتال والقانون الدولي الإنساني وإن كان لا يمنع الحرب، فإنه يسعى إلى الحد من آثارها حرصاً على مقتضيات الإنسانية التي لا يمكن أن تتجاهل الضرورات الحربية **وإلى جانب مبدأي " الإنسانية " و " الضرورة العسكرية " سنتعرض إلى قاعدتي " التفرقة " بين الأهداف العسكرية والأشخاص المدنيين والممتلكات أو الأعيان المدنية و " التناسب " في القيام بالأعمال الحربية. ومن خلال استعراض هذه المبادئ الأربعة، يمكن أن نلاحظ مدى العلاقة بين مضمونها ومدلولها في القانون الدولي الإنساني وأحكام الإسلام.**

إبان ظهور الإسلام كانت الوحشية في الحروب والتمثيل بالأجساد العادة الجارية والمتبعة وكانت رسالته الرامية إلى توسيع نطاق المدنية تتمثل بتحسين الأوضاع المؤلمة للمجتمعات في تلك البرهة وردم الهوّة الأخلاقية بين الشعوب وكان ثمّة تأثير كبير للتعامل الإنساني الذي دعا إليه الإسلام فيما يرتبط بالنزاعات المسلحة وكان له دور محوري في نشوء القوانين المتعلقة بالحرب وتبويبها بالشكل الموجود، يقول "توني فانر" وهو المدير السابق لقسم القانون في مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر ورئيس تحرير المجلة الدولية للصليب الأحمر:

"تطرقت جميع الأديان والحضارات إلى القوانين التي تحكم العلاقات الدولية في مجال الدبلوماسية والسلم والحرب، **وقد كان للعلاقات الحديثة التي نشأت بين الحضارتين الإسلامية والغربية دور مهم جدا في صياغة القانون الدولي الإنساني، لكن سراية التعاليم الإسلامية إلى القوانين الأوروبية وطريقة إدارة الحرب تعودان إلى فترة الحروب الصليبية، وفي هذا الإطار ذكر أحد الحقوقيين في خطاب له في أكاديمية القانون الدولي في لاهاي عام ١٩٢٦بأن منشأ قانون الحرب الدولي في شكله الحديث هو المبادئ الإسلامية التي أدخلها الكنسيون إبان الحروب الصليبية إلى قانون الفروسية ثم تحولت بمرور الزمن إلى قانون الحرب بشكله المعاصر كما قدم القاضي كريستوفر ويرا مانتري شواهد بشأن تأثير الرؤية الإسلامية في كتابات هيوغو غروتيوس حول قانون الحرب**"[٢].

وضع المسلمون هذه القوانين الرصينة لحالتي السلم والحرب ابتداء من القرن السابع الميلادي، ومازال لها وجود متميّز في القوانين والعلاقات الدولية إلى يومنا هذا فقد التفت المسلمون لهذا الأمر قبل أن يبدأ الغرب بتدوين نظام للحرب بألف عام وكان الفيه الحنفي محمد بن الحسن الشيباني(ت:١٨٩ هـ) مؤسسا لهذا العلم ورائدا فيه وذلك من خلال تأليف

---

(١) من نظر على النصوص القانونية التي تحكم أخلاقيات الحروب في القانون الدولي يجد أنها تتضمن مساحة واسعة تحقق سهولة التحايل عليها واستخدامها لصالح الأقوياء في المؤسسات الدولية ، بل أمكن أن تسمح هذه النصوص بعموميتها لكثير من الانتهاكات التي تصيب أخلاقيات الحرب في مقتل أحياناً ، وأصبحت هذه العموميات مجالاً رحباً للشروح الكثيرة المتناقضة أحياناً ، ومن ناحية أخرى كثير من العبارات القانونية نفسها قد تشرع ارتكاب بعض المآسي ، وهذا أمر انتبه إليه كثير من القانونيين ؛ لذا نجد بعد كل جريمة حرب متاهة قانونية بين القانونيين في توصيفها ، وهذا يبرز أن الإشكالية ليست في النصوص القانونية ، بل في الاستعداد النفسي والعقدي لتطبيقها ، والأرضية الفكرية الداعية لاحترامها ، وفي ظل هيمنة الهوى والمصالح لا محل لاحترام كل ما يتناقض مع تلك المصالح ، لكن قد تتسع الأرضية الفكرية لشرعنة ما يترتب على هيمنة المصالح النفعية وفق القانون الدولي ونصوصه المطاطة التي تتسع لتشريع كل شيء وحظر كل شيء في نفس الوقت حسب المصلحة ، وواقعنا يشهد بذلك [راجع / الديك : المعاهدات في الإسلامية والقانون الدولي العام (٣٦ وما بعدها) ؛ الهيف : القانون الدولي العام (٧١٠) ؛ أبو النصر : اتفاقية جنيف الرابعة وتطبيقاتها في الأراضي الفلسطينية (١٧٢ وما بعدها) ؛ أبو الوفا : الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام (٣٧٢/١٠

(٢) –الحرب وقيودها الأخلاقية مقارنا بين الفقه الإسلامي والقانون الدولي الإسلامي، مجموعة من الباحثين، ص:٣٦٨. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ٢٠١٨

لكتابه السير الكبير وشرحه الإمام السرخسي (ت:٤٨٣ هـ)، وقد اكتشف الغربيون قيمة الإمام محمد بن الحسن بعد أن ظهرت ترجمة كتابه السير الكبير إلى التركية عام ١٨٢٥م **فأنشئت في فرنسا عام ١٩٣٢م جمعية سموها جمعية الشيباني للقانون الدولي**، فهو أفرد للعلاقات الدولية في الإسلام مؤلفات خاصة يتناول فيها أحكام الجهاد والحرب، وأحكام الصلح والمعاهدات، وأحكام الأمان، وإرسال السفراء والمبعوثين، وآثار قيام الحرب، وسياسة المسلمين في تنظيم الحرب، وما يجوز وما لا يجوز في ذلك كله، وقد أثنى على هذا الكتاب كل الباحثين المهتمين بالعلاقات الدولية في الإسلام، ووجدوا فيه علماً غزيراً، وأسلوباً ممتعاً، وفقهاً أصيلاً، فاستحق أن يكون – عن جدارة – رائد التفكير في القانون الدولي في العالم كله.

لقد استقى الإمام محمد مادة كتابه من الآثار والأخبار من علماء عصره فقهاء ومحدثين، وكانت هذه المادة الأساس الذي أقام عليه محمد عمله المبتكر الرائع الذي يشهد له بغزارة العلم وعمق التفكير، وشمول النظرة، ودقة التفصيل والتبويب والتفريع، فهو بحق أول كتاب في القانون الدولي العام والخاص في العالم كله، وهذا يضع تاج فخار على هامة الإمام محمد، ويجعله رائد القانون الدولي، قبل أن يتفطن علماء القانون الوضعي إلى أهمية هذا الفرع من القانون والكتابة فيه، مما جعلهم يلتقون على إنشاء جمعية دولية باسم (جمعية الشيباني للقانون الدولي) في (غوتنجن) بألمانيا، وقد انتُخب لرئاستها آنذاك (١٩٥٥م) الفقيه المصري د. عبد الحميد بدوي، وتهدف هذه الجمعية إلى التعريف بالشيباني وإظهار آرائه ونشر مؤلفاته المتعلقة بأحكام القانون الدولي الإسلامي، ثم أعاد تنظيم هذه الجمعية المستشرق العراقي مجيد خدوري، الذي أخرج كتاب(السير الكبير) في طبعة جديدة، مأخوذة من كتاب (الأصل) للإمام محمد، وهو يختلف عن كتاب (السير الكبير) الذي وضعه مستقلاً بهذا الاسم وشرحه السرخسي([1])

١–مبدأ الإنسانية

لا يمكن الحديث عن قانون " إنساني " دون الرجوع إلى الأصل، أي " الإنسانية " والحرب، وهي حالة واقعية من صنع البشر، لا يمكن أن تلغي الإنسانية، وهو ما تؤكده بوضوح الأحكام الدولية، عرفية أو مكتوبة، إذ تقضي بوجوب " معاملة الضحايا بإنسانية " أي احترام شرفهم ودمهم ومالهم. والأساس في الإسلام هو تكريم الإنسان كما جاء في التنزيل العزيز : {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا } [الإسراء : ٧٠]، والفعل "كرم " يقودنا إلى لفظ " الكرامة " وهذه العبارة مدار القواعد الأساسية الرامية إلى صيانة الذات البشرية حتى في أشد الظروف قسوة وهي الحروب وحفاظاً على مقتضيات الإنسانية يجب ألا تستهدف العمليات الحربية من لا يشاركون في القتال ولا أولئك الذين أصبحوا خارج حلبة القتال والقاعدة الإسلامية التي تؤيد هذا المبدأ تستند إلى الآية الكريمة {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين } [البقرة : ١٩٠] أي أن القتال ينحصر في فئة المقاتلين وأن النهي عن الاعتداء يقتضي التوقف عند حدود معينة.

ونعلم أن مواثيق القانون الدولي الإنساني وضعت لكل فئة من الفئات المشمولة بالحماية نظاماً قانونياً محدداً، لكن منطلقات كل تلك المواثيق وأهدافها واحدة، وهي تقوم على مبدأ المعاملة الإنسانية، وعلى امتداد التاريخ الإسلامي نجد الجيوش الإسلامية تضم في صفوفها المسعفين والأئمة والقضاة وتحرص على تمكينهم من أداء وظائفهم. ومنذ معارك الإسلام الأولى كانت النساء يقمن بإسعاف المرضى والجرحى، وأرسى الرسول صلى الله عليه وسلم قواعد حظر التمثيل بالجثث والإجهاز على الجرحى والانتقام من الأسرى وطالبي الأمان. وعلى سبيل المثال نذكر أن إطعام الأسير مذكور بوضوح في القرآن الكريم :{ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا } [الإنسان : ٨]، وفي الحديث الشريف

(١) –د. محمد الدسوقي في أطروحته الإمام محمد بن الحسن الشيباني وأثره في الفقه الإسلامي، والدكتور نجيب أرمنازي في كتاب الشرع الدولي في الإسلام، ص٤٥

: " استوصوا بالأسارى خيراً "[١] والعبارة على قصرها بليغة شاملة، فالخير يشمل الجوانب المادية والمعنوية للحياة في الأسر.

٢-مبدأ التفرقة بين المقاتلين وغير المقاتلين

من أحدث معاهدات القانون الإنساني نذكر البروتوكول الأول الإضافي إلى اتفاقيات جنيف لسنة ١٩٤٩ والصادر عام ١٩٧٧، وقد نصت مادته ٤٨ على هذه القاعدة : " تعمل أطراف النزاع على التمييز بين السكان المدنيين والمقاتلين وبين الأعيان المدنية والأهداف العسكرية ومن ثم توجه عملياتها ضد الأهداف العسكرية دون غيرها " . وهذه القاعدة العرفية هي أساس قوانين الحرب وأعرافها، وفي صياغتها بوضوح وإدراجها في معاهدة دولية تأكيد لأهميتها أياً كانت ظروف النزاعات المسلحة ونلاحظ أن فئة " غير المقاتلين " هي أشمل من المدنيين. والقوات المسلحة نفسها تتكون من مقاتلين وغير مقاتلين كأفراد الخدمات الطبية والشؤون الدينية.

وتقتضي قاعدة التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين، من جهة، والأهداف العسكرية والأعيان المدنية من جهة أخرى عدم استهداف المدنيين بالعمليات الحربية ومن أصبح غير قادر على القتال أي الجرحى والمرضى والغرقى وأسرى الحرب وأي شخص هابط بمظلة بعد أن أصيبت طائرته. كما لا يستهدف بالعمليات الحربية أفراد الخدمات الطبية والدينية سواء كانوا مدنيين أم عسكريين وأفراد الدفاع المدني وأفراد منظمات الإغاثة الدوليون والمحليون المرخص لهم. وفي ما يخص الأعيان، يوجب القانون الدولي الإنساني على الأطراف المتحاربة الامتناع عن استهداف كل ما لا يشكل هدفاً عسكرياً، وخص بالذكر السدود والمحطات النووية لتوليد الطاقة الكهربائية، والممتلكات الضرورية لبقاء السكان على قيد الحياة والمناطق الآمنة والمحيّدة ومنزوعة السلاح والمحلات غير المحمية عسكرياً والأعيان الثقافية. والحماية التي يكفلها القانون الإنساني للأشخاص والممتلكات تظل قائمة ما لم يشارك الشخص المحمي في العمليات الحربية وما لم تستخدم الممتلكات المحمية لأغراض حربية.

وتضمن القانون الإنساني حظر الأعمال الانتقامية ضد الأشخاص المحميين وحظر الأعمال نفسها في مواضع معينة ضد فئات من الممتلكات أو الأعيان، ويعطي القانون الإنساني الأولوية لقرينة الصفة المدنية للأشخاص والممتلكات إذا ثار الشك حولها. ويمنع القانون الإنساني القيام بالهجمات العشوائية ويلزم أطراف النزاع باتخاذ الاحتياطات اللازمة للتثبت من طبيعة الهدف المقصودة مهاجمته.

إن هذه التفرقة الجوهرية التي أشرنا إليها تعد من القواعد الراسخة في الشريعة الإسلامية التي لا تقر الحرب الشاملة، وتحصر القتال في دائرة محددة زماناً ومكاناً وأهدافاً. واستناداً إلى الآيات القرآنية ذات الأحكام العامة والآيات الخاصة بحالات معينة والأحاديث النبوية ووصايا الخلفاء وقادة الجيوش الإسلامية صاغ الفقهاء قواع د حددوا بموجبها المقاتلين وغير المقاتلين. ونلاحظ من خلال الأحاديث الشريفة أن النبيﷺ نهى عن قتل فئات معينة كالنساء والصبيان والأجراء والشيخ الفاني وأصحاب الصوامع. وفي خطبته إلى الجيش في السنة العاشرة للهجرة (٦٣٢ م) وضع الخليفة الأول أبو بكر الصديق أسس أحكام القتال على هذا النحو : " أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها فاذكروا اسم الله عليه " .

---

(١) -معجم الطبراني الصغير رقم(٤٠٩)، تاريخ الطبري وقعة بدر(٤٦٠/٢) وحياة الصحابة للكاندهلوي (٦٦/٣)

ورغم اختلاف الفقهاء حول شروط حصانة غير المقاتلين وحدود دائرة هؤلاء، توسيعاً أو تضييقاً، فإن مبدأ التفرقة الذي يشمل الأشخاص والممتلكات كان دائماً موضع إجماع. وإذا كانت الحروب داخل بلاد الإسلام أو بينها وبين الدول الأخرى قد سجلت وقائع غابت فيها التفرقة بين المقاتلين وغير المقاتلين وساد فيها السلب والنهب والتدمير والخراب فإن ذلك ليس قاعدة سلوك للجيوش الإسلامية. والأهم من ذلك كله أن المصدرين الأساسيين للتشريع في الإسلام، القرآن والسنة، لا يؤيدان حروب الإبادة وتدمير الممتلكات لمجرد التدمير والإتلاف. والمرجع في ذلك هو حظر الإفساد والفساد في الأرض بشكل عام، فإذا تحقق الهدف العسكري وتم التمكن من الخصم فلا داعي لشن عمليات لا طائل من ورائها.

٣-مبدأ التناسب

أقر إعلان سان بيترسبورغ (١٨٦٨) بشأن حظر استعمال بعض القذائف في وقت الحرب قاعدة مفادها أن " الهدف المشروع الوحيد الذي يجب أن تسعى إليه الدول أثناء الحرب هو إضعاف قوات العدو العسكرية " . وتبعاً لذلك، فإن " إقصاء أكبر عدد ممكن من القوات يكفي لتحقيق هذا الغرض " . وقد يتم تجاوزه إذا استخدمت " أسلحة تزيد بدون مبرر من آلام الأشخاص الذين أصبحوا عاجزين عن القتال أو تجعل موتهم محتوماً " . وفي هذا الاستخدام مخالفة " للقوانين الإنسانية "كما ورد في الإعلان المذكور، ولذلك عدت لائحة " لاهاي " (الملحقة باتفاقية لاهاي الرابعة لسنة ١٩٠٧ المتعلقة بقوان ين الحرب البرية وأعرافها) من المحظورات " استخدام الأسلحة والقذائف والمواد التي من شأنها إحداث آلام مفرطة " . وذهب بروتوكول جنيف الأول لسنة ١٩٧٧ أبعد من ذلك إذ ألزم الأطراف المتعاقدة، وليس المتحاربة فقط، بالتأكد مما إذا كان السلاح الجديد الذي تعنى بدراسته أو تطويره أو اقتنائه محظوراً في جميع الأحوال أو في بعضها بمقتضى البروتوكول أو أي قاعدة أخرى من قواعد القانون الدولي التي التزمت بها الأطراف المتعاقدة. والتزام التأكد أو التثبت يشمل أي أداة حرب جديدة أو أي أسلوب جديد من أساليب الحرب.

وعد البروتوكول من قبيل الهجمات العشوائية الهجوم الذي يمكن أن يتوقع منه أن يسبب خسارة في أرواح المدنيين أو إصابتهم أو أضراراً بالأعيان المدنية أو أن تجتمع الخسائر والأضرار وتكون مفرطة بالنسبة إلى المنفعة العسكرية الملموسة والمباشرة المتوقعة. وكما ذكرنا آنفاً، لا تكون المنشآت التي تحتوي على قوى خطرة عرضة للهجوم إلا إذا استخدمت لدعم العمليات الحربية بشكل مباشر ومنتظم وهام وكانت مهاجمتها هي السبيل الوحيد لإنهاء ذلك الدعم. ومن الاحتياطات التي يجب على المتحاربين اتخاذها تفادياً للإضرار بالسكان والأشخاص المدنيين والأعيان المدنية الامتناع عن القيام بهجوم يمكن أن يتوقع منه أن يسبب عرضياً خسائر بشرية في صفوف المدنيين أو أضراراً بالأعيان المدنية أو أن تجتمع الخسائر والأضرار وتكون مفرطة بما لا يتناسب والمنفعة العسكرية الملموسة والمباشرة المتوقعة. ويجب إلغاء أو إيقاف أي هجوم يتضح أن هدفه غير عسكري أو أن الهدف يتمتع بحماية خاصة أو يتوقع من الهجوم أن يسبب عرضياً خسائر بشرية في صفوف المدنيين أو يلحق أضراراً بالأعيان المدنية أو أن تجتمع الخسائر والأضرار وتكون مفرطة بما لا يتناسب والمنفعة العسكرية الملموسة والمباشرة المتوقعة. والهجوم العشوائي المفرط المشار إليه أعلاه يعد جريمة حرب، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الهجوم ضد المنشآت التي تحتوي على قوى خطرة، على المعنى الوارد في البروتوكول الأول.

واهتم القانون الدولي الإنساني بوسائل القتال. وبموجب إحدى مواد البروتوكول الأول " يحظر استخدام الأسلحة والقذائف والمواد وأساليب الحرب التي من شأنها إحداث آلام مفرطة " ، ومثل هذه الوسائل تتجاوز ما تقتضيه المصلحة العسكرية لمن يستعملها. وإذا نظرنا إلى مسألة استخدام الأسلحة فسنلاحظ أن القانون الدولي حرم أسلحة محددة منذ إعلان سان بيترسبورغ حتى اليوم وقيد استعمال أسلحة أخرى، ولم يتوصل بعد إلى تقنين يتعلق باستخدام بعض الأسلحة

مثل الأسلحة النووية، والحظر أو التقييد إنما يهدفان إلى الحد من آثار وسائل القتال وإلى الحيلولة دون تجاوز الضرورات العسكرية.

وبقدر ما حرص الإسلام على وجوب إعداد القوة العسكرية لمواجهة أعدائه، بقدر ما أنكر البغي والعدوان، وإذا كانت الآية {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة } [الأنفال : ٦٠] عامة وتشمل القوة البشرية والمادية والمعنوية، فإن توفر القوة مع ما يتضمنه من عناصر الردع، لا يعني استخدامها دون ضوابط.

واستناداً إلى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أثناء المعارك لم ينكر الفقه الإسلامي الأضرار العرضية في الحروب التي تصيب غير المقاتلين والأموال ذات الطابع المدني، وناقش الفقهاء طويلاً المواضيع المتعلقة بالأسلحة واستخدامها لكنهم لم يبيحوا الإفساد في الأرض تحت ستار الحرب. والمتأمل في وصية أبي بكر مثلاً يرى أنها بدأت بالنهي عن الغدر والخيانة والتهافت على الغنيمة. وإلى جانب حرمة أشخاص معينين اهتم أول خليفة للمسلمين بالنبات والحيوان. وفي هذا أساس لحماية البيئة أثناء الحرب، وهو ما دونه القانون الإنساني في مرحلة متأخرة عند إبرام البروتوكول الأول عام ١٩٧٧. ورغم تمسكهم الشديد بمصالح المسلمين العليا لم يبح الفقهاء للجيوش الإسلامية خوض المعارك دون قيود أو تجاوز حدود ما يفرضه القتال.

ولا يمكننا طبعاً أن نقارن بين الأسلحة التي كانت معروفة في عهد قدماء الفقهاء وأسلحة اليوم، لكننا نعرف أن استخدام وسائل القتال وأساليبه يخضع لشروط كانت وما تزال مدار نقاش بين مختلف المدارس الفقهية الإسلامية.

٤-الضرورة الحربية

تحتل الضرورة الحربية موقعاً بارزاً في مواثيق القانون الدولي الإنساني، وفي ديباجة إعلان " سان بيترسبورغ " المذكور تطالعنا الإشارة إلى " ضرورات الحرب التي يجب أن تتوقف أمام مقتضيات الإنسانية " ، بينما تؤكد الفقرة الثانية من ديباجة اتفاقية لاهاي الرابعة لسنة ١٩٠٧ (قوانين الحرب البرية وأعرافها) " مصالح الإنسانية " وتشير الفقرة الخامسة من الديباجة نفسها إلى " الحد من آلام الحرب حسب ما تسمح به الضرورات ا لعسكرية " . أما اللائحة الملحقة بهذه الاتفاقية فإنها تنص على محظورات منها " تدمير ممتلكات العدو أو الاستيلاء عليها إلا إذا اقتضت ضرورات الحرب ذلك حتماً " ونجد في اتفاقيات جنيف وبروتوكولها الإضافي الأول بالخصوص مواد محددة ورد فيها ذكر " الضرورات الحربية " أو ما يرادفها مثل عبارة " المقتضيات العسكرية الحتمية " أو " الضرورات العسكرية الحتمية " . وفي مادة واحدة فقط من مواد البروتوكول الإضافي الثاني (حماية ضحايا النزاعات المسلحة غير الدولية) وهي المادة ١٧، ذكرت " الأسباب العسكرية الملحة " التي يمكن أن تبرر استثنائياً نقل السكان المدنيين أثناء نزاع مسلح داخلي. وطبقاً لأحكام القانون الدولي الإنساني، يعد جريمة من جرائم الحرب تدمير الممتلكات والاستيلاء عليها على نطاق واسع وبصورة غير مشروعة واعتباطية ما لم تبرر الضرورات العسكرية ذلك.

وفي الفقه الإسلامي أن " الضرورات تبيح المحظورات " وهذه من القواعد العامة المتبعة في ظروف السلم والحرب. ومن الأمثلة التي دار حولها نقاش الفقهاء تترس العدو ببعض أفراده من غير المقاتلين كالنساء والأطفال أو اتخاذه بعض المسلمين درعاً بشرياً يحتمي به. وإعمالاً لقاعدة الضرورة أجاز الفقهاء قتال العدو المتترس، وإن كانت الدروع البشرية غير مقصودة بعمليات القتال أصلاً. ومن القواعد الفقهية التي يمكن الرجوع إليها عند الحديث عن حالات الضرورة قاعدة " درء المفاسد مقدم على جلب المصالح " . فإذا كانت أضرار المصلحة العسكرية العاجلة أكثر من نفعها، أصبح من غير الجائز الاعتداد بها. والضرورة تقدر بقدرها، فإذا لم تكن ضرورة تدعو إلى مهاجمة العدو، يتوقف المسلمون عن المهاجمة. وفي حالة التترس مثلاً، إذا تحقق غرض السيطرة على المقاتلين، فلا حاجة إلى مهاجمة من اتخذهم هؤلاء دروعاً بشرية.

ولم يقتصر اهتمام الفقهاء على " الأشخاص " عند مناقشتهم المسائل المتصلة بالضرورات الحربية، بل تناولوا وسائل القتال وأساليبه. ومع مراعاة المصلحة العسكرية العليا، اختلف الفقهاء كثيراً حول استخدام النار والماء ضد العدو أو البيات (الإغارة ليلاً) على سبيل المثال. ولا يفوتنا أن نشير إلى مبدأ المعاملة بالمثل، وقد اتفق الفقهاء على إتباع هذا المبدأ زمن الحرب في العلاقة مع الأعداء، استناداً إلى آيات وأحاديث صريحة. إلا أن المعاملة ب المثل تقف عند حدود لا يمكن تجاوزها، خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بما يحرمه الإسلام تحريماً مطلقاً. وحتى في الحالات التي تقتضي معاقبة العدو بمثل ما عاقب به المسلمين، نجد أن القرآن الكريم يدعو هؤلاء إلى الحكمة والتريث: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} [النحل: ١٢٦]. [(١)]

البحث الثاني: حروب النبي محمدﷺعادلة أم مثالية مقارنة بالقانون الدولي المعاصر.

بعد مآسي يندى لها الجبين خلال حروب طاحنة شهدتها العصور الوسطى والحديثة ارتكب فيها كل أشكال جرائم الحرب ، بدأ الحديث عن أخلاقيات الحروب ، أو الحروب المشروعة العادلة ، والحروب الغير عادلة أو القذرة ، وانتهى الأمر خلال مؤسسات دولية بسن قوانين تحدد المعايير الأخلاقية أو الإنسانية التي يجب أن تخضع لها الحروب ، والحالات التي تعتبر فيها الحرب مشروعة أو غير مشروعة ، وقد اتجهت الجهود الدولية ومنظمات الحياد بعد الحرب العالمية الثانية إلى تجريم كل حالات الحرب ، وحاولت أن تسن قوانين تحد من سلطان الدولة في الاتجاه نحو الحرب ، وإحاطته بالقيود التي يمكن أن تحول دون استعماله في غير حالة الضرورة القصوى إن لم يتيسر منع استعماله مطلقاً [(٢)]؛ إلا أن هذا التوجه كان له استثناءات متعددة بما يعرف بالحروب المشروعة أو العادلة. [(٣)]، وبالنظر إلى خلاصة الفكر الإنساني المعاصر من خلال منظمات القانون الدولي ومنظمات الحياد والعمل الإنساني نجد أن هناك معايير محددة تجعل الحرب شرعية أو عادلة منها: كون الحرب دفاعية ومراعية للقواعد الإنسانية وحقوق المدنيين، هذا مفهوم الحرب العادلة أو المشروعة كما تنص عليه ضمناً مصادر قوانين الحرب والحياد من القانون الدولي، وهذا ملاحظ في المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، وفي اتفاقية جنيف لحقوق المدنيين[(٤)] ، فهنالك عدة عناصر تحدد عدالة الحرب وهي :

---

(١) –راجع مقال بعنوان الإسلام والقانون الدولي الإسلامي، حول مبادئ سير العمليات الحربية على شبكة الإنترنت بقلم د. عامر الزمالي بتاريخ ١٥-٠٦-٢٠٠٤

(٢) انظر هيف: القانون الدولي العام (٦٨١)

(٣) بالرغم من تطور العلاقات الدولية واتجاهها نحو تجريم الحرب وحظر استخدام القوة أو التهديد بها ؛ إلا أن هذا التوجه ليس مطلقاً ، بل تعتريه كثير من الاستثناءات منها : جواز استخدام القوة بشكل جماعي من خلال الأمم المتحدة ، أو في حالة استخدام القوة للتخلص من السيطرة الاستعمارية ، أو في حالة الدفاع الشرعي ، وقد جاء في ميثاق الأمم المتحدة في المادة ٥١ منه : « ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص الحق الطبيعي للدول فرادى أو جماعات في الدفاع عن نفسها إذا ما وقع هجوم مسلح على عضو في الأمم المتحدة إلى أن يتخذ مجلس الأمن الإجراءات الضرورية لحفظ السلام . » ولعل هذه الاستثناءات قد فتحت الجدال واسعاً في توصيف الدفاع الشرعي أو الحرب العادلة وغير العادلة وكان السجال شديداً بين المعسكر الشرقي والغربي في تحديد مفهوم الحرب العادلة [انظر فان غلان : القانون بين الدول (١٦/٣) ؛ أبو النصر : اتفاقية جنيف الرابعة لحماية المدنيين (٧٢)]

وبالرغم من أن مفهوم الحرب العادلة قد اعتراه غموض واستغلال واسع في القرون الوسطى وهناك انتقادات واسعة له [انظر أبو النصر : اتفاقية جنيف الرابعة لحماية المدنيين (٢٥ وما بعدها)] إلا أن التوجه العملي نحو اعتماده فعلياً من خلال تقييده بحالة الدفاع الشرعي والقيم الإنسانية واعتباره وسيلة لتأطير الحروب ضمن رؤية أخلاقية يجب أن تحكم العلاقات بين الدول، وتقوم أسسه على أمرين : الأول : عدم إلحاق الأذى بالفئات غير المشاركة في الحرب ؛ أي بالمدنيين ، والثاني : استخدام قدر من القوة يتناسب مع أهداف الحرب وهذا واضح من النصوص القانونية المتعلقة بالحروب ولوائحها المتعددة بل أصبحت نظرية الحرب العادلة مألوفة في أقسام العلاقات الدولية بالجامعات الأميركية منذ سبعينات القرن المنصرم، ويعتبر كتاب الفيلسوف الأميركي ميكائيل والتزر (الحرب العادلة والحرب غير العادلة)، الذي صدر عام ١٩٧٧ من أهم النصوص المرجعية لهذا الاتجاه الأخلاقي الذي سعى لإعادة بناء النظرية الدينية البسيطة على أسس ليبرالية جديدة، وقد اعتمد عليه بشكل كبير صموئيل هنتنغتون في كتابه الشهير صدام الحضارات [انظر ميشل كيلو ، مقالة بعنوان لقاء عربي أمريكي ، مجلة التسامح الأكترونية ، www.altasamoh.net ؛ حسن أبو هنية : مقالة بعنوان المسئولية الأخلاقية وإستراتيجية الحرب العادلة ، مجلة الغد الأردني الألكترونية ، http://alghad.dot.jo .] ،وكذلك من الناحية التطبيقية لمجلس الأمن نجد أنه يتعامل مع كثير من الحروب على أنها لا تدخل ضمن الانتهاكات أو عدم الشرعية ، وبالتالي لا تجرم أهلها ، ونلحظ أيضاً أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أطلقت حروبها الأخيرة تحت عنوان حروب العدالة باعتبار أنها جاءت دفاعاً عن النفس بعد الاعتداء عليها ، وقد أكد مجلس الأمن على أحقية أمريكيا في إعلان الحرب ، ومشروعية الإجراءات التي تقوم بها للدفاع عن نفسها ، وهذا الإجراء يشير صراحة إلى أن القول بتجريم كل حالات الحرب ليس على إطلاقه في فقه القانون الدولي ، بل هناك استثناء لحروب مشروعة أو عادلة تراعي القواعد الإنسانية والقوانين التي ينص عليها القانون الدولي .

(٤) راجع : فان غلان : القانون بين الأمم (٣/١- ١٧) ؛ مطبوعات اللجنة الدولية للصليب الأحمر : اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب ١٩٤٩ ؛ بندق : موسوعة القانون الدولي للحرب (١٤٠ وما بعدها) ؛ أبو الوفا : الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام (٦١/١٠ وما بعدها) ؛ أبو النصر : اتفاقية جنيف الرابعة وتطبيقاتها في الأراضي الفلسطينية (٧٢ وما بعدها)

- حرب دفاعية لرد عدوان أو دفع ظلم ونحوه.
- الغاية من الحرب تحقيق السلام الدائم.
- احترام القواعد الإنسانية في تلك الحرب.
- احترام حياة الأبرياء وأملاكهم.
- معاملة الأسرى بالحسنى.

هذه أبرز عناصر الحرب العادلة ، أو الحرب المشروعة ، وقد نظر الغرب أنه قد وصل لسقف الرقي الإنساني بتعاليمه هذه ونصوصه الضابطة لأخلاقيات الحرب ، بل ظن أنه قد بلغ بهذه التعاليم ما لم تبلغه أمة من قبل ، والحقيقة أن دعواهم هذه عارية عن الصحة ، لأنه من ناحية النصوص والتعاليم نلحظ أن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية بالرغم من تضمنها لكل البنود السابقة نجدها أيضاً قد ارتقت نحو المثل العليا والأخلاق الفاضلة التي تعجز كل دساتير الأرض حالياً وقيمه من استيعابها بمجموعها ، والسر في ذلك أن رسالة الإسلام كلها قائمة على رعاية القيم والفضائل ، وتتسع لدرجة الإحسان التي لا تملك نصوص القانون الدولي استيعابها في نصوصها

هذا من ناحية النصوص والتعاليم ، أما من الناحية التطبيقية أو الترجمة الواقعية لتلك التعاليم ، فنجد أن تلك النصوص والقوانين التي يتغنى بها العالم في عصرنا هذا لم تجد لها أي تطبيقاً حقيقياً عند أهلها أنفسهم ، أي هي عبارة عن نصوص حرمت التطبيق الحيوي ، بينما أخلاقيات الحرب في السيرة هي الوحيدة التي ارتقت من درجة التنصيص إلى التطبيق الحيوي على أرض الواقع ، وهناك فرق بين قوانين من نسج البشر المحكومين بأهوائهم وقصور عقولهم ، وبين سنن وقوانين تحكمها تعاليم السماء ، ولست الآن بصدد بحث استقصائي لقوانين الحرب في القانون الدولي من الناحية التطبيقية أو المصداقية على أرض الواقع ، لكن ننظر إلى غاية ما وصلت إليه القوانين الدولية من نصوص تحكم أخلاقيات الحروب ، لنرى هل بلغت معشار ما جاءت به تعاليم رسالة محمد ﷺ ، ولئن كانت هذه القوانين قد جاءت لتصف حقيقة الحروب المشروعة أو العادلة ، فيمكن القول إن أخلاقيات الحرب في رسالة الإسلام قد جاءت لتصف حقيقة الحروب المثالية التي كان الواقع العملي ترجمة صادقة لها ويشهد بذلك التاريخ ومنصفوه ، ولكي يتضح الأمر أفصل العناصر السابقة وفق ما عهد في سيرة الرسول ﷺ :

أولاً: حرب دفاعية

بينت خلال حديثي عن دواعي الحرب في السيرة النبوية أن حروب النبي ﷺ إنما كانت لدفع الظلم والعدوان الذي وقع على حملة الرسالة ، وما شرعت الحرب إلا بعد أن طاف الكيل ، وبعد ملاحقة قريش للمسلمين عبر البحار ، بل بعد تهديدها المباشر لشخص رسول الله ﷺ في عقر دولته ، وبعد عمليات خطف لبعض أتباعه من قلب المدينة المنورة ، والذي يشهد بكون أكثر حروب النبي ﷺ إنما كان لدفع عدوان أو رد ظلم أن أكثر تلك الحروب إنما كانت عند تخوم المدينة (بدر – أحد – الخندق)، ومما يشهد لعدم عدوانية جيوش الإسلام أنها انطلقت مسافات بعيدة نحو الشرق على تخوم الهند والصين، ولم تفكر لحظة بغزو الحبشة التي كانت قريبة جداً منهم ، والسبب أنه لم يقع أي عدوان من جهة الحبشة نحو المسلمين فسالموها لمسالمتها.

ولم تكن الحرب الدفاعية في المراحل المتأخرة عند رسول الله ﷺ من باب الدفاع المستكن أي الدفاع الثابت المحروم من قابلية الحركة للقيام بالهجوم المضاد بل كانت من باب الدفاع التعرضي بمعنى أن المسلمين لا يبدؤون بالاعتداء لكنهم يدافعون عن أنفسهم ضد كل اعتداء بالهجوم المضاد لسحق قوات المعتدين، وهذا يشهد له فتح مكة وغزوة حنين ومؤتة وتبوك يقول العقاد في توصيفه لحروب النبي ﷺ : « **حروب النبي ﷺ كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حروب**

هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم .. ففي غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة» [١]

وهذا توصيف دقيق من العقاد يستوعب كل حروب النبي ﷺ التي لم تحمل فكراً عدائياً عدوانياً نحو الآخرين، والغريب في القانون الدولي أنه بالرغم من اشتراطه كون الحرب دفاعية إلا أنه أعطى الدول الحق في إنهاء الخصم بكافة الوسائل[٢]، وهذا أضفى نوعاً من الشراسة والهمجية في الحروب وتبريراً لكثير من الجرائم بحجة الدفاع عن النفس، أو كون الحرب دفاعية ، هذه الحرب الدفاعية هي التي أباحت اشتراك قوات متعددة لغزو أفغانستان والعراق ، بل أباحت إسقاط قنابل مدمرة تزن بالأطنان على القرى والمدن ، وتدمر البيوت على أهلها ، وهي التي تبيح لإسرائيل ارتكاب كافة أنواع الجرائم بحجة الدفاع عن أمنها وبهذه الحرب الدفاعية مات مئات الألوف من المدنيين في كل من أفغانستان والعراق وفلسطين وما يزال الجرح ينزف، وبتاريخ ١٥ جمادى ١٤٢٨هـ قامت قوات الأيساف الدولية بقصف قرى في هلمند وراح ضحية هذا القصف ١٧٤ أكثرهم من المدنيين والنساء والأطفال ، وخرج أحد حراس القانون الدولي ورعاة حماه من قادة الأيساف الدولية ليبرر هذا التصرف عبر وسائل الإعلام ، وأنه يدخل ضمن دائرة الدفاع عن النفس ، ولا مانع من قصف قرى يلجأ إليها أحد المقاتلين ويختبئ بين المدنيين ، وما دامت الحرب دفاعية ؛ إذا هذا التصرف يدخل وفق القانون الدولي تحت بند الحروب المشروعة التي لا يدان أهلها ، ومن نظر إلى نصوص لائحة الحرب البرية والجوية في القانون الدولي وشروحها يجد بالفعل أن مثل هذه الأفعال مبررة قانونياً . [٣]

والحدث نفسه يتكرر يومياً بنفس المسوغات، بل تتسع أخلاقيات العالم الغربي لتقبل هذه التصرفات وعدم ملاحقة أصحابها ويكفي لتبرير كل هذه التصرفات أنها تدخل ضمن الحرب الدفاعية أين هذا من حروب النبيﷺ التي لم يعهد في كل حروبه امرأة قتيل إلا في غزوة حنين التي شاركت فيها النساء في المعركة وقام النبيﷺ بعقد لجنة تحقيق مباشرة واتخاذ إجراءات حاسمة تحول دون تكرر الحدث.

ثانياً: حرب من أجل السلام الدائم.

بينت سابقاً أن تحقيق السلم هو الأصل في رسالة الإسلام ، أما حالة الحرب فهي حالة اضطرارية ، بل أهم هدف من أهداف إعداد جيش قوي في رسالة الإسلام ، هو فرض حالة توازن عسكري وتكافؤ قوى تسمح لتحقيق حالة سلم دائم ،في التطبيق العملي رأينا المساحة الواسعة التي تضمنتها المعاهدات والموادعات في حروب النبي ﷺ من بدايتها إلى نهايتها مما يشير صراحة إلى أن تعزيز السلم وتحقيقه بصورة عادلة كان مهيمنا على كل الخطوات الحربية في عهد النبوة ، وأصدق مثال على ذلك صلح الحديبية وفتح مكة الذي حاول النبي من خلاله إنهاء حالة العداء دون إراقة الدماء ؛ لذا كانت كل خطته العسكرية تهدف إلى دخول سلمي إلى مكة ، ومنها أيضاً غزوة تبوك التي لم يحرص النبي ﷺ على المواجهة عندما وجد نفس الحرص من الجهة المقابلة .

وهذه النتيجة العملية التي يشهد لها التاريخ لتشير صراحة إلى أن حروب النبيﷺ إنما كانت لأجل تحقيق سلام دائم في المجتمعات، وبالمقابل ما نراه في القانون الدولي ما يزال دعوى لا رصيد لها في أرض الواقع، بل أصبحت نصوص القانون الدولي ذريعة للأقوياء لارتكاب أبشع الجرائم تحت عنوان تحقيق السلم الدائم وحروب إسرائيل المتكررة وسحقها

---

(١) العقاد: عبقرية محمد (ﷺ) (٤٥)

(٢) انظر د هيف: القانون الدولي العام (٧١٠) الديك: المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٦)

(٣) انظر هيف: القانون الدولي العام (٧١٠) وانظر الفقرة الرابعة من المادة ٢٤ من لائحة الحرب الجوية [منشورات لجنة الصليب الأحمر: القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية (١٣٠) ؛ والمادة ٢٥ من لائحة الحرب البرية [الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٦)]

للفلسطينيين بأبشع الصور إنما تستظل حالياً بظل الحرب من أجل السلام الدائم لذا بعد كل مجزرة تتحرك رباعية السلام الدائم لتبريرها وحرب العراق إنما بررت تحت نفس البند، ونسمع التصريحات المتكررة من راعية الحرب وحاضنة مجلس الأمن والأمم المتحدة بأن الهدف من الحرب دفع الطغيان ونشر الديمقراطية ، وتحقيق السلم في العراق ومحيطها ، وفي ظل هذه الأهداف السامية دمرت العراق وسحق أهله ، وأبيد عنفوانه ، ودمرت أكثر مبانيه ، وأصبح للعراق رافداً أحمر دموياً غزيراً وشبيهاً برافدي دجلة والفرات داخله ، والغاية السامية لإنشاء نهر العراق الثالث هو الحرب من أجل السلام الدائم ونشر الديمقراطية في العالم العربي

ثالثاً: حرب مراعية للقواعد الإنسانية.

بالنظر إلى كل غزوات النبيﷺ وسراياه نجد أنها كانت حروباً رحيمة مراعية لإنسانية الإنسان بصورة مثالية ، فلا مجال للانتقام الشخصي ، ولا مجال للمصالح الشخصية ، ولا محل فيها للغدر والخيانة والتشفي ، حروب مراعية لحرمات البيوت ، لا اغتصاب ولا سرقات من المال الخاص ، لا اعتداء على النساء ولا ترويع للأطفال ، بل لا مجال فيها لمهانة العدو المهزوم ، ولا إيذائه بالكلمات الجارحة ، حروب تأدب أصحابها بآداب النبوة ، حروب لا تسمح بالتجاوزات ، بل تؤدب عليها وتلاحقها وتعاقب مرتكبيها .

حروب تجاوزت القواعد الإنسانية العادية نحو المثل العليا التي لم تعهد في جيش من قبل، وآداب إنسانية لم تر في جيش كجيش محمدﷺ، جيش يرى كل فرد فيه بأن الكلمة الواحدة محسوبة عليه، فكيف بسفك الدماء. هذه المثل التي تميز بها جيوش النبيﷺ كانت السبب الأعظم في انتشار الإسلام بصورة أذهلت كل المؤرخين يقول الباحث الأمريكي لوثروب ستودارد: « **لم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من الأمم المغلوبة قد دخل في دين الله أفواجاً إيثاراً له .. ولم يكن العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا**» [(١)] ،وتقول الباحثة الألمانية زيغريد هونكة: « **لعل من أهم عوامل انتصارات العرب ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم ، فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة ، والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عددًا ضئيلاً من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب.** » [(٢)]، يبقى القول هل حروب أصحاب القانون الدولي في عصرنا الحاضر قد راعت أبسط القواعد الإنسانية التي تنادي بها؟

رابعا: احترام أرواح الأبرياء وأملاكهم.

وهذا واضح في وصايا النبي ﷺ ، وقد بين القرآن الكريم أن الصحابة في حروبهم كانوا حافظين لحدود الله سبحانه وتعالى، يكفي القول أن القرآن قد صرح بالإذن في القتال للمقاتلين فقط، أما غيرهم فلا اعتداء عليه، يقول بيجي رودريك : « **قوانين الحرب في الإسلام تعتبر أكثر القوانين إنسانية ورأفة فهي تضمن السلامة التامة للنساء والولدان والشيوخ ، وجميع غير المحاربين ، فليس هناك في الإسلام أبشع من جريمة قصف المستشفيات والمدارس وأماكن العبادة ومساكن المدنيين في المنطقة العادية ، وإنما يجعل الإسلام لهذه المرافق الإنسانية قدسيتها ويحذر من المساس بها ، فهذه هي الوصية التي كان يوصي بها محمد ﷺ قادة المسلمين .** » [(٣)]

---

(١) لوثروب : حاضر العالم الإسلامي (٣-٤)
(٢) هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب (٣٥٧-٣٥٨)
(٣) نقلاً عن خليل : قالوا عن الإسلام (٢٨٧)

بينما نجد أن القانون الدولي يبيح حرب المدن وحصارها وقصفها واستخدام كافة الوسائل الكفيلة بتسليم تلك المدن ما دام فيها أي قوة مقاومة [١] يقول الدكتور محمود الديك: «**إن المادة الخامسة والعشرين من لائحة الحرب البرية تبيح حرب المدن والقرى المدافع عنها ، ويغالي الشراح في ذلك : إن مجرد قوة مدافعة صغيرة يبيح ضرب المدينة بوابل من القنابل يفتك بالضعفاء والمدنيين العزل والأطفال والعجزة من غير ما مبرر إلا الزعم الوحشي بأن ذلك يضعف الروح المعنوية في العدو ، وقد يحمل الحامية على التسليم** . » [٢] ولعل هذه القوانين وشروحها تفسر لنا شراسة القصف والتدمير الذي ينال المدن ومن فيها من المدنيين في العراق وفلسطين وغيرها فالأمر مبرر بأن مثل هذه التصرفات قد تضعف الروح المعنوية للمقاومة وتجعلها تلجأ للاستسلام.

خامسا: معاملة الأسرى بالحسنى.

وهذا فصلت فيه بالقول واتضح جلياً كيف عامل النبيﷺ وصحابته الكرام أسرى بدر بل ما يعهد عن رسول الله ﷺ هو العفو العام عن الأسرى ، وقد عفا في لحظة واحدة عن أهل مكة بأكملها بعد استسلامها ، ولم يؤثر عنه أنه اتخذ سجوناً ومعتقلات للأسرى ، أو ارتكب تعذيباً في حقهم ، يكفي القول أن معاملة الأسرى في الإسلام قد ارتقت لدرجة أن الآسر كان يؤثر الأسير على نفسه في الطعام والشراب لدرجة كان يستحيي الأسير من شدة كرم آسره وإيثاره.

أما في عصرنا الحاضر فنرى جلياً كيف يحترم رعاة القانون الدولي والداعون له هذا الشرط، وسجون إسرائيل وغوانتنامو وأبو غريب وغيرها من السجون تشهد بمدى تمثل المدنية المعاصرة بهذا البند، يكفي القول أن معتقلات بأكملها كانت تقام في صربيا أو البوسنة والهرسك فقط لاغتصاب المسلمات بأبشع الصور، وذلك في كبد أوروبا وعلى مرأى منها، بل على مقربة من جنيف راعية الاتفاقيات الدولية بشأن الأسرى. [٣] بل منذ أن وضعت هذه القوانين الدولية المتعلقة بأخلاقيات الحروب لم نجد حرباً واحدة تم احترام بنودها فيها، حتى أصبحت هذه القوانين لا تسوى في أرض الواقع الحبر الذي سودت به، وهذه حقيقة مرة تفضحها كل الحروب التي عهدناها أو عايشناها في عصرنا من حرب فيتنام إلى يومنا هذا، ولا نملك الهروب منها أو سترها بتلك النصوص القانونية الشفافة

خلاصة المبحث

١-المعلوم في منهج الإسلام أنه يحترم كل موقف إنساني ويؤيده أياً كان صاحب هذا الموقف ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة:٢] ويرشد إليه قول النبي ﷺ عن حلف الفضول الذي كان في الجاهلية: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[٤] لذا رسالة الإسلام مع كل جهد إنساني يرتقي بالإنسانية ويحفظ حقوقها حال السلم والحرب ، ومن هذا الوجه تبارك أي جهد دولي ينزع إلى حسم الحروب والتقليل من فظائعها وضبطها بالمعايير الأخلاقية ، لكن ما يستهجنه المسلم هو أن يرى هذه النصوص القانونية التي جاءت لتحمي الإنسان من بطش أخيه الإنسان ، قد أصبحت شريعة الأقوياء فقط في الأرض وذريعة لهم لارتكاب التجاوزات ولحماية مصالحهم ولا نجد صدى لنصوصها إلا لتضييق الخناق على المسحوقين وقهر الأمم الضعيفة في الأرض ، لذا وصف هذه القوانين بأنها تمثل قانون

---

(١) -هيف: القانون الدولي العام (٧١٠)

(٢) -الديك: المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٦)

(٣) -نلحظ أن مجلس الأمن تدخل بعدما اكتملت فصول المؤامرة ، وهتك عرض المسلمين وارتكبت في حقهم فضائع يندى لها الجبين ، والمقابر الجماعية تشهد بحجم المأساة التي تعرض لها المسلمون في أوروبا ، تلك الانتهاكات التي كانت شبيهة بمحاكم التفتيش وحروب التطهير العرقي في أسبانيا عندما أجلى النصارى المسلمين منها، أما بخصوص مرتكبي هذه الجرائم المروعة في البوسنة والهرسك ، فقد اختزلت المحاكم الدولية عددهم في أشخاص محدودين جداً ، وتعاملت معهم من الناحية الشكلية كمجرمي حرب ، ومن الناحية الضمنية كأبطال حرب ، وذلك واضح من طبيعة المعاملة الإنسانية التي عوملوا بها .

(٤) -البيهقي: السنن الكبرى (٦/ ٣٦٧)

دولي إنساني وصف قاصر ، لأن الإنسانية لا تتبعض ، إلا إذا كان المقصود بالإنسان هو الإنسان الغربي ، أما غيره فهو خارج من دائرة الإنسانية ؛ لذا أمكن اعتبار أكثر نصوص القانون الدولي هي عبارة عن نصوص لا رصيد لها في الواقع قديماً وحديثاً ، إلا في أطر ضيقة جداً وافقت مصالح الأقوياء ، وبالمقابل لا نجد رصيداً حيوياً واقعياً لأخلاقيات الحرب إلا ذلك الرصيد الذي حوته صفحات الحروب في السيرة النبوية وما دار في فلكها من حروب المسلمين ، **ومن هذا الوجه نقول لا داعي للغرب أن يتغنى بنصوصه وتعاليمه في نفس اللحظة التي ينتقص فيها من رسول الله ﷺ ويطعن بحروبه وإنسانيته ، ويغمط فضله ، وأياديه البيضاء تجاه الإنسانية جمعاء ، وبيننا وبينهم شهادة الواقع فهي أصدق تعبير عن الحقيقة .**

٢-بالنظر إلى توصيف الحروب العادلة في الثقافة المسيحية أو الحروب المشروعة في القانون الدولي ، نجد أن ذلك التوصيف يقصر عن الوفاء حقاً في بيان حقيقة حروب النبي ومدى مثالية أخلاقها ، وذلك لما تميزت به حروب النبي من تغليب مبدأ الإحسان على مبدأ العدل ، فكانت مثالية لم تعهد في حرب من قبل ؛ فهي حروب سيقت لأجل الدفاع عن الحريات ولدفع الظلم ، ولتوطيد السلام، غلبت المبادئ على المصالح ، حروب تخلق كل جندي فيها على أخلاقيات الرحمة والعفة والزهد والتواضع وحسن الأدب حروب تصون أرواح الأبرياء وأموالهم ، تحارب مواطن الشر وتنشر الخير وتراعي الحرمات ، وتحسن للأسرى لا محل فيها للمآرب الشخصية والمصالح الضيقة والمنافع المادية حروب استطاعت أن تغزو القلوب وتسيطر على العقول بالمثل العليا ، قبل أن تسيطر على الحصون والقلاع بالسلاح والرجال ، حروب جعلت جراح المغلوبين تلتئم بسرعة فينضمون طائعين إلى الغالبين ليكون الغالبون والمغلوبون فيها تحت راية واحدة حروب استطاعت أن تجعل من المغلوب من أكثر حماة الرسالة والمدافعين عن تراثها لذا لا عجب أن خمسة من ستة من أصحاب السنن الستة التي تكفلت بجمع تراث النبي هم من أبناء تلك الأمم المغلوبة ، بل أكثر علماء الأمة كانوا من تلك الأمم المغلوبة من العجم حروب حولت أكثر الناس عداوة للرسالة وكيداً لها أكثرهم إخلاصاً لها وتضحية بدمائهم وأغلى ما يملكون لأجلها كعكرمة بن أبي جهل وخالد بين الوليد رضي الله عنهم ، وهذا الأمر لم يعهد في التاريخ أبداً ، لأن التاريخ لم يشهد حرباً تسوسها القيم والمثل العليا كحروب النبي ﷺ ، وأكثر هذه الأوصاف تقصر عن الدلالة عليه ديباجة القانون الدولي الإنساني بكل تعاليمها **فإذا لم تكن حروب النبي ﷺ مثالية فأي حرب في التاريخ كله يمكن أن يطلق عليها هذا التعبير .**

الفصل الخامس: مناقشة الشبهات المثارة على خاتم النبيين في تثبيت رسالته.

البحث الأول: رد شبهة التجاوز في التعامل مع بني قريظة.

البحث الثاني: شبهة الاغتيالات السياسية.

البحث الثالث: غيّر النبيّ من معاملته لأهل الكتاب وتنكّر لهم لما رأى من نفسه القوة.

البحث الرابع: اختلق النبي أسبابا واهية لطرد اليهود والاستيلاء على أراضيهم.

البحث الخامس: كان النبي ينتهز الفرص لنقض العهود كما حدث في فتح مكة.

البحث السادس: الزعم أن سياسة النبي اتسمت بطابع الانتقام والحقد بعد انتصار بدر.

البحث السابع: قالوا إن سياسة النبيﷺ مبنية على العدوانية فقد قاتل مملكة غسان وسلبها وضمها لدولته

البحث الثامن: وظّف الغنائم بمهارة لتطويع أصحابه لعلمه بأهميّتها لهم.

البحث التاسع: كان ينتقم لنفسه بقسوة مستشهدين بحادثة العرنيين.

البحث العاشر: زعم أن النبي كان مؤذيا لمن حوله مولعا بسفك الدماء!!.

البحث الأول: رد شبهة التجاوز في التعامل مع بني قريظة

والشبهة التي تثار عند الحديث عن عدم دموية الحروب النبوية هي قتله لرجال قبيلة بني قريظة، والتي اختلفت الروايات في تحديد أعدادهم، فهم يتراوحون بين أربعمائة وسبعمائة رجل وقد شكك بعض البحاثة في هذه الأرقام ورجح كون الرقم أقل بكثير من ذلك [1] (قرابة ٤٠).. وقبل الحديث عن الحدث نفسه نود أولا أن نقف على حيثيات وظروف

---

(١) – ذكر ابن اسحق أن قتلى بني قريظة ما بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ونقل عنه الطبري الرقم ، وذكر ابن سلام في كتابه الأموال أن العدد أربعمائة [انظر ابن هشام : السيرة النبوية (٢٠١/٤) ؛ الطبري : تاريخ الطبري (١٠١/٢) ؛ ابن سلام : الأموال (١٧٣)] ويشكك بعض الباحثين في هذه الأرقام ، من هؤلاء الباحث وليد عرفات ، والدكتور هاشم الملاح ، ووجه التشكيك في عدد قتلى بني قريظة لأن عدد قتلى بني قريظة كله مصدره ابن إسحق ، وقد صرح ابن إسحق نفسه أنه قد اخذ تفاصيل أخباره من مصادر مختلفة ، وأهم مصادره هم محمد بن كعب القرظي ، وعطية القرظي ، فيحتمل أن يميلوا إلى تفخيم أحدادهم ، أو تهويل مأساتهم ، كذلك ذكر هؤلاء رواية لابن شهاب عند ابن سلام بأن النبي ﷺ قتل من بني قريظة كذا وكذا ، وهذه الرواية تشير صراحة إلى قلة العدد ، ويذكر وليد عرفات أن ناشر كتاب الأموال ذكر في الحاشية أن النسخة الشامية للكتاب ذكرت أن عدد قتلى بني قريظة كانوا أربعين . [انظر عرفات : ضوء جديد على قصة بني قريظة (٧٩١) ؛ الملاح : الوسيط في السيرة (٣٩٥)]ويعضد الرأي السابق في ظني أن النبي ﷺ قد حبس أسرى بني قريظة في دار بنت الحارث ودار حسان بن ثابت ، و المعلوم أن بيوت الصحابة لم تكن كبيرة الحجم ؛ بحيث يمكن تصور أن سبعمائة رجل وضعوا في بيتين منهما فقط، بل صدرت وصية من النبي ﷺ بأن يضعوهم تحت سقف البيت بعيداً عن حر الشمس ، وهذا الإجراء يشير صراحة إلا أن عددهم هو أقل بكثير من السبعمائة .

لكن في نفس الوقت القول بأن عدد بني قريظة كانوا أربعين أو قريباً من ذلك أيضاً مستبعد ؛ لأن الآثار الصحيحة أشارت إلى أن النبي ﷺ قد قتل مقاتلة بني قريظة أو ذكورها من الرجال ، فلا يتصور أن كل ذكور بني قريظة من الرجال كانوا أربعين ؛ أما ما ذكره وليد عرفات عن النسخة الشامية من كتاب الأموال بأن العدد كان أربعين فيحتمل أن يكون تصحيفاً من النساخ ، خاصة أن الرواية الثابتة في الكتاب ذكرت رقم الأربعمائة ؛ لذا في نظري أن رقم الأربعمائة أو ما يقاربه هو أرجح الأقوال في المسألة .[انظر العمري : السيرة النبوية الصحيحة (٣١٥/١، ٣١٧) ؛ أبو شهبة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٤٠٩/٢)]

ذلك الحكم. فمن المعروف أن النبي ﷺ بمجرد قدومه المدينة عقد مع اليهود الموجودين بها معاهدة رائدة، تعد بمثابة أقدم دستور مسجل في العالم، والتي كان من أهم بنودها: التزام كل من المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر في الداخل. وتعهد كل من الطرفين بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي اعتداء خارجي، وعلى اليهود أن يتفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين.

في العام الخامس من الهجرة؛ أن تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل من مشركي قريش وقبائل غطفان وأشجع وأسد وفزارة وبني سليم، على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل. وكان المتوقع أن تنضم بني قريظة إلى صفوف المسلمين ضد القوات الزاحفة على المدينة بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين، لكن الذي حدث هو عكس هذا تمامًا! فلم تكتف بنو قريظة بمجرد السلبية، ولكن فوجئ المسلمون بهم يخونهم في أخطر أوقات محنتهم، ولم يرعوا للعهود حرمة، في سبيل التعجيل بسحق المسلمين والقضاء عليهم قضاء تامًا.

وبمجرد أن سمع رسول اللهﷺ بهذه الخيانة الخطيرة أرسل وفدًا مكونًا من سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير –رضي الله عنهم–؛ ليذكِّروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عهود، ويحذروهم مغبَّة ما هم مقدمون عليه فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم وقالوا عن رسول الله: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه!! وهكذا ركب القوم رءوسهم، وقرروا الانضمام الفعلي للغزاة وأخذوا يمدونهم بالمال والعتاد.

وقد تدخلت عناية الله لنصرة الإيمان وأهله، وشاء الله أن يندحر ذلك التحالف الوثني اليهودي {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب:٤٠] وبعدها مباشرة جاء الوحي رسولَ الله بأمره بأن ينهض إلى بني قريظة؛ جزاءً لمكرهم وغدرهم وخيانتهم، فسار إليها وحاصرهاﷺ والمسلمون شهرًا أو خمسة وعشرين يومًا.. ولما طال عليهم الحصار عرضوا على الرسولﷺ أن يتركهم ليخرجوا إلى أذرعات بالشام تاركين وراءهم ما يملكون، ورفضﷺ إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، وبالفعل استسلم يهود بني قريظة، ونزلوا على حكم رسول الله، فوكل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ أحد رؤساء الأوس وكان سعد حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحسن إليهم في حكمه، لكن سعدًا نظر إلى الموقف من جميع جوانبه، وقدَّره تقدير من عاش أحداثه وظروفه، وشاهد كروبه ومآزقه، وعرف النذر المستطيرة التي تراءت في الأفق، فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة لولا عناية الله عز وجل التي أنقذت الموقف. وكان هو نفسه الذي شفع لديهم بادئ ذي بدء ليرجعوا عن غدرهم وغيهم، لكن القوم مضوا في عنادهم لا يقدرون للنتائج عاقبة، ولا يراعون الله في حلف ولا ميثاق، ولذلك لما كُلِّم في شأنهم أكثر من مرة قال –رضي الله عنه–: "لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم"، ثم بعد أن أخذ المواثيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه أمر بني قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ففعلوا، ثم قال: "إني أحكم أن تقتل مقاتليهم وتسبى ذريتهم وأموالهم"، فقال رسول الله ﷺ : «حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ» !! فقتل رجالهم وسبي نساؤهم وذراريهم، ولاقى بنو قريظة أسوأ مصير على أفظع خيانة

وهنا يحلو للبعض أن يُشكِّكوا في تصرف الرسول ﷺ ومعاملته لبني قريظة، ويعتبروا أن معاملته هذه لهم تتسم بالوحشة والقسوة، وأنه كان من الممكن أن يعاقبوا بأي عقاب آخر كالإجلاء أو النفي..وللبيان والتوضيح نقول: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبما كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم، ألم تكن هي الإبادة التامة للمسلمين أجمعين؟! على أن اليهود لم يُقدِموا على هذا العمل الخسيس إلا بعد أن تكوَّن لديهم ما يشبه اليقين بأنهم –بمساعدة المشركين– سوف يقومون بتدمير الكيان الإسلامي تدميرًا كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كليًا، ولهذا لم يترددوا في الغدر

بحلفائهم المسلمين، وعلى تلك الصورة البشعة. ولقد كانوا حريصين الحرص كله على إبادة المسلمين، حتى لقد طلبوا من الأحزاب والمشركين أن يُسلِّموا إليهم سبعين شابًا من أبنائهم رهائن عندهم؛ ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين وتقضي عليهم قضاء تامًا.

فعلى الذين يستبشعون الحكم على بني قريظة، ويصفونه بأنه كان قاسيًا شديدًا، عليهم أن يحيطوا علمًا بجوانب الموضوع، وظروف القضية؛ ليدركوا أن اليهود هم الذين جروا الوبال على أنفسهم [١].

وأخيرا: فلو تتبع إنسان نصوص العهد القديم والجديد معاً؛ لوجدها تطالب المؤمنين بهذا الكتاب المقدّس أن يبيدوا خصومهم عن آخرهم، وأن يسبوا صغارهم ونساءهم، وأن يخربوا بيوتهم ويحرقوا زروعهم؛ عقوبةً من الله تعالى لهم؛ لأنهم حاربوا المؤمنين أما في الشرعة الدوليّة المعاصرة؛ فإنّ أمريكا قتلت في العراق (مليون شهيد) وفي أفغانستان مليوناً آخر! وفرنسا الظريفة اللطيفة قتلت أكثر من ١٠مليون جزائريّ. فلماذا تقفون عند رقم (٦٠٠) رجل خائن ناقض للعهد، ولا تقفون عند هذه الأرقام التي تزيد على مجموع أعداد دول معترفٍ بها في منظمة (الأمم المختلفة)؟ الحكم عليهم كان من منظور قوله تعالى :(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) فالرسولﷺ كان يقضي على أهل الكتاب بشريعتهم، وشريعتهم تقول: اقتل المقاتلة، واسْبِ النساء والذراريّ. وفي تلك الأيام لم يكن قوانين دوليّة، ولا محاكم دولية عليا، إنما كانت المعاملة بالمثل هي الشرعة السائدة في الحروب.

على أنّه قد جاء في الروايات الصحيحة أنّ الذين قتلهم الرسولﷺ من رجال بني قريظة، كان جمعهم في دار امراة من الأنصار، قريباً من سوق المدينة (أي عددهم أقل مما ذكر بكثير) الخلاصة: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة: ١٢] فالرسول قتل قادتهم المجرمين الغادرين، أو قاتل المحاربين على أبعد احتمال وهم لا يعجبهم أن يُقادَ منهم لكنهم لا يرقبون في المسلمين إلاّ ولا ذمّة متى ما أرادوا !{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة:٨]

استغل هذا الحدث المغرضون للتشنيع على النبيﷺ وجنده ووصفهم بالقسوة وارتكاب إبادة جماعية في حق أسرى الحرب[٢]،يقول مونتجمري وات: « **لقد انتقد بعض الأوربيين الحكم الصادر بحق بني قريظة ووصفوه بالهمجية وقد اندهش بعض معاصري محمد لعدم اكتراثه بالعواقب التي قد تنتج عن قتل بني قريظة** .»[٣] وبعضهم رأى أن النبي ﷺ قد استخدم وسائل غير مقدسة في إخراج اليهود.[٤] إذا هناك اتهام واستغلال لهذا الحدث يقتضي تفنيده وبيان تكييفه الفقهي والقانوني في النقاط التالية :

أولاً: بنو قريظة ليسوا أسرى حرب بل خونة: طرح فكرة كون بني قريظة كانوا أسرى حرب ليست صحيحة من أصلها، وذلك لعدة أسباب:

١- بنو قريظة لم يكن بينهم وبين النبيﷺ حالة حرب أو حالة تنافر وتعادي بل على العكس كانوا من مواطني الدولة وكان بينهم وبين النبي مواثيق على حسن الجوار والدفاع المشترك أي هم جزءٌ من حلفاء النبيﷺ وليسوا أعداءه وهم يشكلون مع المسلمين وحدة وطنية ملتزمة بالدفاع المشترك عن الوطن الواحد.

---

(١) – كتاب (أخلاق الحروب في السنة النبوي) للدكتور راغب السرجاني. وعن موقع قصة الإسلام .

(٢) – انظر الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٤) ؛ المرصفي : الرسول واليهود (٣/ ١٣١٠ وما بعدها)

(٣) – مونتجمري : محمد نبي ورجل دولة (١٧١ وما بعدها)

(٤) –النعيم: الاستشراق في السيرة النبوية (٢٠٢)

٢- فعلة اليهود في كل الأعراف الدولية وقوانين الدول لا تندرج تحت بند أسرى حرب المتعارف عليه بل تحت بند الخونة الغادرين الذين ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى ضد وطنهم، فظفرت بهم يد العدالة.

٣- بنو قريظة حتى من وجهة القانون الدولي لا يمكن وضعهم في مكان العدو الذي استسلم وهو يخوض حرباً وإنما في مكان الخائنين المتآمرين على وطنهم وهو في حالة حرب بل ارتكبوا هذه الخيانة في أحلك ظرف مرت به المدينة المنورة، ونجاح هذه المؤامرة كان كفيل بإبادة المسلمين عن بكرة أبيهم.

٤- كان بنود المؤامرة واضحة الدلالة في أن يهود بني قريظة عندما نقضوا الاتفاق إنما نقضوه عندما أخذوا ضمانات باستئصال المسلمين إذا كانت جريمة الخيانة العظمى في أعلى مراتبها، والعدالة تقتضي معاملتهم بحجم مؤامرتهم

٥- المعروف في كل قوانين الدول حتى في القانون الدولي أن جريمة الخيانة العظمى لا تخضع لاستثناءات ولا تندرج تحت بند أسرى الحرب، وأن العقوبة المعهودة لهذه الجريمة هي الإعدام.

للأسباب السابقة لا يمكن النظر لبني قريظة على أنهم أسرى حرب قطعاً لذا لاحظنا أن النبيﷺ لم يعاملهم معاملته المعهودة لأسرى الحرب، بل عاملهم بحجم جريمتهم بعد تحكيم عادل ومن محكم رضي به اليهود أنفسهم لكونه من حلفائهم ويبقى تساؤل هام هنا وهو لماذا كان سعدرضي الله عنه شديداً في حكمه عليهم بالرغم أنه كان من موالي اليهود؟ وهذا التساؤل يكشف لنا حجم المؤامرة وفداحة جرمها حتى في حق موالي اليهود أنفسهم فكونه من موالي اليهود وحلفائهم في الجاهلية يقتضي أن يجد نصرة منهم حال تعرض قومه للخطر فلما وجد سعد أن مواليه قد هان عليهم دماء مواليهم وتآمروا مع العدو للقضاء على المسلمين ومن ضمنهم مواليهم، وجد في ذلك استباحة يهود بني قريظة لدماء مواليهم من الأوس لذا قابلهم من جنس ما يتمنونه لمواليهم من باب الجزاء الوفاق والبادئ أظلم.

ثانياً: مصطلح الإبادة الجماعية هي فكرة يهودية في الأصل: مصطلح الإبادة الجماعية هو مصطلح غريب عن رسالة الإسلام لا تعرفه أصلاً ، ولا يوجد في كل ثقافتها النظرية أو الواقع العملي أي وجود لمثل مدلول هذا المصطلح المستهجن ، والحقيقة أن هذا المصطلح هو فكرة يهودية تصرح به ثقافتهم ، بل كتبهم المقدسة تشير إليه إشارة واضحة، ورد في سفر أستير: « **الَّتِي بِهَا أَعْطَى الْمَلِكُ الْيَهُودَ فِي مَدِينَةٍ ، فَمَدِينَةٍ أَنْ يَجْتَمِعُوا وَيَقِفُوا لأَجْلِ أَنْفُسِهِم وَيُهْلِكُوا وَيَقْتُلُوا وَيُبِيدُوا قُوَّةَ كُلِّ شَعْبٍ وَكُورَةٍ تُضَادُّهُمْ حَتّى الأَطْفَالَ وَالنِّسَاء**» استير (٨ /١١) وفي سفر يشوع : « **وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ – حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ .. وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ مَعَ كُلِّ مَا بِهَا. إِنَّمَا الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ وَآنِيَةُ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ جَعَلُوهَا فِي خِزَانَةِ بَيْتِ الرَّبِّ** يشوع (٦ /٢١) وفي سفر حزقيال: «**اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفِقْ أَعْيُنُكُمْ، وَلاَ تَعْفُوا اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ. وَلاَ تَقْرُبُوا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ وَابْتَدِئُوا مِنْ مَقْدِسِي، فَابْتَدَءوا بِالرِّجَالِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ أَمَامَ الْبَيْتِ وَقَالَ لَهُمْ: نَجِّسُوا الْبَيْتَ واملئوا الدُّورَ قَتْلَى. اخْرُجُوا، فَخَرَجُوا وَقَتَلُوا فِي الْمَدِينَةِ**» سفر حزقيال: الإصحاح التاسع، ٤-٧

هذه نصوص توراتية صريحة الدلالة على أن اليهود وثقافتهم هم أصحاب فكرة الإبادة وذلك لما تميزوا به من فكر إحلالي أما رسالة الإسلام فهي رسالة استيعابية أي تستوعب الآخر وهذا يفسر لنا المساحة الواسعة في شريعة الإسلام لأحكام أهل الذمة لذا لا نجد مثل هذه النصوص في تعاليم الرسالة أبداً ومن نظر إلى نصوص أخرى في التوراة يجد

تصريحات كثيرة تشير إلى مدلول الإبادة الجماعية في حق الأمم الأخرى؛ لذا لا داعي لتصدير هذا المصطلح وإلصاقه في بعض تصرفات النبي ﷺ[١]

ثالثاً: حكم سعدﷺ في حق بني قريظة كان مثالياً قياساً إلى شريعة اليهود.

ورد في سفر التثنية «**حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ ، وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ ، وَإِنْ لمْ تُسَالِمْكَ بَل عَمِلتْ مَعَكَ حَرْباً فَحَاصِرْهَا. وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى يَدِكَ ، فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ ، وَكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ التِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ ، هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدّاً ، التِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلاءِ الأُمَمِ هُنَا، وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلاءِ الشُّعُوبِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيباً فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا** » سفر التثنية ، الإصحاح ٢٠ ، النص ١١- ١٧

نظرة واحدة للنص السابق قياساً لحكم سعدﷺ ، نجد أن حكم سعد كان أرحم بكثير من تشريعاتهم بخصوص حكم الأمم البعيدة ؛ حيث إن الحكم في حقهم هو إبادة كافة الذكور ، بينما حكم سعد اقتصر على المقاتلة من الذكور . و وفقاً للنص السابق بنو قريظة لا يصدق عليهم حكم الأمم البعيدة ، بل حكم الأمم القريبة وهؤلاء حكمهم الإبادة الكاملة .فأين هذا من تعاليم رسالة الإسلام التي استوعبت اليهود داخل المدينة ، وتعامل معهم النبي ﷺ بسماحة عالية جداً ، فلما وجد منهم الغدر والخيانة التي كادت أن تستأصل المسلمين عاملهم النبي ﷺ بما يتناسب وفداحة جرمهم ، ولم يستأصلهم بل اقتصر الحكم على المقاتلين فيهم ، وهذا الحكم كانت تقتضيه الظروف الخاصة لتلك المرحلة خاصة مع تكالب الجميع على المسلمين ، فالظرف لا يسمح لمبدأ الإحسان الذي سيترتب عليه تسلسل التآمر على الأمة الإسلامية في مرحلة ضعفها ، لذا اقتصر النبي ﷺ على التعامل معهم وفق مبدأ العدل ، ونلحظ أن المسلمين عندما تمكنوا في الأرض مع فتح مكة ، وأصبح مجال التآمر على المسلمين ضيقاً عفا عن كل أهل مكة بالرغم من شدة عداوتهم للمسلمين ، والفارق بين الأمرين هو طبيعة الظرف الحرج الذي رافق الخيانة العظمى من بني قريظة .

فمرحلة الخندق كانت مرحلة تكالب من كل أهل الجزيرة على المسلمين أي هناك حالة عدائية شاملة للمسلمين وترك فئة خائنة داخل المدينة لها اتصال مع قوة خارجية في خيبر وغيرها سيعرض المدينة بعد ذلك لمخاطر شديدة والمعلوم أن النبي بغد غزوة بني قريظة توجه نحو العمرة وعندما كان بعيداً عن المدينة وعلى تخوم مكة حصل تحريض من ناحية خيبر لقبائل غطفان للانقضاض على المدينة المفرغة من رجالها فلو تصورنا وجود الخونة من بني قريظة في تلك اللحظة في المدينة حينها أمكن توقع اكتمال المؤامرة واستباحة عقر دار المسلمين ونسائهم من الداخل والخارج فلهذه المحاذير رأى النبي أن تصفية هؤلاء الخونة وإنهاء وجودهم من المدينة هو ضرورة حربية في ظرف حرج وهذه الضرورة أيضاً محكومة بمبدأ العدل القاضي بمعاقبة المجرم بحجم جرمه والظرف الحرج لا يسمح بالإحسان له خاصة أن هؤلاء الخونة قد عهد منهم الغدر ونقض العهود عبر التاريخ وبشهادة القرآن .[٢]

---

(١) -لقد هالني خلال تتبعي لنصوص العهد القديم كثرة النصوص الإحلالية التي تشير إلى إهلاك الأمم المخالفة وإبادتها وعدم التصرف معها بطريقة أخلاقية ، مما يشير إلى عمق تلك الثقافة في الفكر اليهودي ، وإن شئت فراجع : سفر الخروج الإصحاح ٣٢ ، النص ٢٧-٢٨ ؛ سفر العدد : الإصحاح ٣١ ، النصوص ٧-١١ ، ١٧-١٨ ، سفر التثنية : الإصحاح الثالث ، النصوص ٦-٧ ، الإصحاح الثالث عشر : النصوص ١٥-١٧ ، سفر يشوع : الإصحاح الثامن ، النصوص ١٨-٣٠ ، والإصحاح العاشر ٣٨-٤٠ ، والإصحاح الحادي عشر ١٠- ١٢ ، وسفر صموئيل الأول الإصحاح الخامس عشر ٣-١١ ، وصموئيل الثاني : الإصحاح الرابع ١٢ وهي بمجموعها تشير إلى ثقافة خاصة تلغي الآخر وتحرص على إنهاء وجوده كلياً ، بل كثير من النصوص السابقة لا تتضمن أي شكل من أخلاقيات الحرب كقتل المرضى والنساء والأطفال والتحريق والتدمير الكامل ، والتعذيب الفظيع ، ومثل هذه الثقافة غريبة على المسلمين ، وليس في كل نصوصهم ما يقترب من أهون نص من نصوص كتب اليهود .

(٢) -د. محمد أحمد المبيض، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ص: ١٢٦ وما بعدها .

البحث الثاني: شبهة الاغتيالات السياسية:

قالوا إن الشريعة الإسلامية تأمر بالإرهاب والقتل، ويستدلون على ذلك بما فعله النبيﷺ حين أرسل أحد أصحابه لقتل كعب بن الأشرف، ويتساءلون: كيف يمكن التعايش مع أناس عقيدتهم تحثهم وتشجعهم على قتل الأنفس وسفك الدماء؟!! ويرمون لإقصاء الناس عن هذا الدين بوصفه دين الرعب والتخويف والإرهاب (١).

وهذه الشبهة أثارها كثير من المغرضين ليدللوا على قسوة النبيﷺ، حيث اعتبروه قام باغتيالات سياسية لمجرد اختلاف الرأي، أي هو اغتيال لمجرد الكلمة. وكانت كتبهم تسوق كثيراً من القصص والروايات غير الثابتة أصلاً، لذا لا طائل من ملاحقة أكاذيب أو روايات غير ثابتة هنا (٢)، وبعض هذه الروايات ثابتة في كتب السير، وهي حالات محدودة جداً لكن بتوصيف غير الذي زعمه المغرضون في حق النبي، ولعل أهم حادثتين ثابتتين في السنة — ولم أجد في المصادر الصحيحة غيرهما–هما قصة اغتيال كعب بن الأشرف، واغتيال سلام بن أبي الحقيق، وتفصيل الحدث وملابساته في التالي:

أولا. الفرق بين العنف والإرهاب وبراءة الإسلام منهما:

لفظ "الإرهابيون" في مفهوم العصر الراهن يطلق على الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية وهذا المصطلح عام ينسحب في مفهومه على الذين يسلكون سبلا غير أخلاقية ولا مشروعة لتحقيق بعض الأهداف، كأن تكون سياسية أو اقتصادية أو شخصية أو غير ذلك من وجوه المصالح والأهواء غير المشروعة. وبصورة أدق حتى نتبين المفهوم الدقيق للإرهاب، نوضح الفرق بينه وبين العنف، فإن تحديد المفاهيم ضرورة علمية حتى لا تبقى هذه الكلمات الخطيرة مائعة هلامية، يفسرها كل فريق بما يحلو له، ويتبع هواه.

العنف أن تستخدم فئة القوة المادية في غير موضعها، وتستخدمها بغير ضابط من خلق أو شرع أو قانون، ومعنى (في غير موضعها) أن تستخدم حيث يمكن أن تستخدم الحجة أو الإقناع بالكلمة والدعوة والحوار بالتي هي أحسن، وهي حين تستخدم القوة لا تبالي من تقتل من الناس، ولا تسأل نفسها: أيجوز قتلهم أم لا؟ وهي تعطي نفسها سلطة المفتي والقاضي والشرطي، أما الإرهاب، فهو أن تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه وإجبارهم على أن يخضعوا لمطالبك، وإن كانت عادلة في رأيك. ويدخل في ذلك: خطف الطائرات، فليس بين الخاطف وركاب الطائرة – عادة – قضية، ولا خلاف بينه وبينهم، إنما يتخذهم وسيلة للضغط على جهة معينة، مثل حكومة الطائرة المخطوفة لتحقيق مطالب له، كإطلاق مساجين أو دفع فدية أو نحو ذلك، وإلا قتلوا من قتلوا من ركاب الطائرة، أو فجروها بمن فيها. كما يدخل في ذلك: احتجاز رهائن لديه، لا يعرفهم ولا يعرفونه ولكن يتخذهم وسيلة ضغط لتحقيق مطالبه، أو يقتل منهم من يقتل.

هذا هو مفهوم العنف والإرهاب، وكلاهما ندينه ولا نرضى به، فإذا كنا ندين العنف بصفة عامة، فنحن ندين الإرهاب بصفة خاصة؛ لما فيه من اعتداء على أناس ليس لهم أدنى ذنب يؤاخذون به: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} (فاطر:١٨)، ولما فيه من ترويع البرآء الآمنين، فمن هدف إلى قتل أناس أبرياء لا ناقة لهم ولا جمل في الحرب السياسية، فعمله مجرم ومحظور شرعا. إننا ندين الإرهاب بكل صوره، مهما كانت دوافعه ومنطلقاته خيرة في نظر أصحابه. فمن

---

(١) –محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار المريخ، السعودية، ط٢، ٢٠٠٤م. الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٢) –يقول أحمد جاد المولى : « ومن أمثلة هذا المسلك في النقد الجائر ما جاء في كتاب (اتساع رقعة الإسلام) لمؤلفه مستر كاش الذي اختتمه بأربع صفحات جمع فيها شواهد مما أسماه جرائم القتل التي حرص عليها النبي في زعمه ، ولقبه من أجلها بالمخادع القاسي القلب ، وقد اعتمد المؤلف في قدحه هذا كتاب سير وليم في حياة محمد ، وذكر جاد المولى ثلاثة حوادث مبيناً أنها لم تثبت في السنن منها قتل عصماء بنت مروان اليهودية ، والحادثة الثانية هي اغتيال الشيخ المسن أبي عفك الأحمق اليهودي ، والحادثة الثالثة هي لتاجر يهودي اسمه ابن سنينة انظر جاد المولى : المثل الكامل (٤١٠ وما بعدها)وهذه الحوادث الثلاثة غير ثابتة في السنن الصحيحة ، وهي واهية الأساس متصدعة الأركان ، لذا لا حاجة لنا في ملاحقة أوهام المبطلين التي سيقت في معرض التشهير والطعن وليس خدمة للبحث العلمي الأصيل

المعلوم أن الإسلام يرفض الفلسفة التي تقول: "الغاية تبرر الوسيلة"، فالإسلام يلتزم ويلزم بشرف الغاية وطهر الوسيلة معا، ولا يجيز بحال من الأحوال الوصول لغاياته الشريفة بطرق غير نظيفة، لا يجيز للمسلم أن يأخذ الرشوة مثلا، أو يختلس المال ليبني به مسجدا أو يقيم به مشروعا خيريا «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا» [١].

ثانيا. الإسلام دين الرحمة بالإنسانية كلها، سواء فيها المسلمون وغيرهم:

عرفنا أن الإرهاب هو أن تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه، فهل عرف الإسلام هذا النوع من العنف؟ نريد أن نبين للعقلاء والمنصفين ولكل ذي طبع سليم ولكل ذي ضمير يقظ، أن الإسلام أبعد العقائد والملل والفلسفات والشرائع عن الإرهاب، بل إن الإسلام دين الرحمة الكاملة بالإنسانية كلها سواء فيها المسلمون وغير المسلمين. إن الإسلام بعقيدته السمحة والسهلة والميسرة قد جيء به أصلا لإشاعة الرحمة والأمن والسلام في هذه الدنيا، ولانتزاع أسباب الظلم والقهر والإرهاب بكل صوره وألوانه.

الإسلام هو النظام الأخلاقي الأمثل، جيء به لترسيخ قواعد الحق والخير والعدل في هذه الأرض، ومن أجل أن تقوم حياة الناس على الأمان والثقة والحرية بعيدا عن الفساد والتخريب والإذلال، بعيدا عن التسليط والترويع والترهيب يقول النبي عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة». [٢] ولما أوذي النبي الكريم من قبل المشركين والمتكبرين والسفهاء وألحقوا به ألوانا من التعذيب والكيد طلب منه المستضعفون أن يدعو على المعاندين الظالمين فأبى وقال:" إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة" [٣].

والإسلام يحذر أشد التحذير من ترويع الناس وإخافتهم وإشاعة الذعر في نفوس العباد، وذلك بمختلف الأسباب والوسائل في الترويع أو الترهيب، سواء بالإشارة بالسلاح، أو التهديد بالكلام الظالم، أو بغير ذلك من أساليب تثير في نفس الآخرين الرهبة والوجل. وفي مثل هذا جاء الحديث النبوي الذي قال فيه رسول اللهﷺ: «لا يحل لمؤمن أن يروع مسلما»، وقد جاء هذا الحديث في رجل تسبب في فزع مسلم، إذ أخذ منه نعله وهو نائم على سبيل المداعبة، فانتبه فزعا فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما»[٤] وحتى في الحروب الإسلامية التي تلتحم فيها الجيوش بعضها مع بعض، لا يقتل إلا من يقاتل، و«لما رأى النبي ﷺ امرأة مقتولة في إحدى الغزوات أنكر ذلك وقال: "ما كانت هذه لتقاتل».[٥] ونهى عن قتل النساء والصبيان، إلى غير ذلك من النصوص في النهي عن ترويع الإنسان لأخيه الإنسان سواء كان ذلك بالإشارة باليد أم بالسلاح أم بغير ذلك من أشكال التخويف التي تثير القلق أو الرعب في نفوس السامعين أو الناظرين، وسواء أكان ذلك مزاحا أم جدا.

ولا جرم أن يكون النهي والتحذير أشد في حق من يعتدي على المجتمع بترويعه وتخويفه وإثارة الرعب والفتنة والفوضى في صفوفه. ولا ينبغي أن يفهم واحد أن هذه النصوص إنما ذكر فيها المسلم وحده فهي إذن خاصة به دون غيره من أهل الكتاب، فمثل هذا الفهم زلل ووهم، وإنما ذكر المسلم بالاسم بالنظر للأكثرين في المجتمع الإسلامي، والأكثرون هم المسلمون، فنسبتهم الغالبة والكبيرة، وإذا ذكر الأغلب أو الأكثر فإنما يراد به المجتمع كله؛ مسلمون ويهود ونصارى، وذلك من غير تعصب ولا محاباة لأحد ضد آخر، ومن غير تفريق في ذلك بين أبناء المجتمع الواحد، بغض

---

(١) –أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (٢٣٩٣). راجع موسوعة بيان الاسلام للرد على شبهات حول الإسلام .

(٢) –صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم (٣١٧٨٢)، والدارمي في سننه بالمقدمة، باب كيف كان أول شأن النبي صلى الله عليه وسلم (١٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٠).

(٣) –أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٦٧٧٨).

(٤) –صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣١١٤)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح (٥٠٠٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥٠٠٤).

(٥) –صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث رباح بن الربيع رضي الله عنه (١٦٠٣٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٧١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢٦٦٩).

النظر عن ديانتهم وما يعتقدون، إذا فإن ذكر المسلم في النصوص إنما هو لحصول الكثرة في الأعداد، وللغالب الأكثر حكم الكل، ومما يدل على ذلك قوله عز وجل: {من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا} (المائدة:٣٢)، من أجل ذلك أي: من أجل وجود هذه النماذج البشرية... من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شرا ولا عدوانا... ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، من أجل ذلك كله جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعا، وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملا عظيما يعدل إنقاذ الناس جميعا.

إن قتل نفس واحدة في غير قصاص وفي غير دفع فساد في الأرض يعدل قتل الناس جميعا؛ لأن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس. ومما يدل على ذلك أيضا قوله عز وجل: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون (٦)} (التوبة). يقول الشيخ سيد قطب في "الظلال": "إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون، وإجارة لمن يستجيرون حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه، ولكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التي تحول بين الأفراد وسماع كلام الله، وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل الله، فتحول بينهم وبين الهدى، كما تحول بينهم وبين التحرير من عبادة العبيد، وتلجئهم إلى عبادة غير الله... ومتى حطم هذه القوى، وأزال هذه العقبات، فالأفراد – على عقيدتهم – آمنون في كنفه، يعلمهم ولا يرهبهم، ويجيرهم ولا يقتلهم، ثم يحرسهم ويكفلهم حتى يبلغوا مأمنهم... هذا كله وهم يرفضون منهج الله. وفي الأرض اليوم من أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد، لا يأمن فيها من يخالفها من البشر على نفسه ولا على عرضه ولا على حرمة واحدة من حرمات الإنسان" [(١)].

على أننا مع ذلك كله نتساءل عن هذه الفرية المكذوبة باتهام المسلمين بالإرهاب: هل الذين يدفعون عن أنفسهم الشر والضيم يجاهدون للتحرر من أسر الذل والاستبداد إرهابيون؟ هل الدفاع عن النفس إرهاب؟ وهل الانتفاض في شجاعة وحميّة وحماسة درءا للهوان والظلم والاستعمار والعبودية إرهاب؟ وهل الدعوة للإسلام ليشيع وينتشر وليستظل الناس بظله الكريم لكي تترسخ قواعد الأمان والاستقرار والسلام إرهاب؟ هل نزعة المسلمين العارمة الغاضبة في هذا الزمان من أجل التحرير ومحو العار الذي خلفه ظلم الاستعمار إرهاب؟

ثالثا. قتل كعب بن الأشرف ليس من قبيل الإرهاب، بل كان جزاء له على جرمه:

حظي بنو إسرائيل في كتاب الله وسنة رسوله بنصيب وافر من الإحاطة والشمول لكافة ما يتعلق بالعقيدة الإلهية ودور الدين ووظيفته في حياة البشر، استهدف الكشف عن بيئة الرسالة ونوعية المؤمنين بها والمعاندين لها من بني إسرائيل. وبحكم كون القرآن هو كتاب الرسالة الخاتمة العامة للناس كافة، والتي ستنتقل بها النبوة على يد محمد من بني إسرائيل – بعد مطاف طويل الأمد بدأ بأبناء يعقوب وانتهى بالمسيح إلى بني إسماعيل، كان من المنطقي أن يقص هذا القرآن على النبي ﷺ كل ما يمكن أن يعين على فهم طبيعة الرسالة الخاتمة إلى الناس جميعا، من هنا كان الخبر القرآني في كل ما يتعلق بالتاريخ الديني والسياسي لبني إسرائيل، فضلا عن خبره فيما انتهوا إليه من أمر العقيدة الدينية ونظرتهم إلى الأوامر الإلهية، خبرا مستفيضا يمتلئ بالدرس والعظة، فضلا عن تمييزه الحق من الباطل والخبيث من الطيب [(٢)].

فقد حكى القرآن كيف بدل بنو إسرائيل أركان الإيمان جميعها، فعاندوا المرسلين إما بالتكذيب أو بالقتل، وأعلنوا كفرهم بالله صراحة، وحرفوا الكتب المنزلة، وبعدوا عن الفهم الحقيقي للبعث والحساب؛ فاستحقوا لعنة الله في الدنيا

(١) –في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص١٦٠٣.
(٢) –الدين الحق وبنو إسرائيل، د. صابر طعيمة، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩١م، ص٥.

وعقابه في الآخرة، وقد عرضت سورة البقرة لكثير من المنن التي تفضل الله بها على بني إسرائيل، وكيف قابلوها بتبديل العقيدة، ورفض النصح والإرشاد، واحتراف التزييف والتحريف والجدل والغدر ونقض العهود، والاستهانة بالأخلاق والحرمات والشرائع والاستعلاء العنصري والإلحاد المطلق، وكون كل ذلك من مفاتيح النفسية والشخصية اليهودية، وانتهت إلى أن الصراع بين الحق والباطل مستمر؛ لأن الباطل غير ساكن، ولا يلتزم بالآداب العامة والأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الأديان: {وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٦١)} (البقرة)، وأن نتيجة هذا الصراع ستؤول في النهاية – مهما طال الأمد – إلى جانب الحق. وهذا ما يؤكده قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود» [١].

تطور علاقة المسلمين باليهود: لم تكن الهجرة فرارا بالدين خشية الفتنة فيه فحسب، بل كانت تعاونا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن، وقد كان رسول الله ﷺ قائد هذا المجتمع، وإليه تنتهي أزمة الأمور بلا منازع، وقد كان يقطن المدينة مع النبي وصحابته من المهاجرين والأنصار أقوام تختلف طبائعهم ومشاربهم وهم: المشركون من أهل يثرب من الأوس والخزرج واليهود، وهؤلاء الأخيرون سكن منهم يثرب ثلاث قبائل مشهورة هي: بنو قينقاع كانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة، وبنو النضير وبنو قريظة، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس، وكانت ديارهما بضواحي المدينة ، وقد كانت هذه الطائفة – اليهود – تثير الحروب وتؤججها بين الأوس والخزرج.

وفي سبيل بناء المجتمع الجديد خطا النبي عدة خطوات، منها: عقد معاهدة مع اليهود لاستيعابهم ضمن نسيج المجتمع الجديد، ولئن كان يهود المدينة ومجاوراتها يبطنون العداوة للمسلمين ورسولهم، فإنهم لم يكونوا قد أظهروها بعد، فعقد معهم الرسول معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه ابتداء إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام على أن يتناصروا معا في الدفاع عن مدينتهم ضد كل معتد، وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة ورئيسها الرسول ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة دولة المسلمين، على أن اليهود–كما هو معروف من وقائع التاريخ–قد نقضوا بنود هذه المعاهدة وخانوا وغدروا مرة بعد أخرى، فنالوا جزاءهم المناسب في كل مرة بما يناسب جرمهم ويكافئ جريمتهم [٢].

فحين نصر الله المسلمين في موقعة بدر نصرا مؤزرا وصارت لهم هيبة وعزة وشوكة، تميزت قلوب اليهود من الغيظ، وكاشفوا بالشر والعداوة وجاهروا بالبغي والأذى، وانطلق زعماؤهم يثيرون النفوس ويؤججون المشاعر لدى المشركين للانتقام والثأر لقتلى بدر. فكان مما قاله كعب لقريش يحرض على الانتقام من النبي : « **هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها** » [٣] ولما قدم المدينة أعلن صراحة معاداته للنبي ﷺ وبدأ يهجوه في أشعاره ، وبلغت به الوقاحة والصلف أن يمتد لسانه إلى نساء المسلمين وشبب بأم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العباس عم النبي ﷺ . [٤]

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود (٢٧٦٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٧٥٢٣)، واللفظ له. انظر اليهود في سورة البقرة، عبد الخالق الشريف. النزعة العنصرية الدموية لعقيدة شعب الله المختار، د. محمد عمارة، مقالان بمجلة الرسالة، العدد ١٦، أغسطس ٢٠٠٥م.

(٢) –الرحيق المختوم، المباركفوري، دار المؤيد، السعودية، ص٢٩٤، ٢٩٥ وما بعدها. فقه السير النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، القاهرة، ط٧، ص٢٠٣.

(٣) –انظر آبادي: عون المعبود (٣٢٢/٧)

(٤) –انظر الحلبي: السيرة الحلبية (٢/ ٤٣٦) (١٤٨/٣) ؛ ابن هشام : السيرة النبوية (٣١٨/٣ وما بعدها) ؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر (٣٩٢/١)

عداء كعب بن الأشرف السافر للإسلام: وكعب بن الأشرف من رؤوس اليهود، ينتسب إلى بني نبهان من قبيلة طيء، أصاب أبوه دما في الجاهلية فقدم إلى المدينة–هروبا من الثأر–وحالف يهود بني النضير، وتزوج بنت أبي الحقيق فولدت له كعبا، فشب غنيا مترفا وسيما، شاعرا معروفا، وكان من أشد اليهود حنقا على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله ومجاهرة بالدعوة لحربه. حين بلغه خبر انتصار المسلمين في بدر ومقتل صناديد قريش، قال: أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، لئن كان هذا حقا لبطن الأرض خير من ظهرها فلما تأكد لديه الخبر انطلق يهجو رسول الله والمسلمين وسافر إلى مكة ليحرض قريشا ضد المسلمين للثأر لقتلاهم الذين رثاهم رثاء حارا[١]

واستمر كعب في إيذائه لرسول الله وتحريض المشركين لحربه، وقد سأله أبو سفيان قائلا: أناشدك الله، أدين محمد وأصحابه أحب إلى الله أم ما نحن عليه؟ فأجابهم كذبا وزورا: بل أنتم أهدى منه سبيلا، فنزل قوله عز وجل: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا (٥١)} (النساء). عاد ابن الأشرف إلى المدينة وقد لج في عداوته، وبلغت به الوقاحة أن امتد لسانه إلى نساء المسلمين، وشبب بأم الفضل زوج العباس عم النبي[٢] ،وقد بلغ من تأثير شعر ابن الأشرف أن حث النبي ﷺ شاعره حسان بن ثابت على التصدي له، فبلغت الحرب الكلامية والإعلامية بينهما أشدها [٣].

شرعية الأمر بقتل كعب بن الأشرف: لا شك أن كعبا قد ارتكب في حق النبي والمسلمين والمسلمات–وهو معاهد في الأصل، أمن المسلمون جانبه بمعاهدة اليهود ومهادنتهم–جرائم عديدة وخيانات عديدة وإساءات متعمدة، كل واحدة منها تعد نقضا للعهد تستوجب عقوبة القتل، بل ربما حد الحرابة –القتل والصلب وتقطيع الأيدي والأرجل –لإفساده في الأرض بإساءاته للمسلمين وتحريضه للمشركين، فكيف إذا اجتمعت كلها في شخص هذا الشرير؟!

فمن الواضح أن الناقض للعهد المؤلب للعدو والمناصر له–جزاؤه المقاتلة والقتل، وهذا ما قضى به النبيﷺ في حق ابن الأشرف، فاغتالته جماعة من فدائي الصحابة ألم يعقد الرسولﷺ العزم لمقاتلة قريش، وأعد العدة لذلك حين توجه لفتح مكة "٨هـ" بسبب نقض قريش لشروط صلح الحديبية وإعانتها الموالين لها ضد قبيلة خزاعة–الموالية للرسول الداخلة في حلفه–بل حدث بعض القتال بالفعل في بعض نواحي مكة عند دخولها، فما الفرق بين أن يكون الغادر الناقض للعهد فردا أو جماعة؟! وعقوبة المعاهد الذي يشتم الرسول ويؤذيه بالهجاء أو غيره هي القتل، وهذا ما كان من ابن الأشرف، بل إن شاتم الرسول يضرب عنقه معاهدا أم غير معاهد، وهذا ما فصله شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "الصارم المسلول على شاتم الرسول".

ولا شك أن مواجهة أعداء الإسلام ومحاربي الدولة الإسلامية لا تقتصر على مواجهتهم السافرة في ساحات المعارك، وإنما تتعدى ذلك إلى كل وسيلة تحصل بها النكاية بالعدو والتهوين من همته، وقد يوفر القضاء على رجل واحد

---

(١) –مما قاله: طحنت رحى بدر لمهلك أهله ..... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ..... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب بها من ابيض ماجد ..... ذي بهجة تأوي إليه الضيع
ويقول أقوام أذل بسخطهم ..... إن ابن أشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا، فليت الأرض ساعة قتلوا ..... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

(٢) –مما قاله : أذاهب أنت لم تحلل بمنقبة ..... وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت .... من ذي القوارير والحناء والكتم
إحدى بني عامر هام الفؤاد بها ... ولو تشاء شفت كعبا من السقم
فلم أر شمسا بليل قبلها طلعت .... حتى تبدت لنا في ليلة الظلم

(٣) –مما قاله حسان : أبكى لكعب ثم عل بعبرة .... منه وعاد مجدعا لا يسمع؟
ولقد رأيت ببطن بدر منهم .....قتلى تسح لها العيون وتدمع
ولقد شفى الرحمن منا سيدا ..... وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم من قلبه ..... شغف يظل لخوفه يتصدع

ذي شوكة ومنزلة دفاعية على المسلمين قتال يهود كثيرين وخسائر فادحة يتكبدونها في حرب واسعة، ودليل ذلك أنه ما إن شاع خبر مقتل ابن الأشرف حتى سارع زعماء اليهود إلى الرسول شاكين محتجين، فلم يحفل بهم، وسوغ ذلك بموقفه المعادي، فأوقع ذلك كله الرعب في نفوسهم، فلم يعد أحد منهم يجرؤ على الخروج من حصنه ، واضطر اليهود إلى تجديد المعاهدة مع النبي فجددها معهم ولم يأخذهم بجريرة ابن الأشرف، وبهذا تفرغ النبي والمسلمون–حتى حين–لمواجهة الأخطار القادمة من خارج المدينة بعد أن أمنوا من بداخلها [١].

تقييم اغتيال كعب بن الأشرف: بالنظر لملابسات حادثة كعب بن الأشرف نجد أن قتله لم يكن من باب الاغتيال السياسي أو تكميم الأفواه بل كعب كان خائناً لعهوده ووطنه لصالح الأعداء وكان داعية فتنة وكان السكوت عليه سبباً لإثارة حروب ونشر القلاقل لذا كانت تصفيته تخضع لضرورة حسم الفتن ودواعي الحروب وردع للخونة والملاحظ أن النبي لم يعاقب قبيلته بفعلته هذه على اعتبار أن العهد نقض من جهتهم بل جدد العهد معهم بعد مقتل كعب ومن هذا الوجه نقول إن قتل كعب لا يخضع لبند الاغتيالات السياسية بل يخضع لباب إعدام الخونة الذي تقر به كل دساتير الأمم

أما اغتيال سلام بن أبي الحقيق: سلام بن أبي الحقيق أحد زعماء بني النضير وأكثر اليهود تحريضاً للأحزاب ضد المسلمين لدرجة أنه جعل لغطفان ومن حولها من قبائل المشركين الجعل العظيم إن هي قامت لحرب النبيﷺ وعند انتهاء الأحزاب أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة عبد الله بن عتيك لتصفية سلام بن أبي الحقيق ، وتوجهت السرية نحو خيب، واستطاع عبد الله بن عتيك أن يتلصص وينفد نحو الحصن ليلاً ثم قام بتصفيته داخل حصنه[٢] وعملية قتل أبي الحقيق هي من العمليات الحربية لتصفية قادة العدو، ولا علاقة لها بالاغتيال السياسي من قريب ولا بعيد خاصة أن سلام بن أبي الحقيق كان أحد مخططي معركة الأحزاب وداعميها بالمال، هذه الشبه الواردة لبست غير ثوبها الحقيقي ، وتم توصيفها وتكييفها لتخدم أغراض مثيريها في الطعن برسالة محمد ونظرة واحدة لهذه الأحداث التي أثيرت حولها الشبه السابقة نجد أنها أيضاً تضيف رصيداً جديداً في مثالية أخلاق الحرب عند النبي حتى وفق قوانين المبطلين أنفسهم وفي نظري أن قلة المطاعن في حروب النبي هي التي أدهشت هؤلاء وأدمت قلوبهم فبدأوا يفتشون بدون وعي ولا تمحيص ليطعنوا بمحمدﷺ وأنى لهم ذلك [٣] .

وكثير من الدول المعاصرة تفخر كثيرا بذراعها الطويلة، عندما تنجح أجهزة مخابراتها في اغتيال أحد خصومها أو معارضيها المناوئين لسياساتها، وليس هناك من سبيل هنا للتسوية بين مشروعية اغتيال كعب بن الأشرف بيد المسلمين بأمر من نبيهم وبين جرائم اغتيال قادة المقاومة الفلسطينية على يد قوات الاحتلال الإسرائيلي؛ ففي الحالة الأولى عاهد المسلمون اليهود–ابتداء–ولم يغصبوهم حقا، ولم يحملوهم على شيء يكرهونه في دين أو دنيا، فنقض اليهود العهد وعادوا المسلمين وناصروا عدوهم في أحلك الظروف، وتكرر منهم ذلك مرارا، فاستحقوا على هذا جزاء وفاقا. أما في الحالة الثانية فإن شذاذ الآفاق قد تداعوا من كل حدب وصوب نحو أرض فلسطين، فاغتصبوها من أهلها وقهروهم وأبادوا من أبادوا وطردوا من طردوا، واستحكموا في البقية يذيقونها صنوف الأذى والاضطهاد، أفإن تجرأت الضحية في هذه الحالة، واستشعرت الإباء والكرامة ورفضت الخنوع والخضوع، وأعلنت الجهاد والمقاومة لاسترداد الحق المسلوب والعزة المهدورة،

---

(١) –السيرة النبوية، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٢، ص١١١ وما بعدها.

(٢) –انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (٢٣٥/٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر (٦٥/٢)

(٣) –يشير محمد رشيد رضا إلى هذا المنهج الذي يفتقر إلى أبسط قواعد الموضوعية الذي اتبعه المستشرقون في كيل الاتهامات للنبيﷺ وتبرئة من قتلهم من ذلك قوله بخصوص قتل كعب بن الأشرف: «ومن الغريب أن الاستاذ ولفنستون يغمض عينيه عن هذه المراجع المهمة، في رسالته تاريخ اليهود، ويتشبث برأي اليعقوبي ويعتبره صحيحاً لأن اليعقوبي يقول أن النبيﷺ أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد ، .. لكن ما الذي ألجأ الأستاذ إلى ذلك؟ الذي ألجأه إلى ذلك هو نفي التهمة عن كعب بن الأشرف، وهي تحريضه قريشاً على قتال المسلمين وتشبيبه بنسائهم فاضطر على تكذيب رواية ابن هشام وغيره من كبار المؤرخين .. وبذلك نفى الأستاذ ولفنستون التهمة عن كعب وجوز على النبي قتل زعيم من زعماء بني النضير لا لشيء غير إعلان الحرب عليهم» [رضا : محمد ﷺ (٢٣١)]

يكون من العدل هنا أن تعد هذه النفوس الأبية والهامات المرفوعة مجرمة إرهابية تستحق المطاردة والملاحقة والاغتيال كما استحقه ابن الأشرف! بعبارة أخرى. هل من الإنصاف المساواة بين الجاني والضحية المجني عليها؟!

رابعا. ولماذا يتهم دين الإسلام رغم سماحته وخلوه من الأفكار الإرهابية التي تنتشر في تعاليم الملل والنحل الأخرى في حين تبرأ ساحة الإرهابيين الحقيقيين؟!

يحق لنا أن نسأل عن العنف والإرهاب: هل هو ظاهرة إسلامية أو هو ظاهرة عالمية؟ بعض أبواق الإعلام الغربي– ومن في فلكها في ديارنا–تريد أن تبرز الإرهاب كأنه إسلامي الجنسية والهوية، وخصوصا بعد أحداث ١١ سبتمبر، وهذا خطأ فاحش بل ظلم بيّن لقد وجدنا العنف في أقطار ودول شتى في أنحاء العالم لقد وجدناه في كل القارات: في بريطانيا، وفي اليابان، وفي أمريكا نفسها، وفي الهند، وفي فلسطين المحتلة من قبل الصهاينة، فلماذا ألصق بالمسلمين وحدهم دون غيرهم؟ إنه الإعلام الغربي والأمريكي والصهيوني الذي يكتم الحق ويشيع الباطل ويقولون على الناس الكذب وهم يعلمون

والحق أن أمريكا التي ساندت الدولة التي قامت على الدم والإرهاب من أول يوم، ومن قبل أن تقوم دولة بني صهيون، تمارس هي نوعا من الإرهاب على العالم كله، وإن لم تسمه إرهابا، فهي تحدد الإرهاب كما تشاء، وبلا معقب، معلنة: أن من ليس معها فهو مع الإرهاب. وإذا كنا نريد أن ندين الإسلام بحق، فإن أول إرهاب يجب أن يدان هو إرهاب الدولة الصهيونية المتجبرة التي بنيت على الإرهاب قبل أن تقوم، وتبنته بعد أن قامت، وهي تنتهك الحرمات، وتستحل سفك الدماء، وتدمير وإحراق مئات المنازل، وتجريف الأرض الزراعية، وتخريب كل شيء، فلا تتورع عن قتل طفل صغير أو شيخ كبير أو امرأة في بيتها. إن ذلكم لهو الإرهاب الفظيع المجلجل.

وأشد من ذلك وأفظع نكرا اغتصاب البلاد والأوطان وتهجير أهلها الآمنين، واضطرارهم للرحيل عنها قسرا ليتيهوا في آفاق الأرض هائمين على وجوههم من أهوال القمع والإبادة والتخويف والتطهير العرقي طوال السنين الخمسين الفائتة، ما يروع القلوب ويزلزل الفرائص والنواهي ولا ننس ما تفعله أمريكا في العالم بأكمله–خاصة الدول الإسلامية–كاحتلال أراضي العراق وتشريد أهلها وقتل شيوخها ونسائها وأطفالها، وما تفعله في أفغانستان. هل نسي هؤلاء الظلمة القتلة أنهم محتلون غاشمون قد عاثوا في البلاد تلويثا وإفسادا؟ أنسي هؤلاء الجلادون الطغاة أو تناسوا أنهم تآمروا على الإنسانية في كل أطراف المعمورة–المسلمين خاصة–لاحتلالهم وإذلالهم، ومن أجل إضعافهم وتدمير عقيدتهم ونهب ثرواتهم وخيراتهم، وذلك بمختلف الأساليب في القمع والكيد والترويع والترهيب والإبادة والاستئصال؟

وما فتئ المحتلون الجلادون، وهم الذين يصطنعون شعارات السلام زورا ودجلا، يكيدون للمسلمين خاصة في سائر أنحاء الدنيا لتبديد شوكتهم وإزالة وجودهم أو كيانهم من خريطة المعمورة إن استطاعوا. ويشهد على ذلك أيضا جرائم الصليبية الحاقدة العمياء في إبادة المسلمين في بلاد البوسنة والهرسك. وغير ذلك من وجوه الرصد والتواطؤ والتمالؤ على المسلمين بتشويه عقيدتهم وإشاعة الأكاذيب والافتراءات على دينهم وتاريخهم.

ولكن ليس من الإرهاب في شيء: أن يدافع الإنسان عن وطنه، ويقاتل محتليه وغاصبيه المعتدين عليه، المستندين إلى ترسانتهم العسكرية الجبارة، وأن يقاتل أعداءه بما يملكه من قوة، كأن يجعل من نفسه قنبلة بشرية، ويفجر نفسه في أعدائه الطغاة المتكبرين في الأرض بغير الحق، فهو يضحي بنفسه فداء لأمته وقضيته، وهذا سلاح ملكه الله للضعفاء في مواجهة الذين يملكون القوة العسكرية الطاغية. فهذه العمليات الاستشهادية مشروعة للدفاع عن النفس والدين والأرض والعرض والمسلمون أبعد الناس كافة عن كل هذه المفاسد والآثام والشرور، فهم أنصار الحق في وجه الباطل مهما تكن الظروف وتاريخ المسلمين شاهد على مثل هذه الحقيقة التي لا ينكرها إلا جحود متربص أو مريض كذاب لقد كان المسلمون كذلك إبان أمجادهم الزاهر بدءا بزمن النبوة المحمدية الميمونة، ومرورا بالخلافة الراشدة المثلى، وانتهاء بدولة

الإسلام ذات الأمجاد وعزة السلطان، إذ كان المسلمون في كل هذه الحقب من الزمن دعاة خير ورحمة وسلام قد شاع في الدنيا فكانت البشرية حينئذ تنعم بالأمان والسكينة والاستقرار.

وإذا كان النظام العالمي الجديد جادا حقا في محاربة الإرهاب، فعليه أن يدين الإرهاب الحقيقي أولا، وأن يقلم أظافره ويخمد ناره، وأن يقف بجوار الشعوب المقهورة، التي تقاوم عدوها المحتل لأرضها بما تستطيع وتملك من وسائل وأدوات، هي جهد المقل وطاقة العاجز. ومن الواجب علينا جميعا أن نبحث عن أسباب الإرهاب في العالم، ونجتهد أن نقتلعها من جذورها، وأعظم أسباب الإرهاب هو الظلم والطغيان والاستكبار في الأرض على المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. إن كل الأكاذيب والشبهات والتشويه، والدس الخبيث والافتراءات التي وجهت إلى عقيدتنا وتاريخنا –نحن منها براء قطعا، ولكن خصوم الإسلام وجهوا إلينا الاتهامات خبثا وحقدا؛ لنقف موقف المتهم المدافع عن نفسه، الذي يسعى بكل ملكاته وإمكاناته لدفع ما وجه إليه؛ خشية الإدانة، وهذا يعد من قبيل " الإسقاط المدروس الواعي[١]، الذي يكذب وهو يعلم أنه يكذب، إنه إسقاط صادر عن لجان ومؤتمرات، وعن حملة أقلام موظفة، وما ذاك إلا لشعورهم بالنقص، وبسبب عقلانية الإسلام وعلميته مقابل خرافات عقائدهم، وما يكسبه الإسلام كل يوم على أرض الواقع رغم حال المسلمين.

خلاصة الكلام:

إن اتهام الإسلام بأنه دين الإرهاب دعوى انعكاسية وإن رددتها وسائل إسقاط من صناع البغي والعدوان والإرهاب الجناة يرمون بها الضحايا البرآء فالإسلام دين الرحمة والسماحة والسلام، وما عرفت الحياة على وجه الأرض معنى الأمن والأمان وما ذاقت طعم السلام إلا في كنف المسلمين حين كانوا سادة العالم. وقضية كعب بن الأشرف أحد رؤوس اليهود الذين حقدوا على المسلمين وانتصاراتهم، فذهب يشعل نار البغضاء والشحناء بين المسلمين وأهل مكة بسلاحه اللعين–سلاح الشعر–ولم يكتف بذلك، بل تعرض لنساء المسلمين ونبي الإسلام بالهجاء وإلصاق كثير من الافتراءات بالإسلام وأهله، فواجه سيدنا حسان بن ثابت هذا الصنديد، لكنه لم يرتدع. لقد ارتكب كعب بن الأشرف بهجاء النبي وسبه وسب المسلمين والمسلمات العديد من الجرائم الكبرى والخيانات المتعددة والإساءات المتعمدة، كل واحدة منها تعد نقضا للعهد وتستوجب عقوبة القتل، بل حد الحرابة (القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي)، ومن ثم حكم النبي في حق ابن الأشرف بالقتل، فاغتالته جماعة من فدائيي الصحابة، وليس في ذلك غرابة، فلقد جهز النبي جيشا لقتال قريش إثر نقضها لصلح الحديبية، فما الفرق إذن أن يكون الغادر الناكث للعهد فردا أو جماعة؟!

إن مقتل ابن الأشرف أوقع الرعب والخوف في نفوس اليهود وقلوبهم فلم يجرؤ أحد على الخروج من حصنه ومن ثم فقد تفرغ النبي لمواجهة الخطر القادم من خارج المدينة وفي أيامنا هذه تفخر كثير من الدول عندما تنجح في اغتيال أحد خصومها البارزين، ولكن عندما يكون الأمر للمسلمين فتكون الجريرة والإنكار إن الإرهاب الحقيقي هو ما تقوم به قوى الاحتلال اليهودية في الأراضي الفلسطينية المغتصبة من تدمير واغتيال، وتهجير لأصحاب الأرض والوطن، وكذلك ما يقوم به الأمريكان والغربيون المعتدون المحتلون لبعض الدول الإسلامية من أعمال وحشية ضد البلاد المحتلة وأهلها وسكانها الأصليين. ليس الدفاع عن النفس والعرض والمقاومة من أجل تحرير الوطن إرهابا، بل هو جهاد مقدس واجب على كل المسلمين ضد قوى البغي والعدوان حتى يتم تحرير الأرض وتطهيرها من أيدي الجناة المغتصبين العابثين[٢].

---

(١) –الإسقاط PROJECTION: حيلة لا شعورية تتلخص في أن ينسب الإنسان عيوبه ونقائصه ورغباته المستكرهة ومخاوفه المكبوتة التي لا يعترف بها إلى غيره من الناس، أو الأشياء أو الأقدار وذلك تنزيها لنفسه وتخففا مما يشعر به من القلق أو الخجل أو النقص أو الذنب، انظر: أصول علم النفس، د. أحمد راجح.

(٢) –موسوعة بيان الاسلام للرد على شبهات حول الإسلام.

البحث الثالث: غيّر النبيّ من معاملته لأهل الكتاب وتنكّر لهم لما رأى من نفسه القوة

يزعم بعض المغرضين أن النبي تنكر لأهل الكتاب، وغير معاملته لهم تبعا لظروفه، ويستدلون على ذلك بأنهﷺ بدأ أمره مسالما إياهم، فلما رأى من نفسه القوة تنكر لهم، وانقلب إلى طاغية يطاردهم ويشردهم، ويمثلون لذلك بما فعله النبي مع اليهود. وهم بذلك يشككون في علاقته بأهل الكتاب ومدى تسامحه معهم، ويرمون من وراء ذلك إلى وصفه ﷺ بالغدر والخيانة[1].

أولا. العلاقة بين النبيﷺ وأهل الكتاب قائمة على التسامح والعدل والبر:

إن البشرية لم تشهد دعوة قامت على التسامح مع الخصوم مثل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا إنسانا تسامح مع أعدائه مثل محمد ﷺ ، ولا دينا تسامح مع الأديان الأخرى مثلما تسامح دين الإسلام ، ولا عجب في ذلك فقد أرسل الله نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وعرفه مهمته بأنه مكلف بالبلاغ وحسب وأفهمه أنه لا يقتاد الناس إلى الإسلام قسرا: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩)} ((يونس) ، ومن ثم اتسمت دعوته ﷺ بالتسامح والعفو وحسن المعاملة حتى مع أعدائه الألداء من المشركين عباد الأوثان، فما بالنا بمعاملته لأهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم أهل كتب سماوية، ولهم صلة بالأنبياء قوية؟! إن السيرة النبوية مليئة بالشواهد والأدلة على تسامح النبيﷺ مع أهل الكتاب، وهذا التسامح لم يحد عنه النبيﷺ طوال مراحل دعوته، وتعامله معهم سواء في المرحلة المكية أو في المرحلة المدنية حتى في أحلك الظروف واشتداد عداوتهم له، وتصديهم لدعوته.

الأدلة على تسامح النبيﷺ مع اليهود:

١. لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لم يكن وصوله إليها خلودا للراحة، ولا فرارا من قومه؛ وإنما ليكمل رحلة شاقة بدأها في مكة، ومنذ أن وصل النبي المدينة رأى أن اليهود أهل كتاب، وأن كتابهم غير المحرف فيه صفات النبي ﷺ يعرفونه بسببها، لا تخطئهم فيه صفة من هذه الصفات، ولقد وصلوا بمعرفتهم تلك إلى حد اليقين في قلوبهم، كما أخبر الله عنهم أنهم: {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} (الأنعام: ٢٠) لقد رأى النبي ﷺ أن اليهود أهل كتاب، ولهم بالأنبياء صلة، وصفته في التوراة عندهم، وهم يعرفون نبوته وقد بشروا بها قبل مجيئه ، ومعرفة النبي ﷺ باليهود على هذا النحو كانت عاملا مساعدا له، كي يعرض عليهم أول ما يعرض أن يدخلوا معه في دينه.

والعقل يحتمل أن اليهود لن يرفضوا هذا العرض، لمعرفتهم بالنبي ﷺ من جهة؛ ولأنهم مأمورون باتباعه في كتبهم المقدسة، وموروثات نبيهم موسى عليه السلام، ولأنهم كانوا ينتظرون على شوق مجيئه حتى يتبعوه، فينجبر به كسرهم، ويكتسبوا به عزتهم وشرفهم، وينتصروا به على عدوهم – كما يتصورون – من جهات أخرى ، غير أن النبي حين عرض عليهم أن يؤمنوا به وبنبوته، ثم يتبعوه على ما جاء به من ربه، رفضوا ذلك على غير قناعة، بل رفضوه على أساس الحسد الذي قد ملأ قلوبهم، وزاد عن حشو إهابهم ، لقد رفض اليهود عرض النبي عليهم أن يؤمنوا، وأثر ذلك في نفس النبي كعادته، يحزن على كل إنسان ينصرف عن الحق، ويعرض عن الإيمان ، غير أن الله قد شرح للنبي طبيعة اليهود، وواساه حتى لا يحزن ولا يشتد على نفسه، وبين له أن اليهود لن ترضى عنه إلا أن يتبع ملتهم، وهو أمر غير وارد.

استبعد النبي مسألة إيمان اليهود تلك، ولكنه لم يستبعد أن يؤمن بعضهم، ورأى أن إيمان بعضهم ربما يكون سببا في إيمان آخرين ينجيهم الله من النار، ويذهب بهم الإيمان بعيدا عن الجحيم ، واحتمالات النبي لم تكن هباء؛ إذ شرح

---

(١) –التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م. المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م، مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. عن موسوعة بيان الاسلام للرد على شبهات حول الإسلام .

الله صدور بعض اليهود، فدخلوا معه في دينه ([1])،ومن هؤلاء اليهود الذين أسلموا: الحصين بن سلام، والذي سماه الرسول ﷺ بعبد الله بن سلام، ولكن إسلامه لم يكن قاعدة سار عليها اليهود، بل يعد من شواذ الأحداث الاجتماعية في عرف اليهود؛ إذ ذهبوا بجملتهم إلى رفض دين رسول الله حسدا من عند أنفسهم ، وعلى الرغم من أن النبي لم يعلق على إيمان اليهود كبير أمل، إلا أنه لم يلجأ إلى التصادم معهم، بل بدأ مفاوضتهم على أساس آخر قد يصلح لهم وله، وهذا الأساس هو أساس المواطنة يتخذها الطرفان أساسا ليبنوا عليها معاهدة سلام يلتزم بها النبي وأصحابه من جهة، ويخضع لها اليهود من جهة أخرى.

ولم لا، والمسلمون واليهود يسكنون يثرب، ويعيشون على أرضها، والمعايشة تستحق الاشتراك والتعاون في الدفاع عن هذه الأرض، وردكل غائلة(المصيبة) عنها؟ ولقد بادر النبيﷺ بمفاتحة أبناء يهود في أن يدخلوا معا في معاهدة سلام يحترمونها جميعا، بعد توقيعها، حتى يتمكن النبي ﷺ من بناء دولته التي تضم شعبا متحد الأهداف على أرض واضحة المعالم، تحت سماء نقية طاهرة، لا يزعجها شيء ولا يقلقها خطر[2] ،ومن ثم فقد دخل النبي ﷺ مع اليهود في عهد ملزم، وبنود يجب أن يخضع لها الجميع، ومن أهم هذه البنود:

أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة.

والمتأمل في هذه الوثيقة يجد أنها تدل على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبيﷺ لليهود، ولقدكان بالإمكان أن تؤتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود، لو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر والخديعة [3]، وتلك هي طبيعتهم دائما في كل عصر ومصر، ألم يقل الله عنهم: {ينقضون عهدهم في كل مرة} (الأنفال: ٥٦)؟!!

٢. ومن أكبر الأدلة على تسامح النبيﷺ مع اليهود: التزامه بمعاهدة السلام التي كانت بين المسلمين واليهود، على الرغم من استفزازات اليهود الكثيرة للنبي وللمسلمين ومن هذه الاستفزازات:

محاولة إحراج النبي صلى الله عليه وسلم: وذلك بالسؤال عن أشياء يظنون أنه لا يستطيع أن يجيب عنها، فيفقد بذلك مصداقيته، وقد أجابهم النبي ﷺ في كل ما سألوه، ورغم شهادتهم بصدقه إلا أنهم لم يؤمنوا به، ومن ذلك سؤالهم عن الروح فنزل الوحي يقول: {قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٨٥)} (الإسراء). وقد فاجأ اليهود هذه الإجابة، فتلاوموا فيما بينهم، حتى قال فريق لفريق: ألم نقل لكم لا تسألوه؟

التطاول على النبي ﷺ والتعدي على الذات الإلهية: ومن ذلك ما روته كتب السير وتابعتها في ذلك كتب الأحاديث الصحاح، ومن ذلك أن أبا بكر الصديق ذهب في شراء سلعة من سوق اليهود، وسأل اليهودي عن ثمنها، فقال اليهودي لأبي بكر مستفزا له: والذي اصطفى موسى على العالمين إن هذه السلعة ثمنها كذا، ولما رأى أبو بكر أن اليهودي قد عمد إلى استفزازه، صفعه على وجهه، فانطلق اليهودي إلى النبي ﷺ يشكو صاحبه إليه، وقد امتص النبي غضب المسلمين، وحافظ على وحدة المجتمع بقوله ناصحا: «لا تخيروني على موسى» [4] ، وفي بعض ما روته كتب السير أن آحاد اليهود لم يقدروا على ضبط انفعالاتهم، فأخذوا يتطاولون حتى على الذات الإلهية، ومن ذلك ما قاله فنحاص اليهودي لأبي بكر، حينما أراد أبو بكر أن يرغبه في الإسلام، فرغبه ورهبه حين يقبل على ربه يوم القيامة، فقال

---

(١) –رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٦، ٢٧ بتصرف

(٢) –رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٠ بتصرف.

(٣) –فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص١٦٠، ١٦١ بتصرف.

(٤) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٢٢٨٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٦٣٠٢). أي لا تفضلوني عليه تفضيلا ينقص من قدره أو يؤدي للخصومة

له فنحاص: إنا عن ربك لفي غنى، وإنه إلينا لمحتاج، وإن صاحبكم ليحرم عليكم الربا ويعرضه علينا. ولم يطق أبو بكر سماع كلامه، فرد عليه بما يكافئ قوله: "والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت رأسك" [١].

تهديد المسلمين بنقض المعاهدة ومحاربتهم: لم تؤت استفزازات اليهود للنبي ﷺ وللصحابة ثمارها، وذلك لسعة صدر النبي فوصل اليهود في الاستفزاز إلى منتهاه، وذلك حين نصحهم النبي ﷺ بعد غزوة بدر، وطلب إليهم أن يكفوا عن استفزازاتهم، وإلا فعل الله بهم ما فعل بالمشركين يوم بدر، فقالوا له: لا يغرنك يا محمد أنك قابلت أناسا لا بصر لهم بالحرب، وانتصرت عليهم، فوالله لو قابلتنا لتعلمن أنا نحن الناس ، عجيب حقا والله أن يسمع النبي هذا الكلام من أناس تربطه وإياهم معاهدة سلام، غير أنها أخلاق اليهود وكفى[٢] لم يكتف اليهود بإيذاء النبي والمسلمين بألسنتهم، بل حاولوا إيذاء النبيﷺ في جسده، وكان أول ما آذوه به أنهم قد سحروا له، وأوكلوا أمر سحره إلى لبيد بن الأعصم، وقد بين الله له ما صنع اليهود به، كما بين له مكان السحر وكيفية استخراجه، ومع ذلك لم يعلن النبي ﷺ الحرب عليهم.

نقول: إن كل هذه الاستفزازات من قبل اليهود على الرغم من المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين، إلا أن النبي لم يجزم بأن اليهود قد خرجوا من معاهدة السلام بهذه الاستفزازات؛ إذ هو يحتمل أن تكون هذه الاستفزازات قد صدرت عن آحاد من اليهود، وهي لا تعبر عن رأي جماعتهم.

وصفوة القول: إن النبيﷺ رأى في هذه الاستفزازات قرائن تدل على أن اليهود يرغبون في الخروج من معاهدة السلام معه، ولكنها لا تصل إلى حد الدليل، والشأن في النبيﷺ أنه لا يبني قرارا على قرينة، ولا تصرفا على احتمال[٣]، وفي هذا قمة العدل والتسامح مع اليهود، والذي لم يحدث مثله من رجل قادر على أن يبادل أعداءه العداوة ويكيل لهم الصاع صاعين من العقاب.

٣. ومن المواقف الأخرى الدالة على تسامح النبي ﷺ مع اليهود: عفوه عنهم بعد محاولتهم قتله، فقد روت كتب السيرة أن اليهود قد اجتمعوا يبحثون عن طريقة يتخلصون بها من النبي صلى الله عليه وسلم، فكان ما رسموه هو أنهم قالوا: نرسل إلى محمد نقول له: قد حيرنا أمرك، ولا نعرف وجه الحق فيه، ونقترح أن تقبل في ثلاثين رجلا من رجالك، ونرسل إليك بثلاثين من رجالنا ممن لهم بصر بالدين والعلم، فتشرفون معا على ربوة لا يقترب منكم أحد، وتديرون المسائل وتتناقشون في الأمور حتى يظهر وجه الحق، فإن ظهر الحق عندك اتبعناك ،لقد انتهى اليهود من خطتهم تلك في يومهم الذي اجتمعوا فيه، وهم ينوون أن يرسلوا إلى النبي بثلاثين رجلا بينهم من يخفي سلاحه في طي ملابسه، فينال به من رسول الله ﷺ خيانة وغيلة، ووافق النبي حين وصله طلب اليهود، وأقبل في ثلاثين من قومه، غير أن اليهود قد تدارسوا الأمر مرة أخرى، وقال بعضهم لبعض: كيف تخلصون إلى الرجل وهو في ثلاثين من قومه كل واحد منهم يريد أن يموت قبله؟ عاودوه في الأمر، وقولوا له يخرج إلينا في ثلاثة من أصحابه، ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا، فيسمعون منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك.

واستجاب النبي حين بلغته رسالة اليهود، فخرج إليهم في ثلاثة من أصحابه وخرج ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر، وأرادوا الغدر برسول الله ﷺ ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ ، فأقبل أخوها سريعا حتى أدرك رسول الله ﷺ فأعلمه بخبرهم قبل

---

(١) –أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٨١)، (٨٣٠٠).

(٢) –رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٤٥، ٤٦ بتصرف.

(٣) –رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٤٦، ٤٧ بتصرف.

أن يصل إليهم، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة [١] وعلى الرغم من أن هذه المحاولة لم تكن الأولى ولا الأخيرة، إلا أن النبي لم يعاقبهم على ذلك بسبب حسن خلقه الذي يقتضيه ألا يأخذ بالظنة، ولا يعاقب أحدا بالاحتمال.

٤. دفاع الله عن يهودي اتهم زورا: فقد حدث في المدينة أن رجلا مسلما يدعى "طعمة بن أبيرق" سطا على أهل بيت من المسلمين، وسرق منهم درعا، ثم خبأها عند يهودي. وبحث أصحاب الدرع عنها فوجدوها في بيت اليهودي، فاتهموه بأنه سارقها، وتضافرت كل القرائن على اتهامه، فطعمة يحلف أنه ما أخذ الدرع ولا استودعها أحدا، ويؤكد اليهودي أنه أخذها من طعمة وديعة ، وقد ذهب قوم إلى الرسولﷺ يطلبون منه أن ينتصر للحق الذي في جانب المسلم، وأن يأخذ اليهودي بالعقاب ويقتص منه، كما جاء قوم طعمة يجادلون عن صاحبهم ويبرئونه ، فإذا بالوحي ينزل كاشفا الغطاء عن الحقيقة، مبرئا ساحة اليهودي، دامغا خصمه بأنه خائن أثيم–وإن تظاهر بالإسلام–مؤنبا قومه لجدالهم، وسعيهم لدى الرسول كي يجادل عنه كذلك، فنزلت الآيات الكريمة بخطاب الرسول: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (١٠٥)} (النساء)، وبين القرآن الحقيقة قائلا: {ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (١١٢)} (النساء)[٢] أرأيت كيف أنصف الإسلام اليهودي البريء، وفضح المسلم المذنب؟! هذه قمة التسامح وقمة العدل الذي جاءت به دعوة محمدﷺ.

٥. لم تقتصر هذه المعاملة الحسنة لليهود على النبي بل غرسها النبي في أصحابه، فقد حدث أن يهود خيبر أرادوا رشوة عبد الله بن رواحة، ليقلل ما يأخذه من خراج أرضهم على حسب الصلح الذي تم بينهم وبين المسلمين، فقال عبد الله: «يا أعداء الله، تطعموني السحت؟ (الحرام) والله جئتكم من أحب الناس إلي–يعني رسول الله ﷺولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم على العدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[٣]. هذه بعض الأدلة من السيرة النبوية المطهرة الدالة دلالة واضحة على تسامح النبي مع أهل الكتاب من اليهود على الرغم من عداوتهم له ولدعوته.

أما بالنسبة لتسامحهﷺ مع النصارى فيكفينا هنا هذان الشاهدان:

١. قصة فارس والروم: فقد حدث قبل الهجرة أن تحاربت فارس والروم، فغلبت فارس الروم، ففرح بذلك المشركون، وكانوا يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان مثلهم، وساء ذلك المسلمين؛ لأنهم كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب مثلهم، ولقي المشركون أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله عز وجل: {الم (١) غلبت الروم (٢) في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣) في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٤) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (٥) وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦) يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧)} (الروم).

فخرج أبو بكر إلى الكفار، فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟! فلا تفرحوا، ولا يقرن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ ، فقام إليه أبي بن خلف، فقال: كذبت يا أبا فصيل(يريد التهكم) ، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أناحبك (أراهنك) عشر قلائص (الفتية من الإبل) مني، وعشر

---

(١) –رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٨٩، ٩٠.

(٢) –التعصب والتسامح بين الإسلام والأديان الأخرى، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٤٨: ٢٥١ بتصرف.

(٣) –إسناده صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب المزارعة (٥١٩٩)، والبيهقي في السنن الكبرى، (١١٤٠٦)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان. كتاب التعصب والتسامح بين الإسلام والأديان الأخرى، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٢٦.

قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس على الروم غرمت إلى ثلاث سنين، فرجع الصديق أبو بكر إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبره، فقال: "ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر (الرهان) وماده في الأجل"، فخرج أبو بكر فلقي أبيا فقال له: لعلك ندمت؟ فقال الصديق: لا، تعال أزايدك في الخطر، وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلت [١] فظهرت الروم على فارس قبل التسع، ففرح بذلك المسلمون؛ لأن الواقع جاء على ما أخبر به القرآن، وصدقت نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم، ونصر الله الروم أهل الكتاب على الفرس المجوس[٢] هذا هو موقف النبي ﷺ والصحابة من النصارى، ولنتأمل كلمة أبي بكر: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ نعم إنها نظرة الأخوة!!

٢. أما الموقف الآخر الدال على تسامح النبيﷺ مع النصارى، فهو موقفه من نصارى نجران: نجران: بلد كبير على بعد سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا يدينون بالنصرانية وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلا منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران. أحدهم: العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثاني: السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيهم أو شرحبيل. والثالث: الأسقف، وكانت إليه الزعامة الدينية والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩) الحق من ربك فلا تكن من الممترين (٦٠) فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين (٦١)} (آل عمران) ، ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى ابن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة [٣].

وخرج النبي ﷺ ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة، وقال: "وإذا أنا دعوت فأمنوا"، فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقا، وأنه ما باهل قوم نبيا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه، وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حلة(ثوب جيد جديد)، ألف في رجب، وألف في صفر، وعلى عارية ثلاثين درعا، وثلاثين رمحا، وثلاثين بعيرا، وثلاثين فرسا إن كان باليمن كيد، واشترط عليهم ألا يتعاملوا بالربا، وأمنهم على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكتب لهم كتابا جاء فيه: "ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم(معابد النصارى) لا يغير أسقف على سقيف، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته". وأشهد على ذلك بعض المسلمين، ثم رجعوا إلى بلادهم فلم يلبث العاقب والسيد إلا يسيرا حتى رجعا إلى النبي ﷺ فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وأقام أهل نجران على ذلك حتى توفى الله نبيه [٤].

---

(١) –أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، تفسير سورة الروم، الآية (١).

(٢) –السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٣٨٩، ٣٩٠.

(٣) –المباهلة: طلب نزول لعنة الله على الظالم. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٤٥٠، ٤٥١.

(٤) –السيرة النبوية، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥٤٨.

هذه هي معاملة النبي لأهل الكتاب اليهود منهم والنصارى، معاملة قامت على العفو والتسامح والإحسان، ولا يمكن لمنصف أن يزعم أن هذه المعاملة قد تغيرت من مرحلة إلى أخرى؛ لأن هذا الزعم لا يقوم على أي دليل أو حجة تستند إلى الواقع، بل هو مجرد خيال قائم في ذهن أصحابه تخالفه شواهد التاريخ وأدلة الواقع.

ثانيا. لم يكن النزاع القائم بين النبيﷺ واليهود بسبب كونهم يهودا مخالفين له في الدين:

ليس صحيحا ما يقال إن النبي قد تنكر لأهل الكتاب بعد أن قويت شوكة الإسلام في المدينة، وقامت دولته فأصبح يطاردهم ويشردهم، ويحرض على قتالهم؛ لأن ما ذكرناه سابقا من أدلة على تسامح النبي معهم منذ بداية دعوته حتى توفاه الله تدحض هذا الزعم من أساسه، وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كما تقولون من أن محمداﷺ لم يغير سياسته مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى فلماذا حارب اليهود وطردهم من ديارهم وقتل سادتهم واستباح دماء بني قريظة؟!

وإننا نرد على هذا السائل بأن الأمر ليس كما تظن؛ لأن النبي ﷺحين فعل ذلك مع اليهود، لم يكن بسبب كونهم يهودا مخالفين له في الدين، بل بسبب نقضهم للعهود وغدرهم بالنبي ﷺ وأصحابه، وخوضهم في أعراض المسلمين، ومحاولاتهم المستمرة لقتل النبي صلى الله عليه وسلم، وموالاتهم الكفار ضد المسلمين، وإننا لو أردنا أن نتتبع جرائم اليهود التي استحقوا بها ما حل بهم من عذاب وعقاب على أيدي المسلمين، لما سمح المجال، ولكننا نكتفي بأقل القليل من هذه الجرائم التي لا يمكن العفو عن مرتكبيها بحال من الأحوال، وقد سبق أن تحدثنا عن بعض استفزازات اليهود للنبي وللمسلمين ، وعلى الرغم من أنها من الأمور التي يستحقون عليها أشد العقاب، إلا أن حسن خلق النبي وسعة صدره معهم قد حالت بينهم وبين هذا العقاب، ولكن هناك من الأمور التي لا يمكن لحليم أن يتجاوز عنها، والتي ارتكبها اليهود مع النبي والمسلمين والتي واجهها النبي والمسلمون بالحزم منها:

١. ما حدث من بني قينقاع: لقد سبق الحديث عما دار بين يهود بني قينقاع والنبيﷺ بعد بدر، وقولهم للنبي كما ذكر ابن هشام في سيرته: "لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس". وعلى الرغم من هذه المقولة التي يعلن فيها اليهود الحرب على المسلمين إلا أن النبي لم يلتفت إليها، لحرصه على السلام وأمن المجتمع، ولكن الشيء الذي لا يمكن أن يتهاون فيه النبي هو اعتداؤهم على عرض إحدى المسلمات، فقد روى ابن هشام: أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، وشد اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع [١].

ومن ثم فإن القشة التي قصمت ظهر البعير هي حادثة المرأة المسلمة التي راودها اليهود عن كشف وجهها فأبت، ولم يكن مقتل المسلم أمرا فرديا، فلقد كان تمالؤا عاما من اليهود وإعلانا بنبذ العهد منهم، فلو كان حادثا فرديا لأمكن معالجته وقتل القاتل، ولكن الملأ من يهود هم الذين اجترؤوا وقتلوا، فأنزل الله عز وجل: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين (٥٨)} (الأنفال) فاحتمال الغدر منهم قائم كل لحظة، ولئن سكت المسلمون على هذه الجريمة، فهذا يعني أنهم ضعاف، وبالتالي فهم معرضون للغزو في كل لحظة، فلم يكن هناك خيار من المعركة، فلهذا حاصرهم النبي في بيوتهم، وحصونهم، وقد انتهى هذا الحصار بإجلائهم عن المدينة [٢].

---

(١) –المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٠٧.

(٢) –المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٠٩ بتصرف.

٢. ما حدث من يهود بني النضير: وكان يهود بني النضير ممن عاهدهم النبيﷺ ووادعهم على أن يأمن كل فريق الآخر، لكنهم لم يفوا بالعهد وهموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، ذلك أن عمرو بن أمية الضمري الذي نجا من سرية القراء، لقي أثناء رجوعه إلى المدينة رجلين من بني عامر، فقتلهما وهو يظن أنه أصاب بذلك بعض الثأر من بني عامر، الذين غدروا بهم، ولم يشعر بعهدهما الذي لهما من رسول الله ﷺ فقال له الرسول: "لقد قتلت رجلين لأدينهما"(أدفع الدية عنهما) وكان بين بني عامر وبني النضير عهد وحلف.

فخرج رسول اللهﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية الرجلين في جماعة من صحابته منهم أبوبكر وعمر وعليّ رضي الله عنهم فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد لإجابته، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة –وكان رسول الله جالسا إلى جنب جدار لهم فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك الشقي عمرو بن جحاش فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقي الصخرة، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث النبي أصحابه قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه بالمدينة، فأخبرهم بما كانت اليهود اعتزمته من الغدر بهم.

فبعث رسول الله محمد بن مسلمة إليهم يطلب منهم الخروج من جواره بالمدينة، وأمهلهم عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك، فأيقنوا أن الله أطلعه على ما أرادوا، وصاروا متحيرين لا يدرون ما يفعلون، وبينما هم في حيرتهم وترددهم جاءهم رسل أهل النفاق ابن أبي وأتباعه، فقالوا لهم: اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمي حيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود؛ لذلك أمر النبي ﷺ بالتهيؤ لحربهم وقتالهم، وحاصرهم ست ليال، وقيل: خمس عشرة ليلة، وقاتلوهم، ثم أمر رسول الله بقطع نخيلهم وتحريقها ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم، وعبثا انتظر اليهود نصر ابن أبي وجماعته، وخذلهم كما خذل بني قينقاع من قبل، فملأ الرعب قلوب اليهود واشتد الحصار عليهم، فسألوا الرسول الجلاء وتأمينهم على دمائهم ومتاعهم. وبإجلاء بني النضير أراح الله المسلمين من شوكة ثانية، كانت تقض مضاجعهم [١].

٣. ما حدث من يهود بني قريظة: استطاع حيي بن أخطب–زعيم اليهود–في جماعة من بني النضير أن يؤلب العرب على محاربة الرسول ﷺ بالمدينة حتى كانت غزوة الخندق، وقد سعى إلى بني قريظة–والمشركون يحاصرون المدينة – أن ينقضوا ما بينهم وبين النبي وقد نجح في ذلك حتى اشتد الكرب على المسلمين، وأصبحوا بين نارين: نار المشركين ونار اليهود، حتى اضطر النبي إلى أن يرسل بعض المسلمين لحراسة الذراري والنساء من غدر اليهود، بعد أن نقضوا العهد. وبعد عودة النبي ﷺ من الخندق، تفرغ لبني قريظة، فأمر رسول الله مناديا ينادي في الناس: «ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» [٢]، فحاصرهم النبي حتى اشتد بهم الحال، ولم ير بنو قريظة فائدة من تحصنهم، وأنهم لا ناصر لهم من دون الله، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحكم فيهم رجلا من حلفائهم من الأوس، وهو سعد بن معاذ، فحكم بأن يقتل الرجال، وتسبى النساء والذرية[٣] وبالقضاء على بني قريظة تخلص المسلمون بالمدينة من آخر شوكة في ظهورهم، وأصبحت المدينة كلها–ما عدا المنافقين–على قلب رجل واحد موئلا للإسلام، وحصنه الحصين [٤].

٤. ما حدث من يهود خيبر: لئن كانت المدينة قد تطهرت من اليهود وغدرهم فها هي خيبر، لا تزال حصنا حصينا لليهود وأهلها، ومن نزح إليها من يهود بني النضير الذين يحملون الحقد والضغن على الإسلام والمسلمين، وغير

---

(١) –السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٣٩٩، ٤٠٠ بتصرف.
(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٩٠٤)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من لزمه أمر فدخل عليه أمر آخر (٤٧٠١).
(٣) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٢٨٧٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، (٤٦٩٥).
(٤) –السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٤٠٦: ٤٠٩ بتصرف.

بعيد عنا ما قام به زعماء بني النضير الذين اتخذوا خيبر مقاما لهم، من تأليب العرب على المسلمين في الخندق، وحملهم بني قريظة على نقض العهود التي كانت بينهم وبين الرسول ومن ثم نجد أن خيبر أصبحت مركزا لتجمعات اليهود يقومون منها بما يريدون من غدر ومكايد. ولئن كان المسلمون بعد فتح الحديبية قد أمنوا قريشا والجنوب، لكنهم لم يأمنوا ناحية الشمال، ولا سيما أهل خيبر الذين لا ينسون ما فعل بإخوانهم اليهود، وليس ببعيد أن يستعينوا بهرقل أو كسرى في النيل من المسلمين، وما كان رسول الله وهو السياسي المحنك –ليخفى عليه شيء من هذا؛ لذلك لم يكد يرجع من الحديبية ويستريح بالمدينة شهرا أو نحوه حتى أمر بالتجهز للخروج إلى خيبر.

وخرج رسول اللهﷺ في مطلع عام سبع من الهجرة في جيش تعداده ألف وستمائة ومعهم مائتا فرس، وقد كانت يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأسا، وأكثرها مالا، وأوفرها سلاحا. وقد استطاع المسلمون أن يستولوا على حصون اليهود حصنا بعد حصن، فاستولى اليأس على اليهود، فطلبوا من النبيﷺ الصلح على أن يحقن دماءهم، فقبل الرؤوف الرحيم، وصارت أرضهم لله ولرسوله وللمسلمين، فلما أراد النبيﷺ إجلاءهم سألوه أن يقرهم على أن يعملوا في الأرض ولهم نصف التمر فقال لهم: «نقركم على ذلك ما شئنا»[١].

وقد كان من إحسان النبي في معاملة يهود خيبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون منهم عدة صحف من التوراة فطلب اليهود ردها فأمر بتسليمها إليهم ولم يصنعﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة [٢]. ما ذكرناه آنفا هو بعض من جرائم اليهود التي ارتكبوها، واستحقوا بسببها ما نزل بهم من عقاب على يد النبي والمسلمين، وما ذكرناه من هذه الجرائم هو جرائم جماعية اشترك فيها جموع غفيرة من اليهود، ولو أردنا أن نتتبع جرائمهم الفردية لطال بنا المقام. ومن ثم لم يكن النزاع القائم بين النبي وبين اليهود نابعا من فراغ، بل كان اليهود دائما هم الذين يؤججون نار العداوة بينهم وبين النبي فكان لا بد أن يبادلهم النبي عداء بعداء كما بادلهم سلما بسلم.

هذا بالنسبة لليهود، أما بالنسبة للنصارى، فلم يكن لهم تجمعات تذكر في جزيرة العرب إلا في نجران، وقد رأينا كيف اشتمل عهد النبيﷺ إلى أهل نجران، أن لهم جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وملتهم وبيعهم، ولم يصدر منهم أي بادرة عداء للنبي ولا لدعوته، بل حافظوا على العهد، ودفع الجزية، فبادلهم النبي سلاما بسلام. وهكذا يتضح لنا أن النبيﷺ لم يغير سياسته مع أهل الكتاب، ولم يتنكر لهم كما يزعم الزاعمون، بل حرص النبيﷺ أن تكون العلاقة معهم قائمة على التسامح، والعفو، والتعاون المشترك، ولم يبادل عداوة اليهود بعداوة، إلا بعد أن نقضوا عهودهم، وأعلنوا الحرب على الإسلام، وعاونوا المشركين على محاربة المسلمين، وأرادوا استئصال شأفة المسلمين، وقتل النبي صلى الله عليه وسلم.

فكان لا بد أن يقف النبي ضدهم هذا الموقف الحازم، الذي لم يخرج فيه النبي ولا المسلمون عن مبدأ العدل، هذا الموقف الحازم الذي كان لا بد أن يتخذه؛ "لأن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، أمر يشق على النفوس بل يتعذر على كثير من الناس أن يفعلوه، وربما جرأ الفجرة الأشرار على الصالحين الأخيار، وقد يتعين في بعض الأحوال، ومع بعض الناس أن يعاقبوا بمثل ما اعتدوا ولا يعفى عنهم فيتبجحوا ويزدادوا بغيا وطغيانا"[٣] . ولهذا تجلت واقعية النبي ﷺ حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان، فأقر بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان، وإن كان يؤثر دائما العفو، والصبر، والمغفرة، والتسامح، وقد شهد له بذلك غير المسلمين، ومن هؤلاء جوستاف لوبون العلامة الفرنسي إذ

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحرث والمزارعة، (٢٢١٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، (٤٠٤٧).
(٢) –السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٤١٤: ٤١٩ بتصرف.
(٣) –سماحة الإسلام، د. عمر بن عبد العزيز قريشي، المكتبة الذهبية، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤٧، ٤٨.

يقول عن سماحة محمد ﷺ مع أهل الكتاب: "إن سماحة محمد ﷺ لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، ولم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله، كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب"(١). وبهذا تبطل حجة من يزعم أن النبيﷺ قد اضطهد أهل الكتاب بشهادة التاريخ والواقع وشهادة غير المسلمين أنفسهم.

الخلاصة:

لقد اتسمت معاملة النبي مع المخالفين له في الدين بالتسامح، والعفو، والرحمة، حتى مع المشركين فما بالنا بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم أهل كتب سماوية، ولهم صلة بالأنبياء قوية؟! ومن أكبر دلائل تسامحه مع اليهود مفاتحته لهم في أن يدخلوا معا في معاهدة سلام يحترمونها جميعا، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وقد كان من المنتظر أن تؤتي هذه المعاهدة ثمارها لولا طباع اليهود، التي جبلت على الغدر، فنقضوا هذه المعاهدة، ومن دلائل تسامحه كذلك تغاضيه عن استفزازات اليهود الكثيرة مثل: محاولاتهم إحراجه بالأسئلة التي لا يهدفون منها إلا محاولة تعجيزه، وتعديهم على الذات الإلهية، وإيذائه في جسده عن طريق سحره، ومحاولات اغتياله، أما تسامحه مع النصارى فلا يستطيع أحد إنكاره، ولا يستطيع أحد أن ينسى حزن النبي ﷺ والمسلمين لهزيمة الروم النصارى على يد الفرس المجوس، وكذلك موقفه من نصارى نجران، والعهد الذي أخذه معهم والذي أعطاهم فيه الأمان على أنفسهم ودينهم، وأموالهم، والسماح لهم بالصلاة في المسجد النبوي، وقد كان ذلك في العام التاسع من الهجرة بعد استتباب الأمر في المدينة وإقامة الدولة، وإن العقاب الذي صبه النبي ﷺ على اليهود لم يكن بسبب مخالفتهم له في الدين كما يزعمون، وإنما بسبب نقضهم للعهود وغدرهم بالنبي وأصحابه، وخوضهم في أعراض المسلمين ومحاولاتهم الدؤوبة لقتل النبي ﷺ وموالاتهم الكفار ضد المسلمين، وقد كانت هذه الجرائم من اليهود جرائم جماعية اشتركوا فيها جميعا، وقد كانت الحكمة تقتضي أن يقف النبي منهم هذا الموقف الحازم؛ لأن العفو عن بعض الناس قد يدفعهم إلى التعدي على الصالحين الأخيار ويزدادون بغيا وطغيانا. أما في حالات السلم فقد بادلهم سلما بسلم ومودة بمودة، وقد شهد بهذه السماحة الكثير من غير المسلمين من المنصفين ومن ثم فليس صحيحا أن النبي قد تعامل مع أهل الكتاب بأسلوبين مختلفين كما يزعمون.

(١) –سماحة الإسلام، د. عمر بن عبد العزيز قريشي، المكتبة الذهبية، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٩٧، ٩٨

البحث الرابع: اختلق النبي أسبابا واهية لطرد اليهود والاستيلاء على أراضيهم

يزعمون أن النبي اختلق أسبابا واهية لحرب اليهود، وطرَدهم ظلما من المدينة؛ ويستدلون على ذلك: بأنه في غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية من المدينة، واستولى على أرضهم، كما أنه خير يهود بني قريظة بين الدخول في الإسلام أو القتل، ويتساءلون: أليس في هذا ظلم منه واضطهاد لهم دونما سبب سياسي بيّن؟!! رامين من وراء ذلك إلى الطعن في دوافع جهادهﷺ اليهود خاصة، والتشكيك في سياسته عامة. (١)

أولا: عهد النبيﷺ مع اليهود في بداية العهد المدني:

لقد رأى النبيﷺ أن اليهود أهل كتاب، وأن كتابهم غير المحرف فيه صفات النبيﷺ يعرفونه بها، لا تخطئهم فيه صفة من هذه الصفات، ولقد وصلوا بمعرفتهم تلك إلى حد اليقين في قلوبهم، كما أخبر الله عنهم أنهم {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} (الأنعام: ٢٠). نقول: لقد رأى النبيﷺ أن اليهود أهل كتاب، ولهم بالأنبياء صلة، وصفته في التوراة عندهم، وهم يعرفون نبوته، وقد بشروا بها قبل مجيئه؛ ومعرفة النبي باليهود على هذا النحو كانت عاملا مساعدا له كي يعرض عليهم أول ما يعرض أن يدخلوا معه في دينه.

والعقل يحتمل أن اليهود لن يرفضوا هذا العرض، لمعرفتهم بالنبي من جهة؛ ولأنهم مأمورون باتباعه في كتبهم المقدسة، وموروثات نبيهم موسى من جهة أخرى؛ ولأنهم كانوا ينتظرون مجيئه على شوق حتى يتبعوه، فينجبر به كسرهم، ويكتسبوا به عزتهم وشرفهم، وينتصروا به على عدوهم، كما يتصورون ، غير أن النبي حين عرض عليهم أن يؤمنوا به وبنبوته، ثم يتبعوه على ما جاء به من ربه، رفضوا ذلك على غير قناعة، رفضوه على أساس الحسد من عند أنفسهم الذي قد ملأ قلوبهم ، لقد رفض اليهود عرض النبي ، وأثر ذلك في نفس النبي، وكان كعادته يحزن على كل إنسان ينصرف عن الحق، ويعرض عن الإيمان. غير أن الله قد شرح للنبي طبيعة اليهود، وواساه حتى لا يحزن ولا يشتد على نفسه، وبين له أن اليهود لن ترضى عنه إلا أن يتبع ملتهم، وهو أمر غير وارد، وقد استبعد النبي مسألة إيمان اليهود تلك، ولكنه لم يستبعد أن يؤمن بعضهم، ورأى أن إيمان بعضهم ربما يكون سببا في إيمان آخرين ينجيهم الله من النار، ويذهب بهم الإيمان بعيدا عن الجحيم. واحتمالات النبي تلك لم تضع هباء؛ حيث شرح الله صدور بعض اليهود فدخلوا معه في دينه (٢).

وهكذا نجد أن النبي قد اتخذ أسلوب الداعية الحريص على إيصال دعوته إلى الناس كافة. ولما هاجر إلى المدينة نظم العلاقة بين المهاجرين والأنصار وآخى بينهم، ونظم العلاقة بينهم وبين اليهود، ليعيش كل في أمان دون أن يتعرض بعضهم لبعض، وقد نصت على ذلك المعاهدة التي يحسن بنا أن نذكر منها–حسب ما يقتضي المقام–ما يخص اليهود فيما يأتي: "وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإنه من اعتبط مؤمنا (قتله بلا جناية) قتلا عن بينة فإنه قود به(اقتص منه) إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤيه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ(يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود

---

(١) –المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م. بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام

(٢) –رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٦، ٢٧

بني عوف–وكرر ذلك ليهود بني الحارث وبني ساعدة–إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم (البر والوفاء ينبغي أن يكون حاجزا عن الإثم) وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم. وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته... وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة.. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم... وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى الصلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد ﷺ"(١).

ونحن إذا ما تجاوزنا مدلول العهد الأول–الذي كان بين المهاجرين وأهل المدينة–لنتأمل طبيعة ما انضوى عليه العهد الثاني–الذي كان بين المسلمين واليهود–من بنود؛ وجدناها تتلخص فيما يأتي:

١. يساعد اليهود المسلمين بالنفقة عند الحرب.
٢. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم (حرية الأديان).
٣. البراءة ممن ظلم وأثم، فإنه يهلك نفسه ولا تحميه المعاهدة وإن البر والوفاء يمنع وقوع الظلم والإثم.
٤. المسلمون واليهود بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة ومن هاجم المدينة.
٥. المسلمون واليهود بينهم النصيحة والتناصح.
٦. لا يأثم امرؤ بذنب حليفه. (ولهذا لم يؤاخذ الخزرج على غدر حلفائهم من اليهود).
٧. الجار كالنفس يدافع عنه.
٨. المرجع عند الاختلاف إلى الله ورسوله.
٩. لا تجار (لا تعطى) قريش ومن نصرها.
١٠. من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن إلا من ظلم. (حرية التنقل).

غير أنه ثمة تقاربا بين العهدين–عهد المهاجرين والأنصار، وعهد المسلمين واليهود–من حيث الوقوف صفا واحدا ضد الظلم، والغدر والاعتداء على المدينة، ومن حيث تقرير "المرجع" عند الاختلاف.

إن العهد بين المؤمنين يقرر التلاحم والتضامن الكامل بين المؤمنين. أما العهد مع اليهود فيقرر تعايشا سلميا عادلا فيه التعاون على حماية المدينة التي هي وطن الطرفين، وفيه احترام لحرية الإنسان في الدين وفي السفر، والإقامة، وفيه ضمان السلامة لكل من التزم بالعهد، فمن ظلم فلا ذمة له. هذان العهدان كأنهما يمثلان ميثاقا سياسيا، وقانونا يضعه النبيﷺ واضحا أمام جميع الأطراف، ويأخذ منهم الموافقة على الالتزام به، وكأنه تصويت على الدستور. وبعد موافقة جميع الأطراف أصبح النبيﷺ مخولا لحكم المدينة، بموافقة جميع الأطراف الساكنة فيها.

وإن كان اليهود أحرارا في إدارة شئونهم، لكنهم سلموا السياسة العامة للمدينة إلى النبي. وفي ذلك تجلت حنكة النبي وبراعته، ومرونته في السياسة مع الإنصاف الذي لا يستطيع أن يرفضه أحد. إن هذه المعاهدة تجهض كل محاولة

(١) –هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، د. حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١٧٤، ١٧٥.

للكيد من جانب اليهود. ولقد كانت حجة عليهم فيما بعد عندما غدروا وكادوا، وكانت محاربة الرسول لهم عندها مبررة قانونيا وأخلاقيا[١]. "إن هذه الوثيقة الطاهرة المطهرة، لو سارت الإنسانية مسيرتها على هديها، لصعدت إلى درجة الكمال، وحازت كل عناصر الجمال، ولعاش الناس كل الناس على الأرض سعداء حائزين لصلاحيتهم للنهوض بخلافة الله في الأرض إن سيدنا رسول الله بهذا الإعلان الدستوري الذي يسمو إلى درجة يكون بها أصدق وثيقة دولية تفرض نفسها بنفسها أسسا، وقواعد للقانون الدولي سواء منه الخاص أو العام فلا يشكو فيها المواطن ظلما، ولا يشكو شعب من شعوب العالم غبنا أو قهرا يقع عليه من ظالم أو غاشم[٢]

ثانيا. نقض اليهود للعهد النبوي، وعداءاتهم المستمرة للإسلام:

كان اليهود في مجتمع النبيﷺ ، وهم طوائف وشيع؛ بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، واليهود كما هم في كل أرض غرباء على وجه الضيافة، ولا يربطهم بأصحاب الوطن الأصليين رابطة من دين، أو تاريخ، أو لغة، أو هدف، واليهود فوق ذلك حين يحتلون الأوطان إنما يحتلونها على وجه الاغتصاب، وأفعالهم فيها تدل على مقاصدهم؛ فهم يبنون فيها المستعمرات، ويقيمون فيها الحصون، ويحيطون أنفسهم بالأسلحة الظاهرة والباطنة، ويحقرون من جيرانهم، ويستعلون عليهم على وجه الاستفزاز الذي تأنف منه الطباع.

وفي طباع اليهود الخاصة أنهم لا يقبلون سلما مع جيرانهم إلا أن يكون ستارا يستخفون خلفه بخياناتهم؛ لأنهم يريدون من جيرانهم أن يكونوا أعداء يضرب بعضهم رقاب بعض؛ كي يحتاجوا إلى الأسلحة فيشترونها من اليهود، وكي يقتل بعضهم بعضا، فتندر قوة الشباب فيهم، فلا ينتجون ما يحتاجون إليه من سلع، ويلجأون إلى اليهود ويشترونها منهم، فينشط اقتصادهم على أساس من دماء الآخرين وضعفهم. وخليقة أخرى لا تكاد تفارق اليهود، وهي شعورهم الذي لا ينقطع بالضعف والذلة والمهانة، فيخشون من أجل ذلك دائما من يوم يأتي تحرر فيه الأرض، وتعود إلى أصحابها، ويعودون لما حكم الله به عليهم يتيهون في الأرض كلها، يبحثون لأنفسهم عن مأوى يأوون إليه، اغتصابا بقهر الضعفاء، أو بالحيلة والمكر والخداع [٣].

ولقد قامت الحجج القاطعة والبراهين الساطعة على صدق رسالة الرسول ﷺ ولكن ذلك لم يزدهم إلا عنادا وعداوة واستكبارا، وحقدا وحسدا على الرسول، والذين آمنوا معه؛ فعن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي وعمي مغلسين (ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بالصباح) ، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالين متعبين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم وسمعت عمي وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[٤]

وقد شن اليهود على رسول الله والذين آمنوا معه حملات إعلامية لتشويه صورته وتنفير الناس منه، ونزع الثقة بينه وبين الناس؛ فلقد شعر اليهود بخطورة هذا الدين على مصالحهم، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيفة، القائمة على الاستعلاء واحتقار الناس عدا الجنس اليهودي، لقد جاء النبي ينادي بعقيدة التوحيد، وهم يقولون: عزير ابن الله، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشري، وأنه لا يعلو شعب على شعب، ولا جماعة على جماعة، وهم يرون أنهم شعب الله

(١) –هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي د. حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١٧٦، ١٧٧ بتصرف.
(٢) –الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٤١٢ بتصرف يسير.
(٣) –رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، مكتبة رشوان، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٣.
(٤) –السيرة النبوية، ابن هشام، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص١٠٨.

المختار، يترفعون عن بقية الأجناس، وينظرون إليهم على أنهم دونهم وأقل منهم، ولذلك لم يلتزموا ببنود الوثيقة وشرعوا في التشكيك في نبوة الرسول ﷺ ورسالته، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله، وخدعوا المؤمنين ودلسوا عليهم، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة [١].

من جوانب خبثهم:

١. **محاولة اليهود تصديع الجبهة الداخلية:** من وسائل اليهود الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتهم المستمرة تمزيق الصف المسلم وتخريبه، بتقطيع أواصر المحبة بين المسلمين، وذلك بإثارة الفتن الداخلية، والشعارات الجاهلية، والنعرات الإقليمية، والدعوات القومية والقبلية، والسعي بالدسيسة والوقيعة بين الإخوة المتآلفين المتوادين المتحابين، فهم في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

فقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت، ويخسر النبي بذلك أقوى أنصاره، وفي بيان هذا الأمر يقول محمد بن إسحاق: ومر شاس بن قيس – وكان شيخا كبير السن، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم – على نفر من أصحاب الرسول من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا من الأشعار.

وكان بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، وأبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلوا جميعا. قال ابن إسحاق: ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيظي – أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبار بن صخر – أحد بني سلمة من الخزرج – فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعا وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة – والظاهرة: الحرة – السلاح السلاح، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: "يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم"؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول اللهﷺ سامعين مطيعين، قد كف الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع: {قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون (٩٨) قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (٩٩)}(آل عمران)[٢]. هذا مثال لما كان يصنعه اليهود من محاولات للإيقاع بين الأنصار بعضهم البعض، أو بين المهاجرين والأنصار، وذلك لإضعاف الجبهة الداخلية للإسلام.

٢. **التهجم على الذات الإلهية:** ذكر غير واحد من كتاب السير والمفسرين أن أبا بكر قد دخل بيت المدراس –وهو مكان تتلى فيه التوراة–على يهود، فوجد منهم ناسا كثيرين قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: "فنحاص"، وكان

(١) –السيرة النبوية د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م، ج١، ص٥٥٥.
(٢) –السيرة النبوية ابن هشام، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص١٣٥، ١٣٦.

من علمائهم وأحبارهم، ومعهم حبر من أحبارهم، يقال له: "أشيع"، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك اتق الله وأسلم فوالله إنك تعلم أن محمدا لرسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم؛ ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله لأبي بكر: "ما حملك على ما صنعت"؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولا عظيما، إنه يزعم أن الله فقير، وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص ردا عليه، وتصديقا لأبي بكر: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق (١٨١)} (آل عمران) [١].

٣. سوء أدبهم مع رسول الله والنيل من الرسل الكرام والقرآن الكريم: وكان اليهود يسيئون الأدب مع رسول الله في حضرته وأثناء خطابه، إذ يلمزونه، ويحيونه بتحية فيها من الأذى والتهجم ما يدل على سوء أخلاقهم، فعن عائشة قالت: «أتى النبي أناس من اليهود فقالوا: السام(الموت) عليك يا أبا القاسم، قال: "وعليكم". قالت عائشة قلت: بل وعليكم السام والذام، فقال رسول الله: "يا عائشة، لا تكوني فاحشة". فقالت: ما سمعت ما قالوا؟ فقال: "أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت: وعليكم».[٢] وفي رواية بلفظ: «ففطنت بهم عائشة فسبتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش". وزاد: فأنزل الله عز وجل: {وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٨)} (المجادلة)»[٣]. وهذه الآية تظهر الحقد الذي هيمن على نفوس اليهود ودفعهم إلى استخدام كل الوسائل والطرق لهدم الإسلام والتخلص من صاحب الرسالة، والسيطرة على المسلمين.

وأما نيلهم من المرسلين فقد أتى رسول الله نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وعازر بن أبي عازر وغيرهم، وسألوا رسول الله عمن يؤمن به من الرسل، فقال صلى الله عليه وسلم: "أومن بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"، فلما ذكر عيسى وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به، أنزل الله فيهم:{قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٥٩)} (المائدة)[٤]

ولم يكتف اليهود بما سبق كله، ولكنهم راحوا ينالون من القرآن الكريم في أسئلتهم، ونقاشاتهم التي لا تنتهي؛ فعن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله المدينة، قالت أحبار اليهود: يا محمد، أرأيت قولك: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٨٥)} (الإسراء)، إيانا تريد أم قومك؟ قال: "كلا"، قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها في علم الله قليل،

---

(١) –السيرة النبوية، ابن هشام، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص١٣٧، ١٣٨.

(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير(٢٧٧٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، (٥٧٨٦)، واللفظ له.

(٣) –أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٥٧٨٧).

(٤) –السيرة النبوية ابن هشام مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص١٤٤. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ١١٠)،

وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه"، قال: فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: {ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم (٢٧)} (لقمان)[١].

٤. دعم حزب المنافقين وتآمرهم معهم: حدثنا القرآن الكريم عن قيادة اليهود الفكرية لحزب المنافقين؛ فهم شياطين المنافقين يخططون لهم، ويوجهونهم ويدرسونهم أساليب الكيد والمكر والخداع والدهاء وإثارة الفتن، قال سبحانه وتعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (١٤)} (البقرة). قال النسفي في تفسيره: "وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم هم اليهود". وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضد المسلمين، وفي هذا التآمر قال سبحانه وتعالى: {بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا (١٣٩)} (النساء). قال الأستاذ محمد دروزة: "وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود، وفي الآية قرينة على صحة ذلك، كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضا، وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء، وتواثقهم معهم، إنما هما أثران من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية".

٥. بث الإشاعات والشماتة بالنبي ﷺ والمسلمين: كان اليهود يتحينون الفرص للنيل من المسلمين والبحث عما يفرق كلمتهم، ومن ذلك استغلالهم لوفاة أحد النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة الأنصاري الخزرجي، فعندما أخذته الشوكة (حمرة تعلو الوجه والجسد)، فجاءه رسول الله يعوده، فقال: "بئس الميت ليهود–مرتين–سيقولون: لولا دفع عن صاحبه، ولا أملك له ضرا ولا نفعا، ولأتمحلن له" فأمر به فكوي بخطين فوق رأسه، فمات وفي رواية: فكواه حوران على عنقه فمات، فقال النبي: "بئس الميت لليهود، يقولون: قد داواه صاحبه أفلا نفعه"؟! ولم تكن حادثة أبي أمامة هي الحدث الوحيد الذي أبان الحقد اليهودي على المسلمين، فقد أشاعوا في أول الهجرة أنهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد، وقد أشاعوا ذلك ليضيقوا على المسلمين الخناق، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة التي عاشوها في مدينة رسول الله وليعكروا ذلك الجو الصافي الذي يملؤه الحب والتآلف بين المسلمين، ومما يدل على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين، شدة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أول مولود ذكر من المهاجرين وهو عبد الله بن الزبير[٢]، وبعد... كانت هذه إلماعة من جملة ما سلكه اليهود في منظومة تقويض الدعوة المحمدية واضطهاد نبيها وازدراء مناصريها، وغيرها مما يضيق عن استقصائه المقام كثير تغني الإشارة إليه عن تفصيله وحصره وحسبنا منه ما نبرهن به فقط على طبيعة موقف النبي وصحبه من قوم كان من جملة ما فعلوا وخبيث ما بيتوا ما سبق ذكره وبيانه.

ثالثا. انطلق النبي ﷺ في طرده لليهود من القاعدة المقررة: "الجزاء من جنس العمل":

كان النبي ﷺ قد وادع اليهود وعاهدهم وبذلك أمنهم على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا العهد، وتمالئوا مع المشركين، وصاروا يحرضونهم على قتال النبي كما حدث في أحد وغيرها بل حاولوا طعن المسلمين في ظهورهم، كما حدث في غزوة الأحزاب، وطالما سعوا في إفساد ما بين الأوس والخزرج وإفساد ما بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أصبحوا شوكة في ظهور المسلمين، وجراثيم إفساد–في المجتمع المدني–لا بد من القضاء عليها؛ فلذلك أمر الله نبيه بقتالهم بعد إيذائهم بنقض ما بينه وبينهم من عهود بقوله وتعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم

(١) –أخرجه محمد بن إسحاق في السيرة (ص١٨٤)، باب أحاديث الأحبار وأهل الكتاب بصفة النبي صلى الله عليه وسلم.
(٢) –السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م، ج١، ص٥٦٢: ٥٦٦ بتصرف.

على سواء إن الله لا يحب الخائنين (٥٨)} (الأنفال)[١] هذا البيان الإلهي يضع قوانين خاصة لمعاملة الخائنين، وقد طبق الرسول ما جاء في البيان الإلهي، فعامل اليهود معاملة الناقضين للعهد، ونفصل ما فعله النبي مع كل فرقة منهم على حدة

بنو قينقاع وهم أول يهود أجلاهم النبي عن المدينة: حالفهم رسول الله عند قدومه المدينة فيمن حالف من اليهود، وكانوا أشجع يهود، وقد حقدوا على المسلمين لانتصارهم ببدر، وأخذوا يتحرشون ويتنكرون للعهد الذي بينهم وبين رسول الله خيفة أن يستفحل أمره فلا يعودون يملكون مقاومته، بعدما انتصر على قريش في أول اشتباك بينه وبينهم. وذكر الواقدي أن إجلاءهم كان في شوال سنة اثنتين؛ يعني بعد بدر بشهر.. ويؤيده ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله قريشا يوم بدر، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: "يا يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا يوم بدر"، فقالوا: إنهم كانوا لا يعرفون القتال، ولو قاتلتنا لعرفت أنا الرجال، فأنزل الله: {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد (١٢) قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله} (آل عمران)[٢].

وهكذا ندرك كيف بلغ الغرور مبلغه من اليهود حتى أصبحوا يبدون مظاهر العداوة للمسلمين، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم. ومن تعرضهم لنساء الأنصار ما رواه ابن هشام، في قوله: "كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع"[٣].

وهكذا نجد أن ما فعله اليهود كان إعلانا بنبذ العهد منهم، فلو أن الحادث السابق حادث فردي لأمكن معالجته وقتل القاتل، لكن الملأ من اليهود هم الذين اجترؤوا وقتلوا، فأنزل الله سبحانه وتعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين (٥٨)} (الأنفال) فقال صلى الله عليه وسلم: "أنا أخاف بني قينقاع"؟ فسار إليهم يوم السبت النصف من شوال بعد بدر ببضعة وعشرين يوما، وفهم رسول اللهﷺ الحرب من الآية، فقال: "أنا أخاف بني قينقاع"؟ فاحتمال الغدر قائم كل لحظة، ولئن سكت المسلمون عن هذه الجريمة، فهذا يعني أنهم ضعاف، وبالتالي فهم معرضون للغزو في كل لحظة، ولم يكن هناك بديل من المعركة، وإن كان لا بد من ذلك، فليكن المسلمون هم البادئون، لقد نبذ إليهم رسول الله منذ أن دعاهم إلى الإسلام، وفي تحرك سريع وخاطف كان اليهود محاصرين في بيوتهم وحصونهم...

إن عرض المرأة المسلمة كفيل أن يشعل حربا رهيبة مع العدو، وقام الحصار الذي استمر خمسة عشر يوما على اليهود حتى استسلموا[٤] ولقد أكمل ابن إسحاق سياق الحادث بقوله: فحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه، فقام عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال: يا محمد، أحسن إلي في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ، فقال: يا محمد، أحسن إلي في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله فقال له رسول الله: "أرسلني"، وغضب رسول الله حتى رأوا لوجهه ظللا، ثم قال: "ويحك! أرسلني" قال: لا والله لا أرسلك

---

(١) –السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص٨٩.
(٢) –وامحمداه، د. سيد بن حسين العفاني، دار العفاني، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٣١٣، ٣١٤.
(٣) –السيرة النبوية، ابن هشام، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٣، ص٥.
(٤) –المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، دار الوفاء، مصر، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٠٧: ٢٠٩ بتصرف.

حتى تحسن في موالي: أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة!! إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله: "هم لك"[١] وكان عبد الله بن أبي لا يزال صاحب شأن في قومه، فقبل رسول الله شفاعته في يهود بني قينقاع على أن يجلوا عن المدينة، وأن يأخذوا معهم أموالهم عدا السلاح، وبذلك تخلصت المدينة من قطاع يهودي خبيث ذي قوة عظيمة، أساءوا الأدب مع الرسولﷺ فأدبهم الله أدبا يليق بهم في الدنيا وبأمثالهم، ومآلهم في النهاية إلى أمهم الهاوية [٢]. وهكذا نجد أن النبيﷺ لم يظلم بني قينقاع حينما أجلاهم عن المدينة.

بنو النضير ومحاولتهم قتل النبيﷺ: روى ابن سعد أن رسول الله خرج يوم السبت، فصلى في مسجد قباء، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم أتى بني النضير، فكلمهم أن يعينوه في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وكان لهما من رسول الله جوار وعهد، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، وذلك على ما رواه ابن إسحاق وغيره، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، وخلا بعضهم ببعض وهموا بالغدر. وقال عمرو بن جحاش النضري: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة، وكان رسول الله واقفا إلى جنب جدار من بيوتهم. وزاد ابن سعد أن سلام بن مشكم–وهو من يهود بني النضير–قال لهم: لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه. فجاء رسول الله الخبر بما هموا، فنهض سريعا كأنه يريد حاجة، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، ثم أرسل إليهم رسول الله: "أن اخرجوا من بلدي؛ فقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرا، فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه".

فأخذوا يتهيئون للخروج، ولكن عبد الله بن أبي بن سلول أرسل إليهم ألا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم يقاتلون عنكم، فعادوا عما عزموا عليه من الخروج وتحصنوا في حصونهم. فأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، ثم سار رسول اللهﷺ إليهم، وقد تحصن اليهود بحصونهم معهم النبل والحجارة. ولكن ابن أبي خذلهم فلم ينفذ وعده معهم، فحاصرهم النبي وأمر بقطع نخيلهم وإتلافها، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يصنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قوله: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين (٥)} (الحشر) [٣]، فعرضوا على رسول اللهﷺ أن يخرجوا من المدينة كما أراد، ولكنه قال: "لا أقبله إلا على أن تخرجوا بدمائكم فقط، وليس لكم من أموالكم إلا ما حملته الإبل، عدا الحلقة"،(السلاح) فنزل اليهود على ذلك، واحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل[٤]. وهكذا فإن النبي أجلى بني النضير لغدرهم به، وليس في إجلائهم أدنى ظلم منه لهم كما يزعمون

إجلاء بني قريظة: وكان ذلك بسبب تآمرهم مع المشركين على الرسولﷺ والمسلمين، وكانت الرأس المدبرة لتلك المكيدة المسماة بالأحزاب تتمثل في شيطان اليهود حيي بن أخطب، فإذا تجمع خبث اليهود ودنسهم وخستهم وكيدهم ومكرهم في شخص، لكان هذا الشخص حيي بن أخطب فهو عدو رسول الله وله من ذلك بين اليهود موقع الصدارة. كان حيي بن أخطب على رأس الشياطين اليهود الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم: سلام بن أبي الحقيق النضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، خرجوا حتى قدموا على قريش في مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم

---

(١) –السيرة النبوية، ابن هشام، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٣، ص٦.

(٢) –وامحمداه، د. سيد بن حسين العفاني، دار العفاني، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٣١٤، ٣١٥.

(٣) –السيرة النبوية، ابن هشام، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٣، ص١١٠، ١١١.

(٤) –فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٢٠٢، ٢٠٣ بتصرف يسير.

دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا (٥١)} (النساء) إلى قوله سبحانه وتعالى: {أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما (٥٤) فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا (٥٥)} (النساء)،

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خرج حيي في أولئك النفر من يهود، حتى جاءوا غطفان–من قيس عيلان–فدعوهم إلى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه. وخرج عدو الله حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي–صاحب عقد بني قريظة وعهدهم مع رسول الله فلم يزل حيي بكعب، حتى نقض كعب بن أسد عهده مع رسول الله. وأي موقف خانت فيه يهود رسول الله أو حاولت خداعه والغدر به، كان على رأسهم حيي الذي كان يعلم صدق رسول الله ونبوته حتى مكن الله من رقبته [١]، وبعد جمعه لهؤلاء الأحزاب خرجوا لملاقاة الرسول ولكن الله لم يفلح كيد الخائنين، وعاد جيش الإسلام منتصرا بفضل الله، ثم بفضل رسوله وإيمان المسلمين بنصر الله لهم.

الأمر الرباني بالخروج: ولما رجع ﷺ بأصحابه، وأراد أن يخلع لباس الحرب، أمره الله باللحوق ببني قريظة، حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود، ولا تربطهم المواثيق، ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة، فقال لأصحابه: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»[٢]، فساروا مسرعين، وتبعهم ﷺ راكبا على حماره، ولواؤه بيد علي بن أبي طالب، وخليفته على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف، وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق فصلاها بعضهم حاملين أمر الرسول ﷺ بعدم صلاتها على قصد السرعة، ولم يصلها الآخرون إلا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الأمر على حقيقته، فلم يعنف فريقا منهم. ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم، وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة، وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر، ولكن أنى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم؟ فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعا، طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير مال ولا سلاح فلم يرض أيضا، بل قال: لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيرا كان أو شرا، فقالوا له: أرسل لنا أبا لبابة نستشيره، وكان أوسيا من حلفاء بني قريظة، له بينهم أولاد وأموال، فلما توجه إليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول، فقال لهم: انزلوا، وأومأ بيده إلى حلقه، يريد أن الحكم الذبح، ويقول أبو لبابة: لم أبارح موقفي حتى علمت أني خنت الله ورسوله، فنزل من عندهم قاصدا المدينة خجلا من مقابلة رسول الله، وربط نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه أمره، ولما سأل عنه ﷺ أخبر بما فعل، فقال: أما لو جاءني لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه، ثم إن بني قريظة لما لم يروا بدا من النزول على حكم رسول الله فعلوا، فأمر برجالهم فكتفوا، فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج، فقال لهم: ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟ فقالوا: نعم. واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحا من السهم الذي أصيب به في الخندق، وكان مقيما بخيمة في المسجد معدة لمعالجة الجرحى، فأرسلﷺ من يأتي به، فحملوه على حماره، والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له: أحسن في مواليك، ألا ترى ما فعل ابن أبي في مواليه؟ فقال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

---

(١) –وانحمداه د. سيد حسين العفاني، دار العفاني، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٣٣١: ٣٣٣.

(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٩٠٤)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، (٤٧٠١)، واللفظ للبخاري.

ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس، قال: "قوموا إلى سيدكم فأنزلوه"، ففعلوا، وقالوا له: إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. وقال له الرسول: "احكم فيهم يا سعد"؛ فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله، وقال: عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ فقالوا: نعم، فالتفت إلى الجهة التي فيها الرسولﷺ وقال: وعلى من هنا كذلك؟ وهو غاض طرفه إجلالا، فقالوا: نعم، فقال: فإني أحكم أن تقتلوا الرجال، وتسبوا النساء والذرية، فقالﷺ: "لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد"، وقد جاءت أيضا قصة حكم سعد بن معاذ على يهود بني قريظة في صحيح البخاري بلفظ آخر، فعن أبي سعيد الخدري أنه قال: «لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد بعث رسول الله وكان قريبا منه، فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله: "قوموا إلى سيدكم"، فجاء فجلس إلى رسول اللهﷺ فقال له: "إن هؤلاء نزلوا على حكمك" قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية، قال: "لقد حكمت فيهم بحكم الملك» [(١)] لأن هذا جزاء الخائن الغادر، ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ فيهم وجمعت غنائمهم [(٢)]. وهكذا قضى الله أن يكون جزاؤهم من جنس ما أرادوا للمسلمين، وأبى الله إلا أن يصلوا هم إلى النهاية المريبة، التي أرادوا للمسلمين الوصول إليها، {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} (فاطر: ٤٣).

وهنا أمر آخر يتمثل في أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ على يهود بني قريظة، وأقره النبي وقام بتنفيذه، قد جاء تماما وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم، كما ورد في التوراة عندهم في شأن قرى الأعداء ومدنهم: "وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك". (التثنية ٢٠: ١٢. ١٤). وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة [(٣)]، ونخلص مما سبق كله إلى أن ثمة أسبابا وعوامل جوهرية وقفت وراء إجلاء النبيﷺ اليهود جميعهم، فما ظلمهم النبي ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وإنا لنسأل مثيري هذه الشبهة سؤالا مؤداه: أي أسباب واهية تلك التي زعمتم أنهﷺ اختلقها ليحارب اليهود ويطردهم من المدينة؟!

الخلاصة: كان العمل الثالث المهم الذي قام به النبي ﷺ بعد دخوله المدينة كتابته كتابا بين المهاجرين والأنصار، وكذلك بين المسلمين واليهود، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم، ولم يلتزم اليهود بعهدهم مع النبي ﷺ وراحوا يكيدون له وللإسلام، ويحرضون المنافقين على قتال المسلمين، وقد سلكوا شتى الطرق للنيل من الإسلام ودولته؛ فقد عملوا جاهدين على تصديع الجبهة الإسلامية الداخلية، وتهجموا على الذات الإلهية، وساء أدبهم مع الله ورسله الكرام وكتابه الكريم، حتى إنهم لم يتورعوا عن أن يحاولوا قتل النبي نفسه. فكان لزاما على النبي أن يطرد هؤلاء الخائنين الناقضين للعهود والمواثيق، وهذا ما كان، ولا يعقل أن يقول منصف: إنه صدر في صنيعه هذا عن روح عدوانية ظالمة، ولكنه صدر فيه عن قاعدة مقررة تنص على أن "الجزاء من جنس العمل"، إن ثمة مبررات قانونية وأخلاقية تقف وراء إجلاء النبي اليهود جميعهم من المدينة؛ وذلك لأنهم نقضوا عهدهم، وخانوا وغدروا وكادوا، فلا سبيل إذن لما زعم من أن النبي اختلق أسبابا واهية لحربهم وطردهم من المدينة[(٤)].

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٢٨٧٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز من نقض العهد (٤٦٩٥).
(٢) –وا محمداه، د. سيد حسين العفاني، دار العفاني، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ج١، ص٣٣٠، ٣٣١.
(٣) –نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص١١٧، ١١٨.
(٤) –موسوعة بيان الاسلام للرد على شبهات حول الإسلام.

البحث الخامس: كان النبي ينتهز الفرص لنقض العهود كما حدث في فتح مكة.

يقولون إن النبي كان ينتهز الفرص لنقض العهود، ويبرهنون على ذلك بأنهﷺكان ينتظر أي فرصة تسنح لفتح مكة، فلما وقع الاعتداء على خزاعة تظاهر بالغضب، وبأخذ الثأر، والانتصار لهم لينقض العهد، ويهجم على مكة. ويتساءلون: أليس فيما فعله النبي من انتهاز الفرص ونقض العهود ما يتنافى مع أخلاق الأنبياء؟! هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في وفائه بالوعد وحفظه للعهد[١].

أولا. كان النبي ﷺ وفيا بالعهود والوعود التي يبرمها وهي من شروط الإيمان:

إن حفظ العهد، والوفاء بالوعد، خلق رفيع من أخلاق النبي الحميدة، التي اشتهر بها فقد كان أحفظ الناس للعهود والمواثيق، ومن أشدهم وفاء للوعود، فلم يؤثر عنه أنه نقض عهدا أو خالف وعدا لأحد من الناس، سواء كان من أتباعه أم من أعدائه، وسيرته العطرة خير شاهد على ذلك، كيف لا! وشريعة الإسلام التي بعث بها تحث على احترام العهود والمواثيق، وتؤكد على المحافظة عليها، وتعتبر نقض العهد وإخلاف الوعد من كبائر الذنوب، ومساوئ الشيم، قال عز وجل في وصف عباده المؤمنين: {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٨)} (المؤمنون)، فعد حفظ العهد من جملة الأخلاق الحميدة التي يتصف بها المؤمنون، وقد حرم الله نصرة المسلمين لإخوانهم في الدين إذا كانوا يقيمون بين قوم مشركين، بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، يقول عز وجل: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٧٢)} (الأنفال)[٢].

وقد حفل القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تناولت العهود والوفاء بها، ذلك أن الوفاء بالعهود من شروط الإيمان، ومن سمات المؤمنين أن يلتزموا بعهودهم ويذعنوا لشروطها، والله يكرم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، بقوله عز وجل: {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا (٢٣)} (الأحزاب). وقد شرف الله سبحانه وتعالى الذين بايعوا الرسول في الحديبية، ووعد الصادقين منهم بحسن الجزاء في قوله سبحانه وتعالى: {فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما (١٠)} (الفتح). ويعظم الله شأن الموفين بعهدهم، ويسلكهم في عقد النخبة المتميزة من المتقين الذين جمعتهم الآية الكريمة من قوله عز وجل: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (١٧٧)} (البقرة).

ويهتم كتاب الله بالوفاء بالعهد اهتماما شديدا، وإن التوجيهات الربانية في شأنه حاسمة قاطعة ملزمة، لا تحتمل أي قدر من التهاون وإن قل فيقول عز وجل: {وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون (٩١)} (النحل)[٣] وهكذا نجد أن القرآن الكريم يحث على الوفاء بالعهد والمواثيق، وقد كان الرسول الكريم ﷺ متخلقا بأخلاق القرآن، ملتزما بكل ما جاء به، داعيا إلى العمل بكل ما جاء فيه. وكان لا يقتصر في وفائه على المسلمين، بل كان أشد الناس محافظة على العهود والمواثيق مع أعدائه، حتى ولو كان فيها

---

(١) –محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(٢) –الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٣٤٨.

(٣) –البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ١٧١، ١٧٢.

إعنات له، حتى إذا نقض أعداؤه الميثاق جعل الله له بذلك مخرجا، كما حدث من يهود بني النضير، وبني قريظة، الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله وكما حدث من مشركي قريش، حين نقضوا شروط صلح الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو ممثل المشركين، وكان من شروط الصلح أن من جاء محمدا من المشركين مسلما رده إليهم [١].

من المواقف التي تدل على وفائه ﷺ بالعهد رده لأبي جندل: وإن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد، والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه وقد ضرب رسول الله بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم والحديث لاحترام كلمة لم تكتب فما بالنا بكلمة كتبت وفي الجد في عهوده، وحبه للصراحة والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض سهيل بن عمرو في الحديبية حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال(القيود) وقد فر من مشركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرسول وكان هذا الابن ممن آمنوا، جاء مستصرخا بالمسلمين، وقد انفلت من أيدي المشركين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال: «يا محمد لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا فقال رسول الله: "صدقت"، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟! فلم يغن عنه ذلك شيئا ورده رسول الله وقال لأبي جندل: إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهدا وإنا لا نغدر بهم» غير أن النبي إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجا منها لأبي جندل المسلم طمأن أبا جندل وبشره بالفرج له ولمن على شاكلته من المسلمين وقال له وهو يواسيه: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا» [٢].

وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ساطعة على مقدار حرص رسول الله وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس. لقد كان درس أبي جندل امتحانا قاسيا ورهيبا لهذا الوفاء بالعهد أثبت فيه الرسول والمسلمون نجاحا عظيما في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه والدماء تنزف منه مما زاد في إيلامهم حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقا منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته وتحقق فيه قول الله تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا} (الطلاق) فلم تمر سنة حتى تمكن مع إخوانه المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من قيود مكة وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها بعد أن انضموا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام[٣]

وثمة موقف آخر–يعد من أوضح الأمثلة على وفائه بعهده مع المشركين حدث بعد عودة الرسول من الحديبية إلى المدينة ممثلا في مسلم آخر هو أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي حليف بني زهرة، أفلت من قومه سائرا على قدميه ساعيا إلى المدينة فكتب أزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله كتابا بعث به مع خنيس بن جابر العامري يذكر عهد الصلح ويطلب رد أبي بصير إلى مكة، فقدم العامري إلى المدينة بصحبة دليل له يقال له: (كوثر) بعد أبي بصير بثلاثة أيام «فأمر رسول الله أبا بصير أن يرجع معهما، فقال: يا رسول الله، تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فقال: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يحل لنا في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا"، فقال: يا رسول الله تردني إلى المشركين؟! قال: "انطلق يا أبا بصير، فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا".

---

(١) –الأدلة على صدق النبوة المحمدية، د. هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) –إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، (١٨٩٣٠)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب الجزية، باب الهدنة على أن يرد الإمام من جاء بلده مسلما من المشركين (١٨٦١١)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على مسند الإمام أحمد (١٨٩٣٠).

(٣) –السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٢، ص ٤٠٦، ٤٠٧ .

فسار أبو بصير معهما والمسلمون يشيعونه، ويطيبون خاطره ويشجعونه، ولما أن وصل مع حارسيه إلى ذي الحليفة، وكان الوقت ظهرا صلى أبو بصير صلاة المسافر، واشترك مع حارسيه في تناول بعض الطعام، وبحيلة ذكية استطاع أبو بصير أن يأخذ السيف، فقتل العامري، وهم بقتل الرجل الآخر، ولكنه أفلت منه وخرج هاربا يعدو إلى المدينة، وأبو بصير في أثره، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺقال له: ويحك مالك؟ قال: قتل والله صاحبكم صاحبي وأفلت منه ولم أكد، وإني لمقتول، واستغاث برسول الله فأمنه، وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامري ودخل متوشحا سيفه، فقال: يا رسول الله قد وفت ذمتك وأدى الله عنك، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفتن، فقال رسول الله: "ويل أمه، مسعر حرب(موقدها) لو كان له أحد»[١].

فخرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قد قدموا معه مسلمين من مكة حتى انتهوا إلى سيف البحر. فلما بلغ سهيلا قتل أبي بصير للعامري اشتد وقال: ما صالحنا محمدا على هذا، وجرت في ذلك مناقشات حول دية القتيل ومن يتحملها، ومن العجيب أن أبا سفيان بن حرب كان من رأيه أن الرسولﷺ غير مسئول عن دم القتيل. ثم إن أبا جندل بن سهيل بن عمرو انفلت فخرج هو وسبعون راكبا ممن أسلموا فلحقوا بأبي بصير؛ ولأن أبا جندل قرشي فقد سلم له أبو بصير الأمر، فكان أبو جندل يؤمهم في الصلاة، واجتمع إلى أبي جندل ناس من بني غفار وأسلم وجهينة لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها، وضيقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه.

ولما استشرى فزع قريش من أبي جندل، وأبي بصير، أرسلت قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وأبي جندل ومن معهم، وقالوا وهنا تقع المفارقة العظمى: من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه، وقال أبو سفيان –: فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير، وأبي جندل يأمرهما أن يقدما عليه، ويأمر من معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش وعيرانها، فقدم كتاب رسول الله إلى أبي بصير وهو يموت، فجعل يقرؤه ومات وهو في يديه، فدفنه أبو جندل، وجعل عند قبره مسجدا، وقدم أبو جندل على رسول الله ومعه ناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم، وأمنت بعد ذلك عيرات قريش [٢]. وهكذا يتضح مدى وفائهﷺ للعهد مع المشركين، وبعد هذا البيان الأخلاقي الرفيع الذي يؤكد التزامه بعهده مع المشركين، هل بتلك الأخلاق يكون الرسول انتهازيا؟! وماذا يقول المدعون في رد النبيﷺ لأبي بصير وأبي جندل؟ أليس هذا قمة الوفاء بالعهد؟!

ثانيا. إن قريشا هي التي نقضت عهدها مع النبيﷺ:

لقد كان من بنود صلح الحديبية بند يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد رسول اللهﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها فليدخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق [٣]، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

والسبب في دخول خزاعة في عقد رسول الله ﷺ أن خزاعة كانت حليفة جده عبد المطلب حين تنازع مع عمه نوفل في ساحات وأفنية من السقاية كانت في يد عبد المطلب، فأخذها منه نوفل، فاستنهض عبد المطلب قومه فلم ينهض معه منهم أحد، وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، ثم كتب إلى أخواله بني النجار فجاء منهم سبعون، وقالوا:

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١).

(٢) –البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٢٢٥: ٢٢٧ بتصرف يسير.

(٣) –الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٣٩٤.

ورب هذه البنية – الكعبة – لتردن على ابن أختنا ما أخذت منه، وإلا ملأنا منك السيف، فرده، ثم حالف نوفل بني أخيه عبد شمس، وحالف عبد المطلب خزاعة، وكان النبي ﷺ عارفا بذلك، ولقد جاءته خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد المطلب فقرأه عليه أبي بن كعب فأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد كان بين بني بكر وبين خزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، وتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت هدنة الحديبية، ووقف القتال بين المسلمين وقريش، اغتنمتها طائفة من بني بكر يقال لهم "بنو نفاثة"، ذلك أن شخصا منهم هجا رسول الله ﷺ وصار يتغنى بالهجاء، فسمعه غلام من خزاعة، أي من القبيلة التي دخلت في عقد رسول الله، فثارت ثائرته فضربه وشجه، فثار الشر بين القبيلتين، فطلب بنو نفاثة من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم، فجاءوا خزاعة ليلا وهم آمنون على ماء لهم يقال له "الوتير" وقتلوا منهم عشرين، أو ثلاثة وعشرين، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا، منهم: صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وعكرمة بن أبي جهل، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وهؤلاء أسلموا جميعا بعد ذلك، وما زالوا بهم حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، فلما ناصرت قريش بني بكر على خزاعة، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللهﷺ من الميثاق، ندموا وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان وأخبره بما فعل القوم، فقال:

"هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وإنه لشر والله ليغزونا محمد ولقد حدثتني هند بنت عتبة–يعني زوجته–أنها رأت رؤيا كرهتها، رأت دما أقبل من الحجون (اسم مكان بمكة) يسيل حتى وقف بالخندمة (اسم مكان آخر بمكة) فكره القوم ذلك" وهذا القول يبين مقدار جرم ما فعلته قريش مع حلفاء رسول الله وعند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي (سيد خزاعة) حتى قدم على رسول الله المدينة ودخل المسجد ووقف على رسول الله وهو جالس في المسجد بين الناس، وأنشد:

يا رب إني ناشد محمدا .... حلف أبينا وأبيه الأتلدا(القديم)

قد كنتم ولدا وكنا والدا ..... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا .... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوتير(اسم مكان) هجدا(نياما) .... وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت يا عمرو بن سالم"، ودمعت عيناه، وفي رواية: «فقام ﷺ وهو يجر رداءه ويقول: لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب». (١) وعن عائشة أنها قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بني كعب غضبا لم أره غضبه منذ زمان، ثم قال لعمرو بن سالم وأصحابه بعد أن علم منهم حقيقة ما حدث: ارجعوا وتفرقوا في الأودية فرجعوا وتفرقوا، وكان عددهم نحو أربعين راكبا من خزاعة، وقصد رسول الله ﷺ بتفرقهم إخفاء مجيئهم (٢). ومما سبق يتضح سوء ما فعلته قريش؛ لنقضهم العهد، وسفكهم لدماء بني خزاعة، الذين هم في عقد النبي وعهده، واستحلالهم لدمائهم رغم المعاهدة، وما تنص عليه، فغضب النبي لذلك أشد الغضب، ولا شك أن ما فعلته قريش وحلفاؤها كان غدرا محضا ونقضا صريحا للميثاق لم يكن له أي مسوغ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، وعقدت مجلسا استشاريا ، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلا لها، ليقوم بتجديد الصلح.

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس،

(١) –إسناده حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده(٤٣٨٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد(١٠٢٢٧)، وحسن إسناده حسين سليم أسد في تعليقات مسند أبي يعلى.
(٢) –محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص ٣٠٣، ٣٠٤ بتصرف يسير.

فقال: والله لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه، فلم يرد عليه شيئا، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة ابنة رسول الله وعندها الحسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحما، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبا، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك. ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق. ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدا فكلمته، فوالله ما رد علي شيئا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك (١).

وهكذا نجد أن قريشا قد أحست بجريمتها، فأرسلت أبا سفيان لإرضاء الرسولﷺ وتجديد العهد، ولكن أنى يهدر النبي دماء حلفائه وينسى ذمتهم ؛ لهذا كان عدلا من النبي أن سارع إلى الثأر لقتلى حلفائه، واستنقاذ بيت الله الحرام من أيدي المشركين، فهل بعد هذا يكون النبي قد انتهز هذه الفرصة لغزو مكة ودخولها؟!

الخلاصة:

لقد كان الرسول ﷺ أرفع الناس خلقا، فقد أثنى عليه الله بقوله: {وإنك لعلى خلق عظيم (٤)} وكان مما اشتهر به النبي من حفظه للعهد، وسيرته العطرة خير شاهد على ذلك، فلقد عقد النبي عهودا مع اليهود والمشركين، فلم يبادر إلى نقض عهد شده، ولكنهم هم الذين نقضوا العهود، وكان يلتزم بما تنص به عهودهم، وكيف لا يلتزم وشريعته التي يحملها هي الداعية إلى الوفاء بالعهد، قال سبحانه وتعالى: {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٨)}(المؤمنون)، وكثير من الآيات تحث على حفظ العهد، وتعلي مكانة المحافظين عليه، ويكفي الطاعنين ردا عليهم: أن رسول الله التزم بعهده مع المشركين، ورد عليهم أبا جندل وأبا بصير، فذاك إنما يدل على الالتزام التام بالعهد، ويدل على الخلق الرفيع للنبي.

إن الخيانة جاءت من قريش وحليفتها الذين اعتدوا على قبيلة خزاعة الذين كانوا في عقد النبي وعهده رغم أن بنود المعاهدة تقتضي أن من دخل في عهد قريش فهو منهم، ومن دخل في عهد المسلمين فهو منهم، وينطبق عليهم شروط العهد، ولكن مشركي قريش أخلفوا المعاهدة، ولما أحسوا بذلك أرسلوا أبا سفيان ليجدد العهد مع النبي وذلك لإحساسهم بجرم ما فعلوا مع خزاعة وفحشه، فكيف يكون النبي انتهازيا وقد وفي بعهده رغم أن بنوده لم تكن–ظاهريا– في صالحه؟! لقد نقض المشركون عهدهم مع رسول الله وقتلوا عشرين من حلفائه حتى ألجئوهم إلى الحرم، فكيف يسكت عنهم ولا يناصر من دخل في حلفه؟

(١) –الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٩٩٨م، ص ٣٩٥: ٣٩٧. عن موسوعة بيان الاسلام للرد على شبهات حول الإسلام .

البحث السادس: الزعم أن سياسة النبي اتسمت بطابع الانتقام والحقد بعد انتصار بدر

يدعي بعض الطاعنين أن المسلمين قتلوا عددا من الأسرى بعد انتهاء غزوة بدر الكبرى؛ تعطشا منهم لإراقة الدماء، وحبا للانتقام من عدوهم، ويرمون من وراء ذلك إلى إظهار المسلمين بمظهر المتعطش إلى الدماء إلى الطعن في مدى اتزان سياسته والتزامها بمقتضى ما يوجبه الدين الإسلامي من أحكام التعامل مع الأسرى(١).

نقد عام:

١-إن ما عرف من أخلاقهﷺ وعفوه عند مقدرته، ينفي عنه تهمة الحقد وحب الانتقام.

٢-حكم الأسير في الإسلام: المن أو الفداء أو القتل، حسبما يرى الحاكم، وقد أمر الإسلام بحسن معاملته، وتجلى ذلك في سيرة النبي ﷺوصحابته الكرام.

٣-قبل الرسول ﷺالفداء في أسرى بدر، ومن على بعضهم دون مقابل، وجعل التعليم مقابل الفداء لآخرين، مما يؤكد سمو النظرة الإسلامية.

٤-لم يقتل الرسول ﷺمن أسرى بدر سوى رجلين، هما: عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وكان قتلهما قبل تقرير مصير الأسرى، كما كان هذا القتل واجبا من حيث وجهة الحرب، لا حقدا أو حبا للانتقام، فأين العدد الذي قتله المسلمون إذن؟!

٥-يثيرون هذه الضجة على قتل النبي ﷺلأسيرين فقط، فهل نسوا ما وقع فيه أقوامهم بشأن الأسرى على مدى التاريخ في العديد من الجهات الإسلامية؟! نظرة سريعة لواقع اليوم جديرة بإظهار البون الشاسع بين السياستين، وشاهدة بتفرد سياسة معاملة المسلمين للأسرى بما لا يماثله تعامل.

أولا. أخلاقه وعفوه عند المقدرة:

إن ما ذكره التاريخ عن عفوه وحلمه ينفي أن يكون في قلبهﷺ مثقال ذرة من حقد، كما يدعي هؤلاء المغالطون، فبعد غزوة بدر أمر رسول الله بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كانوا بها إلى قليب ببدر، وقد كان من سنتهﷺ في مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أن يأمر بها فتدفن، لا يسأل عن صاحبها مؤمنا كان أم كافرا، وهو موقف إنساني كريم لا يفعله إلا أولو العزم من الرسل، فطالما أهانوه وسبوه وأذاقوه وأصحابه العذاب ألوانا، وهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم، ولكنها إنسانية الإسلام تعلو على الأحقاد ونزعات الانتقام. ولما طرحوهم ولم يبق إلا أمية بن خلف، وقد كان رجلا بدينا فانتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه، فأقروه وحفروا له، وألقوا عليه التراب حتى واراه(٢).

وهذا موقف آخر مع رجل قصد قتل النبي وهو عمير بن وهب، وكان قد أسر ولده وهب في غزوة بدر، فاتفق معه صفوان بن أمية في الحجر من البيت الحرام على اغتيال رسول الله بشرط أن يقضي صفوان ديون عمير، وأن يتولى شأن أولاده من بعده، وطلب عمير من صفوان أن يكتم ما دار بينهما لئلا يفشو الخبر ويصل إلى المدينة، وأعد صفوان سيفا وأمر بصقله وسقاه سما ناقعا، وأعطاه لعمير، فرحل لمهمته حتى وصل المدينة، فنزل بباب المسجد وعقل راحلته وأخذ السيف لرسول الله فنظر إليه عمر بن الخطاب وهو في نفر من الأنصار يتحدثون عن وقعة بدر ويشكرون نعمة الله، فلما رأى عمر عمير بن وهب معه السيف فزع منه، فقال: «عندكم الكلب، هذا عدو الله الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم، فقام عمر فدخل على رسول الله فقال: هذا عمير بن وهب قد دخل المسجد معه السلاح، وهو الفاجر الغادر

---

(١) -بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة، الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، د. عبد الرحمن حيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

(٢) -السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م، ج١، ص١٥٠.

يا رسول الله، لا تأمنه، قال: "أدخله علي"، فدخل عمر وعمير، وأمر أصحابه أن يدخلوا على رسول الله، ثم يحترسوا من عمير إذا دخل عليهم، فأقبل عمر بن الخطاب وعمير بن وهب فدخلا على رسول الله ومع عمر سيفه، فقال رسول الله لعمر: "تأخر عنه"، فلما دنا منه حياه عمير: أنعم صباحا وهي تحية أهل الجاهلية فقال رسول الله: "قد أكرمنا الله عز وجل عن تحيتك، وجعل تحيتنا السلام، وهي تحية أهل الجنة"، فقال عمير: إن عهدك بها لحديث، قال رسول الله: "قد بدلنا الله خيرا منها فما أقدمك يا عمير"؟ قال: قدمت في أسيري عندكم، فقاربوني في أسيري؛ فإنكم العشيرة والأهل، فقال رسول الله: "فما بال السيف في رقبتك"؟ فقال عمير: قبحها الله من سيوف، فهل أغنت عنا من شيء، أنا نسيت وهو في رقبتي حين نزلت، ولعمري إن لي غيره، فقال رسول الله: "أصدقني ما أقدمك"؟ قال: ما قدمت إلا في أسيري، فقال رسول الله: "فما شرطت لصفوان بن أمية الجمحي في الحجر"؟ ففزع عمير وقال: ماذا اشترطت له؟ قال: "تحملت له بقتلي على أن يعول بنيك ويقضي دينك، والله حائل بينك وبين ذلك"، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وأشهد أنه لا إله إلا الله كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء وإن هذا الحديث الذي كان بيني وبين صفوان في الحجر كما قال رسول الله لم يطلع عليه أحد غيري وغيره، ثم أخبرك الله به فآمنت بالله ورسوله والحمد لله الذي ساقني هذا المقام».[١]وهذا من كمال عفوه عمن يريد قتله ويطول بنا المقام لو أردنا أن نستقصي نماذج عفوه عمن ظلمه، لكن يكفينا القليل عن الكثير، ولو كان النبي تثور نفسه من الحقد وحب الانتقام كما يدعي المفترون، لما أتحفنا التاريخ بمثل هذه المواقف الإنسانية التي يعجز عن مثلها غيره .

ثانيا. للأسرى أحكام في الإسلام، وقد أمر الإسلام بحسن معاملتهم:

أسرى الحرب على قسمين: الأول: النساء والصبيان، والثاني: الرجال البالغون المقاتلون من الكفار، إذا ظفر المسلمون بهم أحياء، وقد جعل الإسلام الحق للحاكم في أن يفعل بالرجال المقاتلين، إذا ظفر بهم ووقعوا أسرى، ما هو الأنفع والأصلح، من المن أو الفداء أو القتل. والمن هو إطلاق سراحهم بلا مقابل، والفداء قد يكون بالمال، وقد يكون بأسرى المسلمين، وممن ذهب إلى هذا جمهور العلماء، فقالوا: للإمام الحق في أحد الأمور الثلاثة المتقدمة، وقال الحسن وعطاء: لا يقتل الأسير، بل يمن عليه أو يفادى به، وقال الزهري ومجاهد وطائفة من العلماء: لا يجوز أخذ الفداء من أسرى الكفار أصلا، وقال مالك: لا يجوز المنّ بغير فداء، وقال الأحناف: لا يجوز المنّ أصلا، لا بفداء ولا بغيره[٢]. وقد عامل الإسلام الأسرى معاملة إنسانية رحيمة؛ فهو يدعو إلى إكرامهم والإحسان إليهم، ويمدح الذين يرونهم، ويثني عليهم الثناء الجميل، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (٨) إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٩)﴾ (الإنسان). ويروي أبو موسى الأشعري عن رسول الله أنه قال: «فكوا العاني –يعني الأسير –وأطعموا الجائع وعودوا المريض» [٣]. ويذكر «أن ثمامة بن أثال وقع أسيرا في أيدي المسلمين، فجاءوا به إلى النبي ﷺفدعاه إلى الإسلام فأبى، وقال له: إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فمنّ عليه الرسول وأطلق سراحه بدون فداء»، فكان ذلك من أسباب دخوله في الإسلام[٤].

وقد جاء في شأن أسرى غزوة بني المصطلق، وكان من بينهم جويرية بنت الحارث: أن أباها الحارث بن أبي ضرار حضر إلى المدينة، ومعه كثير من الإبل، ليفتدي بها ابنته، وفي وادي العقيق قبل المدينة بأميال أخفى اثنين من الجمال أعجباه في شعب بالجبل، فلما دخل على النبي قال له: يا محمد، أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال: "فأين البعيران اللذان

---

(١) –إسناده جيد: أخرجه الطبراني في الكبير، (١١٩)، وقال الهيثمى وإسناده جيد ،. محمد الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكى الحسينى، جدة، ص١٦٢.

(٢) –فقه السنة، السيد السابق، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٣، ص٤٢٦، ٤٢٧ بتصرف.

(٣) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير (٢٨٨١)، وفي مواضع أخرى.

(٤) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٤١١٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه (٤٦٨٨).

غيبتهما بالعقيق في شعب كذا"؟ فقال الحارث: أشهد ألا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله ما أطلعك على ذلك إلا الله، وأسلم الحارث وابنان له[١] وأسلمت ابنته أيضا فخطبها رسول الله إلى أبيها وتزوجها فقال الناس: «أصهار رسول الله فأرسلوا ما بأيديهم»[٢]. وروي أن النبيﷺ قال لأصحابه في أسرى بني قريظة بعدما احترق النهار في يوم صائف: "أحسنوا إسارهم وقيلوهم واسقوهم". وقال: "لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح"[٣].

ثانيا. قبل الرسول الفداء في أسرى بدر، ومنّ على بعضهم دون مقابل وجعل التعليم مقابل الفداء لآخرين:

قال ابن عباس رضي الله عنه: «فلما أسروا الأسارى قال رسول الله لأبي بكر وعمر: "ماترون في هؤلاء الأسارى"؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ترى يا ابن الخطاب"؟ قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنا منهم فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان – نسيب لعمر – فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت – الكلام لعمر – فإذا رسول الله ﷺوأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله: "أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة" – شجرة قريبة من نبي الله محمد ﷺ وأنزل الله رضي الله عنه: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ (الأنفال: ٦٧) إلى قوله: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم (٦٩)﴾ (الأنفال). فأحل الله الغنيمة لهم»[٤].

وانطلاقا من هذه الرحمة، فقد جاءت الوصية بإكرام أسرى بدر، وقد كان رسول الله قد فرقهم بين أصحابه وقال: "استوصوا بهم خيرا" وهذه غاية الرحمة والإنسانية إذ أوصى بأناس طالما عذبوه وأصحابه، وحاولوا فتنتهم عن دينهم، وقد نفذ الصحابة وصية رسول بأمانة وكانوا سمحاء كرماء معهم، فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول: "كنت في رهط الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحيي فأردها، فيردها على ما يمسها"[٥]. وكان في الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيبا مصقعا(بليغا)، فقال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتي (مقدم أسنانه) سهيل بن عمرو يدلع لسانه(يخرجه)، فلا يقوم خطيبا عليك في موطن أبدا، بيد أن رسول الله ﷺرفض هذا الطلب احترازا عن المثلة، وعن بطش الله عز وجل يوم القيامة[٦].

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا، قال: "كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرا، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم حتي إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلى. وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد، وكانوا يحملوننا ويمشون". كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خلقا، وكان لهم طبيعة – قد أثر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر بعيد وصول الأسرى إلى المدينة وتنفيذ وصية رسول الله وأسلم معه السائب بن عبيد بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى

---

(١) –أسد الغابة، ابن الأثير، دار الفكر، ج١، ص٤٠٠.

(٢) –أخرجه أحمد في مسنده، (٢٦٤٠٨)، وأبو داود في سننه، (٣٩٣٣)، وصحح إسناده الألباني في الإرواء (١٢١٢)، أسد الغابة، ابن الأثير ج٣، ص٤٢٨، ٤٢٩.

(٣) –سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٥، ص٢٤. الموسوعة الفقهية الكويتية، ط٤، ١٩٩٣م، ج٤ ص١٩٨

(٤) –السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٥٧، ٥٨. وأخرجه مسلم (٤٦٨٧).

(٥) –السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص١٥٣.

(٦) –الرحيق المختوم، المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٣٠.

إلى بلادهم وأهليهم، يتحدثون عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى، والإصلاح والخير، إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي؛ إذ نال أعداء الإسلام من معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار(١).

ومما يؤكد لنا سمو النظرة الإسلامية أن الرسول ﷺقد جعل التعليم مقابل الفداء لبعض الأسرى. "قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺفداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه. وقبول النبي ﷺتعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ... الذي علم بالقلم (٤)﴾ (العلق)، واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، والسبق في هذا للإسلام"(٢).

ثالثا. لم يقتل الرسول من أسرى بدر سوى أسيرين، وكان قتلهما واجبا من حيث وجهة الحرب:

إذا كانت معاملة المسلمين للأسرى قد حفتها الرحمة واللين، فإن للحزم وقته وموضعه، لذلك تعددت أساليبه وتنوعت طرقهﷺ في التعامل مع الأسرى فإنه إذا كان قد قبل الفداء في بعضهم ومن على آخرين، فإنه أيضا قد قتل اثنين فقط منهم، هما: عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث وقد علا طنين المستشرقين والمبشرين لقتل هذين الأسيرين من بين سبعين أسيرا، وزعم أولئك تعطش الدين الجديد للدماء، وامتلاء قلب النبي بالحقد.. قالوا هذا وتغافلوا عما قام به هذان على وجه الخصوص، وتناسوا أن قتلهما كان في الطريق إلى المدينة أي قبل تقرير مصير باقي الأسري "وقد كان هذان الرجلان من شر خلق الله، وأكثرهم كفرا وعنادا وبغيا وحسدا وإيذاء للنبي ﷺوالمسلمين، وهجاء للإسلام وأهله، ولم يأمر النبي بقتل أحد من الأسرى غيرهما.

ذلك أنه لما بلغ النبي في مرجعه الصفراء(٣) عرض عليه الأسرى، فنظر النبي إلى النضر نظرة رأى فيها الموت، فلما رأى ذلك قال لمصعب بن عمير–وكان أقرب من هناك به رحما–: كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلي إن لم تفعل فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه، فقال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبدا وأنا حي قال مصعب: والله إني لأراك صادقا ثم إني لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود! وكان النضر أسير المقداد بن الأسود، وكان يطمع أن ينال في فدائه مالا كثيرا، فلما هموا بقتله صاح: النضر أسيري، فقال النبي لعلي بن أبي طالب: "اضرب عنقه، واللهم أغن المقداد من فضلك"(٤) أما عقبة بن أبي معيط فقد قتل بعرق الظبية (بين مكة والمدينة)، ولما أمر النبيﷺ بقتله قال: فمن للصبية يا محمد؟ قال: "النار"، ثم قال: أتقتلني من بين قريش؟ فقال النبيﷺ: "نعم"، ثم التفت إلى أصحابه وقال: "أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي، وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران(ستخرجان)، وجاء مرة بسلى شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي".

والقصة الثانية التي جاءت عن ابن مسعود أنه قال: «بينما رسول الله يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم إلى سلى جزور بني فلان فيأتي به، فإذا سجد النبي وضعه

(١) –السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٦٢.
(٢) –السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٦٧، ٦٨، وج٢، ص١٦٤، ١٦٥.
(٣) –وادي الصفراء: وهو واد كثير النخل والزرع والخير من ناحية المدينة.
(٤) –أخرجه ابن زنجويه في الأموال، (٤١٨)، وأبو داود في المراسيل، باب في فضل الجهاد، قتل يوم بدر ثلاثة رهط من قريش صبرا (٣١٥).

بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله والنبي ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت–وهي جويرية–فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم»[١] وقد كان قتل هذين الطاغيتين واجبا من حيث وجهة الحرب، فلم يكونا من الأسارى فحسب، بل كانا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث[٢]وبمقتل هذين المجرمين تعلم المسلمون أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال للتساهل معهم، فهم زعماء الشر وقادة الضلال، فلا هوداة معهم؛ لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح بأعمالهم الشنيعة[٣]

رابعا. هل نسي مثيرو الشبهة ما وقع فيه أقوامهم بشأن الأسرى على مدى التاريخ؟!

لعل مقارنة سريعة بين الرسول ﷺوغيره من القادة على مر التاريخ بشأن معاملة الأسرى – تثبت لنا الفرق الشاسع بين تحضره ﷺوتسامحه وهمجية غيره، ولينه ﷺوغلظة غيره، "لقد حل أسرى بدر ضيوفا على أهل المدينة أنصارا ومهاجرين، وراحوا يتلقون منهم الحفاوة والتكريم، بل بدأ المسلمون يتقربون إلى ربهم بإطعام اليتيم والمسكين، فلم يعاملوهم كأسرى في زنزانات الأسر المظلمة، ولم تعرف شريعتنا ألوان التعذيب وطرقه التي يستحدثها الصليبيون في العراق، ولم يحدث ما يسمع عنه العالم الآن في جوانتنامو، وما يشاهده في سجن أبي غريب مما تطبقه المدنية المعاصرة، وفي ظل معاهدات جنيف"[٤] مما تطبقه المسيحية المتحضرة وفي ظل معاهدات جنيف.

. فما رأي هؤلاء في فعل النبي ﷺوصحابته رضي الله عنهم؟ ثم ما رأيهم فيما تقوم به الدول المتحضرة اليوم في الشرق والغرب، وما جري في الحربين العالميتين الأولى والثانية من قتل الأسارى قتلا جماعيا والتنكيل بهم تنكيلا جاوز حدود الإنسانية؟! فلماذا أغمضوا عن هذا عيونهم وأصموا آذانهم، وفتحوها لقتل أسيرين حفلت حياتهما بالمساوئ والجرائم تجاه النبيﷺ والمسلمين؟! فأين هذا مما صنعه المسلمون مع الأسارى في بدر من الإحسان إليهم حسب وصية نبيهم لهم، حتى كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب[٥]؟!!

لقد حفظ الرسول لمن يجيد الكتابة من أسرى بدر مكانته، وحرص على الاستفادة منه بما هو أثمن من المال، فبالكتابة ربح هذا الأسير حياته، فمن كان على معرفة بالكتابة دفع إليه عشرة غلمان من المسلمين، فإذا حذقوا فهو فداء له، وكان الفداء لمن لا يعرف الكتابة من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم، ومن ليس لديه دراهم ولا معرفة بالكتابة من عليه الرسول دون فداء[٦].

فما رأي هؤلاء في فعل النبي وصحابته؟ ثم ما رأيهم فيما تقوم به الدول المتحضرة اليوم في الشرق والغرب، وما جرى في الحربين العالميتين الأولى والثانية من قتل الأسارى قتلا جماعيا والتنكيل بهم تنكيلا جاوز حدود الإنسانية؟ فلماذا أغمضوا عن هذا عيونهم وأصموا آذانهم، وفتحوها لقتل أسيرين حفلت حياتهما بالمساوئ والجرائم تجاه النبي والمسلمين؟ فأين هذا مما صنعه المسلمون مع الأسارى في بدر من إحسان إليهم، حسب وصية نبيهم لهم، حتى كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب[٧]؟!

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٢٣٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، (٤٧٥٠)، واللفظ له.
(٢) –الرحيق المختوم، المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٢٨.
(٣) –السيرة النبوية، د. على محمد محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٢، ص٦١.
(٤) –الرد على القس بوش، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٨٧، ٢٨٨ بتصرف.
(٥) –انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص١٦٨.
(٦) –الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين"، د. عبد الرحمن جيرة، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٢٨٧، ٢٨٨
(٧) –السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص١٦٨.

البحث السابع: قالوا إن سياسة النبيﷺ مبنية على العدوانية فقد قاتل مملكة غسان وسلبها وضمها لدولته

يدعي بعض المغرضين أن سياسة النبي كانت مبنية على العدوانية والوحشية؛ ذاك أنه كان يسعى لتأسيس مملكة كبرى له في الجزيرة العربية؛ مستدلين على ذلك بما توهموه عدوانا حين قاتل النبي مملكة غسان، زاعمين أنه سلبها ونهبها وضمها إلى دولته ويرمون من وراء ذلك إلى وصم سياسته بالعدوانية والوحشية؛ طعنا في كيفيتها، وتشكيكا في بواعثها(١).

نقد عام:

١-كانت حياة النبي ﷺحياة بسيطة بعيدة عن الترف والنعيم وزخرف الدنيا، حتى إن نساءه اشتكين من ضيق العيش وطلبن النفقة، ثم إنه كان مثلا رائعا في الرحمة والرأفة بالناس، فكيف يكون ملكا عدوانيا وهذه حاله؟!

٢-لم يكن ما فعله النبي مع الغساسنة وعرب الشام إلا ردا على اعتداءاتهم المستمرة من قتل من يدخل الإسلام، وقطع طرق التجارة عن المدينة، ونهب أصحاب النبي الدعاة إلى الإسلام وسلبهم وقتلهم، وأخيرا قتل سفير رسول الله الذي بعثه إلى حاكمهم يدعوه وإياهم إلى الإسلام.

أولا. كانت حياة النبي حياة بسيطة بعيدة عن الترف، ثم إنه كان مثالا رائعا في الرحمة والرأفة بالناس:

عاش النبي حياته متواضعا لله أشد ما يكون التواضع؛ فقد «كان النبي ينام على الحصير حتى يرى أثره في جنبه الشريف، فإذا قيل له: ألا نبسط تحتك ألين منه؟ يقول: ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة، ثم راح وتركها» (٢) تقول السيدة عائشة: «ما رفع رسول الله قط عشاء الغداء، ولا غداء العشاء، ولا اتخذ من شيء زوجين ولا قميصين، ولا رداءين ولا إزارين ولا من النعال، وكان يمر به الشهر والشهران وما يوقد في بيته نار، إنما هو التمر والماء». وجاءته فاطمة بكسرة خبز فقال: «ما هذه يا فاطمة؟ قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام» (٣) أهذه تكون حال ملك في بيته؟! إننا نرى ونعلم كيف تكون حياة الملوك والأمراء من الترف والنعيم، ولكن هذه حال رسول الله فكيف يكون ملكا وهذه حاله، فعلى الرغم من أنه دانت له الجزيرة العربية بخيراتها، إلا أنه آثر أن يكون عبدا نبيا، لا ملكا نبيا.

ولما رأت نساؤه ما فتح الله عليه من الخير، ولم يكن لهن نصيب من ذلك، ونساء النبي من البشر فطلبن النفقة، وتألم رسول الله من ذلك حتى احتجب عن أصحابه، فقد جاء عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: «فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا، فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة - يقصد زوجته - سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله وقال: "هن حولي كما ترى يسألنني النفقة"، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ما ليس عنده؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده»(٤).

فهل بعد هذا يكون النبي ملكا؟! أنساء الملوك يطلبن نفقة، وإنك لترى ما يكون فيه نساء الملوك من ترف ونعيم وإسراف في الشهوات والملذات، وإذا كان يقوم بعمليات السلب والنهب كما يزعمون، فلماذا لم يظهر أثر هذا في حياته؟! أما عن رحمته فقد جاءت مطابقة لقوله سبحانه وتعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١٠٧)}(الأنبياء)، فهو

---

(١) -بلاد العرب ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة، د. ت.

(٢) -صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، (٣٧٠٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

(٣) -محمد . صلى الله عليه وسلم . الإنسان الكامل محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٥٦.

(٤) -أخرجه مسلم في صحيحه، (٣٧٦٣).وهدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، د. حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٧٦٥.

رسول الرحمة الذي أرسله الله رحمة لجميع العالمين: رحمة للمؤمنين ورحمة للكافرين ورحمة للمنافقين، ورحمة لجميع بني الإنسان من الرجال والنساء والصبيان، ورحمة للطير والحيوان، فهو رحمة عامة لجميع خلق الله عز وجل.

ومن رحمته «أنه عندما كذبه قومه أتاه جبريل فقال له: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فقال رسول الله: "فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين"؟![1]فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا»[2]. فالرحمة والعفو كانا من شمائل المصطفى التي كان يتحلى بها، فعندما دخل رسول الله مكة أبى كل من: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ومن جمعوا من الناس إلا قتالا فهزموا وفروا، ثم استأمنوا فأمنوا، بل عفي عنهم، بل أعطوا من غنائم هوازن تأليفا لقلوبهم[3]. وأمثلة عفو النبي كثيرة لا تحصى، ومن أظهرها وأتمها عفوه التام عن قريش يوم فتح مكة، فهل بعد كل هذا يكون النبي ملكا عدوانيا؟ إن أخلاق النبي وسماحته وعفوه ورحمته لتدل على صدق نبوته وبعده الشديد عن أخلاق الملوك والرؤساء، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن حياة الملوك، فقال تعالى: {قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون (٣٤)} (النمل)، وهذا عكس ما كان يحدث عندما كان يدخل النبي فاتحا ومنتصرا في أي غزوة، والتاريخ يشهد بذلك.

وجدير بالذكر أن النبي لم يكن يوما طالبا للسلطة أو الملك والزعامة، ولقد عرض عليه كفار قريش الملك والمال فأبى إلا أن يتم دين الله، ولما فتح البلاد ودخل الناس في دين الله أفواجا ما ثبت عنه أنه تعامل معاملة الملوك، وجدير بالذكر أيضا أنه لم يكن يوما طالبا للترف والتلذذ بالدنيا وشهواتها، ولو أراد ذلك لفعل ذلك بعد زواجه بخديجة وقد كانت من أثرياء مكة، ولم تكن لتمنع عنه شيئا أبدا، ثم دانت له البلاد، وأصبح بعض المسلمين أثرياء، فما وجدنا النبي يفعل فعل المترفين المرفهين.

ثانيا. لم يكن ما فعله النبي مع الغساسنة وعرب الشام، إلا ردا على اعتداءاتهم المستمرة:

عندما بدأ الرسول حركة الدعوة الإسلامية خارج الحدود، أرسل رسله إلى كبار ملوك ذلك الزمان ورؤسائه، فأرسل الصحابي شجاع بن وهب من بني أسد إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان هذا الثاني ملكا على جنوب الشام، وهي إمارة الغساسنة الذين كانوا ملوكا بالاسم لأن الحكم الحقيقي والأمر والنهي كان لقيصر الروم، الذي كان يعد الغساسنة بمنزلة حاجز بينه وبين عرب الجزيرة، الذين كانوا يغيرون على أطراف دولة الروم بين الحين والحين (كان هذا من العرب الجاهليين قبل الإسلام)، وكان الرسول ﷺ يعرف من أمر الغساسنة أنهم على النصرانية، وأنهم ذوو قوة ومال، ويكرهون الإسلام، ويتضح أن الرسول كان على دراية بخشونة الملك الغساني، فكان كتابه له في حسم قاطع، ونص الكتاب: "سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك".

إنه كتاب اقتصر على الحسم والقطع والتهديد المباشر، فلما دفعه إليه الصحابي، قرأه ثم رمى به، وقال: من ينزع عني ملكي؟! وأنا سائر إليه، وكتب إلى قيصر يخبره بالخبر، فكتب إليه قيصر: لا تسر إليه، واله عنه.[4] إن النبي لم يرد انتزاع ملكه وإنما أراد هدايته ومن معه للإسلام فحسب، لقد أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فقد دأبت قبيلة كلب–من قضاعة التي كانت تنزل على دومة الجندل–على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعا من الحصار الاقتصادي عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة؛ ولذلك

---

(١) –الأخشبان: جبلان محيطان بمكة.

(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه(٣٠٥٩)، ومسلم في صحيحه(٤٧٥٤)، واللفظ للبخاري. ومحمد الإنسان الكامل محمد بن علوي المالكي الحسيني، ص١٣٣.

(٣) –محمد. صلى الله عليه وسلم. الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٥٩ بتصرف.

(٤) –البيان المحمدي د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص١٢٠ بتصرف.

غزا رسول الله قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥ هـ)، ولكنه وجدهم قد تفرقوا، كما أن رجالا من جذام ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحسمى[١] بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بن حارثة إلى حسمى في سنة (٦ هـ)، ويضاف إلى ذلك ما قامت به قبيلتا مذحج وقضاعة من اعتداء على زيد بن حارثة وصحبه في العام المذكور (٦ هـ)، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثة بغرض الدعوة إلى الله.

وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحى أكثر خطورة، بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى حاكم بصرى التابع لحكم الروم، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغساني بضرب عنق رسول رسول الله، ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء، كما أن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله وهدد بإعلان الحرب على المدينة، ثم حدث أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري يدعو إلى الإسلام في مكان يقال له "ذات أطلاح"، فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام، وأحاطوا بالدعاة من كل مكان، وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعا إلا أميرهم كان جريحا فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قام نصارى الشام بزعامة الإمبراطورية الرومانية بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر في ذلك، فقد قتلوا والي معان حين أسلم، كما قتل والي الشام من أسلم من عرب الشام.

كانت هذه الأحداث المؤلمة وبخاصة مقتل سفير رسول الله الحارث بن عمير الأزدي محركة لنفوس المسلمين، وباعثة لهم ليضعوا حدا لهذه التصرفات النصرانية العدوانية، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة الذين سفكت دماؤهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله، كما أن تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية، والذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم، وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم أصبح هدفا مهما؛ لأن تحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية في تلك المناطق، بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم في المستقبل، وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم، ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة.

وفي سنة (٨ هـ) أمر رسول الله المسلمين بالتجهز للقتال فاستجابوا للأمر النبوي، وحشدوا حشودا لم يحشدوها من قبل، وبلغ عدد المقاتلين في هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، واختار النبي للقيادة ثلاثة أمراء على التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، فقد روى البخاري في صحيحه بإسناده من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: «أمر رسول الله في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» [٢]. وقد أمر رسول الله الجيش الإسلامي أن يأتي المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي، وأن يدعو من كان هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا فبها ونعمت، وإن أبوا فليستعينوا بالله عليهم ليقاتلوهم، وقد زود الرسول الجيش في هذه السرية وغيرها من السرايا بوصايا تتضمن آداب القتال في الإسلام، فقد أوصى رسول الله أصحابه بقوله: "أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تقتلوا وليدا، ولا امرأة ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة، ولا تقربوا نخلا، ولا تقطعوا شجرا، ولا تهدموا بناء، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب" [٣].

وانتهت هذه الغزوة بنجاة الجيش الإسلامي من أن يقع فريسة لجيش الكفر المتكاثف، وحسب ذلك نصرا مبينا، وقال بعض كتاب السيرة: إن النتيجة كانت السلامة ولم تكن نصرا. فغزوة مؤتة أول غزوة تخرج عن دائرة الجزيرة العربية

---

(١) –حسمى: اسم موضع باليمن، وقيل بالشام.

(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام (٤٠١٣).

(٣) –السيرة النبوية د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م، ج٢، ص٤٨٤: ٤٨٦ بتصرف.

إلى دائرة أراض تحت سلطان الرومان ولا تهمنا حوادث المعركة بل يهمنا أن النبي ما رفع سيفا في وجه الغساسنة وأسيادهم الروم إلا بعد قتل رسوله إليهم واستعداد الحارث للسير إلى المدينة لحرب الإسلام في عاصمة الإسلام فكانت سرية مؤتة ولا ريب أن قتل الرسل كان مخالفا للعرف الدولي آنذاك وهو انتهاك له لأن الرسل لا تقتل مهما عملت ومهما تكلمت[١].

وبعدما انتهت المعركة نهائيا أراد الرسول ألا يترك هؤلاء الأعراب من غير تأديب، وكما قال الله سبحانه وتعالى: {الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧)} (التوبة)، فكان لا بد أن يمنعهم من أن يسترسلوا في الشر فأرسل عمرو بن العاص يستنفر العرب ليستميلهم إليه بذرابة لسانه، ولكن لم يفلح في استمالة أحد، وأرسل إلى الرسول ليبعث إليه الرجال وبقي ينتظر المدد، عندئذ بعث النبي جيشا من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، والقائد أبو عبيدة عامر بن الجراح. وأخذ الجيش الإسلامي يطارد القبائل التي ظاهرت الروم، فتوغل الجيش الإسلامي، وكلما انتهى إلى قبيلة ولت الأدبار، ولم يصطدم إلا مرة واحدة، وانتهت بفرارهم، وبذلك كان تأديب هذه القبائل الأعرابية، وبدت كلمة الإسلام عالية كما هي، وسميت بـ "سرية ذات السلاسل"[٢].

مما سبق يتضح لنا أن النبي لم يكن يوما منتقما من الغساسنة أو متبنيا سياسة الهجوم عليهم؛ وكل ما فعله أنه رد على اعتداءاتهم المتتالية وأفعالهم الإجرامية التي اتخذوها ضد من أسلم من عرب الشام، فكان لا بد من تأديب هؤلاء الأعراب لتأمين خط التجارة بين الشام والمدينة، أفيسمى ذلك اعتداء وعدوانا؟

الخلاصة:

كانت حياة النبي بعيدة كل البعد عن حياة الملوك؛ إذ كان يعيش عيشة بسيطة خالية من الترف والنعيم وزخرف الدنيا، وكان يقول: «مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٣]، حتى إن نساءه طلبن منه النفقة لما لم يجدن عنده شيئا. كانت حياة النبي مثلا للرحمة والعفو عند المقدرة، وهذا يظهر واضحا جليا في موقفه من أهل مكة يوم فتحها، وعفوه عنهم.

لم ينتقم النبي من الغساسنة وغيرهم من عرب الشمال، وإنما قام برد اعتداءاتهم المتكررة حينما استفحل خطرهم وأخذوا يهددون الدولة الإسلامية من جهة الشمال، ويقطعون حركة التجارة بين المدينة والشام، واستعملوا بعض أساليب النهب والسلب وقطع الطريق على الدعاة الذين يبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ وأخيرا كان من حاكمهم الحارث بن أبي شمر الغساني أن قتل رسول النبي الذي بعثه إليه يدعوه وقومه للإسلام، ولما لم يجد النبي بدا من قتالهم بعث لهم سرية مؤتة، ثم سرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح، فكانوا كلما اقتربوا من قبيلة وجدوهم قد هربوا حتى أتم الله لهم النصر، ودانت لهم هذه القبائل.

---

(١) -الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص١٠٢ بتصرف.

(٢) -خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٣، ص٨٥٠: ٨٥٣ بتصرف.

(٣) -صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٧٠٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

البحث الثامن: إنه وظّف الغنائم بمهارة لتطويع أصحابه لعلمه بأهميتها لهم

يزعم بعض المشككين أن النبي وظف الغنائم بمهارة فائقة في تطويع أصحابه، مدعين أنه لما علم بمكانة الغنائم وأهميتها في قلوب صحابته؛ استغل هذا الجانب وأخذ يوزع عليهم الغنائم والأنفال والأسلاب؛ كي يكسب طاعتهم له رامين إلى التشكيك في بواعث جهاد الصحابة من جهة وإلى الطعن في حسن سياسة النبي من جهة أخرى[١]

نقد عام: ١ -ظل النبيﷺ يدعو بدعوته في مكة ثلاث عشرة سنة، وقد احتمل في سبيل دعوته اضطهاد قريش غير الإنساني له وللصحابة، ولم يكن له أي غنائم أو أسلاب.

٢ -وزع النبي نصيبه من الغنائم على أناس أسلموا؛ كي يتألفهم بذلك، وأناس لم يسلموا ليحببهم في الإسلام، مثلما حدث في تقسيمه غنائم الطائف، وهو في هذا وذاك متبع لتعاليم السياسة الشرعية الإسلامية الحكيمة.

أولا. تحمل النبي ﷺوأصحابه الأذى والاضطهاد في مكة قبل الغنائم والأنفال:

من الثابت تاريخيا أن فترة دعوة النبي في مكة لم يكن فيها أي غنائم، وإنما كان هناك بدلا من ذلك الاضطهاد غير الإنساني المستمر الذي وصل لحد القتل، وكان هناك الحصار والإخراج من الوطن، والاستيلاء على الأموال والممتلكات فكيف استطاع محمدﷺ تطويع أتباعه لتحمل كل هذا؟! وأين تلك الغنائم التي يزعمون أنه كان يطوعهم بها؟ أكان يشكل عصابات سرقة تسطو على بيوت مكة ليلا، ثم تحمل إليه ما يجود الله بها عليها في كل طلعة ليوزعها على الأتباع؛ كي يروضهم ويكسب طاعتهم؟! إنهم يقولون: إن حياة الصحابة قبل الإسلام كانت قائمة على السلب، فأدرك محمدﷺ أهمية الغنائم والأنفال لديهم، وهذا كذب بين، ذاك لأن الذين آمنوا به طوال الثلاث عشرة سنة المكية، إنما كانوا كلهم تقريبا من قريش، وقريش كانت قبيلة تجارية، وعليه لم يكن ثمة غزو ولا سلب في حياتها. وعلى كل حال، فقد كان خصوم محمدﷺ يوزعون الأموال والغنائم على أتباعهم الذين كانت أعدادهم أضعاف أتباع النبي كما هو معلوم، فلماذا لم يفلحوا وأفلح محمد صلى الله عليه وسلم؟

إن السر يكمن في أن أتباع محمدﷺ كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر، أما خصومه وأتباعهم فقد كانوا لا يرون إلا الدنيا، ولولا الإيمان لما كانت لأموال العالم كله أية ثمرة في حياة المسلمين، وبسبب هذا الإيمان كان الصحابة ينفقون من أموالهم عن سعة في الزكوات، والصدقات، وفي ميدان الجهاد؛ إرضاء لله سبحانه وتعالى، وإيثارا لما عنده على ما في أيديهم[٢]. ثم إنه لما ذهب الصحابة إلى المدينة، أكان الرسول يحتاج إلى التودد إليهم ليطيعوه، أم أنهم كانوا يتلقفون أمره بالتنفيذ طاعة لله الذي قال في كتابه الكريم: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} (النساء: ٨٠)، ثم ما الغنائم التي كانوا ينتظرونها، وهم لم يخرجوا لجهاد إلا كان عددهم أقل من عدد عدوهم؟!

إن أصحاب الرسول لم يكونوا في يوم طلاب مال؛ حتى يتوهم أن النبي استخدم الغنائم في تطويعهم، وإن كانوا كذلك فلماذا تحملوا العذاب الذي لا يطاق من مشركي مكة؟ هل لمعرفتهم أن المستقبل يحمل إليهم أموال كسرى وقيصر، أم للإيمان الذي في قلوبهم؟ هذا الإيمان الذي كان في قلوب الصحابة وهو الذي جعل رستم قائد الفرس يخسأ عندما عرض الذهب والكساء على المسلمين قبل القادسية. لقد أجاب زهرة بن الحوية رستم حينما قال له: "انصرف وقومك ولكم منا جعلا" قائلا: "إنا لم نأتكم بطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة". فلو أراد الفاتحون مالا دون نشر الدعوة والعقيدة، لرضوا بالمال دون دماء، ولحفظوا أرواحهم وعادوا بأموال تكفيهم بلا تعب، ولا إرهاق.

---

(١) -اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، وكتاب: شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم.
(٢) -اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٢٣٩: ٢٤١.

ولقد ظن ملك الصين ما ظنه رستم من قبل، ففي عام (٩٦هـ)، أناب قتيبة بن مسلم الباهلي هبيرة بن المشمرج الكلابي لمقابلة الملك بناء على طلبه، فقال الملك لهبيرة: انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، أو أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه، فقال هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابع الزيتون؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه[١]. فهل يعقل أن أمثال هؤلاء ممن يخضعون للإغراء بالمال؟! ومن الذي يغريهم؟ أهو الرسول صلى الله عليه وسلم؟!!

ثانيا. اتباع النبيﷺ في تقسيمه السياسة الشرعية الإسلامية الحكيمة:

لم يكن دافع النبي من تقسيمه الغنائم هو رياضة أصحابه وتطويعهم، بل كان يأخذ نصيبه من الغنائم حسبما حدده القرآن الكريم وهو (الخمس)، ويوزع معظمه على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، مثلما حدث معه في غزوة بدر الكبرى "حينما أسهم لمن استشهد ببدر، فأعطى ذلك لورثتهم وهم أربعة عشر مسلما: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وما فعله النبي هو غاية العدل والإنصاف، وقد سبق به إلى رعاية أسر الشهداء وذويهم، وضمان عيشة كريمة لهم بعد وفاة عائليهم قبل أن يعرف العالم الحديث ذلك"[٢]

ولم يقصر عطيته على هؤلاء فحسب، بل كان يتعداهم إلى أناس لم يسلموا كي يحببهم في الإسلام من خلالها، وإلى أناس أسلموا يتألفهم بذلك؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، مثلما حدث في توزيعه غنائم الطائف، فأعطى من نصيبه في الغنيمة مائة من الإبل لكل من أبي سفيان، وابنيه: معاوية ويزيد، والحارث بن هشام، وحكيم بن حزام، وكان كلما أعطاه الرسول مائة استزاده حتى قال له: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى» [٣]. وقد أثرت هذه الموعظة في نفس حكيم، فأخذ المائة وترك ما عداها، ثم قال: «والذي بعثك بالحق لا أرزأ (آخذ) أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر وعمر يعرضان عليه العطاء فلا يأخذه».

وكان رسول الله يعلم أن بعض النفوس عبيد الإحسان فتألفهم بذلك، وهو ضرب من ضروب السياسة الشرعية الحكيمة ولهذا جعل الشارع الحكيم للمؤلفة قلوبهم سهما في الزكاة ونعما فعل الرسول فإن كثيرين ممن لم يسلموا قد أسلموا وكثيرين ممن أسلموا ولم تشرب قلوبهم حب الإيمان قد صاروا بعد من أجلاء المسلمين وأعظمهم نفعا للإسلام ولم يكن رسول الله يفعل هذا لهوى في نفسه، فحاشاه من ذلك وإنما الأمر كما قال: «إني أعطي قوما أخاف ظلعهم (قلة يقينهم) وجزعهم، وأكلُ قوما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى» [٤]. ويدل على هذا ما حدث بين الأنصار والرسول بعد توزيع الغنائم في حنين:

«لما أعطى رسول الله قريشا والمؤلفة قلوبهم وغيرهم من سائر العرب ولم يعط الأنصار، وجد بعض الأحداث منهم في نفسه، وقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فلما نميت المقالة إلى رسول الله أرسل إليهم وجمعهم في قبة وحدهم، فلما اجتمعوا قام خطيبا فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "ما حديث بلغني عنكم"؟ فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما ناس منا حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، ثم قال: "يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم"؟!

---

(١) –الإسلام في قفص الاتهام د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٠٢، ٢٠٣ بتصرف.

(٢) –السيرة النبوية د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص١٥٣.

(٣) –أخرجه البخاري في صحيحه، (١٤٠٣) ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (٢٤٣٤)، واللفظ للبخاري.

(٦) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب ما كان النبي . صلى الله عليه وسلم . يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٢٩٧٦).

قالوا: بلى، ثم قال: "ألا تجيبون يا معشر الأنصار"؟ قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المن لله ولرسوله فقال النبي: "والله، لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك"، فقالوا: المن لله ولرسوله، فقال رسول الله: "أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون أنتم برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شعبا، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار"، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسما، ثم انصرفوا».[١]

فلو كان النبي يستغل الغنائم في تطويع أصحابه لكان من الأولى به أن يرضي الأنصار ولا يغضبهم؛ حتى لا ينقلبوا ضده، ولكن الرسول أوضح لهم الأمر، وقدم مراده ولذا آبوا إلى رشدهم، وكلهم مطيعون لرسول الله من قبل ومن بعد، فهل كانوا يطيعونه للغنائم واكتسابها إذن؟! وبهذا يتبين أن النبي اختص أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة الأصلية بين المقاتلين، وذلك لحكم ومقاصد يعجز البشر عن إدراك كنهها، وهي استخدام الغنائم في تأليف القلوب للإسلام، لا استخدامها كما يقولون في تطويع طاعتهم وكسبها، كما أن الغنائم مشروعة لكل شخص شارك في إحراز النصر على الأعداء بوجه أو بآخر، وهذا ما يقتضيه العقل والمنطق؛ فالغنائم مشروعة من قبل الله عز وجل لأمة محمد وحلها مختص بها، وثبت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع:

دليل الكتاب قوله سبحانه وتعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان(٤١)} (الأنفال)، ووجه الدلالة من الآية: أن الله جعل الغنيمة مقسومة على هذه الأسهم الخمسة، وجعل أربعة أخماسها للغانمين؛ لأن الله عز وجل أضاف الغنيمة إلى الغانمين في قوله: {غنمتم}، وجعل الخمس لغيرهم، فدل على أن سائرها لهم، دليل السنة النبوية قوله: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة»[٢] وبهذا يتضح أن المشرع للغنائم هو الله وليس الرسول فهي تدخل في باب الإلزام لا التطوع.

الخلاصة: ظل الرسول يدعو في مكة ثلاث عشرة سنة، وقد نتج عن هذا اضطهاد قريش غير الإنساني له وللصحابة، والذي وصل لحد القتل، فأين كانت الغنائم والأنفال والأسلاب وقتذاك؟! وما الوسيلة التي اتبعها النبي قبل وجود الغنائم، في تطويع أصحابه ؟! لم يكن الدافع وراء توزيع الغنائم هو رياضة الصحابة وتطويعهم كما يزعمون بل هو شرع الله المنزل عليهﷺ لتبليغه للناس فكان توزيعه نصيبه من الغنائم على الفقراء والمساكين وابن السبيل وذوي قرباه وعلى أناس أسلموا يتألفهم بذلك وأناس لم يسلموا ليحببوا في الإسلام، وكذلك لم تكن الغنائم هي دافع الصحابة لطاعة الرسول وإنما الإيمان بالله ورسوله هل يتسنى له أن يكون هدفه من توزيع الغنائم هو رياضة أصحابه وتطويعهم مع أنه قد حرم الأنصار من غنائم حنين ووزعها على أناس آخرين؟! ولو كان الأنصار طلاب مال لانقلبوا على الرسول، ولكن هذا لم يحدث، بل انصاعوا للرسول حينما فهموا مقصده، تعتبر الغنائم بمنزلة الحق التملكي لكل شخص شارك في إحراز النصر على الأعداء، من الثابت تاريخيا أن النبي لم يكن هدفه ولا هدف الصحابة من الجهاد الحصول على الغنيمة، بل كان جهادهم لإعلاء كلمة الله عز وجل في كل مكان، حتى تنعم البشرية بالحياة في رحاب الإسلام.

---

(١) –صحيح: أخرجه أحمد (١١٧٤٨)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة (ص٣٩٧). السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، ص٤٨١: ٤٨٤ بتصرف.

(٢) –أخرجه البخاري (٤٢٧) ومسلم في صحيحه، (١١٩١)، الموسوعة الفقهية، وزراة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، ط٤، ١٩٩٣م، ج٣١، ص٣٠٣

البحث التاسع: كان ينتقم لنفسه بقسوة مستشهدين بحادثة العرنيين [١]

يزعم بعض المفترين أن النبي كان ينتقم لنفسه بقسوة، مستدلين على ذلك بأن النبي لما سرق بعض الناس ماشيته الخاصة وقتلوا راعيه انتقم منهم انتقاما بشعا إذ قطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم بالنار، حتى لقد نزل القرآن معاتبا له، وناهيا له عن العودة إلى مثل هذه القسوة مرة أخرى في قوله عز وجل: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٣)﴾ (المائدة). ويهدفون إلى الطعن في رحمته ورفقه وعفوه صلى الله عليه وسلم.

وجها إبطال الشبهة:

١-إن ما عرف من تسامح النبي وعفوه عند المقدرة، لدال بما لا يدع مجالا لزعم زاعم دلالة قاطعة على كمال خلقه فإن نبيا شملت رحمته الحيوانات والجمادات، حريّ بنا أن ننزهه عن مظنة القسوة انتقاما لنفسه كما يزعمون وإنما الأمر من قبيل: "الجزاء من جنس العمل".

٢ -الآية التي توهموا أن فيها شاهدا يستندون عليه في تعضيد مزعمهم لم تنزل في عتاب النبي وإنما نزلت لتشريع حد الحرابة، وهذا الحد تشريع رباني ليس فيه من القسوة شيء، ثم إن الإبل كانت إبل الصدقة ولم تكن إبل الرسول ولا ماله الخاص والراعي كان عاملا عليها ولم يكن الراعي الخاص لرسول الله حتى يقال إن النبي كان ينتقم لنفسه.

أولا. إن ما عرف من تسامح النبي وعفوه عند المقدرة لدال دلالة قاطعة على كمال خلقهﷺ:

إن العفو عند المقدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس، وسمو المقصد، وقد أدب القرآن الكريم النبي بهذا الخلق الكريم قال عز وجل: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (١٩٩)﴾ (الأعراف)، فتخلق بهذا الخلق في أقواله وأفعاله، ودعا إليه، وحث عليه بقوله، ولا يخفى معاملته لأهل مكة والطائف، ورؤساء الفتنة، وزعماء الشر لما دخل مكة المكرمة فاتحا مظفرا منصورا، فشمل عفوه البلاد والسادة والزعماء الذين عتوا في الأرض وأسرفوا في إيذائه واضطهاده، دخل رسول الله مكة، ولكن عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ومن جمعوا من الناس، أبوا إلا قتالا فهزموا وفروا، ثم استأمنوا فأمنوا، بل عفي عنهم، وأعطوا من غنائم هوازن تأليفا لقلوبهم.

وهذا صفوان بن أمية، العدو ابن العدو، يفر إلى جدة ليبحر إلى اليمن، فيأتي عمير بن وهب لرسول الله فيقول: "يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه قد خرج هاربا منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه، قال: هو آمن، قال: يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمنك، فأعطاه الرسول عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر، فقال يا صفوان فداك أبي وأمي! الله الله في نفسك أن تهلكها! فهذا أمان رسول الله قد جئتك به، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذاك وأكرم، فرجع معه حتى قدم به على رسول الله فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟ قال صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشهر".[٢]

ولم يكن الرسول ليقصر رحمته وبره، الذي هو صورة صادقة لنفسه الكريمة على الناطقين من بني الإنسان، فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره، وحفزته لكفاح موفق في سبيل الرفق بالحيوان، فكان العرب يقتطعون من حيواناتهم وهي حية، فيشوون ويطعمون، فحرم ذلك، وكان وشم الحيوان ولا يزال ضرورة لإثبات الملكية في البادية، فنهى عن ذلك الأذى، وخفضه باختيار أقل الأثر في أقل الأعضاء إحساسا، وكان العرب يتخذون من دوابهم أهدافا للرماية، فنهى عن ذلك وعن قطع ذيول الخيل، ومر مرة بناقة مربوطة جائعة فحل وثاقها، وأطلقها، وأوصى الناس أن يخشوا الله في

---

(١) -سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٢) -محمد. صلى الله عليه وسلم. الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٥٩.

البهائم([1])، ومن الأمثلة التي ضربها في ذلك: رأى رجلا أضجع شاة، فوضع رجله على عنقها، وهو يحد شفرته، فقال له النبي: "ويلك، أردت أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها"[٢].

وكان يرغب أصحابه في الرحمة بالحيوان، إذ يقول: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها، فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله عز وجل له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر»[٣]. وقال أيضا: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» [٤]

وهذه رحمته يفيض بها قلبه الكبير على عصفور صغير، قال عبد الرحمن بن عبد الله: «كنا مع رسول الله في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش فجاء النبي قال: "من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها».[٥] وقال لعائشة حين قست على بعير ركبته: «من يحرم الرفق يحرم الخير»[٦].وكما كان النبي رحيما بالحيوان، كان رحيما بالجماد، فلما بني له المنبر ليقيم الخطبة عليه بكى الجذع الذي كان يقف النبي ويخطب عليه؛ لفراق النبي، فحن لهذا الجذع وتأسى عليه. ولكن ليس معنى كون النبي رحيما أن يتساهل في حقوق العباد؛ فيعفو عن الظالمين والمجرمين؛ لأن الرحمة تبقى صفة حسنة ما وضعت موضعها، أما إذا لم توضع موضعها، واستعملت استعمالا غير صحيح، فإنها تنقلب إلى عنصر تخريب.

فمع ما وصفناه به من الرحمة وجدناه يتصرف بمنتهى الحزم مع العرينيين (الذين سرقوا الإبل وقتلوا الراعي)؛ لأن الحكمة تقتضي أن يتصرف هذا التصرف، ونحن لا نشك في أن قلب رسول الله كان يعتصر ألما، ويود أن لا يكون قد فعل معهم ما فعل، ولكن الرحمة لا تكون رحمة مستحسنة إلا إذا كانت بناءة، أما إذا أدت إلى الدمار والخراب كما حدث من هؤلاء المجرمين، فإن الرحمة في غير هذا الموطن أولى، ومن ثم فلم يكن انتقام النبي من هؤلاء المجرمين لحقد عليهم في صدره ، ولكن تطهيرا للمجتمع ورحمة بآلاف الأنفس التي يمكن أن تتعرض لمثل هذا الاعتداء.

ثانيا. لم تنزل آية المائدة لعتاب النبيﷺ وإنما لتشريع حد الحرابة:

إن آية: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٣)﴾ لم تنزل لعتاب النبي وإنما نزلت لتشريع حد الحرابة، **والحرابة:** هي قطع الطريق أو هي السرقة الكبرى، وإطلاق السرقة على قطع الطريق مجاز لا حقيقة لأن السرقة هي أخذ المال خفية وفي قطع الطريق يؤخذ المال مجاهرة، ولكن في خلسة، حيث يختفي القاطع عن الإمام؛ ولذا لا تطلق السرقة على قطع الطريق إلا بقيود، فيقال: السرقة الكبرى، ولو قيل: السرقة فقط لم يفهم منها قطع الطريق[٧]، وهذه الآية: اختلف الناس في سبب نزولها، والذي عليه الجمهور أن هذه الآية نزلت في العرينيين.

روي عن أنس بن مالك «أن رهطا من عكل–أو قال: عرينة–قدموا المدينة، فأمر لهم النبي بلقاح وأمرهم أن يخرجوا فيشربوا من أبوالها وألبانها، فشربوا حتى إذا برئوا قتلوا الراعي واستاقوا النعم، فبلغ النبي غدوة، فبعث الطلب في إثرهم، فما

---

(١) –بطل الأبطال، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٦١، ٦٢ بتصرف.

(٢) –صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٨٦٠٨)، والحاكم (٧٥٧٠)، وصححه الألباني دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعجي ص٨٤.

(٣) –الثرى: التراب. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء (٢٢٣٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، (٥٩٩٦)، واللفظ له.

(٤) –الخشاش: حشرات الأرض. أخرجه البخاري (٣١٤٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإسلام، باب تحريم قتل الهرة (٥٩٩٢)، واللفظ للبخاري.

(٥) –الحمرة: طائر كالعصفور. تعرش: ترفرف. صحيح: أخرجه أبو دواد في سننه(٥٢٧٠)، والطبراني في المعجم الكبير(١٠٣٨٥)، وصححه الألباني في السلسلة (٢٥)

(٦) –أخرجه مسلم في صحيحه(٦٧٦٤). بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٦٢

(٧) –التشريع الجنائي في الإسلام، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٢، ط٧، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٦٣٨ بتصرف يسير.

ارتفع النهار حتى جيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون»[١].في رواية: فبعث رسول الله في طلبهم قافة (متتبعي الأثر) فأتي بهم، فأنزل تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض (٣٣)﴾ (المائدة)، وقد حكى أهل السير: أنهم قطعوا يدي الراعي ورجليه، وغرزوا الشوك في عينيه حتى مات، وأدخل المدينة ميتا، وكان اسمه يسار، وكان نوبيا، وكان هذا الفعل من المرتدين سنة ست من الهجرة، قال أبو قلابة: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله[٢]، والآية نزلت لتجعل لأمثال هؤلاء حدا من حدود الإسلام هو الحرابة، وليس القصاص فهي نزلت بتشريع جديد، وليس لنهي الرسول عن القسوة[٣]. وبذلك نجد أن هذه الآية لم تنزل لنهي النبي عن القسوة كما يدعون، وإنما نزلت لتشريع حد من الحدود، وهو حد الحرابة، وهذا الحد ليس فيه من القسوة شيء، وإنما هو من قبيل: "الجزاء من جنس العمل".

ثم إن الإبل التي جاءت في القصة التي استدل بها هؤلاء المشككون لم تكن خاصة بالنبي ولكنها كانت إبل صدقة، وإذا رجعنا إلى كتب أسباب النزول، وإلى صحاح السنة النبوية، وإلى تفاسير القرآن الكريم اكتشفنا أن تلك الإبل كانت إبل الصدقة، ولم تكن إبل الرسول ولا ماله الخاص، والراعي كان عاملا على إبل الصدقة، ولم يكن الراعي الخاص لرسول الله وهؤلاء الذين عاقبهم الرسول هذا العقاب، كانوا قد ارتكبوا عدة جرائم بشعة، فهم استاقوا الإبل، وارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي النوبي يسار ومثلوا به عندما قطعوا يديه ورجليه وغرزوا الشوك في عينيه حتى مات، فنحن أمام جريمة حرابة: " فقد قتلوا النفس وحاربوا الله ورسوله فالجريمة ليست سرقة في خفاء وإنما هي حرابة استاقوا فيها الإبل واستخدموا السلاح في القتل والتمثيل مع الكفر والردة، والمحاربة لله ورسوله ولذلك كان حكم رسول الله فيهم هو القصاص" [٤]

كما أن القصة التي يستند إليها أصحاب هذا الافتراء–قصة قطاع الطرق الذين قطع النبي أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم–إن دلت على شيء، فإنما تدل على حرصه على المسلمين، وحمايته لحقوقهم والاقتصاص لهم، ولقد فعل ذلك حتى يعلم الجميع أن المسلمين قوة، وحتى يهاب كل من تسول له نفسه أن يؤذي مسلما؛ لأن الإمام الذي يخاف على رعيته قائم دونهم، ويستطيع أن يأخذ على يديه، فأين إذا الانتقام للنفس الذي يدعونه؟! إنه أخذ بحق الضعيف، ونصرة للمظلوم، وانتصار من الظالم، وتطبيق لمبدأ "الجزاء من جنس العمل"، ثم إن هؤلاء–الذين نزلت فيهم آية الحرابة–يستحقون ذاك المصير والعقاب الذي حل بهم، فهل هذا هو جزاء ما فعله معهم النبي صلى الله عليه وسلم؟ وإنقاذه إياهم من المحن والهلاك، ألم يكن من الأولى بهم أن يشكروا ولا يكفروا، وأن يردوا الجميل؟ كلا، لم يفعلوا وإنما بادروا بالسوء، فكان العقاب الرادع والعادل من الله عز وجل.

الخلاصة: لقد أدب القرآن الكريم النبي بخلق العفو، والرحمة، والتسامح، ونبي شملت رحمته الحيوانات والجمادات، حري به أن يكون ببني البشر أرحم، ولكن رحمته كانت رحمة بناءة؛ لا تضيع الحقوق ولا تطمع الطغاة. إن آية المائدة لم تنزل في عتاب وإنما نزلت لتشريع حد الحرابة، والحرابة اتفاق طائفة من المجرمين على الخروج على الجماعة، بارتكاب مفاسد من أنواع الاعتداء المختلفة أو اغتصاب أموال، وهذا ما فعله العرينيون فكان الجزاء من جنس العمل ثم إن الإبل التي سرقها هؤلاء كانت إبل الصدقة، ولم تكن ملكا خاصا بالرسول حتى يقال أن الرسول كان ينتقم لنفسه، وكذلك الراعي كان راعي إبل الصدقة ولم يكن راعيا خاصا له، ولكن فعل الرسول بالقوم ما فعل لحماية المجتمع.

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، (٦٤٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، (٤٤٤٦)، واللفظ للبخاري.
(٢) –الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٦، ص ١٤٨ بتصرف يسير.
(٣) –سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ٥٤.
(٤) –سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٤.

البحث العاشر: الزعم أن النبي ﷺ كان مؤذيا لمن حوله مولعا بسفك الدماء [١]

يزعم بعض المشككين أن النبي لم يسلم من خالطه من أذاه، إذ كان مولعا بسفك دماء الناس بحق أو بغير حق، ويدعون أنه قتل بيده، ويمثلون لذلك بقتله أبي بن خلف في غزوة أحد بحربته، ويتساءلون: أهكذا تكون أخلاق الأنبياء؟ ويرمون من وراء ذلك إلى اتهامه بسفك دماء الناس دون وجه حق، وتغليب جانب الشر فيه على جانب الخير.

أولا. لقد شملت رحمة النبي كل من حوله وما حوله:

لقد كان النبي برا رحيما، وقد وسعت رحمته كل من حوله، يقول صاحب كتاب "بطل الأبطال": إن جانبا عظيما من جوانب شخصية محمد هو جانب رحمته وبره، ذاك الجانب الذي لا يدانيه فيه أحد، وهو صورة لنفسه الكريمة في أيام فقره وغناه وضعفه وقوته فقد كان البر إمامه والرحمة محيطة به وهو القائل: «إن البر يهدي إلى الجنة»[٢] «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٣] «ولا يرحم الله من لا يرحم الناس»[٤]«ولا تنزع الرحمة إلا من شقي»[٥] وقد وصفه القرآن بهذه الصفة، قال عز وجل: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم (١٢٨)} (التوبة)، وكانت رحمته تسع الناس جميعا، وكان بره يصل إلى المؤمنين والمشركين، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس إلى قلبه الكبير، وعطفه الشامل، وبلغ حبه الفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حيا وأن يحشر معهم ميتا روت عائشة أنه كان يقول: «اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين»[٦].

وإذا ما استأذنا في الدخول إلى بيت النبي لنسأل عنه زوجاته وهن أعرف الناس به، كان الجواب من السيدة عائشة «كان خلقه القرآن» [٧] أو كان قرآنا يمشي على الأرض فأخلاقه كاملة ككمال القرآن، فهل يطعنون في القرآن وتمثيله لأخلاق المسلم؟! أم في تمثيل النبي تلك الأخلاق خير تمثيل؟! وهو الذي ما نهر أحدا طول حياته، لا خادمه، ولا زوجته، ولا أحدا من أتباعه؟! حتى أعداؤه، الذين آذوه إيذاء بالغ الشدة، كان يقابل إيذاءهم بالعفو عنهم، والدعاء لهم، ومع هذا كله كان يتهم نفسه بالتقصير ويدعو الله أن يرحم كل من صدرت منه إساءة إليه بدون قصد منه أو علم.

لقد عمل محمد بما آتاه الله، وما أودع فطرته من الرحمة، فاجتهد لرفع شأن الفقير وإكرامه، والأخذ بيد الضعيف، وأرسل بره في هذه الطبقة، حتى قلب نظام المجتمع الذي ظهر فيه في سنين قليلة، وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد، كما كان يقول: «ابغوني ضعفاءكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».[٨]وكان يسره أن يجتمعوا إليه، وطالما سخرت قريش منه لحفاوته بالمساكين، وذهابه بهم إلى الحرم، فقالوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ وكانت رحمته وبره بالمساكين تمتد إلى ما بعد الموت، جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ذكر ذات يوم رجلا أسود، فقال: "ما فعل ذلك الإنسان"؟ قالوا: مات يا رسول الله، قال: "أفلا آذنتموني"؟ فقالوا: إنه كان كذا وكذا قصته، فحقروا من شأنه، قال: فدلوني على قبره، فأتى قبره، فصلى عليه»[٩].

وكان ﷺيجاهد لتحرير العبيد، ولرفع قيمتهم، فلم يدخر مالا، ولا سلطانا ولا دعوة في سبيلهم، وكانت نفسه تفيض بالرحمة عليهم والبر بهم، وأظهر مثل ما كان منه مع مملوكه زيد بن حارثة، الذي خير بين سيده محمد ووالده،

---

(١) –أخطاء القرآن، موقع الكلمة.

(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٥٧٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٦٨٠٣)

(٣) –صحيح: أخرجه الترمذي في سننه(١٩٢٤)، والبيهقي في سننه الكبرى، (١٧٦٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢٥).

(٤) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، (الإسراء: ١١٠) (٦٩٤١)، ومسلم في صحيحه، (٦١٧٢)

(٥) –حسن: أخرجه أحمد في مسنده(٧٩٨٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٧٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٦٧).

(٦) –حسن: أخرجه عبد بن حميد في مسنده(١٠٠٢)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد،(٤١٢٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٨)

(٧) –صحيح: أخرجه أحمد في مسنده(٢٥٣٤١)، والبخاري في الأدب المفرد(٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١).

(٨) .ابغوني ضعفاءكم: اطلبوا رضاي بتقريكم إليهم.أخرجه أحمد في مسنده، (٢١٧٧٩)، وأبو داود في سننه، (٢٥٩٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٧٩)

(٩) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن (١٢٧٢)، وفي موضع آخر.

فاختار محمدا في الوقت الذي كان لا حول له فيه ولا قوة، بل كان موضع أذى قريش وسخريتها، وهو الذي جعل معتوقه زيدا هذا، القائد الأعلى للمهاجرين والأنصار حين وجههم لغزو الروم، فاستشهد في وقعة مؤتة، ولما استأنف النبي غزو الروم بعد الفتح أمر شابا ابن رقيق، هو أسامة بن زيد هذا، وهو حدث في العشرين، ومشى أكابر الصحابة وأشراف قريش والنبي في موكبه. أرأيتم إذن كيف رفع برحمته وبره شأن الأرقاء المستعبدين؟

وكان بارا بالخدم والعمال من ذلك ما يأتي:

روى أبو هريرة أن النبي قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقمتين».[(١)]وقال معاوية بن سويد: «كنا بني مقرن على عهد رسول الله ليس لنا إلا خادم واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبي فقال "أعتقوها"، فقيل: ليس لهم خادم غيرها، قال: فليستخدموها، فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها» [(٢)]. وعن أبي مسعود البدري قال: «كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي "اعلم أبا مسعود"، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله فإذا هو يقول: "اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود"، قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»[(٣)]، وبلغ من رحمة محمد ﷺأنه كان لا يطيق أحدا يقول: عبدي أو أمتي، فأمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك، وأن يقولوا: فتاي وفتاتي، وقد كان لهذه التربية أحسن الأثر في تحرير الأرقاء، ونشر المساواة، وتغليب روح الأخوة على ما كان من العصبية، والغرور، والتفاخر، يقول المعرور بن سويد: «رأيت أبا ذر وعليه حلة، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله فعيره بأمه، قال: فأتى الرجل النبي فذكر ذلك له، فقال النبي: إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله عز وجل تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه»[(٤)]، وقال أنس: «خدمت رسول الله عشر سنين والله ما قال لي أفا قط».[(٥)]كان يخالط المساكين والخدم والعبيد، ويحادثهم ويجيب دعوتهم، ويعود مرضاهم، ويمشي في جنائزهم، ويصلي عليهم، وقد جعلت الشريعة المحمدية نصيبا في بيت المال لتحرير الأرقاء، وكان يعطي العبد بعد تحريره شيئا يعينه على الكسب.

رحمته بالأطفال: هذه الرحمة كانت تظهر أنسا وبشرا في وجهه إذا رأى الطفل أو لقي الصبي فقد كان يأخذ أطفال أصحابه بين ذراعيه ويطرب لذلك وكان إذا مر بالصبية يقرئهم السلام، وحدث أبو قتادة قال: «خرج علينا النبي وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها» [(٦)] وقال أسامة بن زيد: «كان رسول الله يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: اللهم ارحمهما فإني أرحمهما» [(٧)]. وقد حدث أن عجب بعض الأعراب من رسول الله وهو يقبل أولاده وأولاد أصحابه، «فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»[(٨)]. وهذه الرحمة في نفس محمدﷺ كما كانت تبدو بشرا وأنسا، كانت تفيض دمعا وأسى، وكان جفاة القوم يستعظمون هذه عليه، فكان يبين لهم أنها رحمة، وأنه لا عيب فيها لم يكن رسول الله ليقصر رحمته وبره، الذي هو صورة صادقة لنفسه الكريمة، على الناطقين من بني الإنسان،

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٢٤١٨)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، (٤٤٠٧) بنحوه.
(٢) –أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (٤٣٩١)
(٣) –أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (٤٣٩٦)
(٤) –أخرجه البخاري في صحيحه، (٣٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، (٤٤٠٥)، واللفظ له.
(٥) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، (٥٦٩١)، مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله أحسن الناس خلقا (٦١٥١)، واللفظ له.
(٦) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب (٥٦٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (١٢٤١)، واللفظ للبخاري.
(٧) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ (٥٦٥٧)
(٨) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب(٥٦٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، (٦١٦٩)، واللفظ للبخاري.

فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره، وحفزته لكفاح موفق في سبيل الرفق بالحيوان، فكم كان للعرب من عادات مرذولة أزالها، وأخذ النبي يرغبهم في الرفق به، ويرهبهم من القسوة عليه.

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالأعداء:

هذه الرحمة بالكبير والصغير لم تكن خاصة بأتباعه المؤمنين، بل كانت شاملة لأعدائه المشركين والمخالفين من أهل الملل الأخرى، فقد رفع إليه بعد إحدى الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف، فحزن حزنا شديدا، وعن جابر بن عبد الله قال: «مرت بنا جنازة، فقام لها النبي وقمنا، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي، فقال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا» (١)

تلك هي الرحمة التي لا تعرف التخصيص بالدين أو الوطن، ولا فرق عندها بين الرفق بالإنسان والحيوان، ولما مات عبد الله بن أبي بن سلول–وكان زعيم المنافقين في المدينة، وهو الذي رجع بمن تبعه من الطريق يوم أحد، فخذل النبي في أحرج أوقاته، وله مواقف مشهورة كان فيها شرا على الرسول والمسلمين طلب ابنه من النبي قميصه ليكفنه فيه تطهيرا له، فأعطاه قميصه كفنا لزعيم المنافقين، أرأيت أبر وأكرم من هذا الصنيع؟ ثم مشى النبي إلى قبره، فوقف يريد الصلاة عليه، فوثب إليه عمر بن الخطاب وقال: «يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي، وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟! أعدد عليه قوله، فتبسم الرسول وقال: "أخر عني يا عمر"، قال عمر: فلما أكثرت عليه قال: "إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها"، فصلى عليه الرسول ثم انصرف» (٢) وذلك إشارة إلى قوله عز وجل في المنافقين: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم}(التوبة: ٨٠)، ففي الخيار بين أن يستغفر وألا يستغفر، نزعت به طبيعته الرحيمة إلى الاستغفار لأعدائه، بل قال لعمر: "لو علمت أني لو زدت في الاستغفار على السبعين غفر لهم، لفعلت أكثر من سبعين مرة".

تلك هي الرحمة التي وسعت أعداءه وأصدقاءه، والناس جميعا، وسمع مرة أعرابيا يصلي خلفه، يقول: «اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا، فلما سلم النبي قال للأعرابي: "لقد حجرت واسعا» (٣). فمن هذا وغيره مما سقناه من الأمثلة على امتلاء نفسه بالرحمة يتضح أنه ﷺ لم يكن نتاجا للبيئة التي عاش فيها، وإنما كان الرحمة الشاملة في وسط الجفوة والعصبية والأثرة، تلك الرحمة التي لا حد لها هي التي جعلته يدعو لأعدائه، وقد سئل الدعاء عليهم في أحد وهو جريح، وعمه حمزة ممثل به، وأنصاره بين القتل والجرح والتشريد، وهي التي جعلته يدعو لثقيف يوم الطائف، وقد امتنعت عليه. وتلك الرحمة هي التي جعلته يفتح لتجارة قريش طريق اليمامة، وطريق الشام، وقد سألوه صلة الرحم، وشكوا جوع أهليهم، وهم الذين أخرجوه من داره وحصروه في المدينة.

فرحمته وبره وسعتا العدو والصديق، والقوي والضعيف، والحر والعبد، والحيوان والإنسان، وفاض بها قلبه الكبير، فكانت في فمه بشرا، وفي عينه دمعا، وفي يده جودا. تلك الرحمة التي وسعت الجميع هي أبرز صفات محمد وهي التي يتسابق الأبطال إليها، فيردون عن هذا المدى، ويبقى رسول الله المثل الكامل، والقدوة العظمى، وحقا كان كما قال عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة» (٤) وكما قال القرآن الكريم له: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١٠٧)} (الأنبياء) (٥).

ثانيا. إن المتصفح لسيرة النبي يجده أحلم الناس، وأرغبهم في العفو عند المقدرة، وهو في ذلك صابر على من آذوه، كاره لإراقة الدماء:

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٢٢٦١.(

(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين (١٣٠٠.(

(٣) –حجر: ضيق وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٤.(

(٤) –صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، (٣١٧٨٢)، والدارمي في سننه، المقدمة، (١٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٠.(

(٥) –بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٥٩: ٦٥

لقد كان النبي يحبس نفسه عن الأذى، ويصبر على ما يشق ويكره، ولا يزيد مع أذى الجاهل عليه إلا صبرا وحلما، ولم يؤاخذ الذين كسروا رباعيته (مقدم الأسنان) بل دعا لهم وعفا عنهم، وكم عفا عن مثلهم، وتجاوز عما بدا من المنافقين في حقه قولا وفعلا، ولم يقابل من شتمه ولا من أراده بسوء، طولا وفضلا منه، وحسبك معاملته لأهل مكة حين الفتح فقد قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء! والكل يعلم ما فعل أهل مكة به صلى الله عليه وسلم، وحدث أنه لما كان المصطفى يقسم بعض الغنائم يوم خيبر قال له رجل: «يا محمد، اعدل، فقال له المصطفى: "ويلك، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل"، فقال عمر: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي» [(١)]. «وقسم رسول الله قسمة، فقال رجل هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي فاحمر وجهه وقال: رحم الله أخي موسى! قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». [(٢)]

ومن محاسن أخلاقه ضبط النفس والرشد والعفو عند المقدرة، ومن ذلك: ما روي عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن جابر بن عبد الله أخبره «أنه غزا مع رسول الله قبل نجد فلما قفل رسول الله قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه نزل رسول الله وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله تحت سمرة، فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله "إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس. ثم لم يعاقبه رسول الله» [(٣)]، ومن الأحداث المماثلة: أن يهودية هي زينب بنت الحارث بن سلام وضعت سما للنبي في شاة وقد اعترفت بذلك، فصفح عنها وعفا عنها بعد اعترافها لأنه كان لا ينتصر لنفسه، ثم قتلها قصاصا لمن مات من أصحابه بأكله من هذه الشاة، كبشر بن البراء الذي مرض من هذا السم حتى مات بعد سنة.

كذلك لم يؤاخذ النبي لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحره، وأعلم الله نبيه بالوحي، أو من طريق جبريل الذي أخبره بأنه سحره، وأبان حاله، فلم يعتب عليه، أي أعرض عن معاتبته، فضلا عن معاقبته، بل إنه قال لمن أشار عليه بقتل بعض من ارتكبوا منكرا من الأقوال والأفعال في حقه صلى الله عليه وسلم «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي» [(٤)]، إن رجلا بهذا العفو وذاك التسامح لا يمكن أن يكون أبدا سفاكا للدماء؟!!

وكان من حسن خلقه تربيته عند لقاء العدو: "فإنه كان يتذرع بالصبر، ويلتزم بالأناة، ولا يعاجل عدوه بالضرب حتى تظهر قوته، وكان يقول لجنوده لا تقاتلوهم حتى تدعوهم فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا، ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلأن يهدي الله على يديك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت"[(٥)]، وبهذا يظهر أن النبي لم يكن يبادر في إهدار الدماء، بل كان يدعو أعداءه إلى الحق حتى يبادروا هم، فإن بادروا فلا مناص من استعمال السيف، ومن حسن أخلاقه أنه كان متمسكا بالفضيلة وإن جافاها العدو، وكانت تصدر في صورة أقواله ومواقفه في الحروب.

فهو لا يقاتل إلا من حمل السيف فقط، ويأمر جنوده بالعفة التي لا يحدها حد، والعفة التي ترقى بصاحبها إلى درجة الملائكة، فلا يعرف الجندي المسلم الإسفاف أو التردي إلى حضيض الحيوانية، ولا يقبل أن يكون وحشا ضاريا، إنما يمارس الحرب هاديا مهديا، متأسيا بنبيه ورسوله الهادي إلى صراط مستقيم، حتى إذا مات ذهب إلى الله راضيا

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، (٢٤٩٦)، واللفظ له.
(٢) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، (٣٢٢٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، (٢٤٩٤)، واللفظ للبخاري.
(٣) – القائلة: وقت القيلولة .العضاه: كل شجر عظيم له شوك .السمرة: نوع من أنواع شجر الطلح .اخترط السيف: نزعه من غمده .أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٣٩٠٥، ٣٩٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، (٦٠٩٠)، واللفظ للبخاري.
(٤) –أخرجه البخاري في صحيحه(٣٤١٤)، ومسلم في صحيحه(٢٤٩٦)، شمائل المصطفىﷺ د. وهبة الزحيلي دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص١١٣، ١١٤
(٥) –الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح، مصر، ٢٠٠٥م، ص ٣٦٣.

مرضيا" [١] تلك أخلاقه التي لا ينكرها إلا جاحد أو حاقد، فالرسول كان أشد الناس حرصا على النفوس، وعلى عدم إراقة نقطة دم واحدة، وقد ظهر ذلك جليا يوم الفتح الأكبر فقد عفا عمن ظلموه وآذوه، وأخرجوه من بلده تاركا ماله وأهله، إلى أن نصره الله وأعزه بالفتح المبين، فلم يفعل الرسول الكريم ما فعله المشركون به وبأصحابه، بل «قال لهم: " {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (٩٢)} (يوسف[٢]. وقد ظهرت دلائل رحمته وحسن خلقه قبل ذلك يوم عفوه عن أسرى بدر، وقبوله رأي أبي بكر ورفضه رأي عمر بقتل الأسرى، ورضي النبي بالعفو، وعدم إراقة الدماء، وما ذلك إلا لكراهة النبي إراقة الدماء، تلك أخلاق النبي التي لا يكاد ينكرها منصف!

ثالثا. لم يقتل النبي أبي بن خلف الذي تهكم عليه وتوعده بالقتل إلا دفاعا عن نفسه صلى الله عليه وسلم

قد كان أبي بن خلف من مشركي قريش الذين آذوا النبي وتهكموا عليه، وتوعدوه بالقتل، ونذكر «أن أبي بن خلف ذهب إلى رسول الله بعظم بال قد أرم، فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم (فني)، ثم فته بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله، فقال له: "نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله، وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار».[٣] وقد نزل الله فيه قوله: {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون (٨٠) أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (٨١) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (٨٣)} (يس)، تلك كانت مجادلة أبي بن خلف للنبي ولم يكتف أبي بالمجادلة، والإعراض والسخرية، بل زاد على ذلك بتوعد النبي بالقتل.

قال ابن كثير: "عن عروة بن الزبير قال: «كان أبي بن خلف أخو بني جمح، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله فلما بلغت رسول الله حلفته قال: "بل أنا أقتله إن شاء الله»[٤] فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مقنعا، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ترقوة أبي ابن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها بالحربة، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك ، إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا أقتل أبيا"، ثم قال: والذي نفسي بيده، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون.. فمات إلى النار {فسحقا لأصحاب السعير (١١)} (الملك) [٥].

فتأمل صبر النبي وأناته في مواجهة هذا المشرك، فهو لا يعجل بقتله عسى أن ينثني، فلما أصر أبي على ملاحقته، ودنا منه تصدى له بنفسه، ولم يسمح لأحد من أصحابه أن يكفيه ذلك، رغم جراحاته، وذلك أن الرجل كان يقصده ويتهدده في مكة، ومحمد واثق من ربه، قوي برسالته، فهيهات أن يصيبه الجزع والوهن، وما أهون الكافر على الله!! إن ضربة واحدة من يده تكفيه ليتدحرج من كبريائه، وإن خدشا واحدا في جسده يحدث شرخا في أعماقه، وانظر إليه كيف يرتعد أمام يقينه بصدق محمد صلى الله عليه وسلم "قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله، لو بصق علي لقتلني"!! ما أعجب نفوس هؤلاء؟ لقد كانوا على يقين من صدق النبي ولكنه الجحود المتأصل في أعماقهم، ومع ذلك منعتهم تقاليدهم من الإيمان، ونحن إذا نظرنا إلى مقولة أبي بن خلف، لوجدنا أنها تؤكد حسن خلق النبي ويذكر الرواة عند هذه الحادثة قول

---

(١) –الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح، مصر، ٢٠٠٥م، ص ٣٦٦.
(٢) –حسن: أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب التفسير(١١٢٩٨)، والبيهقي في سننه الكبرى، (١٨٠٥٤)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٧٦)
(٣) –صحيح: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين(٢٥٠٥)، والحارث في مسنده، كتاب التفسير(٧٠٥)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٢٠١)
(٤) –صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٩٧٣١)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير(٣٢٦٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص.
(٥) –الترقوة: عظمة مشرفة بين النحر والعاتق والمحمداه، د. سيد بن حسين العفاني، دار العفاني، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٦٢، ٢٦٣.

النبي: «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله». [١] صلوات الله عليك يا رسول الله، كم كنت حريصا على عدم قتل أحد بيدك، بل تعطي الجميع فرصة للمراجعة والنجاة، وهذا أبي استأنيت به، وهو يهاجمك متبجحا حتى اختار لنفسه هذا المصير وذاك المصرع [٢].

رابعا. لم يكن النبي بدعا من الرسل حين قتل أبيّا دفاعا عن نفسه إذ قتل قبله سيدنا موسى قبطيا، وقتل سيدنا داود جالوت بمقلاعه:

عجيب أن يطعن في عفو النبي وحلمه، ويتهم بحبه لسفك الدماء، مع العلم أن مبدأ الدفاع عن النفس موجود في مواقف من سبقه من الأنبياء، ثم إن الدين–أي دين–لا يحرم القتل إذا كان دفاعا عن النفس، ما دام الأمر لا يتصل بهوى نفسي، وحقد فردي، غير أن هذا لا يجوز في مقام الأنبياء جميعا لأنهم معصومون من كل هذه النقائص والعيوب، وقد روت لنا كتب السيرة أن النبي كان أكثر الناس حلما وعفوا، وهذا يتضح كما أسلفنا من مواقف كثيرة ومتعددة في حياته فهل يعقل أن مثل هذا النبي الحليم يقتل جورا وظلما، وهو الذي كان يتنازل عن حقه حلما وترفعا منه صلى الله عليه وسلم؟ وهل يحق أن نصم من حقن الدماء بأنه مولع بسفك الدماء؟! ولا يبعد النبي فيما فعل عن سيدنا موسى حين قتل رجلا قبطيا، ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك في قوله عز وجل: {فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين (١٥)}(القصص).

وقد قتل أيضا سيدنا داود جالوت بيده بمقلاعه الذي كان معه، وقد حكى لنا القرآن هذه القصة في سورة البقرة، يقول الله عز وجل. {فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء} [البقرة:٢٥١]. فلما لم يستطع أحد مبارزة جالوت انبرى له داود ورماه بالمقلاع، فأصاب الحجر جبهته، وأسقطه إلى الأرض واعتلاه داود واخترط سيفه وقطع رأسه، وصار داود ملكا، ثم أتاه الله النبوة فصار ملكا نبيا [٣]، فالقتل إذا كان في صالح انتشار الدعوة، أو للدفاع عن حرمة الدين، أو للدفاع عن النفس فلا شيء فيه، حتى وإن كان من نبي أو رسول فللرسول أن يدافع عن نفسه أيضا كغيره من الناس؛ لأنه بشر يصيبه ما يصيب البشر، وإذا كان هذا الكافر قد توعده بالقتل في أكثر من موقف، فلماذا لا يقتله دفاعا عن نفسه؟!

الخلاصة: كانﷺ رحمة مهداة شملت كل من حوله وما حوله؛ فقد وسع بره وحسن خلقه الصغير والكبير، والقريب والبعيد والعدو والصديق، حتى الحيوان فكان رحمة مهداة للعالمين بحق. لقد كان النبي أحلم الناس، وأكثرهم عفوا عند المقدرة، وهذا من كمال أخلاقه، والأدلة على ذلك في كتب السيرة كثيرة، ويكفينا أن نشير إلى عفوه عن أسرى بدر وعدم قتلهم، وعفوه عن أهل مكة –الذين ناصبوه العداء –عند فتحها، وقوله لهم: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (٩٢)} (يوسف). إن النبي ما قتل أبي بن خلف إلا نتيجة لتهكمه عليه في مكة، وتهديده له بالقتل لو تمكن من ذلك، فهل اعتدى عليه النبي أم كان يدافع عن نفسه كغيره من البشر؟! لم يكن النبي بدعا من الرسل في هذا الشأن، خاصة فيما يتعلق بقتل الكفرة الذين يهددون حياتهم، وحياة دعوتهم، فقد سبقه إلى ذلك نبي الله موسى حين قتل القبطي، ثم استغفر لذنبه وتاب الله عليه، ونجد سيدنا داود قد قتل جالوت بمقلاعه، فلماذا لم ينكر أحد عليهما ذلك الأمر؟!

---

(١) –أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي. صلى الله عليه وسلم. من الجراح يوم أحد (٣٨٤٥)، ومسلم في صحيحه (٤٧٤٩)

(٢) –هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٢٥٢، ٢٥٣ بتصرف يسير.

(٣) –التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، ج٢، ص ٥٠٠.

الباب الثالث: دلائل النبوة، وفيه سبعة فصول

الفصل الأول: الأدلّة المنطقية والعقلية على نبوّة خاتم النّبيّين.

البحث الأول: الفرق بين الأنبياء ومدعي النّبوة، أنواع الأدلة التي تشهد لخاتم النبيين.

تمهيد: حول الأعمال والوصايا التي حث عليها محمد.

١-الأنبياء الكذبة، "من ثمارهم تعرفونهم"

٢-أسس منطقية للتفريق بين الرسل الصادقين والكاذبين وتتلخص ؟:

٣-أنواع الأدلة التي تشهد لصدق لخاتم النبيين

البحث الثاني: الأدلة المنطقية والعقلية في محاكمة نبوّة خاتم النّبيّين.

البحث الثالث: الفرصة الذهبية لك يا من لا تؤمن بنبوّة محمدﷺ؟!

وإليك صفقة ثانية لكنها ثقيلة!!.

البحث الأول: الفرق بين الأنبياء ومدعي النّبوة، وأنواع الأدلة التي تشهد لخاتم النبيين.

تمهيد: هل الأعمال الشاقة على النفس كالصيام وكظم الغيظ وغيرها التي حثّ محمد بن عبد الله الناس عليها يأمر بها مدّعٍ كاذب-ثم يوفق كل التوفيق ويؤيّد-أو صاحب عصابة يحب أن يجمع الناس حوله؟!

فقد أمرهم بالصدق وصلة الرحم وبر الوالدين واجتناب الربا والزنا وشرب الخمر، وأمر بغضّ البصر وحث على الصدقة وأن يتبسم الإنسان في وجه أخيه وأن يكظم الغيظ، ونهى عن التجسس والغيبة والنميمة والسخرية والاستهزاء والتنابز بالألقاب والهمز واللمز، وأوصى باليتيم والأرملة وحث على الرحمة بالحيوان وإطعامه وسقايته، وحث أمته على العفو عند المقدرة وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة بل بالإحسان، الخلاصة: أمرهم بالطيب من القول والفعل وبالتوحيد وترك الشرك والوثنية، {ويسالونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات} [المائدة:٤].

عن ابن مسعود قال: بعثنا رسول الله إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلا، فيهم وجعفر بن ابي طالب، فأتوا النجاشي ليحتموا بأرضه، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد، بهدية فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفرا من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنّا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قال: هم في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه فسلّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل قال: وما ذاك؟ قال: إن الله عز وجل بعث إلينا رسوله، وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة وقال: أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم...فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الاوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ...الخ.

قال: عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل؛ هو كلمة الله وروحه، ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ولم يفرضها ولد ، قال: فرفع عودا من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا – يعني العود– مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه و أوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما[1].

قد يقول قائل هذا الكلام صادر من رجل معجب بالنبي متعصب له يحاول أن يبرر موقفه ويريد أن يستدر عطف الملك الحبشي، فلنترك رجلا معروفا بعداوته الصريحة للإسلام يحدثنا عن رأيه في هذا القول ألا وهو السير **(وليم موير)** حيث يقول: "جاء محمد بدين يمتاز باليسر والإيجاز وكان له من التأثير القوي ما يدهش الألباب، ولم يحدث منذ عهد المسيحية الأولى التي نبهت العالم من رقاده وشنت حربا شعواء على الوثنية أن رأى العالم مثيلا لهذه اليقظة الروحية وهذا الإيمان الذي حمل المسلمين على بذل النفس والنفيس في سبيل دينهم طيّبة به نفوسهم ..كانت مكة والجزيرة العربية كلها غارقة في سبات روحي عميق منذ أقدم العصور ، ولم يكن تأثير المسيحية واليهودية والمذاهب الفلسفية في العرب إلا تأثيرا عابرا سطحيا كما صافح النسيم الماء يؤثر في السطح ولا يصل إلى القاع وكان العرب يتمرغون في حمأة الخرافات والقسوة والرذيلة وكان من عاداتهم الشائعة أن يرث أكبر الأبناء نساء أبيه فيما يرثه من ملكه ومنها وأد البنات خشية الإملاق والعار (كما كان الحال عند الهندوس) وكان دينهم قائما على عبادة لأوثان البغيضة، وكانت مكة قبل الهجرة قد تردت في هذه الهوة فما أعظم التغيير الذي طرأ عليها الآن خلال ثلاث عشرة سنة، ولم يمض عامان أو ثلاثة على هذه الهجرة حتى تألفت في المدينة بتأثير تلك الجاذبية العجيبة جماعة من الأخوة يفدون النبي بأرواحهم ولقد طالما دوت الدعوة اليهودية في آذان أهل المدينة، ولكنهم ما كادوا يسمعون صوت النبي العربي الذي حرك أوتار قلوبهم حتى هبوا من سباتهم وبدأوا فجأة صفحة جديدة في تاريخ حياتهم ...[2]، وقال: بعد أن ذكر طائفة من صفاته: وباختصار فإنه مهما ندرس

---

(١) –أخرجه الإمام أحمد في المسند (رقم:٤٣٨٦)، ابن هشام ٢٩٠/١، الطبري ٣٣٥/٢، البداية والنهاية ٦٦/٣

(٢) –كتاب: (المثل الأعلى في الأنبياء) ل خوجة كمال الدين، تقديم اللورد هدلي تعريب أمين الشـــريف ص ١٤٤–١٤٥، دار الفكر بيروت ط١٩٨٩/١، نقلا عن كتاب (حياة محمد) لوليم موير النسخة الإنجليزية.

حياة النبي محمد نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان في الماضي وفى الحاضر وفى المستقبل.

وقال شهادة الحقّ فيما لا يمكن تجاهله : "ومن صفات محمّد الجليلة الجديرة بالذّكر ، والحَرِيّة بالتّنويه ، الرّقة و الاحترام ، اللّذان كان يعامل بهما أصحابه ، حتّى أقلّهم شأناً ، فالسّماحة والتّواضع والرّأفة والرّقة تغلغلت في نفسه ، ورسخت محبّتُه عند كلّ من حوله" ، ووصف سماحة النّبيّ حين دخل مكّة فاتحا فقال: "على الرّغم من أنّ البلدة رحّبت بسلطانه ترحيباً بهيجاً ، فلم يكن جميعُ سكّانها قد اعتنقوا الدّين الجديد ، ولم يكونوا قد اعترفوا رسميّاً بصحّة دعواه بأنّه نبيّ ، ولعلّه عقد العزم على أن يسلُك ههنا ذلك النّهج الّذي سلكه في المدنية ، ويدعَ النّاس يدخلون في الإسلام ، شيئاً بعد شيء، من غير إكراه". وقال أيضا: "امتاز محمّد بوضوح كلامه، ويُسر دينه، وأنّه أتمّ من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التّاريخ مُصلحاً أيقظ النّفوس وأحي الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمّد "[١].

١-الأنبياء الكذبة، "من ثمارهم تعرفونهم"

يقول السيد المسيح: (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم .هل يجتنون في الشوك عنبا أو من الحسك تينًا، هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الرديئة، فتصنع أثمارا رديئة، لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا رديئة، ولا شجرة رديئة أن تصنع أثمارا جيدة، كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار، فإذًا من ثمارهم تعرفونهم ") متى(٧:١٥-٢٠) كلام بليغ من المسيح عليه السلام، يستشف منه أولا أنه ينبئ بنبي بعده ليس بكاذب، وسوف يأتي بعد عيسى كذلك أنبياء كذبة .وكأن أصحابه سألوه :وكيف نفرّق بين النبي الكاذب والنبي الصادق؟ فقال لهم :من ثمارهم تعرفونهم، من نتاج عمله ودعوته يظهر، فالنبي الصادق لابد أن تكون ثمرته طيبة كعمل صالح لأتباعه وغير ذلك، أما الأنبياء الكذبة بعد عيسى، فقد ذكر التاريخ العديد منهم، خاصة مع نهاية القرن الأول الميلادي.

من أهم مدعي النبوة بعد المسيح،" سيمون" الملقب بالساحر، إنه لم يدع النبوة فقط، بل ادعى الألوهية أيضا خرج هذا الرجل من بعض قرى" السامرة" بفلسطين في عهد القيصر كلوديوس، وأتى ببعض أعمال السحر العجيبة، وتابعه عدد كبير من أهل السامرة وغيرها ، بل لقد صنع له في روما تمثال أقيم فوق نهر" التيبر " نقش عليه" إلى سيمون الإله القدوس "ورغم الأعمال الخارقة لسيمون هذا، فقد كانت أخلاقه وضيعة؛ إذ كان يعاشر عاهرة تدعي" هلانة " سماها" الفكرة الأولى "التي انبثقت منه، وسجد أتباعه أمام أصنامه هو وعشيقته ويعبدونها بالبخور والذبائح، وهنالك اليهودي المصري مدعي النبوة الذي خرج في القرن الأول الميلادي، وقد اقتاد جيشا مكوّنا من٤٠٠٠ من اليهود لدخول القدس لكن الحامية الرومانية قضت عليهم.

ولقد تكلم العهد القديم نفسه عن العديد من الأشياء الكذبة مثل "أجابوس "وغيره، الذين شكلوا ظاهرة خطيرة بنهاية القرن الأول. ذكر التاريخ أيضا من أوائل مدعي النبوة" ميناندر خليفة سيمون الساحر الذي قال إنه العراف نفسه "المخلِّص "الذي أرسل من الدهور غير المنظورة لخلاص البشر وقد أتى بأعمال سحر عظيمة وأقنع أتباعه أنهم لن يموتوا[٢] أما أخطر النبوات الكاذبة بعد عيسى التي ذكرها التاريخ المسيحي، فهي نبوة" مونتانوس "الذي أعلن عام ١٥٦ م أن الروح القدس يتكلم إليه مباشرة، وأن أتباعه أداة توصيل للروح القدس" البراكليت[٣]"، وكان ينطق بعبارات مثل: هو

---

(١) -الشيخ رشيد رضا، الوحي المحمدي (ص ٩٦) دار الكتب العلمية بيروت ط٢٠٠٥/١ ، هامش الصفحة ، وليم موير : حياة محمد (نقلا عن كتاب مولانا محمد علي ، ص ٢٠٨). ، وليم موير : حياة محمد (نقلا عن كتاب "بطل الابطال" ، عبد الرحمن عزام ، ص ٤٤-٤٥).

(٢) -د .ت .فرانس .التفسير الحديث للكتاب المقدس – إنجيل متى .ص ١٥٥ و١٥٤.

(٣) The early christian doctrines" j n .s .kelly 5th editiain P. 59.

ذا الإنسان وكأنه قيثارة وأن الله ألعب على أوتارها ..انضمت إلى مونتانوس نبيتان أعلنتا نهاية العالم ورجوع المسيح السريع إلى" فريجيا (موطن مونتاس في تركيا الحالية) وأن أورشليم الجديدة سوف تنزل من السماء، وقد رحب الكثيرون بكل قوة بهذه الدعوة، لأن الانتظار) انتظار عودة المسيح (قد ضعف منذ نهاية القرن الأول ..وقد امتدت المونتانية حتى إلى الغرب، بل وتبعها العديد من الآباء الكبار مثل" ترتليان القرطاجي "وعاشت المونتانية حتى القرن الخامس رغم محاربة السابقة لها، ذلك لرفعها صوت النبوة في وجه السلطان الكهنوتي.وقد عاب المونتانية أخذها من بيئة مدينة" فريجيا "التي عبدت الإلهة" سيبيل "أخذت منها الرقصات المتوحشة وخصي الذات والاستحمام في دماء الثور الذي يقدم ذبيحة لها [١]"

هذه بعض النبوات الزائفة التي ظهرت بعد المسيح عيسى، ماذا كانت ثمراتها؟ نطبّق عليها معادلة قول المسيح: النبي الصادق له ثمرة طيبة، **يجمع بين تلك الدعوات أن ثمراتها جميعها خبيثة، كالدعوة للزنى والذبح للأصنام وادعاء الألوهية، كما أن هذه الدعوات ماتت ولم تعد لها أية ثمرة .بالرغم من وجود بعض الخوارق لأصحابها. أما النبي محمد فثمرته باقية ودعوته خالدة، وهي ثمرة الصدق والحق والفضيلة، فأمته هي الأمة الوحيدة التي توحد الله توحيدا خالصا، وهي الأمة الوحيدة التي تصلي لله خمس مرات في اليوم والليلة، وتصوم صوما كاملا شهرا كاملا في العام، وهي كذلك أقل الأمم في الانغماس في الزنى وشرب الخمر وسائر الرذائل، ولا يقدح في دعوته أن أمته اليوم تخلقت حضاريا، فتلك دورة الحضارات.**[٢]

٢–أسس منطقية وعقليّة للتفريق بين الرسل الصادقين والكاذبين؟:

١–بشارات الأديان السابقة بالنبي القادم، صفاته مكان خروجه، بما سيبعث، اسمه، نسبه، وغير ذلك مع العلم أنها من الأمور الضرورية لكنها غير كافية دون النظر لصفاته وأفعاله في الواقع.

٢–النظر في الرسالة نفسها: بمعنى قبل النظر في الإعجازات الرسالية النظر إلى المبادئ والأفكار التي دعوا إليها، من تمجيد للفضيلة، رسالة محكمة الأركان، سليمة المنطق، لا تناقض فيها بعكس أدعياء النبوة، فلو نظرت إلى ما جاء به القادياني على سبيل المثال من شطحات وغرائب وعجائب مبكيات مضحكات وتناقضات سافرات لاستخسرت الوقت الذي ضيعته في قراءتها.

٣–النظر إلى الكتاب الموحى به أي كتاب الرسالة وإلى إعجازات الرسالة، والأخبار الغيبية المستقبلية التي تحدث في زماننا، وإلى حكم التشريع ونجاحاته [٣].

٤–النظر في مآلات النصر والتمكين الرباني له، واختصاص السماء به وحمايته ونصره مقارنة مع المعادلات الأرضية الموجودة في زمنه. هذه أهم الأفكار التي يمكن بها أن نميز الأنبياء الكذبة من الصادقين مع العلم وجوب تكامل واجتماع الأفكار السابقة في الشخصية المدروسة، فإنه قد يوجد بند منها وقد تشتبه لكن بتواجدها كلها بل وأكثر من ذلك بكثير في شخصية محمد بن عبد الله كما سنرى يثير عند العقلاء الخيال والفكر للبحث في حقيقة هذه الإنسان ورسالته والكتاب الذي أرسل به.

٥–تأمل سيرة الداعي قبل الرسالة وبعدها، صفاته وتعامله مع البشر، هل هو محب للرياسة والملك والظهور والاستبانة وغيرها، أي الصفات الخُلقية فلا يعقل أن يكون الرجل بين قومه أربعين عاما محمود الصفات صدوق الحديث

---

(٣) –جون لوريمر" .تاريخ الكنيسة "جزء ١ ص ١٢٠ .دار الثقافة .

(٢) –الباحث هشام طلبة ، محمد في الترجوم والتلمود والتوراة (ظهور نصوص اختفت ألفي عام) ص ٢١٢– ٢١٦ لا يوجد بيانات تقديم د. علي جمعة

(٣) –عن بعض أندية ومواقع الدفاع عن نبوة رسول الله، مثل منتدى التوحيد ومنتدى كلمة سواء وغيرهما.

متواضعا بين الناس وفي الكلمة صادق الوعد، لا يحب رياسة ولا ظهورا ينقلب حاله بين عشية وضحاها إلى شخص يدعي النبوة كاذب على الله والناس خائنا متملصا منافقا، فهذا يستحيل عند العقلاء ، مثال: السياسي قبل دخوله غمار السياسة تجد عنده انتماءات فكرية وحزبية قبلها، فتجده منذ صغر محبا للتصدر خطيبا في الناس يشترك مع عدد من الحركات، مناضلا أيام طلبه للعلم سواء نقابيا أو حركيا، إلى أن يدخل للسياسة، وكل سياسي يصبو لمركز أو رياسة وملك، فتجد أهدافه واضحة فتقول هذا الرجل كان يهدف للمركز الفلاني طوال حياته . أما والحال أن النبي ﷺ كان راعيا أول حياته، ثم تاجرا ناجحا في حياته متصفا بكل الصفات المحمودة بشهادة كفار قريش، لا يعرف له خطابة ولا شعر ولا تصدر ولا نقض لمعتقدات قومه فينقلب حاله في يوم ويقول لأقربائه أن ملاكا فلانيا جاءه وقال له كذا وكذا فيشتري عداوة قومه ويشرّد ويحاصر ويسلبه الكفار كل ما يملك ويموت ﷺ وليس في رأس ماله إلا حمار ودرع مرهونة عند يهودي حتى يأكل عائلته من ثمن رهنها، مثل هذا لا يمكن إلا أن يكون نبيا مرسلا، وإلا ما الداعي إلى أن يخوض كل ما خاضه وكان الأسلم له أن يبقى في حياته تاجرا له مكانته بين قومه ويعيش حياة رغدة ؟!! أرجل طيب الخلق محمود الصفات سيفعل كل هذا من أجل دعوة كاذبة؟

على سبيل المثال مدعي النبوة قبل الإسلام وبعده، لن تجدهم خارجين عن كونهم كانوا قتلة أو لصوصا أو قطاع طرق، فهذا بولس كان من أشد الناس عداوة ومكرا وخبثا بين اليهود فادعى النبوة والصلاح، وذاك مسيلمة الكذاب منحل الأخلاق يتبع شهواته فادعى النبوة، وتلك سجاج امرأة لعوبة كذوبة بين العرب ادعتها، وتلك زهرة التونسية معروفة بأخلاقها السمجة واتباعها للفواحش ، وذاك القادياني الذي خان أمته من أجل الانجليز ومن عائلة معروفة بالسمر وخوارم المروءة وغيرهم، كلهم كانوا فصاروا، أما نبينا عليه السلام وأنبياء الله تعالى صلوات ربي وسلامه عليهم كلهم كانوا فظلوا، بل كانوا فصاروا أكثر أدبا وأحمد خلقا.

٦–الاستفادة الدنيوية: أي ماذا سيستفيد مدعي النبوة من دعوته تلك، كل الأدعياء كانوا يصبون إلى الملك والثراء الفاحش، يبيتون في أفخم المناطق وعلى أفضل الأسرة في حين أن النبي ﷺ كان يبيت على الحصير ويؤثر على جنبه لخشونته فقيل له ألا نأتيك بشيء يقيك منه فقال: ما لي والدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، وتكررت الواقعة فدخل عليه صحابي آخر فرآه فبكى لحاله فقال يا رسول الله كسرى ، وقيصر ينامون على الديباج والحرير ، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر بجنبك ، فقال : لا تبك ، فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة .. ودخلت امرأة على عائشة رضي الله عنها فرأت فراش رسول الله عباءة مثنية فبعثت إليّ بفراش حشوه صوف فدخل النبي فرآه فقال: رديه يا عائشة والله لو شئت أجرى الله معي جبال الذهب والفضة! والملوك كما أدعياء النبوة لا يأكلون إلا أفخم المأكولات وأروع الوصفات في حين أن نبينا لا توقد في بيته نار الطعام لثلاثة أيام في مناسبات مختلفة حتى أن ابنته كانت تأتيه وهي فقيرة كذلك بكسرة خبز لمعرفة أن والدها لم يذق الطعام لأيام. كل أدعياء النبوة ماتوا ولهم ثروات في حين أن النبي مات فقيرا لا يملك قوت يومه، بل كان الصحابة من الأغنياء يريدون صرف زكاة أموالهم له وهو لم يكن يقبلها لتحريم الله تعالى لنبيه أن يأكل منها، ومنهم من أراد التبرع بكل ماله له فيرفض عليه السلام، فهل مثل هذا مدع للنبوة؟ فبأي مصلحة ولأي شيء؟

من المنطق الرجل حين ادعاءه النبوة يعرف أن مصيره إلى النار لأنه سيضل خلقا كثيرا فيغتنم الفرصة فيبيع آخرته بدنياه يريد ان يعيش سنوات الرغد وطيب العيش والتمجيد في حين أن الأنبياء لم يكونوا طلاب دنيا، فلأي شيء سيدعي مثل هؤلاء النبوة؟ هل ليخلدوا أساميهم فكان الأجدر أن يدعوا الألوهية ليعبدوا في الأرض فيكون صيتهم أكبر

من صيت النبوة بل هم ما فتؤوا على دعوة الناس للإله العظيم وأنهم بشر مثلنا لا يستحقون الإطراء ويفخرون بعبوديتهم لله تعالى؟

٣-أنواع الأدلة التي تشهد لصدق لخاتم النبيين

إن بعض أفراد أمثال البراهين التي ستذكر، شهدت لأنبياء الله من قبل بالنبوة، وأقامت للناس أعلاماً على صدقهم في دعواهم الرسالة، فما ذكر من دلائل لموسى هنالك أضعاف أمثالها لمحمد بن عبدالله، بل هنالك تكامل بين الأدلة واجتماع لها لا مفر عند العقلاء من التزام نتائجها، وليس لنبي من الأنبياء من دلائل صدقه على دعواه النّبوّة كما لمحمد خاتم النبيين من دلائل في النوع والكمية والتكامل، فما من دليل لنبي سابق إلا هنالك أضعاف أمثاله لخاتم النبيين وبراهين أخرى بجانبه، أوليس الصادق الأمين في قومه، الذي ساق من الغيوب ما قارب الألف، مما أطلعه عليه ربه؟ والذي دعا لفضائل الأعمال والأخلاق، وكان مجسّدا للفضائل بأعماله، وهو المؤيد والمنصور على ضعف العدد والعدة، وكان ربه سندا وحاميا وحافظا له طيلة مدته على كثرة أعدائه، والذي أطلعه الله على الغيوب التي يقيم بها حجته وبرهانه؟! أوليس رسول الله ذاك الذي تفتح لدعواته أبواب السماء، ويجيب الله دعوته ولا يخيب رجاه؟! هل يجادل عاقل في نبوة من خرق الله له نواميس الكون ليؤكد صدقه في دعواه النبوة والرسالة؟ فكثر الله ببركتهﷺ قليل الطعام والشراب، وشق له القمر في كبد السماء، وشفى بنفثه وريقه من شاء! إنه النبي الذي بشر بمقدمه الأنبياء، فهو دعوة أبيه إبراهيم، وبشارة أخيه عيسى، هو النبي المتلألئ من فوق جبل فاران، والذي امتلأت الأرض من تسبيحه، فكان إسلام علماء أهل الكتاب صدى لذلك التسبيح {ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم **ومن عنده علم الكتاب**} (الرعد: ٤٣).

وقد يتمسك بعضهم بأحقية عيسى بلقب المسيح، حيث لقب به فنقول: إن تسمية عيسى بالمسيح تسمية اصطلاحية ليست خاصة به، حيث كان اليهود يسمون أنبياءهم وملوكهم، بل وملوك غيرهم بهذا الاسم، لعادتهم في مسح ملوكهم وأنبيائهم بالزيت، ثم اعتادوا تسميتهم بالمسيح، ولولم يمسحوا. فقد سمي كورش ملك فارس مسيحاً " يقول الرب لمسيحه لكورش " (إشعيا ٤٥/ ١) ، وكذا داود كانا مسيحاً "والصانع رحمة لمسيحه لداود" (المزمور ١٨/ ٥٠) ، وشاول الملك سمي مسيحاً، (صموئيل (١) ٢٦/ ٧ – ٩). وكذلك جاء في سفر المزامير "لا تمسوا مسحائي، ولا تسيئوا إلى أنبيائي" (المزمور ١٠٥/ ١٥)، فهذا اللقب الشريف ليس خاصاً بالمسيح عيسى ابن مريم، أما **المسيح المنتظر هو لقب يستحقه النبي القادم** لما يؤتيه الله من الملك والظفر والبركة والكتاب والشريعة التي فاقت بركة الممسوحين بالزيت من ملوك بني إسرائيل.

والمسيح المنتظر لقب للنبي القادم الذي كانت تنتظره بنو إسرائيل، لذا تساءل اليهود لما رأوا يوحنا المعمدان إن كان هو المسيح القادم " فاعترف ولم ينكر، وأقر: لست المسيح المنتظر ولا النبي!، "يقول عوض سمعان:" إن المتفحصين لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان ... كانوا ينتظرون المسيّا، لكن المسيّا بالنسبة إلى أفكارهم التي توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز –يقصد رئيس وحاكم وصاحب شريعة جديدة –يأتي من عند الله "[(١)].

إن التبصر بحقيقة النبي دفعت المنصفين من غير المؤمنين به للاعتراف له بسبقه وفضله وعظمة شخصه وروعة مبادئه، ونقتبس من بين عشرات الشهادات المنصفة قول غوته في كتابه "الديوان الشرقي للشاعر الغربي": "إننا أهل أوربا

(١) –النصرانية في الميزان، محمد عزت الطهطاوي، ص (٢٧ –٢٩). دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ص ٩.

بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثتُ في التاريخ عن مثل أعلى لهذه الإنسانية، فوجدته في النبي محمد، وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد" [١]، أما الأديب الروسي (ليو تولستوي) والذي حرمته الكنيسة بسبب آرائه: "أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وفتح لها طريق الرقي والمدينة"

أما الشاعر الفرنسي لامارتين في كتابه "السفر إلى الشرق" فيقول: "أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي، هذه كلها تدل على إيمان كامل مكّنه من إرساء أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق"([٢]).

ويقول الفيلسوف الإنجليزي جورج برناردشو: "لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية وأوربة بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي"[٣].

يقول المؤرخون: " نعرف ما فيه الكفاية عن حياة محمد، أما حياة المسيح فمجهولة تقريباً، وإنك لن تطمع أن تبحث عن حياته في الأناجيل"[٤]، "لا نعرف إلا شذرات عن حياة المسيح، أما في سيرة محمد فنعرف الشيء الكثير، ونجد التاريخ بدل الظلال والغموض"[٥]. "فإنه لولا أنه أتيحت لي فرصة إجراء بعض الاتصالات بالعالم الإسلامي لبقيت بلا شك ككثير من الغربيين متمسكاً بهذه العقيدة التي تعلمناها منذ عهد الطفولة، والذي نسمع أحياناً ما يدعى باسم (الدين المحمدي) كان ينظر إليه كظاهرة اجتماعية ثقافية، وبناء على هذا يستبعد تماماً كلُّ تلميح إلى ما يؤدي إلى التفكير في عدالته. [٦]

وأما المؤرخ ول ديورانت فيقول في موسوعته "قصة الحضارة": "إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا: إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم". وينبه الكونت كاتياني في كتابه "تاريخ الإسلام" إلى خصلتين من خصال النبي يحاول البعض طمسهما، وهما المحبة والسلام، فيقول: "أليس الرسول جديراً بأن تقدَّم للعالم سيرته حتى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته التي جاء بها لينشر في العالم الحب والسلام ". ويقول المستشرق هيل ": "لقد أخرج محمد للوجود أمة، ومكن لعبادة الله في الأرض، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى". [٧]

---

(١) –(الديوان الشرقي للشاعر الغربي) غوته ص(٣١) ويعتبر هذا الديوان أهم وصاياه للأجيال ، وقد قال فيه هيغل : "إن أغانيه ليست تلهية دون معنى .. إنها أغاني شاعر منتشٍ بالنسمة الشرقية، منشرح الصدر تماماً بالسعادة غير المحدودة" راجع ربحت محمدا وما خسرت المسيح ص ١١٦ (آفاق جديدة للدعوة) أنور الجندي (٨١)

(٢) –السفر إلى الشرق ص ٢٧٧ عن كتاب ربحت محمدا ولم أخسر المسيح د. عبد المعطي الدالاتي ص ١٢٣، ١١٦.

(٣) –عن (موسوعة مقدمات المناهج والعلوم) أنور الجندي (٨ / ٢١١) .

(٤) –(حياة الحقائق) غوستاف لوبون ص(٦٢) .مرجع سابق .

(٥) –(حياة محمد) المستشرق بودلي ص(٦) . مرجع سابق.

(٣) –القرآن الكريم والعلم العصري ص٢٤–٢٥. ترجمة فودي سوريا كمارا، دار المآثر، المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ

(٧) –قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص (١١٧ –١٢٦) الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ط١، ١٤١٢هـ.

لقد دعانا القرآن الكريم للتأمل في دلائل نبوة النبيﷺ في غير آية: {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد} [سبأ:٤٦] فشاهدنا اتفق محمد مع الرُّسل في الدعوة لوحدانية الله ومكارم الأخلاق فدعا إلى عبادة الله تعالى وحده وترْك عبادة ما سواه موافقًا في ذلك جميع الأنبياء، ومن قارن بين ما جاء به موسى وعيسى وبين ما جاء به محمدﷺ من العقيدة الصحيحة والشرائع المحكمة والعلوم النافعة عَلم أنها جميعًا تصدر من مُشكاة واحدة؛ هي مشكاة النبوة، كما أظهر معجزات وآيات بينات لا يُظهرها إلا أنبياء الله فسنّة الله تعالى أن يجري على أيدي الأنبياء السابقين خوارق العادات لتكون معجزة لهم، وبرهانًا على صدقهم، وسبيلاً لإقامة الحجة على أقوامهم.

وعليه فدلائل النبوة الشاهدةُ بنبوة محمّد متنوعةٌ وكثيرة وتتكامل مع بعضها لتصبح نبوّته من الوضوح بمكان لا يمكن للإنسان إلا التسليم لها، ويجمعها أقسام سبعة:

القسم الأول: ما يمكن تسميته بالأدلة المنطقية والعقلية المستنبطة من سيرة وحياة هذا الإنسان التي تدل بسياقها وتكاملها وعددها على أن هذا الشخص متميّز متفرّد ليس كالبشر العاديين فهو موصول بالسماء مؤيد بها أرسل لدلالة الحائرين على طريق السماء وقد أفضنا بها في البحث التالي، يقول توماس كارليل (كاتب ومؤرخ اسكتلندي): "ومما يبطل دعوى القائلين أن محمدًا لم يكن صادقًا في رسالته، أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة [مع خديجة] لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة، ولم يكن إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعًا وثار يريد أمرًا جليلاً وشأنًا عظيمًا" ويقول: "هل رأيتم قط، أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجبًا، إنه لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب! فهو إذًا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن. وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته، كذب ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيّلوه حقًا، ومحنة أن ينخدع الناس شعوبًا وأممًا بهذه الأضاليل" [(١)] .

ومن هذا الباب أُميَّة النبي محمد من دلائل نبوته بل دلالة الأميّة على أن القرآن الكريم مُوحَى إليه من الله أعظم دلالة، خاصة وأنه قد عاش بين قومه أعوامًا عديدة، ولو كان قارئًا كاتبًا لادَّعى المشركون أن ما جاء به من اختراعه ومن بنيات أفكاره، هو(أمي) لم يذهب إلى مدرسة، ولم يجلس إلى معلم، ولم يهاجر في طلب علم، قال تعالى {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون} [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى:{قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون}[يونس: ١٦]، تأملوا قوله تعالى {فقد لبثت فيكم عمرا من قبله}وهذا العمر الذي لبثه فيهم، والذي بلغ أربعين عاما!! لم يؤثر عنه في خلالها علم، ولا شعر، ولا بلاغة، ولا فصاحة! فلما بلغ الأربعين تحدث وتحدث كثيرا بالعلم النافع، والهدي القويم، والخير العميم! وتحول (الأمي) إلى معلم لا معلم مدرسة أو منطقة أو مدينة أو قبيلة أو دولة وليس معلم زمان واحد، أو جيل فريد! وإنما أصبح معلما للدنيا بأسرها، بكل ألوانها وأجناسها، معلما لكل العصور والدهور!

ثاني الأنواع والأقسام: أهم أنواع دلائل نبوته فهو أعظمُها وأدومُها، إنه القرآن الكريم معجزة الله التي لا تبليها السُنونُ ولا القرون، هذا الكتاب معجزة خالدة ودليل باهر بما أودعه الله من أنواع الإعجاز العلمي والتشريعي والبياني،

---

(١) –توماس كارليل في كتابه " الأبطال " ١٩٤٠ ص ٦٤، ٥١، ٤٣ على التسلسل. وعقد به فصلا رائعا عن النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة محمد السباعي، سلسلة من الشرق والغرب، عدد١١، الدار القومية، القاهرة.

وغيرِها من وجوه الإعجاز، يقول رسول اللهﷺ: (ما من الأنبياء من نبي، إلا قد أُعطي من الآيات، ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أَوحى اللهُ إليّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة[١]).

أبلغ كتاب أنزله الله على رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، وتحدَّى الفصحاء أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه؛ والإعجاز والتحدي في القرآن لا ينكرهما إلا مُكابر؛ فهو معجز في فصاحته وبلاغته وتأثيره ونظمه وأسلوبه، وإعجازة يتجدّد في كل عصر، وما تضمَّنه من الإخبار عن الماضي الغابر، والمستقبل البعيد، إضافة إلى ما فيه من الأحكام المحكمة، والآداب الرفيعة، والهدى والنور والبركة، كما أن الإعجاز العلمي الذي يكتشف اليوم فيه مطابقة أخبار الوحي للحقائق العلمية في الكون، والتي لم تكن معلومة من قبل من أبين البراهين على صدق نبوة نبينا محمد ، كما اكتشف العلم الحديث مؤخرًا أطوار الجنين في البطن، ووجود الحاجز المائي بين العذب والمالح في البحر إلى غير ذلك، ومن أعظم دلائل كونه من عند الله بقاؤه محفوظًا أكثر من أربعة عشر قرنا من التحريف والتغيير والتبديل، لم يُحرَّف ولم يُبدَّل، ولا يسأم منه قارئوه مهما كرروا تلاوته بل وحفظ بالقرآن العقيدة الصحيحة، وضمّنه أكمل شريعة، وبهذا يظهر لنا أن معجزة النبي محمد امتازت عن معجزات إخوانه من الأنبياء بعظمتها وعالميتها وخلودها واستمرارها، ولا يزال التحدي قائمًا للجميع، وسيبقى العجز حاصلًا للجميع إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

قال الطبيب الفرنسي موريس بوكاي[٢] : "لقد قمتُ بدراسة القرآن الكريم؛ وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة، باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث؛ فأدركت أنه لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث ، وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والاناجيل. اما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى ابعد من الكتاب الاول، اي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. واما بالنسبة للأناجيل ... فإننا نجد نص انجيل متي يناقض بشكل جلي انجيل لوقا " وان هذا الاخير يقدم لنا صراحة امراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الارض." ..."لقد اثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية. فلم اكن اعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تماماً للمعارف العلمية الحديثة، ذلك في نص كتب منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً في البداية لم يكن لي اي ايمان بالإسلام وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة."، ".. تناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية. لقد اذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن ان تدرك الا في النص الاصلي. اذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكنا لأي انسان في عصر محمد صلى الله عليه وسلم ان يكون عنها ادنى فكرة." ، " كيف يمكن لإنسان كان في بداية امره اميّاً أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور اي انسان في ذلك العصر ان يكونها، وذلك دون ان يكشف تصريحه عن اقل خطأ من هذه الوجهة؟ ".

ويقول فيليب حتّي [٣]: "ان الاسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم انه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن ان يقلّد. وهذا في اساسه، هو إعجاز القرآن، فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى" ... "إن إعجاز القرآن لم يحل دون ان يكون اثره ظاهراً على الادب العربي. اما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من

---

(١) –رواه البخاري ح (٤٩٨١)، ومسلم ح (١٥٢)

(٢) –من الترجمة العربية لكتابه القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم، (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، ص ١٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٠. وأصل الكتاب باللغة الفرنسية دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م.

(٣) –في كتابه الإسلام منهج حياة ص ٦٣، ٢٨٧–٢٨٨ تعريب د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢م.

التوراة والانجيل وجدنا ان الاثر الذي تركته على اللغة الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الاثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. ان القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من ان تتمزق لهجمات".

أما نسيم سوسة (يهودي عراقي أسلم) فيقول[١]: "يرجع ميلي إلى الاسلام حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى، فولعت به ولعاً شديداً، وكنت اطرب لتلاوة آياته"، "ورد في القرآن انه جاء مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب، ويستدل من ذلك ان التعاليم الالهية المقدسة الاصلية قد ضمن القرآن المحافظة عليها بما اوضحه من الحقيقة بإظهار الصحيح والدخيل في الكتب الرائجة في زمان نزوله، وعليه فيكون بهذا البيان والايضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ اياها من التلاعب"... "ان معجزة القرآن الكريم هي أكثر بروزاً في عصرنا الحالي، عصر النور والعلم، مما كانت عليه في الازمنة التي سادها الجهل والخمول"

ثالث الأنواع والأقسام: إخبار محمد بالماضي والمستقبل، فقد أخبر بحوادث جمّة من حوادث الدنيا مثل فتح الشام والعراق والقسطنطينية، كما أخبر عن الأمم الماضية وأحوالهم مع أنبيائهم ورسلهم، بدءًا من آدم عليه السلام، ومرورا بجميع الأنبياء والمرسلين كسيدنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كما تنبأ بحوادث مستقبلية؛ فحدثت كما تنبأ بها، ومنها أنه لما انتصر الفرس على الروم.

إن الغيوب التي أخبر عنها تحققتْ حال حياته أو بعد وفاته كما أخبر عنها، كإخباره أصحابه بفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق، وأن خيبر تفتح على يد علي في غد يومه، وأن الأمن يظهر حتى ترحل المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف ، وأنهم يقسمون كنوز ملك فارس وملك الروم، وأن فارس، نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعد هذا أبدا وأن بنات فارس تخدمهم ، أما الروم ذات قرون كلما هلك قرن خلف مكانه قرن أهل صخر وبحر وهيهات آخر الدهر، وأن الله زوى له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها، ولا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى، وأن الفتن لا تظهر ما دام عمر حيا ،وأن عثمان يقتل وهو يقرأ في المصحف، وأن أشقى الآخرين من يصبغ هذه من هذه يعني: لحية علي من دم رأسه، وأن عمارا تقتله الفئة الباغية، أي الوباء والطاعون يكون بعد فتح بيت المقدس، وكان هذا الوباء في خلافة عمر رضي الله عنه بعمواس من قرى بيت المقدس، وبها كان عسكره، وهو أول طاعون وقع في الإسلام مات به سبعون ألفاً في ثلاثة أيام. وأن الخلافة بعده في أمته ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا بعد ذلك ،وأن أمته يغزون في البحر كالملوك على الأسرة، ، وأن فاطمة رضي الله عنها أول أهله لحوقا به، فماتت رضي الله عنها بعد ستة أشهر من وفاته، وقال عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين» ووقع كما أخبر، فأصلح الله به بين أتباعه وأهل الشام ، وأن أبا ذر، يعيش وحيدا، ويموت وحيدا ، وأن أسرع أزواجه لوحقا به أطولهن يدا، فكانت زينب بنت جحش رضي الله عنها أسرعهن لحوقا به لطول يدها بالصدقة، وأن سراقة بن جعشم سيلبس سواري كسرى، وقال لخالد حين وجهه لأكيدر: إنك تجده بصيد البقر وكان كما قال ، وأن الحسين بن علي يقتل بالطف على شط نهر الفرات [٢]..ووالخ.

رابع الأنواع والأقسام: الدلائل المعنوية، فقد انتصر مع ضعفه وفقره وقلة أعوانه وأنصاره، مخالفاً لجميع أهل الأرض آحادهم وأوساطهم وسلاطينهم وجبابرتهم، فضلل آراءهم وسفه أحلامهم وأبطل مللهم وهدم دولهم، وظهر دينه على الأديان في مدة قليلة شرقاً وغرباً، وزاد على مر العصور والأزمان، ولم يقدر الأعداء مع كثرة عددهم وعددهم وشدة شوكتهم وشكيمتهم، وفرط تعصبهم وحميتهم وبذل غاية جهدهم في إطفاء نور دينه وطمس آثار مذهبه.

---

(١) –في كتابه في طريقي إلى الإسلام ص ٥١/١، ١٨٢/١–١٨٣، ١٨٥/١ ج١المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٣٦م، الجزء الثاني، مطبعة الغرى، النجف ١٩٨٣م.
(٢) –اظهار الحق للهندي (٤ /١٠٠٢ وما بعدها) ومناظرة بين الاسلام والنصرانية ٣٢٢ الرياض الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية ط٢ ١٩٩٢

كذلك استجابة الله دعاءه، كدعاء النبي على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه، فلم تبق له باقية وو، وعصمة الله له من القتل، وانتشارِ رسالته عليه الصلاة والسلام، فهذا النوع من الدلائل يدل على تأييد الله له ومعيتِه لشخصه ثم لدعوته ودينه، ولا يؤيد الله دعيّاً يفتري عليه الكذب بمثل هذا، فهل يكون ذلك إلا بعون إلهي وتأييد سماوي.

إن انتصاره على الأمم التي حاربته وتأييد الله له على قلة من معه آية من آيات النبوة؛ إذ يستحيل أن يدَّعي شخص أنه مرسل من الله وهو كاذب ثم يمده الله بالنصر والتمكين، وغلبة الأعداء، وانتشار الدعوة، وكثرة الأتباع، فإن هذا لا يتحقق إلا على يد نبي صادق، كما اتسم النبي محمدﷺ بمكارم وحسن الأخلاق وأهمها الصدق والأمانة وانتفاء الغرض الشخصي طيلة حياته حتى مماته انظروا التواتر الذي نُقِلت به نُبوته ومُعجِزاته وأميته ، فمن تأمل أحوال الأنبياء ودرس تاريخهم ؛ علم علمًا يقينيًّا أنه ما من طريق ثبتت به نبوة نبي من الأنبياء إلا وثبتت نبوة محمد ﷺ بهذا الطريق من باب أولى، فإذا نظرت كيف نُقلت نبوة موسى وعيسى عليهما السلام، علمت أنها نُقلت بطريق التواتر، والتواتر الذي نُقلت به نبوة محمد أعظم وأوثق.

ولنعم ما قال غمالائيل معلّم اليهود، في حق الأنبياء الكذبة: (بعد هذا قام يهودا الجليلي في أيام الاكتتاب، وأزاغ وراءه شعباً غفيراً، فذاك أيضاً هلك وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا)، (والآن أقول لكم تنحّوا عن هؤلاء الناس واتركوهم لأنه إن كان هذا الرأي وهذا العمل من الناس فسوف ينتقض)، (وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنتقضوه لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً) الباب الخامس من كتاب الأعمال، والآية السابعة من الزبور الأول: (لأن الرب يعرف طريق الصديقين وطريق المنافقين تهلك) والآية السادسة من الزبور الخامس: (وتهلك كل الذين يتكلمون بالكذب، الرجل السافك الدماء والغاش يرذله الرب)، وفي الزبور السابع والثلاثين ١٧: (لأن سواعد الخطاة تنكر، والرب يعضد الصديقين)، فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم من الصديقين لأهلك الرب طريقه ورذله وأباد ذكره من الأرض، وكسر سواعده وأفناه كالدخان. لكنه لم يفعل شيئاً منها، فكان محمد صلى الله عليه وسلم من الصديقين[(١)].

وخامس الأنواع والأدلّة: بشَّرت الرُّسُل قبله بمقدمه، فالأنبياء عليهم السلام قد تنبأوا به قبل ظهوره بدهر طويل، ووصفوا مبعثه، وبلده، وخضوع الأمم والملوك له ولأمته، وذكروا انتشار دينه ولا يزال ذكره في كتب السابقين ككتب الهندوس وكتب الزردشتية والتوراة والإنجيل موجودا. كما شهد له بعض أهل الكتاب حال بعثته والذين لم يُعمِهِم التعصب؛ كبحيرا الراهب، وورقة بن نوفل، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة، فوجود اسمه حتى اليوم في الأسفار الهندوسية كالفيدا وغيرها وفي المجوسية والبوذية وأسفار التوراة والمزامير والأناجيل ووجود صفاته ومكان بعثته وصفات الدين الذي سيبعث به والقبلة الجديدة التي ستكون قبلة الله الجديدة وغير ذلك مما سيذكر لا يدع مجالا للشك، إنه النبي الذي أخذ الله الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه حال بعثته: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} [آل عمران: ٨١].

سادس أنواع دلائل النبوة : فأخلاق النبي ﷺ وأحواله الشخصية الدالة على كماله ونبوته، إذ لم تجتمع فيه هذه الصفات وتلك الكمالات إلا من تأديب الله له، فقد اجتمع فيه من الأخلاق العظيمة، والأوصاف الجزيلة، والكمالات العلمية والعملية، والمحاسن الراجعة إلى النفس والبدن والنسب والوطن، ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع في غير نبي، فإن كل واحد منها وإن كان يوجد في غير النبي أيضاً، لكن مجموعها مما لا يحصل إلا للأنبياء، فاجتماعها في ذاته صلى الله عليه وسلم من دلائل النبوة وقد أقر المخالفون أيضاً بوجود أكثر هذه المحاسن في ذاته صلى الله عليه وسلم،

(١) -إظهار الحق لرحمة الله الهندي (٤ / ١٠٧٥) ،الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميةط١/١٩٨٩

كما نقل سيل قوله في مقدمة ترجمة القرآن في الصفحة السادسة من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٠ هكذا: (أنه كان حسن الوجه وزكيًا وكانت طريقته مرضية، وكان الإحسان إلى المساكين شيمته، وكان يعامل الكل بالخلق الحسن، وكان شجاعاً على الأعداء، وكان يعظم اسم الله تعظيماً عظيماً، وكان يشدد على المفترين، والذين يرمون البرآء، والزانين، والقاتلين، وأهل الفضول، والطامعين، وشهود الزور، تشديداً بليغاً، وكانت كثرة وعظه في الصبر والجود والرحم والبر والإحسان وتعظيم الأبوين والكبار وتوقيرهم وتكريمهم، وكان عابداً مرتاضاً في الغاية[1] .

سابع الأنواع والأقسام: المعجزات الحسية التي وهبها الله النبي مثل تكثير الطعام في حوادث ومواطن كثيرة ،وشفاءِ المرضى وانشقاقِ القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه في مواطن متعددة، وهذه المعجزة أعظم من تفجر الماء من الحجر كما وقع لموسى فإن ذلك من عادة الحجر في الكثير الغالب، وأما أن يحدث ذلك من أصابع هي لحم ودم، فلم يعهد من غيرهﷺ عن أنس بن مالك أنه قال: «رأيت رسول الله وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله بوضوء، فوضع رسول الله يده في ذلك الإناء، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم» وهذه المعجزات صدرت بالزوراء عند سوق المدينة، وعن جابر قال: «عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلا في ركوتك فوضع النبي يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون " وكان الناس ألفا وأربعمائة» . عن سعد بن أبي وقاص: «أن عين قتادة ابن النعمان أصيبت حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله فكانت أحسن عينيه»، عن أنس بن مالك قال: «قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله له، فقال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته. قال أنس: فو الله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم نحو المائة.».

وتكثير القليل من الطعام بين يديهﷺ حتى كان يأكل منه من معه من المسلمين، بل ويتبقى منه بقية، وتكثير الماء حتى يشرب منه جميع الجيش ويتوضؤون، وحنين الجذع إليه لما فارقه إلى المنبر، وتسليم الحجر عليه وهو في مكة، وانقياد الشجر إليه، وتسبيح الحصى بكفه، وإبراء المرضى بإذن الله، وغيرها، وقد سجل القرآن الكريم من تلك المعجزات معجزة الإسراء والمعراج؛ حيث أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السماوات السبع، وكذلك معجزة انشقاق القمر فقد طلب المشركون منه معجزة جلية تدل على صدقه، وخصصوا بالذكر أن يَشُقَّ لهم القمر، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، أي: الليلة الرابعة عشرة؛ وهي التي يكون القمر فيها على أتم وأوضح صورة، فسأل رسول الله ربه أن يعطيه ما طلبوا؛ فانشق القمر نصفين: نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيقعان المقابل له، وبعد حصول هذه الآية العظيمة لم يصدق بها المشركين في قريش، وإنما اعتبروها سحرًا، فصاروا يسألون الركبان القادمون ويخبرون برؤيتهم القمر نصفين، ولم يؤمنوا له وهذه سُنة المعرِضين عن دين الله عندما يهدم الحق سلطانهم ويطمس نوره ضلالهم .

فإن قال قائل: إن ما ذكرته وما نقلته من هذه المعجزات الحسية، لم نره، ولم نشاهده، ولم نحس به، فلا يكون حجة علينا!! قلنا له: وكذلك معجزات المسيح وغيره من الأنبياء لم نرها، ولم نشاهدها، ولم نحس بها!!فإن قال قائل: لكن تواترت روايات الثقات بهذا؟ قلنا له: إن (الرواية الإسلامية) هي أدق الروايات وأضبطها على الإطلاق، أما (الرواية المسيحية) فهي رواية يعتريها الشك من كل أقطارها! ثم إن (المعجزة الحسية) هي كل شيء بالنسبة لهذه الديانات، فإن ثبتت صحت هذه الديانات، وإن انتقت أو دخلها الشك، بطلت هذه الديانات! أما الإسلام الدين الخاتم الذي جاء به النبي الخاتم محمد فإنه لم يركز على المعجزة الحسية وحدها وإنما ركز على المعجزات المعنوية وفي قمتها القرآن الكريم

(١) –اظهار الحق ص: (٤/ ١٠٧٣) مرجع سابق .

والقرآن الكريم معجزة عقلية معنوية باقية لا يهون من جلالها مرور الزمان، وتقادم الأيام، بل إن الزمان كلما تقادم زاد هذا القرآن جدة وقوة وإعجازا، فالزمان عنصر من الإعجاز في القرآن. !

فإن قال قائل: إن القرآن ينفي (المعجزات الحسية) عن النبي كما جاء في سورة الإسراء {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا-أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا-أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا-أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء .... قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا}[الإسراء: ٩٠- ٩٣] ،قلنا له: الذي يُفهم من هذه الآيات، وما شاكلها، نفي المعجزات المقترحة، ولا يلزم من نفي المعجزات المقترحة نفي المعجزات مطلقا، إذ أنه ليس حتما على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون!! بل على العكس فهم لا يظهرون المعجزة إذا كان طلبها منطويا على العناد والامتحان والاستهزاء، ولهذا نظائر في الكتاب المقدس في (مرقس: ٨: ١١، ١٢) طلب الفريسيون معجزة من عيسى على سبيل الامتحان، فما أظهر معجزة، ولا أحال إلى معجزة ولا وعد بإظهار معجزة فيما بعد! بل قال: (لن يعطى هذا الجيل آية) وهذا يدل على أنه لن تصدر عنه معجزة إطلاقا! لأن لفظ الجيل يشمل جميع الذين كانوا في زمانه! وكذلك: " فتقدم إليه المجرب، وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا فأجاب وقال مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" (متى ٤، ٣، ٧) ففي هذا النص نرى أن إبليس طلب من عيسى على سبيل الامتحان معجزتين فما أجاب إلى واحدة منهما[١]!!

البحث الثاني: الأدلة المنطقية والعقلية في محاكمة نبوّة خاتم النّبيّين.

إليك بعض الأدلة المنطقية التي تحث العقل على التفكر في تميّز هذا الإنسان وتفرّده، ثم باجتماعها وتكاملها تدل على تأييد السماء له، ثم تتكامل الأدلة وتتعالى مع بعضها في وحي السماء (القرآن) وتتساند لتتّصل ببشارات النبوات الأولى به وبصفاته واسمه ونسبه ثم تصبح الأدلة بمعجزاته ونبوءاته وأخلاقه وصفاته مؤكّدة لإدعائه فتقول لا مفر من الاعتراف بي إلا بالجحود، وهذه النقاط تستفسر عن محمد منطقيا تتساءل عقليا ما معنى جميع هذه الأحداث.

١-خالف أهواء قومه ودعا إلى دين جديد عليهم وعلى أهل الكتاب، وكان في خطر محتّم من هذه الدعوة التي سفّهت أوثانهم وأهواءهم، وأهواء أهل الأرض جميعا بدين يناقض به دين قومه وأديان الأرض، وأخبر بأن أهل الكتاب حرّفوا دينهم وكتابهم فكان على خطر مؤكد ومحقق بعد حياة الهدوء السكينة والطمأنينة والعرفان، كتب السير وليم موير عن الوضع العالمي أبان الدعوة المحمدية فقال: (في القرنين الخامس و السادس، كان العالم المتمدين، على شفا السقوط في هاوية الفوضى، لان العقائد التي تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يكن ثمة ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو وقتئذ أن المدينة الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة ألاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية إذ أن القبائل تتحارب وتتناحر، فلا قانون ولا نظام. أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على التفرقة والانهيار، بدلا من الاتحاد والنظام فكانت المدينة التي تشبه شجرة ضخمة متفرعة، امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم المعروف جميعه)[٢].

٢-من المعروف أن سمات ودلائل النبوغ تظهر لدي الشخص في سنيّ حياته الأولى وبداية شبابه، لو كان القرآن من تأليف محمد لظهرت عليه دلائل هذا النبوغ في بداية حياته، واهتمّ قومه به وتحدث به العرب لاهتمامهم بهذه الظاهرة، ولأشتهر في سوق عكاظ الذي كان في مكة مأوى الحجيج وكانوا يقيمون مسابقات شعرية وبلاغية به، ولاكتسب مكانة

(١) -إظهار الحق رحمة الله الهندي ٤ / ١٠٢٤ تحقيق الدكتور محمد ملكاوي ط١ /١٩٨٩ الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والإفتاء السعودية

(٢) -وليم موير: حياة محمد. عن مولاي محمد علي: محمد رسول الله ص ١٢-١٣ ترجمة محمد البعلبكي، دار العلم للملايين بيروت ط٢/١٣٩٠

مرموقة بين قومه وافتخر به أهله وعشيرته وانهالت عليه الهدايا والعطايا خصوصاً مع ما عُرف عن كفيله أبي طالب من الفقر. ولعل الآية الكريمة تشير إلى ذلك بقوله تعالى: {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون} [يونس:١٦]، لم يُعرف عن الرسول محمد اهتمامه بالتعلم والدراسة، فقد صدر القرآن الكريم من شخص غير متعلم. قال تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون.} [العنكبوت:٤٨]، وكان الشعراء أمثال امرئ القيس والنابغة والأعشى وغيرهم، يُحسنون في قول ما وفي آخر نجد لديهم ضعفاً والشواهد الشعرية كثيرة. أما القرآن فإنه بليغ في كل المجالات والمواضيع وهذا ما ينفي كونه إبداعاً بشرياً.

نزلت الكثير من الآيات من دون تهيئة سابقة أو تبعاً لحدث طارئ أو سفر أو حرب أو نحو ذلك مما لا يسمح بالتمعن ومراجعة النص السابق تجنباً للوقوع في التناقض. {أفلا يتدبرون القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا} [النساء:٨٢] فقد تكرر الحديث عن نفس المواضيع التي سبق التعرض لها في فترات زمنية متباعدة مما يجعله معرّضاً للاضطراب والتناقض–لو كان نتاجاً بشرياً–فلو كان نتاجاً بشرياً لاقتصر الحديث عن الموضوع مرة واحدة. هذا دليل عقلي لأن الكاذب يتجنب ذكر كذبته أو جزء من كذبته مرة أخرى كي لا ينكشف إذا نساها أو إذا قال شيئاً مخالفاً لما قاله في كذبته، ولا ننسى اختلاف اللغة بين القرآن والسنة من حيث البلاغة والفصاحة ونبرة الخطاب وعلوّه.

لا يمكن أن يأتي الخطابان من تأليف شخص واحد أحدهما علوي فوقي إلهي والآخر بشري تعليمي، بالإضافة إلى الأخلاق العالية في القرآن في كل مواضيعة وطروحاته فهل هي نتاج شخص كاذب دجال؟ الكاذب الدجال لا بد أن تكون أخلاقه سيئة ولا يمكن أن يؤلف كتاباً كاملاً عن الأخلاق والسموات والخلود والنعيم والإيعاد بالعذاب للكاذبين الدجالين! ولا يُمكن أن يتميز النبي بالأخلاق والأمانة والصدق كما شهد له بهذا أعداؤه إن كان شخصاً كاذباً محتالاً. لا بد أن يظهر هذا الجانب من شخصيته ولكن النبي لطالما كان خلوقاً أميناً صادقاً، ولا ننسى رفضه لكل إغراءات المال والمناصب التي قدمتها قريش لكي يتنازل ويتوقف عن دعوته. قدموا له عروض بالمال والفتيات الجميلات، ولكنه رفض كل هذه العروض. لو كان كاذباً يسعى إلى مال ومنصب، لقبل عروضهم ولأصبح سيد قريش. ثم هددوه بالقتل وطردوه من مكة وذهب إلى الطائف فطردوه بالحجارة حتى تدمّى جسده، ولم يخف من كل التهديدات ولم يتوقف عن دعوته إلى توحيد الله تعالى. فهل هذا شخص كاذب مخادع؟

٣– كان محور دعوته عبادة الله الخالق ونبذ كل ما يعبد من دونه كأصنام الجاهلية وخرافاتها وتسخيف أهواء قومه وبالتالي وإضعاف قيمتهم الدينية_ الاجتماعية عند العرب وهو من أشرافهم يهمه ما يهمهم دافع عن قومه وبلده في "حرب الفجار" التي قامت في الاشهر الحرم، فلم يدع إلى عروبة مثلا أو إلى مجرد أخلاق ومعاملات يستدرج بها الناس إلى إتّباعه كما زعموا؟ فهل من خصائص وشأن كل مدعي النبوة الدعوة إلى توحيد الله عبادته وحده، فأين مدعي النبوة من دعوى النبي محمد ودعوته، وبضدها تتميز الأشياء.

٤– كيف له كإنسان يبني أمّة ويؤسس لدين الله بين قومه البسطاء، أن يدعو الملوك والرؤساء والعظماء في عصره في بادئ أمره للتوحيد والإسلام، كقيصر، وكسرى وملوك العرب ولما يُستجاب له بعد في قومه، وهو يعلم شدة الملوك وحرصهم على دينهم مع شعوبهم ويعلم ضعف عشيرته وقومه حيالهم، أليس لأنه رسول من الله يبلّغ ما يأمر به ويعلم أنه مؤيد من عند الله وأنه مأمور؟ .

٥– لم يتصف بالنقائص، فلم يُؤثر عنه أنه كذب، أو خان، أو أخلف وعدا، أو غدر، أو زنا، أو قطع رحما، أو تكبر، أو سبّ وشتم وظلم، أو تعاطى الشعر والموسيقى والغزل والسهرات، وقد لبث في قومه ٤٠ عاما، ألا يفترض أن

تكون تلك صفات الكذابين؟ مع العلم السيرة الذاتية للشخص دليل قوي على صدقه من كذبه فمثلا عند التحقيق في الجرائم أول ما تبدأ الشرطة في البحث عن أصحاب السوابق فالذي أمضى ٤٠ سنة من حياته صادقا سيبقى صادقا. نحن نقول الأدلة تساند بعضها وتتعاضد وتتكامل فكل جزئية قصيرة تدعم الأخرى فالأدلة كثيرة والقرائن أكثر.

٦-إنه اختار جوار الضعفاء على الأقوياء والفقراء على الأثرياء والعبيد على السادة والكرام على اللئام مع أن سادة قومه طالبوه بإبعاد العبيد والفقراء عنه حين أرادوا الاجتماع به لسماع القرآن الذي يتلوه فوعدهم بمجلس خاص فجاءه أعمى يسأله عن القرآن فأدار بوجهه عنه فنزل الوحي عليه يؤنّبه إلى قيام الساعة كيف تعبس بوجه أعمى يبحث عن الحقيقة: {عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى} [عبسى:٣]؟كما أن قومه طالبوه بترك تسفيه أصنامهم على أن يزوّجوه أجمل الفتيات ويعطوه أكرم أموالهم حتى يصبح أغناهم ويسلموه الزعامة والرياسة عليهم! فما رضي إلا قولهم لا إله إلا الله قولها تدين لكم بها العرب والعجم! .

٧-من القضايا المثيرة عقليا إسلام أهل اليمن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقد جرى بمعجزة شهيرة تناقلتها الأجيال وهي مشهورة عندهم، بداية القصة أن النبي أرسل رسالةً إلى كسرى ملك الفرس(خسرو الثاني) يدعوه فيها للإسلام، وكان حامل الرسالة عبد الله بن حذافة السهمي فلما قُرئت الرسالة على كسرى أخذها ومزقها ورمى بها، وأرسل رسالةً عاجلةً إلى (باذان) عامله على اليمن في صنعاء يقول له فيها: ابعث برجلين جلدين -قويين- إلى الحجاز فليأتياني بهذا الرجل، فاختار باذان في سذاجةٍ نادرة رجلين من عنده ليأتيا برسول الله ، فلما قدم الرجلان إلى المدينة قابلا رسول الله، ودخلا عليه وقد حلقا لحاهما وفتلا شواربهما، فكرِه النبي النظر إليهما، وقال من أمركما بهذا: قالا: ربنا. يقصدان كسرى، فقال الرسول لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي فقال أحدهما: يا محمد إن شاهنشاه يعني ملك الملوك -يقصد به كسرى-قد كتب إلى الملك (باذان) يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وبعثني إليك لتنطلق معي، وقالا قولًا فيه تهديد لرسول الله فلم يرد عليه النبي وأمرهما أن يلاقياه غدًا. وفي اليوم الثاني جاء الرجلان إلى النبي فقال لهما النبي: "أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه كسرى في هذه الليلة" وفي رواية " إن ربي تبارك وتعالى قد قتل ربك الليلة " وفي رواية "اذهبوا إلى صاحبكم فأخبروه أن ربي قد قتل ربه الليلة [(١)]" أي أن الله عز وجل أهلك كسرى في تلك الليلة، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر.

فعاد الرجلان إلى باذان يخبرانه بالأمر، فعجب وانتظر الخبر من بلاد الفرس، فجاء الخبر بعد أسابيع بمقتل كسرى في تلك الليلة التي حددها النبي فعلًا ، فأسلم باذان من هول المفاجأة، وأسلمت حكومته الفارسية ، وأسلم أهل اليمن بإسلامهم، وجاء وفدٌ من أهل اليمن يتعلمون الإسلام وأرسل فيهم رسول الله إلى اليمن أحد عشر معلماً ، منهم علي بن أبي طالب الذي أرسله الرسول إلى همدان بن زيد ، ومنهم معاذ بن جبل أرسله الرسول مخلاف الجند، ومنهم أبو موسى الأشعري أرسله الرسول إلى تهامة ، ومنهم وبر بن يُحَنَّس الخزاعي الذي أرسله الرسول إلى صنعاء وأمره أن يبني لهم =مسجدا ، قال وبر بن يحنس الخزاعي: قال لي رسول الله: "إذا بنيت مسجد صنعاء فاجعله عن يمين جبل يقال له ضين" [(٢)].

---

(١) -رواه أحمد ٤٣/٥ برقم: ٢٠٤٥٥ وصححه الأرناؤوط السلسلة الصحيحة ٤١٤/٣، وروى نحوه ابن أبي شيبه ٣٤٦/٧ برقم ٣٦٦٥٦، كما وردت القصة مطولة في كتب السير والتاريخ انظر سيرة ابن هشام ٦٩/١ والسيرة النبوية لابن كثير ٥٠٩/٣ وتاريخ الرسل والملوك للطبري ٣١/٢ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٨/١ ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور وسبل الرشاد ٦٧/١٠ والروض الأنف ١٤٦/١ والسيرة النبوية للصلابي ١١٢٠/٢.

(٢) -أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٢٥٣/١ برقم ٨٣ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

وراجع وفود أهل اليمن في: أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ٢٧٧/٢ برقم ٧٧٠٩ وقال الأرناؤوط إسناده على شرط الشيخين، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة ١٤٩/٩ برقم ٣٣٦٩ والدارمي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه ٥١/١ برقم ٧٩ واللفظ له والطبراني في المعجم الأوسط ٢٨٤/٢ برقم ١٩٩٦ والنسائي في السنن الكبرى ٥٢٥/٦ برقم ١٧١٢ الحديث في صحيح مسلم عنه ك/ الإيمان ب/ تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن ٧١/١ برقم ٥٢.

وقال الحافظ الرازي في كتابه "تاريخ صنعاء" أن رسول الله عندما أرسل وبر بن يحنس إلى صنعاء في العام السادس الهجري قال له: "مرهم ببناء مسجد لهم في بستان باذان من الصخرة التي في أصل غمدان ، واستقبل به الجبل الذي يقال له ضين" وهاتان الروايتان تفيدان أن الرسول حدد للصحابي وبر بن يحنس الموضع الذي يبنى فيه المسجد بقوله: "واستقبل به الجبل الذي يقال له ضين" وإذا أخذنا هذه الروايات واستفدنا مما كشفه العلم الحديث اليوم ، وما تيسر لنا من إمكانيات جاءت بها الأقمار الصناعية التي قامت بتصوير الأرض على مستويات متفاوتة ، فهي تصور المكان عن قرب واضح يبين تفاصيل بيت أو سيارة كما تصور عن بعد يبين أطراف دولة أو دول أو قارة أو قارات، وبهذه الإمكانية التي أتاحها نظام "Earth Google " للباحثين استطعنا أن نثبت الدقة المساحية والجغرافية للتوجيهات النبوية التي قالها للصحابي وبر بن يحنس في وقتٍ مَا كان الناس يعرفون شيئاً عن جغرافية أرض محدودة فضلاً عن مساحة تصل إلى ما يزيد عن ألف كيلومتر من المدينة المنورة إلى صنعاء ، ومن اطلع على أول خريطة رسمت للجزيرة العربية بعد هذا التوجيه النبوي بقرون يعرف صعوبة تحديد الملامح الكبرى للجغرافيا كالبحار والجبال والصحراء فضلاً عن المدن والمساحات الدقيقة والإحداثيات بالغة الدقة كما هو الحال في موضوعنا هذا حول توجيهات النبي التي تحدد قبلة مسجد صنعاء وقد حافظ اليمنيون على المسجد الذي بناه الصحابي الجليل وبر بن يُحَنَّس في زمن الرسول وبتوجيهاته على حدوده إلى يومنا هذا، وجعلوا لحدوده دعامتين مميزتين إحداهما تسمى المسمورة والثانية تمسى المنقورة ، وحتى بعد بنائها بالحجر الآن حافظ اليمنيون على موضع الدعامتين وكتبوا على الدعامتين : المسمورة والمنقورة وهذا المكان المحدد بدعامتي المسمورة والمنقورة موجود معلوم طوال التاريخ الإسلامي لليمن وإلى يومنا هذا في مؤخرة الجامع الكبير بصنعاء ، راجع رابط الفيديو في الهامش وهو يريك السهم وقد خرجنا به من قبلة المسجد الذي أمر النبي وبر بن يحنس ببنائه واتجهنا به إلى قمة جبل ضين كما أمر النبي بجعل قبلة المسجد إليه ، ثم واصلنا امتداد الخط المستقيم فإذا به يدخلنا مكة المكرمة ويصل بنا إلى الحرم الشريف ويستقر في وسط الكعبة، وإذا كانت أغلب مساجد المسلمين في العالم تتجه في تحديد القبلة إلى الجهة التي فيها الكعبة كما قال تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} (البقرة: ١٥٠)، إلا أن توجيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لوبر بن يحنس مكّنَه من تحديد القبلة إلى عين الكعبة مباشرةً ، وهذا هو الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا هو الفرق بين العمل البشري والتوجيه النبوي ، فمن علَّم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم تحديد موضع الكعبة وجهة القبلة ، وزاوية ميلها التي لا تتيسر إلا بأدق الأجهزة العلمية في عصرنا الحاضر وباستعمال الأقمار الصناعية والطائرات والخرائط الدقيقة ؟! [١]

فهذه معجزة مكتملة الأركان... اشتملت على:

١-إسلام أهل اليمن خلال أيام من حدوث المعجزة.

٢-خبر مثل هذا ليس بالذي يحتاج إلى التثبت منه، فهو منقول نقل الكافة عن الكافة.

٣-أدلة الخبر موجودة إلى يومنا هذا.

٤-إسلام أهل اليمن ليس بالشيء الذي يتم التشكيك في صحة روايته، فأنت لا تتحدث عن قصة فردية وإنما قصة مجتمع بأكمله وتاريخ أمة من الأمم –ولو أنك كتبت في الجوجل إسلام أهل اليمن لأتتك من تفاصيل هذه الحادثة ما يطمئن له قلبك بعجائبها –وترتب على هذه القصة أحداث كثيرة في السيرة النبوية مثل أحاديث معاذ بن جبل فترة إعداده للذهاب إلى اليمن لتعليم الناس الإسلام.

---

(١) -https://www.youtube.com/watch?v=H99ycqm9q_I.

٥-إمكان التثبت من بعض تفاصيل القصة في يومنا هذا بأدلة مادية رصدية كما هو موضح في الفيديو السابق، هذا خبر أسلمت على مثله أمة فهل يُسلم قلبك يا صاح [١] !؟

٨- كان عادلا في حكمه بين السيد والعبد والغني والفقير فكان يقيم الحدود والأحكام على السيد والعبد سواء ولا يميّز طبقة الاغنياء ليترضاهم ليسندوه فاقتص من المخزومية القرشية بعد الترجي ألا يفعل فغضب واحمر وقال : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، و قال لها أنقذي نفسك من النار فلست أغني عنك من الله شيئا (لا يعطي صكوك غفران لأحد من أصحابه أو لأهله) وكما يقول الباحث الفرنسي كليمان : "**لم يكن محمداً نبياً عادياً ، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء ، لأنه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بني قومه ... نبي ليس عادياً من يقسم أنه "لو سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها" ! ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً**"؟ [٢].

إنه يحكم لليهودي على أصحابه وهم جاءوه يترجونه أن يحكم لصاحبهم السارق على اليهودي المتهم! فشرعه ينادي ب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء :١٣٥]، ملخص القصة التي تدل على نبوّته: طُعمة كان رجل مسلم مسكين، سرق درعًا من جاره وخبأها عند يهودي، فوجد الناس الدرع عند اليهودي، فتحركت العصبية !!. وقال اليهود أن المسلم "طعمة" هو سارق الدرع، وقال المسلمون إنها مكيدة يهودية للإسلام، فنزل الوحي بكشف طعمة وتبرئة اليهودي، فاستسلم طعمة واعترف {ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما (١١١) ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (١١٢) ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (١١٣)} [النساء]، فالذي كسب الخطيئة طعمة، والبريء هو اليهودي، بل إن القرآن يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لظنه السوء باليهودي: {واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما (١٠٦)}، وإن كان معذورًا صلى الله عليه وسلم، لكن ما صدر منه بالنسبة إلى مقامه المحمود يوشك أن يكون كالذنب {ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما (١٠٧)} فما أحكم القرآن وما أعدله حتى مع اليهودي. وما كانت هذه الآيات إلا من دلائل نبوته إذ كيف يهم النبي صلى الله عليه وسلم باتهام اليهودي مع اجتماع القرائن على تهمته، وفجأةً تنزل الآيات التي تُبرئه وتدافع عنه وتنقل التهمة إلى طُعمة، فالحمد لله رب العالمين [٣]!

٩-كان يفعل كل ما يدعو إليه بل وأضعاف ما يقوله، ويوصي به، فكان أبر الناس برحمه، أجود الناس بماله، خير الناس لأهله، أطهر الناس من الدنس، أكثر الناس صلاة ودعاء وذكرا لربه وعبادة له، أكمل الناس صوما وحجا، أحلم الناس على المسيء بحكم أنه سيد أصحابه، أطهر الناس لسانا وجنانا؟ .

١٠-السيرة الذاتية الماضية للداعي تعطي مؤشر قوي عن صدقه أو كذبه لكنها لا تكفي بمفردها بل لا بد من قرائن أخرى ، فقد كان لمحمد ﷺ قرائن حاضرة كثيرة بالإضافة لصلاح أخلاقه وصدقه وأمانته ببساطة إنه ما دعا إلى نفسه ولا لقومه بل إلى شكر الخالق علي نعمة، وما تركه الله بلا تأييد ولكن أيّده بالكثير من المعجزات والمغيّبات فقد

---

(١) -د. هيثم طلعت، شفاء لما في الصدور، جرعات علمية وفكرية للملحدين ص ١٠٩ وما بعدها ، ط١ ، وبعض منتديات اليمنية .

(٢) -الباحث الفرنسي كليمان هوارت عن " محمد في الآداب العالمية المنصفة " ص: ١٤٢ مرجع سابق.

(٣) -راجع تفاسير القرآن الطبري وابن كثير والقرطبي والألوسي والزمخشري والبيضاوي ...لتتضح القصة بشكل أوسع. فما نقلت هو ملخص للقصة.

أخبر عن أحداث كثيرة لأصحابه وقعت لهم كما أخبرهم عنها وأخبار قالها لهم ستقع فوقعت كما قال مثل فتح فارس والروم ومدة الخلافة بعده والنار التي خرجت من الحجاز وغيرها، مما ذُكر مفصلا في كتب الحديث.

١١-إنه الشخص الوحيد الذى استطاع أن يغير طبيعة الشعوب من شعب يعبد الحجر و الجن و يؤمن بالخرافة إلى شعب يعبد الله الواحد الأحد خالق كل شيء ليس كمثله شيء ، من شعب يشرب الخمر كالماء الى شعب لا يشرب الخمر ويحرمه على نفسه أما أمريكا فحاولت بالقوانين والعقوبات الجزائية فلم تستطع وتكلفت المليارات على مشروعها وفشل، من شعب كانت تنتمي إليه صاحبات الرايات الحمر و كان أمرا طبيعيا إلى شعب يلتزم بالأخلاق ويحرم الزنا والفاحشة بل و مجرد النظر ، من شعب يعمل بالربا واستضعاف الآخرين ويسترزق منه الى شعب يحرم الربا ويمنعه حتى وان كان سيدر أرباح عديدة ، من قبائل متقاتلة متناحرة الى مجموعة واحدة مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم ولغتهم فهم واحد على قلب واحد ، من شعب لا يهم فيه كل انسان إلا نفسه الى مجتمع يهتم كل عضو من أعضائه بباقي الأعضاء، من شعب يقتل الاناث وهن أطفال بدون أي رحمة أو شفقة ويبيع ويشتري فيهن ولا يورثهن الى شعب يعظم حرمة النساء و يستهجن المساس بالإناث سواء كن أطفالا أو كبارا وغير هذا كثير من تأثير النبي الأمي والتعاليم التي جاء بها ودعا إليها متفرقة خلال ٢٣ سنة فقط. بينما هناك آخرون كثيرون وفى أوقات زمنية أكبر من ذلك لم يستطيعوا تغيير طبيعة فرد أو بضعة أفراد إلى أعلى مستويات الرقي الإنساني الفكري والسلوكي وليس شعب بأكمله.

لم تقتصر أوضاع شبه الجزيرة على سيطرة الوثنية و عبادة الأصنام فيها، بل في كونها خاضعة للنظام القبلي الذي فرض حالة الانقسام السياسي والتمزق الداخلي، بسبب كون كل قبيلة تشكل وحدة سياسية و اقتصادية – اجتماعية مستقلة، مما قاد إلى نشوب صراعات قبلية حالت دون توحيد الجزيرة العربية وجمع كلمة العرب، حتى إذا جاء الإسلام قضي على الوثنية المخزية و القبلية الخطرة ،بقيادة محمد ﷺ يقول وليم موير في كتابه حياة محمد: (**كانت أولى الخصائص التي تلفت انتباهنا، إذاً هي انقسام العرب إلى جماعات لاتعد ولا تحصى، خاضعة لقانون في الشرف والأخلاق واحد، ومتمسكة بأهداب عادات واحدة، و متحدثة في الأعم الأغلب بلغة واحدة، و لكن كلاً منها مستقلة عن الأخرى. كانت تلك الجماعات لا تعرف طمأنينة ولا استقراراً وكثيراً ما نشبت الحروب بينهما وحتى لو اتفق أن جمعتها رابطة الدم أو رابطة المصلحة فسرعان ما كانت تتفرق لأتفه الأسباب وتستلم لعداواتها الحقود. وهكذا كان خليقاً بمن يرجع البصر، قبيل بزوغ الإسلام إلى التاريخ العربي، أن يرى حالة من التمازج والتنافر لا تفتأ تتغير وتتقلب، مما أدى إلى إجهاض أيما محاولة من محاولات الوحدة الشاملة وكان لابد لهذه المشكلة من أن تحل عن طريق أيما قوة توفق إلى إخضاع العرب أو جمع شملهم، ولقد حل محمد المشكلة.**) [1].

هذا الرسول الذي تمكن بفضل كفاحه الإنساني المرير أن يحقق ذلك النجاح العظيم والتحول الكبير ليس في الجزيرة العربية وحسب، بل على الصعيد العالمي أيضا فمن حضيض الوثنية المخزية انتشل الرسول محمد (عليه السلام) بلاد العرب كلها في فترة من الزمان القصير لا تعدوا عشرين عاماً. انه لم يستأصل الوثنية من بلاد العرب استئصالاً نهائياً فحسب، بل أضرم في قلوب أولئك العرب أنفسهم شرارة من الحماسة لوحدانية الله دفعتهم إلى الانطلاق بعيدا في كل رجاً من إرجاء العالم المعروف آنذاك لرفع راية الإله الواحد، أيضا. وهذا الفطام لبلد برمته – يمتد على مساحة هائلة مقدارها مليون ومئتا ألف ميل مربع – عن لعنة الوثنية التي كانت تهيمن عليه هيمنة مطلقة نتيجة الإرث والتقاليد الراسخة، في مدة لا تتجاوز خمس قرن، بحيث اكتسبت ذلك البلد لقب (محطم الأوثان) المشرف، أقول أليس هذا الفطام

(١) –وليم مور: حياة محمد، نقلا عن الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، محمد شريف الشيباني ص ٨ بلا بيانات

هو أعظم معجزة قدر للعالم أن يشهدها في تاريخه كله؟ إلا يستحق الرجل الذي أحدث هذا التحول التقدمي لقب (خير الأنام) استحقاقاً لا مراء فيه [١].

فالقدرة على جمع كلمة العرب قاطبة بقبائلها المتنافرة، وإسقاط ما في نفوس بعضهم لبعض من البغض والثأر من رجل واحد، أمر يكاد يصل إلى حد الإعجاز [٢]، قال تعالى ممتنا على هذه الأمة بهذه النعمة: {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها } [آل عمران:١٠٣] وقال سبحانه مبينا صعوبة تأليف القلوب: { وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم} [الأنفال: ٦٢، ٦٣] ، فكانوا بعد هذا التآلف قوة ضاربة أسقطت فارس والروم، وقد تلمح بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

هل تطلبون من المختار معجزة .... يكفيه شعب من الأحداث أحياه

فكانوا يدا في الحرب واحدة .....من خاضها باع دنياه بأخراه. [٣]

١٢-هجر متع الحياة ولم يتخذ لنفسه قصرا وعبيدا وحريما وجواري حسانا وبذخا وسفورا وأموالا وذهبا وفضة وخيولا وبساتين وأراضي شاسعة ...بل كل ما جاءه تصدق به وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي بطحين لأهله، لماذا ارتضى لنفسه الوعد بالآخرة، وقلده على هذا النهج أصحابه من بعده فكانوا على سيرته؟ لماذا يأمر بكل خير وصلاح وينهى عن كل شر وفساد يقيد حريّة الناس عما يشتهون من الفسق بدل أن يطلقها ويحملهم على طاعات عظيمة بدل أن يريحهم منها ويحث على التيسير ويمقت التعسير والتنفير، ويبشر على ذلك وينذر؟ لماذا عامل أهل الكتاب بالحسنى وضمن حقوق الأسرى وأهل الذمة و حقوق الضعفاء من الولدان والشيوخ والنساء في الحرب و السلم، نبه إلى كل صغير وكبير حتى نبه إلى إماطة الأذى عن الطريق وإلى الابتسامة وآداب الطعام والشراب والاستئذان و غير ذلك كثير، هل كان لكاذب وقت لكل هذا ؟ يقول المفكر المسيحي نصري سلهب : "**إن محمداً كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأميّ يهدي الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية، منذ كانت الإنسانية، ذاك كان الكتاب الذي أنزله الله على رسوله..."ذلك العظيم الذي كان يحاول تغيير التاريخ، ويعدّ شعباً لفتح الدنيا من أجل الله.. ذلك الأمي اليتيم الفقير الذي خاطب الأباطرة والملوك والأمراء من ندّ إلى ندّ، بل كمن له عليهم سلطان، ذلك الملهم الذي كان همّه أن يعيد الصلة بين الأرض والسماء. ذلك الرجل وجد الوقت الكافي ليلقي على الناس دروسًا في آداب المجتمع، وفي أصول المجالسة وكيفية إلقاء السلام!"،"هذا الرجل الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع، وسط ذلك الخضّم الهائج، أن يرسي قواعد دولة، وأن يشرّع قوانين، ويسن أنظمة، ويجود بالتفاسير والاجتهادات، ولم ينسّ أنه أب وجدٌّ لأولاد وأحفاد فلم يحرمهم عطفه وحنانه. فكان بشخصيّته الفذّة، الغنيّة بالقيم والمعطيات والمؤهّلات، المتعددة الأبعاد والجوانب الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله عالماً قائماً بنفسه".**

" لم يكن النبي رسولاً وحسب، يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيماً وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس. وكان له ما أراد"..."إن هذا النبي كان له في مجال الأخلاق شئون وشئون، فبالرغم من مهامه الجسام وانشغالاته الكثيرة المتنوعة، وبالرغم من الغزوات والسرايا والحروب،

---

(١) -مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٣-٢٤. مرجع سابق.

(٢) -المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي (١٨٧/١)، ودار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م. (٤٣٠/٢).

(٣) -د. عبد المحسن المطيري، الأدلة الجلية على صدق خير البرية ص ١٢٤، مجلة البيان ١٤٢٩

واضطلاعه بجميع المسئوليات وحده دون سواه، فلقد وجد الوقت الكافي ليلقي على المؤمنين –بأقواله وأفعاله– دروسًا في شئون لا تمر ببال مسئول كبير في مثل مستواه وخطورته ... فذلك العظيم الذي كان يحاول تغيير التاريخ، ويعد شعبًا يفتح الدنيا من أجل الله، ذلك الرجل وجد الوقت الكافي ليلقي على الناس دروسًا في آداب المجتمع وفي أصول المجالسة وكيفية إلقاء السلام، لكأنه معلم حصر مهمته في تثقيف بضعة وعشرين تلميذًا، ولم يكن له مهمة سواها"...ولقد نجح محمد نجاحًا باهرًا في كل عمل اضطلع به، من أكبر عمل –وهو تبليغ الرسالة– إلى أصغر عمل قام به [١] .

١٣–يقول الفيلسوف زكي نجيب محمود: ليس مدار التسليم برسالة النبي على ما يقدمه من برهان عقلي، بقدر ما يكون مدار التسليم مبنيا على صدق صاحب الرسالة وأمانته"[٢] فمدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم– لأنه رسول من عند الله–، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأذلهم لأنه ادعى بهتانا عظيما، فكيف يشبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأذلهم؟ وما أدق وأبلغ ما قاله ابن تيمية: كل شخصين ادعيا أمرا من الأمور أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب، فلابد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور [٣]"وقال:" ليست المعجزة هي الشرط الأوحد للنبوة فمُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين. وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكر الصديق وخديجة والمبشرين قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن ... وكثيرٌ من الناس يعلم صدقَ المخبر بلا آية البتة... وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر وقال لهم إن الله أرسلني علموا صدقه قبل أن يُظهر لهم الآيات، وكذلك النبي لما ذكر حاله لخديجة وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، قال هذا هو الناموس الذي يأتي موسى، وكذلك النجاشي وأبو بكر علموا صدقه علما ضروريا لما أخبرهم بما جاء به وما يعرفون من صدقه وأمانته. مع غير ذلك من القرائن يوجب علما ضروريا بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يُعرف بها صدقه بالضرورة فكيف بمن عُرف بصدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَن هو أصدقُ الناس أو أكذبهم وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني [٤]"

فالاستدلال على صحة دعوى الرسالة أمرٌ يسير والنبي محمد لم يدّعِ أحد أنه كذِب ولو لمرةٍ واحدة! فقد عجز البشر عن إظهار كذبةٍ واحدة في جميع عمره على تعدد مواقفه وكثرة أخباره. "ما عهدنا عليك كذبا قط" "ما جربنا عليك كذبا [٥]"ألم تكن هذه الجملة هي أول رد من المشركين في أول حوارٍ بينه وبينهم بشأن رسالته؟ بل ما اشتهر محمد إلا بالصادق الأمين، ولذا فقد أخبر القرآن العرب أنهم ماكرين حين يتنكرون لرسالته وهم يعلمون حاله قبل بعثته وأنه صادق أمين {أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون} [المؤمنون: ٦٩] ولو تبصرت الكتب السابقة لما ازددت إلى يقين !! فقد عُرِف النبي بالصادق الأمين في كتب الأسبقين. ينقل سفر الرؤيا آخر أسفار الكتاب المقدس وهو السفر الخاص بنبوءات آخر الزمان، ينقل لنا صورة النبي محمد ونعته فيقول " :ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا وصادقا، وبالعدل يحكم ويحارب [٦]"، مَن هو الذي ركب الفرس وبالعدل كان يحكم ويحارب،

---

(١) –مقتطفات من كتاب نصري سلهب، على خطى محمد ص ٣٦٦ ، ٣٧٧ وما بعدها . مرجع سابق

(٢) –من وحي كتاب موقف من الميتافيزيقا، زكي نجيب محمود دار الشروق القاهرة ط٤/١٩٩٣.

(٣) –شرح العقيدة الاصفهانية ص١٣٨ المكتبة العصرية – بيروت ط١/ ١٤٢٥.

(٤) –ثبوت النبوات عقلا ونقلا ، شيخ الإسلام بن تيمية، دار ابن الجوزي، ص ٣٩٣ ، وبمعناه في نفس المصدر ص ٣٧٣

(٥) –انظر الأقوال في تفسير الطبري على قوله تعالى {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء :٢١٤]

(٦) –سفر الرؤيا إصحاح ١٧ عدد ١ .

وكان لقبه" الصادق الأمين"، وكان مبتعثا من السماء– السماء مفتوحة–غيره؟ إن حجة الرسالة وحجة صدق الرسول هي من الحجج العقلية التي لا تتطلب من المرء أكثر من التسليم !!.

١٤–ونبوة محمد لم تكن بدعا من النبوات {قل ماكنت بدعا من الرسل} [الأحقاف :٩] فنبوة محمد جاءت بترسيخ التوحيد واستمرار الشريعة وحفظ المصادر، واستقرار موازين الفضيلة وظهور الدين. بل كان لنبينا محمد من كل هذا الحظ الأوفر والجناب الأسمى والمقام الأرفع! فلن يجد الملحدة لأحدٍ مثل الذي لمحمدٍ في الأعجوبة والرفعة. وشريعته لم يعترها ما اعترى سائر الشرائع بل هي في كل عصرٍ غضة طرية، ومنذ موته وحتى الآن لم تلزم الحاجة لمبعث رسولٍ آخر فالأحكام تُقرأ ليل نهار كأنها للتو خرجت من فم رسول الله فمَن يُقر بجنس الأنبياء لا يبقى عنده أدنى شك في نبوة محمدٍ والذي يُكذب بنبوة محمدٍ هو بالأحرى يكذب بنبوة كل نبيٍ أخر. يقول ابن تيمية: الذي يُكذب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يُكذب بالطريق الذي عرفنا من خلاله صدق الأنبياء وصحة نبوتهم. فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى علم به نبوة محمد بطريق الأولى، فإذا قالوا علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا، قيل لهم معجزات محمد أعظم وتواترها أبلغ والكتاب الذي جاء به محمد أكمل، وأمته أفضل وشرائع دينه أحسن .وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل وهوﷺقد جمع في شريعته بين العدل والفضل. (١)

فإن ساغ لقائل أن يقول هو مع هذا كاذب مفتر كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك فيبطل بتكذيبهم محمدا جميع ما معهم من النبوات، إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله فكيف بما هو أولى منه. فلو قال قائل إن هارون ويوشع وداوود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيا أو أن داوود وسليمان ويوشع كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيا، أو قال ما تقوله السامرة أن يوشع كان نبيا ومن بعده كداوود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء، أو قال ما يقوله اليهود إن داوود وسليمان وأشعيا وحبقوق وميخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء والمسيح بن مريم لم يكن نبيا، كان هذا قولا متناقضا معلوم البطلان .فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له، ودلائل نبوة الأكمل أفضل فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل، وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء وأبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء، أو قال إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة، أو قال إن صاحب الملكي والمسيحي ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء، أو قال إن كوشيار والخرقي ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة وبطليموس ونحوه لم يكن لهم علمٌ بالهيئة. ومن قال إن داوود وسليمان وميخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد بن عبدالله لم يكن نبيا فتناقضه أظهر وفساد قوله أبين من هذا جميعه، بل وكذلك من قال إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ومحمد ليس برسول والقرآن لم ينزل من الله فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد وما جاء به من قبله، وتدبر كتابه والكتب التي قبله وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء، وهذه الجملة مفصلة مشروحة في غير هذا الموضع لكن المقصود هنا التنبيه على مجامع جوابهم، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليلٍ واحدٍ يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم، ولا حجة لهم أيضا على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء، فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم. وأيضا فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم فكذلك تعلم نبوة

(١) –الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية ، دار العاصمة، السعودية، ط٢ ١٩٩٩م، ص: (٢٩/٢)

محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحدٍ من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد في كلمةٍ مما جاء به"[١]

ويقول في موضعٍ آخر" :فما من جنسٍ من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح إلا ودلالته على نبوة محمد أقوى وأكثر، فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد ومن الطعن في نبوة محمد ﷺالطعن في نبوة موسى والمسيح"[٢] فلا يمكن التصديق بنبوة نبيٍ من الأنبياء مع التكذيب بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم. والطرق الذي بها تثبت نبوّة الأنبياء بمثلها وبأعظم منها بكثير تثبت نبوة محمد.

بل إن التصديق بنبوته أولى من التصديق بنبوة غيره، وكل دليلٍ يُستدل به على نبوة نبيٍ، فمحمد صلى الله عليه وسلم حاز منتهى جنس ذلك الدليل. وما ترتب على بعثته من تحقيق التوحيد ووضع شرائع العدل وغيرها من مقاصد الرسل أعظم من غيره وأجل وأكثر. وبذلك يجب القطع بأن رسالته أتم وأعظم. فلم يأت- صلى الله عليه وسلم -بنسقٍ خارجٍ على نسق الأنبياء قبله{بل جاء بالصدق وصدق المرسلين }[الصافات ٣٧] ، وإلا فمَن علمه بطلان عبادة الأوثان؟ مَن علمه بطلان عبادة الآلهة البشرية؟ مع أن العرب ما عرفوا التقرب إلى الله إلا بوثنٍ أو ببشر-! ومَن علّمه عصمة الأنبياء حتى يطهر مقامهم الشريف مما ألصقه به أتباعهم؟ من علّمه فضيلة ترك الزنا والخمر والربا وفواحش الأعمال— مع أن مدار أشعار العرب ومعلقاتهم التي بها يتباهون على الخمر والنساء والغزل- ؟ من علّمه التقرب إلى الله بالطاعات؟ أليس كل هذا كان طريق الأنبياء قبله؟ {ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم} [فصلت:٤٣] فلم يكن بدعا من الرسل. ولذلك مَن آمن بأحد الأنبياء وقرر في نفس الوقت أن يكفر بخاتمهم فهو ضالٌ مفتر، فالذين وصلتهم البينات الظاهرات على صدق النبي وهم يعرفون حال الأنبياء من قبله ثم شهدوا حاله، وبعد ذلك أنكروا رسالته فأولئك هم الظالمون.

وقد جاء وفدٌ من النصارى إلى النبي وهم وفد نجران، وأرادوا مباهلته .لكن لما شهدوا حاله وحال رسالته ومشابهتها لرسالات الأنبياء من قبله نكصوا عن المباهلة وخافوا. وفيهم نزل قول الله تعالى {فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين }[آل عمران:٦١] والمباهلة أن يقولوا :اللهم العن الكاذب في شأن عيسى وقد وافقهم- صلى الله عليه وسلم، وبالفعل خرج ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي، وقال لهم :إذا دعوت فأمّنوا، فقالوا :حتى ننظر في أمرنا ثم نأتيك فقال ذو رأيهم : والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبيٌ مرسل، وأنه ما باهل قومٌ نبيا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوا وصالحوه على الجزية! تخيل صالحوه على الجزية، في مقابل ألا يدعو عليهم؟ أي حجمٍ من المكابرة والعناد وصل إليه هؤلاء! وعن ابن عباسٍ قال :لو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا [٣]! فهؤلاء الذين شهدوا صدق الرسالة لا حجة لهم في كفرهم {يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون} [آل عمران:٧٠] فلا يستقيم إيمان عبدٍ يرفض رسالة ربه ويمتنع عن قبول بعض الرسل، بينما يرض بآخرين. قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله} [الحديد:١٧] {يا أيها الذين آمنوا} بعيسى {اتقوا الله وآمنوا برسوله} محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى فدعوة الإسلام دعوة لا يمكن لعاقلٍ أن يردها.!

---

(١) -الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، دار العاصمة، السعودية، ط٢ ١٩٩٩م، ص: (٢٩/٢)، ودقائق التفسير له (٣٤/٢) علوم القرآن، دمشق.
(٢) -المرجع السابق ص: (٤٥/٢)
(٣) -مسند أحمد رقم (٢٢٢٥) والحديث صحيح والسنن الكبرى للنسائي رقم (١٠٩٩٥) والقصة في كتب السيرة والتاريخ

١٥–الذي يظن أن إقناعا لعقول الناس تم بالسيف، أو أن ترك هؤلاء الناس لدينهم كان رغبة فقط أو رهبة من أمرٍ دنيوي، هو واهمٌ جاهل. فأي أمةٍ هذه التي تركت ما ينعقد عليه قلبها—دينها–من أجل خوفٍ طارئ؟ وأي جيلٍ هذا الذي يستسلم عن بكرة أبيه ويتحول إلى عاملٍ مخلصٍ في خدمة دينٍ جديد لمجرد تلويحٍ بسيفٍ؟ إن هذه الفروض التي يطرحها الملحدة الجدد لتبرير تحول حضارات الأرض في ظرف جيلٍ واحد—جيل الصحابة–إلى الإسلام، وذوبان عقائد الكفر من القلوب بشواهد الحق لهي فروضٌ تسيء لأصحابها أكثر مما تحفظ لهم كفرهم!

وقد آمن بمحمدٍ أهل مكة وأهل المدينة وأهل البحرين وأهل اليمن ولم يعط واحدا منهم درهما، ولا كان معه ما يخيفهم. وقد أسلم الجلندي ملك عمان زمن رسول الله لا خو فا من سيفٍ ولاحبا في رياسة .بل كان إسلامه لأن رسول الله يأمر بالخير ويفعله، وينهى عن الباطل ويجتنبه؛ قال الجلندي" :لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخيرٍ إلا كان أول آخذٍ به، ولا ينه عن شر إلا كان أول تاركٍ له ...وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد وأشهد أنه نبي[١]" وأسلم النجاشي ملك الحبشة حين سمع جعفر بن أبي طالب يتلو شيئا من سورة مريم .فقال" :إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة"؛ ثم بكى حتى اخضلت لحيته[٢]! أما باذان عامِل كسرى على اليمن فقد أسلم بعد أن شهد معجز ة حية لرسول الله وذلك أن النبي أخبر رُسل باذان بهلاك كسرى بعد أن مزّق رسالة رسول الله ولم يصدقا فعادا إلى باذان، وانتظر باذان الخبر من بلاد الفرس، فجاء الخبر بعد شهورٍ بمقتل كسرى في تلك الليلة التي حددها النبي ، فأسلم باذان، وأسلمت حكومته، وأسلم أهل اليمن بإسلامهم، وجاء وفدٌ من أهل اليمن يتعلمون الإسلام وهم الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل [٣].

فالذي يظن أن سيفا رُفع لإسلام تلك الأمم فقد أبعد النُّجعة، بل ما رُفع السيف أولا إلا في وجه الإسلام ولم يكن ينشغل المكذبون برسول الله إلا بشيء للتخطيط لهدم الدعوة وقتل قائدها صلى الله عليه وسلم بأي ثمنٍ. فقد حوربت الدعوة منذ اللحظة الأولى بالسيف تار ة وبالمكر تارات، والنبي كان يعلم من شأن الأنبياء قبله أن كثيرا منهم قد قُتل .فلم يرده ذلك ولم يجعله يجزع بل صبر وصابر ودعا وأصلح وهادن ورفق بهم ودعا لهم. وقد أقام بقلةٍ قليلةٍ من أصحابه طيلة ثلاثة عشر عاما بين قومٍ يريدون استئصال شأفته هو أتباعه. فقد جاءهم بدينٍ يخالف فيه عهدهم ويسفه أحلامهم .وكان يقرأ في مجامعهم القرآن وفيه عيبهم وعيب آلهتهم.

وكان يخرج إلى المواسم ويقوم في المحافل ويبرز إلى القبائل يدعو لتوحيد النبيين من قبله ويحذر من الشرك وأهله، كل هذا وقريش ترصده وتتبعه برجالاتها ودهاتها، ويصدون الناس عن دعوته بل ويأمرون الحجيج أن يضعوا الكرسف—القطن–في آذانهم حتى لا يسمعوا للقرآن وهو يتلوه لئلا يتأثر العرب به.! وظلوا يمكرون به ويحاولون اغتياله المرة تلو المرة ويمكرون بصاحبته ويقتلونهم ويعذبون من آمن معه، وحبسوه في شعب أبي طالبٍ أربع سنواتٍ، وحاصروا داره وألقوا على كتفه القذر ومكروا به كل مكرٍ وقد تضرع أهله إليه أن يلين لقومه من قريش، وأن يتوقف عن عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم فلا يزداد إلا إبطالا للباطل وإحقاقا للحق.

وقد تلونت الأحوال عليه من غنى وفقرٍ وسلمٍ وخوفٍ وأمنٍ وإقامةٍ وقتل أحبائه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بالحبس والتجويع والقهر والإغراء ومحاولة القتل، فهو في مجموع التعذيب والأذى لم يُعذب نبي ولم يؤذ نبيٌ مثل ما أوذي[٤]، وللمرء أن يتساءل : لماذا مع الترهيب الذي تعرض له في بداية دعوته لا يتوقف عن الدعوة؟ فضرَ به الصبيان

---

(١) –بتمامه في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر والشفا للقاضي عياض

(٢) –انظرها في كل كتب السيرة وأكثر كتب الحديث وراجع مسند أحمد (١/ ٢٠٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح

(٣) –انظر تفاصيل الحادثة في تاريخ الطبري والمنتظم لابن الجوزي والبداية والنهاية لابن كثير.

(٤) –من وحي كتاب "رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم " د. ثامر بن ناصر مكتبة الرشد

في الطائف حتى أُ دمي رأسه ورجله الشريفة، ودخل مكة في جوار مطعم بن عدي ثم رد جواره، ورُمي أمعاء الجزور عليه، وعانى وأتباعه الجوع والحصار لمدة ثلاث سنواتٍ في شعاب مكة حتى أنه كان يربط الحجرين على بطنه من شدة الجوع.

وقال: " لقد أُ خفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم، وما لي ولبَلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال[١]" ،كل هذا يجري في الوقت الذي يعرض عليه الكفار الرياسة والمال، لا مقابل أن يتنازل عن دعوته، بل مقابل أن يتركهم وآلهتهم وألا يُسفه عقيدتهم! لكن دعوته كانت وحيٌ يوحى ليست مِن قِبل نفسه حتى يتركها لأفضل العروض المتاحة! فكان أمام كل هذه الفتن قويا في الحق لا يخش لومة لائمٍ. وظل طيلة حياته ثبتا حين الكرب الشديد، لا يفر ولا يجزع . يقول علي بن أبي طالبٍ: كنا إذا حمي الوطيس واحمرت الحُدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب من العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا للعدو[٢]".

أما عبادته وذكره لربه على كل أحواله، وقيامه حتى تتفطر قدماه، ووصاله الصوم وتصدقه بكل ماله وإحسانه إلى أهل بيته وإلى جيرانه، وتفقد أحوال أصحابه؛ فهذا مما سارت بأحاديثه ومروياته الركبان. فكيف يستقيم في عقلٍ زهده في الدنيا؛ وتصور الملحدة أنه طلب الدنيا بالسيف! وكان زهد النبي في الدنيا زهد من ملكها وهي راغمة لا زهد من عجز عنها. فلم يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيامٍ تباعا حتى فارق الدنيا[٣].

ولم ينم على الفرش الناعمة؛ وقد دخل ابن مسعودٍ يوما على رسول الله وأثر الحصير بأحد جنبيه فبكى على حال محمدٍ- صلى الله عليه وسلم. فقال :ما يبكيك يا عبد الله؟ قال :يا رسول الله كسرى وقيصر في الحرير والديباج .فقال: لا تبكِ يا عبد الله فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة، وما أنا والدنيا ومثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ نزل تحت شجرةٍ وتركها[٤] فقد كان ينام على جلدٍ حشوه الليف ومات ودرعه مرهونةٌ عند يهودي [٥] فعندما يتهمه الملحدة بطلب الدنيا فاعلم أنهم لا يعرفون شيئا عن سيرته .فكيف يرضى بالعيش الكدر وكانت الدنيا تحت يده ولم يمت إلا وجزيرة العرب تدين بالإسلام .

أما عن رحمته بأمته؛ فانظر إلى رواية معاوية بن الحكم السُلمي، حين يقول :بينا أنا أُصلِّي مع رسول الله: إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلتُ :يرحمك الله، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت :واثُكل أُمِّياه !ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما صلى رسول الله فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلِّما قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليما منه، فوالله ماكَهَرني ولا ضَرَبني ولا شتمني، قال:" إنَّ هذه الصَّلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنَّما هو التسبيحُ والتكبير، وقراءة القرآن [٦]"، وقد جذبه أعرابي من ثيابه جذبة أثرت في صفحة عنقه وقال له: يا محمد مر لي من مال الله الذي عنده فإنه ليس مالك ولا مال أبيك فالتفت إليه وضحك وأمر له بالعطاء [٧] فقد كان صلى الله عليه وسلم حكيما في معالجة الأمور. دائم البِشر سهل الخلق سمح الوجه، يخزن لسانه لإحقاق الحق وإبطال الباطل، عظيم الكرم سخي الروح، فيجيب دعوة العبد ويأكل مع المجذوم ويحلب شاته ويخدم نفسه.

---

(١) -رواه الترمذي (٢٤٧٢)
(٢) -صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده وغيره
(٣) -متفق عليه أي في الصحيحين، تفاصيل التخريج في الأبحاث القادمة .
(٤) -متفق عليه في الصحيحين.
(٥) -متفق عليه في صحيح البخاري (٢٩١٦) وصحيح مسلم (١٦٠٣) .
(٦) -صحيح مسلم رقم: (٨٤١)
(٢) -صحيح: النسائي (٤٧٧٦) وأبو داوود (٤٧٧٥)

وقد أوتي من الحِكم البالغة والعلوم الكثيرة وعلوم التشريعات الشاملة الجامعة في كل صغيرةٍ وكبيرة في أمور الدنيا والدين وهو أمي من بيئةٍ أميّة، فبُعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع وجاء القرآن لا على مقاسه هو ولا على مقاس بيئته ولا نزولا على رغبات أصفيائه وصحابته، وإنما كان يأتي معاتبا ومصححا ومفسرا ومعلما وهاديا. فالمدعون من البشر والراغبون في العلو في الأرض يحاولون قدر الإمكان إخفاء عيوبهم لستر حقيقة أمرهم على الناس، أما النبي فما أكثر الآيات التي تصحح وتعاتب على مواقفه مثل أول سورة عبس والتحريم والآيات في أسارى بدر، أيضا لو تبصرت إلى حاجته الماسة لنزول الوحي في لحظاتٍ عصيبة ليقطع ألسنة المشركين والمشككين وإذا بالآيات تتأخر جدا ولو كانت من عند نفسه لما تأخرت .صلى الله عليه وسلم!

وفي الأخير :أخبر الله عز وجل بنصر نبيه، وأخبر بسيادة دينه وانتشاره، وديانات العرب قائمة وملوكهم على جزيرة العرب مستولية، وكانت ممالك الهند وكسرى والقسطنطينية مما لا يحلم العرب أن يروه فضلا عن أن تنتشر كلمتهم فيه. فركب جيله البحار وأخرجوا الروم من مصر والشام وأرض المغرب. وكانت العرب قبلها بقليل تسخر حين تسمع أن هذا الرجل سينتصر ويبطل الباطل في شرق الأرض وغربها، وكانوا يعتبرون انتصاره من قبيل هدم الجبال الشم الرواسي بريشةٍ تطير بل أخبر الله في كتابه أن نصر نبيه وانتشار دينه حقٌ قادم، وأن مَن ظن خلاف ذلك فليشنق نفسه ليهدأ غيظه: {من كان يظن ألن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ} [الحج:١٥] فقد أخبرت الآيات أن نصره قادمٌ لا محالة، وهو ما وقع بتمامه!

١٦- كان يتحدث عن أمور غيبية كثيرة جدا وعظيمة لزمنه ولزمن أصحابه من بعده وللأعصر اللاحقة قد تدعو عند فشلها وثبات عكسها إلى تكذيب المكذبين أو استهزاء المستهزئين أو انقلاب الموالين وهنالك حديث طويل لها في الدليل الثالث مع العلم أن حديث النبي حولها كان في أشد الأوقات حلكة وظلاما لمستقبل الإسلام في مراحل تشير لحالات الفناء والنهاية لهذه المجموعة المؤمنة؟ ثم كيف يترك كل كذب وكل فحش ثم يكذب على الله ثم يحفظه الله ويحفظ الكتاب الذي جاء به كما حفظ السماوات والأرض إلى يوم القيامة وتأتي نبوءاته يقينا، وقد أخبر أن كتب النصارى واليهود حُرفوا وبُدلوا كما أثبت ذلك أهلها اليوم، وأن كتابه الذي أنزل به لن يُحرف ومازال الحجة على الخلق يُتلى آناء الليل وآناء النهار؟

١٧- أثر النبل والاستقامة كان ظاهرا على ذاته وعلى صحابته وأتباعه بحق، خشوعا وخضوعا لله وصدقا وطهارة وأخلاقا ومحبة وكرما وإنسانية ونبلا وحرصا على الخير ونبذا للشر وبعدا عن الأباطيل والفواحش سرا وعلنا وقضاء بالحق وكفا عن الظلم باللسان واليد وعن الزور والبهتان وحياء وعفة وعزة وكرامة، ويظهر عكس ذلك في كل من خالف سنته؟ كان ولم يزل أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأحب إليهم من أولادهم، حتى قال قائلهم: (ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا[١] ؟ جاء عروة بن مسعود الثقفيّ في مفاوضات الصلح في الحديبية مندوبا عن قريش، فكلّمه رسول الله وجعل عروة يرمق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما تنخم نخامة «بصقة تخرج من الحلق» إلا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها جلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك: "على كسرى وقيصر والنجاشيّ، والله ما رأيت ملكا يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمدا، ووصف لهم ما رآه، وقد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها[٢].وكذلك الصلاة والسلام عليه فإن مئات الملايين تلهج ألسنتهم بذلك، وأما

(١) -السيرة لابن هشام (١٧٢/٢)، عيون الأثر لابن سيد الناس (٦٢/٢)، السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٢٨)
(٢) -ابن القيم زاد المعاد (٣٨٢/١) والسيرة النبوية للندوي (ص ٣٨١)، تاريخ الطبري (٦٢٧/٢) والكامل لابن الاثير (٨٤/٢)

الشعراء والأدباء فقد تغنوا بذكره ودبَّجوا القصائد والمدائح، ومن شدة حبِّه وتقديره فإن الأُمَّة قد أجمعت على حبِّ وتقدير أهل بيته الشريف فلهم مكانة كريمة وخصائص عظيمة، كل ذلك من أجل تعظيم قدر نبي الرحمة ﷺ.

١٨- لم يتكلم عمّا يراه ويسمعه حوله من الإرث الجاهلي الضخم من الأشعار والحروب والقصص التي لا تحصى في الجاهلية مع العلم أن الإنسان ابن بيئته !، لم يذكر القرآن شيئا منها !!أين حديث النبيﷺ عن نفسه في القرآن؟ لم يذكر شيئا عن طفولته ولا عن مراهقته ولا عن شبابه ولا عما حدث له في الأربعين سنة التي سبقت نزول الوحي! لم يذكر فيه أصحابه من أمثال الصديق ولو مرة واحدة بالاسم؟ وهو صاحبه من قبل الإسلام ومع ذلك لم يذكره بالاسم في القرآن ولا مرة واحدة !!أين ذكر السيدة خديجة عنها التي وقفت معه في أشد الأوقات صعوبة وتحملت في سبيل ذلك الأذى والحصار والجوع؟ لماذا لم يذكرها ولا مرة واحدة لو كان هو مؤلف القرآن ؟!أين ذكر بناته؟ لماذا لم يذكر أيا منهن أبدا؟ أين ذكر والدته آمنة بنت وهب؟ لم يُشر لها بأي إشارة! الخلاصة كتابه ليس كتاب شخصي.!

بل العجيب أن هناك سورة كاملة باسم مريم عليها السلام والدة عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام !! عجيب فعلا أن تجد كتابا يقول المشككون أنه من تأليف محمد ﷺ ثم لا تجد فيه سورة آمنة أو سورة خديجة أو سورة عائشة أو سورة فاطمة ولكن تجد سورة مريم! لو كان محمدﷺ هو مؤلف القرآن الكريم .... أليس من المنطقي أن يقوم بتجاهل ذكر أقرب الأنبياء زمنيا إليه – عيسى عليه الصلاة والسلام – حتى ينساه الناس؟ عيسى عليه السلام ذُكر في القرآن ٢٥ مرة، ومحمدﷺ لم يُذكر سوى خمس مرات !! ... اربع مرات محمد ومرة واحدة أحمد، يقوله الدكتور غاري ميلر مؤلف كتاب "القرآن المذهل": " عندما قرأت القرآن لأول مرة كنت أتوقع أن أجد كلاما عن الصحراء وعن العادات والتقاليد المحلية في تلك البيئة الصحراوية البسيطة ... كنت أتوقع أن أقرأ عن بعض الأحداث العصيبة التي مرت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم مثل وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها أو وفاة بناته وأولاده..... لكنه لم أجد شيئا من ذلك .. بل الذي جعلني في حيرة من أمري أني وجدت أن هناك سورة كاملة في القرآن تُسمى سورة مريم وفيها تكريم لمريم عليها السلام لا يوجد له مثيل في كتب النصارى ولا في أناجيلهم !! وفي نفس الوقت لم أجد سورة عائشة أو سورة فاطمة! وكذلك وجدت أن عيسى عليه السلام ذُكر بالاسم ٢٥ مرة في القرآن في حين أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يذكر إلا ٥ مرات فقط فزادت حيرتي !! " ويقول لينظر المرء ماهي هذه الأشياء التي كان يعايشها رسول الله وكان لها انعكاسا في القرآن ، من المعروف أن حياته كانت صعبة وكل أولاده وبناته قبضوا في حياته ما عدا فاطمة ، وكانت له زوجة لعدة سنين السيدة خديجة لها مكانة كبيرة في قلبه وحياته لم تمت فقط في حياته بل ماتت في أصعب ظروف حياته في الواقع كانت زوجة عظيمة لأنه في بداية الوحي لجأ إليها خائفا يرتعد فواسته وثبتته وأيدته وأنت لا تجد حتى في أيامنا هذه أحدا من العرب حينما يكون خائفا يذهب إلى زوجته ليعلمها بهذا الخوف بالرغم من أن هذه بعض الأمثلة فقط التي كانت تدور في ذهن الرسول لكن القرآن لم ترد فيه مثل هذه الأشياء لا موت بنيه ولا موت بناته ولا موت زوجته لا انفعالاته في بداية نزول الوحي عليه ولا تصرف زوجته لا شيء من هذا بالرغم من أن هذه الأمور آلمته وشغلته وأخذت جزء كبيرا من انفعالاته ولو كان القرآن من نتاجه الشخصي لظهرت انفعالاته النفسية في نصوصه [١] "

ونُضيف أيضا أن موسى عليه الصلاة والسلام يُذكر في القرآن أكثر من ١٣٠ مرة !! ما شأن رجل يعيش في صحراء مكة بموسى المصري الذي عاش قبله بألفي عام ليذكره ١٣٠ مرة ؟! كان يكفي محمدا عليه الصلاة والسلام أن يذكر موسى مرة أو مرتين ثم يترك باقي القرآن للحديث عن نفسه وأهله وأصحابه وتاريخ مكة وتراثها وعن شعراء الجاهلية العباقرة ومُعلقاتهم من أمثال أمرؤ القيس وعنترة تلك الأشعار كانت مُعظمة عند أهل الجاهلية حتى أطلقوا عليها اسم

(١) –غاري ميلر، القرآن المذهل "المعجز" ص ١٢ من النسخة العربية على النت الناشر موقع رسول الله مع إضافات وتعديل .

المعلقات لتعلق قلوب أهل الجاهلية بها مع ذلك لم يُشر لها القرآن الكريم بأي إشارة! طبيعة النفس البشرية هي أن تتحدث عما تراه وتسمعه ولكن ما جاء به محمدﷺ مُخالف لما رآه وسمعه! إن القرآن الكريم هو من خارج محمدﷺ وليس من عند محمد.

١٩-لا يوجد كتاب نزّه الخالق وقدسه وأمر بالتوحيد والتصديق بالرسل وتنزيههم عن كل نقيصةٍ، والحث على الصالحات الباقيات مثل القرآن؛ منذ كانت الدنيا فالقرآن منسوجٌ بالتوحيد والنبوات والغيبيات والحِكم والفقه والتشريع والآداب، كل هذا بحبكةٍ لغويةٍ ونسجٍ لم تعهده العرب وكم من ملايين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة دُفعت لمحو القرآن، وإذهاب أثره عن القلوب، وتشتيت أتباعه وتشويه مراده عبر الأزمان، طمعا أن يُفعل به ما فُعل بالكُتب من قبله [(١)]. فبقي رغم كل المحاولات رافعا أعلامه حافظا أحكامه.{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}[الأنفال :٣٦]، وإذا أنعمت النظر في دين النصارى وجدت أن كل شرائعهم مبدلة محرفة محدثة، فلم يكن المسيح عليه السلام يعرف كنيسة فضلا عن أن يبنيها فضلا عن أن يضع قوانينها، ولم يكن يعرف ناقوسا ولا صليبا ولا أسرا را ولا مطانيات— السجود للقساوسة-، ولا أيقونات— صور قديسين-، ولا مراتب كنسية ولا طقوس كهنوتية .وليس في الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم شيءٌ من ذلك! فهي تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو انتقلت إلى التوراة لوجدت أن العمل بها صار من الصعوبة بمكان، حيث شدد اليهود على أنفسهم فما أطاقوا؛ وطقوس التطهر والنجاسة عندهم تحتاج إلى قرابين وانعزالية تامة عن الحياة! وقد تعلقت أحكام التوراة بالهيكل السليماني والمذبح وقد خرِب الهيكل ولا أحد يعرف له مكانا، وهُدم المذبح وزال أثرهما من الوجود وهذا برهانٌ واضح على نسخ الشريعة.أما الهندوس الذين يتردون من الجبال ويحرقون الأجساد ويغرقون في الماء من أجل التطهر فلم يبتعدوا كثيرا عن طقوس اليهود، ولو أراد الله بعباده الهلكة للتطهر ما أذِن لهم في صنعة لبوسٍ لتحصنهم من بأسهم .ولما أوجد لهم سرابيل تقيهم الحر[(٢)] ! "فليس في التوراة ولا الإنجيل مماثلا لمعاني القرآن: لا في الحقيقة. ولا في الكيفية. ولا الكمية. بل يظهر التفاوت لكل مَن تدبر القرآن وتدبر الكتب[(٣)]" ،فالقرآن رسالة" اليسرى "للأمم؛ يقول تعالى {ونيسرك لليسرى}[الأعلى:٨] أي :للشريعة السهلة وهي الإسلام. ولو انتقلت إلى معاني القرآن لوجدتها غير محدودةٍ. وعلومه غير محصورةٍ ولا معدودةٍ.

فقد اتسع مجاله لكل فن : " فأنت تجد في كتاب الله أخبارا وأحكام ومواعظ وأمثال وأخلاق وآداب، وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار، وتدبير السياسات ومجادلة الأخصام وإقامة الدلائل على أصول الاعتقاد وإزالة الريب، ووصف الغيب ووصف عوالم الأرض والسماوات، خارجا بكل ذلك في حسن نظمه عن كل أسلوب فلا هو من الأراجيز البدوية ولا القصائد العربية فكلما تكرر حلا، وسمعته من أي الأفواه غلا مع اقتران معانيه المتغايرة فينقلك من الوعد إلى الوعيد ومن ماضٍ إلى حاضرٍ ومستقبل ، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر بل تتجانس معانيه في بنيةٍ نظميةٍ بديعة[(٤)] " فإعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط كما يظن الملحدة.ولا في لفظه فقط.ولا في معانه فقط. بل إعجاز القرآن يشمل اللفظ والمعنى والبلاغة، وينتقل إلى العلوم والأحكام والتشريعات وتحليل النفس وسبر أغوارها وإشباع مراداتها. وكما يقول ابن تيمية" :فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم

---

(١) -الفقرة من وحي كتاب" :رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د .ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد

(٢) -الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري، ص ١٣٩.

(٣) -الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥ /٤٣٥ دار العاصمة، السعودية الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

(٤) -الدلائل العقلية للألوسي مخطوط

عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه ([1])"وانظر إلى عبارته الأخيرة " وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه."

فالنظم البلاغي القرآني جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني، فاللفظة الواحدة من القرآن لو أخذتها وأدرت لغة العرب كلها لتحصل على لفظةٍ أحسن منها ما استطعت ولو أردت أن تؤلف بكلماتٍ أخرى غير كلمات القرآن لتوازي حسن تأليفه وحبكته ورونقه لشهدت له بالنصر وعلى نفسك بالعجز. انظر إيجاز اللفظ مع دقة المعاني وكثرتها وتلاؤم الكلام في قوله تعالى:{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[هود:٤٤] وانظر إلى الإيجاز القرآني المعجز في قوله تعالى{فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [الصافات ١٠٣] (فلما أسلما) خضعا وانقادا لأمر الله تعالى (وتله للجبين) صرعه عليه ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة وكان ذلك بمعنى وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئا بمانع من القدرة الإلهية هل تستطيع أن تأتي بهذا المعنى المطلوب بنفس هذا العدد من الكلمات في إطار حبكةٍ بلاغية لا تنبو عن سير الآيات قبلها وبعدها؟ ولو انتقلت عن لغة العرب وأردت أن تترجم كلمة مثل " أنلزمكموها " في قوله تعالى{قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[هود:٢٨] فأنت تترجمها بعد أن تتفكك ويخفت رونقها إلى سبع كلماتٍ بالإنجليزية Shall we compel you to accept it وحبكة اللفظ القرآني واستيعابه للمعنى التام مما سارت بأمثاله الركبان .أنظر إلى كلمة" فأسقيناكموه "في قوله تعالى { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}[هود:٢٢] لفظة واحدة بها حرف عطف ، وفعل وفاعل، ومفعول أول ومفعول ثانٍ. ولذا عندما سمع العرب الأقحاح كتاب الله عز وجل خطف أسماعهم بقوة تأثيره ورقراق بلاغته؛ فعن جبير بن مطعم عن أبيه حين سمع قوله تعالى{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ}[الطور:٣٥] قال :كاد قلبي أن يطير! إن كل هذا ليقطع بأن الظاهرة القرآنية ما جائت إلا لتتحدى وتهدي وتُصلح!

لم يزل القرآن يقرع المشركين البلغاء أشد التقريع، ويُ سفه أحلامهم، ويذم آلهتهم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته بل لقد قال الله عز وجل للمشركين :{ لم تفعلوا ولن تفعلوا}[البقرة:٢٤] فما فعلوا، ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عواره لجميعهم، فقد ولوا عنه مدبرين وللإنسان أن يتساءل كيف يجرؤ رجلٌ أن يتحدى أناس في جنس ما يحسنون ويبدعون، ثم يتركهم على مضي السنين وقد علاهم الوجيب والخزي والسكون؟ يقول د .عبد الله دراز :" ألم يكن يخشى الرسول بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية ؟ فيهبوا لمنافسته وهم جميعٌ حذرون؛ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا حتى يُخرجوا كلا ما إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميَه ولو في بعض نواحيه! ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجلٌ يعرف قدر نفسه إلا وهو مالئٌ يديه من تصاريف القضاء، وخبر السماء، وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح، على مر العصور والدهور[2]"

---

(١) –الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥ / ٤٣٤

(٢) –راجع الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٦٥، والنبأ العظيم للدكتور عبدالله دراز ص ٤٤–٤٥.

فتحدى القرآن أهل البيان في عباراتٍ محرجة، أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ منه، فما فعلوا فلم يأت العرب جميعا ولا الأمم التي نُقل لها التحدي بشيء يستريح له الملحدة ويريحون به غيرهم! يقول الألوسي رحمه الله" :فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفه ولا أعرب عن موصوفٍ أو صفة، وأظهر الكل العجز عن المعارضة في كل وقتٍ وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين!فكأن محمدا صلى الله عليه وسلم موجودٌ كل عصر بين أظهرنا والوحي غير منقطعٍ منا، لأن دليل نبوته وحجته يُذكِّر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار[١] " فقد رأى هؤلاء الذين يتحداهم القرآن أن تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب لمحاربة رسول الله أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي فهذا بالغ جهدهم { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت:٢٦]

٢٠–قال المستشرق (هاملتون جب): (إن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينيًا جديدًا متميزًا، ومن هذه الوجهة يغدو التساؤل عن مصادر الدين الذي جاء به محمد أمرًا غير وارد بالمرّة). [٢] أما نظريات بعض المستشرقين وأتباعهم الذين يقولون نقل محمد عن الكتاب المقدس، فهل كان الكتاب المقدس مترجما للعربية زمن النبي؟ وهل ثبت أن محمدا كان قارئا؟ تفصيله في بحث القرآن! وقد صدق الدكتور عبد الرحمن بدوي في قوله: (ولكي نفترض صحة هذا الزعم–نقل الرسول عن أهل الكتاب–، فلا بد أنّ محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولابد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود، والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس–والمذاهب المسيحية.) [٣]!!

ومن أوضح الأدلة على رد دعوى النقل من غيره التحدي أن يأتي بمثله، فلو كان القرآن مأخوذا من التوراة والإنجيل والكتب السابقة لما استطاع محمد أن يتحدى الناس ويقدم على هذا الخطأ الفادح لأن هذه الأصول المنقول عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود، ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه والعمل مثل عمله، فينكشف؟ ، ثم هذه الأساطير والمراجع ليست خاصة بمحمد ، بل هي كتب متداولة بيد الجميع ، إن افتراض تعلم النبي من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات) [٤] ، وإن وجود بعض الشرائع في القرآن ، التي تتفق مع ما في التوراة والإنجيل ، أو حتى ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها، فالقرآن لم يأت لهدم كل شيء ، بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق، فالصدق والشجاعة والكرم والحلم والرحمة والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئا بل باركها وحث عليها، لذلك قال النبي: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» [٥]ولم يقل: لأنشئها، إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل، أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع، سواء في الكتب السابقة السماوية ، أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره [٦]

---

(١) –الدلائل العقلية للألوسي مخطوط

(٢) –هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ت/ إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص ٢٥٤– ٢٥٥

(٣) –عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ت/كمال جاد الله، القاهرة: الدار العالميّة للكتب والنشر، ١٩٩٩م، ص٢٤، وانظر ((هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟)) للدكتور سامي العامري فإنه رائع ومميز في هذا المجال.

(٤) –المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، لمحمد باقر الحكيم (ص:٤٣).

(٥) –أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة (٨٧٢٩)، رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغا من غير إسناد (كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق) بلفظ (بعثت لأتمم حسن الخلق)، وأخرجه البزار بلفظ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (انظر فتح الباري (٦/٦٦٥).

(٦) –المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (ص:٤٦).

، وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} [يونس:٣٧] .

كيف يمكن اعتبار التوراة والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن، خالفها في كثير من الأشياء؛ ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية ،ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها، على الأقل تفاديا للاصطدام بالتوراة والإنجيل)، ففي قصة موسى يشير القرآن إلى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته، كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق ، لا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه، في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل؛ حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون، وفي قصة ولادة مريم للمسيح وغيرها من القضايا[١] ،ومن المعلوم أن في القرآن ما لا وجود له في كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب، فكيف أتى بها النبي؟ [٢]

والأهم لو كان محمدٌ هو مؤلف القرآن الكريم لاحتاج إلى جيوش من المترجمين والنُقّاد وخبراء المخطوطات والجيولوجيين وعلماء يهود ونصارى من جميع الطوائف اليهودية والنصرانية !! والسبب أنه كما يقول الباحث هشام طلبة في كتابه " محمد في التوراة والترجوم والتلمود " أن بعض القصص التي ذُكرت في القرآن الكريم تشبه القصص الموجودة في كتب اليهود والنصارى، وسنُطلق على هذه التشابهات اسم " الشواهد القرآنية " .... وهذه الشواهد القرآنية أو التشابهات تتضمن مفاجأة كبرى وهي كالتالي:": سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية في كتب اليهود والنصارى مع ان عدد هذه الكتب كبير جدا ... كما ان الكتاب الواحد له اكثر من نص .... التوراة نفسها سينية لها ستة نصوص اساسية (البشتيا – الفولجاتا – الشبعينية – السامرية – الترجوم – القياسية) : النسخة القياسية لها ثلاث نصوص فرعية (الالوهيمي – اليهوى – الكهنوتى) هذه هى النصوص الاساسية عدا العديد من النصوص الفرعية ، وأي ناشر للكتاب المقدس يجب ان يستخدم اكثر من نص من هذه النصوص مستعينا بعلم يسمونه " علم نقد النصوص " ليصلوا لنص اقرب ما يكون للنص الأصلي المفقود ، سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية مع ان هذه الكتب المذكورة كُتبت بلغات مختلفة العبرية ، السامرية ، اللاتينية ، اليونانية ، الآرامية ، السريانية ، القبطية الحبشية ، المندائية ، و غيرها ما عدا العربية.

مع ان هذه الكتب لم نجدها مرة واحدة بل لقد جُمعت على مر قرون طويلة منذ القرن الرابع الميلادي وحتى الان، أغلب هذه الكتب وجدناها بعد وفاة محمدﷺ وآخر ما وجدناه كانت مخطوطات البحر الميت (١٩٤٧-١٩٥٦)، سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية في كتب السابقين مع أن هذه الكتب لم نجدها في مكان واحد بل في اماكن متعددة كسيناء ونجع حمادي والقاهرة، كهوف البحر الميت، الحبشة، الفاتيكان، مكتبات نبلاء أوروبا، ومع ان هذه الكتب كانت نادرة في عهد النبيﷺ، لأن النُسخ كان يدويا و لم تكن هناك طباعة و كذلك بسبب حرق كُتب اتباع الأديان المضطهدة خصوصا النصارى... سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية مع ان حجم الكتب أيامه ﷺ كان كبيرا و كانت على هيئة قراطيس من العسير تداولها سرا .... سوف اعطى مثالا لهذه الخاصية " الشواهد القرآنية في اسفار السابقين":

من المعروف ان قصة يوسف عليه الصلاة والسلام هي الوحيدة التي نجدها في القران متتالية في موضع واحد هذه القصة لا نجدها كما هي في أي كتاب من كتب اليهود او النصارى–سنجد قسما منها في التوراة التي بين ايدينا الان (قياسية – سبعينية) مع وجود تفاصيل في الرواية التوراتية لا نجدها في القران كقطع التوراة لسرد قصة يوسف دون اي

---

(١) –المرجع السابق ص: ٤٧

(٢) –الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده، لماضى (ص:١٤٨)، الجواب الصحيح لابن تيمية (٢٥/٣) ، (٥٧/٤) .

مناسبة لتروى لنا قصة أخرى و هي مضاجعة يهودا لزوجة ابنه !—اما القسم الثاني من رواية يوسف في القران فسنجده في عدد كبير من كتب اهل الكتاب غير التوراة و سنجد هذا القسم مشتتا تماما ، فجزئية إخبار يوسف رؤياه لأبيه اولا نجدها في كتاب " العاديات اليهودية " للمؤرخ يوسيفوس ...

و جزئية {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ} في كتاب (بسكيتارباتى و سيفر عدد)–هذان الكتابان اتفقا مع القران في ذلك و اختلفا فيها مع التوراة نفسها، وجزئية {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا} في كتاب و جزئية { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ } في كتاب آخر .... و جزئية {وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ} في كتاب (عهود الاسباط و هو من كتب الاسرار) و جزئية {فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} في كتاب " yashar wa yesheb" و هكذا اكثر من ٢٦ جزئية كتلك التي ذكرناها انفا في اكثر من ٣٠ كتابا ...كل هذه الكتب سالفة الذكر وجدنا لها تفاصيل عديدة غير منطقية لا تُذكر في القران الكريم كذكر كتاب " تنهوما " أن يهودا حين أُخذ منه بنيامين دخل في صراع مع يوسف و نزلت الملائكة لتشاهد الصراع بين يوسف " الثور " و يهودا " الاسد " !! و يضيف كتاب br و التلمود هنا أيضا ان رجال يوسف الأقوياء فقدوا اسنانهم بسبب صرخة يهودا !! و يذكر الكتابان في موضع آخر ان ملاك العاطفة هو الذى حث يهودا على مضاجعة زوجة ابنه المذكورة في التوراة ! هذا عن القسم الثاني في الرواية القرآنية اما القسم الاخير فلا نجده في التوراة او غيرها فلا بد إذن أن محمدا ﷺ كانت لديه مخطوطات أخرى إضافة لكل ما ذكر من مصادر لم نجدها حتى الان وهذا مستحيل بكل المقاييس!! هذه الخاصية – الشواهد القرآنية في كتب السابقين – نستنتج منها أنه من المستحيل على رجل مثل محمد صلى الله عليه و سلم أن يقرأ كل صحيفة في كل كتاب من كُتب لم نعرف نحن الان أكثرها إلا متأخرا جدا [1]..... ثم يستبعد التفاصيل غير المنطقية ثم يأخذ من هذا ما يتناسب مع ذلك .... ثم يقدم هذا النتاج في صورة بيانية رائعة و لا بد أنه قد فعل كل هذا في السر ايضا !

إن هذا هو المستحيل بعينه خصوصا إذا أضفنا لذلك معرفته واطلاعه على كتب الأسرار apocrypha الخاصة بكل طائفة!! فكثير من طوائف اليهود والنصارى لديهم كتب لا يطلع عليها إلا كبار رجال الدين عندهم، فهل اطلع محمد ﷺ على تلك الكتب أيضا ليؤلف القرآن الكريم ؟!! ومن أيسر سبيل لتبيّن أصالة النصّ القرآني واستقلاله عن دعوى الاقتباس من (الكتاب المقدس) النصراني؛ هو النظر المباشر في كلا الكتابين، والمقارنة الصارمة بينهما لينجلي عن الحقّ غبارُ الشبهة، ومن أهم ما يكشف الأوجه التي توضّح أنّ القرآن الكريم لم يقتبس من أسفار اليهود والنصارى، تصحيح القرآن الكريم لأخطاء أسفار أهل الكتاب، وفصله بين أصيل الوحي ودخيل التحريف وتفصيله في بحث القرآن.

٢١–وللمتدبر أن يسأل :أنّى لمحمدٍ أن يضع مثل هذا الكتاب الذي حوى أخبار الأولين وتاريخ الأقدمين؟ وأنى له أن يسبك عبارات القرآن ويلقيها لكتبة الوحي بلا إعادة ضبطٍ وتقنين؟ وأنى له أن يُصلح بها مسالك وضروب ما نزلت بسببه؟ وأنى له بعد أن تنزل آيات الله لتضبط نازلة أو تصحح الحُكم في واقعة، إذا به يأمر كتبة الوحي أن يضعوا هذه الآيات في سورة كذا بين كذا وكذا .فتأتي في موضعها بين سابقها وتاليها من الآيات دون أن تنبو معهم أو تتنافر عنهم، بل وكأنها نزلت في جملتهم ولحمتهم؟ يقول د.عبد الله دراز في هذه القضية المذهلة " :في وقت نزول القرآن كانت بعض المواضيع تتزايد بمعزل عن مواضيع أُخرى، وتُكوّن تدريج يا وحدات مُستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أُخرى نزلت بعدها، وأن بعضها كانت تُضاف هنا، والأخرى تتداخل مع غيرها هناك، بحسب أمر الرسول الذي كان يتلقاه بدوره من الروح القدس فإذا أخذنا في اعتبارنا التواريخ التي لا حصر لها – تواريخ نزول آيات القرآن الكريم –والتفتيت المتناهي في نزول الآيات، ولاحظنا أن هذا الوحي كان بوجهٍ عام مرتبطا بظروف ومناسبات خاصة، فإن ذلك يدعونا إلى

(١) –الباحث هشام طلبة، محمد في الترجوم والتلمود والتوراة "ظهور نصوص اختفت ألفي عام" ص ٢٨٥–٢٩٠ بتصرف، دون دار نشر

التساؤل عن الوقت الذي تمت فيه عملية تنظيم كل سورة على شكل وحدة مستقلة. وكأن القرآن كان قطعا متفرقة ومرقمة من بناء قديم، كان يُراد إعادة بناؤه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة، وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آنٍ واحد، فيما يتعلق بكثير من السور؟ ولكن أي ضمان تاريخي يستطيع أن يتحصل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطة إزاء الأحداث المستقبلة، ومتطلباتها التشريعية، والحلول المنشودة لها، فض لا عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تُقدم به هذه الحلول، وتوافقها الأُسلوبي مع هذه السورة بدلا من تلك؟ ألا نستنتج ان اكتمال هذه الخطة وتحققها بالصورة المرجوة، يتطلب تدخلا من قوة عظمى، تتوفر فيها القدرة على إقامة هذا التنسيق المنشود[1]؟"

فأثر القرآن في الفِطَر والأنفس عجيب، فالقرآن يُذيب جبال الغِلظة ويشرح الصدور في توهِ ويخطف الألباب في نحوهِ ولفظهِ. وقد كان نساء المشركين وأطفالهم يتقصفون–يزدحمون–حول بيت أبي بكرٍ في بداية الدعوة حين يقرأ القرآن من فرط انجذابهم وتأثرهم. روى البخاري في صحيحه" :ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريشٍ من المشركين فسطوة القرآن على القلوب عجيبة فهو يزرع اليقين في القلب الصدِأ ويغرس الإيمان في الكافر الحنِق. وقد نبهنا الله تعالى إلى هذه الحقيقة وأمرنا أن نستغل سطوة القرآن على القلوب .فأخبرنا أن الكافر في قلب معمعة القتال واشتداد رحى السيوف قد يرجى منه خيرٌ حين يستمع القرآن {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦] سبحان الله! كيف ينكسر كافر في لحظة احتدام قتالٍ لصوت كتاب عدوه؟ إنها أسرار القرآن! وكم من عدوٍ لرسول الله أراد اغتياله فما أن سمع آيات القرآن حتى انفطر قلبه وتشدق الإيمان من عينيه! فللقرآن سلطانٌ قاهرٌ على النفوس ولا يزال غضا طريا على كثرة الترداد مع ما فيه من قوانين وتشريعات، وهو الأنيس في الخلوات وتهفو إليه النفوس في الأزمات ويزيل الوحشة عن أي مكانٍ وُجد فيه.{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }[الزمر:٢٣] فتستبشر لكتاب الله النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، ولما سمع الوليد بن المغيرة من النبي قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[النحل:٩٠] قال " : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول بشر ."فقد رق قلبه وقال والله ما يشبه الذي نقول شيئا من هذا. ولذا اجتمعت كلمة وفود العرب على ألا يسمعوا للقرآن ولا يُسمِعوه أهليهم، فهذا هو السبيل الوحيد لمقاومة التحدي بمثل هذا القرآن، فأنى للعرب أن يتحدوا كتابا جاء بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في جزالتها ودقة أوضاعها وإحكام نظمها واجتماعها.كل هذا ومحمد كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} العنكبوت:٤٨

٢٢– لم تكن الظاهرة القرآنية مرغمة ببلاغتها فحسب، ولا مرغمة ببيانها لأصول الدين ومعتقد الأنبياء الأسبقين فقط، ولا توقفت على إصلاح تحريف المفترين، وإنما الظاهرة القرآنية تتخطى كل ذلك .وتتجاوز ما كُتب فأنت تقرأ في كتاب الله مغيباتٍ تحدث دون أن تتخلف، وأخبار أقوامٍ لا يزيد بحث الزمان وتحريه إلا تصديقا لوقوعها، وتقرأ تحلي لا بديعا لطبائع الأنفس وأهوائها وميولها وما يصدها ويردعها ويعيدها. فتجد عبر سبك الأيام وخبراته وتراكم مشاهدة

(١) –في كتابيه مدخل إلى القرآن الكريم دار القلم، الكويت ١٣٩١هـ. ١٩٧١م. ؛ والنبأ العظيم والنص بتصرف وإلا هو عنده بتفصيل كبير مع أمثلة كثيرة

أحوال الناس تحقيقا لكل ذلك! ولو أردنا الشروع في بسط كل عجيبةٍ أتى بها القرآن لما كفانا الزمان. وحسبنا هنا أن نرصد شيئا آخر عرضته الظاهرة القرآنية بسلاسة وجاء هذا الشيء تضمينا لا قصدا لتحدٍ ولا إظهارا لمعجز فقد عرضت الظاهرة القرآنية موت أناسٍ بأعيانهم على الكفر: فحدث ذلك دون أن يُسلم منهم أحد ولو أن واحدا منهم أسلم لانتهت الرسالة من فورها! ومن هؤلاء: أبو لهب {سيصلى نارا ذات لهب} [المسد:٣] والوليد بن المغيرة: {سأصليه سقر} [المدثر :٢٦].

بل إن الظاهرة القرآنية أخبرت بأن الوليد ابن المغيرة قد رُزق ببنين كُثر وأنه يطمع في المزيد .لكن كلا! { وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا}[المدثر: ١٢]يقول البغوي في تفسير الآية" :فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصانٍ من ماله وولده حتى هلك."[١] وأخبر القرآن أن شدة عناد الوليد ابن المغيرة وبسبب منعه الخير وكثرة إثمه وافتراءه على آيات الله عز وجل بسبب كل ذلك سيُخطم بالسيف على أنفه فيُعرف بذلك! { أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم:١٤] قال ابن عباس وقد خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف، فلم يزل مخطوما إلى أن مات.[٢]

بل لقد انتقلت الظاهرة القرآنية إلى منحى آخر عظيما .إذ أكدت منذ بداية الدعوة أن هناك سجالا حربيا سيجري بين حزب محمد وحزب مشركي قريش وهذا قطْع إعجازي بأن قريش لن تُسلم بسهولةٍ ويسر كما ستسلم المدن البعيدة كيثرب وعمان واليمن والبحرين بل ثمة سجالات وسجالات ستجري .كل هذا في بدايات الدعوة .ولا أحد يستطيع التنبؤ بما سيكون بعد ساعات فضلا عن عقودٍ من الزمان. فقد قال الله تعالى مخبرا عن هزيمة قريش قبل الهجرة {سيهزم الجمع ويولون الدبر} [القمر:٤٥]

بل لقد تكررت هذه الآيات وهذا الوعيد في أغلب السور التي نزلت في بداية الدعوة مثل [مريم :٧٥] أي سيهلك كفار قريش في معارك فاصلة ومن يموت منهم قبل ذلك فالساعة موعده أيُ استشرافٍ للمستقبل هذا الذي يقطع بأن عناد هؤلاء سيطول حتى تكون الحرب؟ أي استشرافٍ للمستقبل هذا الذي يضع الدعوة ككل تحت مقصلة نبوءةٍ لو أسلم سادات قريش في الحقبة المكية لسقطت النبوءة وانتهت الدعوة؟ وكم من بوادي العرب وكم من القرى أسلمت سلما ودون حرب وفي يومٍ وليلة؟ ماذا لو استيقظ كفار قريش وساداتهم وأعلنوا إسلامهم؟ تخيل! ثم انظر كيف جهز كفار قريشٍ الجيوش وعادوا القبائل ودفعوا أنفس أموالهم ورجالهم لمحاربة الدعوة الناشئة، ولم يتفطنوا لمسألةٍ كهذه—إظهار أنهم أسلموا كذبا–تريحهم وتريح أبنائهم أبد دهرهم؟ فإذا لم يكن القرآن موحى به من عند الله فأي تأويلٍ آخر يمكن أن يطرحه الإنسان المتعقل لثقة النبي صلى الله عليه وسلم بما سيحدث في مقبل الأيام؟

أيضا تحدت الظاهرة القرآنية أن اليهود لن يتمنوا الموت فلم يفعلوا: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧)}[الجمعة] فما تمنوا الموت أبدا– لأنهم يعلمون أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم –مع الاقتضاء والمطالبة التي تدفع لجواب التحدي. يقول القاضي عبد الجبار" :لا يتمنون ذلك مع خفته وسهولته ومع علمه– صلى الله عليه وسلم – بشدة حرصهم على تكذيبه وفضيحته تعجب؟ ولم يقل هذا من عندي بل قال هذا من عند ربي وإلهي وإلهكم الذي يعلم سركم وجهركم، وهذا أشد على اليهود من تحديه للعرب بمثل القرآن، وهذا مقام لا يبديه النبي صلى الله عليه وسلم

(١) –معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي ، المحقق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت ،ط١/ ١٤٢٠ هـ ص: (١٧٥/٥).
(٢) –راجع تفسير القرطبي (٢٣٦/١٨) طبعة دار الكتب المصرية القاهرة، ط١٩٦٤/٢

إلا مع اليقين. وقد تحيرت الملحدة وأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم لماذا لم يتمنَ اليهود الموت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُكذبوه بذلك فيستريحون ويُريحون [١]"

وأخبر القرآن بالانتصار يوم بدر قبل أن تبدأ المعركة والحسابات المادية في صالح الكفار قولا واحدا {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} [الانفال:١٢] يقول الشيخ السعدي في تفسيره للآية " :وهذا خطاب للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين."[٢] وأخبر القرآن أن المنافقين سيكذبون على يهود بني النضير ولن ينصروهم، قال الله تعالى{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ}[الحشر] وحدث ما أخبر به فإن يهود بني النضير أُخرجوا ولم يخرج المنافقون لنصرتهم بل تركوهم؛ وقوتلوا فلم ينصروهم. ففي النهاية واجه يهود بني النضير وحدهم مصير خيانتهم ولم يتلقوا أي عونٍ من المنافقين! وكانت هذه بشارة— من القرآن الكريم–مستقلة بنفسها كما يقول ابن كثير في تفسير الآية.

وتنبأ القرآن بهزيمة الفرس وانتصار الروم في بضع سنين؛ قال الله تعالى: {وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة الروم] مع أن التاريخ في ذلك الوقت كان يكتب نهاية إمبراطورية الروم .وقد سحقت حملات أبرويز الفارسية كل أمل للروم في النصر حتى أخذ أبرويز صليب الصلبوت إهانة للروم! ومع ذلك وفي لحظة تاريخية فاصلة يفيق هرقل وينتصر على أبرويز في معركة فاصلة وتتحقق الآية والمعجزة! وأخبر القرآن أنه في يوم نصر الروم على الفرس سينتصر المسلمون أيضا: {ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله} وبالفعل فقد جاءت أخبار نصر الروم في غزوة بدرٍ الكبرى[٣]!

وأثلج القرآن صدور الصحابة الكرام وطمأن قلوبهم بأنهم سيدخلون المسجد الحرام. وذلك بعد أن صدهم المشركون عن البيت .قال الله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}[الفتح:٢٧] يصف د.عبد الله دراز الحدث العجيب كالتالي" :مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوا في العام المقبل أن يدخلوها عز لا من كل سلاح إلا السيوف في القُرُب، فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله؟ فماذا هم صانعون غدا؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القراب، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم، في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة: الدخول، والأمن، وقضاء الشعيرة، فدخلوها في عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم[٤]" .

وتنبأ القرآن بأنه سيأتي اليوم الذي يظهر فيه الإسلام على كل الديانات؛ قال الله تعالى في سورة التوبة {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)} فجاء ذلك اليوم وظهر الإسلام

---

(١) –تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار(ت٤١٥) ص: ٢ / ٤١٢ ومابعدها دار المصطفى – شبرا– القاهرة

(٢) –تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/٢٠٠٠ م ص:٣١٦

(٣) –راجع http://www.angelfire.com/nt/Gilgamesh/sasanian.html و https://goo.gl/GWGDyr

(٤) –النبأ العظيم ص ٤٨–٤٩. دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م

على الدين كله! بل إنه في اللحظات التي كانت تعاني فيها الدعوة الأمرين .تقرر أن الإسلام سيبقى إلى قيام الساعة {لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث} [الروم ٥٦] وبين القرآن أن رسول الله سيعود إلى مكة بعد خروجه منها مهاجرا {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} [القصص:٨٥] ومعاد الرجل هي بلده.وأن الله عز وجل سوف يغني قريشا {فسوف يغنيكم الله من فضله} [التوبة :٢٨] وقد كان كل هذا! وغير ذلك الشيء الكثير!

إن ظاهرة الإخبار القرآني للمغيبات التي تأتي بسلاسةٍ وتقع كما أخبر لهي تقطع في كل جانبٍ من جوانبها بصدق صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم. الظاهرة القرآنية هي الظاهرة المستحيلة! مستحيلة التكرار.مستحيلة التحدي. مستحيلة المقابلة، مستحيلة المقارنة بغيرها. ومجرد إتيان الرسول الأمي بهذا الكتاب في دلائله وتشريعاته ومعجزاته وبيانه لمن أكبر الآيات على صدقه. ثم عجْز المشركين عن معارضته أو حتى مجاراته؛ ثم إصلاح هذا الكتاب لأكبر مشكلتين في الوجود وهما" المعرفة والسلوك "مع المحافظة على النسق البياني البلاغي البديع؛ ومطابقة كل أمرٍ ونهيٍ في الكتاب للعدل والميزان والفطرة ومنهج الأنبياء قبله؛ لهي حججٌ بعضها فوق بعض لمن تدبر. وقد أوجدت الظاهرة القرآنية من الهباء أُمة ضخمة واستبقت على القرون جيلا من الناس ما كانوا ليدخلوا التاريخ أبدا لولا نهوض هذه الظاهرة بهم! وقد تقررت هذه الحقيقة في اللحظات التي كانت فيها الدعوة على المحك {وإنه لذكر لك ولقومك} [الزخرف:٤٤] ولم يستطع ملاحدة العصر أن يواجهوا الظاهرة القرآنية إلا بسخافاتٍ، كان صمتهم أفضل وأكثر تعقلا من التصريح بها!

٢٣-ويأتي زعم آخر أن القرآن من حديث نفس محمدٍ حيث أفاضت نفسه هذه المعارف، ويرد د.عبد الله دراز على هذا الادعاء المضحك فيقول" :نعم؛ إنها لعجيبة حقًّا :رجلٌ أمي بين أظهر قومٍ أميين، يحضر مشاهدهم- في غير الباطل والفجور- ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيا بالأجر، أو تاجرا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشيةٍ وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وربما لم يتحدث إلى أحدٍ بحرفٍ واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى مما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم. أفي مثل هذا يقول الجاهلون :إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطقٍ يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سرٌ آخر يلتمس خارجا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة. وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلا لهذه الظاهرة وأقرب فه ما لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء :إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا :إنه لا بد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذٍ علومٌ جديدة، فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم{وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون}[الأنعام:١٠٥] ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ ، بأيدي سفرة، كرامٍ برررة.{قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون}[يونس:١٦] ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها [١]" .

والظاهرة القرآنية بُعيد كل هذا هي في استقلالٍ تام عن ذات موضوع النبي، فالنبي يتعرض لنكباتٍ ونكبات مثل موت خديجة وعمه أبي طالب، ولا نجد لذلك أثرا في القرآن. أيضا لا نجد أسماء زوجاته في القرآن الكريم مع تعلقه بخديجة إلى آخر لحظةٍ في حياته؛ وفي المقابل نجد اسم السيدة مريم تكرر قرابة 30 مرة. وأيضا لو نظرت إلى المجاز القرآني لوجدته بعيدا تماما عن خيال العربي الذي ينشد في معلقاته وأشعاره الغزل ووصف المرأة والخمر، فالمجاز القرآني لوحة شاملة رائعة

(١) -النبأ العظيم ، د. عبدالله دراز ص ٤٠ .

تختلط فيها الأنهار التي تجري في المروج الخضر مع الظلمات التي في البحار اللجية وداخل هذه الوحدة الأدبية تتوافر الدقة العلمية والدقة المعرفية لأنه كتابٌ موحى به من خالق السماء والأرض. وفي إطار حديثنا عن الدقة العلمية .فالقرآن الكريم هو الكتاب المقدس الوحيد على وجه الأرض الذي يخلو من خطأ علمي وهذا بحد ذاته أعظم إعجاز علمي على الإطلاق. في المقابل أعطني كتيب أو مطوية صغيرة مكتوبة منذ مائتي عام فقط تصف أية مسألةٍ علمية وسأُخرج لك منها أخطاء صريحة. فقد كَتب أرسطو ثلاثة كتب علمية" في الطبيعيات، في السماوات، في الأرض "هذه الكتب الثلاثة لا توجد اليوم فيها جملة واحدة صحيحة علميا، فقد كان أرسطو طبقا لهذه الكتب يرى أن: أسنان المرأة تختلف في العدد عن أسنان الرجل! وأنه يوجد في صدر المرأة ثلاثة ضلوع فقط! وأن وظيفة المخ تبريد الدم بينما وظيفة القلب تسخينه [١]! وكان أرسطو يرى أن المياه الجوفية تتكون نتيجة فجوة في قلب الأرض تنقل مياه المحيط إليها! وما إلى ذلك من الخرافات العلمية التي تملأ كتبه .بينما يقول القرآن في هذه المسألة الأخيرة مثلاً—تكون المياه الجوفية–خلاصة ما توصل له العلم منذ عقودٍ قليلة فقط، وهو أن المياه الجوفية مصدرها مياه الأمطار{ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض } [الزمر :٢١] فمصدر المياه الجوفيه هو الينابيع المتكونة من الأمطار، وليس فجوة أرسطو التي في عمق القارة. فمعجزة الضبط العلمي للقرآن الكريم هي أعظم معجزة علمية على الإطلاق! وطبقا للمبدأ البوكيلي (Bucaillism) الذي قام بصكه موريس بوكاي منذ عقودٍ قليلة فإن القرآن الكريم بعد مراجعة علمية دقيقة هو الكتاب الوحيد الذي لا يوجد به خطأ علمي واحد رغم أن عمره ١٤٠٠عام [٢]

مع أن القرآن كتاب إصلاح للمعرفة والسلوك في المقام الأول. ولو تزحلت عن القرآن الكريم إلى غيره من الكتب فأنعمت النظر في منحى الدقة العلمية في تلك الكتب .لوجدت نصوصا تقطع بالوضع— التحريف –في تلكم الكتب! فلك أن تتخيل !لو أن نصا واحدا من كتاب مثل الفيدا–الكتاب المقدس للهندوس–كان موجودا في كتاب الله؟ وسأعرض الآن بين يديك شيئًا من نصوص كتب الأسبقين: تقول الفيدا أن الأرض ثابتة لا تتحرك (الريج فيدا١ ١٢)، وخلق الله الأرض ثابتة (ياجور فيدا ٣٠) ، والشمس تدور حول الأرض داخل عربة ذهبية يقودها سبعة أحصنة (ياجور فيدا ٣٣ –٣٤) ، والثور يُثبت السماء (ياجور فيدا ٣٠) ، **والياجور فيدا هي أحد الكتب الأربعة القانونية المقدسة لدى الهندوس** ويقول الفيشنو بارانا أن الشمس تبتعد عن الأرض ٨٠٠ ألف ميل، بينما المسافة علميا ٩٣ مليون ميل. ويقول الآثارفا فيدا :وفي خضم الماء يدور القمر (الآثار فيدا ١ ٨٩) وغيرها الكثير؛ فالحمد لله على الدين الخاتم المعصوم المحفوظ، الذي بلغه لنا أشرف الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم، كاملا غير منقوص.

٢٤–هل رأيتم رجلا كاذبا يريد ان يجمع الناس حوله يطلب أشياء صعبة على النفس البشرية يقولوا لهم انهضوا في الفجر للصلاة وفي وقت النوم وعند العشاء كي يهربوا عنه، ويفرض عليهم الصيام وتركا الطعام والشهوات، وبذل الأموال زكاة على الضعفاء واليتامى فريضة، الكاذب يسهل الامور للناس ليجمعهم حوله. مثل الصيام والاستيقاظ يوميا لصلاة ؟؟ لو كانﷺ مُدعياً للنبوة لطلب أشياء سهلة حتى لا يخسر أتباعه .... فبدلاً من أن يطلب منهم الحج إلى مكان حار بعيد مثل مكة كان بإمكانه أن يجعلهم يحجون إلى مكان بارد مثل جنوب الجزيرة العربية أو لقال لهم حُجوا إلى بلاد الشام بعد أن تفتحوها، وكذلك الصلاة ...كان بإمكانه أن يجعلها صلاة واحدة في الاسبوع مثلا حتى يكسِب رضا الناس، فطلبه هذه الأمور من أمته رغم أن فيها مشقة على النفس البشرية دليل واضح على أنها ليست منه واستمرار الناس على أداء هذه الشعائر رغم مشقتها طوال ١٤٠٠ سنة بعد وفاته هو دليل آخر على نبوة محمد يقول فولتير : "

(١)- http://chsi.harvard.edu/bok/42.html.
(٢)- Bucaillism at Wikipedia.

نحن وبلا انقطاع نؤلف عنهم كتبا سيئة لا يعرفون منها شيئا ، ونصرخ أن دينهم اعتنقته الأمم لآنه دين شهوات، لكن أي شهوة في الامتناع عن خمور نحن من غرق فيها؟ أو في زكاة واجبة ؟أو صوم صارم ؟أو ختان أول البلوغ؟ أو حج بعيد فوق الرمال القاحلة؟ أو خمس صلوات يوميا حتى في أرض المعركة[١]

كان يُلزم نفسه بأمور صعبة هو في غنىً عنها؟ يقوم الليل حتى تتورم قدماه يصلّ الصيام لثلاث إيام متواصلة يكون في مقدمه الجيش في الحرب والشجاع من يقتدي به ويحاذيه ووو لماذا لا يخالف أقواله أفعاله؟ لماذا لا يكون في السر غير العلن؟ فلماذا يُجبر النبي نفسه على هذه المشقة العظيمة؟ لماذا يُلزم النبي نفسه بأمور صعبة هو في غنىً عنها؟ مثلا قيام الليل (واجب) عليه .... وفي المقابل فإن قيام الليل سُنُّة للمسلمين، يعني (يجب) عليه أن يقوم الليل يوميا .... بينما لا شيء على المسلم لو لم يقم الليل سوى أنه فرَّط في الأجر لكن لا إثم عليه، عن عائشة .. أن النبي: كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً" [٢] فالنبي كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه وتتفطر من طول القيام أي يتحجر الدم فيها وتنشق. وقد قام معه شباب من الصحابة ولكنهم تعِبوا فابن مسعود يقول: صليت مع النبي ذات ليلة، فقام طويلاً حتى هممت بأمر سوء، قالوا: بما هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هممت أن أقعد وأدعه [٣] أي يجلس لعجزه عن أن يصبر كما صبر النبي، وقام حذيفة بن اليمان معه ذات ليلة فقرأ النبيﷺ البقرة والنساء وآل عمران .... خمسة أجزاء وربع تقريباً، يقول حذيفة: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم»، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد، فقال: «سبحان ربي الأعلى»، فكان سجوده قريبا من قيامه[٤] فلماذا يُجبر النبي ﷺ نفسه على هذه المشقة العظيمة لو لم يكن نبيا يوحى إليه من الله سبحانه وتعالى؟

٢٥ –كيف علِم النبيﷺ أن زمزم لا تجف إلى يوم القيامة؟ فقال: "لا تنزف أبداً ولا تُذم"، لا تنزف أي لا تجف وقد رأى العالم بأسره هذا الكلام واقعا لا يجادل فيه أحد، زمزم هو مجرد بئر صغيرة بجانب الكعبة يشبه تلك الآبار الصغيرة التي توجد في القرى والهِجر، ومعروف أن أي بئر من هذا النوع فإن عمرها لن يتجاوز في أكثر الأحوال ١٠٠ عاما لو كان عدد من يستهلكه لا يزيد عن عدد سكان قرية صغيرة، لكن زمزم فأمرها عجب!

١٤٠٠ سنة من الاستهلاك المتواصل على مدار الساعة ولا زالت تنضح الماء بدون أي انقطاع! وعاما بعد عام يزيد الاستهلاك ولكن لم تتوقف، بل أصبحوا يُعبئونها في عبوات ويصدرونها للدول الأخرى! كيف عرف النبي صلى الله عليه وسلم أن تلك البئر الصغيرة بجانب الكعبة ستبقى متدفقة ويشرب منها عشرات المليارات من البشر على مدى

---

(١) –فولتير(فيلسوف عصر التنوير الفرنسي)؛ والذي انتقد التسلّط الكَنَسيّ في عصره، كان قد ألّف مسرحيةً نُشرت عام ١٧٤١م بعنوان (التعصُّب)، ذمَّ فيها الاسلام الاسلام و النبيَّ محمداً (عليه الصلاة و السلام) و قدّمهما كمثال للتعصب والكذب.، و سرعان ما أحسَّ بعض المتنمين للكنيسة الكاثوليكية أنها انتقادٌ مبطّن لها؛ فتم إيقاف المسرحية. – لكن فولتير درس الإسلام بتأنٍّ بعدها؛ فسجل موقفه تحولاً تدريجياً عبر السنين من عدوٍّ إلى مُدافعٍ عن الإسلام.
فكتب في رسالته للملك فريدريك في أول عام ١٧٤٢م ما يلي: ((ربما يظهر لي أني اتهمتُ مُحمداً – بمسرحية التعصب الزائد المأساوية هذه – بجريمة لا يمكنه ارتكابُها. إن الكونت بولانفيير قد كتب سابقاً عن حياته كرجلٍ عظيمٍ؛ عيّنه الإله ليعاقبَ العالم المسيحي (حسب نظرة فولتير) ويغيّرَ وجهَ نصف الكرة الارضية، وإن السير سيل Mr. Sale الذي أعطانا ترجمة ممتازة للقرآن بالإنكليزية؛ سيُقنِعُنا بأن محمداً رجلٌ جديرٌ بالاحترام سواء كان ملِكاً أو حَكَم بلسان الشعب، وهو يشبه بهذا (نوما) الذي شرَّع قوانيناً مفيدةً وسِلميةً، أو (ثيسيوس) الذي دافع عن شعبه)).
– وبعكس ما يحاول ترويجه بعض العلمانيين والملاحدة؛ توالت بعدها مقولاته التي تمدح في الإسلام؛ كما في قاموسه الفلسفي أو مسرحياته

(٢) –رواه البخاري في صحيحه رقم (١١٣٠) وفي صحيح مسلم (٢٨١٩).

(٣) –صحيح مسلم رقم (٧٧٣) ومسند أحمد رقم(٣٦٤٦)، والترمذي في "الشمائل" (٢٧٢)، وأبو يعلى (٥١٦٥)، وابن خزيمة (١١٥٤)، وابن حبان (٢١٤١)

(٤) –صحيح مسلم رقم(٧٧٢) وسنن النسائي رقم(١١٣٣) وصحيح ابن خزيمة(٦٨٤)

١٤٠٠ سنة بدون أن تجف ؟!هذا النوع من الآبار لا يمكن أن يصمد ((ساعة واحدة)) في ظل الاستهلاك الحالي الهائل ، لكن زمزم يشرب منها الملايين يوميا ولم يتغير فيها شيء ! في مكة وفي ضواحيها كلها الآن آبار جافة ولا يوجد إلا الابار الحديثة التي بها ماء ...وحتى الابار الحديثة تجف من فترة إلى اخرى رغم أن كمية الاستهلاك منها بسيطة جدا مقارنة ببئر زمزم ولا يكون فيها ماء إلا حين هطول الامطار .... اما داخل مكة فالمياه الجوفية لا تستفيد من مياه الأمطار بسبب البناء وتوسع العمران وانغلاق الأودية ...والعجيب أن أي بئر موجودة الآن في المنطقة مخزونها لا يفي ولو بنسبة ضئيلة ممّا يؤخذ ويُسحب من بئر زمزم يوميا ... حيث كانت اقل كمية تُضخ تساوي ٨٠٠٠ لتر في الدقيقة بواسطة عدد من المضخات المركزية هذا بالإضافة إلى أكثر من ٤٠٠ الف متر مكعب من مياه زمزم يذهب في صهاريج إلى المدينة المنورة !! .... وأيضا خمسة ملايين لتر يوميا لمشروع سُقيا والذي يعبأ منه مبدئيا ٢٠٠ ألف عبوة يوميا !!

هذا غير الاستهلاك الهائل من زوار المسجد الحرام! فأيّ بئر طبيعية يمكن ان تصل طاقتها الانتاجية الى هذه الارقام؟ "لا تَنزف أبداً ولا تُذم" [١] هذا دليل أن الله سبحانه وتعالى الذي يعلم الغيب هو من أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخبر الذي لا يمكن أن يتنبأ به بشر من تلقاء نفسه ... فلو كان كاذباً لماذا يتنبأ بأشياء في المستقبل كثيرة وهو يعلم أنه يقدم الأدلة على كذبه وبهذا سيهدم رسالته؟

لاحظ كذلك إشارة النبي ﷺ إلى الأمراض الفتاكة في هذا العصر عندما يتهاوى الناس في وهدة الفواحش والرذائل من أنواع الشذوذ الجنسي المدمر في قوله: "لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا[٢] " وفي هذا المجال نلاحظ ما يذكره الطبيب الدكتور محمد على البار في كتابه-الأمراض الجنسية-حيث يقول: " ولا شك أن الهربس لم يكن منتشراً بهذه الصورة ولا قريباً من عشرها أو واحد بالمئة منها منذ عشرين عاما فقط " إن إخصائيا كبيرا ومشهورا في الأمراض التناسلية لم يستطع هو وصحبه أن يكتبوا للجمهور أكثر من ثمانية أسطر عن مرض هربس التناسل وكذلك كان الإيدز غير معروف فهو مع الإيدز يصدقان حديث رسول الله إذ ظهرت الفاحشة، واستعلن الناس في أوربا وأمريكا ودول شرق آسيا بها، فأصابهم الله بهذه الأوجاع والأمراض التي لم تكن معروفة في أسلافهم. ولفظ الطاعون هنا يعني الوباء والمرض الخطير. وهو كثيراً ما يستعمل بهذا المعنى.

تحقق شرط حديث رسول الله في المجتمع الغربي في ظهور الفاحشة والاستعلان بها، فكان لزاماً أن يتحقق جواب الشرط في حديث رسولنا العظيم من تفشي الطواعين والأوجاع في هذه المجتمعات، إن الشواذ جنسيا هم أكثر فئات المجتمع تعرضا للأمراض التناسلية كالزهري وغيره. وها هو (إيدز) قد اختصهم الله به ليتحقق المقطع الثالث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع " ويبقى أن نسأل هل الإيدز بصفاته الإكلينيكية ومسبباته الفيروسية كان معروفاً من قبل؟

إن المرض نفسه اكتشف فقط في عام ١٩٨١م. والفيروس المسبب له لم يكتشف إلا عام ١٩٨٣م. وهو نوع جديد من الفيروسات، كذلك فإن أحدا من العلماء لم يسبق له وصف هذا المرض أو الطاعون من قبل وهو ما ختم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه الشريف في قوله: " ... التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا " فانظر إلى خبر رسول الله الواثق في الله تعالى، إن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يخبر عن حال أهل الفاحشة في كل زمان ومكان بثقة المتكلم عن الله وما كان أغناه أن يصف الطواعين والأوجاع بأنها لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، هذا لو كان بشرا عاديا حتى يضمن كلامه في المستقبل ... ولكن رسولنا الكريم يثق في الله تعالى ويتكلم عن الله، فأنبأ أن هذه الطواعين

---

(١) -"سيرة ابن إسحاق" ص ٣ -٤، ورواه الفاكهي في "أخبار مكة" ٢/ ١٦ عن علي بن أبي طالب. ورواه أبو نعيم في "الحلية" ١٠/ ١١٥ عن ابن عباس.
(٢) -أخرجه ابن ماجه في سننه رقم (٤٠١٩) وغيره وصححه الشيخ الألباني (السلسلة الصحيحة رقم ١٠٦)

والأوجاع سيصيب الله بها أهل الفاحشة، وستكون جديدة وغير معروفة. وهكذا نرى في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إعجازين: الأول: إخباري ..تحديد لأهل الفاحشة بقوله: إن الله سيبتليهم بأمراض ، الثاني: طبي إعجازي ... تحديد نوعية هذه الطواعين بأنها لم تكن في أسلافهم الذين مضوا . [١] " ومن هذه الأمور التي تحدث عنها النبي هنالك المئات في كتب اعجاز السنة النبوية

كذلك لماذا يأتي بقرآن يتكلم عن بعض الاكتشافات العلمية القطعية ؟!لماذا يتكلم عن الغيب ولماذا كل الأدلة النقلية على صدق النبوة صحيحة! الصدفة قد تكون في اكتشاف أو اثنين أو ثلاثة ولكن ليس في كل العدد الكثير هذا ، و ليس كل العلم متغير بل العلم منه ثابت ومنه متغير وأنا أتكلم عن الاكتشافات ، وليس كل القرآن كلامه حمّال أوجه و التفسير والعبرة بصحة التفسير الموافق للقواعد والشروط عند أهل التخصص ، بل تحدى قدرات البشر بأنباء الغيب التاريخية و المعاصرة و العلمية في الآيات و الأنفس و التي لم يحط بها بشر و لا أحد استطاع تكذيب نبأ منها حتى الآن، و لا تزال أنبائه تترى متتابعة متحققة متمثلة في أحداث الفتن و أشراط الساعة وهذا صدق قول الله لمحمد {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا}[هود:٤٩]

٢٦-لاحظ الثقة العجيبة التي أظهرها النبي في غار حراء، عندما وصل المشركون إلى فتحة الغار وكادوا أن يروا النبيﷺ وابو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .... فقال النبي لأبي بكر: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} يقول أبوبكر: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: ((ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما))[٢] .... قال الدكتور غاري ميلر وهو مُنصِّر سابق اعتنق الإسلام ... يقول في كتابه القرآن المذهل : لو كنت في موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو وأبو بكر مُحاصران في الغار، بحيث لو نظر أحد المشركين تحت قدميه لرآهما. ألن يكون الرد الطبيعي على خوف أبي بكر: هو من مثل "دعنا نبحث عن مخرج خلفي"، أو "أصمت تماماً كي لا يسمعك أحد"، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال بهدوء: "لا تحزن إن الله معنا"، "الله معنا ولن يضيعنا"، هل هذه عقلية مُدَّعي كاذب، أم عقلية نبي ورسول يثق بعناية الله تعالى له ؟!

٢٧-مدة نزول الوحي هي ٢٣ سنة ،فكل ما جاءنا عنه ﷺ فإنه بلغه للصحابة رضي الله تعالى عنهم في ٢٣ سنة فقط !!فالقرآن والأحاديث الشريفة التي نرويها عن الرسول والعلوم الكثيرة النابعة عنها كالعقيدة والفقه والسياسة والاقتصاد والتشريع والقضاء والمواريث والأخلاق ووصف الأرض والسماوات والبحار والإنسان والتفاصيل الدقيقة ليوم القيامة والجنة والنار وما يكون في القبر وغير ذلك مما جاء به الوحي كله في مدة ٢٣ عاما فقط ، في زماننا العجيب الذي توفرت فيه الإمكانات العلمية وأدواتها والبحوث المدعومة واتساعها ،لا يستطيع عالم أن يأتي بما أتى به الرسول محمد رغم أن بعض العلماء يقرأ بحدود ١٥ ساعة يوميا ، ويعيش ثمانين أو تسعين سنة ، وهو قد ابتدأ النبوة في سن الأربعين ومات في سن الثالثة والستين ، ونحن نرى أن كل عالم يتخصص في فرع من فروع الشريعة ، فهناك من يتخصص في العقيدة ويظل يقرأ بها ٦٠ أو ٧٠ عاما ، وهناك من يتخصص في الفقه ويُفني عمره كله فيه ، وهناك من يتخصص في الحديث ويُمضي عمره كله في دراسة الأحاديث ، وهناك من يتخصص في الاقتصاد الإسلامي ويُمضي عمره في دراسته ، وهكذا كل عالم يُقضي عمره في دراسة جزء صغير مما جاء به محمد ﷺ ، والعجيب أن النبي صلى الله عليه وسلم الأُميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب أتى بكل هذه العلوم في فترة قصيرة جدا وفي ظروف بالغة الصعوبة من الحصار والحروب والجوع والفقر ، أميّ يعيش في بيئة صحراوية بسيطة يأتي بهذا الكم المعرفي الهائل في فترة قصيرة وفي ظروف بالغة الصعوبة والخطورة كالتي مرت على نبينا

---

(١) -موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث للأستاذ عبد الرحيم مارديني، ص ١٢١/١٢٠. دار المحبة ط١/ ٢٠٠٩

(٢) -رواه البخاري في صحيحه رقم(٣٦٥٣) ومسلم في صحيحه (٢٣٨١).

محمد ﷺ ! كيف لرجل أميٌ أن يأتي بهذا الكم الهائل من المعلومات والتشريعات؟! فكيف برجل لا يقرأ ولا يكتب ولم يُعرف بالعلم طوال حياته؟ كيف لرجل أميّ أن يُسأل في أي مسألة ثم يُجيب ويُناظر فينتصر، ويُجادل فيُقيم الحجة، لو كان الكلام الذي أتى بهﷺ من صنع البشر لكان فيه كثير من التناقض والاختلاف بحيث لا يمكن الجمع بين كلامه كما قال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} [النساء:٨٢].

فلو كان ما جاء به ﷺ من صنعه لرأينا تأثير الحصار والحروب والجوع والتهديد على ما جاء به ، ولرأينا ضَعْفا في البيان هنا وقوة هناك وعمقا في الوصف هنا و سطحية في الوصف هناك حسب الظرف الذي يمر به محمد ﷺ ولكن ما جاء به محمد ﷺ كان عميقا بليغا متناسقا لم يستطع أعظم أدباء العرب على أن يأتي بشيء يشبهه ولو بشيء بسيط ، هذا التناسق والتوافق والعمق والبلاغة والجزالة في اللفظ والمعنى لا تتفق مع تلك الظروف الخطيرة التي كان يمر بها نبينا ،من يقرأ القرآن لن يجد فرقا في القوة والبلاغة والبيان في أول سورة نزلت عندما كان النبي ﷺ في الأربعين من عمره وآخر سورة نزلت وهو في الـ ٦٣ من عمره ،ونعلم جميعا أن العطاء البشري يتأثر بالظروف المحيطة ، فإن أي مؤلف مشهور لن يكون عطاءه خلال الأحداث العصيبة التي بمر بها مثل عطاءه وهو في راحة وطمأنينة ، وأيضا لن يكون إنتاجه الفكري متناسقا خلال ٢٣ سنة بدون ضعف هنا و تراجع هناك ،لم يحدث هذا أبدا في تاريخ البشر ، الاستثناء الوحيد هو محمد ﷺ الذي كان ما جاء في أول يوم مطابقا لما جاء به في آخر يوم ، وهذا دليل على أن ما جاء به ﷺ هو من عند الله تعالى .

٢٨-تعرض كتابه (القرآن) لتفاصيل وإشارات علمية جيولوجيا وبيولوجية وفلكية وبحرية كثيرة في معرض التدليل على قدرة الله وحكمته وفضله ومنته على مخلوقاته وأن كل شيء تم خلقه بقدر وإحكام ولغاية وليس عبثا ولعبا، فكانت إشاراته العلمية متقدمة على البيئة النبوية العربية الأمية تقدما كبيرا جدا وبعيدة عن معارف عصره وهذه الإشارات متوافقة مع تقدم العلوم المعاصرة ومدللة عليها فكانت إثباتا لقوله: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق } [فصلت :٥٣] .

أ-فمثل يذكر القرآن أن الكون كله نشأ من أصل واحد، وهذا الذي يسمونه" السديم "اليوم، وهو أقرب ما يكون في التصوير إلى دخان مركز كثيف ساخن وقد سماه القرآن بالدخان فعلا { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ }[الأنبياء : ٤٠] وقال :{ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:١١] لنرجع في ذلك لأية دائرة معارف باب Nebula : .

ب-يؤكد لنا العلم الحديث أن السماء بناء محكم تملؤه المادة والطاقة، ولا يمكن اختراقه إلا عن طريق أبواب ولا يمكن لأي جسم مادي مهما بلغت كتلته أو تضاءلت لا يمكنه التحرك في الكون إلا في خطوط منحنية (حتى الأشعة الكونية على تناهي دقائقها، وهذه "الحركة غير المستقيمة يحكمها قانون" العروج ،"وأن حزام النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس لا يتعدى سمكه مائتي كيلو متر فوق سطح البحر، وإذا ارتفع الإنسان فوق ذلك، فإنه يرى الشمس قرصا أصفر في صفحة سوداء، وهذا ما نجده في القرآن الكريم { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}الأنعام ، وقال : { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)} سورة يس (التعبير" نسلخ "يدل على رقة غلالة النهار الشديدة، كما أسلفنا، فشبهه هنا برقة جلد الذبيحة.) ، وقد اكتشف حديثًا أن للشمس توءما مظلما تدور حول المجموعة الشمسية، وتحدد طريقها ودخولها للمجموعة الشمسية [الأهرام : ٣/٢٧/ ٢٠٠٠] [نقلا صانداي تايمز البريطانية] ألا يذكرنا ذلك بأبواب

السماء التي ذكرتها الآية ، كما تذكرنا سحابة الشهب المحيطة بالمجموعة الشمسية بقوله تعالى في سورة الجن :{ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨)}.

ج –كروية الأرض شيء مسلم به عند علماء المسلمين قديما ، وقد ذكرها القرآن في قوله تعالى : { يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}[يونس:٥] يقال في العربية" :كور العمامة "أي لفها حول رأسه على هيئة حلزونية، وهو الذي نعلمه في حديث النبي أن الأرض كروية، وأن نصفها ليل ونصفها نهار، وبدوران الأرض يلف الليل على النهار وبالعكس وقال بذلك ابن حزم وابن تيمية والبيروني وابن سينا والكندي والكثير غيرهم ، وقد قيس محيط الأرض في زمن المأمون (توفي ٢١٨ هـ) فكان ٤١,٢٤٨كم ، وحسب قياس الأقمار الصناعية ٤٠,٠٧٠كم ،نسبة خطأ لا تتجاوز ٣% رغم فارق التكنولوجيا!.

د – اكتشف العلم أن مواقع النجوم قاصية جدا وليس كما تشاهد العين قريبة من رؤوس الجبال كما أننا في الواقع نتيجة هذا البعد لا نرى النجم، ولكننا نرى صورته أو موقعه منذ بضع ألوف أو ملايين السنين الضوئية، لأن رحلة الضوء حتى يصل من النجم إلينا طويلة جدا على سرعته قال تعالى في سورة الواقعة :{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) }.

ق –ظهرت في عام ١٩٥٥ م نظرية في نشأة الكون " Big Bang الانفجار العظيم والتي وقضت نهائيا على النظرية "steady state theory" نرجع في ذلك إلى "van Nostrand's scientific Encyclopeida"باب Cosmology صفحة ٨٠٠ ذلك لأنه أمكن في عام ١٩٦٥ رصد بقايا موجات الميكروويف المصاحب أو اللاحق للانفجار الأعظم عمليا نرجع في ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية باب "Big Bang Model" تقول النظرية أن الكون بدأ بِكرة نارية شديدة الكثافة والحرارة، ثم انفجرت هذه الكرة وتمددت وتكونت المجرات .ولا زال هذا التمدد قائم وتلك حقيقة علمية لا نظرية (ولا زالت الأجرام تتباعد، ومن الممكن أن يستمر ذلك التمدد إلى حد أقصى) حين ينتهي أثر الانفجار الأعظم وتبقى قوة الجاذبية (ويقع تصادم عظيم بين المجرات، ويعود الكون كما بدأ كرة نارية. "Dictionary of geological terms", 3rd ed. Big Bang hypothesis وقد أمكن لاحقا عن طريق دراسات أخرى غير الميكروويف الذي ذكرناه، أولا :إثبات تباعد المجرات مثل الأشعة تحت الحمراء وموجات الراديو، وقد قام بهذه الدراسات علماء جامعات هارفارد، واشنطون وأريزونا. P. 801 van Nostrand's scientific Encyclopedia. 6th ed.

فتقول النظرية الكون أصله كرة نارية وثبت عمليا أن الكون يتسع والمجرات تتباعد، ثم بقى اعتقاد نظري أن لهذا التباعد نهاية تبقى عنده قوة الجاذبية وحدها .عندئذ تلتحم المجرات كلها، ليعود الكون كما بدأ كرة غازية أو نارية، ويبدو أن هذه النهاية لم تعد الآن اعتقادا نظريا، لأنه باستخدام تلسكوب" بالمار"؛ تبين أن هناك حيودا في الخط المستقيم الموافق لقانون" هابل "مما يعني أن هناك تباطؤًا في (تباعد المجرات عن ذي قبل) المرجع السابق ص ٨٠١ وهذا الذي ذكرناه يقره القرآن؛ حيث يذكر أن الكون ينتهي بقبضة) حيث تطوي الأجرام السماوية وتلتحم التحاما اندماجيا (ويذكر القرآن كذلك أن الكون ينتهي كما بدأ، أي أنه بدأ بقبضة أيضا، وقبل هذه النهاية يكون الكون في حالة اتساع. قال تعالى : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}[الزمر:٦٧] وقال : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات:٤٧]

ص–كان سطح القمر ملتهبا يوما ما في وقت كانت فيه الأرض في حالة صلبة هذا ما يقوله العلم، ذلك لأن كل المجموعة الشمسية كانت عبارة عن كرات نارية ثم تصلبت منذ حوالي ٦,٤ بليون سنة، لكن هذه الأجرام لم

تتصلب في آن واحد، بل كان هناك تتابع في هذه العملية، ومن تلك الأجرام ما بقى كما هو ملتهبا(الشمس)، والأجرام التي تتصلب أولا هي الأعلى كثافة وقد تبين أن كوكب الأرض هو الأعلى كثافة ٥٢,٥ يتبعه عطارد ٤,٥ ، أما القمر فكثافته ٣٥,٣ جم /س ٢ .إذًا فقد تكثفت الأرض قبل القمر وكانت الشمس ولا زالت ملتهبة، كما أن هناك ظاهرتان ساهمتا في تأخير تصلب القمر. الأولى :أن القمر لم يتكثف مثل الأرض ذرة بذرة وطبقة طبقة، بل إنه عبارة عن تجميع لأجزاء متكثفة من السديم. أما الظاهرة الثانية وهي الأهم :فهي نمو جاذبية القمر مع تصلبه نتيجة زيادة حجمه، مما جعل سرعة اصطدام النيازك المتصلة به عالية جدا، فولد ذلك درجة حرارة عالية جدا، مما أوجد ظاهرة فريدة؛ إذ صارت الطبقة الخارجية) ١٥٠ ٢٠٠ كم) ملتهبة بينما داخل القمر متصلب .مستخلص من كتاب: ["Physical geology" 2nd edition – Flint & Skinner – Editor : John Wiley & Son.s Library of congress cataloging in publication data: Flint, Richard Foster, 1902 – 1976. Physical Geology p. 460 – 463 – 467 – 472 .]،

يقول تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الاسراء: ١٢] آية الليل القمر، وآية النهار :الشمس، ذلك كما روى ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس وكذلك قال الشوكاني: إذ يقول القرآن إن القمر كان يوما كالشمس الآن (ملتهبة ترسل ضوؤها وحرارتها إلى الأرض المتصلبة)، ثم تصلب وهذا ما استعرضناه توا. والعجيب أن بعض كتب اليهود السابقة للقرآن ("Apocalypse of Baruch") تذكر هذا لكنها تخلطة بخرافة؛ إذ تذكر أن السماوات والشمس والنجوم حزنوا لخروج آدم من الجنة إلا القمر الذي ضحك عليه، فعاقبه الله بطمس ضوئه !!!نقلا عن كتاب The Legends of the Jews" Adam 92 .

ع –ما ذكر سابقا هو إشارات قرآنية في باب الكون والفلك، وهنالك في باب علوم الارض وتكوينها والجيولوجيا مئات الآيات وفي علوم البحار والأنهار والجبال وفي صحة الانسان وفي خلقه وتكوينه وفي علوم الحيوان الكثير من الإشارات العلمية والدلائل، والقصد من ذلك هو أن ما في هذا الكتاب لا يشابه البيئة النبوية الأمية وعلومها وأن محمدا تلقاه وحيا ممن خلق الأرض والسماء وفي بحث القرآن هنالك المزيد مما ذكر.

٢٩–لاحظ استعداده للملاعنة والمباهلة على من خالفه، غير وجل ولا خائف أن يحيق به شيء، والمباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا والكاذب وأن يحيق بالظالم الكاذب وبأهله وولده سخط الله وبلاؤه، قال تعالى له: {فمن حاجك فيه (أي المسيح) من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} [آل عمران :٦١]، ودلالة هذا على النبوة من وجهين:

١–ثقة النبي الكاملة في دينه ومن أرسله جل وعلا، إذ من كان في قلبه أدنى شك في معتقده لا يمكن أن يقدم على مثل هذا المهلكة إلا أن يعتقد اتقادا جازما في صدق ما يقول.

٢–نكوص النصارى عن المباهلة، مما يدل على تصديقه في قلوبهم ولكنهم يعاندون. [١]

فقد جاء النبي بابنته وزوجها وأحفاده ونفسه للمباهلة ضد ركب نصارى نجران الذين ألحّوا وتشددوا في بنوة المسيح لله وأنه الله، فتردد الركب ولم يباهلوا النبي على أنفسهم وأبناءهم وأهاليهم وخافوا وتراجعوا وهذه خلاصة ما جرى: (فلما

(١) –وتثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار (٤٢٦/٢)، مختار الصحاح (٢٧/١)، لسان العرب (٧) (٧٢/١١)، (٨) فتح الباري (٦٩٧/٧).

كلمه الحبران قال لهما رسول الله: «أسلما». قالا: قد أسلمنا. قال: «إنكما لم تسلما، فأسلما». قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير».

قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران فلما أتى رسول الله الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح (لقب العاقب) ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك، ونتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا فدعى أبا عبيدة فقال: «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه») ورضوا بالجزية !!، قال ابن عباس : ولو خرج الذين يباهلون رسول الله لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا» ، فكيف لرجل كاذب أن يقحم نفسه في هذه المزلة، ويرضى أن يكون ملعونا بلعنة الله، مطرودا من رحمة مستوجبا الهلاك ومستعجلا انتقام الله منه، إلا إن كان صادقا، عالما من صدق نفسه، واثقا بمن أرسله. [١]

٣٠–عدم استغلاله فرص التعالي وهي كثيرة: في بعض المواقف تحصل فرصة عظيمة للتعالي والتكبر والفخر، ولكنه يأبى أن يفعل ذلك، ولو كان كاذبا لاستغلها أعظم استغلال: يقول المستشرق إميل درمنغم: **(ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلا، فحزن عليه كثيرا ولحده بيده، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموت إبراهيم. ولكن محمدا كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك، فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»، فقول مثل هذا لا يصدر عن كاذب دجال)** [٢] بل أصدق الصادقين من يريد تحرير العباد من الوهم والاستبداد وتحرير العقل من السقوط والفشل. ومثله حديث أنس بن مالك، قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل "يسقون" عليه، وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله، فقالوا: إنه كان لنا جمل نسقي، عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل. فقال رسول الله لأصحابه: «قوموا». فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحية، فمشى النبي نحوه، فقالت الأنصار: يا نبي الله إنه قد صار مثل الكلب الكلب (أصابه داء الكلب) وإنا نخاف عليك صولته. فقال: «ليس عليّ منه بأس». فلما نظر الجمل إلى رسول الله أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك! ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك. فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر!!» [٣] فلم يستغل النبي سجود الجمل له ليعظم نفسه أو يرفعها، بل قال: "لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر".

٣١–وهو دليل الإلزام، يعني أن نُلزم اليهود والنصارى بما ألزموا أنفسهم به، مثلا اليهود والنصارى ألزموا أنفسهم بالإيمان بموسى عليه الصلاة والسلام على أنه نبيٌ من عند الله تعالى، فإذا قلنا لهم لماذا آمنتم بنبوته؟ سيقولون بسبب

---

(١) –راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٦٨/١) والبخاري ح(٤١١٩)، ومسلم ح(٢٤٢٠)، وأحمد ح(٢٢٢٦) والدلائل العقلية.
(٢) –حياة محمد لإميل درمنغم (ص:٣١٨) ترجمة عادل زعيتر، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٤٩م. والحديث في البخاري ح(١٠١٢) ومسلم (٩٠١
(٣) –أخرجه الإمام أحمد (١٢٢٠٣) وإسناده حسن. (صححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم: ١٩٣٦)

المعجزات التي تحققت على يديه وبما رآه الناس من كمال أخلاقه وتأييد الله تعالى له ونصرته له والتشريع الذي أتى به وبسبب عدم رغبته في المصلحة الذاتية وغير ذلك من الأدلة .... نقول لهم: كل ما ذكرتموه مُتحقق في نبينا محمدﷺ وبأضعاف مُضاعفة من الأدلة إضافة لأنه ذكر في كتبكم كما قال الكثير من القسس واللاهوتيون وألفوا بذلك الكتب والنشرات فلماذا لم تؤمنوا به ؟! لن تجدوا منهم جوابا، ودليل الإلزام لا يختص به موسى عليه الصلاة والسلام فقط بل كل الأنبياء الذين آمن بهم اليهود والنصارى أدلة نبوتهم موجودة ومتحققة في نبينا محمدﷺ.

فإن قالوا: لأنه قد ذكره لنا عيسى قلنا: هل هناك دليل آخر؟ إن قالوا: لا يوجد دليل آخر على نبوة موسى قلنا: إذن أنتم صححتم مذهب من كفر بموسى من قومه؛ حيث إن موسى لم يأت بدليل على رسالته، ولم ينزل عيسى في ذلك الوقت، وأثبتم لمن آمن به أنه آمن بغير بينة ولا علم ولا دليل، وأن رسالة موسى علقت عن التصحيح قرونا متطاولة حتى بعث الله عيسى فإن قالوا: نعم، هناك أدلة أخرى على رسالة موسى قلنا: كل دليل استدللتم به على نبوة موسى عليه السلام هو موجود في محمدﷺ وبعد هذا فلا حجة لرجل لا يؤمن بالنبي ولكن صدق الله إذ يقول: {وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون} [الأعراف: ١٩٨] يعني ينظرون إلى النبي ودلائل صدقه ثم لا يبصرون كأنهم عميان[١]

لابن القيم رحمه الله تعالى له حوار قصير مع أحد كبار علماء اليهود حول نبوة محمد يقول: وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يُشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة، فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمدًاﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة، فعجِب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟ فقلت له: اسمع الآن تقريره، إذا قلتم: إن محمدًا ملك ظالم، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثا وعشرين سنة يدّعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول أمرني الله بكذا ونهاني عن كذا، وأُوحي إليَّ كذا؛ ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب – مستمر – في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ – تغيير – شرائعهم، فلا يخلو إما أن تقولوا: إن الله سبحانه كان يطُّلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: إنه خفي عنه ولم يعلم به. فإن قلتم: لم يعلم الله به فقد نسبتموه إذن إلى أقبح الجهل، وكان من عَلَم ذلك أعلم من الله! وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلم الله ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو الأمر من أن يكون الله إمَّا قادرا على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا فإن لم يكن الله قادرا فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية.

وإن كان الله قادرا وهو مع ذلك يُعزه وينصره، ويؤيده ويُعليه ويُعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويُظهِر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلا عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه، فلما سمع ذلك قال معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر بل هو نبي صادق من اتبعه أفلح وسعد. قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بُعث إلى الأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه، قلت له: غُلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وإن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به، فأمسك ولم يحر جواباً. [٢]

٣٢ –ماذا يعني قولهم إن محمدا مدعيا للنبوة، مؤلِّفا للقرآن، كما قال مستشرقوا الغرب؟ أخذ مصادر القرآن من الشعر الجاهلي كما قال بذلك" تسدال "و"شيوخ "و"شبرنجر، ومن الحنفاء كما قال غيرهم ومن الصابئة والزرادشتية

---

(١) –وهذا أحد معان الآية، فبعض رأى أن المقصود بالآية هم الأصنام، فهي كأنها تنظر ولكنها لا تبصر، وبعضهم قال: إن المقصود بالآية هم المشركون أي وإن كانوا ينظرون إليك يا محمد ولكنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية. تفسير القاسمي (٦٨٣/٣) ود. عبد المحسن بن زين المطيري "الأدلة الجلية على صدق خير البرية١٣٥.

(٢) –ابن القيم هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٣٨٥/٢) دارالقلم –الدارالشامية جدة ط١٩٩٦/١

والهندية القديمة ومن اليهودية والنصرانية المحرفة كما يقول" سميث "و"حداد "اللبناني وغيرهم وأخذ عن" ورقة "و"بحيري"؟ وأن الوحي مجرد" إلهام نفسي"؟ مثل" جان دارك" الفتاة التاريخية الفرنسية في القرن الخامس عشر الميلادي كما قال المستشرق" جب [1]. هذه الأسئلة أو هذه الافتراضات حتى تكون قد حدثت، بعضها أو حتى مجتمعة لابد أن يكون محمدا قد فعل الآتي...

أ –تعلّم القراءة سرا إذ أنه كان أميا واشتهر عنه ذلك بين العرب: {وما كنت تتلوا من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون} [العنكبوت:٤٨].

ب –تعلم لغات كتب أهل الكتاب، على كثرتها، سرا وكما ذكرنا سابقا قول د. عبد الرحمن بدوي في قوله: (ولكي نفترض صحة هذا الزعم نقل الرسول عن أهل الكتاب فلا بد أنّ محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولابد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود، والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس–والمذاهب المسيحية)

ج– لم يدع صحيفة من صحف أهل الكتاب وغيرهم إلا وقرأها سرا .

– مع أن هذه الكتب لم نجدها مرة واحدة ولا في مكان واحد.

– مع العلم أن عدد هذه الكتب كبير جدا يستحيل الاطلاع عليها كلها من شخص واحد.

– مع أن حجم الكتب أيامه كبيرا جدا و في قراطيس .يستحيل تداولها سرا.

– مع أن عدد النسخ من الكتاب الواحد كان قليلا، لأن النسخ كان يدويا ولحرق كتب أصحاب الديانات والفرق من الأباطرة.

– مع أن جزء كبيرا من هذه الكتب كان أسرارا لا يسمح بتداولها إلا بين علماء كل طائفة .هذا عدا المخطوطات التي لم نجدها إلا في القرن الحالي. فهل كان لديه علماء للتنقيب عن المخطوطات {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير} [المائدة :١٥]

ث–استبعد التفاصيل غير المنطقية من كل كتاب: بالرغم من أن هذه التفاصيل تعج بها تلك الكتب . فلم يحدث أن اتفق القرآن مرة في جزئية غير معقولة مع وجود تفاصيل كثيرة مشتركة بين القرآن وتلك الكتب، أي أنهﷺ قد أدرك أن هناك أناسا متعلمين في القرن العشرين وما بعده سيقرؤون الكتاب (القرآن) وأدرك أنهم لن يستسيغوا إلا المنطقي، فاستبعد من القرآن كل ما يتناقض مع العقل والمنطق {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء :٨٢]

ج –أخذ يجمع التفاصيل من كل كتاب ما يستقيم مع الكتاب الآخر، ثم عرض كل قصة في موضوع محدد ولغرض معين، ثم عرضها في صورة بيانية معجزة بعد إضافة تفاصيل أخرى من عنده ثم وضعها في موضعها المناسب في القرآن بل وتحكم في مشاعره الإنسانية؛ حيث تختلف الحالة الوجدانية لكثير حال نزولها، مع حالته النفسية حال نزولها مثل سورة النور التي نزلت في حادث الإفك حيث اتهم في عرضه، كان المتوقع أن يكون جو السورة حزن وغضب، فإذا بها تسبح بقارئها وسامعها في جو من السلام والروحانية والنور.

د –أضافﷺ إلى كتابه (القرآن) نبوءات بالغيب في أمور عدة مثل أدائه وأصحابه لعمرة القضاء وضمن تحقيقها وكالتنبؤ بانتصار الروم مثلا على الفرس (سورة الروم)!!(في وقت كانت هذه النبوءة أبعد ما تكون عن التحقيق وخاطر

(١) –د /عمر بن إبراهيم رضوان" آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره – "دار طيبة – الرياض جزء ١ ص ٢٥٥، ٣٩٨،٣٨٢ .

بدعوته مخاطرة حاسمة، مثل ذلك أيضا التنبؤ بانتصار الإسلام وتمكينه من أكبر قوى الأرض في ذروة الضعف والاضطهاد للمسلمين.

هـ –أضاف تفاصيل من العلوم الكونية لم نعلم نحن أغلبها إلا متأخرا جدا، كما سيرد في بحث القرآن

ف –لاحظ كيف اضطهدت المرأة –وغيرها من الضعفاء–وعلم أن أناسا سيأتون في القرن العشرين وما بعده ينادون بتحريرها، فأراد سبقهم وفعل ذلك .

ق –علم صفات وألقاب النبي المنتظر عند أهل الكتاب فخطها في القرآن لنفسه، ثم تحكم في مسار حياته حتى تطابق صفاته صفات ذلك النبي!! إن هذا هو المستحيل بعينه... فالكاذب مدعي النبوة رجل شرير فاجر، شره المطامع، دنيء المطالب مثل مدعو النبوة في القرن الأول الميلاد، لذلك فإنه إذا تظاهر في البداية بالتدين والصلاح للتغرير بالبعض فإنه لا يطيق في البقاء عليه صبرا ...ولا يلبث أن يفتضح أمره وتظهر حقيقته لأعين الملأ[1].

٣٣–منذ فجر الحياة البشرية والأرض تستقبل الانبياء والمصلحين في أعصار مختلفة وكان آخرهم هو الرسول الكريم محمد بن عبد الله، لم يحالف أحد قبله من الأنبياء النجاح المذهل الذي حقّقه في رسالته، والذي سلّم به الاصدقاء والأعداء على حد سواء. وثمة جملة مفردة في دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشرة، تحت مادة «القرآن»، كافية في هذا، فقد جاء في دائرة المعارف تلك قولها: «كان محمد، بين شخصيات العالم الدينية جميعا، أوفرهم حظا من النجاح.» والواقع ان أيما مصلح لم يجد قطّ شعبه غارقا في الدرك الاسفل من الجهالة بقدر ما كان العرب غارقين عند ظهور الرسول.

كانوا يجهلون المبادئ الحقّة في الدين والسياسة والحياة الاجتماعية على حد سواء. ولم يكن لديهم فنّ عظيم أو علم وافر يتباهون بهما؛ لا ولم يكن لهم أيّ اتصال بسائر أجزاء العالم. وكان التماسك القومي شيئا مجهولا لديهم، إذ كانت كل قبيلة من قبائلهم تشكل وحدة مستقلة بينها وبين زميلاتها ما صنع الحداد، بعث الرسول الكريم لانتشال شعب كهذا الشعب الضائع من وهدة الجهالة فما هي غير سنوات معدودات حتى محا جميع ضروب الفساد الديني والاخلاقي والاجتماعي الراسخة الاصول في بلاد العرب، وحتى خلق تربة تلك الديار–إذا جاز التعبير–خلقا آخر. لقد حلّ أصفى شكل من أشكال الوحدانية محل صنوف الخرافات وأشكال الوثنية المنحطة. فاذا بأبناء الصحراء نصف البرابرة أنفسهم يفعمون بحميّة جديدة لقضية الحق إفعاما حملهم إلى أقاصي العالم ليؤدوا رسالة الله. وفيما يتصل بعبادة الخالق، بزّوا أعظم الزهاد والنسّاك، من غير أن يرفضوا العالم أو يتخلوا عنه. فما إن يطرق الأذان مسامعهم، في غمرة من حياتهم اليومية الناشطة، حتى يطّرحوا همومهم الدنيوية ويسجدوا خاشعين للرب. وكانوا ينفقون معظم لياليهم في عبادة الله. **وهكذا فقد كانوا، برغم وجودهم في هذا العالم، منفصلين عن هذا العالم.**

وبالتالي فأن صلواتهم كان يلازمها دائما إيمان حيّ لم يعرفه أيما ناسك معتزل في صومعته البتة. ولئن كان العرب قد بلغوا هذه المرتبة من السمو الروحي فأن منجزاتهم الدنيوية لم تكن أقلّ عظمة بحال. لقد احتلوا مقام الصدارة بين فاتحي العالم الكبار كانت الامبراطوريات العظيمة تذوب كالثلج أمام جحافلهم، وبكلمة موجزة، كانوا أتقى عابدي الله وأكثر الفاتحين حظا من النجاح، على حد سواء. وبالاضافة إلى منجزاتهم في هذين الحقلين طوّروا فروعا من العلم مختلفة نوّرت العالم، الغارق آنذاك في ظلام دامس، بل إن ثمة ما هو أعجب من ذلك، وهو ان هذا كله أنجز في عقدين من الزمان ليس غير. وهكذا يتضح أن تعاليم الرسول كانت تتسم بطابع الشمول الكليّ، وانها كانت معدّة لتطوّر ملكات الانسان تطويرا كاملا. فليس ثمة أيما علة بشرية إلا وفي تلك التعاليم علاج لها.

---

(١) –هشام طلبة ، محمد في الترجوم والتلمود و التوراة ص ٤٥٥ – ٤٦١ .

وكما ان أعظم الاطباء ليس هو ذلك الذي يدّعي هذا ولكن الذي يشفي أشدّ الامراض استعصاء في أكبر عدد من الحالات، كذلك فان أعظم المصلحين ليس هو ذلك الذي قد يدّعي هذا، ولكن الذي يحدث أعظم قدر من الاصلاح. وهذا هو المحك الذي يرفع الرسول الكريم مقاما عليّا في عين أصحاب الحصافة والعقل الراجح (١).

٣٤-والنقطة المهمة التي تميّز محمدا من سائر المصلحين الروحيين العظام وأنبياء العالم تتصل بعالميّة رسالته فقد كانت رسالة كل من اولئك الانبياء مقصورة على شعب بعينه فقد حمل كل نبي رسالة النور والهداية إلى أمة مخصوصة أو بلد مخصوص وليس من ريب في أن تطهير النفس البشرية كانت هي رسالة كل منهم، ولكن هذه الرسالة كانت محدودة دائما أما رسالة محمد فكانت كونية، ونوره كان عالميا، ونطاق مشاركته الوجدانية كان يستغرق البشرية كلها قال تعالى: {وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧] وقال: {وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}[سبأ:٢٨]وقال:{تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً}، وقال: {قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}[الأعراف: ١٥٨]والواقع ان هذه الآيات على أن الرسول قد بعث للنهوض بالجنس البشري كله وفوق هذا فإن القرآن الكريم يتحدث عن محمد فيقول: {وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ}

لقد أتى على الانسانية حين من الدهر كانت مجزّأة فيه إلى عدة «مقصورات» كتيمة، إذا جاز التعبير كانت كل أمة منكمشة على نفسها ضمن تخوم وطنها، منعزلة كل الانعزال عن سائر الأمم. كانت وسائل المواصلات محدودة. وطبيعيّ ان لا يتوقع المرء في مثل هذه الاحوال اتساعا في العقلية كبيرا. فقد كان استشراف كل أمة مقصورا على بيئتها المباشرة، فهي تحسب نفسها الكلّ في الكل وهكذا لم يكن في مستطاع الحكمة الالهية الا ان تبعث إلى كل أمة بنبيّ مستقل كيّفت رسالته وفق حاجاتها وأحوالها الخاصة ولقد أدى هؤلاء الانبياء المختلفون مهمّتهم المخصوصة: أعني احياء أمة بعينها ولكنّ طاقتهم الروحية كانت، مثل حقل رسالتهم، محدودة النطاق. فكانت الشعلة تتوهج فترة من الزمان ثم تخبو شيئا بعد شيء حتى انطفأت آخر الأمر انطفاء كاملا وعندئذ كانت الحاجة تنشأ إلى مصلح روحيّ ينير العصر المظلم، ومن ثم إلى بعثة نبوية اثر بعثة نبوية ولكن بينا حققت العناية الالهية مصلحة الانسان الروحية، باختيارها الرسل حينا بعد حين من بين مختلف الأمم، أدّى ذلك إلى نشوء انطباعة شديدة الأذى.

فقد شرعت كل أمة، لجهلها بما أغدق الله على الأمم الأخرى من أفضال مماثلة، تعتقد انها هي شعب الله المختار. وهذا ما غذّى الفكرة الضارة القائلة بالمحاباة الالهية وما رافق ذلك من شرور ملازمة. ولتقويم هذا الشعور بالتمييز العنصري، وإزالة الأحقاد التي خلقتها التخوم الجغرافية والاجتماعية وبعض الحواجز المصطنعة، ولصهر الانسانية في كلّ واحد متراصّ، شاءت الحكمة الالهية ان تبعث نبيا عالميا ذا رسالة إلى الجنس البشري كله، نبيا لا تتخطى قوّته الروحية كل تخم فحسب، بل تحتفظ فوق ذلك بفعاليتها إلى آخر الدهر أيضا. وهكذا ما إن تمّت سلسلة الأنبياء الملّيين بظهور حلقتها الاخيرة، يسوع، الذي أرسل-ونحن نستعمل هنا كلماته نفسها-«إلى خراف الاسرائيليين الضالة» حتى آن الأوان لأن تشرق شمس الروحانية على الافق الديني. لتضيء العالم كله. وهكذا ظهر الرسول الذي كان «رحمة للعالمين»، وحرّر الانسانية من أصفاد الجهل والخرافة والفساد. وإنما كان الأنبياء السابقون أشبه بمصابيح الهية كثيرة ذات ضياء يكفي هذه الحجرة أو تلك، ومن هنا مسّت الحاجة إلى مصابيح مختلفة تطابق مختلف المناطق الجغرافية والقومية. لقد سفحت نورها حولها، فاذا بكل ما هو واقع ضمن نطاقها مشرق متألق. ولكن ما إن بزغت الشمس من رمال بلاد العرب حتى أمست

(١) -كتاب" حياة محمد ورسالته"، محمد علي اللاهوري، ترجمه إلى العربية: منير بعلبكى الناشر: دار العلم للملايين بيروت ط/٢ ١٣٩٠ هـ ص (٢٧٨-٢٨٨)

البشرية في غير ما حاجة إلى تلك المصابيح. ولكن ضياء الشمس لا يمكن أن يحل محلّه ايما ضياء آخر، وهو كاف لإنارة العالم إلى يوم يبعثون.

وإنه لمن الأمور المعروفة بالتجربة العامة أننا لا نستطيع تحقيق أيما ضرب من التقدم في أي حقل من حقول الحياة إلا وضعنا نصب أعيننا هدفا محددا، ومثلا أعلى واضحا، لكي يستحثنا ذلك على بذل أقصى الجهد وأشقّه. والواقع ان كل رسول من الرسل السابقين أقام نصب عينيه مصلحة شعبه هو، على اعتبار ان خدمة تلك المصلحة كانت رسالة حياته المحدّدة. ولو قد حذا الرسول الكريم حذوهم فجعل من مصلحة بلاد العرب هدف حياته الأوحد إذن لأحبط الهدف نفسه الذي من أجله بعث. كان عليه أن يمحو جميع هذه الاحقاد القومية والجغرافية، وان يضع الاساس «لدين كونيّ»، ويصهر الجماعات المتعددة في كلّ متناغم–في اخوّة انسانية شاملة. لقد كافحت الاديان السالفة لصهر الافراد في جماعات–وهو صنيع يشكّل في ذات نفسه خدمة جليلة–ولكن الاسلام، دين الفطرة، إنما جاء ليصهر هذه القوميات الصغيرة في أخوّة كونية عريضة. وهكذا، بينا قصر الانبياء المتعددون الذين ظهروا قبل البعثة المحمدية رسالتهم على هذه الطائفة من الناس أو تلك قيّض للرسول الكريم شرف صهر هذه المجموعات المتنافرة من الكائنات البشرية في اخوّة متناغمة واحدة. وهكذا فأن ميزة الرسول تقوم على هذه الحقيقة: **وهي أنه فيما جاء الانبياء الآخرون ليعلّموا الناس سرّ الوحدة والتقدم القوميين فصّل هو الحقيقة العظمى القائلة بوحدانية الجنس البشري كله، ورسم سبل الحياة الرئيسية والفرعية كلها للذرية، لا ذرية هذه الامة أو تلك، ولكن لذراري الجنس البشري برمته.**

وإلى هذا، فان رسالة كل من الانبياء السالفين كانت مقصورة على تنمية وجه بعينه من وجوه الخلق البشري. وهكذا فأن حياة كل منهم تعتبر نموذجا لهذا الجانب من جوانب الاخلاق الانسانية أو ذاك. ولكن الرسول الكريم بعث لتطوير الفطرة البشرية بوصفها كلّا كاملا، ولإبراز كل ملكة من ملكاتها المتعددة وتثقيفها. فقد تجلّت في حياته جميع مظاهر الاخلاق الانسانية تجليا كاملا. ومن هنا كان هو القدوة الكاملة للإنسانية، ففيما يتصل بالبعثة الموسوية ظهر الأنبياء واحدا إثر آخر، ولكن كلا منهم كان نموذجا يحتذى في ناحية بعينها. أما الرسول محمد فجمع في شخصه هو، وعلى نحو أسمى بكثير، جماع فضائل الانبياء الاسرائيليين كافة: –رجولة موسى، ورقة قلب هارون، وبراعة يشوع في قيادة الجيوش، وصبر أيوب، وجرأة داود، وعظمة سليمان، وبساطة يوحنا، ووداعة يسوع. وكان أول الانبياء الاسرائيليين– موسى– هو تجسيد القوة والمجد، وكان آخرهم– يسوع– هو تجسيد التواضع والوداعة. أما محمد فعبّر في شخصه عن هذين المظهرين جميعا. وهكذا فأن كل كوكب من كواكب الروح تلك كان يرسل شعاعا واحدا ليس غير في ناحية بعينها، على حين كان الرسول هو المركز الذي انبعثت منه الأشعة في كل ناحية[1].

٣٥–وبينما نجد منجزات كلّ رجل عظيم مقصورة على حقل معيّن، نلاحظ ان منجزات الرسول الكريم تستغرق حقول النشاط الانساني كلها. فاذا كانت العظمة، مثلا، تقوم على اصلاح شعب متردّ في مهاوي الانحطاط، فمن ذا الذي يستطيع أن يدّعي حقّ احتلال مقام الصدارة في هذا الميدان أكثر من ذلك الذي نهض بأمة كالأمة العربية من حضيض الجهالة وجعل منها حاملة مشعال الحضارة والمعرفة؟ وإذا كان قوام العظمة توحيد عناصر المجتمع المتنافرة وصهرها في كلّ متساوق فمن أجدر بهذا اللقب من ذلك الذي صهر أمة كالعرب كانت ممزقة قبائل متقاتلة بسبب من ثارات متوارثة منذ أجيال وأجيال؟ كان العرب متناثرين، مثل رمال الصحراء، عندما ظهر الرسول، فجمعهم في وحدة متراصة مزوّدة بالقوة على تحدي أشدّ الصدمات وأقساها. وإذا كان قوام العظمة إقامة مملكة الله على الارض فأن الرسول يتمتع حتى ههنا بمركز لا سبيل إلى مضاهاته. لقد محا الوثنية والشرك من بلاد العرب كلها وأضاءها بالنور الالهي. وإذا كان

(١) –كتاب" حياة محمد ورسالته"، محمد علي اللاهوري، ترجمه إلى العربية: منير بعلبكى الناشر: دار العلم للملايين بيروت ط/٢ ، ١٣٩٠ هـ ص (٢٧٨– ٢٨٨)

قوامها التخلق بالأخلاق السامية فمن ذا الذي يستطيع ان يبزّ ذلك الذي أقرّ العدوّ والصديق بأنه «الأمين»؟ وإذا كانت عظمة الانسان كامنة في الفتح فليس من ريب في ان التاريخ لا يستطيع أن يفخر بنظير للرسول الذي ارتفع من منزلة يتيم بائس لا حول له ولا طول إلى منزلة فاتح جبار، بل إلى منزلة ملك أسس امبراطورية عظيمة صمدت طوال ثلاثة عشر قرنا لمحاولات عالمية متحدة هدفت إلى تقويضها والقضاء عليها؟ وإذا كانت الروح الدافعة الحية التي ينفخها زعيم في أتباعه هي محكّ العظمة فان اسم النبي لا يزال يفعل، حتى في يوم الناس هذا، مثل فعل السحر في نفوس ملياري انسان منتشرين في أرجاء العالم كله، فهو يشدّهم جميعا برباط قوي من الاخاء، بصرف النظر عن الطبقة الاجتماعية، أو اللون، أو المنطقة.

٣٦-إن محمد لم يكن ثمرة بيئته. والواقع ان حالة المجتمع السائدة هي التي تخلق رجله العظيم. فكلما استبدّ بشعب ما، مثلا، توق عام إلى الحقيقة الماورائية (الميتافيزيقية) ظهر فيهم بالضرورة فيلسوف من الفلاسفة. وإذا ما عصف بجماعة ما حبّ الفتح كان ظهور الفاتح أمرا محتوما. وكذلك يبرز المعلمون الاخلاقيون، والشعراء، والنحاتون، وبكلمة مختصرة، النوابغ في كل حقل من حقول الحياة، في كل بيئة تتطلب بروزهم لأداء هذه المهمة أو تلك تطلّبا عاما. وإنما يجسّد هؤلاء الزعماء في ذواتهم روح العصر نفسها. وبكلمة أخرى، انهم يظهرون، إذا جاز التعبير، في سياق التطور العادي. أما الرسول محمد فقد مثّل كل ما كان متناقضا أكمل التناقض مع حالة المجتمع العربي آنذاك. لقد تعين عليه أن يؤدي رسالته في غمرة من الأفكار السائدة لعهده. كانت الوثنية والشرك هما القاعدة الغالبة في تلك الايام. ولكن الرسول تكشّف، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره، عن مقت شديد للأصنام. وكانت الخرافة تحجب ضياء العقل. ومن ثم كان المجتمع مغلّفا بطبقات من الجهل كثيفة. فهل في مستطاع جوّ كهذا أن يخلق عقلا فلسفيا كعقل الرسول محمد؟ وفي طول بلاد العرب وعرضها كان الافراد يفتخرون بالثورة على قبائلهم، في حين كانت هذه القبائل تكره، بدورها، فكرة السلطة المركزية. وليس بإمكان المرء أن يتوقع-في ظل هذه الاحوال، وخلال سير الأحداث العادي-ظهور رجل ينادي بمبدأ التناغم والوحدة. وكانت الخمر، والميسر، والزنا مألوفة عند العرب ينفقون فيها أوقات فراغهم كلها. وكان قتل الأولاد (الوأد) شائعا بينهم أيضا، وكانت المرأة تعامل معاملة المتاع، وواضح ان هذه الأوضاع كانت عاجزة في ذات نفسها عن إقامة قلعة أخلاقية أو إطلاع محرر للمرأة. والحق أن اليد الالهية نفسها، التي تعدّ الجوهرة الصافية في أشد الاعماق ظلاما، هي التي ابدعت واحتضنت هذا النور بعنايتها المباشرة لكي ينفذ خلل تلك السحب الكثيفة من الفساد الغامر، ويضيء كلّ بقعة على ظهر الارض.

أما ميزة الرسول العظمى فهي انه وضع الاساس لسلم كونيّ. انه لم يكتف بتعليم الناس كيف يستطيع المرء ان يحيا في سلام مع امرئ آخر، بل علّمهم أيضا كيف تستطيع الأسر المختلفة وشعوب الجنس البشري المتباينة ان تحيا في سلام وتناغم بعضها مع بعض، وعلّمهم فوق هذا كله ما لم يحاوله أيما رجل آخر في العالم مجرد محاولة، أعنى كيف يمكن اشاعة الوئام بين أديان العالم المتنازعة.

فعلى الرغم من انه كان بإقرار الجميع، أعظم البشر فقد اعتبر نفسه مجرد عضو عادي من أعضاء الجنس البشري بعامّة: {إن أنا إلّا بشر مثلكم} [الكهف:١١٠]. فللرجل والمرأة، والسيد والخادم، والملك والرعية، لهؤلاء جميعا حقوقهم المتبادلة. وهذه المساواة بين الانسان والانسان لم تشكّل موضوعا للعظات اللفظية فحسب، بل طبّقت بكثير من الدقة «الحنبلية» في الحياة اليومية أيضا. ففي الصلوات التي تؤدى خمس مرات كل يوم يقف الملك والفلاح كتفا إلى كتف في حضرة ربهما المشترك الذي في السماء. والعبد الرقيق يجب ان يتمتع بنفس الحقوق المدينة التي يتمتع بها الرجل ذو المحتد الكريم، وهو مبدأ حرص الرسول على إظهاره فأمّر زيدا، عبده المعتق، على جمهرة من القرشيين المعتزين بأحسابهم. وفيما

يتصل بالمساواة بين القبائل والأمم لم يجعل الله الناس شعوبا وقبائل لكي تكون لبعضها أية أفضلية على بعضها الآخر. لا، لقد جعلهم كذلك ليتعارفوا. فالقومية، كما علّم الرسول، ليست هي محك العظمة، إذ أن {اكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات:١٣]. ليس هذا فحسب، بل لقد وفّق فوق ذلك كله إلى إيقاع الانسجام بين أديان العالم المتعارضة بأن جعل في جملة مبادئ الايمان الأساسية المفروضة على كل مسلم أن يؤمن بأنبياء العالم كلهم، أيا ما كان الاقوام الذين بعثوا إليهم، ايمانه بمحمد نفسه. لقد علّم الناس–وهذه الحقيقة لم تجد تعبيرها عند أيما نبيّ آخر–أنه ليس من أمة على وجه الارض إلا ولها من أبنائها رسول الهي والواقع ان الايمان بجميع المصلحين الدينيين، الذين بعثوا بين حين وآخر، هو المبدأ الوحيد الذي يستطيع ان يكون «حقل لقاء» بين أنظمة العالم الدينية على اختلافها. كذلك علّم اتباعه ان يحجموا عن الطعن حتى بآلهة الآخرين الذين لا يخفى زيفهم على كل ذي بصيرة. قال تعالى: {«وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأنعام:١٠٨] وهذه خطوة عملية أخرى نحو خلق روح من الوئام والمحبة بين الأديان. ليس هذا فحسب، بل لقد قدّم القرآن الكريم أيضا طريقة، أكثر وضوحا وتحديدا، لتسوية جميع الخلافات الدينية عندما قال: {قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ} [أل عمران:٦٤] وبكلمة أخرى، إننا بأخذنا ما هو مشترك بين مختلف الأديان كأساس، نستطيع ان نتقدم إلى اقامة بنية فوقية جامعة. وهكذا يمسي في امكاننا ان نقيم دينا مشتركا.

وباختصار، فأن الرسول الكريم لم يدّخر وسعا في إقامة وحدانية الله ومجده، من ناحية، واقامة الاخوّة الانسانية الشاملة في ظل عناية الاله الواحد الكلّية، من ناحية أخرى. فليغدق الله عليه أطيب تحياته وخير بركاته[1]!

٣٧–حوار هام ومميّز تم بين هرقل ملك الروم وبين سيد مكة ابي سفيان وكان حينها قائد المشركين وعدو محمد وكبير تجارهم–وهذا الحوار حصل قبل فتح مكة بأكثر من سنة وكان وقت وصول رسالة رسول الله له "أسلم تسلم"!، وهرقل بالإضافة إلى كونه حاكما للدولة الرومانية في الشام كان أيضا عالما بدين النصارى وبالنبوءات التي تُبشر بخاتم النبيين والنبي الأمي الذي حان وقت ظهوره، وهذه القصة المعبّرة التي حدثت بين هرقل وأبي سفيان وردت في معظم كتب السنة، وفيما يلي نص هذه القصة كما جاءت في صحيح البخاري:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله ، كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس، مشى من حمص إلى إيلياء شكرا لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ، قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحدا من قومه، ...، قال ابن عباس، فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشأم في رجال من قريش قدموا تجارا في المدة التي كانت بين رسول الله وبين كفار قريش، قال أبو سفيان، فوجدنا رسول قيصر ببعض الشأم، فانطلق بي وبأصحابي، حتى قدمنا إيلياء، فأدخلنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس ملكه، وعليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم، فقال (هرقل) لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم إليه نسبا، قال: ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عمي، وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أدنوه، وأمر بأصحابي، فجعلوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذّبوه، قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يؤثر أصحابي عني الكذب، لكذبته حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني، فصدَقته!!! ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب،

(١) –كتاب" حياة محمد ورسالته"، محمد علي اللاهوري، ترجمه إلى العربية: منير بعلبكي الناشر: دار العلم للملايين بيروت ط/٢، ١٣٩٠ هـ ص (٢٧٨–٢٨٨)

قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا،

فقال: كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا،

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا،

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم،

قال: فيزيدون أو ينقصون؟ قلت: بل يزيدون،

قال: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا،

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة، نحن نخاف أن يغدر،-قال أبو سفيان: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئا أنتقصه به، لا أخاف أن تؤثر عني غيرها -،

قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم،

قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دولا وسجالا، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى،

قال: فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة،

فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له: إني سألتك عن نسبه فيكم، فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها،

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله، قلت رجل يأتم بقول قد قيل قبله،

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله،

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فزعمت أن لا، فقلت لو كان من آبائه ملك، قلت يطلب ملك آبائه،

وسألتك: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل،

وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم،

وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب، لا يسخطه أحد،

وسألتك هل يغدر، فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون،

وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم، فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه تكون دولا، ويدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة،

وسألتك: بماذا يأمركم، فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة،

قال: وهذه صفة النبي، قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم، وإن يك ما قلت حقا، فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين ولو أرجو أن أخلص إليه، لتجشمت لقيه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه،

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ، فقرئ، فإذا فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فعليك إثم الأريسيين و: {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله

ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا، فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: ٦٤] "، قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته، علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم، وكثر لغطهم، فلا أدري ماذا قالوا، وأمر بنا، فأخرجنا، فلما أن خرجت مع أصحابي، وخلوت بهم قلت لهم: لقد أمر (عظُم) أمر ابن أبي كبشة (زوج حليمة السعدية الذي تربى محمد عنده)، هذا ملك بني الأصفر يخافه، قال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر، حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره)

هذا حوار في الأدلة العقلية الواضحة على نبوة محمدﷺ ما لا تخفى على أحد وقد كان سببا في إسلام كبير قريش أبو سفيان بن حرب، وهرقل كان يُريد بأسئلته تلك أن يعرف هل محمد هو المذكور بكتبهم أم مدعي للنّبوة وقد اتضح له بجلاء من أجوبة ابي سفيان – الذي كان مشركاً حينها – أنه نبي آخر الزمان وأن دعوته ستنتشر في الأرض وأن مُلك أمته سيبلغ قصره الذي هو فيه وقد حدث ذلك في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عندما فتح المسلمون بلاد الشام .... هل الصفات التي سمعها هرقل هي صفات صادق أمين أم مُدعٍ للنبوة كما يزعمون المخالفون؟

الحوار دليل بيّن بأنهم كانوا يعرفون وقت خروجه ومكانه وأوصافه، لكن حب الدنيا وحب الملك وخوف القتل صدت هرقل عن قبول الحق، والإيمان به، فأعلن رفضه له، ولم يقف موقف الثبات الذي وقفه الأسقف الأكبر في مملكته – معنى الأسقف: رئيس دين النصارى–والذي أقر هرقل بأنه صاحب أمرهم، فقد أرسل هرقل بالكتاب إلى الأسقف واسمه (ضغاطر) فقال الأسقف: هذا الذي كنا ننتظر وبشرنا به عيسى أما أنا فمصدقه ومتبعه فقال له قيصر: أما أنا إن فعلت ذلك ذهب ملكي. ثم قال الأسقف لرسول النبيﷺ دحية رضي الله عنه: خذ هذا الكتاب واذهب إلى صاحبك فأقرئ عليه السلام، وأخبره أني أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله، وأني قد آمنت به وصدقته، وأنهم قد أنكروا على ذلك ثم خرج إليهم فقتلوه فلما رجع دحية إلى هرقل قال له: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر كان أعظم عندهم مني [(١)].

البحث الثالث: الفرصة الذهبية لك يا من لا تؤمن بنبوّة محمدﷺ؟!

ستكون يا صاحبي خالدًا مخلدًا في التاريخ ... ستكون نسيج وحدك حسنة دهرك علامة عصرك ...ما رأيك أن تأتينا بتشريع ؟!! لا أريده منك الآن، ما رأيك بعد أربعين سنة، اقرأ ما شئت أن تقرأ، ابحث ما شئت أن تبحث، اصبر صبر الإبل على التدقيق والتمحيص، غادر كتابًا إلى كتاب، سر في الحياة وعاشر الناس، عليك بالإحصائيات ولا تنس الأبحاث، وبعد أربعين سنة، أطلب منك التالي:

منهجًا واضحًا في عقيدة الإنسان مع ربه ، منهجًا رشيدًا لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ،و لا تنس الشبهات و الرد عليها ،و أغلق على أهل الباطل الأبواب قبل أن يبحثوا عنها ،و حدثنا – بعد أربعين سنة – عن حال الإنسان مع القدر ،و خبرنا كيف يتعامل مع مر الأيام و حلوها ،و يسر لنا فهم الأمور المعقدة ،و حبذا لو بينت لنا – بعد الأربعين – المعتقد في الأمور الغيبية ،مسائل الجن و الشياطين ،كيف نرى المصروعين و من أصابهم المس بأعيننا ،أتريدنا أن ننكر ذلك أم كيف تراه ،و بين لنا العقيدة في الملائكة ،مع شيء من التفصيل عن الأسماء و الوظائف و زدنا بتحفة في مسألة التفضيل بين البشر و الملائكة فتلك مسألة فيها نزاع مشهور.

---

(١) –الإمام ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٤٢-٤٣، رواه الإمام البخاري ح/٤٢٧٨

ثم نبئنا بأخبار الرسل، ونريد أخبار أقوامهم علنا نستفيد، ولا تحدثنا بما لا فائدة فيه بل اقتصر على مواضع العبرة وما لابد منه لفهم الأحداث، وهات أخبار الأمم من كذب منها ومن لم يكذب، وضع في الحسبان التاريخ والأعلام والمواضع، ثم زد ما شئت أن تزيد في أمر العقائد الباطلة، كيف انحرفت ومن بدل وحرف، علّمنا بحيل أهل الضلال وخبايا النفوس.

لا تنسى تنظيم أمور العبادة والصلة بين العبد وربه مع نفسه ؟!! فالمرء ما ينفك سائلًا " رب لو كنت أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك بها " ألا يخلع هذا السؤال قلبك ؟!! فخبرنا يا صاحبي بعد الأربعين بما ستراه أحب الوجوه، نريد صلاة لله نعرف أوقاتها وعددها، فقهها وأركانها، سننها ومكروهاتها، ما يبطل الصلاة وما يجوز فيها ؟!! كيف الحال إن عرض لك عارض وأنت في الصلاة ما تفعل ؟! ما الشأن إن سهوت كيف تجبر سهوك ؟!!وأنبئنا عن الصلاة ما الفرض وما النفل ؟!!وعن الجماعة ما شأن الإمام والمأمومين ؟!! والمساجد آدابها وأحكامها، والدعاء في الصلاة وقنوت النوازل، وأهل الأعذار، ماذا يفعل المسافر؟ ثم ماذا يفعل المريض؟! ثم ماذا يفعل الخائف؟!ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!!

و لا تنس الناس من عيد يجمعهم فلكل قوم عيد، وهيئ أحكام عيد لا تُمل ولا تُضل، فيفرح الناس دون أن يبغي بعضهم على بعض، و ضع للعيد صلاة لها أحكام تخصها ... و لا بأس بصلاة الكسوف و الاستسقاء ...و الناس بحاجة إلى وعظ و تعليم و إرشاد فضع لهم خطبة يومًا في الأسبوع و ليكن يوم الجمعة، ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!!و نظافة الجسد، أنسيتها ؟!و الوضوء والغسل والتيمم وكل له شروط و واجبات و سنن و مبطلات وأحكام مع أحكام ..وللمياه أحكام أيها طهور وأيها ليس بطهور ؟!!وأحكام الحيض والاستحاضة والنفاس ..و أحكام الآنية والمياه والاستنجاء ..وأحكام الملابس ما يجوز منها وما لا يجوز ..وضوابط الملابس كيف تكون طيبة ساترة جميلة بهية لا تفتن و لا تنفر ..اجتهد في القراءة يا صاحبي في الأربعين سنة ..اقرأ في كل المجالات .. ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!!

ولا تنس أن الناس تموت –وأنت ستموت ..فتكلم عن كيفية الدفن وأحكام الجنازة .. وتغسيل الميت وأحكام التغسيل بحسب حال الميت ..ولا تنس الكلام عن المرض .. و وصية المريض ..ولا تنس تصرفات المريض ..ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!!ثم ضع في الحسبان أن يكون المجتمع فيه تكافل فالأمر تشريع يا صاحبي ..فضع في تشريعك " الزكاة " وبين أحكامها ..اذكر مصارفها .. و ما تجب فيه ..لا تنس زكاة الزروع والحبوب والبهائم و الثمار والحلي وعروض التجارة والفطر ..خبرنا ما تراه في كل واحدة و أي مال تجب فيه الزكاة وكم حد هذا المال ..ولا تبغي على مال أحد بما يضر ولا تنس الفقراء و المساكين ..و لا تنس جمع الناس من كل صوب ..لا تنسهم من رحلة تجمعهم أجسادًا فتضمهم قلوبًا ..لا تنسهم من رحلة تذكرهم برحلتهم إلى الموت ..لا تنسهم من رحلة يزورون فيها الأماكن المقدسة عسى تقدس أمتهم ..ولا تنس أن تضع لتلك الرحلة الأحكام اللازمة ..ولا تنس أن تخبر عن حكمها للمستطيع ثم من طرأ عليه عدم الاستطاعة ومن أُحصر . وأقترح عليك أن تسمي تلك الرحلة " رحلة الحج " ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!!

ولا تنس أن الأمة التي سيعجبها تشريعك فتنفذه أمة وسط أمم ..فضع لها أحكام المعاملة مع الأمم المجاورة و النائية ..كيف تنظم العلاقات مع المخالفين والمعاونين ..ما حالها مع المعاهدين و المحاربين ....وكيف تكون عندما تلجأ للحرب ..ما أحكام الحرب ؟!أخبرنا بأفضل نظام للحرب يكون ..أسباب الحرب و آدابها و المعاملة مع كل باغ عاد ظالم ..لا تنس أن تقرأ في الأربعين سنة في الكتب الحربية يا صاحبي ..لا تنس أن تقرأ في العلاقات الدبلوماسية ..وبعد القراءة استخلص و استنتج .. ودبر و خطط ..ثم اخرج علينا بذلك التشريع الجديد ..ألم أقل لك ستكون علامة عصرك؟

ولابد للناس من بيع وشراء ..فلا تنس تنظيم شئون البيع ..والخيرة في البيع ومتى يكون التصرف في المبيع أهو بعد العقد أم بعد القبض ؟ ولماذا؟ ..وماذا لو أراد المشتري رد السلعة ..وأخبرنا عن الربا و الصرف ..وما قولك في بيع أصول الثمار حتى يستفيد المزارع بالثمن على زراعة أرضه .. ما رأيك الاقتصادي في تلك المسألة ؟!!وأخبرنا عن السَّلم بعد أن تقرأ عنه في كتب الاقتصاد ..ولا تنس الرهن ..والضمان ..والوكالة والحوالة والكفالة ..والشركة و المساقاة والإجارة ..والعارية والغصب ..والشفعة والوديعة وإحياء الموات والجعالة.. ولا تنس أنا قد نجد شيئًا ثمينًا في الشارع فأخبرنا ما أفضل الطرق للتعامل معه ..أخبرنا بأحكام اللقطة و اللقيط ..وأحكام الهبة والهدية ..ألم أقل لك ستكون علامة عصرك؟

ولا تنس ما يكون بين الناس من المنازعات ..فأخبرنا بأحكام الصلح بين المتخاصمين ..وفرق لنا بين باب الصلح و باب القضاء ..وفي القضاء عرفنا بآداب القاضي وطريق الحكم و صفته ..ونظم لنا الحال مع الدعاوي و البينات ..والشهادات وموانع الشهادة وعدد الشهود واليمين والدعوى والإقرار ..ولا تنس أن الناس تموت وتذر الأموال.. بين لنا أحكام الميراث ..ومن العصبة ومن يحجب عن الميراث ..ما رأيك في ميراث المفقود و ميراث الحمل وميراث المطلقة ؟؟!! وكن في التوزيع حكيمًا تعطي كل وارث ما يناسب حاله ..ألم أقل لك ستكون علامة عصرك؟

ولا تنس أن الناس خلقوا رجالًا و نساءً...فبين كيف يكون التعامل بينهم فلا تنقطع الأنساب ولا تختلط الأنساب ..وبين لنا المحرمات من النكاح والشروط والعيوب في النكاح ..ومتى يحق لأحد الزوجين أن يفسخ العقد .. وكيف تحمي كلا الزوجين من الغش ..وما رأيك في نكاح من يتبع تشريعك بمن لا يتبع تشريعك ؟!! ولماذا ؟!!!و أحكام المعاشرة بين الزوجين ..وكيف بأحكام الصداق ؟!!ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!! ثم الناس يوهبون الأولاد ..فأحكام المولد و تسمية المولود ..وأحكام العقيقة و لا تسه عن النفقات ..وأرشدنا إلى كيفية تربية الأولاد ..ألم أقل لك إنها فرصة ذهبية لتصير علامة عصرك ؟!!

ثم الحياة قد تكون صعبة مع الشريكين لسبب أو لآخر ..فنظم لنا أمر الطلاق ..وما رأيك بالتهديد بالطلاق ؟!و ما تقول في الخُلع ؟! وما رأيك في الظهار ؟!!وماذا عن الملاعنة ؟!! وأحكام العدد ؟!!وما تقول في شأن المطلقة أتخرج من بيتها أم تظل فيه ؟! ولماذا ؟!!ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!! ثم لا تنس يا صاحبي أن تتكلم عن الأخلاق .. الغيبة وكن دقيقًا وبين متى تجوز ومتى لا تجوز ؟!! الإخلاص والصدق والوفاء .. الأمانة والبر وصلة الأرحام .. البخل و الرياء و النفاق ..الصبر و الشكر و الرضا و الحمد ..و علمنا ما الجيد و ما الرديء ؟!!وعلمنا كيف نصل إلى سنام تلك الأخلاق إن كانت كريمة ؟!! وكيف نحترز من اللئيمة؟!ألم أقل لك ستكون علامة عصرك؟

و لا تنسنا يا صاحبي من الحديث عن الدار الآخرة ..صفها و كن في وصفك مفيدًا دقيقًا ..وزدنا بالوعيد و الوعد .. والترغيب والترهيب ..ألم أقل لك ستكون علامة عصرك ؟!! أرأيت يا صاحبي كيف ستقضي يومك تقرأ وتقرأ وتبحث وتفكر.

لكن حتى يتم أمرك و يكون التشريع دافعًا لوسمك بأعلى الأوصاف .. نريده تشريعًا:

١-في أسلوب بليغ يناسب كل تنظير له المقام.

٢-يناسب كل المحبين فلا يشكو أحد من فراغه من العبادة رغم حاجته للزيادة.

٣-يكون في معظم مسائله حد واجب لا يجوز النقص عنه لكل مقتصد وحد حسن يقوم به المجتهد.

٤-لا يكون الأسلوب جازمًا حازمًا بل دع الفرصة للاستنباط، فالناس مشارب، وفي نفس الوقت دع الحق واضحًا لا لبس فيه عند التأمل!

٥-لا يتناقض قولك في مسألة مع أخرى و لو كان ذلك التناقض بين لازم قولك و لازم قولك الآخر ..فإياك أن تبيح الخمر و الملابس الحرة و الاختلاط ثم تقول لا يجوز وقوع الزنا و اختلاط الأنساب .. بل التشريع يقوم بعضه ببعض ويشد بعضه بعضًا.

٦-يكون قولك في كل حكم في تشريعك صحيحًا يشهد بصحته أهل التخصص في كل آن ..فإياك أن تبيح الربا لأنه يأتي بفائدة آنية .. فسوف يقول لك عتاة الاقتصاد " هذه الفائدة الآنية مع الاستمرار ستأتي على المجتمع بتضخم يفسد الاقتصاد " وعندها يا صاحبي ستضيع الثقة في تشريعك.

٧-يكون التشريع مناسبًا لكل زمان فلا يشكو الأقوام بعد ألف عام أنك لم تضعهم في الحسبان.

٨-يكون تشريعك مناسبًا لكل مكان، حتى ولو كان المكان فيه النهار ٦ أشهر، فأعطهم نصوصًا تحل لهم ما أشكل عليهم.

٩-لا يفوتك في تشريعك أي شأن يلزم من شئون الحياة ليكون تشريعك كاملًا من كل وجه.

١٠ -تضع في تشريعك مراتب الحسن والقبح، فهذا حسن وذاك واجب وذاك خلاف الأولى وذاك مكروه وذاك لا يجوز وذاك مباح وكل ذاك في أسلوب سلس يسير

١١-إن ضغط عليك قومك من حولك وأبت الأهواء إلا خلاف رأيك فلا تأبه بهم وعليك أن تظل على رأيك.

١٢ -ولا يجوز لك الاستعانة -بعد الأربعين سنة -بأي لجنة من لجان الاقتصاديين ولا أي طائفة من علماء النفس ولا أي كوكبة من أهل الفلك ولا يحق لك استشارة الأطباء، ولا يجوز لك استشارة القانونيين والدبلوماسيين والسياسيين، لا لأنهم على كثرتهم قد يخطؤون، لا لأنهم على كثرتهم قد وضعوا قوانين باطلة فعدلوها، لا لأنهم على كثرتهم قد يعجزون أمام خبايا النفس البشرية، لا لأي شيء من هذا، بل لأنه قد كانت الفرصة الذهبية عندي هكذا، وهكذا ينبغي أن تكون لك.

لكني سأطلب منك طلبًا زائدًا، بعد هذا الجهد الجهيد والعمل المديد والتشريع السديد، أريدك أن تقول: ليس لي يد في هذا التشريع، أريدك أن تقول: أنا مجرد ناقل، أريدك أن تقول: لا تطروني ولا تعظموني أريدك أن تقول: لا أملك من الأمر شيئًا، أريدك أن تقول: تلك كلها حكمة ربي لا حكمتي، أريدك أن تقول: لا تجعلوني لمن أنقل عنه ندًّا فإنه أعظم مني، أتستغني عن تعبك لتكون ناقلًا أمينًا وأنت في الحقيقة غير ناقل ؟!! أتستغني عن جهدك لتكون مبلغًا بصدق وأنت في الحقيقة غير مبلغ ؟!! أوّه لكأني حرضتك عليّ؟!! لكأنك ستقول، هذا هراء يا صاحبي، لكأنك ستقول، تلك فرصة لا تنتهز، تلك فرصة لا وجود لها، لكأنك ستصرخ بي، لئن ظللت عمرين وثلاثة لا أربعين سنة فأقصى الأمل أن أتقن فنا واحدًا لا فنون عددًا، وأنت تريدني متقنا للاجتماع وعلم النفس والسلوك والأخلاق والقانون والعلاقات المدنية والدبلوماسية والدولية والتاريخ والأديان و ووو تريدني على ذلك أن أقول قولًا لا يأتيه الباطل من يمين أو شمال.

و تريديني في ذلك أن آتي بقول يعجب المتخصصين ثم تريدني ألا أستشيرهم في شيء بعد الأربعين ..وتريدني في ذلك أن أقول قولًا يناسب العصور التي لم أرها و الأزمان التي لم أشهدها ..و تريدني في ذلك أن أبحث لأماكن لا أعرفها و مناطق لم أختبرها ..و تريدني في ذلك أن أفصل الأحسن فالأحسن و الأسوأ فالأسوأ ..و تريدني في ذلك أن أضع في حسباني تنوع نفوس البشر ..و تريدني في ذلك أن أضع في حسباني اجتهادات المجتهدين و كد المخلصين ..و تريدين في ذلك أن أيسر السبيل لكلامي الطويل العريض .. وتريدني على عرض كلامي وطوله أن أذكره فلا ينقض منه قول آخر بل يأخذ بعضه ببعض كالبنيان المرصوص !!وتريدين في ذلك أن أسوقه في أسلوب بليغ يذهل البلغاء !! وكل قول يناسب

مقامه !!وتريدني في ذلك أن أنكر جهدي وتعبي وأنسبه كاذبًا –وأنا ما تعودت الكذب –لغيري !! وتريدني في ذلك أن أكذب على نفسي وأدّعي أني مجرد ناقل وأنا لست بناقل !! ثم تزعمها فرصة ذهبية!!

فكيف وهوﷺ الصادق الأمين كما لقّبه عدوّه ؟! فكيف وهوﷺ لم يقرأ ولم يكتب في الأربعين ؟! تعال يا صديقي أخبرك بمنطق اليقين والحق المبين ...

قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

اقرأ: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ}.

ألم أقل لك إنها سبيل الرسل ؟!

اقرأ: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}.

اقرأ: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}

اقرأ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ}

اقرأ: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}

اقرأ: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ}

افهم: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}

افهم: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا}

فبالذي خلق لك عينين و لسانًا و شفتين و هداك النجدين ..ما تفعل يا صاحبي [1]؟!!

لكن إن لم يشفِك ما سبق، أكمل معي صفقة أخرى:

وإليك صفقة ثانية لكنها ثقيلة!!.

قالوا لك إن النبيﷺ فيلسوف ادعي كذبًا أنه رسول من عند الله ؟!!فأعرض عليك صفقة ستجعلك " الفيلسوف الكذاب " تعال وأخبرني ما رأيك في هذه الصفقة أداخله هي في سياج العقل أم غير معقولة ؟!

تعال عبر الأزمان والأمكنة، وبأقصى سرعة ممكنة، إلى قريش في مكة، إلى قوم بلغوا في البلاغة شأوًا لا يوصل وأقاموا للأشعار سوقًا لا يوصف، فهذا يقف يرتحل قصيدة، وذاكم يقف يرد عليه ارتحالًا، وقصيدة من هذا ومن ذاك طيبة حلوة، لها في البلاغة شأن عالٍ، تعال إلى قوم أقاموا على الأصنام سادن مع سادن، تعال إلى قوم مصدر اقتصادهم الأصنام حول الكعبة، يأتيها الرجال والنساء فتنشط التجارة، تعال إلى قوم هذا حالهم

(١) –كتاب "لا أعلم هويتي حوار بين متشكك ومتيقن "! د. حسام الدين حامد الطبعة الثانية سنة٢٠١٦، ص ٨٤ وما بعدها، مركز تفكر للبحوث والدراسات.

الآن لنبدأ: أريد منك أن تظل في قومك أربعين سنة صادقًا أمينًا، أريد منك أن تكون (تصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق) أريد منك أن تكون أميًّا لا تقرأ ولا تكتب، أريد منك أن تكون يتيمًا ليس لك والدٌ يطوف بك في البلدان، ليس لك معلمٌ يخبرك عن أخبار اليونان والرومان أريد منك أن ترعى الغنم حتى تتعلم الحنو على المرعيّ، أريد منك ان تترك الوفود على عبادة الأوثان مع قومك، ثم فجأة، في سن الأربعين، تعلن–كاذبًا–" أنا رسول الله " أهذا في حد المعقول عندك؟ لا بأس.

ثم أريد منك أن تخرج على قومك وهم على أصنامهم عكوف، وتعلنها صريحة، "إني رسول الله إليكم" فيسخر منك قومك وينهرك عمك وتسميك زوجة عمك " أبو الرمم " مكان " أبو الحكم "، أستصبر بعدها على دعوتك وأنت تعلم أنك كذاب ؟!أهذا في حد المعقول عندك ؟! لا بأس، ثم أريد منك أن تتحدى قومك، ويا ترى ما الذي تختاره لتتحداهم فيه وأنت تعلم أنك كذاب؟! لعلك تختار شيئًا لا يتقنوه، تختار التنجيم مثلًا أو الفلك أو الطب أو استقصاء الأثر، لا بل أريد منك أن تختار أقوى شيء وصلوا إليه، نعم أريد منك أن تتحداهم فيما خطر في ذهنك أريد منك أن تتحداهم في البلاغة واللغة، تحداهم في أقوى ما عندهم وأنت تعلم أنك كذاب، أهذا في حد المعقول عندك ؟! لا بأس.

ثم أريد منك أن تأتي بكلام تتحداهم فيه، ليس هذا فقط، بل تتكلم بأسلوبين من الكلام، أسلوب هو " القرآن الكريم " لا يوجد أبلغ منه في كلام البشر، وأسلوب هو " الحديث الشريف " لا يوجد أبلغ منه في كلام البشر لكن حاذر فالقرآن أبلغ منه، فتسير بين الناس تتكلم بأسلوبين، أحدهما أبلغ من الآخر وكلاهما أبلغ من سائر الكلام أهذا في حد المعقول عندك؟ لا بأس.

ثم يكون الكلام حسب الحوادث، فعندما يظلم أحد المسلمين يهوديًّا تتكلم بأسلوب بليغ لا يوجد في كلام البشر أبلغ منه لتنتصر لليهودي من المسلم، وعندما يتركك أصحابك في حين من الأحايين تتكلم بأسلوب بليغ لا يوجد في كلام البشر أبلغ منه لتحذر أصحابك، أوّه!! فكأنك لا تستطيع أن تعد هذا الكلام سلفًا في الأربعين سنة التي ظللت فيها قبل الكذب؟! إي نعم، لن تستطيع إعداد الكلام سلفًا بل ستتكلم وتجاري الأحداث بكلامك فعليك بهذا الكلام البليغ جدًّا والذي يأتيك عند كل حادثة وفي كل مرة يكون كلامًا لا يوجد في كلام البشر أبلغ منه، بل وتتحدى بهذا الكلام أقحاح العرب وأساطين اللغة، أهذا في حد المعقول عندك ؟!لا بأس.

ثم أريدك أن تصبر، نعم، تصبر وأنت كذاب، عندما يسفهون عقلك فاصبر، وعندما يقولون "كذاب " فاصبر، وعندما يقولون " شاعر " فاصبر، وعندما يقولون "كاهن " فاصبر، وعندما يقولون " فيلسوف " فاصبر، و عندما يخرجك قومك فاصبر، وعندما يضعون على ظهرك سلا الجزور فاصبر، وعندما يهجرك أهلك فاصبر، وعندما يحاولون قتلك فاصبر، وعندما يخنقونك خنقًا فاصبر، وعندما يسيرون خلفك السفهاء فاصبر، أتستطيع الصبر على كل هذا و أنت كذاب ؟! أهذا في حد المعقول عندك ؟! لا بأس.

ثم أريدك أن تصمد، نعم، تصمد وأنت كذاب، إن قالوا " نعبد ربك عامًا وتعبد آلهتنا عامًا " فارفض، إن قالوا " لك ما تشاء من الملك " فارفض، إن قالوا " نسكت عنك إن سكتَّ عن آلهتنا " فارفض، إن قالوا " لك ما تشاء من التطبيب والأموال والمغانم " فارفض، إن قالوا " لك أموال التجارة كلها " فاصمد، اصمد، أتستطيع الصمود أمام كل هذا وأنت كذاب؟! أهذا في حد المعقول عندك ؟!لا بأس.

ثم أريدك أن تحذر، نعم، احذر فلكل كذاب هفوة، احذر فقد قالوا " إذا كنت كذوبًا فكن ذكورًا " فعساك تنسى كلمة قلتها فتأتى بغيرها بعد حين تناقضها فيظهر كذبك، أريدك ان تظل ذَكورًا لا تنسى طول عمرك، لا يتناقض قولك، ولا يختلف فهمك، أريدك أن تتكلم في آلاف الآيات وآلاف الألوف من الأحاديث فلا تتناقض و لاضطرب ولا يظهر

كذبك، أريدك ان تعامل أصحابك كلهم فلا يقف واحد منهم على كذبة لك فضلًا عن أن يقف مجموعهم على هذا الكذبة، أتستطيع أن تحذر هذا الحذر ؟! أهذا في حد المعقول عندك ؟! لا بأس.

ثم أريدك أن تحتاط لنفسك، لا تكتفي " بالتمثيل " وأنت أمام الناس، بل أريدك أن تظل على حالك وأشد منها في بيتك، أريدك في بيتك أن تقوم بالليل وتترك أهلك، تقوم لتصف قدميك بين يدي ربك–وأنت تعلم أنك كذاب!! أريدك أن تترك الفراش ليلًا وتذهب إلى المقابر وتقول " إن ربي أمرني بهذا "–وأنت تعلم أنك كذاب أريدك أن تبكي وعندما يسألك الداخلون عليك عن سبب بكائك " تقول أنزل علي آيات جعلتني أبكي "–لاحظ أنك لم تكن تعلم أنهم سيدخلون عليك، أريدك أن تحتاط لنفسك فتقوم في الليل لعبادة ربك حتى تتورم قدماك–مع علمك أنك كذاب، أريدك ان تحتاط لنفسك حتى تقول عنك زوجتك "كان قرآنًا يمشي " أتستطيع بلوغ هذه الدرجة من الاحتياط وأنت كذاب؟! أهذا في حد المعقول عندك ؟!لا بأس.

أريدك صادقًا مع نفسك والناس–لكن كيف يكون ذلك وأنت كذاب، لا أدري؟! عندما تتكلم عن الأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب تتكلم بما تعلم أنه هو عين الموجود وإن خالفك قومك، عندما تتكلم عن البحار والأنهار والشجر والدواب تتكلم بما تعلم أنه هو هو عين الموجود وإن خالفك قومك، وعندما تتكلم عن أخبار الأولين وقصصهم تتكلم بما تعلم أنه هو هو ما كان موجودًا وإن خالفك اليهود والنصارى من حولك، أتستطيع أن تبلغ هذا الدرجة من الصدق والعلم وأنت في الأصل كذاب؟!! أهذا في حد المعقول عندك ؟! لا بأس.

ثم أريدك ان تتخلى عن كذبك في أفضل الظروف للكذب وتتكلم أحوج ما يلزم كذاب السكوت، إن سألك قومك عن موعد الساعة فقل " لا أدري " وقل " علمها عند ربي "، إن سألك قومك عن موعد هزيمة الروم للفرس فقل " في بضع سنين " ولا عليك إن مرت السنون ولم يحدث ما قلت فكل ما سيحدث أن ينكشف كذبك وينقلب عليك صحبك ويشمت بك عدوك ويهجرك أهلك وعلى اختلاف تصرفاتهم فسيُجمعون على وجوب قتلك لا عليك وماذا إن قتلوك؟! بسيطة هي!! بسيطة على كذاب!!إن رأيت الشمس تنكسف يوم موت ولدك فلا تسكت ولا تؤكد أنها انكسفت من أجله بل أعلنها أنها لا تنكسف لموت أحد ولا حياته !!أيستطيع دجال أن يفعل مثل هذا ؟! أهذا في حد المعقول عندك ؟!لا بأس.

ثم أريدك أن تسلي نفسك بالكذب، عندما يحرسك أصحابك تذهب إليهم وتقول (اذهبوا إلى مضاجعكم فسيحرسني ربي فقد أنزل عليّ " والله يعصمك من الناس ") !!وعندما يشمت بك عدو تسلي نفسك بالكذب فتقول " إنا أعطيناك الكوثر " !!وعندما تقف في المعركة وحدك أمام جيش عرمرم تقول " أنا النبي لا كذب " !! أتستطيع تسلية نفسك بالكذب وأنت تعلم أنك كذاب ؟!! أهذا في حد المعقول عندك ؟! لا بأس.

ثم أريدك أن تكون عالما علامة تأتي بما لم يأت به هارفي من بعدك بمئات السنين، تتكلم عن الأجنة وأنت لم ترها، تصف مراحلها وأنت لم تعلمها، تخبر بوصفها ولم يأتك عنها نبأ يقين، تخالف في كلامك من حولك ولا تبالي أتستطيع ذلك وأنت كذاب؟!! أهذا في حد المعقول عندك ؟!! أف لهذا يا صاحبي !!

لقد طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى، وغلى المرجل ثم انفجر ولم يبق في قوس الصبر منزع، والله إن هذا لعين اللامعقول، فكيف لصادق أربعين سنة أن يكذب وعندما يكذب يكذب على الله ؟! وكيف لمن لا يقرأ ولا يكتب أن يأتي بما أعجز المتعلمين ؟!

وكيف لكذاب أن يصبر على أذيته في بداية دعوته ؟!

وكيف لكذاب أن يتحدى قومه في أقوى ما هم فيه من اللغة والبلاغة ؟!

وكيف لكذاب أن يأتي بكلام على البديهة هو من أبلغ الكلام ؟!

وكيف لبشر كذاب أو غير كذاب أن يتكلم بأسلوبين أحدهما أبلغ من الآخر وكلاهما أبلغ مما سواهما !؟

وكيف لكذاب أن يصبر كل هذا الصبر على دعوته؟

وكيف لكذاب أن يصمد كل هذا الصمود أمام الإغراءات لترك دعوته ؟!

وكيف لكذاب ألا يقع -على كثرة كلامه-في التناقض أو الخطأ ولو مرة ؟!

وكيف لكذاب ألا يستغل الفرصة الذهبية للترويج لدجله؟!

وكيف لكذاب أن يحتاط لنفسه حتى وهو في بيته وسط اهله؟

وكيف لكذاب أن يقول الحق وإن كان في ذلك مخالفة قومه ؟!

وكيف لكذاب أن يسلي نفسه بالكذب ؟!

وكيف لبشر كذاب أو غير كذاب أن يتكلم عن الأجنة ولا يجانبه الصواب ولو مرة وليس عنده الأدوات الكافية لذلك ؟! تالله يا صاحبي إن المنطق الإلحادي لثقيل الظل، سخيف القول، عديم النفع، لا يأتيه الحق، وتعال إلى المنطق الحق والقول الصدق، تعال إلى التفسير السديد.

قال الله تعالى {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}

تعال إلى الحق كله: {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}

تعال إلى اليقين كله: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا}

تعال إلى الفهم كله: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}

تعال إلى الإيمان كله: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ}

تعال إلى الفقه كله: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}

تعال إلى العلم كله: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}

تعال بعيدًا عن التناقض: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}

تعال إلى الخلق كله: سألوا عائشة زوج النبيﷺ عن خُلقه فقالت (كان قرآنًا يمشي على الأرض)، نعم . نعم، هكذا تستقيم الأمور وتعتدل الأفهام وتتناسق الأحداث وينسجم الكون هكذا هكذا يظهر كذب من قال " فيلسوف"[١]

(١) -لا أعلم هويتي حوار بين متيقن ومتشكك د. حسام الدين حامد ص ٤٧ وما بعدها المصدر السابق.

الفصل الثاني:

القسم الثاني: دلالة القرآن على نبوّة محمّد الأميّ خاتم النبيّين.

البحث الأول: تحدي القرآن على مدى القرون، وتأثيره، والعلامات الإلهية فيه.

وجوه فصاحة القرآن وبلاغته.

اعتراف العرب الفصحاء ببلاغة القرآن وفصاحته وتأثيره النفسي والروحي.

تحديه الفصحاء الذين لم يؤمنوا بأنه من الله أن يأتوا بمثله.

علامات إلهية في القرآن، ٨ نقاط أساسية.

البحث الثاني: علاقته بالكتب السابقة علاقة الهيمنة والتصحيح والحكم بينهم لا النقل.

١-القرآن والكتاب المقدس.

٢-تصحيح القرآن الكريم للأخطاء التاريخيّة للكتاب المقدس. ١٠ نقاط

٢-السبق التاريخي للقرآن الكريم على الكتب السابقة. ٤ نقاط

٣-القرآن الكريم يصحح الأخطاء العلميّة للكتاب المقدس. ٩ نقاط

البحث الثالث: دلالة القرآن الذاتية أنه من عند الله.

تمهيد:

لا يوجد كتاب نزّه الخالق وقدّسه وأمر بالتوحيد والتصديق بالرسل وتنزيههم عن كل نقيصةٍ، والحث على الصالحات الباقيات مثل القرآن؛ منذ كانت الدنيا فالقرآن منسوجٌ بالتوحيد والنبوات والغيبيات والحِكم والفقه والتشريع والآداب، كل هذا بحبكةٍ لغويةٍ ونسجٍ لم تعهده العرب وكم من ملايين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة دُفعت لمحو القرآن، وإذهاب أثره عن القلوب، وتشتيت أتباعه وتشويه مراده عبر الأزمان، طمعا أن يُفعل به ما فُعل بالكُتب من قبله [١] فبقي رغم كل المحاولات رافعا أعلامه حافظا أحكامه.{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ}[الأنفال :٣٦] وإذا أنعمت النظر في دين النصارى وجدت أن كل شرائعهم مبدلة محرفة محدثة، فلم يكن المسيح عليه السلام يعرف كنيسة فضلا عن أن يبنيها فضلا عن أن يضع قوانينها، ولم يكن يعرف ناقوسا ولا صليبا ولا أسرا را ولا مطانيات (السجود للقساوسة) ولا أيقونات (صور قديسين) ولا مراتب كنسية ولا طقوس كهنوتية وليس في الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم شيءٌ من ذلك! فهي تشريعات مخترعة!.

ولو انتقلت إلى التوراة لوجدت أن العمل بها صار من الصعوبة بمكان، حيث شدد اليهود على أنفسهم فما أطاقوا؛ وطقوس التطهر والنجاسة عندهم تحتاج إلى قرابين وانعزالية تامة عن الحياة! وقد تعلقت أحكام التوراة بالهيكل السليماني والمذبح وقد خرِب الهيكل ولا أحد يعرف له مكانا، وهُدم المذبح وزال أثرهما من الوجود وهذا برهانٌ واضح على نسخ الشريعة.أما الهندوس الذين يتردون من الجبال ويحرقون الأجساد ويغرقون في الماء من أجل التطهر فلم يبتعدوا كثيرا عن طقوس اليهود، ولو أراد الله بعباده الهلكة للتطهر ما أذِن لهم في صنعة لبوسٍ لتحصنهم من بأسهم .ولما أوجد لهم سرابيل تقيهم الحر[٢] ! "فليس في التوراة ولا الإنجيل مماثلا لمعاني القرآن: لا في الحقيقة. ولا في الكيفية. ولا الكمية.

---

(١) -الفقرة من وحي كتاب" :رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د .ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد

(٢) -الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري، ص ١٣٩

بل يظهر التفاوت لكل مَن تدبر القرآن وتدبر الكتب[١]" فالقرآن رسالة" اليسرى "للأمم؛ يقول تعالى {ونيسرك لليسرى}[الأعلى:٨] أي :للشريعة السهلة وهي الإسلام. ولو انتقلت إلى معاني القرآن لوجدتها غير محدودةٍ. وعلومه غير محصورةٍ ولا معدودةٍ.

فقد اتسع مجاله لكل فن : " فأنت تجد في كتاب الله أخبارا وأحكام ومواعظ وأمثال وأخلاق وآداب، وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار، وتدبير السياسات ومجادلة الأخصام وإقامة الدلائل على أصول الاعتقاد وإزالة الريب، ووصف الغيب ووصف عوالم الأرض والسماوات، خارجا بكل ذلك في حسن نظمه عن كل أسلوب فلا هو من الأراجيز البدوية ولا القصائد العربية فكلما تكرر حلا، وسمعته من أي الأفواه غلا مع اقتران معانيه المتغايرة فينقلك من الوعد إلى الوعيد ومن ماضٍ إلى حاضرٍ ومستقبل ، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر بل تتجانس معانيه في بنيةٍ نظميةٍ بديعة[٢] " فإعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط كما يظن الملحدة.ولا في لفظه فقط.ولا في معانه فقط. بل إعجاز القرآن يشمل اللفظ والمعنى والبلاغة، وينتقل إلى العلوم والأحكام والتشريعات وتحليل النفس وسبر أغوارها وإشباع مراداتها. وكما يقول ابن تيمية" :فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه [٣]"وانظر إلى عبارته الأخيرة " وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه."

فالنظم البلاغي القرآني جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني، فاللفظة الواحدة من القرآن لو أخذتها وأدرت لغة العرب كلها لتحصل على لفظةٍ أحسن منها ما استطعت ولو أردت أن تؤلف بكلماتٍ أخرى غير كلمات القرآن لتوازي حسن تأليفه وحبكته ورونقه لشهدت له بالنصر وعلى نفسك بالعجز. انظر إيجاز اللفظ مع دقة المعاني وكثرتها وتلاؤم الكلام في قوله تعالى:{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[هود:٤٤] وانظر إلى الإيجاز القرآني المعجز في قوله تعالى{فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [الصافات ١٠٣] (فلما أسلما) خضعا وانقادا لأمر الله تعالى (وتله للجبين) صرعه عليه ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة وكان ذلك بمعنى وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئا بمانع من القدرة الإلهية هل تستطيع أن تأتي بهذا المعنى المطلوب بنفس هذا العدد من الكلمات في إطار حبكةٍ بلاغية لا تنبو عن سير الآيات قبلها وبعدها؟ ولو انتقلت عن لغة العرب وأردت أن تترجم كلمة مثل " أنلزمكموها " في قوله تعالى{قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[هود:٢٨] فأنت تترجمها بعد أن تتفكك ويخفت رونقها إلى سبع كلماتٍ بالإنجليزية Shall we compel you to accept it وحبكة اللفظ القرآني واستيعابه للمعنى التام مما سارت بأمثاله الركبان .أنظر إلى كلمة" فأسقيناكموه "في قوله تعالى { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}[هود:٢٢] لفظة واحدة بها حرف عطف ، وفعل وفاعل، ومفعول أول ومفعول ثانٍ. ولذا عندما سمع العرب الأقحاح كتاب الله عز وجل خطف أسماعهم بقوة تأثيره ورقراق بلاغته؛ فعن جبير بن مطعم عن أبيه حين سمع قوله تعالى{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ}[الطور:٣٥] قال :كاد قلبي أن يطير! إن كل هذا ليقطع بأن الظاهرة القرآنية ما جائت إلا لتتحدى وتهدي وتُصلح!

---

(١) -الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥ /٤٣٥

(٢) -الدلائل العقلية للألوسي مخطوط

(٣) -الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥ / ٤٣٤

لم يزل القرآن يقرع المشركين البلغاء أشد التقريع، ويُ سفه أحلامهم، ويذم آلهتهم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته. بل لقد قال الله عز وجل للمشركين: { لم تفعلوا ولن تفعلوا}[البقرة:٢٤] فما فعلوا، ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عواره لجميعهم، فقد ولوا عنه مدبرين وللإنسان أن يتسائل :كيف يجرؤ رجلٌ أن يتحدى أناس في جنس ما يحسنون ويبدعون، ثم يتركهم على مضي السنين وقد علاهم الوجيب والخزي والسكون؟ يقول د .عبد الله دراز :" أ لم يكن يخشى الرسول بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية ؟ فيهبوا لمنافسته وهم جميعٌ حذرون؛ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا. حتى يُخرجوا كلا ما إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميَه ولو في بعض نواحيه! ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجلٌ يعرف قدر نفسه إلا وهو ماليٌ يديه من تصاريف القضاء، وخبر السماء، وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح، على مر العصور والدهور[١]"

فتحدى القرآن أهل البيان في عباراتٍ محرجة، أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ منه، فما فعلوا فلم يأت العرب جميعا ولا الأمم التي نُقل لها التحدي بشيء يستريح له الملحدة ويريحون به غيرهم! يقول الألوسي رحمه الله" :فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفه ولا أعرب عن موصوفٍ أو صفة، وأظهر الكل العجز عن المعارضة في كل وقتٍ وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين!

فكأن محمدا صلى الله عليه وسلم موجودٌ كل عصر بين أظهرنا والوحي غير منقطعٍ منا، لأن دليل نبوته وحجته يُذكِّر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار[٢]" فقد رأى هؤلاء الذين يتحداهم القرآن أن تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب لمحاربة رسول الله أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي فهذا بالغ جهدهم { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت:٢٦]

البحث الأول: تحدي القرآن على مدى القرون، وتأثيره، والعلامات الإلهية فيه

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يؤيد رسله ببينات تدل على صدق رسالتهم، قال تعالى:{لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ}[الحديد: ٢٥]، وتنوعت البينات والمعجزات بتنوع الأقوام والأمم، فجعل الله لكل قوم بينة تناسب مستواهم الثقافي والفكري ليكون ذلك أبلغ في قبول الرسول وحجته فهي من نفس ابداعاتهم وتفوقها بما تعجزهم، ولما كان محمد مرسلا إلى الناس كافة، فقد أيده الله سبحانه ببينات متنوعة تتناسب مع جميع من أرسل إليهم من الأقوام، ومع جميع الأجيال إلى قيام الساعة على اختلاف ثقافاتهم ومداركهم.

فكانت الفصاحة والبلاغة من بيناته المناسبة للعرب الفصحاء البلغاء ، ومن بيناته ما يتناسب مع أهل الأديان كالبشارات به في الكتب السابقة ، ومن بيناته ما عجز أهل الأنظمة والقوانين عن المجيء بمثله من تشريعات حكيمة تناسب جميع البيئات والعصور ، ومن البينات الخوارق المشاهدة كخارقة انشقاق القمر التي سجلت عند بعض الأمم ولا تزال آثارها ظاهرة إلى اليوم، ومنها معجزة الإخبار بالغيب الماضي والحاضر والمستقبل، والتي لا تزال تنكشف إلى يومنا

(١) –راجع الشفا للقاضي عياض ١/ ٣٦٥، والنبأ العظيم للدكتور عبدالله دراز ص ٤٤–٤٥ .
(٢) –الدلائل العقلية للألوسي مخطوط

هذا ، ومنها الخوارق للعادة التي دونت في أوثق سجل عرفه البشر، وهو القرآن الكريم والحديث النبوي ، ومنها ما يتناسب مع أهل الكشوف العلمية في عصرنا كالإعجاز العلمي في القرآن والسّنّة.

وقد جعل الله سبحانه القرآن المتضمن لكثير من أنواع هذه المعجزات أكبر بيّنة لمحمد قال تعالى:{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}[الأنعام: ١٩] ، وقال النبي ﷺ: " ما من الأنبياء نبيّ إلّا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الّذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"[(١)]،يشير الحديث الشريف إلى طبيعة المعجزة في الوحي الذي أنزله الله على محمد فيبقى بعد موته ويتجدد إعجازه على مرّ العصور ، وشهادة القرآن بصدق رسالة محمد متمثلة بما احتوى عليه من الإعجاز في ألفاظه، والإعجاز في العلم الذي جاء به. قال تعالى:{لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً}[النساء: ١٦٦] قال المفسرون: " لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك"، وقال ابن كثير: "فالله يشهد لك يا محمد بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم ... ولهذا قال تعالى: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل[(٢)]

وجوه فصاحة القرآن وبلاغته

قال تعالى:{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} [الزمر: ٢٣] ، القرآن العظيم أحسن الكلام وأجوده لأنه نزل بعلم الله، ذلك أن الله سبحانه يعلم أي لفظة هي أدل على المعنى المقصود، وأي لفظة تصلح أن تليها أو تسبقها، بل ومناسبة كل حرف لموضعه، فجاء القرآن العظيم في غاية الفصاحة والبلاغة في مفرداته وتراكيبه [(٣)] ، وسر فصاحة القرآن وبلاغته أنه كلام الله الذي يحمل العلم الإلهي، وينم عن العظمة والصفات الإلهية التي لاتحد بحد، فأعجز الفصحاء والبلغاء فلم يجدوا إلا أن يقولوا: إنه سحر، كما حكى الله عنهم قولهم:{إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [المدثر: ٢٤] ، هذه بعض وجود فصاحته :

أ –تضمنه أصح المعلومات وأدقها وأكملها، وأصدق المعاني وأوضحها، وأحسن الكلام والتعبير بأفصح المفردات والتراكيب وأبلغها وأعذبها، وسريان ذلك فيه من أوله إلى آخره، وإنه ليستحيل على بشر أن يصل إلى هذا السمو، فإنه إن راعى دقة المعلومة فاته رونق اللفظ وعذوبته غالبا، وإن أراد تنميق الألفاظ وتزيينها لم يصل إلى مراده في دقة المعلومة التي يوردها، وإنك لتلاحظ عذوبة ألفاظه حتى في المواضع العقدية والتشريعية التي تستلزم البعد عن اللفظ البديع غالبا.

ب –جمعه بين صفتي العذوبة والجزالة [(٤)]: مع كونهما كالصفتين المتضادتين لا تكادان تجتمعان في الكلام.

ج –إرواؤه لمطلب العقل والعاطفة معا: بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

د–قصده في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى: فإنه يجلي المعنى كاملا واضحا في كلمات وعبارات قاصدة ليست بالطويلة المملة، أما البشر فإنه إن أراد الاقتصاد في اللفظ قصر في التعبير عن المعنى المطلوب، وإن أحب تجلية المعنى قاده ذلك إلى التطويل في العبارة، وإن قدّر أنه ضبط اللفظ مع المعنى في جملة أو جملتين، فإن الكلل والإعياء سيلحقه بعد ذلك في بقية الكلام، وندر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية إلا الفينة بعد الفينة.

---

(١) –البخاري ح(٤٩٨١) ومسلم ح(٢٣٩) وغيرهم

(٢) –ابن الجوزي والزمخشري وأبو حيان والألوسي والشوكاني، البيضاوي والنسائي والخازن، والجلالان. وابن كثير (٤٧٦/٢) دار طيبة ط٢

(٣) –هذا البحث أكثره مستفاد من كتاب عبد المجيد الزنداني ، بينات الرسول (ص) ومعجزاته دار الإيمان القاهرة (ص ١٩٠– ٢١٦) و انظر علم الإيمان الجزء الثاني ق ١/ ١٦٠– ١٧٤.له وكتاب اظهار الحق لرحمة الله الهندي (٤ / ٧٥٥– ٨٢٩) .

(٤) –العذوبة هي رقة اللفظ وسلاسته، والجزالة: قوته ومتانته.

هـ –جودة سبكه وإحكام سرده: مع أنه حوى موضوعات كثيرة مختلفة شاملة لحاجات البشر في الدنيا والآخرة من تشريع وقصص ومواعظ وبراهين عقلية ووجدانية ومناقشات وأمثال وحكم وغير ذلك، فقد سبك هذه الموضوعات جميعا وغيرها سبكا حكيما، فتراه مترابطا ترابط الجسم الواحد والروح الواحدة.

و–إشباعه العامة والخاصة على السواء: فالجميع يتذوق حلاوته ويجد فيه من بغيته ما يمتع عقله وقلبه، فالعامة يلتذون به ويفهمون منه على قدر استعدادهم وما تبلغه عقولهم وقلوبهم، والخاصة يجدون حلاوته ويفهمون منه أكثر مما تفهم منه العامة، بخلاف غيره من كلام البشر فتجد منه ما يرضي العامة لسهولته ولكن الخاصة تمجّه لكونه دون مستواهم، وإن أرضى الخاصة لارتفاع مستواه لم يرض العامة لكونهم لا يفهمونه.

ز –مسحته اللفظية المميزة: فهي مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، فأما نظامه الصوتي فإنك تجده متسقا مؤتلفا في حركاته وسكناته ومدوده وغنّاته، واتصالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور، فجرسه الصوتي يجذب السامع له ويلفت انتباهه، حتى لو كان أعجميا لا يعرف اللغة العربية، ولعل هذا هو الذي حمل بعض العرب في عهد النبوة أن يقولوا: إنه شعر، ثم عادوا إلى أنفسهم فعلموا أنّه فوق الشعر وأنه لا يسير على منهج الشعر ومنواله فقالوا: هو سحر.

وأما جماله اللغوي فيظهر فيما امتاز به في رصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبا بديعا، بحيث أنك تجد لذة حين تسمع حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، فحرف يصفر وآخر ينقر، وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، فخرج للناس بمجموعة مختلفة مؤتلفة، جامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية على وجه دقيق محكم، وضع كلا من الحروف المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألف من مجموع ذلك قالب لفظي مدهش بلغ جماله اللغوي قمة الإعجاز، بحيث لو أدخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه واختل نظامه في آذان سامعيه [١]

ح –إحكام ترابطه وكمال تناسقه: مع كونه قد نزل مفرقا حسب الحوادث في ثلاث وعشرين عاما، بينما البشر يعجزون أن يصنفوا كلاما مترابطا كترابط القرآن إذا كان قد قيل في مناسبات مختلفة وفي أزمنة متباعدة.....وقال الخطابي رحمه الله: القرآن صار معجزا، لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، متضمنا أصح المعاني ... [٢]

اعتراف العرب الفصحاء ببلاغة القرآن وفصاحته وتأثيره النفسي والروحي.

وقد اعترف العرب الفصحاء بعظيم نظم القرآن وبلاغته وأسلوبه من خلال تأثرهم به، حتى كانوا يحذّرون من قدم إلى مكة من سماع القرآن خشية أن يتأثر به فيسلم، بل تواصوا فيما بينهم باللغو (التشويش) عند سماع القرآن حتى لا يتأثر به السامع. قال تعالى:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }[فصلت: ٢٦] الغوا فيه بالمكاء « الصفير » والتصدية « التصفيق » والتخليط في الكلام حتى يصير لغوا ، قال الشوكاني: عارضوه باللغو الباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له [٣].

ولما جاء الطفيل بن عمرو إلى مكة لم يزل به الكفار يحذرونه من سماع القرآن حتى وضع في أذنيه قطنا خشية أن يسمع شيئا من القرآن، وأبى الله سبحانه إلا أن يسمعه شيئا منه مع وجود ذلك القطن، فهدى الله قلبه لسماع القرآن

---

(١) –مناهل العرفان ٢ ٣٣١/– ٣٣٥ بتصرف، وانظر كتاب" النبأ العظيم" لمحمد عبد الله دراز، لزيادة التوضيح والتفصيل في إعجاز القرآن وروعته اللغوية. ورحمة الله الهندي "إظهار الحق " (٣ / ٣٧٥) وما بعدها ، وبينات الرسول ومعجزاته للزندانى

(٢) –الخطابي « بيان إعجاز القرآن ص ٢٧.» . المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م

(٣) –فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٨٩) دار ابن كثير دمشق ١٤١٤

ومن ثمّ شرح الله صدره للإسلام. ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن فكأنّه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوه لك، فإنك أتيت محمدا لتعرّض لما قبله ، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا! قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟!، فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، وو الله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته!!.قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه!!. قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره!! فنزلت الآيات في الوليد قال تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ } [المدثر: ١١- ٢٦] [(١)]، **فقول الوليد: إن القرآن سحر، يبين عميق التأثير الذي أحدثه القرآن في نفسه** .

وقال الزهري: حدّثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فلما طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألّا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك ، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا «جذا الرجل إذا جلس على ركبتيه.» على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه [(٢)] .

فحرصهم على الحضور ليلا لسماعه مما يدّلّ على تأثرهم به وتعجبهم منه فقد أخذ بقلوبهم لكونه ليس ككلام البشر، ولكن العناد والمكابرة حملهم على تركه كما قال أبو جهل ، ومما يدل على تميز القرآن الذاتي عن كلام العرب ما شهد به أنيس بن جنادة الغفاري قبل إسلامه، حيث سأله أخوه أبو ذرّ عما يقول الناس في النبي فقال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر- وكان أنيس أحد الشعراء- قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر" طرائقه وأنواعه" . " فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ... "[(٣)]، وقدم جبير بن مطعم إلى المدينة قبل إسلامه في فداء أسارى بدر فسمع النّبيّ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور قال: فكأنما

(١) -الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٠ وقال صحيح الإسناد على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وعن الحاكم أخرجها البيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٥٦-١٥٧.
(٢) -سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٧-٣٣٨.» وعدة مصادر أخرى كالطبري وسيرة ابن كثير والبداية والنهاية
(٣) -مسلم وأحمد

صدع قلبي حين سمعت القرآن ، وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي[١] فهؤلاء من قريش أفصح العرب يشهدون ببلاغة القرآن وفصاحته من خلال تأثرهم به ،وما أحسن ما سطره الرافعي في تصويره تأثير القرآن في العرب الذين كانت الفصاحة والبلاغة من أبرز مفاخرهم، وأنه لولا فصاحة ألفاظه التي بلغت حد الإعجاز لما استطاع التأثير فيهم لأنه قد قامت فيهم بالفصاحة" دولة الكلام ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن" [٢] .

إن بعض نصارى العرب المتأخرين ممن لهم تضلع في اللغة العربية وآدابها قد اعترفوا بذلك، ومنهم الكاتب البليغ إبراهيم اليازجي وكذلك الشاعر المعروف خليل مطران كما نقله عنهما الرافعي رحمه الله في وحي القلم وكذلك الأستاذ جبر ضومط مدرس علوم البلاغة في الجامعة الأمريكانية في كتاب الخواطر الحسان كما نقله عنه الأستاذ محمد رشيد رضا[٣] يقول الدكتور جورج حنا : "انه لابدّ من الاقرار بان القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو ايضاً كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود اليه ائمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الائمة مسلمين ام مسيحيين. واذا كان المسلمون يعتبرون ان صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون ايضاً بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً او موضوعاً، ويرجعون اليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم امر من امور اللغة[٤]" ويقول المفكر نصري سلهب : "لم يقدر لاي سفر، قبل الطباعة، ايا كان نوعه واهميته، ان يحظى بما حظى به القرآن من عناية واهتمام، وان يتوفّر له ما توفّر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن ان يشوب الاسفار عادة من شوائب" "تلك اللغة التي ارادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بانه كلام الله.."[٥]

تحديه الفصحاء الذين لم يؤمنوا بأنه من الله أن يأتوا بمثله.

قال تعالى مبينا عجز الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثل القرآن الكريم: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسراء: ٨٨] ، هذه الآية مكية، نزلت في وقت قلة عدد المؤمنين وضعفهم، وإقدام النبي على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة أنهم لا يقدرون على الإتيان بمثل القرآن، بل يعجزون عنه، لا يقدم عليه وهو يدعو الناس لتصديقه إلا وهو واثق أن الأمر كذلك، ولا يقدم عاقل على مثل هذا الخبر وهو يشك فيه، في مثل ظرف النبي ﷺ في ذلك الوقت، ولم يكن هذا اليقين حاصلا للنبي ، إلا بإعلام الله سبحانه له[٦].

وقد تحدى الله الكفار أن يأتوا بمثله إن ظنوا أنه من قول محمد ، قال سبحانه:{ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ } [الطور: ٣٤] ،وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله [هود: ١٣] ،ثم تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله فلم يقدروا، وأخبرهم أنهم لن يفعلوا، قال سبحانه: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ [البقرة: ٢٣- ٢٤] ،ولو كان القرآن من كلام الرسول لما جزم بعدم استطاعة أحد أن يأتي بمثله، وتحقق هذا الجزم بعد ذلك دليل على أن القرآن كلام الله المعجز ،وكان بإمكانهم أن يكذبوا القرآن لو استجابوا للتحدي وأتوا بسورة

---

(١) -متفق عليه وأحمد

(٢) -إعجاز القرآن للرافعي ١٥٧-١٦٠.

(٣) -انظر علوم القرآن الكريم للدكتور نور الدين عتر ص ٢٠١.

(٤) -الدكتور جوج حنّا Hanna John مسيحي من لبنان، ينطلق في تفكيره من رؤية مادية طبيعية صرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الانسان) . والنص من كتابه قصة الإنسان، ص ٧٩ -٨٠.

(٥) -نصري سلهب مفكر لبناني مسيحي عرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي الاسلامي المسيحي عن كتابه لقاء المسيحية والاسلام ص ٨٦—٨٧

(٦) -انظر شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٥٥ والجواب الصحيح لابن تيمية ٥/ ٤٠٩.» .

مثل القرآن، ولما رأينا أنهم تركوا الاستجابة للتحدي مع أنه أمر لا يكلفهم كثيرا من التبعات واختاروا الطريق الوعر لمواجهة الرسول وهو الحرب وإزهاق الأنفس وإهدار الأموال علمنا علما يقينيا عجزهم عن الإتيان بمثله مع كونهم أساطين الفصاحة والبلاغة.

ولو قدّرنا أن رجلا ألف كتابا، أو قال شعرا ثم تحدى الكتاب والشعراء، فقال: عارضوني وإن لم تعارضوني فأنتم كفار مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال!! فمن المستحيل أن يحجم الجميع عن معارضته لإنقاذ أنفسهم من القتل، ولدفع وعيده لهم بدخول النار، فإذا لم يعارضوه رغم توافر الدواعي لمعارضته كان ذلك من أبلغ العجائب الخارقة للعادة الدالة على صدقه في تحديه[١].

يقول فيليب حتى: "ان الاسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم انه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن ان يقلّد. وهذا في اساسه، هو إعجاز القرآن، فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى" ."..ان إعجاز القرآن لم يحل دون ان يكون أثره ظاهراً على الادب العربي. اما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والانجيل وجدنا ان الاثر الذي تركته على اللغة الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الاثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. ان القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من ان تتمزق لهجمات"[٢]

علامات إلهية في القرآن:

هناك علامات واضحة بينة في القرآن تدل قارئه وسامعه أنه من عند الله عز وجل ويستحيل أن يكون من عند غيره ومنها:

[١] الجدة الدائمة: إذا أعجبتك قصيدة من عيون الشعر وطربت نفسك عند سماعها فإنها تفقد رونقها وجمالها إذا كررت على سمعك عدة مرات، مع أن اللسان الذي قالها وكررها واحد، والأذن التي سمعتها واحدة، ذلك لأن كلام البشر يفقد رونقه وجماله بالتكرار، ويلمس قارئ القرآن أثرا من إعجازه حين يقرأ القرآن ويعيد قراءته، فكلما قرأه وجده جديدا مهما تكرر على اللسان أو السمع، وكم كرر المسلمون ويكررون سورة الفاتحة وقصار السور كل يوم، وكلهم يجمعون على أن القرآن الكريم لا يزال جديدا على ألسنتهم، وهذه علامة تخضع للممارسة من كل قارئ للقرآن في أي زمان وفي أي مكان، كما أنها علامة إلهية في كل سورة. ولقد نطق أحد كبار المستشرقين بهذه الحقيقة، وهو المستشرق "ليون" فقال: حسب القرآن جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التي مرت عليه لم تستطع أن تخفف ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لا يزال غضّا كأن عهده بالوجود أمس.

[٢] كونه روحا من أمر الله: يكون الكلام انعكاسا لشخصية المتكلم وعلمه وخبرته وصفاته، وقارئ القرآن يقع في نفسه شعور بأن المتكلم إليه هو الله سبحانه. قال تعالى: {وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا} [الشورى: ٥٢] ، فهناك سر خاص وسلطان خاص يحمله القرآن إلى قارئه يدله على أنه كلام الله.

[٣] أنه كلام فريد: كلام البشر درجات وطبقات متقاربة ويمكن دمج كلام بعضهم ببعض، لكن القرآن يمثل درجة متميزة، وطبقة من الكلام خاصة، تتميز عن سائر كلام البشر، فإذا تكلم الخطيب أو كتب الكاتب، واستشهد بايات من كتاب الله تحس بالفارق الجلي بين مستوى كلام الله وكلام البشر، يشعر به السامع والقارئ، بينما كل كلام للبشر يمكن دمجه بغيره دون الإحساس بفارق.

---

(١) –انظر الجواب الصحيح لابن تيمية ٥/ ٤٣٠

(٢) –د. فيليب حتي: P. Hitti كتابه الاسلام منهج حياة، ص ٦٢. وص ٢٨٧

[٤] قوة تأثيره والروعة والهيبة التي تلحق قارئه وسامعه: فإذا قرأ القارئ ما شاء من كلام البشر في موضوع ما، ثم قرأ من كتاب الله آيات في نفس الموضوع، فسيشعر بالفرق الكبير في التأثير بين كلام الله وكلام البشر. وانظر الفرق بين أثر ما تسمعه من وعظ الواعظ بكلام الله، وبين وعظه بكلامه، بل جرب أن تعظ الناس بكلامك ثم تعظهم بكلام الله، ثم انظر الفرق في وجوه المستمعين وفي نفسك، بشرط شرحك للألفاظ القرآنية التي لا يعرفها العامة في هذا الزمان، ولقد أدرك أحد المستشرقين هذه العلامة الإلهية كما أدركها غيره، فقال: " إن أسلوب القرآن جميل وفياض، ومن العجب أنه يأسر بأسلوبه أذهان المسيحيين، يجذبهم إلى تلاوته، سواء في ذلك الذين آمنوا به، أو من لم يؤمنوا به وعارضوه. " وقد ذكرنا مدى تأثيره في كفار قريش، ويكفي المتأمل ما أحدثه من تأثير هائل في حياة العرب الأميين حتى جعل منهم خير أمة أخرجت للناس قادت البشرية بالعلم والعدل والحق، وصهرت الشعوب في بوتقتها، رغم اختلاف أجناسها وألوانها.

إليكم تجربة في تأثير القرآن على التوتر العصبي:

أجرى الدكتور أحمد القاضي تجربة في عيادات (أكبر) « في مدينة بنما بولاية فلوريدا » لإثبات ما إذا كان للقرآن أي أثر على وظائف أعضاء الجسد وقياس هذا الأثر إن وجد، واستعملت أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالكمبيوتر لقياس أي تغيرات فسيولوجية عند عدد من المتطوعين الصم أثناء استماعهم لتلاوة القرآن وقد تم تسجيل وقياس أثر القرآن عند عدد من المسلمين المتحدثين باللغة العربية وبغير العربية وكذلك عند عدد من غير المسلمين متحدثين بالعربية أو غير متحدثين بها ،وتليت عليهم مقاطع من القرآن الكريم كما تليت عليهم ترجمه لهذه المقاطع باللغة الإنجليزية وفي كل هذه المجموعات أثبتت التجارب المبدئية وجود أثر مهدى مؤكد للقرآن في ٩٧ في التجارب المجراة، وهذا الأثر ظهر في شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيف توتر الجهاز العصبي التلقائي وقد ظهر من الدراسات المبدئية أن تأثير القرآن المهدئ للتوتر يمكن أن يعزى إلى عاملين:

[١] صوت الكلمات القرآنية بغض النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها أم لم يفهمها؛ آمن بها أم لم يؤمن بها.

[٢] معنى المقاطع القرآنية ولو كانت مقتصرة على الترجمة الإنجليزية بدون الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم، ولذلك أجرى بحوث المرحلة الثانية التي تضمنت دراسات مقارنة لمعرفة إذا ما كان أثر القرآن المهدئ للتوتر وما يصاحبه من تغيرات فسيولوجية عائدا لتلاوة القرآن وليس لعوامل أخرى مثل الصوت أو رنة القراءة القرآنية العربية أو معرفة السامع بأن ما يقرأ عليه هو جزء من كتاب مقدس أي أن هدف الدراسة تحقيق الافتراض القائل بأن الكلمات القرآنية في حد ذاتها لها تأثير فسيولوجي بغض النظر عما إذا كانت مفهومة لدى السامع وقد أجريت هذه التجارب خلال اثنين وأربعين جلسة علاجية، تضمنت كل جلسة خمس تجارب وبلغ المجموع الكلي للتجارب مائتين وعشرة تجربة تليت على المتطوعين فيها قراءات قرآنية خلال خمس وثمانين تجربة، كما تليت عليهم قراءات عربية غير قرآنية باللغة العربية مجودة لتطابق القراءات القرآنية من حيث الصوت واللفظ والوقع على الأذن خلال خمس وثمانين تجربة أخرى ولم يستمع المتطوعون لأي قراءة خلال أربعين تجربة بحيث كانوا جالسين جلسة مريحة وأعينهم مغمضة خلال تجارب الصمت وهي نفس الحالة التي كانوا عليها أثناء التجارب السابقة ولقد ظهر بوضوح أن التجارب الصامته لم يكن لها أي تأثير مهدئ للتوتر، وكانت النتائج إيجابية في ٦٥ من تجارب القراءات القرآنية بينما لم يظهر هذا الأثر إلا في ٣٣ فقط من تجارب القراءات غير القرآنية. قال تعالى: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨] .

تأثر الشاعر المعاصر نقولا حنّا: حيث كان نصرانيا، ثم أعلن إيمانه بالقرآن وبالرسول، قال: قرأت القرآن فأذهلني، وتعمقت به ففتنّي، ثم أعدت القراءة فآمنت.. آمنت بالقرآن الإلهي العظيم، وبالرسول من حمله، النّبيّ العربي الكريم ...إلى

أن يقول: وكيف لا أومن ومعجزة القرآن بين يديّ انظرها وأحسها كل حين؟! هي معجزة لا كبقية المعجزات ... معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها...وقال: وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين وشواهد وحجج وبراهين لحض الخلق على اعتناقها. إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبت أصولها في القلوب أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن فهو أعلم معلّم وأهدى مبشر، وهو أصدق شاهدا وأبلغ حجة وأدمغ برهانا هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلي المنظورة المحسوسة في كل زمان ثم نظم قصيدة يبين فيها إعجاز القرآن وعظمته [١] .

[٥] خلوه من التناقض والاضطراب: للناس آراء ومقررات في حالات الضعف أو الخوف أو الضيق أو الفقر أو القلة أو نقص المعلومات، وترى تلك الآراء والمقررات تتغير إذا تبدل حال الإنسان إلى العكس مما سبق، وترى هذا في كل عمل بشري، لكن لا تجد أثرا لشيء من هذا الاختلاف في كتاب الله. لأنه من كلام الذي لا تغيره الأحوال سبحانه، ولا يشوب علمه النقص، قال تعالى: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢) [النساء: ٨٢] مع أن القرآن كتاب ضمّ طوال السور وقصارها، ونزل في فترات متقطعة، وفي ظروف مختلفة وشمل علوما متعددة، وتحدث عن آفاق واسعة، تجده يصدق بعضه بعضا ويكمل آخره أوله [٢]

[٦] علومه الواسعة: اشتمل القرآن على علوم ومعارف تهدي البشر إلى طريق الحق والصواب والسعادة في جميع شؤونهم في حياتهم الدنيا والآخرة، وتجنبهم الشر بحذافيره، في كل زمان ومكان، وقد بلغت هذه العلوم من دقة المعلومات، وصحة الأخبار، ونبالة القصد، ونصاعة الحجة، وحسن الأثر، وعموم النفع مبلغا يستحيل على محمد صلى الله عليه وسلم- وهو رجل أمّي نشأ بين أمّيين- أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعا من علماء وأدباء وفلاسفة وأخلاقيين أن يأتوا بمثلها من تلقاء أنفسهم ولو تظاهروا على ذلك [٣] فالعلوم التي في القرآن تدل كل عاقل ومنصف على أنه من عند الله، ولا يمكن أن تكون من عند غيره، ونضرب لك ثلاثة أمثلة مما احتوى عليه من العلوم:

(أ) إخباره بالغيب الماضي والحاضر والمستقبل: تفصيله في البحث القادم وهذا مثال واحد (قصة هامان):

ورد ذكر" هامان" ست مرات في القرآن الكريم، كما ورد اسمه متصلا باسم فرعون كشخص من المقربين إليه ويسند فرعون إليه أعمال البناء، حيث أمره ببناء صرح عال يصعد عليه، قال تعالى: {وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب } [غافر:٣٧] فهاتان الآيتان تثبتان وجود شخص اسمه هامان مقرب إلى فرعون، ويكلفه بعمل البناء ، بينما لم يرد ذكر لهامان في التوراة، ولم يرد ذكره في أي من المقاطع (الروايات) التي تحكي حياة نبي الله موسى عليه السلام، لكن ورد اسم" هامان" في أحد كتب العهد القديم.

لكن هذا الكتاب ذكر أن" هامان" شخص مساعد لملك بابل، وبابل في العراق، وأنه أوقع الكثير من الضرر بالإسرائيليين، ولكن هذه الأحداث كانت بعد نبي الله موسى بمدة طويلة تبلغ ١١٠٠ عام ، ويدعى بعض الطاعنين في

---

(١) -علوم القرآن الكريم د. نور الدين عتر ص ٢٠١- ٢٠٢ وذكر من ضمن أبيات قصيدته:

يقولون: ما آياته؟ ضلّ سعيهم ... وآياته- ليست تعدّ- عظام

كفى معجز الفرقان للناس آية ... علا وسما كالنجم ليس يرام

فكلّ بليغ عنده ظل صامتا ... كأنّ على الأفواه صرّ كمام

وشاء إله العرش بالناس رحمة ... وأن يتلاشى حقدهم وخصام

ففرّق ما بين الضلالة والهدى ... بفرقان نور لم يشبه قتام.

(٢) -انظر كتاب/ دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ محمد الأمين الشنقيطي للرد على من توهم وجود تعارض في الآيات القرآنية.

(٣) -انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/ ٣٦٦.

الإسلام [١] أن محمداﷺ هو الذي كتب القرآن، وأنه نسخ قصص الأمم السابقة من التوراة والإنجيل، فأخطأ في شخصية هامان فذكر أنه وزير فرعون، بينما هو- حسب دعواهم- مساعد ملك بابل.

وجاءت الكشوف الحديثة في علم الآثار لتظهر صدق ما جاء في القرآن الكريم وبطلان تلك الدعاوى المزعومة بعد أن حلت رموز وحروف الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، التي ورد فيها ذكر شخصية هامان وطبيعة عمله ، وتوجد الإشارة إلى هذا الاسم في نصب في متحف هوف في فيينا [٢] كما ظهر في كتاب بعنوان [٣] (in the new Kingdom people) "في شعب المملكة الجديدة" الذي تم إعداده استنادا إلى مجموعة من النقوش كما ظهرت في هذه النقوش وظيفة وطبيعة عمل هامان وهو أنه كان: (رئيس عمال الحجارة) " ورد الاسم مذكرا، من المملكة الجديدة. وترجمت المهنة إلى اللغة الألمانية بمعنى رئيس أو مراقب العمال في مقالع الحجر [٤].

وهذا كله يثبت حقيقة ما جاء في القرآن من أن هامان كان في مصر وأنه كان مسئولا عن أعمال البناء وهذه المعلومات لم تكن متوفرة في عهد نبوة محمدﷺ لأن الكتابة الهيروغليفية قد تركت منذ زمن قديم حيث يرجع آخر مثال معروف لاستخدامها إلى عام ٣٩٤ بعد الميلاد ، ثم نسيت هذه اللغة ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يحل رموزها أو يفهمها إلى حوالي ٢٠٠ سنة مضت في عام ١٧٩٩ م تم اكتشاف" حجر رشيد Rosetta Stone "الذي يرجع تاريخه إلى ١٩٦ قبل الميلاد، وبواسطته تم حل شفرة الكتابة المصرية القديمة، ومن خلالها توفرت المعلومات عن الحضارة المصرية القديمة وجوانبها الدينية والاقتصادية والتاريخية وغيرها، ومن ذلك معرفة شخصية" هامان" وطبيعة عمله، كما ذكر ذلك في القرآن الكريم. فمن أين لمحمدﷺ هذا العلم الذي خفي على البشرية في وقته وإلى عصرنا الحاضر حتى قبل ٢٠٠ سنة تقريبا، إن الإخبار باسم شخص كان يعيش مع فرعون والإخبار عن وظيفته عند فرعون، مع أن هذا الإسلام قد سقط عند أهل الكتب المقدسة ونسي من ذاكرة التاريخ، ولم يعثر على هذا الاسم إلا بعد نزول القرآن باثني عشر قرنا بعد أن تم اكتشاف حجر رشيد الذي تمكن به علماء الآثار من فك رموز لغة الفراعنة (الهيروغليفية) فوجدوا اسم هامان يذكر في النقوش الفرعونية وأنه وزير فرعون للبناء تماما كما أخبر القرآن، إن ذلك يدل على أن مصدر هذا الخبر الغيبي قد نزل في القرآن من علم الله، العليم بكل شيء[٥].

(ب) – الإعجاز العلمي الذي احتوى عليه القرآن: القرآن لا تنقضي عجائبه، فكلما مر الزمن اكتشفت البشرية وجها جديدا من إعجازه، فما إن دخل الناس في عصر العلوم الكونية حتى وجدوا في كتاب الله نبأ صدق ما وعدهم في قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣] ، وإذا بالوعد يتحقق وهو موضوع المبحث (رابعا في هذا الدليل) وقد ألفت في هذا مؤلفات كثيرة، تبين مدى الإعجازات العلمية الدقيقة التي تكلم عنها النبي في سنته قبل أربعة عشر قرنا، ولم نعرف معناها إلا الآن في هذا القرن، وقد ألف الدكتور

---

(١) - Ludwig Marroccio (Confessor to the Pope Innocent XI) , Alcoranus Textus Universus:1698, Published at Paduae, Italy.B.Lewis, V L Menage, Ch.Pellat and J Schacht (Editors) , Encyclopaedia of Islam (New Edition) : 1971, Volume III, E J Brill (Leiden) Luzac Co. (London) , P.110.Arthur Jeffery, The Foreign Vocabulary of the Qur, an:1938, Oriental In- stitute, Baroda, pp.284.

(٢) - Wlater Wreszinski, Aegyptische Inschriften aus dem K.K.Hof Museumin wien:1906, J C Hinrichs, Sche Buchhandlung, Leipzig.

(٣) - Hermann Ranke, Die gyptischen Personennamen, VERZEICHNIS DER NAMEN, Verlag Von JJ Augustion in Gluckstadt, Band I (١٩٣٥) .

(٤) - The name is listed as masculine, from the New Kingdom.The pro- fession translated into German reads Vorsteher der Steinbruch arbeiter The Chief/ Overseer of the workers in the stone quarries, (Aegyptische Inschriften, 134, P.130) Encyclopdia Briannica.

(٥) –هذا الخلاصة في اسم هامان من مقال للدكتور/ باسم طارق جمال في مجلة الإعجاز العلمي، العدد (١٤) لعام ١٤٢٣ هـ.

مختار سالم كتابا بعنوان (الإبداعات الطبية لرسول الإنسانية)[١]، ذكر فيها أنواعا كثيرة من العلاجات النبوية لأمراض بعضها لم يعرف له دواء إلى الآن، وكيف أن النبي تنبأ بخروج طاعون العصر (الإيدز) كما سبق وعن أبي هريرة أن النبي قال: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن في التراب[٢]» فقد ثبت طبيا أن لسان الكلب يحمل فطريات ضارة جدا بالإنسان، وهذه الفطريات لا تزول ولا تقتل إلا بالتراب مع الماء[٣]، وفي صحيح البخاري[٤] أيضا أن النبي قال: «إذا سقط الذباب في إناء أحدكم فليغمسه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء»، وأثبتت التجارب الطبية أن الذبابة تحمل في أحد جناحيها جراثيم مضرة، وفي الآخر فطريات تقتل هذه الجراثيم[٥] وغير ذلك من أنواع الإعجاز وألوانه الذي يدل أن النبي لا يقول هذا من عند نفسه بل من الوحي

(ج) – الشريعة العظيمة التي احتوى عليها: لا يستطيع أحد أن ينظم بدقة وإحاطة أمر مصنوع من المصنوعات إلا إذا كان على علم بأسرار ذلك المصنوع فتأتي إرشاداته وتوجيهاته محققة للسير الصحيح، ومن تأمل في أحوال البشرية وجدها في اضطراب وفساد على الدوام، لكنها عند ما طبقت شريعة الله التي جاء بها رسله استقر أمرها وصلح حالها وختم الله الشرائع بشريعة محمدﷺ التي شيّدت عليها أثبت الحضارات التي عرفها البشر خلال التاريخ الإنساني، وسعدت البشرية في ظل تلك الشريعة التي وحدت بين الأجناس المختلفة والبيئات المتباينة والعصور المتعاقبة، وشهد بذلك الدارسون من أهل الاختصاص، مما يدل على أن هذه الشريعة من قبل خالق الإنسان، الذي يعلم أسرار خلقته وفطرته.

فإلى جانب ما احتوى عليه القرآن من الهدى والنور في جانب الاعتقاد والإيمان الذي نزل من أجله، فقد اشتمل على أفضل وأرقى التشريعات التي تكفل سعادة الفرد والمجتمع بل والعالم بأكمله في جميع شؤون حياتهم في جوانب السياسية والقضاء والحكم وإقامة العدل، وفي جوانب الاقتصاد والمال والمعاملات، وفي جوانب الاجتماع والتكافل والأخلاق والآداب والفضائل، وفي جوانب الفكر والبحث والعلم، وفي جوانب الصحة وحماية الأعراض واستتباب الأمن، وفي جوانب العقل والبدن والأسرة والمرأة والمجتمع، وفي جوانب الحرب والسلم والعلاقات بين سائر بني الإنسان، وبيان الحقوق والواجبات فلم يبق جانبا من جوانب الحياة إلا وقد بيّن فيه سبيل الحق والهدى والصواب كما قال تعالى لرسوله: وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ [النحل: ٨٩] ، ومن الأدلة على ذلك أن الأمة الإسلامية قد عاشت أكثر من ألف وأربعمائة عام غنية بما لديها من التشريعات، ولا تزال بعض الدول الإسلامية تتحاكم إليها في محاكمها ولم تحتج في يوم من الأيام إلى قوانين مستوردة من خارج الشريعة الإسلامية، لأن الجهاز التشريعي الضخم قد أغناها عن الحاجة لغيرها.

لا يوجد قانون في الإحكام والتنظيم مثل التشريع الذي جاء به النبي ، فإن شريعته جاءت لتسد حاجة الإنسان في كل نواحي الحياة، وتبين الحكم في كل ما يحتاج الإنسان، وتنظم حياة المسلم من ولادته إلى موته؛ تسير معه جنبا إلى جنب ترعاه وتحضنه وتقومه وتسدده وتبصره وتهديه {فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين} [البقرة:٩٧] ، شريعة كاملة، فيها من اللين واليسر والموافقة للعقل ما يجعل كل من يلتزم بها سعيدا فخورا، وفيها من المرونة ما يجعلها تصلح لكل زمان ومكان وأمة، لا تميز بين الناس في الأحكام، فالعدل أساسها والحكمة نبراسها. على حين لا تجد هذا في كل شريعة وقانون وضعي، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا القانونيون والمطلعون على

---

(١) –طبعته مؤسسة المعارف في بيروت، الطبعة الأولى،١٩٩٥.

(٢) –متفق عليه (البخاري: كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان رقم: ١٦٧، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، رقم: ٤٢١)

(٣) –انظر: القرآن والسنة في العلوم الحديثة، ص: ٦٩.

(٤) –أخرجه (البخاري: كتاب الطب، باب إذا ارقع الذباب في الإناء، رقم: ٥٣٣٦.

(٥) –معجزات في الطب للنبي العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) تأليف الطبيب محمد سعيد السيوطي، ص ٦٤ مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٦

القانون الوضعي، فهو يعدل في كل سنة عدة مرات، والقانون لو نجح في بلد فإنه قد لا ينجح في بلد آخر، ولو صلح في وقت فقد يكون وبالا في وقت آخر، وانظر ماذا فعلت الشيوعية الحمراء[١] بأهلها التي لم يلتزم بها من التزم إلا بعد جريان أنهار الدم، واستخدام أبشع أنواع التعذيب، ثم سقطت إلى الهاوية وألقيت في زبالة التاريخ غير مأسوف عليها.

ولم يستطع أحد أن يأتي بشريعة تخدم الإنسان في جميع شؤون حياته، فقصارى جهد من وضعها أن تكون فكرة في مجال معين؛ ففي الاقتصاد برزت الاشتراكية والرأسمالية، فالأولى قتلت الإبداع وساوت بين النشيط والخامل، وبين المضحي واللامبالي، والذكي والغبي[٢] والأخرى جعلت شعوبها شعوبا طبقية ما بين كل طبقة وطبقة مفاوز، فبعض الطبقات طبقة مسحوقة لا تجد قوت يومها، وبعضهم يتمتعون بكل متاع الدنيا، وليس على هؤلاء حق لأولئك[٣] وفي السياسة برزت الديمقراطية والدكتاتورية، فالأولى[٤] فتحت الباب على مصراعيه وأطلقت الحريات بلا عنان، وجعلت الحكم للشعب طارحة أي حكم شرعي غير مبالية فيه، فحكم الناس يقدم على حكم رب الناس، والأخرى جعلت الحكم محصور بشخص واحد ولا يحق لأحد التدخل مهما بلغ من الثقافة والعلم، وغيرها من الأفكار والمذاهب التي لا يسع المجال لذكرها ، وهذه القوانين مع كثرة الواضعين لها والمنقحين والمراجعين والمصححين إلا أنه لا زالت تغير يوما بعد يوم، فمن وضعها غير راض عنها فضلا عن غيره ، وكل هذه الأفكار والمذاهب والتشريعات والقوانين على اختلاف مجالاتها كان منتهى قدراتها مجتمعة أن تخدم بدن الإنسان وجسمه، ولم تستطع أن تقدم للروح شيئا، فكان غاية ما عندها أن تقول للناس: ليتخذ كل منكم الدين الذي يريد، فإننا لا نعرف كيف تسعد الروح.

فكل هذه العقول لم تستطع أن تأتي بشريعة خالدة شاملة لجميع نواحي الحياة كما أتى به النبي في شريعته، وهذا من أدلة صدقة، فالبشر لا يقدرون على هذا، ولا حتى النبي يقدر على ذلك، إنما هذه الشريعة تنزيل من عزيز حميد، شريعة لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، يقول برناردشو: (لو كان محمد نبي الإسلام حيا يرزق لاستطاع أن يحل مشاكل العالم وهو جالس على حصيرته يحتسي القهوة) [٥] .

محاورة سفير فرنسا مع عبد المجيد الزنداني حول الشريعة:

في أثناء زيارة سفير فرنسا ، سألني قائلا: هل اكتملت الحياة وصورها؟ * فقلت: لا.

* فقال: وهل اكتمل الدين؟. * فقلت: نعم.

* فقال: فكيف يتسع الدين المحدود الذي اكتمل لحاجات الحضارة وصورها المتجددة؟!.

* فقلت له: هل تركيب عينك هو نفس تركيب أعين من كانوا يعيشون في عصر محمد وفي عصر المسيح عليهما السلام؟.

* فقال: التركيب واحد لم يتغير.

* فقلت له: هل تركيب أعضاء جسمك، هو نفس تركيب أعضاء أجسام من كانوا يعيشون في عهد النبي محمد وفي عهد المسيح عليهما السلام؟.

* فقال: نعم، تركيب أجسامنا لم يتغير ولم يتبدل.

* فقلت له: هل تحب، وتكره، وتخاف، وتطمع؟.

* قال: نعم.

---

(١) –القرآن وإعجازه التشريعي، محمد إسماعيل إبراهيم، ص ٣١، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) –القرآن والسنة والعلوم الحديثة، محمد أحمد مدني، ص ١٠١، مبحث الماركسية وتناقضاتها

(٣) –انظر: الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٩٢٠/٢)

(٤) –انظر: السابق (١٠٦٦/٢)

(٥) –القرآن والسنة والعلوم الحديثة، محمد أحمد مدني، صفحة: ٧١، مطابع خالد للأوفست، الرياض.

* قلت له: الذين كانوا يعيشون في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وفي عصر المسيح هل هم مثلنا يحبون ويكرهون ويخافون ويطمعون؟.

* قال: نعم.

* فقلت له: إذن التركيب النفسي لنا ولهم لم يتغير ولم يتبدل!.

* قال: نعم هذا صحيح.

* فقلت له: التركيب النفسي والبدني لمن يعيشون اليوم هو نفس التركيب النفسي والبدني لمن كانوا يعيشون في عهد النبي محمد وفي عهد المسيح عليهما السلام.

* فقال: هذا صحيح.

* ثم قلت له: لو أن لدينا مليون سيارة مرسيدس، بتصميم هندسي واحد (موديل واحد) ، قد صنعت طبقا لخطة هندسية واحدة، ولها كتاب إرشاد (كتالوج) واحد، فهل يصلح كتاب الإرشاد (الكتالوج) الواحد لتسيير وتشغيل أي سيارة من هذه المليون السيارة؟!

* فقال: طالما الموديل واحد والصنعة واحدة، فلابد أن يكون (الكتالوج) واحدا، والكتالوج الواحد يصلح لأي سيارة من هذه السيارات.

* فقلت له: ولو وزعناها على القارات في آسيا، وأوروبا، وأمريكا؟!

* فقال: ولو وضعت في أي مكان على الأرض، فإنها لا تعمل إلا بنفس (الكتالوج) الذي صنعت طبقا له ما لم يتغير تركيبها.

* فقلت له: ولو أننا أخرجنا من مخزن السيارات مائة سيارة بعد عشر سنوات، فهل لا يزال (الكتالوج) يصلح لها؟!

* فقال: لا يزال يصلح لها، لأنها لم يحدث لها أي تغيير في تركيبها.

* فقلت له: ولو أخرجناها بعد مائة سنة فهل لا يزال الكتالوج يصلح لها.

* فقال: يصلح لها ما دام تركيبها لم يتغير.

* فقلت له: ولو أخرجناها بعد ألف وأربعمائة عام، فهل لا يزال (الكتالوج) نافعا لها ويصلح لتشغيلها؟!

* فقال: نعم، لا يزال يصلح لها ما لم يتغير تركيبها!.

* فقلت له: إذا كانت الإرشادات (الكتالوج) التي تقدمها مصانع السيارات تصلح لتشغيل تلك السيارات من نفس تلك الصنعة (الموديل) مهما اختلف الزمان والمكان، فكذلك الشريعة والدين الذي جاء من عند الله متعلقا بفطرة الإنسان البدنية والنفسية التي لم تتبدل ولم تتغير بتغير الزمان والمكان، لا يزال صالحا لفطرة الإنسان التي خلق الله الناس عليها، وصالحا للبشرية الموحدة في فطرتها وخلقتها كما قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ [الروم: ٣٠] .

* ثم قلت له: والدين الذي جاءنا من عند الله جاء في صورة قواعد كلية هادية تستوعب كل الصور المتجددة لتطورات الحياة، ويقوم العلماء المجتهدون بتنزيل أحكام الدين على صوره المتجددة، كما يقوم الخياط الذي يفصل الملابس وفق قواعد الخياطة فيجعلها متناسبة مع أحجام الناس ونوعية القماش، ومناسبة لفصول السنة وفقا لقواعد التفصيل والخياطة، والبيئة التي يعمل فيها الإنسان. ولو قام المجتهدون بعملهم كاملا لما قصرت الشريعة عن إيجاد حلّ لأي مشكلة تستجد للفطرة الإنسانية الثابتة. وهكذا تعلقت الشريعة بالفطرة الثابتة التي لا تتغير وكانت مرنة بعمل المجتهدين الذين يستنبطون من قواعدها الأحكام المناسبة للصور المتجددة.

* فقال: نعم، لا يزال يصلح لها ما لم يتغير تركيبها!.

* فقلت له: إذا كانت الإرشادات (الكتالوج) التي تقدمها مصانع السيارات تصلح لتشغيل تلك السيارات من نفس تلك الصنعة (الموديل) مهما اختلف الزمان والمكان، فكذلك الشريعة والدين الذي جاء من عند الله متعلقا بفطرة الإنسان البدنية والنفسية التي لم تتبدل ولم تتغير بتغير الزمان والمكان، لا يزال صالحا لفطرة الإنسان التي خلق الله الناس عليها، وصالحا للبشرية الموحدة في فطرتها وخلقتها كما قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ [الروم: ٣٠] .

* ثم قلت له: والدين الذي جاءنا من عند الله جاء في صورة قواعد كلية هادية تستوعب كل الصور المتجددة لتطورات الحياة، ويقوم العلماء المجتهدون بتنزيل أحكام الدين على صوره المتجددة، كما يقوم الخياط الذي يفصل الملابس وفق قواعد الخياطة فيجعلها متناسبة مع أحجام الناس ونوعية القماش، ومناسبة لفصول السنة وفقا لقواعد التفصيل والخياطة، والبيئة التي يعمل فيها الإنسان ، ولو قام المجتهدون بعملهم كاملا لما قصرت الشريعة عن إيجاد حلّ لأي مشكلة تستجد للفطرة الإنسانية الثابتة ، وهكذا تعلقت الشريعة بالفطرة الثابتة التي لا تتغير وكانت مرنة بعمل المجتهدين الذين يستنبطون من قواعدها الأحكام المناسبة للصور المتجددة [١] .

قالوا عن الشريعة الإسلامية

العلامة (شيريل) عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا، قال في مؤتمر الحقوق سنة /١٩٢٧/: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها؛ إذ أنه برغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة[٢]، قال جوستاف لوبون : "لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدى وجودها إلى أعنفِ الثورات في الغرب، ولا يزال يؤدي"[٣] ويقول (مسيو لويلد) في كتابه: "حضارة العرب": "صان المسلمون أنفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يمسُّ رفاهية طبقة العمال، وتراهُم يُحافظون بإخلاص على النظم الباهِرة التي يُساوي بها الإسلام بين الغنيِّ والفقير والسيد والأجير على العموم، وليس من المبالغة أن يقال إذًا: إن الشعب الذي يزعم الأوربيون أنهم يرغبون في إصلاحه هو خير مثال في ذلك الأثر الجوهري"[٤]، وقال (ليود روش): "لقد وجدت في الزكاة حلَّ المشكلتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم؛ الأولى في قول القرآن: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية، والثانية: فرض الزكاة على كل ذي مال، وتخويل الفقراء حق أخذها غصبًا إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعًا، وهذا دواء الفوضوية" [٥].

وكتب بوفيس فانسون رئيس تحرير مجلة (تشالينجز) بتاريخ ٤ /١٠/ ١٤٢٩هـ، الموافق: ٥ / ١٠ / ٢٠٠٨م في افتتاحية المجلة موضوعًا بعنوان (البابا أو القرآن)، تساءل فيه عن أخلاقية الرأسمالية، ودور المسيحية كديانة، والكنيسة الكاثوليكية بالذات في تكريس هذا المنزع والتساهل في تبرير الفائدة، مشيرًا إلى أن هذا السلوك الاقتصادي السيئ أَوْدَى بالبشرية إلى الهاوية. وتساءل الكاتب بأسلوب يَقترب من التهكُّم عن موقف الكنيسة، ومُستسمحًا البابا بنديكيت السادس عشر قائلاً: "أظن أننا في هذه الأزمة أحوج إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا؛ لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترامَ ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبَّقوها، ما حلَّ بنا ما حل من كوارث وأزمات، وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري لأن النقود لا تلد النقود!".

---

(١) –بينات الرسول (ص) ومعجزاته للزندني ص ٢١٣ وما بعدها
(٢) –محمد في الآداب العالمية ، محمد محمد عثمان ص ١٥٦ ، مرجع سابق
(٣) –حضارة العرب ، غوستاف لوبون ص ٣٩١ مرجع سابق
(٤) –المرجع السابق نفس الصفحة
(٥) –فقه الزكاة د. يوسف القرضاوي (٢/ ١١٨٥)

ودعا رولان لاسكين رئيس تحرير صحيفة (لوجورنال دي فينانس) إلى ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي؛ لوضع حدٍّ لهذه الأزمة التي تهزُّ أسواقَ العالم من جراء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة. وفي مقاله الذي جاء بعنوان: "هل تأهَّلت وول ستريت لاعتناق مبادئ الشريعة الإسلامية؟" عرَض "لاسكين" المخاطر التي تحدق بالرأسمالية، وضرورة الإسراع بالبحث عن خيارات بديلة لإنقاذ الوضع، وقدَّم سلسلة من المقترحات المثيرة، في مقدمتها: تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية برغم تعارضها مع التقاليد الغربية ومعتقداتها الدينية.

وقد دعا مجلس الشيوخ الفرنسي إلى ضم النظام المصرفي الإسلامي إلى النظام المصرفي في فرنسا، وقال المجلس في تقريرٍ أعدَّته لجنة تُعنى بالشؤون المالية في المجلس: إنَّ النظام المصرفي الذي يعتمِد على قواعد مستمَدَّة من الشريعة الإسلامية مُريح للجميع، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وأكَّدَ التقرير الصادر عن اللجنة المالية لمراقبة الميزانية والحسابات الاقتصادية للدولة بالمجلس أن هذا النظام المصرفي الإسلامي الذي يعيش ازدهارًا واضحًا قَابِل للتطبيق في فرنسا. وقد أصدرت الهيئة الفرنسية العليا للرقابة المالية في وقت سابق قرارًا يقضي بمنع تداولِ الصفقات الوهمية والبيوع الرمزية التي يتميز بها النظام الرأسمالي، واشتراط التقابض في أجل محدد بثلاثة أيام لا أكثر من إبرام العقد، وهو ما يتطابَق مع أحكام الفقه الإسلامي، كما أصدرت نفس الهيئة قرارًا يسمح للمؤسسات والمتعاملين في الأسواق المالية بالتعامل مع نظام الصكوك الإسلامية في السوق المنظمة الفرنسية، والصكوك الإسلامية هي عبارة عن سندات إسلامية مرتبطة بأصول ضامنة بطرق متنوعة تتلاءم مع مقتضيات الشريعة الإسلامية.

وأشارت الباحثة الإيطالية لوريتا نابليوني في كتاب لها صدر مؤخرًا بعنوان (اقتصاد ابن آوى) إلى أهمية التمويل الإسلامي ودوره في إنقاذ الاقتصاد الغربي، واعتبرت نابليوني أن "مسؤولية الوضع الطارئ في الاقتصاد العالمي، والذي نعيشه اليوم، ناتج عن الفساد المستشري والمضاربات التي تتحكم بالسوق، والتي أدت إلى مضاعفة الآثار الاقتصادية". وأضافت أن "التوازن في الأسواق المالية يمكن التوصل إليه بفضل التمويل الإسلامي بعد تحطيم التصنيف الغربي الذي يُشبِّه الاقتصاد الإسلامي بالإرهاب". ورأت نابليوني أن التمويل الإسلامي هو القطاع الأكثر ديناميكية في عالم المال الكوني. وأوضحت أن "المصارف الإسلامية يمكن أن تصبح البديل المناسب للبنوك الغربية؛ فمع انهيار البورصات في هذه الأيام، وأزمة القروض في الولايات المتحدة – فإن النظام المصرفي التقليدي بدأ يُظهر تصدعًا، ويحتاج إلى حلول جذرية عميقة".

وتطرق الاقتصادي الفرنسي "موريس آلي" الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد إلى الأزمة الهيكلية التي يشهدها الاقتصاد العالمي بقيادة الليبرالية المتوحشة، معتبرًا أن الوضع على حافة بركان، ومهددًا بالانهيار تحت وطأة الأزمة المضاعفة (المديونية والبطالة). واقترح للخروج من الأزمة وإعادة التوازن شرطين، هما: تعديل معدل الفائدة إلى حدود الصفر، ومراجعة معدل الضريبة إلى ما يقارب ٢%، وهو ما يتطابق تمامًا مع إلغاء الربا ونسبة الزكاة في النظام الإسلامي[١].

يقول (مونتيه): "الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تُقيم العقائد على أسس من المبادئ المستمَدَّة من العقل والمنطق – يَنطبق على الإسلام تمام الانطباق"[٢].

ويقول (هنري دي كاستري): "يَنتشر الإسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد، بدون أدنى إكراه، ولا تعيين رسل أو مبشرين، ويتعسر بيان اللحظة التي يَصير فيها الشخص مسلمًا حقيقيًّا لأن الإسلام يأتيه تدريجيًّا[٣] وفي إشارة

(١) -http://www.alukah.net/culture/0/82696/

(٢) -مستشرق فرنسي، عن كتابه " حاضر الإسلام ومستقبله " مرجع سابق ، نقلاً عن مقال: وشهد شاهد من أهلها؛ د. محمد عمارة.

(٣) -هنري دي كاستري، كاتب فرنسي، الإسلام خواطر وسوانح (ص: ٥). مرجع سابق

إلى أن الإسلام ينتشر بقوته الذاتية يقول (جورج سيل): "لقد صادفتْ شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له في العالم، وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما يَنخدِعون انخداعًا عظيمًا" [(١)]، وفي تقدُّم الشريعة الإسلامية وتفوقها على الشريعة الرومانية في جانب المرونة، يقول (دافيد دي سانتيلانا): "ولما كان الشرع الإسلامي يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة؛ خلافًا لشريعتنا (الرومانية) من بعض الوجوه"[(٢)]

وتأكيدًا لعالميتها يقول (مونتجمري وات): "إن الإشارات القرآنية اللصيقة بالعرب لا تنفي أنه عالمي النزعة، أو ذو طبيعة عالمية، وأن رسالة الإسلام التي وجهت في البداية لأهل مكة في المدينة كانت تحمل في طياتها بذور العالمية، أو أنها كانت منذ البداية أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية"... ويقول: "إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية". .. وفي تفوق الشريعة الإسلامية على شريعة اليهودية والنصرانية، يقول أيضًا: "لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقلٍّ عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية)، ونقول عن حق: إنه بالفعل كان يفوقهما أو إنه فعلاً كان متفوقًا عليهما، أو أرقى منهما"! وتأكيدًا لحقيقتها وأنها وحي معصوم ملزم، يقول: "والشريعة الإسلامية تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون؛ إنها قانون فريد في بابه، إن الشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر الإلهية التي تنظِّم حياة كل مسلم من جميع وجوهها" [(٣)].

وفي قيام الشريعة على العدل واتِّساقها مع العقل قال (تولستوي): "ستعمُّ الشريعة الإسلامية كل البسيطة؛ لائتلافها مع العقل وامتزاجها بالحكمة والعدل"[(٤)]... وفي بيان أنها شريعة تجمع الديني والدنيوي معًا من غير فصل أو تفريق، وترعى العباد في دنياهم وأخراهم، قال (ر. ف بودلي): "لقد كان محمد على نقيضِ مَن سبق مِن الأنبياء؛ فإنه لم يكتفِ بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشاكلها، فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية في دينه، فوفَّق بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خَلاص الناس عن طريق غير عملي، لقد شبَّه الحياة بقافلة مُسافرة يرعاها إلهٌ، وأن الجنة نهاية المطاف[(٥)].

تم الاعتراف بالشريعة الإسلامية كمصدر عالمي للتشريع والقانون في عدد من المؤتمرات الدولية العلمية منذ عام (١٩٣٢م) منها:

١-القانون المقارن الدولي في لاهاي عام ١٩٣٢م.

٢-مؤتمر لاهاي المنعقد في عام ١٩٣٧م.

٢-مؤتمر القانون المقارن في لاهاي ١٩٣٨م.

٤-المؤتمر الدولي عام ١٩٤٥م بواشنطن.

٥-شعبة الحقوق بالمجمع الدولي للقانون المقارن ١٩٥١م بباريس.

وقد صدرت عن هذه المؤتمرة قرارات هامة هي:

أ-اعتبار التشريع الإسلامي مصدرًا رابعًا لمقارنة الشرائع.

ب-الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها لا تمت إلى القانون الروماني أو إلى أي شريعة أخرى.

ج-صلاحية الفقه الإسلامي لجميع الأزمنة والأمكنة.

---

(١) -الفاتيكان والإسلام؛ د. محمد عمارة.

(٢) -دافيد دي سانتيلانا، مستشرق إيطالي، القانون والمجتمع (ص: ٤٣٨).

(٣) -مونتجمري وات، المؤرخ الإنجليزي، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص: ٢٢٣ - ٢٢٦) (٣٣) (١٩١).

(٤) -حكم النبي محمد (ص: ١٠)، نقلاً عن: شهد شاهد من أهلها (ص: ٢٨٧).

(٥) -نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي؛ د. عز الدين فراج (ص: ٦٦).

د-تمثيل الشريعة الإسلامية في القضاء الدولي ومحكمة العدل الدولية.

[٧] – حفظه من التغيير والتبديل: ومن العلامات الإلهية في القرآن كونه محفوظا من التغيير والتبديل، مع مرور الأزمنة المتطاولة على نزوله، وكثرة المعادين والحاقدين والخصوم المتربصين به وبأهله، ومع ذلك لم تنله يد التغيير والتبديل، وما حصل من محاولات التحريف باءت جميعها بالفشل، فهو محفوظ على مستوى الحرف الواحد بل على مستوى حركة الحرف الواحد، وإنك لتسمع القرآن اليوم يذاع من إذاعات العالم المختلفة ومن الدول المعادية للإسلام، فإذا هو القرآن المعروف الذي أنزل على محمد ﷺ وهذا كله تصديق لوعد الله سبحانه الذي تكفل بحفظه فقال سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: ٩] .

[٨]–الوصف الدقيق للغيب(١): إن وصف أمور الغيب بدقة لا يكون إلا ممن رآه أو سمع من رآه، ولذلك يمكن القول بأن وصف النبي لربه وللملائكة وللجنة والنار وصف عجيب، لا يمكن أن يأتي به بشر. فوصف النبي لله سبحانه وصف خال من التنقص، ملئ بكل كمال واجب لله سبحانه [٢] فيصفه بالقدرة المطلقة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة والحياة الكاملة، وغير ذلك من الأسماء والصفات، فسماه بأحسن الأسماء، ووصفه بأجمل الأوصاف: {ولله الأسماء الحسنى} [الأعراف:١٨٠] و(الحسنى) أفعل تفضيل مؤنث من الحسن، يعني أن لله أحسن الأسماء، {ولله المثل الأعلى} [النحل:٦٠]، والمثل يعني الصفة كقوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء ...} [محمد:١٥]، يعني أن له سبحانه أعلى الأوصاف. وهذا الوصف لا يمكن لمخلوق أن يتصف به {فلا تضربوا لله الأمثال} [النحل:٧٤] {فلا تجعلوا لله أندادا} [البقرة:٢٢] {ولم يكن له كفوا أحد} [الإخلاص:٤]، {ليس كمثله شيء} [الشورى:١١] {هل تعلم له سميا} [مريم:٦٥] ؛ فهو سبحانه لا مثل له ولاند له ولا كفو له ولا سمي له.

ولكن انظر إلى البشر إذا أرادوا أن يصفوا الله ماذا يقولون[٣] فبعضهم يجعل الإله حيوانا كمن يعبد البقر أو الفأر، وبعضهم يجعله جمادا كمن يعبد الأصنام والنار، وبعضهم يعدد الآلهة كالمجوس الذين جعلوا إلها للظلمة وإلها للنور، والإغريق الذين جعلوا إلها للحب وآخر للرزق وثالثا للكواكب، وفي ضمن هذا تنقص واضح، كأنهم يقولون إن إلههم لا يستطيع أن يحوي جميع هذه القدرات، وبعضهم يعبد ما هو أقبح من ذلك كالفروج، بل بعضهم شطح عقله حتى عبد عدو الإنسانية الأول إبليس، ولكن لنرتفع عن هذه الديانات ونذهب إلى الديانات السماوية، ونرى كيف وصف الرب سبحانه عندهم ، أما اليهود فهم من أجرأ الناس على مدار التاريخ على الجبار سبحانه، فقد قالوا: {إن الله فقير ونحن أغنياء} [آل عمران:١٨١] وقالوا: {يد الله مغلولة} [المائدة:٦٤] ، يعني بخيل [٤].

وقال ابن القيم: (وأما اليهود فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم وغباوتهم وضلالهم، ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل، التي بعضها فوق بعض، ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب، ومن عبادتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان وأقله فطانة، الذي يضرب المثل به في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباوة المتجاوزة للحد، كيف عبدوا مع الله إلها آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله، ما لم يشاهده سواهم، وإذ قد عزموا على اتخاذ إله دون الله، فاتخذوه ونبيهم حي بين أظهرهم لم ينتظروا موته، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من

---

(١) –د. عبد المحسن بن زين المطيري، الأدلة الجلية على صدق خير البرية ص ١١٨ الرياض ١٤٢٩

(٢) –انظر: كتاب (الله أهل الثناء والمجد) د. ناصر الزهراني، مؤسسة الجريسي، الرياض، الطبعة الأولى،٢٠٠٠، فهو جيد في هذا الباب.

(٣) –انظر: هداية الحيارى لابن القيم، فصل: ثمرة إنكار النبوات جحد الخالق والجهل بأسمائه وصفاته، ص:٣٥٤ ولقد ألف عباس محمود العقاد كتابا حافلا بعنوان (الله)، تكلم فيه عن وصف الله تعالى في الأديان والأفكار والشعوب المحرومة من نور الوحي، فذكر وصف الله تعالى عند الحضارات السابقة في مصر والهند والصين وفارس وبابل واليونان، وفي الأديان السماوية كاليهود والنصارى، وعند الفلاسفة، وغير ذلك وهو كتاب مفيد. طبعته دار نهضة مصر، في القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ وبالمقارنة بين هذه الأديان وبين وصف النبي لربه، يتضح الفرق بين الوصفين، ويتبين لك أن هذا الوصف لا يتأتى إلا لمن كان مؤيدا بالوحي

(٤) –أنظر: فتح القدير للشوكاني (٢/٦٠) .

الجواهر العلوية كالشمس والقمر والنجوم، بل من الجواهر الأرضية، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها، كالجبال ونحوها بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض والصخور والأحجار، عالة عليها، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من جوهر يستغني عن الصنعة وإدخال النار وتقليبه وجوها مختلفة وضربه بالحديد وسبكه بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة وإدخاله النار وإحراقه واستخراج خبثه، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال ملك كريم ولا نبي مرسل ولا على تمثال جوهر علوي لا تناله الأيدي بل على تمثال حيوان أرضي، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشدها امتناعا من الضيم كالأسد والفيل ونحوهما بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان وأقبله للضيم والذل بحيث يحرث عليه ويسقى عليه بالسواقي والدواليب ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم وحقائق الموجودات وحقيق بمن سأل نبيه أن يجعل له إلها، فيعبد إلها مجعولا بعد ما شاهد تلك الآيات الباهرات، أن لا يعرف حقيقة الإله ولا أسماءه وصفاته ونعوته ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق وحاجته وفقره، ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ولا قالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا. ولا قتلوا نفسا وطرحوا المقتول على أبواب البرآء من قتله ونبيهم حي بين أظهرهم، وخبر السماء والوحي يأتيه صباحا ومساء، فكأنهم جوزوا أن يخفى هذا على الله كما يخفى على الناس، ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: (يا أبانا انتبه من رقدتك كم تنام) ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أنبيائه وقتلهم وحبسهم ونفيهم، ولما تحيلوا على تحليل محارمه، وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل ...) [1].

إلى آخر تلك السلسلة من الشتائم التي لم يقلها حتى عباد الأصنام لآلهتهم، وأما النصارى الذين هم أحسن حالا من اليهود وأقرب لنا منهم، فقد اجتمع أكثر من ألفي عالم من علمائهم في مؤتمر الأمانة ليحددوا عقيدتهم في الله، فنسبوا لله كما يقول ابن القيم أفعال الحمقى والمجانين، فلو أن ملكا غضب على شعبه بسبب ذنب واحد، ارتكبه رجل واحد، ثم حاول شعبه إرضاءه بكل سبيل فلم يفلح، ثم قال لهم بعد أزمان طويلة: إذا أردتم إرضائي وذهاب غضبي، فإني أرسل لكم ابني فاقتلوه، فعندها فقط أرضى عليكم. من يفعل هذا الفعل؟!. فالنصارى يقولون: إن الله غضب على البشرية بسبب خطيئة آدم، فلم يرض عن البشرية مع من فيها من الأنبياء والمرسلين إلا بعد أن أرسل ابنه للبشرية، فلم يزل غضبه مستمرا حتى قاموا بضربه وصفعه والبصق في وجهه وصلبه، ووضع الشوك على رأسه، وتسمير يديه باللوح وبقاؤه مصلوبا حتى مات ابنه؛ عندها فقط رضي عن كل البشر، وسامحهم على تلك الخطيئة، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

* وصف النبي (الملائكة وصفا عجيبا؛ فهم جند الله والقائمون بأمره، العابدون لربهم في كل وقت لا يفترون، ولا ينامون، ولا يأكلون، ولا يشربون بل يسبحون الله الليل والنهار لا يسأمون، أين هذا من وصف الكفار لهم بالإناث وغير ذلك.

* ووصف الجنة وصفا هو في غاية من الدقة والاستثارة والتشويق، بحيث لا تتمالك نفسك إذا سمعت هذا الوصف أن تقول: اللهم اجعلني من أهلها ولا تحرمني دخولها [1] لكنك عندما تسمع لكثير من الفلاسفة في وصف ما سموه (بالمدينة الفاضلة) ستضحك من قصور وصفهم، وسذاجة تفكيرهم، وسترى البون الشاسع والفرق الواسع بين وصف النبي ووصف هؤلاء، وهم معذورون؛ لأن النبي لم يأت به من عنده بل من الوحي.

* وأما وصفه النار، فهو وصف بليغ، يقذف في قلبك الخوف والفزع والرهبة من هذه الدار.

---

(١) –هداية الحيارى من اليهود والنصارى، لابن القيم (ص:٣٥٧-٣٥٩) .

يقول جفري لانغ: [١] (عندما يترجم كتاب مقدس إلى لغة ما، فإنه ينجم عن ذلك ضياع كبير في المعنى، ولكن إذا كان دافع المترجم الالتزام والتقوى، فقد يشع في النص المترجم برق مقدس، لا يمكن أن تقيده حدود الإنسانية، وعلى الرغم من أن القرآن بالتأكيد هو أشد تأثيرا على القارئ في اللغة الأصلية (العربية) من الترجمات، إلا أن شيئا من الروعة والرهبة والجمال والإشراق من التصوير الفني القرآني قد يحيى في الترجمة، ليثير في النفس انعكاسا عميقا، كالمشاهد التصويرية والمرعبة للنار على سبيل المثال ... إلى أن قال: وعلى الرغم من أن جميع معتنقي الإسلام الغربيين، مجبرون على الاعتماد على التفسير للقرآن، إلا أني واثق من أن جميع هؤلاء قادرون على التمييز والانتباه إلى أن أكثر ما يثير الإعجاب بالقرآن هو أسلوبه الأدبي؛ لأنه يغرس في قارئه ذلك الشعور اللاملموس من أنه صادر عن وحي سماوي).

البحث الثاني: علاقته بالكتب السابقة علاقة الهيمنة والتصحيح والحكم بينهم لا النقل.

١-القرآن والكتاب المقدس:

أثبت البحث التفصيلي في القيم الأخلاقيّة السامية الواردة في الكتاب المقدس، أنّها كلّها مثبتة في القرآن الكريم[٢] غير أنّ هذا الكتاب المعجز والفريد، لا يكتفي بالموافقة والجمع، وإنّما هو يجمع إلى الأخلاق المثبتة في أسفار الأوّلين أنماطًا جديدة في السلوك والتعامل بما يوافق عالميّة هذا الدين وإحكام أحكامه التي لا سبيل لنسخها إذ لا رسالة بعد رسالة محمد! كما جبر القرآن الكريم ما في أحكام التوراة من شدة وتضييق، وما في الكثير من أحكام الإنجيل من رخاوة وتهاون، فكانت الخلاصة: أخلاقًا متقنة مصلحة لكلّ زمان ومكان. قال المستشرق هاملتون جب: (إن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينيًا جديدًا متميزًا...ومن هذه الوجهة يغدو التساؤل عن مصادر الدين الذي جاء به محمد أمرًا غير وارد بالمرّة.)[٣]

أما نظريات بعض المستشرقين وأتباعهم الذين يقولون نقل محمد عن الكتاب المقدس فهل كان الكتاب المقدس مترجما للعربية زمن النبي؟ وهل ثبت أن محمدا كان قارئا؟ وهل قال عنه قومه أن يقرأ أو عرف بينهم بالقراءة والدراسة البحث؟ إنّ إثبات علم الرسول بدقائق الأسفار المقدّسة السابقة لا يستقيم إلاّ بإثبات (ثقافة موسوعية) للرسول في أسفار أهل الكتاب وعقائدهم وفرقهم ولغاتهم وقد صدق الدكتور عبد الرحمن بدوي في قوله: (ولكي نفترض صحة هذا الزعم نقل الرسول عن أهل الكتاب، فلا بد أنّ محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولابد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس والمذاهب المسيحية) [٤]!!

لقد ثبت علميا في الدراسات التاريخية أن العهد القديم والجديد لم يكن مترجما إلى اللغة العربية قبل الإسلام، وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم وقد قرّر الناقد (آرثور فووبوس)[٥] في بداية بحثه عن أقدم ترجمة عربيّة للعهد الجديد في كتابه (الترجمات المبكّرة للعهد الجديد) أنّ المحاولة التي ادُّعِي من خلالها معرفة محمد ﷺ ببعض كتب العهد الجديد في

---

(١) -الصراع من أجل الإيمان، لجعفري لانغ ص:٨١

(٢) -انظر هذا التفصيل الشائق في: محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص٩٣-١٠٢ وهي رسالة دكتوراه له، استغرق المؤلف ست سنوات (١٩٤١ م-١٩٤٧ م) في تحضير رسالتي الدكتوراه باللغة الفرنسية وهما (المدخل إلى القرآن) و (دستور الأخلاق في القرآن) . ونوقشت هذه الرسالة أمام لجنة من كبار المستشرقين ومنهم: ماسينيون- ليفي بروفنسال وغيرهما. ومُنِح المؤلف شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف العليا في ١٥ / ١٢ / ١٩٤٧ م.

(٣) -هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ت/ إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص ٢٥٤- ٢٥٥

(٤) -عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه، ت/ كمال جاد الله، القاهرة: الدار العالميّة للكتب والنشر، ١٩٩٩م، ص٢٤ ،وانظر ((هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟)) للدكتور سامي العامري فإنه رائع ومميز في هذا المجال .

(٥) -آرثور فووبوس: أستاذ العهد الجديد والتاريخ المبكّر للكنيسة في ((*The Lutheran School of Theology at Chicago*)). له عناية خاصة بالدراسات السريانيّة والنصرانيّة المبكّرة.

اللغة العربيّة، وأنه استعمل هذه الكتب في تأليف القرآن، محتجين (باقتباس) (!) القرآن الكريم من إنجيل متّى والمزامير والأسفار الخمسة، هو احتمال (خاطئ وليس فيه تحقيق ولا يفيدنا القرآن هنا، ولا بد أن يُترك خارج النقاش)[١]، وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي وكانت بأحرف عبرية [٢] .

شهد لغياب الترجمة العربية لهذه الأسفار، العديد من الأكاديميين المحقّقين، وأقرّت بذلك الموسوعات المتخصّصة التي لم تحمل همّ دعوى نقض أصالة القرآن الكريم، وذلك بعد أن ثبت بالاستقراء التاريخي غياب الترجمة العربية للكتاب المقدس زمن البعثة النبوية، ولعلّ أهمّ من كتب في موضوع تاريخ ترجمات الكتاب المقدس في لغات العالم، البحّاثة (بروس متزغر)[٣]، أستاذ لغة العهد الجديد وآدابه، في كتابه المرجعي (The Bible in Translation) المتعلّق بصورة مباشرة بتاريخ ترجمات الكتاب المقدس؛ فقد قال في هذا الشأن: (من الراجح أنّ أقدم التراجم (العربيّة) للكتاب المقدس تعود إلى القرن الثامن)[٤] وكتب المستشرق المنصّر (توماس باتريك هوغز) في معجمه الذي خصّه للمصطلحات الإسلاميّة (The Dictionary of Islam) -نقلًا عن المستشرق (ج. م. رودويل)[٥]: (لا توجد حجة على أنّ محمّدًا قد اطّلع على الأسفار المسيحيّة المقدسة... لا بد أن يُعلم أنّه لا توجد آثار واضحة على وجود ترجمة عربيّة للعهدين القديم والجديد سابقة لزمن محمد ... أقدم ترجمة عربيّة للعهد القديم بلغنا أمرها، هي ترجمة الحبر سعديا الفيومي)[٦] واحتج بالاختلاف الثابت في الصياغة الأدبيّة بين الترجمات العربيّة المتأخرة لأسفار العهدين واختلافها أيضًا في رسم أسماء الأعلام؛ للقول إنّها لا تعود لترجمة عربيّة قديمة سابقة للإسلام، وإنّما هي ترجمات متأخرة عن ذلك، من أصول لغويّة مختلفة (السبعينيّة، والفولجات، وسريانيّة، وقبطيّة)[٧]

وخلص الباحث الإنجيلي المصري (ألبرت إستيرو)[٨] في خاتمة أطروحته للدكتوراه حول (الترجمة العربيّة) التي اعتمدها (ابن قتيبة) في اقتباساته من الكتاب المقدس: (الاقتباسات الكتابيّة لعبد الله مسلم بن قتيبة ومصدرها : التحقيق في شأن أبكر الترجمات العربيّة للكتاب المقدس)[٩] إلى القول: (ربّما ظهرت الترجمات العربيّة للكتاب المقدس في الفترة الأخيرة من الحكم الأموي-في بداية القرن الثامن.)[١٠]، ومما استدلّ به لغياب ترجمة عربيّة قبل ظهور الإسلام؛ عدم حاجة يهود البلاد العربيّة لهذه الترجمة في لغة العرب؛ إذ دلّت النقوش على استعمالهم للآراميّة، أمّا النصارى فيشهد عدم

---

(١) rthur *Vööbus,* Early Versions of the New Testament*:* Manuscript Studies, *Stockholm: 1954*,pp.274-275

(٢) -دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه، س. د. جوتين، نقلا عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لمحمود ماضي، ص :١٤٨

(٣) -بروس متزجر (١٩١٤م-٢٠٠٧م): أحد أئمة دراسات النقد النصي للعهد الجديد. له مؤلّفات متنوعة في موضوعات متعددة في الدراسات الأكاديميّة المتعلّقة بالعهد الجديد. شارك في إعداد أهم نص يوناني قياسي للعهد الجديد في القرن العشرين. كما شارك في تحرير العديد من الترجمات الإنجليزيّة للعهد الجديد والتعليق عليها. تعتبر مؤلّفاته مراجع أساسيّة في الدراسات المتخصصة في الجامعات الغربيّة.

(٤) -Bruce Metzger, The Bible in Translation, Grand Rapids: Baker Academic, 2001, p. 46

(٥) -جون مدوز رودويل (١٨٠٨م-١٩٠٠م): مستشرق إنجليزي.

(٦) -Thomas Patrick Hughes, The Dictionary of Islam, being a cyclopaedia of the doctrines, rites, ceremonies, and customs, together with the technical and theological terms, of the Muhammadan religion, London: W.H. ALLEN, 1895, pp.516-516

(٧) -انظر؛ المصدر السابق، ص٥١٦

(٨) -يكتب بالحرف اللاتيني (Albert Isteero)، والمقابل العربي تقريبي إذ لم أعثر على اسمه كما يكتب باللغة العربيّة. جاء في مخطوطة الدكتوراه تعريفه أنه من مواليد سنة ١٩٣٠م، في (بورسعيد) بمصر. رسّم قسيسًا سنة ١٩٥٨ في الكنيسة الإنجيليّة. انتخب سنة ١٩٦٥م كسكرتير عام لمجلس كنائس الشرق الأوسط. وهو يدرّس الأدب الكتابي في إحدى مدارس الكنيسة الإنجيليّة المصريّة.

(٩) -ناقشها سنة ١٩٩٠م في جامعة (*Johns Hopkins*) الأمريكيّة.

(١٠) -Albert Isteero, 'Abdullah Muslim Ibn Qutayba's Biblical Quotations and their Source: An inquiry *into the earliest existing Arabic Bible Translations*, p.236, manuscript

وجود مجتمع نصراني في الحجاز، واعتماد الليتورجيا على اللغات الأخرى، على أنّه من غير المعقول أن يواكب ذلك وجود ترجمة عربيّة للكتاب المقدس.[١]

ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول أنه من الله تعالى من ناحية الارتجال، فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين ، فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره ، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده ، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة ثم يجيب، ولكن النبي لم يكن يفعل ، بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها [٢].

ومن أوضح الأدلة على رد دعوى النقل من غيره التحدي أن يأتي بمثله، فلو كان القرآن مأخوذا من التوراة والإنجيل والكتب السابقة لما استطاع محمد أن يتحدى الناس ويقدم على هذا الخطأ الفادح لأن هذه الأصول المنقول عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود، ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه والعمل مثل عمله، فينكشف؟ ثم هذه الأساطير والمراجع ليست خاصة بمحمد بل هي كتب متداولة بيد الجميع إن افتراض تعلم النبي من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات)[٣] وإن وجود بعض الشرائع في القرآن التي تتفق مع ما في التوراة والإنجيل ، أو حتى ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها، فالقرآن لم يأت لهدم كل شيء، بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق، فالصدق والشجاعة والكرم والحلم والرحمة والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئا بل باركها وحث عليها، لذلك قال النبي: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٤] ولم يقل: لأنشئها إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل، أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع، سواء في الكتب السابقة السماوية، أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره [٥] وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} [يونس:٣٧] .

كيف يمكن اعتبار التوراة والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن، خالفها في كثير من الأشياء؛ ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية ،ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها، على الأقل تفاديا للاصطدام بالتوراة والإنجيل) ، ففي قصة موسى يشير القرآن إلى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته، كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق ، لا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه، في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل؛ حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون، وفي قصة ولادة مريم للمسيح وغيرها

---

(١) -انظر المصدر السابق، ص ٧-١٧

(٢) -ذكر هذه الفائدة الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير (٥٠/١) وراجع د. عبدالمحسن المطيري دعاوى الطاعنين في القرآن ص:٢١٤ وما بعدها

(٣) -المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، لمحمد باقر الحكيم (ص:٤٣) .

(٤) -أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة (٨٧٢٩) ، رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغا من غير إسناد (كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق) بلفظ (بعثت لأتمم حسن الخلق) ، وأخرجه البزار بلفظ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (انظر فتح الباري (٦٦٥/٦) .

(٥) -المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (ص:٤٦) .

من القضايا[١]، ومن المعلوم أن في القرآن ما لا وجود له في كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب، فكيف أتى بها النبيﷺ) ؟ [٢]

والأهم لو كان محمدٌ هو مؤلف القرآن الكريم لاحتاج إلى جيوش من المترجمين والنُقّاد وخبراء المخطوطات والجيولوجيين وعلماء يهود ونصارى من جميع الطوائف اليهودية والنصرانية !! والسبب أنه كما يقول الباحث هشام طلبة في كتابه " محمد في التوراة والترجوم والتلمود " أن بعض القصص التي ذُكرت في القرآن الكريم تشبه القصص الموجودة في كتب اليهود والنصارى وسنُطلق على هذه التشابهات اسم " الشواهد القرآنية " .... وهذه الشواهد القرآنية أو التشابهات تتضمن مفاجأة كبرى وهي كالتالي: سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية في كتب اليهود والنصارى مع ان عدد هذه الكتب كبير جدا كما ان الكتاب الواحد له اكثر من نص .... التوراة نفسها سينية لها ستة نصوص اساسية (البشتيا – الفولجاتا – الشبعينية – السامرية – الترجوم – القياسية) : النسخة القياسية لها ثلاث نصوص فرعية (الالوهيمي – اليهوى – الكهنوتى) هذه هى النصوص الاساسية عدا العديد من النصوص الفرعية ، وأي ناشر للكتاب المقدس يجب ان يستخدم اكثر من نص من هذه النصوص مستعينا بعلم يسمونه" علم نقد النصوص" ليصلوا لنص اقرب ما يكون للنص الأصلي المفقود ، سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية مع ان هذه الكتب المذكورة كُتبت بلغات مختلفة العبرية ، السامرية ، اللاتينية ، اليونانية ، الآرامية ، السريانية ، القبطية الحبشية ، المندائية و غيرها ما عدا العربية.

مع ان هذه الكتب لم نجدها مرة واحدة بل لقد جُمعت على مر قرون طويلة منذ القرن الرابع الميلادي وحتى الآن، أغلب هذه الكتب وجدناها بعد وفاة محمدﷺ وآخر ما وجدناه كانت مخطوطات البحر الميت (١٩٤٧-١٩٥٦)، سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية في كتب السابقين مع أن هذه الكتب لم نجدها في مكان واحد بل في اماكن متعددة كسيناء ونجع حمادي والقاهرة، كهوف البحر الميت الحبشة الفاتيكان مكتبات نبلاء اوروبا ومع ان هذه الكتب كانت نادرة في عهد النبي لأن النُسخ كان يدويا ولم تكن هناك طباعة وكذلك بسبب حرق كُتب اتباع الأديان المضطهدة خصوصا النصارى، سنجد دائما هذه الشواهد القرآنية مع ان حجم الكتب أيامه ﷺ كان كبيرا و كانت على هيئة قراطيس من العسير تداولها سرا، سوف اعطى مثالا لهذه الخاصية "الشواهد القرآنية في اسفار السابقين" :

من المعروف ان قصة يوسف هي الوحيدة التي نجدها في القران متتالية في موضع واحد هذه القصة لا نجدها كما هي في أي كتاب من كتب اليهود او النصارى سنجد قسما منها في التوراة التي بين ايدينا الان (قياسية –سبعينية) مع وجود تفاصيل في الرواية التوراتية لا نجدها في القران كقطع التوراة لسرد قصة يوسف دون اي مناسبة لتروى لنا قصة أخرى وهي مضاجعة يهودا لزوجة ابنه! اما القسم الثاني من رواية يوسف في القران فسنجده في عدد كبير من كتب اهل الكتاب غير التوراة وسنجد هذا القسم مشتتا تماما فجزئية إخبار يوسف رؤياه لأبيه اولا نجدها في كتاب "العاديات اليهودية" للمؤرخ يوسيفوس.

وجزئية {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ} في كتاب بسكيترباتى وسيفر عدد هذان الكتابان اتفقا مع القرآن في ذلك واختلفا فيها مع التوراة نفسها، وجزئية {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا} في كتاب، وجزئية {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} في كتاب آخر، وجزئية {وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ} في كتاب عهود الاسباط وهو من كتب الاسرار وجزئية {فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} في كتاب yashar wa yesheb وهكذا أكثر من ٢٦ جزئية كتلك التي ذكرناها انفا في أكثر من ٣٠ كتابا.

---

(١) –المرجع السابق ص: ٤٧

(٢) –الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده، لماضى (ص:١٤٨) الجواب الصحيح لابن تيمية (٢٥/٣) ، (٥٧/٤) .

وكل هذه الكتب سالفة الذكر وجدنا لها تفاصيل عديدة غير منطقية لا تُذكر في القران الكريم كذكر كتاب تنهوما أن يهودا حين أُخذ منه بنيامين دخل في صراع مع يوسف ونزلت الملائكة لتشاهد الصراع بين يوسف الثور ويهودا الاسد! ويضيف كتاب br والتلمود هنا أيضا ان رجال يوسف الأقوياء فقدوا اسنانهم بسبب صرخة يهودا! ويذكر الكتابان في موضع آخر ان ملاك العاطفة هو الذي حث يهودا على مضاجعة زوجة ابنه المذكورة في التوراة! هذا عن القسم الثاني في الرواية القرآنية اما القسم الاخير فلا نجده في التوراة او غيرها فلا بد إذن أن محمدا كانت لديه مخطوطات أخرى إضافة لكل ما ذكر من مصادر لم نجدها حتى الان وهذا مستحيل بكل المقاييس!! هذه الخاصية – الشواهد القرآنية في كتب السابقين – نستنتج منها أنه من المستحيل على رجل مثل محمد صلى الله عليه وسلم أن يقرأ كل صحيفة في كل كتاب من كُتب لم نعرف نحن الان أكثرها إلا متأخرا جدا [١]، ثم يستبعد التفاصيل غير المنطقية ثم يأخذ من هذا ما يتناسب مع ذلك، ثم يقدم هذا النتاج في صورة بيانية رائعة ولا بد أنه قد فعل كل هذا في السر ايضا!

إن هذا هو المستحيل بعينه خصوصا إذا أضفنا لذلك معرفته واطلاعه على كتب الأسرار apocrypha الخاصة بكل طائفة!! فكثير من طوائف اليهود والنصارى لديهم كتب لا يطلع عليها إلا كبار رجال الدين عندهم، فهل اطلع محمد على تلك الكتب أيضا ليؤلف القرآن الكريم ؟!! ومن أيسر سبيل لتبيّن أصالة النصّ القرآني واستقلاله عن دعوى الاقتباس من (الكتاب المقدس) النصراني؛ هو النظر المباشر في كلا الكتابين، والمقارنة الصارمة بينهما لينجلي عن الحقّ غبارُ الشبهة ومن أهم ما يكشف الأوجه التي توضّح أنّ القرآن الكريم لم يقتبس من أسفار اليهود والنصارى، تصحيح القرآن الكريم لأخطاء أسفار أهل الكتاب، وفصله بين أصيل الوحي ودخيل التحريف.

٢–تصحيح القرآن الكريم للأخطاء التاريخيّة للكتاب المقدس [٢]

١ –هامان صاحب فرعون:

درج المنصّرون على اتهام القرآن بالخلط التاريخي بين الشخصيات، وقد بنوا أوهامهم على أصل فاسد؛ وهو أنّ كتبهم التي يقدسونها هي المرجع والفيصل في معرفة الحقّ من الباطل ومعلوم لكلّ دارس مدى تهافت هذه الدعوى وارتكازها على قاعدة هشّة؛ إذ الكتاب المقدّس بجميع أسفاره أرقّ من أن يكون دعامة لمثل هذه الدعوى، ومن أهمّ الادعاءات في هذا الباب، قول المنصّرين إنّ الكتاب المقدّس قد ذكر أنّ شخصية عاشت في فارس وشغلت منصب الوزارة كان اسمها (هامان) وقد عاشت كما يفهم من سفر (إستير) في زمن بعيد عن زمن موسى ومن الخطأ أن يقول المرء بقول القرآن إنها قد عاشت في زمن موسىﷺ وإنّها كانت العضد الأيمن لفرعون!

والجواب من وجهين: الوجه الأوّل : قصّة إستير بأكملها ليست سوى خرافة اخترعها يهود السبي البابلي، ولا يوجد دليل تاريخي واحد على صدقها حتى قالت الموسوعة اليهودية لسنة ١٩١٠م إنّ قلّة قليلة فقط من النقاد المعاصرين ترى أنّ هذه القصة تعتمد[٣] على أسس تاريخيّة، فالأغلبية الواسعة من المفسّرين المعاصرين ترى أنّ هذا السفر بأكمله ليس سوى (قطعة من الخيال المحض)[٤] أو بعبارة تعليق The New Oxford Annotated Bible فإنّ سفر إستير (ليس تاريخًا وإنما خرافة أريد منها تفسير أصل عيد الفوريم ومعناه).[٥] من أهمّ ما يعترض به على قصة إستير :

---

(١) –الباحث هشام طلبة، محمد في الترجوم والتلمود والتوراة "ظهور نصوص اختفت ألفي عام" ص ٢٨٥–٢٩٠ دون دار نشر

(٢) –هذه الأمثلة عن كتاب د. سامي عامري هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى؟ (٤٨٧–٤٥٧) عن مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان.

(٣) –هذا إثبات (لأصل) القصّة لا (تفاصيلها)!

(٤)– "Comparatively few modern scholars of note consider the narrative of Esther to rest on an historical foundation. (…) The vast majority of modern expositors have reached the conclusion that the book is a piece of pure fiction" *The Jewish Encyclopedia*, 5/236

(٥) Herbert G. May and Bruce M. Metzger, eds. *The New Oxford Annotated Bible With Apocrypha*, New York: Oxford University, 1973, p.603

أولا: هذه القصة لم تذكر في غير التوراة وهذا المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي عاصر الملك الفارسي المقصود (اكزركزيس) ودوّن سيرته، لم يشر إلى (إستير) ولا ما كان من أمرها. (١)

ثانيا: النبيّان (عزرا) و(نحميا) اللذان كانا من أوائل العائدين من بابل، واللذان قصّا قصة السبي البابلي، لم يشيرا إلى (إستير) ولا إلى أي شيء مما جاء في السفر المسمى باسمها.

ثالثا: لم يعثر على هذا السفر ضمن مخطوطات البحر الميت.

رابعا: كان للعديد من آباء الكنيسة تحفظّات على هذا السفر.(٢)

خامسا: أسماء شخصيات هذا السفر تشهد لخرافية (٣) القصة؛ فاسم إستير بطلة القصة شبيه باسم أشتار إلهة البابليين واسم هدَّسة قريب من الكلمة البابلية حدشتو أي عروس وكان أصلًا يطلق على شجرة الآس ومردخاي اسم الإله البابلي الرئيسي مردوخ وهامان عدو مردخاي هو نفس هِمان أحد الآلهة الرئيسية في عيلام وشوش عاصمة عيلام هي المكان الذي جرت فيه أحداث هذه القصة واسم وشتي كان اسمًا لأحد الآلهة في عيلام.(٤)

سابعا: يزعم سفر إستير أنّ الملك الفارسي لما غضب من زوجته عندما رفضت أن تظهر جمالها لندمائه قرّر أن يعاقبها بأن يبحث عن فتاة جميلة في بلاده ليجعلها ملكة، ومن هذه البداية الساذجة بدأت القصة.. وهذا أشبه بقصص ألف ليلة وليلة الخرافية.

ثامنا: من غير المقبول تاريخيًّا أن يتّخذ الملك الفارسي إستير زوجةً ومردخاي وزيرًا رغم أنّهما على دين اليهودية، فهذا يتعارض مع اعتزاز الفرس بقوميتهم خاصة في ظلّ القوة الهائلة والتفوق الكبير للإمبراطورية الفارسية.

تاسعا: أشارت (الموسوعة اليهودية) إلى أنّ من أهمّ المطاعن في هذا السفر، القرار المزعوم بإهدار دم أعداء اليهود والذي نفّذ بعد ذلك، وهو زعم لا دعامة تاريخية له، بالإضافة إلى أنّه يخالف ما يتصوّر من التحدي المسلح الذي لا بد أن يبدر من الأرستقراطيين كما أنه لا دليل تاريخي على قرار إبادة اليهود الذي نسب لهامان ضدّ اليهود.(٥)

عاشرا: أشارت الموسوعة اليهودية إلى مخالفة الكثير من الأعراف المذكورة في سفر إستير لأعراف الفرس القديمة في ذاك الزمان كالسماح للأجانب أن يتصلوا بنساء الملك في الحريم، وعدم إمكان أن ترسل الملكة رسالة إلى زوجها وتقسيم الامبراطورية إلى ١٢٧ مقاطعة وعدم معاقبة هامان الوزير لمردخاي اليهودي الذي رفض السجود له (٦)

الحادي عشر: ذكر المؤرخ هيرودوت أنّ الملك الفارسي لا يجوز له أن يتزوّج إلاّ من سبع عائلات نبيلة حصرًا (٧)، فكيف يستقيم مع ذلك أن يتزوّج من يهوديّة تنتمي للشعب المستذلّ؟!

الثاني عشر: الزوجة الوحيدة المعروفة عند المؤرخ هيرودوت على أنها اقترنت بهذا الملك الفارسي هي (Amestris) ولا صلة بين اسمها واسم إستير كما أنّها كانت ابنة قائد فارسي ولم تكن عبرانيّة. (٨)

---

(١) –عبد الجليل شلبي، مفتريات المبشرين على الإسلام، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، ط٢، ص١٥٩

(٢) –انظر؛ Israel P. Loken, *Esther, Loken Expositional Commentary,* Xulon Press, 2007, p.22

(٣) –أمحت مقدمة سفر إستير في الترجمة الانجليزية الكاثوليكية *The New American Bible* إلى هذا الأمر، وقد صرحت أنّه لا يمكن اعتبار هذا السفر وثيقة تاريخية وإنما هو صياغة حرّة : ((The book is a free composition – not a historical document)). (*Saint Joseph Edition of The New American Bible*, p.500)

(٤) –انظر؛ قاموس الكتاب المقدس، مقال ((إستير)) (نسخة إلكترونية)

(٥) – *The Jewish Encyclopedia*, 5/236

(٦) –المصدر السابق

(٧) – Jon D. Levenson, Esther, A Commentary, London: Westminster John Knox, ,2004, p.24

(٨) – Geoffrey W. Bromiley, International Standard Bible Encyclopedia, Michigan: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1982,2/159

الثالث عشر: بطل القصة مردخاي كان من سبي عام ٥٨٧ ق م، ومن ثمّ فإنّه في العام الثالث من حكم الملك الفارسي (اكزركزيس الأول) (أي حوالي عام ٤٨٢ ق.م) يكون قد بلغ المئة والعشرين عامًا، كما أنّ استير يجب أن تكون في هذه الفترة عجوزًا!!

الرابع عشر: اضطراب ترجمات سفر إستير في نسب هامان ففي حين يذكر النص السبعيني اليوناني أنّ هامان رجل مقدوني يذهب النص العبري إلى أنّ هامان رجل أجاجي وهذا التناقض يؤكد أنّ هذه الشخصية لا وجود لها في الحقيقة! إنّ الإشكالات التاريخيّة المتراكمة في سفر إستير قد جعلت الناقد جون د. لفنسون[١] في تعليقه على هذا السفر يقول: (الإشكالات التاريخيّة في سفر إستير على قدر عظيم من الضخامة بما يقنع كل من لم يُلزمه اعتقاد ديني بالإيمان بتاريخيّة رواية الكتاب المقدس، أن يشك في صحة هذه الرواية)[٢]، ويرفع البروفسور (إسرائيل ب. لوكن)[٣] سقف محنة هذا السفر اليوم —وهو أكاديمي من المحافظين– بإقراره أنّ: (كلّ النقاد المعاصرين تقريبًا ينكرون تاريخيّة هذا الكتاب).[٤]

الوجه الثاني وهو المهم: يعتبر (موريس بوكاي) [٥] أوّل من كشف وجه الإعجاز القرآني في ربط شخصيّة هامان تاريخيًا بشخصية فرعون الذي عاش في زمانه موسى عليه السلام وذلك في قوله في كتابه: موسى وفرعون (١٩٩٥م): الاسم كما هو مكتوب باللغة العربيّة في القرآن، نقحرة [٦] دقيقة لاسم شخص نحن نعرف اليوم هجاءه الهيروغليفي لم يقم أي شارح للقرآن، في حدود معرفتي، ببيانه بطريقة دقيقة ...

أريد أن أعلم هل يتماشى هذا الاسم مع اسم هيروغليفي مُحتفَظ به في وثائق تلك الفترة، لا بدّ أن يكون من تُعرض عليه نقحرة الاسم متخصصًا في اللغة الهيروغليفيّة، ويتقن بالإضافة إلى ذلك العربيّة الفصحى لا اللهجة المصريّة الحاليّة ...واحد من علماء الآثار المصريّة الأكثر تميّزًا يتوفّر فيه هذان الشرطان، أراد إجابتي. امتنعت عن التصريح لمحادثي عن أيّ نصّ عربيّ نتحدّث، واكتفيت بتعريفه بأنّ هذا النصّ يعود إلى القرن السابع ميلاديًّا. عندما كتبت أمامه الاسم العربي؛ عرف مباشرة كيف يترجمه إلى اللغة المصريّة القديمة، مؤكّدًا لي أنني قد خُدعت فيما يتعلّق بتحديد تاريخ النصّ العربي للحجّة الآتية (التي لا أجهلها): لا يمكن لأيّ نصّ على مدى زمن نسيان اللغة الهيروغليفية أن يحتوي اسمًا لايزال مجهولًا إلى اليوم، اسمٌ له نفس الجرس الهيروغليفيّ، جرس يوافق تمامًا هذه الكلمة العربية.

نصحني مع ذلك أن أراجع معجم أسماء شخصيات الإمبراطوريّة الجديدة للألماني رانك وهو مؤلّف كلاسيكي، وأن أبحث إن كان الاسم الذي رسمه بالهيروغليفية موجودًا في هذا المعجم بنقحرته الألمانيّة، مما سييسّر لي المراجعة. اكتشفت أنّ الاسم مكتوب في المعجم كما توقّعه هذا العالم. وياللمفاجأة ها أنا ذا أقرأ زيادة على ذلك مهنته بالألمانيّة: (رئيس عمّال المقالع) إذ كذلك كان يسمّى من كان يشرف على البناء عندما عدت إلى هذا العالم مع نسخة مصورة للصفحة التي تعنينا من المعجم، وفتحت أمامه صفحة من صفحات المصحف حيث بإمكانه أن يقرأ كلمة هامان ذهل[٧]

---

(١) –جون د. لفنسون: أستاذ الدراسات اليهوديّة. درّس في هارفارد وجامعة شيكاغو. حصل على عدد من الجوائز العلميّة الكبرى.

(٢) – Jon D. Levenson, Esther, A Commentary, p.23

(٣) – إسرائيل ب. لوكن: أستاذ الكتاب المقدس واللاهوت في كليّة ((College of Biblical Studies))

(٤) – Israel P. Loken, Esther, Loken Expositional Commentary, Xulon Press, 2007, p.20

(٥) – موريس بوكاي (١٩٢٠م–١٩٩٨م): باحث فرنسي، له عناية بدراسة الكتب الدينيّة في ضوء المعارف العلميّة والتاريخيّة الحديثة. من أشهر مؤلّفاته كتابه ((La Bible, le Coran et la Science : Les Écritures Saintes examinées à la lumière des connaissances modernes)) الذي خصصّه لكشف مطابقة القرآن الكريم لمكتشفات العلم الحديث وفشل أسفار اليهود والنصارى في هذا الاختبار. له عناية كبيرة بكشف جوانب الإعجاز العلمي والتاريخي في القرآن لم يعتنق ((بوكاي)) الإسلام –على خلاف ما أشيع عنه– وأقرّ مع ذلك بإعجاز القرآن الكريم، وهو أمر يدعم موضوعيّة دراساته العلميّة المحايدة.

(٦) – transliteration

(٧) –((il fut sans voix))

أُضيف هنا أنّ رانك قد أحال إلى كتاب نشر سنة ١٩٠٦م لعالم المصريات Walter Wreszinski أشار إلى أنّ اسم هامان موجود على مسلّة في متحف مدينة فيينا (النمسا)، لما استطعت لاحقًا قراءة الوظيفة باللغة الهيروغليفيّة مشكّلة؛ لاحظت أنّ الإضافة الملحقة بالاسم تؤكّد أهميّة هذه الشخصيّة (بالنسبة لفرعون)، لو أنّ الكتاب المقدّس أو أيّ مؤلّف أدبي معروف قبل الوحي القرآني، أشار إلى هامان ووظيفته؛ لما كان وجود هذا التفصيل المذكور في القرآن ليثير انتباه أحد. إنّ الذي يظهر هو أنّ المعطيات الهيروغليفيّة المعاصرة فقط هي التي تثير الانتباه إلى هذا التفصيل المذكور في القرآن. بما أنّ ذلك لا يمكن أن يكون معتمدًا على معارف سابقة لعصر ظهور القرآن، فإنّ وجوده في القرآن يثير التفكير))[١][٢].

٢ –استعمال الجمال في زمن يعقوب عليه السلام

جاء في العهد القديم ذكر الجِمال كوسيلة تستعمل للتنقل وحمل المتاع، تكرّر ذكر الجمال كأحد وسائل التنقّل؛ مما يعني أنه قد تمّ تدجينها من طرف البشر في حياة يعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام، يعتبر هذا الادعاء خطأ تاريخيًا كاشفًا لتأليف التوراة في صورتها الحالية بعد قرون من حصول الوقائع المؤرخة.

جاء في الدراسة الكاثوليكية في هامش ترجمة The New American Bible تعليقًا على نصّ تكوين ١٢/ ١٦ الذي ذكر الجمال كأحد وسائل النقل في زمن إبراهيم عليه السلام: (الجمال الأهليّة ربما لم تعرف في الاستعمال العام في الشرق الأدنى القديم حتى آخر الألفية الأولى قبل الميلاد؛ ولذلك فإنّ الإشارة إلى الجمال في زمن الآباء (تكوين ٢٤ /١١–٦٤ ؛ ٣٠/ ٤٣؛ ٣١/ ١٧، ٣٤ ؛ ٣٢/ ٨، ١٦ ؛ ٣٧/ ٢٥) تعتبر خطأ تاريخيًا.)[٣] وهو ما اعترف به إمام المحافظين في الدراسات الأركيولوجيّة الكتابيّة المعاصرة (ويليم فوكسول ألبرايت) (William Foxwell Albright) بقوله إنّ الجمال لم تستعمل في زمن يوسف ولا قبله، منافحًا عن هذا الرأي بشدّة في أكثر من مؤلّف[٤]، رغم ما عرف عنه من تطرّف لصالح إثبات تاريخيّة الأحداث المذكورة في العهد القديم!

ويحدد بعض الباحثين بدأ تدجين الجمال في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، وربما بعد ذلك، وقد ظلّت الجمال على التحقيق غريبة على المصريين بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر من الساميين فقد سافرت قبيلة (أبشاي) في الأسرة الثانية عشرة على الحمير، لا الجمال.[٥]

لم يذكر القرآن الكريم الجمال كوسيلة نقل في زمن إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام، وقد استعمل القرآن عبارة العير في حديثه عن رحلة إخوة يوسف إلى مصر: {فَلما جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

---

(١) –Maurice Bucaille, Moise et Pharaon, ed. Seghers, 1995, pp.230-231

(٢) –ذكر عالم المصريّات الشهير ((كنث كتشن)) ((Kenneth Kitchen)) في كتابه الهام ((Pharaoh Triumphant the life and times of Ramesses II, Warminster: Aris & Phillips, 1982)) –الذي أفاض فيه في الحديث عن ((رمسيس الثاني)): حياته وإنجازاته– أمر شخص مقرّب من الفرعون ((رمسيس الثاني))، اسمه ((Amen em inet)) وأنّه كان رفيق ((رمسيس الثاني)) لما كان أميرًا، وقد كانا على نفس السن (ص ٢٨)، وهو رفيق صباه وقريبه (١٣٥)، وقلّده وظيفة رئيس المركبات الملكيّة، وهي وظيفة عسكريّة (انظر؛ ما جاء في القرآن الكريم: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} سورة القصص/ الآية (٨) (ص٤٤) وجعله رسوله إلى البلاد الأخرى (ص٦٥) وقد نصّب والد ((Amen em inet)) واسمه ((Wennofer)) رئيسًا للكهنة، ونُقل ((Amen em inet)) من العمل العسكري والدبلوماسي إلى وظيفة المشرف على الأعمال الملكيّة الأثريّة (انظر؛ ما جاء في القرآن الكريم: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} سورة القصص/ الآية (٣٨) (ص ١٢٦) .. علمًا أنّ مقطع (Amen) كان منتشرًا بصورة كبيرة في الحقبة الرمسيسية (تشمل عصر الأسرتين ١٩ و٢٠، وسميت بهذا الاسم لكثرة من حكم فيها باسم (رمسيس))كجزء من أسماء المصريين؛ فقد تكرر مقطع (Amen) ٦٩ مرّة في قائمة أسماء العمال الذين ورد ذكرهم في كتاب ((A Community of Workmen at thebes in the Ramesside period)) لعالم المصريات الشهير ((Jaroslav Černý)) (Cairo: IAFO, 2001, pp.419-420)

(٣) –Saint Joseph Edition of the New American Bible, p.15

(٤) –انظر؛ W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore: Johns Hopkins, 1942, 1953, pp. 96-102, 132, From the Stone Age to Christianity, Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1940, pp. 120-196

(٥) –انظر د. محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٢٠٦/٢

الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُون}[يوسف:٧٠] ، {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُون}[يوسف:٩٢] ،{وَلما فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُون}[يوسف :٩٤]

وقد جاء تعريف العَير بفتح العين في لسان العرب :(الحمار أيًا كان أهليًا أو وحشيًا)[١] وفي تعريف العِير بكسر العين: وقال أَبو الهيثم في قوله: ولما فَصَلَت العِيرُ كانت حُمُرًا، قال: وقول من قال العِيرُ الإِبلُ خاصّة باطلٌ. العِيرُ: كلُّ ما امْتِيرَ عليه من الإِبل والحَمِير والبغال، فهو عِيرٌ[٢] وفي معجم مختار الصحاح في تعريف العَير: الحمار الوحشي والأهلي أيضًا[٣]

٣-ادعاء فرعون الألوهيّة

تخلو التوراة من أيّة إشارة إلى دعوى فرعون الألوهيّة في حين أثبت القرآن الكريم تاريخيّة هذه الدعوى الشنيعة: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:٣٨]، {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِين} [الشعراء:٢٩].

في مقابل صمت التوراة عن تألّه الفرعون، ينطق التاريخ بأنّ مؤسس الأسرة المصريّة الأولى، استطاع أن يكوّن لمصر حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م حكومة مركزيّة قويّة ثابتة الأركان، كان على رأسها (الملك المؤلّه) الذي استطاع أن يجمع بين يديه كلّ السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور؛ فهو (الإله الأعظم) وهو (الإله الصقر حور) الذي تجسّد في هيئة بشريّة؛ ولذلك فهو في نظر رعاياه، إله حي على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، ومن ثمّ فله حق الاتصال بهم، وله على شعبه ما لغيره من الآلهة من التقديس والمهابة.[٤]

ويقول القرآن ناقلًا عن فرعون دعواه {فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات :٢١]، وهو تصوير دقيق لحال الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أنّ الواحد فيهم هو (الإله الأعظم) الذي تعود إليه كلّ أمور المملكة وكلّ أمور الناس، وهو الذي يعلم كلّ كبير وصغير من أمر الناس.[٥]

ومما يلاحظ أيضا أنّ القرآن بالإضافة إلى نقله ادّعاء فرعون للألوهيّة، يقول على لسان الملأ من قومه: {وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف:١٢٧]، ففرعون مدع للألوهية، كما أنّ له هو أيضًا آلهة ورغم أنّ الأمر يبدو في ظاهره متناقضًا إلا أنّ التاريخ المصري يخبرنا أنّ رمسيس الثاني—فرعون التسخير في قصّة موسى عليه السلام، على الراجح- كان يدّعي الألوهية إلى درجة أن رفع نفسه إلى طبقة كبار الآلهة إلاّ أنه أيضًا كان يعبد أربعة آلهة أخرى وهي آمون ورع وبتاح وسوتخ[٦] .. وهذا لغز لم يكشف إلا مع التعرّف على اللغة الهيروغليفية في القرون الأخيرة.

وهنا معجزات دقيقة لا نرى لها أثرًا في التوراة، رغم أهميّتها القصوى في نقل ملابسات ما كان بين موسى وفرعون مصر. ونضيف فائدة أخرى ما دمنا نتحدث عن رمسيس الثاني وهي أنّ الحديث النبوي الشريف قد سمّى زوجة فرعون التي التقطت موسى من اليم، آسية[٧] واليوم يخبرنا التاريخ المصري القديم-بعد أن فتح بابه لنا-أنّ اسم الزوجة الثانية

---

(١) -ابن منظور، لسان العرب، ٦٢٠/٤
(٢) -المصدر السابق، ٦٢٤/٤
(٣) -الرازي، مختار الصحاح، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ص ١٩٤
(٤) -انظر؛ محمد بيومي مهران دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم، ٢/ ٢١٤
(٥) -انظر، محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٢/ ٢١٤
(٦) -انظر، د. رشدي البدراوي، مصدر سابق، عن الدكتور محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص١٥٤
(٧) -قال صلّى الله عليه وسلّم: ((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ.)) (صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون، ح/ (٣٤١١).

لرمسيس الثاني بل الزوجة الرئيسية على قول الأثرية ماري[١]، هو آيسة.[٢]، ومن الواضح سهولة المطابقة بين الاسمين كما ورد في الحديث النبوي وفي الآثار المصريّة.. علمًا أنّ التوراة لا تذكر هذا الاسم بل وترى أنّ ابنة فرعون هي من التقطت موسى من اليم لا زوجته كما يقول القرآن الكريم. [٣] وصور رمسيس الثاني واضحة وقد وضع نفسه بين الإله آمون والإلهة موت في ثالوث آلهة.

٤-الملك لا فرعون

يقول الدكتور محمد بيومي مهران أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بجامعة الاسكندرية: إن قصة التوراة تتحدث دائمًا عن ملك مصر على أنه فرعون مصر، بينما يتحدث القرآن على أنه الملك وليس الفرعون[٤]، ومن المعروف تاريخيًا اليوم أن كلمة فرعون في صيغتها المصرية بر-عا أو بر-عو، كانت تعني البيت العالي، أو البيت العظيم، وكانوا يشيرون بها إلى القصر الملكي—وليس إلى ساكنه—ثم سرعان ما تغيرت وغدت تعبيرًا محترمًا، يقصد به الملك نفسه، وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وأما متى حدث هذا التغيير في استعمال لقب فرعون، فإن سير ألن جارندر—العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة-يحدد ذلك بعهد الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠—١٤٣٦ ق.م)، حيث بدئ في إطلاق الاصطلاح أي فرعون على الملك نفسه ثم في عهد الداعية الديني المشهور أخناتون (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق.م)، مستندًا في ذلك على خطاب من عهده، ثم استعمل منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨-١١٨٤ق.م)، وفيما بعد في بعض الأحايين، كمرادف لكلمة جلالته ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ: (خرج فرعون) و(قال فرعون ... وهكذا) .

إن القرآن الكريم أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي على أيام (يوسف) الصديق في عهد الهكسوس فأطلق عليه لقب (ملك) وبين حاكم مصر الوطني على أيام (موسى) الذي أطلق عليه لقب (فرعون) وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر منذ عهد (أخناتون)، هذا فضلًا عن أن ذلك من إعجاز القرآن الذي لا إعجاز بعده، وإذا ما عدنا إلى التوراة، لوجدنا أن الحقائق التاريخية تقف ضد ما أوردته التوراة بشأن استعمال لقب فرعون، إذ إنها تستعمله حين يجب أن تستعمل لقب ملك، وذلك قبل الأسرة الثامنة عشرة، وتستعمل لقب ملك حين يجب أن تستعمل لقب فرعون، وذلك منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥—١٣٠٨ ق.م)، وفيما بعدها)[٥]

وقال موريس بوكاي: (.. عبارة أخرى وردت في سورة يوسف يبدو لي أنها تحتاج إلى إشارة خاصة، لأنها تمثّل مطابقة كاملة للاستعمال الذي كان في زمن يوسف، كما هو مثبت في التاريخ. أنا جد مدين للبرفسور جاك بيرك أنه لفت انتباهي منذ عدة سنين إلى الأمر التالي: لقِّب الحاكم في سورة يوسف خمس مرات (الآيات ٤٣، و٥٠ و٥٤، و٧٢، و٧٦) دائمًا باسم مَلك ولم يُلقّب البتة بلقب فرعون الذي اختص به في القرآن الحاكم في الزمن الذي جرت فيه الأحداث المتعلقة بموسى وذلك في خمس وستين مرة. استعمل الكتاب المقدس كما أشرت إلى ذلك في الجزء الأول من كتابي، كلمة فرعون في جميع نصوصه للدلالة على حاكم مصر (أحيانًا مقترنة بكلمة ملك)، لا فقط في زمن يوسف (أي في أقصى الاحتمالات القرن السابع عشر قبل الميلاد) بل حتى قبل ذلك في زمن إبراهيم (الفصل الثامن عشر من سفر التكوين).

لم يُعرف ملك مصر بلقب فرعون إلا منذ حكم أمينوفيس الرابع، أي في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل المسيح. كل استعمال لكلمة فرعون للدلالة على ملك مصر قبل هذا العصر هو خطأ تاريخي: ارتكب محررو الكتاب

---

(١) -سليم حسن، مصر القديمة، ٤٣٤/٦ (نقله، محمد بيومي مهران، إسرائيل، ٣٩٢/١).

(٢) -يمكن أن ينطق بطرق مختلفة، منها ((آيسة)) و((إيسى)) وحتى ((إست))؛ انظر؛ محمد بيومي مهران، إسرائيل، ٣٩٣/١

(٣) -خروج ٢/ ٥-٩

(٤) -تكوين ٤٠ / ٧ – ٤١ / ١٥، ٤٦، ٣١ – ٥٠ / ٧

(٥) -محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١٢١/٢-١٢٢، (بتصرف يسير)، Wahiduddine Khan, *God Arises*, New Delhi: Goodword Books, 2001 , pp. 206- 208

المقدس هذا الخطأ لما كانوا يستعملون لغة زمانهم عند تأليفهم للكتاب المقدس. في المقابل، فإن استعمال هذه الكلمة للأحداث الأقرب لنا كزمن موسى، هي مطابقة للمعطيات التاريخية، إنّه عليّ أن أعلن أنه في زمن تبليغ القرآن إلى الناس، كانت اللغة المصرية القديمة قد اختفت منذ أكثر من قرنين من الذاكرة البشرية، وبقيت كذلك إلى القرن التاسع عشر؛ لذلك فليس بإمكاننا أن نعرف أنّ ملك مصر في زمن يوسف يجب أن يدعى بلقب غير المذكور في الكتاب المقدس. دقة اختيار الكلمات في هذا الموضوع في نص القرآن تثير التفكير.)[١]

٥-عدد بني إسرائيل في مصر

من أكثر المواضع التي شغلت النقاد المعاصرين، العدد الضخم للإسرائيليين الذي عاشوا في مصر وخرجوا منها مع موسى عليه السلام بعد أن طاردهم فرعون وجنوده، تذكر التوراة أنّ (عدد نفوس بيت يعقوب التي قدمت إلى مصر (كانت) سبعين نفسًا)[٢]، ثم أصبح العدد بعد ٢١٥ سنة على رأي التوراة السبعينية، أو ضعف هذا الرقم على رأي التوراة العبرانيّة، (شعبًا أعظم وأكثر) من المصريين—أصحاب أقوى وأعظم دولة في العالم في ذاك الوقت ولما طردوا من مصر كان من بينهم (نحو ست مئة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، فكان جميع الأبكار الذكور، من ابن شهر فصاعدًا، اثنين وعشرين ألفا ومئتين وثلاثة وسبعين.) !!(خروج ١٢/ ٣٧، عدد ٤٣/ ٤٣)

يعلق بعض الباحثين على ذلك، بقوله إننا لو قسمنا عدد الجماعة على الأبكار، لخلصنا إلى أن المرأة الإسرائيلية من اليهود الآبقين، كانت تلد زهاء ٦٥ وليدًا، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق، فضلًا عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير، ولا مع ما روي من عبورهم البحر في سويعات قصار، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين، سواء بسواء، أصبحوا الآن لا يعلقون أية أهمية على هذه الأرقام التي ذكرتها التوراة، ويعتبرونها محض خيال إسرائيلي.[٣]

إنّ القول إنّ الإسرائيليين قد بلغ عددهم زمن موسى عليه السلام أكثر من المصريين، ليس إلاّ علامة على فحش مبالغات التوراة وفحش تناقضاتها، خاصة إذا علمنا أنّ التوراة ذاتها تذكر الاضطهاد والقتل الذي سلّط على الإسرائيليين، فكيف يكون عددهم أكثر من المصريين رغم عمليات القتل؟!! وكيف يستذلّ الأقلّ الأكثر؟!![٤]

وقد ردّ الإمام ابن حزم منذ قرابة ألف سنة على هذا الخطأ، وبيّن الإعجاز القرآني في هذا الباب، بعد أن كشف بمنهجيته النقدية الصارمة خبط التوراة ومبالغاتها الباطلة: (أين هذا الكذب البارد من الحق الواضح في قول الله تعالى حاكيًا عن فرعون إنه قال إذ تبع بني إسرائيل: {إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُون} (الشعراء:٥٤) هذا الذي لا يجوز غيره ولا يمكن سواه أصلًا). [٥]

علمًا أنّ هذه الحقيقة التصويبية التي وردت على لسان الإمام ابن حزم لم تذكر في نقد الرواية التوراتية في الغرب إلا سنة ١٨٦٢م على يد ج. و. كولينسو J. W. Colenso أحد مؤسسي نقد العهد القديم المعاصر-وإن كان الألماني هـ. س. رايماروس H. S. Reimarus قد سخر من الرقم التوراتي قبل ذلك بقرن واحد!![٦]

قد يقول معترض: (إنّ ما قاله فرعون-في القرآن الكريم-لا يعدو كونه محاولة للتهوين من أمر الإسرائيليين!) والجواب هو: أولا: النصّ القرآني في سرده لقصة موسى عليه السلام لا يوحي أصلًا أنّ بني إسرائيل قد بلغوا الكثرة

---

(١) -Maurice Bucaille, Moise et Pharaon, pp.210-211

(٢) -تكوين ٤٦/ ٢٧

(٣) -محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن، ٢/ ١٤٢

(٤) -انظر المصدر سابق، ٢/ ١٤٣

(٥) -ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/ ١٩٤

(٦) -د. لؤي فتوحي ود. شذى الدركزلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكّر، لندن: دار الحكمة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص١٣٣

المزعومة في التوراة، ثانيا: العدد المذكور في التوراة–كما يقول بوكاي يفوق عدد شعب دولة بأكملها في ذاك الوقت[١]، وليس من المعقول أن يوصف شعب كامل تبصرهم عيون الناس بأنهم (شرذمة قليلون)!!

وقد يتوجه المعترض بقوله إلى جهة أخرى ليقول إنّ القرآن لم يقدّم سبقًا علميًّا وإنما صوّب خطأ ظاهرًا!! وأقول: إنّ الكشف عن هذا الخطأ قد احتاج من أهل العلم دراسة جادة للنصوص ومقارنة جادة بينها ونظرًا جادًّا في السنن الكونية في تكاثر الشعب الواحد، وهو أمر لم تعرفه أوروبا إلا منذ ما يعرف بعصر النهضة (القرن ١٦م). وقد رأيتَ أنّ هذه الحقيقة لم يعرفها الغرب إلا بعد أكثر من ألف سنة من تنزّل القرآن الكريم! وقد سبقهم علماء الإسلام لأنهم كانوا يسترشدون بنور القرآن الكريم. إنّه إذن، الإعجاز!

٦–إسماعيل هو الذبيح

جاء في سفر التكوين ٢٢/١–١٢: (وبعد هذا امتحن الله إبراهيم، فناداه: يا إبراهيم فأجابه: لبيك! فقال له: خذ ابنك وحيدك إسحق الذي تحبه، وانطلق إلى أرض المريا وقدمه محرقة على أحد الجبال الذي أهديك إليه ...ومد إبراهيم يده وتناول السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء قائلا: إبراهيم، إبراهيم فأجاب: نعم فقال: لا تمد يدك إلى الصبي ولا توقع به ضرًا لأني علمت أنك تخاف الله ولم تمنع ابنك وحيدك عني.)

وهذا بلا ريب خطأ؛ لأنّ الكتاب المقدس نفسه يُقرّ أنّ إسماعيل قد ولِد قبل إسحاق وقد جاءت النصوص القرآنيّة كاشفة ضمنًا أنّ الذبيح هو إسماعيل[٢] قال الإمام ابن القيم: في دفع دعوى الكتاب المقدس، وبيان دلالة القرآن الكريم أنّ الذبيح هو إسماعيل: وهي باطلة قطعًا من عشرة أوجه:

أحدها: أن بكره ووحيده هو إسماعيل باتفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمورًا بذبح بكره وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين.

الثاني: أن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم أن ينقل هاجر وابنها إسماعيل عن سارة ويسكنها في برية مكة لئلا تغير سارة، فأمر بإبعاد السرية وولدها عنها حفظًا لقلبها ودفعًا لأذى الغيرة عنها، فكيف يأمر الله سبحانه وتعالى بعد هذا بذبح ابن سارة وإبقاء ابن السرية؟! فهذا مما لا تقتضيه الحكمة.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعًا، ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيرًا للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده.

الرابع: أن الله سبحانه بشّر سارة أم إسحاق بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب٣، فبشرها بهما جميعًا، فكيف يأمر بعد ذلك بذبح إسحاق وقد بشر أبويه بولد ولده؟!

الخامس: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصة الذبيح وتسليمه نفسه لله تعالى وإقدام إبراهيم على ذبحه، وفرغ من قصته قال بعدها: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِين} [الصافات: ١١٢]، فشكر الله تعالى له استسلامه لأمره وبذل ولده له، وجعل من إثابته على ذلك أن آتاه إسحاق، فنجى إسماعيل من الذبح وزاده عليه إسحاق.

السادس: أن إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه سأل ربّه الولد؛ فأجاب الله دعاءه وبشّره، فلما بلغ معه السعي أمره بذبحه، قال تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِين فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ

---

(١) –Maurice Bucaille, Moses and Pharaoh, The Hebrews in Egypt, Tokyo: NTT Mediascope, 1994, pp.7, 111-112

(٢) –ما ذهب إليه بعض العلماء المسلمين من أنّ الذبيح هو ((إسحاق)) لا دليل عليه من قرآن أو سنة، وإنّما هو متلقّى عن اليهود والنصارى؛ قال شيخ الإسلام ((ابن تيميّة)): ((هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل.)) (ابن القيم، زاد المعاد، ت/ شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، ط١٤، ٧١/١)، وقال الإمام ((ابن كثير)): ((وما أظن ذلك تلقي إلا عن طريق أحبار أهل الكتاب، وأخِذ ذلك مُسَلَّماً من غير حجة.)) (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٥/٤)

(٣) –قال تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوب} سورة هود/ الآية٧١

حَلِيم}[الصافات:٩٩-١٠١]؛ فهذا دليل على أن هذا الولد إنما بُشِّر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولدًا، وهذا المبشَّر به هو المأمور بذبحه قطعًا بنص القرآن، وأما إسحاق فإنما بشِّر به من غير دعوة منه، بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له، وإنما كانت البشارة به لامرأته سارة، ولهذا تعجبت من حصول الولد منها ومنه؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذ فَلما رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوط وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوب قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيب قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ}[1] فتأمل سياق هذه البشارة وتلك؛ تجدهما بشارتين متفاوتتين؛ مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى، والبشارة الأولى كانت له والثانية كانت لها، والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر فيها دون الثانية.

السابع: أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم بإسحاق إلى مكة البتة، ولم يفرق بينه وبين أمه، وكيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضرتها في بلدها ويدع ابن ضرتها؟!

الثامن: أنّ الله تعالى لما اتّخذ إبراهيم خليلًا؛ والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقًا بربه ليس فيه شعبة لغيره، فلما سأله الولد وهبه إسماعيل؛ فتعلق به شعبة من قلبه، فأراد خليله سبحانه أن تكون تلك الشعبة له ليست لغيره من الخلق، فامتحنه بذبح ولده، فلما أقدم على الامتثال؛ خلصت له تلك الخلة وتمحضت لله وحده، فنسخ الأمر بالذبح، لحصول المقصود وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال، ومن المعلوم أن هذا إنما يكون في أول الأولاد لا في آخرها، فلما حصل هذا المقصود من الولد الأول لم يحتج في الولد الآخر إلى مثله، فإنه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لأمر بذبحه كما أمر بذبح الأول، فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقرّه في الأول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة، ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك، وهذا خلاف مقتضى الحكمة فتأمله.

التاسع: أن إبراهيم عليه السلام إنما رزق إسحاق عليه السلام على الكبر، وإسماعيل عليه السلام رزقه في عنفوانه وقوته، والعادة أن القلب أعلق بأول الأولاد، وهو إليه أميل وله أحب، بخلاف من يرزقه على الكبر، ومحل الولد بعد الكبر كمحل الشهوة للمرأة...)[2]

وقد اعترف بالدلالة القرآنيّة على أنّ الذبيح هو إسماعيل، جايجر نفسه؛ فبعد أن استعرض ما جاء في القرآن الكريم، قال: (من الواضح إذن أنّه طبقًا لعرض محمد؛ فإنّ إسماعيل هو الذي قام بدور التضحية.)![3]

٧-ألوهية المسيح

تكرّر في القرآن الكريم نفي ألوهيّة المسيح: {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب}[المائدة:١١٦]، {مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون}[مريم:٣٥]

وتكرّر مع ذلك تمجيد المسيح عليه السلام، ونسبته إلى البشريّة والنبوّة: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون}[آلعمران:٥٩]، {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}[مريم:٣٠]، {قُولُواْ آمَنَّا

---

(١) -سورة هود / الآيات (٦٩-٧٣)

(٢) -ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ت/ محمد سيد كيلاني، القاهرة: مكتبة التراث، د.ت، ٣٤٨/٢-٣٥١

(٣) -A. Geiger, *Judaism And Islam*, p.103

بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون}[البقرة:١٣٦]

وهنا يسأل العاقل نفسه سؤالًا: لقد ذهب النصارى إلى أنّ المسيح قد أعلن أنه إله، وأنه صادق في دعواه، وذهب اليهود إلى اتّهام المسيح أنّه قد ادّعى الألوهيّة زورًا؛ فلِمَ يذكر قرآن محمدﷺ أنّ المسيح لم يدّع الألوهيّة أصلًا؟! أليس في ذلك إنكار (لحقيقةٍ) تاريخيّة أطبق عليها أهل الكتاب–كما يقولون هم بأنفسهم عن (إجماعهم!)–؟! أليس ذاك خطأ تاريخي في القرآن الكريم؟! –ليس الاعتراض هنا على صحّة (ألوهيّة) المسيح، فهذا أمر يُدرك حكمه بالعقل المجرّد، وإنما هو عن صحة القول إنّ المسيح قد ادّعى أنّه إله!

الإجابة يقدّمها لنا لاهوتي، بل أحد أعلام اللاهوتيين في زماننا، وهو جون هِك[١] بقوله في كتابه (The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age) الصادر في طبعته الأولى سنة ١٩٩٣م، ناقلًا ما أجمع عليه النقّاد المحقّقون اليوم: (نقطة أخرى عليها اتفاق واسع بين علماء العهد الجديد، وهي أكثر أهميّة لفهم تطور علم دراسة طبيعة المسيح (Christology)، وتتمثّل في أنّ يسوع التاريخي لم يدّع الألوهيّة التي ادعاها له متأخّرو المسيحيين: إنه لم يظن في نفسه أنّه تجسُّد الإله، أو الإله الابن ... إنّه من المستبعد جدًا أن يكون يسوع التاريخي قد ظنّ في نفسه ذلك بأيّة صورة من الصور. في الحقيقة، إنّ المتصوّر أنه سيرفض هذه الفكرة باعتبارها هرطقة، إحدى الأقوال المنسوبة إليه، هي: (لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلاّ الله وحده.) (مرقس ١٠/١٨).

بالطبع لا توجد إفادات من الممكن أن تقدّم بيقين حول ما قاله يسوع أو ما لم يقله أو ما فكّر فيه. لكن الحجّة المتاحة قادت المؤرّخين المتخصصين في الفترة التاريخية (لحياة المسيح) إلى أن يستنتجوا بإجماع مذهل أنّ يسوع لم يَدّع أنه الإله المتجسّد.

هذا الأمر محلّ اتفاق عام اليوم حتّى إنّ بضعة اقتباسات ممثّلة (للرأي السائد) مأخوذة من كتّاب مستقيمي العقيدة أرثوذكس تكفي لإثبات غرضنا الحالي رئيس الأساقفة مايكل رمزي (Michael Ramsey) وهو أيضًا أحد علماء العهد الجديد، كتب أنّ (يسوع لم يدّع لنفسه الألوهيّة) (١٩٨٠م). عالم العهد الجديد المعاصر له (س. ف. د. مول) (C. F. D. Moule) قال إنّ (كلّ حالة كرايستولوجيا "عالية" قائمة على أصالة الدعوى المدّعاة ليسوع حول نفسه، خاصة في الإنجيل الرابع، لا بد أن تعتبر غير ثابتة.) (١٩٧٧م). استنتج (جيمس دون) (James Dunn) في دراسة رائدة حول أصول عقيدة التجسّد أنّه (لا توجد حجّة حقيقيّة في تراث يسوع المبكّر ممّا من الممكن أن تسمّى بإنصاف، وعيًا بالألوهيّة) (١٩٨٠م)، اعترف أيضًا (براين هِبلثوايت) (Brian Hebblethwaite) المناصر بقوّة للتراث النيقوي[٢] الخلقيديوني[٣] المسيحاني أنّه (لم يعد ممكنًا المدافعة عن ألوهيّة يسوع من خلال الإحالة إلى أقواله) (١٩٨٧م). يقول أيضًا متحمس آخر للخلقيديونيّة وهو (دافيد براون) (David Brown)، إنّه (توجد حجج قويّة على أنّ (يسوع) لم ير نفسه البتّة أهلًا لأن يعبد) وإنه (من المستحيل تأسيس أيّة دعوى للتأليه بناءً على إدراكه إذا أهملنا الصورة التقليديّة كما يعكسها الفهم الحرفي لإنجيل يوحنا) (١٩٨٥م))[٤]

---

(١) - جون هك (ولد سنة ١٩٢٢م): لاهوتي. درّس في عدد من الجامعات. رئيس الجمعية البريطانية لفلسفة الدين، ونائب رئيس الكونغرس العالمي للأديان. ذكر ((Robert Smid)) أنّه كثيرًا ما يشار إلى ((هك)) أنه ((أحد أبرز فلاسفة الدين المهمين في القرن العشرين، إن لم يكن أبرزهم.)).

(٢) –أي العقيدة التي قرّرها النصارى في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م حيث وصف المسيح أنّه ((إله من إله)) ((θεὸν ἐκ θεοῦ)).

(٣) –أي العقيدة التي قرّرها النصارى في مجمع خلقيديونية سنة ٤٥١م الذي قرّر أنّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين، إلهيّة وأخرى بشريّة ((إله حق وبشر حق)) ((θεὸν ἀληθῶς καὶ ἄνθρωπον ἀληθῶς τὸν αὐτὸν)).

(٤) John Hick, The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age, London: Westminster – John Knox Press, 2006, pp.27-28

هذا هو الإعجاز حيث يخالف القرآن الكريم ما (استقر) عليه اليهود والنصارى زمن البعثة النبويّة واليوم (يستقر) البحث النقدي الأكاديمي الغربي في شاطئ القرآن الكريم، دون اعتبار لقول أُمَّتين من الناس عاش أجدادهما مع المسيح نفسه!

٨ –الأصول الوثنية للعقيدة النصرانية

قال تعالى: {وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون}[التوبة : ٣٠] ، يقول الشيخ (أحمد عبد الغفور عطّار) في موسوعته: (الديانات والعقائد في مختلف العصور): (إن هذه الآية الشريفة إنباء عن الماضي المجهول، وما كان محمدﷺ ولا عرب الحجاز يعلمون أن أممًا سبقت أمة المسيح، قالوا ما قالوه فيه، وهذا يجعلنا مطمئنين إلى أن القرآن كلام الله علاّم الغيوب، لا كلام عبد الله ورسوله محمدﷺ لأن الكشوف الأثرية والبحوث لم تكتشف مضاهاة النصرانية للذين كفروا إلا حديثًا، وبعد موت محمدﷺ بمئات السنين، فعرف ثالوث الهند وغيرها كالصين والمكسيك ومصر ودياناتهم الوثنية التي تشرّبتها النصرانية، وهذا سر من أسرار القرآن يظهر مع الزمن).[١]

وقد صنّف النقّاد الغربيون كتبًا عديدة في موضوع تأثّر النصرانية بالعقائد الشرقية والوثنية، ومنها:

John Hick, ed. The Myth of God Incarnate, Oxford : New Blackfriars, 1977

Frank Viola and George Barna, Pagan Christianity, Ill. : BarnaBooks, 2008, 2002.

Jonathan Z. Smith, Drudgery Divine, : On the Comparison of Early Christianities and the Religions of Late Aniquity, Chicago: University of Chicago Press, 1990

Robert J. Miller, Born Divine: the birth of Jesus and other sons of God, CA: Polebridge Press, 2003

Tom Harpur, Pagn Christ, Toronto: Thomas Allen Publishers, 2004.

Timothy Freke and Peter Gandy, The Jesus Mysteries: was the 'original jesus' a pagan god?, New York : Harmony Books, 2000.

Shirley Strutton Dalton and Laurence E. Dalton, Jesus Christ: A Pagan Myth, On Demand Publishing, 2008 .... وغيرها كثير جدًا ...

٩–ابتداع الرهبانيّة

قال تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [الحديد :٢٧

كانت الرهبنة مَعلمًا أساسيًا من معالم النصرانيّة في القرن السابع ميلاديًّا، وقد وجدت لها حضورًا بارزًا في تجمّعات النصارى الأقرب إلى مكّة، وذكر أمرها في الشعر الجاهلي؛ بما يدلّ على أنّها قد أضحت متصلة اتصالًا وثيقًا بالإيمان النصراني والهيكل الكنسي في الثقافة الشعبيّة العربيّة لكنّ القرآن الكريم يصرّح بما لا يتوقعه العربي في ذلك الإطار الزماني والمكاني؛ إذ يقرّر أنّ الرهبنة مسلك دخيل على النصرانيّة ابتدعه قوم ظنوا فيه الصلاح والتهذيب للنفس، وقد آل أمر هذه الرهبنة إلى الفساد![٢] إنّ الحقيقة التاريخيّة التي نعرفها اليوم معرفة يقينيّة هي أنّ الرهبنة لم تعرف في القرنين الأوّل والثاني ميلاديًّا، وإنّما ظهرت بداية في نهاية القرن الثالث ميلاديًّا في مصر على يد قديس الكنيسة (أنطونيوس الكبير) (٢٥١م–٣٥٦م) الذي يسمّى (بأبي الرهبنة) (Father of Monasticism).[٣]

---

(١) –أحمد عبد الغفور عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور، مكة المكرمة: ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م ، ٢/ ٥٦١

(٢) –قال الإمام ((ابن كثير)) (تفسير القرآن العظيم، ٤/٢٢٩٠): ((وقوله تعالى: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين: (أحدهما) الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. و(الثاني) في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل.))

(٣) –The Catholic Encyclopedia, 1/555

١٠ –يوسف النجار، الشخصيّة الخرافيّة.

تضمّنت أناجيل النصارى ذكر شخصيّة (يوسف النجار) وأنّه كان خطيب (مريم) أم المسيح عليهما السلام، وزعمت أنّه قد تولى رعاية المسيح عليه السلام أثناء طفولته.

وقد أهمل القرآن الكريم ذكر هذه الشخصية في حياة المسيح وأمّه على صورة تكشف أنّ القرآن الكريم ينكر وجودها أصلًا إننا لا نجد (ليوسف النجار) ذكرًا في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبويّة، كما أنّ الرواية القرآنيّة تنطلق بنا من الرغبة في تكريس (مريم) للهيكل، وكفالتها، إلى ولادتها العذريّة، وريبة قومها في هذه الولادة العجيبة، دون إشارة إلى اتهام (الخطيب) بهذه الفعلة، مكتفية بتنزيه مريم عن فعل الفاحشة: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} [مريم:٢٨]

وبالنظر في الكتاب المقدس نفسه؛ يستبين لنا صواب الرواية القرآنية وبطلان تاريخيّة شخصيّة ((يوسف النجار)) المذكور في الأناجيل؛ لأسباب عديدة من أهمها:

إنجيل مرقس الذي هو أقدم الأناجيل الأربعة تأليفًا، لم يشر البتة إلى (يوسف النجار) أشار إنجيل يوحنا إلى (يوسف) كشخصيّة لها علاقة بالمسيح في ١/٤٥: (ثُمَّ وَجَدَ فِيلِبُّسُ نَثَنَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ: «وَجَدْنَا الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي الشَّرِيعَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ فِي كُتُبِهِمْ وَهُوَ يَسُوعُ ابْنُ يُوسُفَ مِنَ النَّاصِرَةِ.) لكننا نعلم أنّ العهد القديم لم يشر البتة إلى شخص اسمه (يسوع ابن يوسف من الناصرة) ((ישוע בן יוסף מנצרת)).

يذكر إنجيل مرقس ٦/٣ أنّ (المسيح) يعمل نجارًا، في حين ذهب إنجيل متّى ١٣/٥٥ إلى أنّ المسيح هو (ابن النجار)!! نسب يوسف النجار في الأناجيل مضطرب؛ فوالده في إنجيل متّى ١/١٦ اسمه يعقوب، في حين أنّ اسم والده في إنجيل لوقا ٣/٢٣: (هالي).

اختلفت الأناجيل في موطنه؛ فهو في إنجيل متّى ٢/١ من بيت لحم، في حين أنّه في إنجيل لوقا ١/٢٦ من الناصرة. لو كانت ((مريم)) مخطوبة ((ليوسف النجار)) وثبت حملها أمام الناس؛ لوجب طبق الشريعة اليهوديّة رجمها (تثنية ٢٢/٢٣-٢٤)، وهو ما لم يكن!

تنصّ شريعة اليهود على منع المرأة من الزواج من غير سبطها (العدد ٣٦/٨-٩)، في حين نقرأ أنّ (مريم) من سبط لاوي (انظر؛ لوقا ١/٥ إذ إنّ (إليصابات قريبة (مريم (لوقا ١/٣٦) من بنات (هارون)، كما ذكر قديس الكنيسة (هيبوليتس)١ أنّ أمّ (مريم) وأمّ (إليصابات) كانتا أختين٢)، في حين أنّه قد تكرّر القول إنّ (يوسف النجار) من نسل (داود)؛ مما يعني منع زواجهما طبق شريعة اليهود.

لقد نفى القرآن الكريم ضمنًا هذا الزواج، وبرّأ مريم أمام قومها الذين كانوا يعتقدون ديانةً وجوب رجم الزانية المخطوبة، بمعجزة كلام ابنها في المهد؛ فكانت الرواية متناسقة ومتكاملة، متجاوزة أخطاء الأناجيل وتناقضها مع العهد القديم!

٣–السبق التاريخي للقرآن الكريم على الكتب السابقة:

لا يقتصر الإعجاز القرآني والتميّز التاريخي في القرآن الكريم، مقارنة بما ورد في الأسفار المقدّسة عند المنصّرين، على التصحيح والتعديل، بل تجاوزه إلى السبق التاريخي المعجز في أبواب التاريخ القديم للأمم الداثرة التي لا علم للعرب

---

(١) –هيبوليتوس (١٧٠م–٢٣٦م): لاهوتي وأحد قديسي الكنيسة.

(٢) –انظر؛ عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص ١٧١

الجاهليين وغيرهم بأمرها المطروق في تلك اللفتات القرآنية المذهلة، ومن هذه اللمحات التاريخية المعجزة التي تشفّ عن المصدر العلوي لهذا الكتاب الفريد، نذكر نتفًا تغني اللبيب عن طلب المزيد:

١-نجاة جثة فرعون

يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِين آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِين فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون} [يونس:٩٠-٩٢]

تذكر هذه الآيات حادثة غرق فرعون، وهو ما جاء أيضًا في نص التوراة[١]، غير أنّ القرآن الكريم يضيف أمرين آخرين لم تعرفهما التوراة: حفظ الله سبحانه جثّة فرعون الهالك من أن تبقى في البحر، ونجّى الله سبحانه هذه الجثّة في اليوم الذي غرقت فيه لتبقى آية للناس وعبرة، وقد بقي أمر جثث الفراعنة المحنطة مخفيًا طوال قرون عديدة، ولم يكتشف إلا في آخر القرن التاسع عشر حيث عثر على مومياءات الفراعنة عند فتح قبر امنحتب الثاني

ذهب باحثون كثيرون ومنهم موريس بوكاي الطبيب، وعضو الجمعيّة الفرنسيّة للمصريّات إلى أنّ فرعون الخروج[٢] هو (مرنبتاح بن رمسيس الثاني)[٣]. وقد قام الدكتور بوكاي بتقديم بيانات علميّة بالغة الأهميّة في هذا الشأن لم تأخذ للأسف الشديد حظّها من العناية من المتخصّصين فقد ذكر أنّ التحليل الطبّي لمومياء مرنبتاح قد تمّ بين سنتي ١٩٧٤م و١٩٧٥م بمشاركة أطباء مصريين، وكان هو من المشاركين فيه. وقد استقدم من فرنسا أحد أهم المتخصصين في الطب الشرعي لبحث فرضيّة موت هذا الفرعون بفعل ارتداد الأمواج عليه والغرق في البحر.

نشرت نتائج هذا البحث في كتاب بوكاي (مومياءات الفراعنة، الأبحاث الطبيّة المعاصرة) (Momies du Pharaons : les enquêtes médicales modernes) الذي نال عنه جائزة الأكاديميّة الفرنسيّة، والأكاديميّة القوميّة الفرنسيّة للطب ، ملخّص النتائج كالتالي:

- أصيبت هذه المومياء بكسور بعد الموت إثر تمزق أنسجتها.
- فُقدت كلّ الأعضاء الداخليّة للمومياء، وبالسؤال عن الرئتين (لاحتمال وجود آثار الغرق) عُلِمَ أنّهما قد اختفتا، وأنّ العادة أن ينزعهما المحنّط.
- بتحليل مجهري لقطعة صغيرة من عضل المومياء؛ أمكن اكتشاف تفاصيل تشريحيّة حفظت بصورة جيّدة أثناء عمليّة التحنيط، أكّدت أنّه من المحال أن تكون هذه الجثّة قد بقيت في الماء لفترة طويلة.
- فقدان بعض الأعضاء في البدن أثناء حياة المومياء بما يرجّح أنّ ذلك ناتج عن ضربات (blows) خارجيّة، وهو أمر أكدته صور الأشعة السينيّة (X-rays):
- فقدان أجزاء من القفص الصدري والبطن والجمجمة بسبب ضربات تلقاها الفرعون أثناء حياته.

---

(١) -انظر؛ خروج ١٤/٢٨، مزمور ٧٨/٥٣، ١٠٦/١١

(٢) -((فرعون الخروج)) أي الفرعون الذي لاحق ((موسى)) عليه السلام ومن معه أثناء خروجهم من مصر، و((فرعون التسخير)) هو الفرعون الذي قام بتسخير بني إسرائيل قبل ذلك. وقد ذهب عدد من علماء المصريات إلى أنّ ((فرعون الخروج)) هو نفسه ((فرعون التسخير))، في حين ذهب آخرون إلى أنّهما اثنين، فبعد وفاة ((فرعون التسخير)) استلم حكم مصر ((فرعون الخروج))، وهو الذي مال إليه د. ((بوكاي))، وانتصر له بأدلّة قويّة، وهو مذهب عدد كبير من أعلام المصريات.

(٣) -أشهر فرعون آخر اقترح النقّاد أنه فرعون الخروج، هو ((رمسيس الثاني))، وقد رفض ((موريس بوكاي)) هذا القول لأسباب، من أهمها أنّ ((الدراسة الطبيّة لهذه المومياء لا تقدّم لنا أدنى أرضيّة للتفكير في ذلك. في الحقيقة، إنّه من الجلي الواضح أنّ رمسيس الثاني كان عاجزًا تمامًا عن أن يتولّى تلك المهمّة الحربيّة قبل موته.)) (Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, New York: St. Martin's Press, 1990, p.107)

– فجوة في الصدر من الراجح أنّها ناتجة عن إصابة أثناء حياة هذا الفرعون، ومن المستبعد تشريحيًا أن تكون ناتجة عن كسر اللصوص لصدر المومياء.[١]

– فجوة في أسفل الظهر (١٠ على ١٥ سنتمتر)، سبُبها ضربة من الخارج.

– فجوة في الرأس (٣٧ على ٢٣ مليمتر)، وبصورة دقيقة عند العظم الجداري الأيمن، وكانت بسبب ضربة/ هبّة شديدة جدًا.٢

– فقدان هذه الأعضاء قاد علماء التشريح إلى القول إنّ سببها هو صدمة أصابت الفرعون، وأنّه من الراجح أنّ دخول عظام الرأس إلى منطقة المخ، ودفعها للمخ بصورة عنيفة قد أدّيا إلى وفاة الفرعون بصورة سريعة أو ربّما آنيّة مباشرة.

– كشفت الأشعّة السينيّة أنّه لا أثر لانفجار العظام حول الفجوات، وهذا دليل على أنّ فقدان هذه الأعضاء كان بسبب ضربّة/هبّة أثناء حياة الفرعون.٣

ويضيف بوكاي قائلًا: (قدّمت هذه الاستنتاجات مع الوثائق في أبريل ١٩٧٦م، أمام المؤسسة الفرنسيّة للطب الشرعي، ولم تقدّم أيّة اعتراضات على استنباطاتنا)٤.٥، وختم حديثه بالتأكيد على أنّ موت هذا الفرعون كان بفعل انطباق البحر عليه، وهو ما ذكره الكتاب المقدّس(٦) .. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة وأضاف إليها أخرى؛ وهي نجاة جثّة هذا الفرعون؛ لتكتمل عناصر الإعجاز والسبق.

وأشار إلى أنّه لو بقيت الجثّة فترة طويلة في الماء؛ لصار تحنيطها غير مجدٍ. وأشار هنا إلى لفتة جميلة، وهي أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى نجاة جثّة هذا الفرعون من الهلاك في الماء، في نفس اليوم الذي هلك صاحبها فيه[٧]، وهو ما يزيد الإعجاز القرآني هنا عمقًا! وكان بوكاي قد قال في كتابه (الكتاب المقدّس والقرآن والعلم) حول اكتشاف جثة الفراعنة حديثًا: (في العصر الذي كان فيه الرسول يضع القرآن في متناول الناس، كانت أبدان كل الفراعنة الذين شكّ الناس في هذا العصر الحديث خطأ أو صوابًا بأنهم اهتموا بالخروج، موجودة في قبور وادي الملوك في طيبا في الضفة المقابلة للأُقصر من النيل. وقد كان الناس في هذا الزمان يجهلون كل هذا الواقع. ولم يكتشفوه إلا في أواخر القرن التاسع عشر[٨] وقد ثبت كما يقول القرآن، أنّ بدن فرعون الخروج قد نجا. أيًا كان هذا الفرعون، فإنه اليوم في صالة المومياآت الملكية في المتحف المصري في القاهرة، ميسرة رؤيته للزائرين.)[٩]

---

(١) –أشار بوكاي إلى أنّ العظم المفقود هنا كان موجودًا عندما صوّرت المومياء في أوائل القرن العشرين يبدو أنّه كان موضوعًا فوق الفجوة بعد أن انفصل عن الجثّة

(٢) –أبطل ((بوكاي)) من خلال صور الأشعة ودراسة جمجمة الفرعون ما رآه ((إليوت سميث)) في بداية القرن العشرين من أنّ هذه الفجوة ناتجة عن فعل اللصوص الذين أصابوا المومياءات بأضرار عند سرقة ما كان معها من جواهر (انظر؛ Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, p.123)

(٣) –انظر؛ Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh*, pp. 127- 128، انظر أيضًا؛ Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, pp. 156-160

(٤) – Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh*, p. 128

(٥) –شاع القول بتسفيه أن يكون ((مرنبتاح)) هو فرعون الخروج –لدى من ينكرون هذا القول–، بدعوى أنّه ليس للقائلين بذلك إلاّ حجّة واحدة وهي آثار الملح على المومياء كدليل على الغرق، وهو ما ليس بحجّة لأنّ عملية التحنيط تستدعي استعمال الملح (انظر؛ لؤي فتوحي وشذى الدركزلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكّر، ص١٢٤)!! وأنت ترى هنا أنّ كلّ الأدلّة المعروضة في هذا الملخّص لا تعلّق لها بالملح وبقائه في جثّة المومياء!!
انظر في تفصيل الأدلّة على أنّ مرنبتاح هو فرعون الخروج، والردّ على المخالفين، محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم، ٢/ ٣٠٨–٣٢٩

(٦) –انظر؛ Maurice Bucaille, *Moses and Pharaoh*, pp. 128- 129

(٧) –انظر؛ Maurice Bucaille, *Mummies of the Pharaohs, modern medical invesigations*, pp.158, 160

(٨) –((في عصر الأسرة الحادية والعشرين حينما توفي كبير كهنة آمون ((بينودجيم الثاني)) قرر زملاؤه الكهنة إنهاء العبث بجثث الفراعنة فجمعوا جثثهم واتخذوا من دفن كبير الكهنة ستارًا ودفنوا الجميع في قبر الملكة ((إنحابي)) بالدير البحري والذي تم توسعته ليتسع لجميع جثث الفراعنة منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة. وأغلقوا القبر . وسجلوا أن ذلك قد تم في السنة العاشرة من حكم الملك ((سيامون)) في عام ٩٦٩ ق.م. وردموا المدخل تمامًا وضيعوا المعالم حوله حتى لا يستدل عليه اللصوص فبقي القبر الجديد سالما من عبث اللصوص لأكثر من ٢٨٠٠ سنة ونسي تماما وسمي ((خبيئة الدير البحري)) ويحتوي على جميع المومياوات ومن بينها مومياء رمسيس الثاني.)) (رشدي البدراوي، موسى وهارون عليهما السلام من هو فرعون موسى؟، نسخة إلكترونيّة)

(٩) –موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، دار الكندي، ط٢، ص ٢٠٤

وممّا استدلّ به لصالح إثبات أنّ مرنبتاح هو فرعون الخروج، ما جاء في مسلّة مرنبتاح الشهيرة التي تضمّ الإشارة الوحيدة لإسرائيل في النصوص المصريّة، فقد تعامل نصّ المسلّة مع كلمة (إسرائيل)—لغويًا–باعتبارها دالة على شعب لا دولةَ له —على خلاف بقيّة المذكورين في النص وقد أورد هذا النص انتصارات الفرعون: (الأمراء منبطحون يصرخون طالبين الرحمة، وليس من بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، الخراب للتحنو، بلاد خاتي هادئة، وكنعان قد استلبت في قسوة، وأخذت عقلان، وقبض على جازر، وصارت ينوعام كأن لم يكن لها وجود، وإسرائيل قد خربت وأزيلت بذرتها، أصبحت خارو أرملة لمصر.)[١]

(خربت/ضاعت إسرائيل، وأزيلت بذرتها.) على غير العادة في نصوص هذه المسلّة، فإنّ العلامة المرتبطة بكلمة إسرائيل ليست علامة دولة، أو مدينة، وإنّما علامة تدلّ على طائفة من الناس، من الممكن الربط بين هذا النصّ وبين ما جاء في القرآن الكريم من قتل الفرعون لذريّة بني إسرائيل: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِين}[القصص :٤] ،{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون}[الأعراف:١٢٧] وقد جاء أمر قتل ذريّة اليهود أيضًا في التوراة.(خروج ١٥ /١-٢٢)

٢–وسائل التعذيب في زمن فرعون

قال تعالى مصوّرًا ما حدث من تحدّ بين سحرة فرعون وموسى عليه السلام، وكيف آمن السحرة بالله وحده وكفروا بفرعون لما انبهروا بمعجزة العصا التي تحوّلت إلى حيّة حقيقيّة؛ فقرّر فرعون الانتقام منهم : {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}[طه:٦٥-٧١]

ذكر القرآن الكريم هاهنا وسائل التعذيب في زمن فرعون، وقد نشر الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف نصًا ورد في معبد عمدا من بلاد النوبة المصرية يصوّر وسائل التعذيب في زمان فرعون، وهو يرجع إلى السنة الرابعة من عهد مرنبتاح[٢] (حوالي سنة ١٢٢٠ ق.م)، وهو يؤكّد أنّ مرنبتاح قد عذّب الناس بقطع من خلاف وصلب[٣]، ولا بدّ من الملاحظة في هذا المقام، أنّ القرآن قد انفرد بذكر إيمان السحرة، بالله سبحانه، وهو ردّ فعل منطقي من قوم امتهنوا السحر، فلما جاءهم من بزّهم في ما برعوا فيه، وعلموا أنّ ما قام به هو أعظم ممّا صنعوا، وأنه حقّ لا مجرّد خيال، أسلموا لله ربّ العالمين..

والسؤال الذي نواجه به المنصّرين هو: لِمَ يورد القرآن هذه الواقعة ويعقبها بذكر حقيقة تاريخية ما كان يعلمها الناس ذاك الزمان ولم ترد في التوراة، إلا أن تكون وحيًا من الحقّ سبحانه؟!

٣–صعود فرعون إلى السماء

قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَاب أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَاب}[غافر:٣٦] ، يتحدّث اليوم

---

(١) –محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم، ٢/ ٣١١-٣١٢

(٢) –رجّح العديد من النقاد كما سبق، أن ((مرنبتاح)) هو فرعون الخروج.

(٣) –انظر، أحمد عبد الحميد يوسف، مصر في القرآن والسنة، ص ١١٠، و A. A. Joussef, *Merenptah's Fourth year at Amada*, ASAE,I. VIII, 1964, P. 237 (نقله، د. محمد بيومي مهران، دراسات تاريخيّة في القرآن الكريم، ٢/٢٠٠)

علماء المصريات عن اعتقاد كان راسخًا عند الفراعنة أنّه بإمكان الفرعون أن يصعد إلى السماء على سلّم أو برج ليرى الآلهة هناك؛ ويؤكد ألن ف. سجال (Alan F. Segal) هذه الحقيقة بقوله: (تظهر العديد من الكتابات في نصوص الأهرامات أنّ الفرعون يصعد إلى السماء باستعمال سلّم. ن. يصعد على سلّم أعدّه له أبوه (رع). أوصنعت (الآلهة) سلّمًا لـ (ن) ليصعد به إلى السماء.)[١] وقد أشار الباحث بيتري إلى تفشّي (الفكرة الدينية في الرغبة في الصعود إلى الآلهة في السماء) في مصر الفراعنة.[٢] ،ويذهب الكثير من علماء المصريات إلى أنّ الاعتقاد عند قدماء المصريين كان على أنّ الأهرامات ذاتها وسيلة الفرعون لبلوغ السماء.[٣]

٤-حفظ القمح في سنبله

قال تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُون قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُون ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُون ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُون}[يوسف:٤٥-٤٩] .

تفرّد القرآن الكريم بذكر خبرٍ في قصة يوسف لم يرد في التوراة، والناظر في هذه الزيادة قد لا يرى لها-من وجهة نظره-أهميّة خاصة، ولكنّ الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم، يأبى إلا أن يجعل نور الإعجاز يسري في آي القرآن مدى الزمان، ونحن اليوم قادرون على أن نفهم إحدى حكم إيراد هذه الزيادة التي تمثل مقطعًا من قصة يوسف غفلت عنه التوراة اليهودية-النصرانيّة.

المقطع هو نصح يوسف عليه السلام لملك مصر أن يحفظ الحبّ في سنبله، رغم أنّ أهل مصر ما كان من عادتهم أن يفعلوا ذلك عند التخزين. وجليّ أنّ الغاية من هذه الوسيلة في الحفظ هي الإبقاء على القيمة الغذائية والصحيّة للحبّ أيام التخزين للاستفادة منه عند المجاعة التي ستجتاح البلاد وقد قدّم أحد الباحثين[٤] في مؤتمر الإعجاز العلمي في الكويت[٥] بحثًا عن جانب الإعجاز في ما ورد على لسان يوسف عليه السلام فقال : (إن الذي يوقفنا في الآية الكريمة ملحوظتان علميتان:

١ . تحديد مدة صلاحية حبة الزرع في خمس عشرة سنة هي حصيلة سبع سنوات يزرع الناس ويحصدون خلالها دأبًا وتتابعًا وهي سنوات الخصب والعطاء، يليها سبع سنوات شداد عجاف هي سنوات الجفاف، يليها سنة واحدة هي السنة الخامسة عشرة وفيها يغاث الناس وفيها يعصرون من الفواكه، وقد أفاد البحث العلمي أن مدة ١٥ سنة هي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو والتطور فيها.

٢ . طريقة التخزين وهو قوله تعالى {فذروه في سنبله} وهي الطريقة العلمية الأهم في بحثنا: وفي إطار ترك البذور أو الحبوب في السنابل . قمنا ببحث تجريبي مدقق حول بذور قمح تركناها في سنبله لمدة تصل إلى سنتين مقارنة مع بذور مجردة من سنابلها، وأظهرت النتائج الأولية أن السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير صحي وبقيت حالتها ١٠٠%.

---

(١) - Alan F. Segal, Life After Death: A history of the afterlife in the religions of the West, New York : Doubleday, 2004, p.38

(٢) - د. لؤي فتوحي ود. شذى الدركزلي، التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم، تاريخ بني إسرائيل المبكّر، لندن: دار الحكمة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص١٣٣

(٣) - انظر؛ Jon Manchip White, Everyday Life in Ancient Egypt, Courier Dover Publications, 2003, p.47; Brian M. Fagan, From Stonehenge to Samarkand: an anthology of archaeological travel writing, New York : Oxford University Press, 2006, p.10, Emmet John Sweeney, The Genesis of Israel and Egypt, Algora Publishing, 2008,1/32

(٤) -د. عبد المجيد بلعابد. ، وقد كشف هذا السبق العلمي أيضا د. محمد جمال الدين الفندي منذ بضعة عقود في كتابه ((الإسلام وقوانين الوجود))، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص ١٢٧

(٥) -انعقد في تاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٦

مع العلم أن مكان التخزين كان عاديًا ولم تراع فيه شروط الحرارة أو الرطوبة أو ما إلى ذلك. وفي هذا الإطار تبين أنّ البذور التي تركناها في سنابلها فقدت كمية مهمة من الماء وأصبحت جافة مع مرور الوقت بالمقارنة مع البذور المعزولة من سنابلها، وهذا يعني أن نسبة ٢٠,٣% من وزن القمح المجرد من سنبله مكون من الماء مما يؤثر سلبًا على مقدرة هذه البذور من ناحية زرعها ونموها ومن ناحية قدرتها الغذائية لأن وجود الماء يسهل من تعفنه وترديه صحي.

ثم قمنا بمقارنة مميزات النمو (طول الجذور، وطول الجذوع) بين بذور بقيت في سنبلها وأخرى مجردة منها لمدة تصل إلى سنتين؛ فتبين أن البذور في السنابل هي أحسن نموًا بنسبة ٢٠% بالنسبة لطول الجذور و٣٢% بالنسبة لطول الجذوع. وموازاة مع هذه النتائج قمنا بتقدير البروتينات والسكريات العامة التي تبقى بدون تغيير أو نقصان؛ أما البذور التي تعزل من السنابل فتنخفض كميتها بنسبة ٣٢% من البروتينات مع مرور الوقت بعد سنتين وبنسبة ٢٠% بعد سنة واحدة.

وبهذا يتبين في هذا البحث أن أحسن وأفضل تخزين للبذور هي الطريقة التي أشار بها ((يوسف)) عليه السلام وهي من وحي الله. ومن المعلوم أن هذه الطريقة لم تكن متّبعة في القدم وخاصة عند المصريين القدامى الذين كانوا يختزنون الحبوب على شكل بذور معزولة عن سنابلها؛ وهذا يعتبر وجهًا من وجوه الإعجاز العلمي في تخزين البذور والحبوب في السنابل حتى لا يطرأ عليها أي تغير أو فساد مما يؤكد عظمة الوحي ودقة ما فيه من علم.)[١]

٤–القرآن الكريم يصحح الأخطاء العلميّة للكتاب المقدس

لم تكن البلاد العربيّة عرضة للأفكار العلميّة المتطوّرة في الإمبراطوريتين الرومانيّة والفارسيّة، نتيجة غياب التواصل المعرفي بينهما، وبساطة أنماط الحياة الصحراوية التي تعتمد على التجارة البينيّة ورعي الإبل وزراعة النخيل، والاعتقاد في الآلهة أنّها تورث الخصب والصحّة والثراء؛ إذ في غضبها ورضاها تفسير الظواهر الكونيّة في البشر والبيئة، في ظلّ هذه الظروف، يستدعي العقل القول إنّ القرآن لن يجد حرجًا في نقل أفكار أهل الكتاب مادامت لا تجد مخالفة من علم عربي ثابت في بيئة الصحراء، إن صحّ الزعم بدعوى الاقتباس من أسفار أهل الكتاب.. ولكن عند النظر فيما ورد في القرآن الكريم؛ يستبين الناظر أنّ القرآن خالف صراحة أو ضمنًا أفكارًا علميّة خاطئة في الكتاب المقدس، وسنستعرض هنا بعضها تمثيلًا لهذه الحقيقة بعد أن نعلن الحقيقة التي كشفتها ترجمة أورشليم للكتاب المقدس، وتبنّتها ترجمة الرهبانيّة اليسوعيّة العربيّة في هامشها الأول المتعلّق بقصّة الخلق في سفر التكوين وهي أنّ: (النصّ يستند إلى علم لا يزال في عهد الطفولة. فلا حاجة إلى التفنن في إقامة التوافق بين هذه الصور وعلومنا العصريّة.)[٢] إنّ الكتاب المقدس يقدّم لنا الطفولة الساذجة للعلم البدائي الغرّ!! وشهد شاهد من أهلها!

١–شكل الأرض بين الكتاب المقدس والقرآن

جاء التصريح في الكتاب المقدس أن الأرض مسطحة ولها أركان أربعة، في مقابل كروية الأرض في القرآن الكريم ودلّت السنّة الشريفة على نفس الأمر وأجمع أهل الإسلام منذ القرون الأولى على هذه الحقيقة؛ يقول ابن تيمية: (ثبت بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة أن الأفلاك مستديرة قال الله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }[فصلت:٣٧] وقال: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون }[الانبياء:٣٣] {لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون}[يس :٤٠] قال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل هكذا هو في لسان العرب: الفلك الشيء المستدير، ومنه يقال: تفلّك ثدي الجارية إذا استدار،

(١) –نشر هذا البحث موقع "الهيئة العالميّة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة" http://www.nooran.org/O/١٠/١٠-١٢htm.
(٢) –ترجمة الرهبانيّة اليسوعية، ط٣، بيروت: دار المشرق، ١٩٩٤م، ص ٦٨

قال تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [الزمر:٥]، والتكوير: هو التدوير، ومنه قيل: كار العمامة، وكورها إذا أدارها، ومنه قيل للكرة كرة، وهي الجسم المستدير، ولهذا يقال للأفلاك: كروية الشكل)[١]

وقال: (السموات مستديرة عند علماء المسلمين، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام: مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي أحد الأعيان الكبار من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمائة مصنف، وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية، وإن كان قد أقيم على ذلك أيضًا دلائل حسابية.)[٢]

٢-أعمدة السماء: تعتبر الجبال في الكتاب المقدس أعمدة تحمل قبّة السماء حتى لا تقع على الأرض أوردتها ترجمة The Revised Standard Version وهو نفس الاعتقاد الذي كان شائعًا في الأدبيات المصريّة القديمة والأكاديّة واليونانيّة[٣] وأهمّ النصوص الكتابيّة الدالة على هذا الأمر ما جاء في سفر أيوب ١١/٢٦: (من زجره ترتعش أعمدة السماء وترتعد من تقريعه) يقول التعليق على الكتاب المقدس Eerdmans Commentary on the Bible في هذا النص: (أعمدة السماء في العدد ١١ هي الجبال التي تحمل السماء)[٤]

لا نجد البتّة في القرآن الكريم حديثًا عن دور الجبال في إمساك السماء، رغم وفرة الآيات التي تصف الجبال ووظائفها، وإنّما نجد في القرآن الكريم نفيًا لوجود أعمدة ماديّة تمسك السماء: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ} [لقمان:١٠]، لقد جمعت هذه الآية بين حقيقتين تهدمان خرافة الكتاب المقدس: الأولى: غياب أعمدة من الممكن أن تبصرها العين، تمسك السماء، الثانيّة: أنّ وظيفة الجبال هي تثبيت الأرض لا إمساك السماء.

٣-الأرض الثابتة: جاء في مزمور ١/٩٣: (الرب قد ملك مرتديًا الجلال. متنطقًا بحزام القوة. الأرض تثبتت فلن تتزعزع.) ومزمور ٥/١٠٤: (المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد)، وأخبار الأيام الأوّل ٣٠/١٦: (ارتعدي أمامه يأكل الأرض، هو ذا الأرض قد استقرت ثابتة.) فقد قرّرت النصوص السابقة أنّ الأرض ثابتة لا تتحرك، في حين جاء النص القرآني في إثبات أنّ كلّ شيء يسير في خط متفلّك (دائري)، قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون} [الانبياء:٣٣]. تثبت هذه الآية أنّ الأرض متحركة غير جامدة من أوجه:

أولا: الليل والنهار هنا ظرفا زمان، كناية عن ظرف المكان وهو الأرض إذ إنّ الليل والنهار لا يتحركان في خط دائري، وإطلاق الظرف وإرادة المحل والمكان من معهود القرآن الكريم ولغة العرب.

ثانيا: جاء الفعل في صيغة الجمع (يسبحون)؛ بما يؤكد أن مُتعلَّقه جَمْعٌ؛ وهو: الشمس+ القمر+ ما دلّ عليها الليل والنهار؛ وهو الأرض.

ثالثا: استعمال لفظ خلق لا جعل في الحديث عن الليل والنهار رغم أنهما عرض لا جوهر؛ بما يؤكد أنّ المعنى المقصود هو الأرض المتحركة التي يصدق عليها لفظ الخلق. وقال تعالى {وترى الأرض تحسبها جامدة وهي تمر مرّ

---

(١) -ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المدينة المنوّرة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ١٩٣/٢٥-١٩٤

(٢) -ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٨٦/٦

(٣) -التفصيل: http://www.bibleandscience.com/bible/books/genesis/genesis_pillarsheaven.htm (1/5/2010)

(٤) - James D. G. Dunn and J. W. Rogerson eds. *Eerdmans Commentary on the Bible*, Michigan: W.B. Eerdmans, 2003, p.348

السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء} [النمل:٨٨] فالأرض يحسبها من عليها جامدة لا تتحرك لكنها في الحقيقة تمر مرّ السحاب أي تتحرك كالسحاب في الفضاء.

٤-الجبال: يقرّر الكتاب المقدس أنّ الأرض قائمة على جبال تحملها من تحتها؛ فقد جاء في ١ صموئيل ٢/٨: (ينهض المسكين من التراب، ويرفع البائس من كومة الرماد، ليجلسه مع النبلاء، ويملكه عرش المجد، لأن للرب أساسات الأرض التي أرسى عليها المسكونة.) ولما وصف النبي يونان غرقه قال: (قَدِ اكْتَنَفَتْنِي مِيَاهٌ إِلَى النَّفْسِ. أَحَاطَ بِي غَمْرٌ. الْتَفَّ عُشْبُ الْبَحْرِ بِرَأْسِي. نَزَلْتُ إِلَى أَسَافِلِ الْجِبَالِ. مَغَالِيقُ الأَرْضِ عَلَيَّ إِلَى الأَبَدِ .ثُمَّ أَصْعَدْتَ مِنَ الْوَهْدَةِ حَيَاتِي أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي.) (يونان٢/٥-٦) لقد وجد يونان نفسه تحت أسافل قصبيم جمع قاع أسفل قصب[١]

- الجبال؛ فالجبال هي مجرّد نتوء على وجه الأرض، وبإمكان المرء أن يرى قاع الجبل من البحر، إذ الأرض قائمة على المياه؛ فقد جاء في مزمور ٦/١٣٦: (الباسط الأرض فوق المياه، لأن رحمته إلى الأبد تدوم) ومزمور ٢٤/١-٢: (للرب الأرض وكل ما فيها. له العالم، وجميع الساكنين فيه؛ لأنه هو أسس الأرض على البحار، وثبتها على الأنهار)، علّق الناقد Julius A. Bewer[٢] على نصّ يونان ٢/٦ بقوله: اعتقد اليهود أنّ الأرض مؤسّسة على محيط مائي أسفلها، المزمور ٢٤/٢، وأنّ نهايات الجبال، أعمدة الأرض، تمتد عمقًا إلى الأسس. انظر مزمور ١٨/١٦[٣]

الجبال في القرآن الكريم ليست أعمدة للسماء، وإنّما هي تمسك الأرض حتى لا تضطرب أو تميد راجع المبحث الرابع لهذا الدليل : {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادً وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}[النبأ:٦-٧] {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُون}[النحل:١٥] ، {وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُون}[الانبياء:٣١] ، {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُور}[الملك:١٦]

وهنا: وصف القرآن الكريم الجبال أنّها مثل الوتد، وهو قطعة من الخشب أو الحديد تغرز في الأرض لتشدّ الخيمة، ويكون جزؤها الأكبر مخفيًا تحت الأرض بيّن القرآن الكريم وظيفتها وهي حفظ الأرض من أن تميد، أظهر القرآن الكريم أنّ باطن الأرض يحمل طبيعة مضطربة غير ساكنة، يشهد العلم الحديث اليوم على دقّة هذه الأوصاف الثلاثة[٤] التي لم تعرف إلا منذ بضعة عقود بعد دراسات جادة من العلماء المتخصصين. [٥]

٥-السحب الصلبة: جاء في سفر أيوب ٨/٢٦: يصرّ المياه في سحبه فلا يتخرق الغيم تحتها جاء في شرح هذا النص في التعليق على الكتاب المقدس Eerdmans Commentary on the Bible: ((اعتبرت السحب هنا كالسقاء (waterskin) الذي يحمل في داخله الماء، وبصورة خارقة لم يتمزّق)[٦] فالسحب عند كاتب هذا السفر تختزن الماء في داخلها كما يختزن السقاء المصنوع من جلد الحيوانات الماء، ثم تحمله إلى مسافات بعيدة دون أن يسقط

---

(١) -عرّفها المعجمي ((ويليم جزنيوس)) في هذا السياق بـ((نهاية)) ((أسفل)) (William Gesenius, A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, tr. Edward Robinson, ed. Francis Brown, Oxford: Clarendon Press, 1907, p.891)

(٢) - جوليوس أ. بور : أستاذ الفيلولوجيا الكتابيّة في ((Union Theological Seminary)) بنيويورك.

(٣) - Julius A. Bewer, A critical and Exegetical Commentary on Haggai, Zechariah, Malachi and Jonah, A Critical and Exegetical Commentary on Jonah, New York: Charles Scribner, 1912, p.46

(٤) -وظيفة الجبال في حفظ الأرض من أن تميد قال بها العالم الأمريكي ((فرنك برس)) ((Frank Press)) الرئيس السابق للأكاديميّة الأمريكيّة للعلوم، في كتابه ((أرض)) ((Earth)) الذي هو من الكتب المقررة في عدد من جامعات العالم في دراسة الجيولوجيا (انظر؛ Frank Press, and Raymond Siever, Earth, 3rd ed. San Francisco: W. H. Freeman & Company, 1982)، ولم يشع بعدُ القول بهذا الأمر بين المتخصصين في الجيولوجيا.

(٥) - Z. R. El-Naggar, the Geological Concept of Mountains in the Qur'an, Cairo: Al-Falah Foundation, 1424/2003 ، زغلول النجار، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، الأرض، بيروت: دار المعرفة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص ٢٠١-٢١٥

(٦) - James D. G. Dunn and J. W. Rogerson eds. Eerdmans Commentary on the Bible, Michigan: W.B. Eerdmans, 2003, p.348

منه شيء، بصورة معجزة! ويؤكد الحبر اليهودي العَلَم (راشي) هذا المعنى في تعليقه على هذا النص بقوله عن الغيم إنّه لا يتمزّق (أبدًا حتّى ينزل ماؤه جميعًا مع بعض).

في مقابل هذا التصوّر البدائي الساذج لطبيعة السحب، يقرر القرآن الكريم أنّ السحب تُنزل الماء مباشرة بعد تكوّنه فيها، في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ}[النور:٤٣]، يكشف استعمال حرف الفاء الذي يدل على التعاقب السريع، أنّه ما إن تتراكم السحب وتصبح ذات طبيعة ماطرة حتى ينزل (الودق) أي المطر![١]

٦–نشأة اللغات

يفسّر الكتاب المقدّس تعدد لغات البشر تفسيرًا خرافيًا بقوله: (وَكَانَ أَهْلُ الأَرْضِ جَمِيعًا يَتَكَلَّمُونَ أَوَّلًا بِلِسَانٍ وَاحِدٍ وَلُغَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِذِ ارْتَحَلُوا شَرْقًا وَجَدُوا سَهْلًا فِي أَرْضِ شِنْعَارَ فَاسْتَوْطَنُوا هُنَاكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَيَّا نَصْنَعُ طُوبًا مَشْوِيًّا أَحْسَنَ شَيٍّ فَاسْتَبْدَلُوا الْحِجَارَةَ بِالطُّوبِ، وَالطِّينَ بِالزِّفْتِ ثُمَّ قَالُوا: هَيَّا نُشَيِّدْ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا يَبْلُغُ رَأْسُهُ السَّمَاءَ، فَنُخَلِّدَ لَنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَشَتَّتَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ كُلِّهَا وَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَشْهَدَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ شَرَعَ بَنُو الْبَشَرِ فِي بِنَائِهِمَا فَقَالَ الرَّبُّ: إِنْ كَانُوا، كَشَعْبٍ وَاحِدٍ يَنْطِقُونَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، قَدْ عَمِلُوا هَذَا مُنْذُ أَوَّلِ الأَمْرِ، فَلَنْ يَمْتَنِعَ إِذًا عَلَيْهِمْ أَيُّ شَيْءٍ عَزَمُوا عَلَى فِعْلِهِ هَيَّا نَنْزِلْ إِلَيْهِمْ وَنُبَلْبِلْ لِسَانَهُمْ، حَتَّى لاَ يَفْهَمَ بَعْضُهُمْ كَلاَمَ بَعْض وَهَكَذَا شَتَّتَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ كُلِّهَا، فَكَفُّوا عَنْ بِنَاءِ الْمَدِينَةِ، لِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْمَدِينَةُ بَابِلَ لأَنَّ الرَّبَّ بَلْبَلَ لِسَانَ أَهْلِ كُلِّ الأَرْضِ، وَبِالتَّالِي شَتَّتَهُمْ مِنْ هُنَاكَ فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ كُلِّهَا.) (تكوين ١١/١–٩)

وهنا: تصوّر شنيع لصفات الخالق سبحانه: تظهر هذه القصّة الخرافيّة الإله المعبود في مقام من يخشى أن يبلغ خلقه مرتبته في القوّة والسلطان إن اجتمعوا واتّحدوا وقَويت بيضتهم وهذا تصوّر منكَر للألوهيّة قريب ممّا كان يرد في الأساطير اليونانيّة والشرقيّة حيث الحسد والصراع بين الآلهة فيما بينها، أو بين الآلهة والبشر!

أضف الفهم الخاطئ لمعنى اسم مدينة بابل: كلمة بابل ليست من بالل العبريّة التي هي اختزال لكلمة بلبل العبريّة[٢] بمعنى بلبل ومزج وإنّما هي تعني باب إل أي باب الربّ وكما يقول Gerhard Von Rad: (هذا التفسير لكلمة بابل هو بداهة لا معنى له إتيمولوجيًا إنّه اختلاق شعبي إذ إنّ بابل تعني باب الله[٣]، وقد كان الاسم في الأكاديّة باب إلو بنفس المعنى السابق، قبل أن يسيء مؤلّف سفر التكوين فهمه، أو يزيّف معناه![٤]

يقول د. حسن ظاظا[٥]: وقد اتفق كل الباحثين المحدثين، في أوروبا المسيحيّة، وفي الأوساط اليهوديّة المستنيرة، على اعتبار هذه القصّة أسطورة شعبيّة لا تحكي واقعًا تاريخيًا بقدر ما تلتمس تعليلًا فنيًا لاختلاف الألسنة واللغات. فالسير جيمس جورج فريزر يفرد لها فصلًا كاملًا في كتابه الكبير الفلكلور في العهد القديم، فيتتبع بالنقد والتحليل تطور هذه الأسطورة منذ الوثنيات القديمة، ويقول: إن العلاقة اللغوية بين أمم بابل وبين بلبلة الألسن ليست إلا من الخيال الشعبي، إذ إن الثابت علميًا أن كلمة بابل أصلها في اللغة البابلية نفسها (باب– إلو)، ومعناها باب الله، أو باب الآلهة؛

---

(١) –قال الشيخ المفسّر ((ابن عاشور)): ((وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر، وهو الذي اقتصرت عليه دواوين اللغة.)) (التحرير والتنوير، ٩/٢٦١)

(٢) –انظر؛ George James Spurrell, *Notes on the Hebrew Text of the Book of Genesis*, Oxford: Clarendon Press, 1887, p.118

(٣) – Gerhard Von Rad, *Genesis: A Commentary*, Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1972, 3rd edition, p. 150

(٤) –انظر؛ William Ricketts Cooper, *An Archaic Dictionary*, London : S. Bagster and Sons, 1876 , p.116

(٥) –حسن ظاظا (1420 1337هـ ١٩١٩–١٩٩٩م): من أعلام المتخصصين العرب في الدراسات اليهوديّة. حصل على الماجستير في الأدب العبري والفكر اليهودي من الجامعة العبرية بالقدس في فلسطين، ودكتوراه الدولة من جامعة السربون. له عدد من الكتب والمقالات في اليهوديّة واللغات ونشأتها.

لأنّ بابل كانت مدينة مقدسة، وكان سكان العراق القديم يحجون إلى معبدها الكبير؛ ولأن المعبد البابلي كان يتميز دائمًا ببرج ضخم مرتفع مبني في صحنه يسمى (زقورة) أو (زجورة)، ظن القدامى من الآراميين واليهود أن هذا البرج شيده الكفار تحديًا لله أو—كما ينقل عنهم فريزر–إنهم اعتقدوا أن بإمكانهم، من هذا البرج، أن يصوّبوا السهام والحراب التي تنطلق نحو السماء فتدمر مملكة الله العليا. وقد حكوا في ذلك خرافات نقلها فريزر عن لويس جنزبرج في كتابه أساطير اليهود: منها أنهم زعموا أن بعض هذه السهام كان إذا أطلق نحو السماء عاد إلى الأرض مخضبًا بالدم ومنها أن هؤلاء الكفار من سكان بابل كانوا يريدون أن يصل ارتفاع البرج إلى السماء ليضعوا أصنامهم مكان الله ومنها أن برج بابل عندما تهدم غاص ثلثه في باطن الأرض، واحترق ثلث آخر بالنار، وبقي الثلث الأخير خرابًا، ومع ذلك فإن مكانه–كما زعموا–ما يزال محتفظًا بسر المعجزة، فكل من يمر عليه يفقد ذاكرته تمامًا وينسى كل شيء يعرفه. ومما لا شك فيه أن كل هذه الأساطير كان يبررها شيء واحد، هو غرابة هذه الصروح المعمارية البابلية الدينية في نظر أولئك البدو من الآراميين والعبريين، فربطوا ذلك بمحاولة تفسير تنوع اللغات الذي كان يبدو لهم غير متفق مع كون الجنس البشري كله يرجع إلى أب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء. فإذا ما انتقلنا إلى العالم الإسلامي وجدنا المسألة تأخذ أبعادًا فكرية أكثر اتساعًا)[١]

أمّا القرآن الكريم، فلا يتابع الكتاب المقدّس في شيء ممّا سبق، وإنّما يسوق أمر تعدد لغات الناس سَوق المنّ على البشر وإظهار فضل الله عليهم؛ بما ينفي بصورة تامة التفسير التوراتي الساذج؛ قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِين}[الروم:٢٢].. فتعدّد اللغات آية من آيات عظمة الخالق سبحانه وكفى وليس مظهرًا من مظاهر صراع الربّ مع البشر (!) وخوفه من اجتماعهم ضدّه!!

٧–مراحل خلق الجنين:

جاء في سفر الحكمة٢ ٢/٧: (وفي مدة عشرة أشهر تكونت في الدم من زرع رجل ومن اللذة التي تصاحب النوم.) هذا النص ما قرّره الطب اليوناني الأرسطي من أنّ الجنين ينشأ من دم الحيض، وهي النظريّة التي هيمنت على الفكر اليهودي والنصراني منذ زمن مبكّر وحتى قرون قريبة وجاء في سفر أيوب١٠/٩–١١: (اذكر أنك جبلتني من طين، أترجعني بعد إلى التراب؟ ألم تصبّني كاللبن وتخثرني كالجبن؟ كسوتني جلدًا ولحمًا، فنسجتني بعظام وعصب)، هذا هو النصّ المفضّل عند آباء الكنيسة لشرح تكوّن الجنين[٣]، وقد لخّص الناقد نورمن هابل[٤] معناه بقوله: شُكّل الجنين من الطين، صُبّ المني كالحليب، وجُمّد كالجبن، كسي بالجلد واللحم، وأخيرًا نُسِج بالعظام والأعصاب.[٥] ، في هذا النص مجموعة أخطاء علميّة:

أولًا: يُفهم من هذا النص أنّ الجنين يتكون فقط من مني الرجل الذي يُصب في الرحم، وليس لنطفة المرأة دور

ثانيًا: يُفهم من هذا النص أنّ الجنين يتكوّن من كامل المنيّ الذي يقذفه الرجل.

ثالثًا: يُفهم من المعنى الحرفي لهذا الحديث أنّ أوّل مرحلة من مراحل تكوّن الجنين، هي تحوّل المني السائل إلى كتلة جامدة، وقد علّق الكثير من النقّاد على هذا النص بقولهم إنّ المقصود هو أنّ مني الرجل عندما يلتقي بدم الحيض عند المرأة يحوله إلى كيان صلب متخثّر، ويشهد على ذلك النص السابق من سفر الحكمة ٢/٧، وهو المعنى الطبي الذي كان

---

(١) –حسن ظاظا، اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة، دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص ٤٧–٤٨

(٢) –سفر الحكمة: يؤمن بقداسته النصارى الكاثوليك والنصارى الأرثوذكس

(٣) –انظر هامش: *Ante Nicene Fathers*, Buffalo: The Christian Literature Publishing Company, 1887, 3/538

(٤) –نورمن هابل (ولد سنة ١٩٦٤م): أستاذ في جامعة جنوب أستراليا، محرّر كتاب (*The Earth Bible*).

(٥) –Norman Habel, *The Book of Job: a commentary*, Philadelphia: Westminster John Knox Press, 1985, p.119

سائدًا في البيئة التي كتب فيها هذا السفر ولذلك جاء تعليق ترجمة أورشليم للكتاب المقدس على هذا النص –وقد تبنّته ترجمة الرهبانيّة اليسوعيّة العربيّة–: (كان العلم الطبي القديم يتصوّر تكوّن الجنين كتجمّد دم الأم بتأثير عنصر الزرع)[١][٢]، وقد أكّد ترتليان[٣] هذا المعنى بقوله في كتابه حول جسد المسيح[٤] أنّ الزرع الذي يتكوّن منه الجنين ليس إلاّ دمًا ولونًا، ويتخثّر هذا الدم بفعل منيّ الرجل.

رابعًا: يُفهم من هذا النص أنّ المنيّ المتجّمد أو الدم المتجمّد يتحول إلى الهيئة الأولى للجنين.

خامسًا: يُفهم من هذا النص أنّ تلك الكتلة تكسى أولًا بالجلد واللحم.

سادسًا: يفهم من هذا النص أنّه بعد تكوّن الجلد واللحم (يُنسج) الرضيع بالعظام والأعصاب، هذا النص في الحقيقة ليس إلاّ تكرارًا لما قاله أرسطو في كتابه (حول ولادة الحيوانات).

في المقابل: قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[الإنسان:٢]، قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِين}[السجدة:٨] قال تعالى:{أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى} [القيامة:٣٧] قال رسول الله: (ما من كل الماء يكون الولد.)[٥] قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين}[المؤمنون:١٢-١٤] النصوص السابقة، تخالف منصوص الكتاب المقدس النصراني ومفهومه، وتوافق آخر ما توصّل إليه العلم وثبت بالعين الباصرة:

أولا: يفهم من هذه النصوص أنّ الجنين يتكوّن من اختلاط مني الرجل بنطفة المرأة، وليس لدم المرأة دور في الولادة، والقرآن والسنّة قاطعان هنا في مخالفة التصوّر الأرسطي/التوراتي، وقد قال الإمام ابن حجر: (وزعم كثير من أهل التشريح أنّ مني الرجل لا أثر له في الولد إلاّ في عقده وأنّه إنّما يتكوّن من دم الحيض وأحاديث الباب (أي الموضوع) تُبطل ذلك[٦]

ثانيًا: يفهم من هذه النصوص أنّ الجنين يتكون من جزء ضئيل من مني الرجل الذي يشارك نطفة المرأة عمليّة التكوين؛ فهو جزء صغير مستخلص (سلالة) من ماء الرجل.

ثالثًا: يفهم من هذه النصوص أنّ أوّل مرحلة من مراحل تكوّن الجنين هي اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة، ثم انتقالهما إلى مرحلة (العلقة) التي تعني: (١) قطعة الدم المتجمّدة، وهي أيضًا (٢) (علقة) لأنّها تعلق في الرحم، كما أنّها (٣) من ناحية الشكل تشبه دودة العلق.

رابعًا: يفهم من هذه النصوص أنّ العلقة تتحوّل إلى مضغة حيث تتحوّل (العلقة) إلى ما يشبه قطعة لحم ممضوغ عليها طبعات الأسنان.

خامسًا: يفهم من هذه النصوص أنّ العظام تتكوّن قبل اللحم.

سادسًا: يفهم من هذه النصوص من خلال استعمال حرف (الفاء) الذي يفيد التعاقب السريع أنّ المراحل السابقة تتم في أوقات متقاربة. وأنّ مرحلة الانتقال إلى الخلق القريب من مرحلة الوضع تستغرق وقتًا أطول، بدلالة حرف (ثمّ) الذي يفيد الترتيب مع التراخي.

---

(١) –ترجمة الرهبانيّة اليسوعيّة، ص١٠٦٥

(٢) *La Bible de Jerusalem*, Éditions du Cerf, 1973, p.664-

(٣) –ترتليان: (١٦٠م–٢٢٠م) من أوائل اللاهوتيين النصارى. عرف باهتمامه بالدفاع عن النصرانية والردّ على من اعتبرهم ((هراطقة)). يعتبر أحد المراجع اللاهوتية الكبرى للكنائس التقليديّة. يلقّبه الكثير من أعلام النصارى الأرثوذكس المصريين بـ((العلاّمة)).

(٤) De Carne Christi. 19. 3 -

(٥) –رواه مسلم، كتاب النكاح، باب حكم العزل، ح/١٤٣٨

(٦) –ابن حجر، فتح الباري، ٤٨٠/١١

وقد شهد لإعجاز الآيات السابقة العديد من علماء الأجنة من غير المسلمين، ومن أهمهم (كيث مور) (Keith Moore) الذي يعد اليوم من أئمة علم الأجنة في الغرب، وهو ليس بمسلم، ويقدّم شهادته من منطلق الإقرار العلمي البحت، وصرّح بحقيقة الإعجاز القرآني في كتابه الأكاديمي الذي اعتُمد كمقرر في جامعات غربيّة تدرّس الطب: (الإنسان المتطوّر) (The Developing Human) (١٩٨٨م) حيث قال بعد أن ذكر نظريات تطور الجنين عند الهندوس واليونان وفي التلمود: ((لقد كان تطور العلوم التطبيقة بطيئًا في القرون الوسطى، ونحن نعلم القليل عن بعض النقاط الهامة المسجلة حول دراسات علم الأجنة في تلك الفترة. ولقد ذُكر في القرآن (في القرن السابع الميلادي)، كتاب المسلمين المقدس، أنّ الإنسان يخلق من أمشاج إفرازي الذكر والأنثى وردت عدة إحالات إلى خلق الإنسان من "نطفة". كما قرّرت أن الخلايا الناتجة تستقر في الرحم كالبذرة لستة أيام بعد بداية تشكلها. تمّت الإشارة أيضًا إلى أنّ شكل الجنين في الطور المبكّر يشبه العلقة. وبعد ذلك ذكر بأن الجنين يُشبه الشيء الممضوغ.))[١] .

وكان قد كتب في مقدمة هذا الكتاب (طبعة ١٩٨٢م): (أذهلتني دقة التقريرات المسجّلة في القرن السابع بعد الميلاد، وذلك قبل تأسيس علم الأجنة. ومع أني كنت على وعي بتاريخ علماء المسلمين العظيم في القرن العاشر، وبعض ما قدموه لعلم الطب، لم أكن على علم البتة بالحقائق الدينية والمعتقدات الواردة في القرآن والسنة. ومن المهم أن يتعلم الطلبة المسلمون وغيرهم معاني العبارات القرآنية حول تطور نشوء الإنسان، بناءً على المعرفة العلمية المعاصرة)[٢]، وصرّح في المؤتمر الطبي الذي عقد في الدّمام سنة ١٩٨١م: (إنه لشرف عظيم لي أن أساعد في شرح بعض تقارير القرآن حول تطوّر الخلق البشري. ومن الواضح لدي بأن التقريرات القرآنيّة قد بلغت–قطعًا–محمدًا من الله؛ وذلك لأن كل تلك العلوم–تقريبًا– لم يتم اكتشافها إلا بعد قرون عديدة بعد ذلك. وهذا يثبت لي أنّ محمدًا هو قطعًا رسول من الله وأثناء فترة الأسئلة سئل مور: هل يعني ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام الله؟ فأجاب: لا أجد إشكالًا في قبول ذلك).[٣]

٨–في الخمر شفاء: قال بولس في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٢٣/٥: لا تشرب الماء فقط بعد الآن. وإنما خذ قليلا من الخمر مداويًا معدتك وأمراضك التي تعاودك كثيرا، هذا قول لا سند له من علم، فإنّ للخمر أضرارًا كثيرة جدًا متلفة للبنيان الجسدي للإنسان، فضلًا عما تحدثه في أخلاقه وسلوكه من فساد، سواء أكان الشرب بكميات كبيرة أو صغيرة![٤] .

وقد جاء النص القرآني في تبشيع الخمر وتقبيحه قبح الميسر وعبادة الأصنام: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون}[المائدة:٩٠] ،وجاء الحديث النبوي الشريف حاسمًا في قوله: إنه ليس بدواء ولكنّه داء.[٥] ، وأنّ ما أسكر كثيره؛ فقليله حرام. [٦] .

٩–النوم بسبب التهيج النفسي: جاء في إنجيل لوقا ٤٥/٢٢ في الحديث عن الفترة السابقة مباشرة للقبض على المسيح، وقد كان فيها المسيح وتلاميذه في حالة خوف؛ لأنهم يرقبون محنة قادمة: (ثم قام من الصلاة وجاء إلى التلاميذ، فوجدهم نائمين من الحزن) تعليلُ إنجيل لوقا للنوم السريع[٧] بـ(من الحزن) أبو تيس لوبيس، خطأ علمي جلي؛

---

(١) -Keith Moore, The Developing Human: clinically oriented embryology, Philadelphia: Saunders, 1988 p.8

(٢) -المصدر السابق طبعة ١٩٨١م، ص ١٠ نقله؛ Muzaffar Iqbal, Science and Islam, CT: Greenwood Publishing Group, 2007, p.163)

(٣) -Muzaffar Iqbal, *Science and Islam*, p.164

(٤) -انظر الدراسة العلميّة الشرعيّة؛ محمد علي البار، الخمر بين الطب والفقه، جده: الدار السعودية.

(٥) -رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر، ح/ (١٩٨٤)

(٦) -رواه الأربعة، وصححه ابن حبّان.

(٧) -ناموا في أقل من ساعة من وصولهم البستان (مرقس ٣٧/١٤) !!

إذ إنّ الإنسان عند الخوف تفرز عنده غدة الكظر –التي تقع فوق الكلية– هرمون الأدرينالين، مما يحدث عنده حالة تنبّه، لا استرخاء ونوم.(١)

في مقابل ذلك، نجد أنّ القرآن الكريم قد عدّ النوم عند الخوف معجزة لأنّ الأصل عند الخوف هو التنبّه والرعب لا النوم والأمن؛ فجاءت المعجزة بذلك في غزوة بدر خارقة للمألوف، مصادمة للأصل الطبيعي قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِين وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَام}[الأنفال:٩-١١] قال الشيخ الطاهر بن عاشور: (فإسناد الإغشاء أو التغشية إلى الله لأنه الذي قدر أن يناموا في وقت لا ينام في مثله الخائف، ولا يكون عامًّا سائرَ الجيش، فهو نوم منحهم الله إياه لِفائِدتهم.)(٢)

البحث الثالث: دلالة القرآن الذاتية أنه من عند الله (٣)

الجولة السابقة كانت في تصحيح القرآن لبعض آي الكتاب المقدس فالقرآن مهيمن على الكتب السابقة ومصدق لها ومصحح بنفس الوقت ونستمر في هذا البحث حول دلالة القرآن ذاتية، أنه خارج عن نفس محمد وأنه قانونه ومنهاجه الذي يسير عليه، وينزل عليه في أوقات مختلفة بحسب الوقائع لا كما يشتهي هو.

وصف هذا الكتاب نفسه فقال:{وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} [يونس:٣٧] أي لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله لأنه بفصاحته وبلاغته و وجازته وتأثيره وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لايشبه كلام المخلوقين ومن المعلوم أن كل شاعر متميز في بيتين أو قصيدة وليس في كل قصائده، أما القرآن فرغم أنه شامل على عدة مواضيع إلا إنه متميز ونادر في أسلوبه الفصيح من أوله لأخره وأن فصاحة العرب في شتى الأغراض والموضوعات لم تخل من الكذب حتى قيل: أحسن الشعر أكذبه، أما القرآن الكريم فجاء في غاية الفصاحة مع الصدق في جميعه، والتنزه عن الكذب، وهو مشتمل على جميع فنون البلاغة من ضروب التأكيد وأنواع التشبيه والتمثيل وأصناف الاستعارة، وحسن المطالع والمقاطع، وحسن الفواصل والتقديم والتأخير، والفصل والوصل اللائق بالمقام، وخلوه عن اللفظ الركيك والشاذ الخارج عن القياس النافر عن استعمال العرب ، وغير ذلك من أنواع البلاغة، فنظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم ، ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته، أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر، لا نبي ولا غير نبي. وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أمر به القرآن من الدين، والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبينه من الدلائل هو – أيضا — كذلك، ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية–

---

(١) Gerard J. Tortora and Sandra Reynolds Grabowski, Principles of Anatomy and Physiology, HarperCollins College Publishers, 7th ed, pp.511, 512, 557

(٢) –الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٧٨/٥ وكما نوهنا أول معظم هذا البحث مأخوذ عن كتاب الدكتور سامي العامري المذكور.

(٣) –أفكار البحث الأساسية عن كتاب د. محمد دراز "النبأ العظيم من ص: (٥٠-٨٥) وكتاب د. عبد المحسن المطيري " دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها دار البشائر بيروت ط١/٢٠٠٦ من ص :(١٨٥-٢١٤) بتعديل وإضافات.

التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء –وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم ، فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه.[١] تكتمل الفكرة في ١٣ بند :

١ – القرآن صريح في أنه "لا صنعة فيه لمحمد ، ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه"، والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد ، (تبرؤ محمد) من نسبة القرآن إليه ليس ادعاء يحتاج بينة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه ، في الحقيقة إن هذه القضية لو وجدت قاضيا يقضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينه، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، فأي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه، فالذي نعرفه أن كثيرا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب المستعارة؛ أما أن أحدا ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد.[٢]

٢ – لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية من مخالفة القرآن في عدة مواطن لرأيه الشخصي ولطبعه الخاص [٣] ومعاتبته على أخطائه مثل قوله تعالى: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم في ما أخذتم عذاب عظيم} [الأنفال:٦٧]، وقصتها معروفة ، وتنقل الآثار الصحيحة بكاء النبيّ عند نزولها لمعاتبة الله له، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطيب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول الكلام لو كان عن النفس مصدره يمكن أن يصدر عنها آخره ، ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟ كلا، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابا عن الأول ماحيا له، ولرجع آخر الفكر وفقا لما جرى به العمل. فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر المحو وتسجيله، على ما فيه من تقريع علني بغير حق، وتنغيص لهذه الطعمة "المكسب" التي يراد جعلها حلالا طيبا؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا ألبتة شخصيتين منفصلتين وأن هذا صوت سيد يقول لعبده: لقد أسأت ولكني عفوت عنك وأذنت لك[٤]

ومثل هذا قوله تعالى: {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين} [التوبة:٤٣] ، وقوله سبحانه: {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله

---

(١) –الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية (٤٣٣/٥) دار العاصمة السعودية ط١٩٩٩/٢

(٢) –د. عبد الله دراز، النبأ العظيم ص: ١٦

(٣) –القرآن والمستشرقون، لنقرة ص:٣٥، والمستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، محمد باقر الحكيم (ص:٥٠) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت

(٤) –النبأ العظيم، ص:٢٧ يعني أنه يجوز لولي الأمر بعد هذه الحادثة في الأسرى أن يفدي بهم أو يمن بالمجان أو يقتلهم، والحديث أخرجه مسلم (كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة فداء الإسرى، رقم ١٧٦٣).

مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ... } [الأحزاب:٣٧] ، قالت عائشة : ومن زعم أن رسول الله كتم شيئا من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته }ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه}(١)، وعن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي (يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال أنس: لو كان رسول الله كاتما شيئا لكتم هذه. قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي (تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات) (٢) .

إن مخالفة القرآن لطبع الرسول، وعتابه الشديد له في المسائل المباحة، وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه؛ فيخطئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه ، فإذا تلبث فيه يسيرا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي، والنقد المر، حتى في أقل الأشياء خطرا: {يا أيها النبي لما تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك} [التحريم: ١] ، {وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} [الأحزاب: ٣٧] ، {عفى الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين} [التوبة: ٤٣] ، {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} [التوبة: ١١٣] ، {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم} [الأنفال:٦٧-٦٨] ، {عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى، كلا} [عبس:٥-١٠] ،أرأيت لو أن هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه؛ أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بل إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتما شيئا لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه {وما هو على الغيب بضنين} [سورة التكوير الآية: ٢٤]) (٣) .

وقد أقر بهذا الدليل بعض المستشرقين، مثل المستشرق (ليتنر) حيث قال: (مرة أوحى الله إلى النبي وحيا شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلا غنيا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان محمد كاذبا -كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذلك الوحي من وجود) (٤).

٣ -موقف الرسول من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس الدلالات، ويأخذ بأرفق احتمالاتها: لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه كان إذا ترجّح بين أمرين ولم يجد فيهما إثما اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، وأبعدهما عن الغلظة والجفاء، وعن إثارة الشبه في دين الله لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحا، أو جاوزه خطأ ونسيانا، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيرا فتخير هبه مجتهدا أخطأ باختيار خلاف الأفضل، أليس معذورا ومأجورا؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمه بشرية وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية، هل ترى في ذلك ذنبا يستوجب عند

---

(١) -متفق عليه (البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: تفسير سورة النجم، رقم:٤٥٧٤، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل ولقد رآه نزلة أخرى، رقم:١٧٧) واللفظ لمسلم.

(٢) -أخرجه البخاري (كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم، رقم: ٦٩٨٤).

(٣) -د. دراز ، النبأ العظيم، ص:٢٤.

(٤) -دين الإسلام، للايتنر، ترجمة عبد الوهاب سليم (ص:١٣٢) ، المكتبة السلفية، دمشق، ١٤٢٣هـ.، وذكر أن لايتنر هو باحث انجليزي حصل على أكثر من شهادة دكتوراة في الشريعة والفلسفة واللاهوت،

العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟ توفي عبد الله بن أبي كبير المنافقين، فكفنه النبي في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال عمر: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال: إنما خيرني ربي فقال {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة} [التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين، وصلى عليه، فأنزل الله تعالى: {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره} [التوبة:٨٤] فترك الصلاة عليهم اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع وقد اتخذ من القرآن دستورا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرا له بين طريقين فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع. وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة؛ وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض بل تصدع بالبيان فرقانا بين الحق والباطل، وميزانا للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين، فترى بين المقامين ما بينهما، وشتان ما بين سيد ومسود، وعابد ومعبود. (١)

٤ –نسبة محمد القرآن إلى الله لا تكون احتيالا منه لبسط نفوذه، وإلا لَمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله (٢)، ولو أننا افترضناه افتراضا لما عرفنا له تعليلا معقولا ولا شبه معقول اللهم إلا شيئا واحدا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في (نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي) ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ، ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه. وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه.

أما أنه فاسد في ذاته، فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتها في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله ومعصيته من معصية الله فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه ، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء ، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} [يونس : ١٦] (٣).

وقد قدمنا أن النبي شهد بصدقه الصديق والعدو، وشهد بصدقه من عاشره ومن رآه لأول وهلة، ومن سمع به وبأخباره. ونزيد على ما سبق شهادة أكبر المعاندين في قريش ورأس الكفر وفرعون هذه الأمة أبو جهل فعن علي رضي

---

(١) –النبأ العظيم، ص:٢٨–٣٠ والحديث متفق عليه، البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، رقم:٤٣٩٣، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، رقم: ٢٤٠٠)

(٢) –شبهات حول القرآن وتفنيدها، د. غازي عناية، (ص:٢١)

(٣) –النبأ العظيم، ص:١٧–٢٠. و د . عبد المحسن المطيري دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم ص ١٩٦، دار البشائر بيروت ط٢٠٠٦/١

الله عنه أن أبا جهل قال للنبي: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} [الأنعام:٣٣][١] .

٥ – في بعض المواقف تكون حاجة النبي للقرآن شديدة، بل لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس؛ ومع هذا لم يتقوله ولم ينزل عليه شيء [٢]، مما يدلك على صدقه؛ إذ الكاذب لا يتأخر في افتراء الكذب عند الحاجة الماسة إليه، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

أ –عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهما صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور. فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ، فقالوا: يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله : «أخبركم غدا عما سألتم عنه» ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله له في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله (مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل {ويسألونك عن الروح قل الروح }[٣]

ب –فترة الوحي في حادث الإفك[٤]: ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه–عائشة رضي الله–عنها وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «إني لا أعلم عنها إلا خيرا» ثم إنه بعد بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله ، والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله»، هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءتها، ومصدرا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها ،فماذا كان يمنعه – لو أن أمر القرآن إليه – أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل؛ ليحمي بها عرضه ، ويذب بها عن عرينه ، وينسبها إلى

---

(١) –أخرجه الترمذي (كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الأنعام، رقم:٣٠٦٤) من طريقين مرفوعا عن علي رضي الله عنه ومرسلا عن ناجية بن كعب، ويتقوى بعضها ببعض لاسيما أن السيوطي في الدر المنثور (٢٦٤/٣) ذكر أن عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه أخرجوه عن أبي ميسرة.

(٢) –آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره د. عمر رضوان ١ / ٣٨٨ دار طيبة الرياض ط٢/ ١٩٩٢

(٣) –قال السيوطي في الدر المنثور (٣٥٧/٥): أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل.

(٤) –متفق عليه عن عائشة (البخاري: كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، رقم:٢٥١٨، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم:٢٧٧٠) النبأ العظيم، ص: ٢٠

الوحي السماوي ، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله {ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين} [الحاقة: ٤٤-٤٧]

ت -لقد كان النبي ﷺ يتحرق شوقا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام ولكن رب القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآنا ،على الرغم من تلهف رسوله الكريم إليه إلا بعد قرابة عام ونصف العام عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله (صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله {قد نرى تقلب وجهك في السماء} فتوجه نحو الكعبة ولو كان الوحي من تأليف النبي لما تأخر كل هذه المدة لشيء يحبه ويشتهيه ويتشوف إليه ويتحرق شوقا له ولكنه وحي الله ولا ينزل إلا بأمر الله وإذنه[١].

٦ -توقف الرسولﷺ أحيانا في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان: لقد كان يجيئه الأمر أحيانا بالقول المجمل ، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله ، حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد. قل لي بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلاما لا يفهم هو معناه، وتأمره أمرا لا يعقل هو حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟ وإليك بعض هذه الأمثلة:

المثال الأول: موقفه في قضية المحاسبة على النيات نزل قوله تعالى: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله} [البقرة: ٢٨٤] فأزعجت الصحابة إزعاجا شديدا، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها؛ فقالوا: يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم النبي: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله: {لا يكلف الله نفسا إلى وسعها آخر السورة المذكورة [٢]» وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار وموضع الشاهد منه أن النبي لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن ليتركهم لهذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رؤوف رحي، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها، ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان، ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى: {ثم إن علينا بيانه} [القيامة: ١٩]

المثال الثاني: مسلكه في قضية الحديبية: اقرأ في صحيح البخاري[٣] وغيره قضية الحديبية، ففيها آية بينة: أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم} [البقرة: ١٩٠] فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع. ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشا قد جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يثن ذلك من عزمهم؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة، بل زادهم ذلك استبسالا وصمموا على المضي إلى البيت فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد نهكتها الحروب فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه. وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بركت راحلة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت القصواء-أي

(١) -المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص:٥٦) ، والحديث متفق عليه (البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم:٣٩٩،ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم:٥٢٥)

(٢) -أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه لا يكلف إلا الوسع، رقم:١٢٥)

(٣) -البخاري أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، رقم:٢٥٨٣

حرنت الناقة–فقال النبي: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» يعني أن الله الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة. وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى ، فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالا لهذه الإشارة الإلهية ، التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلا: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ولكن قريشا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربا ولا مسالما، وأملت عليه شروطا قاسية بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسالما، وألا ترد هي أحدا يجيئها من المدينة تاركا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا.

فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيء في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضا ذهولا وغما، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين: لم نعطي الدنية في ديننا؟ وهكذا كاد الجيش يتمرد على إمرة قائده ويفلت حبله من يده. أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها؟

ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر: (إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري) يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن انفذ أمر مولاي واثقا بنصره قريبا أو بعيدا، وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح ، فبينت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة فإذا الذي ظنوه ضيما وإجحافا في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر وأين تدبير البشر من تدبير القدر؛ {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا، هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا} [الفتح: ٢٤-٢٧][1].

٧ – إخباره في هذا الكتاب بأمور تحصل بعد موته وعلوم لم تكن في عصره، وقد قيل: يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن لا يمكن أن تخدع كل الناس كل الوقت، فلنفرض أن النبي استطاع أن يخدع كل من كان في زمنه، ألا يخشى أن ينكشف بعد ذلك إذا ازداد الناس علما، فهو يخبر بأمور فلكية وأخرى طبية وأمور جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه، كل هذا وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم لا يأتي الواقع إلا مطابقا لما قال، ولا يأتي العلم –على تقدمه الكبير– إلا بتأكيد كلامه وتأييد آرائه، أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه ، بل من قبل من يعلم السر والنجوى الذي لا تخفى عليه خافية. قالت بوتر : (كيف استطاع محمد الرجل الأمي، الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن

(١) –النبأ العظيم، ص:٣٠-٣٤

الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل) [١].

٨ –منهجه في كيفية تلقي النص أول عهده بالوحي [٢]كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلا ،فيحرك به لسانه وشفتيه طلبا لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفا من عادته في تحضير كلامه، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يزورون كلامهم في أنفسهم، فلو كان القرآن منبجسا من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم ولكان له من الروية والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته؛ من إنضاج الرأي ، وتمحيص الفكرة، ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتيا ويلم به سريعا، بحيث لا تجدي الروية شيئا في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء ،وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفيا، فكان لابد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه، أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية، حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله: {لا تحرك به لسانك لتعجل به الآيات [القيامة : ١٦] ، وقوله: {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربي زدني علما} [طه: ١١٤] ،هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن، وهي شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يفض عن قلبه بل أفيض عليه) [٣].

٩ –أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من الطبيعة شاهد بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟ فلينظر العاقل: هل كان هذا النبي الأمي أهلا بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟ سيقول الجهلاء من الملحدين: نعم. فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء والحسن القبيح من الأخلاق والخير والشر من الأفعال، حتى لو أن شيئا في السماء تناله الفراسة ، أو تلهمه الفطرة أو توحي به الفكرة، لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأملاته الصادقة. ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله، ولكننا نسأل: هل كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور؟ اللهم كلا. طبيعة المعاني القرآنية ليست كلها مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة فمن ذلك:

أ –أنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي والدراسة: ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة ، التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم؛ ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون: إن التاريخ يمكن وضعه أيضا بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون إن محمدا قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك، لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء {وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم} [آل عمران: ٤٤] ، {وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون} [يوسف: ١٠٢] ، {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر} [القصص: ٤٤] ، {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون} [العنكبوت: ٤٨] ، {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا} [سورة هود: ٤٩] ، {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} [يوسف: ٣] . لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية ، وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين؛ فإن هذه

---

(١) –قالوا عن الإسلام (ص٥٥)

(٢) –المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص:٥٢).

(٣) –النبأ العظيم، ص: ٣٤

النتف اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر؛ لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب ، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين ، ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررا في القرآن، حتى الأرقام طبق الأرقام: فترى مثلا في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم {ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا} [الكهف:٢٥] وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية؛ قاله الزجاج يعني بتكميل الكسر. فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.

نعم إنها لعجيبة حقا: رجل أمي بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم – في غير الباطل والفجور – ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها ، فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته ، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم؟ أفي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العملي نتيجة طبيعة لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يلتمس خارجا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة، وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلا لهذه الظاهرة ، وأقرب فهما لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لابد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة؛ فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم {وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست} [الأنعام: ١٠٥] ، {وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا} [الفرقان: ٥] .ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهره، بأيدي سفرة كرام برره {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون} [يونس:١٦] ،ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها.

أما سائر العلوم القرآنية فقد يقال: إنها من نوع ما يدرك بالعقل، فيمكن أن ينالها الذكي بالفراسة والروية ، وهذا كلام قد يلوح حقا في بادئ الرأي، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختبار، ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحد محدود تقف عنده ولا تتجاوزه، فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركوزا في غريزة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول، إما بسرعة كما في الحدس (الظن والتخمين) ،وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة (الاستدلال على الشيء بمثيله أو شبيهه.) وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات ، لا يمكن أن تناله يد العقل بحال، وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عما جاءه ذلك الإلهام.

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل؟ ذلك ما سيأتي نبأه بعد حين، ولكننا نعجل لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عند إعادتهما بعد: أحدهما: قسم العقائد الدينية. والثاني: قسم النبوءات الغيبية.

ب –الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها:

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلها قاهرا دبره ، وأنه لم يخلقه باطلا، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة؛ فلابد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله ، إن خيرا وإن شرا ، هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة؛ بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنهما رأي عين، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب، فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية، وتلك الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل البتة، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين، وإما حق فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين، لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنه أهلها {وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا} [المدثر: ٣١] ، {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} [الشورى: ٥٢] ، {ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون} [ص: ٦٩] ، {وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه من الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} [يونس: ٣٧] .

ج –أنباء المستقبل قد تستنبط بالمقايسة الظنية ولكنها لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق: وأما النبوءات الغيبية فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحا يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، جاعلا الشاهد من هذه مقياسا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكما محاطا بكل تحفظ وحذر، قائلا: (ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ولم يقع ما ليس في الحسبان) أما أن يبت الحكم بتا ويحدده تحديدا حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين:

– إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرافين والمنجمين.

– وإما رجل اتخذ عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده، وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلا روى أخباره عن واحد منهما.

فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبد الدهر، وما لن يكون أبد الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطا من الصدق والكذب، والصواب والخطأ بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه، يجيئه عفوا ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفا واحدا مما ينبئ به {وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} [فصلت: ٤١–٤٢].

ولنسرد لك هاهنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التاريخية؛ لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية؟ مثال ذلك:

–ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته {كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} [الرعد: ١٧]، {ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها} [إبراهيم:٢٤–٢٥]، {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: ٩] .

أتعلم متى وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة، بل العهود الوثيقة؟ إنها آيات مكية من سور مكية، وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة؟ عشر سنوات كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآن، وصد لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه، فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك ، الذي طوله عشرة أعوام، شعاعا ولو ضئيلا من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته، لا في أفق الحوادث، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربوا في نفسه الأمل حتى يصير حكما قاطعا؟ وهبه امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح! وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت ودرست آثارها! وكم من نبي قتل! وكم من كتاب فقد أو انتقص أو بدل! وهل كان محمد ممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيا يوحى إليه {وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك} [القصص:٨٦] ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظا لديه {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا} [الإسراء: ٨٦-٨٧] فلابد إذا من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه، ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها، والذي قدر مبدأها ومنتهاها، وأحاط علما بمجراها ومرساها، فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن.

سل التاريخ: كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام وتسلط الفجار على المسلمين فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أمما منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد؛ وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلا أو بعضا كما فعل بالكتب قبله؛ لولا أن يد العناية تحرسه ، فبقي في وسط هذه المعامع رافعا راياته وأعلامه، حافظا آياته وأحكامه، بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن ،وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} [الأنفال:٣٦] ، ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يسمك السماوات والأرض أن تزولا، ذلك بأن الله {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} [التوبة: ٣٣] ، والله بالغ أمره ومتم نوره ، فظهر وسيبقى ظاهرا لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله) [(١)].

١٠ –لماذا يستبعد المستشرقون إمكانية نزول الوحي على النبيﷺ عن طريق جبريل مع أن كثيرا منهم يسلمون بأبعد من ذلك؛ فهم يؤمنون إيمانا كاملا بأن موسى قد تلقى التوراة من الله تعالى مباشرة من غير واسطة؟

١١ –انظر إلى هذا التناقض تارة يصفون النبي بأنه عبقري وفنان موهوب وملهم استطاع بذكائه الشديد أن يصنع هذا الدين والقرآن، وتارة يقولون هو مجنون أو مصروع أو مهووس[(٢)] أوقعهم بغضهم للحق في مضحكات؟ وتأمل كيف

---

(١) –النبأ العظيم، ص:٣٨-٤٧. و د. عبد المحسن المطيري دعاوى الطاعنين ص: ٢١٠

(٢) –انظر القرآن والمستشرقون لنقرة (ص: ٢٩ –٢٨) وكتاب كتاب رؤية إسلامية للإستشراق، لأحمد غراب، ص:١٥.

استطاعت خديجة بفطرتها البسيطة أن تعرف أن ما يأتي النبي ليس شيطانا ولا هوسا حين قالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق [١]

فما أبعد هذا الكمال الإنساني عن الهوس الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة وأفعالا منكرة ينبو عنها الذوق السليم، لذلك فإن بعضهم لا يملك نفسه عندما يقرأ سيرة النبي وما يأمر به إلا أن يسلم بنبوته يقول توماس كارليل: هل رأيتم قط رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجيبا؟ إنه لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب، فهو لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه بيت إنما هو تل من الأنقاض ، وكثيب من أخلاط المواد؛ وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس (في زمنه وليس اليوم) ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن، وأني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة ، وإلا أبت أن تجيبه طلبته، كذب ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيلوه حق، ومحنة أن ينخدع الناس –شعوبا وأمما– بهذه الأضاليل) ... ويقول أيضا: (لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر، أن يصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل ومازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لمئات الملايين من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا، أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والعد أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إذا إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث؛ كان الأولى ألا تخلق) [٢] .

١٢–من الأدلة على أن القرآن ليس من النبي: أوقات نزوله [٣] فليس للنبي (اختيار فيما ينزل أو متى ينزل، فقد يأتيه وهو في الفراش مع أهله، أو وهو نائم ، أو مع أصحابه ، أو وهو سائر ، أو على البعير [٤] ، وقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر بكثرته عليه له ، وقد يفتر عنه حتى يشتاق إليه ، بل قد يمرض من تأخره عليه؛ فقد روي عن أنس بن مالك : أن الله تعالى تابع على رسوله الوحي قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي ثم توفي رسول الله بعد) [٥] وعن أنس قال: بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي آنفا سورة» فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم {إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر } ثم قال: «أتدرون ما الكوثر ... » [٦]، عن ابن عباس (قال: قال رسول الله لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا» ، قال: فنزلت {وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا} [٧]، وعن جندب بن سفيان: أبطأ جبريل على النبي، فاشتكى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثة، فأنزل الله عز وجل {والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى} .[٨]

١٣–تكلّم محمدﷺ بأكثر من أسلوب غاية في الفصاحة وغاية في البلاغة ومعلوم أن لكل إنسان أسلوب مميز في الكلام والكتابة يعني لو أنك تقرأ لكاتب مُعين بشكل مُستمر فسوف تميز اسلوب كتابته لو وقعت عيناك على كلامه

---

(١) –متفق عليه (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم:٤، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، رقم: ١٦٠) .
(٢) –قالوا عن الإسلام (ص:١٢٣) انظر: القرآن والمستشرقون، د. التهامي نقرة (ص:٢٥).
(٣) –المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص:٥٤)
(٤) –انظر فتح الباري (٣٠/١) فقد ذكر أن عند البيهقي حديث (وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها الأرض من يقل ما يوحى إليه)
(٥) –متفق عليه (البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، رقم:٤٩٨٢، ومسلم: كتاب التفسير، باب، رقم:٣٠١٦)
(٦) –أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من كل سورة، رقم:٤٠٠.
(٧) –البخاري: كتاب بدأ الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم:٣٢١٨.
(٨) –متفق عليه البخاري: رقم:٤٩٥٠، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم، رقم:١٧٩٧) وأحمد (رقم:١٨٣٢٩) واللفظ لأحمد.

بدون ان تعرف أنه هو الكاتب أما محمد فقد جاء بشيء فريد وهو استخدامه لثلاثة أساليب كلامية وكل أسلوب له طابع يتميز أدبيا وبلاغيا عن الاسلوب الآخر! ١-القرآن، ٢-الحديث القدسي، ٣-الحديث النبوي هل يستطيع إنسان صياغة كلامه بثلاثة أساليب أدبية وكل أسلوب يتميز عن الآخر بشكل واضح؟ مع أن محمدًاﷺ لم يُعرف بالشعر ولا بالبلاغة ولا بالخطابة! أميّ لم يُعرف طوال حياته بالشعر ولا بالخطابة ولا بالبلاغة فيأتي فجأة بثلاثة أساليب كلامية بلاغية تتميز عن بعضها البعض ؟! وأن فطاحلة اللسان العربي في عصره لم يستطيعوا أن يأتوا بشيء مشابه ولا قريب مما أتى به عليه الصلاة والسلام! أتى بكلام عجز عنه البشر في الفصاحة والبلاغة وخال من الخطأ بل بدأ كتابه بكلمة {لاريب فيه}! وهو الأمي والذي لا ذهب للعلماء ولا أتى له العلماء؟ وعرّض النبيّ نفسه للحرج ولما يهدم رسالته من البداية؟ وأتى بأشياء فيها نوع من التحدي بل وأشياء فيها نوع يسهل نقضها؟! والأدلة على ذلك كثير في القرآن ، منها : قال الله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } [الشرح:٤] وهذا الأمر قد تحقق وكما يعلم الجميع فإن محمدا ﷺ أكثر البشر ذِكرا على سطح الكرة الأرضية ، فلا يوجد من يُذكر أكثر منه ، فالآذان مستمر على مدار الساعة على سطح الأرض فما أن ينتهي الأذان في مكان إلا ويبدأ في المكان الذي يليه وهكذا إلى أن يعود إلى نفس النقطة مرة أخرى لذلك فإن جملة (أشهد أن محمد رسول الله) تتردد بصوت عالٍ مرتفع على مدار الساعة في كل أنحاء الدنيا وليس هذا لغيره من الأنبياء ،هذا غير الصلاة المستمرة من المسلمين على محمد ﷺ في صلواتهم ومجالسهم وجميع أحوالهم ، وقراءتهم للقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى عليه وكذلك قراءتهم لأحاديثه وسيرته وحرصهم على إتبُّاع سنته وغير ذلك مما لا يُحصى

منها : اليهود كانوا يقولون للمسلمين نحن اولياء الله وأحباءه وليس أنتم فأنزل الله تعالى هذا الاختبار لهم : {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة: ٩٤ – ٩٥] ولا شك أن اليهود كانوا من أشد أعدائه ﷺ ، ومن أحرص الناس على تكذيبه، ومع ذلك لم يبادر أحد منهم إلى تكذيبه بأن يقول: إنه يتمنى الموت ، فالله تعالى أخبر في القرآن الكريم أن اليهود لن يتمنوا الموت فكيف علِم النبي أن اليهود سيرفضون تمني الموت ؟كان المطلوب من اليهود فقط أن يقولوا بألسنتهم "نتمنى الموت" ولكنهم رفضوا أن يتمنوا الموت عن ابن عباس: يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : { قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين } أي : ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب فأبوا ذلك على رسول الله { ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين } أي : بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "لَوْ تَمَنَّى الْيَهُودُ الْمَوْتَ لَمَاتُوا" فهل يوجد أعظم من هذه الثقة من النبي ومعرفته بأنّ اليهود لن يفعلوا ما طلبه منهم رغم بساطته ؟ هذا الأمر لا يكون إلا لمن هو متصلٌ بالوحي.

ومنها : كيف علِم النبي أن عداوة اليهود للمسلمين مستمرة على مر الأزمان ؟ قال الله تعالى :{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ }[المائدة:٨٢] ، لقد كان في يد اليهود فرصة ذهبية لتشكيك المسلمين في دينهم ولا تزال الفرصة قائمة وذلك عن طريق إثبات خطأ الآية السابقة التي تُخبرنا بشدة عداوة اليهود للمسلمين، فكل ما على اليهود أن يفعلوه هو أن يُحسنوا للمسلمين وأن يتعاملوا معهم بأفضل أنواع المعاملة وأن يتوقفوا عن تدبير المؤامرات والحروب ضدهم ،ولكن ذلك لم يحدث خلال ١٤٠٠ سنة !! وهذا الأمر لا يمكن أن يُعلم إلا عن طريق الوحي فقط.

ومنها سورة المسد يقول الدكتور مليز: "قبل ١٠ سنوات من وفاة أبي لهب نزلت سورة في القران اسمها سورة المسد، هذه السورة تقرر أن أبو لهب سوف يذهب إلى النار هو وزوجته، أي بمعنى آخر أن أبو لهب وزوجته لن يدخلا الإسلام، خلال عشر سنوات كل ما كان على أبو لهب أن يفعله هو أن يأتي أمام الناس ويقول: محمد يقول أني لن أسلم و سوف

أدخل النار ولكني أعلن الآن أني أريد أن أدخل في الإسلام وأصبح مسلما!!، الآن ما رأيكم؟ هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟ هل الوحي الذي يأتيه وحي الهي؟ لكن أبو لهب لم يفعل ذلك تماما رغم أن كل أفعاله كانت هي مخالفة الرسول لكنه لم يخالفه في هذا الأمر يعني القصة كأنها تقول أنّ النبي يقول لأبي لهب أنت تكرهني وتريد أن تنهيني، حسنا لديك الفرصة أن تنقض كلامي! مرت عشر سنوات على نزول السورة من بداية الدعوة وكانت لديه الفرصة أن يهدم الإسلام بدقيقة واحدة! رغم أن أعداد كبيرا من أعداءهﷺ قد دخلوا في الإسلام مثل أبو سفيان الذي كان قائد المشركين في معركة أحد ومعركة الخندق فكيف علِم النبيﷺ أن عمه أبا لهب بالذات لن يدخل في الإسلام ؟؟ فهذا النوع من العلم المستقبلي لا يمكن لبشر معرفته، فكيف يكون واثقا خلال عشر سنوات أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحي من الله؟؟ لكي يضع شخص هذا التحدي الخطير ليس له إلا أمر واحد: هذا وحي من الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١-٥].

ومنها: إخبار الرسول إن كتب اليهود والنصارى تم تحريفها وهذا ما أكّده علمائهم من اعترافهم ان النسخ الأصلية من المخطوطات ضاعت وان النسخ الباقية تعمّد النساخ فيها بالخطأ! وتأملوا قول رسول الإسلام (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) وإنما قال ذلك: لأنه علم أنهم حرفوا بعض كتبهم لا كلها فمنع من تصديقهم خشية أن يكون ما قالوه مما حرفوه ومن تكذيبهم خشية أن يكون مما لم يحرفوه. فالأول في غاية الحزم والثاني: في غاية العدل، ولو لم يكن نبيا مأمورا فيهم لأغرى الناس بتكذيب كل ما عندهم وكان ذلك أتم لناموسه وأغض من رءوس أعدائه، لأنا علمنا بالاستقراء من ملوك الدنيا أجمعين أن أحدا منهم لم يترك من آثار من قبله من الملوك ولا الأنبياء ما يحذر منه على ملكه إلا عجزا وهذا الإنصاف والعدل مع مخالفيه يدل على صدق نبوته.

ومنها: كيف علِم النبي بأن أصحابه رضي الله عنهم سيُستخلفون في الأرض من بعده وسيتمكن الإسلام في الأرض؟ {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ .. وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً} [النور:٥٥] سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي شكا جهد مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم، فنزلت الآية. وقال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفا هو وأصحابه، يدعون إلى الله سرا وجهرا، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح. فقال رجل: يا رسول الله، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال عليه السلام: (لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة، قال النحاس: فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله، لأن الله عز وجل أنجز ذلك الوعد. فهذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات. وقد قال رسول الله: (الخلافة بعدي ثلاثون) بإجماع أكثر المفسرين قال ابن العربي في أحكامه: قال علماؤنا هذه الآية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، وأن الله استخلفهم ورضي أمانتهم، وكانوا على الدين الذي ارتضى لهم، لأنهم لم يتقدمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا، فاستقر الأمر لهم، وقاموا بسياسة المسلمين، وذبوا عن حوزة الدين، فنفذ الوعد فيهم، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نجز، وفيهم نفذ، وعليهم ورد، ففيمن يكون إذا؟ وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هذا، ولا يكون فيما بعده. (١)

وقال ابن كثير: هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي: أئمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد، وليبدلن خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم وقد فعل تبارك وتعالى ذلك وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله حتى فتح الله عليه مكة وخيبر، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر،

(١) -أحكام القرآن للقرطبي (١٢ /٢٩٧)، وأحكام القرآن لابن عربي

ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله ثم لما مات رسول الله واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ولهذا ثبت عن رسول اللهﷺ أنه قال: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها" فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله [١].

(١) –تفسير القرآن العظيم لابن كثير

الفصل الثالث:

القسم الثالث من الأدلة: إخبارهﷺ بالغيوب وبالآتي لأمته وذلك بشكل دائم تقريبا!

البحث الأول: أخبار النبيّ بالنهايات وهو في البدايات.

البحث الثاني: غيوب تحققت في حياته قالها لأصحابه وقومه فلو فشلت لفشل هو!

البحث الثالث: إخبارهﷺ بالغيوب المستقبلة التي تحققت بعد وفاته زمن أصحابه وبعدهم.

البحث الرابع: إخبارهﷺ بكيفية ومكان وفاة بعض معاصريه.

البحث الخامس: إخبارهﷺ بأخبار الفتن التي ستقع بأمته من بعده !؟.

البحث السادس: إخبارهﷺ بفتوح أمته للبلدان.

البحث السابع: إخباره ﷺ بأخبار آخر الزمان وعلامات الساعة.

منها ما تحقق في حياته ، ومنها ما تحقق بعد وفاته ، ومنها غيوب عن كيفية ومكان دفن بعض معاصريه، ومنها إخباره بأخبار الفتن، ومنها بغيوب فتوح أمته للبلدان، ومنها أخبار آخر الزمان، وكمثال عام :جاء رسول كسرى إلى النبيﷺ يتوعده ويتهدده أن يأت معه لكسرى فكيف تجرأ محمد وبعث لكسرى كتاب ليسلم لله رب العالمين فمزق كتاب النبي وأمر بمن يأتيه به فقال النبيﷺ لرسولا كسرى: «إن ربي قتل ربكما » فعدّوا ذلك اليوم، فإذا بكسرى قتله ابنه ذلك اليوم، ومثل هذا ليس له مقدمات تدل عليه، ولم يكتب بعد في أي كتاب، ولكنها النبوة [١].

البحث الأول: أخبار النبيّ بالنهايات وهو في البدايات [٢]:

أخبر النبي بكثير من الأمور قبل حصولها، أو حتى حصول مقدماتها، مع أن هذا لا يتأتى من بني بشر فالغيب بيننا وبينه حجاب كثيف، نعم، قد يستشرف الإنسان المستقبل ويستقرئه ويستشفه عن طريق مقدمات ودلائل يلتمس منها النفوذ إلى حجاب المستقبل، كما يفعل الساسة والاقتصاديون وغيرهم، ولكنه في الغالب لا يكون صوابا، والصواب منه إنما حصل بسبب حصول مقدماته، كرجل مر على بيت قديم متهاوي، فقال: احذروا هذا البيت فإنه سيقع فإننا نقول: قد يكون لكلامه شيء من الصحة باعتبار هذه الإشارات التي حصلت، وأما لو مرّ على بيت جديد محكم البناء، وقد بني على أحدث الطرق الهندسية بإشراف مهندسين ومتخصصين وخبراء، فقال: احذروا هذا البيت فإنه سيقع. لقلنا: هذه ترهات وسفاهات لا تصدر من عاقل، لذلك إذا لم يكن هناك مقدمات وإشارات وقرائن، فلا يمكن لأحد أن

---

(١) –لخصائص الكبرى " للسيوطي (١٤/٢) باب ما وقع عند كتابه إلى كسرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٩٨٥

(٢) –انظر كتاب: تثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار الهمذاني (٣١٤/٢) حققه د. عبد الكريم عثمان، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، وهو كتاب حافل مليء بالفوائد، لاسيما الأدلة العقلية على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه من مدرسة المعتزلة العقلية. وانظر د. عبد المحسن المطيري الأدلة الجلية على صدق خير البرية – الرياض ١٤٢٩. ص: ١٠٧ وما بعدها.

يعرف ماذا سيحصل في المستقبل، بل ولا يمكن أن يعرف ماذا سيحصل بعد ثانية، فمثلا لو أن النبي انتصر على العرب، ثم بشر بأنه سينتصر على العجم، لقلنا: إنما قال هذا لحصول مقدمات لهذا الحدث، وهو انتصاره على العرب، ولكن الأمر الغريب أن النبي يبشر بهذه الأمور في ظروف هي أبعد ما تكون توقعا لها وكمثال:

عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون »[1] وآخر : مثل ذلك ما حصل في حادثة الهجرة وهو مطارد من قريش، وليس معه إلا رجل واحد، والكل يتربص به ليقتله أو يسلمه ليأخذ الجائزة، ثم يقول لسراقة: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى» ثم يتحقق هذا الأمر ويلبسهما في زمن عمر بن الخطاب[2] .

فالدعوة المحمدية في مكة عشر سنوات كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه، وصد لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه، فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك الذي طوله عشرة أعوام، شعاعا ولو ضئيلا من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته، لا في أفق الحوادث، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربوا في نفسه الأمل حتى يصير حكما قاطعا؟ وهبه امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح، وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت ودرست آثارها، وكم من نبي قتل، وكم من كتاب فقد أو انتقص أو بدل، وهل كان محمد ممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيا يوحى إليه {وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك} [القصص :٨٦] ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظا لديه {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا} [الإسراء: ٨٦-٨٧] فلابد إذا من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه، ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها، والذي قدر مبدأها ومنتهاها، وأحاط علما بمجراها ومرساها، فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة، لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن.

سل التاريخ: كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام، وتسلط الفجار على المسلمين فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أمما منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلا أو بعضا كما فعل بالكتب قبله؛ لولا أن يد العناية تحرسه فبقي في وسط هذه المعامع رافعا راياته وأعلامه، حافظا آياته وأحكامه، بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى: {إن الذين

(١) -أخرجه البخاري (كتاب المناقب، باب ما لقي النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه بمكة، رقم:٦٩٤٣).
(٢) -الإصابة لابن حجر في ترجمة سراقة (٤٢/٣)

كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون} [الأنفال: ٣٦]، ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ذلك بأن الله {أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} [التوبة: ٣٣] ، والله بالغ أمره ومتم نوره فظهر، وسيبقى ظاهرا، لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله) (١) .

إن عدداً كبيراً من أذكياء الناس ومن العباقرة، قد جرؤوا على أن يتنبئوا عن أنفسهم أو عن غيرهم. ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقاً، بل جاء يكذبها بكل قسوة، ولقد تحفز الفرص المواتية والأحوال المساعدة والكفاءات العالية وكثرة الأعوان والأنصار، والنجاح الخارق في البداية الكثيرين–وهم يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية– أن يتنبئوا بنتيجة معينة بكل يقين، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوي ويكذبها دائما، والزمن نفسه هو الذي أثبت صحة ما جاء في القرآن من التنبؤات في حين أنها جميعا جاءت في أحوال غير مواتية، إن هذه التنبؤات–وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ–تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها. وما دمنا ندرسها في ضوء علومنا المادية فلن نستطيع إدراك حقائقها، إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشري.

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش في عصره، وقد دلت فتوحاته الأولي على أنه سوف يكون نداً لقيصر، والإسكندر المقدوني، وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس نابليون، فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر، وازداد هذا الشعور لديه. حتى إنه ترك مستشاريه، وادعى أنه لم يكتب في قدره غير الغلبة الكاملة على من في الأرض. ولكنا جميعا نعرف النهاية التي كتبت له في لوح القدر. سار نابليون من باريس يوم ١٢ من يونية سنة١٨١٥، مع جحفله العظيم ليقضي على أعدائه وهم في الطريق. ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق (دوق ولنجتون) شر هزيمة بجيش نابليون الجبار، في (ووترلو) بأراضي بلجيكا. وكان (الدوق) يقود جنود انجلترا وألمانيا وهولندا. ولما يئس نابليون وأيقن من مصيره المحتوم فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها إلى أمريكا ولم يكد يصل إلى الشاطئ، حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية، وانتهي به القدر إلي أن أرسل إلي جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطي، هي جزيرة (سانت هيلينا)، ومات القائد العسكري في هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة، في ٥ مايو سنة١٨٢١.

والبيان الشيوعي المعروف الذي صدر سنة١٨٤٨، تنبأ بأن أول البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي (ألمانيا)، ولكن ألمانيا على الرغم من مضي مائة وعشرين عاما من هذه النبوءة، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة ولقد كتب كارل ماركس في مايو سنة١٨٤٩ قائلا: (إن الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء باريس!) ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن، فإن شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالي باريس! وقد قال أدولف هتلر في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونيخ في١٤ من مارس سنة١٩٣١: (إنني سائر في طريقي، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لي والعالم بأجمعه يعرف اليوم الذي كتب في قدر الجنرال الألماني العظيم كان هو الهزيمة والانتحار.

وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات، لا نجد غير (القرآن) الذي أيد الله به نبيه محمد بن عبد الله تحققت نبوءاته حرفاً حرفا وهذا الواقع يكفي في ذاته لإثبات أن هذا الكلام صادر من الله سبحانه وتعالى الذي هو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل إلى الأبد، وسوف نورد خبراً يتعلق بغلبة الإسلام عندما بدأ النبي دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده، وكان على النبي مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد:

أولاها: القبائل المشركة، بعد أن أصبحوا أعداء حياته.

---

(١) –النبأ العظيم، ص:٣٨–٤٧.

وثانيتها: الرأسمالية اليهودية.

وثالثتها: أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم، من داخل معاقلهم.

وكان الرسول يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات: قوة المشركين، والرأسمالية اليهودية، والطابور الخامس وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغي وقفات رائعة لا مثيل لها، ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار، وجماعة من العبيد. ومما لا شك فيه أنه قد انضم إليه بعض كبار قريش، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبي. وقد سارت هذه الحركة بمكة قدما، تكافح وتناضل، حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة، وهم في أشد حالات العوز والفقر، بعد ما تركوا ثرواتهم في مكة–موطنهم الأصلي، ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التي عاشت في المسجد النبوي، حيث لم تكن لديهم بيوت، وكانوا ينامون على (صفة) في فناء المسجد النبوي، فأطلق عليهم (أهل الصفة).

ومما روي في كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام، الذين عاشوا على (الصفة)، بلغ في بعض الأحيان أربعمائة صحابي. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته وعنه أنه قال: (لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ وَحُجْرَةِ عَائِشَةَ مِنَ الْجُوعِ مَغْشِيًّا عَلَيَّ فَيَجِيئ الْجَائي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي يُرَى أَنَّ بِي الْجُنُونَ وَمَا بي جُنُونٌ وَمَا هُوَ إِلاَّ الْجُوعُ) رواه الترمذي.

وفي هذه الحالة البائسة، حيث كان المسلمون في أسوأ أحوالهم مكشوفين في عراء المدينة المنورة، خائفين يترقبون الأعداء من كل جانب، مخافة أن يختطفون في أي وقت في هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخري: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }[المجادلة : ٢١].وقال أيضا: { يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون }[التوبة : ٣٣].

ولم تمض على هذه البشري أيام طويلة، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة، والعدة، والعتاد وليس بوسعنا تفسير هذه النبوءة في ضوء المصطلحات المادية، إلا أن نسلم بأن صاحب هذا الإخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه وإنما كان رسولاً لله فلو أنه كان إنساناً عادياً لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ [١].

البحث الثاني: غيوب تحققت في حياته قالها لأصحابه وقومه فلو فشلت لفشل هو!

{قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون} [الأعراف: ١٨٨]. فإذا ما أخبر النبي عن شيء من الغيوب؛ فإنما يخبر بشيء من علم الله الذي خصّه به وأطلعه عليه، ليكون برهان نبوته ودليل رسالته ولقد أخبر النبيﷺ عن زهاء ألف أمر غيبي، بعضها في القرآن، وبعضها في السنة، وكل منها دليل على تفرّده وتميزه عن الآخرين من خلق الله برسالة من الله وإليك ثلاثة أمثلة هنا.

منها: تنبؤه بهزيمة الفرس وغَلَب الروم، في وقت كادت دولة الفرس أن تزيل الامبراطورية الرومانية من خارطة الدنيا، فقد وصلت جيوش كسرى أبرويز الثاني إلى وادي النيل ودانت له أجزاء عظيمة من مملكة الرومان سنواتٌ معدودة تمكن

(١) – كتاب الإسلام يتحدى تأليف وحيد الدين خان.

فيها جيش الفرس من السيطرة على بلاد الشام وبعض مصر واحتلت جيوشهم أنطاكيا شمالاً مما آذن بنهاية وشيكة للرومان وأمام هذا الطوفان الفارسي أراد هرقل ملك الروم أن يهرب من عاصمة ملكه القسطنطينية وكاد أن يفعل لولا أن كبير أساقفة الروم أقنعه بالصمود وطلب الصلح الذليل من الفرس

وسط هذه الأحداث–وخلافاً لكل التوقعات–أعلن النبيﷺ في أجواء مكة المتربصة به وبدعوته أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين، أي فيما لا يزيد عن تسع سنين، فقد نزل عليه قول الله تعالى: {غلبت الروم – في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون – في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون – بنصر الله} [الروم: ٢ – ٥].

يقول المؤرخ إدوار جِبن: "في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءةٍ أبعدَ منها وقوعاً، لأن السنين العشر الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية"، [(١)] لقد كان النبي يتنبأ بانتصار المهزوم الذي يكاد يستسلم لخصمه ، ويحدد موعداً دقيقاً لهذا النصر الذي ما من شيء أبعد في تحققه منه ، وتناقلت قريش هذه النبوءة الغريبة التي خالفت أهواءهم التي مالت إلى جانب الفرس إخوانِهم في الوثنية، بينما أحب المسلمون انتصار الروم لأنهم أهل كتاب، واستبشروا بالخبر، قال ابن عباس: (كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، لأنهم وإياهم أهلُ أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهلُ كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: أما إنهم سيَغلبون ، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا [أي بدوام انتصار الفرس] كان لنا كذا وكذا [أي من الرهن]، وإن ظهرتم [أي بانتصار الروم] كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهر الروم [أي في هذه السنينِ الخمس]، فذكروا ذلك للنبي فقال: ألا جعلته إلى دون العشر [أي طلب منه زيادة الأجل إلى تسع سنين، لأن البضع في لغة العرب ما دون العشر]، والله قد وعد بظفر الروم في بضع سنين ،قال أبو سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: {غلبت الروم – في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون – في بضع سنين}[(٢)].

لقد كان الأمر كما تنبأ عليه الصلاة والسلام، ففي عام ٦٢٣م وما بعدها استطاع هرقل أن يتخلص من لهوه ومجونه، وشن ثلاث حملات ناجحة أخرجت الفرس من بلاد الرومان، وفي عام ٦٢٦م واصل الرومان زحفهم حتى وصلوا إلى ضفاف دجلة داخل حدود الدولة الفارسية ، واضطر الفرس لطلب الصلح مع الرومان بعد هزيمتهم في معركة نينوى، وأعادوا لهم الصليب المقدس–عندهم–وكان قد وقع بأيديهم ،فمن ذا الذي أخبر محمداً ﷺ بهذه النبوءة العظيمة ، ولو تأملنا قوله تعالى: {غلبت الروم – في أدنى الأرض} فإن أعيننا لن تخطئ برهاناً آخر من براهين نبوته فقوله تعالى: {في أدنى الأرض} يشير إلى حقيقة علمية كشف عنها العلم الحديث، وهي أن البقعة التي انتصر فيها الفرس على الروم في منطقة الأغوار قريباً من البحر الميت هي أدنى الأرض، أي أخفض مكان في الأرض كما تؤكده الموسوعة البريطانية وغيرها [(٣)] إنه بعض علم اللطيف الخبير

ومما أطلع الله نبيه عليه من الغيوب التي لا يعرفها لولا إخبار الله له؛ خبر كتاب حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسله إلى قريش مع امرأة، يخبرهم فيه بعزم النبي على غزو مكة، فلما كشف الله ذلك لنبيه؛ بعث علياً والزبيرَ والمقدادَ بنَ

(١) –تاريخ سقوط وانحدار الإمبراطورية الرومانية، إدوار جبن (٥/ ٧٤).

(٢) –رواه الترمذي ح (٣١٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح (٢٥٥١).

(٣) –يعتبر منخفض بحيرة طبريا ثاني أكبر المنخفضات في العالم، حيث تنخفض فيه اليابسة إلى ٢٠٩ م تحت سطح البحر، بينما هي في منطقة البحر الميت تصل إلى ٣٩٥ م تحت سطح البحر. انظر: أطلس العالم، مكتبة بيروت (ص ٩٥) نقلاً عن كتاب "إنه الحق" الذي أصدرته هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي (ص ٧٩).

الأسود، وقال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة، ومعها كتاب، فخذوه منها)، يقول علي: فانطلقنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. قال ابن حجر: "وفيه من أعلام النبوة إطلاعُ الله نبيه على قصة حاطب مع المرأة". (١)

ومثله من الإخبار المعجِز نعْيُه لقادة مؤتة الثلاثة–وقد استشهدوا في الشام–وهو في المدينة، يقول أنس: نعى النبي زيداً وجعفراً وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيَهم خبرُهم، فقال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان؛ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم)). فالذي أعلم النبيَّ بمقتلهم قبل أن يأتي خبرهم إلى الناس هو الله علام الغيوب، قال الطحاوي: "وفيه عَلَمٌ ظاهر من أعلام النبوة". (٢) فهذه الغيوب وغيرها كثير مما أخبر به أدلةٌ واضحة وبراهينُ ساطعة على نبوة النبيﷺ فهي غيوب أخبره بها عالمُ السر والنجوى.

البحث الثالث: إخبارهﷺ بالغيوب المستقبلة التي تحققت بعد وفاته زمن أصحابه وبعدهم

ما بين أيدينا من الغيوب أعظم دلالة مما سبق إذ سنتناول ما أخبر به وتحقق بعد موته منها: خبر أم حرام بنت ملحان، فقد سمعت النبي يقول: (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا) قالت أم حرام: قلتُ: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: (أنتِ فيهم) ثم قال النبي: (أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم)، فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: (لا). (٣)

قال ابن حجر: " وفيه ضروب من إخبار النبي بما سيقع، فوقع كما قال وذلك معدود من علامات نبوته: منها إعلامه ببقاء أمته بعده، وأن فيهم أصحابُ قوةٍ وشوكة ونِكاية في العدو وأنهم يتمكنون من البلاد حتى يغزوا البحر وأن أمَّ حرام تعيش إلى ذلك الزمان وأنها تكون مع من يغزو البحر وأنها لا تدرك زمان الغزوة الثانية ". وفي رواية فركبت أمُّ حرامٍ بنتِ مِلحانٍ البحرَ في زمن معاوية فصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت. وقد نقل الطبراني وغيره أن قبرها معروف في جزيرة قبرص. (٤) فمن الذي أعلم النبي بما يكون بعده؟ من الذي أعلمه بأن أمته سوف تغزو البحر من بعده، وأن أم حرام بنت ملحان ستعيش حتى تدرك هذا الغزو، فتشارك فيه؟ قال الباجي: " وهذا من أعلام نبوته الواضحة: أن يعلم بالأشياء على وجهها قبل أن تكون ثم تكون على حسب ذلك لا تخرم عنه ويتكرر ذلك منه تكراراً يوجد في أكثر الأحوال، وكل من يتعاطى تكهناً بتنجيم أو غيره فإن الأغلب عليه الخطأ وإن أصاب في بعض الأشياء على ما يفعل الظان والمخمن والحازر". (٥)

ومنها وبينما النبي في تبوك أنبأ أصحابه بوقوع ستة أحداث مهمة، رتب وقوعها فقال لعوف بن مالك: (اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتحُ بيت المقدس، ثم مُوتانٌ يأخذُ فيكم كقُعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنةٌ لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدِرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غايةٍ اثنا عشر ألفاً). (٦) وفي هذا الحديث يذكر النبي ﷺ أحداثاً ستة يرتبها، أولها: موتُه ثم فتحُ بيت المقدس، وقد كان ذلك في العام الخامس عشرَ من الهجرة، ثم موت عظيم يصيب الصحابة، وتحقق ذلك في طاعون عِمواس في السنة الثامنةِ عشرة للهجرة، ثم استفاضةُ المال حين كثرت الأموال زمن الفتوح في عهد عثمان، ثم الفتنةُ التي تصيب العرب، وقد وقعت زمن فتنة قتل عثمان ﷺ التي كانت بوابة للفتن التي ما تركت بيتاً إلا

---

(١) –رواه البخاري ح (٣٠٠٧)، ومسلم ح (٢٤٩٤). وفتح الباري (١٢/ ٣٢٤).
(٢) –رواه البخاري ح (٣٩٢٩). عمدة القاري (١٧/ ٢٦٩). وراجع دلائل النبوة للسقار فقد جمع الكثير من الروايات الصحيحة ص ٤–٦٠
(٣) –رواه البخاري ح (٢٩٢٤).
(٤) –فتح الباري (١١/ ٨٠). ورواه البخاري ح (٢٧٨٩)، ومسلم ح (١٩١٢). ذكره الطبراني في الكبير ح (٣١٦)، وأبو نعيم في الحلية ح (٢/ ٦٢).
(٥) –المنتقى شرح الموطأ (١/ ٤٢٠).
(٦) –رواه البخاري ح (٣١٧٦).

ودخلته ،وأما العلامة الأخيرة، وهي الهدنة ثم الحرب مع بني الأصفر– وهم الروم – فقد اتفق العلماء على أنها لم تقع، وأن ذلك يكون في فتن وملاحم آخر الزمان ، قال ابن حجر: " وفيه أشياء من علامات النبوة قد ظهر أكثرُها". [١]

ومنها: مما أخبر به من المغيبات–التي أطلعه الله عليها لتكون برهان نبوته –قدومُ أُويس القَرَني من اليمن، وقد ذكرﷺ لأصحابه بعضَ صفته وأحواله، فقال: (إن رجلاً يأتيكم من اليمن، يقال له: أُويس، لا يدع باليمن غيرَ أمٍ له، قد كان به بياض، فدعا الله فأذهبه عنه؛ إلا موضعَ الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم) [٢]. وقد كان كما أخبرﷺ، فقد أقبل أهل اليمن زمن عمر؛ فجعل يستقري الرفاق، فيقول: هل فيكم أحد من قَرَن؟ حتى أتى على قرن، فقال: من أنتم؟ قالوا: قَرَن. قال: فوقع زِمامُ عمر أو زِمام أويس، فناوله أحدهما الآخر، فعرفه فقال عمر: ما اسمك؟ قال: أنا أويس. فقال: هل لك والدة؟ قال: نعم. قال: فهل كان بك من البياض شيء؟ قال: نعم، فدعوتُ اللهَ عز وجل فأذهبَه عني إلا موضعَ الدِرهم من سُرَّتي لأذكر به ربي فقال له عمر: استغفر لي. قال: أنتَ أحقُّ أن تستغفر لي، أنت صاحب رسول الله فقال عمر: إني سمعت رسول الله يقول: وقصّ عليه ما أخبره رسول الله فاستغفَر له أويس، ثم دخل في غِمار الناس، فلم يُدر أين وقع [أي ذهب] قال النووي: "وفي قصة أويس هذه معجزات ظاهرة لرسول الله.([٣])

ومنها: إخباره عن ظهور الدجالين الذين يدَّعون النبوة، فقال محذراً منهم: (لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله).وفي رواية: (في أمتي كذابون ودجالون، سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين، لا نبي بعدي). قال ابن حجر: "وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً؛ فإنهم لا يُحصَون كثرة، لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون .. وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدت له شبهة ". [٤]

وأول النسوة الأربع اللاتي يتنبأن بالكذب سجاحُ التميمية التي ادعت النبوة في وسط الجزيرة العربية، قال ابن حجر: "وقد ظهر مصداق ذلك في آخر زمن النبيﷺ، فخرج مسيلمة باليمامة والأسود العنسي باليمن ثم خرج في خلافة أبي بكر طليحةُ بن خويلد في بني أسد بن خزيمة وسجاح التميمية في بني تميم"([٥]) وقد نصّ النبي ﷺ وأنبأ عن دجالَيْن يظهر أمرهما بعده، وقد ادعيا النبوة في آخر حياته ﷺ وهما مسيلمةُ الكذاب في اليمامة، والأسودُ العنسي في اليمن.

فقد رأى النبي في رؤياه أن في يديه سِوارين من ذهب، يقولﷺ: (فأهمني شأنُهما، فأُوحي إليَّ في المنام أن انفُخْهما، فنفختُهما، فطارا، فأوَّلْتُهما كذابَيْن يخرجان بعدي). وقد تحققت رؤياه، فكان مسيلمة أول الكذابَين، فقد قدم المدينة على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبِعتُه، فأقبل إليه رسول الله وفي يده قطعة جريد فقال: (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتُكَها، ولن تعدوَ أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقِرَنك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيك ما رأيت). قال أبو هريرة: (فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة). [٦] قال النووي: "قوله: (ولئن أدبرت ليعقرنك الله) أي إن أدبرت عن طاعتي ليقتلنك الله .. وقتله الله تعالى يوم اليمامة، وهذا من معجزات النبوة ". [٧]

ومثله رد الله كيد أخيه في الضلالة الأسودِ العنسي ثانيَ الكذابَيْن وذلك لما ادعى النبوة قبيل وفاة النبي وتابعه قوم من أعراب اليمن فقوي، واشتد بهم ساعِدُه فقتله الله على يد فيروزٍ الديلمي وبعضِ المسلمين من أهل اليمن، بمساعدة زوجة

---

(١) –فتح الباري (٦/ ٣٢١).
(٢) –رواه مسلم ح (٢٥٤٢).
(٣) –رواه أحمد ح (٢٦٨)، والمرفوع إلى النبي رواه مسلم ح (٢٥٤٢). وشرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٩٤).
(٤) –الحديث الأول رواه البخاري ح (٣٦٠٩) ومسلم ح (١٥٧). والثاني:(٣) رواه أحمد ح (٢٢٨٤٩)، وجوَّد إسنادَه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح (٧٧٠٧). وفتح الباري (٦/ ٧١٤).
(٥) –فتح الباري (٦/ ٧١٤).
(٦) –رواه البخاري ح (٣٣٥١)، ومسلم ح (٤٢١٨).
(٧) –شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٣٣).

الدعي الكذاب، فتحقق فيه ما رآه النبي في رؤياه فصارت ضلالته هباء تذروه الرياح {فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال} (الرعد: ١٧).

ومن الكذابين الذين ادعوا النبوة؛ كذابٌ أنبأ النبي أنه يخرج في ثقيف، وخبره نبأ صدق ترويه أسماء بنت الصديق، فقد دخلت على الحجاج بن يوسف الثقفي بعد مقتل ابنها عبد الله بنِ الزبير فقالت للحجاج: (إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومُبيراً، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالُكَ إلا إياه). [١] قال النووي: " المبير: المهلك، وقولها في الكذاب: (فرأيناه) تعني به المختارَ بنَ أبي عبيد الثقفي، كان شديد الكذب، ومن أقبحه [أنه] ادعى أن جبريل يأتيه، واتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختارُ بنُ أبي عبيد، وبالمبير الحجاجُ بنُ يوسف"، [٢] ومن أخبار المختار الكذاب ما ينقله لنا التابعي رِفاعة بنُ شداد، حيث يقول: دخلت على المختار الثقفي ذات يوم، فقال: جئتني والله، ولقد قام جبريل عن هذا الكرسي ، يقول رِفاعة: فأهويت إلى قائم سيفي [أي ليقتله]، فذكرتُ حديثاً حدثناه عمرو بن الحَمِقِ قال: سمعت رسول الله يقول: (إذا اطمأن الرجل إلى الرجل، ثم قتله بعدما اطمأن إليه؛ نُصب له يوم القيامة لواءُ غدر) قال رِفاعة: فكففتُ عنه.[٣] وهكذا كان تنبؤ المختارِ الثقفيِ مُصدقاً لخبر أنبأ به النبي عن الكاذب الذي يخرج في ثقيف، كما كان الحجاج هو الظالم الذي يكون من ثقيف، وهذا خبر وحي أخبره به ربه علام الغيوب.

ولن ينقطع هؤلاء الكذابون في التاريخ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم)[٤] ومن هؤلاء الدجالين الذين جاؤوا بالمنكر من القول المتنبئ الكذاب ميرزا غلام أحمد القادياني الذي ظهر قبل قرن من الزمان في الهند، وردّ أحاديث النبي ثم ادعى النبوة. وقد أخبر النبي عن ضلالة هذا الدعي فيما رواه عنه المقدام بنُ معدي كرب حيث قالﷺ: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحِلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه). [٥]

قال المباركفوري: "وهذا الحديث دليلٌ من دلائل النبوة وعلامةٌ من علاماتها، فقد وقع ما أخبر به، فإن رجلاً قد خرج في البنجاب من إقليم الهند، وسمى نفسه بأهل القرآن، وشتان بينه وبين أهل القرآن، بل هو من أهل الإلحاد فأطال لسانه في رد الأحاديث النبوية بأسرها وقال: هذه كلها مكذوبةٌ ومفترياتٌ على الله تعالى، وإنما يجب العمل على القرآن العظيم فقط، دون أحاديث النبي وإن كانت صحيحةً متواترةً". [٦] وهكذا، فإن إخبار النبيﷺ بخبر هؤلاء الكذابين إنما هو إخبار ببعض غيب الله الذي أطلعه الله عليه، ليكون تحققه دليلاً على صدق النبي وبرهاناً على نبوته ورسالته.

البحث الرابع: إخبارهﷺ بكيفية ومكان وفاة بعض معاصريه.

ومن دلائل نبوته وأمارات رسالته ﷺ ما أخبر به عن أمور تتعلق بوفاة بعض أصحابه وأهل بيته وغيرهم من أعدائه، وتبيانه لكيفية ومكان وحال مصرعهم، وهو علم لا يعرفه النبي من تلقاء نفسه، فالموت وما يتعلق به علم اختص الجبار ﷻ نفسَه بمعرفته، فهو وحده من يعرف أعمار البشر وأماكن قبض أرواحهم، فلا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب

---

(١) –رواه مسلم ح (٤٦١٧).
(٢) –شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٠٠).
(٣) –رواه الحاكم (٤/ ٣٩٤)، وابن ماجه ح (٢٦٨٨)، وصححه ابن حجر في الفتح (٦/ ٧١٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٢١٧٧).
(٤) –رواه مسلم في مقدمة صحيحه ح (٧).
(٥) –رواه أبو داود ح (٤٦٠٤)، وابن ماجه ح (١٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ح (١٦٣).
(٦) –تحفة الأحوذي (٧/ ٣٥٤).

غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت} [لقمان: ٣٤] وقد أعلم الله نبيه بزمان أو كيفية موت بعض أصحابه وأهل بيته، كذلك بعض أعدائه، فأخبر به فكان تحققه برهاناً على نبوته وعلماً من أعلام رسالته، إذ لا يمكن لأحد معرفة ذلك ولا التنبؤ به إلا من قِبلِ اللهِ علامِ الغيوب.

ومن هذه الأنباء الباهرة إخبارُه عن شهادة عمرَ وعثمانَ وعلي وطلحة والزبير، رضي الله عنهم أجمعين ولم يخبر ذلك عن أبي بكر ولا خالد ولا عمرو بن العاص!!، وأن موتهم سيكون شهادة، وأنهم لن يموتوا على فُرُشِهم أو سواه مما يموت به الناس فقد صعد رسول اللهﷺ على حراء، هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليُ وطلحةُ والزبيرُ، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله: (اهدأ، فما عليك إلا نبيٌ أو صديقٌ أو شهيد) فشهد ﷺ لنفسه بالنبوة، ولأبي بكر بالصديقية، ولعثمانَ وعليَ وطلحةَ بالشهادة، قال النووي: " وفي هذا الحديث معجزاتٌ لرسول الله: منها إخبارُه أنّ هؤلاء شهداء وماتوا كلُّهم غيرَ النبي ﷺ وأبي بكر شهداء فإنّ عمرَ وعثمان وعليّاً وطلحة والزّبير قُتلوا ظلماً شهداء فقتلُ الثلاثةِ [أي عمر وعثمان وعلي] مشهور، وقُتلَ الزّبير بوادي السّباع بقرب البصرة منصرفاً تاركاً للقتال، وكذلك طلحة، اعتزل النّاس تاركاً للقتال، فأصابه سهم، فقتله، وقد ثبت أنّ من قُتل ظلماً فهو شهيدٌ". (١)

وقد بشّر النبيﷺ عمر بالشهادة مرة أخرى حين رآه يلبس ثوباً أبيضَ فقال له: (أجديدٌ ثُوبُك أم غسيل؟) قال: لا، بل غسيلٌ. فقال النبيﷺ (إلبس جديداً، وعِش حميداً، ومُت شهيداً). (٢) وكان كما قال عليه الصلاة والسلام، فقد قتله أبو لؤلؤة المجوسي وهو قائم يصلي الصبح إماماً بالمسلمين في مسجد النبي سنة ثلاث وعشرين للهجرة النبوية، ليكون مقتله مصداقاً لنبوءة النبيﷺ وعلامةً من علامات نبوته ورسالته.

وأما المؤمنين المظلوم عثمان بن عفان، فقد بشّره النبيﷺ بشهادته، وأنبأه أنها ستكون في فتنة طلب منه أن يصبر عليها، وذلك لما جلس أبو موسى الأشعري مع النبي ﷺعلى بئر أريس في حائط من حيطان المدينة، يقول أبو موسى: فجاء إنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عثمانُ بن عفان. فقلتُ: على رِسْلك، فجئتُ إلى رسول اللهﷺ فأخبرته، فقال: (ائذن له، وبشره بالجنة على بلوى تصيبه)، يقول أبو موسى: فجئتُه، فقلت له: ادخل وبشّرك رسول اللهﷺ بالجنة على بلوى تصيبُك. (٣) وفي رواية أن عثمان (حمِد الله، ثم قال: اللهُ المستعان). (٤) أي حمِد الله على بشارة النبي له بالجنة، وطلب من الله العون على بلائه حين تصيبه الشهادة.

وثالث المبشرين بالجنة في قولهﷺ (اهدأ، فما عليك إلا نبيٌ أو صديق أو شهيد). (٥) هو عليرضي الله عنه أبو السِّبْطين، وقد أنبأه رسول الله في حديث آخر بأن الأشقى [أي ابن ملجِم] سيقتله بضربة في صِدْغَيه، وذات يوم مرِض عليرضي الله عنه مرضاً شديداً، فزاره أبو سنان الدؤلي، فقال له: لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه، فقال له علي: لكني والله ما تخوفتُ على نفسي منه، لأني سمعتُ رسولَ الله الصادقَ المصدوقَ يقول: (إنك ستُضرب ضربةً ها هنا، وضربةً ها هنا–وأشار إلى صُدغَيه–فيسيل دمها حتى تختضب لحيتُك، ويكونَ صاحبها أشقاها، كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود)). (٦) ولأجل هذا الحديث ما كان يخاف على نفسه الهلكة في مرضه.

ومنها: وتقبل فاطمة بنت النبي تمشي، فيقول لها أبوها: (مرحباً بابنتي)، تقول أم المؤمنين عائشة: ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثاً، فبكت، ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكتْ. فقلت لها: ما رأيتُ كاليوم فرحاً أقرب

---

(١) –شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ١٩٠)

(٢) –رواه أحمد ح (٥٣٦٣)، وابن ماجه ح (٣٥٥٨)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٢٨٦٣).

(٣) –رواه البخاري ح (٣٦٧٤).

(٤) –رواه البخاري ح (٣٦٩٣).

(٥) –رواه مسلم ح (٢٤١٧).

(٦) –رواه الحاكم (٣/ ١٢٢)، والطبراني في الكبير ح (١٧٣). قال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد (٩/ ١٨٨).

من حزن، فسألتُها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأُفشي سِرَّ رسول الله ﷺ فلما قُبِض النبيُّ سألتُها، فقالت: أسرَّ إلي: (إن جبريل كان يعارضني القرآن كلَ سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أولُ أهلِ بيتي لحاقاً بي، فبكيتُ، فقال ﷺ : أما ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساء أهل الجنة أو نساءِ المؤمنين)، فضحكتُ لذلك، [١]وفي رواية أخرى أنها قالت: (فأخبرني أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه؛ فبكيت، ثم سارَّني، فأخبرني أني أولُ أهلِ بيته أتبعُه؛ فضحكت) ، وفي هذا الحديث يخبر النبي بثلاث غيوب، أولُها: اقترابُ أجله، وقد مات عليه الصلاة والسلام في تلك السنة. وثانيها: إخبارُه ببقاء فاطمة بعده، وأنها أولُ أهل بيته وفاة. وقد توفيت بعدهﷺ بستة أشهر فقط، فكانت أولَ أهل بيته وفاة. وثالثها: أنها سيدةُ نساء أهل الجنة، رضي الله عنها. قال النووي: " هذه معجزة ظاهرة لهﷺ بل معجزتان فأخبر ببقائها بعده وبأنها أول أهله لحاقاً به ووقع كذلك وضحكت سروراً بسرعة لحاقها". [٢]

ومنها: حديثه عن وفاة سِبطُه الحسين بن علي ريحانة أهل الجنة، فقد قال النبيﷺ لإحدى أزواجه: (لقد دخل علي البيت ملَك لم يدخل عليَّ قبلَها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتُك من تربة الأرض التي يقتل بها. قال: فأخرج تربة حمراء). [٣]، وهكذا كان فقد قُتلرضي الله عنه في كربلاء العراق عام ٦٠ هـ، فمن أدرى نبيهﷺ بأن الحسين مقتول؟ ومن الذي أراه تربة مقتله؟ إنه الله العليم.

والأعجب منه تنبؤ النبي بشهادة امرأة، وهي أم ورقةَ بنتَ عبد الله بن الحارث، فقد كان رسول الله يزورها كل جمعة، وكان يسميها الشهيدة فيقول: (انطلقوا نزور الشهيدة). وذلك أنها قالت: يا نبي الله، أتأذنُ فأخرجُ معك، أمرّضُ مرضاكم، وأداوي جرحاكم، لعل الله يُهدي لي شهادة؟ قال: (قَرّي، فإن الله عز وجل يُهدي لك شهادة). وقد أدركتها الشهادة زمن عمر وكانت أعتقت جارية لها وغلاماً عن دُبرُ منها [أي يُعتقان بعد وفاتها] فطال عليهما، فغمّاها [أي خنقاها] في القطيفة حتى ماتت[٤] فكانت وفاتُها شهادة كما أخبر النبي فكيف جزم النبي بوفاتها غيلة دون سائر الميتات، وهو أمر يندر في النساء؟ إنه دليلٌ آخرُ من دلائل نبوته ورسالته.

ومن دلائل نبوتهﷺ إخبارُه عن موت النجاشي في أرض الحبشة في يوم وفاته، وهذا خبر تحمله الركبان يومذاك في شهر، يقول أبو هريرة (نعى رسول الله النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى، فصف بهم، وكبر أربعاً). [٥] قال المباركفوري: "وفيه عَلَمٌ من أعلام النبوة لأنه أعلمهم بموته في اليوم الذي مات فيه، مع بُعدِ ما بين أرض الحبشة والمدينة". [٦]

وفي اليوم السابق ليوم بدر، تفقد رسول الله أرض المعركة المرتقبة، وجعل يشير إلى مواضع مقتل المشركين فيها، ويقول: (هذا مصرع فلان). قال أنس: ويضع يده على الأرض هاهنا هاهنا فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول اللهﷺ [٧] وأخبر بقتل المسلمين لأميّة بن خلف رأس الشرك الذي أذاق المسلمين الويلات بمكة.

منها إخباره عن سوء خاتمة رجل قاتل مع المسلمين فأحسن البلاء والجلاد، وانبهر الصحابة بأفعاله، يقول أبو هريرة شهدنا مع رسول اللهﷺ فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: (هذا من أهل النار). يقول أبو هريرة: فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلتَ له: إنه من أهل النار؛ فإنه قد قاتل اليوم قتالاً

---

(١) –رواه البخاري ح (٣٦٢٤)، ومسلم ح (٢٤٥٠)

(٢) –رواه البخاري ح (٣٦٢٦)، ومسلم ح (٢٤٥٠). وشرح النووي (١٦/ ٥).

(٣) –رواه أحمد في المسند ح (٢٥٩٨٥)، والحاكم (٣/ ١٩٤)، ووافقه الذهبي على تصحيحه، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد (٩/ ٣٠١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٨٨٢).

(٤) –رواه أحمد ح (٢٦٥٣٨)، وأبو داود ح (٥٧١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ح (٥٥٢).

(٥) –رواه البخاري ح (١٢٥٤).

(٦) –تحفة الأحوذي (٤/ ١١٥).

(٧) –رواه مسلم ح (١٧٧٩).

شديداً، وقد مات! فقال النبيﷺ (إلى النار). قال أبو هريرة: فكاد بعض الناس أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحاً شديداً. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأُخبر النبيﷺ بذلك، فقال: (الله أكبر، أشهد أني عبدُ الله ورسولُه) ثم أمر بلالاً فنادى بالناس: (إنه لا يدخلُ الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجلِ الفاجر). (١)

البحث الخامس: إخبارهﷺ بأخبار الفتن التي ستقع بأمته من بعده !؟.

وإن مما أخبر عنه من الغيوب الدالة على نبوته؛ أخبار الفتن التي وقعت بين أصحابه بعد وفاته فكان إخباره بذلك برهان نبوته وعَلم رسالته. أشرفَ النبيﷺ يوماً على أُطم من آطام المدينة فقال لأصحابه: (هل ترون ما أرى؟) قالوا: لا. قال: (فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر). (٢) قال النووي: "والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي: أنها كثيرة، وتعُمُّ الناس، لا تختص بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم، كوقعة الجمل وصِفِّين والحرة، ومقتلِ عثمان، ومقتلِ الحسين وغيرِ ذلك، وفيه معجزة ظاهرة له(٣) ويبين ابن حجر معنى اختصاص المدينة بالفتن، فيقول: "وإنما اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب قتل عثمان، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولد عنه (٤)

أخبر النبي عثمان ببعض معالم هذه الفتنة فقال له: (يا عثمانُ، إنه لعل الله يقمّصُك قميصاً، فإن أرادوك على خلعه، فلا تخلعه لهم). (٥) لقد أنبأه رسول الله كما سبق أنه يموت شهيداً، وها هو ينبئه عن خلافته، وأن ثمةَ من يريد خلعَه من هذه الخلافة، فطلب منه النبيﷺ عدم موافقتهم عليه، وكل ذلك من أخبار الغيب الصادقة الدالة على نبوّته، ووصف النبي بدقة معالم هذه الفتن التي تتابعت بعد مقتله، وكأنهﷺ يراها، وفي مقدمتها الفتنة الكبرى التي اقتتل فيها الصحابة في معركتي الجمل وصفين، وذلك بعد وفاته بثلاثين سنة، فيقول: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان، دعواهما واحدة). (٦) قال ابن كثير: "وهاتان الفئتان هما أصحاب الجمل وأصحاب صفين، فإنهما جميعاً يدعون إلى الإسلام، وإنما يتنازعون في شيء من أمور الملك ومراعاة المصالح العائد نفعها على الأمة والرعايا، وكان ترك القتال أوْلى من فعله، كما هو مذهب جمهور الصحابة". (٧) قال ابن حجر: " قوله: ((دعواهما واحدة)) أي دينهما واحد، لأن كلا منهما كان يتسمى بالإسلام أو المراد أن كلا منهما كان يدعي أنه المحق". (٨)

وكما تنبأﷺ بظهور الخوارج، وحدد صفاتهم وسماتهم، لما جاءه ذو الخويصرة متهماً النبيَّﷺبالظلم في قسمة الغنائم قال: (إن له أصحاباً، يحقِر أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم، وصيامَه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ... آيَتُهُم رجلٌ أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثلُ البضعة تدردر، ويخرجون على خير فرقةٍ من الناس) قال أبو سعيد الخدري: (أشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول اللهﷺ ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالتُمِس، فأتي به حين نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته).

---

(١) -رواه البخاري ح (٣٦٠٢).
(٢) -رواه البخاري ح (٧٠٦٠)، ومسلم ح (٢٨٨٥).
(٣) -شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٧ -٨).
(٤) -فتح الباري (١٣/ ١٦).
(٥) -رواه الترمذي ح (٣٧٠٥)، وأحمد في المسند ح (٢٤٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح (٢٩٢٣٣). تحفة الأحوذي (١٠/ ١٣٧).
(٦) -رواه البخاري ح (٦٩٣٦).
(٧) -البداية والنهاية (٦/ ٢١)
(٨) -فتح الباري (٦/ ٧١٣).

(١) قال النووي: "وفي هذا الحديث معجزات ظاهرة لرسول الله فإنه أخبر بهذا، وجرى كله كفلق الصبح، ويتضمن بقاء الأمة بعده وأن لهم شوكة وقوة، خلاف ما كان المبطلون يشيعونه، وإنهم يفترقون فرقتين، وأنه يخرج عليه طائفة مارقة، وأنهم يشددون في الدين في غير موضع التشديد ويبالغون في الصلاة والقراءة ولا يقيمون بحقوق الإسلام، بل يمرقون منه وأنهم يقاتلون أهل الحق وأن أهل الحق يقتلونهم وأن فيهم رجلاً صفة يده كذا وكذا، فهذه أنواع من المعجزات جرت كلها ولله الحمد"(٢)

وثمة ميزان آخر للفتنة، إنه عمار بن ياسر، رآه النبيﷺ عند بناء مسجده يحمل لِبِنَتين لبنتين، فيما كان الصحابة يحملون لِبنة لبِنة، فجعلﷺ ينفض التراب عنه، ويقول: (ويح عمار، تقتلُه الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار) قال أبو سعيد: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.(٣) قال النووي في شرحه للحديث: " وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه: منها أن عمارًا يموت قتيلاً، وأنه يقتله مسلمون، وأنهم بُغاةٌ، وأن الصحابة يقاتِلون، وأنهم يكونون فِرقتين: باغية، وغيرها، وكل هذا قد وقع مثل فلق الصبح، صلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى". (٤) وقال ابن عبد البر: "وتواترت الآثار عن النبيﷺ أنه قال: (تقتل عمارَ الفئةُ الباغية) وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوتهﷺ وهو من أصح الأحاديث". (٥) وقد قتِل عمارُ في جيش عليٍّ سنة سبع وثلاثين للهجرة النبوية، فكان دليلاً آخر على صحة موقف أبي الحسن علي وهو أيضاً دليل على صحة نبوة نبينا وإلا فمن ذا الذي أخبر النبي بما يقع بعد وفاته من تمايز المسلمين إلى فئتين، وأن الباغية منهما تقتل عماراً؟ لا ريب أنه وحي الله الذي يعلم السر وأخفى.

ومما أخبر به النبي من أخبار الفتن إخباره عن خروج إحدى أزواجه على جمل، وأنه يقتل حولها كثير من المسلمين، فعن ابن عباس رضي الله عنها قال: قال رسول الله: (أيتُكنَّ صاحبة الجمل الأدبب [أي كثير وبر الوجه]، يقتل حولها قتلى كثيرة، تنجو بعدما كادت). (٦) وقد تحققت نبوءتهﷺ حين سارت عائشة جهة البصرة قبيل وقعة الجمل، فلما بلغت مياه بني عامر نبحت الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب، قالت: ما أظنني إلا أني راجعة. فقال لها الزبير: بل تقدمين، فيراك المسلمون، فيصلح الله عز وجل بينهم، قالت: إن رسول الله قال لي ذات يوم: (كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب) (٧) فتحقق ما أخبرها به النبيﷺ بعد وفاته بخمس وعشرين سنة، ليكون إنباؤه دليل صدقه وبرهان نبوته.

وكما أخبرﷺ عن الفتن التي تفرق المسلمين فإنه أنبأ عن التئام شمل المسلمين على يد الحسن بن علي رضي الله عنهم، يقول أبو بكرة بينا النبيﷺ يخطب جاء الحسن، فقال عليه الصلاة والسلام: (ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين). (٨) وقد كان كما أخبرﷺ فقد تنازل الحسن لمعاوية عن الملك عام أربعينَ من الهجرة، فسُمِّيَ عامَ الجماعة لاجتماع المسلمين فيه على خليفة واحد بعد طول فرقة واختلاف، قال ابن حجر: "وفي هذه القصة من الفوائد علم من أعلام النبوة، ومنقبة للحسن بن علي؛ فإنه ترك الملك، لا لقلة، ولا لذلة، ولا لعلة بل لرغبته فيما عند

(١) –رواه البخاري ح (٣٦١٠)، ومسلم ح (١٠٦٤). رواه مسلم ح (١٠٦٥). فتح الباري (١٢/ ٣١٤).
(٢) –شرح صحيح مسلم (٧/ ١٦٦ –١٦٧).
(٣) –رواه البخاري ح (٤٢٨)، ومسلم ح (٥١٩٢) واللفظ للبخاري.
(٤) –شرح النووي على صحيح مسلم (٨/ ٤٠).
(٥) –الاستيعاب (٢/ ٤٨١).
(٦) –رواه ابن أبي شيبة في المصنف ح (٣٧٧٨٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه البزار ورجاله ثقات" (٧/ ٤٧٤).
(٧) –رواه أحمد ح (٢٣٧٣٣)، والحاكم (٣/ ١٢٩)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية: "هذا إسناد على شرط الصحيحين (٦/ ٢١٢).
(٨) –رواه البخاري ح (٧١٠٩). انظر العبر، الذهبي (١/ ٩).

الله، لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة ". [١] وفي ذلك كله شهادات تترى على نبوة النبي الذي خصه الله بهذه الأخبار من غيبه، فتحققت.

البحث السادس: إخبارهﷺ بفتوح أمته للبلدان

ومن الغيوب الدالة بتحققها على نبوة النبيﷺ ما أخبر عنه مراراً من انتشار الإسلام وظهور أمره على الأديان، وبلوغه إلى الآفاق، وهو أمر غيب لا مدخل فيه للتخمين ورجم الظنون، فإما أنه كاذب صادر من دعي، أو هو خبر صادق أوحاه الله الذي يعلم ما يُستقبَل من الأحداث والأخبار. وشواهد ذلك كثيرة في القرآن والسنة، منها قوله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} [التوبة: ٣٣]، وقد صدقه الله فقد ظهر أمره، وتم نوره، وعظُم دينه، قالﷺ منبئاً عن ملك أمته وسلطانها: (إن الله زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقَها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زوي لي منها، وأعطيتُ الكنزيْن الأحمرَ والأبيض). [٢] وهذا الحديث فيه معجزاتٌ ظاهرة وقد وقعت كلُّها بحمد الله كما أخبر بهﷺ المراد بالكنزين الذّهب والفضّة، والمراد كنزَيْ كسرى وقيصر، ملِكي العراق والشّام، وفيه إشارة إلى أنّ مُلكَ هذه الأمّة يكون معظم امتدادِه في جهتي المشرق والمغرب، وهكذا وقع، وأمّا في جهتي الجَنوب والشّمال فقليل بالنّسبة إلى المشرق والمغرب". [٣] فقد أعلمه الله بانتشار دينه، وبسؤدد أتباعه وأمته من بعدِه على فارس والروم وغيرها من البلاد ومثل هذه النبوءة العظيمة بل أعظم منها تنبؤه ﷺ عن بلوغ دينه إلى أقاصي الأرض، في قوله: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وبرٍ، إلا أدخله اللهُ هذا الدين، بعز عزيز، أو بذلِّ ذليل، عزاً يُعز الله به الإسلام، وذُلاً يذل الله به الكفر[٤]).

منها تنبؤهﷺ بنصر بدر العظيم وهو في مكة حين كان المسلمون يعانون صنوف الاضطهاد ويُسامون سوء النكال؛ وفي وسط هذا البلاء نزل على النبيﷺ قوله تعالى: {أكفاركم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءةٌ في الزبر-أم يقولون نحن جميعٌ منتصرٌ-سيهزم الجمع ويولون الدبر-بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ} [القمر: ٤٣ – ٤٦] فقال عمر بن الخطاب [أي في نفسه]: أي جمع يهزم؟ أي جمع يُغلَب؟ فلما كان يوم بدر رأيتُ رسول الله يثِب في الدرع، وهو يقول: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} فعرفتُ تأويلها يومئذ [٥] فهذه الآية نزلت قبل الهجرة بسنوات؛ تتحدث عن غزوة بدر واندحار المشركين فيها، وتتنبأ بهزيمتهم وفلول جمعهم.

ومما بشّر به ﷺ فتحقق بعده كما أخبر بشارتُه بفتوح اليمن والشام والعراق واستيطان المسلمين بهذه البلاد، حيث قالﷺ :(تُفتَح اليمن فيأتي قوم يُبِسُّون(يزيّنون لهم ليرحلوا إليهم) فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح الشام فيأتي قومٌ يُبِسُّون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح العراق فيأتي قومٌ يُبِسُّون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)[٦] في هذا الحديث معجزاتٌ لرسول الله لأنه أخبر بفتح هذه الأقاليم، وأن الناس يتحملون بأهليهم إليها ويتركون المدينة، وأن هذه الأقاليم تفتح على هذا الترتيب [اليمن ثم الشام ثم العراق]، ووجِد جميعُ ذلك كذلك ويؤكد ابن عبد البر وابن حجر: "افتتحت اليمن في أيام النبيﷺ وفي أيام أبي بكر وافتتحت الشام بعدها والعراق بعدها، وفي هذا الحديث عَلم من أعلام النبوة، فقد وقع

---

(١) -فتح الباري (١٣/ ٧١). راجع للتوسع دلائل النبوة لمنقذ السقار بحث الفصل الآول
(٢) -رواه مسلم ح (٢٨٨٩).
(٣) -شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١٣).
(٤) -رواه أحمد ح (١٦٥٠٩).
(٥) -رواه أحمد ح (١٦٥٠٩). جامع البيان (٢٢/ ٦٠٢).
(٦) -رواه مسلم ح (١٨٧٥).

على وفق ما أخبر به النبي وعلى ترتيبه، ووقع تفرق الناس في البلاد لما فيها من السعة والرخاء، ولو صبروا على الإقامة بالمدينة لكان خيرًا لهم". (١)

وأما فتح فارس فقد بشر به رسول اللهﷺ أصحابه، فقال: (لتفتحن عصابة من المسلمين كنز آل كسرى الذي في الأبيض).(٢) وتحقق الوعد زمنَ خلافة عمر بن الخطاب، ففتحه الصحابة فكان أول من رأى القصر الأبيض ضرار بن الخطاب، فجعل الصحابة يكبرون ويقولون: هذا ما وعدنا الله ورسوله. (٣)

وكذا أخبر النبيﷺ بفتح مصر ودعا إلى الإحسان إلى أهلها إكراماً لهاجر أم إسماعيل فقد كانت من أرض مصر كما أخبر بدخول أهلها في الإسلام واشتراكهم مع إخوانهم في التمكين له قالﷺ (إنكم ستفتحون مصر .. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذِمة ورحماً)، في رواية لابن حبان: (فاستوصوا بهم خيرًا، فإنهم قوة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله). والتفت النبيﷺ إلى أبي ذر فقال: (فإذا رأيتَ رجلين يختصمان فيها في موضع لَبِنة فاخرج منها).

وتحقق ذلك زمنَ خلفائه الراشدين، فكان أبو ذر ممن فتح مصر وسكنها، يقولرضي الله عنه فرأيت عبدَ الرحمنِ بنَ شرحبيلَ بنِ حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لَبِنة، فخرجت منها. (٤) قال النووي: "وفيه معجزة ظاهرة لرسول اللهﷺ منها إخباره بأن الأمةَ تكون لهم قوة وشوكة بعده، بحيث يقهرون العجم والجبابرة، ومنها أنهم يفتحون مِصر، ومنها تنازع الرجلين في موضع اللَبِنة، ووقع كلُ ذلك ولله الحمد". (٥)

ومنها ما أخبر النبي أن الفتوح التي تقع على أيدي أصحابه ومن بعدهم، تستمر إلى ثلاثة أجيال بعده قبل أن تتوقف، ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن النبيﷺ قال: (يأتي على الناس زمانٌ يغزو فِئام من الناس، فيقال لهم: فيكم من رأى رسول اللهﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب رسولَ اللهﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول اللهﷺ فيقولون: نعم. فيفتح لهم). (٦)

ولا تتوقف نبوءات النبي عند فتوح العراق والشام ومصر زمن أصحابه، بل يمتد إخبارُه ليحدث عن فتح بلاد بعيدة المنال، عصية القلاع، القسطنطينية عاصمة دولة الروم، يقولﷺ: (لتُفتحن القسطنطينية فلنِعمَ الأميرُ أميرُها، ولنعم الجيشُ ذلك الجيش)، قال عبد الله بن بشر الخثعمي راوي الحديث: فدعاني مسلمة بن عبد الملك، فسألني فحدثته، فغزا القسطنطينية (٧) فلقد جزم مسلمة بتحقق هذه النبوءة، فأراد أن يحوز شرفها، فغزا القسطنطينية، لكن الله اختبأها لفتى بني عثمان محمدٍ الفاتح رحمه الله، فكان فتحُه لها دليلاً آخر على نبوة النبي لكن العجيب المدهش الذي يلوي الأعناق من أخبار الفتوح أن بعض هذه الأخبار كانت في وقت ضيق المسلمين وعلى خلاف ما توحي به الأحداث، بل على عكسه ونقيضه، لقد كان النبي يتنبأ – وهو في ضنك البلاء وأُوار المحنة – بما لا يمكن لأحد أن يحلُم به ولو في رؤياه(٨) ،فلقد خرج على أصحابه وهم يعذبون بالنار والحديد في بطحاء مكة، وفيهم خباب بن الأرَتّ، الذي تقدم إليه شاكياً فقال: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقالﷺ: ((كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو

(١) –شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٥٩). وفتح الباري (٤/ ١١٠).
(٢) –رواه مسلم ح (٢٩١٩).
(٣) –انظر البداية والنهاية (٧/ ٦٤).
(٤) –رواه مسلم ح (٢٥٤٣)، ورواية ابن حبان رواها في صحيحه، الموارد ح (٢٣١٥).
(٥) –شرح صحيح مسلم (١٦/ ٩٧).
(٦) –رواه البخاري ح (٣٦٤٩)، ومسلم ح (٢٥٣٢) واللفظ له.
(٧) –رواه أحمد ح (١٨٤٧٨)، وحسّن إسناده ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢٥٠)، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٦٨)، وقال: هذا حديث صحيح
(٨) –راجع دلائل النبوة للسقار ففيه مزيد

عصب، وما يصده ذلك عن دينه"، ثم بشره النبي ببشارة عظيمة مذهلة فقال: ((والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)). [١] إنهﷺ يتنبأ بتمام أمر دينه، وبأمن أصحابه في زمنٍ ما كانوا يجرؤون فيه على إعلان دينهم خوفاً من بطش قريش وعذابها.

وفي المدينة المنورة ألقى الخوف بظلاله على المسلمين، ولنسمع إلى أُبي بن كعب وهو يصف حالهم: لما قدم رسولُ اللهﷺ وأصحابُه المدينة، وآواهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه. فقالوا: ترون أنَّا نعيشُ حتى نبيتَ مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟ فنزل قوله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً} (النور: ٥٥) وكان كذلك، فقد أمَّنهم الله من بعد خوفهم، وسوَّدهم الأرض، واستخلفهم فيها من بعد ذلتهم، ومكَّن لهم دينهم في مشارق الأرض ومغاربها. قال القرطبي: " وقد فَعلَ اللهُ ذلك بمحمدٍ وأمتِه، ملّكَهُم الأرض، واستخلفهم فيها، وأذل لهم ملوكاً تحت سيف القهر بعد أن كانوا أهل عز وكبر، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم([٢]){وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد} [الزمر: ٢٠]".

وفي موقف آخر من المواقف الصعبة التي عانى منها الصحابة أتى عدي بن حاتم النبيﷺ، وبينما هو عنده؛ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فالتفت النبيﷺ إلى عَدي، وقال: ((فلعلك إنما يمنعك عن الإسلام أنك ترى من حولي خصاصة، أنك ترى الناس علينا إلْباً)). ثم ألقى النبي نبوءة مفاجئة أذهلت عَدياً، فقد قال له: (يا عدي، هل رأيت الحيرة؟) فأجابه: لم أرها، وقد أُنبئت عنها. فقالﷺ: (فإن طالت بك حياة لترين الظعينة [أي المرأة] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله). يقول عدي، وهو يتشكك من وقوع هذا الخبر: قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار [لصوص] طيءٍ الذين سعروا البلاد؟ وقبل أن يفيق عدي من ذهوله وحديثه مع نفسه أسمعه النبي نبوءة أعظمَ وأبعد، فقال: (ولئن طالت بك حياة لتُفتحنَّ كنوزُ كسرى). ولم يصدق عديٌ مسمعه، فسأل النبيَّ مستوثقاً: كسرى بنِ هُرمز؟ فأجابه النبيﷺ بلسان الواثق من ربه – رغم ضعف حاله وفاقة أصحابه –: ((كسرى بنِ هرمز، ولئن طالت بك حياة لترَيَنَّ الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبلُه)). ثلاث نبوءات لا يمكن لغير مؤمنٍ أن يُصدق بوقوعها في ذلك الزمان وفي مثلِ تلك الظروف، لكنها دلائل النبوة وأخبار الوحي الذي لا يكذب.

يقول عدي: فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بنِ هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسمﷺ [عن الرجل] يخرج ملء كفه. [٣] وصدق عدي فقد تحققت الثالثة زمن الخليفةِ الراشدِ عمرَ بنِ عبد العزيز. ومثله قولهﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة؛ لا يخاف إلا ضلال الطريق) [٤] إنها من أخبار الغيب الدالة بتحققها على نبوة محمد ﷺ.

ولما أتت جموع الأحزاب إلى المدينة، يرومون استئصال المسلمين؛ أمر النبي بحفر الخندق حول المدينة، وبينما هم يحفرون عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول اللهﷺ وأخذ المعول، ووضع رداءه ناحية الخندق، وقال: {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم} (الأنعام: ١١٥) فندر ثُلث الحجر، وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبرق مع ضربةِ رسول الله برْقة. ثم ضرب الثانية والثالثة فكان مثله فتقدم إليه سلمان فقال: يا رسول

---

(١) –رواه البخاري ح (٣٦١٢).

(٢) –الإعلام بما في دين النصارى (١/ ٣٣٨) للقرطبي

(٣) –رواه البخاري ح (٣٥٩٥)، فيما عدا قوله: (إنما يمنعك عن الإسلام أنك ترى من حولي خصاصة، أنك ترى الناس علينا)، فإنها من رواية الحاكم (٤/ ٥٦٤).

(٤) –رواه أحمد ح (٨٦١٥)، قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح" مجمع الزوائد (٧/ ٦٣٩).

الله رأيتُك حين ضربتَ، ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة! فقال له رسول اللهﷺ: (يا سلمان رأيتَ ذلك؟) فقال: إي والذي بعثك بالحق يا رسول الله، قال: (فإني حين ضربت الضربة الأولى رُفعت لي مدائنُ كسرى وما حولها ومدائنٌ كثيرة حتى رأيتُها بعينيّ) فقال له من حضره من أصحابه: يا رسول الله، ادع الله أن يفتحها علينا فدعا رسول اللهﷺ بذلك (ثم ضربتُ الضربة الثانية، فرُفعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعينيّ) قالوا: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا فدعا رسول اللهﷺ بذلك (ثم ضربت الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعيني). ولما انقضت غزوة الأحزاب، ولت جموعهم الأدبار، وقبل أن ينقشع غبارُ إدبارهم أخبر النبيﷺ بنبوءة ما كان له أن يطلع عليها لولا إخبار الله له، فقال: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم) وهكذا كان، إذ كانت غزوة الأحزاب آخر غَزاة غزتها قريش في حربها مع النبي وقد غزاهم المسلمون بعدها، وفتحوا مكة بعون الله وقدرته، فمن الذي أعلم النبي أن هذه الألوف التي دهمت المدينة لن تعود إليها بعد هذه الكَرّة الخاسرة؟ إنه الله رب العالمين قال ابن حجر عن قوله: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا): "وفيه علمٌ من أعلام النبوة، فإنه اعتمر في السنة المقبلة، فصدّتهُ قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سببَ فتح مكة، فوقع الأمر كما قالﷺ ". [١]

البحث السابع: إخباره ﷺ بأخبار آخر الزمان وعلامات الساعة

وإن من دلائل النبوة ما أخبرﷺ أنه يكون بين يدي الساعة، ونراه أو نرى بعضه في حياتنا اليوم، وهو ما يسميه العلماء بأشراط الساعة الصغرى، وهذا الحاضر الذي نراه اليوم كان غيباً أطلع الله عليه نبيه، ليكون شاهداً على نبوته ورسالته. (وتكثُرَ الزلازل، ويتقاربَ الزمان، وتَظهرَ الفتن، ويكثُرَ الهرْج، وهو القتل) [٢] وفي رواية: (يتقاربُ الزمان، ويَنقصُ العمل، ويُلقى الشح) [٣]، (ويُشربَ الخمر، ويَظهرَ الزنا) [٤] ظهور الزنا وإعلانه والتبرير له.

شيوع شرب الخمر بين المسلمين وقد أنبأﷺ أن الذين سيشربونها يسمونها بغير اسمها، وأنهم يستحلونها، ولا يرون أنها الخمر التي حرمها الله، قالﷺ: (يشرب ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها) وزاد في رواية الدارمي: (فيستحلونها). [٥] وبيانُه عن النبي أنه قال: (ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف). [٦]

كثرة الفتن وما يستتبعها من كثرة الهرج الذي هو القتل، وقد أبانه النبي فقال: (والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قَتل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتِل). [٧] ونجد مصداق هذه النبوءة النبوية في كثرة الحروب والفتن التي يقتل فيها الأبرياء، فلا يدري القاتل من يقتُل، ولا لماذا يقتُل، ومثلُه المقتول. وهذا يفسر لنا علامات النبوة، الواردة في قول النبيﷺ: (وتكثرَ النساء ويقلَ الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد) فإن الرجال هم وقود الحروب والفتن دون غيرهم. "قيل سببه أن الفتن تكثر، فيكثر القتل في الرجال؛ لأنهم أهل الحرب دون النساء ...الظاهر أنها علامة محضة لا لسبب آخر، بل يُقدِّر الله في آخر الزمان أن يقِلَ من يولد من الذكور، ويكثر من يولد من الإناث ". [٨] وإلى صدق هذه النبوءة وقرب تحققها تشير الإحصاءات العالمية، حيث وصلت نسبة الذكور

---

(١) –رواه البخاري ح (٤١١٠). (١) رواه النسائي ح (٣١٧٦)، وأبو داود ح (٤٣٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي ح (٢٩٧٦).
(٢) –رواه البخاري ح (١٠٣٦).
(٣) –رواه البخاري ح (٦٠٣٧)، ومسلم ح (١٥٧).
(٤) –رواه البخاري ح (٨٠)، ومسلم ح (٢٦٧١).
(٥) –رواه النسائي ح (٥٦٥٨)، وأبو داود ح (٣٦٨٨)، وأحمد ح (١٧٦٠٧)، والدارمي ح (٢١٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح (٩٥٨٤).
(٦) –ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم في باب: "ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه".
(٧) –رواه مسلم ح (٢٩٠٨).
(٨) –فتح الباري (١/ ٢١٥).

حسب إحصاءات الأمم المتحدة عام ٢٠٠٢م إلى ٤٨%، وتتوقع دائرة الإحصاءات الأمريكية أن تصل نسبة الذكور عام ٢١٠٠م إلى ٣٨% من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يؤكد أن ما أخبر به ﷺ في طريقه إلى التحقق.

وروى الإمام مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال: (لا تقوم الساعة حتى ...، وحتى تعودَ أرض العرب مروجاً وأنهاراً) [١] فالبشارة النبوية تضمنت خبرين: أولُهما: أن أرضَ العرب-أي جزيرة العرب-كانت مروجاً وأنهاراً، أي كانت خضراءَ كثيرةَ المياه، والثاني: أنها ستعود كذلك قبل قيام الساعة. ومن المعلوم أن جزيرة العرب تنعدم الأنهار فيها اليوم، وتقل المساحات الخضراء في ربوعها، بينما يخبر الحديث أنها كانت وسترجع إلى غير هذه الحال. وحين تحدث القرآن عن قوم نبي الله هود، قومِ عاد الذين عاشوا في جنوب جزيرة العرب وقريباً من صحراء الربع الخالي، قال ممتناً عليهم: {واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون} [الشعراء: ١٣٢ – ١٣٤]، فذكر أن بلادهم المقفرةَ اليومَ كانت مروجاً وبساتين كثيرة المياه وليست بلادُ عاد الوحيدةَ من المدائن القديمة التي دفنتها ذرات رمال الصحراء، التي أغرقت بكثبانها الكثير من المدن التي كانت عامرة في غابر الأيام، كمدينة الفاو ومدينة أوبار المكتشفَتين حديثاً في جنوب جزيرة العرب، ومثل هذه المدن لا تُشاد في صحراءَ جرداء، بل في واحة خضراءَ كثيرةِ المياه.

وهذا الخبر نجد مصداقه أيضاً عند علماء الجيولوجيا والآثار، حيث يؤكدون أن جزيرة العرب كانت قبل عشرين ألف سنة رقعة خضراء كثيرة المياه والأنهار، وفيها الكثير من أنواع الحيوانات التي تتواجد عادة في المراعي والغابات، كما شهد بذلك ما بقي من آثارهم، كما أكد صدقَ هذا الخبر النبوي الدكتور (هال ماكلور) في أطروحته للدكتوراه والتي كانت عن الربع الخالي، فذكر أن البحيراتِ كانت تغطي هذه المنطقة الصحراوية خلال العصور المطيرة التي انقضت قبل ثمانية عشرَ ألفَ سنة. [٢] ووافقه العالم الجيولوجي الألماني الشهير البروفسور الفريد كرونر في مؤتمر علمي أقيم في جامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية وأضاف بأن عود جزيرة العرب إلى تلك الحال مسألة معروفة عند العلماء، وأنها حقيقة من الحقائق العلمية، التي يوشك أن تكون، وقال: هذه حقيقة لا مفر منها ،ولما أُخبِر بقول النبي (وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً) تعجب، وقال: "إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحي من أعلى" أي من عند الله ، وقال: "أعتقد أنك لو جمعت كل هذه الأشياء، وجمعت كل هذه القضايا التي بسطت في القرآن الكريم والتي تتعلق بالأرض وتكوين الأرض والعلم عامة، يمكنك جوهرياً أن تقول: إن القضايا المعروضة هناك صحيحة بطرق عديدة ويمكن الآن تأكيدها بوسائل علمية، ويمكن إلى حد ما أن نقول: إن القرآن هو كتاب العلم الميسر للرجل البسيط، وإن كثيراً من القضايا المعروضة فيه في ذلك الوقت لم يكن من الممكن إثباتها، ولكنك بالوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع فيه أن تثبت ما قاله محمد منذ ١٤٠٠ سنة". [٣] ويحسُن هنا التذكير بما حملته إلينا الأخبار عن تصوير جزيرة العرب من الفضاء، واكتشاف العلماء من خلال هذه الصور أنها تَسبح فوق نهر من المياه الجوفية، يمتد غرب الجزيرة العربية إلى شرقها ناحية الكويت حيث أوضحت الصور أن مساحةً شاسعة من شمال غرب الكويت عبارة عن دلتا لهذا النهر العملاق.

فمن الذي أخبر محمداًﷺ بحال جزيرة العرب قبل آلاف السنين؟ ومن الذي أنبأه بما سيكون عليه حالها في قابل الأيام؟ إنه وحي الله الذي يشهد له بالرسالة.

وقالﷺ: (إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفُشُوَّ التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم) [٤] (وظهور القلم)، أي تعلم الناس الكتابة، وهو أمر لم يتحقق إلا

---

(١) -أخرجه مسلم ح (١٥٧).

(٢) -مجلة الإعجاز العلمي، العدد السادس (ص ٣٣).

(٣) -إنه الحق، هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي (ص ٣٤).

(٤) -رواه أحمد ح (٣٨٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد ح (١٠٤٩)، وصححه الحاكم (٤/ ١١٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٦٤٧).

في هذا القرن، حيث تراجعت نِسب الأمية بين شعوب العالم، وهي في طريقها إلى الزوال، وبخاصة مع تيسر سبل التعليم وتقدم وسائط الاتصالات، والسؤال، كيف عرف النبي قبل أربعة عشر قرناً أن الكتابة تفشو بين الناس، لقد أنبأ به في عصر كان عدد الكتبة فيه لا يكاد يتجاوز الألف. إنه عَلم آخر من أعلام النبوة.

ومما أخبرﷺ أنه يكون قبيل الساعة، وتحقق في زماننا؛ استغناء الناس عن ركوب الدواب، التي استبدلوها بما أنتجته التقنية الحديثة من السيارات والطائرات وغيرها من وسائل الانتقال، وهو أمر حديث أشار إليه القرآن بقوله: {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون} (النحل: ٨) فإذا ما خلق الله هذه الوسائل الجديدة تحققت نبوءة رسول الله: (ولتُتركن القِلاص فلا يُسعى عليها). [١] الجمال الممتازة أفضل أنواع الجمال المجهزة للركوب والسفر عليها

وتعاني أمة الإسلام حالة غريبة من التشرذم والضعف، وأصبحت بلادها كلأً مستباحاً للقاصي والداني، ولم يشفع لها أنها جاوزت المليار والربع من المسلمين، فهم غثاء كغثاء السيل، فصدق فيهم حديث النبي: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)[٢] إنه نبوءة من لا ينطق عن الهوى، وهكذا فإن وقوع ما أخبر النبي بعد مضي هذه القرون من تنبئه بهذه الأحداث وتلك المظاهر، لبرهان صدق ودليل حق على نبوة النبي.

(١) –أبو داود ح (٣٧٤٥)، وأحمد ح (٢١٣٦٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ح (٥٣٦٩).
(٢) –رواه أبو داود ح (٣٧٤٥)، وأحمد ح (٢١٣٦٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ح (٥٣٦٩).

الفصل الرابع: الدليل الخامس: وهو حول الدلائل المعنوية

كاستجابة الله دعاءه، وعصمتِه له من القتل، وانتشارِ رسالته عليه الصلاة والسلام، فهذا النوع من الدلائل يدل على تأييد الله له ومعيتِه لشخصه ثم لدعوته ودينه، ولا يؤيد الله دعياً يفتري عليه الكذب بمثل هذا.

تمهيد:

المبحث الأول: حمايته من كل ما يكاد به، ونجاته من كل محاولات الاغتيال.

المبحث الثاني: استجابة الله عز وجل لدعائه صلى الله عليه وسلم:

المبحث الثالث: جوابه الحاضر على أسئلة المشككين:

البحث الرابع: تأييد الله له في كل معاركه مع عدم التكافؤ بينه وبين عدوه لا في العَدد ولا في العُدد:

تمهيد:

انتصب محمد مع ضعفه وفقره وقلة أعوانه وأنصاره، مخالفاً لجميع أهل الأرض آحادهم وأوساطهم وسلاطينهم وجبابرتهم، فضلل آراءهم وسفه أحلامهم وأبطل مللهم وهدم دولهم، وظهر دينه على الأديان في مدة قليلة شرقاً وغرباً، وزاد على مر العصور والأزمان، ولم يقدر الأعداء مع كثرة عددهم وعددهم وشدة شوكتهم وشكيمتهم، وفرط تعصبهم وحميتهم وبذل غاية جهدهم في إطفاء نور دينه وطمس آثار مذهبه. كذلك استجابة الله دعاءه، كدعاء النبي على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه، فلم تبق له باقية وو، وعصمة الله له من القتل، وانتشارِ رسالته عليه الصلاة والسلام، فهذا النوع من الدلائل يدل على تأييد الله له ومعيتِه لشخصه ثم لدعوته ودينه، ولا يؤيد الله دعيّاً يفتري عليه الكذب بمثل هذا، فهل يكون ذلك إلا بعون إلهي وتأييد سماوي، ولنعم ما قال غمالائيل معلم اليهود لهم في حق الأنبياء الكذبة: (التصق به عدد من الرجال نحو أربعمائة، الذي قتل وجميع الذين انقادوا إليه تبددوا وصاروا لا شيء)٣٧ ..(بعد هذا قام يهودا الجليلي في أيام الاكتتاب، وأزاغ وراءه شعباً غفيراً، فذاك أيضاً هلك وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا) . ٣٨ (والآن أقول لكم تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم لأنه إن كان هذا الرأي وهذا العمل من الناس فسوف ينتقض) ٣٩ (وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنتقضوه لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً) كما هو مصرح به في الباب الخامس من كتاب الأعمال، والآية السابعة من الزبور الأول: (لأن الرب يعرف طريق الصديقين وطريق المنافقين تهلك) والآية السادسة من الزبور الخامس: (وتهلك كل الذين يتكلمون بالكذب، الرجل السافك الدماء والغاش يرذله الرب) ،والآية السادسة عشرة من الزبور الرابع والثلاثين: (وجه الرب على الذين يعملون المساوئ ليبيد من الأرض ذكرهم) وفي الزبور السابع والثلاثين ١٧: (لأن سواعد الخطاة تنكر، والرب يعضد الصديقين) ٢٠ (الخطاة فيهلكون، وأعداء الرب جميعاً إذ يمجدون ويرتفعون، يبيدون، وكالدخان يفنون) ، فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم من الصديقين لأهلك الرب طريقه ورذله وأباد ذكره من الأرض، وكسر سواعده وأفناه كالدخان. لكنه لم يفعل شيئاً منها، فكان محمد صلى الله عليه وسلم من الصديقين[1]

المبحث الأول: حمايته من كل ما يكاد به، ونجاته من كل محاولات الاغتيال.

عادته الدنيا كلها ولم ينافق ولم يداهن ولم يتنازل عن مبادئه أبداً بل ظل ثابتا عليها في ظل كل الظروف، فبدأ بدعوة العرب بترك عبادة الأصنام، وعندما عرضوا عليه الملك والمال والنساء رفض! وعندما عرض عليه العرب عباده ربه سنه وعبادته هو الاصنام سنه رفض! وبدأ بدعوة الملوك كسرى وقيصر رغم انه من عادات الملوك الرفض حرصاً على ملكهم

(١) –إظهار الحق لرحمة الله الهندي (٤ / ١٠٧٥)، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية ط١/١٩٨٩

وهذا شيء مستفز بالنسبة لهم والرسول كان مستضعفاً ولكنه كان لا يخشى في الحق أبداً، واثقاً بتأييد الله له وبنصره، ثم ولم يتحالف مع جماعه ضد جماعه ولم يخون من خانه وكل هذا يدل رفعته.

كان مؤيّد ومحمي من الأعداء الكثر الأقوياء لم يتمكّنوا من الوصول إليه رغم كثرة عددهم وقوتهم وتمكنهم من مقاليد الحكم والسلطة.... فقد أمضى النبيﷺ في مكة ١٣ عاما وحيدا ضعيفا فقيرا ليس له من يحميه سوى الحماية المعنوية من عمه الشيخ المسِن ابو طالب الذي لن يستطيع منع العرب من قتله لو أرادوا ذلك ...ورغم أن النبيﷺ سفّه دينهم وأهان ألهتهم وأصنامهم ووصف المشركين بأنهم كالأنعام بل هم أضل وبأنهم صم بكم عمي لا يعقلون .. ومع كل هذا الاستعداء الرهيب لهم وإغضابه لهم لم يتمكنوا منه وهو الرجل الذي يمشي وحده وينام وحده دون حراسة،

قال سهيل بن عمرو : **إني رأيت رجلا واحدا وحيدا لا مال له ولا عزّ، قام في ظلّ هذا البيت فقال: اني رسول الله، وإني سأظهر، فكنا بين ضاحك وهازل وراجم ومستجهل، فما زال أمره ينمى ويصعد حتى دنّا له طوعا وكرها، والله لو كان من عند غير الله لكان كالكسرة في يدي أي فتى من فتيان قريش، وإن هذا، وأشار إلى أبي سفيان، ليعلم من هذا الأمر مثل ما أعلم، ولكن قد ختم على قلبه حسد بني عبد المطلب.**[١] وذلك لأنه كان وحيدا فقيرا ضعيفا ومع ذلك قهر كل خصومه بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلا ... وكذلك في المدينة كان النبي ﷺ يمشي في وسط الناس بدون حراسة وينام لوحده مع أهله ومع ذلك لم يتمكنوا من الوصول إليه ورغم أن التاريخ القديم والحديث شهد إغتيالات لحُكام وملوك يسكنون في قصور مُحصنة غاية التحصين والحُراس يملئون تلك الحصون ومع ذلك تم اغتيالهم ..ومع ان النبي ﷺ أتى بما هو اشد إثارة للحقد والغضب عندما قام بتسفيه كل الديانات التي على سطح الأرض ،وقام باستعداء كل الأمم عربهم وعجمهم واليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ،فكل تلك الأمم كانت تريد قتله ومع ذلك لم يتمكنوا منه وهو الرجل الذي يمشي وسط الناس ويعيش عيشة البسطاء بدون تكلف ولا حراسة أليست هذه من اعظم آيات النبوة التي تُبين حفظ الله تعالى لهذا النبي الكريم ﷺ وكيف صرف أعداءه عنه ؟

ما أتى به محمد يُمثِّل نهاية كل الإمبراطوريات والدول التي كانت موجودة في ذلك الوقت، فقد كان يُمثِّل تهديدا وجوديًا لكل مُخالف له، وكان يُعلن هذا في كل وقت بأن الإسلام سينتصر على باقي الأديان وسيُزيل الله تعالى به دول الروم والفرس واليهود والنصارى ومشركي العرب ومع كل هذا التهديد المتكرر من النبي ﷺ، ومع أنه كان في متناول أيديهم فإنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه وقد حاول كسرى فأماته الله كما ذكرنا في الدليل الرابع وحاول هرقل ثم انسحب في تبوك

نزل قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }[المائدة٦٧] قبل نزول هذه الآية الكريمة كان بعض الصحابة ﷺ عنهم يتطوعون لحراسة النبي أما بعد نزولها قال ﷺ لمن يحرسه (يا أيها الناس، انصرفوا عني، فقد عصمني الله)[٢]، فلو كان النبي ﷺ مُدعيا للنبوة هل كان سيخاطر هذه المخاطرة بالمشي دون حراسة وقد كثُر أعداءه المتربصين به من العرب والعجم في الجزيرة العربية وخارجها ، فقد كان المشركون في مكة يريدون قتله وكذلك اليهود في المدينة والمجوس في بلاد فارس والروم في الشام وكذلك المنافقين وكثير من الأعراب في الجزيرة كلهم يريدون أن ينالوا من النبي لتنتهي الدعوة الإسلامية للأبد، فهل سيكون ﷺ بهذه الثقة المطلقة بحفظ الله تعالى له لو لم يكن متصلا بالوحي ؟؟ وقد قال أحد الذين اعتنقوا الإسلام أن هذه الآية كانت سببا في إسلامه ، لأن الكاذب يخدع كل الناس ولكن لا يخدع نفسه ، فلو لم يكن النبي واثقا من حفظ الله تعالى له لما خاطر هذه المخاطرة الرهيبة وفي الآية دليلان من دلائل النبوة، أولهما: إخبار الله له بحفظه ، وقد كان.

---

(١) –تثبيت دلائل النبوة ، القاضي عبد الجبار المعتزلي (٢/ ٣١٧)

(٢) –رواه الترمذي ح (٣٠٤٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٢٤٨٩) رواه الحاكم

قال الماوردي: "فمن معجزاتِه: عصمتُه من أعدائه، وهم الجمُّ الغفير، والعددُ الكثير، وهم على أتم حَنَقٍ عليه، وأشدُّ طلبٍ لنفيه، وهو بينهم مسترسلٌ قاهر، ولهم مخالطٌ ومكاثر، ترمُقُه أبصارُهم شزراً، وترتد عنه أيديهم ذُعراً، وقد هاجر عنه أصحابه حذراً حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة، ثم خرج عنهم سليماً، لم يكْلَم في نفسٍ ولا جسد، وما كان ذاك إلا بعصمةٍ إلهيةٍ وعدَه اللهُ تعالى بها فحققها، حيث يقول: {والله يعصمك من الناس} فعَصَمَه منهم". (١)

والدليل الآخرُ في الآية من دلائل النبوة، يظهر لمن عرف أن النبي كان مقصوداً بالقتل من أعدائه، فكان الصحابة يحرُسونه خوفاً عليه، فلما نزلت الآية صرفهم عن حراسته، ليقينه بما أنزل الله إليه، ولو كان دعياً لما غرر بنفسه، ولما عرَّض نفسَه للسوء، وقد صدق المستشرق بارتلمي هيلر في قوله: "لما وعد الله رسوله بالحفظ بقوله: {والله يعصمك من الناس}، صرف النبي حراسه، والمرء لا يكذب على نفسه، فلو كان لهذا القرآن مصدر غير السماء لأبقى محمد على حراسته". (٢)

قال ابن تيمية مستدلاً لنبوة النبي بتأييد الله لنبيه وحفظه له ونصره لدينه: "وقد أيده تأييداً لا يؤيد به إلا الأنبياء، بل لم يؤيَد أحدٌ من الأنبياء كما أُيِّد به، كما أنه بُعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم ، فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب؛ إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره ، وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقاً، كما أيد نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، بل وأيد شعيباً وهوداً وصالحاً، فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وهذا هو الواقع، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة، فهذه عادة الله وسنته يعرف بها ما يصنع، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته؛ فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه". (٣)

جاءت أم جميلٍ، امرأةُ عمه أبي لهب إلى النبي ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، إنها امرأة بذيئة، وأخاف أن تؤذيَك، فلو قُمت، قال: (إنها لن تراني)، فجاءت أم جميل، فقالت لأبي بكر: إن صاحبك هجاني! قال: لا، وما يقول الشعر، قالت: أنت عندي مُصَدق، وانصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لم ترَك؟! قال: (لا، لم يزل ملك يسترني عنها بجناحه). (٤)

وكذا أرادت قريش أن تقتل النبي مراراً قبل هجرته، لكن الله نجاه منهم وحماه، فلما عزم النبي على الخروج من مكة مهاجراً، رصدوا له على باب بيته، فخرج عليه الصلاة والسلام من بينهم، وقد أعمى الله أبصارهم عنه، فلم يروه حال خروجه. (٥)، وفي هذا يقول سبحانه: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال:٣٠]، لقد رد الله مكرهم في نحورهم، ونجى نبيهﷺ.

وخرج من مكة مستخفياً تحوطه عناية الله، حتى وصل وصاحبُه إلى غار ثور، واختبآ فيه عن أعين المشركين الذين جدّوا بالبحث عنه حتى وصلوا إلى الغار، ووقفوا ببابه، وظن أبو بكر الهلكة، فقال للنبي: لو أن أحدهم نظر إلى تحت قدميه لأبصرنا، فأجابه النبي بلسان الواثقِ من ربه، المتوكل عليه، العالِم بأنه لا يسْلمه إلى مرام أعدائه: (ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثُهما؟). (٦) {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنودٍ لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا

(١) -أعلام النبوة (١٢٧).
(٢) -ربحت محمداً ولم أخسر المسيح، عبد المعطي الدلالاتي ص (١٠٨).
(٣) -الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٤١٠).
(٤) -رواه أبو يعلى في مسنده ح (٢٣٥٨)، والبزار ح (٢٢٩٤)، وصححه ابن حبان ح (٦٥١١).
(٥) -انظر الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، للسهيلي (٤/ ١٧٨).
(٦) -رواه البخاري ح (٣٦٥٣)، ومسلم ح (٢٣٨١).

والله عزيز حكيم} [التوبة:٤٠] وهكذا نجّى النبي من بين أيديهم، واتجه صوب المدينة المنورة من جديد، تحوطُه رعاية الله، وتكلؤه عنايته.

من دلائل النبوة حمايةُ الله لأنبيائه، وإنجاؤه لمن شاء منهم من أيدي أعدائهم، رغم ما يتربص بهم السفهاءُ من السوء ولقد قال نوح عليه السلام متحدياً كفارَ قومه: {يا قوم إن كان كبُر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمرُكم عليكم غُمةً ثم اقضوا إليّ ولا تنظِرون} [يونس:٧١]، فلم يصلوا إليه بسوء لحماية الله له. ومثله قول أخيه هود عليه السلام: {قال إني أُشهِد الله واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم} [هود: ٥٤ – ٥٦] ولما أراد السفهاء قتل إبراهيم عليه السلام، وألقوه في النار أنجاه الله منها بقدرته وفضله {قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين – قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم – وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين} [الأنبياء: ٦٨ – ٧٠] .وكذا كان الحال مع نبينا فقد أنجاه الله من المؤامرات التي واجهتْه من لدن بعثتِه عليه الصلاة والسلام وهذا الدليل استدل به اليهود على صدق النبي ﷺ :

ففي حديث سحر النبيﷺ من قبل لبيد بن الأعصم اليهوديّ [(١)]، فقالت أخت لبيد بن الأعصم إن يكن نبيا فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله) [(٢)] و المرأة اليهودية أتت رسول الله بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك. قال: «ما كان الله ليسلطك علي» [(٣)] ، وفي رواية أبو داود من حديث جابر بن عبد الله يحدث: أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية (مشوية) ، ثم أهدتها لرسول الله ﷺ ، فأخذ رسول الله الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله: «ارفعوا أيديكم» وأرسل رسول الله إلى اليهودية فدعاها، فقال لها: «أسممت هذه الشاة؟» قالت اليهودية: من أخبرك؟ قال: «أخبرتني هذه في يدي» للذراع، قالت: نعم. قال: «فما أردت إلى ذلك؟» قالت: قلت: إن كان نبيا فلن يضره، وإن لم يكن نبيا استرحنا منه. فعفا عنها رسول الله ولم يعاقبها) [(٤)]

وفي هزيمة أحد أفسحت لليهود مجالا ينفسون فيه عن أحقادهم ويظهرون ضغائنهم على الإسلام ونبيه، وقالوا: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه، حتى أن ذلك استفز عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستأذنه في قتل الرؤوس اليهودية التي نفثت سمومها في قلب المحنة فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: يا عمر إن الله مظهر دينه ومعزّ نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم «[(٥)]» وقد بدأت هذه المحاولات من بداية البعثة: فعن ابن عباس (: أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأينا محمدا قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله. قال: فأقبلت فاطمة تبكي حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، قال: يا بنية أدني وضوءً فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: هو هذا فخفضوا أبصارهم وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رءوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه» . قال: فما أصابت رجلا منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافرا)[(٦)].

---

(١) –متفق عليه (البخاري: كتاب الطب، باب السحر، رقم:٥٤٣٣، ومسلم: كتاب السلام، باب السحر، رقم: ٢١٨٩) ، وسيأتي نصه صفحة.

(٢) –فتح الباري (٢٣٧/١٠).

(٣) –متفق عليه (البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين، رقم:٢٦١٧، ومسلم: كتاب السلام، باب السم، رقم:٢١٩٠)

(٤) –سنن أبي داود رقم:٤٥١٠ وهو صحيح لغيره كما قال الألباني في مشكاة المصابيح رقم: ٥٨٧٤.

(٥) –الواقدي: ١/ ٣١٧–٣١٨، المقريزي: إمتاع الأسماع ١/ ١٦٥.

(٦) –أخرجه الإمام أحمد (٣٤٧٥) وإسناده صحيح كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٨١/٦) رقم: ٢٨٢٤.

أبو جهل فرعون هذه الأمة رام أيضاً قتل النبي حين أقبل يختال ذات يوم في جنبات مكة فقال: هل يعفِّر محمدٌ وجهَه بين أظهرِكم [يعني بالسجود والصلاة]؟ فقيل: نعم، فقال: واللاتِ والعزى، لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقَبَتِه أو لأعفِّرنَّ وجهَه في التراب فأتى رسولَ الله وهو يصلي، زعمَ ليطأَ على رقَبَتِه، قال: فما فجِئهم منه إلا وهو ينكُص على عقبيه، ويتقي [أي يحتمي] بيديه فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نارٍ وهوْلاً وأجنحة، فقال رسول الله: (لو دنا مني لاختطفته الملائكةُ عُضواً عضواً) [١]وهذه معجزة عظيمة رآها عدو الإسلام أبو جهل، فقد رأى أجنحة ملائكة الله وهي تحمي النبي، وأيقن بأن الله حماه بجنده وعونه، لكن منعه الكِبْرُ وحبُ الزعامة والحرصُ عليها من الإذعان للحق والانقياد له، فحاله وحال غيرِه من المشركين كما قال الله: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} (الأنعام: ٣٣). قال النووي: "ولهذا الحديث أمثلة كثيرة في عصمته من أبي جهل وغيرِه ممّن أراد به ضرراً قال الله تعالى: {والله يعصمك من النّاس} "[٢].

وحادثة الهجرة عندما أرادوا أن يقتلوا النبي ﷺ قبل هجرته، فجعل النبي مكانه علي بن أبي طالب، وخرج من بيته مع أن الكفار قد أحاطوا به من كل جانب؛ إلا أن الله قد أعمى أبصارهم عنه [٣] وفي هذا يقول سبحانه: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال:٣٠] وخرج من مكة مستخفياً تحوطه عناية الله، حتى وصل وصاحبُه إلى غار ثور، واختبآ فيه عن أعين المشركين الذين جدّوا بالبحث عنه حتى وصلوا إلى الغار، ووقفوا ببابه، وظن أبو بكر الهلكة، فقال للنبي: لو أن أحدهم نظر إلى تحت قدميه لأبصرنا، فأجابه النبي بلسان الواثقِ من ربه، المتوكل عليه، العالِم بأنه لا يسْلمه إلى مرام أعدائه: (ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثُهما؟)[٤]

أما قريش فلم تستسلم، ولم تفتر عزيمتُها في محاولة قتلِ النبي والنيلِ منه، فأرسلوا إلى قبائل العرب يضعون لهم الجوائز إن همُ قتلوا النبيَ وصاحبَه، لكنهما كانا يسيران في حفظ الله ورعايته ،وجاز النبي قُديداً، فأدركه سراقة بن مالك، يقول الصديق: وتبِعنا سراقة بن مالك، ونحن في جَلَدٍ من الأرض [أي في أرض صلبة]، فقلت: أُتينا يا رسول الله، فقال: (لا تحزن إن الله معنا) فدعا عليه رسول الله فارتطمت فرسه إلى بطنها وفي رواية للبخاري يروي سراقة الخبر فيقول: (حتى إذا سمعت قراءة رسول الله وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخَرَرت عنها، ثم زجرتُها فنهضتْ، فلم تكَد تُخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثَرِ يديها عُثانٌ ساطع في السماء مثل الدخان[٥] فقال سراقة: (إني قد علمت أنكما قد دعوتما عليّ، فادعوَا لي، فاللهَ لكما أن أرُدّ عنكما الطلب، فدعا ﷺ اللهَ فنجا، فرجع لا يلقى أحداً من الطَلَب إلا قال: قد كُفيتكم ما ها هنا، فلا يلقى أحداً إلا ردّه). [٦] قالَ أنس: (فكان أوَّل النهار جاهداً على نبي اللَّه وكان آخرَ النهار مَسْلَحةً له)[٧] واستمرت هذه المحاولات في المدينة أيضا، كما تقدم في حديث لبيد بن الأعصم، وحادثة الشاة المسمومة في خيبر في السنة الخامسة وكذلك حادثة بني النضير الذي أرادوا أن يلقوا الصخرة على النبي ﷺ وهو جالس تحت بيت من بيوتهم، فكان هذا سببا لجلائهم من المدينة [٨] .

ولم تكن هذه المحاولات قاصرة على اليهود، بل حتى قريش كانوا مستمرين في ذلك؛ فلما رجع المشركين إلى مكة بعد بدر، أقبل عمير بن وهب حتى جلس إلى صفوان بن أمية في الحجر، فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلى بدر

---

(١) –رواه مسلم ح (٢٧٩٧)

(٢) –شرح مسلم على صحيح النووي (١٧/ ١٤٠).

(٣) –انظر الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، للسهيلي (٤/ ١٧٨).

(٤) –رواه البخاري ح (٣٦٥٣)، ومسلم ح (٢٣٨١).

(٥) –رواه البخاري ح (٣٩٠٦).

(٦) –رواه البخاري ح (٣٦١٥)، ومسلم ح (٢٠٠٩).

(٧) –رواه البخاري ح (٣٩١١).

(٨) –انظر: الرحيق المختوم في سيرة المعصوم، للمباركفوري (ص:٢٩٣) ، دار الحديث، القاهرة.

قال: أجل والله ما في العيش خير بعدهم، ولولا دين عليّ لا أجد له قضاء، وعيال لا أدع لهم شيئا، لرحلت إلى محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، فإن لي عنده علّة أعتل بها عليه، أقول قدمت من أجل ابني هذا الأسير قال: ففرح صفوان وقال له: عليّ دينك وعيالك أسوة عيالي في النفقة، لا يسعني شيء فأعجز عنهم. فاتفقا وحمله صفوان وجهزه، وأمر بسيف عمير فصقل وسم، وقال عمير لصفوان: اكتم خبري أياما وقدم عمير المدينة فنزل بباب المسجد وعقل راحلته، وأخذ السيف وعمد إلى رسول الله فنظر إليه عمر وهو في نفر من الأنصار، ففزع ودخل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله لا تأمنه على شيء. فقال: «أدخله علي» فخرج عمر فأمر أصحابه أن يدخلوا إلى رسول الله ويحترسوا من عمير، وأقبل عمر وعمير حتى دخلا على رسول الله ومع عمير سيفه، فقال رسول الله لعمر: «تأخر عنه» فلما دنا عمير قال: أنعموا صباحا –وهي تحية الجاهلية –فقال رسول الله: «قد أكرمنا الله عن تحيتك، وجعل تحيتنا تحية أهل الجنة وهو السلام» فقال عمير: إن عهدك بها لحديث فقال: «ما أقدمك يا عمير؟» قال: قدمت على أسيري عندكم، تفادونا في أسرانا، فإنكم العشيرة والأهل فقال: «ما بال السيف في عنقك؟» فقال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئا، إنما نسيته في عنقي حين نزلت فقال رسول الله: «اصدقني ما أقدمك يا عمير؟» قال: ما قدمت إلا في طلب أسيري قال: «فماذا شرطت لصفوان في الحجر؟» ففزع عمير وقال: ماذا شرطت له؟ قال: «تحملت له بقتلي على أن يعول أولادك، ويقضي دينك، والله حائل بينك وبين ذلك» فقال عمير: أشهد أنك رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر لم يطلع عليه أحد، فأخبرك الله به، فالحمد لله الذي ساقني هذا المساق، ففرح به المسلمون وقال له رسول الله : «اجلس يا عمير نواسك» وقال لأصحابه: «علموا أخاكم القرآن» وأطلق له أسيره، فقال عمير: ائذن لي يا رسول الله، فألحق بقريش، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم، فأذن له فلحق بمكة، وجعل صفوان يقول لقريش: أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر وجعل يسأل كل راكب قدم من المدينة هل كان بها من حدث، حتى قدم عليهم رجل فقال لهم: قد أسلم عمير فلعنه المشركون وقال صفوان: لله علي إلا أكلمه أبدا ولا أنفعه بشيء ثم قدم عمير فدعاهم إلى الإسلام، ونصحهم بجهده، فاسلم بسببه بشر كثير[1] .

ويحدث جابر بن عبد الله أنه غزا مع رسول الله قِبَل نجد، فلما رجع رسول الله أدركتهم نومة القيلولة في وادٍ كثير الشجر يقول جابر: فنزل رسول الله وتفرق الناس، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله تحت سَمُرَةٍ، فعلق بها سيفه، فنِمنا نومةً، ثم إذا رسول الله يدعونا فجئناه، فإذا أعرابيٌ جالس، فقال رسول الله: (إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صَلتاً، فقال لي: من يمنعُك مني؟ قلت: اللهُ، فها هو ذا جالس) ثم لم يعاقبْه رسولُ الله، وفي رواية لأحمد أنه قام على رأس رسول الله بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ فقال: (اللهُ عز وجل) فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله فقال: من يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كن كخير آخذ فقالﷺ: (أتشهد أن لا إله إلا الله؟) قال: لا، ولكني أعاهدُك أن لا أقاتِلَكَ، ولا أكونَ مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فذهب إلى أصحابه، فقال: قد جئتُكم من عندِ خير الناس[2].
وفي هذا الحديث دلائلُ مختلفة على نبوة النبي، منها: ثبات النبي بتأييد الله له، ثم حمايةُ الله له من القتل ومنها تأييدُه له بالملائكة، فقد وقع في رواية لابن إسحاق أن جبريل دفع بصدر المشرك فسقط سيفه وأخيراً: عفوُ النبي عن الرجل مع رفضه للإسلام، وذلك خلق من أخلاق النبوة، وإلا فمن يصنع ذلك مع غريمه وعدوه الذي كاد أن يقتله؟ وقد صدق

(١) –رواه الطبراني في معجمه الكبير ح (١١٧)، وابن هشام في السيرة (٣/ ٢١٣). الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر (٤/٧٢٦) وذكر أنه أخرجه موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب مرسلا، وابن إسحاق في المغازي عن محمد بن جعفر مرسلا أيضا، وجاء موصولا أخرجه ابن مندة والطبراني عن أنس.
(٢) –رواه البخاري ح (٤١٣٧)، ومسلم ح (٨٤٣)، ورواية أحمد في المسند ح (١٤٥١٢).

الأعرابي حين قال: جئتُكم من عندِ خير الناس {أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد} [الزمر: ٣٦]، وفي هذا كله ما يشهد لهﷺ بالنبوة لتأييد الله إياه وحفظه له وغير ذلك من المحاولات التي باءت بالفشل، مما يدل على صدق قوله تعالى: {والله يعصمك من الناس} [المائدة: ٦٧] وهذا يدل على صدق النبي وأنه محفوظ من كل أذى حتى يبلغ دين الله كاملا، لذلك كان النبي ﷺ يدخل في فم الأسد –كما يقال– وهو مطمئن القلب رابط الجأش، كما فعل في حنين وأحد وغيرها من المعارك، ومنع الناس من حراسته لما علم بحفظ الله، وفي حادثة الهجرة عندما طوق المشركون الغار، ولم يكن بينهم وبين النبي ﷺ إلا أن ينظر أحدهم إلى قدمه، في هذه الحال العصيبة أحس النبي بتوتر أبي بكر الصديق وشدة اضطرابه وخوفه فقال له: «لا تحزن إن الله معنا» [١] يقول تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها} [التوبة: ٤٠] أي ثبات هذا وأي قلب يستطيع أن يهدأ في مثل هذا الموقف؟ إنها حقا النبوة.

المبحث الثاني: استجابة الله عز وجل لدعائه صلى الله عليه وسلم:

ومن علامات تصديق الله لنبيه أن يجيب دعاءه إذا دعاه في عظيم المطالب وما دونها، وقد كان هذا ظاهرا في علاقة الرسول بربه فما كان يخيب دعوته وما كان الله ليستجيب دعاء من يدعي النبوة كذبا وزورا، بل لقد أكرم الله أتباعه صلى الله عليه وسلم بإجابة دعائهم، وإن كانت دعوات غيره منها ما يستجاب له ومنها ما لا يستجاب له ، وكرامات أتباعه شهادة من الله له بصدق رسالته، وإن كان فضل الله وكرمه يشمل جميع المضطرين من عباده كما قال تعالى: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه} [النمل: ٦٢] لأن المضطر قد علم أن لا ملجأ له إلا إلى الله فيجيبه بعظيم كرمه، لكن ذلك لا يكون بصفة متكررة للكافرين ولا بصفة دائمة للمؤمنين.

(أ) استجابة دعائه في الاستسقاء: عن أنس بن مالك: أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول قائم يخطب، فاستقبل رسول الله قائما فقال: يا رسول الله! هلكت المواشي وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، قال فرفع رسول الله يديه فقال: اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة «قطعة من الغيم» ولا شيئا وما بيننا وبين سلع « جبل في المدينة » من بيت ولا دار، قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس ستا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله قائم يخطب فاستقبله قائما، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها قال: فرفع رسول الله يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والجبال والآجام والظراب « الجبال الصغار» والأودية ومنابت الشجر، قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس[٢].

ومن يملك تكوين المطر في الجو الجاف وإنزاله إلا الله سبحانه وتعالى وعلى إثر دعاء رسوله عطاء وإمساكا، وتلك الاستجابة الإلهية لا تكون لمن يدعي النبوة ويفتري على الله الكذب، وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك أيضا: أن النبي لم ينزل عن منبره حتى وقعت قطرات من المطر على لحيته، وأنه عند ما دعا الله أن يمسك المطر بقيت المدينة محاطة بالسحاب في مثل الإكليل، ولم يأت أحد من جهة من الجهات إلا حدث بالمطر الغزير وسال وادي قناة «أحد وديان المدينة» شهرا [٣].

---

(١) –أخرجه البخاري (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٦١٥).
(٢) –أخرجه البخاري ك/ الاستسقاء ب/ الاستسقاء في المسجد الجامع. واللفظ له، ومسلم ك/ صلاة الاستسقاء ب/ الدعاء في الاستسقاء.
(٣) –أخرجه البخاري ك/ الاستسقاء ب/ من تمطر حتى يتحادر المطر على لحيته، وانظر ب/ الدعاء إذا كثر المطر: حوالينا ولا علينا.

وقال عمر رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قيظ «الحر الشديد» شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا، فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يده فلم يرجعهما حتى قالت السماء «يعني تحرك السحاب فيها فأظلمت» فأظلمت ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر[١]

(ب) –استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم فيما دعا فيه: لقد كان رسول الله مستجاب الدعوة فيما يدعو فيه ربه من قضاء الحوائج وتفريج الكرب وشفاء المرض وتحقيق المطالب وحلول البركة، حتى تواتر هذا الأمر عنه، فكان ذلك شاهدا من حاله بتصديق الله له بإجابة دعائه، وحوادث إجابة دعائه كثيرة:

–منها: أنه لما قدم المدينة كانت من أوبأ أرض الله كما قالت عائشة رضي الله عنها فدعا الله أن ينقل حمى المدينة إلى الجحفة «قرية بين مكة والمدينة» وأن يجعل المدينة صحيحة فكان ذلك[٢] .

–ودعا الله لأم أبي هريرة أن تسلم، فلما رجع أبو هريرة إلى البيت أعلنت إسلامها[٣] .

–ودعا لعبد الله بن عباس بالفقه في الدين [٤]، فأصبح أحد علماء الأمة، حتى لقب بحبر الأمة وترجمان القرآن.

–ودعا لأنس بن مالك بالمال والولد والبركة في ذلك، فكان من أكثر الأنصار مالا وولدا[٥]

–ودعا للسائب بن يزيد بالبركة، فبلغ أربعا وتسعين سنة وهو جلد معتدل يتمتع بسمعه وبصره [٦] .

–دعا لقبيلة دوس بالهداية فهداهم الله بعد أن أبوا الإسلام [٧] .

–ودعا لأم خالد بنت خالد بن سعيد بطول العمر وهي صبية، فبقيت حتى ذكر من بقائها [٨] .

–ودعا لأبي زيد بن أخطب ومسح على وجهه، فعاش مائة وعشرين سنة وليس في رأسه إلا شعرات بيض [٩]

–ودعا لعروة البارقي بالبركة في صفقة يمينه، فكان كثير الربح وكذلك عبد الله بن جعفر [١٠]

–واشتكى إليه جرير بن عبد الله أنه لا يثبت على فرسه، فدعا الله له فلم يسقط عن فرس بعد ذلك [١١] .

–اشتكى إليه علي بن أبي طالب ضعف الخبرة في القضاء، فدعا له بالبصيرة في القضاء، قال علي: فما شككت في قضاء بعد هذا [١٢] .

–ودعا له أيضا بالشفاء من مرض ألم به، قال علي: فما اشتكيت ذلك الوجع بعد [١٣] .

---

(١) –أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١/ ٥٣.

(٢) –أخرجه البخاري ك/ الدعوات ب/ الدعاء يرفع الوباء والوجع وفي الحج ومسلم ك/ الحج ب/ الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها.

(٣) –أخرجه مسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ من فضائل أبي هريرة، وأحمد باقي مسند المكثرين.

(٤) –أخرجه البخاري ك/ الوضوء ب/ وضع الماء عند الخلاء، وأحمد في مسند بني هاشم بداية مسند عبد الله بن العباس.

(٥) –أخرجه البخاري ك/ الصوم ب/ من زار قوما فلم يفطر عندهم، وأحمد في باقي مسند المكثرين مسند أنس بن مالك، قال أنس: فإني لمن أكثر الأنصار مالا، وحدثتني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي مقدم حجاج البصرة بضع وعشرون ومائة، انظر صحيح البخاري ك/ الصوم ب/ من زار قوما فلم يفطر عندهم.

(٦) –أخرجه البخاري ك/ الوضوء ب/ استعمال فضل وضوء الناس، ومسلم ك/ الفضائل ب/ إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده.

(٧) –أخرجه البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، ومسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم. وقال الحافظ ابن حجر: وقع مصداق ذلك (يعني الدعوة لهم بالهداية) فذكر ابن الكلبي أن حبيب بن عمرو بن حثمة الدوسي كان حاكما على دوس، وكان يقول: إني لأعلم أن للخلق خالقا لكني لا أدري من هو؟ فلما سمع بالنبي خرج إليه ومعه خمسة وسبعون رجلا من قومه فأسلم وأسلموا، فتح الباري ٨/ ١٠٢ بتصرف.

(٨) –أخرجه البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ من تكلم بالفارسية والرطانة، وأبو داود ك/ اللباس ب/ فيما يدعى لمن لبس ثوبا جديدا، وأحمد في باقي مسند الأنصار.

(٩) –أخرجه الترمذي ك/ المناقب ب/ في آيات إثبات نبوة النبي وما قد خصه الله عز وجل، وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٩٣.

(١٠) –مسند أحمد ١/ ٢٠٤، وابن سعد ٤/ ٣٦–٣٧ والنسائي في الكبرى ٨٦٠٤، وأبو داود مختصرا، وإسناد أحمد على شرط مسلم، تحقيق المسند ٣/ ٢٧٩.

(١١) –أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ غزوة ذي الخليفة، ومسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ من فضائل جرير بن عبد الله.

(١٢) –أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٤٥ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأحمد في المسند، وهو صحيح كما في تحقيق المسند ٢/ ٦٨، ٣٥٦.

(١٣) –مسند أحمد ١/ ٨٣، وصححه ابن حجر كما في تحقيق المسند ٢/ ٦٩.

-واستأذنه شاب في الزنا فصرفه عن ذلك بأسلوب حكيم [١] ثم دعا له بتحصين فرجه فكان ذلك الفتى لا يلتفت إلى شيء [٢]

-ودعا لطفل صغير بالهداية عندما خير بين أبيه المسلم وأمه الكافرة فاختار أباه المسلم [٣]

-ودعا الله عز وجل أن يعز الإسلام إما بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام فاستجاب الله له وهدى عمر بن الخطاب في اليوم الثاني [٤] .

-دعا لقبيلة ثقيف بالهداية، فأقبلوا مهتدين بعد أن حاربوا المسلمين [٥] .

-ودعا لأصحابه يوم بدر بالرزق ففتح الله عليهم بعد ذلك [٦] .

-ودعا لجعيل الأشجعي بالبركة في فرسه وكانت عجفاء ضعيفة، فأصبحت تسابق الناس وباع مما أنتجته بمال كثير [٧]

-ودعا لأم المؤمنين أم سلمة بأن يذهب الله غيرتها، فاستجاب الله سبحانه له [٨]

-ودعا الله أن يعين أصحابه الذين توجهوا لقتل كعب بن الاشرف الذي آذى المسلمين فنجحوا في مهمتهم، رغم تحصنه وصعوبة النيل منه إلى غير ذلك من أنواع الدعوات لمن دعا لهم [٩].

(ج) -استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم على من دعا عليهم:

وقد حصل ذلك في حوادث متعددة، فمن ذلك أنه دعا على الكفار حين رأى منهم إدبارا عن الحق، فقال: اللهم سبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع [١٠].

-ودعا على سبعة من قريش كانوا يهزؤن به وبالإسلام فقال عبد الله بن مسعود إنه رآهم صرعى في قليب بدر[١١]

-دعا على عامر بن الطفيل عندما هدد بغزو المدينة، فأصابته غدة "العقدة في الجسم يطيف بها (الشحم)" ومات على ظهر فرسه [١٢] .

-ودعا على رجل تكبّر وأبى أن يأكل بيمينه زاعما أنه لا يستطيع، فقال: لا استطعت!! فما رفعها إلى فيه [١٣]

-وكان ابن أبي لهب يسب النبي فدعا عليه النبي قائلا: اللهم سلط عليه كلبك، فخرج إلى الشام تاجرا فنزل منزلا فقال: إني أخاف دعوة محمد، فطمأنه رفاقه وناموا حوله وجعلوه وسطهم، فجاء الأسد ودخل إليه قاصدا إياه فافترسه [١٤] إلى غير ذلك من دعواته صلى الله عليه وسلم على من دعا عليهم وإجابة دعواته على من كفر به شهادة من الله على صدق

---

(١) -حيث قال له: أدنه، فدنا منه قريبا، فقال: أتحبه لأمك قال: لا والله جعلني فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، ثم سأله هل يحبه لابنته أو أخته أو عمته أو حالته فأجاب بالنفي، فأعلمه أن الناس كذلك لا يحبونه لبناتهم ولا لأخواتهم ولا لعماتهم ولا لخالاتهم ثم وضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وحصن فرجه، فكان الفتى لا يلتفت إلى شيء.

(٢) -مسند أحمد ٥/ ٢٥٦-٢٥٧ والطبراني في الكبير وإسناده صحيح كما في تحقيق المسند ٣٦/ ٥٤٥.

(٣) -أخرجه ابن ماجه ك/ الأحكام ب/ وأحمد في باقي مسند الأنصار من حديث أبي سلمة الأنصاري، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١.

(٤) -أخرجه الترمذي ك/ المناقب/ وابن ماجه ك/ المقدمة/ وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة والحاكم ٣/ ٥٧٤، وصححه الألباني في سنن الترمذي ٣/ ٢٠٤.

(٥) -مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٤٢٣ . ، البخاري ك/ المغازي ب/ قوله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم [التوبة: ٢٥] .

(٦) -المستدرك ٢/ ١٤٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأحمد وأبو داود والبيهقي.

(٧) -النسائي في السنن الكبرى ٥/ ٢٥٣، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/ ٤٩٠.

(٨) -النسائي في السنن الكبرى ٣/ ٢٨٦ . ، ففي مسند أبي يعلى ١٢/ ٣٣٨: فكانت في النساء كأنها ليست منهن لا تجد ما يجدن من الغيرة.

(٩) -أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ ومسلم ك/ الجهاد والسير ب/ للاستزادة انظر دلائل النبوة لسعيد باشنفر ١/ ٣٥٥- ٤٨٠، ٢/ ٤٩٧- ٥٣٦.

(١٠) -أخرجه البخاري ك/ الجمعة ب/ دعاء النبي أجعلها عليهم سنين كسنين يوسف، ومسلم ك/ صفة القيامة والجنة والنار ب/ الدخان، ورؤيتهم الدخان إما من بخار حرارة الأرض، أو لتخيلهم ذلك من شدة الجوع كما ذكره الحافظ ابن حجر في شرح الحديث.

(١١) -أخرجه البخاري ك/ الوضوء ب/ إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه، ومسلم ك/ الجهاد والسير ب/ ما لقي النبي من أذى المشركين. والسبعة الذين دعا عليهم الرسول هم: عمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية ابن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد.

(١٢) -المستدرك ٤/ ٩٢، أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ غزوة الرجيع ورعل وذكوان ...

(١٣) -أخرجه مسلم ك/ الأشربة ب/ آداب الطعام والشراب، وأحمد في أول مسند المدنيين من حديث سلمة بن الأكوع، والدارمي ك/ الأطعمة ب/ الأكل باليمين.

(١٤) -الحاكم ٢/ ٥٨٨، وقال صحيح الإسناد وحسنه الحافظ في الفتح ٤/ ٣٩. للاستزادة انظر دلائل النبوة لسعيد باشنفر ١/ ٣٥٥-٤٨٠، ٢/ ٤٩٧-٥٣٦.

رسالته، وعلى أن الكفر به جريمة يستحق صاحبها العقوبة ، ولقد شهد المؤمنون والكافرون إجابة الله لدعاء الرسول في خرق السنن المعتادة له وفي إكرام من دعا لهم، وفي الانتقام ممن دعا عليهم، وكان ذلك سببا في قوة إيمان المؤمنين وفي إقناع المتشككين والكافرين برسالته، وحفظ جيل الصحابة تلك الوقائع بأسماء أصحابها وأماكنها وظروفها وأبلغوها إلى التابعين، وحملها التابعون عنهم إلى من بعدهم بتوثيق دقيق كما سبق بيانه ويستحيل أن يتحقق ذلك التأييد من الله لمن يدعي الكذب عليه ويفتري دعوى الرسالة وليس بمرسل.

المبحث الثالث: جوابه الحاضر على أسئلة المشككين:

لقد كان من أدلة صدق النبي جوابه الحاضر على الأسئلة المفاجئة التي كان يواجهه بها المشككون في صدقه، ولا يتأتى ذلك لشخص كاذب مهما أوتي من فطنة، بل لا يصدر إلا عن نبي مؤيد بوحي من السماء فنوعية الأسئلة غامضة مما تواضعوا عليه بكتبهم وأخبرتهم به أنبياؤهم الكثيرة وما أخفوا علمه عن العامة فمن أمثلة ذلك عن أنس قال سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله وهو في أرض يخترف، فأتى النبي فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؛ فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ الحديث السابق) [١] .

وعن ثوبان مولى رسول الله قال: كنت قائما عند رسول الله فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك فقال له رسول الله: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني فنكت رسول الله بعود معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا» قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض، إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي ثم انصرف فذهب فقال رسول الله: لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به[٢]

عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله يوما، فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي قال: «سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام» قالوا: فذلك لك قال: «فسلوني عما شئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن؛ أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة؟ قال: «فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني» قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق قال: «فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضا شديدا، وطال سقمه، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟ قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد عليهم،

---

(١) –أخرجه البخاري (كتاب تفسير القرآن، باب من كان عدوا لجبريل، رقم: ٤٢١٠).
(٢) –أخرجه مسلم كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، رقم:٣١٥.

فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله؛ إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله؟» قالوا: اللهم نعم قال: «اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا: اللهم نعم قال: «اللهم اشهد» قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك؟ قال: «فإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه» قالوا: فعندها نفارقك؟ لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك قال: «فما يمنعكم من أن تصدقوه» قالوا: إنه عدونا قال: فعند ذلك قال الله عز وجل {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} إلى قوله عز وجل {كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون} فعند ذلك باءوا بغضب على غضب [١].

وفي وراية عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قالوا: الله على ما نقول وكيل قال: «هاتوا» قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: «يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة آنثت» قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان الإبل فحرم لحومها» قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب، بيده أو في يده مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمر الله» قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «صوته» قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام» قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فأنزل الله عز وجل {من كان عدوا لجبريل ..}.

فلو كان النبي رجلا كاذبا–وحاشاه–هل يغامر هذه المغامرة، ويرضى بهذا الاختبار العلني من علماء وأحبار، وهو لا يعرف ما هي الأسئلة أو إجابتها، ويقول (سلوني عما شئتم) ؟! لو كان يأخذ من أساطير الأولين، أليس المفترض أنه يقول: انتظروني حتى أراجع مراجعي أو مشايخي، أم أنه كان مطمئنا إلى صدق نفسه، واثقا بمن أرسله وأنه لا يخذله أبدا، ومع أنهم يسألونه في علوم لم يدرسها، ولا يعرفها قومه، إلا أنه كان يجيب عليها بكل دقة، والعجب أن هذا الأسئلة ليست في علم واحد، بل هي في عدة علوم، فبعضها طبية، وبعضها غيبية لا يمكن لأحد أن يطلع عليها إلا بوحي، أليس في هذا أوضح دليل على صدق رسالته[٢]؟ .

البحث الرابع: تأييد الله له في كل معاركه مع عدم التكافؤ بينه وبين عدوه لا في العَدد ولا في العُدد:

أشار القرآن إلى حفظ الله له في الغار والعدو على بابه فقال تعالى: { إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم } [التوبة: ٤٠] .

وفي بدر كان الجيشان غير متكافئين، واللقاء حتمي بينهما، أيد الله جيش الإسلام والنبوة بآيات خارقة للسنن المعروفة، ومن ذلك:

---

(١) –أخرجه الإمام أحمد (٢٥١٠) وهو حسن، وصححه الشيخ أحمد شاكر برقم:٢٥١٤.

(٢) –د. عبدالمحسن المطيري، الأدلة الجلية على صدق خير البرية ص ٧٧ –٨١

(أ) إنزال المطر عليهم: قال تعالى: {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام} [الأنفال: ١١] ، فذكر سبحانه أنه أنزل المطر على المؤمنين لأربعة أسباب: للتطهير من الحدث، ولإذهاب وسوسة الشيطان، ولتثبيت القلوب، ولتلبيد الأرض الرملية في بدر لتثبت عليها أقدام المؤمنين في سيرهم ، قال مجاهد: أنزل الله المطر فأطفأ الغبار وتلبدت الأرض وطابت نفوسهم وثبتت أقدامهم ، وقال عروة بن الزبير: وكان نزول المطر سببا في إذهاب وسوسة الشيطان الذي أراد به تثبيط المؤمنين عن القتال بعد احتلامهم بالليل حيث كانوا يصلون مجنبين، فحين نزول المطر وجد الماء الذي اغتسلوا به من الجنابة، وأذهب الله بذلك رجز الشيطان(١).

ولقد أثبت العلم الحديث أن عضلات القلب عبارة عن ألياف عضلية في شكل خيوط طولية وعرضية تلف القلب، فإذا أفرزت مادة (الأدرينالين) عملت على ارتخاء عضلات القلب وبالتالي ترتخي تلك الألياف والحبال العضلية، كما تعمل على ارتعاش الأطراف، وقد وجد أن من أسرع الوسائل لتخفيض مادة (الأدرينالين) هو أن يرش الجسم بالماء فيربط على القلب بتلك الحبال العضلية بانقباض العضلات، ويزول الارتخاء، كما تثبت الأقدام من ارتعاشها، وصدق الله القائل: وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام [الأنفال: ١١].

(ب) تقليل عدد كل فريق في نظر الفريق الآخر: ومن آيات الله في هذه المعركة أن جعل كل فريق يرى عدد الفريق الآخر قليلا، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى وهي أن تتم هذه المعركة وينتصر الحق على الباطل. قال تعالى: {وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور} [الأنفال: ٤٤] قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين وقلل المشركين في أعين المسلمين (٢) .

(ج) إنزال الملائكة للقتال مع المؤمنين: فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نظر إلى المشركين يوم بدر وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فدعا الله سبحانه مادا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، أن ينصره على المشركين قائلا: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا، وأتاه أبو بكر وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله سبحانه قوله:{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين [الأنفال: ٩] ،فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يثب في الدرع ويقول: {سيهزم الجمع ويولون الدبر } [القمر: ٤٥] (٣)، بل إنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يحدد مواضع قتل المشركين، فيقول: هذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدا ويضع يده على الأرض، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدا و ويضع يده على الأرض، فكان الأمر كما قال (٤) .

وأمد الله المسلمين في تلك الغزوة بألف من الملائكة الكرام وأمرهم بالقتال مع المؤمنين وأوحى إليهم أن يثبتوا المؤمنين، ووعد سبحانه أنه سيلقي الرعب في قلوب الكافرين. قال تعالى: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان} [الأنفال: ١٢] قال عبد الله بن عباس: إن النبي قال يوم بدر: هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب (٥)، وقال ابن عباس: بينما رجل من

(١) -أخرجه بمعناه الطبري بسند حسن عن ابن عباس، انظر التفسير الصحيح ٢/ ٣٨٨، وذكره السيوطي في الدر المنثور عند الآية المذكورة.
(٢) -انظر فتح القدير للشوكاني عند قوله تعالى: وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم [الأنفال: ٤٥] .
(٣) -أخرجه مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ الإمداد بالملائكة، والترمذي ك/ التفسير ب/ ومن سورة الأنفال وابن حبان في صحيحه ١١/ ١١٤، وأحمد في المسند ١/ ٣٠ وأبو عوانة في مسنده ٤/ ٢٥٥ وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٣٥٧ وغيرهم، وأخرج البخاري منه جملة الدعاء ك/ التفسير ب/ بل الساعة موعدهم.
(٤) -أخرجه مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ غزوة بدر وفي ك/ صفة القيامة والجنة والنار ب/ عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وأبو داود ك/ الجهاد ب/ في الأسير ينال منه الضرب والنسائي ك/ الجنائز ب/ أرواح المؤمنين وأحمد في المسند ١/ ٢٦ وابن حبان في صحيحه ١١/ ٢٥ وغيرهم.
(٥) -أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ شهود الملائكة بدرا والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٣٤٢.

المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط من فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقيا، فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه «أصيب أنفه وضرب» وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة [١] وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري [٢]، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا، فقال العباس: إن هذا والله ما أسرني! لقد أسرني رجل أجلح «من انحسر شعره عن جانبي رأسه» من أحسن الناس وجها، على فرس أبلق «ما فيه سواد وبياض» ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم [٣]، وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به [٤] .

وانتهت المعركة بهزيمة المشركين فقتل منهم سبعون، وأسر كذلك سبعون في وقت وجيز، وقال جبريل للنبي: ما تعدون أهل بدر فيكم؟، قال: من أفضل المسلمين–أو كلمة نحوها–قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة[٥]

(د) إلقاء النعاس على المؤمنين: كان الصحابة على وجل من قلتهم وكثرة عدوهم، فألقى الله عليهم النعاس أمنة منه قال تعالى: {إذ يغشيكم النعاس أمنة منه} [الأنفال: ١١] وكذلك حصل في معركة أحد، فقد قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارا، يسقط وآخذه [٦] قال ابن كثير: وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، كما قال: {فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا} [الشرح : ٥– ٦] وقال عبد الله بن مسعود: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان [٧] .

قتال الملائكة مع النبي صلى الله عليه وسلم في معركة أحد: عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت رسول اللهﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام [٨] .

نصرة الله لرسولهﷺ بالريح والملائكة في غزوة الأحزاب: تجمع الأحزاب من الكفار لقتال النبي وكان عددهم نحوا من عشرة آلاف وتمالئوا مع اليهود القاطنين في شرق المدينة على حرب النبي وأصحابه، واشتد الحال على المسلمين الذين حفروا خندقا بينهم وبين الكفار، واستمر الكفار قريبا من شهر وهم يحاصرون المدينة ،فدعا النبي ربه أن ينصره على المتمالئين على الإسلام فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم [٩] فاستجاب الله دعاء رسوله وأرسل على الأحزاب ريحا شديدة اقضت مضاجعهم، وجنودا زلزلتهم مع ما ألقى الله بينهم من التخاذل فأجمعوا أمرهم على الرحيل وترك المدينة النبوية.

قال حذيفة: لقد رأيتنا مع رسول الله ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر «البرد» فقال رسول الله: ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة [يعني من شدة الخوف والبرد والجوع]

---

(١) –أخرجه مسلم ك/ الجهاد ب/ وابن حبان ١١/ ١١٥ والبزار في مسنده ١/ ٣٠٦ وعبد بن حميد في مسنده ١/ ٤١ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ١١٩.
(٢) –أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤٥٠، وابن هشام في السيرة وسنده حسن، وأخرجه ابن جرير في تفسيره عنده قوله تعالى: أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة [آل عمران: ١٢٤].
(٣) –أخرجه أحمد في مسنده ١/ ١١٧ و ٤/ ٢٨٣ وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٣٥٧ والطبري في تفسيره ٤/ ٧٨ وفي تاريخه ٢/ ٤٠ قال في مجمع الزوائد ٦/ ٧٦: رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة، واسناده صحيح كما في تحقيق المسند ٢/ ٢٦١.
(٤) –أخرجه البيهقي ويونس بن بكير في زيادات المغازي كما قال الحافظ في الفتح ٧/ ٣١٢.
(٥) –أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ شهود الملائكة بدرا.
(٦) –أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٣٤٩ وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٣٧٠.
(٧) –أخرجه الطبري في تفسيره ٤/ ١٤١ وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ١/ ٤١٩، وسنده صحيح، انظر التفسير الصحيح ٢/ ٣٨٨.
(٨) –مسلم ك/ الفضائل ب/ في قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، والبخاري مختصرا ك/ المغازي ب/ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما [آل عمران: ١٢٢] وأحمد في مسنده ١/ ١٧١، والشاشي في مسنده ١/ ١٨٥.
(٩) –أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ غزوة الخندق ومسلم ك/ الجهاد والسير ب/ والترمذي ك/ الجهاد ب/ ما جاء في الدعاء عند القتال، وغيرهم.

ثم قال: يا حذيفة، قم فأتنا بخبر القوم، ولا تذعرهم علي «ولا تهيجهم علي» ، قال حذيفة: فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فمضيت وأنا من أشد الناس فزعا وأشدهم قرا، فدعا له الرسول فذهب عنه الخوف والبرد، قال حذيفة: فكأني أمشي في حمام « المكان الذي يغتسل فيه بالماء الحار» حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي «يدفئ» ظهره بالنار، فوضعت سهما في كبد قوسي، وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله: لا تذعرهم علي، ولو رميته لأصبته، وهو يقول: الرحيل الرحيل، ثم إني شجعت نفسي فدخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر، يقولون: يا آل عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا، فو الله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها، ثم إني خرجت نحو رسول الله فلما انتصف بي الطريق أو نحو من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارسا أو نحو ذلك معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه، فأتيت رسول الله كأنما أمشي في حمام، فأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله خبر القوم وأني تركتهم يرحلون، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، وكان إذا حزبه أي نابه واشتد عليه أمر صلى فلم أبرح نائما حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله: قم يا نومان [(١)] .

وأنزل الله تعالى في كتابه ذكر هذه الحادثة وذكر حال المؤمنين والمنافقين وأهل الكتاب فيها، وكيف تم النصر، فقال سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا–إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا–هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا–وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا–وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا}[الأحزاب: ٩– ١٣] .

وقال سبحانه: {ولما رأ المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما–من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا–ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما–ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا–وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا–وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديرا } [الأحزاب: ٢٢– ٢٧] ، والريح التي أرسلها الله على الأحزاب، قال مجاهد: هي ريح الصبا، والجنود هم الملائكة وفي الصحيح قال النبي ﷺ " نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور [(٢)] أي صرف الله عنهم عدوهم بالريح التي أرسلها عليهم، والجنود من الملائكة وغيرهم التي بعثها الله عليهم: وكفى الله المؤمنين القتال، أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم، بل صرفهم القوي العزيز بحوله وقوته، وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: كان رسول الله يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» [(٣)] .

---

(١) –القصة صحيحة مركبة من رواية مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ غزوة الأحزاب والحاكم ٣/ ٣٣ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو عوانة في مسنده ٤/ ٣١٩–٣٢١ والقصة رواها أيضا ابن حبان في صحيحه ١٦/ ٦٧ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٥٤ وانظر فقه السيرة للغزالي بتخريج الألباني.

(٢) –الصبا: ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار. (٣) الدبور: ريح تهب من المغرب تقابل القبول وهي ريح الصبا. والحديث رواه البخاري ك/ الاستسقاء ب/ قول النبي صلى الله عليه وسلم: نصرت بالصبا ومسلم ك/ صلاة الاستسقاء ب/ في ريح الصبا والدبور وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٣٣١، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٣ وغيرهم. راجع تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) –البخاري ك/ المغازي ب/ غزوة الخندق ومسلم ك/ الذكر والدعاء ب/ التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

قال سليمان بن صرد: سمعت النبي يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم» [١]، وقد تحقق ذلك فلم تغز المدينة بعد ذلك، بل غزا النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفار قريش وفتح مكة فيكون هذا الخبر أيضا من دلائل النبوة لأنه إخبار بغيب المستقبل.

ما ظهر من معجزات خوارق العادة في غزوة حنين: أعجب المسلمون بكثرتهم في غزوة حنين، فلم يغن عنهم ذلك شيئا عندما باغتهم العدو بالهجوم، فانهزموا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يثبت إلا النبي مع قلة من الصحابة، قال سلمة بن الأكوع: ومررت على رسول الله منهزما « يعني سلمة » وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله: لقد رأى ابن الأكوع فزعا، فلما غشوا رسول الله نزل عن البغلة (وفي رواية أنه دعا حينئذ واستنصر وقال اللهم نزل نصرك) [٢] ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال شاهت «قبحت» الوجوه، فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل، وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين [٣] وفي رواية أنه أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: " انهزموا ورب محمد" فو الله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا [٤].

إنه موقف مدهش الذي وقفه النبي في غزوة حنين، منفردا بين الأعداء، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين، فطفق هو يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع، فأقبل المشركون إلى رسول الله فلما غشوه لم يفر ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه، وجعل يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه، فوالله ما نالوا منه نيلا، بل أيده الله بجنده، وكف عنه أيديهم بيده [٥].

---

(١) -أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ غزوة الخندق وأحمد في مسنده ٤/ ٢٦٢و الطيالسي في مسنده ١/ ١٨٢ والطبراني في الكبير ٧/ ٩٨.

(٢) -رواه مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ غزوة حنين.

(٣) -أخرجه مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ في غزوة حنين وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٥١ وأبو عوانة في مسنده بنحوه ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ والدارمي في السنن بنحوه ٢/ ٢٨٩ وابن أبي شيبة في المصنف بنحوه ٧/ ٤١٩ والروياني في مسنده ٢/ ٢٥٣ وغيرهم.

(٤) -أخرجه مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ في غزوة حنين والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٧٠ وأبو عوانة في مسنده ٤/ ٢٧٧-٢٧٨ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١٩٧ وعبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٨٠ وأحمد في المسند ١/ ٢٠٧ وغيرهم.

(٥) -متفق عليه البخاري رقم:٢٨٧٧، ومسلم رقم:١٧٧٦). النبأ العظيم، للعلامة د. محمد عبد الله دراز، ص:٤٩

الفصل الخامس: محمد في كتب السابقين.

- **تمهيد:**
- **المسيح المخلّص المنتظر**
- **هل ادعى المسيح عيسى عليه السلام أنه المسيح المنتظر؟**
- **نعم قال محمد صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه النبي المنتظر؟**
- **أهم اكتشاف حديث!**
- **أولا: بشارة يعقوب بقدوم شيلون.**
- **ثانيا: موسى عليه السلام يبشر بظهور نبي ورسول مثله.**
- **ثالثا: نبوءة موسى وحبقوق عن البركة الموعودة في أرض فاران.**
- **رابعا: البشارة بالملكوت.**
- **خامسا: البشارة بإيلياء.**
- **سادسا: البشارة بـ (محماد) مشتهى الأمم.**
- **سابعا: النبي "إشعياء" يتحدث عن هجرة محمد ومكانها.**
- **ثامنا: إنّه النبي الأميّ الذي لا يعرف القراءة، وراكب الجمل في سفر أشعيا.**
- **تاسعا: المسيح يبشّر بالفارقليط وهو اسم ترجم بصفة "المعزّي".**
- **عاشراً: مكة (بكّة) القبلة الجديدة وبيت الله الجديد. !!**
- **ملخص ما سبق.**
- **خاتم النّبيين في كتب السابقين.**

تمهيد:

إن بعضا من أمثال براهين نبوّة خاتم الأنبياء شهدت لأنبياء الله من قبل بالنبوّة، وأقامت للناس أعلاماً على صدقهم في دعواهم الرسالة، فقامت بهم حجة الله على خلقه، وأما دلائل نبوة خاتمهم فهي أوسع وأشمل وأوضح من دلائل من سبقه من إخوانه، أوليس الصادق الأمين عند قومه الذي لا يكذب بنبيّ!، وهو الذي ساق من الغيوب ما قارب الألف، مما أطلعه عليه ربه؟ أفيكذب في دعواه النبوة، ثم يطلعه الله على الغيوب التي يقيم بها حجته وبرهانه؟! أوليس رسول الله ذاك الذي تفتح لدعواته أبواب السماء، ويجيب الله دعوته ولا يخيب رجاه؟! هل يجادل عاقل في نبوة من خرق الله له

نواميس الكون ليؤكد صدقه في دعواه النبوة والرسالة؟ فكثر الله ببركته قليل الطعام والشراب، وشق له القمر في كبد السماء، وشفى بنفثه وريقه من شاء!

إنه النبي الذي بشر بقدومه الأنبياء، فهو دعوة أبيه إبراهيم، وبشارة أخيه عيسى، هو النبي المتلألئ من فوق جبل فاران، والذي امتلأت الأرض من تسبيحه، فكان إسلام علماء أهل الكتاب صدى لذلك التسبيح {ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} (الرعد: ٤٣).

بشّرت الأنبياء بالنبي الخاتم نبياً تلو نبي وقد أخذ عليهم الميثاق بأن يؤمنوا به إن جاء وينصرونه: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} (آل عمران:٨١). وقام الأنبياء ببلاغ أقوامهم نبأ هذا النبي القادم "المسيح المنتظر المنصور".

وأهل الكتاب من يهود ونصارى مقرّون بوجود هذه البشارات، ومقرون بدلالتها على النبي الخاتم أو النبي العظيم القادم، لكنهم يصرون على أنه رجل من بني إسرائيل، يزعم النصارى أنه عيسى ابن مريم، بينما ما زال اليهود ينتظرونه! وقد حوى الكتاب المقدس رغم ما تعرض له من العبث والتحريف الكثير من النبوءات المبشرة بالنبي الخاتم، والتي لم تتحقق، ونتساءل متى ستتحقق، وقد مرّ على مقدم المسيح زهاء ألفي سنة من غير أن تتحقق هذه النبوءات؟ إن دعوى عدم تحقق هذه النبوءات مع تطاول الأيام يزري بالكتاب المقدس عند قارئيه.

لذا فإننا نوجه دعوة للتمعن في نبوءات الكتاب وقراءتها قراءة جديدة في ضوء ظهور الإسلام ونبيّه، ونحن على ثقة بأن ذلك سيفضي إلى كشف الحقيقة والإيمان بنبوة نبينا محمد ،وهي الحقيقة التاريخية التي أعلن عنها كل من تبصر في أمر هذا النبي وأحواله كما شهد بذلك العديد من اللاهوتيين من أهل الكتاب المعاصرين الذين آمنوا بمحمد وكتبوا في نبوءات الكتاب المقدس حوله الكثير ،وكما شهد هرقل ملك الروم برسالته حين جاءه كتاب النبي يدعوه للإسلام فأرسل إلى روما يسأل عن خبر النبي الخاتم، فلما جاءه الرد قال لقومه: "يا معشر الروم: إني قد جمعتكم لخير، إنه قد أتاني كتاب من هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله للنبي الذي كنا ننتظره، ونحن نجده في كتبنا، فهلموا نتبعه ونصدقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا" ،وفي رواية البخاري أنه قال: " يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي" فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان. قال: "ردوهم علي"، وقال لهم: "إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ" فسجدوا له ورضوا عنه. ([1])

ولئن كان هرقل قد نكل عن مقتضيات شهادته فلم يدخل في الإسلام كحال الكثيرين ممن يعرفون الحق فيصمّون عن اتباعه فإن النجاشي ملك الحبشة آمن بالنبي، وقال لأحبار مملكته عن وفد النبي: "يا معشر القسيسين والرهبان، ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله، والذي بشّر به عيسى ابن مريم، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه"[2] وأكد سطوع البشارة به في كتب أهل الكتاب إسلام العشرات من علماء أهل الكتاب بل المئات كالحسن بن أيوب، وعبدالله الترجمان ، وزيادة النصب الراسي ، والقس عبد الأحد داود، وإبراهيم خليل، وموريس بوكاي وغيرهم كثير

(١) –رواه البخاري ح (٧)، ومسلم ح (١٧٧٣). وراجع شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ١٠٧).
(٢) –رواه أبو داود ح (٣٢٠٥)، وأحمد ح (٤٨٣٦) وابن أبي شيبة ح (٣٦٦٤٠).

تطلق الأسفار المقدسة على النبي القادم أسماء شتى، فتسميه تارة الملك، وأخرى النبيّ المنتظر، وتارة تلقبه بالمسِيّا وأخرى بالمسيح، بمعنى المخلص، فكل هذه الأسماء مترادفات تدل على النبي القادم، وهي في ذات الوقت أوصاف لهذا النبي العظيم، لكن يبقى تسميته بالمسيح أشهرها لما لهذا اللقب من أهمية عند بني إسرائيل.

وقد يتمسك بعضهم بأحقية عيسى بهذا الاسم من غيره، حيث لقب به، فنقول: إن تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح تسمية اصطلاحية ليست خاصة به، حيث كان اليهود يسمون أنبياءهم وملوكهم به والمسيح لقب للنّبي القادم الذي كانت تنتظره بنو إسرائيل، لذا تساءل اليهود لما رأوا يوحنا المعمدان إن كان هو المسيح القادم " فاعترف ولم ينكر، وأقر: إني لست المسيح. فسألوه إذاً ماذا؟ إيّليا أنت؟ " (يوحنا ١/ ٢١ –٢٢)، كما استخدم هذا الاسم جموعُ اليهود حين رأوا معجزات عيسى عليه السلام، فقالوا: " ألعلّ المسيح (أي القادم) متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا! " (يوحنا ٧/ ٣٠ –٣١).

ولعل البعض يهتف مطالباً بالكشف عن النص الصريح الذي يبشر بمحمد، ويبين بجلاء اسمه وصفته التي لا ينازعه فيها أحد، لكن يحول دون تحقيقه أمران متعلقان بالكتاب المقدس وتراجمه، وهما لا يعزبان عن فهم المتضلعين في كتب القوم المقدسة، الذين يدركون السبب الذي أضاع أو أغمض كثيراً من البشارات الكتابية.

أولهما: أن لأهل الكتاب عادة في ترجمة الأسماء إلى معانيها، فيوردون في الترجمة المعنى دون الاسم، وقد يزيدون تفسيراً للعبارة، ويقحمونه في النص، ولكم ضاع بسبب هذا الصنيع من دلالات واضحات، منها نبوءة المسيح عن البارقليط، والذي تسميه التراجم الحديثة: المعزّي، ومنها بشارة النبي حجي بمقدم (محماد) التي ترجمها المترجمون بمشتهى، فضاعت الكثير من دلالات قول النبيّ حجي: "ويأتي مشتهى كل الأمم" (حجي ٢/ ٧)، ونحوه ما جاء في المزامير (٨٤/ ٦) عندما ذكرت المزامير اسم مدينة المسيح القادم، أسمتها: وادي بكة وتقرأ: (بعيمق هبكا)، فترجمها المترجمون إلى العربية إلى وادي البكاء، وترجمتها نسخة الرهبانية اليسوعية إلى "وادي البَلَسان"؛ لتضيع دلالتها على كل عربي يعرف أن بكة هي بلد محمد: {إن أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدًى للعالمين} (آل عمران: ٩٦)، يقول رحمة الله الهندي: " فهؤلاء المترجمون لو بدلوا في البشارات المحمدية لفظ رسول الله بلفظ آخر، فلا استبعاد منهم"، وفي هذا الصدد نقل أيضاً عن حيدر القرشي صاحب كتاب " خلاصة سيف المسلمين " قوله: " إن القسيس أوسكان الأرمني ترجم كتاب إشعياء باللسان الأرمني في سنة ألف وستمائة وست وستين، وطبعت هذه الترجمة في سنة ألف وسبعمائة وثلاث وثلاثين في مطبعة أنتوني بورتولي، ويوجد في هذه الترجمة في الباب الثاني والأربعين هذه الفقرة: " سبحوا الله تسبيحاً جديداً، وأثر سلطنته على ظهره، واسمه أحمد " (إشعيا ٤٢/ ١٠ – ١١). [١]

ثانيهما: الكتاب المقدس كثير الاستعارات، تكثر فيه الرموز والإشارات خاصة فيما يتعلق بالمستقبل، يقول الدكتور سمعان كهلون في كتابه " مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين ": "وأما اصطلاح الكتاب المقدس فإنه ذو استعارات وافرة غامضة وخاصة العهد العتيق "، ويقول أيضاً: " واصطلاح العهد الجديد أيضاً هو استعاري جداً، وخاصة مسامرات مخلصنا، وقد اشتهرت آراء كثيرة فاسدة لكون بعض معلّمي النصارى شرحوها شرحاً حرفياً [٢]

يدرك القارئ للكتاب المقدس طبيعة التعبير عن الحقائق عن طريق الاستعارة والإلغاز، وهذه الصعوبة لن يشعر بها أولئك الذين يتفاخرون بأن كتابهم قد حوى الكثير من النبوءات التي تحققت فيما بعد كقيام الاتحاد السوفيتي وإسرائيل وحتى شخص كسينجر، وذلك كله عن طريق الإلغاز أو بحساب الجمّل، وهنا نتساءل هل من المعقول أن يخلو الكتاب

---

(١) –إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٤/ ١٠٩٧ –١١٠٧)، (٤/ ١٢٠٨ –١٢٠٩). ود. منقذ السقار، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ص ٩–١٨، ط١ ٢٠٠٧

(٢) –انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٧٠٢ –٧٠٣).

المقدس من نبوءة عن ذلك الرجل الذي غيّر مسار التاريخ باسم الله، أما كان ينبغي أن يكون له في هذه النبوءات نصيب، ولو نبوءة واحدة تحذر من حاله ودعوته أو تبشر بها؟! والإجابة عن هذا السؤال صمت مطبق من أولئك الذين يدعون أنهم الوحيدون المؤهلون لحل ألغاز ورموز هذا الكتاب واستخراج نبوءاته وفهم مراميه.

لكن ظهور كلمة النبي ودينه، يعتبر المفتاح الذي نلج به إلى نبوءات العهد القديم والجديد، ففي طيات أسفار التوارة نبوءة وميزان يكشف الدّعي الكاذب، ويجليه بوصفه وحاله، يقول سفر التثنية " وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه ... فيموت ذلك النبي ... فلا تخف منه" (التثنية ١٨/ ٢٠ -٢٢).

وقد قال غملائيل الفريسي: "والآن أقول لكم: تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم، لأنه إن كان هذا الرأي أو هذا العمل من الناس فسوف ينتقض، وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه، لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً " (أعمال ٥/ ٣٨ -٣٩)، ودعوة نبينا لم تنتقض، بل ملأت الخافقين، وسادت الدنيا قروناً طوالاً، فسلامته خاتم النّبيين من القتل، وانتصاره على عدوه، وانتشار دعوته ودينه، دليل وبرهان على صدقه ورسالته " الرب يعلم طريق الأبرار، أما طريق الأشرار فتهلك" (المزمور ١/ ٦) وغيرها راجع (المزمور ٥/ ٦)، (الأمثال ٢/ ٢١ - ٢٢) دلت هذه النصوص على صدق رسول الله في دعوته، لسلامته من الأذى وتمام أمره ودينه وانتشار دعوته في العالمين.

المسيح المخلّص المنتظر

كان اليهود الذين عانوا اضطهاد الرومان الوثنيين ينتظرون **تحقق بشارة يعقوب وموسى وداود بالقادم المنتظر**، فهم لا يمارون ولا يشكون في **مقدم النبي الملك الظافر** الذي يقود أتباعه إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة، لذا لما بُعث المسيح العظيم، ورأوا ما أعطاه الله من المعجزات تعلق الكثيرون منهم بشخص المسيح، راجين أن يكون هو النبي المظفر العظيم، النبي المخلص، وهذا أمر يراه بجلاء الذي يتتبع أقوال معاصري المسيح من اليهود.

وتنقل لنا الأسفار المقدسة قصص بعض أولئك الذين كانوا يترقبون الملك المظفر المنتظر، من هؤلاء سمعان، (لوقا ٢/ ٢٥)، ومنهم نثنائيل الذي صارح المسيح بشعوره وظنه " أجاب نثنائيل وقال له: يا معلّم أنت ابن الله؟ أنت ملك إسرائيل؟ أجاب يسوع وقال له: هل آمنت لأني قلت لك "(يوحنا ١/ ٤٩ -٥٠). ولما أشيع أن المسيح صلب حزن بعضهم لتخلف الخلاص المنشود في شخص المسيح، "ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل" (لوقا ٢٤/ ١٧ -٢١). لقد كانوا ينتظرون الخلاص على يديه كما كانت قد وعدت النصوص التوراتية بمقدم الملك الظافر الذي يخلص شعبه ويقودهم للنصر على الأمم، إذا بهم يسمعون بقتله وصلبه.

وقال له التلاميذ في لقائه بعد القيامة: " يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل؟ فقال لهم: ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه" (أعمال ١/ ٦ -٧). أي أن هذا ليس هو وقت الملك المنتظر، يقول عوض سمعان: " إن المتفحصين لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان، كانوا ينتظرون المسيّا، لكن المسيّا بالنسبة إلى أفكارهم التي توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتي من عند الله[1]

وقد سبق أن ظن شعب إسرائيل المتلهف لظهور النبي العظيم المظفر أن يوحنا المعمدان هو المسيح المنتظر "إذ كان الشعب ينتظر، والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا، لعله المسيح" (لوقا ٣/ ١٥)، وهذه الجموع المتربصة للخلاص لما رأت المسيح قالوا فيه ما قالوه من قبل عن يوحنا المعمدان وأندرواس قال لأخيه سمعان مبشراً: " قد وجدنا مسِيّا، الذي

(١) -النصرانية في الميزان، محمد عزت الطهطاوي، ص (٢٧ -٢٩).

تفسيره المسيح"، لكنه وكما يقول القس الخضري: "لا يقصد بهذه العبارة إلا ما كان يقصده اليهودي المتدين الذي كان ينتظر مجيء المسيا الذي سيخلص ويحرر إسرائيل من العبودية الأجنبية، ثم ينعش الحياة الروحية". (١)

وشاع هذا الخبر في بني إسرائيل حتى خشي رؤساء الكهنة من بطش الرومان إن عرفوا أن المسيح المنتظر العظيم المظفر قد ظهر في شخص عيسى، فسارعوا إلى الإيقاع به، متهمين إياه بإفساد الأمة وادعاء أنه المخلص المنتظر، " فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً، وقالوا: ماذا نصنع، فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة، إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به، فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمّتنا؟ فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون، إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها " (يوحنا ١١/ ٤٧ –٥٠). فقالوا لبيلاطس: " إننا وجدنا هذا يفسد الأمة، ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلاً: إنه هو مسيح ملك، فسأله بيلاطس قائلاً: أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول، فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: إني لا أجد علّة في هذا الإنسان" (لوقا ٢٣/ ٢ –٤)، فقد ثبت لبيلاطس براءته مما اتهموه، إذ هو لم يدع أنه ملك اليهود المنتظر (٢)

هل ادعى المسيح عيسى عليه السلام أنه المسيح المنتظر؟

وإذا كان كثيرون من معاصري المسيح ادعوا أن عيسى عليه السلام هو المسيّا المنتظر، كما قالوا من قبل عن يوحنا المعمدان، فهل ادعى عيسى أو قال لتلاميذه أنه المنتظر، وهل حقق عليه السلام نبوءات المسيح المنتظر؟

ذات يوم سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه، ثم سألهم " فقال لهم: وأنتم من تقولون إني أنا؟ فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح، فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه، وابتدأ يعلّمهم أن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً، ويرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل" (مرقس ٨/ ٢٩ –٣١)، لقد نهرهم ونهاهم أن يقولوا ذلك عنه، وأخبرهم بأنه سيتعرض للمؤامرة والقتل، وهي بلا ريب عكس ما يتوقع من المسيح الظافر. أي أنه أفهمهم أنه ليس هو المسيح المنتصر الذي تنتظرون، والذي يوقنون أن من صفاته الغلبة والظفر والديمومة، لا الألم والموت، وفي رواية لوقا تأكيد ذلك (لوقا ٩/ ٢٠ –٢١).

وانتهاره التلاميذ ونهيهم عن إطلاق اللقب عليه ليس خوفاً من اليهود، فقد أخبر تلاميذه عن تحقق وقوع المؤامرة والألم، وعليه فلا فائدة من إنكار حقيقته لو كان هو المسيح المنتظر، لكنه منعهم لأن ما يقولونه ليس هو الحقيقة.

لكن بطرس كبير الحواريين رفض الإذعان لهذه الحقيقة، وهي أن المسيح هو العبد المتألم المتعرض للقتل، ليس الملك الظافر المنتظَر، فاندفع يؤنب المسيح على ما يسوقه من خبر عن نفسه، ولندع الكلام لمتى وهو ينقل لنا هذا المشهد بقوله: "ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويقتل، وفي اليوم الثالث يقوم، فأخذه بطرس إليه، وابتدأ ينتهره قائلاً: حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا"، فواجهه المسيح بصرامة تناسب أهمية الموضوع الذي يحتج عليه "فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي، لأنك لا تهتم بما لله، لكن بما للناس" (متى ١٦/ ٢١ – ٢٣).

هذا الذهول الذي وقع لبطرس أصاب سائر التلاميذ، فاندفعوا يعبرون عن استنكارهم لفكرة المسيح المتألم المقتول، وتساءلوا مستنكرين: هل كان المسيح يتحدث عن نفسه، "أجابه الجمع: نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول أنت: إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان، من هو هذا ابن الإنسان؟! " (يوحنا ١٢/ ٣٤)، لقد

---

(١) –تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ٢٦٩).

(٢) –د. منقذ السقار، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم، ص:١٥–٢٧، دار الإسلام للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ –٢٠٠٧ م

صدمتهم الحقيقة التي يصرح لهم بها المسيح، إنها تهدم كل أوهامهم عنه في أنه المسيّا العظيم الظافر الذي طال انتظار اليهود إليه.

ويوافقنا القس الخضري في أن المسيح عليه السلام ليس المسيّا الظافر الذي ينتظره اليهود، لكنه المسيا الروحي، ثم يلفت أنظارنا "إلى حقيقة في غاية الأهمية، وهي أن يسوع كان يحاول جاهداً أن يخفي نفسه كمسيا عن الجماهير، لذلك عندما كان يلاحظ وجود بعض الثغرات التي من خلالها كان يمكن للجماهير أن تراه كمسيا كان يسرع لإغلاقها". (١)

ويقول الأب متى المسكين: "التلاميذ جمعوا من الأدلة في حياة المسيح ما يؤكد لهم أنه المسيا، ولكن كل مرة يحاولون أن يثيروا هذا الافتراض يمنعهم المسيح، فإخفاء المسيح لمسيانيته أرهق العلماء للغاية، وقالوا فيه ما قالوا (٢)

وهو عليه السلام حرص على نفي كونه المسيّا مرة بعد مرة "فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم، وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه **ليجعلوه ملكاً** انصرف أيضاً إلى الجبل وحده" (يوحنا ٦/ ١٤-١٥). لماذا هرب؟ لأنه ليس الملك المنتظر، وهم مصرون على تمليكه لما يرونه من معجزاته عليه السلام، ولما يجدونه في أنفسهم من شوق وأمل بالخلاص من ظلم الرومان.

يقول القس الخضري: "إن جماعة الغيورين كانت تنتظر المسِيّا السياسي، وعندما رأت يسوع الذي يعظ بملكوت الله القريب؛ ظنت أنه هو فعلاً ذلك المسيا السياسي، ولذلك أرادت أن تختطفه، وتنصبه ملكاً على حزب الغيورين، لكي يكون زعيماً لهم، فيجمع شملهم ويدعم صفوفهم، ولكن المسيا يسوع ينصرف وحده إلى الجبل، لأن ملكوته ليس من هذا العالم، ولا يريد هذا الملك الذي يتقاتل ويتحارب عليه الناس". (٣)

وفي بلاط بيلاطس نفى المسيح أن يكون الملك المنتظر لليهود، كما زعموا وأشاعوا وقال مملكتي ليست من هذا العالم، فمملكته روحانية، في الجنة، وليست مملكة اليهود المنتظرة، المملكة الزمانية المادية، التي يخشاها الرومان، و"المعروف من النبوات أن مسِيّا سيكون ملكاً وكاهناً"(٤)، لذلك ثبتت براءته من هذه التهمة في بلاط بيلاطس الذي سأله قائلاً ": أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول، فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: إني لا أجد علّة في هذا الإنسان" (لوقا ٢٣/ ٢-٤)، فجواب المسيح لا يمكن اعتباره بحال من الأحوال إقراراً، فهو يقول له: أنت الذي تقول ذلك، ولست أنا، وقد اقتنع بيلاطس ببراءته فقال: " أنا لست أجد فيه علة واحدة" (يوحنا ١٨/ ٣٨).

وممن أدرك أن عيسى ليس المسيح المنتظر يهوذا الإسخريوطي الذي يرى القس الخضري أن سبب خيانته للمسيح أنه كان من طائفة الغيورين التي تحلم بمجيء المسيا القادم الظافر، فتبددت آماله، وساورته شكوك في مسيانية المسيح " بعد أن سمع في كفر ناحوم عظة السيد عن خبز الحياة الذي سيكون طعاماً للآخرين، فكيف يمكن أن يكون المسيا ذبيحة، ونحن نريد مسيا عسكرياً قوياً يحرر من العدو؟ ولقد ازدادت شكوكه في مسيانية يسوع عندما سمعه يأمر بطرس بدفع الجزية للمستعمر. (متى ١٧/ ٢٤ -٢٧) ". (٥)

وثمة آخرون أدركوا أنه ليس المسيح المنتظر مستدلين بمعرفتهم بأصل المسيح عيسى ونسبه وقومه، بينما المنتظر القادم غريب لا يعرفه اليهود " ولكن هذا نعلم من أين هو، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو" (يوحنا ٧/ ٢٥ - ٢٧)، ذلك أن المسيح القادم غريب عن بني إسرائيل، وقد أكد المسيح صدق العلامة التي ذكروها للمسيح الغائب،

---

(١) -تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ٢٧٢).

(٢) -الإنجيل بحسب القديس لوقا، الأب متى المسكين، ص (٣٩٢)، ويرى أن سبب إخفاء المسيح لمسيانيته "حتى يمكنه أن يتمم خدمة ابن الإنسان أو العبد المتألم".

(٣) -تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ٢٣٨).

(٤) -الإنجيل بحسب القديس لوقا، الأب متى المسكين، ص (٧١٥).

(٥) -تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ٢٣٦)، وانظر قاموس الكتاب المقدس، ص (١٠٩٠).

فقال في نفس السياق: "فنادى يسوع وهو يعلّم في الهيكل قائلاً: تعرفونني، وتعرفون من أين أنا،... فآمن به كثيرون من الجمع، وقالوا: ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا! " (يوحنا ٧/ ٢٥-٣١)، فذكر المسيح أنه رسول من عند الله، وأنه ليس الذي ينتظرونه، فذاك لا يعرفونه، وقد آمن به الذين كلمهم، وفهم من المؤمنون أنه ليس المسيح المنتظر، فتأمل قول يوحنا: "فآمن به كثيرون من الجمع، وقالوا: ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟ " (يوحنا ٧/ ٣٠ -٣١).

أن المسيح المنتظر، الملك القادم ليس من ذرية داود، كما شهد المسيح بذلك "فيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً: ماذا تظنون في المسيح، ابن من هو؟ قالوا له: ابن داود، قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك؟ فإن كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة، ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله بتة" (متى ٢٢/ ٤١ -٤٦)، فالمسيح يشهد بصراحة أنه ليس المسيح المنتظر.

والمسيح لا يمكن أن يحقق النبوءات المبشرة بالملك العظيم القادم، ولا يمكن أن يصبح ملكاً على كرسي داود وغيره، لأنه من ذرية الملك الفاسق يهوياقيم بن يوشيا، أحد أجداد المسيح كما في (الأيام (١) ٣/ ١٤ - ١٥)، فيهوياقيم جد للمسيح (حسب روايات الكتاب المقدس)، واسم يهوياقيم أسقطه متى من نسبه المزعوم للمسيح ، بين يوشيا وحفيده يكنيا، وقد حرم الله الملك على ذريته كما ذكرت التوراة (إرميا ٣٦/ ٣٠)، فكيف يقول النصارى الذين يزعمون أن المسيح من ذرية يكينيا ابن الفاسق يهوياقيم بأن الذي سيملك ويحقق النبوءات هو المسيح؟!

ثم إن التأمل في سيرة المسيح وأقواله وأحواله يمنع أن يكون هو الملك القادم، الملك المنتظر، فالمسيح لم يملك على بني إسرائيل يوماً واحداً، وما حملت رسالته أي خلاص دنيوي لبني إسرائيل، كذاك النبي الذي ينتظرونه، بل كثيراً ما هرب المسيح خوفاً من بطش اليهود، فأين هو من الملك الظافر الذي يوطِئه الله هامات أعدائه، وتدين الأرض له ولأمته، فالنبي الآتي يسحق ملوك وشعوب زمانه كما أخبر يعقوب "وله يكون خضوع شعوب" (التكوين ٤٩/ ١٠)، وقال عنه داود: "تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار، جلالك وبهاءك، وبجلالك اقتحم. ... شعوب تحتك يسقطون. كرسيك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب استقامة قضيب ملكك " (المزمور ٤٥/ ١-٦)، أما المسيح عيسى عليه السلام فكان يدفع الجزية للرومان فأين حال دافع الجزية من الملك الذي تسقط تحت قدميه شعوب خاضعة ذليلة لسلطانه، والمسيح عليه السلام رفض أن يكون قاضياً بين اثنين يختصمان، فهل تراه يدعي الملك والسلطان، "يا إنسان من أقامني عليكما قاضياً أو مقسّماً!؟ " (لوقا ١٢/ ١٤).

ولئن أصر النصارى على مخالفة الكتاب فقالوا: المسيح هو الملك الموعود الظافر الذي تخضع له الشعوب، وأن ذلك سيحققه حال عودته الثانية، فإن ذلك مما تدحضه النبوءة التي ذكرها الملاك لمريم، حيث أخبرها أن المسيح سيملك على بيت يعقوب فحسب، فغاية ما يمكن أن يملك عليه هو شعب إسرائيل، فقد قال لها الملاك: " ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية" (لوقا ١/ ٣٣)، فيما المسيح الموعود "له يكون خضوع شعوب" (التكوين ٤٩/ ١٠)، و" شعوب تحتك يسقطون " (المزمور ٤٥/ ٥)، فملكه أعظم من مملكة بني إسرائيل.

ومما تقدم ظهر جلياً أن المسيح لم يدع أنه المسيح الذي تنتظره اليهود، وإن زعم ذلك بعض معاصريه، الذين كانوا يتوقون للمخلص العظيم الذي يسلطه الله على أعدائه، وقد صدق بولتمان في كتابه "يسوع" حين قال: "إن يسوع لم يعتبر نفسه المسيا"، ووافقه الكثير من العصريين كما نقل عنهم الأسقف برنار بارتمان، فقالوا " بأن يسوع لم يعتبر نفسه

المسيا، بل إن التلاميذ هم الذين أعطوه هذا اللقب بعد موته وقيامته من الاموات، الأمر الذي كان يرفضه بشدة أثناء حياته على الأرض"، ونختم بقول شارل جنيبر: "**والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين، هي: أن المسيح لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه إنه ابن الله** ". (١)

نعم قال محمد صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه النبي المنتظر والأخير؟

رأينا أن المسيح عليه السلام لم يدّع أنه النبي المنتظر، فهل أخبر محمد صلى الله عليه وسلم أنه ذلك النبي الموعود، الذي بشرت به الأنبياء؟ إن وجود البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء من أهم ما أكدت عليه النصوص القرآنية والنبوية، التي أخبرت أنه ما من نبي إلا وذكّر أمته بأمر هذا النبي، وأخذ عليهم في ذلك الميثاق لئن بعث محمد ليؤمنن به، قال تعالى:{وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} (آل عمران: ٨١) وقال علي رضي الله عنه: (ما بعث الله نبياً آدم فمن دونه إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه). (٢)

ومن هؤلاء الأنبياء المبشرين بالنبي القادم النبي إبراهيم عليه السلام، حيث دعا {ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم} (البقرة: ١٢٩).

ومنهم عيسى عليه السلام {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} (الصف: ٦).

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نور ساطع أضاءت منه قصور الشام). (٣)، ولما كان اهتمام الأنبياء بالنبي الخاتم بالغاً كان من الطبيعي أن تتحدث كتبهم عنه وعن صفاته وأحواله.

وقد أكد القرآن الكريم على وجود البشارة بنبينا في كتب اليهود والنصارى فقال: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} (الأعراف: ١٥٧).

وقال الله تعالى مخبراً وجود النبوءات عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعن أمته وأصحابه في التوراة والإنجيل: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً} (الفتح: ٢٩)

ولم يخبر القرآن الكريم بالتفاصيل عن صفات رسول الله وأحواله المذكورة في كتب أهل الكتاب، لكنه أخبر عن حقيقة مهمة، وهي أن أهل الكتاب يعرفون رسول الله معرفتهم أبناءهم، لكثرة ما حدثتهم الأنبياء والكتب عنه {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} (الأنعام:٢٠)، وهذه المعرفة ولا ريب تصدر عن كثرة أو وضوح البشارات الواردة في كتبهم عنه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) –انظر: المسيحية، نشأتها وتطورها، شارل جنيبر، ص (٥٠)، تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ٢٨٠، ٢٨٢).
(٢) –رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٣٣٢).
(٣) –رواه أحمد في المسند ح (١٦٧١٢)، وابن حبان في صحيحه ح (٦٤٠٤).

قال ﷺ: إن " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين [١]" وفي رواية مسلم: عن رسول الله: " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك " فقال محمد صلى الله عليه وسلم: «فكنت أنا اللبنة» وفي رواية : «فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء»[٢]

وقال ﷺ عن أمته : نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا"[٣] وهنالك مثل للنبي عن أمته مطابق لمثل المسيح عن أمة الملكوت قال: " إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتينا القرآن، فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال: أهل الكتابين: أي ربنا، أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطا قيراطا، ونحن كنا أكثر عملا؟ قال: قال الله عز وجل: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء [٤]".

وقد أخبر عيسى عليه السلام عن الأمة الأخيرة التي تنال من الأجر أكثر مما نالته الأمم الصالحة السابقة في قوله في هذا المثل: " فإن ملكوت السماوات يشبه بإنسان رب بيت خرج في الصباح الباكر ليستأجر عمالا لكرمه، واتفق مع العمال على أن يدفع لكل منهم دينارا في اليوم، وأرسلهم إلى كرمه، ثم خرج نحو الساعة التاسعة صباحا، فلقي في ساحة المدينة عمالا آخرين بلا عمل، فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضا واعملوا في كرمي فأعطيكم ما يحق لكم! فذهبوا، ثم خرج إلى الساحة أيضا نحو الساعة الثانية عشرة ظهرا. ثم نحو الثالثة بعد الظهر، أرسل مزيدا من العمال إلى كرمه، ونحو الساعة الخامسة بعد الظهر، خرج أيضا فلقي عمالا آخرين بلا عمل، فسألهم: لماذا تقفون هنا طول النهار بلا عمل؟ أجابوه: لأنه لم يستأجرنا أحد، فقال: اذهبوا أنتم أيضا إلى كرمي! وعند ما حل المساء، قال رب الكرم لوكيله: ادع العمال وادفع الأجرة مبتدئا بالآخرين ومنتهيا إلى الأولين، فجاء الذين عملوا من الساعة الخامسة وأخذ كل منهم دينارا، فلما جاء الأولون، ظنوا أنهم سيأخذون أكثر. ولكن كل واحد منهم نال دينارا واحدا، وفيما هم يقبضون الدينار، تذمروا على رب البيت، قائلين: هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة فقط، وأنت قد ساويتهم بنا نحن الذين عملنا طول النهار تحت حر الشمس! فأجاب واحدا منهم: يا صاحبي، أنا ما ظلمتك؛ ألم تتفق معي على دينار؟ خذ ما هو لك وامض في سبيلك: فأنا أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك، أما يحق لي أن أتصرف بمالي كما أريد؟ أم أن عينك شريرة لأنني أنا صالح؟ فهكذا يصير الآخرون أولين، والأولون آخرين". (متى ٢٠: ١-١٦)

والنتيجة المستخلصة من نصوص أمة الملكوت الذي ذكره المسيح عدة مرات:

١ -ملكوت الله، أو السماوات، هو ليس ملكوت عيسى عليه السلام.

٢ -عيسى عليه السلام، هو مجرد مبلغ عن ظهور هذا الملكوت.

٣ -بعث عيسى للإخبار بنقل الملكوت من بني إسرائيل إلى أمة أخرى (بني إسماعيل).

٤ -سيدخل الكثير من الفقراء وأهل الشرك الملكوت قبل بني إسرائيل (فقراء مكة دخلوا الإسلام قبل الكثير من اليهود الذين أسلموا).

---

(١) -أخرجه البخاري ح(٣٥٣٥) وجمع كبير من المحدثين بألفاظ متقاربة

(٢) -أخرجه مسلم ح (٢٢٨٦) وح (٢٢٨٧) وغيره

(٣) -البخاري ح (٨٧٦)

(٤) -صحيح البخاري ح (٥٥٧) ورقم (٢٢٦٨) ، وأحمد ح(٦١٣٣) وأخرجه أبو يعلى (٥٤٥٤) وأخرجه الطيالسي (١٨٢٠).

٥-اقتراب ظهور الملكوت (لا نبي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم).

٦-من علامات هذا الملكوت نموه وتعاظمه السريع، سيبسط ملكوت الله سلطانه على القلوب وسيطهر أتباعه من ذنوبهم، وينشر وارف ظله وسلطانه على الكثير من الأمم، بخلاف الملكوت القديم القاصر على بني إسرائيل

وزبدة القول هي تكذيب مزاعم الكنيسة وظهور حقيقة ملكوت الإسلام السماوي. ويزداد هذا الأمر وضوحا إذا لحظنا تطابق المثل القرآني عن أمة الإسلام مع المثل الوارد في الكتاب الديني النصراني المكتشف في نجع حمادى سنة ١٩٤٥ م، والذي لا تعترف الكنيسة اليوم بشرعيته، وهو" رسالة يعقوب السرية "Apocryphon of James" The " المثل القرآني :{ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما}. [سورة الفتح ٢٩]

المثل كما هو في" رسالة يعقوب السرية": شبه ملكوت السماء بنخلة خرج منها برعم (شطأ) ثم تدلت من هذا البرعم ثمار حوله، وأخرجت هذه الثمار ورقا. وحين استوت واستغلظت هذه الثمار جف منبعها. وأصبحت هذه الثمار الخارجة من البرعم مع تلك الخارجة من الشجرة الأصلية"، وهذا المثل كما هو في رسالة يعقوب أقرب إلى المثل القرآني منه إلى مثل (مرقس ٤: ٣٠-٣٢)، كما أنه يعرف" الشجرة" المثمرة بأنها النخلة، وقد قال رسول الله: " مثل المؤمن مثل النخلة، ما أخذت منها من شيء ينفعك"[(١)] وسنحاول خلال الصفحات القادمة تلمس بعض هذه النبوءات، راجين أن نوفق في إزالة الكثير مما أصابها من غبار التحريف.

أهم اكتشاف حديث!

يروي الدكتور محمد معروف الدواليبي قصة الحوار بين الإسلام والمسيحية وهو كان عضوا بارزا في الحوار، كيف بدأ الحوار وعلام انتهى: أنه قد عثر في مغاور قمران شمالي البحر الميت على مجموعة من المخطوطات، نجد بينها سفر إشعياء الصحيح بكامله، في حين أن المنشور في العهد القديم هو جزء منه، وفي سفر إشعياء المكتشف جاء حرفيا: " بعد المسيح يأتي نبي عربي من بلاد فاران-بلاد إسماعيل-وعلى اليهود أن يتبعوه، وعلامته أنه إن نجا من القتل، فإنه النبي المنتظر، لأنه يفلت من السيف المسلول على رقبته، ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قديس".

أصدر البابا بولس السادس سنة ١٩٦٥ م وثيقة هامة، كانت بمثابة اعتراف رسمي نصراني بالدين الإسلامي، ولأول مرة، جاء فيها: " إن كل من آمن بعد اليوم بالله الخالق السّموات والأرض، ورب إبراهيم وموسى، فهو ناج عند الله، وداخل في سلامه، وفي مقدمتهم المسلمون".

وبدعوة رسمية سافر وفد إسلامي إلى الفاتيكان، واجتمع بالكاردينال بيمونللي وزير الدولة في حكومة الفاتيكان فيما يتعلق بالعلاقات بين الإسلام والنصرانية، وبدأ الحوار على الرغم من طلب السفير" الإسرائيلي" في روما وقف الحوار، وبعد انتهاء اللقاءات المتعددة بين عدد من العلماء المسلمين وكبار مسؤولي الفاتيكان، وقف الكاردينال بيمونللي مخاطبا العلماء : في هذا اليوم أوقف التنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي، ثم قرأ بشارة سفر إشعياء التي تنطبق تماما على

---

(١) -محمد ﷺ في الكتب المقدسة ، د. سامى عامرى ص : ٣٣٤- ٣٣٩ مركز التنوير الإسلامي للخدمات المعرفية والنشر بالقاهرة ط١/ ٢٠٠٦ م والحديث أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب مثل المؤمن مثل النخلة رقم ٢٨١١ (مثل المسلم) من حيث كثرة النفع واستمرار الخير. (فوقع الناس) ذهبت أفكارهم وجالت. (البوادي) جمع بادية وهي خلاف الحاضرة من المدن. (فاستحييت) أي أن أقول هي النخلة توقيرا لمن هم أكبر مني في المجلس.

الواقع ، ولكن مع الأسف، فإن هذا البابا لم يلبث أن توفي في ظروف لا ندريها، كما توفي من بعده بقليل الكاردينال بيمونللي في ظروف غامضة، وبوفاتهما توقف الحوار بين الإسلام والنصرانية"[١].

وسنحاول خلال الصفحات القادمة تلمس بعض هذه النبوءات، راجين أن نوفق في إزالة الكثير مما أصابها من غبار التحريف، محترزين عن الكثير من سوء الفهم الذي وقع فيه النصارى في فهم هذه النبوءات.

أولا: بشارة يعقوب بقدوم شيلون:

فهو النبي الذي حقق وعد الله لإبراهيم وزوجه هاجر بالبركة في ابنها إسماعيل، كما قال يعقوب لبنيه قبل وفاته:" لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون، وله يكون خضوع شعوب (التكوين ٤٩/ ١٠)"، فهو يخبرهم عن وقت زوال الملك والشريعة عنهم في آخر الأيام، وأما نسخة الرهبانية اليسوعية، فالنص فيها: "لا يزول الصولجان من يهوذا، ولا عصا القيادة من بين قدميه؛ إلا أن يأتي صاحبها وتطيعه الشعوب"، وقد فسر القس إبراهيم لوقا "شيلون" بالمسيح، واعتبرها ترجمة صحيحة لكلمة "شيلوه" العبرية، فما هو المعنى الدقيق للكلمة (شيلون) التي تدور حولها النبوءة؟

يرى القس المهتدي والخبير في اللغات القديمة عبد الأحد داود (ديفيد بنيامين) أن كلمة " شيلون " لا تخرج في أصلها العبري عن معان، أهمها:

١-أن تكون من الكلمة سريانية مكونة من كلمتي "بشيتا" و "لوه"، ومعنى الأولى منهما: "هو" أو "الذي" ، والثانية: (لوه) معناها: " له "، ويصبح معنى النبوءة حسب ترجمته المفسرة: " إن الطابع الملكي المتنبئ لن ينقطع من يهوذا إلى أن يجيء الشخص الذي يخصه هذا الطابع، ويكون له خضوع الشعوب ".

٢-أن تكون الكلمة محرفة من كلمة " شيلواح " ومعناها: " رسول الله "، وتفسير الكلمة بالرسالة مال إليه القديس جيروم، فترجم العبارة " ذلك الذي أرسل[٢]"، وأياً كان المعنى فإن النبوءة تتحدث عن شخص تدعوه: شيلون. وليس عن المكان المسمى "شيلون" كما ادعى بعض المفسرين، فمن هو شيلون؟ وليس المقصود بزوال الملك زواله حقيقة، بل زوال أحقيته وموجبه من قبل الله، لأن زوال الملك من اليهود لم يوافق ظهور نبي، أياً كان هذا النبي، فالمقصود زوال الاصطفاء والبركة.

ولا يمكن القول بأن شيلون هو موسى، لأن ملوك يهوذا كانوا بعده بقرون، ولا يمكن القول بأنه سليمان، لأن الملك دام بعده في ذريته ولم ترفع به الشريعة، كما لم ترفع بالمسيح الذي ما جاء لنقض الناموس ولم تخضع له شعوب، بل ولا شعب اليهودية الذين بعث إليهم، والمسيح عليه الصلاة والسلام لم يملك على بني إسرائيل يوماً واحداً، بل هرب منهم لما أرادوا تمليكه عليهم " لما علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده " (يوحنا ٦/ ١٥).

ولما ادعى عليه اليهود عند بيلاطس أنه يقول عن نفسه بأنه ملك نفى ذلك، وتحدث عن مملكة روحية مجازية غير حقيقية كما مر، ولا يمكن أن يكون هذا النبي من بني إسرائيل، لأن مبعثه يقطع صولجان وشريعة إسرائيل كما يفهم من النص، فمن ذا يكون شيلون؟

---

(١) -د. شوقي أبو خليل" الحوار دائما" ص ١١. (دار الفكر) صحيفة" المسلمون" الشهيرة عدد ١٢٢٩ الصفحة الخامسة بتاريخ الاثنين ١ ربيع الأول ١٤١٢ هـ الموافق ل ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٩١ م، د. سامي عامري، محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب المقدسة مركز التنوير الإسلامي للخدمات المعرفية والنشر بالقاهرة، الأولى -١٤٢٦ هـ -٢٠٠٦ م

(٢) -محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، ص (٧٧ -٨٥، ١٨٢) ترجمة: فهمي شما، مطابع الدوحة الحديثة، وقاموس الكتاب المقدس، ص (٥٣٦).

إنه النبي الذي بشرت به هاجر وإبراهيم " يده على كل واحد " (التكوين ١٦/ ١٢)، والذي قال عنه النبي حزقيال: " يأتي الذي له الحكم فأعطيه إياه " (حزقيال ٢١/ ٢٧)، وقد قال المسيح مبشراً بالذي ينسخ الشرائع بشريعته: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (متى ٥/ ١٧ – ١٨). هذا "الذي له الكل"، هو " الذي له الحكم ".

وهو النبي الذي يسميه بولس بالكامل، ومجيئه فقط يبطل الشريعة وينسخها "وأما النبوات فستبطل، والألسنة فستنتهي، والعلم فسيبطل، لأننا نعلم بعض العلم، ونتنبأ بعض التنبؤ، ولكن متى جاء الكامل، فحينئذ يبطل ما هو بعض" (كورنثوس (١) ١٣/ ٨ – ١٠).

فلقب "المسيح المنتظر" يتعلق بمسيح يملك ويسحق أعداءه، وهو ما تنكّر المسيح عليه السلام له في مواطن عديدة، " مملكتي ليست في هذا العالم "، وهي غير المملكة التي يبشر بها داود في مزاميره، حيث قال: "أضع أعداءك موطئاً لقدميك، وقد تنبأ وبشّر سليمان أيضاً في المزامير بالنبي الملك، فقال: " ويملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض ، أمامه تجثو أهل البرية، وأعداؤه يلحسون التراب، ملوك ترشيش والجزائر يرسلون تقدمة، ملوك شبا وسبإ يقدمون هدية، ويسجد له كل الملوك، كل الأمم تتعبد له، لأنه ينجي الفقير المستغيث والمسكين إذ لا معين له، يشفق على المسكين والبائس ويخلص أنفس الفقراء، يكون اسمه إلى الدهر، قدام الشمس يمتد اسمه، ويتباركون به، كل أمم الأرض يطوّبونه" (المزمور ٧٢/ ٨ – ١٩)،

فمن هو الذي سجدت وأذعنت وذلت له الملوك، ومجده الله في كل الدهور؟ لا ريب أنه محمد صلى الله عليه وسلم الذي دانت لسلطانه أعظم ممالك عصره، الروم والفرس.

تحدثت النصوص عن انتصار هذا النبي، وأن دينه سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، فهو الذي "يده على كل واحد"، و" له يكون خضوع شعوب "، و"شعوب تحتك يسقطون"، و "الرب عن يمينك يحطم في يوم رجزه ملوكاً يدين بين الأمم ملأ جثثاً، أرضاً واسعة سحق رؤوسها[١]. ويرى اليهود والنصارى في النص نبوءة بالمسيح القادم من ذرية داود من اليهود لكن أبطل المسيح لليهود قولهم، وأفهمهم أن القادم لن يكون من ذرية داود، ففي متى: "كان الفريسيون مجتمعين، سألهم يسوع: ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟ قالو له: ابن داود. قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً: **قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك، فإن كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيب بكلمة** "[٢] وفي مرقس " فداود نفسه يدعوه رباً. فمن أين هو ابنه "، وتسمِيةُ عيسى عليه السلام النبيّ القادم بلقب "المسيح المنتظر" يتعلق بمسيح يملك ويسحق أعداءه، إنه ذاك المنتظر الذي: "لا يكِل ولا ينكسرْ حتى يضع الحق في الأرض". وهو الغضب الآتي على الكفرة، ومنهم اليهود الذين حذرهم يوحنا المعمدان فقال: "يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي ... سيعمدكم بالروح القدس ونار، الذي رفشه في يده، وسينقي بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ"، و "من سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه".

ثانيا: موسى عليه السلام يبشر بظهور نبي ورسول مثله

---

(١) –راجع: (المزمور ٤٥/ ١ – ١٧)، " (المزمور ١١٠/ ١ – ٦)

(٢) –(متى ٢٢/ ٤١ – ٤٦)، (مرقس ١٢/ ٣٧) و (انظر لوقا ٢٠/ ٤١ –٤٤)

إنه النبيّ الذي شابه موسى وماثله، بشّر موسى به قومه بني إسرائيل كما في نبوءة: (التثنية ١٨/ ١٧ –٢٢) "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به"، ولكن يزعم النصارى أن هذا النبي قد جاء، وهو عيسى عليه السلام وهذا لا يسلم لهم من كل الوجوه:

١) فهو نبي والنّبوءة تقول: " أقيم لهم نبيّاً "، والنصارى يدعون للمسيح الإلهية، بل يدعي الأرثوذكس أنه الله نفسه، فكيف يقول لهم: أقيم نبياً، ولا يقول: أقيم نفسي، أو أقيم إلهاً.

٢) وتقول: أنه من غير بني إسرائيل، بل هو من بين إخوتهم أي أبناء عمومتهم "من وسط إخوتهم"، وعمومة بني إسرائيل هم بنو عيسو بن إسحاق، وبنو إسماعيل بن إبراهيم، ومن المعهود في التوراة إطلاق لفظ " الأخ " على ابن العم في مواضيع كثيرة ومتنوّعة.

٣) وهذا النبي الموعود من خصائصه أنه مثيل لموسى الذي لم يقم في بني إسرائيل نبيّ مثله، وهذه الخصلة، أي المثلية لموسى متحققة في خاتم الأنبياء، ممتنعة في أخيهما المسيح، حيث نرى الكثير من أمثلة التشابه بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، والتي لا نجدها في المسيح، من ذلك ميلادهما الطبيعي، وزواجهما، وكونهما صاحبا شريعة، وكل منهما بعث بالسيف على عدوه، وكلاهما قاد أمته، وملك عليها، وكلاهما بشر، بينما تزعم النصارى بأن المسيح إله، وهذا ينقض كل مِثل لو كان.

٤) ومن صفات هذا النبي أنه أميّ لا يقرأ ولا يكتب، والوحي الذي يأتيه وحي شفاهي، يغاير ما جاء الأنبياء قبله من صحف مكتوبة " وأجعل كلامي في فمه "، وقد كان المسيح عليه السلام قارئاً (لوقا ٤/ ١٦ –١٨)

٥) وأنه يتمكن من بلاغ كامل دينه، فهو " يكلمهم بكل ما أوصيه به "، وهو وصف منطبق على خاتمهم ، فقد كان من أواخر ما نزل من القرآن عليه قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (المائدة: ٣)، وهو كما وصفه المسيح في نبوءة البارقليط، التي يأتي شرحها، فقال: " وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" (يوحنا ١٤/ ٢٦)، ولا يمكن أن يكون المسيح عليه السلام هو ذلك النبي الذي يبلغ كل ما يوصيه به ربه، فقد رفع المسيح عليه السلام، ولديه الكثير مما يود أن يبلغه إلى تلاميذه، لكنه لم يتمكن من بلاغه، لكنه بشرهم بالقادم الذي سيخبرهم بكل الحق، لأنه النبي الذي تكمل رسالته، ولا يحول دون بلاغها قتله أو إيذاء قومه، يقول عليه السلام: " إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به"(يوحنا ١٦/ ١٣)

٦) وأن الذي لا يسمع لكلام هذا النبي فإن الله يعاقبه، " ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه "، وقد فسرها بطرس، فقال: " ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب "، فهو نبي واجب السمع والطاعة على كل أحد. ومن لم يسمع له تعرض لعقوبة الله، وهو ما حاق بجميع أعداء النبي، حيث انتقم الله من كل من كذّبه من مشركي العرب والعجم، وقد قال المسيح عنه في نبوءة الكرامين ويأتي شرحها: "ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه " (متى ٢١/ ٤٤)، فهو الحجر الصلب الذي يفني أعداءه العصاة، وأما المسيح عليه السلام فلم يكن له هذه القوة وتلك المنعة، ولم يتوعد حتى قاتليه، فكيف بأولئك الذين لم يسمعوا كلامه، فقد قال لوقا في سياق قصة الصلب " فقال يسوع: يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لوقا ٢٣/ ٣٤)، فأين هو من خبر ذاك " الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه".

٧) من صفات هذا النبي أنه لا يقتل، بل يعصم الله دمه عن أن يتسلط عليه السفهاء بالقتل، فالنبي الكذاب عاقبته "يموت ذلك النبي"، أي يقتل، فالقتل نوع منه، ولأن كل أحد يموت، وهنا يزعم النصارى بأن المسيح قتل، فلا يمكن أن يكون هو النبي الموعود، وبالرجوع إلى التراجم القديمة للنص نرى أن ثمة تحريفاً وقع في الترجمة، فقد جاء في طبعة ١٨٤٤م " فليقتل ذلك النبي "، ولا يخفى سبب هذا التحريف.

٨) يتحدث عن الغيوب ويصدق الواقع كلامه، وهذا النوع من المعجزات يكثر في القرآن والسنة مما يطول المقام بذكره، ويكفي هنا أن أورد نبوءة واحدة مما تنبأ به فكان كما أخبر، ففي عام ٦١٧ م كادت دولة الفرس أن تزيل الإمبرطورية الرومانية من خارطة الدنيا، فقد وصلت جيوش كسرى أبرويز الثاني إلى وادي النيل، ودانت له أجزاء عظيمة من مملكة الرومان، ففي سنوات معدودة تمكن جيش الفرس من السيطرة على بلاد الشام وبعض مصر، واحتلت جيوشهم أنطاكيا شمالاً، مما يؤذن بنهاية وشيكة للإمبرطورية الرومانية، وأراد هرقل أن يهرب من القسطنطينية، لولا أن كبير أساقفة الروم أقنعه بالصمود وطلب الصلح الذليل من الفرس.

ووسط هذه الأحداث، وخلافاً لكل التوقعات أعلن النبي أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين، أي فيما لا يزيد عن تسع سنين، فقد نزل عليه قوله: {غلبت الروم – في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون – في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون – بنصر الله} (الروم: ٢ – ٥).

وكان كما تنبأ، ففي عام ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥م استطاع هرقل أن يتخلص من لهوه ومجونه، وشن ثلاث حملات ناجحة أخرجت الفرس من بلاد الشام، وفي عام ٦٢٧م واصل الرومان زحفهم حتى وصلوا إلى ضفاف دجلة داخل حدود الدولة الفارسية، واضطر الفرس لطلب الصلح مع الرومان، وأعادوا لهم الصليب المقدس الذي كان قد وقع بأيديهم، فمن ذا الذي أخبر محمداً بهذه النبوءة العظيمة؟ إنه النبي الذي تنبأ عنه موسى عليه السلام.

يقول المؤرخ إدوار جِبن: "في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبرطورية الرومانية". (١)

وهكذا يظهر بوضوح أن النبي الذي تنبأ عنه موسى لم تتحقق أوصافه في المسيح العظيم عليه الصلاة والسلام، وتحققت في أخيه محمد صلى الله عليهما وسلم تسليماً كثيراً، ومما يؤكد ذلك أنه هذه الصفات مجتمعة لم تتوافر في غيره من الأنبياء، فإن اليهود لا يقولون بمجيء هذا المسيح فيما سبق، بل مازالوا ينتظرونه، إذ لما بعث يحيى عليه السلام ظنه اليهود النبي الموعود، وأقبلوا عليه يسألونه " النبي أنت؟ فأجابهم: لا " (يوحنا ١/ ٢١)، أي لست النبي الذي تنتظره اليهود، ثم أراد تلاميذ المسيح أن تتحقق النبوءة في المسيح، فذات مرة لما رأوا معجزاته " قالوا: إن هذا بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم. وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده " (يوحنا ٦/ ١٤ –١٥)، فقد أراد تلاميذ المسيح تنصيبه ملكاً ليحققوا النبوءة الموجودة لديهم عن النبي المنتظر الذي يملك ويحقق النصر لشعبه، فلما علم المسيح عليه السلام أنه ليس النبي الموعود هرب من بين أيديهم.

ويرى النصارى أن ثمة إشكالاً في النص التوراتي (التثنية ١٨/ ١٧ –٢٢) يمنع قول المسلمين، ففي سياق النص أن الله لما كلم موسى قال: " أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك " (التثنية ١٨/ ١٥ –١٨)، فقد وصفت النبي بأنه "من وسطك" أي من بني إسرائيل، ولذا ينبغي حمل المقطع الثاني من النص على ما جاء في المقطع الأول، فالنبي " من وسطك " أو كما جاء في بعض التراجم "من بينك" أي أنه إسرائيلي.

---

(١) –تاريخ سقوط وانحدار الإمبراطورية الرومانية، إدوار جبن (٥/ ٧٤).

لكن التحقيق يرد هذه الزيادة التي يراها المحققون تحريفاً، بدليل أن موسى لم يذكرها، وهو يعيد خبر النبي على مسامع بني إسرائيل، فقال: " قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك " (التثنية ١٨/ ١٧ –١٨)، ولو كانت من كلام الله لما صح أن يهملها.

كما أن هذه الزيادة لم ترد في اقتباس بطرس واستفانوس للنص كما جاء في أعمال الرسل قال بطرس: "فإن موسى قال للآباء: إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون في كل ما يكلمكم به" (أعمال ٣/ ٢٢)، وقال استفانوس: "هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل: نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون" (أعمال ٧/ ٣٧)، فلم يذكرا تلك الزيادة، ولو كانت أصلية لذكرت في سائر المواضع.[١]

ثالثا: نبوءة موسى وحبقوق عن البركة الموعودة في أرض فاران

وهو النبي الذي تتلألأ نبوته عند جبال فاران جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة، (التثنية ٣٣/ ١ –٣). وأكد هذه النبوءة النبي حبقوق، حيث ذكرها كخبراً أفزعه، لأنه يشير إلى انتقال النبوة بعيداً عن قومه بني إسرائيل (حبقوق ٣/ ٣ –٦)، ومعنى ربوات القدس أي ألوف القديسين الأطهار، كما في ترجمة ١٨٤١م " واستعلن من جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سنة من نار "، واستخدام ربوات بمعنى ألوف أو الجماعات الكثيرة معهود في الكتاب المقدس "ألوف ألوف تخدمه، وربوات ربوات وقوف قدامه" (دانيال ٧/ ١٠)، ومثله في (العدد ١٠/ ٣٦)، فالربوات القادمين من فاران هم الجماعات الكثيرة من القديسين، الآتين مع قدوسهم الذي تلألأ في فاران.

والنص التوراتي يتحدث عن ثلاثة أماكن تخرج منها البركة، أولها: جبل سيناء حيث كلم الله موسى. وثانيها: ساعير، وهو جبل يقع في أرض يهوذا. (يشوع ١٥/ ١٠)، وثالثها: هو جبل فاران، وتنبئ المواضع التي ورد فيها ذكر " فاران " في الكتاب المقدس أنها تقع في صحراء فلسطين في جنوبها، لكن تذكر التوراة أيضاً أن إسماعيل قد نشأ في برية فاران. (التكوين ٢١/ ٢١)، ومن المعلوم تاريخياً أنه نشأ في مكة المكرمة في الحجاز، ويرى المسلمون أن النص نبوءة عن ظهور عيسى عليه السلام في سعير في فلسطين، ثم محمد في جبل فاران، حيث يأتي ومعه الآلاف من الأطهار مؤيدين بالشريعة من الله عز وجل، وذلك متحقق في رسول الله لأمور:

١) أن جبل فاران هو جبل مكة، حيث سكن إسماعيل، تقول التوراة عن إسماعيل: "كان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر " (التكوين ٢١/ ٢٠ –٢١). وقد انتشر أبناؤه في هذه المنطقة، فتقول التوراة: " هؤلاء هم بنو إسماعيل وسكنوا من حويلة إلى شور " (التكوين ٢٥/ ١٦ –١٨)، وحويلة كما جاء في قاموس الكتاب المقدس منطقة في شمال أرض اليمن، بينما شور في جنوب فلسطين.[٢] وعليه فإن إسماعيل وأبناءه سكنوا هذه البلاد الممتدة جنوب الحجاز وشماله، وهو يشمل أرض فاران التي سكنها إسماعيل.

كما وقد قامت الأدلة التاريخية على أن فاران هي الحجاز، حيث بنى إسماعيل وأبوه الكعبة، وحيث تفجر زمزم تحت قدميه، وهو ما اعترف به عدد من المؤرخين كما نقل عنهم المؤرخ الهندي مولانا عبد الحق فدرياتي في كتابه " محمد في الأسفار الدينية العالمية"، ومن هؤلاء المؤرخ الكنسي يوسبيوس في كتابه (The Onomasticon) " أماكن الكتاب المقدس"، فقد ذكر بأن فاران في صحراء العرب، وقد ترجمه اللاهوتي جيروم من اليونانية إلى اللاتينية، فوافقه وزاد

---

(١) – نقلا عن د. منقذ السقار، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم، ص:٧٥–٨٣، دار الإسلام للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٧ م

(٢) –انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (٣٢٩).

عليه بقوله: إنّ صحراء السرسيين تسمى فاران. [١]، وجاء في قاموس Strong's Hebrew Bible Dictionary أن فاران هي صحراء العرب، حيث يقول: "Paran, a desert of Arabia".

٢) أن وجود منطقة اسمها فاران في جنوب سيناء لا يمنع من وجود فاران أخرى، هي تلك التي سكنها إسماعيل، فقد ورد مثلاً إطلاق اسم سعير على المنطقة التي تقع في أرض أدوم والتي هي حالياً في الأردن، وتكرر ذلك الإطلاق في مواضع عديدة في الكتاب، ولم تمنع كثرتها أن يطلق ذات الاسم على جبل في وسط فلسطين غربي القدس في أرض سبط يهوذا. (انظر يشوع ١٥/ ١٠)، ولنا أن نسأل أولئك الذين يصرون على أن فاران هي فاران سيناء: من هو القدوس الذي تلألأ من ذلكم الجبل الذي لا يرتبط بأدنى علاقة بأي من أحداث الإنسانية المهمة، فمن الذي تلألأ عليه؟

٣) لا يقبل قول القائل بأن النص يحكي عن أمر ماضٍ، إذ التعبير عن الأمور المستقبلة بصيغة الماضي معهود في لغة الكتاب المقدس. يقول اسبينوزا: " أقدم الكتّاب استعملوا الزمن المستقبل للدلالة على الحاضر، وعلى الماضي بلا تمييز كما استعملوا الماضي للدلالة على المستقبل ... فنتج عن ذلك كثير من المتشابهات"، وأكد على صحة هذا الاستخدام القس الدكتور منيس عبد النور بقوله: «تعبير الماضي عن المستقبل، لحتمية حدوث الأمر، فأنت تتحدث عن شيء قادم بصيغة الماضي، لأنك متأكد من وقوعه» [٢] وضرب له مثل.

٤) ونقول: لم خص جبل فاران بالذكر دون سائر الجبال لو كان الأمر مجرد إشارة إلى انتشار مجد الله كما زعم بعض كتاب اليهود، فإن مجد الله لم يتوقف عند حدود فارن أو جبل سعير.

٥) ومما يؤكد أن الأمر متعلق بنبوءة الحديث عن آلاف القديسين، والذين تسميهم بعض التراجم " أطهار الملائكة " أي أطهار الأتباع، إذ يطلق هذا اللفظ ويراد به: الأتباع، كما جاء في سفر الرؤيا أن " ميخائيل وملائكته حاربوا التنين، وحارب التنينُ وملائكتُه ... " (الرؤيا ١٢/ ٧)، فمتى شهدت فاران مثل هذه الألوف من الأطهار إلا عند ظهور محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه؟

٦) وما جاء في سفر حبقوق يؤيد قول المسلمين، فالنص شاهد على أنه ثمة نبوة قاهرة تلمع كالنور، ويملأ الآفاق دوي أذان هذا النبي بالتسبيح، وتيمان كما يذكر محررو الكتاب المقدس هي كلمة عبرية معناها: " الجنوب "، لذا يقول النص الكاثوليكي للتوراة: "الله يأتي من الجنوب، والقدوس من جبل فاران"، ولما كان المخاطبون في فلسطين فإن الوحي المبشر به يأتي من جهة الجنوب أي من جزيرة العرب، فالقدوس سيبعث في جبل فاران. ومن هذا كله فالقدوس المتلألئ في جبال فاران هو نبي الإسلام، فكل الصفات المذكورة لنبي فاران متحققة فيه، ولا تتحقق في سواه من الأنبياء الكرام.

رابعا: البشارة بالملكوت

ويكون من أمّة تقوم بأمر ملكوت الله الذي سينزع من بني إسرائيل "ويعطى لأمة تعمل أثماره "، قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه، ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم [٣]"، فمن تراه تكون الأمّة العظيمة التي إذا غزت أمة سحقتها، وإذا أرادتها أمة نكصت على عقبيها؟ لا ريب أنها الأمة التي هزمت أعظم دولتين

---

(١) -Eusebius Werke: Bd. 1. H?lfte. Das Onomastikon, Leipzig: J. C. Hinrichs, 1904, p.166 ,167 ,172.

(٢) -شبهات وهمية حول الكتاب المقدس، القس منيس عبد النور، ص (١٨٧).

(٣) -(متى ٢١/ ٣٣ -٤٥)، (وانظر لوقا ٢٠/ ٩ -١٩)

في عصرها: الروم والفرس، وانساحت في الأرض، وملكت خلال قرن واحد ما بين الصين وفرنسا، إنها أمة خاتم النّبيين الإسلام.

نبوءة متى السالفة تحيل على نبوءة في كتب الأنبياء، وهي ما جاء في مزامير داود عن الآتي باسم الرب "أحمدك لأنك استجبت لي، وصرت لي خلاصاً، الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا، هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، نبتهج ونفرح فيه، آه يا رب خلّص، آه يا رب أنقذ، مبارك الآتي باسم الرب"(١)، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً، فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت هاهنا لبِنة، فيتم بنيانك، فقال صلى الله عليه وسلم: فكنت أنا اللبِنة)(٢)، إنه الحجر الذي تمت به النبوات.

يحسن بنا أن ننوه إلى الخطأ الذي وقع فيه بطرس حين زعم أن المسيح هو الحجر الذي رفضه البناؤون، فقال: "يسوع الناصري الذي صلبتموه أنتم ... هذا هو الحجر الذي احتقرتموه أيها البناؤون، الذي صار رأس الزاوية "، مع أن الحجر الذي أخبر عنه داود ثم المسيح نبوة غالبة، وأمة ظافرة، وهذه النبوة ليست في بني إسرائيل كما شهد المسيح عليه السلام، ولبطرس عذر في خطئه، فهو إنسان عامي عديم العلم كما شهد له أولئك الذين استمعوا لحديثه وتعجبوا من المعجزات التي صنعها. (٣)

أما هذا المثل العجيب من المسيح (مثل أصحاب الكرم) يحكي تنكر اليهود لنعم الله واصطفائه لهم بقتلهم أنبياءه وهجر شريعته، ويحكي انتقال الملكوت إلى أمة تقوم بأمر الله تعالى وتقوى على أعدائها وتسحقهم وهذه الأمة مرذولة محتقرة، لكن الله اختارها رغم عجب اليهود من تحول الملكوت إلى هذه الأمة المرذولة، فمن تكون هذه الأمة المرذولة؟ إنها أمة العرب، أبناء الجارية هاجر، التي يزدريها الكتاب المقدس، فقد قالت سارة: "اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني إسحاق " (التكوين ٢١/ ١٠).

وقد ضرب المسيح المزيد من الأمثال للملكوت القادم، فبيّن في مثلٍ آخر أنه ليس في بني إسرائيل، الأمة التي لم تستحق اصطفاء الله لها، يقول متى: "جعل يسوع يكلمهم أيضاً بأمثال قائلاً: يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه، وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس، فلم يريدوا أن يأتوا، فأرسل أيضاً عبيداً آخرين قائلاً: قولوا للمدعوين: هوذا غذائي أعددته، ثيراني ومسمناتي قد ذبحت، وكل شيء معد، تعالوا إلى العرس. ولكنهم تهاونوا ومضوا، واحد إلى حقله، وآخر إلى تجارته، والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم. فلما سمع الملك غضب وأرسل جنوده، وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم، ثم قال لعبيده: أما العرس فمستعد، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين، فاذهبوا إلى مفارق الطرق، وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس. فخرج أولئك العبيد إلى الطرق، وجمعوا كل الذين وجدوهم أشراراً وصالحين" (متى ٢٢/ ١ -١٤).

وفي مثل آخر بين لهم أنواع الناس في قبول الملكوت والإذعان له، ودعاهم لقبوله والإذعان له، فقال: " هوذا الزارع قد خرج ليزرع، وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته، وسقط آخر على الأماكن المحجرة، حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً، إذ لم يكن له عمق أرض، ولكن لما أشرقت الشمس احترق، وإذ لم يكن له

---

(١) -(المزمور ١١٨/ ٢١ -٢٥)

(٢) -رواه البخاري ح (٣٥٣٥)، ومسلم ح (٢٢٨٦).

(٣) -فقد قال في ذات السياق: " فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا، ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم وعاميان، تعجبوا " (أعمال ٤/ ١٠-١٣).

أصل جف، وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه، وسقط آخر على الأرض الجيدة، فأعطى ثمراً، بعض مائة، وآخر ستين، وآخر ثلاثين، من له أذنان للسمع فليسمع ...

فاسمعوا أنتم مثل الزارع، كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم، فيأتي الشرير ويخطف ما قد زرع في قلبه، هذا هو المزروع على الطريق، والمزروع على الأماكن المحجرة هو الذي يسمع الكلمة وحالاً يقبلها بفرح، ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين، فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يعثر، والمزروع بين الشوك هو الذي يسمع الكلمة، وهم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة، فيصير بلا ثمر، وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين" (متى ١٣/ ١-٢٣).

ويتطابق هذا المثل الإنجيلي مع المثل الذي ضربه النبي لأحوال الناس مع دعوته، حيث قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا، وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به). [١]

وحدث المسيح تلاميذه عن انتشار الملكوت الذي هو أصغر البذور، لكنه أعظمها انتشاراً، يقول متى: "قدم لهم مثلاً آخر قائلاً: يشبه ملكوت السموات حبة خردل، أخذها إنسان، وزرعها في حقله، وهي أصغر جميع البذور، لكن متى نمت فهي أكبر البقول، وتصير شجرة، حتى إن طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها.

قال لهم مثلاً آخر: يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع، هذا كله كلم به يسوع الجموع بأمثال، وبدون مثل لم يكن يكلمهم"[٢].

يقول الأنبا أثناسيوس في تفسيره لإنجيل متى: "وتكاد الأمثلة في هذا الإصحاح أن تصف الملكوت على الأرض من بدايته إلى نهاية العالم، ففي المثل الأول يزرع الملكوت في القلوب، وفي الثاني يحاربه الشيطان فيزرع فيه زواناً، ولكن لابد أن ينمو الملكوت منتشراً في العالم ويصير شجرة ضخمة (حبة الخردل)، على أن روح أبناء الملكوت لابد أن تكون هي الاندماج في العالم لتخليصه من الداخل كالخميرة". [٣]

وفي نص آخر يتحدث عن هيمنة الشريعة الجديدة على سائر الشرائع السابقة ونسخها لها، فيقول: " أيضاً يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفياً في حقل وجده إنسان، فأخفاه، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل، أيضاً يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن، مضى وباع كل ما كان له، واشتراها" (متى ١٣/ ٤٤-٤٦).

وقد قال المسيح مبشراً بالقادم الذي ينسخ الشرائع بشريعته: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل"(متى ٥/ ١٧ – ١٨) فمن هو هذا الذي له الكل، إنه ذات النبي الذي يسميه بولس بالكامل، ومجيئه فقط يبطل الشريعة وينسخها "وأما النبوات فستبطل، والألسنة فستنتهي، والعلم فسيبطل، لأننا نعلم بعض العلم، ونتنبأ بعض التنبؤ، ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض". كورنثوس (١) ١٢/ ٨ -١٠)

---

(١) -رواه البخاري في صحيحه ح (٧٩).
(٢) -(متى ١٣/ ٣١ -٣٤). (انظر مرقس ٤/ ٣٠ -٣٢).
(٣) -تفسير إنجيل متى، الأنبا أثناسيوس، ص (٢١١).

وكما تحدث المسيح عن هذا النبي تحدث عن تأخر زمان ظهوره عن النبوات السابقة، لكن ذلك لن يمنع عظيم الأجر والثواب لأمته، فضرب هذا المثل وقال: " فإن ملكوت السماوات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فَعَلة لكرمه، فاتفق مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه، ثم خرج نحو الساعة الثالثة، ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين، فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم، فمضوا، وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل ذلك، ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطالين، فقال لهم: لماذا وقفتم ههنا، كلَّ النهار بطالين؟

قالوا له: لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم.

فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله: ادع الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين.

فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً، فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر، فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً، وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين: هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر، فأجاب وقال لواحد منهم: يا صاحب ما ظلمتك، أما اتفقت معي على دينار؟ فخذ الذي لك واذهب، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأني أنا صالح! هكذا يكون الآخرون أولين، والأولون آخرين، لأن كثيرين يُدعَون، وقليلون ينتخبون " (متى ٢٠/ ١-١٦)، وهكذا فاز الآخرون بالأجر والثواب.

فالآخرون هم الأولون السابقون كما قال المسيح وأكده خاتم النبيين بقوله:(نحن الآخرون السابقون) [١] وقوله: (مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل لي غدوة إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط، فعملت النصارى، ثم قال من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: مالنا أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء) [٢]

لقد انتقلت النبوة والاصطفاء إلى أمة العرب المرذولة، " الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية" وحينئذ تصبح الأمة المرذولة أمة مختارة، والأمة المختارة أمة مرذولة، كما قال داود: " الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا "[٣] لكنه حقيقة ، فإذا جاء صاحب الحكم، النبي الخاتم، تنقلب الأمور، وترفع العمامة أي تنسخ الشريعة من بني إسرائيل، فالعمامة رمز للكهنة الهارونيين الموكلين بأمر الشريعة في أسباط بني إسرائيل، والذين أمروا بملابس خاصة، منها العمامة[٤]كما يرفع التاج (الملك)، وذلك لأنهم " أغاروني بغير إله، وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم "[٥].

خامسا: البشارة بإيلياء

"جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبؤوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي " (متى ١١/ ٩-١٥) من الأسماء التي رمز الكتاب المقدس بها إلى النبي الأخير " إيلياء " وهي وفق حساب الجمّل اليهودي =(٥٣)، وهي جمّل

(١) -رواه البخاري ح (٨٣٦).
(٢) -رواه البخاري ح (٢٢٦٨).
(٣) -(المزمور ١١٨/ ٢٢ -٢٣)
(٤) -(الخروج ٢٨/ ٣٦ -٣٧)
(٥) -(التثنية ٣٢/ ١٩ - ٢١)

أحمد [١]، وهو أيضاً اسم لنبي عظيم أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل، وكان ذلك في القرن التاسع قبل الميلاد، وهو الذي يسميه القرآن إلياس.

وفي آخر أسفار التوراة العبرانية يتحدث النبي ملاخي في سفره القصير عن عصيان بني إسرائيل وعن إيليا أو إيلياء القادم الجديد، وهو غير إلياس (إيليا) الذي كان قد توفي منذ سبعة قرون، فيقول ملاخي بأن الله يقول: " هأنذا أرسل ملاكي، فيهيء الطريق أمامي، ويأتي بغتة إلى هيكله السيدُ الذي تطلبونه، وملاك العهد الذي تسرون به، هو ذا يأتي، قال رب الجنود. من يحتمل يوم مجيئه، ومن يثبت عند ظهوره، لأنه مثل نار الممحص، ومثل أشنان القصار ... (ملاخي ٣/ ١-٢).

فالنص في سفر النبي ملاخي يتحدث عن اثنين، أحدهما الذي يهيئ الطريق أمام القادم من عند الرب، والثاني هو الذي يأتي بغتة إلى الهيكل، ويسميه: السيد، وملاك العهد. وهو الذي يطلبه بنو إسرائيل وينتظرونه، وفي آخر سفره يقول ملاخي، وحديثه مازال متصلاً عن هذا القادم وعن تبديل بني إسرائيل وكفرهم فيقول: " اذكروا شريعة موسى عبدي التي أمرته بها في حوريب على كل إسرائيل الفرائض والأحكام. هأنذا أرسل إليكم إيّليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف، فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم، لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن " (ملاخي ٤/ ٤-٥).

فقد سمى سفر ملاخي النبي القادم إيليا بعد أن ذكّرهم بوصية موسى على جبل حوريب والتي ذكر فيها موسى النبي القادم مثله من بين إخوة بني إسرائيل، قال المفسر صاحب "تحفة الجيل": " إن إيلياء الرسول المذكور في آخر سفر ملاخي هو ملغوز، **وهذا هو حبر العالم الذي يأتي في آخر الزمان** ". [٢]

لكن يرى النصارى في العهد الجديد أن النبي الذي يمهد الطريق هو يوحنا المعمدان المسمى بإيليا في النص يقول مرقس: "كما هو مكتوب في الأنبياء ها أنا أرسل ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك" (مرقس ١/ ٢-٩)، فالممهِد للطريق حسب رأي النصارى هو يوحنا المعمدان، والممهد له المنتظر هو عيسى عليه السلام ويعتبرون الأول إيليا لقول متى على لسان المسيح في سياق حديثه عن يوحنا المعمدان: " ماذا خرجتم لتنظروا. أنبياً؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبيّ، فإن هذا هو الذي كتب عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك" (متى ١١/ ٩-١٥)، وهكذا يرى النصارى أن المبشِر الممهد للطريق هو يوحنا (إيليا)، والمبشَر به هو المسيح. والصحيح أن إيليا رمز للنبي القادم، وليس للنبي الممهد لطريقه.

وقبل أن نلج لفهم حقيقة هذه النبوءة ننبه لبعض ما تعرضت له هذه النصوص من تحريف وتناقض واضح، ففي نصوص الأناجيل تحريف للاقتباس المنقول من ملاخي الذي استعمل ضمير المتكلم " الطريق أمامي"، وفي الأناجيل أصبح الضمير راجعاً على المسيح " يهيئ طريقك قدامك!"، كما نرى يد التحريف قد طالت كلام المسيح والمعمدان حين زعم الإنجيليون أن المسيح اعتبر المعمدان هو الممهد لدعوته "هذا هو الذي كتب عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك " (لوقا ٧/ ٢٦)، وأنه سماه إيليا المنتظر

ودعوانا التحريف مرده إلى أن يوحنا المعمدان أنكر أن يكون هو النبي إيليا الممهّد بين يدي السيد القادم، فقد نفى هو ذلك عن نفسه لما جاءه رسل اليهود من الكهنة واللاويين " ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر، وأقر: إني

---

(١) -يجعل اليهود لكل حرف من الحروف مقابلاً من الأرقام، فالألف =١، والباء=٢ .. وهكذا حسب الترتيب الأبجدي، ويعطى الحرف الحادي عشر (ك) الرقم٢٠، و (ل) =٣٠ .. فيما يعطى الحرف التاسع عشر (ف) الرقم ١٠٠، ثم (ص) =٢٠٠ ... وهكذا. ف (أ=١، ي=١٠، ل=٣٠)، وهو ما تساويه كلمة أحمد (أ=١، ح=٨، م=٤٠، د=٤). ومثله كلمتي (ماد ماد) و (لجوى جدول) في (التكوين ١٢/ ٢) هما رمزان وضعا بدل اسم النبي المنتظر، فكلمة (ماد ماد) -حسب حساب الجمّل الذي يهتم به اليهود ويرمزون به في كتبهم ونبوءاتهم تساوي (٩٢)، ومثله كلمة " لجوى جدول " وهو ما يساوي كلمة " محمد "، وكان السؤال أحد أحبار اليهود المهتدين إلى الإسلام قد نبه إلى ذلك، ومثله فعل الحبر المهتدي عبد السلام في رسالته " الرسالة الهادية".

(٢) -انظر: الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي البغدادي، ص (٦٥٤).

لست أنا المسيح. فسألوه إذاً ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا. النبي أنت؟ فأجاب: لا " (يوحنا ١/ ١٩ –٢١)، **فهذا نص صريح ينكر فيه يوحنا أنه إيليا الممهد للطريق، كما هو ليس المسيح المنتظر أو النبي القادم.**

ويلزم من قول المعمدان تكذيب المسيح في قوله بأن إيليا قد جاء أو أن يكون المعمدان كاذباً حين أنكر أنه إيليا، أو يلزم القول بأن التلاميذ لم يفهموا كلام المسيح، وهذا الأخير هو الأولى، فقد أخطأ متى حين قال: " حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان "، لقد ظنوا أنهم فهموا، بينما الحقيقة أنهم لم يفهموا، لقد كان يحدثهم عن نفسه، فهو النبي القادم الذي يهيئ الطريق للقادم المنتظر " هأنذا أرسل ملاكي، فيهيء الطريق أمامي ".

ثم إن صفات إيليا لا تنطبق على المعمدان، لأنه يأتي بعد المسيح، فقد قال المسيح عنه: " إيليا المزمع أن يأتي" والمسيح والمعمدان متعاصران، وعندما يأتي إيليا فإنه " يردّ كل شيء "، و " فيرد قلب الآباء على الأبناء، وقلب الأبناء على آبائهم "، ومثل هذا لم ينقل عن المعمدان الذي عاش في الصحراء، طعامه الجراد والعسل، ولباسه وبر الإبل، وغاية ما صنعه تعميد من جاءه تائباً. (انظر متى ٣/ ١–٥).

ولا يمكن التسليم بأن المعمدان كان تمهيداً للمسيح، إذ كيف يقال ذلك، والمعمدان قبيل مقتله حسب الأناجيل لا يعرف حقيقة المسيح، ويرسل تلاميذه ليسألوا المسيح " أنت هو الآتي أم ننتظر غيرك؟ [(١)]"، فكيف يقال بأنه أرسل بين يديه، وهو لم يعرف حقيقته؟ ثم ماذا صنع يوحنا بين يدي مقدم المسيح؟ هل صنع شيئاً يتعلق بالمهمة التي تزعمها الأناجيل له؟ لم يرد عنه سوى البشارة بالملكوت كما بشر به المسيح بعده، كما كان يعمد الذين يأتونه معترفين بخطاياهم [(٢)]، وهذا الذي صنعه المسيح أيضاً، وهو ما يؤكد أن دعوتهما واحدة، ألا وهي البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم نبي الملكوت، كما قال: " فقال لهم: إنه ينبغي لي أن أبشر المدن الأخر أيضاً بملكوت الله، لأني لهذا قد أرسلت" (لوقا ٤/ ٣٤)، فقد أرسل للبشارة بالملكوت القادم، فهو ممهد ومبشر بين يديه.

والحق أن المعمدان وعيسى صاحبا دعوة واحدة، أي كلاهما بعث مبشراً بالنبي الخاتم، فهما المبشِران بالنبي الخاتم، والذي أسماه متى بملكوت السماوات، فقد بشر باقتراب عصره النبي يوحنا المعمدان، جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلاً: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات[(٣)]

وبعد وفاة يوحنا المعمدان جدد يسوع البشارة بالملكوت، " ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات " (متى ٤/ ١٧)، " وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت "، وأمر تلاميذه بأن يبشروا باقتراب الملكوت فقال: " اكرزوا قائلين: إنه قد اقترب ملكوت السماوات " (متى ١٠/ ٧)، لقد كانت دعوتهما واحدة، وهي البشارة والتمهيد للنبي القادم.

وكما لم يتحقق في المعمدان صفات الممهد للنبي القادم، فإن الصفات التي ذكرها يوحنا المعمدان للآتي بعده لم تتحقق في المسيح، فقد قال المعمدان: " أنا أعمدكم بماء التوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار، الذي رفشه في يده، وسينقي بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ، حينئذٍ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه " (متى ٣/ ١١–١٣)، فالقادم المبشر به سيعمد بالروح القدس والنار، أما المسيح فلم يعمد أحداً طوال حياته، وإن كان شاع بين الناس أنه يعمد، لكنه

---

(١) –(متى ١١/ ٣).،

(٢) –(انظر متى ٣/ ١)، (انظر متى ٣/ ٦)

(٣) –(متى ٣/ ١ – ٢).

لم يفعل ذلك حقيقة، وإن صنعه تلاميذه باسمه "فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يصيّر ويعمد تلاميذ أكثر من يوحنا، مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه" (يوحنا ٤/ ١-٢)

وذكر المعمدان أن الآتي بعده يعمد بالروح والنار، أي يملك سلطان الدين والدنيا لتغيير المنكر والحفز على التوبة، فهو لا يتوقف عن حدود الطهارة الظاهرية للجسد بالاغتسال بالماء، بل يهتم بطهارة الباطن، ووسيلته ما يأتي به روح القدس (جبريل) من وحي وبلاغ وبيان، كما قام بتطهير كثير من الأرض من الوثنية بالنار، ومثل هذه المعمودية لم يفعلها المسيح الذي عمد تلاميذه بالماء، وكانت بشارته

استمراراً لمعمودية المعمدان، وهي البشارة بالتوبة ومغفرة الخطايا فإن المسيح دعا بعد حادثة الصلب والقيامة كل واحد من تلاميذه "أن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا" (لوقا ٢٤/ ٤٧)، فلم تختلف معموديته عن معمودية المعمدان في شيء. (يوحنا ٣/ ٢٢ -٢٣)، واستمر تلاميذه بعده يعمدون بالماء كما كان المعمدان يعمد كما في (أعمال ١٩/ ١-٥)، ولو كان للمسيح تعميد يخالف ما عليه تعميد المعمدان لعرف بين التلاميذ وشاع.

كما وصف المعمدان النبي القادم بعده بأنه " أقوى مني"، وليس في دعوة المسيح أو حياته الشخصية ما يشير إلى هذه القوة، فكلاهما لم يبعث بشرع جديد، كما لم يملك على قومه، ولم يكن لأي منهما نفوذ أو سلطان، بل تزعم النصارى باطلاً أن كلاً منهما مات مقتولاً! فأين القوة التي ذكرها المعمدان؟

كما لم يحقق المسيح قول المعمدان عن النبي الآتي: "**رفشه في يده، وسينقي بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ** " وهذه كناية يفسرها الدكتور وليم أدي بقوله: "كناية عن نهاية العمل كله، ويمكن أن يكون القصد من هذا التشبيه: الإشارة إلى تأديب الله للناس وقصاصه لهم في هذه الحياة "، بل هو كناية أبعد من ذلك، إذ تبين سلطانه الذي ينقي الأصل الذي أنزله الله على أنبيائه مما علق فيه، فيحذف الترهات الدخيلة ويزيفها.

وعليه فالآتي المبشر به هو النبيّ المنتظر المنصور، وهو فقط الذي أتى إلى أرض القدس والهيكل بغتة يوم أسري به إلى بيت المقدس، بينما نشأ المسيح ويوحنا في ربوع الهيكل، وهو النبي الذي سمته بعض الترجمات برسول الختان، إذ كان قد دعا إليه ونبه إلى أنه من سنن الهدى، والتزمه المسلمون بعده. [1]

سادسا: البشارة بـ (محماد) مشتهى الأمم

بعد عودة بني إسرائيل من السبي، وتخفيفاً لأحزانهم، ساق لهم النبي حجي بشارة من الله مما فيها: "لا تخافوا ،.. وأنزل كل الأمم، ويأتي مشتهى كل الأمم، فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود .... مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود، وفي هذا المكان أعطي السلام يقول رب الجنود" (حجي٢/ ٩)

وهذه النبوءة لا ريب تتحدث عن القادم الذي وعَد به إبراهيم، وبشر به يعقوب وموسى ثم داود، وقبل أن نلج في تحديد شخصية هذا المشتهى من كل الأمم نتوقف مع القس السابق عبد الأحد داود، وهو الخبير باللغات القديمة، إذ يسوق لنا النص بالعبرانية: " لسوف أزلزل كل الأرض، وسوف يأتي (محماد) لكل الأمم ... وفي هذا المكان أعطي السلام "، فقد جاء في العبرية لفظة "محماد " أو " حمدت "كما في قراءة أخرى حديثة، ولفظة " مِحْمَادْ " في العبرانية تستعمل عادة لتعني: " الأمنية الكبيرة " أو "المشتهى"، والنص حسب الترجمة العبرانية المتداولة: (فباؤا حمدات كول هاجوييم).

(١) -د. منقذ السقار، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم، ١١٥-١٢٢، دار الإسلام للنشر والتوزيع، ط:الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

لكن لو أبقينا الاسم على حاله دون ترجمة، كما ينبغي أن يكون في الأسماء، فإنا واجدون لفظة " محماد " هي الصيغة العبرية لاسم أحمد، والذي أضاعها المترجمون عندما ترجموا الأسماء، يقول المؤرخ ول ديورانت: " ولفظ محمد مشتق من الحمد، وهو مبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به"[١]، وجاء في تمام النبوءة الحديث عن البيت الأخير لله، والذي هو أعظم مجداً من البيت الأول، ثم يقول: " في هذا المكان أعطي السلام "، وقد استخدمت الترجمة العبرية لفظة "شالوم " والتي من الممكن أن تعني الإسلام، فالسلام والإسلام مشتقان من لفظة واحدة. [٢]

وقوله: " في هذا المكان أعطي السلام "، قد تتحدث عن عقد الأمان الذي عم تلك الأرض والذي أعطاه عمر بن الخطاب لأهل القدس عندما فتحها، فتكون النبوءة عن إعطاء السلام ولم تنسبه إلى المشتهى، ذلك أن الأمر تم بعد وفاته في أتباعه وأصحابه الكرام، ولا ريب أن النبوءة لا تتحدث عن المسيح، إذ لا تقارب بين ألفاظ النبوءة واسمه، أو بين معانيه وما عهد عنه عليه السلام، إذ لم يستتب الأمن في القدس حال بعثته، بل بشر اليهود بخراب هيكلهم بعد حين، كما كان رسولاً إلى بني إسرائيل فحسب، وليس لكل الأمم، والقادم هو مشتهى الأمم جميعاً، وليس خاصاً ببيت يعقوب كما جاء في وصف المسيح مراراً.

وهذا الاستعمال لكلمة " السلام " بمعنى " الإسلام " يراه عبد الأحد داود لازماً في موضع آخر من الكتاب المقدس، فقد جاء في إنجيل لوقا أن الملائكة ترنموا عند ميلاد المسيح قائلين: " المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة " (لوقا ٢/ ١٤).

ويتساءل القس السابق عبد الأحد داود أي سلام حلَّ على الأرض بعد ميلاد المسيح، فقد تتابع القتل والحروب ما تزال تطحن، وإلى قيام الساعة، ولذلك فإن الترجمة الصحيحة لكلمة "إيرينا " اليونانية في العبرانية: " شالوم "، وهي في العربية " الإسلام "كما " السلام ".

وإن أصر النصارى على تفسير كلمة " إيرينا " بالسلام، فقد جعلوا من عيسى مناقضاً لنفسه، إذ قال: " جئت لألقي ناراً على الأرض ... أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم، بل انقساماً ... " (لوقا ١٢/ ٤٩ –٥١)، وفي متى: " لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً " (متى ١٠/ ٣٤).

ويرى عبد الأحد داود[٣] أن صانعي السلام هم المسلمون، وذلك في قول المسيح: "طوبى لصانعي السلام، لأنهم يدعون أبناء الله " (متى ٥/ ٩)، فيرى أن الترجمة الدقيقة هي " طوبى للمسلمين "، وليس صانعي السلام الخيالي، الذي لم ولن يوجد على الأرض. كما لا يستطيع أحد ينتمي إلى فرق النصارى المختلفة والمتباغضة طوال تاريخ النصرانية، لا يستطيع أن يقول بأن السلام قد تحقق في نفوس المؤمنين، إذ الأحقاد المتطاولة بينهم تكذب ذلك كله. وجاء في تمام الأنشودة المزعومة للملائكة: " وبالناس المسرة "، واستخدم النص اليوناني كلمة "يودكيا " وهي كلمة مشتقة من الفعل اليوناني " دوكيو "، ومعناها كما في القاموس الإغريقي: "لطيف، محسن، دمث ... "ومن معانيها أيضاً السرور – المحبة – الرضا– الرغبة، الشهرة

---

(١) –قصة الحضارة (١٣/ ٣٧٥).

(٢) –ومثل هذا في القرآن في قوله: {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة} (البقرة: ٢٠٨).

(٣) –محمد في الكتاب المقدس. ديفيد بنجامين (عبد الأحد داود). ترجمة: فهمي شما. مراجعة: أحمد محمد الصديق. مطابع الدوحة الحديثة.

فكل هذه الإطلاقات تصح في ترجمة كلمة " يودوكيا " التي يصح أيضاً أن تترجم في العبرانية إلى (محماد، ماحامود) المشتقة من الفعل " حمد " ومعناه: المرغوب فيه جداً، أو البهيج، أو الرائع أو المحبوب أو اللطيف، وهذا كله يتفق مع المعاني التي تفيدها كلمة محمد وأحمد، واللتان تقاربان في الاشتقاق كلمتي (حمدا ومحماد) العبرانيتين، ومثل هذا التقارب يدل على أن لهما أساس واحد مشترك كما هو الحال في كثير من كلمات اللغات السامية.

وينبه الأب السابق عبد الأحد داود إلى وجود هذا النص في إنجيل لوقا اليوناني، في الوقت الذي كانت فيه العبارات سريانية حين مقالها، ولا يمكن حتى مع بذل الجهد وفرض الأمانة في الترجمة أن تترجم كلمة ما من لغة إلى أخرى، وتفيد نفس المعاني الأصلية للكلمة ومع ضياع الأصول لا يمكن التحقق من دقة هذه الترجمة والترجمة الصحيحة للترنيمة كما يرى عبد الأحد داود هي: " **الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد**"[١].

سابعا: النبي "إشعياء" يتحدث عن هجرة محمد ومكانها.

تحدثت الأسفار عن أرض هجرته "وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر من بلاد العرب"، ودعت لنصرته ومواساته "يا سكان أرض تيماء(المدينة) وافوا الهارب بخبزه قال لي السيد: في مدة سنة كسنة الأجير، يفنى كل مجد قيدار (قريش أبناء إسماعيل)"(إشعيا ٢١/ ٦ -١٦).

النص يتحدث إلى الددانيين من أهل تيماء، ويطلب منهم حماية الهارب إلى بلادهم الوعرة، ويبشرهم بفناء مجد أبناء قيدار بن إسماعيل بعد برهة بسيطة، والددانيون كما قال قاموس الكتاب المقدس هم سكان تيماء في شمال الحجاز [٢]، ولا تخفى الوعورة في تضاريس تلك البلاد، والنص يبشر بانتصار المسلمين بعد سنة أو ثمان في معركة بدر أو فتح مكة على أبناء قيدار، وقيدار هو الابن الثاني لإسماعيل. (انظر التكوين ٢٥/ ١٣).

واسم قيدار يطلق أيضاً على البلاد التي غلب عليها ذرية قيدار كما في قوله: "قال الرب: قوموا اصعدوا إلى قيدار" (ارميا ٤٩/ ٢٨)، وهو المراد بقوله " يفنى كل مجد قيدار"، فهو يبشر بانتصار المسلمين على أبناء بلاد قيدار.

يدعو الرب أهل تيماء أن يغيثوا المهاجر إليهم، ومن المدهش أن هذا النص لم يقف عند ذلك بل يخبر أن مجد قيدار سيفنى بعد عامٍ من هذه الهجرة وقيدار باتفاق أهل الكتاب من ولد إسماعيل كما ورد في (التكوين (١٣/٢٥)، وذرية إسماعيل سكنوا قريش، ولم يمض عام على هجرته المباركة حتى قامت غزوة بدرٍ الكبرى، والتي سميت فرقانًا فرق الله فيه بين الحق والباطل وانهارت قريش! فانهار مجد قيدار بعد سنة من هجرته صلى الله عليه وسلم، فخلال سنة من هجرة النبي للمدينة من مكة هاربا حين لاقاه سكانها بالماء لري عطشه وأمّنوه فلم تمضِ سنة حتى قامت غزوة الفرقان فانتهى مجد أبناء قيدار سكان مكة.

وربما كان هذا النص هو الذي جعل راهب عمورية يؤكد لسلمان الفارسي الفارسيّ أن نبيّ آخر الزمان سيكون في بلاد العرب، وهو نفس النص الذي جعل اليهود يترقبون قدوم النبي من مكة إلى المدينة والذي جعل حيي بن أخطب يقول لصاحبه هو هو كما تروى لنا بنته صفية زوجة النبي [٣] !! فعن سلمان الفارسي: (قد أظلك زمان نبي، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل) [٤].

---

(١) -نظر: محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، ص (١٤٧ - ١٦٥)، الإنجيل والصليب، عبد الأحد داود، ص (٣٣ - ٥٥)، البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، أحمد حجازي السقا (٢/ ٣٧٠ - ٣٧٢)، د. منقذ السقار، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ص: ١١١-١١٤

(٢) -قاموس الكتاب المقدس، ص (٣٧٠).

(٣) -

(٤) -رواه أحمد وغيره.

ومن العجيب أن سفر أشعياء بعد قليل يخبر تحديدًا أن سكان مكة وسكان سالع –جبل المدينة المعروف إلى اليوم– سيُنشدون فرحًا بالنبي القادم!! يقول سفر أشعياء إصحاح (٤٢ عدد١): ((هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم... ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع. من رؤوس الجبال ليهتفوا)).

فبمن ترنّم سكان جبل سلع في المدينة المنورة؟ أليس بطلع البدر علينا ؟! وإلى اليوم هذه النّبوءة التي كان يهدّد بها أشعيا قومه أنهم سيستبدلون بآخرين بنيّ الأميّين المنصور راكب الجمل فعلى من تنطبق ؟!

ويقول إشعيا في وصف تلك الأمة: " من أنهض من المشرق الذي يلاقيه النصر عند رجليه دفع أمامه أمماً، وعلى ملوك سلّطه، جعلهم كالتراب بسيفه، وكالقش المنذري بقوسه، طردهم، مر سالماً في طريق لم يسلكه برجليه" (إشعياء ٤١/ ٢ –٤) وإذا كان النص نبوءة فبمن تحققت النبوءة؟ ومن ذا المسلّط على الملوك من قبل الرب الآتي من المشرق؟ وهي ما قد يطلق على بلاد العرب كما جاء في إرمياء "اصعدوا إلى قيدار، أخربوا بني المشرق " (إرمياء ٤٩/ ٢٨).

وفي نص آخر يتحدث أشعيا عن الفرح والبهجة والعز الذي يحصل في ديار قيدار من انتصار هذا النبي: " لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع، من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجداً، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر" (إشعيا ٤٢/ ١١–١٣).

وكان النص يتحدث عن السبب الذي يدعو لهذا الفرح، ألا وهو ظهور النبي المنتظر " هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه، فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفئ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته " (إشعيا ٤٢/ ١ –٤)، فمن هو الفاتح صاحب الشريعة الذي لا ينكسر، من ذا الذي أخرج الحق لكل أمم الأرض، إنه محمد صلى الله عليه وسلم.

ويتوعد النبي إشعيا بني إسرائيل الذين يحرفون كتاب الله ولا يلتزمون شريعته، يتوعدهم بالنبي صاحب السفر المختوم، النبي الذي لا يعرف القراءة، فيقول: "الرب قد سكب عليكم روح سبات وأغمض عيونكم، الأنبياء ورؤساؤكم الناظرون غطّاهم، وصارت لكم رؤيا الكل مثل كلام السفر المختوم الذي يدفعونه لعارف الكتابة قائلين: اقرأ هذا، فيقول: لا أستطيع لأنه مختوم، أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة. (إشعيا ٢٩/ ١٠ –١٨)، [1]

ثامنا: إنّه النبي الأميّ الذي لا يعرف القراءة، وراكب الجمل في سفر أشعيا.

من أشهر ما وصف به نبي الإسلام وعرف به، " أميته" صلى الله عليه وسلم. وإذا كانت الأمية في غيره نقيصة، فإنها فيه حجة مدعّمة لنبوته، فهو الذي أتى بالقرآن المعجز ببيانه وبلاغته، وإخباره بالمغيبات وبالشرائع المذهلة والضوابط الأخلاقية المتقنة. وإذا كان العالم المتمرس بالعلوم عاجزا عن يأتي بمثل هذا القرآن، فكيف برجل أمي لا يقرأ ولا يكتب! وقد وصف الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع من القرآن الكريم بالأمية: {الذين يتبعون الرسول **النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل** يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} [الأعراف ١٥٧] ، { فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون} [الأعراف ١٥٨] أي الذي لم يكن يكتب أو يقرأ. وهو صلى

(١) –النص في جميع الترجمات العالمية: بمعنى: "لا أعرف القراءة" فيما سوى الترجمة العربية، ولا يخفى أنه أريد من تحريف الترجمة العربية، وتحويل العبارة من (لا أعرف القراءة) إلى (لا أعرف الكتابة) نوع من التحريف أريد منه صرف القارئ العربي عن تحقق القصة في غار حراء. وفي النص العبراني لفظة (كرا) تعني القراءة، لا الكتابة.

الله عليه وسلم لم يتعلم هذا القرآن ولم يعلمه، وقد وعده ربه بأن يحفظ له كتابه هذا في صدره: {لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه}[القيامة ١٦- ١٧]

وتركيز القرآن على صفة الأمية في نبي الإسلام، وذكره أنه قد جاء التنصيص على هذه الصفة في أسفار النصارى يجعلنا نطمئن لوجود ما جاء ذكره في القرآن فيما بين أيدي هؤلاء. ولا نحتاج إلى كبير عناء للعثور على مرادنا في الكتاب المقدس، يتوعد إشعياء النبي بني إسرائيل الذين يحرفون كتاب الله ولا يلتزمون شريعته، يتوعدهم بالنبي صاحب السفر المختوم، النبيِ الذي لا يعرف القراءة: " أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة. "(سفر إشعياء ٢٩: ١٢) قبل أن نضع هذا النص على مشرحة البحث بين يدي العقل المنصف، علينا أن نلفت الانتباه إلى أن هذا النص في صورته العربية التي نقلناها، محرف، والسبب أن أصحاب الترجمة العربية التي بين أيدينا يعلمون معنى هذا النص، ولذلك شوهوه، والمقارنة بين التراجم الإنجليزية والفرنسية ... وبين النص العربي السابق سيكشف لك الأمر:

The New International Version:

Or if you give the scroll to someone who cannot read, and say،
"Read this ,please" he will answer ,"I dont know how to read."،

The New American Standard Bible:

Then the book will be given to the one who is
illiterate, saying،
"Please read this .And he will say ,=I " .
=.cannot read

The New American Bible:

When it is handed to one who can not who can not read, with the
request:= read this
=he replies,= i can not read ،

Louis Segond.:

Je ne sais pas lire =:Et qui repondne sait pas lire ,en disant:Lis donc cela! Ou comme un
livre que Ion donne A un homme qui

وتعريب هذه النصوص، على اختلاف طفيف بينها: " أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة، مع الرجاء: " اقرأ هذا" فيجيب: " لا أعرف القراءة".

من أهم مواضع الخلاف بين هذه التراجم وبين النص العربي، إضافة عبارة" مع الرجاء"، وهذه الزيادة لا تعنينا في هذا المقام، وإنما الذي يعنينا هو استعمال كلمة" القراءة" في هذه التراجم محل كلمة" الكتابة" في المقابل العربي، ويبدو أن آباء الكنيسة الأولين لم يجدوا لهذه الكلمات معنى، فها هو القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره لسفر إشعياء (نشر كنيسة مارجرجس باسبرتنج) والذي جمع مادته من" نخبة ممتازة من تفسيرات آباء الكنيسة الأولين"، قد فسر الفصل ٢٩ من سفر إشعياء بأكمله إلا العدد موضوع حديثنا، ولكن نصارى اليوم يعرفون معنى هذا النص ولذلك حرفوا ترجمته العربية!!

حتى نفهم معنى ما جاء في نبوءة إشعياء، علينا أن نعود بالذاكرة إلى الوراء، إلى ما قبل ١٤ قرن سلف: أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: " أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه- وهو

التعبد– الليالي ذوات العدد، قبل أن يترع إلى أهله، ويتزود إلى ذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك.

فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني

فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم قال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق–خلق الإنسان من علق–اقرأ وربك الأكرم–الذي علم بالقلم–علم الإنسان ما لم يعلم}"

إنه من البيّن لكل ذي عينين، التطابق الواضح بين ما جاء في هذا الحديث وبين ما جاء في سفر اشعياء ٢٩: ١٢" لقد دفع كتاب الوحي إلى نبي الإسلام ليقرأه: " اقرأ"، فقال هذا النبي: " ما أنا بقارئ" أي أنا أمي لا أعرف القراءة ملاحظة أخرى لا بد من ذكرها وهي أن الكلمة العبرية المستعملة في النص العبري هي" اقرأ"، وهي نفس الكلمة الواردة في الحديث سابق الذكر، فتأمل!!!

اعتراض النصارى: جاء في هامش الترجمة الكاثولكية" الكتاب المقدس الأمريكي الجديد = The New American Bible ="أن نص إشعياء ٢٩: ٩–١٢ متعلق بالقدس (أورشليم) ، وهو يشير إلى رفض القدس (أهلها) تصديق أن الله سيخلصها..

الرد: أسطورة خلاص القدس على يد المسيح (النصراني) لم تتحقق، بل قام القائد الروماني تيتوس سنة ٦٦ م باحتلال القدس وتخريب المعبد، وقام الإمبراطور الروماني أدريانوس سنة ١٣٥ م بإزالة معالم القدس والهيكل تماما، ثم أصبحت المدينة وما جاورها قرونا طوالا في ملك المسلمين الموحدين، ثم ها هي اليوم مأسورة في قفص اليهود الذين وصفهم المسيح بأنهم" أولاد الأفاعي"، إن حمل نص إشعياء على محمد صلى الله عليه وسلم يحافظ على المعنى التنبئي الحرفي للنص، في حين أن حمله على" القدس" وأهلها ينقله إلى المعنى المجازي، البعيد، والأول أولى بل هو الحق!

نكمل مع رواية البخاري: ونزل النبي من على غار حراء خائفاً فزعاً، وذهب إلى ورقة بن نوفل –وكان من علماء أهل الكتاب –فقص عليه الخبر، فعرف ورقة نبوة النبي بما قرأ في سِفر النبي إشعيا، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وإنْ يُدركني يومُك حياً أنصرك نصراً مؤزراً. (١)

وأما معرفته بإخراج قريش للنبي ومعاداته، فقد عرفه ورقة من سفر إشعيا أيضاً حيث جاءتْ فيه البشارة بالنبي الذي يبعث في بلاد وعرة من أرض العرب، يقول السفر التوراتي في الإصحاح الحادي والعشرين: "وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين، يا قوافل الددانيين هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من السيوف قد هربوا " (إشعيا ٢١/ ١٣ – ١٤)، فالنص التوراتي يتحدث إلى قبائل الددانيين في أرض تيماء، لينجدوا النبي الذي خرج مع أصحابه هرباً من وجه السيوف، ويشير إلى مكان بعثته الوعر من بلاد العرب، وهي صفة مكة المكرمة، مكان مولِدِه وبعثته.

فشهادة ورقة وهو من علماء أهل الكتاب دليل ساطع على نبوة النبي وهذه الشهادة موثقة معتبرة، فقد استخرجها من كتب أهل الكتاب، مما تبقى بها من آثار الأنبياء وأنوار الوحي {ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً

(١) –حديث البخاري في الصحيح رقم (٤)

بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} [الرعد: ٤٣]. وممن شهد لنبينا بالرسالة من أهل الكتاب النجاشي ملك الحبشة؛ فإنه آمن بالرسول لما دخل عليه جعفر بن أبي طالب فقال له: إن الله بعث فينا رسوله، وهو الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم: {ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: ٦] فأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئاً، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر. فقال النجاشي لجعفر: ما يقول صاحبك في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قولَ الله، هو روح الله وكلمته، أخرجه من البتول العذراء التي لم يقربها بشر. قال: فتناول النجاشي عوداً من الأرض فقال: يا معشر القسيسين والرهبان، ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله، والذي بشّر به عيسى ابن مريم، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه. (١) لقد أسلم بما آتاه الله من معرفة بالكتب قبل الإسلام، ورأى فيها دليلاً صادقاً من دلائل نبوتهﷺ فلما مات رحمه الله؛ نعاه النبي إلى أصحابه في اليوم الذي مات فيه، وصلى عليه صلاة الغائب، وقال: ((مات اليوم رجل صالح، فقوموا، فصلوا على أخيكم أصْحمة)). (٢) رحمه الله، فقد كان إسلامه دليلاً من دلائل نبوة النبي.

إنه راكب الجمل: قال إشعياء (٢١: ٦-١٠): " لأنه هكذا قال الرب لي: اذهب وأقم رقيبا ليعلن ما يراه. وعند ما يشاهد راكبين فرسانا أزواجا أزواجا، أو راكبين على حمير، وراكبين على جمال، فليصغ إصغاء شديدا. ثم هتف الرقيب: ها أنا أقف على برج المراقبة يوما بعد يوم أيها الرب، وأقوم على المحرس طوال الليل. فها ركب قادم، فرسان أزواج أزواج. فأجاب: سقطت سقطت بابل وتحطمت سائر أصنامها على الأرض. آه يا شعبي المطحون والمشتت، لقد أنبأتكم بكل ما سمعته من الرب القدير إله إسرائيل. "

تخبر هذه الأعداد عن قدوم طائفتين: أصحاب الراكب على حمار، وأصحاب الراكب على جمل. لا يتردد أي نصراني في القول إن ما جاء في هذه الأعداد عن الراكب على الحمار ما هو إلا نبوءة عن عيسى عليه السلام لما جاء في إنجيل يوحنا ١٢: ١٤: " ووجد يسوع جحشا فركب عليه، كما قد كتب: " لا تخافي يا بنت صهيون، فإن ملك قادم إليك راكبا على جحش أتان". والإشارة في" قد كتب" إلى سفر إشعياء ٤٠: ٩ وسفر زكريا ٩: ٩ كما هو منصوص عليه في هامش" الترجمة الأمريكية الجديدة.merican BibleA ==The New " فالبشارة بالمسيح في العهد القديم، كما يقول النصارى، هي بركوب الحمار. أما الراكب على الجمل فهو بلا ريب محمد صلى الله عليه وسلم. فهو الراكب على الجمل" القصواء". وهو صلوات الله عليه وسلم الذي تحطمت سائر أصنام العراق (بابل) على يدي أمته المباركة، ولم تبلغها يد أمة أخرى قبلها بإزالة أو إبادة.

فالبشارة إذن هي بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ولا يمكن نسبتها إلى نبي آخر. وقد فهم هذا النص على هذه الصورة النجاشي النصراني، فقد قال ابن القيم " وكتب إلى النجاشي: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة أسلم أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى.

وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمري فقال ابن إسحاق: إن عمرا قال له يا أصحمة إن علي القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقة علينا وكأنا في الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شيء قط

(١) -رواه أبو داود ح (٣٢٠٥)، وأحمد ح (٤٨٣٦) وابن أبي شيبة ح (٣٦٦٤٠).
(٢) -رواه البخاري ح (٣٨٧٧)، ومسلم ح (٩٥٢).

إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور وفي ذلك موقع الحز وإصابة المفصل وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر.

فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان ليس بأشفى من الخبر ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم" بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقا إنه كما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين" والثفروق علاقة ما بين النواة والقشر.[1]

وستقرأ لاحقا أن هذا الوصف لمحمد صلى الله عليه وسلم موجود حتى في كتب المجوس وكتب الهندوس (كتاب آثر فيدا: ٢٠: ١٢٧ في حديثه عن ركوب" نارشنجزا" على جمل).

تاسعا: المسيح يبشّر بالفارقليط وهو اسم ترجم بصفة "المعزّي"

لكن أعظم بشارات العهد الجديد بالنبي الخاتم هي نبوءات المسيح عن مجيء البارقليط إلى هذا العالم، وينفرد يوحنا في إنجيله بذكر هذه البشارات المتوالية من المسيح بهذا النبي المنتظر، حيث يقول المسيح موصياً تلاميذه: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم ... إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً.

الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم .... قلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون، لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيّ شيء " (يوحنا ١٤/ ١٥ -٣٠).

وفي الإصحاح الذي يليه يعظ المسيح تلاميذه طالباً منهم حفظ وصاياه، ثم يقول: " متى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي في الابتداء، قد كلمتكم بهذا لكي لا تعثروا ، سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله ... قد ملأ الحزن قلوبكم، لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم...ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين...إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (يوحنا ١٥/ ٢٦ - ١٦/ ١٤).

البارقليط عند النصارى:

---

(١) -ابن القيم، زاد المعاد في هدى خير العباد (٣/ ٦٠٢) مؤسسة الرسالة بيروت ط٢٧ /١٩٩٤

يجيب النصارى بأن الآتي هو روح القدس الذي نزل على التلاميذ يوم الخمسين ليعزيهم في فقدهم للسيد المسيح، وهناك " صار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصف، وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار، واستقرت على كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا " (أعمال ٢/ ١ -٤).

ولا تذكر أسفار العهد الجديد شيئاً سوى ما سبق عن هذا الذي حصل يوم الخمسين من قيامة المسيح ، يقول الأنبا أثناسيوس في تفسيره لإنجيل يوحنا: " البارقليط هو روح الله القدوس نفسه المعزي، البارقليط: المعزي " الروح القدس الذي يرسله الأب باسمي " (يوحنا ١٤/ ٢٦)، وهو الذي نزل عليهم يوم الخمسين (أعمال ٢/ ١ - ٤) فامتلأوا به وخرجوا للتبشير، وهو مع الكنيسة وفي المؤمنين، وهو هبة ملازمة للإيمان والعماد"[١]، ويقول معجم اللاهوت الكتابي: " لفظ بارقليط، (باليونانية parakletos) لفظ مأخوذ من كتابات القديس يوحنا، وهو يعبّر ليس عن طبيعة شخص، بل عن وظيفته .. فهو من يلعب دور المساعد الإيجابي، والمحامي، والمؤيد، ويقوم بهذه المهمة يسوع المسيح الذي هو "شفيع لنا عند الآب وهو كفارة عن خطايانا" في السماء (يوحنا (١) ٢/ ١)، كما يقوم بها أيضاً الروح القدس الذي يحقق حضور يسوع فعلياً من حيث هو الشاهد والمدافع عنه بين المؤمنين"[٢]

البارقليط عند المسلمين

ويعتقد المسلمون أن ما جاء في يوحنا عن المعزي رئيس هذا العالم الآتي، إنما هو بشارة من المسيح بنبينا ﷺ، وذلك يظهر من أمور: منها أن لفظة " المعزي " لفظة حديثة استبدلتها التراجم الجديدة للعهد الجديد، فيما كانت التراجم العربية القديمة (١٨٢٠م، ١٨٣١م، ١٨٤٤م) تضع الكلمة اليونانية (البارقليط) كما هي، وهو ما تصنعه كثير من التراجم العالمية.

وفي تفسير كلمة " بارقليط " اليوناني نقول: إن هذا اللفظ اليوناني الأصل، لا يخلو من أحد حالين، الأول أنه "باراكلي توس". فيكون حسب قول النصارى بمعنى: المعزي والمعين والوكيل، والثاني أنه " بيروكلوتوس "، فيكون قريباً من معنى: محمد وأحمد، ويقول أسقف بني سويف الأنبا أثناسيوس في تفسيره لإنجيل يوحنا: " إن لفظ بارقليط إذا حرف نطقه قليلاً يصير "بيركليت"، ومعناه: الحمد أو الشكر، وهو قريب من لفظ أحمد".[٣]

ويسأل عبد الوهاب النجار الدكتور كارلو نيلنو (الحاصل على الدكتوراه في آداب اليهود اليونانية القديمة) عن معنى كلمة " بيركلوتس " فيقول: " الذي له حمد كثير "، ومما يؤكد خطأ الترجمة أن اللفظة اليونانية (بيركلوتس) اسم لا صفة، فقد كان من عادة اليونانيين زيادة السين في آخر الأسماء، وهو ما لا يصنعونه في الصفات، ويرى عبد الأحد داود أن تفسير الكنيسة للبارقليط بأنه " شخص يدعى للمساعدة أو شفيع أو محام أو وسيط" غير صحيح، فإن كلمة بارقليط اليونانية لا تفيد أياً من هذه المعاني ، فالمعزي في اليونانية يدعى (باراكالون أو باريجوريتس)، والمحامي تعريب للفظة (سانجرس)، وأما الوسيط أو الشفيع فتستعمل له لفظة " ميديتيا "، وعليه فعزوف الكنيسة عن معنى الحمد إلى أي من هذه المعاني إنما هو نوع من التحريف. ويوافقه القس الدكتور سمبسون، فيقول: "الاسم المعزي ليس ترجمة دقيقة جداً"[٤].

---

(١) -تفسير إنجيل يوحنا، الأنبا أثناسيوس، ص (١١٨).
(٢) -معجم اللاهوت الكتابي (مادة بارقليط)، وانظر: تفسير إنجيل يوحنا، الأنبا أثناسيوس، ص (٢٠٥).
(٣) -تفسير إنجيل يوحنا، الأنبا أثناسيوس، ص (١١٧).
(٤) -الروح القدس أو قوة في الأعالي (٢/ ٢٠٦).

ويعترف به معجم اللاهوت الكتابي، حين كتب مؤلفوه: " ومعنى "المعزي" –المشتق على الأرجح من أصل لغوي خاطئ –غير وارد في العهد الجديد". (١)

ومما سبق يتضح أن ثمة خلافاً بين المسلمين والنصارى في الأصل اليوناني لكلمة " بارقليط " حيث يعتقد المسلمون أن أصلها " بيركلوتوس " وأن ثمة تحريفاً قام به النصارى لإخفاء دلالة الكلمة على اسم النبيﷺ أحمد: الذي له حمد كثير. ومثل هذا التحريف لا يستغرب وقوعه في كتب القوم، ففيها من الطوام مما يجعل تحريف كلمة " البيرقليط " من السهل الهين، كما أن وقوع التصحيف والتغير في الأسماء كثير عند الترجمة بين اللغات وفي الطبعات، فاسم "بارباس" في الترجمة البروتستانتية هو في نسخة الكاثوليك " بارابا "، وكذا (المسيا، ماشيح) و (شيلون، شيلوه) وسوى ذلك، وكلمة " البارقليط " مترجمة عن السريانية لغة المسيح الأصلية فلا يبعد أن يقع مثل هذا التحوير حين الترجمة.

ولجلاء التحريف في هذه الفقرة فإن أدوين جونس في كتابه " نشأة الديانة المسيحية " يعترف بأن معنى البارقليط: محمد، لكنه يطمس اعترافه بكذبة وطامّة لا تنطلي على أهل العلم والتحقيق، فيقول بأن المسيحيين أدخلوا هذا الاسم في إنجيل يوحنا جهلاً منهم بعد ظهور الإسلام وتأثرهم بالثقافة الدينية للمسلمين.

وأما المستشرق النمساوي المتعصب لويس سبرنجر (ت ١٨٩٣م) في كتابه عن سيرة النبي فيحل المسألة بطريقة لا ريب أنها ستدهش القارئ وتثير عجبه، فيزعم أن اسم النبي الحقيقي هو قثم، وأن النبي تسمى باسم محمد في المدينة المنورة، بعد اختلاطه بالنصارى، وقد التقطه من خلال قراءته لنبوءات الأناجيل عن البارقليط (المنحمنا بالسريانية)، وقد أيده عدد من المستشرقين منهم المستشرق الفرنسي اليهودي هرتويغ درنبرغ Hartwig Derenbourg (ت ١٩٠٨م) ، والمستشرق الألماني المتعصب ثيودور نولدكه (ت ١٩٣٠م) صاحب كتاب "تاريخ القرآن"، والمستشرق الإيطالي الأمير ليون كايتاني في كتابه الشهير حوليات الإسلام (٢) (nnalli dell' Islam)

البارقليط بشر نبي، وليس روح القدس

وأياً كان المعنى للبارقليط: أحمد أو المعزي فإن الأوصاف والمقدمات التي ذكرها المسيح للبارقليط تمنع أن يكون المقصود به روح القدس، وتؤكد أنه كائن بشري يعطيه الله النبوة. وذلك واضح من خلال التأمل في نصوص يوحنا عن البارقليط.

١ –فإن يوحنا استعمل في حديثه عن البارقليط أفعالاً حسية (الكلام، والسمع، والتوبيخ) في قوله: "كل ما يسمع يتكلم به " وهذه الصفات لا تنطبق على الألسنة النارية التي هبت على التلاميذ يوم الخمسين، إذ لم ينقل أن الألسنة النارية تكلمت يومذاك بشيء، وأما الروح فغاية ما يصنعه إنما هو الإلهام القلبي، وأما الكلام فهو صفة بشرية، لا روحية. وقد فهم أوائل النصارى قول يوحنا بأنه بشارة بكائن بشري، وادعى مونتنوس في القرن الثاني (١٨٧م) أنه البارقليط القادم، ومثله صنع ماني في القرن الرابع فادعى أنه البارقليط، وتشبه بالمسيح فاختار اثنا عشر تلميذاً وسبعون أسقفاً أرسلهم إلى بلاد المشرق، ولو كان فهمهم للبارقليط أنه الأقنوم الثالث لما تجرؤوا على هذه الدعوى. (٣)

٢ –ومن صفات الآتي أنه يجيء بعد ذهاب المسيح من الدنيا، فالمسيح وذلك الرسول المعزي لا يجتمعان في الدنيا، وهذا ما يؤكد مرة أخرى أن المعزى لا يمكن أن يكون الروح القدس الذي أيد المسيح طيلة حياته، بينما المعزي لا يأتي الدنيا والمسيح فيها " إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي"، وروح القدس سابق في الوجود على المسيح، وموجود في التلاميذ

---

(١) –معجم اللاهوت الكتابي (مادة بارقليط).

(٢) –انظر تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، ص (٩٧ –٩٨).

(٣) –انظر: الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، خير الدين الألوسي (١/ ٢٨٦ –٢٩١)، محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، ص (٢٢٤ –٢٢٥)، البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، أحمد حجازي السقا (٢/ ٢٧٦ –٢٧٨). وهل بشر الكتاب المقدس بمحمد ص ١٢٥–١٣٠.

من قبل ذهاب المسيح، فقد كان شاهداً عند خلق السماوات والأرض. (انظر التكوين ١/ ٢)، وكان مع بني إسرائيل طويلاً "أين الذي جعل في وسطهم روح قدسه" (إشعيا ٦٣/ ١١). وكان لروح القدس دور في ولادة عيسى، حيث أن أمه " وجدت حبلى من الروح القدس " (متى ١/ ١٨)، فدل ذلك على وجوده، كما اجتمعا سوياً يوم تعميد المسيح، حين "نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة" (لوقا ٣/ ٢٢)، وأعطاه المسيح للتلاميذ قبل ذهابه حين قال لهم: " ولما قال هذا نفخ، وقال لهم: اقبلوا الروح القدس" (يوحنا ٢٠/ ٢٢)، وحسب الرهبانية اليسوعية: "ونفخ فيهم، وقال: خذوا الروح القدس"، وهكذا فالروح القدس موجود مع المسيح وقبله، وقد أعطي للتلاميذ، وأما المعزي أو الروح القدس القادم، فهو " إن لم أنطلق لا يأتيكم "، فهو ليس الروح القدس الذي يتحدث عنه المسيحيون.

٣ –ومما يدل على بشرية الروح القدس أنه من نفس نوع المسيح، والمسيح كان بشراً، وهو يقول عنه: "وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر"، وهنا يستخدم النص اليوناني كلمة (allon) وهي تستخدم للدلالة على الآخر من نفس النوع، فيما تستخدم كلمة (hetenos) للدلالة على آخر من نوع مغاير. وإذا قلنا إن المقصود من ذلك رسول آخر أصبح كلامنا معقولاً، ونفتقد هذه المعقولية إذا قلنا: إن المقصود هو روح القدس الآخر، لأن روح القدس واحد وغير متعدد.

٤ –ثم إن الآتي عرضة للتكذيب من قبل اليهود والتلاميذ، لذا فإن المسيح يكثر من الوصية بالإيمان به وأتباعه، فيقول لهم: " إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي "، ويقول: " قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنوا "، ويؤكد على صدقه فيقول: " لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به"، وهذه الوصاة لا معنى لها إن كان الآتي هو الروح القدس، حيث نزل على شكل ألسنة نارية، فكان أثرها في نفوسهم معرفتهم للغات مختلفة، فمثل هذا لا يحتاج إلى وصية للإيمان به والتأكيد على صدقه، لأنه يقوم في القلب من غير حاجة لرده أو قدرة على تكذيبه.

٥ –كما أن الروح القدس أحد أطراف الثالوث، وينبغي وفق عقيدة النصارى أن يكون التلاميذ مؤمنين به، فلم أوصاهم بالإيمان به؟

٦ –وروح القدس وفق كلام النصارى إله مساو للآب في ألوهيته، وعليه فهو يقدر أن يتكلم من عند نفسه، وروح الحق الآتي " لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به".

٧ –ودل نص يوحنا على تأخر زمن إتيان البارقليط، فقد قال المسيح لهم: " إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق "، فثمة أمور يخبر بها هذا النبي لا يستطيع التلاميذ إدراكها ، لأن البشرية لم تصل لحالة الرشد التام في فهم هذا الدين الكامل الذي يشمل مناحي الحياة المختلفة، ومن غير المعقول أن تكون إدراكات التلاميذ قد اختلفت خلال عشرة أيام من صعود المسيح إلى السماء، وليس في النصوص ما يدل على مثل هذا التغيير، بل إن النصارى ينقلون عنهم أنهم بعد نزول الروح عليهم قد أسقطوا كثيراً من أحكام الشريعة وأحلوا المحرمات، فسقوط الأحكام عندهم أهون من زيادةٍ ما كانوا ليحتملوها أو يطيقوها زمن المسيح. فالبارقليط يأتي بشريعة ذات أحكام تثقل على المكلفين الضعفاء، كما قال الله: {إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً} (المزمل: ٥).

٨ –كما أن المسيح أخبر أنه قبل أن يأتي البارقليط ستقع أحداث هامة وبارزة " سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله"، وهذا الأمر إنما حصل بعد الخمسين، بل بعد قرون من رفع المسيح، فالنص لا يتحدث عن اضطهاد الرومان أو اليهود لأتباع المسيح، وإنما يتحدث عن اضطهاد رجالات الكنيسة لأتباع المسيح الموحدين، وهم–أي رجال الكهنوت–يظنون أنهم بذلك يحسنون صنعاً، ويقدمون خدمة لله ودينه، فقررت مجامعهم

طرد آريوس والموحدين، وأخرجوهم من المجامع الكنسية، وحكموا عليهم بالحرمان والاضطهاد، واستمر الاضطهاد بأتباع المسيح حتى ندر الموحدون قبيل ظهور الإسلام.

٩ –وذكر يوحنا أن المسيح خبّر تلاميذه بأوصاف البارقليط، والتي لم تتمثل بالروح القدس الحال على التلاميذ يوم الخمسين، فهو شاهد تنضاف شهادته إلى شهادة التلاميذ في المسيح " فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً " فأين شهد الروح القدس للمسيح؟ وبم شهد؟ بينا نجد أن رسول الله شهد للمسيح بالبراءة من الكفر وادعاء الألوهية والبنوة لله، كما شهد ببراءة أمه مما رماها به اليهود {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً} (النساء: ١٥٦).

١٠ –وأخبر المسيح عن تمجيد الآتي له، فقال: "ذاك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم " ولم يمجد المسيح أحد ظهر بعده كما مجده نبي الإسلام، فقد أثنى عليه، وبيّن فضله على سائر العالمين، في حين أنه لم ينقل لنا أي من أسفار العهد الجديد أن روح القدس أثنى على المسيح أو مجده يوم الخمسين، حين نزل على شكل ألسنة نارية.

١١ –وأخبر المسيح أن البارقليط يمكث إلى الأبد، أي دينه وشريعته، بينا نجد أن ما أعطيه التلاميذ من قدرات يوم الخمسين إن صح اختفت بوفاتهم، ولم ينقل مثله عن رجالات الكنيسة بعدهم. وأما رسولنا فيمكث إلى الأبد بهديه ورسالته، وإذ لا نبي بعده ولا رسالة.

١٢ –كما أن البارقليط " يذكركم بكل ما قلته لكم " وليس من حاجة بعد رفعه بعشرة أيام إلى مثل هذا التذكير، ولم ينقل العهد الجديد أن روح القدس ذكرهم بشيء، بل إنا نجد كتاباتهم ورسائلهم فيها ما يدل على تقادم الزمن ونسيان الكاتب لبعض التفاصيل التي يذكرها غيره، بينما ذكر رسول الله ﷺ بكل ما غفلت عنه البشرية من أوامر الله التي أنزلها على أنبيائه ومنهم المسيح عليه السلام.

١٣ –والبارقليط له مهمات لم يقم بها الروح القدس يوم الخمسين فهو " متى جاء ذاك يبكت العالم على خطية، وعلى بر، وعلى دينونة "ولم يوبخ الروح القدس أحداً يوم الخمسين ، بل هذا هو صنيع رسول الله مع البشرية الكافرة ، ويرى عبد الأحد داود أن التوبيخ على البر قد فسره المسيح بقوله بعده: " وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني "، ومعناه أنه سيوبخ القائلين بصلبه، المنكرين لنجاته من كيد أعدائه، وقد أخبرهم أنه سيطلبونه ولن يجدوه، لأنه سيصعد إلى السماء، " يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد، ستطلبونني، وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن ... " (يوحنا ١٣/ ٣٢) ،كما سيوبخ النبي الآتي الشيطان ويدينه بما يبثه من هدي ووحي "وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين" ، وصفة التوبيخ لا تناسب من سمي بالمعزي، وقيل بأنه جاء إلى التلاميذ يعزيهم بفقد سيدهم ونبيهم ،ثم العزاء إنما يكون في المصائب، والمسيح كان يبشرهم بذهابه ومجيء الآتي بعده.

كما أن العزاء إنما يكون حين المصيبة وبعدها بقليل، وليس بعد عشرة أيام (موعد نزول الروح القدس على التلاميذ)، ثم لماذا لم يقدم المعزي القادم العزاء لأم المسيح، فقد كانت أولى به، ثم لا يجوز للنصارى أن يعتبروا قتل المسيح على الصليب مصيبة تستوجب العزاء، إذ هو برأيهم سبب الخلاص والسعادة الأبدية للبشرية، فوقوعه فرحة ما بعدها فرحة، وإصرار النصارى على أن التلاميذ احتاجوا لعزاء الروح القدس يبطل عقيدة الفداء والخلاص.

ومن استعراض ما سبق ثبت بأن روح القدس ليس هو البارقليط، فكل صفات البارقليط صفات لنبي يأتي بعد عيسى، وهو النبي الذي بشر به موسى عليه السلام، فالبارقليط " لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به "، وكذا الذي بشر به موسى " أجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به "، وهو وصف النبيﷺ كما قال الله {وما ينطق عن الهوى–إن هو إلا وحي يوحى–علمه شديد القوى} (النجم: ٣ –٥). بل كل ما ذكر عن البارقليط له

شواهد في القرآن والسنة تقول بأن الرسول ﷺ هو صاحب هذه النبوءة، إذ هو الشاهد للمسيح، وهو المخبر بالغيوب، الذي لا نبي بعده، وقد ارتضى الله دينه إلى قيام الساعة ديناً [١].

اعتراضات المنصر بافندر وردود العلامة الهندي عليها

ويثير المنصر بافندر في وجه المسلمين أسئلة يراها تمنع من صرف البارقليط إلى النبي محمد أولها: أنه ورد في البارقليط أنه روح الحق ثلاث مرات، وفي مرة رابعة ورد أنه روح القدس[٢] وهي كما يقول القس بفندر ألفاظ مترادفة تدل على الروح القدس.

والعلامة رحمة الله الهندي في كتابه العظيم "إظهار الحق" يسلم بترادف هذه الألفاظ، ويؤكد أن لفظة (روح الله) دالة على الأنبياء أيضاً، كما جاء في رسالة يوحنا الأولى: "فلا تؤمنوا أيها الأحباء بكل روح من الأرواح، بل امتحنوا الأرواح حتى تعلموا هل هي من عند الله أم لا؟ لأن كثيرين من الأنبياء الكذبة برزوا إلى هذا العالم " (يوحنا (١) ٤/ ١ -٢)، فالأنبياء الصادقون هم روح الله، والأنبياء الكذبة هم روح الشيطان.

وبين يوحنا كيفية معرفة روح الحق من روح الضلال، أي معرفة الأنبياء الصادقين وتمييزهم عن الأنبياء الكذبة، فقال: " بهذا تعرفون روح الله: كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله، وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي، والآن هو في العالم" (يوحنا (١) ٤/ ٢ -٦). ورسولنا هو روح الحق بدليل قول يوحنا، لأنه يعترف بالمسيح أنه رسول من عند الله، وأنه جسد، وأنه من الله كما سائر الناس هم من الله، أي أن الله خلقهم. وبولس هو روح الضلال الذي يعتبر المسيح إلهاً، وهو الموجود في العالم حينذاك.

ثانيها: أن الخطاب في إنجيل يوحنا توجه للحواريين كما في قوله " يعلمكم " و " أرسله إليكم" .... وعليه فينبغي أن يوجد البارقليط في زمنهم.

ويمنع رحمة الله الهندي هذا الفهم، بل المراد: النصارى بعدهم. وأقامهم المسيح مقام التلاميذ، وهو أمر معهود في أسفار العهد الجديد، فقد جاء في متى في خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع " أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة، وآتياً على سحاب السماء" (متى ٢٦/ ٦٤)، وقد مات المخاطبون وفنوا، ولم يروه آتياً على سحاب السماء، ومثله قول المسيح: "وقال له: الحق الحق أقول لكم: من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان" (يوحنا ١/ ٥١).

ثالثها: أن البارقليط لا يراه العالم ولا يعرفه، فقد جاء "لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم" بينما محمدﷺ قد عرفه الناس ورأوه.

ويرد العلامة رحمة الله الهندي بأن هذا ليس بشيء، لأن روح القدس عندهم هو الله أو روح الله، والعالم يعرف ربه أكثر من معرفته بمحمد، فهي لا تصدق على تأويلهم بحال، ويرى رحمة الله الهندي أن المقصود بالنص هو أن العالم لا يعرف هذا النبي المعرفة الحقيقية (أي نبوته) أما أنتم واليهود فتعرفونه، لإخبار المسيح والأنبياء لكم عنه، وأما سائر الناس فهم كما قال المسيح: " لأنهم مبصرين لا يبصرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون " (متى ١٣/ ١٣). [١] وليس المقصود بقوله: " لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم" ليس مقصوداً

---

(١) -انظر: محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، ص (٢١٦)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (١٣١ -١٣٢)، البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، أحمد حجازي السقا (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٤، ٢٨٠) ، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ١٣٠-١٣٤، إظهار الحق للهندي ، ٤/١١٨٥وما بعدها.

(٢) -يذكر موريس بوكاي ومحمد عبد الحليم أبو السعد أن النص في المخطوطة السينائية ليس فيه ذكر الروح القدس. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (١٣٢)، دراسة نقدية تحليلية لإنجيل مرقس، محمد عبد الحليم أبو السعد، ص (١٩٢).

الرؤية البصرية والمعرفة الحسية، بل المعرفة الإيمانية. ومثله ما جاء في يوحنا "أجاب يسوع: لستم تعرفونني أنا، ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً" (يوحنا ٨/ ١٩) ومثله في الأناجيل كثير. يقول متى هنري في تفسيره لإنجيل يوحنا: إن كلمة (يرى) في النص اليوناني لا تفيد رؤية العين، بل رؤية البصيرة، ولربما كان عدم معرفتهم بالمنتظر القادم أنه غريب وليس من اليهود " وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو" (يوحنا ٧/ ٢٧).

رابعها: جاء في وصف البارقليط أنه " مقيم عندكم وثابت فيكم"، فدل حسب رأي القس فندر على وجوده مع الحواريين، ولا يصدق هذا على محمدﷺ ويرى رحمة الله الهندي أن النص في تراجم وطبعات أخرى: " مستقر معكم وسيكون فيكم"، وفي غيرها: " ماكث معكم ويكون فيكم "، والمعنى في ذلك كله الاستقبال وليس الآنية، بمعنى أنه سيقيم عندكم أو يمكث عندكم. ذلك أن النص دل على ذلك، فهو يقول بعدم وجوده بينهم ذلك الوقت " قد قلت لكم قبل أن يكون، حتى متى إذا كان تؤمنوا "، و "إن لم أنطلق لم يأتكم البارقليط ". وهو ما يقوله النصارى حين يؤمنون أن مجيئه وحلوله كان في يوم الخمسين، ومثله أخبر حزقيال عن خروج يأجوج ومأجوج بصيغة الحاضر، وهم لم يخرجوا بعد فقال: "ها هو قد جاء وصار، يقول الرب: هذا هو اليوم الذي قلت عنه " (حزقيال ٣٩/ ٨)، ومثله في (يوحنا ٥/ ٢٥).

خامسها: جاء في كتاب الأعمال: " وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الأب الذي سمعتموه مني، لأن يوحنا عمد الماء، وأما أنتم فستتعمدون بالروح القدس، ليس بعد هذه الأيام بكثير " (أعمال ١/ ٤ –٥)، ويرى بافندر أن هذا " يدل على أن بارقليط هو الروح النازل يوم الدار، لأن المراد بموعد الآب هو بارقليط ".

وفي رده يبين رحمة الله الهندي أن ما جاء في الأعمال وعد آخر لا علاقة له بالبارقليط الذي تحدث عنه يوحنا فحسب، فقد وعدوا بمجيء الروح القدس في وعد آخر، وتحقق الموعود بما ذكر لوقا في الأعمال. أما ما ذكره يوحنا عن مجيء البارقليط فلا صلة له بهذه المسألة [١].

كما اعترض آخرون من النصارى على انطباق هذه النبوءة على نبينا ﷺ لأن البارقليط سيرسله المسيح " ولكن إن ذهبت أرسله إليكم"، ومثله في قوله: "المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب"، في حين أن محمداً رسول الله لا المسيح، وقد تغافل القائل عن قول الله: "المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب"، فهو رسول الآب، ونسبة الإرسال إلى المسيح مجازية غير حقيقية، ومثلها في قوله: " قال لها ملاك الرب: تكثيراً أكثر نسلك، فلا يعد من الكثرة " (التكوين ١٦/ ١٠)، والمكثِّر المبارك لنسل هاجر وغيرها هو الله، وليس ملاكه، لكن لما كان الملاك هو واسطة الإخبار نسب الفعل إلى نفسه.

ونحو هذا الصنيع وقع في سفر الملوك، فقد نسب النبي إيليا إلى نفسه العقوبة الإلهية التي سيعاقب بها الربُ الملكَ اخآب، فقد " قال اخآب لاياليا: هل وجدتني يا عدوي؟ فقال: قد وجدتك، لأنك قد بعتَ نفسك لعمل الشر في عيني الرب، هانذا أجلب عليك شراً، وأبيد نسلك، وأقطع لاخآب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق في إسرائيل" (الملوك (١) ٢١/ ٢٠ – ٢١)، فقد نسب النبي إيليا إلى نفسه ما هو في الحقيقة صنيع الله وعقوبته، وهذه النسبة غير حقيقية، ولكنه استحقها لكونه المبلِغ عن الله لهذه العقوبة[٢]. ومثله سواء بسواء ما قاله المسيح في نبوءته عن البارقليط، وبذلك فإننا

(١) –انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٤/ ١١٩٨ – ١٢٠٤).
(٢) –د .منقذ السقار ، هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم ص ١٣٩

نرى في البارقليط النبوءة التي ذكرها القرآن الكريم {وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} (الصف: ٦).

عاشراً: مكة (بكّة) القبلة الجديدة وبيت الله الجديد !!

قدم ابراهيم ابنه ذبيحا لله وذلك على جبل الرب والبركة لإبراهيم في ذريته محفوظة له بعد أن قام بالاستسلام لأمر الله، وهمّ بذبح ابنه الوحيد، وفي التوراة المتداولة أن بين اسماعيل واسحق أربعة عشرة سنة (التكوين ١٦/ ١٦، ٢١/ ٥)، وحرّف أهل الكتاب اسم الذبيح، وحرفوا اسم المكان المعظم الذي جرت فيه أحداث القصة، فسمتها التوراة السامرية " الأرض المرشدة ". فيما سمته التوراة العبرانية " المريّا "، ولعله تحريف لكلمة " المروة "، وهو اسم لجبل يقع داخل المسجد الحرام في مكة المكرمة، أي في المكان الذي درج فيه إسماعيل. لكن اتفق النصان العبري والسامري على تسمية ذلك الموضع "جبل الله "، ولم يكن هذا الاسم مستخدماً لبقعة معينة حينذاك، لذا اختلف اليهود في تحديد مكانه اختلافاً بيناً، فقال السامريون: هو جبل جرزيم. وقال العبرانيون: بل هو جبل أورشليم الذي بني عليه الهيكل بعد القصة بعدة قرون، يقول الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس: "يظن الأكثرون أن موضع الهيكل هو نفس الموضع الذي فيه أمر إبراهيم أن يستعد لتقديم إسحاق، غير أن التقليد السامري يقول: إن موضع الذبح لإسحاق كان على جبل جرزيم".[١] ويقول محققو نسخة الرهبانية اليسوعية: " ويبقى مكان الذبيحة مجهولاً".

والحق أن المكان معروف غير مجهول، لأن قصة الذبح جرت في الأرض المرشدة، وهي أرض العبادة، وهي مكة أو بلاد فاران، واختلافهم دليل على صحة ذلك، واتفاقهم على اسم المكان بجبل الرب صحيح، لكنهم اختلفوا في تحديده لرجمهم بالظنون، وقد ربطوه بتسميات ظهرت بعد الحادثة بقرون عدة، وتجاهلوا البيت المعظم الذي بني في تلك البقعة حينذاك، ويسمى بيت الله، كما سمي الجبل الذي في تلك البقعة جبل الله.

وبقي هذا الاختلاف من أهم الاختلافات التي تفرق السامريين عن العبرانيين، وقد أدرك المسيح هذا الخلاف، فذات مرة دخلت عليه امرأة سامرية، وسألته عن المكان الحقيقي المعد للعبادة، فأفصح لها المسيح أن المكان ليس جبل جرزيم السامري، ولا جبل عيبال العبراني الذي بني عليه الهيكل، " قالت له المرأة: يا سيد أرى أنك نبي، آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني، إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب، ولكن تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له "(يوحنا ٤/٢٤) فمن هم الساجدون الحقيقيون الذين يسجدون في غير قبلة السامريين والعبرانيين، إنهم الأمة الجديدة التي تولد بعد حين، إذ لم تدّع أمّة قداسة قِبلتها سوى أمة الإسلام التي يفد إليها ملايين المسلمين سنوياً في مكة المكرمة، وقوله عن ساعة قدوم الساجدين الحقيقيين " ولكن تأتي ساعة وهي الآن"، يفيد اقترابها لا حلولها، كما في متى: " أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة، وآتياً على سحاب السماء" (متى ٢٦/ ٦٤)، وقد مات المخاطبون وفنوا، ولم يروه آتياً على سحاب السماء.

وقد قال ميخا النبي عن مكة والبيت الحرام وعن إتيان الناس للحج عند جبل عرفات: " يكون في آخر الأيام بيت الرب مبنيّاً على قلل الجبال، وفي أرفع رؤوس العوالي يأتين جميع الأمم، ويقولون: تعالوا نطلع إلى جبل الرب" (ميخا ٤/ ١-٢).

---

(١) -قاموس الكتاب المقدس، ص (٨٥٩)

كما رمز النبي إشعيا لمكة في نص آخر بالعاقر، وتحدث عن الجموع الكثيرة التي تأتي إليها، ويعدها بالأمان والبركة والعز، فقال: " ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد، أشيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض، لأن بني المستوحشة (بني اسماعيل) أكثر من بني ذات البعل(القدس)، قال الرب: أوسعي مكان خيمتك ولتبسط شقق مساكنك، لا تمسكي، أطيلي أطنابك وشددي أوتادك، لأنك تمتدين إلى اليمين والى اليسار، ويرث نسلك أمماً، ويعمر مدناً خربة، لا تخافي لأنك لا تخزين، ولا تخجلي لأنك لا تستحين، فإنك تنسين خزي صباك، وعار ترملك لا تذكرينه بعد ..قال راحمك الرب: أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية، هانذا أبني بالإثمد حجارتك، وبالياقوت الأزرق أؤسسك، وأجعل شرفك ياقوتاً، وأبوابك حجارة بهرمانية، وكل تخومك حجارة كريمة، وكل بنيك تلاميذ الرب، وسلام بنيك كثيراً، بالبر تثبتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين، وعن الارتعاب فلا يدنو منك، ها إنهم يجتمعون اجتماعاً ليس من عندي، من اجتمع عليك فإليك يسقط، " (إشعيا ٥٤/ ١ -١٧).

في النص مقارنة لمكة بأورشليم، فسمى مكة بالعاقر لأنها لم تلد قبل محمد النبي، ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس، لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي، وقد يشكل هنا أن نبوة إسماعيل كانت في مكة، فلا تسمى حينذاك عاقراً، لكن المراد منه مقارنة نسبية مع أنبياء أورشليم. وقوله: "لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل"، يقصد فيه أن زوارها أو أبناءها أكثر من زوار أورشليم التي يسميها ذات البعل، ولفظة بنو المستوحشة يراد منها ذرية إسماعيل، الذي وصفته التوراة بأنه وحشي "وإنه يكون إنساناً وحشياً، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه" (التكوين ١٦/ ١١ - ١٢).

كما تحدثت المزامير عن مدينة المسيح المخلص، المدينة المباركة التي فيها بيت الله، والتي تتضاعف فيها الحسنات، فالعمل فيها يعدل الألوف في سواها، وقد سماها باسمها (بكة)، فجاء فيها: " طوبى للساكنين في بيتك أبداً يسبحونك، سلاه، طوبى لأناس عزهم بك، طرق بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكاء [1] يصيرونه ينبوعاً، أيضاً ببركات يغطون مورة، يذهبون من قوة إلى قوة، يرون قدام الله في صهيون، يا رب إله الجنود اسمع صلاتي وأصغ يا إله يعقوب، سلاه، يا مجننا انظر يا الله والتفت إلى وجه مسيحك، لأن يوماً واحداً في ديارك خير من ألف، اخترت الوقوف على العتبة في بيت إلهي على السكن في خيام الأشرار " (المزمور ٨٤/ ٤ - ١٠).

جاء ذكر" مكة" في المزامير في النسخ الإنجليزية المتداولة الآن، في هذا النص: " طوبى لأناس أنت قوتهم المتلهفون لأتباع طرقك المفضية إلى بيتك المقدس. وإذ يعبرون في وادي البكاء الجاف، يجعلونه ينابيع ماء، ويغمرهم المطر الخريفي بالبركات. ينمون من قوة إلى قوة، إذ يمثل كل واحد أمام الله في صهيون. يا رب إله الجنود اسمع صلاتي، واصغ إلي يا إله يعقوب. " (المزامير ٨٤: ٦-٨)، والترجمة الكاثوليكية تقول: "يجتازون في وادي البكاء، فيجعلونه ينابيع ماء لأن المشترع (محمد)يغمرهم ببركاته، فينطلقون من قوة إلى قوة، إلى أن يتجلى لهم إله الآلهة في صهيون" (٧-٨)

كلمة" البكاء" في النص السابق هي في الأصل العبري: "بكه =Bacah " وكما هو ظاهر في التراجم الشهيرة كالترجمة الفرنسية" لويس سوجن" Segond Louis "والترجمة الإنجليزية" الترجمة العالمية الجديدة ": "فإن الحرف الأول قد كتب كبيرا Capital مما يدل على أن هذه الكلمة هي اسم لمكان لا مجرد معنى للفظ. ونحن نعلم أن هذا الاسم

---

(١) -سبق التنبيه إلى أن استخدام كلمة البكاء بدلاً من (بكة) تحريف وترجمة لما لا يترجم، فالأسماء لا تترجم، لذا حافظت على صورة الكلمة بعض الترجمات العالمية، ففي الترجمة الإنجليزية: " through the valley of Ba'ca make it a well" فذكر أن اسم الوادي (بكة)، ومثله في الترجمة الفرنسية "" Lorsqu'ils traversent la vallée de Baca.

هو أحد اسماء مكة المكرمة، وقد جاء هذا الاسم بهذا المعنى في [آل عمران ٩٦] : { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين}.

الترجمة الانجليزية للعدد الخامس من الفصل ٨٤ من نفس المزمور في" الترجمة العالمية الحديثة "تذكر صراحة كلمة "Pilgrimage =حج". وقد اعترف بتعلق النص بالحج المعلقون على الترجمة الانجليزية" ترجمة الملك جيمس Bible King James version Study وغيرهم ممن علق على المزمور.

وفي الحديث هنا عن الحج إشارة ودلالة لا تخطئهما العين على بعثة نبي صاحب أهميّة خاصة، وأن مكان بعثته سيكون قبلة للناس، علما إن كلمة [١] "حج" العربية مرادفة تماما من حيث المعنى والأصل لنفس الكلمة في العبرية واللغات السامية الأخرى. فكلمة "حجاج =Hagag" العبرية هي نفس كلمة" حجاج" العربية =Hajaj والفرق الوحيد لفظ الحرف الثالث من الأبجدية السامية وهو الجيم التي يلفظها العرب جيما. وشريعة موسى تستخدم هذه الكلمة بعينها وهي Hagag أو" حجاج haghagh " وذلك عند ما تأمر بأداء طقوس الاحتفال وتعني الكلمة الدوران حول بناء أو مذبح أو حجر، بخطوات مهرولة منتظمة ومدربة، تأدية لطقس أو عيد ديني يحتوي على السرور والإنشاد"!!

أما النبع فهو بئر زمزم، النبع الفياض، علما وأنه قد جاء في هامش الترجمة الفرنسية La Bible de Semeur أن" العديد من المخطوطات العبرية والترجمة اليونانية القديمة جاء فيها: " هو (الله) أنشأ واحة". ونسبة الفعل إلى الله تؤكد تمحور الحديث هنا عن زمزم الذي نبع بمعجزة إلهية. أما حديث الترجمة الكاثوليكية عن" المشترع" ففيه إشارة بارزة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، إذ أنه صاحب شريعة جديدة أفاضت بركاتها على المسلمين باعتراف مشاهير القانونيين في زماننا، حتى تحولوا من" قوة إلى قوة".

ويدلل عبد الحق فديارتي (محمد في الاسفار العالمية) على هذا المعنى الواضح لهذه البشارة بقوله إن:

١-بيت الرب المذكور في هذا النص لا يمكن أن يكون غير الذي في مكة، لأن الهيكل المقدس لم يكن قد بني بعد في القدس، وما كان هناك بيت آخر مقدس غير بيت إبراهيم في مكة أثناء كتابة هذا المزمور.

٢-كان داود النبي عليه السلام ينتظر الأمر الإلهي بغزو فلسطين، وحتى ينال مراده من الله، ذهب إلى مكة حيث البيت الذي بناه إبراهيم الأب عليه السلام ليدعو الله هناك.

يقول د. سامي عامري[٢]: وقد جاء في مخطوطات لفظ" صهيون" بعد" طرقك المفضية إلى بيتك المقدس" في العدد الخامس، وكما رأيت فإن هذه الكلمة غير موجودة في الترجمة الكاثوليكية، كما أنها غير موجودة في" النص العبري الساكن للنص الماسوريي للعهد القديم" كما هو مذكور في هامش المزمور ٦٨: ٥ في التعليق الشهير على الكتاب المقدس=The Harper Collins Study Bible =

يقول للدكتور عبد المجيد الزنداني[٣] تعليقا على الكلمة الانجليزية" صهيون": " المجتمع الديني الذي خلص لعبادة الله، أو المدينة الفاضلة كما جاء ذلك في قاموس = Dictionary Webster s Seventh New Collegiate وعند الرجوع إلى أصل الكلمة (Zion) العبري تبين أنها مقتبسة من جذر يعني: جفاف، صحراوي، أجرد (أرض أو مكان) جاف، مكان مقفر ، برية. وهذا كله يشير إلى أن المكان المعبر عنه بكلمه Zion في النص الإنجليزي هو برية مكة الجرداء المقفرة الجافة.

---

(١) -كما يقول عبد الأحد داود القس السابق في كتابه" محمد (صلى الله عليه وسلم) في الكتاب المقدس"

(٢) -د. سامي عامري محمد في الكتب المقدسة ص (٢٨٠ -٣٠٢) مركز التنوير الاسلامي للخدمات المعرفية ط١/٢٠٠٦ ويشير د.سامي لمراجعة كتاب The Exhautive Concordance of the Bible= New Strongs = لجيمس سترنغ Strong James والمعجم العبري ص ٩٩ فقره: رقم ٦٧٢٣.

(٣) -بحث بعنوان" البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية السابقة: "

ويقول فديارتي في كتابه: " محمد في الأسفار العالمية" إن" صهيون" هي بالعبرية" سييون" وهي من الجذر العبري" سياه" الذي يعني" جاف" وتعني صهيون" جاف" و" أرض صحراوية". بالإضافة إلى ذلك يوجد صهيونان (أورشليم عتيقة وأورشليم جديدة) [١].

وقد كتبت لفظة أورشليم في (نشيد الإنشاد ٥: ١٦) في النص العبري في صيغة المثنى، وجاء في رسالة بولس إلى العبرانيين ١٢: ٢٢: " ولكنكم قد اقتربتم إلى جبل صهيون، إلى مدينة الله الحي، أورشليم السماوية. بل تقدمتم إلى حفلة يجتمع فيها عدد لا يحصى من الملائكة"، وجاء في رسالة بولس إلى غلاطية ٤: ٢٥: " ولفظة هاجر تطلق على جبل سيناء، في بلاد العرب، وتمثل أورشليم الحالية، فإنها مع بنيها في العبودية"، فهناك إذن أورشليمان وصهيونان.

وقد قال سهيل التغلبي المسيحي [٢]: بعد أن ذكر أن صهيون الأولى تقع في القدس: " نسخ السيد المسيح هذا المفهوم وأصبح" صهيون" يعني ملكوت السموات التي بشر بها وبأورشليم الجديدة التي ستكون في اليوم الأخير مأوى للصالحين والأبرار. ".. وهذا القول يظهر وجود أورشليمين، وإن كان قد ظهر خطؤه في معرفة أورشليم الثانية.

ومما يظهر أن صهيون المذكورة هي مكة، ما جاء في سفر إشعياء (٥٢: ١-٢): " استيقظي، استيقظي تسربلي بقوتك يا صهيون، ارتدي ثياب بهائك يا أورشليم، المدينة المقدسة، إذ لن يدخلك بعد اليوم أغلف ولا نجس انفضي عنك الغبار، وانهضي واجلسي وفكي عن عنقك الأغلال يا أورشليم، أيتها المسبية ابنة صهيون. " الأوصاف المذكورة في هذه النبوءة لا تنطبق إلا على مكة:

ثياب البهاء التي تحلت بها مكة هي التحلل من الأوثان والأزلام، في حين أن القدس كانت معمورة بأوثان الرومان قبل المسيح وبعده بقرون. مكة هي التي لا يدخلها غير المختونين، أما القدس فقد عاش فيها أيام المسيح وإلى اليوم الكثير من الذين لا يختتنون كالنصارى والوثنيين، وقد اضطر النصارى إلى الزعم أن كلمة" الأغلف" لها دلالة مجازية! قال تعالى: { إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} [سورة التوبة ٢٨] . أما القدس فأخلاط الناس يرتعون فيها، وقد فرخ فيها الكثير من المارقين عن الحق، أديانهم الباطلة (شهود يهوه، القاديانية، البهائية ...) .

كما تنطبق الصفات الواردة حول" صهيون" في سفر إشعياء (٢: ٣) على مكة لا على القدس: " ويحدث في آخر الأيام، أن جبل هيكل الرب يصبح أسمى من كل الجبال، ويعلو فوق كل التلال، فتتوافد إليه جميع الأمم. ": الحديث عن آخر الزمان، وظهور أمر مكة واجتماع الناس حولها جاء بعد علو شأن القدس.

أمر مكة هو الذي ازداد علوا وقدرا بتوسيع دائرة أرض الإسلام، في حين أن القدس قد انتقلت ملكيتها بين أمم عدة على مدى القرون التي بيننا وبين النبي إشعياء. تحج شعوب كثيرة إلى مكة كل سنة. ويعتبر الحج أحد خمس قواعد بني عليها الإسلام. أما القدس فلا" يحج" إليها إلا عدد قليل من النصارى، كما أن أمر الحج في النصرانية غير ذي بال عند القوم ولا يذكر أبدا في أصول الملة عند الكنيسة.

من مكة خرجت" شريعة الأمم". وما خرجت من القدس شريعة يسوعية وإنما تم فيها، طبق اعتقاد الكنيسة، إلغاء الشريعة لأنها كما قال بولس" معيبة"!!!!كلمة الرب (القرآن والسنة النبوية) قد أعلنت من مكة حيث نزلت الكثير من السور القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. أما أناجيل النصارى ورسائل بولس، فلم تكتب في القدس كما هو معلوم.

وجاء في (إشعياء ٣٣/١٩-٢٤): " لن ترى الشعب الشرس فيما بعد، الذي يتكلم لغة أجنبية لا تفهمها التفت إلى صهيون مدينة أعيادنا، فتكتحل عيناك بمرأى أورشليم، المسكن المطمئن والخيمة الثابتة التي لا تقلع أوتادها إلى الأبد

(١) -محمد في الاسفار العالمية ص ١٣١-١٣٣ عن د. سامي عامري.
(٢) -سهيل التغلبي، " الصهيونية تحرف الإنجيل" هامش ص ٦

ولا تنقطع حبالها هناك يكون الرب لنا بجلاله مكان أنهار وجداول واسعة لا يبحر فيها قارب ذو مجداف، ولا تمخر فيها سفينة عظيمة، لأن الرب هو قاضينا، الرب هو مشترعنا، هو ملكنا وسيخلصنا لقد استرخت حبال أشرعتك، فلا يمكنها شد قاعدة السارية أو نشر الشراع، حينئذ نقسم الغنائم الوفيرة. حتى العرج ينهبون السلب. لن يقول مقيم في صهيون إنه مريض، وينزع الرب إثم الشعب الساكن فيها"

صهيون هنا أيضا هي مكة لا القدس، ومن الأدلة على ذلك: بيت الرب يقع في أرض قوم يتكلمون لغة أجنبية، أي غير لغة بني إسرائيل. وقد كان عرب مكة يتكلمون اللغة العربية، أما بيت المقدس فقد كانت أهم أماكن تواجد بني إسرائيل زمن المسيح ابن مريم عليهما السلام. صهيون الموعودة ستكون مقر أمان إلى يوم القيامة، ومعلوم بالاضطرار حرمة الحرب في مكة، كما أنها لم تعرف الحروب عامة، في حين أن القدس قد حلت بها الكثير من الحروب والمجازر. ظهرت الشريعة الإلهية والحكم والسلطان الأرضي لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم في مكة، وما عرفت القدس سلطة المسيح عليها. ظهرت الغنائم الوفيرة لأهل مكة مع ظهور الإسلام، أما القدس فقد عرفت صلب المسيح كما هو معتقد النصارى.

وجاء في (إشعياء٤٠/ ٩-١١): " اصعدي إلى جبل شامخ يا حاملة البشارة إلى صهيون. ارفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم. اهتفي ولا تجزعي. قولي لمدن يهوذا: ها إلهكم قادم بقدرته وقوته، وذراعه تحكم له، وها أجرته معه ومكافآته أمامه يرعى قطيعه كراع، ويجمع الحملان بذراعه، وفي أحضانه يحملها ويقود المرضعات برفق".

ويظهر من هذه النبوءة أن المنتظر في صهيون: سيكون قويا جلدا، لا ضعيفا مهينا. سيكون صاحب ذراع قوي يقيم بها دولة سيرى ثمرة جهادة في أيام حياته. سيرعى بنفسه قومه وسيكون قائدهم الحقيقي. سيكون رفيقا بالضعفاء، خافضا لجناح الرحمة لمن هم تحت أمره. هذه الصفات دقيقة في وصف محمد صلى الله عليه وسلم القائد الحاكم في أمة الإسلام الذي أقام دولة الإسلام في حياته ... ولا تنطبق على يسوع الكنيسة الذي عاش مستضعفا ومات مقتولا!!

وجاء في (إشعياء٦٠/١-٧): " قومي استضيئي، فإن نورك قد جاء، ومجد الرب أشرق عليك ها إن الظلمة تغمر الأرض، والليل الدامس يكتنف الشعوب، ولكن الرب يشرق عليك، ويتجلى مجده حولك، فتقبل الأمم إلى نورك، وتتوافد الملوك إلى إشراق ضيائك. تأملي حولك وانظري، فها هم جميعا قد اجتمعوا، وأتوا إليك. يجيء أبناؤك من مكان بعيد، وتحمل بناتك على الأذرع. عندئذ تنظرين وتتهللين، وتطغى الإثارة على قلبك، وتمتلئين فرحا لأن ثروات البحر تتحول إليك وغنى الأمم يتدفق عليك. تكتظ أرضك بكثرة الإبل. من أرض مديان وعيفة تغشاك بكران، تتقاطر إليك من شبا محملة بالذهب واللبان وتذيع تسبيح الرب. جميع قطعان قيدار تجتمع إليك، وكباش نبايوت تخدمك، تقدم قرابين مقبولة على مذبحي، وأمجد بيتي البهي. "

إن دواب ابنا إسماعيل: قيدار، ونبايوت (البكر) سفر التكوين ٢٥: ١٣) ، لم تجتمع لغير بيت الله الكعبة. وما اجتمعت قط لهيكل أورشليم ولم تتدفق ثروات الأرض وخيرات الأمم البعيدة على أرض غير أرض مكة. أما أورشليم فقد انهكتها الغزوات والحروب وانفض عنها أهلها، بالإضافة إلى أنها" الأرض المقدسة لبني إسرائيل" لا" الأمم"!

وجاء في سفر إشعياء (٦٠: ١٠-٢٢): " تنفتح أبوابك دائما ولا توصد ليل نهار، ليحمل إليك الناس ثروة الأمم، وفي موكب يساق إليك ملوكهم، لأن الأمة والمملكة التي لا تخضع لك تهلك، وهذه الشعوب تتعرض للخراب الساحق. يأتي إليك مجد لبنان بسروه وسنديانه وشربينه لتزيين موضع مقدسي، فاجعل موطيء قدمي مجيدا. ويقبل إليك أبناء مضايقيك خاضعين، وكل الذين احتقروك ينحنون عند قدميك، يدعونك مدينة الرب، صهيون قدوس إسرائيل.

وبعد أن كنت مهجورة ممقوتة لا يعبر بك أحد، سأجعلك بهية إلى الأبد، وفرح كل الأجيال، وتشربين لبن الأمم، وترضعين ثدي الملوك، وتدركين أني أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب.

ولا يسمع بظلم في أرضك، ولا بدمار أو خراب داخل تخومك، وتدعين أسوارك خلاصا، وبواباتك تسابيح. ولا تعود الشمس نورا لك في النهار ولا يشرق ضوء القمر عليك لأن الرب يكون نورك الأبدي، وإلهك يكون مجدك. ولا تغرب شمسك من بعد، ولا يتضاءل قمرك، لأن الرب يكون نورك الأبدي، وتنقضي أيام مناحتك. ويكون شعبك جميعا أبرارا ويرثون الأرض إلى الأبد، فهم غصن غرسي وعمل يدي لأتمجد. ويضحى أقلهم ألفا، وأصغرهم أمة قوية، أنا الرب أسرع في تحقيق ذلك في حينه. "

إنها صفات متزاحمة متلاحمة، تؤكد أن البشارة المذكورة متعلقة بمكة كما يقول المسلمون، لا أورشليم القدس كما يزعم النصارى، إذ مكة هي التي فتحت أبوابها ليل نهار ولم توصد حتى أن الواحد ليس بإمكانه أن يطوف بالكعبة لوحده ولو كان في آخر الليل لكثرة الطائفين ولاستمرار هذه العبادة منذ قرون طويلة، أما القدس فقد تعرضت إلى نكبات شديدة وتوقفت العبادة في الهيكل مرات عديدة.

مكة (الكعبة) هي التي أقبلت إليها الشعوب حاملة الخيرات، وهي التي خضع لها الملوك والجبابرة، وكان نور العدل والخير ملازما لها ولأهلها. أما القدس فلم تتوجه لها الأمم قبل ظهور النصرانية، وما توجه لها النصارى توجه المسلمين إلى مكة، بل الحج عند القوم شعيرة مهملة وعبادة منسية.

ومكة (الكعبة) هي التي أشرق عليها نور التوحيد وامتنع على ظلمة الشرك أن تقتحم حصونها إلى الأبد وأنزل الله سبحانه قوله: {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا} [سورة الإسراء ٨١] ، أما القدس فقد عربد فيها المشركون قرونا طوالا قبل المسيح وبعده..

الوادي الذي اسمه" بكه" هو في الأصل العبري =Bacah =بكه" و" الهاء" في آخر الكلمة دليل على أن هذا المكان معروف بين الناس نازلوا هذا الوادي سيسبّحون ربهم دائما وهذا يصح بالحرف على سكان مكة أهل التعبد والتبتل وكذلك الحجاج والمعتمرون المتوافدون على مكة للتعبد والتبتل، الظهور أمام الرب في صهيون دليل على الحج السنوي في مكة. وليسمح لي معربو الكتاب المقدس أن أسألهم أن" يتقوا الله!! " وأن يسايروا التراجم الانجليزية الحديثة فيما ذهبت إليه من وضع كلمة" بكة" بدل" وادي البكاء!!!؟؟! ".

إن مكة التي استفاض الخبر أنه سوف يخرج منها الله سبحانه، نبي آخر الزمان، والتي أصبحت قبلة آخر الأمم، ومركز المتعبدين في الأرض، وهي التي تهوى إليها الأفئدة ... هي أيضا مركز العالم، وهذه حقيقة علمية تم اكتشافها أخيرا[1] .

اعتراض النصارى: يقول سام شمعون:" يدعي بدوي أن المزامير(٨٤: ٦) يشير إلى حج المسلمين إلى الكعبة في مكة، ذلك أن كلمة" البكا" هي اسم آخر لمكة في القرآن. مرة أخرى تظهر القراءة الدقيقة للنص الاعتقاد الخاطئ من

---

(١) –يروي العالم المصري الدكتور حسين كمال الدين قصة الاكتشاف الغريب فيذكر: " أنه بدأ البحث وكان هدفه مختلفا تماما، حيث كان يجري بحثا ليعد وسيلة تساعد كل شخص في أي مكان من العالم، على معرفة وتحديد مكان القبلة، لأنه شعر في رحلاته العديدة للخارج أن هذه هي مشكلة كل مسلم عند ما يكون في مكان ليست فيه مساجد تحدد مكان القبلة، أو يكون في بلاد غريبة، كما يحدث لمئات الآلاف من طلاب البعثات في الخارج، لذلك فكر حسين كمال الدين في عمل خريطة جديدة للكرة الأرضية لتحديد اتجاهات القبلة عليها. وبعد أن وضع الخطوط الأولى في البحث التمهيدي لإعداد هذه الخريطة، ورسم عليها القارات الخمس، ظهر له فجأة هذا الاكتشاف الذي أثار دهشته.. فقد وجد العالم المصري أن موقع مكة المكرمة في وسط العالم. وأمسك بيده" برجلا" وضع طرفه على مدينة مكة، ومر بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات فتأكد له أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة توزيعا منتظما.. ووجد مكة– في هذه الحالة– هي مركز الأرض اليابسة. " (محمد كامل عبد الصمد الإعجاز العلمي في الإسلام– السنة ص ١٤٣– ١٤٤) يذكر العلماء أن الأرض شأنها شأن أي كوكب أخر تتبادل مع الكواكب والنجوم قوة جذب تصدر من باطنها.. وهذا الباطن يتركز في مركز لها يصدر منه ما يمكن أن نسميه إشعاعا، وقد اكتشف عالم أمريكي في علم الطوبوغرافيا أن مركز تلاقي الإشعاعات الكونية هو مكة وهو عالم غير مسلم! (المصدر السابق ص ١٤٥)

وراء هذا التفكير. فالعهد القديم يذكر أن" البكا" لا تقع في الجزيرة العربية بل شمالي إسرائيل وهذا ما ذكر في النص: " يذهبون من قوة إلى قوة يرون قدام الله في صهيون. " (المزامير ٨٤: ٧) ،كما أن كلمة" البكا" تعني باللغة العربية" الانتحاب" أو" شجر البلسم"، لذلك أمكن ترجمة" وادي البكا" على أنه وادي أشجر البلسم ونجد إشارة إلى هكذا مكان في وادي الرفائيين وهي منطقة تبعد حوالي ٣- ٤ أميال جنوبي غربي أورشليم: " ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا أيضا وانتشروا في وادي الرفائيين، فسأل داود من الرب فقال: " لا تصعد، بل در من ورائهم وهلم عليهم مقابل أشجار البكا" (صموئيل الثاني ٥: ٢٢- ٢٣)، وبما أن وادي البكا لا يبعد أكثر من خمسة أميال عن أورشليم، أمكن لكاتب المزامير أن يذكر حجاجا يجتازون وادي البكا للمثول أمام الله في صهيون (الأعداد ٥- ٧)، والقارئ مدعو لمراجعة المسافة بين أورشليم ومكة ومن ثمة استعمال المنطق ليستنتج احتمال دعوة كاتب المزامير للحجاج الإسرائيليين أن يعرجوا على مكة في طريقهم إلى موسم الحج السنوي في جبل صهيون.[١]

الرد من وجوه: هيكل أورشليم لم يكن موجودا في زمن داود صاحب المزمور لم يرد في الكتاب المقدس أن وادي البكا يقع شمالي إسرائيل ذكرنا من قبل معنى" صهيون". لماذا قام شمعون بترجمة كلمة" بكه" رغم أن المترجمين الأوائل لم يفعلوا ذلك!!! فكلمة" بكة" دليل على اسم المكان، والحجة هي ورود أمر شبيه بهذه الصورة في الكتاب المقدس، فقد جاء ذكر، Valley of Ajalon ,Valley of Eshcol ,Valley of Zared ,Valley of Gerar والمقابل العربي لهذه الأسماء في تراجم الكتاب المقدس: وادي جرار، وادي زرد، وادي اشكول، وادي ايلون.. وكما ترى لم تترجم أسماء هذه الأماكن، ولكن انقلب الأمر مع" بكة" التي تحولت على أيدي أقطاب الكنيسة العربية إلى" بكاء"!!

هل أمر ضبط مكان" وادي البكا" عند النصارى، بهذه البساطة التي ذكرها" شمعون"؟!اقرأ ما جاء في طائفة من أشهر التعليقات على الكتاب المقدس حول المزمور السابق الذكر: جاء في كتاب: The Harper Collins Study Bible، وهو تعليق على الترجمة الشهيرة:Standard Version The New Revised ، وقد وصفه الباحث بيل مويرز بقوله: " ليس بإمكان أي أحد يبحث عن معنى في الكتاب المقدس دون أن يكون هذا الكتاب بين يديه"، في الصفحة ٨٧٩ تعليقا على المزمور ٨٤: ٦: " وإذ يعبرون في وادي البكاء الجاف": " وادي بكة" مجهول، لكن يظهر أنها منطقة قاحلة في الطريق إلى أورشليم"

جاء في كتاب The New John Gill Exposition of the Entire Bible أن بعض المعلقين قالوا أن أرض" بكه" تقع في المكان المذكور في صموئيل (٢)٥: ٢٢-٢٣ وقال آخرون أنها تقع في المكان المذكور في سفر القضاة ٢: ١-٥ (!!)ثم أضاف هذا التعليق الموسع أن هذا المكان هو كل منطقة يمر عبرها الحجاج إلى صهيون!!!

في التعليق المسمى "The International Bible Commentary جاء عنوان هذا المزمور هكذا: " شهادة حاج"، ورغم أن المشرف على هذا التعليق هو الاعتذاري الشهير ف. ف. بروس صاحب الجدليات الباطلة في الانتصار للكتاب المقدس فإننا لم نقرأ أي تعليق على كلمة" بكه"!! .. ولو أنها كانت تعني ذاك المكان في فلسطين لما تردد في ذكره!

ترجمة: The New American Bible، وهي الترجمة الانجليزية الرسمية للكنيسة الكاثوليكية وقد طبعت معها دراسة مقتضبة هامة (مقدمات وشروح) جاء في التعليق في الهامش: " وادي بكة: عبرية غامضة، ربما هو وادي في الطريق إلى أورشليم"، جاء في كتاب C. H .Spurgeons The Treasury of David : " من الراجح

---

(١) -جاء الاعتراض في كتاب" ردا على د. جمال بدوي" محمد في الكتاب المقدس Muhammad in te Bible =Answering Dr Jamal Badawi: ""للمنصر المعروف والذي يعد أوقح الطاعنين في الإسلام في أمريكا، " سام شمعون =Sam Shamoun ="ص ١٣ (من الترجمة العربية)

أنه توجد هنا إشارة إلى مكان، وهو مكان لن يفك (مبني للمجهول) لغزه (أي: لن يعرف) ، لكن المعنى العام واضح بصورة كافية. هناك فرحة الحجاج ... "

التعليق المسمى The International Study Bible وهو تعليق على أكثر التراجم الإنجليزية استعمالا في الولايات المتحدة (كما تدل على ذلك الاحصائيات) ... وقد لاقى هذا التعليق المرافق رواجا ونجاحا، جاء في الصفحة ٨٦٨ تعليقا على ورود كلمة" بكة": " المكان مجهول وربما هو رمزي"!!

خلاصة هذه النقطة:

١ –اعترفت هذه الشروح التي يشرف عليها أئمة الدراسات الكتابية في الغرب، على اختلاف مشاربهم المعرفية وتوجهاتهم، أن" بكة" هي أرض لا يعلمون مكانها ولو أنها كانت المكان الذي أشار إليه النصراني المعترض لقطعوا بذلك!

٢ –غاية ما استطاعة المعلقون هو الاجتهاد الفضفاض الذي يظهر أنه لا حجة لهم في اجتهادهم.

٣ –أوردت جل التراجم الإنجليزية الحديثة هذه الكلمة على صورتها الأولى دون ترجمتها.

٤ –اعترفت الشروح السابقة بأن نص المزمور متعلق بالحج.

٥ –لا يملك النصارى تفسيرا يقينيا لورود كلمة" بكه" في نص المزمور.

الحقائق الثلاث الأخيرة تقوي حجة المسلمين الذي يقررون أنهم يعرفون أين تقع" بكة" (دون حاجة إلى ترجمة معناها)، كما أنهم قادرون على ربط هذا المكان بالحج و" النبع الفياض" (بئر زمزم) .

جاء في معجم الكتاب المقدس The Treasury of Scripture Knowledge: حول عبارة" بكا" في هذا المزمور: " بكا: ربما هي شجيرة عريضة، ما زال العرب يسمونها بهذا الاسم (انظر سفر صموئيل الثاني ٥: ٢٣) .." وجاء في التعليق الكلاسيكي (في ١٠ مجلدات) على العهد القديم ل س. ف.كيل Keil.F.C وفرنز دليتزش Franz Delitzsch والمسمى: Commentary on the Old Testament والذي نشرت أول طبعاته سنة ١٨٦٦ م وأظهر فيه مؤلفاه معرفة باللغة العربية بالإضافة إلى اتقانهما للغة العبرية، أن كلمة" بكا" هي اسم لشجرة معروفة في" مكة"، وهي باللغة العربية شجرة" التوت".

ونقول: شجرة البكا كانت معروفة ومشهورة في مكة العربية، وهي اسم لواد في فلسطين لم يستطع أساطين الدراسات الكتابية في الغرب القطع بمكانه!! كلام يستعصي على الائتلاف بل الحق أن مكة العربية كانت تسمى" بكه" بسبب كثرة شجر التوت فيها ولا داعي للقفز من بلاد العرب إلى بلاد الشام فرارا من بشارة النبي داود عليه السلام بحج المسلمين إلى مكة[١]!

وزعم شمعون أن رحلة الحج إلى أورشليم غير معقولة لبعد المسافة، والرد هو أن سليمان بن داود عليهما السلام (وداود هو صاحب المزمور) كان عليه أن يمر على مكة لبلوغ أرض شيبا ليتزوج ملكتها، وقد حكم عليه السلام منطقة شيبا، وهذا يدل على صلة قومه بمكة والعبور إليها وعلى أن الرحلة ليست شاقة على الصورة التي يصورها شمعون، كما أن المشقة لا تمنع من أداء الفرائض وإظهار الإذعان لأمر الله، ثم، إن داود نفسه قد انتقل إلى بلاد العرب (صحراء فاران) بعد موت صموئيل كما هو مذكور في سفر صموئيل الأول ٢٥: ٢ (كما هو في كثير من التراجم العربية والإنجليزية..)

وقال القس لبيب ميخائيل في كتابه" أعظم من جميع الأنبياء" معترضا على المسلمين: " وقالوا أنّ الكلمات المذكورة في المزمور الرابع والثمانين والتي تقول" طوبى لأناس عزهم بك طرق بيتك في قلوبهم عابرين في وادى البكاء يصيرونه ينبوعا .. يذهبون من قوة إلى قوة. يرون قدام الله في صهيون" (مزمور ٨٤: ٥–٧) هي نبوة عن محمد، لأن وادي البكاء ممكن

(١) –نقلا عن د . سامي عامري محمد في الكتب المقدسة (٢٨٠–٣٠٠) مرجع سابق

أن ينطق وادي" بكة"، و" بكة" هي" مكة"، ومحمد جاء من مكة، ولست أرى نفسي بحاجة للتعليق على هذا التفسير، لأنه يحمل في كلماته ما يخرجه عن أي قواعد للتفسير"

الرد: هي عثرة ليس لها مقيل، مشعرة بخلو صاحبها من التحصيل، إن واقع الحال هو أن الأصل العبري يقول" بكه"، لا أن" وادي البكاء" يمكن أن ينطق" بكه" بزعم المسلمين كما يدعي هذا المفلس من حلية العلم والأدب، فمن المحرّف؟!! إن بقية النصارى يقرّرون أن" العبارة العبرية تنطق كما تنطق كلمة" بكه"، ويزعمون أن" بكاء" تفسير للكلمة العبرية، والقس" غير اللبيب" يجعل ترجمته العربية المحرفة، الأصل المتحاكم إليه.

الخلاصة: سماها النص العبري بكة، وتقرأ: (بعيمق هبكا)، أي وادي بكة، والنص كما جاء في ترجمة الكاثوليك كالتالي: "يجتازون في وادي البكاء، فيجعلونه ينابيع ماء، لأن المشترع يغمرهم ببركاته، فينطلقون من قوة إلى قوة، إلى أن يتجلى لهم إله الآلهة في صهيون" (٨٣/ ٧ –٨). وهذا الاسم العظيم (بكة) هو اسم بلد محمد الاسم الذي سمّى القرآن الكريم به مكة البلد الحرام {إن أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين} [آل عمران: ٩٦]، وبركة هذا البيت بما جعل الله لقاطنيه وقاصديه من مضاعفة الحسنات عنده، فصلاة فيه كما أخبر نبينا تعدل أكثر من ألف صلاة فيما سواه (١)، فصدق فيه قول المزمور: "لأن يوماً واحداً في ديارك خير من ألف"، لكن علماء الكتاب المقدس لن يسلموا لنا بأن المقصود من وادي البكاء وادي مكة (بكة)، فقد أحالوا وادي البكاء من اسم جغرافي إلى فكرة تجريدية، لن تستطيع أن تعرف لها مكاناً على الخارطة، فقالوا: "أما وادي البكاء المذكور في المزمور ٨٤: ٦ فربما يكون بقعة جغرافية. ولكن يرجح أنه مجرد فكرة تحمل معنى عميقاً، فإن أولئك الذين لهم اختبار طيب مع الرب، بنعمته تتحول المآسي في حياتهم إلى أفراح". (٢) لكن ترجمات عربية وعالمية تخلصت من اسم (بكا ووادي البكاء)، واستبدلتها بكلمة (وادي البلسان) كما في الرهبانية اليسوعية وغيرها، وقد اعتمدوا في ذلك على مخطوطات قديمة.

يقول الآباء اليسوعيون في نسخة الرهبانية اليسوعية تعليقاً على استخدامهم لفظة "وادي البلسان": "في الترجمات القديمة وفي بعض المخطوطات "وادي البكاء"، ولفظ الكلمتين واحد". (٣) ورغم ما يكتنف تغيير اسم (بكا) إلى (البكاء والبلسان) من تحريف متعمد؛ فإن ثمة دلالة واضحة في كلا الكلمتين (البكاء والبلسان) التي درجت النسخ والتراجم على استعمالهما، فكلاهما يدل على مكة المكرمة دون غيرها. فإن بكّا سميت كذلك نسبة إلى شجر البلسان الذي يخرج منه مادة صمغية تشبه دموع البكاء، وهو شجر ينبت – حسب اعتراف علماء الكتاب المقدس – في مكة المكرمة، يقول كُتاب قاموس الكتاب المقدس عن أشجار البكا: "ربما يقصد به شجر البلسم أو ما يشبهه. ففي بلاد العرب، قرب مكة شجر بهذا الاسم، يشبه شجر البلسم أو البلسان، وله عصارة بيضاء لاسعة، وقد سمى شجر البُكا، نسبة لن تلك الأشجار تنضج بالصموغ، أو نسبة لقطرات الندى التي تقع عليه". (٤)

وتزيدنا دائرة المعارف الكتابية يقيناً بأن وادي البلسان هو وادي مكة المكرمة، فتقول: " أما البلسان الحقيقي الذي ذكره المؤلفون القدماء فهو "بلسم مكة " الذي مازالت مصر تستورده من شبه الجزيرة العربية –كما كان الأمر قديماً –، وهو عصير الشجرة المعروفة علمياً باسم (Balsamo Dendron Apabatsmum) والتي تنمو في جنوب الجزيرة العربية وفي الحبشة، وهي شجرة صغيرة غير منتظمة الشكل، قشرتها ضاربة إلى الصفرة في لون شجرة الدلب" ..(٥)

١–وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: ((صلاة في مسجدي هذا [أي مسجد المدينة المنورة] خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام)). رواه البخاري ح (١١٩٠)، ومسلم ح (١٣٩٥).

(٢) –انظر: دائرة المعارف الكتابية (٢/ ١٨٧)، وقاموس الكتاب المقدس، ص (٥٠٧).

(٣) –وفي قاموس الكتاب المقدس ورد أن "كلمة Baca (بكا) قد تعني بلسان". انظر: ص (١٧٨).

(٤) –قاموس الكتاب المقدس، ص (٥٠٧)، وانظر دائرة المعارف الكتابية (٢/ ١٨٧).

(٥) –دائرة المعارف الكتابية (٢/ ١٨٩) والفقرة كلها عن د. منقذ السقار هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم ص ٤٨ وما بعدها.

ملخص ما سبق

وهكذا رأينا الأنبياء يبشرون بالنبي الخاتم نبياً تلو نبي، "كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا، ومن ذلك الوقت يبشر بملكوت الله"، يبشرون بالنبي الذي أخذ عليهم الميثاق بأن يؤمنوا به إن جاء وينصرونه، وقام الأنبياء ببلاغ أقوامهم خبر هذا النبي " جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبؤوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي "، وحفظ لنا الكتاب المقدس رغم ما تعرض له من التحريف بعضاً من هذه البشارات عن هذا النبي العظيم، فهو النبي الذي يحقق وعد الله لإبراهيم وزوجه هاجر بالبركة في ابنها إسماعيل، وهو الذي " له خضوع شعوب ".

وهو النبي الذي ماثل موسى، وبشّر به قومه بني إسرائيل، وهو النبي الذي تتلألأ نبوته عند جبال فاران، ويكون من أمة تقوم بأمر ملكوت الله الذي سينزع من بني إسرائيل " ويعطى لأمة تعمل أثماره "، وذلك لأنهم " أغاروني بغير إله، وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم ".

وهكذا انتقلت النبوة والاصطفاء إلى أمة العرب المرذولة " الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية"، وذكرت النصوص الإنجيلية والتوراتية اسم النبي وصفاته، فقد سماه المسيح " البارقليط "، وهو بمعنى أحمد، ووعدت به الملائكة "وعلى الأرض الإسلام، وللناس أحمد" (حسب ترجمة الأب السابق عبد الأحد داود).

وتحدثت الأسفار عن أرض هجرته "وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر من بلاد العرب"، ودعت لنصرته ومواساته "يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه"، كما تحدثت النصوص عن انتصار هذا النبي، وأن دينه سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، فهو الذي "يده على كل واحد"، و "له يكون خضوع شعوب "، و "شعوب تحتك يسقطون"، و "الرب عن يمينك يحطم في يوم رجزه ملوكاً يدين بين الأمم ملأ جثثاً، أرضاً واسعة سحق رؤوسها "، "لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض".

وهو الغضب الآتي على الكفرة، ومنهم اليهود الذين حذرهم يوحنا المعمدان فقال: "يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي ... سيعمدكم بالروح القدس ونار، الذي رفشه في يده، وسينقي بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ"، و " من سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه".

وذكرت النبوات أيضاً بأن هذا القادم هو آخر الأنبياء، وأن سلطانه أي شريعته يمتد إلى الأبد "يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً ... وهي تثبت إلى الأبد "، و " أما قديسو العلي فيأخذون المملكة، ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الآبدين " وكما قال النبي: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)، وفي رواية مسلم: (حتى تقوم الساعة) ([1])، فهو الذي بشر المسيح بدولته حين قال: "فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد ".

ورسالة هذا النبي ليست خاصة بالعرب أو بني إسرائيل، بل هي عامة لكل الشعوب، فهو "يبكت العالم على خطية"، و "له يكون خضوع شعوب"، وهو "مشتهى كل الأمم"، الذي "لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة".

وهو النبي الأمي الذي حدثت عنه التوراة والإنجيل "وأجعل كلامي في فمه"، وهو الأمي المبشر بالنبوة في غار حراء "أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة فيقال له: اقرأ. فيقول، لا أعرف الكتابة"، وهو الذي لا ينطق عن الهوى " لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به "، ويبلغ كامل دعوته، فلا يحول الموت أو القتل دون بلاغه "فيكلمهم بكل ما أوصيه به"، وهو صاحب شريعة مثل موسى "تنتظر الجزائر شريعته"، وشريعته مؤيدة بالقوة "وعن يمينه نار شريعة لهم

---

(١) –رواه البخاري ح (٦٨٨١)، ومسلم ح (١٩٢٣).

"، وشريعته شاملة لكل مناحي الحياة فهو "يعلمكم كل شيء"، و "ويرشدكم إلى جميع الحق"، وبمجيئه تنسخ شريعة موسى "لا يزول قضيب من يهوذا، ومشترع من بين رجليه، حتى يأتي".

وهو أعظم العالمين، ولئن كانت النساء لم تلد مثل يوحنا المعمدان، فإن " الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه "، وقد صدق كريستوفر ديفيز أستاذ علم مقارنة الأديان حين قال: " إن كل هذه النبوءات بمعانيها وأوصافها لا تنطبق إلا على النبي العربي محمد"(١)

خاتم النّبيين في كتب الهندوس والمجوس.

أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل لكل أُمَّة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، فينذرهم ويُبَشِّرهم؛ ليُقيم عليهم الحُجَّة يوم القيامة، وأن كل هذه الأمم والشعوب قد عَرَفت وتَيَقَّنَتْ عن طريق أنبيائهم ورسُلهم بمجيء خاتم الأنبياء والرُّسل محمد، وهو ما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ} (الشعراء: ١٩٦)، أي: "إِنَّ ذِكْرَ محمدٍ في كتب الأولين"(٢).

وجاء في كتاب" محمد في الأسفار العالمية" ما ترجمه الأستاذ عبد الحق من كتب الزرادشتية بشأن محمد وأصحابه" إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون هم أتباع النبي رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ (الأماكن المقدسة للزرادشتية) وإن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات" (٣).

ورغم أنه لم يَعُدْ من كتب السابقين إلاَّ بقايا قليلة جدًّا، لكنها لم تَخْلُ من ذِكْرِ لمحمد ورسالته؛ ففي كتاب (الساماڤيدا)، أحد الكُتب المقدَّسَة لدى البراهمة، نجد النصَّ التالي: "أحمد تلقَّى الشريعة من ربِّه، وهي مملوءة بالحكمة، وقد قُبست من النور كما يقبس من الشمس"(٤)، كما جاء في الكتب الزرادشتية بشارات تشير إلى المكان الذي تظهر فيه دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك: " إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام.." (٥)، وجاء في كتاب أدروافيدم (أدهروويدم) وهو كتاب مقدس عند الهندوس(٦) " أيها الناس اسمعوا وعوا يبعث المحمد بين أظهر الناس ..وعظمته تحمد حتى في الجنة ويجعلها خاضعة له وهو المحامد" (محمد) .

---

(١) –هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم، د. منقذ السقار، خاتمة الكتاب.

(٢) –القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣٨/١٣.

(٣) –للأستاذ عبد الحق فديارتي " محمد في الأسفار العالمية" ص ٤٧.

(٤) –الساماڤيدا الجزء الثاني من الفقرة ٦–٨، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ٣٥١/١.

(٥) –من كتاب" محمد في الأسفار العالمية" للأستاذ عبد الحق. ، يذهب بعض الباحثين إلى أن الزرادشتية هي المجوسية، وقيل بل المجوسية أسبق من الزرادشتية، وإنما زرادشت أظهر المجوسية وحددها في القرن الثالث الميلادي. قال النبي صلى الله عليه وسلم" سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب" أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤٣٥ ومالك في الموطأ ١/ ٢٧٨ ومن طريقه الشافعي في مسنده ١/ ٢٠٩ ومن طريق الشافعي البيهقي في السنن الكبرى، وكذلك رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٤٣٧ قال في مجمع الزوائد ٦/ ١٣: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم، وقال في تلخيص الحبير: ورواه (يعني الحديث) ابن أبي عاصم في كتاب النكاح بسند حسن. انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/ ١١٤٩.

(٦) –الجزء العشرين، الفصل ١٢٧، الفقرة ١– ٣، والفقرة ٧٠، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ٣٥٢/١.

وجاء في كتاب هندوسي آخر هو بفوشيا برانم" بهوشى بهوشى برانم" [١]: " في ذلك الحين يبعث أجنبي مع أصحابه باسم محامد الملقب بأستاذ العالم (أي رسول العالم)[٢] ، والملك يطهره بالخمس المطهرات" ،وفي قوله الخمس المطهرات إشارة إلى الصلوات الخمس التي يتطهر بها المسلم من ذنوبه كل يوم [٣] .

ذكر بعض شعائر دينه صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة: فقد جاء في كتاب بفوشيا برانم[٤] وصف لأصحاب محمد ﷺ بأنهم: " هم الذين يختتنون، ولا يربون القزع(حلق جزء من الشعر)، ويربون اللحى، وهم مجاهدون وينادون الناس للدعاء (ينادون للصلاة لأن الصلاة دعاء) بصوت عال، ويأكلون أكثر الحيوانات إلا الخنزير، ولا يستعملون الدرباء (نبات يخرج به الهنود الدم من جسم الإنسان ويعدون هذا العمل تطهيرا من الخطايا) للتطهير بل الشهداء هم المتطهرون، ويسمون "بمسلي" (يسمون بالمسلمين) بسبب أنهم يقاتلون من يلبس الحق بالباطل، ودينهم هذا يخرج منا وأنا الخالق"[٥]

بشارة رسول الله في الترتيلات الهندوسية: ولقد قامت مجموعة من الباحثين الهندوس بتحليل العديد من الترتيلات الهندوسية المختلفة، والتي جاءت في كتب الويدات وغيرها من الكتب الهندوسية، فوجدوا أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم قد ذُكِرَ صراحة، كما ذُكِرَتْ بعضُ محاور رسالته ودعوته؛ لذلك كَتَبَ عددٌ من علماء الهندوس وغيرهم بحوثًا حول هذه الشخصية الفذَّة التي وجدوها في كتبهم، وهي شخصية (نراشنس)، فدرسوها في ضوء ما ذُكِرَ لها من الخصائص والأوصاف.

وكلمة (نراشنس) كلمة سنسكريتية[٦] مكوَّنة من مقطعين؛ أوَّلهما: (نر)، ومعناه الإنسان، وهذا غريب بالنسبة للويدات التي قلَّمَا تختار من البشر أحدًا لمدحه والثناء عليه. والمقطع الثاني: (أشنس)، ومعناه اللغوي: مَنْ يُحْمَدُ ويُثْنَى عليه بكثرة، فهو مرادف لمحمد مرادفة تامَّة، ومع ذلك فلم تَكْتَفِ الويدات بذكر اسم هذا النبي العظيم فقط، بل "وفَّرَتْ لنا تفاصيل أخرى تقطع سبل النقاش والجدال، وتَبُتَّ البشارة بتَّة لا مجال فيها لأدنى احتمال، وأكبر مجموعة لهذه التفاصيل هي ما ورد في (أتهرو ويد) في بابه العشرين، والفصل السابع والعشرين بعد المائة، بينما يوجد بعض البيانات في مناتر[٧] أخرى جاءت متفرِّقَة في بقية الويدات والكتب المقدسة عند الهندوس"[٨]

وقد تُرجمت هذه المناتر على الصورة التالية:

١-"اسمعوا أيها الناس باحترام، إن نراشنس يُحمد ويثنى عليه، ونحن نعصم ذلك المهاجر -أو حامل لواء الأمن-بين ستين ألف عدوٍّ وتسعين عدوًّا"، ويُلاحَظُ في هذه الترتيلة عدَّة أشياء؛

أوَّلها: أن هذه الشخصية تتمتَّع بحمد الناس وثنائهم عليها، وتمتاز على الآخرين بذلك، ولا يُعرف في تاريخ البشر إنسانٌ حمده الناس وأثْنَوْا عليه بمعشار ما أثْنَوْا على محمدٍ وحمدوه، فهو الذي امتاز بهذه الخصيصة بين الأنبياء.

وثانيها: أن هذه الترتيلة ذَكَرَتْ كلمة المهاجر، ومن المعلوم أن محمدًا قد هاجر من مكة إلى المدينة، وموضوع الهجرة من أبرز الأحداث التي مرَّ بها الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) -الجزء ٣، الفصل ٣، العبارة ٥ وما بعدها.

(٢) -وفي إنجيل يوحنا أن المسيح أخبر بهذه الصفة، بقوله: "إن أركون العالم سيأتي". وأركون تعني السيد والعظيم. انظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح ٣٠٤/٥، ٣٠٥.

(٣) -أخوذ من كتاب التيارات الخفية في الديانات الهندية القديمة لمؤلفه" تى محمد". أما النصوص الفارسية والهندية في نهاية هذا المبحث فمأخوذة من كتاب: Muhammad in Parsi, Hindoo and Buddhist Scriptures, A.H.Vidyarthi and U.Ali. وعن عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ٣٥٢/١.

(٤) -الجزء ٣-فصل ٣، وهو من كتب الهندوس كما سبق ذلك.

(٥) -الجزء الثالث الفصل الثالث عبارات ٢٧، ٢٨، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ٣٥٢/١.

(٦) -السنسكريتية: هي لغة قديمة في الهند، وهي لغة طقوسية للهندوسية، والبوذية، والجانية.

(٧) -مناتر: هي التراتيل الهندوسية في كتب الويدات.

(٨) -صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ٣٦٦/١.

وثالثها: وهو الغريب في هذه الترتيلة أنها أحصت أعداء النبي؛ فهم ستين ألفًا وتسعين عدوًّا، وقد تتبع بعض الباحثين عدد من عادى النبي في حياته فوجدهم يقربون من هذا العدد، والله أعلم ([1]).

٢-"يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتي عشرة امرأة، ويحصل له من علو المنزلة، وسرعة المركب أنه يمسُّ السماء ثم ينزل". وهذه الترتيلة واضحة جدًّا في دلالتها على نُبُوَّةِ محمد صلى الله عليه وسلم والبشارة به؛ إذ ما من وصف ذُكِرَ فيها إلاَّ وقد تَحَقَّقَ في رسول الله فنراشنس(محمد) كان دائم الركوب للإبل في أسفاره وغزواته، وهذا مشهور متواتر في كتب السيرة، وهو دليل على أن ميلاد هذا النبي لا يكون إلاَّ في منطقة صحراوية؛ لأن الإبل لا توجد إلاَّ في مثل هذه المناطق، وقد وُلِدَ رسول الله بالفعل في مكة، وهي أرض صحراوية قاحلة تُحِيطُ بها صحاري شاسعة. ثم إن النبي لا يكون عزبًا بل يتزَوَّج من اثنتي عشرة امرأة، ولم يَثْبُتْ ذلك لأحد غيره من الأنبياء والمرسلين؛ فقد تَزَوَّج رسول الله من اثنتي عشرة امرأة على رأي من قالوا بأن السيدة ريحانة بنت زيد كانت زوجة من زوجاته[٢]

وقد تحدَّث ويد بركاش أبادهياي -وهو أحد كبار علماء اللغة السنسكرتية في شبة القارة الهندية-عن ترجمة الفقرة الثانية من هذه البشارة في كتابة: "نراشنس أور أنتم رشي" ص١٤، وهي أن أزواجه تكون اثنتي عشرة امرأة، وهو لم يُشِرْ إلى احتمال أيِّ معنًى آخر سواه [٣]، وهناك إشارة أيضًا إلى رحلة الإسراء والمعراج التي ركب فيه النبي صلى الله عليه وسلم البراق[٤] الذي كان من سرعته أنه يضع قدمه عند منتهى طرفه، وأنه علا به إلى السماء، ثم نزل إلى الأرض[٥].

ويتَّضِحُ من هاتين الترتيلتين -وغيرها من بقيَّة التراتيل المتعلِّقَة بنراشنس- مدى تطابقهما مع أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك فهو دليل صريح من كتب الهندوس على التبشير بنُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يَتَوَانَى بعض علماء الهندوس في ذكر ذلك صراحة، ولا يَستغرب أحد أن كُتب الهندوس قد جاءت بأوصاف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فاعتقادُنا بأنها مجموعة من الكتب الموضوعة بأيدٍ بشريَّة قد يكون صحيحًا إن كان المقصود بذلك التحريف والتبديل؛ لأنه لا يُعقل أن تتنزل الرسالات في منطقة الشرق الأوسط، وتُنسى بقية المعمورة بساكنيها من الوحي والرسالات لأنه يتعارض مع رحمته وعدله، وقد أخبرنا القرآن الكريم أن كل أُمَّةٍ من الناس لم تَخْلُ من نذير أو بشير، : {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤]. ومن ثَمَّ يمكن التعويل على هذه الترتيلات الهندوسية -استنادًا لما ذكره علماؤها- في التصديق والبشارة بنُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) -صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/٣٧١.

(٢) -انظر: السابق نفسه ١/٣٧١، ٣٧٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/٦٠٥، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/٣٨٨.

(٣) -نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/٣٧٤.

(٤) -البُراق: دابة يركبها الأنبياء عليهم السلام. وقيل: البراق فرس جبريل، وهي الدابة التي ركبها الرسول في الإسراء والمعراج؛ سُمِّي بذلك لنصوع لونه وشدَّة بريقه، وقيل: لسرعة حركته شبَّهه فيها بالبَرْق. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة برق ١٠/١٤.

(٥) -انظر: صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/٣٧٥.

الفصل السادس

الدليل السادس يدور حول وأخلاقه الفاضلة وآدابه وسجاياه وفطرته الحميدة

فأخلاق النبي وأحواله الشخصية الدالة على كماله ونبوته إذ لم تجتمع فيه هذه الصفات وتلك الكمالات إلا من تأديب الله له.

البحث الأول: أثر أخلاقه وتفردها في الدلالة على صدق نبوته.

البحث الثاني: لنأخذ خلق الصدق من أخلاقه الذي عرف به

البحث الثالث: ترفّعه على فرص التعالي وترك استغلالها.

البحث الرابع: انتفاء الغرض الشخصي

البحث الخامس حلم النبي وزهده وبساطته وتواضعه وتعبده:

البحث الأول: أثر أخلاقه وتفردها في الدلالة على صدق نبوته.

من الأدلة الواضحة على صدق النبي وصحة نبوته أخلاقه الفاضلة، وآدابه الكاملة وسجاياه الرشيدة، وفطرته الحميدة وهذه الأخلاق العظيمة شهد له فيها أعداؤه وغيرهم وكان متحليا بها قبل الإسلام وبعده "ودلائل صدق النبي الصادق وكذب المتنبي الكذاب كثيرة جداً، فإن من ادعى النبوة وكان صادقاً فهو من أفضل خلق الله وأكملهم في العلم والدين، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه، وإن كان المدعي للنبوة كاذباً فهو من أكفر خلق الله وشرهم، ولما كان هذا من أعلى الدرجات وهذا من أسفل الدركات كان بينهما من الفروق والدلائل والبراهين التي تدل على صدق أحدها وكذب الآخر ما يظهر لكل من عرف حالهما، ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة". (١)

وبهذا النوع من الدلائل آمن الرهط الأول من المسلمين بالنبي قبل أن تظهر على يديه معجزاته الباهرة، فأول أهل الأرض إيماناً به خديجة رضي الله عنها استدلت لنبوة زوجها بما عرفته من كمال أخلاقه وعظيمِ خلاله فقالت له وقد رجع إليها من غار حراء خائفاً: (كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق). (٢) فجعلت من كريم خِلاله دليلاً على صدقه ونبوته، يكفيه في ذلك وصفُ ربهِ له {وإنك لعلى خلق عظيم} وكثير من العقلاء رأوا في أخلاقه دليلاً كافياً على نبوته، من هؤلاء هرقل ملك الروم الذي بلغه أمرُ النبي، فسأل أبا سفيان–وهو يومئذ على الكفر–عن صفاته وأخلاقه فلما استبانت له نبوته قال: "فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه".

فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة، لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة، حسبك الآن منها أمثلة يسيرة، إذا ما تأملتها صورت لك إنسانا من الطهر ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغي إلى غلو المادحين له تواضع هو حلية العظماء،

---

(١) –الجواب الصحيح (١/ ١٢٧ –١٢٩).

(٢) –رواه البخاري ح (٤)، ومسلم ح (١٦٠).

وصراحة نادرة في الزعماء، وتثبت قلما تجده عند العلماء، فأنى من مثله الختل أو التزوير، أو الغرور أو التغرير؟ حاشا لله! أما هذه الأمثلة اليسيرة التي تتصل بالجانب الخلقي منه عند رأينا الاكتفاء بها في الدلالة على نبوته:

١-يتبرأ من علم الغيب: جلست جويريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال: «لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين[١]» ومصداقه في كتاب الله تعالى: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب} [الأنعام :٦٠]، {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير} [الأعراف:١٨٨]

٢-لا يظهر خلاف ما يبطن: كان عبد الله بن أبي السرح أحد النفر الذين استثناهم النبي من الأمان يوم الفتح؛ لفرط إيذائهم للمسلمين وصدهم عن الإسلام، فلما جاء إلى النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان رضي الله عنه ثلاثا. ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما ندري ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك! فقال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين[٢]».

٣-خوفه من التقوّل على الله: عن عائشة قالت: دعي رسول الله إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[٣] وقال البخاري: باب ما كان النبي يسأل مما لم ينزل عليه الوحي، فيقول لا أدري أو لم يجب، حتى ينزل عليه الوحي ولم يقل برأي ولا بقياس لقوله تعالى: {بما أراك الله }، وقال ابن مسعود: سئل النبي عن الروح فسكت حتى نزلت الآية [٤] قوله: (باب ما كان النبي يسأل مما لم ينزل عليه الوحي، فيقول لا أدري أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي) أي كان له إذا سئل عن الشيء الذي لم يوح إليه فيه حالان: إما أن يقول لا أدري، وإما أن يسكت حتى يأتيه بيان ذلك بالوحي، والمراد بالوحي أعم من المتعبد بتلاوته ومن غيره، وقد وردت فيه عدة أحاديث منها حديث ابن عمر " جاء رجل إلى النبي فقال: أي البقاع خير؟ قال: «لا أدري» . فأتاه جبريل فسأله فقال: «لا أدري» فقال: «سل ربك» فانتفض جبريل انتفاضة الحديث أخرجه ابن حبان، وحديث أبي هريرة أن رسول الله قال «ما أدري الحدود كفارة لأهلها أم لا» هو عند الدارقطني والحاكم[٥]

٤ -لا يدري ماذا سيكون حظه عند الله: ولما توفي عثمان بن مظعون قالت أم العلاء امرأة من الأنصار: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول ما يفعل بي» قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا رواه البخاري [٦] ومصداقه في كتاب الله تعالى: {قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم} [الأحقاف: ٩] أتراه لو كان حين يتحامى الكذب يتحاماه دهاء وسياسة، خشية أن يكشف الغيب قريبا أو بعيدا عن خلاف ما يقول، ما الذي كان يمنعه أن يتقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجعه فيه، ولا يهاب حكم التاريخ عليه؟ بل منعه الخلق العظيم، وتقدير المسئولية الكبرى أمام حاكم آخر

(١) -البخاري (كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا، رقم:٣٧٧٩).
(٢) -أخرجه أبو داود (كتاب الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، رقم:٢٦٨٣) والنسائي (كتاب تحريم الدم، باب الحكم في المرتد، رقم:٤٠٦٧) وإسناده حسن.
(٣) -أخرجه مسلم (كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على فطرة، رقم:٢٦٦٢).
(٤) -صحيح البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما كان النبي يسأل مما لم ينزل عليه الوحي والحديث الذي في الباب رقمه:٧٣٠٩) .
(٥) -فتح الباري لابن حجر (٣٠٣/١٣).
(٦) -في كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في الأكفان، رقم:١١٨٦.

أعلى من التاريخ وأهله {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين} [الأعراف: ٦، ٧] [١] .

المبحث الثاني: لنأخذ خلق الصدق من أخلاقه الذي عرف به

فعن ابن عباس قال: لما نزلت {وأنذر عشيرتك الأقربين}، خرج رسول الله حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا فقالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام فنزلت: {تبت يدا أبي لهب وتب} [٢] فانظر إلى قولهم: (ما جربنا عليك كذبا) يعني ولا حتى مرة واحدة، قيلت هذه الكلمة أمام هذه الجموع، ولم ينكرها أحد، مع أنه عاشرهم أربعين سنة قبل أن يبعث ومع هذا ما جربوا عليه كذبا قط. بل حتى من لم يعرفه كان إذا رآه علم أنه صادق: عن عبد الله بن سلام (وكان من أحبار يهود) قال: لما قدم رسول الله المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استثبتّ وجه رسول الله عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [٣] .

يقول ابن رواحة: لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخبر [٤] ومن سمع كلامه علم صدقه؛ فقد روي عن ابن عباس: أن ضمادا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي قال: فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد» قال: فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ثلاث مرات قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام قال: فبايعه فقال رسول الله: «وعلى قومك؟» قال: وعلى قومي قال: فبعث رسول الله سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئا. فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة. فقال: ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد) [٥] .

فمن عاشره شهد بصدقه، ومن رآه من أول وهلة شهد بصدقه، ومن سمع كلامه شهد بصدقه، ومن سمع عنه ولم يره شهد بصدقه، وعدوه شهد بصدقه كما شهد أبو جهل فأنزل الله {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} [الأنعام:٣٣]، فهل بعد هذا مطعن فيه؟ ومن المعلوم ضرورة أنه لا يمكن لرجل كاذب، مداوم على الكذب، ويدّعي كل يوم أنه أتاه وحي جديد من الله تعالى، ومع هذا لم يستطع أحد أن يلاحظ ذلك عليه ويعرف حقيقته، فإنه من كان في قلبه خلاف ما يبطن فلا بد أن يزلّ، وأن تعرف حقيقته بفلتات لسانه ولحن قوله، كما قال تعالى عن

---

(١) -النبأ العظيم، ص: ٣٤-٣٦، وقد زدت بعض الزيادات.

(٢) -متفق عليه (البخاري: تفسير القرآن، باب تباب خسران وتتبيب تدمير، رقم:٤٦٨٧، ومسلم: الإيمان، باب قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين (، رقم:٢٠٨)

(٣) -أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٧٢) ، والترمذي (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم:٢٤٨٥) ، وابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل، رقم:١٣٣٤) ، والدارمي (كتاب الصلاة، باب فضل صلاة الليل، رقم:١٤٦٠) ، وإسناده صحيح، صححه الترمذي والألباني (صحيح الترمذي ٣٠٣/٢) وعبد القادر الأرنؤوط (جامع الأصول ٥٥١/٩) وغيرهم.

(٤) -انظر: ديوان عبد الله بن رواحة، (ص:٩٥) جمع ودراسة وتحقيق د. حسن محمد باجودة، القاهرة، مكتبة التراث، ١٩٧٢.

(٥) -أخرجه مسلم (كتاب الجمعة، تخفيف الصلاة والخطبة، رقم:٨٦٨) .

المنافقين: {ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم}[محمد:٣٠] وقد روي عن عثمان بن عفان أنه قال: (ما أسر أحد سريرة إلا أبداها على صفحات وجهه وفلتات لسانه) [١]

واعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين وأرخيت لها عنان الشك وتركتها تفترض أسوأ الفروض في الواقعة الواحدة، والحادثة الفذة من هذه السيرة المكرمة، فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة، لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك، إلا بعد أن تتهم وجدانك وتشك في سلامة عقلك، فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم، فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة تتمثل فيها عقائده، وعوائده، وأخلاقه، ومجرى تفكيره، وأسلوب معيشته، ولا يمنعهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط خيلته (فهم وإظهار ما يراد إخفاؤه) ، وكشف رغوته عن صريحه (كشف الزيف عن الحقيقة) ذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حجب الكتمان، فتقرأ بين السطور وتعرف في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله، تنم على طبعه إذا أحفظ أو أحرج، أو احتاج أو ظفر أو خلا بمن يطمئن إليه.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة **وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فما ظنك بهذه الحياة النبوية، التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها، فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلا في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت فراسته، يرى أخلاقه العالية تلوح في محياه ولو لم يتكلم أو يعمل ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهانا، فمنهم العشير (الزوج أو المعاشر أو الصديق القريب) الذي عرفه بعظمة سيرته ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه كما حصل لعبد الله بن سلام[٢].

ثم إن الكاذب لو استطاع أن يكذب على كل الناس؛ فإنه لن يكذب على نفسه ويصدق كذبه، ومن هذه الأمثلة على هذه الحقيقة قوله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين} [المائدة:٦٧] عن عائشة قالت: كان النبي يحرس حتى نزلت هذه الآية فأخرج رسول الله رأسه من القبة، فقال لهم: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله» [٣] ، فهل هذا فعل كاذب، كيف لكاذب أن يطرد الذين يحرسونه بزعم أن الله سيعصمه، وهو يعلم في قرارة ذاته كذب نفسه والعرب قد رمته عن قوس واحدة تتربص له في كل طريق، ألا يخاف أن يغتال؟!.إن هذا الأمر لا يفعله إلا رجل صادق، يأوي إلى ركن شديد، واثق من أن الذي أرسله سيحميه من كل المخاطر.

ومن لطيف الاستدلال – في هذا المقام – استدلال بعضهم لصدقه بزواجه من أكثر من تسع نسوة؛ ووجه ذلك أن الإنسان الكاذب قد يستطيع أن يتحرز من الناس في حياته الخارجية، بحيث لا يستطيع أحد أن يجد عليه كذبا، لكن هذا لا يحصل للإنسان مع زوجته؛ فإن العادة جرت بسقوط كلفة وانبساط الرجل مع أهله، وزوجته أعلم الناس بحاله، فلما كان احتمال أن هذه الزوجة تتواطأ مع زوجها في إخفاء كذبه؛ إذن للنبي أن يكثر من الأزواج، فالنبي مع كثرة أزواجه لم تنقل إحداهن عن حياته الخاصة إلا كل كمال يمكن أن يوصف به إنسان، فلو أمكن أن تتواطأ واحدة، فإنه لا يمكن أن يتواطأن كلهن على ستر كذبه، وإخفاء عيبه فهذا في غاية من البعد، لاسيما أن بعضهن كصفية بنت حيي بن أخطب، التي تزوجها بعد أن حارب قومها، وقتل منهم الكثير، ثم سباها ثم أعتقها وتزوجها، وأم حبيبة كان متزوجا لها

---

(١) –ذكره ابن تيمية في الجواب الصحيح (٤٨٧/٦) ولم يذكر من خرجه، وكذا ذكره ابن مفلح في الفروع (١٥٣/١) ولم يعزه لمصدر، ولم أجده بعد طول عناء في البحث في مظانه، ولكن المعنى صحيح على كل حال.

(٢) –النبأ العظيم، ص:٣٨.

(٣) –أخرجه الترمذي رقم:٣٠٤٦ وحسنه الألباني صحيح الترمذي رقم:٢٤٤٠.

وهو يحارب أباها أبا سفيان، وجويرية بنت الحارث كانت من سبايا بني المصطلق، ثم أعاناها على مكاتبتها وتزوجها[١] ألم يكن لهؤلاء النسوة أكبر دافع للثأر منه، ولو بتشويه صورته حتى لو بعد موته؟ بلى، ولكن كل هذا لم يحصل فدل على ماذا، فهذا خلق واحد من أخلاقه استدل به على صحة نبوته؛ فما بالك بأخلاقه الأخرى.

لما أراد محمد النبيﷺ الهجرة إلى المدينة خلف على بن أبي طالب ليرد الودائع التي كانت عنده إلى أصحابها! الودائع ... ؟! كيف كان رجال قريش يستودعونه أموالهم وتحفهم، مع ما كان بينه وبينهم؟ لقد كان بين محمد وبين قريش لون من ألوان العداء، قل أن يكون له في شدته مثيل هو يسفه دينهم ويسب آلهتهم ويدعوهم إلى ترك ما ألفوه وما كان عليه آباؤهم وهم يؤذونه في جسده وفي أهله وأصحابه شردوهم إلى الحبشة أولا وإلى يثرب ثانياً وقاطعوهم مقاطعة شاملة وحبسوهم في الشعب ثلاث سنين، فكيف كانوا مع هذا كله يستودعونه أموالهم؟ وكيف كان يحفظها لهم؟ هل يمكن أن يستودع حزب الشعب مثلاً أمواله رجلاً من الحزب الوطني؟ هل يأتمن الحزب الديموقراطي في أميركا مثلاً عضواً في الحزب الجمهوري على وثائقه؟ هل في الدنيا حزبان متنافران متناحران يودع أحدهما الآخر ما يخاف عليه من الضياع؟ هل في تواريخ الأمم كلها رجل واحد، كانت له مثل هذه المنقبة؟ رجل يبقى شريفاً أميناً في سلمه وفي حربه، وفي بغضه وفي حبه ويكون مع أعداء حزبه، مثله في شيعته وصحبه؟ وتكون الأمانة عنده فوق العواطف والمنافع والأغراض، وتكون الثقة به حقيقة ثابتة، يؤمن بها القريب والبعيد، والعدو الصديق؟ إنها حادثة غريبة جداً، تدل على أن محمداً كان في أخلاقه الشخصية طبقة وحده في تاريخ الجنس البشري وإنه لو لم يكن بالوحي أعظم الأنبياء، لكان بهذه الأخلاق أعظم العظماء[٢]. وقد ألفت في أخلاق النبي وشمائله العطرة، وصفاته الزكية، وعاداته الحميدة مؤلفات كثيرة من أشهرها كتاب شمائل النبي للترمذي ولأبي بكر المقري ولأبي العباس المستغفري وكتاب الأنوار في شمائل المختار للبغوي وغيرها كثير

المبحث الثالث: ترفّعه على فرص التعالي وترك استغلالها.

كان هدفه أسمى من ذلك، فقد تحمّل فِي أَدَاء الرسَالَة أَنْوَاع المتاعب والمشاق فَلم يغيره ذلك عَن المنهج الأول وَلم يطْمع فِي مَال أحد وَلَا فِي جاهه بل صَبر على تِلْكَ المشاق والمتاعب وَلم يظْهر فِي عزمه فتور وَلَا فِي اصطباره قصور ثمَّ أَنه لما قهر الأعداء وقويت شوكته ونفذت أوامره فِي الأموال والارواح فلم يتغير عَن منهجه الأول فِي الزّهْد فِي الدُّنْيَا والاقبال على الْآخِرَة وكل من أنصف علم أَن المزور وحاشاه ﷺ من ذكر ذَلِك لَا يكون كَذَلِك فان المزور إِنَّمَا يروج الْكَذِب وَالْبَاطِل على الْحق لكَي يتَمَكَّن من الدُّنْيَا فاذا وجدهَا لم يملك نَفسه عَن الِانْتِفَاع بهَا، فإن مدّعى النبوة إما أن يكون أصدق الناس وإما أن يكون أكذب الناس وحقيقته حتماً سيعلمها الناس فإنه لو كان كذاب سينكشف أمره لا محال فكيف لكاذب ومنافق إن يمثل ويكذب على كل الناس وكيف له أن يستمر في خداعه وكيف له أن يكذب ويمثل حتى على أقرب الناس له كزوجاته على أنّا لم نرى واحدة منهن تكشف كذبه أو تقول عنه كلمه سيئة في حقه سواء في حياته أو بعد مماته بالعكس كانوا ينقلون أخبار عبادته وصدقه وزهده فهذا يدل على تميّزه وصدقه، إنه لم يستغل فرص التعالي وهي كثيرة؟! يقول المستشرق الفرنسي اميل درمنغم[٣]: "ولد لمحمد من ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيرًا ودفنه بيده وبكاه، ووافق يوم موته كسوف الشمس فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمدًا كان من سموّ النفس أن صحح ذلك الاعتقاد فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد.." فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب مدُّعي للنبوة: "فلو كان محمد من مُدعيي النبوة لانتهز هذه الفرصة وقال لقد انكسفت الشمس لوفاة

---

(١) –النبأ العظيم، للعلامة د. محمد عبد الله دراز، ص:٤٩ انظر في ترجمة أمهات المؤمنين: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن، لمحمد علي الصابوني (ص:٣٠٧–٣١٦) وانظر الدلائل الجلية على صدق خير البرية، د. عبد المحسن المطيري ص ٦٩

(٢) –مقالات في كلمات (الجزء الأول) الطبعة السادسة ٢٠٠٧م دار المنارة. ص١١٢ . ١١٣.

(٣) –إميل درمنغم Emile Dermenghem في كتابه "حياة محمد" ص٣١٨

ابي، ولكنه لم يفعل ذلك بل قام بتصحيح اعتقاد الناس وقال أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته"

ومن هذا الباب حديث أنس بن مالك، قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون (يسقون) عليه، وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني، عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل فقال رسول الله لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحية، فمشى النبي نحوه، فقالت الأنصار: يا نبي الله إنه قد صار مثل الكلب الكلب (أصابه داء الكلب) وإنا نخاف عليك صولته فقال: «ليس علي منه بأس » فلما نظر الجمل إلى رسول أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك! ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك. فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر» [١] فلم يستغل النبي سجود الجمل له ليعظم نفسه أو يرفعها بل قال: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر.

كان يكره أن يقوم الناس له: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا" رواه أبو داود ومن يقرأ السيرة النبوية لن يجد سوى التواضع من هذا النبي الكريم ولن يجد أي موقف فيه تكبر أو تفاخر أو تباهي أو تعالي هل هذه طبيعة رجل صادق مخلص ... أم طبيعة رجل مدّعي كما تزعمون ؟

المبحث الرابع: انتفاء الغرض الشخصي

من أدلة صدق النبي عدم إرادة المصلحة الشخصية لنفسه من هذه الدعوة؛ وقد نبه الله تعالى على هذا الدليل بقوله: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} [ص:٨٦]، وهذا على خلاف أصحاب المذاهب والأفكار الباطلة والدجالين والكذابين؛ فإنهم يسعون لتحقيق مصالح شخصية ومآرب ذاتية من جاه ومال ونساء واتباع ومنصب وشهرة وغير ذلك، بينما لا تجد هذا في النبي ، فهو من أفقر الناس؛ حيث كان تمرّ ثلاثة أهلّة ولا يوقد في بيت رسول الله نار وإنما كان طعامه التمر والماء وتأتي الفقيرة إلى بيت رسول الله، فلا تجد عائشة (إلا تمرة واحدة فتعطيها إياها) وأحيانا يأتي الفقير فيرسل النبي إلى بيوته التسعة، فلا يجد فيها شيئا حتى التمرة، ليس في بيوته التسعة إلا الماء [٢] .

ولقد خيره ربه بين أن يكون عبدا رسولا أو ملكا رسولا، فاختار أن يكون عبدا رسولا عن أبي هريرة قال: جلس جبريل إلى النبي فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكا نبيا يجعلك أو عبدا رسولا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد قال: «بل عبدا رسولا» [٣] فكان أزهد الناس في الدنيا وزخرفها، عن عمر بن الخطاب: رأيت النبي وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم (الجلد) حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا (ورق شجر يدبغ به) مصبوبا وعند رأسه أهاب (الجلد ما لم يدبغ) معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» [٤].

---

(١) –أخرجه الإمام أحمد (١٢٢٠٣) وإسناده حسن. (صححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم: ١٩٣٦) وقد تقدم في ذكر آيات النبي.
(٢) –متفق عليه البخاري: كتاب المناقب، رقم:٣٧٩٨، ومسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم:٢٠٥٤).
(٣) –أخرجه الإمام أحمد (٧١٢٠) صححه الألباني في السلسة الصحيحة (٣/٣) رقم: ١٠٠٢.
(٤) –متفق عليه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله (تبتغي مرضات أزواجك) رقم:٤٩١٣، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم:١٤٧٩).

وعن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع النبي على حصير فأثّر في جلده فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئا يقيك منه، فقال رسول الله: «ما لي وللدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» [١] .

وكان لا يحب أن يرفعه الناس فوق قدره عن ابن عباس أنه سمع عمر يقول على المنبر: سمعت النبي يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله» [٢] وعن أنس بن مالك: أن رجلا قال: يا سيدنا وابن سيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل [٣] » وعن عبد الله بن الشخير العامري : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ، فقلنا : أنت سيدنا فقال: «السيد الله تبارك وتعالى» قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طوْلا، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»[٤] وكان لا يحب أن يقوم له أحد إذا دخل: وعن أنس قال: ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلموا من كراهيته لذلك) [٥] .

ولا يحب أحدا أن يقف فوق رأسه كما تفعل الملوك والقياصرة: عن جابر قال: اشتكى رسول الله فصلينا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قياما، فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعودا، فلما سلم قال: «إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلى قائما فصلوا قياما، وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا»[٦]، وهذا أمر عجيب؛ فقد ذكر الفقهاء أن القيام في صلاة الفريضة من أركان الصلاة [٧] ومع هذا لما أحس النبي أن هذا الأمر سوف يؤدي إلى تعظيمه أمرهم بالقعود وعن أبي مسعود قال: أتى النبي رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد (ما قطع طولا وملح وجفف في الهواء والشمس) » [٨] .

بل كان النبي يلزم خاصته وأهله بالزهد أيضا، فقد خير أمهات المؤمنين بين البقاء معه على هذه الحال ولهن الجنة، وبين الدنيا ويطلقهن، فاخترن البقاء معه [٩] قال تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما} [الأحزاب:٢٨-٢٩].

وجاءته فاطمة ابنته تسأله خادما من السبي، فوزعه النبي على الناس، ولم يعط فاطمة منها شيئا، مع شدة حبه لها وشدة حاجتها له: عن عليّ قال: شكت فاطمة إلى النبي ما تلقى في يدها من الرحى، فأتي بسبي فأتته تسأله، فلم تره فأخبرت بذلك عائشة فلما جاء النبي أخبرته، فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم فقال: «على مكانكما» فجاء

---

(١) -أخرج الترمذي رقم:٢٣٧٧ وابن ماجه رقم:٤١٠٩ وإسناده صحيح؛ انظر: صحيح سنن ابن ماجاه للألباني (٣٩٤/٢) رقم ٣٣١٧.
(٢) -أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله (واذكر في الكتاب مريم) رقم:٣٤٤٥).
(٣) -أخرجه الأمام أحمد (رقم:١٢١٤١) وإسناده صحيح. كما في غاية المرام للألباني ص ٩٧ رقم: ١٢٣المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٥.
(٤) -أخرجه أبو داود رقم:٤٨٠٦ وأحمد (١٥٨٧٦) صحيح انظر: وصحيح سنن أبي داود (٩١٢/٣) رقم ٤٠٢١.
(٥) -أخرجه الإمام أحمد (١١٩٣٦) والترمذي رقم:٢٧٥٤) وإسناده صحيح. انظر السلسلة الصحيحة للألباني (٦٩٨/١) رقم ٠٣٥٨
(٦) -أخرجه مسلم (كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم:٤١٣)
(٧) -انظر كتاب الكافي لابن قدامة المقدسي (٢٧٩/١) تحقيق د. عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى،١٩٩٧.
(٨) -أخرجه ابن ماجه (كتاب الأطعمة، باب القديد، رقم:٣٣١٢) وهو صحيح كما قال الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٢/٢) رقم: ٢٦٧٧.
(٩) -الحديث متفق عليه عن عائشة البخاري: رقم:٤٧٨٦، ومسلم: كتاب الطلاق، باب أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا، رقم:١٤٧٥.

فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعا وثلاثين فهو خير لكما من خادم[١]

وفي رواية أبي داود قال عليّ لابن أعبد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله وكانت أحب أهله إليه، وكانت عندي فجرّت بالرحى حتى أثرت بيدها واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها وقمّت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها وأصابها من ذلك ضر، فسمعنا أن رقيقا أُتي بهم إلى النبي فقلت: لو أتيت أباك فسألتيه خادما يكفيك. فأتته فوجدت عنده حداثا (رجالا يتحدثون) فاستحيت فرجعت، فغدا علينا ونحن في لفاعنا (غطائنا) فجلس عند رأسها فأدخلت رأسها في اللفاع حياء من أبيها، فقال: «ما كان حاجتك أمس إلى آل محمد؟» فسكتت مرتين، فقلت: أنا والله أحدثك يا رسول الله؛ إن هذه جرّت عندي بالرحى حتى أثرت في يدها، واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها، وبلغنا أنه قد أتاك رقيق أو خدم، فقلت لها: سليه خادما) [٢] . فانظر كيف قسم النبي السبي ولم يعط فاطمة منه شيئا! .

من المشهور أن للنبي قبل النبوة مكانة عظيمة في قومه، ولا ينادونه إلا الأمين والصادق ، وإذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه [٣] وكان متزوجا من امرأة غنية، وله أعرق نسب في قريش، فعنده المال والمرأة الجميلة والمكانة المرموقة والسمعة الطيبة والنسب الشريف، فكيف يترك هذا كله ليحاربه الناس أجمعين ويرمونه وأصحابه عن قوس واحدة، ثم بعد هذا كله ليس له من فعله أي مصلحة دنيوية لا له ولا لأبنائه ولا لأهله، بل حتى لما مات لم يعط الخلافة لأحد قرابته، فما كان لرجل يترك الكذب أربعين سنة، حتى صار طبعا له وسجية من سجاياه الثابتة التي يصعب انتزاعها منه، بل حتى لو أراد الكذب لأبت عليه طباعه وسجاياه ذلك، ثم بعد هذا التاريخ الطويل والسمعة السامية يقوم وينتحل الكذب، وليس أي كذب بل أشد أنواعه وهو الكذب على الله تعالى، وهو مع هذا لا يهدف لمصلحة ولا لغرض شخصي؟ إن هذا لا يمكن أن يتصوره عاقل.

إن عدم رغبة النبي في متاع الدنيا دليل أنه إنما فعل هذا طاعة لله بوحي منه سبحانه وقد وفق بعض المستشرقين المنصفين لفهم هذا المعنى وإدراكه يقول (كارليل): (ومما يبطل دعوى القائلين أن محمدا لم يكن صادقا في رسالته، أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة، ولم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطان، ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب) [٤] وقد استدل بهذا الدليل حبيب النجار الذي في سورة يس كما قال تعالى: {وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون} [يس:٢٠-٢١] وهذا الدليل حق، وكان كل نبي يأتي إلى قومه يقول لهم هذا الأمر، ففي سورة الشعراء قال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: {وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء:١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠] .

المبحث الخامس حلم النبي وزهده وبساطته وتواضعه وتعبده:

ومن عظيم أخلاقه وجميل خلاله عفوه عمن ظلمه وحِلمه على من جهل عليه وذلك أن لا حظَّ لنفسه في نفسه (وما انتقم رسول الله لنفسه إلا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها) [٥] وعن أنس بن مالك قال: لم يكن النبيﷺ سباباً

(١) -متفق عليه البخاري: رقم:٣١١٣، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم:٢٧٢٧.
(٢) -أخرجه أبو داود (كتاب الأدب، باب في التسبيح عند النوم، رقم:٥٠٦٢).
(٣) -كما حصل عندما اختلفت قريش عند بناء الكعبة، فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه، فاحتكموا إلى النبي ففض الخصام بأن بسط عباءته ووضع الحجر الأسود عليها، وأمر كل رأس قبيلة أن يأخذ طرفا من أطراف العباءة، فحملوه كلهم حتى وضعوه في مكانه. (انظر الرحيق المختوم، (ص:٥٨).
(٤) -الأبطال، لكارليل (ص:٥١) عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي (ص:١٢٧) الإسكندرية، الطبعة الأولي،١٩٩٦.
(٥) -رواه البخاري ح (٣٢٩٦)، ومسلم ح (٤٢٩٤).

ولا فحاشاً ولا لعاناً. كان يقول لأحدنا عند المعتبة: (ما له؟ تربَ جبينُه) [١] ولما سئلت أمُ المؤمنين عائشةُ عن خلق رسول الله قالت: (لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح)[٢]

زهده: وإن من دلائل نبوته زهادته في الدنيا وإعراضه عنها ترقباً لجزاء الله في الآخرة، ولو كان دعياً يفتري الكذب لما فرط في دنيا يفتري ابتغاء الكسب فيها، فإعراضُه عن الدنيا وزهدُه في متاعها مع تواضعه وبساطته دليل نبوته ورسالته فقد كان النبي يؤثِر حياة الزهد، ويدعو الله أن يجعله من أهلها، فكثيراً ما تبتل إلى ربه مناجياً: (اللهم أحيني مسكيناً، وأمِتْني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة) [٣] وخيره ربه بين المِلكِ في الأرض وبين حياة الشظف والقِلة، فاختار شظف العيش زهادة منه في الدنيا وترفعاً على متاعها، ففي حديث أبي هريرة أن ملَكاً نزل من السماء، فقال: يا محمد أرسلني إليك ربك قال: أفملِكاً نبياً يجعلُك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. فقال: (بل عبداً رسولاً). [٤]

وإذا تأملنا حياة النبيﷺ، ونظرنا كيف كان يعيش في بيته فإنا راؤون عجباً فلكم بقي عليه الصلاة والسلام طاوياً على الجوع لا يجد ما يأكله وهو رسولُ الله وصفوتُه من خلقه، يقول أبو هريرة: (ما شبع آل محمد من طعام ثلاثة أيام حتى قبض) [٥] ورآه عمر يتلوى من الجوع فما يجد رديء التمر يسد به جَوعَتَه، ثم رأى ما أصاب الناس من الدنيا فقال: لقد رأيتُ رسول الله يظل اليوم يلْتَوي ما يجد دَقَلاً (التمر الرديء) يملأ به بطنه[٦] وحين يجد النبي طعاماً فإنما يجد خبز الشعير فحسب، يقول ابن عباس حاكياً حال النبي: كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعةَ طاوياً وأهلُه لا يجدون عشاء وكان أكثرُ خبزِهم خبز الشعير[٧] ومع ذلك فما كان يجد ما يشبعه.

وهذا الشعير الذي لم يشبع منه النبي كان من رديء الشعير لا من جيده فقد كان غير منخول سئل سهل بن سعد: هل أكل رسول الله النقي [أي من الشعير]؟ فقال سهل: ما رأى رسول الله النقي من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه، فيطير ما طار، وما بقي ثريناه [أي: بللناه بالماء] فأكلناه [٨] وبعد وفاة النبي دُعي أبو هريرة إلى شاة مشوية، فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير. [٩]

وفي مرة يطرق باب النبي ضيف، فلا يجد ما يضيفه، فيرسل إلى بيوته يسأل نساءه، فلا يجد عندهن شيئاً سوى الماء، فلم يجد رسول الله بُداً من الطلب من أصحابه أن يضيِّفوه. [١٠] ومع ذلك كله فقد كان لسانه لا يفتَر أن يطلب دوام حال الكفاف والزهادة، فيقول داعياً ربه: اللهم ارزق آلَ محمدٍ قوتاً[١١] قال القرطبي: "معنى الحديث أنه طلب الكفاف فإن القوت ما يقوت البدن ويكف عن الحاجة وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغِنى والفقر جميعاً"[١٢] وإذا تساءلنا عن أثاث بيت النبي فإنه ما كان يعيش إلا كسائر لأصحابه، أما وساده فتصفه أم المؤمنين عائشة وتقول: كان

---

(١) –رواه البخاري ح (٦٠٣١).
(٢) –رواه الترمذي ح (٢٠١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ح (٥٨٢٠).
(٣) –رواه الترمذي ح (٢٣٥٢)، وابن ماجه ح (٤١٢٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٣٣٢٨).
(٤) –رواه أحمد ح (٧١٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (١٠٠٢).
(٥) –رواه البخاري ح (٥٣٧٤).
(٦) –رواه مسلم ح (٢٩٧٨).
(٧) –رواه الترمذي ح (٢٣٦٠)، وابن ماجه ح (٣٣٤٧)، وأحمد ح (٢٣٠٣)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٢٧٠٣).
(٨) –رواه البخاري ح (٥٤١٣).
(٩) –رواه البخاري ح (٥٤١٤).
(١٠) –انظره في البخاري ح (٣٧٩٨)، ومسلم ح (٢٠٥٤).
(١١) –رواه البخاري ح (٦٤٦٠)، ومسلم ح (١٠٥٥).
(١٢) –نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ح (١١/ ٢٩٩).

وسادة رسول الله التي يتكئ عليها من أدَم [جلد مدبوغ] حشوها ليف [١] وأما فراشه فحصير يترك أثراً في جنبه يقول ابن مسعود: نام رسول الله على حصير فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاء فقال: ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها [٢]

ودخل عليه عمر فرآه مضطجعاً على حصير قد أثر في جنبه، وألقى ببصره في خزانة رسول الله فإذا فيها قبضةٌ من شعير، نحو الصاع، وقبضة أخرى من ورق الشجر في ناحية الغرفة، قال عمر: فابتدرتْ عيناي بالبكاء. فقال: (ما يبكيك يا ابن الخطاب؟) قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى! وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنتَ رسولُ الله وصفوتُه، وهذه خزانتك! فقال: (يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟) قلت: بلى [٣] ودخلت امرأة أنصارية بيته فرأت فراشه مثنية، فانطلقت، فبعثت بفراش فيه صوف إلى بيت النبي فلما رآه قال: رُدِّيه يا عائشة، فوالله لو شئتُ لأجرى الله عليّ جبال الذهب والفضة قالت عائشة: فرددته. [٤]

أتته ابنته فاطمة ذات يوم بكِسْرةِ خبزِ شعير فأكلها النبي وقال: هذا أول طعام أكله أبوكِ منذ ثلاث[٥] وتدور الأيام دورتها، وتقبل الدنيا على المسلمين فيقف عمرو بن العاص يخطب الناس بمصر فقال: ما أبعد هديَكم من هدي نبيكم أما هو فكان أزهدَ الناس في الدنيا، وأنتم أرغبُ الناس فيها. [٦] وأبصر النبي جبل أُحدٍ فقال لأصحابه: (ما أحب أنه تَحوَّل لي ذهباً، يمكث عندي منه دينارٌ فوق ثلاث إلا ديناراً أرصدُه لدَين) ثم قال: (إن الأكثرين هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وقليل ما هم) وأشار أبو شهاب بين يديه وعن يمينه وعن شماله، أي يفرقه. [٧] وتروي عائشة من خبره عجباً، فتذكر أنه كان في بيتها بعضُ قطعٍ من ذهب، فقال رسول الله: (ما فعلتْ الذهبُ) فقالت عائشة: هي عندي، فقال: ائتيني بها تقول عائشة: فجئتُ بها، فوضعها في يده ثم قال بها [أي رماها]، وقال: ما ظن محمد بالله لو لقي الله عز وجل وهذه عنده؟ أنفقيها [٨]

وكيف لا يكون هذا حاله، وهو الأسوة الحسنة الذي أوصى أصحابه بالاقتصاد من الدنيا، فكان أسبقهم إلى ذلك، يقول سلمان: إن رسول الله عهد إلينا عهداً أن يكون بُلغَةُ أحدنا من الدنيا كزاد الراكب [٩] وحين غادر الدنيا ماذا ترك لأهله منها؟ ويجيب عمرو بن الحارث أخو أمِ المؤمنين جويرية فيقول: ما ترك رسول الله عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمَة ولا شيئاً إلا بغلتَه البيضاء وسلاحَه، وأرضاً جعلها صدقة [١٠] ويروي الإمام أحمد أن النبي مات ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير. [١١] وكما زهد النبي عن الدنيا زمن حياته، فإنه لم يبتغ جر نفع من منافعها إلى أهله وذويه بعد موته، فإنه لا يبتغي أن يجر لأهله شيئاً من زخارفها، لذا قال: لا نورّث، ما تركناه صدقة. [١٢]، وهكذا فإنه يحق لنا أن نتساءل عن الكسب الدنيوي الذي جناه النبي من نبوته، فإنه عاش عيشة المساكين التي تمناها ودعا الله

---

(١) –رواه البخاري ح (٦٤٥٦)، ومسلم ح (٢٠٨٢)، اللفظ له.
(٢) –رواه الترمذي ح (٢٣٧٧)، وابن ماجه ح (٤١٠٩)، وأحمد ح (٣٧٠١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٣٣١٧).
(٣) –رواه البخاري ح (٤٩١٣)، ومسلم ح (١٤٧٩)، واللفظ له.
(٤) –رواه البيهقي في الشعب ح (١٤٤٩)، وأحمد في الزهد ح (٧٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ح (٣٢٨٧).
(٥) –رواه أحمد ح (١٢٨١١).
(٦) –رواه أحمد ح (١٧٣٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ح (٣٢٩٤).
(٧) –رواه البخاري ح (٢٣٨٨)، ومسلم ح (٩٤).
(٨) –رواه أحمد ح (٢٤٩٦٤).
(٩) –رواه أحمد ح (٢٣١٩٩).
(١٠) –رواه البخاري ح (٢٧٣٩).
(١١) –رواه أحمد ح (٢٧١٩).
(١٢) –رواه البخاري ح (٣٠٩٤)، ومسلم ح (١٧٥٧).

بدوامها، فكان طعامه خشنُ الشعير، ورديءُ التمر، إذا ما تيسر له ذلك، وأما وساده وفراشه فهما دليلٌ آخرُ على استعلاء النبي على الدنيا التي هجرها بإرادته واختياره، وصدق فيه قول الشاعر:

وراودَته الجبال الشُّمُّ من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم

تواضعه: ولقائل أن يقول: إن كثيرين قد يزهدون بالمال في سبيل الرفعة عند الناس، فما أعظمها من لذة أن يشير الناس إليه ببنانهم، وأن يستبقوا إلى إجلال الزاهد وخدمته، فيكون له في ذلك ما يدعوه على الصبر على الحرمان والفاقة وهذا كله صحيح، فتلك نفوس رتعت بالكبر، وأحبت من الدنيا العلو فيها ، أما النبي فقد جمع إلى الزهد التواضع للناس، ولم يمنعه من ذلك جلالة قدره عند الله ورفعة مكانته عند مولاه وعند المسلمين ، ولنفتح هذ السفر الخالد، ونقرأ فيه ما يحكيه لنا أبو رفاعة، فقد دخل المسجد والنبي يخطب، فقال: يا رسول الله، رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه قال أبو رفاعة: فأقبل عليّ رسول الله وترك خطبته، ... وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها[١]

وحين تلاحقه نظرات الإعجاب من أصحابه، فتنساب على ألسنتهم عبارات الثناء الممزوجة بالحب، حينها كان ينهاهم عن إطرائه والمبالغة في مدحه فما فتئ لسانه يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه [٢] ودخل عليه رجل فقال: يا سيدَنا وابنَ سيدِنا ويا خيرَنا وابنَ خيرِنا فقال رسول الله: يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بنُ عبدِ الله، عبدُ الله ورسولُه، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل [٣]

وحين انطلق الصحابة إلى غزوة بدر، كانوا يتعاقبون، كلُّ ثلاثةِ نفرٍ على بعير، وكان صاحبا النبي في الركوب عليٌّ وأبو لبابة قال ابن مسعود: وكان إذا كانت عُقْبَة النبي [مرحلة النبي في الركوب] قالا له: اركب حتى نمشي عنك فيقول لهما: ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكُما [٤] وحين شرع الصحابة في حفر الخندق لم يركن النبي إلى منزلته بين أصحابه، ولم يترفع النبي عن العمل معهم في الحفرِ ونقلِ التراب، يقول البراء بن مالك: كان النبي ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى الترابُ بياضَ بطنه يقول: والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا.. فأنزِلَنْ سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا... إن الأعداء قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبَينا [٥]

وكان يمقت كل مظاهر الكِبْر والتميز عن الناس، ومنه كراهيته أن يقوم له أصحابُه، فقد كان يكره ذلك ويمنعهم منه، يقول أنس: ما كان شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لِما يعلمون من كراهيته لذلك[٦] ومن كان هذا نعته فجدير أن يبغض وقوف أحد فوق رأسه كما يُفعل للملوك، وها هو يصلي في مرض وفاته قاعداً، وصلى أصحابه وراءه قياماً، يقول جابر: فالتفت إلينا، فرآنا قياماً، فأشار إلينا، فقعدنا، فصلينا بصلاته قعوداً، فلما سلم قال: إن كدتم آنفاً لتفعلون فِعل فارسَ والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم، إن صلى قائماً فصلوا قياماً، وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً [٧] وكان يجيب دعوة الداعي كائناً ما كان طعامُه يقول: لو دعيتُ إلى كُراع لأجبتُ، ولو أهدي إليّ كُراعٌ لقبِلتُ [٨] والكُراع ما دون كعب الدابة.

---

(١) –رواه مسلم ح (٨٧٦).
(٢) –رواه البخاري ح (٣٤٤٥).
(٣) –رواه أحمد ح (١٢١٤١).
(٤) –رواه أحمد ح (٣٧٦٩).
(٥) –رواه البخاري ح (٣٠٣٤)، ومسلم (١٨٠٣).
(٦) –رواه أحمد ح (١١٩٣٦)، والترمذي ح (٢٧٥٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٧) –رواه مسلم ح (٤١٣).
(٨) –رواه البخاري ح (٥١٧٨).

ورغم ازدحام وقته وشرف منزلته؛ فإنه ما كان يأنف من كثير مما يأنف منه دهماء الناس، فضلاً عن أكابرهم، فما كان يجد حرجاً أن يمشي في حاجة الضعفاء ويسعى في قضاء أمورهم، يقول عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله يكثِر الذكر، ويُقِل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصِّر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضيَ له الحاجة[١] ويحكي خادمه أنس بن مالك أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة فقال: يا أم فلان، انظري أيّ السكك شئت حتى أقضيَ لك حاجتَكِ قال أنس: فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها. [٢]

لكن تواضعه ما كان ليمنع هيبته في صدور الناس وهم يقفون بين يديه فقد أتاه رجل، فكلمه فجعل الرجل ترْعَد فرائصُه، فقال له: هون عليك، فإني لست بملكٍ، إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد [اللحم المجفف]. [٣] وتواضعه ليس خلقاً يتزين به أمام الناس، بل هو خُلَّة شريفة لم تفارقه حتى وهو في بيته وبين أهله، فقد سُئلت عائشة: ما كان يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله تعني: خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة وفي رواية لأحمد: كان بشراً من البشر، يَفْلي ثوبه، ويحلِب شاته، ويخدِمُ نفسَه [٤] ولقد خيّره ربه بين أن يكون عبداً رسولاً أو ملِكاً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، فعن أبي هريرة أن النبي حكى عن ملك نزل إليه، فقال: يا محمد، أرسلني إليك ربُك قال: أفملِكاً نبياً يجعلُك أو عبداً رسولاً؟ فقال جبريل: تواضع لربك يا محمد. فقال عليه الصلاة والسلام: بل عبداً رسولاً [٥]

تعبده لربه وخوفه منه: وإن من دلائل نبوته وأمارات صدقه ما رأينا من تعبده لله تعالى وخشيته منه، ولو كان دعياً لما تعبد لله، ولما أتعب نفسه، ولا ألزمها ضروب العبادة التي قرحت رجليه، بل لكان صنع ما يصنعه سائر الأدعياء من مقارفة الشهوات واستحلال المحرمات، فكل ما اشتهى الدعي أمراً صيره ديناً وشرعة ،ومن ذلك ما فعله مسيلمة الكذاب ، فقد أحل لأتباعه الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، فتكاليف الشريعة لا يطيقها الأدعياء، لذا سرعان ما يتخلصون منها ،أما النبي فكان أعبدَ الناس لله وأخوفَهم منه بما عرف من عظمته وقوته، يقول عليه السلام: إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي[٦].

وشواهد خوف النبي من الله وتعبده لله كثيرة، منها أن صاحبه أبا بكر رأى شيباً في شعره فقال: يا رسول الله قد شِبت؟ فقال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت [٧]قال الطيبي: "وذلك لما في هذه السور من أهوال يوم القيامة والمثُلات النوازل بالأمم الماضية: أخذ مني مأخذه، حتى شبتُ قبل أوانه".[٨] فالذي شيب رسول الله ما قرأه في هذه السور من الأهوال التي يرهبها الأتقياء العارفون بربهم، الذين قدروه حق قدره. وتصف أم المؤمنين عائشة عنها وجَلَه من ربه، فتقول: ما رأيت رسول الله مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواتِه، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه. فقلت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيتَه عُرف في وجهك الكراهية! فقال: يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا: {هذا عارض ممطرنا} (الأحقاف: ٢٤)[٩]

---

(١) –رواه النسائي ح (١٤١٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ح (٥٨٣٣).
(٢) –رواه مسلم ح (٤٢٩٣).
(٣) –رواه ابن ماجه ح (٣٣١٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (٢٦٧٧).
(٤) –رواه البخاري ح (٦٧٦)، وأحمد ح (٢٥٦٦٢).
(٥) –رواه أحمد ح (٧١٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (١٠٠٢).
(٦) –رواه مسلم ح (١٨٦٨).
(٧) –رواه الترمذي ح (٣٢٩٧)، وصححه الألباني ح (٢٦٢٧)
(٨) –تحفة الأحوذي (٩/ ١٣١).
(٩) –رواه البخاري ح (٤٨٢٩)، ومسلم ح (٨٩٩).

وذات ليلة يرى النبي في منامه أخبار الفتن وهو في بيت أم سلمة، فيأمر أن تستيقظ نساؤه، وأن يقُمن لقيام الليل فزعاً وتعوذاً مما يأتي من الفتن، تقول أم سلمة: فاستيقظ رسول الله فزِعاً، يقول: سبحان الله! ماذا أنزل الليلة من الخزائن؟ وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات، يا رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٌ في الآخرة [١] وفي ليلة أخرى رآه بعض أزواجه وهو يتلوى في آخر الليل على فراشه، لا يجد الكرى إلى عينيه سبيلاً، فما الذي أرَّقه؟ يجيبنا عبد الله بن عمرو، فيقول: كان رسول الله نائماً، فوجد تمرة تحت جنبه، فأخذها فأكلها، ثم جعل يتضور من آخر الليل، وفزع لذلك بعض أزواجه فقال: إني وجدت تمرة تحت جنبي، فأكلتُها، فخشيتُ أن تكون من تمر الصدقة [٢] إن الذي أرَّقَ النبي خوَّفَه أن تكون التمرة التي أكلها من تمر الصدقة التي لا تحل له.

وأما عبادة النبي لربه، فهي شاهد لا مراء في صدقه، فهي مما لا يصدر عن دعي يكذب على الله ويضل الناس باسمه، وحاشاه أن يكون دعياً، فما من دعي يكذب على ربه ثم يجهد نفسه بالعبادة له تروي لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حال النبي في ليله، فتقول: كان النبي يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. فقلتُ له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ [٣]

وتصف عائشة صفة صلاته فتقول: كان يصلي إحدى عشرة ركعة، كانت تلك صلاته، يسجد السجدة من ذلك قدرَ ما يقرأ أحدُكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة [٤] ويصف عليٌّ حاله في يوم بدر حين تعب الصحابة وأسلموا أعينهم للنوم، فيقول: ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح.[٥] وتكرر بكاؤه وهو يتضرع بين يدي ربه ومولاه عارفاً قدرَه وراجياً فضله يقول عبد الله بن الشِّخِّير قال: أتيتُ رسولَ الله وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل [أي القِدر] من البكاء. [٦] لقد كان كما وصفه ربه {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه} (المزمل:٢٠)، فهل سمعت الدنيا عن مدع للنبوة يقوم نصف ليله يتضرع لربه ويبكي بين يديه.

وأما صومه: فكان يداوم على صيام يومي الإثنين والخميس تقرباً إلى ربه وابتغاء رضاه، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: تُعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس، فأحِبُّ أن يعرض عملي وأنا صائم. [٧] ولم يكن صيامه هذا فحسب، بل كان يصوم الأيام المتتابعة، يقول أنس:(كان رسول الله يفطر من الشهر حتى نظن ألا يصوم منه شيئاً، ويصوم حتى نظن ألا يفطر منه شيئاً، وكان لا تَشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيتَه [٨] وما كان يُفوِّتُ على نفسه أجر الصوم في أيام الصيف الهواجر، يبتغي في ذلك المحبة من ربه والزلفى إليه، يقول صاحبه أبو الدرداء: كنا مع رسول الله في سفر، وإن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما منا صائم إلا رسولُ الله وعبدُ الله بنُ رواحة. [٩] وبقي هذا حاله لم يتوانَ عن عبادة ربه، حتى لبى نداء ربه، وهو في كل ذلك يمتثل: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} (الحجر: ٩٩) ولو كان دَعِيّاً لأراح نفسه وأحبابه من جهد القيام في الليل وتفطُرِ الأقدام، ومن الصيام في الهواجر، لكن هيهات، كيف يريح نفسه وربه يأمره: {فإذا فرغت فانصب –وإلى ربك فارغب}؟[١٠]

---

(١) –رواه البخاري ح (١٠٥٨).
(٢) –رواه أحمد ح (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٢٢٠١).
(٣) –رواه البخاري ح (٤٨٢٧)، ومسلم ح (٢٨٢٠).
(٤) –رواه البخاري ح (١١٢٣)، ومسلم ح (٧٢٤)،
(٥) –رواه أحمد ح (١٠٦٢).
(٦) –رواه النسائي ح (١١٩٩)، وأبو داود ح (٧٦٩)، وأحمد ح (١٥٧٢٢)، واللفظ له، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ح (١٠٠٠).
(٧) –رواه الترمذي ح (٦٧٨)، وابن ماجه ح (١٧٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح (١٠٤١).
(٨) –رواه البخاري ح (١١٤١)، ومسلم ح (١١٥٨).
(٩) –رواه أحمد ح (٢٠٧٠٧).
(١٠) –راجع دلائل النبوة لمنقذ بن محمود السقار مبحث دلالة أخلاقه على نبوته، نشر رابطة العالم الاسلامي

الفصل السابع:
القسم السابع من دلائل النبوة: المعجزات الحسية المنقولة

المبحث الأول: توثيق المعجزات في القرآن الكريم وفي دواوين السنّة النبوية.

المبحث الثاني: من دلائل النبوة الخارقة للعادة انشقاق القمر.

المبحث الثالث: حادثة الإسراء والمعراج.

المبحث الرابع: خوارق ازدياد الطعام الذي لا يكفي عدة أشخاص فيطعم الجيش كله.

المبحث الخامس: معجزات الرسولﷺ في تكثير الماء القليل.

المبحث السادس: معجزات شفاء المرضى وخوارقها.

المبحث السابع: شهادة الشجر برسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثامن: معجزات خارقة في شهادة الحيوان وانقياده.

المبحث التاسع: معجزات خارقة متفرقة.

تمهيد: كما أيد الله سبحانه رسوله محمدا بالقرآن الذي هو أعظم بيناته، فقد أيده بمعجزات خارقة للعادة أجراها على يده وشاهدها المعاصرون له من أصحابه وأعدائه، فكانت دليلا للجميع على صدقه فيما بلّغ عن ربه، وعلى تأييد الله سبحانه له، كما أن هذه الحوادث الخارقة التي وقعت لا تزال دليلا بينا لكل عاقل في أي زمان ومكان على صحة نبوة محمدﷺ لأنها قد نقلت إلينا نقلا صحيحا أمينا، ووثقت توثيقا بالغا لا يوجد مثله في تاريخ الأمم قديمها وحديثها فكأن السامع لها يراها بين يديه آية بينة تدل على صدق محمدﷺ لدقة توثيقها فيطمئن بها قلبه وعقله.

وهذه المعجزات من قبيل ما أوتيه النبيون السابقون كمثال حبس الله الشمس عن الغروب لنبيه يوشع بن نون كما تذكر التوراة لقد خرق الله سنته في جريان الشمس إكراماً لنبي الله يوشع، واستجابة لدعائه لله وبمثله أيّد الله موسى عليه السلام، فقد شقّ الله له البحر لما ضربه بعصاه، فصار طرقاً ممهدة يمشي بنو إسرائيل عليها في دعة وسكينة وبمثله أيضاً أيد الله نبيه وخاتم رسله، فصنع الله بيديه باهر المعجزات، قال ابن تيمية: "كان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته ومعجزاته تزيد على ألف معجزة"(١) وقال ابن القيم: بعد أن ذكر معجزات موسى وعيسى عليهما السلام: "وإذا كان هذا شأن معجزات هذين الرسولين، مع بُعد العهد وتشتت شمل أمّتيْهما في الأرض وانقطاع معجزاتهما فما الظن بنبوة محمد ومعجزاته وآياتُه تزيد على الألف والعهد بها قريب وناقلوها أصدقُ الخلق وأبرُّهم ونقلُها ثابت بالتواتر قرناً بعد قرن؟(٢)، المعجزات الحسية التي وهبها الله النبي مثل تكثير الطعام في حوادث ومواطن كثيرة وشفاءِ المرضى وانشقاقِ القمر ونبع الماء

(١) -الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٣٩٩).
(٢) -إغاثة اللهفان (٢/ ٣٤٧).

من بين أصابعه في مواطن متعددة، وهذه المعجزة أعظم من تفجر الماء من الحجر كما وقع لموسى عليه السلام، فإن ذلك من عادة الحجر في الكثير الغالب، وأما أن يحدث ذلك من أصابع هي لحم ودم، فعن جابر رضي الله عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلا في ركوتك فوضع النبي يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون " وكان الناس ألفا وأربعمائة» عن سعد بن أبي وقاص: «أن عين قتادة ابن النعمان أصيبت حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله فكانت أحسن عينيه» عن أنس بن مالك قال: «قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله له، فقال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته. قال أنس: فو الله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم نحو المائة.».

فإن قال قائل: إن ما ذكرته وما نقلته من هذه المعجزات الحسية لم نره، ولم نشاهده ولم نحس به فلا يكون حجة علينا!! قلنا له: وكذلك معجزات المسيح وغيره من الأنبياء لم نرها ولم نشاهدها ولم نحس بها!! فإن قال قائل: لكن تواترت روايات الثقات بهذا؟ قلنا له: إن (الرواية الإسلامية) هي أدق الروايات وأضبطها على الإطلاق، أما (الرواية المسيحية) فهي رواية يعتريها الشك من كل أقطارها! ثم إن (المعجزة الحسية) هي كل شيء بالنسبة لهذه الديانات، فإن ثبتت صحت هذه الديانات وإن انتقت أو دخلها الشك بطلت هذه الديانات! أما الإسلام الدين الخاتم الذي جاء به النبي الخاتم محمد فإنه لم يركز على المعجزة الحسية وحدها وإنما ركز على المعجزات المعنوية وفي قمتها القرآن الكريم والقرآن الكريم معجزة عقلية معنوية باقية لا يهون من جلالها مرور الزمان وتقادم الأيام بل إن الزمان كلما تقادم زاد هذا القرآن جدة وقوة وإعجازا فالزمان عنصر من الإعجاز في القرآن!

إن الإسلام دين معجز، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ومجالات واتجاهات! فهو معجز في تشريعه! وهو معجز في تاريخه! وهو معجز في دائرة معارفه! وهو معجز في فتوحاته وانتصاراته! فإن قال قائل: إن القرآن ينفي (المعجزات الحسية) عن النبي كما جاء في سورة الإسراء {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا-أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا-أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا-أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا}[الإسراء: ٩٠- ٩٣] ،قلنا له: الذي يُفهم من هذه الآيات، وما شاكلها، نفي المعجزات المقترحة، ولا يلزم من نفي المعجزات المقترحة نفي المعجزات مطلقا، إذ أنه ليس حتما على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون!! بل على العكس فهم لا يظهرون المعجزة إذا كان طلبها منطويا على العناد والامتحان والاستهزاء.

ولهذا نظائر في الكتاب المقدس: " فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه، فتنهد بروحه، وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية. الحق أقول لكم لن يعطي هذا الجيل آية " (مرقس: ٨: ١١، ١٢) طلب الفريسيون معجزة من عيسى على سبيل الامتحان، فما أظهر معجزة ولا أحال-في ذلك الوقت-إلى معجزة ولا وعد بإظهار معجزة فيما بعد! بل قال: (لن يعطى هذا الجيل آية) وهذا يدل على أنه لن تصدر عنه معجزة إطلاقا! لأن لفظ الجيل يشمل جميع الذين كانوا في زمانه! وفي إنجيل متى أيضا: " فتقدم إليه المجرب، وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا فأجاب وقال مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك، فعلى إياديهم يحملونك لكي لا تصطدم بحجر رجلك. قال له يسوع: مكتوب أيضا لا تجرب الرب إلهك " (متى ٤، ٣٠، ٧) ، ففي هذا النص نرى أن إبليس طلب من عيسى عليه السلام -على سبيل الامتحان- معجزتين، فما أجاب إلى واحدة منهما!!

المبحث الأول: توثيق المعجزات في القرآن الكريم وفي دواوين السنّة النبوية[١]

فكانت معجزات النبيﷺ (الخارقة للعادة) تحصل، فيراها العشرات والمئات وربما الآلاف من أتباعه المؤمنين به، ومن أعدائه المعاندين له، ثم ينزل القرآن العظيم ذاكرا لهذه الخوارق والحوادث مستخلصا العبر منها؛ لأنه كان ينزل منجّما حسب الأحداث، وبعد نزول القرآن بذكر هذه الخوارق والحوادث صدقها المؤمنون وازدادوا إيمانا وثباتا على دينهم، ولم يتطرق إليهم أدنى شك في وقوع هذه الخوارق التي شاهدوها، ولم يملك أعداؤهﷺ سوى الصمت تجاه ما يسمعون من آيات القرآن التي تذكر تلك الخوارق والحوادث.

ولو افترضنا جدلا أنها لم تقع لكان أعداء النبي أول المشنّعين عليه بذلك، ولكانت فرصة سانحة ليثبتوا حسب زعمهم كذبه لاسيما مع حرصهم الشديد على تكذيبه وتوافر الدواعي لديهم لذلك، واجتماع هممهم للطعن في نبوته، والقدح في صدق رسالته، والتشكيك في أخباره، ولتشكك المسلمون في دينهم وارتدوا عنه ،لكن شيئا من ذلك لم يقع، بل ازداد المؤمنون إيمانا وثباتا على دينهم وتصديقا لما سجل في كتاب ربهم، وصمت الكفار أمام ما شاهدوا من خوارق وقعت وسجلها القرآن فدخلوا في دين الله أفواجا، فعلمنا علما يقينيا وقوع تلك الخوارق والحوادث المؤيدة للنبوة والرسالة والشاهدة بصدق النبي ورسالته وعلمنا أن أولئك العشرات أو المئات أو الآلاف الذين كانوا يشاهدون المعجزة هم الموقعون على محضر المعجزة، وهم الشهود المباشرون لها الشاهدون بصدق وقوعها.

أولا تسجيل المعجزات في القرآن: لقد كان ذكر القرآن الكريم لهذه الخوارق وتسجيله لها حين نزوله وسماع المئات والآلاف من المسلمين والكافرين لما ذكر فيه، بمثابة محضر أقره جميع الحاضرين من المؤمنين والكافرين المشاهدين لتلك الخوارق والحوادث، والسامعين لما سجل عنها في كتاب الله، فكان ثبات المؤمنين على إيمانهم بمثابة التوقيع منهم على صدق ما سجل في القرآن، كما كان سكوت الكافرين وعدم معارضتهم لما سجل في القرآن، بل وتحول الكثير منهم إلى الإيمان بمثابة التوقيع أيضا على مطابقة القرآن لما شاهدوه في الواقع.

مثال في العهد المكي: حادثة انشقاق القمر: في العهد المكي طلب كفار قريش من النبي أن يريهم آية (علامة على صحة نبوته) فشق الله له القمر نصفين، وذكر القرآن الكريم ذلك وسجله قال تعالى:{ اقتربت الساعة وانشق القمر–وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر–وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر} [القمر: ١– ٣] فلو أن ذلك لم يحصل لتشكك المسلمون في دينهم وخرجوا منه ، ولقال الكفار: إن محمدا يكذب علينا فما انشق القمر ولا رأينا شيئا من ذلك، ولكن الذي حدث أن زاد المؤمنين إيمانا، وتحير الكافرون أمام هذه المعجزة التي لم يملكوا سوى أن يفسروها بأنها سحر مستمر!! «قوي شديد يعلو كل سحر».

مثال في العهد المدني: إرسال الرياح والجنود على الأحزاب: اجتمع آلاف الكفار لغزو المدينة النبوية في معركة الأحزاب، فأرسل الله عليهم ريحا باردة أطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم واقتلعت خيامهم وهدمت أبنيتهم وشردت خيولهم وإبلهم، وأرسل الله عليهم جنودا لا ترى لتزلزلهم حتى اضطروا للعودة من حيث جاءوا، وفك الحصار عن المدينة النبوية وأنزل الله تعالى ذكر هذه الحادثة ممتنا على المؤمنين قال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا} [الأحزاب: ٩] ولو كانت هذه المعجزة لم تقع لتشكك المسلمون في القرآن، وربما ارتدوا عن دينهم، وقالوا: كيف نصدق ما لم يقع؟! و لازداد الكفار عتوا ونفورا و لقالوا: محمد يكذب علينا وعلى الناس!!، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل، بل ازداد المؤمنون إيمانا وثباتا على دينهم،

---

(١) –راجع بينات الرسول (ص) ومعجزاته للشيخ الزنداني ص: ٢٢٣ وما بعدها

وصمت الكفار، ثم دخل معظمهم بعد ذلك في دين الله أفواجا، وبهذا يكون القرآن السجل الصادق–الذي لا يتطرق إليه شك–لما وقع من الخوارق والمعجزات التي أيد الله بها رسوله محمداﷺ.

حفظ القرآن (السجل الصادق للمعجزات) : وعندما كان الوحي ينزل بالآيات القرآنية على رسول الله ﷺ كان يأمر بكتابتها فيتسابق المسلمون من أجل حفظها وكتابتها والتعبد بتلاوتها ونشرها بين الناس، وكان للنبي ﷺ كتاب يكتبون له الوحي حتى اكتمل نزول القرآن وكتبه المسلمون في المصحف، ومن المصحف نسخت مصاحف كثيرة ووزعت في الأقطار آنذاك، ثم في سائر أقطار العالم ،إن هؤلاء الصحابة الذين حفظ الله بهم القرآن ونقلوا هاتين الحادثتين: حادثة انشقاق القمر، وهزيمة الأحزاب بالرياح وغيرهما من خوارق العادات التي سجلها القرآن سواء ممن كان مسلما وقت وقوع الحادثة أو أسلم بعد ذلك، كانوا يقرءون القرآن صباح مساء، في صلاتهم ومجالسهم وحلق علمهم ويدونونه ويحفظونه ويتدارسونه فيما بينهم ويتخلقون بأخلاقه ويتحاكمون إلى شريعته، مقرين به ومصدقين له، وعلموه لأبنائهم وأهليهم ومن تبعهم، فمن المستحيل عقلا أن يجتمعوا جميعا على نقله وحفظه وهو لم يقع. وقد حفظ الله القرآن في صدور هؤلاء الذين شاهدوا المعجزات وفي صحفهم، وفي صدور أبنائهم وما دونوه من صحف آبائهم، ونقله الآلاف وعشرات الآلاف بل والملايين وعشرات الملايين عبر العصور المتلاحقة مصدقين به.

ثانيا: توثيق هذه المعجزات في السنة النبوية: وقد حفظت لنا كتب السنة النبوية الموثقة كثيرا من تفاصيل المعجزات التي سجلها القرآن، كما سجلت كثيرا من الخوارق والمعجزات التي لم تذكر في القرآن، وكان التوثيق في تلك الكتب بالغ الدقة، لا يقبل تشكيك مشكك، فكأنك ترى المعجزات المذكورة فيها رأي العين ، وذلك لأن النبي كان محط أنظار أصحابه، الذين أمرهم الله بالاقتداء به في قوله تعالى:{ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} [الأحزاب: ٢١] كما أمرهم الله بطاعته واتباع أمره واجتناب نهيه. قال تعالى:{ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} [الحشر: ٧] وقال تعالى:{ وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون} [النور: ٥٦]، ولا تتحقق الأسوة والطاعة إلا بتتبع أقواله وأفعاله وأحوالهﷺ وكان يحثهم على الأخذ عنه ومراقبة أفعاله ومتابعتها، كقولهﷺ: " عليكم بسنتي"(١) وقوله: " خذوا عني مناسككم"(٢) وقوله: " صلوا كما رأيتموني أصلي"(٣) ونحو ذلك من النصوص التي تحث على ملاحظة أقواله وأفعاله، ولذلك كانت أعماله وأقواله وحركاته وسكناته ومعجزاته الشاهدة بصدق رسالته محل مراقبة من أصحابه لأنها دين يتلقى، ويتوقف دخولهم الجنة، ونجاتهم من النار على اتباعه.

منهج نقد الرواية(٤): ولما ظهر بعد جيل الصحابة بعض من لا يوثق بروايته، قيض الله أئمة الحديث والجرح والتعديل الذين شيدوا علم الرجال والتاريخ والجرح والتعديل، الذي ضم آلاف الرواة مبيّنا حال كل راو من حيث أنه معروف أو مجهول، ومن حيث مدى حفظه وضبطه وإتقانه وشيوخه وتلاميذه وسنة ولادته وسنة موته، وهل بقي حفظه كما هو أم تغير في آخر عمره لكبر سنه، أو لحادث أصابه، وما أشبه ذلك من مقاييس الجرح والتعديل، بل وصل الأمر إلى جمع روايات الثقات العدول ومقارنتها لمعرفة إن كان أحدهم قد وهم في لفظة أو جملة، إلى أن استقر الأمر عند علماء الحديث والسنة فوضعوا شروطا للحديث الصحيح المقبول عن رسول الله وهي كون الحديث المروي:

---

(١) –أخرجه الترمذي ك/ العلم ب/ ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، وأبو داود ك/ السنة ب/ في لزوم السنة، وابن ماجه ك/ المقدمة ب/ اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وأحمد في مسند الشاميين من حديث العرباض بن سارية، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وصحيح سنن ابن ماجه.

(٢) –أخرجه مسلم ك/ الحج ب/ استحباب من جمرة العقبة يوم النحر راكبا ... واللفظ له، والنسائي ك/ مناسك الحج وأبو داود ك/ المناسك ب/ في رمي الجمار.

(٣) –أخرجه البخاري ك/ الأذان ب/ الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، والدارمي ك/ الصلاة ب/ من أحق بالإمامة.

(٤) –اجع بينات الرسول (ص) ومعجزاته للشيخ عبد المجيد الزنداني ص ٢٢٣–٢٤٣

[١] منقولا بنقل العدول الضابطين [١]. [٢] متصل الإسناد بأن يكون كل راو قد سمع الحديث من شيخه، فلا يكون منقطعا. [٣] سالما من الشذوذ [٢] . [٤] ومن العلة القادحة [٣] .

فاستبعد علماء الحديث رحمهم الله في تعريفهم الحديث الصحيح من كان مجروحا من الرواة بأي سبب من أسباب الجرح، والتي لخصت في عشرة أسباب:

[١] الكذب. [٢] الجهالة سواء كانت جهالة عين أو جهالة حال [٤] [٣] التهمة بالكذب. [٤] فحش الغلط. [٥] الفسق. [٦] سوء الحفظ. [٧] البدعة. [٨] الغفلة. [٩] الوهم. [١٠] مخالفة الثقات [٥] .

ومما يبين صحة منهج المحدثين رحمهم الله ومنهجيتهم العلمية الدقيقة: عدم قبولهم الخبر المكذوب الذي زعم واضعه أنه قصد بوضعه نصرة الدين الإسلامي أو الحث على بعض فضائل الأعمال، بل اعتبروا ذلك ضلالا من فاعله وابتداعا في الدين [٦].

وبهذا يظهر لنا تميز منهج النقد والتوثيق في الحديث النبوي، الذي يشترط الشروط الدقيقة في الرواية، حتى يطمئن المحدث بأن كل من في سند الرواية عدل أمين في روايته، ضابط دقيق في نقله، كأن عينه آلة تصوير، وأذنه آلة تسجيل، وذاكرته وكتابه شريط صاف سجلت عليه الكلمات، وبهذه الطريقة الأمينة الدقيقة نقلت إلينا السنة النبوية، وأخبار المعجزات، ووجدنا المعجزة تروى من عدة طرق لرواتها عن الذين حضروها وشاهدوها، فتتكامل تلك الروايات ويصدق بعضها بعضا، وتلتقي مع ما ذكره القرآن أو أشار إليه.

وليس هناك شخص في التاريخ توفرت لأمته تلك الدوافع والحوافز وقواعد الضبط والتحري لنقل أقواله وأفعاله غير محمدﷺ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين الذي جعله الله حجة على العالمين وتكفل بحفظ بيناته ومعجزاته في سجلات صادقة موثوقة لتقوم بها الحجة على من يأتي بعده إلى قيام الساعة فهيا بنا نستعرض ما تيسر من تلك البينات الخارقة للعادة التي ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم، والتي رواها لنا حملة السنة الثقات.

المبحث الثاني: من دلائل النبوة الخارقة للعادة انشقاق القمر

سألت قريش النبيﷺ أن يريهم علامة تدل على صدق نبوته قال أنس: سأل أهل مكة رسول الله أن يريهم آية (أي علامة على صدق نبوته) فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء "من جبال مكة" بينهما [٧] وقال عبد الله بن مسعود: انشق القمر ونحن مع النبي فصار فرقتين فقال لنا: اشهدوا اشهدوا [٨] وفي رواية عنه: أنهم كانوا وقت انشقاقه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنى [٩] وعن عبد الله بن عباس: إن القمر انشق في زمان النبي[١٠] وقال عبد الله بن عمر:

---

(١) –العدل: السالم من الفسق وخوارم المروءة. والضبط نوعان، ضبط الصدر: وهو كون الراوي متقنا ذاكرا لما يحفظه تماما، وضبط الكتاب: وهو كون الراوي يصون كتابه لديه من حين سمع فيه وصححه إلى أن يؤدي منه.

(٢) –الشذوذ: مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه.

(٣) –الحديث المعل: ما فيه علة خفية قادحة في إسناده أو في متنه والعلة: سبب غامض خفي قادح في صحة الحديث مع أن الظاهر السلامة منه، ولا يعرف ذلك إلا أئمة هذا العلم، انظر نزهة النظر ص ٨٣ وتدريب الراوي.

(٤) –جهالة العين ألا يعرف من هو هذا الراوي بألا يعرف إلا من رواية شخص واحد ولم يوثقه معتبر وجهالة الحال: أن تجهل عدالة الراوي وإن كان شخصه معروفا.

(٥) –نخبة الفكر للحافظ ابن حجر مع شرحها نزهة النظر ص ١١٦–١١٧ تحقيق: علي الحلبي.

(٦) –تدريب الراوي ١/ ٢٨٣ ونزهة النظر ص ١٢١–١٢٢.

(٧) –رواه البخاري ك/ المناقب ب/ انشقاق القمر ومسلم ك/ صفة القيامة ب/ انشقاق القمر وأحمد في المسند ٣/ ٢٠٧ وأبو يعلى في مسنده ٥/ ٤٢٤.

(٨) –بخاري ك/ التفسير ب/ (وانشق القمر) ونحوه عند مسلم ك/ صفة القيامة ب/ انشقاق القمر والترمذي ك/ التفسير ب/ ومن سورة القمر، والبزار في مسنده ٥/ ٢٠٢ وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٢٠ وأحمد في المسند ١/ ٣٧٧ والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٧٧ وغيرهم.

(٩) –رواه البخاري ك/ المناقب ب/ انشقاق القمر ومسلم ك/ صفة القيامة ب/ انشقاق القمر.

(١٠) –البخاري ك/ المناقب ب/ انشقاق القمر، مسلم ك/ صفة القيامة ب/ انشقاق القمر.

انفلق القمر على عهد رسول الله فقال رسول الله: اشهدوا [١] ونزل القرآن العظيم ذاكرا هذه الحادثة العظيمة قال تعالى:{اقتربت الساعة وانشق القمر } [القمر: ١] ومع ذلك كذب الكفار هذه الآية العظيمة وزعموا أنها سحر [٢] .

قال ابن حجر: وقد ورد انشقاق القمر من حديث علي وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم، وقال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كبيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شئ من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجا من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر [٣] قال ابن كثير: بعد أن ساق روايات عدة لحادثة انشقاق القمر: "فهذه طرق عن هؤلاء الجماعة من الصحابة، وشهرة هذا الأمر تغني عن إسناده مع وروده في الكتاب العزيز، والقمر في حال انشقاقه لم يزايل السماء بل انفرق باثنتين، وسارت إحداهما حتى صارت وراء جبل حراء، والأخرى من الناحية الأخرى، وصار الجبل بينهما، وكلتا الفرقتين في السماء، وأهل مكة ينظرون إلى ذلك، وظن كثير من جهلتهم أن هذا شيء سُحرت به أبصارهم، فسألوا من قدم عليهم من المسافرين، فأخبروهم بنظير ما شاهدوه، فعلموا صحة ذلك وتيقنوه"[٤].

التوثيق التاريخي لانشقاق القمر: سجل تاريخ الهند اسم ملك من ملوكهم هو: (جاكرواني فرماس) وأنه شاهد حادثة انشقاق القمر فسجلت إحدى المخطوطات التاريخية الهندية مايلي: " شاهد ملك ما جبار" مالابار" بالهند (جاكرواني فرماس) انشقاق القمر الذي وقع لمحمد، وعلم عند استفساره عن انشقاق القمر بأن هناك نبوة عن مجيء رسول من جزيرة العرب وحينها عين ابنه خليفة له، وانطلق لملاقاته وقد اعتنق الإسلام على يد النبي وعندما عاد إلى وطنه–بناء على توجيهات النبي–وتوفي في ميناء ظفار" «المخطوطة الهندية موجودة في مكتبة مكتب دائرة الهند بلندن التي تحمل رقم المرجع: عربي ٢٨٠٧، ١٥٢ إلى ١٧٣ وقد اقتبسها حميد الله في كتابه محمد رسول الله» وهذه المعلومات في مخطوطة هندية محفوظة في مكتبة دائرة الهند تحتوي على عدة تفصيلات أخرى عن (جاكرواني فرماس) وقد جاء في كتب الحديث ذكر الملك الهندي الذي وصل إلى النبي ففي مستدرك الحاكم: " عن أبي سعيد الخدري قال: ثم أهدى ملك الهند إلى رسول الله جرة فيها زنجبيل، فأطعم أصحابه قطعة قطعة وأطعمني منها قطعة قال الحاكم ولم أحفظ في أكل رسول الله الزنجبيل سواه"[٥] ومن المعلوم أن هذا الملك قد صار صحابيا بملاقته الرسول وإيمانه به وموته على ذلك وقد حفظت المراجع الإسلامية قصة هذا الصحابي الذي قدم من الهند فذكره الإمام ابن حجر العسقلاني في الإصابة، وفي لسان الميزان [٦] وقال إن اسمه (سربانك) وهذا هو الاسم الذي عرف به عند العرب وذكر ابن كثير (قد ذكر غير واحد من المسافرين أنهم شاهدوا هيكلا بالهند مكتوبا عليه أنه بني في الليلة التي انشق القمر فيها[٧].

واليوم في عصر العلم والمعرفة تتجدد هذه الآية العظيمة، فقد نشرت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا في موقعها على شبكة الإنترنت صورة للقمر وقد اخترطه خط طويل من أقصاه إلى أقصاه ويعتقد العلماء أنه أثر لانشقاق حصل في القمر قديماً وقد أسلم الاقتصادي السياسي البريطاني: داوود موسى بيكوك وشكل حزبا إسلاميا في بريطانيا بعد إسلامه

---

(١) –الترمذي ك/ الفتن ب/ ما جاء في انشقاق القمر، وذكر ذلك مسلم في صحيحه ك/ صفة القيامة ب/ انشقاق القمر والطيالسي في مسنده ١/ ٢٥٧.
(٢) –وذكر الحافظ ابن حجر أن أبا نعيم أخرج في الدلائل: أن كفار قريش زعموا أن ذلك سحر فسألوا المسافرين عن ذلك فأخبروهم بوقوعه.
(٣) –فتح الباري المرجع السابق.
(٤) –البداية والنهاية (٨/ ٥٦٤).
(٥) –مستدرك الحاكم ك/ الأطعمة ج ٤ ص ١٥.
(٦) –الإصابة ج ٣ ص ٢٧٩، لسان الميزان ج ٣ ص ١٠.» عن كتاب بينات الرسول ومعجزاته للزنداني ص ٢٢٦ .
(٧) –البداية والنهاية لابن كثير (٦/٧٧).

وهو الآن رئيس هذا الحزب، وكان سبب إسلامه ما ذكره ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكان في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) على شاشة التلفزيون البريطاني عند ما قالوا أنهم اكتشفوا إن في القمر آثارا دلتهم على أن القمر قد انشق نصفين وأنه عاد للالتئام مرة ثانية تاركا آثار ذلك الشق واضحة. ولما سأل المسلمين عن تاريخهم وهل سجل لديهم حادث انشقاق القمر وعرف منهم الجواب أعلن إسلامه [1].

في مقابلة تليفزيونية للأستاذ الدكتور زغلول النجار، سأله مقدم البرنامج عن هذه الآية؛ {اقتربت الساعة وانشق القمر }: هل فيها إعجاز قرآني علمي؟ فأجاب الدكتور زغلول قائلا: هذه الآية لها معي قصة فمنذ فترة كنت أحاضر في جامعة كارديف (Cardif) غرب بريطانيا، وكان الحضور خليطا من المسلمين وغير المسلمين، وكان هناك حوار حي للغاية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي أثناء هذا الحوار، وقف شاب من المسلمين وقال: يا سيدي هل ترى في قول الحق تبارك وتعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟ فأجبته: لا؛ فالإعجاز العلمي يفسره العلم، أما المعجزات فلا يستطيع العلم أن يفسرها، فالمعجزة أمر خارق للعادة فلا تستطيع السنن أن تفسرها، وانشقاق القمر معجزة حدثت لرسول الله تشهد له بالنبوة والرسالة، والمعجزات الحسية شهادة صدق على من رآها، ولولا ورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ما كان علينا نحن مسلمي هذا العصر أن نؤمن بها ولكننا نؤمن بها لورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ولأن الله تعالى قادر على كل شيء قال: ثم ذكرت لهم الروايات الثابتة في انشقاق القمر يقول الدكتور زغلول: وبعد أن أتممت حديثي وقف شاب مسلم بريطاني عرف بنفسه وقال: أنا داود موسى بيتكوك رئيس الحزب الإسلامي البريطاني، ثم قال: يا سيدي هل تسمح لي بإضافة؟ قلت له: تفضل. قال: وأنا ابحث عن الأديان–قبل أن يسلم–أهداني أحد الطلاب المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم، فشكرته عليها وأخذتها إلى البيت، وحين فتحت هذه الترجمة كانت أول سورة اطلعت عليها سورة القمر، وقرأت: {اقتربت الساعة وانشق القمر} فقلت: هل يعقل هذا الكلام؟! هل يمكن للقمر أن ينشق ثم يلتحم؟! وأي قوة تستطيع عمل ذلك؟! يقول الرجل: فصدتني هذه الآية عن مواصلة القراءة، وانشغلت بأمور الحياة، لكن الله تعالى يعلم مدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة، فأجلسني ربي أمام التلفاز البريطاني، وكان هناك حوار يدور بين معلق بريطاني وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين، وكان هذا المذيع يعاتب هؤلاء العلماء على الإنفاق الشديد على رحلات الفضاء، في الوقت الذي تمتلئ فيه الأرض بمشكلات الجوع والفقر والمرض والتخلف، وكان يقول: لو أن هذا المال أنفق على عمران الأرض لكان أجدى وأنفع، وجلس هؤلاء العلماء الثلاثة يدافعون عن وجهة نظرهم، ويقولون: إن هذه التقنية تطبق في نواحي كثيرة في الحياة، حيث إنها تطبق في الطب والصناعة والزراعة، فهذا المال ليس مالا مهدرا، لكنه أعاننا على تطوير تقنيات متقدمة للغاية.. في خلال هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل على سطح القمر باعتبار أنها أكثر رحلات الفضاء كلفة؛ فقد تكلفت أكثر من مائة ألف مليون دولار، فصرخ فيهم المذيع البريطاني وقال: أي سفه هذا؟! مائة ألف مليون دولار لكي تضعوا العلم الأمريكي على سطح القمر؟ فقالوا: لا، لم يكن الهدف وضع العلم الأمريكي فوق سطح القمر، كنا ندرس التركيب الداخلي للقمر فوجدنا حقيقة لو أنفقنا أضعاف هذا المال لإقناع الناس بها ما صدقنا احد، فقال لهم: ما هذه الحقيقة؟ قالوا: هذا القمر انشق في يوم من الأيام ثم التحم.

قال لهم: كيف عرفتم ذلك؟ قالوا: وجدنا حزاما من الصخور المتحولة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه، فاستشرنا علماء الأرض وعلماء الجيولوجيا، فقالوا: لا يمكن أن يكون هذا قد حدث إلا إذا كان هذا القمر قد انشق ثم التحم!! يقول الرجل المسلم «رئيس الحزب الإسلامي البريطاني»: فقفزت من الكرسي الذي أجلس عليه وقلت:

(١) –ذكر الحادثة الدكتور الزنداني في نفس المصدر السابق له

معجزة تحدث لمحمد قبل ألف وأربعمائة سنة يسخر الله تعالى الأمريكان لإنفاق أكثر من مائة ألف مليون دولار لإثباتها للمسلمين؟! لابد أن يكون هذا الدين حقا. يقول: فعدت إلى المصحف، وتلوت سورة القمر، وكانت مدخلا لقبول الإسلام دينا.(١)

يقول المباركفوري شارح الترمذي : اعلم أن أحاديث الباب صحيحة صريحة في ثبوت معجزة انشقاق القمر. قال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر، وقد يطلع على قوم قبل طلوعه على آخرين، وأيضا فإن زمن الانشقاق لم يطل ولم تتوفر الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك، فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك، وذلك لأن المسافرين في الليل غالبا يكونون سائرين في ضوء القمر، ولا يخفى عليهم ذلك، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه؛ لأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم البعث ويفنيه، وأما قول بعضهم: لو وقع لجاء متواترا واشترك أهل الأرض في معرفته، ولما اختص بها أهل مكة، فجوابه: أن ذلك وقع ليلا وأكثر الناس نيام، والأبواب مغلقة، وقل من يراصد السماء إلا النادر، وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكشف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد، فكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها، ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ، كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض، كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم. وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجا من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر، وقد أنكر ذلك بعضهم، فقال: لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس؛ لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة، فالناس فيه شركاء والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب، ونقل ما لم يعهد فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم؛ إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره، والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها، لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلا؛ لأن القمر لا سلطان له بالنهار، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياما ومستكنين بالأبنية، والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولا فما يلهيه من سمر وغيره، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر. وقال الرازي في تفسيره الكبير–بعد ما أثبت هذه المعجزة–ما لفظه: وأما المؤرخون تركوه، لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم. والقرآن أدل دليل، وأقوى مثبت له، وإمكانه لا يشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه) (٢). بعض الأدلة العلمية عن ناسا وعن حضارة المايا وبعض المخطوطات الفارسية التي سجلت وقوع انشقاق القمر في التاريخ زمن النبيﷺ في الرابط التالي فيه وفي مراجعه وروابطه تفاصيل علمية وتاريخية مهمة وشيّقة(٣)

---

(١) –جريدة الوطن الكويتية العدد (٩٧٤٧) السبت ٢٠٠٣/٣/٢٩، مقال للشيخ حامد العلي بعنوان روعة انتصار الإسلام.

(٢) –تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (٦/٣٤٢–٣٤٣).

(٣)– http://www.quran-m.com/quran/article/2653/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%86%D8%B4%D9%82%D8%A7%D9%82-%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%85%D8%B1

المبحث الثالث: حادثة الإسراء والمعراج

قال الله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير} [الإسراء: ١] أسرى تعالى بنبيه محمد في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء، ثم عاد فأصبح في مكة المكرمة، ولم يكن من الممكن لأحد في ذلك الزمان قطع هذه المسافة من مكة إلى بيت المقدس إلا في نحو شهر من الزمان ذهابا، وشهر إيابا، وقد اختبرت قريش النبي في هذه الحادثة: فعن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» [١] وفي رواية عبد الله بن عباس: أنهم بعد أن نعت ووصف المسجد الأقصى لهم قالوا: أما النعت فوالله لقد أصاب [٢] وقد ذُكر المعراج في التوراة الحالية، ولا يحق لأحد من النصارى أن ينكر إسراء النبي ومعراجه، فمثله ثابت في كتبهم لإيلياء وغيره، ففي العهد القديم: " وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء أن إيليا واليشع ذهبا من الجلجال " (سفر الملوك الثاني، ٢: ١) ،" وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار فصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء " (سفر الملوك الثاني، ٢: ١١)

في جملة ما ذكر عن صفات نبي آخر الزمان، أنه سيصعد إلى السماء، ويلتقي بالله وذلك ورد في فقرتين[٣]

١-ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن البشر (النبي المنتظر) آتيًا على سحاب السماء، فبلغ إلى القديم الأيام (الله تعالى) وقُرِّب إلى أمامه، وأوتي سلطانًا ومجدًا وملكًا، فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه (يعظمونه)، وسلطانه سلطان أبدي لا يزول ملكه ولا ينقرض" (دانيال ٧: ١٣-١٤). هذه الفقرة يفسرها النصارى على أنها مسير رمزي لناسوت المسيح عيسى —حسب اعتقادهم —في مراحل هذه الحياة حتى استقر في السماء كإله! وهو في نظرهم نبي آخر الزمان في مرحلة الناسوت هذه؛ لذلك كان مفسر طبعة دار المشرق للكتاب المقدس حريصاً حين قال عن هذا المعراج "مسير رمزي " ولم يدَّعِ مطلقًا معراجًا للمسيح عيسى، وهو عندهم نبي آخر الزمان كذلك ، لكن الأناجيل لا تذكر شيئًا عن هذه المرحلة المزعومة مما يهدم تفسيرهم هذا، بل إن قوله في هذه الفقرة أن النبي المنتظر صاحب هذه النبوءة سيقرّب من الرب يذكرنا بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث عن معراجه الذي ذكرناه آنفًا: (وَدَنَا لِلْجَبَّارِ رَبِّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى، حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى).

٢-" غنوا لله، رنموا لاسمه، أعدوا طريقًا للراكب في القفار (البراري) {السحاب} " السماء" باسمه ياه واهتفوا أمامه، أبو اليتامى وقاضي الأرامل الله في مسكن قدسه" (التوراة —المزامير ٦٨: ٤-٥) يلاحظ أن كلمة القفار قد وردت مختلفة تمامًا في الطبعات المختلفة، حيث نجدها في الطبعة الإنجليزية rsv سحاب، وفي طبعة king james السماء (heavens) وفي طبعة دار المشرق —بيروت "البراري"، ومن خبرتنا مع التوراة الحالية نفهم من ذلك أن هناك لبساً في معنى الكلمة هذا الخلط في الترجمة يرجع إلى أن الأصل العبري للكلمة هو "عرفات" وهي تعني حرفيًّا الصعود إلى السماء، إلا أنها كذلك عند اليهود تعني السماء السابعة، (علمنا ذلك من كتاب "البشارة بمحمد في التوراة " للأستاذ / عصام

---

(١) -أخرجه البخاري ك/ المناقب ومسلم ك/ الإيمان والترمذي في السنن ك/ التفسير وأحمد في المسند ٣/ ٣٧٧ وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٥٢ وغيرهم.

(٢) -أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٠٩ وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٣١٢ والطبراني في الكبير ١٢/ ١٦٧ والأوسط ٣/ ٥٢ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٨٤ وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٦٥: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما في تحقيق المسند ٥/ ٢٩.

(٣) — http://www.quran-m.com/quran/article/2561/%D9%85%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D8%AC-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%8A-%D8%B5%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%87-%D9%88%D8%B3%D9%84%D9%85-%D9%81%D9%8A-%D9%83%D8%AA%D8%A8-%D8%A3%D9%87%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AE%D9%81%D9%8A%D8%A9

رشاد) لا ندرك لماذا لم تترك الكلمة كما هي في الترجمات لمنع هذا الخلاف الشديد في الترجمة، خاصةً أن الأسماء لا تترجم، إلا أنها تعني مباشرة المكان المقدس عند المسلمين الذي يقفون فيه قُرب مكة في حجهم، ومن هو النبي المنتظر الراكب فوق هذا المكان (عرفات)؟

من هو أبو اليتامى وقاضي الأرامل كما تقول بقية النبوءة عن نبي آخر الزمان؟ إنه النبي محمد صاحب المعراج والراكب على عرفات أبو اليتامى وقاضي الأرامل أما كونه أبو اليتامى فنجد في الكتاب الذي جاء به (القرآن)—لا في غيره—الآتي: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام: ١٥٢]. {كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ-وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}، {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}، { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ-فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ }، { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } [الإنسان: ٨]. {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} وهكذا في أكثر من عشرين موضعًا في القرآن الكريم.

وأما كونه صلى الله عليه وسلم قاضي الأرامل، فهو بالفعل منصفهم، يكفي أن نقرأ في التوراة كيف تورَّث أرملة الأخ المتوفى لأخيه " إذا أقام أخوان معًا ثم مات أحدهما وليس له عقب فلا يجب أن تتزوج زوجة الميت رجلًا أجنبيًّا، بل أخوه يدخل عليها ويتخذها زوجة له ويقيم عقبًا لأخيه ". (تثنية ٢٥: ٥) كذلك كان الحال عند العرب في الجاهلية أما الأرملة النصرانية فتستحب لها ملتها ألا تتزوج بعد زوجها المتوفى كما قال بولس.

"ها هي ذي الأرملة الآن وقد صبحها الله بالإسلام، فانتهت عصور الظلام الرهيبة التي مرت عليها إلى غير رجعة، الأرملة لا تورث، وعدة الأرملة أربعة أشهرٍ وعشر ليالٍ ليس لإظهار الحزن ولكن لاستبراء الرحم فقط، ولا يحق لأحد أن يُخرج الأرملة من بيتها قبل انقضاء عام كامل، مضمونة لها فيه معيشتها وإقامتها من إرث زوجها المتوفى، بالإضافة إلى ميراثها الشرعي منه، والأرملة حرة من قبل ومن بعد، بمجرد انقضاء عدتها أن تفعل بنفسها ما تشاء في حدود شرع الله" وهي كذلك تستشار حتى في أمر فطام الولد.

يقول الباحث هشام طلبة صاحب البحث السابق :هذا ما وجدناه في الكتب القانونية " التوراة الحالية " أما المخطوطات الحديثة والكتب المخفية عند النصارى فقد وجدنا فيها نصًّا قاطعًا يتكلم عن معراجٍ لنبي آخر الزمان يتطابق مع معراج النبي وهو ذكر النبي إشعياء في سفره " إسراء إشعياء ": " ورأيت كيف صعد "المسيا" (وهو نبي آخر الزمان عند أهل الكتاب) إلى السماء السابعة، فيما كل الصديقين والملائكة يمجدونه حينئذٍ رأيته يجلس عن يمين المسجد الأعظم " (١) ،فمن هو النبي الذي عُرج به حتى السماء السابعة، أليس هو النبي محمدﷺ؟!

المبحث الرابع: خوارق ازدياد الطعام الذي لا يكفي عدة أشخاص فيطعم الجيش كله

بعث النبي في بيئة قليلة الغذاء والماء، وكان هو وأصحابه يتعرضون لحالات من الشدة يقل فيها الطعام والماء أو يكاد ينعدم، فكان مما أيده الله به من المعجزات تكثير القليل من الطعام والماء على يديه، فيتغلب هو وأصحابه بقدرة الله تعالى بهذه المعجزات والخوارق على ظروف البيئة الصحراوية القاسية، التي يحتاجون فيها للطعام والشراب، إلى جانب حاجتهم للماء من أجل الطهارة للعبادة، وأصبح ذلك من معجزاته التي رآها العشرات والمئات بل والآلاف من أصحابه، وتناقلها الناس في عهده ثم نقلت إلينا بأصح طرق الرواية، وإليك طرفا من هذه المعجزات، فمن معجزاته ﷺ الخارقة

(١) –الكتب المخفية عند النصارى هي طائفة كبيرة من الكتب يطلق عليها APOCRYPHA وهي تحتوي على نصوص لم يكن يعلمها إلا كبار علمائهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} أ.عصام راشد " البشارة بمحمد في التوراة " ص ٧٣. نقلًا عن " الأستاذ الحداد " – القرآن دعوة نصرانية – ص ١٦٢. منشورات المكتبة البولسية – بيروت.

للعادة، أن يكثر الله الطعام القليل الذي لا يكفي إلا الأفراد، فإذا به بعد نزول البركة فيه بفضل دعائه يكفي العشرات أو المئات أو الآلاف وقد وقع ذلك في مواقف متعددة، منها ما حدث عند حفر الخندق.

[١] –قصة وليمة جابر: قال جابر رضي الله عنه: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية «أرض صلبة» شديدة فجاؤوا النبي فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق فقال: أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبي المعول فضرب في الكدية فعاد كثيبا أهيل أو أهيم «غير متماسك رملا» فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت فقلت لامرأتي هل عندك شيء فإني رأيت برسول الله خمصا «جوعا» شديدا فأخرجت إلي جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها ثم وليت إلى رسول الله فقالت: لا تفضحني برسول الله وبمن معه فجئته فسارررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي فقال: يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع سورا «طعاما للضيافة» فحيهلا بكم، فقام المهاجرون والأنصار وقال رسول الله: لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء، فجئت وجاء رسول الله يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقلت: ويحك جاء النبي بالمهاجرين والأنصار ومن معهم!! فقالت: بك وبك فقلت: قد فعلت الذي قلت، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فأخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال ادع خابزة فلتخبز معي واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط «تغلي فيسمع غليانها» كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة [(١)]

[٢] –تكثير الطعام في غزوة تبوك: ومن خوارق تكثير الطعام القليل ليكفي الآلاف من أتباعه ما حدث في غزوة تبوك، حيث أصاب المسلمين فيها مجاعة، فقال الصحابة: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا «الإبل يسقى عليها» فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله: افعلوا ،قال فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك « بركة أو خيرا أو نحو ذلك» فقال رسول الله نعم، قال: فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم قال فجعل الرجل يجيء بكف ذرة قال: ويجيء الآخر بكف تمر قال ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير قال فدعا رسول الله عليه بالبركة ثم قال خذوا في أوعيتكم قال فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه قال فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة[(٢)] وقد روى سلمة بن الأكوع مثل هذه القصة فعن إياس بن سلمة عن أبيه قال خرجنا مع رسول الله في غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا «إبلنا التي تركب» فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاودنا فبسطنا له نطعا فاجتمع زاد القوم على النطع قال فتطاولت لأحزره كم هو؟ فحزرته كربضة العنز «أو كقدرها وهي رابضة » ونحن أربع عشرة مائة قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعا ثم حشونا جربنا ([٣]).

[٣] –قصة تكثير تمر جابر: قال جابر بن عبد الله : إن أباه توفي وترك عليه ثلاثين وسقا لرجل من اليهود فاستنظره جابر فأبي أن ينظره فكلم جابر رسول الله ليشفع له إليه فجاء رسول الله وكلم اليهودي ليأخذ ثمر نخله بالذي له فأبي اليهودي– وكان ثمر جابر لا يكفي لقضاء الدين فدخل رسول الله النخل فمشى فيها، ثم قال لجابر جد له «اقطع له» فأوف له الذي له فجدّه بعد ما رجع رسول الله فأوفاه ثلاثين وسقا، وفضلت له سبعة عشر وسقا، فجاء جابر

(١) –لفظ القصة من مجموع روايتين للإمام البخاري في صحيحه والإمام مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده ٣/ ٣٧٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٧٤ والدارمي في سننه ١/ ٣٣ وأبو عوانة في مسنده ٥/ ١٧٧ وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٣١٤ والفريابي في دلائل النبوة ص ٥٣ والأصبهاني في دلائل النبوة أيضا ١/ ٢٠٨.
(٢) –أخرجه مسلم وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٦٥ وأحمد في المسند ٣/ ١١ وأبو يعلى في مسنده ٢/ ٤١٢ والفريابي في دلائل النبوة ص ٣٣.» .
(٣) –أخرجه مسلم ك/ اللقطة ب/ استحباب خلط الأزواد إذا قلت والمواساة فيها.»

رسول الله ليخبره بالذي كان، فوجده يصلي العصر، فلما انصرف بشّره، فقال النبي: أشهد أني رسول الله، وقال: أخبر بذلك ابن الخطاب، فذهب جابر إلى عمر فأخبره، فقال له عمر: لقد علمت حين مشى فيها رسول الله ليباركنّ فيها [١] قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث قد روي من طرق متعددة عن جابر بألفاظ كثيرة، وحاصلها أنه ببركة رسول الله ودعائه له، ومشيه في حائطه وجلوسه على تمره، وفّى الله دين أبيه، وكان قد قُتل بأحد، وجابر كان لا يرجو وفاءه في ذلك العام ولا ما بعده، ومع هذا فضل له من التمر أكثر وفوق ما كان يؤمله ويرجوه ولله الحمد والمنة .[٢]

[٤]-إطعامه مائة وثلاثين رجلا من شاة: عن عبد الرحمن بن أبي أن رسول الله أطعم مائة وثلاثين رجلا من شاة وصاع طعام، وأعطى كل واحد منهم قطعة من سواد بطنها (الكبد) فشبعوا جميعا، وحملوا ما بقي من الطعام معهم[٣] قال النووي: في هذا الحديث معجزتان ظاهرتان لرسول الله إحداهما تكثير سواد البطن حتى وسع هذا العدد والأخرى تكثير الصاع ولحم الشاة حتى أشبعهم أجمعين، وفضلت منه فضلة حملوها لعدم حاجة أحد إليها

[٥] -البركة في حيسة أم سليم: أطعم الرسول عند زواجه بزينب زهاء «قدر» ثلاث مائة رجل من حيسة " تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن " صنعتها له أم سليم، وعند ما رفع أنس الحيسة بعد أن أكلوا جميعا، قال: فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت؟[٤].

[٦] -إطعامه سبعين أو ثمانين رجلا من أقراص أم سليم: فتّت أم سليم أقراصا قليلة من شعير وأدمته بسمن، فدعا رسول الله بالبركة، وأكل من هذه الأقراص سبعون أو ثمانون رجلا حتى شبعوا [٥].

[٧] -تكثير شطر وسق شعير ببركته: عن جابر أن رجلا أتى النبي يستطعمه فأطعمه شطر وسق شعير فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما حتى كاله فأتى النبي فقال لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم [٦] .

[٨] -ظهور بركته في شطر شعير لزوجته أم المؤمنين عائشة: عن عائشة قالت: توفي رسول وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال عليّ فكلته "وزنته" ففني [٧].

[٩] -قصة تمرات أبي هريرة: عن أبي هريرة قال أتيت النبي بتمرات فقلت: يا رسول الله، ادع الله فيهن بالبركة، فضمهن ثم دعا لي فيهن بالبركة، فقال: خذهن واجعلهن في مزودك هذا أو في هذا المزود «وعاء الزاد» كلما أردت أن تأخذ منه شيئا فأدخل فيه يدك فخذه ولا تنثره نثرا، فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من وسق في سبيل الله فكنا نأكل منه ونطعم، وكان لا يفارق حقوي حتى كان يوم قتل عثمان فإنه انقطع [٨] .

[١٠] -قصعة الثريد" الخبز يفت ثم يبل بالمرق وربما كان معه لحم" التي كانت تمد: عن سمرة بن جندب قال بينا نحن عند النبي إذ أتي بقصعة فيها ثريد قال: فأكل وأكل القوم فلم يزل يتداولونها إلى قريب من الظهر يأكل كل قوم ثم

---

(١) -الوسق يساوي ستين صاعا، والصاع يساوي أربعة أمداد، والمد ملء اليدين من الرجل المعتدل الكف والحديث أخرجه البخاري ك/ الاستقراض وأداء الديون وابن ماجه ك/ الصدقات ب/ أداء الدين عن الميت، وأبو عوانه في مسنده ٣/ ٤٠٦ والطبراني في المعجم الأوسط ٩/ ٦٨ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٣٥.

(٢) -البداية والنهاية ٦/ ١٢١.» .

(٣) -البخاري ك/ الهبة/ ومسلم ك/ الأشربة وأحمد في مسنده ١/ ١٩٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢١٥.» و «شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٦».

(٤) -أخرجه البخاري ك/ النكاح ب/ الهدية للعروس ومسلم ك/ النكاح ب/ زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب واللفظ له والترمذي ك/ التفسير ب/ ومن سورة الأحزاب والنسائي ك/ النكاح ب/ الهدية لمن عرس وأحمد في مسنده ٣/ ١٦٣ وأبو يعلى في مسنده باختصار ٧/ ٣١٥ والطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ٤٦.»

(٥) -أخرجه البخاري ك/ المناقب ومسلم ك/ الأشربة والترمذي في سننه ك/ المناقب، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٦٩، ومالك في الموطأ ٢/ ٩٢٧»

(٦) -أخرجه مسلم ك/ الفضائل ب/ في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وأحمد ٣/ ٣٤٧.

(٧) -أخرجه البخاري ك/ الرقاق ب/ فضل الفقر، ومسلم ك/ الزهد والرقائق، وابن ماجه ك/ الأطعمة ب/ خبز الشعير وأحمد في مسنده ٦/ ١٠٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٧ وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ١٣٢.

(٨) -أخرجه الترمذي في المناقب وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٣٥: حسن الإسناد قال الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول ١١/ ٣٦٤: وهو حديث حسن وأخرجه أحمد ٢/ ٣٥٢، والبيهقي في الدلائل ٦/ ١٠٩، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٦٧، وإسحاق بن راهواه في مسنده ١/ ٧٥.

يقومون ويجيء قوم فيتعاقبوه قال: فقال له رجل: هل كانت تمد بطعام قال أما من الأرض فلا إلا أن تكون كانت تمد من السماء [١] .

[١١] -إطعام عمر أربعمائة من مزينة من تمر قليل: عن النعمان بن مقرن قال قدمنا على رسول الله في أربع مائة من مزينة فأمرنا رسول الله بأمره فقال بعض القوم يا رسول الله ما لنا طعام نتزوده فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر زودهم فقال ما عندي إلا فاضلة من تمر «ما بقي منه» وما أراها تغني عنهم شيئا فقال انطلق فزودهم فانطلق بنا إلى علية « غرفة في الطبقة الثانية من الدار أو ما فوقها» له فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق «الجمل الذي في لونه بياض إلى سواد» فقال: خذوا فأخذ القوم حاجتهم قال وكنت أنا في آخر القوم، قال: فالتفت وما أفقد موضع تمرة وقد احتمل منه أربع مائة رجل [٢] .

[١٢] -در لبن شاة بيده وهي لا تحلب: عن عبد الله بن مسعود قال: كنت أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط فمر بي رسول الله وأبو بكر فقال: «يا غلام هل من لبن» قال: قلت نعم ولكني مؤتمن قال: «فهل من شاة لم ينز عليها الفحل» «يعني لم تحمل فالشاة لا يدر لبنها إلا بعد أن تحمل وتلد» فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر ثم قال للضرع: «اقلص فقلص» [٣]

[١٣] -تكثير اللبن (قصة أبي هريرة): أصاب أبا هريرة جوع شديد، فمر به النبي فدعاه إلى بيته حيث وجد قدحا من لبن فأمر أبا هريرة فدعا أهل الصفة «أهل الصفة: طائفة من الصحابة فقراء كانوا يتخذون من المسجد سكنا لهم.» فأخذوا مجالسهم من البيت، ثم أمره فسقاهم جميعا حتى رووا من ذلك القدح، ثم أمره النبي فشرب فمازال يقول له: اشرب حتى قال أبو هريرة لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا، فأخذ رسول الله منه القدح وسمى وش رب الفضلة[٤] قال ابن حجر: وفيه معجزة عظيمة، وقد تقدم لها نظائر في علامات النبوة من تكثير الطعام والشراب ببركته صلى الله عليه وسلم

[١٤] -تكثير اللبن (قصة المقداد وصاحبيه): وقريب من قصة أبي هريرة قصة الرسول مع المقداد إلا أن البركة في قصة المقداد نزلت على ضروع الغنم فامتلأت باللبن الكثير في غير وقت حلبها[٥].

[١٥] -تكثير السمن لأم مالك: عن جابر أن أم مالك كانت تهدي للنبي في عكة " إناء صغير للسمن " لها سمنا فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندهم شيء فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي فتجد فيه سمنا فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته فأتت النبي فقال عصرتيها قالت نعم قال لو تركتيها ما زال قائما [٦].

---

(١) -أحمد في المسند ٥/ ١٢، والترمذي في المناقب ب/ ما جاء في آيات نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: حديث حسن صحيح، قال الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول ١١/ ٣٦٣: وهو كما قال، والنسائي في السنن الكبرى ٤/ ١٧٠، والحاكم في المستدرك ٢/ ٦٧٥ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل بإسنادين قال في أحدهما هذا إسناد صحيح ٦/ ٩٣ وأبو نعيم في الدلائل ٢/ ٥٥١، والدارمي ١/ ٤٣ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٩٢ والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ٢٣٢، وابن حبان كما في موارد الظمان ص ٥٢٧.

(٢) -أحمد ٥/ ٤٤٥، وأبو نعيم في الدلائل ٢/ ٥٤٨-٥٤٩ وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٦٢ وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٠٤: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح. وروى أبو داود طرفا منه ولفظه: أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فسألناه الطعام، فقال: يا عمر اذهب فأعطهم، فارتقى بنا إلى علية فأخذ المفتاح من حجزته ففتح، انظر صحيح سنن أبي داود للألباني ٣/ ٩٨٣ وقال أبو عبد الله المقدسي: وإسناده على شرط الصحيح انظر الجواب الصحيح ٦/ ٢٥٤.

(٣) -أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٩٧، ٤٦٢، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٣٣ أبو داود الطيالسي ١/ ٤٧ وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٣٢٧ وأبو يعلي في مسنده ٨/ ٤٠٣ والطبراني في المعجم الكبير ٩/ ٧٨ وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٦/ ١٩٠.

(٤) -أخرجه البخاري ك/ الرقاق ب/ والترمذي في السنن ك/ وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٧٢ وأحمد في المسند ٢/ ٥١٥ والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٤٦ وهناد في الزهد ٢/ ٣٩٤ وإليك القصة كاملة: قال مجاهد إن أبا هريرة كان يقول الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر فلم يفعل ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين

(٥) -أخرجه مسلم ك/ الأشربة ب/ وأحمد في المسند ٦/ ٢، والترمذي مختصرا ك/ الاستئذان ب/ كيف السلام وكذلك البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨٨ وكذا النسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٨٣ وأخرجه البزار في مسنده ٦/ ٤٢ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ١٣٤»

(٦) -أخرجه مسلم ك/ الفضائل ب/ في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأحمد في مسنده ٣/ ٣٤٠.

المبحث الخامس: معجزات الرسولﷺ في تكثير الماء القليل

بعث الرسول في بيئة صحراوية جافة وكان هو وأصحابه يخرجون كثيرا للغزوات دفاعا عن الدين وكانوا يتعرضون لقلة الماء أو فقده فيعطشون ويحتاجون الماء أيضا للطهارة للعبادة فكان الله سبحانه يري الصحابة خوارق تكثير الماء القليل على يد النبي ونسوق إليك طرفا من هذه الحوادث التي سجلتها كتب السنة من أوثق مصادرها

[١] –فوران الماء من بين أصابع النبي في غزوة الحديبية: عن جابر قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة «إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء» فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله: ما لكم قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك قال: فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قال فشربنا وتوضأنا فقلت لجابر كم كنتم يومئذ قال لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة، وقد روى سلمة بن الأكوع مثل هذه القصة [١].

[٢] –تكثير ماء بئر الحديبية: وعن البراء قال كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة فجلس النبي على شفير البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر، فمكثنا غير بعيد ثم استقينا حتى روينا وروت أو صدرت ركائبنا، وروى هذه الحادثة أيضا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه[٢].

[٣] –معجزة دغفقة الماء من الإناء: مر بناء في معجزة تكثير الطعام حديث سلمة كيف بارك الله في طعام قليل كربضة العنز فكفى ألفا وأربع مئة من الصحابة رضي الله عنهم وفي تمامه قال سلمة: فقال نبي الله: " فهل من وضوء؟ " قال فجاء رجل بإداوة له فيها نطفة فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة [٣] (أي نصبه صبا شديدا) ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم في تكثير الماء القليل:

[٤] –وضوء سبعين أو ثمانين رجلا من الماء النابع من بين أصابعه وهي في الإناء: عن أنس أن النبي دعا بإناء من ماء فأتي بقدح رحراح " القريب القعر مع سعة فيه "فيه شيء من ماء فوضع أصابعه فيه، قال أنس فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه، قال أنس فحزرت من توضأ ما بين السبعين إلى الثمانين .. [٤] .

[٥]– وضوء ثلاثمائة من ماء نابع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم: عن أنس قال أتي النبي بإناء وهو بالزوراء «موضع بالمدينة» فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم قال قتادة قلت لأنس كم كنتم، قال: ثلاث مائة أو زهاء ثلاث مائة [٥] قال الحافظ بن حجر في هاتين القصتين اللتين رواهما أنس: وظهر لي من مجموع الروايات أنهما قصتان في موطنين، للتغاير في عدد من حضر، وهي مغايرة واضحة يبعد الجمع فيها، وكذلك تعيين المكان الذي وقع ذلك فيه[٦] . قال عياض: هذه القصة رواها الثقات من العدد الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العساكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته. وقال القرطبي: قضية نبع الماء من بين أصابعه تكررت منه في عدة مواطن

---

(١) –أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٦٥ وابن حبان في صحيحه أيضا ١٤/ ٤٨٠ وأبو عوانة في مسنده ٤/ ٤٢٨ والدارمي في سننه ١/ ٢٧ وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٣٨٧ وأحمد في المسند ٣/ ٣٢٩ والطيالسي في مسنده ١/ ٢٣٩ والفريابي في دلائل النبوة ص ٧٠ والأصبهاني في دلائل النبوة أيضا ١/ ٤٨ وغيرهم. أخرجه مسلم ك/ المغازي ب/ استحباب خلط الأزواد إذا قلت، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١١٨، ١١٩.

(٢) –أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة في الإسلام، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١١٠–١١١.

(٣) –أخرجه مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ غزوة ذي قرد وغيرها والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١١١. رواه مسلم ك/ المغازي ب/ استحباب خلط الأزواد إذا قلت.

(٤) –أخرجه البخاري ك/ الوضوء ب/ الوضوء من التور، ومسلم ك/ الفضائل ب/ في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٦٥، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٨١، وأحمد في المسند ٣/ ١٤٧ وأبو يعلى في مسنده ٦/ ٧٢ وعبد بن حميد في مسنده ١/ ٤٠٣ والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٢٢.

(٥) –أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة في الإسلام ومسلم ك/ الفضائل ب/ في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٨٤ وأحمد في مسنده ٣/ ٢٨٩ والفريابي في دلائل النبوة ص ٥٦ والأصبهاني في دلائل النبوة أيضا ١/ ١٢٧ وكذلك البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٢٤–١٢٥.

(٦) –فتح الباري (٧/ ٢٨٣، ط. دار الفكر، ١٤١٤ هـ–١٩٩٣ م.

في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي[١] ... قال: ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا [٢] .

وقد روى عبد الله بن مسعود مثل قصة أنس: فعنه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله في سفر فقل الماء، فقال اطلبوا فضلة من ماء، فجاؤا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال حي على الطهور المبارك، والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٣] .

[٦] –قصة تكثير ماء المزادتين: عن عمران قال: كنا في سفر مع النبي فذكر الحديث إلى قوله: فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا رجلا من أصحابه ودعا عليا فقال اذهبا فابتغيا الماء، فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزداتين أو سطيحتين « وعاء يحمل فيه الماء في السفر » من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، ونفرنا خلوف « غائبون » قالا لها: انطلقي إذا، قالت إلى أين؟ قالا إلى رسول الله قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي فجآ بها إلى النبي وحدثاه الحديث، قال: فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو سطيحتين وأوكأ «شد أفواههما بخيط» أفواههما وأطلق العزالي «فم القربة الأسفل» ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء ... وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها، فقال النبي: اجمعوا لها، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة «طعام يتخذ من مدقوقة الحنطة والشعير» حتى جمعوا لها طعاما فجعلوه في ثوب وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، قال لها: تعلمين ما رزئنا «ما نقصنا» من مائك شيئا ولكن الله هو الذي أسقانا (وفي صحيح مسلم قال الراوي عمران بن حصين فشربنا ونحن أربعون رجلا عطاشى حتى روينا وملأنا كل قربة معنا وإداوة) فأتت أهلها وقد احتبست عنهم قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ؟ ففعل كذا وكذا، فو الله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه، وقالت بإصبعيها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء [تعني السماء والأرض] أو إنه لرسول الله حقا، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذي هي منه، فقالت يوما لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدا، فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها فدخلوا في الإسلام[٤].

[٧] –تكثير الماء في جفنة فارغة: اشتدت حاجة المسلمين للماء فكلف الرسول جابرا أن يبحث عن بقية ماء، فوجد قليلا من الماء في سقاء بالى، قال جابر: فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو، ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه، فقال: يا جابر: ناد بجفنة، فقلت: يا جفنة الركب، فأتيت بها تحمل فوضعتها بين يديه، فقال رسول الله بيده في الجفنة هكذا فبسطها وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة، وقال: خذ يا جابر فصب علي وقل: باسم الله، فصببت عليه وقلت: باسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت، فقال: يا جابر ناد من كان له حاجة بماء، قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا، قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة، فرفع رسول الله يده من الجفنة وهي ملأى، وشكا الناس إلى رسول الله الجوع، فقال: عسى الله أن يطعمكم فأتينا سيف البحر

---

(١) –التواتر المعنوي: هو أن يروي الجمع الذي يستحيل تواطؤه على الكذب حادثة معينة لا بلفظ واحد ولكن بمعنى واحد وألفاظ مختلفة.

(٢) –قال الحافظ: وحديث نبع الماء جاء من رواية أنس عند الشيخين وأحمد وغيرهم من خمسة طرق وعن جابر بن عبد الله من أربعة طرق وعن ابن مسعود عند البخاري والترمذي وعن ابن عباس عند أحمد والطبراني من طريقين وعن ابن أبي ليلى والد عبد الرحمن عند الطبراني ... وأما تكثير الماء بأن يلمسه بيده أو يتفل فيه أو يأمر بوضع شيء فيه كسهم من كنانته فجاء في حديث عمران بن حصين في الصحيحين وعن البراء بن عازب عند البخاري وأحمد من طريقين وعن أبي قتادة عند مسلم وعن أنس عند البيهقي في الدلائل وعن زياد بن الحارث الصدائي عنده وعن حبان بن الصنابح الصدائي.

(٣) –أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة في الإسلام، وأحمد في المسند ١/ ٤٦٠، والدارمي في مسنده ١/ ٢٨ والبزار في مسنده ٤/ ٣٠١ والشاشي في مسنده ١/ ٣٥٩، وأبو يعلي في مسنده ٩/ ٢٥٣ والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٢٩–١٣٠ وغيرهم.

(٤) –أخرجه البخاري ك/ التيمم ومسلم ك/ المساجد ب وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٥٩ مختصرا وابن حبان في صحيحه ٤/ ١٢٢ وأحمد في المسند ٤/ ٤٣٤ والبزار في مسنده ٩/ ٥٩ والطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ١٣٣ وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٣١٧ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٣٧ والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٢٧٧.

« ساحل البحر » فزخر البحر زخرة « فاض » فألقى دابة، فأورينا « فأوقدنا» على شقها النار فاطبخنا واشتوينا وأكلنا حتى شبعنا، قال جابر: فدخلت أنا وفلان وفلان حتى عد خمسة في حجاج عينها « عظمها المستدير بها» ما يرانا أحد حتى خرجنا، فأخذنا ضلعا من أضلاعه فقوسناه، ثم دعونا بأعظم رجل في الركب، وأعظم جمل في الركب، وأعظم كفل «الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه لئلا يسقط» في الركب، فدخل تحته ما يطأطئ رأسه [١].

[٨] –قصة ميضأة أبي قتادة: عن أبي قتادة قال خطبنا رسول الله فقال: إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غدا فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد «لا ينتظر أحد أحدا.» ... ثم إن دعا بميضأة « إناء صغير يحمل فيه الماء للوضوء» كانت معي فيها شيء من ماء قال فتوضأ منها وضوآ دون وضوء « وضوء خفيفا » قال وبقي فيها شيء من ماء ثم قال لأبي قتادة احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ ... قال فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمي كل شيء وهم يقولون: يا رسول الله، هلكنا عطشنا فقال لا هلك عليكم ثم قال أطلقوا لي غمري « القدح الصغير » قال ودعا بالميضأة فجعل رسول الله يصب وأبو قتادة يسقيهم فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا « تزاحموا » عليها فقال رسول الله: «أحسنوا الملأ كلكم سيروى» قال ففعلوا فجعل رسول الله يصب وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله قال ثم صب رسول الله فقال لي اشرب فقلت لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله، قال إن ساقي القوم آخرهم شربا، قال فشربت وشرب رسول الله قال فأتى الناس الماء جامين رواء « مستريحين قد رووا من الماء » وكانوا ثلاثمائة [٢] .

[٩] –قصة تكثير الماء في غزوة تبوك: قال معاذ بن جبل: خرجنا مع رسول الله عام غزوة تبوك ... ثم قال: إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار ... والعين مثل الشراك تبض « ماء قليل جدا قاله النووي » بشيء من ماء ... ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع الماء في شيء، قال: وغسل رسول الله فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو قال غزير قال حتى استقى الناس، ثم قال يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا [٣] .

المبحث السادس: معجزات شفاء المرضى وخوارقها

كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتعرضون لأنواع من المرض والجراح أثناء غزواتهم، فيأتيه بعضهم فيدعو الله لهم، فيكرمه الله بشفاء من دعا له على الفور أمام أعين المشاهدين، وقد سجلت السنة الصحيحة عددا من هذه المعجزات، نذكر منها مايلي:

[١] –شفاء عليّ من رمده في غزوة خيبر: عن سهل بن سعد سمع النبي يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه، فقاموا يرجون لذلك أيّهم يعطى فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: أين علي؟ فقيل يشتكي عينيه فأمر فدعي له فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء، فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فو الله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم [٤] .

---

(١) –أخرجه مسلم ك/ الزهد ب/ حديث جابر الطويل وابن حبان في صحيحه بنحوه ١٤/ ٤٥٧ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٥٦.

(٢) –أخرجه مسلم ك/ المساجد ومواضع الصلاة وأحمد في مسنده ٥/ ٣٠٢ وأبو يعلى في مسنده بنحوه ٧/ ٢٣٤–٢٣٥ والفريابي في دلائل النبوة ص ٦٢–٦٧ والأصبهاني في دلائل النبوة أيضا ١/ ٨٨، أحمد في مسنده ٥/ ٢٩٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم، كما في تحقيق المسند ٣٧/ ٢٣٨.

(٣) –أخرجه مسلم ك/ الفضائل ب/ في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٨٢ وابن حبان في صحيحه ٤/ ٤٦٩–٤٧٠ وعبد الرزاق في المصنف ٢/ ٥٤٥–٥٤٦ وأحمد في المسند ٥/ ٢٣٧ والطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٥٧ والفريابي في دلائل النبوة ص ٥٩.

(٤) –أخرجه البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة ومسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ من فضائل علي بن أبي طالب وابن حبان في صحيحه ١٥/ ٣٧٨ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٠٦ والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٤٦ وسعيد بن منصور في السنن ٢/ ٢١٥.

[٢] -شفاء ساق سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: عن يزيد بن أبي عبيد قال رأيت أثر ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة! فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة [١] .

[٣] -شفاء ساق عبد الله بن عتيك: عن البراء بن عازب قال: بعث رسول الله إلى أبي رافع اليهودي رجالا من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز (وذكر قصة قتله) ثم قال: فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز! فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء! فقد قتل الله أبا رافع! فانتهيت إلى النبي فحدثته، فقال: ابسط رجلك، فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط [٢] .

[٤] -ظهور أثر بركته في مسحه رأس حنظلة بن حذيم: مسح النبي رأس حنظلة بن حذيم وقال: بارك الله فيك أو بورك فيه، فكان حنظلة بعد ذلك إذا أتي بإنسان متورم الوجه أو بهيمة وارمة الضرع، يتفل على يديه، ثم يضع يده على رأسه على الموضع الذي مسحه رسول الله ثم يمسح مكان الورم فيذهب الورم [٣].

هذا وقد علم النبي الصحابة والمسلمين من بعدهم أدعية يدعون بها لكشف المرض فيجدون الشفاء المستمر، وهذا موجود إلى يومنا هذا، وخاصة عند مراعاتهم لآداب الدعاء المشروع انظر كتاب:" الأذكار" للحافظ النووي، وكتاب: الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية لجيلان العروسي ويدخل ذلك في تصديق الله لرسوله بإجابة دعاء أتباعه الصادقين.

المبحث السابع: شهادة الشجر برسالة النبي صلى الله عليه وسلم:

حيث شهد الشجر له بصدق الرسالة، وتحرك الشجر يشق الأرض شقا، ونزل عذق النخلة امتثالا لأمره صلى الله عليه وسلم، وسمع الصحابة حنين جذع النخلة حين فارقه حتى رجع فسكنه كما يسكن الصبي، وهذه من الخوارق التي لا تجري إلا على يد رسول صادق مؤيد من الله سبحانه.

[١] -نزول العذق: عن ابن عباس: أن أعرابيا جاء إلى النبي فقال: بم أعرف أنك نبي؟!، قال: إن دعوت هذا العذق" غصنها الذي يكون فيه الرطب" من هذه النخلة تشهد أني رسول الله؟ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: ارجع، فعاد فأسلم الأعرابي [٤] .

[٢] -السلمة التي مشت: عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له رسول الله: أين تريد؟، قال: إلى أهلي، قال هل لك في خير؟ قال: وما هو؟، قال تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، قال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال هذه السلمة!" نوع من الشجر" فدعاها رسول الله وهي

---

(١) -أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ غزوة خيبر وأبو داود في السنن ك/ الطب ب/ كيف الرقى وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٣٩ وأحمد في مسنده ٤/ ٤٨.

(٢) -أخرجه البخاري ك/ المغازي والبيهقي في السنن ٩/ ٨٠ والروياني في مسنده ١/ ٢١٥ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ١٢٥ والطبري في تاريخه ٢/ ٥٥-٥٦

(٣) -رواه أحمد في مسنده ٥/ ٦٧ وقال في مجمع الزوائد ٤/ ٢١١: ورجاله ثقات ورواه أيضا الطبراني في المعجم الكبير ٤/ ٦ و ٤/ ١٣ وفي المعجم الأوسط ٣/ ١٩١ وذكره البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٣٧ وابن حجر في الإصابة ٢/ ١٣٣، وإسناده صحيح كما في تحقيق المسند ٣٤/ ٢٦٣.

(٤) -صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٩٣ وأخرجه أيضا الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٧٦ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والبيهقي في الاعتقاد ص ٤٨، وأخرج القصة بلفظ آخر وفيه أن الأعرابي من بني عامر أحمد في المسند ١/ ٢٢٣ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٨٠٧ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٥١ والمقدسي في المختارة ٩/ ٥٥٥ وذكره في مجمع الزوائد بنحوه ٩/ ١٠.

بشاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض خدا «تشق الأرض شقا» حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثا، فشهدت ثلاثا أنه كما قال ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال: إن اتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت فكنت معك [١] .

[٣] -انقياد شجرتين له صلى الله عليه وسلم: عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار ... فذكر حديثا عن جابر إلى قوله: سرنا مع رسول الله حتى نزلنا واديا أفيح «متسعا» فذهب رسول الله يقضي حاجته فاتبعته بإداوة «إناء صغير يحمل فيه الماء » من ماء، فنظر رسول الله فلم ير شيئا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي علي بإذن الله، فانقادت معه كالبعير المخشوش « الذي في أنفه خشاش وهو عود يجعل في أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانقياده.» الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما -يعني جمعهما- فقال: التئما علي بإذن الله، فالتأمتا، قال جابر: فخرجت أحضر «السرعة في الجري» مخافة أن يحس رسول الله بقربي فيبتعد، فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق [٢] أي كما كانت.

[٤] -حنين الجذع شوقا إليه صلى الله عليه وسلم: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة دفع «اتجه» إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمها إليه تئن أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها[٣] .

قال الحافظ ابن كثير: وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن[٤]

المبحث الثامن: معجزات خارقة في شهادة الحيوان وانقياده

[١] -شهادة الذئب بنبوته: عن أبي سعيد الخدري: قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى «جلس مفترشا رجليه ناصبا يديه» الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إلي! فقال يا عجبي! ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس!! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق! قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله لم فأخبره، فأمر رسول الله فنودي الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم فقال رسول الله: صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة « طرفه »

---

(١) -أخرجه الدارمي ١/ ٢٢ وأبو يعلى في مسنده ١٠/ ٣٤ وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٣٤ والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٣١ والفاكهي في أخبار مكة ٤/ ٢٩ وقال في مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٢: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى أيضا والبزار وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١٣٠

(٢) -أخرجه مسلم في آخر صحيحه ك/ الزهد والرقائق ب/ حديث جابر الطويل وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٥٥-٤٥٦ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٥٣-٥٥ والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٩٤ ورواه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٢٢ ورواه من حديث يعلى بن سيابة أحمد في مسنده ٤/ ١٧٢ وابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٢٢١ وغيرهما قال ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٢٢: وروي عن يعلى من وجوه. ونسبه في مجمع الزوائد ٩/ ٦، ٧ إلى أحمد والطبراني بنحوه وحسن إسناده وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ١٤٥-١٤٨.

(٣) -أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة في الإسلام وابن ماجه ك/ إقامة الصلاة ب/ ما جاء في بدء شأن المنبر والترمذي ك/ المناقب ب/ في آيات إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحمد في مسنده ٣/ ٣٠٠ والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٩٥ وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٣٥- ٤٣٨، والمقدسي في المختارة ٤/ ٣٥٦ والدارمي في السنن ١/ ٢٩ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٧٩٧- ٨٠٢ وذكر له طرقا عن جماعة من الصحابة، والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٤٦ وأبو يعلى في مسنده ٥/ ١٤٢ وابن الجعد في مسنده ص ٤٦٦ وابن المبارك في الزهد ص ٣٦٢ وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١٣١- ١٣٨ من رواية الشافعي والبزار في مسنده وأبي بكر بن أبي شيبة وعبد بن حميد الليثي أيضا. ونسبه اللالكائي في كتابه المذكور آنفا إلى ابن خزيمة.

(٤) -البداية والنهاية ٦/ ١٣١، وذكر الحديث من رواية أبي وأنس وجابر وسهل بن سعد وابن عباس وابن عمر وأبي سعيد وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم جميعا.

سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده [١]، وذكر الحافظ ابن عدي عن ابن أبي داود أن ذرية هذا الراعي في مدينة مرو، وأنه يقال لهم: بنو مكلم الذئب [٢]، واستدل البيهقي بذلك على اشتهار القصة وقوة الحديث[٣] .

[٢] -شكوى جمل له من صاحبه: عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلفه ذات يوم ... فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا جمل فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمسح ذفراه «العظم الشاخص خلف الأذن» فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه «تديم عليه العمل فيتعب» [٤] .

[٣] -استجابة جمل استصعب على أهله: عن أنس بن مالك قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون «يسقون» عليه، وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاؤا إلى رسول الله فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: قوموا، فقاموا، فدخل الحائط- والجمل في ناحية فمشى النبي نحوه، فقالت الأنصار: يا نبي الله إنه قد صار مثل الكلب الكلب « أصابه داء الكلب، وهو مرض معد ينتقل فيروسه في اللعاب بالعض من الفصيلة الكلبية إلى الإنسان وغيره » وإنا نخاف عليك صولته، فقال: ليس علي منه بأس، فلما نظر الجمل إلى رسول الله أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك، فقال: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها [٥] قال أبو نعيم في ما تضمنته هذه الحادثة وأمثالها: إما أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أعطي علما بمنطق هذه البهائم، فذلك له آية كما كان لسليمان عليه السلام آية بعلم منطق الطير، أو أنه علم ذلك بالوحي، وأي ذلك كان ففيه أعجوبة وآية معجزة [٦] .

[٤] -تأدب الوحش معه: قالت عائشة: كان لآل رسول الله وحش «حيوان البر الوحشي مثل حمار الوحش وبقر الوحش» فإذا خرج رسول الله لعب واشتد وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله قد دخل ربض فلم يترمرم " أي سكن ولم يتحرك "ما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت كراهية أن يؤذيه [٧] .

---

(١) -القصة وردت من رواية أبي سعيد الخدري ومن رواية أبي هريرة وقد أخرجها الإمام أحمد في المسند ٢/ ٣٠٦ و٣/ ٨٣-٨٨. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١٥٠: وهذا إسناد على شرط الصحيح. وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤١٩ والحاكم في المستدرك ٤/ ٥١٤ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وعبد بن حميد في مسنده ١/ ٢٧٧ وإسحاق بن راهوية في مسنده ١/ ٣٥٧ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ١١٢-١١٣ والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٤١-٤٢ إسناد صحيح.

(٢) -الكامل لابن عدي ٢/ ١٥٠.

(٣) -دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٤٤، وعنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١٥٢، وانظر الإصابة لابن حجر لمعرفة اسم مكلم الذئب ١/ ١٤١.

(٤) -والحديث أخرجه أبو داود ك/ الجهاد ب/ ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم والحاكم في المستدرك ٢/ ١٠٩، وقال: صحيح الإسناد والمقدسي في الأحاديث المختارة ٩/ ١٥٨- ١٦٠ وأبو عوانة في مسنده ١/ ١٦٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٣، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٣٢٢ وأحمد في المسند ١/ ٢٠٤ وأبو يعلى في مسنده ١٢/ ١٥٩ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ١٥٩ قال الذهبي في تاريخ الإسلام: أخرج مسلم منه إلى قوله: حائش نخل، وباقية على شرط مسلم ص ٣٤٨ من السيرة النبوية، وصححه الألباني أيضا في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٤٨٤.

(٥) -أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٥٨ وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٣٥ قال ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١٤٢: هذا إسناد جيد، وقد روى النسائي بعضه. وأخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة ٥/ ٢٦٦ وحسن إسناده قال في مجمع الزوائد ٩/ ٤: رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخي أنس وهو ثقة وذكر له الحافظ ابن كثير شواهد في البداية والنهاية ٦/ ١٤٢ وما بعدها، والهيثمي في المجمع ٩/ ٤ وما بعدها. وذكر نحوه الذهبي في تاريخ الإسلام ص ٣٤٨ من السيرة النبوية، وفيه: ما سجد لي، ولكن سخره الله لي، وانظر تحقيق المسند ٢٠/ ٦٥-٦٦.

(٦) -دلائل النبوة ٢/ ٤٩٩ لابو نعيم.

(٧) -أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١١٢ و ٦/ ١٥٠ وإسحاق بن راهواه في مسنده ٣/ ٦١٧ وأبو يعلي في مسنده ٧/ ٤١٨ والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٩٥، والطبراني في المعجم الأوسط ٦/ ٣٤٨ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٤: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٦/ ١٥٤ عن إسناد أحمد: على شرط الصحيح، وقال الذهبي عن الحديث في تاريخ الإسلام: صحيح ص ٣٤٩ من السيرة النبوية.

[٥] -ظهور البركة في فرس أبي طلحة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أهل المدينة فزعوا مرة فركب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرسا لأبي طلحة كان يقطف أو كان فيه قطاف «بطء في السير» فلما رجع قال وجدنا فرسكم هذا بحرا «الواسع الجري الشديد العدو» فكان بعد ذلك لا يجارى [١] .

[٦] -ظهور أثر البركة في بعير جابر: عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع النبي في غزاة فأبطأ بي جملي وأعيا، فأتى علي النبي فقال: جابر! فقلت: نعم، قال: ما شأنك؟ قلت: أبطأ علي جملي وأعيا، فتخلفت، فنزل يحجنه بمحجنه «يغمزه بالمحجن، والمحجن: العصا المعوجة، وكل معوج الرأس» ثم قال: اركب فركبت، فلقد رأيته أكفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢]كي لا يسبقه

المبحث التاسع: معجزات خارقة متفرقة

[١] -تسبيح الطعام: قال عبد الله بن مسعود وهو يتكلم عن المعجزات في عهد صلى الله عليه وسلم: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل [٣].

[٢] -معرفته بلحم شاة أخذت بغير إذن أهلها: عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مروا بامرأة فذبحت لهم شاة واتخذت لهم طعاما، فلما رجع قالت: يا رسول الله: إنا اتخذنا لكم طعاما فادخلوا فكلوا، فدخل رسول الله وأصحابه، وكانوا لا يبدؤن حتى يبتدئ النبي فأخذ النبي لقمة فلم يستطع أن يسيغها، فقال النبي: هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها، فقالت المرأة يا رسول الله إنا لا نحتشم «لا نستحي» من آل سعد بن معاذ ولا يحتشمون منا، نأخذ منهم، ويأخذون منا [٤] .

[٣] -تكثير المال ببركته صلى الله عليه وسلم: كان على سلمان الفارسي رضي الله عنه مال، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم (قطعة من الذهب) فاستقلها سلمان وقال: وأين تقع هذه من الذي علي يا رسول الله، قال: خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك، فأخذتها فوزنت لهم منها-والذي نفس سلمان بيده-أربعين أوقية [٥]

[٤] -حصول الضوء في العصا لبعض أصحابه: عن أنس بن مالك: أن عباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله في ليلة ظلماء حندس «شديدة الظلمة» فكان مع كل واحد منهما عصا فأضاءت عصا أحدهما كأشد شيء، فلما تفرقا أضاءت عصا كل واحد منهما، حتى وصل إلى أهله [٦]

[٥] -الذاكرة الخارقة لأبي هريرة: كان أبو هريرة يشتكي أنه ينسى كثيرا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: من يبسط رداءه حتى اقضي مقالتي ثم يقبضه فلن ينسى شيئا سمعه مني! قال أبو هريرة: فبسطت بردة كانت على، فو الذي بعثه بالحق ما نسيت شيئا سمعته منه[١]. وهذا الحديث من علامات

---

(١) -أخرجه البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ الفرس القطوف ومسلم ك/ الفضائل ب/ في شجاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقدمه للحرب والترمذي ك/ الجهاد ب/ ما جاء في الخروج عند الفزع وابن ماجه ك/ الجهاد ب/ الخروج في النفير والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦٣ وأحمد في المسند ٣/ ٢٦١ وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٢٨٤ وغيرهم.

(٢) -أخرجه البخاري ك/ البيوع ب/ شراء الدواب ومسلم ك/ المساقاة ب/ بيع البعير واستثناء ركوبه والنسائي ك/ البيوع ب/ البيع يكون فيه الشرط الفاسد وأحمد في المسند ٣/ ٣٨٥ وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٤٥٠ وأبو عوانة في مسنده ٣/ ٢٤٨، والنسائي في السنن الكبرى ٤/ ٤٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٣٧.

(٣) -أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة، والترمذي ك/ المناقب ب/ في آيات إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن خزيمة في صحيحه ١/ ١٠٢ والدارمي في السنن ١/ ٢٨ والشاشي في مسنده ١/ ٣٥٩ وأحمد في المسند ١/ ٤٦٠ وأبو يعلى في مسنده ٩/ ٢٥٣ واللالكائي في اعتقاد أهل السنة ٤/ ٨٠٣ وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة ٥/ ١٧٢٥ واللالكائي في كرامات الأولياء ١/ ١٣٤ والفريابي في دلائل النبوة ص ٦٨ والأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ١٢٠

(٤) -أخرجه أبو داود ك/ البيوع ب/ في اجتناب الشبهات وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٦٤١ والأرناؤوط في تخريجه جامع الأصول ١١/ ٣٩٢ والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٦٢ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأحمد في مسنده ٣/ ٣٥١ واللفظ له والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٣٥ والدارقطني في سننه ٤/ ٢٨٥-٢٨٦.

(٥) -الأوقية وزن معين يساوي من الذهب أربعة دنانير، والدينار يساوي أربعة جرامات وربعا من الذهب تقريبا، والحديث أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤٤٤ وإسناده حسن كما في تحقيق المسند ٣٩/ ١٤٧.

(٦) -أخرجه البخاري ك/ مناقب الأنصار ب/ منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر وابن حبان في صحيحه ٥/ ٣٧٨ واللفظ له، عدا جملة: حتى وصل إلى أهله، فهي في البخاري بمعناها والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٦٨ والطيالسي في مسنده ١/ ٢٧١ والبيهقي في الاعتقاد ص ٣١٠ ومعمر بن راشد في الجامع ١١/ ٢٨٠ وأحمد في مسنده ٣/ ١٣٧ وعبد بن حميد في مسنده ١/ ٣٧٢ من المنتخب وغيرهم وانظر فتح الباري ٧/ ١٢٥.

النبوة لأن أبا هريرة كان أحفظ الناس بعد ذلك للأحاديث النبوية في عصره، وقد أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثا. قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره، قال أبو الزعيزعة كاتب مروان: أرسل مروان إلى أبي هريرة فجعل يحدثه–وكان أجلسني خلف السرير أكتب ما يحدث به–حتى إذا كان في رأس الحول أرسل إليه فسأله، وأمرني أن انظر فما غير حرفا عن حرف. (١)

[٦] –إسماع الله الصحابة صوت النبي وهم في منازلهم: قال عبد الرحمن بن معاذ التيمي: خطبنا رسول الله بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم ... الحديث (٢).

[٧] –عاقبة النصراني المستهزئ: روى أنس رضي الله عنه قال: كان رجل نصرانيا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران فكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم، فعاد نصرانيا ولحق بأهل الكتاب، فأعجبوا به ورفعوه، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له!! فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه! فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه!! فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه، وتركوه منبوذا (٣).

[٨] –خاتم النبوة: ويلحق بالخوارق ما وجد من علامة على ظهره الشريف صلى الله عليه وسلم تدل على نبوته، وقد كان أهل الكتاب يعلمون هذه العلامة، وذكر أحد علمائهم ذلك لسلمان الفارسي رضي الله عنه ليعرف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما ذهب سلمان إلى المدينة النبوية تحقق من ذلك فرأى الخاتم، ورأى الخاتم أيضا جماعة من الصحابة. فعن السائب ابن يزيد يقول ذهبت بي خالتي إلى النبي فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وجع، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وضوئه، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة (٤) وقد رأى خاتم النبوة من الصحابة أيضا: جابر بن سمرة (٥) وأبو زيد الأنصاري (٦) وعبد الله بن سرجس (٧) وغيرهم » رضي الله عنهم أجمعين. ووجود هذه العلامة الخلقية المطابقة لما ورد في كتب أهل الكتاب أمر لا يقدر عليه إلا الخلاق سبحانه.

وهكذا تشهد الخوارق للعادات والسنن الكونية التي جاء ذكرها في كتاب الله بأن محمدا هو رسول الله المصدق من الله بخرق السنن تأييدا له، كانشقاق القمر وحادثة الإسراء، ونصره له أثناء الهجرة، وفي غزوة بدر بإنزال المطر وإلقاء النعاس على أتباعه، وإنزال الملائكة للقتال معهم، وإرسال الريح على أعدائه والجنود التي لا ترى كما في غزوة الأحزاب، وغيرها من الحوادث ، ولقد استفاضت الأخبار في زمن الصحابة بوقائع تأييد الله لرسوله بخرق العادات والسنن الكونية بما يعد شهادة من الله له وتصديقا لرسالته، وقد حفظ المسلمون هذه الوقائع في كتب الحديث بأدق مقاييس الحفظ

---

(١) –حديث أبو هريرة أخرجه البخاري ك/ العلم ب/ حفظ العلم ومسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ من فضائل أبي هريرة والترمذي ك/ المناقب ب/ مناقب لأبي هريرة والنسائي في السنن الكبرى ٣/ ٤٣٩ والحميدي في مسنده ٢/ ٤٨٣، والطبراني في الأوسط ١/ ٢٤٧ بنحوه وقد أخرج الحديث غير هؤلاء فانظر للتوسع في تخريجه الإصابة للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٣٦–٤٣٨. وقصة مروان في الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٨.

(٢) –أخرجه أبو داود ك/ المناسك ب/ ما يذكر الإمام في خطبته بمنى والنسائي ك/ مناسك الحج ب/ ما ذكر في منى وأحمد في المسند ٤/ ٦١ والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١٢٧ وابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ١٥١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/ ٣٦٩.

(٣) –أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة في الإسلام ومسلم ك/ صفات المنافقين وأحكامهم وأبو يعلي في مسنده ٧/ ٢٢ وأحمد في مسنده ٣/ ٢٢٢ وعبد بن حميد في مسنده ١/ ٣٨١ من المنتخب وانظر فتح الباري ٦/ ٦٢٥.

(٤) –أخرجه البخاري ك/ المرضى ب/ من ذهب بالصبي المريض ليدعى له ومسلم ك/ الفضائل ب/ إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده صلى الله عليه وآله وسلم والترمذي ك/ المناقب ب/ في خاتم النبوة.

(٥) –أخرجه مسلم ك/ الفضائل ب/ إثبات خاتم النبوة ...

(٦) –أحمد في المسند ٥/ ٧٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ٦٦٣ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٧) –مسلم ك/ الفضائل ب/ إثبات خاتم النبوة. « للاطلاع على عدد من الروايات في وصف خاتم النبوة، انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٥٩– ٢٦٧ وروى فيه أن رجلا يهوديا أراد الاطلاع على ذلك الخاتم، قال: وإنما كانوا يبحثون عن ذلك لأنه مكتوب عندهم بصفته.

والتوثيق التي لا تعرف البشرية لها مثيلا، مما جاء مفصلا لما ذكره القرآن من المعجزات أو التي انفردت بها السنة من الحوادث الكثيرة التي وقعت للرسول وأصحابه كحوادث تكثير الطعام القليل حتى يكفي حاجة المجموعات أو المئات أو الآلاف من أصحاب رسول الله في إقامتهم أو أثناء رحلاتهم وغزواتهم أو تعرض بعضهم لقلة الطعام. وكحوادث نبع الماء من إناء صغير من بين أصابعه حين يضع يده فيه حتى يسقي منه جيش بأكمله، أو مباركة الماء في أوعيته أو منابعه.

وكحوادث حفظ الله له من المتامرين عليه لقتله أو تسميمه، وشفاء الله لمن يدعو له من المرضى أو المصابين. وكحوادث استجابة الشجر لأمره، وحنين الجذع حزنا على فراقه. وشهادة الحيوان بنبوته، وتخاطب الحيوانات معه، وتسبيح الطعام بين يديه، وإضاءة العصا لبعض أصحابه، واستجابة الله لدعائه دون أن يخيبه، وتغيير الكثير من السنن له إجابة لدعوته ولمن دعا لهم أو دعا عليهم. وهذه الدلائل وأمثالها هي التي كانت سببا لزيادة الإيمان واليقين عند المسلمين كما كانت سببا في تحول الكفار من العداء الشديد والكراهية المستحكمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان به والحب له أكثر من حب الآباء والأبناء، وحملتهم على تقديم الأرواح والمهج للذب عنه ونشر دينه الذي بعث به. [1]

(١) –بينات الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته للشيخ الزنداني ٢٢٢– ٣١١

خاتمة الكتاب

طبيعة النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وبطبعها تميل إلى أصحاب الشيم العليا والأخلاق الحميدة، وتتفاوت محبة الإنسان لأخيه الإنسان بحسب درجة إحسانه أو سمو محاسنه وأخلاقه، فإذا كان الإنسان يحب من أسدى له معروفاً أو معروفين أو أنقذه من مهلكة أو مضرة لا تدوم فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول ووقاه العذاب الأليم ودله على النعيم المقيم.

ولو نظرنا للنعم التي أكرمنا الله سبحانه وتعالى بها لوجدنا بعثة المصطفىﷺ تتصدر هذه النعم فما من نعمة أعظم على الأمة المحمدية من أن يندرجوا تحت لواء محمدﷺ فهو هدية السماء العصماء للبشرية على وجه العموم، ولأمة محمدﷺ على وجه الخصوص، هذا الرجل العظيم الذي أشرقت شمسه على الكون، فانقشعت من جوانبه ظلمات الظلم والشرك وسوء الأخلاق وأفنى عمره ونذر حياته للدلالة على ربه، ولإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العرفان واليقين ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

محمدﷺ الذي لم يكن ينام من الليل إلا قليلاً الزاهد في طعامه وشرابه، الجواد في جهده وعطائه كل ذلك لأجل هداية الإنسانية للخير، ولتذوق لذة النعم من خلال نعمة الدين، فنعمة معرفة الله وعبوديته، ونعمة المال ونعمة الوالدين ونعمة الأهل والولد ونعمة الأمن ونعمة انشراح الصدر ونعمة السلام والإسلام ونعمة الأخلاق ونعمة المحبة ونعمة الأنس بالمعنويات ونعمة الإيمان، ونعمة الفطرة، ونعمة النجاة من النار والفوز بالجنة، ونعمة المصالحة بين العبد والرب .... فهذه النعم كلها ما كانت تتذوق أمة محمدﷺ لذتها لولا بركة بعثة محمدﷺ.

من أجل ذلك استحق محمدﷺ أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلنا وأموالنا والناس أجمعين بل لو كان في منبت كل شعرة من جسدنا محبة تامة له لكان ذلك بعض ما يستحقه وهذا المعنى صرح به النبي بقوله: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» (١)

وهذا المحبة التي أشار إليها النبي لها مسوغاتها ، فالإنسان تتأثر المحبة لديه بحجم المنفعة الحاصلة من المحبوب ، والمنفعة الحاصلة لكل فرد من أفراد الأمة هي أعظم بكثير من منفعة الوالد والولد والناس أجمعين ؛ فالوالد إن كان سبباً في وهب حياة الجسد ، فالنبي كان سبباً في وهب حياة الروح ونضارة الجسد ونور القلب وانشراح الصدر ، وإن كان الولد سبباً في حفظ ذكر أبيه وصونه في دنياه ، فالنبي محمداً ﷺ كان سبباً في حفظ الإنسان في حياته وبعد مماته ، ولو نظرنا إلى أبي بكر وعمر وخالد بن الوليد وغيرهم من الصحابة ، لوجدنا أن ما قدمه النبي لهم لهو أعظم بكثير مما قدمه لهم آباؤهم وأبناؤهم ، فقد نالوا العز والشرف والذكر الحسن في الدنيا ، ونالوا الفوز بالآخرة ؛ وإلا ماذا قدم الوليد بن المغيرة لابنه خالد قياساً لما قدمه محمد ﷺ .

بل حب محمدﷺ لابد أن يفوق حب الإنسان لنفسه فالحبيب محمدﷺ كان السبب في نزع العداوة بين الإنسان ونفسه تلك العداوة التي أفرزتها شموص النفس على الروح، وبفضل الرسالة المحمدية سكنت النفس وانقادت لداعي الروح والعقل وتحققت مؤالفة عجيبة بينهما، وجاء القرآن ليؤكد على أن محبة النبي ﷺ هي من محبة الله سبحانه وتعالى ، ودليل من دلائل الإيمان يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾[التوبة:٢٤] ، من هذا الوجه نقول : إن محبة محمد ﷺ واجبة على كل فرد من أمة محمد ﷺ استنار بنور رسالته ، واندرج تحت لوائه ، واستظل بفيء رسالته .

---

(١) أخرجه البخاري برقم ١٥ [صحيح البخاري (١/١٤)]

محبة محمدﷺ ونصرته إنصاف من الإنسانية

طبيعة البشر أنها دائماً ترنو إلى الكمال وتطلبه، وتنظر بعين الامتنان لكل من رامه، أو بلغ فيه مبلغاً سامياً أو كان داعية للفضيلة والأخلاق أو قدم خدمة جليلة للإنسانية أو حافظ على إنسانية الإنسان وخصائصه ودواعي تكريمه خاصة في الحقبات التي تنحدر فيها البشرية من درجة الإنسانية إلى درجة البهيمية ومن هذا الوجه نرى الأمم تكرم عظمائها الذين تركوا بصمات واضحة في سبيل رقي البشرية وتنظر بعين الامتنان والاحترام لعظماء غيرها من الأمم ممن ساهموا في إنقاذ البشرية أو عززوا رقيها.

وفي سلم عظماء البشرية على مدار الإنسانية نجد أن محمداًﷺ كان الأوفى حظاً والأكثر تأثيراً والأعظم درجة، ومن تتبع سيرته وسيرة غيره من العظماء يجد مدى التباين بينه وبين غيره بحيث لا نجانب الصواب إن قلنا أن محمداًﷺ كان المثل البشري الكامل على مدار الإنسانية وهذا الأمر لا نقوله جزافاً بل وقائع التاريخ البشري أكبر شاهد على ذلك وكل منصف مذعن لهذه الحقيقة.

وبالنظر لسيرة النبي محمدﷺ نجد أنه لم يقدم خدماته فقط لأمته بل ساهم في رقي البشرية وتحويل مسارها إلى يوم القيامة وكثير من مظاهر الفضيلة والرقي التي تحياها كثير من الأمم المعاصرة كان للنبي نصيب فيها وهذا أمر اقتضته طبيعة التلاقح بين الحضارات، ومن هذا الوجه أقول : لا يعني الاختلاف مع محمد ﷺ في الدين الانتقاص من فضله أو الاستهانة بالخدمات الجليلة التي قدمها للإنسانية جمعاء ، بل من دواعي الإنصاف الإنساني العالمي أن ينظر لهذه الشخصية بعين التكريم والاحترام ، ولا يسمح لبعض العابثين من تشويه هذه الصورة العظيمة في تاريخ الإنسان ، بل الأصل أن ينظر لكل تشويه للشخصية المحمدية بمثابة مطعن في إنسانية الإنسان من خلال الاستهانة بأعظم مثلها الكاملة ، أو تشويه أهم معالمها الإيجابية المشرقة .

محمدﷺ شمس أشرقت على الإنسانية وعم ببركتها الخير والنماء والرقي والحضارة ومن الظلم إنكار ذلك أو غمط الخير الذي جاء به أو النور الذي خلفته وراءها .

ولئن كانت جريمة القتل تعد من أعظم الجرائم المستقبحة في نظر الإنسانية جمعاء فليعلم أن محاولة تشويه صورة النبي محمدﷺ هي بمثابة قتل جماعي لحياة الملايين الذين يحيون بنور رسالته إن التعرض للنبي محمدﷺ بأي شكل من الإهانة هو بمثابة توجيه خنجر لقلب أمة بلغت خمس العالم ومحاولة لطمس أجمل صورة عرفتها الإنسانية ونيل من البشرية بأكملها واستهانة بمثلها العليا وسلم الفضيلة فيها فأي جريمة أعظم من ذلك على مدار التاريخ ؟؟؟؟؟؟

وهنا قد يتبادر تساؤل من أصحاب الديانات الأخرى مفاده لماذا انتصر لمحمدﷺ وأنا أختلف معه في الدين والنحلة؟

نقول : نعم أنت تختلف معه في الدين والنحلة ، ولكن لا تختلف عنه في الانتماء الإنساني ، ولا تختلف معه في حبك للفضيلة وبغضك للرذيلة ، ولا تختلف معه في حبك للإنسانية وحرصك على رقيها ، فإذا علمت مدى الخدمة الجليلة التي قدمها للإنسانية والتي يشهد بعظمتها التاريخ وعظماؤه ، وتعرفت على حجم الفضيلة التي غرسها والرذيلة التي اجتثها علمت أن انتصارك لمحمد ﷺ هو انتصار للفضيلة التي تحبها وحسر للرذيلة التي تبغضها ، وانتماء للإنسانية التي تحبها ، وإنصاف للحقيقة التي تعشقها ، ومشاركة منك لآلاف من عظماء التاريخ الذين نظروا لمحمد ﷺ بعين الإنصاف.[1]

[1] -راجع نبي الرحمة، د. محمد أحمد المبيض، ص: ٣٩٥-٤٠٣

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٢- أبحاث مؤتمر مكة المكرمة السابع (نصرة نبي الأُمَّة ﷺ)، والذي أقيم في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، في الفترة من ٥-١٤٢٧/١٢/٧هـ.
٣- الأبطال، توماس كارلايل، ترجمة محمد السباعي، سلسة من الشرق والغرب، عدد١١، الدار القومية، القاهرة.
٤- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، للقرافي، تحقيق د.ناجي محمد داود، رسالة دكتوراه من جامعة أُم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٥هـ.
٥- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، للأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ .
٦- أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبة، عبد الله وليم كويليام، ترجمة معروف الرصافي، مطبعة الولاية، بغداد ١٣٣٠م.
٧- الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.
٨- أحكام أهل الذمة، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة .
٩- آراء المستشرقين حول القرآن والتفسير، د.عمر إبراهيم رضوان، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٠هـ.
١٠- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، د.قاسم السامرائي، دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ.
١١- الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله محمد النعيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ.
١٢- الإسلام خواطر وسوانح، هنري دي كاستري، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة الشعب، القاهرة ١٩١١م.
١٣- الإسلام على مفترق الطرق، ليوبولد (محمد أسد) فايس، ترجمة د.عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦، ١٩٦٥م.
١٤- الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د .محمد وقيع الله أحمد، طبعة جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز العالمية، ط١، ١٤٢٧هـ.
١٥- الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، عبد العظيم المطعني، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة مصر، ط١، ١٤٠٧هـ.
١٦- الإسلام منهج حياة، فيليب حتي، تعريب د.عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢م.
١٧- الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٦٨م.
١٨- الإسلام والعرب، روم لاندو، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
١٩- الإسلام والغرب والمستقبل، أرنولد توينبي، تعريب د.نبيل صبحي، دار العربية بيروت ١٩٦٩م.
٢٠- الإسلام والمستشرقون، نخبة من العلماء المسلمين، مطبعة عالم المعرفة جدة، ط١، ١٤٠٥هـ.
٢١- الإسلام والمسيحية د.إليسكي جورافيسكي، كتاب رقم ٢١٥ من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر١٩٩٦م
٢٢- الإسلام والوعي الحضاري، أ. د. أكرم بن ضياء العمري، دار الرسالة، بيروت.
٢٣- الإسلام، هنري ماسيه، ترجمة بهيج شعبان، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
٢٤- الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي. مطبعة الرسالة، القاهرة- ١٩٦٨ م.
٢٥- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأتباع والأحوال والحفدة والمتاع، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة- ١٩٤١ م.
٢٦- أشعة خاصة بنور الإسلام، إيتين (ناصر الدين) دينيه، ترجمة راشد رستم، سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ١٧، المكتب الفني للنشر، بيروت١٩٦٠م.
٢٧- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، طبعة دار أحياء التراث العربي، بيروت.
٢٨- الأمير لنيقولا ميكافيلي، ترجمة فاروق سعد، طبعة دار الآفاق، بيروت ١٩٧٩م.
٢٩- إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الأدب، بيروت ١٩٨٠م.
٣٠- الانتصار للقرآن، د. صلاح الخالدي، مؤسسة الفرسان للنشر، عمّان، الأردن.
٣١- الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنكليزية، أ. د .محمد مهر علي.
٣٢- الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة البنغالية، أبو بكر محمد زكريا.
٣٣- الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، د. حسن إدريس عزوزي، هذه البحوث مقدمة في مجمع الملك فهد في الفترة ١٥-١٤٢٥/٣/١٧هـ.
٣٤- أهل الذمة في الإسلام أ. س ترتون، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، سلسلة المكتبة التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م .
٣٥- البحث عن الله، إيفلين كوبولد، ترجمة عمر أبو النصر، المكتبة الاهلية، بيروت ١٩٣٤م.
٣٦- بداية المجتهد، لابن رشد، دار الفكر، بيروت.
٣٧- البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٧٨م .
٣٨- البيريسترويكا، لميخائيل جورباتشوف، طبعة بيروت.
٣٩- تاريخ اليعقوبي، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف ١٩٦٤ م.
٤٠- تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان: كارل. ترجمة فارس والبعلبكي، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت- ١٩٦٨ م.
٤١- تاريخ مسلمي أسبانيا، رينهارت دوزي: الجزء الأول، ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة- دار المعارف، القاهرة- ١٩٦٣ م.
٤٢- تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية) ، جواد علي. الجزء الأول، بغداد، مطبعة الزعيم ١٩٦١ م.
٤٣- تاريخ الدولة العربية، يوليوس فلهاوزن . ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة- ١٩٦٨ م.
٤٤- تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد، القاهرة- ١٩٢٧ م.
٤٥- تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى، مونتكمري وات، ترجمة د.عادل نجم عبّو، دار الكتب في جامعة الموصل، ١٩٨٢م.
٤٦- تاريخ الأدب العربي، ريجس بلاشير، ترجمة د.إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٤م.
٤٧- تاريخ الأمم والملوك، للإمام الطبري، طبعة دار المعارف، مصر.
٤٨- تاريخ الحضارة الإسلامية، ف بارتولد، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٦٦م.
٤٩- تاريخ العرب العام، ل.م. سيديو، ترجمة عادل زعيتر، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٤٨م.
٥٠- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، كلود كاهن، ترجمة د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت.
٥١- تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م .
٥٢- تراث الإسلام، تأليف جماعة من الباحثين، تصنيف جوزيف شاخت، و س .أ. بوزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري عالم المعرفة، الأعداد٨و١١و١٢.
٥٣- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق مجموعة من العلماء، طبعة دار الشعب.
٥٤- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، للإمام عبد الرحمن بن الجوزي، مكتبة الآداب، القاهرة ط١، ١٩٧٥م.
٥٥- تهذيب التفسير الصحيح، أ. د. حكمت بن بشير ياسين، تحت الطبع في مطبعة مجلة الدراسات الفقهية المعاصرة، الرياض.
٥٦- الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، جورج سارتون، تعريب د.عمر فروخ، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٥٢م.
٥٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، طبعة دار أحياء التراث العربي، بيروت .

٥٨- جهود علماء المسلمين في دراسة الكتابات الاستشراقية حول القرآن الكريم، أ .د. علي بن إبراهيم النملة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٥٩- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٧٥م.
٦٠- حضارة العرب، كوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٣.
٦١- الحضارة العربية، جاك.س ريسلر ترجمة غنيم عبدون، مراجعة د.أحمد الأهواني، الدار المصرية القاهرة.
٦٢- حقوق الإنسان في الإسلام وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، د.سليمان عبد الرحمن الحقيل، مؤسسة الممتاز، الرياض ط١.
٦٣- الحوار المسيحي الإسلامي استناداً إلى تصورات المسيحية عن المسلمين، للباحثة دعاء محمود فينو، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٤٤، ٢٠٠٦م
٦٤- حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام، لمعالي الشيخ عبدالله بن بيه، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط١، ١٤٢٤هـ.
٦٥- حياة محمد، واشنجتون إيرفنج، ترجمة علي حسين الخربوطلي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م.
٦٦- حياة محمد، إميل درمنغم، ترجمة عادل زعيتر، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٤٩م.
٦٧- الحق المرّ، محمد جلال كشك. مكتبة عمار، القاهرة- ١٩٦٨ م.
٦٨- خلاصة سير سيد البشر، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، تحقيق وشرح د. زهير بن إبراهيم الخالد، مطبوعات وزارة الأوقاف قطر، ط١، ١٤٢١هـ.
٦٩- دولة الفكرة، محمد فتحي عثمان . الدار الكويتية، الكويت- ١٩٦٨ م.
٧٠- الدافع لارتكاب جريمة القتل في الوطن العربي، د. عبدالله معاوية، المركز العربي للدراسات الأمنية، الرياض.
٧١- دراسات أسبانية للسيرة النبوية، د. عبدالقادر براده، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
٧٢- الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت ترجمة د. مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
٧٣- دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون جب، تحرير ستانفورد شو ووليم بولك، ترجمة د. إحسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٤م.
٧٤- دراسة في مائة الأوائل، مايكل هارث، ترجمة خالد أسعد عيسى، وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
٧٥- دستور الأخلاق في القرآن، للدكتور محمد عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٤، ١٤٠٢هـ.
٧٦- الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ط/٣، مكتبة النهضة القاهرة، ١٩٧١م.
٧٧- دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٦م.
٧٨- دين الإسلام، لايتنر، ترجمة عبد الوهاب سليم التنّير، المكتبة السلفية، دمشق، ط٢، ١٣٤٢هـ.
٧٩- رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشّي، دار القلم، الكويت ١٩٧٣-١٩٨٣م.
٨٠- الرسول القائد، محمود شيت خطّاب. الطبعة الثانية، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد- ١٩٦٠ م.
٨١- الرحيق المختوم، للشيخ صفي الرحمن المباركفوري، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط٤، ١٤٢٠هـ.
٨٢- الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي، ترجمة محمد الندوي، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٧٢هـ.
٨٣- الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، دار المنارة، جدة، ط ٢، ١٤٠٦هـ.
٨٤- السلسة الصحيحة، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٣٩٩هـ.
٨٥- سلوة الكئيب بوفاة الحبيب ﷺ، لابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق ودراسة صالح يوسف معتوق، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي.
٨٦- سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، مراجعة محمد محيي الدين بن عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، تركيا، استانبول .
٨٧- سنن الدرامي، للإمام الدارمي، تحقيق وتخريج وفهرسة فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، نشر دار الريان للتراث القاهرة، ط١، ١٤٠٧ هـ .
٨٨- سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية الإمام السندي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
٨٩- سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم، محمد عزة دروزة. الطبعة الثانية، مطبعة عيسى البابي، القاهرة- ١٩٦٥ م.
٩٠- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة دار الكتاب العربية، بيروت.
٩١- سير أعلام النبلاء، تأليف الإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٤، ١٤٠٦هـ.
٩٢- السيرة النبوية الصحيحة، أ. د. أكرم بن ضياء العمري، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.
٩٣- السيرة النبوية، لابن هشام، طبعة الحلبي بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الأشبيلي، دار الفكر، بيروت.
٩٤- السيرة النبوية، للذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٠١هـ.
٩٥- شرح صحيح مسلم للنووي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
٩٦- الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، جماعة من الباحثين، تحرير ت كويلر يونغ، ترجمة د. عبد الرحمن أيوب، سلسلة الألف كتاب، عدد١١٦، المتحدة، القاهرة.
٩٧- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، للألباني، مكتبة الدليل، السعودية، ط٣، ١٤١٧هـ.
٩٨- صحيح الجامع الصغير، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٣، ١٤٠٢هـ.
٩٩- صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند، للشيخ الألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط٣، ١٤٠٨هـ .
١٠٠- صحيح سنن أبي داود باختصار السند، للشيخ الألباني، نشر مكتب التربية العربي، ط١، ١٤٠٩هـ.
١٠١- صحيح سنن الترمذي، باختصار السند، للشيخ الألباني، نشر مكتب التربية العربي،ط١، ١٤٠٨هـ.
١٠٢- صحيح سنن النسائي باختصار السند، للشيخ الألباني، نشر مكتب التربية العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.
١٠٣- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
١٠٤- صحيفة ماينتشي Mainchi اليابانية بتاريخ ٢٠٠٦/١٠/١٦م.
١٠٥- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت.
١٠٦- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، لابن قيم الجوزية ،راجعه أحمد عبد الحليم العسكري.
١٠٧- العرب وأوربا، لويس يونغ، ترجمة ميشيل أزرق، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٩م.
١٠٨- العقيدة الإسلامية، عبدالله وليم كوليام، تعريب محمد ضيا، مطبعة هندية، القاهرة ١٨٩٧م.
١٠٩- العقيدة والشريعة في الإسلام، كولد تسيهر، ترجمة د .محمد يوسف موسى ورفاقه، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م.
١١٠- علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روز نثال ترجمة د. صالح العلي، مراجعة محمد توفيق حسين، مكتبة المثنى (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين) بغداد ١٩٦٣م.
١١١- العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ألدو ميلي، ترجمة د. محمد يوسف موسى، إصدار الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.
١١٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الفكر، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة السلفية المصرية.
١١٣- الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، تحقيق محمد العيد الخطراوي، ومحي الدين مستو، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.
١١٤- فلسفة الفكر الإسلامي، هنري سيرويا، ترجمة محمد إبراهيم، سلسلة الثقافة الإسلامية، عدد ٣٢، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٦١م.
١١٥- في خطى محمد، نصري سلهب، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٠م.

١١٦- في طريقي إلى الإسلام، أحمد نسيم سوسه، الجزء الأول، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٣٦م، الجزء الثاني، مطبغة الغرى، النجف ١٩٨٣م.
١١٧- فقه السيرة، محمد الغزالي. الطبعة السادسة، دار الكتب الحديثة، القاهرة- ١٩٦٥ م.
١١٨- قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ط١، ١٤١٢هـ.
١١٩- قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من أساتذة اللاهوت، دار الثقافة، القاهرة، ط٨.
١٢٠- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي، (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م .
١٢١- القرآن الكريم والعلم العصري، مويس بوكاي، ترجمة فودي سوريبا كمارا، دار المآثر، المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ.
١٢٢- القرآن والمستشرقون المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة ١٣٩٣هـ.
١٢٣- قصة الإنسان، جورج حنّا، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.
١٢٤- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران وآخرون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤-١٩٦٧م.
١٢٥- قطوف دانية من مآثر المسلمين وظلام الغرب، الشيخ إبراهيم النعمة، مطبعة الزهراء، الموصل، العراق سنة ١٤٢٤هـ.
١٢٦- كتاب المغازي، الواقدي، تحقيق مارسدن جونس، مطبعة جامعة أكسفورد- ١٩٦٦ م.
١٢٧- لماذا يكرهونه؟! الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ، د.باسم الخفاجي، كتاب البيان، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ.
١٢٨- مؤتمرات المستشرقين العالمية د المحسن بن علي سويسي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية الدعوة قسم الاستشراق بالمدينة المنورة.
١٢٩- مجلة البيان، مجلة شهرية تصدر عن المنتدى الإسلامي بالرياض، العددان ٢٣٠-٢٣١، شهري شوال وذو القعدة، ١٤٢٧هـ.
١٣٠- مجلة التوحيد، مجلة إسلامية شهرية تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة، العدد٤١٨، شوال١٤٢٧هـ.
١٣١- مجلة المستقبل، مجلة شهرية تصدرها الندوة العالمية للشباب الإسلامي، العدد ١٨٥، رمضان ١٤٢٧هـ.
١٣٢- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطابع الرياض .
١٣٣- محمدﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، لإبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.
١٣٤- محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٥٩م.
١٣٥- محمد رسول الله إيتين (ناصر الدين) دينيه، بالاشتراك مع سليمان الجزائري، ترجمة د. عبد الحليم محمد، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، ط٣، ١٩٥٩م.
١٣٦- محمد في الكتاب المقدس، أ. د. عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شمّا، طبعة رئاسة المحاكم والشؤون الدينية بدولة قطر، ط١، ١٤٠٥هـ.
١٣٧- محمد في المدينة، مونتكمري وات، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
١٣٨- محمد في مكة، مونتكمري وات، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
١٣٩- مختصر دراسة التاريخ، أرنولد توينبي، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٥م.
١٤٠- مختصر سيرة الرسولﷺ للإمام محمد بن عبد الوهاب، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.
١٤١- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبه، الحديثة للطباعة القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م.
١٤٢- المستدرك على الصحيحين، للحافظ الحاكم، وبذيله التلخيص، للحافظ الذهبي صورة عن الطبعة الهندية.
١٤٣- المستشرقون والسيرة النبوية، عماد الدين خليل، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر، مونتكمري وات، المنظمة العربية للثقافة، تونس.
١٤٤- المستشرقون وترجمة القرآن، د. محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.
١٤٥- المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤-١٩٦٥م.
١٤٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومجموعة من العلماء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
١٤٧- معالم تاريخ الإنسانية هـ. ج. ولز تعريب عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة محمد مأمون نجا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٧-١٩٥٠م.
١٤٨- من أجل معرفة العبادة والحب، بحث مقدم لندوة بناء المناهج: الأسس والمنطلقات بكلية التربية- جامعة الملك سعود- الرياض سنة ١٤٢٤هـ.
١٤٩- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٤٠٥هـ.
١٥٠- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله الطبعة السادسة، دار النفائس، بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.
١٥١- محمد رسول الله، إتيين دينيه (ناصر الدين) وسليمان إبراهيم الجزائري. ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم،ط/٣ الشركة العربية، القاهرة- ١٩٥٩
١٥٢- مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، أحمد إبراهيم الشريف الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة- ١٩٦٥ م.
١٥٣- محاضرات في تاريخ العرب، صالح أحمد العلي الجزء الأول، الطبعة الثالثة، بغداد، مطبعة الإرشاد- ١٩٦٤ م.
١٥٤- مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، محمد عبد الله عنان. الطبعة الرابعة، مؤسسة الخانجي، القاهرة- ١٩٦٢ م.
١٥٥- محمد في مكة، مونتغمري وات. تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت.
١٥٦- الموسوعة العربية الميسرة، مجموعة من الباحثين طبعة دار الشعب، القاهرة (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر) ط٢، ١٩٧٢م.
١٥٧- موسوعة المستشرقين، للدكتور عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
١٥٨- موقف المستشرقين من القرآن الكريم، أ.د.عدنان محمد الوزان، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
١٥٩- نحو نظام نقدي عادل، د.محمد عمر شابرا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن.
١٦٠- أبحاث في الفكر اليهودي: د/ حسن ظاظا، طبعة دار القلم دمشق، دار العلم والثقافة -بيروت الطبعة الأولى١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م.
١٦١- البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل: د/أحمد حجازي السقا، طبعة دار البيان العربي، مصر- ١٩٧٧ م.
١٦٢- الأجوبة الجلية في دحض الدعوات النصرانية: للدمشقي الطيبي، تحقيق د/أحمد حجازي السقا- طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة.
١٦٣- اختلافات في تراجم الكتاب المقدس: ل. م / أحمد عبد الوهاب -طبعة مكتبة وهبة- تاريخ الطبع ١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م.
١٦٤- الإرهاب في اليهودية والمسيحية والإسلام والسياسات المعاصرة: أ/ زكي على السيد أبو غضه، طبعة دار الوفاء بالمنصورة -ط الأولي-١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.
١٦٥- إسرائيل حرفت الأناجيل واخترعت أسطورة السامية: ل. م / أحمد عبد الوهاب طبعة: مكتبة وهبة. الطبعة الثانية- ١٤١٧ هـ /١٩٩٧ م.
١٦٦- إسرائيل فتنة الأجيال "العصور القديمة" أ/ إبراهيم خليل أحمد طبعة: مكتبة الوعى العربي ١٩٦٩ م.
١٦٧- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام: د/ على عبد الواحد وافي، طبعة: دار نهضة مصر- القاهرة.
١٦٨- الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمى: د/عبد العظيم المطعني، طبعة: دار الوفاء بالمنصورة- ١٩٩٢م.
١٦٩- الإسلام والأديان "دراسة مقارنة": د/ مصطفى حلمى، طبعة: دار الدعوة -الطبعة الأولى- ١٤١١هـ - ١٩٩٠ م.
١٧٠- أصول المسيحية: أ/فؤاد محمّد أحمد مصطفي، وزارة الإعلام والثقافة، الطبعة الأولى- ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.
١٧١- الأصولية في اليهودية: أ/ عبد الوهاب زيتون، الطبعة الأولي -المنارة- بيروت- ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
١٧٢- أضواء على اليهودية من خلال مصادرها: د/ محمّد أحمد دياب عبد الحافظ، طبعة دار المنار- ١٤٠٦ هـ -١٩٨٥م.
١٧٣- إظهار الحق: العلامة رحمة الله الهندي، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، طبعة دار التراث العربي ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.

١٧٤- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١هـ) تحقيق محمَّد حامد الفقي، ط/ مكتبة عاطف.
١٧٥- أقانيم النصارى: د/ أحمد حجازي السقا، طبعة دار الأنصار –الطبعة الأولي– ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م.
١٧٦- اقتباسات كتاب الأناجيل من التوراة "بيان ونقد": د/ أحمد حجازي السقا، الطبعة ١١ – مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م.
١٧٧- الأناجيل "دراسة مقارنة": د/أحمد طاهر، طبعة: دار المعارف – بدون.
١٧٨- الإنجيل والصليب: د/ عبد الأحد داود، طبع في القاهرة سنة ١٣٥١هـ.
١٧٩- تأثر اليهودية بالأديان الوثنية: د/ فتحى محمَّد الزغبي، طبعة: دار البشير، الطبعة الأولي ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.
١٨٠- تاريخ الديانة اليهودية: أ/ محمَّد خليفة حسن، طبعة دار قباء– القاهرة، الطبعة الأولي ١٩٩٨ م.
١٨١- تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم: أ/آدم عبد الله الآلوري، مكتبة وهبة –الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م.
١٨٢- تاريخ الإنجيل والكنيسة: أ/ أحمد إدريس، طبعة: دار حراء للنشر والتوزيع –مكة المكرمة– بدون.
١٨٣- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب: أ/ عبد الله الترجمان الأندلسى، طبعة دار المعارف، الطبعة الثالثة. تحقيق د/محمَّد على حماية، ١٩٩٢ م.
١٨٤- التربية في التوراة "العهد القديم" عرض وتقويم بميزان الإسلام: د/عابد توفيق الهاشمي، طبعة مؤسسة الرسالة –الطبعة الأولي– ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
١٨٥- التطرف اليهودي –تاريخه – أسبابه– علاماته: د/عبد الراضى محمَّد، طبعة مكتبة التوعية الإسلامية، الطبعة الأولي ١٤١٣ هـ –١٩٩٣ م.
١٨٦- التعاليم الدينية اليهودية: د/ على خليل، رسالة ضوئية على شبكة الانترنت على موقع www.palestine.inbo.org.
١٨٧- التعصب الصليبي: د/عمر عبد العزيز، طبعة دار الاستقامة– ١٤١٧هـ – ١٩٩٦ م.
١٨٨- التوراة السامرية: ترجمة الكاهن السامرى أبو الحسن إسحاق الصوري، تحقيق د/أحمد حجازي السقا، طبعة دار الأنصار– القاهرة – ١٩٧٨ م.
١٨٩- التوراة – العقل – العلم – التاريخ: د/ بدران محمَّد بدران، طبعة دار الأنصار، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م.
١٩٠- جذور البلاء: أ/ عبد الله التل، طبعة المكتب الإسلامى – بيروت.
١٩١- جنايات بني إسرائيل على الدين والمجتمع: د/ محمَّد محمود سيد ندا، طبعة دار اللواء– بدون.
١٩٢- جهود الإمامين ابن تيمية وابن قيم الجوزية في دحض مفتريات اليهود: أ/ سميرة عبد الله بكر بنابي– جامعة أم القرى –مكة المكرمة– ١٩٩٧ م.
١٩٣- جهود علماء المسلمين في نقد الكتاب المقدس من القرن الأوّل الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري "عرض ونقد": د/ ياسر أبو شبانه "رسالة دكتوراه".
١٩٤- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: شيخ الإسلام ابن تيمية ت٧٢٨ هـ، طبعة دار ابن خلدون للتراث –الاسكندرية– بدون.
١٩٥- الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح: للألوسى البغدادي ابن مفسر القرآن ت ١٣١٧ هـ، طبعة دار البيان العربي – الطبعة الأولي ١٩٨٧ م القاهرة.
١٩٦- الجوهر الفريد في رد التثليث وإثبات التوحيد: أ/ أيوب بك صبري بن عبد الله، طبعة المطبعة العامرة– الشرقية– الطبعة الأولي ١٣١٩ هـ القاهرة.
١٩٧- دائرة المعارف الكتابية: تأليف وليم وهبة بباى، ط /دار الثقافة– القاهرة– ١٩٩٦ م.
١٩٨- خُلق المسلم: فضيلة الشيخ محمَّد الغزالي، طبعة دار الدعوة، الطبعة الثالثة ١١٤١هـ – ١٩٩٠ م.
١٩٩- دراسات في التوراة: أ/ عطية إبراهيم الشوادفي، طبعة مجمع البحوث الإسلامية– ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٥ م.
٢٠٠- دراسة في الأناجيل الأربعة: أ/ محمَّد السعدي، طبعة دار الثقافة بقطر، ط ١ – ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
٢٠١- دراسات في اليهودية: د/محمود مزروعة، طبعة دار الطباعة المحمدية، القاهرة الطبعة الأولي ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
٢٠٢- شبهات النصارى وحجج الإسلام: أ/محمَّد رشيد رضا، طبعة دار المنار–الطبعة الثانية– ١٣٦٧ هـ.
٢٠٣- العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية: د/ سعد الدين السيد صالح، طبعة دار الصحابة – الامارات ١٩٩٠ م.
٢٠٤- الفارق بين المخلوق والخالق: الباجة حي زادة البغدادي ت ١٣٣٠هـ، طبعة مكتبة الثقافة الدينية– تعليق د/ أحمد حجازي السقا، طبعة ٩٨٧ م.
٢٠٥- الفكر الديني اليهودي "أطواره ومذاهبه": د/حسن ظاظا، طبعة دار القلم– دمشق، الطبعة الثانية –١٤٠٧هـ –١٩٨٧ م.
٢٠٦- فلسطين في الميزان "ميزان العقل والمنطق والتوراة والقرآن": د/عابد توفيق الهاشمي، طبعة مؤسسة الرسالة– الطبعة الأولي ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م.
٢٠٧- في مقارنة الأديان "بحوث ودراسات": أ. د/ محمَّد عبد الله الشرقاوي، طبعة دار الجيل – بيروت، مكتبة الزهراء –القاهرة– ط الثانية ١٩٩٠ م.
٢٠٨- القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: د/ موريس بوكاي، طبعة دار الفتح للإعلام العربي– ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.
٢٠٩- قصة الأديان "دراسة تاريخية مقارنة": د/رفقى زاهر، الطبعة الأولي– ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
٢١٠- الكتاب المقدس: طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الإصدار الثالث ٢٠٠١ م الطبعة الأولى.
٢١١- الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف: د/يحيى ربيع، طبعة دار الوفاء بالمنصورة، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م
٢١٢- الكنز المرصود في قواعد التلمود: د/يوسف نصر الله، طبعة دار القلم– الطبعة الأولي، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.
٢١٣- الله واحد أم ثالوث؟: د/ محمَّد مجدي مرجان، الناشر دار النهضة العربية– القاهرة، ١٩٧٢ م.
٢١٤- ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمَّد؟: أ/ أحمد ديدات، ترجمة أ/ إبراهيم خليل أحمد– طبعة دار المنار – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ –١٩٨٩ م.
٢١٥- محاضرات في مقارنة الأديان: أ/ إبراهيم خليل أحمد، طبعة دار المنار –القاهرة– الطبعة الأولي ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م.
٢١٦- محاضرات في النصرانية: للإمام أبي زهرة، طبعة دار الفكر العربي– ١٩٦١ م.
٢١٧- محمَّدﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن: أ/ إبراهيم خليل أحمد، طبعة دار المنار– ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م.
٢١٨- محمدﷺ في الكتاب المقدس: د/عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شما، مراجعة وتعليق أ/ أحمد محمَّد الصديق، طبعة– بدون.
٢١٩- مدخل لدراسة الأديان: د/صفوت مبارك، طبعة بدون.
٢٢٠- مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء: أ/ أحمد ديدات، ترجمة على الجوهري، طبعة دار الفضيلة للنشر والتوزيع ١٩٨٩ م.
٢٢١- المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل: د/ عبد الكريم الخطيب، طبعة دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية – ١٣٩٦هـ –١٩٧٦ م.
٢٢٢- المسيحية: د/ أحمد شلبي، طبعة مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤ م.
٢٢٣- المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح "بين الالتزام والتحريف ودعوة الإسلام": أ/ علاء أبو بكر، طبعة مكتبة وهبة ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.
٢٢٤- المسيح في مصادر العقائد المسيحية: ل. م / أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة الطبعة الأولي ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م.
٢٢٥- مشكلات العقيدة النصرانية: د/ سعد الدين السيد صالح، طبعة دار الأرقم للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م.
٢٢٦- من دحرج الحجر؟: أ/ أحمد ديدات، ترجمة أ/ إبراهيم خليل أحمد، طبعة دار المنار– ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.
٢٢٧- مناظرة بين الإسلام والنصرانية مجموعة من علماء المسلمين والنصرانية: طبعة دار الحديث– القاهرة، مكتبة ابن خزيمة بالرياض ١٤١٢ هـ.
٢٢٨- المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقس سواجارت: تقديم د/ أحمد حجازي السقا، طبعة مكتبة زهران– القاهرة.
٢٢٩- مناظرة الهند الكبرى في علم مقارنة الأديان بين العلامة رحمة الله الهندي والقس بفندر: تقديم د/ أحمد حجازي السقا، مكتبة الإيمان بالمنصورة.
٢٣٠- المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الإنجيل: لأبي الفضل المالكي المسعودى ت ٩٤٢ هـ – تحقيق أ. د/ بكر زكى عوض، مطبعة أولاد عثمان بالقاهرة.
٢٣١- موقف ابن تيمية من النصرانية: د/مريم عبد الرحمن عبد الله زامل، جامعة أم القرى– مكة المكرمة– طبعة ١٤١٧ هـ –١٩٩٧ م.

٢٣٢- النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام: ل. م / أحمد عبد الوهاب، طبعة مكتبة وهبة ت الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ- ١٩٩٢ م.
٢٣٣- انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح: أ/ أحمد زكى، طبعة دار الحداثة للطبع والنشر- الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.
٢٣٤- النصرانية تاريخًا وعقيدة وكتبًا ومذاهب "دراسة وتحليل ومناقشة": د/ مصطفي شاهين، طبعة دار الاعتصام، بدون.
٢٣٥- النصرانية والإسلام: المستشار/ عزت محمَّد الطهطاوى، طبعة مكتبة النور للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م.
٢٣٦- النصرانية من التوحيد إلى التثليث: د/ محمَّد أحمد الحاج، طبعة دار القلم -دمشق-الدار الشامية بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
٢٣٧- إنجيل برنابا: ترجمة : خليل سعادة، تقديم : محمد رشيد رضا، القاهرة : دار الفتح للإعلام العربي.

٢٣٨- كتب أخرى مرتبة بحسب أسماء الأعلام

٢٣٩- إبراهيم خليل أحمد(القس إبراهيم فيلوبوس سابقًا) : محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، مكة المكرمة : المكتبة التجارية، ١٤٠٩هـ.
٢٤٠- ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي) : المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق :كمال الحوت، الرياض : مكتبة الرشد، ط الأولى ، ١٤٠٩.
٢٤١- ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق : محمود فاخوري – محمد رواس قلعه جي بيروت : دار المعرفة، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩
٢٤٢- ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط بيروت — الكويت: مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة عشر ، ١٩٨٦م،
٢٤٣- ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي) : فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٧٩هـ .
٢٤٤- ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد الظاهري) :جوامع السيرة ، تحقيق : إحسان عباس، القاهرة: دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٠٠ م
٢٤٥- ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد الظاهري): الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت
٢٤٦- ابن رجب (أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي): جامع العلوم والحكم، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ.
٢٤٧- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري): الطبقات الكبرى، تحقيق : إحسان عباس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٦٨ م.
٢٤٨- ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت : دار الآفاق، ١٩٧٧م.
٢٤٩- ابن عبد البر: الاستذكار، تحقيق : سالم محمد عطا ، محمد علي معوض، بيروت : دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ - ٢٠٠٠
٢٥٠- ابن عساكر (علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي):تاريخ دمشق، تحقيق: علي شيري، دمشق : دار الفكر . د.ت
٢٥١- ابن كثير(إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، بيروت:مكتبة المعارف، د. ت.
٢٥٢- ابن كثير(إسماعيل بن عمر): السيرة النبوية، بيروت: مكتبة المعارف،د. ت.
٢٥٣- ابن ماجه (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني): سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت : دار الفكر، د.ت .
٢٥٤- أبو الحسن علي الحسني الندوي: السيرة النبوية، دمشق : دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦٢.
٢٥٥- أبو الحسن علي الحسني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، القاهرة : مكتبة السنة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢٥٦- أبو بكر جابر الجزائري : هذا الحبيب محمد رسول الله يا محب، القاهرة : المكتبة التوفيقية، د. ت.
٢٥٧- أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي) : سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت : دار الفكر ، د.ت.
٢٥٨- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ر الكتاب العربي — بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥هـ.
٢٥٩- أبو يعلى (أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي) : مسند أبي يعلى، تحقيق : حسين سليم أسد، دمشق :دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤.
٢٦٠- آتين دينيه وسليمان الجزائري : محمد رسول الله، ترجمة : عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، القاهرة : الشركة العربية، الطبعة الثالثة . ١٩٥٩ م،
٢٦١- أحمد الحجي الكردي : بحوث في علم أصول الفقه، د. ط .
٢٦٢- أحمد أمين : التكامل في الإسلام، د. م : دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، د.ت .
٢٦٣- أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني : المسند، القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت .
٢٦٤- أحمد ديدات: ماذا يقول الكتاب المقدس و الغرب عن محمدﷺ، الطبعة الأولى ، القاهرة: الدار المصرية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ.
٢٦٥- أحمد راتب عرموش: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، بيروت: دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
٢٦٦- أحمد سوسة : في طريقي إلى الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م
٢٦٧- أحمد عبد الرحمن إبراهيم : الفضائل الخلقية في الإسلام، القاهرة : دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .
٢٦٨- أحمد فريد : وقفات تربوية مع السيرة النبوية، الأسكندرية : دار ابن خلدون، د. ت.
٢٦٩- آرثر ستانلي تريتون: أهل الذمة في الإسلام ، طبعة لندن ، ١٩٥١ م.
٢٧٠- آرلونوف : مقالة "النبي محمد "، مجلة الثقافة الروسية ، ج ٧ ، عدد ٩..
٢٧١- أرنولد توينبي: الإسلام والعرب والمستقبل، ترجمة: نبيل صبحي الطويل، د.ط.
٢٧٢- أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة، الرياض : مكتبة العبيكان، ط٥، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م
٢٧٣- أكرم ضياء العمري ، موقف الاستشراق من السنة والسيرة ، بحث منشور في مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ، ١٩٩٥م .
٢٧٤- الألباني: تمام المنة في التعليق على فقه السنة، المكتبة الإسلامية ، دار الراية للنشر، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ .
٢٧٥- الألباني: مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، بيروت : المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥م.
٢٧٦- الألباني إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(٨ مجلدات)، بيروت : المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م.
٢٧٧- الألباني: صحيح الترغيب والترهيب، الرياض: مكتبة المعارف – الطبعة : الخامسة.
٢٧٨- الألباني: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، بيروت : المكتب الإسلامي، د. ت.
٢٧٩- الألباني ضعيف الترغيب والترهيب، الرياض : مكتبة المعارف، د. ت.
٢٨٠- الألباني ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة – ١٤١٣-١٩٩٣م.
٢٨١- الألباني: تخريج أحاديث كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، بيروت : المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ،١٤٠٥ هـ- ١٩٨٤ م.
٢٨٢- البيهقي (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى): شعب الإيمان، بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ.
٢٨٣- التبريزي ، مشكاة المصابيح، تحقيق: تحقيق محمد ناصر الدين الألباني بيروت : المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة – ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.
٢٨٤- الدارمي: سنن الدارمي، تحقيق : فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، بيروت : دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧.
٢٨٥- السهيلي: الروض الأنف، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ،القاهرة: ١٩٦٧ م.
٢٨٦- السيد سابق: إسلامنا ، القاهرة: الفتح للإعلام العربي، د. ت .
٢٨٧- الغزالي (محمد بن محمد أبو حامد) : المستصفى في علم الأصول، تحقيق : محمد عبد السلام عبد الشافي ، بيروت: دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٣.
٢٨٨- الكتاب المقدس . طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
٢٨٩- الكولونيل بودلي: حياة محمد، لندن، ١٩٤٦م.

٢٩٠- المتقي الهندي (علي بن حسام الدين): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩ م .
٢٩١- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف الكويتية، الكويت.
٢٩٢- الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر) : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت:دار الفكر، ١٤١٢ هـ.
٢٩٣- إميل درمنغم : حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة : دار إحياء الكتب، الطبعة الثانية، ١٩٤٩ م .
٢٩٤- إميل درمنغم :حياة محمد، ترجمة : محمد عادل زُعَيْتِر، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م
٢٩٥- آن بيزينت: حياة وتعاليم محمد ، د. م: دار مادرس للنشر، ١٩٣٢م.
٢٩٦- أنجوغو أمبكي صمب : أروع القيم الحضارية في سيرة سيد البرية، السنغال : مطبعة دار الكتاب يمبل دكار،١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
٢٩٧- برهان غليون ومحمد سليم العوا: النظام السياسي في الاسلام، بيروت – دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤.
٢٩٨- توماس كارلايل : الأبطال وعبادة البطل والبطولات في التاريخ ، ترجمة : محمد السباعي. كتاب الهلال، القاهرة: العدد ٣٢٦ صفر ١٣٩٨
٢٩٩- جاك ريسلر :الحضارة العربية، ترجمة : خليل أحمد خليل، عويدات للطباعة والنشر.د.ت
٣٠٠- جان باغوت غلوب : الفتوحات العربية الكبرى، د .ط
٣٠١- جمعة علي الخولي: معاملة الرسول لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، الرياض: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧، ٢٠٠٣
٣٠٢- جورج حنا : قصة الإنسان، طبعة بيروت- دار الثقافة، ١٩٥٩م.
٣٠٣- جورج سارتون : الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، تعريب عمر فروخ، بيروت : مكتبة المعارف، ١٩٥٢ م.
٣٠٤- جوستاف لوبون: الدين والحياة، ترجمة عادل زعيتر، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.
٣٠٥- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.
٣٠٦- جون وليام دريبر : تاريخ التطور الفكري الأوروبي، المجلد الأول، طبعة لندن ١٨٧٥م.
٣٠٧- حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير ٢٠٠٧
٣٠٨- حسين محمد يوسف : سيد الدعاة –صلى الله عليه وسلم، القاهرة: دار الإنسان ، القاهرة ط. ١٣٩٩هـ.
٣٠٩- حكمت بشير ياسين، عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٣١٠- خالد محمد خالد : رجال حول الرسول، القاهرة : دار المقطم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
٣١١- دانييل بريفولت:نشأة الإنسانية، ترجمة: سهيل حكيم ، دمشق: وزارة الثقافة السورية.د.ت.
٣١٢- ديسون : محمد بن عبد الله: تعريب عمر أبو النصر، د . م، ١٩٣٤م
٣١٣- ديفيد بنجامين (عبد الأحد داود): محمد في الكتاب المقدس، ترجمة : فهمي شما، مراجعة : أحمد محمد الصديق . مطابع الدوحة الحديثة ، د. ت.
٣١٤- ديوان شند شرمة: أنبياء الشرق، طبعة كلكتا ،١٩٣٥م.
٣١٥- رالف لنتون : شجرة الحضارة، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة: مكتبة الإنجلومصريّة، د.ت.
٣١٦- راوية أحمد عبد الكريم الظهار: المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام: الرياض: جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٣١٧- رشدي فكار: نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع خلال القرن الرابع عشر الهجري، القاهرة : مكتبة وهبة، ط ١، ١٩٨٠م، ص ٣١.
٣١٨- رقية طه جابر العلواني : فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، الرياض: جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٣١٩- روجيه جارودي: دعوة الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، القاهرة / بيروت : الوطن العربي، ١٩٨٤ م
٣٢٠- رودي بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة : مصطفى ماهر – القاهرة ١٩٦٧م.
٣٢١- زيد بن عبد الكريم بن عبد الكريم الزيد : التسامح في الإسلام، الرياض : جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، إصدارات الجائزة، ١٤٢٦هـ.
٣٢٢- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب : فؤاد حسنين علي ، القاهرة: دار المعارف .د.ت
٣٢٣- ستانورد كب : المسلمون في تاريخ الحضارة، الرياض : الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٣٠٥هـ ١٩٨٥م .
٣٢٤- ستيفن ونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني ، بيروت: مكتبة الحياة، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.
٣٢٥- سيد قطب : معركة الإسلام والرأسمالية ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م
٣٢٦- سيد قطب: في ظلال القرآن، القاهرة : درا الشروق، ط ١٦. ٢٠٠٠م
٣٢٧- سير توماس أرنولد (إشراف) : تراث الإسلام، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢.
٣٢٨- شاخت وبوزورت : تراث الإسلام ، ترجمة : د.حسين مؤنس وإحسان صدقي، عالم المعرفة، الجزء الأول، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والعلوم الآداب.
٣٢٩- شوقي أبو خليل: الإسلام في قفص الاتهام، دمش: دار الفكر ، الطبعة الثانية. د.ت.
٣٣٠- صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم، المنصورة : دار الوفاء : ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٣٣١- عباس محمود العقاد : إسلاميات ، القاهرة : دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.
٣٣٢- عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، القاهرة : المكتبة العصرية- الدار النموذجية، ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٣٣٣- عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة :كتاب الهلال، د.ت.
٣٣٤- عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام (سلسلة كتاب الهلال/ ١٨٩) القاهرة: دار الهلال. ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م .
٣٣٥- عبد الحسين شعبان :ثقافة حقوق الإنسان، رابطة كأوا للثقافة الكردية، بيروت ، الطبعة الأولى،٢٠٠١.
٣٣٦- عبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله: كمال الدين الإسلامي وحقيقته ومزاياه وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة السعودية، ط/١ ١٤١٨هـ
٣٣٧- عبد الله محمد الرشيد: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، دمشق : دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٠م.
٣٣٨- عبد الله ناصح علوان : معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، القاهرة : دار السلام ، ط ٢، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م ، ص ١٥٥
٣٣٩- عبد الله نجيب سالم : مواقف إنسانية في السيرة النبوية، بيروت : دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
٣٤٠- عبد المجيد بن عزيز الزنداني وآخرون : البرهان شرح كتاب الإيمان، د.م : طباعة مركز البحوث بجامعة الإيمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
٣٤١- عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، الكويت : دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
٣٤٢- عفيف عبد الفتاح طبارة : روح الدين الاسلامي، بيروت: مطبعة دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، ١٩٦٩م.
٣٤٣- علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، دار المعرفة للطباعة و النشر، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م
٣٤٤- علي محمد الصلابي : السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، القاهرة : مؤسسة اقرأ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م
٣٤٥- عماد الدين خليل : دراسة في السيرة، بيروت : مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .
٣٤٦- عماد الدين خليل : قالوا عن الإسلام ، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٣٤٧- فاطمة صالح الجارد : عناية السنة النبوية بحقوق الإنسان، الرياض جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٣٤٨- فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، القاهرة : دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٧م.
٣٤٩- فريد عبد الخالق : تأملات في الدين والحياة، القاهرة : دار التوزيع والنشر الإسلامية،الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٣٥٠- فيليب حتي : تاريخ العرب ، ترجمة : ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت ١٩٦٥ م
٣٥١- كارين أرمسترونج :سيرة النبي محمد ،ترجمة :فاطمة نصر، و محمد عناني، د.م: طبعة كتاب سطور ، شركة صحارى.د.ت .
٣٥٢- كونستانس جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله، تعريب : محمد التونجي، د. م : الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
٣٥٣- لايتنر : دين الإسلام ، ترجمة : عبدالوهاب سليم ، دمشق: المكتبة السلفية ، دمشق، ١٤٢٣هـ
٣٥٤- لورافيشيا فاغليري : دفاع عن الإسلام: ، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت : دار العلم، ١٩٦٠م.
٣٥٥- لويس سيديو : خلاصة تاريخ العرب العام: إشرف علي مبارك باشا ، القاهرة، د.ت
٣٥٦- مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة : عفيف دمشقية، بيروت: دار الآداب، ١٩٨٠ م
٣٥٧- محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، القاهرة: مطبعة الاستقلال، الطبعة السابعة، ١٩٦٠ .
٣٥٨- محمد الغزالي : فقه السيرة، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م
٣٥٩- محمد الغزالي: تأملات في الدين والحياة، الإسكندرية : دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠.
٣٦٠- محمد الغزالي: خلق المسلم، الإسكندرية : دار الدعوة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ- ١٩٩٠.
٣٦١- محمد أمين حسن : خصائص الدعوة الإسلامية، الأردن : مكتبة المنار، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م،
٣٦٢- محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي: مسند الشهاب، بيروت : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ هـ— ١٩٨٦م
٣٦٣- محمد بن عبد الله السحيم: أعظم إنسان في الكتب السماوية ، القاهرة: منشورات مكتبة الخانجي ، د.ت.
٣٦٤- محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، الرياض: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٣٦٥- محمد حميد الله : الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت : دار النفائس، الطبعة السابعة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
٣٦٦- محمد حسام الدين الخطيب: نبي المسلمين، ودين الإسلام، والحضارة الإسلامية، المشاركة الفائزة بالجائزة الثانية بمسابقة موقع الألوكة ٢٠٠٦ م
٣٦٧- محمد رجب البيومي: مجلة الحج، العدد ١٢ السنة ٨٨.
٣٦٨- محمد سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة، القاهرة : دار السلام ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م
٣٦٩- محمد شريف الشيباني : الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، د.ط.
٣٧٠- محمد عبد القادر أبو فارس : السيرة النبوية دراسة تحليلية، عمان : دار الفرقان، الطبعة الأولى : ١٤٢٨هـ – ١٩٩٧م .
٣٧١- محمد عبد القادر أبو فارس: النظام السياسي في الإسلام، الكويت: الاتحاد الإسلامي العالمي، ١٩٨٤.
٣٧٢- محمد عزت الطهطاوي: محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، القاهرة : مكتبة النور، د. ت.
٣٧٣- محمد علي الخطيب: رسول الله الرحمة المهداة، البحث الفائز بالجائزة الرابعة بمسابقة موقع الألوكة: (انصر نبيَّك وكن داعياً)، فرع البحث العلمي ٢٠٠٦ م
٣٧٤- محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية، ترجمة: لينا عبد القدوس أبو صالح، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩
٣٧٥- محمد مسعد ياقوت : " دور النبي في تحضر العرب"، المقالة الفائزة بمسابقة " انصر نبيك وكن داعياً " من الموقع الإسلامي " الألوكة " ٢٠٠٦.
٣٧٦- محمد مسعد ياقوت: حوار الحضارات: الموجود والمفقود والمنشود، القاهرة: منظمة الكتاب الأفريقيين والأسيويين، ٢٠٠٥م. مسابقة مبارك العالمية للسلام.
٣٧٧- محمد مسعد ياقوت : دور الإسلام في مشروع حوار الحضارات، مجلة المجتمع، الكويت، العدد1677، بتاريخ ٢٠٠٥/١١/١٩
٣٧٨- محمد مسعد ياقوت :الإسلام والغرب .. حوار وصدام، جريدة الأسرة العربية، العدد ٥٩، بتاريخ : ١٤\١١\٢٠٠٥م.
٣٧٩- محمد مصطفى الزحيلي: التدرج في التشريع والتطبيق في الشرعية الإسلامية، الكويت: ادارة البحوث والدراسات ، العدد ١٤، ٢٠٠٧م.
٣٨٠- محمود شيت خطاب : الرسول القائد، بيروت : دار الفكر، الطبعة السادسة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م
٣٨١- ممدوح إبراهيم الطنطاوي : أخلاقيات الحرب في الإسلام، مجلة الجندي المسلم : العسكرية الإسلامية العدد ١١٢.
٣٨٢- منير محمد الغضبان : المنهج الحركي للسيرة النبوية، المنصورة : الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .
٣٨٣- موسوعة تاريخ الحضارات العام، ترجمة: فريد م. داغر، فؤاد ج. أبو ريحان، إشراف: موريس كروزيه، عويدات للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م.
٣٨٤- مولانا محمد علي : حياة محمد وسيرته، ترجمة : منير البعلبكي، بيروت: دارالعلم للملايين،١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م
٣٨٥- مونتجمري وات : محمد في المدينة، ترجمة : شعبان بركات ، بيروت: منشورات المكتبة العصرية ، د. ت
٣٨٦- مونتجمري وات : محمد في مكة ، ترجمة: شعبان بركات ، بيروت: منشورات المكتبة العصرية ، د. ت
٣٨٧- مونتجمري وات :تأثير الإسلام في أوربا في العصر الوسيط. ترجمة: حسين أحمد أمين، بعنوان "فضل الإسلام على الحضارة الغربية" دار الشروق. بيروت.
٣٨٨- مونتجمري وات:الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة : عبد الرحمن عبد الله، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م
٣٨٩- ناصر بن سليمان العمر : الوسطية في ضوء الكتاب والسنة، د.ط
٣٩٠- نصري سلهب: في خطى محمد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٠م
٣٩١- نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٩ م.
٣٩٢- هـ. أ. ر. جب : المحمدية ، طبعة لندن ، ١٩٥٣ م.
٣٩٣- هربرت جورج ولز :معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٦٧م
٣٩٤- هنري ماسيه : الإسلام، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٨م.
٣٩٥- ول ديورانت :قصة الحضارة ، بيروت : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٣٩٦- ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله : معجم البلدان، بيروت : دار الفكر، د.ت .
٣٩٧- يوسف القرضاوي : الإسلام و العلمانية وجهاً لوجه ، القاهرة: دار الصحوة للنشر و التوزيع ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧، ط١
٣٩٨- يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ، القاهرة، مكتبة وهبة،الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م
٣٩٩- يوسف القرضاوي : الوسطية ودور الإعلام في إبرازها، بحث مقدم لندوة اقرأ الفقهية (رمضان ١٤٢٧هـ)
٤٠٠- يوسف القرضاوي : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، القاهرة : دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م، ص ٤٠ ، ٤١ .
٤٠١- يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة: القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة التاسعة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م .
٤٠٢- يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، القاهرة : مكتبة وهبة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

من كتب المؤلف:

١- إنسانية المرأة وقضاياها بين الإسلام والأديان ودعاة التحرّر مناقشة الشبهات.

٢- السنة النبوية وحي رباني-مناقشة لدعاوى أعداء السنة.

٣- التكامل في دلائل نبوة النبي الأمي خاتم النبيين.

٤- رد دعاوى وأباطيل عن حادثة الإسراء والمعراج.

٥- مثالية حروب خاتم النبيين وخرافة الاحتلال الإسلامي.

٦- تنزيه القرآن عن التهم والشبهات.

٧- القرآن في مواجهة التهم والشبهات-يعلوا ولا يعلى عليه.

٨- أخلاقيات ووصايا خاتم النبيين في الحروب.

يمكن تحميلها عن موقعي صيد الفوائد موقع مكتبة نور :

https://www.noor-book.com/كتب-محمد-أحمد-صبرة-pdf

http://www.saaid.net/book/search.php?do=all&u=%D5%C8%D1%C9